المفسِّرون والقرآن
(١)

المفسِّرون
والتفسير التحليلي للقرآن

عرض وتهذيب لما ورد في تفاسير المدارس الإسلامية حول المعاني القرآنية

٣٨

أ. د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار للنشر والتوزيع

هذا الكتاب

يحاول هذا الكتاب التعرف على ما ذكره المفسّرون ـ بحسب مدارسهم المختلفة، وبحسب التسلسل التاريخي ـ من المعاني التي فُسّرت بها آيات القرآن الكريم ـ وبحسب الترتيب المصحفي ـ من خلال:

١. التعرف على معاني مفرداتها، وما تحتمله من معان.

٢. أو من خلال تراكيبها النحوية، وما تحتمله كذلك من المعاني.

٣. أو ما قد ترشد إليه علوم البلاغة من البيان والمعاني ونحوها من المعاني القرآنية.

وبذلك، فإنه يحاول استيعاب كل ما ذكره المفسّرون من الوجوه التي تحتملها كل لفظة أو آية قرآنية، من خلال تحليلها اللغوي، وبجوانبه المختلفة، بالإضافة إلى علاقة ذلك بما ورد في الأحاديث والآثار، أو بما يتبناه المفسّر من رؤية عقدية أو فقهية أو ثقافة علمية.

ولهذا اعتمدنا ما ورد في المصادر التفسيرية الكبرى للطوائف المختلفة، وفي العصور المختلفة ـ ابتداء من العصر الأول إلى هذا العصر ـ وقد انتقيناها من خلال الرجوع لكل التفاسير المعروفة، والتي رأينا أغلبها يكرر ما سبق ذكره، أو يختصر الكلام في الآيات الكريمة، ولذلك رأينا أن ما انتقيناه منها قد يغني عن غيرها.

وهذا الانتقاء مؤسّس على الاهتمام بطائفة المفسر، وعصره، وأسلوبه في تفسيره، ومدى اهتمام طائفته أو الأمّة به، ومدى توسعه في تناول المواضيع المختلفة، ولذلك استبعدنا التفاسير المختصرة جدا إلا تلك التي قد نرى من خلالها رؤية طائفة معينة.

وقد رتبنا التفاسير بحسب التسلسل الزمني، لنرى مدى تأثر بعضها ببعض، بالإضافة إلى التعرف على الجدل الحاصل بينها، فالكثير من التفاسير المتأخرة تتناول بالعرض أو النقد أو التفصيل التفاسير السابقة لها.

وأهم ما حاولنا القيام به في هذا الكتاب ـ كما في السلسلة جميعا ـ هو تبسيط وتيسير الوصول إلى المعلومة من هذه المصادر التفسيرية، وذلك من خلال اعتماد المناهج الحديثة من التفكيك والترتيب وضم النظير إلى نظيره، ونحو ذلك.

المفسّرون

والتّفسير التحليلي للقرآن

عرض وتهذيب لما ورد في تفاسير المدارس الإسلامية حول المعاني القرآنية

الجزء ٣٨

أ. د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

١٤٤٦ ـ ٢٠٢٥

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

٨٧. الدعوة والهداية والضلال ٧
أبو بكر: ٧
معاذ: ٨
ابن مسعود: ٨
كعب: ٩
حذيفة: ١٠
ابن عباس: ١٠
الخدري: ١١
ابن عمر: ١١
جبير: ١١
ابن المسيب: ١٢
ابن جبير: ١٢
البصري: ١٢
مكحول: ١٣
السدي: ١٣
ابن حيان: ١٣
مقاتل: ١٣
ابن زيد: ١٤
الرسّي: ١٤
المرتضى: ١٤
الماتريدي: ١٥
العياني: ١٦
الطوسي: ١٧
الجشمي: ١٨
الطَبِرسي: ٢٠
ابن الجوزي: ٢٢
الرَّازي: ٢٤
القرطبي: ٢٧
المنصور بالله: ٢٩
الشوكاني: ٣٠
أَطَّفِّيش: ٣١
القاسمي: ٣٢
رضا: ٣٥
المراغي: ٣٧
سيّد: ٣٧
الخطيب: ٣٩
ابن عاشور: ٤١
أبو زهرة: ٤٣
مُغْنِيَّة: ٤٥
الطباطبائي: ٤٥
الحوثي: ٥٢
فضل الله: ٥٣
الشيرازي: ٥٥
٨٨. الوصية وأحكام الشهادة عليها ٥٨
ابن مسعود: ٥٨
الخراساني: ٥٨
ابن عباس: ٥٩
السلماني: ٦١
شريح: ٦١
ابن يعمر: ٦٢
ابن المسيب: ٦٢
أبو العالية: ٦٣
ابن جبير: ٦٣
النخعي: ٦٣
الشعبي: ٦٤
مجاهد: ٦٤
مجاهد: ٦٥
عكرمة: ٦٥
ابن سيرين: ٦٦
البصري: ٦٦
الباقر: ٦٧
قتادة: ٦٨
زيد: ٦٨
الزهري: ٦٨
السدي: ٧٠
ابن أسلم: ٧٢
الكلبي: ٧٢
الصادق: ٧٢
ابن حيان: ٧٤
مقاتل: ٧٥
ابن زيد: ٧٩
الكاظم: ٨٠
الرسّي: ٨٠
المرتضى: ٨١
الماتريدي: ٨١
العياني: ٨٥
الديلمي: ٨٧
الماوردي: ٨٨
الطوسي: ٩١
الجشمي: ٩٩
الطَبِرسي: ١٠٨
ابن الجوزي: ١١٨
الرَّازي: ١٢٤
القرطبي: ١٣١
الشوكاني: ١٤٣
أَطَّفِّيش: ١٤٧
القاسمي: ١٥٤
رضا: ١٦٢
المراغي: ١٧٩
سيّد: ١٨١
الخطيب: ١٨٤
ابن عاشور: ١٨٨
أبو زهرة: ٢٠٢
مُغْنِيَّة: ٢٠٩
الطباطبائي: ٢١١
الحوثي: ٢١٥
فضل الله: ٢١٨
الشيرازي: ٢٢٢
٨٩. مساءلة الرسل والمسيح ٢٢٦
ابن عباس: ٢٢٦
مجاهد: ٢٢٨
البصري: ٢٢٨
الباقر: ٢٢٩
قتادة: ٢٢٩
زيد: ٢٢٩

السدي: ٢٢٩
ابن أسلم: ٢٣٠
الكلبي: ٢٣٠
الصادق: ٢٣٠
مقاتل: ٢٣١
ابن جريج: ٢٣٣
ابن إسحاق: ٢٣٣
الرضا: ٢٣٣
الداراني: ٢٣٤
الرسّي: ٢٣٤
الهادي إلى الحق: ٢٣٤
المرتضى: ٢٣٥
الماتريدي: ٢٣٦
العياني: ٢٣٩
الديلمي: ٢٤٠
الماوردي: ٢٤١
الطوسي: ٢٤٣
الجشمي: ٢٤٧
الطَبَرِسي: ٢٥٢
ابن الجوزي: ٢٥٧
الرَّازي: ٢٥٨
القرطبي: ٢٦٤
الشوكاني: ٢٦٦
أَطَّفَيِّش: ٢٦٨
القاسمي: ٢٧١
رضا: ٢٧٤
المراغي: ٢٨١
سيّد: ٢٨٣
الخطيب: ٢٨٦
ابن عاشور: ٢٨٨
أبو زهرة: ٢٩٢
مُغْنِيَّة: ٣٠٠
الطباطبائي: ٣٠٣
الحوثي: ٣٠٩
فضل الله: ٣١١
الشيرازي: ٣١٩
٩٠. الحواريون والمائدة ٣٢٣
كعب: ٣٢٣
سلمان: ٣٢٣
عمار: ٣٢٦
عائشة: ٣٢٧
ابن عباس: ٣٢٧
السلمي: ٣٢٨
ابن العاص: ٣٢٨
ابن جبير: ٣٢٨
مجاهد: ٣٢٩
عكرمة: ٣٢٩
البصري: ٣٢٩
العوفي: ٣٣٠
الباقر: ٣٣٠
ابن منبه: ٣٣٠
قتادة: ٣٣١
زيد: ٣٣١
السدي: ٣٣١
الكلبي: ٣٣٢
الصادق: ٣٣٢
ابن جريج: ٣٣٣
مقاتل: ٣٣٣
الثوري: ٣٣٤
الكاظم: ٣٣٥
الرضا: ٣٣٥
المرتضى: ٣٣٥
الماتريدي: ٣٣٦
العياني: ٣٣٩
الديلمي: ٣٤٠
الماوردي: ٣٤١
الطوسي: ٣٤٦
الجشمي: ٣٥١
الطَبَرِسي: ٣٥٨
ابن الجوزي: ٣٦٦
الرَّازي: ٣٧١
القرطبي: ٣٧٧
الشوكاني: ٣٨٣
أَطَّفَيِّش: ٣٨٥
القاسمي: ٣٩١
رضا: ٣٩٥
المراغي: ٤٠٦
سيّد: ٤٠٨
الخطيب: ٤١١
ابن عاشور: ٤١٦
أبو زهرة: ٤٢٣
مُغْنِيَّة: ٤٢٦
الطباطبائي: ٤٢٨
الحوثي: ٤٤١
فضل الله: ٤٤٣
الشيرازي: ٤٤٦
٩١. المسيح وجوابه عن شرك قومه ٤٥١
الأشعري: ٤٥١
أبو ذر: ٤٥١
ابن مسعود: ٤٥٢
أبو هريرة: ٤٥٢
جابر: ٤٥٣
ابن عمرو: ٤٥٣
ابن عباس: ٤٥٣
طاووس: ٤٥٤
الباقر: ٤٥٤
قتادة: ٤٥٥
السدي: ٤٥٥
الصادق: ٤٥٦
ابن جريج: ٤٥٦
مقاتل: ٤٥٦
الرسّي: ٤٥٨
المرتضى: ٤٦٠
الماتريدي: ٤٦٠
العياني: ٤٦٣
الديلمي: ٤٦٣
الماوردي: ٤٦٤
الطوسي: ٤٦٦
الجشمي: ٤٧٢
الطَبَرِسي: ٤٧٧
ابن الجوزي: ٤٨١

الرَّازي: ٤٨٣
القرطبي: ٤٨٧
الشوكاني: ٤٩١
أَطَّفِّيش: ٤٩٣
القاسمي: ٤٩٦
رضا: ٥٠١
المراغي: ٥١١
سيّد: ٥١٥
الخطيب: ٥١٧
ابن عاشور: ٥١٩
أبو زهرة: ٥٢٣
مُغْنِيَّة: ٥٣٠
الطباطبائي: ٥٣١
الحوثي: ٥٤٠
فضل الله: ٥٤٢
الشيرازي: ٥٤٦
٩٢. الصادقون والجنات والرضوان والفوز ٥٤٩
الخراساني: ٥٤٩
ابن عباس: ٥٤٩
أنس: ٥٤٩
ابن جبير: ٥٤٩
الباقر: ٥٥٠
قتادة: ٥٥١
السدي: ٥٥٢
الكلبي: ٥٥٢
مقاتل: ٥٥٢
ابن إسحاق: ٥٥٣
الماتريدي: ٥٥٣
الماوردي: ٥٥٤
الطوسي: ٥٥٥
الجشمي: ٥٥٦
الطَبرِسي: ٥٥٨
ابن الجوزي: ٥٦٠
الرَّازي: ٥٦٠
القرطبي: ٥٦٣
الشوكاني: ٥٦٤
أَطَّفِّيش: ٥٦٥
القاسمي: ٥٦٧
رضا: ٥٦٧
المراغي: ٥٧٠
سيّد: ٥٧١
الخطيب: ٥٧٢
ابن عاشور: ٥٧٣
أبو زهرة: ٥٧٥
مُغْنِيَّة: ٥٧٧
الطباطبائي: ٥٧٨
الحوثي: ٥٨٢
فضل الله: ٥٨٣
الشيرازي: ٥٨٤
سورة الأنعام ٥٨٧
١. رعاية الله لعباده وعلمه بهم ٥٨٨
كعب: ٥٨٨
علي: ٥٨٨
أبو هريرة: ٥٨٩
الخراساني: ٥٩٠
ابن عباس: ٥٩٠
ابن أبزى: ٥٩١
ابن عمرو: ٥٩١
ابن جبير: ٥٩١
الضحاك: ٥٩١
ابن معدان: ٥٩٢
مجاهد: ٥٩٢
عكرمة: ٥٩٣
البصري: ٥٩٣
الباقر: ٥٩٣
ابن منبّه: ٥٩٤
قتادة: ٥٩٤
زيد: ٥٩٥
السّدّيّ: ٥٩٦
الصادق: ٥٩٧
مقاتل: ٥٩٨
ابن زيد: ٥٩٩
الكاظم: ٦٠٠
الرسّي: ٦٠٠
الماتريدي: ٦٠١
العياني: ٦٠٤
الديلمي: ٦٠٤
الماوردي: ٦٠٥
الطوسي: ٦٠٧
الجشمي: ٦١٠
الطَبرِسي: ٦١٦
ابن الجوزي: ٦٢٠
الرَّازي: ٦٢٢
القرطبي: ٦٣٧
الشوكاني: ٦٤٢
أَطَّفِّيش: ٦٤٥
القاسمي: ٦٥٠
رضا: ٦٥٥
المراغي: ٦٦٢
سيّد: ٦٦٤
الخطيب: ٦٧١
ابن عاشور: ٦٧٩
أبو زهرة: ٦٨٦
مُغْنِيَّة: ٦٩١
الطباطبائي: ٦٩٣
الحوثي: ٧٠١
فضل الله: ٧٠٣
الشيرازي: ٧٠٩
٢. آيات الله والمعرضون عنها ٧١٤
قتادة: ٧١٤
زيد: ٧١٤
مقاتل: ٧١٤
الماتريدي: ٧١٥
العياني: ٧١٦
الطوسي: ٧١٦
الجشمي: ٧١٧
الطَبرِسي: ٧١٨
ابن الجوزي: ٧١٩
الرَّازي: ٧١٩
القرطبي: ٧٢١

الشوكاني: ٧٢١
أَطَّفِّيش: ٧٢٢
القاسمي: ٧٢٣
رضا: ٧٢٤
المراغي: ٧٢٩
سيّد: ٧٣٠
الخطيب: ٧٣١
ابن عاشور: ٧٣٢
أبو زهرة: ٧٣٤
مُغْنِيَّة: ٧٣٦
الطباطبائي: ٧٣٧
الحوثي: ٧٣٨
فضل الله: ٧٣٩
الشيرازي: ٧٤١
٣. سنن التمكين والهلاك ٧٤٣
ابن عباس: ٧٤٣
أبو مالك: ٧٤٣
البصري: ٧٤٣
قتادة: ٧٤٣
زيد: ٧٤٤
الكلبي: ٧٤٤
مقاتل: ٧٤٤
المرتضى: ٧٤٥
الماتريدي: ٧٤٥
الطوسي: ٧٤٦
الجشمي: ٧٤٨
الطَبِرسي: ٧٥٠
ابن الجوزي: ٧٥١
الرَّازي: ٧٥٢
القرطبي: ٧٥٤
الشوكاني: ٧٥٥
أَطَّفِّيش: ٧٥٦
القاسمي: ٧٥٩
رضا: ٧٦٠
المراغي: ٧٦٣
سيّد: ٧٦٤
الخطيب: ٧٦٧
ابن عاشور: ٧٦٨
أبو زهرة: ٧٧٢
مُغْنِيَّة: ٧٧٣
الطباطبائي: ٧٧٤
الحوثي: ٧٧٤
فضل الله: ٧٧٥
الشيرازي: ٧٧٨
٤. المعرضون عن آيات الله ولمس الكتاب ٧٨٠
ابن عباس: ٧٨٠
مجاهد: ٧٨٠
قتادة: ٧٨٠
السّدّيّ: ٧٨١
مقاتل: ٧٨١
الماتريدي: ٧٨١
الماوردي: ٧٨١
الطوسي: ٧٨٢
الجشمي: ٧٨٣
الطَبِرسي: ٧٨٤
ابن الجوزي: ٧٨٥
الرَّازي: ٧٨٥
القرطبي: ٧٨٧
الشوكاني: ٧٨٧
أَطَّفِّيش: ٧٨٨
القاسمي: ٧٨٩
رضا: ٧٨٩
المراغي: ٧٩١
سيّد: ٧٩٣
الخطيب: ٧٩٤
ابن عاشور: ٧٩٤
أبو زهرة: ٧٩٦
مُغْنِيَّة: ٧٩٨
الطباطبائي: ٧٩٩
الحوثي: ٧٩٩
فضل الله: ٧٩٩
الشيرازي: ٨٠٠
٥. المعرضون عن آيات الله وإنزال الملك ٨٠٢
ابن عباس: ٨٠٢
الضحاك: ٨٠٢
مجاهد: ٨٠٣
عكرمة: ٨٠٣
قتادة: ٨٠٣
السّدّيّ: ٨٠٤
الصادق: ٨٠٤
مقاتل: ٨٠٤
ابن إسحاق: ٨٠٥
ابن زيد: ٨٠٦
الرسّي: ٨٠٦
الماتريدي: ٨٠٧
العياني: ٨٠٩
الديلمي: ٨٠٩
الماوردي: ٨١٠
الطوسي: ٨١١
الجشمي: ٨١٢
الطَبِرسي: ٨١٤
ابن الجوزي: ٨١٦
الرَّازي: ٨١٧
القرطبي: ٨١٨
الشوكاني: ٨١٩
أَطَّفِّيش: ٨٢١
القاسمي: ٨٢٢
رضا: ٨٢٥
المراغي: ٨٣٢
سيّد: ٨٣٤
الخطيب: ٨٤١
ابن عاشور: ٨٤٣
أبو زهرة: ٨٤٧
مُغْنِيَّة: ٨٤٨
الطباطبائي: ٨٤٩
الحوثي: ٨٥٥
فضل الله: ٨٥٦
الشيرازي: ٨٥٧

٨٧. الدعوة والهداية والضلال

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٨٧] من سورة المائدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

أبو بكر:

روي عن أبي بكر (ت ١٣ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بذل، ولا أقر قوم المنكر بين أظهرهم إلا عمهم الله بعقاب)، وما بينكم وبين أن يعمكم الله بعقاب من عنده إلا أن تأولوا هذه الآية على غير أمر بمعروف، ولا نهي عن منكر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[1].

٢. روي أنّه قال: إن رسول الله ﷺ قال: (ستغربلون، حتى تصيروا في حثالة في قوم قد مرجت، عهودهم، وخربت أماناتهم)، قال: فكيف بنا؟ قال: (تعرفون ما تعرفون، وتنكرون ما تنكرون)، قال أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ في ذلك المجلس يقول: (ما ترك قوم القتال في سبيل الله إلا ضربهم الله بذل، ولا قر قوم المنكر بين أظهرهم إلا عمهم الله بعقاب)، وما بينكم وبين أن يعمكم الله بعقاب من عنده إلا أن تتلو هذه الآية على غير ما أنزلها الله عز وجل عليه على غير أمر بمعروف ولا نهي عن منكر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[2].

٣. عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، قال: خطب أبو بكر الناس، فكان في خطبته قال رسول

---

(١) عزاه السيوطي إلى ابن مردويه.

(٢) ابن أبي الدنيا في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. موسوعة الإمام ابن أبي الدنيا ٢/٢١٧.

الله ﷺ: (يا أيها الناس، لا تتكلوا على هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، إن الداعر[1]، ليكون في الحي فلا يمنعوه، فيعمهم الله بعقاب)[2].

٤. عن قيس، قال: قام أبو بكر، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب)[3].

٥. عن قيس بن أبي حازم، قال: صعد أبو بكر منبر رسول الله ﷺ، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنكم لتتلون آية من كتاب الله، وتعدونها رخصة، والله، ما أنزل الله في كتابه أشد منها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، والله، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليعمنكم الله منه بعقاب[4].

معاذ:

روي عن معاذ بن جبل (ت ١٨ هـ) أنه قال: يا رسول الله، أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، قال: (يا معاذ، مروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، فإذا رأيتم شحا مطاعا، وهوى متبعا، وإعجاب كل امرئ برأيه؛ فعليكم أنفسكم لا يضركم ضلالة غيركم، فهو من ورائكم أيام صبر، المتمسك فيها بدينه مثل القابض على الجمر، فللعامل منهم يومئذ مثل عمل أحدكم اليوم كأجر خمسين منكم)، قلت: يا رسول الله، خمسين منهم؟ قال: (بل خمسين منكم أنتم)[5]

ابن مسعود:

---

(١) رجل داعر: خبيث مفسد، النهاية (دعر).

(٢) عزاه السيوطي إلى ابن مردويه.

(٣) أحمد ١/١٧٧.

(٤) ابن جرير ٩/٥٢.

(٥) عزاه السيوطي إلى ابن مردويه.

روي عن عبد الله بن مسعود (ت ٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية، مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، مالم يكن من دون ذلك السوط والسيف، فإذا كان ذلك كذلك فعليكم أنفسكم[١].

٢. عن أبي العالية، قال: كانوا عند عبد الله بن مسعود، فوقع بين رجلين بعض ما يكون بين الناس، حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه، فقال رجل من جلساء عبد الله: ألا أقوم فآمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر؟ فقال آخر إلى جنبه: عليك بنفسك؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾، فسمعها ابن مسعود، فقال: مه، لم يجئ تأويل هذه الآية بعد، إن القرآن أنزل حيث أنزل، ومنه آي قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن، ومنه ما وقع تأويلهن على عهد رسول الله ﷺ، ومنه آي يقع تأويلهن بعد رسول الله ﷺ بسنين، ومنه آي يقع تأويلهن بعد اليوم، ومنه آي يقع تأويلهن عند الساعة؛ ما ذكر من أمر الساعة، ومنه آي يقع تأويلهن عند الحساب؛ ما ذكر من أمر الحساب والجنة والنار، فما دامت قلوبكم واحدة، وأهواؤكم واحدة، ولم تلبسوا شيعا، ولم يذق بعضكم بأس بعض؛ فمروا وانهوا، فإذا اختلفت القلوب والأهواء، وألبستم شيعا، وذاق بعضكم بأس بعض، فامرؤ ونفسه، فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية[٢].

٣. عن الحسن: أن عبد الله بن مسعود سأله رجل عن قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾، فقال: أيها الناس، إنه ليس بزمانها، فإنها اليوم مقبولة، ولكنه قد أوشك أن يأتي زمان تأمرون بالمعروف فيصنع بكم كذا وكذا ـ أو قال: فلا يقبل منكم ـ، فحينئذ ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[٣].

كعب:

روي عن كعب الأحبار (ت ٣٢ هـ) أنّه قال في قول الله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، قال: إذا هدمت كنيسة مسجد دمشق، فجعلوها مسجدا، وظهر لبس العصب[٤]، فحينئذ

---

(١) سعيد بن منصور (٨٤٤).

(٢) نعيم بن حماد، وابن جرير ٩/٤٦.

(٣) يحيى بن سلام ـ كما في تفسير ابن أبي زمنين ٢/٥١.

(٤) العَصْب: برود يمنية يُعصب غزلها، أي: يُجمع ويُشد ثم يُصبغ وينسج فيأتي موشيًا لبقاء ما عُصب منه أبيض لم يأخذه صِبغ.

تأويل هذه الآية[1].

حذيفة:

روي عن حذيفة بن اليمان (ت ٣٦ هـ) أنّه قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ إذا أمرتم بالمعروف، ونهيتم عن المنكر[2].

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: كتب رسول الله ﷺ إلى أهل هجر، وعليهم منذر بن ساوى، يدعوهم إلى الإسلام، فإن أبوا فليؤدوا الجزية، فلما أتاه الكتاب عرضه على من عنده من العرب واليهود والنصارى والصابئين والمجوس، فأقروا بالجزية، وكرهوا الإسلام، وكتب إليه رسول الله ﷺ: (أما العرب فلا تقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، وأما أهل الكتاب والمجوس فاقبل منهم الجزية)، فلما قرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ أسلمت العرب، وأما أهل الكتاب والمجوس فأعطوا الجزية، فقال منافقو العرب: عجبا من محمد، يزعم أن الله بعثه ليقاتل الناس كافة حتى يسلموا ولا يقبل الجزية إلا من أهل الكتاب، فلا نراه إلا قبل من مشركي أهل هجر ما رد على مشركي العرب! فأنزل الله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، يعني: من ضل من أهل الكتاب[3].

٢. روي أنّه قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، يقول: أطيعوا أمري، واحفظوا وصيتي[4].

٣. روي أنّه قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، يقول: إذا ما أطاعني العبد فيما أمرته من الحلال والحرام فلا يضره من ضل بعده إذا عمل بما أمرته به[5].

---

(١) ابن أبي حاتم ٤/١٢٢٧.

(٢) ابن جرير ٩/٥٠.

(٣) أورده الواحدي في أسباب النزول ص ٢١٢.

(٤) ابن جرير ٩/٤٩.

(٥) ابن جرير ٩/٤٩.

٤. روي أنّه قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ مالم يكن سيف، أو سوط[(١)].

الخدري:

روي عن أبي سعيد الخدري (ت ٧٤ هـ) أنّه قال: ذكرت هذه الآية عند رسول الله ﷺ؛ قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، فقال نبي الله ﷺ: (لم يجئ تأويلها، لا يجيء تأويلها حتى يهبط عيسى ابن مريم عليه السلام)[(٢)].

ابن عمر:

روي عن ابن عمر (ت ٧٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنه قيل له: لو جلست في هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه؛ فإن الله قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾، فقال: إنها ليست لي ولا لأصحابي؛ لأن رسول الله ﷺ قال: (ألا فليبلغ الشاهد الغائب)، فكنا نحن الشهود وأنتم الغيب، ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا، إن قالوا لم يقبل منهم[(٣)].

٢. روي أنّه جاءه رجل، فقال: يا أبا عبد الرحمن، نفر ستة كلهم قرأ القرآن، وكلهم مجتهد لا يألو، وهم في ذلك يشهد بعضهم على بعض بالشرك، فقال: لعلك ترى أني آمرك أن تذهب إليهم تقاتلهم، عظهم وانههم، فإن عصوك فعليك نفسك؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ حتى ختم الآية[(٤)].

جبير:

روي عن جبير بن نفير (ت ٨٠ هـ)، قال: كنت في حلقة فيها أصحاب النبي ﷺ، وإني لأصغر القوم، فتذاكروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقلت: أليس الله يقول: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾؟ فأقبلوا علي بلسان واحد، فقالوا: تنزع آية من القرآن لا تعرفها ولا تدري ما تأويلها! حتى تمنيت أني لم أكن

---

(١) ابن جرير ٩/٥٠.

(٢) عزاه السيوطي إلى ابن مردويه.

(٣) ابن جرير ٩/٤٤.

(٤) عزاه السيوطي إلى ابن مردويه.

تكلمت، ثم أقبلوا يتحدثون، فلما حضر قيامهم قالوا: إنك غلام حدث السن، وإنك نزعت آية لا تدري ما هي، وعسى أن تدرك ذلك الزمان؛ إذا رأيت شحا مطاعا، وهوى متبعا، وإعجاب كل ذي رأي برأيه؛ فعليك بنفسك، لا يضرك من ضل إذا اهتديت(١).

ابن المسيب:

روي عن سعيد بن المسيب (ت ٩٣ هـ) أنّه قال: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ إذا أمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر؛ لا يضرك من ضل إذا اهتديت(٢).

ابن جبير:

روي عن سعيد بن جبير (ت ٩٥ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: الآية في اليهود والنصارى، يعني: عليكم أنفسكم، لا يضركم من ضل من أهل الكتاب، فخذوا منهم الجزية، واتركوهم(٣).

٢. روي أنّه سئل عن هذه الآية، فقال: نزلت في أهل الكتاب، يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ﴾ من أهل الكتاب ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾(٤).

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: تأول بعض أصحاب النبي ﷺ هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، فقال بعض أصحابه: دعوا هذه الآية، فليست لكم(٥).

٢. روي أنه تلا هذه الآية: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، فقال: يا لها من سعة ما أوسعها! ويا لها من ثقة ما أوثقها!(٦).

---

(١) ابن جرير ٩/٤٦.

(٢) ابن جرير ٩/٥٠.

(٣) تفسير البغوي ٣/١١٠.

(٤) ابن جرير ٩/٥٣.

(٥) سعيد بن منصور في سننه ٤/١٦٥٤.

(٦) عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد، وأبي الشيخ.

٣. روي أنه تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾، فقال: الحمد لله بها، والحمد لله عليها، ما كان مؤمن فيما مضى، ولا مؤمن فيما بقي، إلا وإلى جانبه منافق يكره عمله[١].

مكحول:

روي عن مكحول (ت ١١٦ هـ)الشامي أن رجلا سأله عن قول الله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية، فقال: إن تأويل هذه الآية لم يجئ بعد؛ إذا هاب الواعظ، وأنكر الموعوظ؛ فعليك بنفسك، لا يضرك حينئذ من ضل إذا اهتديت[٢].

السدي:

روي عن إسماعيل السدي الكوفي (ت ١٢٧ هـ) أنّه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، يقول: مروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر.. وقال أبو بكر بن أبي قحافة: يا أيها الناس، لا تغتروا بقول الله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾، فيقول أحدكم: علي نفسي، والله، لتأمرن بالمعروف، وتنهون عن المنكر، أو لتستعملن عليكم شراركم فليسومنكم سوء العذاب، ثم ليدعو الله خياركم فلا يستجيب لهم[٣].

١. روي أنّه قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾، يقول: أهل ملتكم، مروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر[٤].

ابن حيان:

روي عن مقاتل بن حيان (ت ١٤٩ هـ) أنّه قال: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ لا يضركم ضلالة من ضل من مجوس أهل هجر وغيرهم من المشركين وأهل الكتاب من النصارى واليهود[٥].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

---

(١) ابن جرير ٩/٥٠.

(٢) ابن أبي حاتم ٤/١٢٢٧.

(٣) ابن جرير ٩/٥١.

(٤) ابن أبي حاتم ٤/١٢٢٦.

(٥) ابن أبي حاتم ٤/١٢٢٨.

١. روي أنّه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾، وذلك أن النبي ﷺ كان لا يقبل الجزية إلا من أهل الكتاب، فلما أسلم العرب طوعا وكرها قبل الجزية من مجوس هجر، فطعن المنافقون في ذلك؛ فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ يقول: أقبلوا على أنفسكم، فانظروا ما ينفعكم في أمر آخرتكم، فاعملوا به، ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ﴾ من أهل هجر، نزلت في رجل من أصحاب النبي ﷺ ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى﴾ الله عز وجل ﴿مرجعكم في الآخرة جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون﴾[2].

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) أنّه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ كان الرجل إذا أسلم قالوا له: سفهت آباءك وضللتهم، وفعلت وفعلت، وجعلت آباءك كذا وكذا، كان ينبغي لك أن تنصرهم وتفعل، فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[3].

الرسّي:

ذكر الإمام القاسم الرسي (ت ٢٤٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[4]:

١. سألت: عن قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ الآية، إنما قال سبحانه للذين قالوا: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [المائدة:١٠٤] من دينهم، وأكثروا الإتباع لدين غيرهم، عليكم بأنفسكم خاصة، فليس يضركم إذا اهتديتم ضلال من اعتقد ضلالة، كان أبا أو غيره؛ لأن كل امرئ إنما يحاسب بما عمله وما له، فإن اهتدى نجا سالما، وإن ضل هلك ظالما؛ لأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم:٣٩]

المرتضى:

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١١.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١١.

(٣) ابن جرير ٩/٥٣.

(٤) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/٣٥٥.

ذكر الإمام المرتضى بن الهادي (ت ٣١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. سؤال وإشكال: سألت عن: قول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥]؟ والجواب: معنى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهم: المؤمنون المصدقون بالله، الذين آمنوا نفوسهم من عذاب الله؛ بما كان من اجتنابهم لمعصيته، واتباعهم لحكمه؛ فأمنوا بذلك من العقاب، وصاروا به إلى محل الخلد والثواب، ثم قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾، يقول عز وجل: أصلحوها بالطاعة فاستنقذوها، ثم قال: لا يضركم ضلال الضالين، ولا تحاسبون بفعل المبطلين، ولا تسألون عن شيء من أعمال المفسدين، وإنما أفعالهم عليهم، وضرهم في رقابهم، وقد ذكر أن اليهود قالوا للمسلمين: كيف تطمعون بالنجاة، وآباؤكم مشركون، ولستم بناجين من فعلهم؟ فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام:١٦٤]، فأخبر أنه لا يعذب أحدا بجرم أحد، والدا كان أو ولدا.

٢. سؤال وإشكال: وسألت: هل يعرف الله عز وجل الخصمين المتنازعين بقبيح أفعالهما، وما يكون من تظلمهما؟ والجواب: كذلك الله عز وجل يوقف كلا على فعله، ويحاسبه على عمله، وينصف المظلوم من ظالمه؛ ألا تسمع كيف يقول عز وجل، ويخبر عما يتكلم به الظالمون، حين يقول: ﴿ياويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا﴾ [الكهف:٤٩]، ويقول عز وجل: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

١. قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ ظن بعض الناس أن الآية رفعت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والسعة في ترك ذلك، وليس فيه رفع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ ولكن فيه إنباء أن ليس علينا فيما يرد ولا يقبل من الأمر بالمعروف والنهي

---

(١) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ٣٥٦/١.

(٢) تأويلات أهل السنة: ٦٣٦/٣.

عن المنكر ـ شيء وهو كقوله تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، وكقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ الآية، ليس فيه رخصة ترك تبليغ الرسالة إليهم، ورفعه عنه، ولكن إخبار أن ليس عليه فيما يرد وترك القبول شيء كقوله: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾؛ فعلى ذلك الأول.

٢. ويحتمل: أن يكون في الآية دليل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنه قال: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ﴾ بترك قبول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ أنتم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، وبذلك وصف الله هذه الأمة بقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، وعن رسول الله ﷺ قال: (من لم يرحم صغيرنا، ولم يوقر كبيرنا، ولم يأمر بالمعروف، ولم ينه عن المنكر فليس منا)، وعن عائشة أن رسول الله ﷺ دخل عليَّ ـ وقد حفزه ـ النفس، فتوضأ، ثم خرج إلى المسجد، فقمت من وراء الحجاب، فصعد المنبر، ثم قال: (أيها الناس، إن الله يقول: مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوني فلا أجيبكم، وتسألوني فلا أعطيكم، وتستغيثوني فلا أغيثكم، وتستنصروني فلا أنصركم)، وعن أبي بكر قال: (يا أيها الناس، إنكم تقرءون هذه الآية، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الناس إذا رأوا منكرا فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله بعقاب)

٣. ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على مراتب: مع الكفرة: بالقتال والحرب، ومع المؤمنين: باليد واللسان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب فرض، ما لم يدخل في ذلك فساد، ويصير الأمر به والنهي عنه منكرًا، فإذا خشوا ذلك يرخص لهم الترك، وإلا روي عن عبد الله بن مسعود قال: (قولوها ما لم يكن دونها السيف والسوط، فإذا كان دونها السيف والسوط فعليكم أنفسكم)

٤. وقوله عز وجل: ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾، الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والذي يرد عليه المعروف والنهي عن المنكر، ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، خرج على الوعيد والتحذير.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. معنى قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾،

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/٢٢٨.

أي ليس عليكم عقوبة في فعل من أذنب من قرابتكم، وليس يضركم من ضل منهم إذا اهتديتم، وقد ذهب كثير من الجهال إلى أن هذه الآية لا يجب معها على أحد أن يأمر بالخير غير نفسه، ولا يبالي إذا اهتدى بضلال غيره، ولو كان ذلك على ما توهموا لسقط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما أصلان عظيمان في الخير والشر، وإنما هذه الآية خبر من الله عز وجل للمؤمنين، أنه لا يعذبهم بضلال قرابتهم الكافرين، ولا يأخذ أحداً بذنب غيره من المسلمين، لأنه عدل رحيم بجميع المخلوقين.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. لما بيّن الله تعالى حكم الكفار الذين قلدوا آباءهم وأسلافهم وركنوا اليهم في أديانهم، ذكر في هذه الآية أن المكلف انما يلزمه حكم نفسه وأنه لا يضره ضلال من ضل إذا كان هو مهتدياً، حتى يعلم بذلك أنه لا يلزمهم من ضلال آبائهم شيء من الذم والعقاب.

٢. ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ نصب على الإغراء كأنه قال احفظوا أنفسكم أن تزلوا كما زل غيركم، والعرب تغري بـ (عليك، واليك، ودونك، وعندك) فينصبون الأسماء بها، ولم يغروا بـ (منك) كما أغروا بـ (اليك)، لأن (اليك) أحق بالتنبيه من (منك)، والإغراء تنبيه على ما يجب أن يحذر، ولذلك لم يغروا بـ (فيك) ونحوها من حروف الاضافة، وحكى المغربي: أنه سمع من يغري بـ (وراءك) و(قدامك)

٣. وليس في الآية ما يدل على سقوط إنكار المنكر، وإنما يجوز الاقتصار على الاهتداء بأتباع أمر الله في حال التقية، هذا قول ابن مسعود، على أن الإنسان إنما يكون مهتدياً إذا اتبع أمر الله في نفسه وفي غيره بالإنكار عليه، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: (إذا رأوا الناس منكراً فلم يغيروه عمهم الله بالعقاب)

٤. وفي الآية دلالة على فساد مذهب المجبرة في تعذيب الأطفال، لأنه لو كان الأمر على ما قالوه لم يأمن المؤمنون أن يؤخذوا بذنوب آبائهم، وقد بين الله تعالى أن الأمر بخلافه مؤكداً لما في العقل.

٥. ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ معناه إليه تعالى مآلكم في الوقت الذي لا يملك أحد الضرر والنفع سواه بخلاف دار الدنيا التي مكن الله تعالى الخلق من الضرر والنفع فيها.

---

(١) تفسير الطوسي: ٤/٤١.

٦. ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ معناه يخبركم بأعمالكم التي عملتموها في الدنيا من الطاعات والمعاصي، ويجازيكم بحسبها، وفي ذلك غاية الزجر والتهديد.

٧. ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ يحتمل أن يكون جزماً لأنه جواب الأمر، وحرك الراء لأنها ثقيلة أولها: ساكن، فلا يستقيم إسكان آخرها، فيلتقي ساكنان، قال الأخفش: والأجود أن يكون رفعاً على الابتداء، لأنه ليس بعلة لقوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ وإنما أخبر أنه لا يضرهم.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الضر: ضد النفع، وهو الأصل في الباب، ومنه الضر الهزال، ومنه الضَّرَّةُ، ومنه الضرورة، والضرير: الذي به ضرر من ذهاب عينه، والمضر: المرأة بها ضرر بأن يكون لها ضرائر.

ب. الضلال والضلالة بمعنى، وأصله الهلاك، ومنه ﴿أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ ومنه سمي الضلال في الدين ضلالاً؛ لأنه هلاك، ويقال: ضل يَضِل، وضل يَضَلُّ لغتان، وضَلَلْتُ أَضِلُّ، وضَلِلْتُ أَضِلُّ لغتان، والجائر عن القصد ضالٌّ، ورجل ضليل صاحب ضلالة، قال يعقوب: أضللت بعيري إذا ذهب منك، وضللت المسجد والدار إذا لم تعرف موضعها.

٢. اختلف في سبب نزول الآية الكريمة:

أ. قيل: نزلت الآية في أهل الأهواء عن الضحاك؛ أي لا يضركم افتراق الأهواء إذا اهتديتم.

ب. وقيل: نزلت في أهل الكتاب عن سعيد بن جبير والكلبي قال لما أخذ رسول الله ﷺ الجزية من مجوس هَجَر قال المنافقون في ذلك، وشق ذلك على المسلمين، فنزلت الآية.

ج. وقيل: نزلت في مشركي العرب، وكانت تنكر أن يسفه آباؤهم، وأن يطعن على قول سلفهم، وترى ذلك عيبًا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، في معنى قول أبي مسلم.

د. وقيل: نزلت في جميع الكفار عن ابن زيد، وذلك أن الرجل كان إذا أسلم قالوا: سفَّهْتَ أباك

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/٤٤١.

وضللت، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

٣. لما تقدم إعراضهم عن الحق، وركونهم إلى التقليد، وذمهم على ذلك، بيّن تعالى أن الواجب في حق كل أحد مراعاة نفسه دون مراعاة طريق السلف، وأنه لا يضر ضلالهم، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ صدَّقوا، أو أيها المؤمنون.

٤. ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾:

أ. أي احفظوا أنفسكم بطاعة الله، واحرسوها عن عقاب الله.

ب. وقيل: عليكم منافع أنفسكم.

٥. ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾:

أ. أي لا يضيركم ضلال الكفار إذا كنتم أنتم على هداية؛ لأن وبال ضلالهم عليهم، وعاقبة هدايتكم لكم.

ب. وقيل: لا يضركم ضلال آبائكم إذا كنتم مهتدين، وكانوا في ابتداء الإسلام يكرهون أن يقال لهم: أنتم أولاد الكفرة.

ج. وقيل: كانوا يغتمون لعشائرهم لما ماتوا على الكفر، فنهوا عن ذلك.

د. وقيل: كرهوا أخذ الجزية من الكفار، فبين أنه لا يضرهم كفر أولئك، وأباح أخذ الجزية.

هـ. وقيل: لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، ولا تأمروا بمعروف ولا تنهوا عن منكر إذا كان حال تقية وخوف دون حال الإمكان.

و. وقيل: لا تضركم ضلالة إذا اهتديتم وأمرتم بالمعروف ونهيتهم عن المنكر، عن حذيفة

ز. وقيل: لا يضركم إذا أمرتم فلم يقبل منكم عن ابن مسعود.

٦. ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي إلى حكمه وجزائه مصيركم ﴿جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ يخبركم أي يجازيكم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بأعمالكم.

٧. تدل الآية الكريمة على:

أ. أن أحدًا لا يؤخذ بذنب غيره، فيبطل قول مَنْ خالف في تعذيب الأطفال ويزعم أنه يعذب بكفر أبيه، ويبطل قول من يزعم أن الميت يعذب ببكاء أهله.

ب. يبطل قول من يزعم أن ذنب أحد يحمل على أحد.

ج. بطلان قول أصحاب المعارف.

د. إثبات المعاد، وقراءة الصحف؛ لأن قوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ يدل ظاهره عليه.

هـ. سؤال وإشكال: هل تدل الآية على أن الأمر بالمعروف والدعاء إلى الدين لا يجب؟ والجواب: لا؛ لأن الظاهر لا يدل إلا على أنه لا يضره ضلال غيره، ولو قيل: إنه يدل على وجوب الأمر بالمعروف لكان أقرب:

- لأن قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ يدخل فيه كل ما لزمه القيام به من الواجبات، وتجنب المعاصي.
- وقوله: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ يدل عليه؛ لأن من جملة الاهتداء الأمر بالمعروف، كما أن فعل سائر الواجبات من ذلك، وقد روي عن أبي بكر أنه قال: (إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها في غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ على هذه الأعواد يقول: إن الناس إذا رأوا ظالمًا فلم يأخذوا على يديه يوشك أن يعمهم الله بعقاب)، فبين أن الآية لا تمنع وجوبه، وذكرنا عن ابن مسعود وحذيفة ما يؤيد ما قلنا، ولأنه تعالى خاطب به النبي ﷺ كما خاطب أمته، ثم ذلك لم يُسْقِط عنه البلاغ والدعاء إلى الدين، كذلك لا يسقط عن أمته.

٨. ﴿يَضُرُّكُمْ﴾ بكسر الضاد والتخفيف، وضم الضاد وتشديد الراء، فالأول من ضار يضير نحو: سار يسير، والثاني من ضَرَّ يَضُرُّ، نحو: غَرَّ يَغُرُّ.

٩. مسائل لغوية ونحوية:

أ. ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ نصب على الإغراء تقديره: احفظوا أنفسكم، والعرب تنصب الأسماء بـ ﴿عَلَيْكَ﴾، و﴿إِلَيْكَ﴾، و﴿دُونكَ﴾، و﴿عِنْدَكَ﴾ وقيل: عليكم بأنفسكم، فلما نزع الباء انتصبت.

ب. موضع ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ جزم إلا أنه ضم الراء لانضمام الضاد وأصله: يضرركم، فأدغمت الراء الأولى: في الثانية، فضمت الثانية: لالتقاء الساكنين، فأتبع الضم الضم، ولو فتح لجاز؛ لأنه أخف الحركات، ولو كسر لجاز؛ لأنه في الأصل في التقاء الساكنين، ولو ظهر التضعيف لسكن الراء.

الطَبرِسي:

ذكر الفضل الطَبرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. لما بين الله سبحانه حكم الكفار الذين قلدوا آباءهم وأسلافهم، وركنوا إلى أديانهم، عقبه بالأمر بالطاعة، وبيان أن المطيع لا يؤاخذ بذنوب العاصي، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾:

أ. معناه: احفظوا أنفسكم من ملابسة المعاصي، والإصرار على الذنوب، عن الفراء، وغيره.

ب. وقيل: معناه إلزموا أمر أنفسكم، فإنما ألزمكم الله أمرها، عن الزجاج، وهذا موافق لما روي عن ابن عباس أن معناه: أطيعوا أمري واحفظوا وصيتي.

٢. ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ أي: لا يضركم ضلال من ضل من آبائكم وغيرهم، إذا كنتم مهتدين.

٣. سؤال وإشكال: هل تدل هذه الآية على جواز ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟والجواب: إن في هذا وجوها:

أ. أحدها: إن الآية لا تدل على ذلك، بل توجب أن المطيع لربه لا يؤاخذ بذنوب العاصي.

ب. ثانيها: إن الاقتصار على الاهتداء باتباع أمر الله، إنما يجوز في حال التقية، أو حال لا يجوز تأثير إنكاره فيها، أو يتعلق بإنكاره مفسدة، وروي أن أبا ثعلبة سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال: ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت دنيا مؤثرة، وشحا مطاعا، وهوى متبعا، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخويصة نفسك، وذر الناس وعوامهم

ج. ثالثها: إن هذه أوكد آية في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لان الله تعالى خاطب بها المؤمنين فقال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ يعني عليكم أهل دينكم، كما قال: (ولا تقتلوا أنفسكم لا يضركم من ضل من الكفار) وهذا قول ابن عباس، في رواية عطا عنه، قال يريد يعظ بعضكم بعضا، وينهى بعضكم بعضا، ويعلم بعضكم بعضا، ما يقربه إلى الله، ويبعده من الشيطان، ولا يضركم من ضل من المشركين، والمنافقين، وأهل الكتاب ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: مصيركم، ومصير من خالفكم ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يجازيكم بأعمالكم، وفي هذه غاية الزجر والتهديد.

---

(١) تفسير الطبرسي: ٣/٣٩١.

٤. وفي الآية دلالة على فساد قول من قال إن الله يعذب الأطفال بذنوب الآباء، ويعذب الميت ببكاء الحي عليه.

٥. روي في الشواذ عن الحسن: (لا يضركم)، وعن إبراهيم ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ وفي ذلك أربع لغات: ضاره يضوره، وضاره يضيره، وضره يضره وهي عربية أعني يفعل في المضاعف متعدية، وإنما جزم يضركم ويضركم، لأنه جواب الامر، وهو قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ ويجوز أن يكون لا هنا بمعنى النهي، فيكون يضركم مجزوما به.

٦. مسائل لغوية ونحوية:

أ. قال الزجاج ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾: أجريت مجرى الفعل، فإذا قلت: عليك زيدا، فتأويله إلزم زيدا، و﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾: معناه: إلزموا أمر أنفسكم، وقال غيره: العرب تأمر من الصفات بعليك، وعندك، ودونك، فتعديها إلى المفعول، وتقيمها مقام الفعل، فينتصب بها على الإغراء تقول عليك زيدا، كأنه قيل خذ زيدا، فقد علاك أي: أشرف عليك، وعندك زيدا أي: حضرك فخذه، ودونك أي: قرب منك فخذه وقد تقيم العرب غير هذه الأحرف مقام الفعل، لكن لا تعديه إلى المفعول، وذلك نحو قولهم: إليك عني أي: تأخر عني، ووراءك: بمعناه، قالوا: ولا يجوز ذلك إلا في الخطاب، لو قلت عليه زيدا، لم يجز.

ب. وقوله: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ الأجود أن يكون إعرابه رفعا، ويكون على جهة الخبر، ويجوز أن يكون موضعه جزما، ويكون الأصل لا يضرركم إلا أن الراء الأولى: أدغمت في الثانية، فضمت الثانية: لالتقاء الساكنين، ويجوز في العربية لا يضركم بفتح الراء ولا يضركم بكسرها، فالضم لاتباع الضم، والفتح للخفة، والكسر لان أصل التقاء الساكنين الكسرة، وهذا النهي بلفظ غائب يراد به المخاطبون إذا قلت: لا يضررك كفر فلان: فمعناه لا تعدن أنت كفره ضررا، كما أنك إذا قلت: لا أرينك ههنا، فالنهي في اللفظ لنفسك، فمعناه لمخاطبك، ومعناه: لا تكونن هنا.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ١/٥٩٥.

١. في سبب نزول قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ قولان:

أ. أحدهما: أن النبيّ ﷺ كتب إلى هجر، وعليهم المنذر بن ساوى يدعوهم إلى الإسلام، فإن أبوا فليؤدّوا الجزية، فلمّا أتاه الكتاب، عرضه على من عنده من العرب واليهود والنّصارى والمجوس، فأقرّوا بالجزية، وكرهوا الإسلام، فكتب إليهم رسول الله ﷺ: (أمّا العرب فلا تقبل منهم إلّا الإسلام أو السّيف، وأمّا أهل الكتاب والمجوس، فاقبل منهم الجزية) فلمّا قرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ أسلمت العرب، وأعطى أهل الكتاب والمجوس الجزية، فقال منافقو مكّة: عجبا لمحمّد يزعم أنّ الله بعثه ليقاتل الناس كافّة حتى يسلموا، وقد قبل من مجوس هجر، وأهل الكتاب الجزية، فهلا أكرههم على الإسلام، وقد ردّها على إخواننا من العرب، فشقّ ذلك على المسلمين، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وقال مقاتل: كان رسول الله ﷺ لا يقبل الجزية إلّا من أهل الكتاب فلمّا أسلمت العرب طوعا وكرها، قبلها من مجوس هجر، فطعن المنافقون في ذلك، فنزلت هذه الآية.

ب. الثاني: أنّ الرجل كان إذا أسلم، قالوا له: سفّهت آباءك وضلّلتهم، وكان ينبغي لك أن تنصرهم، فنزلت هذه الآية، قاله ابن زيد.

٢. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾:

أ. قال الزجّاج: معنى الآية: إنّما ألزمكم الله أمر أنفسكم، ولا يؤاخذكم بذنوب غيركم، وهذه الآية لا توجب ترك الأمر بالمعروف، لأنّ المؤمن إذا تركه وهو مستطيع له، فهو ضالّ، وليس بمهتد.

ب. وقال عثمان بن عفّان: لم يأت تأويلها بعد.

ج. وقال ابن مسعود: تأويلها في آخر الزّمان: قولوا ما قبل منكم، فإذا غلبتم، فعليكم أنفسكم.

٣. في قوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قولان:

أ. أحدهما: لا يضرّكم من ضلّ بترك الأمر بالمعروف إذا اهتديتم أنتم للأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر، قاله حذيفة بن اليمان، وابن المسيّب.

ب. الثاني: لا يضرّكم من ضلّ من أهل الكتاب إذا أدّوا الجزية، قاله مجاهد.

٤. في قوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تنبيه على الجزاء.

٥. اختلف في نسخ الآية الكريمة:

أ. على ما ذكرنا عن الزجّاج في معنى الآية، هي محكمة.

ب. وقد ذهب قوم من المفسّرين إلى أنّها منسوخة، ولهم في ناسخها قولان:

أ. أحدهما: أنه آية السّيف.

ب. الثاني: أنّ آخرها نسخ أوّلها، روي عن أبي عبيد أنه قال: ليس في القرآن آية جمعت النّاسخ والمنسوخ غير هذه، وموضع المنسوخ منها إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ﴾ والنّاسخ: قوله: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، والهدى هاهنا: الأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. لما بين الله تعالى أنواع التكاليف والشرائع والأحكام ثم قال: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إلا الْبَلَاغُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٩٩] إلى قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أنزل اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [المائدة: ١٠٤] فكأنه تعالى قال إن هؤلاء الجهال مع ما تقدم من أنواع المبالغة في الاعذار والإنذار والترغيب والترهيب لم ينتفعوا بشيء منه بل بقوا مصرين على جهلهم مجدين على جهالاتهم وضلالتهم، فلا تبالوا أيها المؤمنون بجهالتهم وضلالتهم، بل كونوا منقادين لتكاليف الله مطيعين لأوامره ونواهيه، فلا يضركم ضلالتهم وجهالتهم، فلهذا قال: ﴿يَا أيها الَّذِينَ آمنوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾

٢. ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي احفظوا أنفسكم من ملابسة المعاصي والإصرار على الذنوب قال النحويون: عليك وعندك ودونك من جملة أسماء الأفعال، تقول العرب: عليك وعندك ودونك، فيعدونها إلى المفعول ويقيمونها مقام الفعل، وينصبون بها، فيقال: عليك زيدا كأنه قال خذ زيدا فقد علاك، أي أشرف عليك، وعندك زيدا، أي حضرك فخذه ودونك، أي قرب منك فخذه، فهذه الأحرف الثلاثة لا اختلاف بين النحويين في إجازة النصب بها ونقل صاحب (الكشاف) ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ بالرفع عن نافع.

٣. ذكروا في سبب النزول وجوها:

---

(١) التفسير الكبير: ١٢/٤٤٩.

أ. أحدها: ما روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أن النبي ﷺ لما قبل من أهل الكتاب الجزية ولم يقبل من العرب إلا الإسلام أو السيف، عير المنافقون المؤمنين بقبول الجزية من بعض الكفار دون البعض، فنزلت هذه الآية، أي لا يضركم ملامة اللائمين إذا كنتم على الهدى.

ب. ثانيها: أن المؤمنين كان يشتد عليهم بقاء الكفار في كفرهم وضلالتهم، فقيل لهم: عليكم أنفسكم، وما كلفتم من إصلاحها والمشي بها في طريق الهدى لا يضركم ضلال الضالين ولا جهل الجاهلين.

ج. ثالثها: أنهم كانوا يغتمون لعشائرهم لما ماتوا على الكفر فنهوا عن ذلك، والأقرب عندي أنه لما حكى عن بعضهم أنه إذا قيل لهم ﴿تَعَالَوْا إِلَى مَا أنزل اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [المائدة: ١٠٤] ذكر تعالى هذه الآية، والمقصود منها بيان أنه لا ينبغي للمؤمنين أن يتشبهوا بهم في هذه الطريقة الفاسدة، بل ينبغي أن يكونوا مصرين على دينهم، وأن يعلموا أنه لا يضرهم جهل أولئك الجاهلين إذا كانوا راسخين في دينهم ثابتين فيه.

٤. سؤال وإشكال: ظاهر هذه الآية يوهم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير واجب، والجواب: من وجوه:

أ. الأول: وهو الذي عليه أكثر الناس، إن الآية لا تدل على ذلك بل توجب أن المطيع لربه لا يكون مؤاخذا بذنوب العاصي، فأما وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فثابت بالدلائل، خطب أبو بكر، فقال: إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿يَا أيها الَّذِينَ آمنوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ وتضعونها غير موضعها وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الناس إذا رأوا المنكر فلم ينكروه يوشك أن يعمهم الله بعقاب)

ب. الثاني: ما روي عن ابن مسعود وابن عمر أنهما قالا قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ يكون هذا في آخر الزمان: قال ابن مسعود لما قرئت عليه هذه الآية: (ليس هذا بزمانها، ما دامت قلوبكم واحدة ولم تلبسوا شيعا ولم يذق بعضكم بأس بعض، فأمروا وانهوا فإذا اختلفت القلوب والأهواء وألبستم شيعا ووكل كل امرئ ونفسه، فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية)، وهذا القول عندي ضعيف، لأن قوله: ﴿يَا أيها الَّذِينَ آمنوا﴾ خطاب عام، وهو أيضا خطاب مع الحاضرين فكيف يخرج الحاضر ويخص الغائب.

ج. الثالث: ما ذهب إليه عبد الله بن المبارك فقال: (هذه أوكد آية في وجوب الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر فإنه قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ يعني عليكم أهل دينكم ولا يضركم من ضل من الكفار)، وهذا كقوله: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] يعني أهل دينكم فقوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ يعني بأن يعظ بعضكم بعضا ويرغب بعضكم بعضا في الخيرات، وينفره عن القبائح والسيئات، والذي يؤكد ذلك ما بينا أن قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ معناه احفظوا أنفسكم فكان ذلك أمرا بأن نحفظ أنفسنا فإن لم يكن ذلك الحفظ إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان ذلك واجبا.

د. الرابع: أن الآية مخصوصة بالكفار الذين علم أنه لا ينفعهم الوعظ، ولا يتركون الكفر، بسبب الأمر بالمعروف، فههنا لا يجب على الإنسان أن يأمرهم بالمعروف، والذي يؤكد هذا القول ما ذكرنا في سبب النزول أن الآية نازلة في المنافقين، حيث عيروا المسلمين بأخذ الجزية من أهل الكتاب دون المشركين.

هـ. الخامس: أن الآية مخصوصة بالكفار بها إذا خاف الإنسان عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على نفسه أو على عرضه أو على ماله، فههنا عليه نفسه لا تضره ضلالة من ضل ولا جهالة من جهل، وكان ابن شبرمة يقول: من فر من اثنين فقد فر ومن فر من ثلاثة فلم يفر.

و. السادس: لا يضركم إذا اهتديتم فأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر ضلال من ضل فلم يقبل ذلك.

ز. السابع: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ من أداء الواجبات التي من جملتها الأمر بالمعروف عند القدرة، فإن لم يقبلوا ذلك فلا ينبغي أن تستوحشوا من ذلك فإنكم خرجتم عن عهدة تكليفكم فلا يضركم ضلال غيركم.

ح. الثامن: أنه تعالى قال لرسوله ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا تُكَلَّفُ إلا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤] وذلك لا يدل على سقوط الأمر بالمعروف عن الرسول فكذا هاهنا.

٥. قرئ لا يضركم بفتح الراء مجزوما على جواب قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ وقرئ بضم الراء، وفيه وجهان:

أ. أحدهما: على وجه الخبر أي ليس يضركم من ضل.

ب. الثاني: أن حقها الفتح على الجواب ولكن ضمت الراء اتباعا لضمة الضاد.

٦. ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ يريد مصيركم ومصير من خالفكم ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

يعني يجازيكم بأعمالكم.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]

١. قال علماؤنا: وجه اتصال هذه الآية بما قبلها التحذير مما يجب أن يحذر منه، وهو حال من تقدمت صفته ممن ركن في دينه إلى تقليد آبائه وأسلافه، وظاهر هذه الآية يدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس القيام به بواجب إذا استقام الإنسان، وأنه لا يؤاخذ أحد بذنب غيره، لولا ما ورد من تفسيرها في السنة وأقاويل الصحابة والتابعين على ما نذكره بحول الله تعالى.

٢. ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ معناه احفظوا أنفسكم من المعاصي، تقول عليك زيدا بمعنى الزم زيدا، ولا يجوز عليه زيدا، بل إنما يجري هذا في المخاطبة في ثلاثة ألفاظ عليك زيدا أي خذ زيدا، وعندك عمرا أي حضرك، ودونك زيدا أي قرب منك، وأنشد: يا أيها المائح دلوي دونكا، وأما قوله: عليه رجلا ليسني، فشاذ:

أ. روى أبو داوود والترمذي وغيرهما عن قيس قال خطبنا أبو بكر فقال: إنكم تقرؤون هذه الآية وتتأولونها على غير تأويلها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، قال إسحاق بن إبراهيم سمعت عمرو بن علي يقول سمعت وكيعا يقول: لا يصح عن أبي بكر عن النبي ﷺ ولا حديث واحد، قلت: ولا إسماعيل عن قيس، قال إن إسماعيل روى عن قيس موقوفا، قال النقاش: وهذا إفراط من وكيع، رواه شعبة عن سفيان وإسحاق عن إسماعيل مرفوعا.

ب. وروى أبو داوود والترمذي وغيرهما عن أبي أمية الشعباني قال أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع بهذه الآية؟ فقال: أية آية؟ قلت: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قال أما والله لقد سألت عنها خبيرا، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: بل ائتمروا

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/٣٤٢.

بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العامة فإن من ورائكم أياما الصبر فيهن مثل القبض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم، وفي رواية قيل: يا رسول الله أجر خمسين منا أو منهم؟ قال بل أجر خمسين منكم، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، قال ابن عبد البر: بل منكم هذه اللفظة قد سكت عنها بعض الرواة فلم يذكرها، وقد تقدم.

ج. وروى الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: إنكم في زمان من ترك منكم عشر ما أمر به هلك ثم يأتي زمان من عمل منهم بعشر ما أمر به نجا [قال: هذا حديث غريب.

د. وروي عن ابن مسعود أنه قال: ليس هذا بزمان هذه الآية، قولوا الحق ما قبل منكم، فإذا رد عليكم فعليكم أنفسكم، وقيل لابن عمر في بعض أوقات الفتن: لو تركت القول في هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه؟ فقال إن رسول الله ﷺ قال لنا: ليبلغ الشاهد الغائب [ونحن شهدنا فيلزمنا أن نبلغكم، وسيأتي زمان إذا قيل فيه الحق لم يقبل، في رواية عن ابن عمر بعد قوله: ليبلغ الشاهد الغائب فكنا نحن الشهود وأنتم الغيب، ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا، لم يقبل منهم.

هـ. وقال ابن المبارك قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ خطاب لجميع المؤمنين، أي عليكم أهله دينكم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فكأنه قال ليأمر بعضكم بعضا، ولينه بعضكم بعضا، فهو دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يضركم ضلال المشركين والمنافقين وأهل الكتاب، وهذا لأن الأمر بالمعروف يجري مع المسلمين من أهل العصيان كما تقدم، وروي معنى هذا عن سعيد بن جبير.

و. وقال سعيد بن المسيب: معنى الآية لا يضركم من ضل إذا اهتديتم بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ز. وقال ابن خويز منداد: تضمنت الآية اشتغال الإنسان بخاصة نفسه، وتركه التعرض لمعايب الناس، والبحث عن أحوالهم فإنهم لا يسألون عن حاله فلا يسأل عن حالهم وهذا كقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر]، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الانعام]، وقول النبي ﷺ: كن جليس بيتك وعليك بخاصة نفسك، ويجوز أن يكون أريد به الزمان الذي يتعذر فيه الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر، فينكر بقلبه، ويشتغل بإصلاح نفسه.

ح. قد جاء حديث غريب رواه ابن لهيعة: قال حدثنا بكر بن سوادة الجذامي عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله ﷺ: إذا كان رأس مائتين فلا تأمر بمعروف ولا تنه عن منكر وعليك بخاصة نفسك، قال علماؤنا: إنما قال ﷺ ذلك لتغير الزمان، وفساد الأحوال، وقلة المعينين.

ط. وقال جابر بن زيد: معنى الآية: يا أيها الذين آمنوا من أبناء أولئك الذين بحروا البحيرة وسيبوا السوائب، عليكم أنفسكم في الاستقامة على الدين، لا يضركم ضلال الأسلاف إذا اهتديتم، قال وكان الرجل إذا أسلم قال له الكفار سفهت آباءك وضللتهم وفعلت وفعلت، فأنزل الله الآية بسبب ذلك.

ي. وقيل: الآية في أهل الأهواء الذين لا ينفعهم الوعظ، فإذا علمت من قوم أنهم لا يقبلون، بل يستخفون ويظهرون فاسكت عنهم.

ك. وقيل: نزلت في الأسارى الذين عذبهم المشركون حتى ارتد بعضهم، فقيل لمن بقي على الإسلام: عليكم أنفسكم لا يضركم ارتداد أصحابكم، وقال: سعيد بن جبير: هي في أهل الكتاب ـ وقال مجاهد: في اليهود والنصارى ومن كان مثلهم، يذهبان إلى أن المعنى لا يضركم كفر أهل الكتاب إذا أدوا الجزية.

ل. وقيل: هي منسوخة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قاله المهدوي، قال ابن عطية: وهذا ضعيف ولا يعلم قائله، قلت: قد جاء عن أبي عبيد القاسم بن سلام أنه قال ليس في كتاب الله تعالى آية جمعت الناسخ والمنسوخ غير هذه الآية، قال غيره: الناسخ منها قوله: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ والهدى هنا هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متعين متى رجي القبول، أو رجي رد الظالم ولو بعنف، ما لم يخف الآمر ضررا يلحقه في خاصته، أو فتنة يدخلها على المسلمين، إما بشق عصا، وإما بضرر يلحق طائفة من الناس، فإذا خيف هذا ف ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ محكم واجب أن يوقف عنده، ولا يشترط في الناهي أن يكون عدلا كما تقدم، وعلى هذا جماعة أهل العلم فاعلمه.

المنصور بالله:

ذكر الإمام القاسم بن محمد (ت ١٠٢٩ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قد اختلف في معناها، فقال عبد الله بن الحسين صنو الهادي ما معناه: إن المسلمين كانوا يدعون الذين ضربت عليهم الجزية من أهل الكتاب إلى الإسلام، ويشددون عليهم، فأنزل الله الآية.. ومنهم من قال: هي موقوفة حتى يعمل بها في آخر الزمان.. ومنهم من قال: تأويلها إلى يوم القيامة.. ومنهم من قال: قد مضى تأويلها، وإنما كانت صدر الإسلام قبل الأمر بالجهاد.

١. فمعنى قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾: كفوا أنفسكم وألزموها.. وقوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٥] جواب: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾، مجزوم بـ (أن) مقدرة بعد ذلك، والحركة على الراء في قوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ لالتقاء الساكنين، وجعلت ضمة للاتباع، وذلك شائع في لغة العرب، والمعنى: أن ضلال من ضل لا يضر المؤمنين إذا اهتدوا، وكفوا أنفسهم عن المحارم، بخلاف ما لو لم يكن منهم ذلك فإنه يضرهم ضلالهم؛ لأنهم يكونون مشاركين لهم فيه، وأهل قدوتهم، حيث قرروهم عليه بالسكوت عنهم.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي الزموا أنفسكم أو احفظوها، كما تقول: عليك زيدا: أي الزمه، قرئ: ﴿لَا يَضُرْكُمْ﴾ بالجزم على أنه جواب الأمر الذي يدلّ عليه اسم الفعل، وقرأ نافع وغيره بالرفع على أنه مستأنف، كقول الشاعر: (فقال رائدهم أرسوا نزاولها) أو على أنّ ضمّ الراء للاتباع، وقرئ: ﴿لَا يَضِرْكُمْ﴾ بكسر الضاد، وقرئ: (لا يضيركم) والمعنى: لا يضرّكم ضلال من ضلّ من الناس إذا اهتديتم للحقّ أنتم في أنفسكم.

٢. ليس في الآية ما يدلّ على سقوط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن من تركه مع كونه من أعظم الفروض الدينية فليس بمهتد، وقد قال الله سبحانه: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، وقد دلّت الآيات القرآنية،

---

(١) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/٣٥٧.

(٢) فتح القدير: ٢/٩٧.

والأحاديث المتكاثرة، على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجوبا مضيقا متحتما، فتحمل هذه الآية على من لا يقدر على القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو لا يظنّ التأثير بحال من الأحوال، أو يخشى على نفسه أن يحلّ به ما يضرّه ضررا يسوغ له معه الترك.

٣. ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. كان المؤمنون يتحسَّرون على عدم إيمان الكفرة ويتمنَّون إيمانهم، وكان الرجل إذا أسلم قالوا: سفَّهت آباءك وعنَّفوه، فنزل قوله تعالى: ﴿يَاۤ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ اِلزموا أنفسكم واحفظوها، ولفظ (عَلَيْكُمْ) جارٌّ ومجرور، والجرُّ في المحلِّ، وهو اسم فعل.

٢. ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ قيل: مجزوم في جواب الأمر، والمشهور أن لا يجزم ولا ينصب في جواب اسم الفعل، إلَّا أنَّ قراءة (لَا يَضُرُّ) بضمِّ الضاد وقراءة كسرها وإسكان الراء فيهما تدلَّان على الجزم في جوابه، وتحمل عليه قراءة الضمِّ والشدِّ، فالضمُّ للتخلُّص من الساكنين؛ أو الجزمُ في ذلك كُلِّه على النهي؛ أو الرفعُ استئنافٌ أو تعليلٌ.

٣. ﴿مَن ضَلَّ﴾ أي: لا يَضُرُّكم ضلال من ضَلَّ من عصاة المؤمنين، أو من أهل الكتاب ﴿إِذَا اَهْتَدَيْتُم﴾ بمجانبة الضلال والإصرار، ومنها أن ينكر المنكر بحسب طاقته، فانتفاء الضُّرِّ بالنهي عن الضلال فلا يقبل منكم إضرار أنفسكم، أو المعنى: لا تهلك حسرة على كفر الكفرة، أو: لَا أَمْرَ ولا نهي عليك إذا كان فيهما فسادٌ، أو اُثبُتْ على الإيمان ولا تُبالِ بقول الكفرة لمن أسلم: (سفَّهت آباءك)، أو (احفظوا أهل دينكم وانصروهم)، ومرجع معصية الكافر عليه لا عليكم، أو ذلك كُلُّه، وقد قيل: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ بالأمر والنهي.

وسأل رجل ابن مسعود عن الآية فقال: هي فيما إذا أَمرتَ أو نَهيتَ فُعِلَ بك كذا وكذا، أو لم يُقبل

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ١٥٢/٤.

منك، وسئل ابن عمر فقال: ليست فيكم إنَّما هي لمن بعدكم إذا لم يُقبل عنهم، فإنَّ رسول الله ﷺ قال: (ليبلِّغ الشاهدُ الغائبَ فنحن الشهودُ وأنتم الغُيَّب)، قال ﷺ : (من رأى منكم منكرا واستطاع أن يغيِّره بيده فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبقلبه)، وكأنَّه قيل: لا يَضُرُّكم من ضَلَّ إذا أمرتم بالمعروف، ونهيتم عن المنكر فلم يُفِدْ أمرُكم ونهيُكم، وروى الحاكم عن أبي ثعلبة الخشني: سألت رسول الله ﷺ عن الآية فقال: (ائتمِروا بالمعروف وتَناهوا عن المنكر، حتَّى إذا رأيت شُحًّا مُطاعًا وهواء مُتَّبعًا ودنيًا مُؤْثَرة، وإعجابَ كُلِّ ذي رأي برأيه فعليك نفسك)، وقال لمعاذ مثل ذلك وزاد: (فإنَّ من ورائكم أيَّامَ صَبرٍ، المتمَسِّك فيها بدينه مثل القابض على الجمر، فللِعامل منهم يومئذ مثل عمل أحدكم كأجر خمسين منكم)، فقال: خمسين منهم؟ فقال: (بل منكم أنتم، فإنَّكم تجدون على الخير أعوانًا ولا يجدونهم)

٤. وليست الآية مبيحة لترك الأمر والنهي إلَّا لمن اهتدى، ومنه الآمر والناهي، قال أبو بكر : (تعُدُّونها رخصة، والله ما نزلت آية أشدُّ منها، وإنَّما المراد لا يَضُرُّكم من ضَلَّ من أهل الكتاب وقد أمرتموهم ونهيتموهم)، كما جاء عن مجاهد وابن جبير: هي في اليهود والنصارى، خذوا منهم الجزية واتركوهم بعد أن أمرتموهم بالتوحيد فأبوا، وقال أبو بكر على المنبر: يا أَيُّها الناس إنَّكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها غير موضعها ولا تدرون ما هي، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنَّ الناس إذا رأوا منكرا فلم يغيِّروه عمَّهم الله بعقاب، فَمُروا بالمعروف وانْهَوا عن المنكر أو لَيَستَعْمِلَنَّ الله عليكم أشراركم فيسومونكم سوء العذاب، ثمَّ يدعو خياركم فلا يستجاب لهم)، وعنه ﷺ : (ما من قوم عُمِل فيهم منكر وسُنَّ فيهم قبيح فلم يغيِّروه ولم ينكروه إلَّا وحقَّ على الله أن يعمَّهم بالعقوبة جميعًا، ثمَّ لا يستجاب لهم)

٥. ﴿إِلَى اللهِ﴾ لا إلى غيره ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: رجوعكم ﴿جَمِيعًا﴾ أيُّها المؤمنون ومرجع الضالِّين فحذف، أو مرجعكم أيُّها الناس مؤمنكم وكافركم، وهذا أنسب، فيُجازي كُلًّا بعمله كما قال: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ولا يؤاخِذ أحدًا بذنب غيره، وذلك وعد ووعيد.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/٢٧٧.

١. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي الزموا أن تصلحوها باتباع كتاب الله وسنة رسوله ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ﴾ أي ممن قال: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أو أخذ بشبهة، أو عاند في قول أو فعل ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ أي إلى الإيمان وكأن المؤمنين كان يشتد عليهم بقاء الكفار في كفرهم وضلالهم، فقيل لهم: عليكم أنفسكم وما كلفتم من إصلاحها والمشي بها في طريق الهدى، لا يضركم ضلال الضالين وجهل الجاهلين، إذا كنتم مهتدين، كما قال عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨]

٢. قال الزمخشريّ: وكذلك من يتأسف على ما فيه الفسقة من الفجور والمعاصي ولا يزال يذكر معايبهم ومناكيرهم، فهو مخاطب بهذه الآية ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ بعد الموت ﴿جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ أي يخبركم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي في الدنيا من أعمال الهداية والضلال، فهو وعد ووعيد للفريقين، وتنبيه على أن أحدا لا يؤاخذ بعمل غيره.

٣. لا يستدل بالآية على سقوط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن الظاهر من الآية أن ضلال الغير لا يضر، وأن المطيع لربه لا يكون مؤاخذا بذنوب العاصي، وإلا فمن تركهما مع القدرة عليهما، فليس بمهتد، وإنما هو بعض الضلال الذي فصلت الآية بينهم وبينه.

٤. قال الحاكم: ولو استدلّ على وجوبهما بقوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ كان أولى، لأنه يدخل في ذلك كل ما لزم من الواجبات، أي كما فعل المهايميّ في تفسيره حيث قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾، أي ألزموا أن تصلحوها باتباع الدلائل من كتاب الله وسنة رسوله، والعقليات المؤيدة بها، ودعوة الإخوان إلى ذلك، بإقامة الحجج ودفع الشبه، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر بما أمكن من القول والفعل، لا تقصروا في ذلك، إذ لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، بدعوتهم إلى ما أنزل وإلى الرسول وإقامة الحجج لهم، ودفع الشبه عنهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، بما أمكن من القول والفعل، ولا تقصروا في ذلك، إذ إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون، من التقصير أو الإيفاء قولا وفعلا، في حق أنفسكم أو غيركم.

٥. ونقل الرازي عن عبد الله بن المبارك أنه قال هذه أوكد آية في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنه قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ يعني عليكم أهل دينكم، ولا يضركم من ضل من الكفار، وهذا كقوله: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] يعني أهل دينكم، فقوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ يعني بأن يعظ

بعضكم بعضا، ويرغّب بعضكم بعضا في الخيرات وينفّره عن القبائح والسيئات، والذي يؤكد ذلك ما بينا أن قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ معناه: احفظوا أنفسكم من ملابسة المعاصي والإصرار على الذنوب، فكان ذلك أمرا بأن نحفظ أنفسنا، فإذا لم يكن ذلك الحفظ إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كان ذلك واجبا.

٦. ذكر هنا بعض الأحاديث والآثار التي سبق ذكرها، ومنها.

أ. روى أحمد عن أبي بكر، أنه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس! إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ إلى آخر الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الناس، إذا رأوا المنكر، ولا يغيرونه، يوشك أن يعمهم الله عز وجل بعقابه)، ورواه أصحاب السنن وابن حبان في صحيحه وغيرهم.

ب. روى الترمذي عن أبي أمية الشعباني، قال أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع بهذه الآية؟ قال آية آية؟ قلت: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قال أما والله! لقد سألت عنها خبيرا، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحّا مطاعا وهوى متبعا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع العوامّ، إن من ورائكم أياما الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا، يعملون مثل علمكم، قال عبد الله بن المبارك: وزادني غير عتبة: قيل يا رسول الله! أجر خمسين رجلا منا أو منهم؟ قال لا، بل أجر خمسين منكم، قال الترمذيّ: هذا حديث حسن غريب، وكذا رواه أبو داوود وابن ماجة وابن جرير وابن أبي حاتم.

ج. وروى عبد الرزاق عن معمر عن الحسن أن ابن مسعود سأله رجل عن قوله الله ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ فقال: إن هذا ليس بزمانها، إنها اليوم مقبولة، ولكنه قد يوشك أن يأتي زمانها، تأمرون فيصنع بكم كذا وكذا، أو قال فلا يقبل منكم، فحينئذ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل.

د. ورواه أبو جعفر الرازي عن الربيع عن أبي العالية قال كانوا عند عبد الله بن مسعود جلوسا، فكان بين رجلين بعض ما يكون بين الناس، حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه، فقال رجل من جلساء

عبد الله: ألا أقوم فآمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر؟ فقال آخر إلى جنبه: عليك بنفسك، فإن الله يقول ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية، قال فسمعها ابن مسعود فقال: مه، لم يجئ تأويل هذه بعد، إن القرآن أنزل حيث أنزل، ومنه آي قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن، ومنه آي قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله ﷺ، ومنه آي قد وقع تأويلهن بعد النبيّ ﷺ بيسير، ومنه آي يقع تأويلهن يوم الحساب، ما ذكر من الحساب والجنة والنار، فما دامت قلوبكم واحدة وأهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيعا ولم يذق بعضكم بأس بعض فأمروا وانهوا، وإذا اختلفت القلوب والأهواء وألبستم شيعا وذاق بعضكم بأس بعض فأمر نفسك، وعند ذلك جاء تأويل هذه الآية، أخرجه ابن جرير.

هـ. أخرج أيضا أنه قيل لابن عمر: لو جلست في هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه، فإن الله قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ فقال ابن عمر: إنها ليست لي ولا لأصحابي، لأن رسول الله ﷺ قال ألا فليبلغ الشاهد الغائب، فكنا نحن الشهود وأنتم الغيب، ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا، إن قالوا لم يقبل منهم، وقد ضعف الرازي ما روي عن ابن مسعود وابن عمر مما سقناه، قال لأن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خطاب عام، وهو أيضا خطاب مع الحاضرين، فكيف يخرج الحاضر ويخص الغائب؟ أقول: ليس مراد ابن مسعود وابن عمر، إخراج الحاضرين عن الخطاب، وأنه لم يعن بها إلا الغيب، وإنما مرادهما الردّ على من تأولها: بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأعلماه بأنه لا يسوغ الاستشهاد بها في ترك ذلك، والاسترواح لظاهرها، إلا في الزمن الذي بيّناه، وحاصله: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان ما قبلا، فإن ردّا في مثل ذلك الزمن فليقرأ: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾، هذا مرادهما.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. بعد أن بين الله تعالى بطلان التقليد ـ وهو أن يتبع المرء غيره من الناس في فهمه للدين ورأيه فيه بغير علم ولا حجة ـ أمر المؤمنين بصيغة الإغراء بأن يهتموا بإصلاح أنفسهم بالعلم الصحيح والعمل الصالح الذي يعد رشدا وهدى، وبين لهم أنهم إذا أصلحوا أنفسهم وقاموا بما أوجب الله عليهم من علم

(١) تفسير المنار: ١٧٦/٧.

وتعليم وعمل وإرشاد، فلا يضرهم من ضل من الناس عن محجة العلم بالجهل والتقليد، وعن صراط العمل الصالح بالفسق والإفساد في الأرض، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ أي الزموا إصلاح أنفسكم، وتزكيتها بما شرعه الله لكم، لا يضركم ضلال غيركم إذا أهديتم، إذ لا تزر وازرة وزر أخرى، ومن أصول الهداية الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا لا تكونون مهتدين إلا إذا بلغتم دعوة الحق والخير، وعلمتم الجاهلين ما أعطاكم الله من العلم والدين، وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر، فلا تكتموا الحق والعلم كما كتمه من كان قبلكم، فلعنهم الله على لسان أنبيائهم ولسان نبيكم ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي إليه وحده رجوعكم ورجوع من ضل عما اهتديتم إليه، فينبئكم عند الحساب بما كنتم تعملون في الدنيا ويجزيكم به.

٢. وقد اختلفت الرواية عن الصحابة والتابعين في هذه الآية[١].. علم من هذه الروايات أن السلف اتفقوا على أن المؤمن لا يكون مهتديا بمجرد إصلاحه لنفسه إذا لم يهتم بإصلاح غيره ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويفهم منه أن هذا فرض لازم دائم، ولكن بعضهم يقول إن فريضة الأمر والنهي تسقط إذا فسد الناس فسادا لا يرجى معه تأثير الوعظ والإرشاد، أو فسادا يخشى أن يفضي إلى إيذاء الواعظ المرشد، وقد رجح ابن جرير وغيره من المحققين القول الأول لقوة روايته، وسائر أدلته، والتحقيق أن من علم أو ظن ظنا قويا أنه يناله أذى إذا أمر بالمعروف أو نهى عن المنكر يسقط عنه الفرض، ويكون الأمر والنهي حينئذ فضيلة لا فريضة، وهذا إذا رجح أن المنكر يزول بإنكاره، فإذا رجح أنه يؤذى ولا يترتب على نصحه فائدة، فحينئذ يكره له أو يحرم عليه إذا كان الإلقاء باليد إلى التهلكة، وقد فصل القول في ذلك أبو حامد الغزالي في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الإحياء فليراجعه من شاء.

٣. ومن فوائد هذه الروايات تصريح بعض علماء الصحابة بأن في القرآن أحكاما لا يظهر تأويلها إلا بعد عصر التنزيل، أي أن آيات الأحكام في ذلك كآيات الأخبار بالغيب، وكثيرا ما نبين في تفسيرنا ما يظهر تأويله في عصرنا، كما بين من قبلنا ما ظهر لهم من المعاني المتعلقة بعصورهم، ولا غرو فقد وصف القرآن في الآثار بأنه لا تنتهي عجائبه.

(١) ذكر هنا بعض الأحاديث والآثار، التي سبق ذكرها

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بعد أن نعى سبحانه على المشركين ما هم عليه من جهل وعناد، وطغيان وفساد، وأنهم لم ينتفعوا بإعذار ولا إنذار، بل بقوا مصرّين على جهلهم، سادرين في ضلالهم أمر المؤمنين بأن يهتموا بإصلاح أنفسهم بالعلم النافع والعمل الصالح، وأبان لهم أنهم إذا أصلحوا أنفسهم، وقاموا بما أوجب الله عليهم من علم وعمل وتعليم وإرشاد فلا يضيرهم بعد ذلك ضلال من ضل وحاد عن الصراط السوي، وسار سادرا في غلواء الجهل والتقليد، وتنكب عن جادة الحق.

٢. ﴿يَا أيها الَّذِينَ آمنوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ أي احفظوا أنفسكم من المعاصي، وانظروا فيما يقرّبها من ربها، ويخلّصها من عقابه، ولا يضرّكم ضلال غيركم إذا أنتم اهتديتم ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾

٣. ﴿إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي إليه وحده رجوعكم ورجوع من ضل عما اهتديتم إليه فينبئكم عند الحساب بما كنتم تعملون في الدنيا ويجزيكم به.

٤. والخلاصة ـ إن الرواة من السلف[(٢)] متفقون على أن المؤمن لا يكون مهتديا إذا أصلح نفسه ولم يهتم بإصلاح غيره بأن يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر وأن ذلك فرض لا هوادة فيه، ولكن هذه الفريضة تسقط إذا فسد الناس فسادا لا يرجى معه تأثير الوعظ والإرشاد، أو فسادا يؤدى إلى إيذاء الواعظ المرشد، بأن يعلم أو يظن ظنا قويا بأن لا فائدة من نصحه، أو بأنه سيؤذى إذا هو أمر بمعروف أو نهى عن منكر، ويحرم عليه ذلك إذا أدى إلى الوقوع في التّهلكة.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٣)]:

١. إذا انتهى الله تعالى من تقرير حال الذين كفروا وقولهم التفت إلى (الذين آمنوا) يقرر لهم

---

(١) تفسير المراغي ٧/٤٦.

(٢) ذكر هنا بعض الأحاديث والآثار، التي سبق ذكرها.

(٣) في ظلال القرآن: ٢/٩٩٢.

انفصالهم وتميزهم؛ ويبين لهم تكاليفهم وواجبهم؛ ويحدد لهم موقفهم ممن سواهم؛ ويكلهم إلى حساب الله وجزائه لا إلى أي مغنم في هذه الأرض أو مأرب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، إنه التميز والمفاصلة بينهم وبين من عداهم، ثم إنه التضامن والتواصي فيما بينهم بوصفهم أمة واحدة.

٢. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، أنتم وحدة منفصلون عمن سواكم، متضامنون متكافلون فيما بينكم، فعليكم أنفسكم.. عليكم أنفسكم فزكوها وطهروها؛ وعليكم جماعتكم فالتزموها وراعوها؛ ولا عليكم أن يضل غيركم إذا أنتم اهتديتم، فأنتم وحدة منفصلة عمن عداكم؛ وأنتم أمة متضامنة فيما بينها بعضكم أولياء بعض، ولا ولاء لكم ولا ارتباط بسواكم.

٣. إن هذه الآية الواحدة تقرر مبادئ أساسية في طبيعة الأمة المسلمة، وفي طبيعة علاقاتها بالأمم الأخرى، إن الأمة المسلمة هي حزب الله، ومن عداها من الأمم فهم حزب الشيطان، ومن ثم لا يقوم بينها وبين الأمم الأخرى ولاء ولا تضامن، لأنه لا اشتراك في عقيدة؛ ومن ثم لا اشتراك في هدف أو وسيلة؛ ولا اشتراك في تبعة أو جزاء، وعلى الأمة المسلمة أن تتضامن فيما بينها؛ وأن تتناصح وتتواصى، وأن تهتدي بهدي الله الذي جعل منها أمة مستقلة منفصلة عن الأمم غيرها.. ثم لا يضيرها بعد ذلك شيئا أن يضل الناس حولها ما دامت هي قائمة على الهدى، تباشر القوامة على الناس كافة لتقيم العدل بينهم؛ ولتحول بينهم وبين الضلال والجاهلية التي منها أخرجتهم..

٤. إن كون الأمة المسلمة مسئولة عن نفسها أمام الله لا يضيرها من ضل إذا اهتدت، لا يعني أنها غير محاسبة على التقصير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينها أولا، ثم في الأرض جميعا، وأول المعروف الإسلام لله وتحكيم شريعته؛ وأول المنكر الجاهلية والاعتداء على سلطان الله وشريعته، وحكم الجاهلية هو حكم الطاغوت، والطاغوت هو كل سلطان غير سلطان الله وحكمه.. والأمة المسلمة قوامة على نفسها أولا؛ وعلى البشرية كلها أخيرا.

٥. وليس الغرض من بيان حدود التبعة في الآية كما فهم بعضهم قديما ـ وكما يمكن أن يفهم بعضهم حديثا ـ أن المؤمن الفرد غير مكلف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ إذا اهتدى هو بذاته ـ ولا أن الأمة المسلمة غير مكلفة إقامة شريعة الله في الأرض ـ إذا هي اهتدت بذاتها ـ وضل الناس من حولها.

٦. إن هذه الآية لا تسقط عن الفرد ولا عن الأمة التبعة في كفاح الشر، ومقاومة الضلال ومحاربة الطغيان ـ وأطغى الطغيان الاعتداء على ألوهية الله واغتصاب سلطانه وتعبيد الناس لشريعة غير شريعته، وهو المنكر الذي لا ينفع الفرد ولا ينفع الأمة أن تهتدي وهذا المنكر قائم.

٧. ولقد روى أصحاب السنن أن أبا بكر قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، وإنكم تضعونها على غير موضعها وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الناس إذا رأوا المنكر، ولا يغيرونه، يوشك الله عزّ وجل أن يعمهم بعقابه)، وهكذا صحح الخليفة الأول ما ترامى إلى وهم بعض الناس في زمانه من هذه الآية الكريمة، ونحن اليوم أحوج إلى هذا التصحيح، لأن القيام بتكاليف التغيير للمنكر قد صارت أشق، فما أيسر ما يلجأ الضعاف إلى تأويل هذه الآية على النحو الذي يعفيهم من تعب الجهاد ومشاقه، ويريحهم من عنت الجهاد وبلائه! وكلا والله! إن هذا الدين لا يقوم إلا بجهد وجهاد، ولا يصلح إلا بعمل وكفاح، ولا بد لهذا الدين من أهل يبذلون جهدهم لرد الناس إليه، ولإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ولتقرير ألوهية الله في الأرض، ولرد المغتصبين لسلطان الله عما اغتصبوه من هذا السلطان، ولإقامة شريعة الله في حياة الناس، وإقامة الناس عليها.. لا بد من جهد، بالحسنى حين يكون الضالون أفرادا ضالين، يحتاجون إلى الإرشاد والإنارة، وبالقوة حين تكون القوة الباغية في طريق الناس هي التي تصدهم عن الهدى؛ وتعطل دين الله أن يوجد، وتعوق شريعة الله أن تقوم.

٨. وبعد ذلك ـ لا قبله ـ تسقط التبعة عن الذين آمنوا، وينال الضالون جزاءهم من الله حين يرجع هؤلاء وهؤلاء إليه: ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. إذا كان الحلال بيّنا والحرام بيّنا، وإذ قد دعي الضالون، إلى الهدى، فلم يسمعوا، ونودوا من قريب إلى الرشاد فلم يرشدوا، و﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ ـ إذ كان ذلك فلا يشغل المؤمنون

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/٦١.

أنفسهم بهم، ولا يقفوا طويلا معهم على هذا المرعى الوبيل، الذي يرعون فيه، فلربما غفل المؤمنون عن أنفسهم وهم على هذا الموقف، وفاتهم ما كان ينبغي أن يحصلوه لأنفسهم من خير..

٢. في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ دعوة للمؤمنين أن يلتفتوا إلى أنفسهم أولا، وأن يعملوا على تحصينها من مسارب الضلال، وتزويدها بالمزيد من البر والتقوى.. فإنهم إن أنقذوا أنفسهم أولا كان ذلك كسبا لهم، وللحياة الإنسانية.. وذلك ما ينبغي أن يكون موضع نظرهم، ومحل اهتمامهم أولا، فإن بقي عندهم بعد هذا فضل من قوة لاستنقاذ من إذا مدوا إليه أيديهم استجاب لهم، فعلوا، وإلا كان عليهم أن ينجوا بأنفسهم، وإلا يكونوا كمن يمد يده إلى غريق يأبى إلا أن يموت غرقا، فيهلك ويهلك من أعطاه يده، وهذا، لا يمنع المؤمن أن يكون رسول خير وهدى إلى الناس، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، فهذا من دعوة الإسلام له، ومن حق العباد عليه، ولكن لن يكون ذلك بالذي يذهله عن نفسه، ويشغله عن مطلوبها منه، في تحصيل ما يقدر عليه من البر والتقوى.

٣. فالآية لا تعنى أبدا أن يعتزل المسلم الناس، وأن يعيش لنفسه وفي داخل نفسه، ومن فهمها على هذا الوجه فقد أخطأ الفهم، وجانب الصواب.. وإنما الآية دعوة إلى النّجاة بالنفس في الحال التي يواجه الإنسان فيها سرّا صارخا، وضلالا، متكاثفا، بحيث لا يصل إلى الآذان صدى من كلمة حق تقال، ولا ينفذ إلى العيون لمعة من مصباح هدى يضيء..

٤. روى أن أبا ثعلبة سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية، فقال ﷺ: (ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت دنيا مؤثرة، وشحّا مطاعا، وهوى متّبعا، وإعجاب كلّ ذي رأى برأيه، فعليك بخويصة نفسك، ودع الناس وعوامّهم).. وتجد في قول الرسول الكريم، وفي تلك الكلمات الموجزة، أوضح بيان وأبلغ بلاغ في الدلالة على مفهوم الآية الكريمة.. ففي قول رسول الله ﷺ: (ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر) هكذا بخطاب الجمع، هو دعوة عامة للمسلمين جميعا، أن يكون أمرهم بينهم قائما على هذا الدستور: الائتمار بالمعروف، والتناهي عن المنكر.. وفي قوله ﷺ: (حتى إذا رأيت دنيا مؤثرة وشحّا مطاعا وهوى متّبعا، وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك بخويصّة نفسك ودع الناس وعوامهم)، في هذا بيان لموقف آخر من موقف المسلم فيما هو مطلوب منه، من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وفي كلمة ﴿حَتَّى﴾ إشارة إلى تلك الغاية التي يصل إليها المسلم، ويقف عندها على النظر إلى خاصة نفسه، وذلك

حين يستشرى الفساد، ويطبق الظلام، ويتلفت إلى الناس من حوله، فإذا هم على طريق وإذا هو على طريق.. ولهذا جاء الخطاب بلفظ المفرد، (حتى إذا رأيت) الذي يشعر بأنه يقف وحده، جبهة مواجهة لهذا البلاء لجارف، الذي إن لم يأخذ فيه لنفسه حذرها، جرفه التيار، وغرق مع المغرقين.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تذييل جرى على مناسبة في الانتقال فإنّه لما ذكر مكابرة المشركين وإعراضهم عن دعوة الخير عقّبه بتعليم المسلمين حدود انتهاء المناظرة والمجادلة إذا ظهرت المكابرة، وعذر المسلمين بكفاية قيامهم بما افترض الله عليهم من الدعوة إلى الخير، فأعلمهم هنا أن ليس تحصيل أثر الدعاء على الخير بمسئولين عنه، بل على الداعي بذل جهده وما عليه إذا لم يصغ المدعوّ إلى الدعوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]

٢. و﴿عَلَيْكُمْ﴾ اسم فعل بمعنى الزموا، وذلك أنّ أصله أن يقال: عليك أن تفعل كذا، فتكون جملة من خبر مقدّم ومبتدأ مؤخّر، وتكون (على) دالّة على استعلاء مجازي، كأنّهم جعلوا فعل كذا معتليا على المخاطب ومتمكّنا منه تأكيدا لمعنى الوجوب فلمّا كثر في كلامهم قالوا: عليك كذا، فركّبوا الجملة من مجرور خبر واسم ذات مبتدأ بتقدير: عليك فعل كذا، لأنّ تلك الذات لا توصف بالعلوّ على المخاطب، أي التمكّن، فالكلام على تقدير، وذلك كتعلّق التحريم والتحليل بالذوات في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣]، وقوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ [المائدة: ١]، ومن ذلك ما روي عليكم الدعاء وعلي الإجابة ومنه قولهم: عليّ أليّة، وعليّ نذر، ثم كثر الاستعمال فعاملوا (على) معاملة فعل الأمر فجعلوها بمعنى أمر المخاطب بالملازمة ونصبوا الاسم بعدها على المفعولية، وشاع ذلك في كلامهم فسمّاها النحاة اسم فعل لأنّها جعلت كالاسم لمعنى أمر مخصوص، فكأنّك عمدت إلى فعل (الزم) فسمّيته (على) وأبرزت ما معه من ضمير فألصقته بـ (على) في صورة الضمير الذي اعتيد أن يتّصل بها، وهو ضمير الجرّ

---

(١) التحرير والتنوير: ٥/٢٤١.

فيقال: عليك وعليكما وعليكم، ولذلك لا يسند إلى ضمائر الغيبة لأنّ الغائب لا يؤمر بصيغة الأمر بل يؤمر بواسطة لام الأمر، فقوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ هو ـ بنصب ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ ـ أي الزموا أنفسكم، أي احرصوا على أنفسكم، والمقام يبيّن المحروص عليه، وهو ملازمة الاهتداء بقرينة قوله: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، وهو يشعر بالإعراض عن الغير وقد بيّنه بقوله: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ﴾

٣. فجملة ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ﴾ تتنزّل من التي قبلها منزلة البيان فلذلك فصلت، لأنّ أمرهم بملازمة أنفسهم مقصود منه دفع ما اعتراهم من الغمّ والأسف على عدم قبول الضالّين للاهتداء، وخشية أن يكون ذلك لتقصير في دعوتهم، فقيل لهم: عليكم أنفسكم، أي اشتغلوا بإكمال اهتدائكم، ففعل ﴿يَضُرُّكُمْ﴾ مرفوع.

٤. وقوله: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ ظرف يتضمّن معنى الشرط يتعلّق بـ ﴿يَضُرُّكُمْ﴾، وقد شمل الاهتداء جميع ما أمرهم به الله تعالى، ومن جملة ذلك دعوة الناس إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلو قصروا في الدعوة إلى الخير والاحتجاج له وسكتوا عن المنكر لضرّهم من ضلّ لأنّ إثم ضلاله محمول عليهم.

٥. فلا يتوهّم من هذه الآية أنّها رخصة للمسلمين في ترك الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنّ جميع ذلك واجب بأدلّة طفحت بها الشريعة، فكان ذلك داخلا في شرط ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، ولما في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ من الإشعار بالإعراض عن فريق آخر وهو المبيّن بـ ﴿مَنْ ضَلَّ﴾، ولما في قوله: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ من خفاء تفاريع أنواع الاهتداء؛ عرض لبعض الناس قديما في هذه الآية فشكّوا في أن يكون مفادها الترخيص في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد حدث ذلك الظنّ في عهد النبي ﷺ.

٦. وقوله: ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ عذر للمهتدي ونذارة للضالّ، وقدّم المجرور للاهتمام بمتعلّق هذا الرجوع وإلقاء المهابة في نفوس السامعين، وأكّد ضمير المخاطبين بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ للتنصيص على العموم وأن ليس الكلام على التغليب، والمراد بالإنباء بما كانوا يعملون الكناية عن إظهار أثر ذلك من الثواب للمهتدي الداعي إلى الخير، والعذاب للضالّ المعرض عن الدعوة، والمرجع مصدر ميمي لا محالة، بدليل تعديته بـ ﴿إِلَى﴾، وهو ممّا جاء من المصادر الميمية ـ بكسر العين ـ على القليل، لأنّ المشهود في الميمي

من يفعل ـ بكسر العين ـ أن يكون مفتوح العين.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. لقد كان النبي ﷺ شديد الرغبة في هدايتهم، حتى خاطبه ربه بقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء]، وكان كذلك المؤمنون، فبين الله أنهم غير مسئولين عن إيمانهم بعد أن يرشدوهم، فقال تعالت كلماته: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾

٢. كان المؤمنون يعجبون من حال الكفار كيف يتبعون آباءهم على غير بينة وكيف يستمرون في غيهم، ومنهم ذوو قربى، فكانوا يرشدونهم، ويجزعون لإصرارهم، فبين الله تعالى في هذا النص الكريم أنهم بعد البيان ليس عليهم إثمهم، بل عليهم أن يلزموا بعد التوجيه أنفسهم.

٣. ومعنى قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، احفظوا أنفسكم وصونوها عن الاتباع من غير تفكير، فلا تقلدوا آباءكم من غير بينة، واهتدوا بهدى الله، ولا يضركم ضلال من ضل واستمر على غيه بعد أن أرشد إلى وجه الحق، ولكن لم يدخل قلبه بل استمر على ضلاله القديم؛ فهذا النص الكريم يفيد أمرين:

أ. أولهما ـ أن يحفظوا أنفسهم، ويقوها شر التقليد المردي ويعملوا على أن تبقى الهداية منيرة سبيلهم عامرة قلوبهم بها.

ب. وثانيهما: أنه لا يضرهم ضلال الضالين، ما داموا قد تجنبوا طريق الغواية هم، وأرشدوهم إلى الحق.

٤. لعل ظاهر الآية يوهم أنه لا يضر ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ما دام لا يضر المؤمن ضلال من ضل، وقد ظهر ذلك الفهم الخطأ في عهد أبى بكر، فقال: إنكم تقرءون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وتضعونها في غير موضعها، وإني سمعت

(١) زهرة التفاسير: ٢٣٧٩/٥.

رسول الله ﷺ يقول: (إن الناس إذا رأوا المنكر فلم ينكروه يوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب) والآية ليس فيها دليل ناه عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والآيات الآمرة بهما، والأحاديث الواردة فيهما لا تزال قائمة ولا ينسخها وهم يسبق إلى ذوى الأوهام من غير نص يدل عليه، ولقد سئل النبي ﷺ عن مقام هذه الآية بالنسبة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقال ﷺ: (بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شرا مطاعا، وهوى متبعا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأى برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع العوام، فإن من ورائكم أياما الصابر فيهن مثل القابض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون كعملكم) وروى عن بعض التابعين أنه قال: كنت في حلقة فيها أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فقلت أنا: أليس الله تعالى قال في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، فأقبلوا على بلسان واحد، وإني لأصغرهم سنا، وقالوا: أتنزع آية من القرآن لا تعرفها، ولا تدرى ما تأويلها!؟ فتمنيت أنى لم أكن تكلمت، وأقبلوا يتحدثون، فلما حضر قيامهم، قالوا: إنك غلام حديث السن، وإنك نزعت آية ولا تدرى ما هي، وعسى أن تدرك ذلك الزمان، إذا رأيت شرا مطاعا وهوى متبعا، وإعجاب كل ذي رأى برأيه، فعليك بنفسك لا يضركم من ضل إذا اهتديت.

٥. وخلاصة المروى عن آثار رسول الله ﷺ والذين اتبعوهم بإحسان أن الآية لا تمنع القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، بل القيام به واجب محكم وإنه لا يتم الاهتداء المنصوص عليه في الآية إلا بالقيام بهذا الواجب الخطير، وإنه لا يترك إلا بحقه، وذلك إذا كان النداء بالحق يورث الفتن عندما يكون الهوى مطاعا والشر متبعا ولا يستطيع منادى الحق، أن يجد مصيخا وقوله يزيد حدة الخلاف، ولا يكون سماع لذوى الكيس والرشد، ولقد قال عبد الله بن المبارك: إن هذه الآية أوكد في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ لأن الخطاب لجماعة المؤمنين، ومؤداها احفظوا أنفسكم معشر جماعة المؤمنين، ولا يهمكم ضلال غيركم من الأمم، ولا يجعلكم تغيرون أموركم إلى فساد، ولا شك أن من حفظ جماعة المؤمنين القيام بذلك الواجب العظيم.

٦. وفى الحق إن القيام بهذا الواجب هو خاصة الأمة الإسلامية كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ

مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران]، ولا يصح أن يتخلى عنه، وليس في مصادر الشريعة ولا في مواردها ما يسوغ التخلي وأن ترك القول في أيام الفتن الطحياء التي يكون القول مؤديا إلى زيادة في الفتن والاتهام، فلا يجدى قول، ولا يهدى فكر إلى الرشاد، فيكون السكوت أولى من الكلام، حتى تهدأ عجاجة الفتنة، وتعود القلوب إلى جنوبها، ويوجد السميع، ولكن في هذه الحال يكون الإنكار القلبي وإرشاد القابلين للإرشاد، في غير ضجيج ولا عجيج والله سبحانه وتعالى راد الحق إلى نصابه، والقضب إلى أجفانها، وهو بكل شيء عليم.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ذكر الرازي ثمانية أوجه لتفسير هذه الآية، وكتب بعض المفسرين الجدد ٣٣ صفحة عند تفسيرها.. والذي دعا هذين، وغيرهما من المفسرين إلى التطويل والتأويل هو أن الأمر بالمعروف واجب، وظاهر الآية يدل على عدم وجوبه، وأن على المرء أن يهتم بنفسه لنفسه، أما غيرها من الأنفس فصاحبها وحده هو المسئول عنها، ولا يجب على أحد ردعه ولا إرشاده.

٢. والصحيح في تفسير الآية أن على المرء أن يأمر بالمعروف، فإن نفع أمره فذاك هو المطلوب، وإلا فقد أدى الآمر ما عليه، ولا يضره ضلال من ضل، والمسئول بعد الآمر هو الضال، وليس الآمر.. وهذا التفسير يؤكد وجوب الأمر بالمعروف ولا ينفيه.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

١. الآية تأمر المؤمنين أن يلزموا أنفسهم، ويلازموا سبيل هدايتهم ولا يوحشهم ضلال من ضل من الناس فإن الله سبحانه هو المرجع الحاكم على الجميع حسب أعمالهم، والكلام مع ذلك لا يخلو عن غور عميق.

(١) التفسير الكاشف: ٣/١٣٩.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٦/١٦٣.

٢. ﴿يَا أيها الَّذِينَ آمنوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ لفظة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ اسم فعل بمعنى ألزموا، و﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ مفعوله، ومن المعلوم أن الضلال والاهتداء ـ وهما معنيان متقابلان ـ إنما يتحققان في سلوك الطريق لا غير؛ فالملازم لمتن الطريق ينتهي إلى ما ينتهي إليه الطريق، وهو الغاية المطلوبة التي يقصدها الإنسان السالك في سلوكه، أما إذا استهان بذلك وخرج عن مستوى الطريق فهو الضلال الذي تفوت به الغاية المقصودة فالآية تقدر للإنسان طريقا يسلكه ومقصدا يقصده غير أنه ربما لزم الطريق فاهتدى إليه أو فسق عنه فضل وليس هناك مقصد يقصده القاصد إلا الحياة السعيدة، والعاقبة الحسنى بلا ريب لكنها مع ذلك تنطق بأن الله سبحانه هو المرجع الذي يرجع إليه الجميع: المهتدي والضال.

٣. فالثواب الذي يريده الإنسان في مسيره بالفطرة إنما هو عند الله سبحانه يناله المهتدون، ويحرم عنه الضلال، ولازم ذلك أن يكون جميع الطرق المسلوكة لأهل الهداية والطرق المسلوكة لأهل الضلال تنتهي إلى الله سبحانه، وعنده سبحانه الغاية المقصودة وإن كانت تلك الطرق مختلفة في إيصال الإنسان إلى البغية والفوز والفلاح أو ضربه بالخيبة والخسران، وكذلك في القرب والبعد كما قال تعالى: ﴿يَا أيها الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾: الانشقاق ٦ وقال تعالى: ﴿إلا إِنَّ حِزْبَ الله هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ الله كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨] وقال تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا﴾ ﴿لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [حم السجدة: ٤٤]

٤. بين تعالى في هذه الآيات أن الجميع سائرون إليه سبحانه سيرا لا مناص لهم عنه، غير أن طريق بعضهم قصير وفيه الرشد والفلاح، وطريق آخرين طويل لا ينتهي إلى سعادة، ولا يعود إلى سالكه إلا الهلاك والبوار، وبالجملة فالآية تقدر للمؤمنين وغيرهم طريقين اثنين ينتهيان إلى الله سبحانه، وتأمر المؤمنين بأن يشتغلوا بأنفسهم وينصرفوا عن غيرهم وهم أهل الضلال من الناس ولا يقعوا فيهم ولا يخافوا ضلالهم فإنما حسابهم على ربهم لا على المؤمنين وليسوا بمسئولين عنهم حتى يهمهم أمرهم؛ فالآية قريبة المضمون من قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمنوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أيام الله لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الجاثية: ١٤] ونظيرها قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا

تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]، فعلى المؤمن أن يشتغل بما يهم نفسه من سلوك سبيل الهدى، ولا يهزهزه ما يشاهده من ضلال الناس وشيوع المعاصي بينهم ولا يشغله ذلك ولا يشتغل بهم فالحق حق وإن ترك والباطل باطل وإن أخذ به كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللهَ﴾ ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ [حم السجدة: ٣٤]

٥. فقوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ بناء على ما مر مسوق سوق الكناية أريد به نهي المؤمنين عن التأثر من ضلال من ضل من الناس فيحملهم ذلك على ترك طريق الهداية كأن يقولوا: إن الدنيا الحاضرة لا تساعد الدين ولا تبيح التنحل بالمعنويات فإنما ذلك من السنن الساذجة وقد مضى زمنه وانقرض أهله، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص: ٥٧]، أو يخافوا ضلالهم على هدى أنفسهم فيشتغلوا بهم وينسوا أنفسهم فيصيروا مثلهم فإنما الواجب على المؤمن هو الدعوة إلى ربه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبالجملة الأخذ بالأسباب العادية ثم إيكال أمر المسببات إلى الله سبحانه فإليه الأمر كله، فأما أن يهلك نفسه في سبيل إنقاذ الغير من الهلكة فلم يؤمر به، ولا يؤاخذ بعمل غيره، وما هو عليه بوكيل، وعلى هذا فتصير الآية في معنى قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أحسن عَمَلًا وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أو قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أو كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لله الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمنوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١] ونحو ذلك.

٦. وقد تبين بهذا البيان أن الآية لا تنافي آيات الدعوة وآيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن الآية إنما تنهى المؤمنين عن الاشتغال بضلال الناس عن اهتداء أنفسهم وإهلاك أنفسهم في سبيل إنقاذ غيرهم وإنجائه، على أن الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من شئون اشتغال المؤمن بنفسه وسلوكه سبيل ربه، وكيف يمكن أن تنافي الآية آيات الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو تنسخها؟ وقد عدهما الله سبحانه من مشخصات هذا الدين وأسسه التي بني عليها كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨] وقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ

لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]

٧. فعلى المؤمن أن يدعو إلى الله على بصيرة وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر على سبيل أداء الفريضة الإلهية وليس عليه أن يجيش ويهلك نفسه حزنا أو يبالغ في الجد في تأثير ذلك في نفوس أهل الضلال فذلك موضوع عنه.

٨. وإذا كانت الآية قدرت للمؤمنين طريقا فيه اهتداؤهم ولغيرهم طريقا من شأنه ضلال سالكيه، ثم أمر المؤمنين في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ بلزوم أنفسهم كان فيه دلالة على أن نفس المؤمن هو الطريق الذي يؤمر بسلوكه ولزومه فإن الحث على الطريق إنما يلائم الحث على لزومه والتحذير من تركه لا على لزوم سألك الطريق كما نشاهده في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فأمره تعالى المؤمنين بلزوم أنفسهم في مقام الحث على التحفظ على طريق هدايتهم يفيد أن الطريق الذي يجب عليهم سلوكه ولزومه هو أنفسهم، فنفس المؤمن هو طريقه الذي يسلكه إلى ربه وهو طريق هداه، وهو المنتهى به إلى سعادته.

٩. فالآية تجلي الغرض الذي تؤمه إجمالا آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿يَا أيها الَّذِينَ آمنوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]، فالآيات تأمر بأن تنظر النفس وتراقب صالح عملها الذي هو زادها غدا وخير الزاد التقوى فللنفس يوم وغد وهي في سير وحركة على مسافة، والغاية هو الله سبحانه وعنده حسن الثواب وهو الجنة فعليها أن تدوم على ذكر ربها ولا تنساه فإنه سبحانه هو الغاية، ونسيان الغاية يستعقب نسيان الطريق فمن نسي ربه نسي نفسه، ولم يعد لغده ومستقبل مسيره زادا يتزود به ويعيش باستعماله وهو الهلاك، وهذا معنى ما رواه الفريقان عن النبي ﷺ: من عرف نفسه فقد عرف ربه، وهذا المعنى هو الذي يؤيده التدبر التام والاعتبار الصحيح فإن الإنسان في مسير حياته إلى أي غاية امتدت لا هم له في الحقيقة إلا خير نفسه وسعادة حياته وإن اشتغل في ظاهر الأمر ببعض ما يعود نفعه إلى غيره، قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾

١٠. وليس هناك إلا هذا الإنسان الذي يتطور طورا بعد طور، ويركب طبقا عن طبق من جنين

وصبي وشاب وكهل وشيخ ثم الذي يديم الحياة في البرزخ ثم يوم القيامة ثم ما بعده من جنة أو نار، فهذه هي المسافة التي يقطعها الإنسان من موقفه في أول تكونه إلى أن ينتهي إلى ربه، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: ٤٢]، وهو الإنسان لا يطأ موطأ في مسيره ولا يسير ولا يسري إلا بأعمال قلبية هي الاعتقادات ونحوها وأعمال جوارحية صالحة، أو طالحة وما أنتجه عمله يوما كان هو زاده غدا فالنفس هو طريق الإنسان إلى ربه، والله سبحانه هو غايته في مسيره، وهذا طريق اضطراري لا مناص للإنسان عن سلوكه كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَا أيها الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ فهذا طريق ضروري السلوك يشترك فيه المؤمن والكافر والملتفت المتنبه والغافل العامة، والآية لا تريد الحث على لزومه بمعنى البعث على سلوكه ممن لا يسلك.

١١. وإنما تريد الآية تنبيه المؤمنين على هذه الحقيقة بعد غفلتهم عنها، فإن هذه الحقيقة كسائر الحقائق التكوينية وإن كانت ثابتة غير متغيرة بالعلم والجهل لكن التفات الإنسان إليها يؤثر في عمله تأثيرا بارزا، والأعمال التي تربي النفس الإنسانية تربية مناسبة لسنخها وإذا كان العمل ملائما لواقع الأمر مناسبا لغاية الصنع والإيجاد كانت النفس المستكملة بها سعيدة في جدها، غير خائبة في سعيها ولا خاسرة في صفقتها، وقد مر بيان ذلك في مواضع كثيرة من هذا الكتاب بما لا يبقى معه ريب.

١٢. وتوضيح ذلك بما يناسب هذا المقام أن الإنسان كغيره من خلق الله سبحانه واقع تحت التربية الإلهية من دون أن يفوته تعالى شيء من أمره، وقد قال تعالى: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] وهذه تربية تكوينية على حد ما يربي الله سبحانه غيره من الأمور، في مسيرها جميعا إليه تعالى، وقد قال: ﴿ألا إِلَى الله تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣] ولا يتفاوت الأمر ولا يختلف الحال في هذه التربية بين شيء وشيء فإن الصراط مستقيم، والأمر متشابه مطرد، وقد قال تعالى أيضا: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، وقد جعل سبحانه غاية الإنسان وما ينتهي إليه أمره ويستقر عليه عاقبته من حيث السعادة والشقاوة والفلاح والخيبة مبنية على أحوال وأخلاق نفسانية مبنية على أعمال من الإنسان تنقسم تلك الأعمال إلى صالحة وطالحة وتقوى وفجور كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ١٠] فالآيات ـ كما ترى ـ تضع النفس المسواة في جانب وهو مبدأ الحال، والفلاح والخيبة في جانب وهو الغاية ومنتهى المسير، ثم

تبني الغايتين أعني الفلاح والخيبة على تزكية النفس وتدسيتها وذلك مرحلة الأخلاق، ثم تبني الفضيلة والرذيلة على التقوى والفجور أعني الأعمال الصالحة والطالحة التي تنطق الآيات بأن الإنسان ملهم بها من جانب الله تعالى.

١٣. والآيات في بيانها لا تتعدى طور النفس بمعنى أنها تعتبر النفس هي المخلوقة المسواة وهي التي أضيف إليها الفجور والتقوى، وهي التي تزكى وتدسى، وهي التي يفلح فيها الإنسان ويخيب، وهذا كما عرفت جري على مقتضى التكوين.

١٤. لكن هذه الحقيقة التكوينية أعني كون الإنسان في حياته سائرا في مسير نفسه لا يسعه التخطي عنها ولو بخطوة، ولا تركها والخروج منها ولو لحظة، لا يتساوى حال من تنبه له وتذكر به تذكرا لازما لا يتطرق إليه نسيان، وحال من غفل عنه ونسي الواقع الذي لا مفر له منه، وقد قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فإن لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ﴾ ﴿أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: ١٢٦]، وذلك أن المتنبه إلى هذه الحقيقة حيثما يلتفت إلى حقيقة موقفه من ربه ونسبته إلى سائر أجزاء العالم وجد نفسه منقطعة عن غيره وقد كان يجدها على غير هذا النعت ومضروبا دونها الحجاب لا يمسها بالإحاطة والتأثير إلا ربها المدبر لأمرها الذي يدفعها من ورائها ويجذبها إلى قدامها بقدرته وهدايته، ووجدها خالية بربها ليس لها من دونه من وال، وعند ذلك يفقه معنى قوله تعالى: ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بعد قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ ومعنى قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾[الأنعام: ١٢٢]، وعند ذلك يتبدل إدراك النفس وشعورها، ويهاجر من موطن الشرك إلى موقف العبودية ومقام التوحيد ولا يزال يعوض شركا من توحيد وتوهما من تحقق وبعدا من قرب واستكبارا شيطانيا من تواضع رحماني واستغناء وهميا من فقر عبودي إن أخذت بيدها العناية الإلهية وساقها سائق التوفيق.

١٥. ونحن وإن كان لا يسعنا أن نفقه هذه المعاني حق الفقه لمكان إخلادنا إلى الأرض واشتغالنا عن الغوص في أغوار هذه الحقائق التي يكشف عنها الدين ويشير إليها الكتاب الإلهي بما لا يعنينا من

فضولات هذه الحياة الفانية التي لا يعرفها الكلام الإلهي في بيانه إلا بأنها لعب ولهو كما قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام: ٣٢] وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠]، إلا أن الاعتبار الصحيح والبحث البالغ والتدبر الوافي يوصلنا إلى التصديق بكلياتها إجمالا وإن قصرنا عن إحصاء التفاصيل والله الهادي.

١٦. ولعلنا خرجنا عن طور الاختصار فلنرجع إلى أول الكلام فنقول: وتسع الآية أن تحمل على الخطاب الاجتماعي بأن يكون المخاطب بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مجتمع المؤمنين فيكون المراد بقوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ هو إصلاح المؤمنين مجتمعهم الإسلامي باتخاذ صفة الاهتداء بالهداية الإلهية بأن يحتفظوا على معارفهم الدينية والأعمال الصالحة والشعائر الإسلامية العامة كما قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقد تقدم في تفسيره أن المراد بهذا الاعتصام الاجتماعي الأخذ بالكتاب والسنة، ويكون قوله: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ يراد به أنهم في أمن من إضرار المجتمعات الضالة غير الإسلامية فليس من الواجب على المسلمين أن يبالغوا الجد في انتشار الإسلام بين الطوائف غير المسلمة أزيد من الدعوة المتعارفة كما تقدم، أو أنه لا يجوز لهم أن ينسلوا مما بأيديهم من الهدى من مشاهدة ما عليه المجتمعات الضالة من الانهماك في الشهوات والتمتع من مزايا العيش الباطلة فإن الجميع مرجعهم إلى الله فينبئهم بما كانوا يعملون، وتجري الآية على هذا مجرى قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٧]، وقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[طه: ١٣١]

١٧. وهنا معنى آخر لقوله: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ من جهة أن المنفي في الآية هو الإضرار المنسوب إلى نفس الضالين دون شيء معين من صفاتهم أو أعمالهم فتفيد الإطلاق، ويكون المعنى نفي أن يكون الكفار ضارين للمجتمع الإسلامي بتبديله مجتمعا غير إسلامي بقوة قهرية فتكون الآية مسوقة سوق قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٣]، وقوله: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ [آل عمران: ١١١]

١٨. وقد ذكر جمع من مفسري السلف أن مفاد الآية هو الترخيص في ترك الدعوة الدينية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذكروا أن الآية خاصة تختص بزمان أو حال لا يوجد فيه شرط الدعوة

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو الأمن من الضرر وقد رووا في ذلك روايات ستأتي الإشارة إليها في البحث الروائي الآتي[1]، ولازم هذا المعنى أن يكون قوله: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ كناية عن انتفاء التكليف أي لا تكليف عليكم في ذلك وإلا فتضرر المجتمع الديني من شيوع الضلال من كفر أو فسق مما لا يرتاب فيه ذو ريب، لكن ذلك معنى بعيد لا يحتمله سياق الآية فإن الآية لو أخذت مخصصة لعمومات وجوب الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلسانها ليس لسان التخصيص، وإن أخذت ناسخة فآيات الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر آبية من النسخ، وللكلام تتمة ستوافيك.

١٩. ذكر هنا مبحثا حول (معرفة النفس، وعلاقتها بمعرفة الله)، ليس له صلة مباشرة بالتفسير التحليلي، نقلناه إلى محله من السلسلة.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

١. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): (قال المرتضى عليه السلام: معنى الآية وتفسيرها: لا يضركم ضلال الضالين، ولا تحاسبون بفعل المبطلين، ولا تسألون عن شيء من أعمال المفسدين، وإنما أفعالهم عليهم وضررهم في رقابهم، وقد ذكر أن اليهود قالوا للمسلمين: كيف تطمعون بالنجاة وآباؤكم مشركون ولستم بناجين من فعلهم؟ فأنزل الله هذه الآية، وقال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام:١٦٤] فأخبر أنه لا يعذّب أحد بجرم أحد والداً كان أو ولداً)

٢. وقوله تعالى: ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ دليل: على أنه لا يسقط عن المؤمن تكليفه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد وغير ذلك، كإقامة الحدود، واجتناب الموالاة؛ لأن ذلك من الهدى الذي شرعه الله في القرآن، فمن ترك ما أمر الله به فلم يهتدِ.

٣. وأما قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ فإنما هو إغراء لحفظ النفس من أسباب الهلكة، وليس معناه: لا تبالوا بضلال غيركم، ولا تأمروا بمعروف، ولا تنهوا عن منكر.

---

(١) سبق ذكرها

(٢) التيسير في التفسير: ٢/٣٩١.

٤. ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أنتم ومن ضل ترجعون مجتمعين للسؤال والجزاء ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ فيخبركم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لأنه لم يخفَ عليه شيء من أعمالكم وهو يحاسبكم ويجزيكم.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. هذا نداء للمؤمنين يحدد مسئوليّتهم الإيمانيّة في الحياة، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ فلكل منهم مسئوليّته عن نفسه في تهيئة سبل الهداية الفكريّة والعقيديّة والمنهجيّة على طريق إنجاز البرامج والخطط والأهداف والخبرة المتعلّقة بها، فإذا تمّ له ذلك على النهج الّذي يرضاه الله ورسوله، فقد أخذ بأسباب الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، ولن يضره بعد ذلك كفر الكافرين وضلال الضالين، لأنّ المسألة لا تتعدى صاحبها فيما يؤكده الإسلام من فردية التبعة، فلا يتحمل إنسان ذنب غيره، ولا يؤخذ المهتدي بضلال الضالّ، مهما كانت درجة قرابته به وعلاقته معه.

٢. وهكذا يريد القرآن الإيحاء للإنسان بالاستغراق في هذا الاتجاه من أجل أن يحمل مسئوليّته عن نفسه كاملة غير منقوصة، فيعمّق لها مفاهيمها عن الكون والحياة، طبقا لما أوحاه الله إلى رسوله، ولما بلّغه الرسول ﷺ إلى النّاس، حتّى لا تشتبه عليه الأمور، فيضّل عن الهدى من غير علم، وينحرف عن الحقّ من دون وعي، وحتى يمتدّ في خط العمل على الصراط المستقيم، فيضبط خطواته عن الانحراف، ويمنعها من الزلل، بالسير في حياته على هدي شريعة الله فيما تأمره به وتنهاه عنه، ليتأكد لديه الفكر والالتزام، فيصوغ على ذلك شخصيته صياغة إسلاميّة لا مجال فيها للاهتزاز والارتباك، ويتابع ـ بعد ذلك ـ عمليّة المراقبة والمحاسبة والرصد لكل حركة في داخل النفس من أفكاره ومشاعره، وفي خارجها من أقواله وأفعاله، ليستقيم له دورها وفاعليتها بانضباط دقيق بشكل مستمر، من دون التفات إلى ما حولها من حالات الانحراف والضلال، لأنّ ذلك ليس مسئوليته فيما يحمّله الله من ذلك.

٣. ولكن، ماذا عن الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر!؟ فقد حمّل الله المؤمنين

---

(١) من وحى القرآن: ٨/٣٧٠.

مسئوليّة هذه الأمور، واعتبر الالتزام بها استقامة على الدرب، وإهمالها انحرافا عنه، وتوعّد التاركين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما لم يتوعّد به على أيّة معصية أخرى، فكيف نوفّق بين ذلك، وبين ما توحي به هذه الآية من وقوف المسؤوليّة عند حدود النفس فلا تتعداها إلى غيرها؟ فهل هناك ناسخ ومنسوخ بين هذه الآية وبقيّة الآيات الأخرى كما يتصوره البعض، وهل هناك تحديد للآية في نطاق معين، كما في حالات التقيّة، أو في حالات الكفّار كما في بعض الرّوايات، أو أنّ القضيّة تتجه اتجاها آخر!؟

٤. والجواب عن ذلك، أنّ الآية لا تأخذ وجهة الإهمال لدعوة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنّ مدلولها يتضمن مسئوليّة الإنسان عن نفسه في القيام بها على أساس الخط المستقيم الّذي رسمه الله، وذلك في مختلف دوائر وشؤون حياته الإيمانيّة والعمليّة والالتزاميّة، سواء تلك المتصلة بشؤونه الخاصة أو العامة، فقد كلّفه الله بأن يمارس نشاطه العملي في هداية النّاس وإرشادهم، وحفظ خطواتهم من الزلل، ورعاية أمورهم، وتدبير قضاياهم، قدر إمكاناته الماديّة والمعنويّة، وعلى ضوء هذا، فإنّ مسئوليّته عن النّاس هي جزء من مسئوليّته عن نفسه، باعتبار أنّ ذلك من واجبات الإيمان وليس في الآية ما يدل على خلاف ذلك، بل هي واردة للتأكيد على الفصل بين النتائج الإيجابيّة الّتي ينتهي إليها الإنسان من خلال القيام بالتزاماته الشرعيّة، وبين النتائج السلبيّة الّتي تتمثّل في سلوك النّاس مع أنفسهم، سواء كان ذلك من جهة عدم استجابتهم له فيما يدعوهم أو يهديهم إليه، أو عدم انضباطهم في واجباتهم بشكل ذاتي، فلا علاقة له بالنتائج السلبيّة المنطلقة من تمردهم وضلالهم، ولأنّه قد قام بواجبه كاملا في هداية نفسه وهداية غيره، فلا يضره من ضلّ إذا اهتدى، وبذلك تكون المسألة مرتبطة بحركة الواقع في حياة الضالين والمهتدين، بعد استكمال كل الشروط الموضوعيّة الّتي تقوم بها الحجّة على الضالين، وتتحرّك بها المسؤوليّة من خلال المهتدين، ولا بدّ من التركيز على كلمة ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ فإنّها توحي بما قلناه، فيكون مساقها مساق الآيات الّتي تتحدث عن إبلاغ الدعوة إلى النّاس، باعتبار أنّ ذلك هو ما يستطيع الداعية أن يتحمل مسئوليّته، لأنّ هناك شروطا في حركة الفكر والإرادة للإنسان، كما أنّ هناك شروطا في الأجواء المحيطة به، وليس على الداعية إلى الله، نبيّا كان أو غير نبيّ، إلّا أن يبلّغ بأفضل أساليب التبليغ، وليس من مسئوليّته ماذا يحصل بعد ذلك سلبا أو إيجابا.

٥. وقد ذكر بعض المفسرين احتمالا في النطاق الّذي تتحرك فيه الآية، بأنّ المخاطب بها هو مجتمع

المؤمنين الّذي يواجه مجتمع الكافرين بانحرافاته وضلالاته، ليكون المراد بقوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ هو إصلاح المؤمنين مجتمعهم الإسلامي باتخاذ صفة الاهتداء بالهداية الإلهيّة من خلال المحافظة على معارفهم الدينيّة والأعمال الصالحة والشعائر الإسلاميّة العامة، كما قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فإنّ المراد بهذا الاعتصام الاجتماعي الأخذ بالكتاب والسنة، ويكون قوله: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، يراد به أنّهم في أمن من أضرار المجتمعات الضالة غير الإسلاميّة، فليس من الواجب على المسلمين أن يبلغوا الجد في انتشار الإسلام بين الطوائف غير المسلمة أزيد من الدعوة المتعارفة، أو أنّه لا يجوز لهم أن ينسلوا مما بأيديهم من الهدى من مشاهدة ما عليه المجتمعات الضالة من الانهماك في الشهوات والتمتع من مزايا العيش الباطلة، إذ ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، وتجري الآية على هذا، مجرى قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦ ـ ١٩٧]

٦. ولكنّ الظاهر من الآية أنّها لا تخاطب المؤمنين كمجتمع من حيث إنّهم مجموعة مميّزة مرتبطة ببعضها البعض في مقابل مجتمع آخر على هذا النحو، بل هي في مقام إثارة القضيّة في حياة كل فرد من أفراد المؤمنين لتحديد دوره ومسئوليّته، تماما كما هي الآيات الكثيرة في القرآن الّتي تطلب من المؤمنين أشياء وتنهاهم عن أشياء، فإنّها جاءت تخاطب الأفراد بطريقة الجمع الّذي يختصر الأعداد الكثيرة بكلمة واحدة، لتحدّد لكلّ إنسان منهم دوره بعيدا عن أدوار الآخرين فيما تتمثّل فيه من سلبيات، والله العالم.

٧. ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فهذا الجزء من الآية موضوع البحث، لا يدع مجالا للشك، بأن الجميع سائر إلى الله، المؤمن والكافر معا، وأهل الضلالة معا، وبالتالي تثبت أن جميع الطرق منتهية عند الله تعالى حيث يوفي كل من سالكيها حسابه، حيث تتباين النتائج وتتراوح ما بين الفوز والفلاح أو الخيبة والخسران، وذلك وفق ميزان الأعمال، وحيث تجد كل نفس ما عملت محضرا، وحيث من ثقلت موازينه فأمه هاوية.. وأما من خفت موازينه فهو في عيشة راضية.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. دار الحديث في الآية السابقة حول تقليد الجاهليين آباءهم الضالين، فأنذرهم القرآن بأن تقليدا كهذا لا ينسجم مع العقل والمنطق، فمن الطبيعي أن يتبادر إلى أذهانهم السؤال: إنّنا إذا كان علينا أن ننفصل عن أسلافنا في هذه الأمور، فماذا سيكون مصيرهم؟ ثمّ إذا نحن أقلعنا عن هذه التقاليد فما مصائر الكثير من الناس الذين ما يزالون متمسكين بها وواقعين تحت تأثيرها فكان جواب القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾

٢. ثمّ يشير إلى موضوع البعث والحساب ومراجعة حساب كل فرد: ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

٣. أثار بعضهم شبهة حول هذه الآية، فظن أنّ بين هذه الآية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ وهو من التشريعات الإسلامية الصريحة المسلم بها ـ ضرب من التضاد أو التناقض، إذ أن هذه الآية تقول ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾

٤. هناك أحاديث وروايات تدل على أنّ هذا الموضوع أثار شبهة حتى في عصر نزول الآية يقول (جبير بن نفيل): كنت في جمع من أصحاب رسول الله ﷺ جالسين بحضرته، وكنت أحدثهم سنا، وكان الحديث يدور حول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقاطعتهم وقلت: ألم يأت في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (أي بهذه الآية لا يبقى ما يوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وإذا بالحاضرين يجمعون على توبيخي وتقريعي قائلين: كيف تقتبس آية من القرآن دون أن تعرف معناها وتفسيرها؟ فندمت على ما قلت أشد الندم، وعادوا إلى بحثهم السابق، وعند انفضاض المجلس التفتوا إلى قائلين: إنّك شاب حدث السن، قمت بتفصيل آية من القرآن عما حولها بغير أن تعرف معناها، وقد يطول بك العمر حتى ترى كيف يحيط البخل بالناس ويسيطر عليهم، وتسيطر عليهم أهواؤهم ويعتدّ كل منهم برأيه، فلتحذر يومئذ من أن يضرّك من ضل منهم (أي أنّ الآية تشير إلى ذلك الزمان)

(١) تفسير الأمثل: ٤/١٧٢.

٥. واليوم نجد الراكنين إلى الدعة وطلاب الراحة، عندما يدور الحديث حول القيام بهاتين الفريضتين الإلهيتين الكبيرتين ـ الأمر بالمعروف ـ والنهي عن المنكر ـ يتذرعون بهذه الآية ويحرفونها عن موضعها، مع أنّنا بقليل من الدقّة في النظر ندرك ألّا تضاد بين هاتين الفريضتين وما جاء في هذه الآية:

أ. فأوّلا: تبيّن الآية أنّ كل امرئ يحاسب على انفراد، وأنّ ضلال الآخرين من الأسلاف وغير الأسلاف لا يؤثر في هداية الذين اهتدوا، حتى وإن كانوا قريبين قرب الأخ أو الأب أو الابن، لذلك فلا تتبعوهم وانجوا بأنفسكم.

ب. وثانيا: تشير هذه الآية إلى الحالة التي لا يكون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أي أثر، أو تكون شروط فاعليتهما غير متوفرة، ففي أمثال هذه الحالات يشعر بعض المؤمنين بالألم، ويتساءلون عمّا ينبغي لهم أن يفعلوه، فتجيبهم الآية: لا تثريب عليكم، فقد أديتم واجبكم، إذ ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، نجد هذا المعنى في الحديث الذي ذكرناه أعلاه، وكذلك في بعض الأحاديث الأخرى فقد سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال: (ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، فإذا رأيت دنيا مؤثرة وشحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخويصة نفسك وذر عوامهم)، وهناك روايات أخرى بالمضمون نفسه وتفيد هذه الحقيقة ذاتها.

٦. فخر الدين الرازي ـ حسب عادته ـ يذكر عدة أوجه في الإجابة على السؤال المذكورة، ولكنّها تكاد تعود كلها إلى الأمر الذي ذكرناه، ولعله ذكرها جميعا لبيان كثرة عددها.

٧. على كلّ حال، لا شك أنّ مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أركان الإسلام التي لا يمكن التغاضي عنها بأي شكل من الأشكال، ولا تسقط إلّا عند اليأس من تأثيرها أو من توفر شروطها.

٨٨. الوصية وأحكام الشهادة عليها

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٨٨] من سورة المائدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٦ ـ ١٠٨]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن مسعود:

روي عن عبد الله بن مسعود (ت ٣٢ هـ) أنّه سئل عن هذه الآية: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾، فقال: ما من الكتاب إلا قد جاء على شيء جاء على إدلاله غير هذه الآية، ولئن أنا لم أخبركم بها لأنا أجهل من الذي يترك الغسل يوم الجمعة، هذا رجل خرج مسافرا ومعه مال، فأدركه قدره، فإن وجد رجلين من المسلمين دفع إليهما تركته، وأشهد عليهما عدلين من المسلمين، فإن لم يجد عدلين من المسلمين فرجلين من أهل الكتاب، فإن أدى فسبيل ما أدى، وإن هو جحد استحلف بالله الذي لا إله إلا هو دبر صلاة: إن هذا الذي دفع إلي، وما غيبت منه شيئا، فإذا حلف برئ، فإذا أتى بعد ذلك صاحبا الكتاب فشهدا عليه، ثم ادعى القوم عليه من تسميتهم ما لهم، جعلت أيمان الورثة مع شهادتهم، ثم اقتطعوا حقه، فذلك الذي يقول الله: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾[1].

الخراساني:

(١) ابن أبي حاتم ١٢٢٩/٤.

روي عن عطاء الخراساني (ت ٦٠ هـ) أنّه قال: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾، قال: فإن اطلع أولياء الميت على أنهما استحقا بأيمانهما وشهادتهما إثما من مال الميت(١).

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء، فمات السهمي بأرض ليس فيها مسلم، فأوصى إليهما، فلما قدما بتركته فقدوا جاما من فضة مخوصا بالذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ بالله ما كتمتماها ولا اطلعتما، ثم وجدوا الجام بمكة، فقيل: اشتريناه من تميم وعدي، فقام رجلان من أولياء السهمي، فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما، وإن الجام لصاحبهم، وأخذوا الجام، قال: وفيهم نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾(٢).

٢. روي أنّه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾، هذا لمن مات وعنده المسلمون، أمره الله أن يشهد على وصيته عدلين من المسلمين(٣).

٣. روي أنّه قال: ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ من أهل الإسلام(٤).

٤. روي أنّه قال: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من غير المسلمين؛ من أهل الكتاب(٥).

٥. روي أنّه قال: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من غير أهل الإسلام(٦).

٦. روي أنّه قال: كأني أنظر إلى العلجين حين انتهي بهما إلى أبي موسى الأشعري في داره، ففتح الصحيفة، فأنكر أهل الميت، وخونوهما، فأراد أبو موسى أن يستحلفهما بعد العصر، فقلت له: إنهما لا يباليان صلاة العصر، ولكن استحلفهما بعد صلاتهما في دينهما(٧).

---

(١) ابن أبي حاتم ١٢٣٣/٤.

(٢) البخاري في تاريخه ٢١٥/١.

(٣) ابن جرير ٧٣/٩.

(٤) ابن جرير ٥٧/٩.

(٥) ابن أبي حاتم ١٢٢٩/٤.

(٦) ابن جرير ٦٦/٩.

(٧) ابن جرير ٧٨/٩.

٧. روي أنّه قال: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ﴾، يقول: يحلفان بالله بعد الصلاة[(١)].

٨. روي أنّه قال: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فهذا لمن مات وليس عنده أحد من المسلمين، أمره الله بشهادة رجلين من غير المسلمين، فإن ارتيب بشهادتهما استحلفا بالله بعد الصلاة: ما اشترينا بشهادتنا ثمنا قليلا[(٢)].

٩. روي أنّه قال: فإن اطلع الأولياء على أن الكافرين كذبا في شهادتهما؛ قام رجلان من الأولياء فحلفا بالله أن شهادة الكافرين باطلة، فذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾، يقول: إن اطلع على أن الكافرين كذبا[(٣)].

١٠. روي أنّه قال: فإن حلفا على شيء يخالف ما أنزل الله تعالى من الفريضة ـ يعني: اللذين ليسا من أهل الإسلام ـ ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ فيحلفان بالله: ﴿لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ يقول: فيحلفان بالله ما كان صاحبنا ليوصي بهذا، وإنهما لكاذبان، ولشهادتنا أحق من شهادتهما[(٤)].

١١. روي أنّه قال: إن اطلع على أن الكافرين كذبا ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ يقول: من الأولياء، فحلفا بالله: إن شهادة الكافرين باطلة، وإنا لم نعتد، فترد شهادة الكافرين، وتجوز شهادة الأولياء[(٥)].

١٢. روي أنّه قال: ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ من أولياء الميت[(٦)].

١٣. روي أنّه قال: فيحلفان بالله ﴿لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ يقول: فيحلفان بالله ما كان صاحبنا ليوصي بهذا، وإنهما لكاذبان، ولشهادتنا أحق من شهادتهما[(٧)].

١٤. روي أنّه قال: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾،

---

(١) ابن جرير ٩/٨٤.

(٢) ابن جرير ٩/٧٦.

(٣) ابن جرير ٩/٨٣.

(٤) ابن جرير ٩/٨٥.

(٥) ابن جرير ٩/٨٣.

(٦) ابن جرير ٩/٨٤.

(٧) ابن جرير ٩/٨٤.

يعني: أولياء الميت، فيستحقون ما له بأيمانهم، ثم يوضع ميراثه كما أمر الله، وتبطل شهادة الكافرين[1].

١٥. روي أنّه قال: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ يقول: إن اطلع على أن الكافرين كذبا ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ يقول: من الأولياء، فحلفا بالله: أن شهادة الكافرين باطلة، وأنا لم نعتد، فترد شهادة الكافرين، وتجوز شهادة الأولياء، يقول ـ تعالى ذكره ـ: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا﴾ الكافرون ﴿بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، وليس على شهود المسلمين إقسام، إنما الإقسام إذا كانوا كافرين[2].

١٦. روي أنّه قال: هذه الآية منسوخة[3].

السلماني:

روي عن عبيدة السلماني (ت ٧٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ مسلمين من غير حيكم[4].

٢. روي أنّه قال: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من غير أهل ملتكم[5].

٣. روي أنّه قال: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ صلاة العصر[6].

شريح:

روي عن شريح القاضي (ت ٧٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: لا تجوز شهادة اليهودي ولا النصراني إلا في وصية، ولا تجوز في وصية إلا في سفر[7].

٢. روي أنّه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا

---

(١) ابن جرير ٩/٨٤.

(٢) ابن جرير ٩/١٠٥.

(٣) ابن جرير ٩/١٠٧.

(٤) ابن جرير ٩/٦٩.

(٥) سعيد بن منصور في سننه ٤/١٦٦٥.

(٦) عبد الرزاق ١/٢٠٠.

(٧) عبد الرزاق (١٥٥٣٨).

عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ إذا كان الرجل بأرض غربة، ولم يجد مسلما يشهده على وصيته، فأشهد يهوديا أو نصرانيا أومجوسيا، فشهادتهم جائزة، فإن جاء رجلان مسلمان فشهدا بخلاف شهادتهما أجيزت شهادة المسلمين، وأبطلت شهادة الآخرين[1].

ابن يعمر:

روي عن يحيى بن يعمر (ت ٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ من المسلمين[2].

٢. روي أنّه قال: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ من المسلمين، فإن لم تجدوا من المسلمين فمن غير المسلمين[3].

٣. ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ﴾ قال: زعما أنه أوصى لهما بكذا وكذا، ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ أي: بدعواهما لأنفسهما ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾: أن صاحبنا لم يوص إليكما بشيء مما تقولان[4].

٤. روي أنّه قرأها: ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾، وقال: هما الوليان[5].

ابن المسيب:

روي عن سعيد بن المسيب (ت ٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ من أهل دينكم[6].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ ذوا عقل[7].

---

(١) سعيد بن منصور في سننه ٤/١٦٦٦.

(٢) ابن جرير ٩/٥٦.

(٣) ابن جرير ٩/٦٣.

(٤) ابن جرير ٩/٨٥.

(٥) ابن أبي حاتم ٤/١٢٣٣.

(٦) عبد الرزاق ١/١٩٩.

(٧) ابن جرير ٩/٥٥.

٣. روي أنّه قال: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من أهل الكتاب، إذا كان ببلاد لا يجد غيرهم[(١)].

أبو العالية:

روي عن أبي العالية الرّياحيّ (ت ٩٣ هـ) أنّه قال: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾، يقول: لا نأخذ عليه أجرا[(٢)].

ابن جبير:

روي عن سعيد بن جبير (ت ٩٥ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾، قال: إذا كان الرجل بأرض الشرك فأوصى إلى رجلين من أهل الكتاب، فإنهما يحلفان بعد العصر[(٣)].

٢. روي أنّه قال: ﴿ذَا قُرْبَى﴾، يعني: قرابته[(٤)].

النخعي:

روي عن إبراهيم النخعي (ت ٩٦ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: إن كان قربه أحد من المسلمين أشهدهم، وإلا أشهد رجلين من المشركين[(٥)].

٢. روي أنّه قال: كتب هشام بن هبيرة لمسلمة عن شهادة المشركين على المسلمين، فكتب: لا تجوز شهادة المشركين على المسلمين إلا في وصية، ولا يجوز في وصية إلا أن يكون الرجل مسافرا[(٦)].

٣. روي أنّه قال: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من غير أهل دينكم[(٧)].

٤. روي أنّه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ الآية، إذا حضر الرجل الوفاة في سفر فيشهد

---

(١) عبد الرزاق ١/١٩٩.

(٢) ابن أبي حاتم ٤/١٢٣٢.

(٣) ابن جرير ٩/٧٦.

(٤) ابن أبي حاتم ٤/١٢٣٢.

(٥) ابن جرير ٩/٦٢.

(٦) ابن جرير ٩/٦٤.

(٧) ابن أبي شيبة في مصنفه ١١/٤٥٧.

رجلين من المسلمين، فإن لم يجد رجلين من المسلمين فرجلين من أهل الكتاب[1].

٥. روي أنّه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾، قالا: إذا حضر الرجل الوفاة في سفر فليشهد رجلين من المسلمين، فإن لم يجد فرجلين من أهل الكتاب، فإذا قدما بتركته، فإن صدقهما الورثة قبل قولهما، وإن اتهموهما أحلفا بعد صلاة العصر: بالله ما كذبنا، ولا كتمنا، ولا خنا، ولا غيرنا[2].

٦. روي أنّه قال: هي منسوخة[3].

الشعبي:

روي عن الشعبي (ت ١٠٣ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: إن رجلا من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقاء.. ولم يجد أحدا من المسلمين يشهد على وصيته، فأشهد رجلين من أهل الكتاب، فقدما الكوفة، فأتيا أبا موسى الأشعري، فأخبراه، وقدما بتركته ووصيته، فقال الأشعري: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد النبي ﷺ، فأحلفهما بعد العصر بالله ما خانا، ولا كذبا، ولا بدلا، ولا كتما، ولا غيرا، وإنها لوصية الرجل وتركته، فأمضى شهادتهما[4].

٢. روي أنّه قال: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من غير المصلين، فيستحلفان بعد العصر[5].

٣. روي أنّه قال: إن رجلا توفي بدقوقا، فلم يجد من يشهده على وصيته إلا رجلين نصرانيين من أهلها، فأحلفهما أبو موسى دبر صلاة العصر في مسجد الكوفة بالله: ما كتما، ولا غيرا، وإن هذه الوصية، فأجازها[6].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أن يموت المؤمن فيحضر موته مسلمان

---

(١) ابن جرير ٩/٧٣.

(٢) ابن جرير ٩/٧٧.

(٣) ابن جرير ٩/١٠٧.

(٤) عبد الرزاق (١٥٥٣٩).

(٥) عبد الله بن وهب في الجامع. تفسير القرآن ١/٤٣.

(٦) ابن جرير ٩/٧٧.

أو كافران، لا يحضره غير اثنين منهم، فإن رضي ورثته بما غابا عنه من تركته فذلك، ويحلف الشاهدان أنهما صادقان[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ من أهل الملة[2].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) أنّه قال: وجد لطخ[3]، أو لبس، أو تشبيه؛ حلف الاثنان الأوليان من الورثة، فاستحقا وأبطلا أيمان الشاهدين[4].

عكرمة:

روي عن عكرمة (ت ١٠٥ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: كان تميم الداري وعدي بن بداء رجلين نصرانيين يتجران إلى مكة في الجاهلية، ويطيلان الإقامة بها، فلما هاجر النبي ﷺ حولا متجرهما إلى المدينة، فخرج بديل بن أبي مارية مولى عمرو بن العاصي تاجرا، حتى قدم المدينة، فخرجوا جميعا تجارا إلى الشام، حتى إذا كانوا ببعض الطريق اشتكى بديل، فكتب وصيته بيده، ثم دسها في متاعه، وأوصى إليهما، فلما مات فتحا متاعه فأخذا منه شيئا، ثم حجزاه كما كان، وقدما المدينة على أهله فدفعا متاعه، ففتح أهله متاعه، فوجدوا كتابه وعهده وما خرج به، وفقدوا شيئا، فسألوهما عنه، فقالوا: هذا الذي قبضنا له ودفع إلينا، فقالوا لهما: هذا كتابه بيده، قالا: ما كتمنا له شيئا، فترافعوا إلى النبي ﷺ؛ فنزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾، فأمر رسول الله ﷺ أن يستحلفوهما في دبر صلاة العصر بالله الذي لا إله إلا هو ما قبضنا له غير هذا، ولا كتمنا، فمكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم ظهر معهما على إناء من فضة منقوش مموه بذهب، فقال أهله: هذا من متاعه، قال: نعم، ولكنا اشتريناه منه، ونسينا أن نذكره حين حلفنا، فكرهنا أن نكذب نفوسنا، فترافعوا إلى النبي ﷺ؛ فنزلت الآية الأخرى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا

---

(١) عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد، وأبي الشيخ.

(٢) ابن جرير ٩/٥٧.

(٣) يقال: لطخ فلان بشر: رمى به، ولطَّخت فلانًا بأمر قبيح: رميته به.

(٤) عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد، وأبي الشيخ.

إِثْمًا﴾، فأمر النبي ﷺ رجلين من أهل الميت أن يحلفا على ما كتما وغيبا، ويستحقانه، ثم إن تميما الداري أسلم وبايع النبي ﷺ، وكان يقول: صدق الله ورسوله، أنا أخذت الإناء، ثم قال: يا رسول الله، إن الله يظهرك على أهل الأرض كلها، فهب لي قريتين من بيت لحم، وهي القرية التي ولد فيها عيسى، فكتب له بها كتابا، فلما قدم عمر الشام أتاه تميم بكتاب رسول الله ﷺ، فقال عمر: أنا حاضر ذلك، فدفعها إليه[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾، قال: من المسلمين من غير حيه[2].

ابن سيرين:

روي عن محمد بن سيرين (ت ١١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من سائر الملل[3].

٢. روي أنّه كان يقول في قوله: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾: شاهدان من المسلمين، وغير المسلمين[4].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ من قبيلتكم، ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من غير قبيلتكم، ألا ترى أنه يقول: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ كلهم من المسلمين[5].

٢. روي أنّه قال: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ شاهدان من قومكم، ومن غير قومكم[6].

٣. روي أنّه قال: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ أي: من عشيرته، ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من غير

---

(١) ابن جرير ٩/٨٩.

(٢) ابن جرير ٩/٦٨.

(٣) ابن أبي شيبة في مصنفه ١١/٤٥٨.

(٤) ابن جرير ٩/٦٧.

(٥) سعيد بن منصور (٨٥٨).

(٦) ابن جرير ٩/٦٧.

عشيرته[1].

٤. روي أنّه قال: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من المسلمين[2].

٥. روي أنّه قال: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ من قبيلتكم، ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من غير قبيلتكم، ألا ترى أنه يقول: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ كلهم من المسلمين[3].

٦. روي أنّه قال: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ شاهدان من قومكم، ومن غير قومكم[4].

٧. روي أنّه قال: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ أي: من عشيرته، ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من غير عشيرته[5].

٨. روي أنّه قال: أراد: من بعد صلاة العصر[6].

٩. روي أنّه قال: ولو كانا من غير أهل الصلاة ما حلفا دبر الصلاة[7].

١٠. روي أنّه قال: أراد الله أن ينكل[8]، الشهود بعضهم ببعض[9].

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: ماذا أجبتم في أوصيائكم؟ يسأل الله تعالى يوم القيامة فيقولون: لا علم لنا بما فعلوا بعدنا بهم)[10].

---

(١) ابن جرير ٩/٦٨.
(٢) عبد الرزاق ١/١٩٩.
(٣) سعيد بن منصور (٨٥٨.
(٤) ابن جرير ٩/٦٧.
(٥) ابن جرير ٩/٦٨.
(٦) تفسير البغوي ٣/١١٣.
(٧) تفسير ابن أبي زمنين ٢/٥٢.
(٨) ينكل: يمتنع.
(٩) تفسير ابن أبي زمنين ٢/٥٣.
(١٠) تفسير القمّي ١/١٩٠.

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١ . روي أنّه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾، فهذا رجل مات بغربة من الأرض، وترك تركة، وأوصى بوصية، وشهد على وصيته رجلان[١].

٢ . روي أنّه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ إلى ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ فهذا رجل مات بغربة من الأرض، وترك تركته، وأوصى بوصيته، وشهد على وصيته رجلان، فإن ارتيب في شهادتهما استحلفا بعد العصر، وكان يقال: عندها تصير الأيمان[٢].

٣. روي أنّه قال: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾، أي: اطلع منهما على خيانة؛ على أنهما كذبا، أو كتما، فشهد رجلان هما أعدل منهما بخلاف ما قالا؛ أجيز شهادة الآخرين، وبطلت شهادة الأولين[٣].

٤ . روي أنّه قال: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾، يقول: ذلك أحرى أن يصدقوا في شهادتهم[٤].

٥ . روي أنّه قال: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، يقول: وأن يخافوا العقب[٥].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) أنّه قال: ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ معناه فإن ظهر عليه[٦].

الزهري:

روي عن ابن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١ . عن عقيل، قال: سألت ابن شهاب الزهري عن هذه الآية، قلت: أرأيت الاثنين اللذين ذكر الله من غير أهل المرء الموصي، أهما من المسلمين، أو هما من أهل الكتاب؟ وأرأيت الآخرين اللذين يقومان

---

(١) ابن أبي حاتم ٤/١٢٢٨.

(٢) ابن جرير ٩/٧٧.

(٣) ابن جرير ٩/٨٤.

(٤) ابن جرير ٩/١٠٥.

(٥) ابن جرير ٩/١٠٥.

(٦) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٢.

مقامهما، أتراهما من أهل المرء الموصي، أم هما في غير المسلمين؟ قال: ابن شهاب: لم نسمع في هذه الآية عن رسول الله ﷺ ولا عن أئمة العامة سنة أذكرها، وقد كنا نتذاكرها أناسا من علمائنا أحيانا، فلا يذكرون فيها سنة معلومة، ولا قضاء من إمام عادل، ولكنه يختلف فيها رأيهم، وكان أعجبهم فيها رأيا إلينا الذين كانوا يقولون: هي فيما بين أهل الميراث من المسلمين، يشهد بعضهم الميت الذي يرثونه، ويغيب عنه بعضهم، ويشهد من شهده على ما أوصى به لذوي القربى، فيخبرون من غاب عنه منهم بما حضروا من وصية، فإن سلموا جازت وصيته، وإن ارتابوا أن يكونوا بدلوا قول الميت، وآثروا بالوصية من أرادوا ممن لم يوص لهم الميت بشيء، حلف اللذان يشهدان على ذلك بعد الصلاة، وهي صلاة المسلمين: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾، فإذا أقسما على ذلك جازت شهادتهما وأيمانهما، ما لم يعثر على أنهما استحقا إثما في شيء من ذلك، قام آخران مقامهما من أهل الميراث من الخصم الذين ينكرون ما يشهد به عليه الأولان المستحلفان أول مرة، فيقسمان بالله: لشهادتنا على تكذيبكما أو إبطال ما شهدتما به، ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ هم من أهل الميراث[2].

٣. روي أنّه قال: مضت السنة ألا تجوز شهادة كافر في حضر ولا سفر، إنما هي في المسلمين[3].

٤. روي أنّه قال: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ كانوا يقولون هي فيما بين أهل الميراث من المسلمين، يشهد بعضهم الميت الذي يرثونه، ويغيب عنه بعضهم، فيشهد من شهده على ما أوصى به لذوي القربى وغيرهم، فيخبرون من غاب عنهم منهم بما حضروا من وصيته، فإن سلموا جازت وصيته، وإن ارتابوا في أن يكون بدلوا قول الميت، وآثروا بالوصية من أرادوا، وتركوا من لم يوص له الميت بشيء؛ يحلف اللذان يشهدان على ذلك بعد الصلاة، وهي صلاة المسلمين، ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ [المائدة: ١٠٦] الآية[4].

---

(١) ابن جرير ٩/٦٩.

(٢) ابن أبي شيبة في مصنفه ١١/٤٥٨.

(٣) ابن جرير ٩/٦٨.

(٤) ابن جرير ٩/٦٩.

السدي:

روي عن إسماعيل السدي الكوفي (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ قال: هذا في الوصية عند الموت، يوصي ويشهد رجلين من المسلمين على ماله وعليه، قال: هذا في الحضر، ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ في السفر، ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ هذا الرجل يدركه الموت في سفره، وليس بحضرته أحد من المسلمين، فيدعو رجلين من اليهود والنصارى والمجوس، فيوصي إليهما، ويدفع إليهما ميراثه، فيقبلان به، فإن رضي أهل الميت الوصية وعرفوا مال صاحبهم تركوا الرجلين، وإن ارتابوا رفعوهما إلى السلطان، فذلك قوله: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾، ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ قال: ابن عباس أنّه قال: كأني أنظر إلى العلجين حين انتهي بهما إلى أبي موسى الأشعري في داره، ففتح الصحيفة، فأنكر أهل الميت وخونوهما، فأراد أبو موسى أن يستحلفهما بعد العصر، فقلت له: إنهما لا يباليان صلاة العصر، ولكن استحلفهما بعد صلاتهما في دينهما، فيوقف الرجلان بعد صلاتهما في دينهما، ويحلفان بالله لا نشتري ثمنا قليلا ولو كان ذا قربى، ولا نكتم شهادة الله، إنا إذن لمن الآثمين، إن صاحبهم لبهذا أوصى، وإن هذه لتركته، فيقول لهما الإمام قبل أن يحلفا: إنكما إن كنتما كتمتما أو خنتما فضحتكما في قومكما، ولم تجز لكما شهادة وعاقبتكما، فإذا قال لهما ذلك فإن ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها[١].

٢. روي أنّه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾، قال: هذا في الوصية عند الموت، يوصي ويشهد رجلين من المسلمين على ماله وعليه، قال: هذا في الحضر[٢].

٣. روي أنّه قال: ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾، هذا الرجل يدركه الموت في سفره، وليس بحضرته أحد من المسلمين، فيدعو رجلين من اليهود والنصارى والمجوس[٣].

٤. روي أنّه قال: ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ هذا في السفر، الرجل يدركه الموت في السفر وليس بحضرته أحد من المسلمين، فيدعو رجلين من اليهود أو النصارى والمجوس،

---

(١) ابن جرير ٩/٧٨.

(٢) ابن جرير ٩/٧٨.

(٣) ابن جرير ٩/٧٨.

فيوحي إليهما، ويرفع إليهما ميراثه، فيقبلانه، فإن رضي أهل الميت الوصية وعرفوا مال صاحبهم تركوا الرجلين، فإن ارتابوا دفعوهما إلى السلطان، وذلك قوله: ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾[1].

٥. روي أنّه قال: فيوقف الرجلان بعد صلاتهما في دينهما[2].

٦. روي أنّه قال: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ﴾: يحلفان بالله لا نشتري ثمنا قليلا ولو كان ذا قربى، ولا نكتم شهادة الله، إنا إذن لمن الآثمين، إن صاحبهم لبهذا أوصى، وإن هذه لتركته[3].

٧. روي أنّه قال: يوقف الرجلان بعد صلاتهما في دينهما، يحلفان بالله: لا نشتري به ثمنا ولو كان ذا قربى، ولا نكتم شهادة الله، إنا إذن لمن الآثمين، إن صاحبكم لبهذا أوصى، وإن هذه لتركته، فإذا شهدا، وأجاز الإمام شهادتهما على ما شهدا، قال: لأولياء الرجل: اذهبوا، فاضربوا في الأرض، واسألوا عنهما، فإن أنتم وجدتم عليهما خيانة أو أحدا يطعن عليهما رددنا شهادتهما، فينطلق الأولياء، فيسألون، فإن وجدوا أحدا يطعن عليهما، أو هما غير مرضيين عندهم، أو اطلع على أنهما خانا شيئا من المال وجدوه عندهما؛ أقبل الأولياء فشهدوا عند الإمام، وحلفوا بالله: لشهادتنا أنهما لخائنان متهمان في دينهما، مطعون عليهما، أحق من شهادتهما بما شهدا، وما اعتدينا، فذلك قوله: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾[4].

٨. روي أنّه قال: ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾، قال: ﴿عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾، يقول: من الذين شهدوا عليها[5].

٩. روي أنّه قال: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾، قال: حلفا بالله لشهادتنا إنهما لخائنان، متهمان في دينهما، مطعون عليهما، أحق من شهادتهما بما شهدا، وما اعتدينا[6].

١٠. روي أنّه قال: الرجلان بعد صلاتهما في دينهما، فيحلفان بالله: لا نشتري به ثمنا قليلا ولو كان

---

(١) ابن جرير ٩/٧٨.

(٢) ابن جرير ٩/٧٨.

(٣) ابن جرير ٩/٧٨.

(٤) ابن جرير ٩/٨٥.

(٥) ابن أبي حاتم ٤/١٢٣٣.

(٦) ابن جرير ٩/٨٥.

ذا قربى، ولا نكتم شهادة الله، إنا إذن لمن الآثمين، إن صاحبكم لبهذا أوصى، وإن هذه لتركته، فيقول لهما الإمام قبل أن يحلفا: إنكما إن كتمتما أو خنتما فضحتكما في قومكما، ولم أجز لكما شهادة، وعاقبتكما، فإن قال لهما ذلك فإن ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهه[(١)].

ابن أسلم:

روي عن زيد بن أسلم (ت ١٣٦ هـ) أنّه قال: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ الآية كلها كان ذلك في رجل توفي وليس عنده أحد من أهل الإسلام، وذلك في أول الإسلام، والأرض حرب، والناس كفار، إلا أن رسول الله ﷺ وأصحابه بالمدينة، وكان الناس يتوارثون بالوصية، ثم نسخت الوصية، وفرضت الفرائض، وعمل المسلمون بها[(٢)].

الكلبي:

روي عن محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) أنّه قال في قوله تعالى: ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾: خرج مولى لقريش تاجرا، فأصابه قدره، ومعه رجلان من أهل الكتاب، فدفع إليهما ماله، وكتب وصيته، فذهبا بالوصية والمال إلى أهله، فكتما بعض المال، فقال أهله: هل تجر صاحبنا بعدنا بتجارة؟ قالا: لا، قالوا: فهل استهلك من ماله شيئا؟ قالا: لا، قالوا: فإنه قد خرج من عندنا بمال فقدنا بعضه، فاتهما عليه، فاستحلفا في دبر الصلاة[(٣)].

الصادق:

روي عن الإمام الصادق (ت ١٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ هما كافران، ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ مسلمان[(٤)].

٢. روي أنّه قال: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ إذا كان الرجل في بلد ليس فيه مسلم، جازت شهادة

---

(١) ابن جرير ٩/١٠٥.

(٢) ابن جرير ٩/٦٧.

(٣) عبد الرزاق ١/٢٠٠.

(٤) الكافي ٧/٣.

من ليس بمسلم على الوصية[1].

٣. روي أنّه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ اللذان منكم: مسلمان، واللذان من غيركم: من أهل الكتاب، فإن لم تجدوا من أهل الكتاب فمن المجوس، لأن رسول الله ﷺ سن في المجوس سنة أهل الكتاب في الجزية، وذلك إذا مات الرجل في أرض غربة، فلم يجد مسلمين، أشهد رجلين من أهل الكتاب، يحبسان بعد الصلاة فيقسمان بالله عز وجل لا ﴿نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ قال: ـ وذلك إذا ارتاب ولي الميت في شهادتهما، فإن عثر على أنهما شهدا بالباطل، فليس له أن ينقض شهادتهما، حتى يجيء بشهادين، فيقومان مقام الشاهدين الأولين، فيقسمان بالله ﴿لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فإذا فعل ذلك نقض شهادة الأولين، وجازت شهادة الآخرين، يقول الله عز وجل: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾[2].

٤. روي أنّه سئل عن قول الله تعالى: ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ فقال: (اللذان منكم: مسلمان، واللذان من غيركم: من أهل الكتاب، وإنما ذلك إذا مات الرجل المسلم بأرض غربة، فطلب رجلين مسلمين ليشهدهما على وصيته، فلم يجد مسلمين، فليشهد على وصيته رجلين ذميين من أهل الكتاب، مرضيين عند أصحابهم)[3].

٥. عن المفضل بن عمر، في كتاب الإمام الصادق إليه: (وأما ما ذكرت أنهم يستحلون الشهادات بعضهم لبعض على غيرهم، فإن ذلك لا يجوز، ولا يحل، وليس هو على ما تأولوا لقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ فذلك إذا كان مسافرا، فحضره الموت أشهد اثنين ذوي عدل من أهل دينه فإن لم يجد فآخران ممن يقرأ القرآن، من غير أهل ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ فَإِنْ عُثِرَ

---

(١) الكافي ٧/٤.

(٢) الكافي ٧/٤.

(٣) التهذيب ٦/٢٥٣.

عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ من أهل ولايته ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا﴾[1].

ابن حيان:

روي عن مقاتل بن حيان (ت ١٤٩ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: أخذت هذا التفسير عن مجاهد، والحسن، والضحاك في قول الله: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾: أن رجلين نصرانيين من أهل دارين ـ أحدهما تميمي، والآخر يماني ـ صاحبهما مولى لقريش في تجارة، فركبوا البحر، ومع القرشي مال معلوم قد علمه أولياؤه من بين آنية وبز، ورقة، فمرض القرشي، فجعل وصيته إلى الداريين، فمات وقبض الداريان المال والوصية، فدفعاه إلى أولياء الميت، وجاءا ببعض ماله، وأنكر القوم قلة المال، فقالوا للداريين: إن صاحبنا قد خرج معه بمال أكثر مما أتيتمونا به، فهل باع شيئا أو اشترى شيئا فوضع فيه؟ أو هل طال مرضه فأنفق على نفسه؟ قالا: لا، قالوا: فإنكما خنتمانا، فقبضوا المال، ورفعوا أمرهما إلى النبي ﷺ؛ فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ إلى آخر الآية، فلما نزل: أن يحبسا من بعد الصلاة، أمر النبي ﷺ فقاما بعد الصلاة، فحلفا بالله رب السماوات ما ترك مولاكم من المال إلا ما أتيناكم به، وإنا لا نشتري بأيماننا ثمنا قليلا من الدنيا ولو كان ذا قربى، ولا نكتم شهادة الله، إنا إذن لمن الآثمين، فلما حلفا خلي سبيلهما، ثم إنهم وجدوا بعد ذلك إناء من آنية الميت، فأخذ الداريان، فقالا: اشتريناه منه في حياته، وكذبا، فكلفا البينة، فلم يقدرا عليها، فرفعوا ذلك إلى النبي ﷺ؛ فأنزل الله تعالى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾، يقول: فإن اطلع ﴿عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ يعني: الداريين، إن كتما حقا ﴿فَآخَرَانِ﴾ من أولياء الميت، ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ﴾ فيحلفان بالله: إن مال صاحبنا كان كذا وكذا، وإن الذي يطلب قبل الداريين لحق، ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ هذا قول الشاهدين أولياء الميت، ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾ يعني: الداريين والناس أن يعودوا لمثل ذلك[2].

---

(١) مختصر بصائر الدرجات: ٨٦.

(٢) ابن جرير ٩/٩٢.

٢. روي أنّه قال: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ لا نشتري بأيماننا ثمنا من الدنيا ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾[١].

٣. روي أنّه قال: ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ يقول: فإن اطلع ﴿عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ يعني: الداريان، يقول: إن كتما حقا[٢].

٤. روي أنّه قال: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾، يقول: فيحلفان بالله: إن مال صاحبنا كان كذا وكذا، وإن الذي نطلب قبل الداريين لحق[٣].

٥. روي أنّه قال: ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ هذا قول الشاهدين أولياء الميت حين اطلع على خيانة الداريين[٤].

٦. روي أنّه قال: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾، يعني: الداريين[٥].

٧. روي أنّه قال: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا﴾ يعني: القضاة[٦].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ نزلت في بديل بن أبي مارية مولى العاص بن وائل السهمي، كان خرج مسافرا في البحر إلى أرض النجاشي، ومعه رجلان نصرانيان، أحدهما يسمى: تميم بن أوس الداري وكان من لخم، وعدي بن بداء، فمات بديل وهم في البحر، فرمي به في البحر، قال: ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ وذلك أنه كتب وصيته ثم جعلها في متاعه، ثم دفعه إلى تميم وصاحبه، وقال لهما: أبلغا هذا المتاع إلى أهلي، فجاءا ببعض المتاع، وحبسا جاما من فضة مموها بالذهب؛ فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ يقول: عند الوصية يشهدون وصيته ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ من المسلمين في دينهما، ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ يعني: من غير

---

(١) ابن أبي حاتم ١٢٣٢/٤.

(٢) ابن أبي حاتم ١٢٣٣/٤.

(٣) ابن أبي حاتم ١٢٣٤/٤.

(٤) ابن أبي حاتم ١٢٣٤/٤.

(٥) ابن أبي حاتم ١٢٣٤/٤.

(٦) ابن أبي حاتم ١٢٣٥/٤.

أهل دينكم؛ النصرانيين تميم الداري، وعدي بن [بداء]، ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ يا معشر المسلمين للتجارة، ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ يعني: بديل ابن أبي مارية حين انطلق تاجرا في البحر، وانطلق معه تميم وعدي صاحباه، فحضره الموت، فكتب وصيته، ثم جعلها في المتاع، فقال: أبلغا هذا المتاع إلى أهلي، فلما مات بديل قبضا المتاع، فأخذا منه ما أعجبهما، وكان فيما أخذا إناء من فضة فيه ثلاثمائة مثقال منقوش مموه بالذهب، فلما رجعا من تجارتهما دفعا بقية المال إلى ورثته، ففقدوا بعض متاعه، فنظروا إلى الوصية فوجدوا المال فيه تاما لم يبع منه ولم يهب، فكلموا تميما وصاحبه، فسألوهما: هل باع صاحبنا شيئا؟ أو اشترى شيئا فخسر فيه؟ أو طال مرضه فأنفق على نفسه؟ فقالا: لا، قالوا: فإنا قد فقدنا بعض ما أبدى به صاحبنا، فقالا: ما لنا بما أبدى، ولا بما كان في وصيته علم، ولكنه دفع إلينا هذا المال فبلغناكم إياه، فرفعوا أمرهم إلى النبي ﷺ؛ فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ الآيات، فحلفهما النبي ﷺ عند المنبر بعد صلاة العصر، فحلفا أنهما لم يخونا شيئا من المال، فخلى سبيلهما، فلما كان بعد ذلك وجدوا الإناء الذي فقدوه عند تميم الداري، قالوا: هذا من آنية صاحبنا الذي كان أبدى بها، وقد زعمتما أنه لم يبع، ولم يشتر، ولم ينفق على نفسه، فقالا: قد كنا اشتريناه منه، فنسينا أن نخبركم به، فرفعوهما إلى النبي ﷺ الثانية، فقالوا: يا رسول الله، إنا وجدنا مع هذين إناء من فضة من متاع صاحبنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ﴾ من أولياء الميت، يعني: عبد الله بن عمرو بن العاص، والمطلب بن أبي وداعة السهميان، ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ يعني: مقام النصرانيين ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ يعني: فيحلفان بالله في دبر صلاة العصر أن الذي في وصية صاحبنا حق، وأن المال كان أكثر مما أتيتمانا به، وأن هذا الإناء لمن متاع صاحبنا الذي خرج به معه، وكتبه في وصيته، وأنكما خنتما، فذلك قوله سبحانه: ﴿لَشَهَادَتُنَا﴾ يعني: عبد الله بن عمرو بن العاص، والمطلب، ﴿أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فحلف عبد الله والمطلب كلاهما أن الذي في وصية الميت حق، وأن هذا الإناء من متاع صاحبنا، فأخذوا تميم بن أوس الداري وعدى بن [بداء] النصرانيين بتمام ما وجدا في وصية الميت حين اطلع الله عز وجل على خيانتهما في الإناء، وأن تميم بن أوس الداري اعترف بالخيانة، فقال له النبي ﷺ: (ويحك، يا تميم، أسلم يتجاوز الله عنك ما كان في شركك)، فأسلم تميم الداري، وحسن إسلامه، ومات

عدي بن [بداء] نصرانيا[١].

٢. روي أنّه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾، يعني: بديل بن أبي مارية[٢].

٣. روي أنّه قال: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾، يعني: من المسلمين؛ عبد الله بن عمرو بن العاص، والمطلب بن أبي وداعة السهميان[٣].

٤. روي أنّه قال: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من غير أهل دينكم، يعني: النصرانيين[٤].

٥. روي أنّه قال: ﴿إِنْ أَنْتُمْ﴾ معشر المسلمين ﴿ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ تجارا، ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ يعني: بديل بن أبي مارية مولى العاص ابن وائل السهمي[٥].

٦. روي أنّه قال: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ يعني: النصرانيين تقيمونهما، ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ صلاة العصر[٦].

٧. روي أنّه قال: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ يعني: إن شككتم ـ نظيرها في النساء القصرى[٧]ـ أن المال كان أكثر من هذا الذي أتيناكم به، ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ يقول: لا نشتري بأيماننا عرضا من الدنيا[٨].

٨. روي أنّه قال: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾، يقول: ولو كان الميت ذا قرابة منا[٩].

٩. روي أنّه قال: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ إِنَّا إِذًا﴾ إن كتمنا شيئا من المال ﴿لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ بالله عز

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١١.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٢.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٢.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٢.

(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٢.

(٦) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٢.

(٧) يشير إلى قوله تعالى: ﴿واللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ المَحِيضِ مِن نِسائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ واللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وأُولاتُ الأَحْمالِ أجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ومَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِن أمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

(٨) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٣.

(٩) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٣.

وجل[1].

١٠. روي أنّه قال: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾، يقول: فإن اطلع على أنهما ـ يعني: النصرانيين ـ كتما شيئا من المال، أو خانا[2].

١١. روي أنّه قال: ﴿فَآخَرَانِ﴾ من أولياء الميت، يعني: عبد الله بن عمرو بن العاص، والمطلب بن أبي وداعة السهميان ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ يعني: مقام النصرانيين[3].

١٢. روي أنّه قال: ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ﴾ الإثم ﴿عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾[4].

١٣. روي أنّه قال: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ﴾ يعني: فيحلفان بالله في دبر صلاة العصر: أن الذي في وصية صاحبنا حق، وأن المال كان أكثر مما أتيتمانا به، وأن هذا الإناء لمن متاع صاحبنا الذي خرج به معه، وكتبه في وصيته، وأنكما خنتما، فذلك قوله سبحانه: ﴿لَشَهَادَتُنَا﴾ يعني: عبد الله بن عمرو بن العاص، والمطلب ﴿أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ يعني: النصرانيين[5].

١٤. روي أنّه قال: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى﴾ يعني: أجدر، نظيرها في النساء[6]، ﴿أَنْ يَأْتُوا﴾ يعني: النصرانيين ﴿بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾ كما كانت، ولا يكتمان شيئا، ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾[7].

١٥. روي أنّه قال: يقول: ﴿أَوْ يَخَافُوا﴾ أن يطلع على خيانتهم، فيرد شهادتهما بشهادة الرجلين المسلمين من أولياء الميت، فحلف عبد الله والمطلب كلاهما أن الذي في وصية الميت حق، وأن هذا الإناء من متاع صاحبنا، فأخذوا تميم بن أوس الداري وعدي بن [بداء] النصرانيين بتمام ما وجدا في وصية الميت حين اطلع الله عز وجل على خيانتهما في الإناء[8].

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٣.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٣.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٣.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٣.

(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٣.

(٦) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣].

(٧) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٤.

(٨) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٤.

١٦. روي أنّه قال: ثم وعظ الله عز وجل المؤمنين ألا يفعلوا مثل هذا، وألا يشهدوا بما لم يعاينوا ويروا، فقال سبحانه يحذرهم نقمته: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا﴾ مواعظه، ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ الآية كلها، قال: هذا شيء حين لم يكن الإسلام إلا بالمدينة، وكانت الأرض كلها كفرا، فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٦] من المسلمين، ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من غير أهل الإسلام، ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ قال: كان الرجل يخرج مسافرا، وهم ـ العرب ـ أهل كفر، فعسى أن يموت في سفره، فيسند وصيته إلى رجلين منهم، ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ في أمرهما، إذا قال: الورثة: كان مع صاحبنا كذا وكذا، فيقسمان بالله: ما كان معه إلا هذا الذي قلنا، ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ إنما حلفا على باطل وكذب ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ بالميت، ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ذكرنا أنه كان مع صاحبنا كذا وكذا، قال: هؤلاء: لم يكن معه، قال: ثم عثر على بعض المتاع عندهما، فلما عثر على ذلك ردت القسامة على وارثه، فأقسما، ثم ضمن هذان، قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ﴾ فتبطل أيمانهم، ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الكاذبين الذين يحلفون على الكذب[2].

٢. روي أنّه قال: ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ من المسلمين[3].

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٤.

(٢) ابن جرير ٩/٩٠.

(٣) ابن جرير ٩/٥٧.

٣. روي أنّه قال: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٦] من غير أهل الإسلام[١].

٤. روي أنّه قال: ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ في أرض الكفر[٢].

٥. روي أنّه قال: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ لا نأخذ به رشوة[٣].

٦. روي أنّه قال: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ﴾ [المائدة: ١٠٦]، وإن كان صاحبها بعيدا[٤].

٧. روي أنّه قال: ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ بالميت[٥].

٨. روي أنّه قال: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ فتبطل أيمانهم، وتؤخذ أيمان هؤلاء[٦].

٩. روي أنّه قال: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الكاذبين الذين يحلفون على الكذب[٧].

الكاظم:

روي عن الإمام الكاظم (ت ١٨٣ هـ) أنّه سئل عن قول الله: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ فقال: اللذان منكم: مسلمان، واللذان من غيركم: من أهل الكتاب، فإن لم تجدوا من أهل الكتاب فمن المجوس، لأن رسول الله ﷺ قال: سنوا بهم سنة أهل الكتاب، وذلك إذا مات الرجل المسلم بأرض غربة فلم يجد مسلمين يشهدهما، فرجلين من أهل الكتاب[٨].

الرسّي:

ذكر الإمام القاسم الرسي (ت ٢٤٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٩]:

---

(١) ابن جرير ٩/٦٧.

(٢) ابن أبي حاتم ٤/١٢٣٠.

(٣) ابن جرير ٩/٧٩.

(٤) ابن جرير ٩/٧٩.

(٥) ابن جرير ٩/١٠٣.

(٦) ابن جرير ٩/١٠٥.

(٧) ابن جرير ٩/١٠٧.

(٨) تفسير العيّاشي ١/٣٤٩.

(٩) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/٣٥٨.

١. وسألت عن قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾.. ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ هو: الشهادة بينكم في قضاياهم ومواريثهم، عند نزول الموت وحضوره؛ عندما يكون في ذلك للميت من أموره: أن يستشهدوا عند الموت شهيدين من أنفسهم، أو آخرين من غيرهم، إن لم يحضر مسلمان عند الموت من غيرهم؛ لأنه ربما حضر الموت الرجل المسلم، في السفر أو غيره، وليس عنده إلا كافر أو مجرم، فيضطر إلى شهادتهما، وإن هو لم يرض بهما، فإذا كانا معروفين في دينهما بالتحرج من الزور والظلم، استشهدا على الوصية وغيرها إذا لم يظفر بمسلم.

٢. ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ وهو: ظهر على أنهما آثمان، وأنهما ليسا بصادقين فيما عليه يشهدان، حبسا بعد صلاة من الصلوات، وحبسهما: وقفهما، فأقسما في وقت مما ذكر الله من الأوقات.

٣. ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ هو: ظننتم أنهما كذبا، فزادا أو نقصا، فليحلفان بالله لا نشتري بشهادتنا وقولنا ثمنا، ولا نشهد بغير الحق لأحد ولو كان ذا قربى، ولئن فعلنا فكتمنا شهادتنا ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾، يريد: إنا إذا لمن الظالمين؛ وفيها في الشهادة من الظلم، بالإخفاء لها في الكتم: ما يقول الله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة:٢٨٣]، فإن استحق أنهما كاذبان، حلف من المظلومين آخران.

المرتضى:

ذكر الإمام المرتضى بن الهادي (ت ٣١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾، وقد سئل عن هذه المسألة جدي القاسم، فقال: كذلك أمر الله لا شريك له ـ كما قال: ـ لكل من آمن، إذا حضره الموت فأوصى: أن يشهد على وصيته ذوي عدل من المؤمنين، فإن لم يمكنه من يشهده: فأشهد غيرهم من أمكنه، فإن ارتيب بهما واتهما ـ أقسما وحلفا ـ كما قال الله سبحانه لا شريك له ـ على شهادتهما: لا يشتريان بشهادتهما ثمنا، ولا يأخذان عليها جعلا.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

---

(١) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/٣٥٨.

(٢) تأويلات أهل السنة: ٣/٦٣٨.

١. قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ اختلف فيه:

أ. عن قتادة قال رجل مات بقرية من الأرض وترك تركة، وأوصى وصية، وأشهد على وصيته رجلين، فإن اتهما في شهادتهما استحلفا بعد صلاة العصر، وكان يقال: عندها تصبر الأيمان، ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾، أي: اطلع منهما على خيانة على أنهما كتما أو كذبا، وشهد رجلان أعدل منهما بخلاف ما قالا، أجيزت شهادتهما، وأبطلت شهادة الأولين.

ب. ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ من المسلمين، ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من أهل الكتاب إذا كان ببلد لا يجد إلا هَؤُلَاءِ.

ج. وعن الحسن قال: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾: أي: من عشيرتكم، أو آخران من غير عشيرتكم، فيقول: إن الحق على المسلم إذا أراد أن يوصي أن يسند الوصاية إلى أهل عشيرته، وكذلك يشهد على ذلك من أهل عشيرته؛ لأن أهل عشيرته أحفظ لذلك، وأحوط، وأكثر عناية، وأقوم للشهادة، ولا كذلك الأجنبيان، فإن قال قائل: خاطب الله عز وجل المؤمنين جملة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ الآية، فكيف يحتمل أن يكون قوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من غير عشيرتكم، وكيف لا؟ انصرف قوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من غير دينكم؟ فنقول: سبحان الله!! ما أعظم هذا القول!! يرد شهادة موحد، مخلص دينه لله لفسق يرتكبه، ويأمر بقبول شهادة كافر، كاذب، قائل لله بالولد والشريك، هذا مما لا يحتمل، وقال ـ أيضًا ـ: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ وهم كانوا يستهزئون بالصلاة إذا نودي لها بقوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ دل أنه لا يحتمل ما ذكروا.

٢. وعن سعيد بن جبير في قوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ قال: إذا حضر المسلم الموت في السفر فلم يجد مسلمين، فأوصى إلى أهل الكتاب، فإن جاءوا بتركته فاتهموا حلف هَؤُلَاءِ أن متاعه كذا وكذا وأخذوه، وبعض الناس يجيزون شهادة النصارى واليهود في السفر في الوصية بظاهر الآية، وقال مجاهد: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾: من غير ملتكم، وعن عامر الشعبي قال شهد نصرانيان على وصية مسلم مات عندهم، فارتاب أهل الوصية، فأتوا بهما إلى أبي موسى الأشعري، فاستحلفهما بعد صلاة العصر بالله ما اشتريتما به ثمنا قليلا، ولا كتما شهادة الله، إنا إذن لمن الآثمين، ثم قال أبو موسى الأشعري: والله، إن هذه

لقصة ما قضى بها منذ مات رسول الله ﷺ إلى اليوم، قد بين الشعبي أن أبا موسى إنما استحلفهما فيما اتهما به من تركة الميت، وهذه يمين واجبة عند المسلمين جميعًا، ولم يحلفهما على أن ما شهدا به كما شهدا به؛ كما زعم قوم أن شهادتهما تصح بيمينهما.

٣. وعن عبد الله بن مسعود قال خرج رجل من المسلمين، فمر بقرية ومعه رجلان من المسلمين، فدفع إليهما ماله، ثم قال ادعوا إليَّ من أشهد على ما قبضتما، فلم يجدا أحدًا من المسلمين في تلك القرية، فدعوا ناسًا من اليهود والنصارى، وأشهدهم على ما دفع إليهما، ثم إن المسلمين قدما إلى أهله، فدفعا ماله إلى أهله، فقال الورثة: لقد كان معه من المال أكثر مما أتيتما به، فاستحلفوهما بالله ما دفع إليهما غير هذا، ثم قدم ناس من اليهود والنصارى، فسألهم أهل الميت، فأخبروهم أنه هلك بقريتهم، وترك كذا وكذا من المال؛ فعلم أهل المتوفى أن قد عثروا على أن المسلمين قد استحقا إثمًا، فانطلقوا إلى ابن مسعود، فأخبروه بالذي كان من أمرهم، فقال ابن مسعود: ما من كتاب الله من شيء إلا قد جاء على الدلالة إلا هذه الآية، فالآن جاء تأويلها فأمر المسلمين أن يحلفا بالله ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾، ثم أمر اليهود والنصارى أن يحلفوا بالله لقد ترك من المال كذا وكذا، ولشهادتنا أحق من شهادة هذين المسلمين، وما اعتدينا إنا إذًا لمن الظالمين ثم أمر أهل الميت أن يحلفوا بالله: أن كان ما شهدت به اليهود والنصارى حق فحلفوا، فأمرهم ابن مسعود أن يأخذوا من المسلمين ما شهدت به اليهود والنصارى، وكان ذلك في خلافة عثمان بن عفان، فإن ثبت هذا عن ابن مسعود فهو خلاف ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لو يعطى الناس بدعواهم لادعى قوم دماء قوم وأموالهم، لكن البينة على المدعي، واليمين على المدعى عليه)، وهو - أيضًا - غير موافق لظاهر الآية؛ فلا نراه ثبت هذا عن عبد الله بن مسعود.

٤. وعن ابن عباسٍ قال كان رجل يقال له: تَمِيمُ الدَّارِيُّ وَعَدِيُّ بْنُ بَدَّاءَ يختلفان إلى مكة في التجارة، فخرج رجل من بني سهم، فتوفي بأرض ليس فيها مسلم؛ فأوصى إليهما، فدفعا تركته إلى أهله، وحبسا جامًا من فضة، فاستحلفهما رسول الله ﷺ ما كتمتما ولا اطلعتما، ثم عُرِفَ الجام بمكة، فقالوا: اشتريناه من عدي وتميم، فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله: إن هذا الجام للسهمي ولشهادتنا أحق من شهادتهما، فأخذوا الجام، وفيهم نزلت هذه الآية، وفي هذا الحديث أن اليمين وجبت على المدعَى عليهم كما ادعى عليهم الورثة: أنهم تركوا بعض تركة الميت، وفيه أن الإناء لما ظهر ادعى تميم وصاحبه، أنهما اشترياه

من الميت فكانا مدعيين، وحلف الورثة على دعواهم وصاحبه وهذان حكمان موافقان لسائر الأحكام والسنن، فإن كان الأمر كما ذكر في هذا، فليس في الآية نسخ، ولا فيها ما يخالف الأحكام الظاهرة، وليس يجوز ـ عندنا ـ أن يحلف الشاهدان إذا كانا كافرين مع شهادتهما؛ لأن ظاهر الآية يوجب اليمين على العدلين منا ومن غيرنا، فلما لم يجز أن يحلف الشهود المسلمين على الوصية التي يشهدون لها، وإنما يحلفون على شيء إن ادعوا أنهم حبسوه شيئًا، كان سبيل الكفار كذلك.

٥. وإذا كانت الآية نزلت في قصة تميم وصاحبه وكانا نصرانين، فإن ذلك يدل على أن شهادة بعضهم على بعض جائزة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ فمعنى الآية على هذا التأويل، أن يكون الميت خلف تركته عند ذميين، على ما ذكر في القصة، وقالا: ترك في أيدينا كذا وكذا، وادعى الورثة أكثر من ذلك، فاستحلف المدعى قبلهم، وقوله: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ على هذا التأويل هو المدعى عليهما.

٦. وقوله عز وجل: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ يريد أن يشهد عليهما شاهدان منا أو منهم بشيء جحداه: أنه من تركة الميت؛ فهذا استحقاق الورثة، فإذا قال المدعي قبلهما: اشتريناه من الميت، فعلى الورثة أن يحلفوا؛ فهذا معنى قوله: ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾؛ لأن الورثة صاروا مدعى عليهم، فقاموا في هذه الحال في وجوب اليمين عليهم مقام الأولين لما كانت الدعوى عليهم؛ فهذا أقرب الوجوه في تأويل الآية وأشبهها، وهو ـ إن شاء الله ـ معنى ما روي عن ابن عباسٍ وإن لم يذكر تفسير قوله: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ وهو ـ والله أعلم ـ: على غير ديننا؛ لأنه ذكر المؤمنين جملة.

٧. وأصحابنا لا يجيزون شهادة أهل الكفر في الوصية لمسلم، لا في ضرورة ولا في غيرها؛ لأنهم مع اختلافهم اتفقوا في أن شهادة الكفار لا تجوز على غير الوصية في حال ضرورة، ولا في غيرها، فشهادتهم في الوصية على المسلمين مثل ذلك.

٨. ويمكن أن يكون تأويل الآية: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ في بيان ما يجوز من شهادة ذوي العدل منا في الحضر والسفر في الوصية وفي غير الوصية؛ كقوله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾، الآية، هذا في السفر والحضر، وفي الدَّين وغير الدَّين سواء،

فعلى ذلك الأول، ثم ابتدأ الحكم في غيره، فقال: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾

٩. سؤال وإشكال: ما معنى قوله: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾؟ والجواب: في ذلك بيان أن المؤتمن إذا ادعيت عليه الخيانة، وقال هو: قد ردت ما كان في يدي؛ فإنه لا يصدق إلا بعد أن يحلف، فإذا علم أنه لا يقبل قوله إلا بيمين كان أحرى أن يقول حذرًا من أن يحلف على كذب، أو يقر خوفًا من الإثم في اليمين فتبين خيانته.

١٠. سؤال وإشكال: ما معنى قوله: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾؟ والجواب: يحتمل أن يكون على زيادة التغليظ في اليمين، وللحاكم أن يغلظ في اليمين على الخصم إذا اتهمه بأكثر من هذا، وهو أن يحضر يمينه جماعة إذا سأل الخصم ذلك، أو ذكر بعد الصلاة؛ لما كان ذلك الوقت هو وقت لجلوس الحاكم بعد صلاة الفجر أو بعد صلاة العصر لا على التغليظ، وإن كانت الآية نزلت ـ فيما ذكر ابن عباسٍ، في نصرانيين، فقد يجوز أن يكون الله أمر بذلك تغليظا عليهما، وهما تميم وصاحبه؛ إذ كانوا يعظمون وقت غروب الشمس وما قرب من ذلك، ووقت طلوعها؛ لأنه وقت عبادتهم إياها.

١١. وقوله عز وجل: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾:

أ. قال بعضهم: فإن اطلع منهما على خيانة: أنهما كتما وكذبا، فجاء آخران يشهدان على غير ما شهدا عليه أجيزت شهادة الآخرين، وأبطلت شهادة الأولين، قَالَ الْقُتَبِيُّ: ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾: أي: ظهر.

ب. وقال أَبُو عَوْسَجَةَ: قوله: ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾: أي: علم واطلع عليه، يقال: عثرت على فلان، وعلى ما يفعل فلان، أي: علمت به واطلعت عليه، أعثر عثرًا وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ في سورة الكهف من هذا، أي: اطلعنا عليهم، وأعلمناهم بمكانهم، ويقال: أعثرت فلانا على سر فلان، أي: أعلمته.

١٢. ثم وعظ الله المؤمنين، وحذرهم أن يفعلوا مثل ذلك، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا﴾ مواعظه ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ما داموا في فسقهم، أو قال ذلك لقوم علم الله منهم أنهم لا يرجعون عن ذلك أبدًا.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. معنى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾، أي منكم أيها المؤمنون المعروفون عندكم بالإيمان المسلمون، ومعنى قوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من المجهولين الذين ليسوا منكم أيها المعروفون، ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾، يريد إن سافرتم فأصابكم الموت، ثم قال: في هذين المجهولين اللذين أمر بإشهادهما على الوصية بعد عدم المعروفين، ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾، أي من بعد أن يصليا، ويعرف الناس أنهما من أهل الصلاة، فإن صليا وعرفا حدود الصلاة، أقسما بالله.

٢. ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾، أي إن شككتم في أمرهما، فيجب أن يستحلفا بالله لا كتما شهادتهما التي جعلها الله أمانة في رقابهما، وإن هما جهلا حدود الصلاة لم يلتفت إلى شهادتهما، وتبين عند ذلك فسقهما وكفرهما.. وقد قيل إن الله عنى بقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾، أي من بعد الصلاة على محمد ﷺ، وليس ذلك بشيء، لأن اللفظ بالصلاة على محمد لا يبين أمرهما، وإنما يبين ذلك عند سؤالهما عن حدود صلاة الإسلام التي لا يجهلها إلاكافر فاسق من الطغام، لأن المجهول لا يخلو من أحد وجهين: إما أن يكون من المؤمنين فتصح شهادته.. وإما أن يكون كافراً فتبطل عدالته.. وإذا كان مجهولاً فسؤاله عن الصلاة يكشف بعض أمره، فإن استتر بالصلاة وجبت عليه اليمين، وإنما الشهود في مثل هذه الوصايا والحقوق والمعاملات ثلاثة: فاسق لا يتكل عليه، ولا يصدق في درهم ولا يركن إليه.. أو مجهول مستتر بصلاته عالم بحدودها يجب عليه أن يستحلف لتصحيح الشهادة وتأكيدها أو مؤمن معروف بحقائق الإيمان، مشهور عند الناس بالورع والإحسان، فيجب تصديقه حينئذ بأبين البيان، ولا يصح لأحد حق إلا بشهادة رجلين من المصلين يستحلفان بالله، أو بشهادة مؤمن معروف مع يمين المدعي.. فأما الفاسقون: فلا تقبل شهادتهم ولا كرامة لهم ولا يصدقون، لأنهم عند الله كافرون منافقون.

٣. ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ يريد عز وجل فإن ظُهر واطُّلِع وعُلم أن هذين المجهولين لا يعرفان حدود الصلاة فيطلب هذا الوصي

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/٢٢٩.

غيرهما من المجهولين، الذين يقدم عليهما الأوليان.. الأوليان: هما العدلان، المؤمنان المعدلان، اللذان هما أولى بالشهادة من المجهولين فإذا عدما أقسم هذان المجهولان بالله: ﴿لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾، من شهادة هذين الأوليين اللذين تبين كفرهما بجهلهما الصلاة، أو بغير ذلك من الفواحش المنكرات.

٤. معنى قوله عزوجل ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾، أي ذلك أقرب أن يأتوا بها على حقيقتها.

٥. معنى قوله: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، أي ويخافوا أن ترد عليهم أيمان أخرى بعد أيمانهم للمشهد لهم، ولعلهم إذا استحلفهم الميت وخافوا أن يُستحلفوا بعد موته أيماناً بعد أيمانهم له، أن يشهدوا بالحق ويخافوا من ترديد الأيمان عقوبة ربهم، إن لم يشهدوا بالحق ولو على قرابتهم.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ أي الشهادة بالحقوق عند الحكام، وفي قوله: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ أي من المسلمين ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي من غير دينكم من أهل الكتاب والمعنى أو آخران من غير دينكم إن لم تجدوا منكم، وليست أو للتخيير ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي سافرتم.

٢. ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾، وقد أسندتم الوصية إليهما ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ وهذا خطاب للورثة أي تستوقفونهما للأيمان من بعد الصلاة أراد به صلاة العصر ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ أي فيحلفان إن ارتبتم بهما يعني الوصيين وقوله: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ أي لا نأخذ عليه رشوة ولا نعتاض عليه بحقير ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي لا نميل مع ذي القربى في قول الزور والشهادة بغير حق ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ﴾ أي غيباً في أداء ما أوجبه الله علينا.

٣. ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ بأن كذبا وخانا فعبر عن الكذب والخيانة بالإثم بحدوثه عنهما، واللذان عثر عليهما هما الوصيان ﴿فَآخَرَانِ﴾ أعني من الورثة ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ في اليمين حتى تظهر لهما الخيانة ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ أي الأوليان بالشهادة من المسلمين، وسبب نزول

(١) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/٢٢٧.

هذه الآية أن ابن بيدا وتميم الداري وابن أبي مارية وكان ابن بيدا وابن أبي مارية نصرانيين وكان تميماً الداري مسلماً فخرجوا في سفر وكان مع تميم الداري خُرْجٌ له فيه متاع وآنية منقوشة بالذهب وقلادة أخرجها إلى بعض أسواق العرب للبيع فلما فصلوا من المدينة اعتل تميم الداري علة شديدة فلما حضره الموت دفع ما كان معه إلى ابن بيدا وابن أبي مارية وأمرهما أن يوصلاه إلى ورثته؛ فقدما إلى المدينة وقد أخذا من المتاع الآنيةوالقلادة وأوصلا سائر ذلك فافتقد القوم الآنية والقلادة فقالوا: هل مرض صاحبنا مرضاً طويلاً أنفق فيه نفقة كبيرة؟ قالا: لا ما مرض إلا أياماً قليلة، فقالوا: هل سرق منه شيء في سفره هذا؟ قالا: لا، قالوا: هل اتخذ تجارة خسر فيها؟ قالا: لا، قالوا: فقد فقدنا أفضل شيء كان معه آنية منقوشة مكللة بالجوهر وقلادة، فقالا: لا ما دفعه إلينا قد أديناه إليكم، فقدموهما إلى رسول الله ﷺ فأوجب عليهما اليمين، فحلفا فخلى عنهما ثم ظهرت تلك الآنية والقلادة عليهما فجاء أولياء تميم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله قد ظهر على ابن بيدا وابن أبي مارية ما ادعينا عليهما فانتظر رسول الله ﷺ الحكم من الله عز وجل فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فأطلق الله شهادة أهل الكتاب على الوصية فقط إذا كان في سفر ولم يوجد أهل الإسلام ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ أي صلاة العصر ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ فهذه الشهادة الأولى التي حلفها رسول الله ﷺ ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ أي أنهما حلفا على كذب ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ يعني من الأولياء المدعي وورثته ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ﴾ أي يحلفان بالله أنهما أحق بهذه الدعوى منهما وأنهما قد كذبا فيما حلفا بالله ﴿لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فأمر سرول الله ﷺ أولياء تميم الداري أن يحلفوا بالله على ما أمرهم فحلفوا فأخذ رسول الله ﷺ الآنية والقلادة من ابن بيدا وابن أبي مارية وردهما على أولياء تميم الداري ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. في قوله تعالى: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ ثلاثة تأويلات:

أ. أحدها: أنها الشهادة بالحقوق عند الحكام.

ب. الثاني: أنها شهادة الحضور للوصية.

ج. الثالث: أنها أيمان، ومعنى ذلك أيمان بينكم، فعبر عن اليمين بالشهادة كما قال في أيمان المتلاعنين: ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ﴾

٢. في قوله تعالى: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ تأويلان:

أ. أحدهما: يعني من المسلمين، قاله ابن عباس، ومجاهد.

ب. الثاني: من حي المُوصِي، قاله الحسن، وسعيد بن المسيب، وعكرمة.

٣. وفيهما قولان:

أ. أحدهما: أنهما شاهدان يشهدان على وصية المُوصِي.

ب. الثاني: أنهما وصيان.

٤. ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ فيه تأويلان:

أ. أحدهما: من غير دينكم من أهل الكتاب، قاله ابن عباس، وأبو موسى، وسعيد بن جبير، وإبراهيم، وشريح.

ب. الثاني: من غير قبيلتكم وعشيرتكم، قاله الحسن، وعكرمة، والزهري، وعبيدة.

٥. وفي ﴿أَوْ﴾ في هذا الموضع قولان:

أ. أحدهما: أنها للتخيير في قبول اثنين منا أو آخرين من غيرنا.

ب. الثاني: أنها لغير التخيير، وإن معنى الكلام، أو آخران من غيركم إن لم تجدوا، منكم، قاله ابن عباس وشريح، وسعيد بن جبير والسدي.

٦. ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني سافرتم، ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ وفي الكلام محذوف

---

(١) تفسير الماوردي: ٢/٧٦.

تقديره: فأصابتكم مصيبة الموت، وقد أسندتم الوصية إليهما.

٧. ثم قال تعالى: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ يعني تستوقفونهما للأيمان وهذا خطاب للورثة، وفي هذه الصلاة ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: بعد صلاة العصر، قاله شريح، والشعبي، وسعيد بن جبير وقتادة.

ب. الثاني: من بعد صلاة الظهر، والعصر، قاله الحسن.

ج. الثالث: من بعد صلاة أهل دينهما ومِلَّتِهِمَا من أهل الذمة، قاله ابن عباس، والسدي.

٨. ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً﴾ معناه فيحلفان بالله إن ارتبتم بهما، وفيهما قولان:

أ. أحدهما: أنهما الوصيان إن ارتبتم بهما في الخيانة أَحْلَفَهُمَا الورثة.

ب. الثاني: أنهما الشاهدان إن ارتبتم بهما، ولم تُعْرَفْ عدالتهما، ولا جرحهما، أحلفهما الحاكم ليزول عنه الارتياب بهما، وهذا إنما جوزه قائل هذا القول في السفر دون الحضر.

٩. وفي قوله تعالى: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ تأويلان:

أ. أحدهما: لا نأخذ عليه رشوة، قاله ابن زيد.

ب. الثاني: لا نعتاض عليه بحق.

١٠. ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي لا نميل مع ذي القربى في قول الزور، والشهادة بغير حق، ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ﴾ يعني عندنا فيما أوجبه علينا.

١١. ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ يعني فإن ظهر على أنهما كَذَبَا وخَانَا، فعبر عن الكذب بالخيانة والإثم لحدوثه عنهما، وفي الذين ﴿عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ قولان:

أ. أحدهما: أنهما الشاهدان، قاله ابن عباس.

ب. الثاني: أنهما الوصيان، قاله سعيد بن جبير.

١٢. ﴿فَآخَرَانِ﴾ يعني من الورثة، ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ في اليمين، حين ظهرت الخيانة، ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ فيه تأويلان:

أ. أحدهما: الأوليان بالميت من الورثة، قاله سعيد بن جبير.

ب. الثاني: الأوليان بالشهادة من المسلمين، قاله ابن عباس وشريح.

١٣. وكان سبب نزول هذه الآية ما روى عبد الله بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بدّاء، فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم، فلما قدما بتركته، فقدوا جاماً من فضة مُخَوَّصاً بالذهب فأحلفهما رسول الله ﷺ، ثم وجد الجام بمكة، وقالوا اشتريناه من تميم الداري، وعدي بن بدّاء، فقام رجلان من أولياء السهمي فَحَلَفَا ﴿لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ وأن الجام لصاحبهم قال وفيهم نزل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿واتَّقُواْ اللهَ وَاسْمَعُواْ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

١٤. ثم اختلفوا في حكم هاتي الآيتين هل هو منسوخ أو ثابت:

أ. فقال ابن عباس حكمهما منسوخ، قال ابن زيد: لم يكن الإسلام إلا بالمدينة فجازت شهادة أهل الكتاب وهو اليوم طبق الأرض.

ب. وقال الحسن: حكمهما ثابت غير منسوخ.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ذكر الواقدي وأبو جعفر عليه السلام أن سبب نزول هذه الآية ما قال أسامة بن زيد عن أبيه قال: كان تميم الداري وأخوه عدي نصرانيين وكان متجرهما إلى مكة، فلما هاجر رسول الله عليه السلام إلى المدينة قدم ابن أبي مارية مولى عمرو بن العاص المدينة وهو يريد الشام تاجراً فخرج هو وتميم الداري وأخوه عدي حتى إذا كانوا ببعض الطريق مرض ابن أبي مارية فكتب وصية بيده ودسها في متاعه وأوصى اليهما ودفع المال اليهما وقال أبلغا هذا أهلي، فلما مات فتحا المتاع وأخذا ما أعجبهما منه ثم رجعا بالمال إلى الورثة، فلما فتش القوم المال فقدوا بعض ما كان خرج به صاحبهم، ونظروا إلى الوصية فوجدوا المال فيها تاماً وكلموا تميماً وصاحبه، فقالا: لا علم لنا به وما دفعه إلينا أبلغناه كما هو، فرفعوا أمرهم إلى النبي ﷺ فنزلة هذه الآية.

٢. ﴿يَا أيها الَّذِينَ آمنوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ قيل في معنى الشهادة ـ هاهنا ـ ثلاثة أقوال:

---

(١) تفسير الطوسي: ٤/٤٢.

أ. أحدها: الشهادة التي تقام بها الحقوق عند الحكام.

ب. الثاني: شهادة الحضور لوصيين.

ج. الثالث: شهادة إيمان بالله إذا ارتاب بالوصيين من قول القائل: أشهد بالله اني لمن الصادقين.

د. والأول أقوى وأليق بالقصة.

٣. وفي كيفية الشهادة قيل قولان:

أ. أحدهما: أن يقول صحيحاً كان أو مريضاً: إذا حضرني الموت فافعلوا كذا وكذا، ذكره الزجاج.

ب. الثاني: إذا حضرت أسباب الموت من المرض.

٤. وقيل في رفع (شهادة) ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أن يكون رفعاً بالابتداء وتقديره شهادة بينكم: شهادة اثنين، ويرتفع (اثنان) بأنه خبر الابتداء ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، قال أبو علي الفارسي: واتسع في (بين) وأضيف إليه المصدر، وذلك يدل على قول من يقول: أن الظرف الذي يستعمل يجوز أن يستعمل اسماً في غير الشعر، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ فيمن رفع، وجاء في الشعر: فصادف بين عينيه الجبوبا

ب. الثاني: على تقدير محذوف وهو عليكم شهادة بينكم أو مما فرض عليكم شهادة بينكم، ويرتفع اثنان بالمصدر ارتفاع الفاعل بفعله.

ج. الثالث: أن يكون الخبر ﴿إِذَا حَضَرَ﴾ فعلى هذا لا يجوز أن يرتفع (اثنان) بالمصدر، لأنه خارج عن الصلة بكونه بعد الخبر، لكن على تقدير ليشهد اثنان.

٥. ولا يجوز أن يتعلق إذا حضر بالوصية لأمرين:

أ. أحدهما: أن المضاف إليه لا يعمل فيما قبل المضاف، لأنه لو عمل فيما قبله للزم أن يقدر وقوعه في موضعه فإذا قدِّر ذلك لزم تقديم المضاف عليه على المضاف، ومن ثم لم يجز (القتال زيداً) حين يأتي.

ب. والآخر: أن الوصية مصدر، فلا يتعلق به ما يتقدم عليه.

٦. ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ يعني قرب أحدكم من الموت كما قال: ﴿حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ وقال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ وقال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ وكل ذلك يريد به المقاربة، ولولا ذلك لما أسند إليه القول بعد الموت.

٧. ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ فلا يجوز أن يحمل على الشهادة، لأنها إذا عملت في ظرف من الزمان لم تعمل في ظرف آخر منه، ويمكن حمله على أحد ثلاثة أشياء:

أ. أحدها: أن تعلقه بالموت كان الموت في ذلك الحين بمعنى قرب منه.

ب. الثاني: على حضر أي إذا حضر: هذا الحين.

ج. الثالث: أن يحمله على البدل من (إذا) لأن ذلك الزمان في المعنى هو ذلك الزمان، فيبدله منه، ويكون بدل الشيء من الشيء إذا كان إياه.

٨. ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ خبر المبتدإ الذي هو (شهادة) وتقديره شهادة بينكم شهادة اثنين على ما بيناه، لأن الشهادة لا تكون إلا من اثنين وقوله: (منكم) صفة لقوله: (اثنان) كما أن (ذوا عدل) صفة لهما، وفي الظرف ضمير.

٩. في معنى ﴿مِنْكُمْ﴾ قولان:

أ. أحدهما: قال سعيد بن المسيب وعبيدة ويحيى بن يعمر ومجاهد وقتادة وابن عباس: أي من المسلمين، وهو قول أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام.

ب. الثاني: قال سعيد بن المسيب وعبيدة ـ في رواية اخرى ـ وعكرمة: إنهما من حي الموصي.

ج. والأول أظهر وأصح، وهو اختيار الرماني، لأنه لا حذف فيه.

١٠. ﴿أو آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ تقديره أو شهادة آخرين من غيركم، وحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، و(من غيركم) صفة للآخرين، وقيل في معنى (من غيركم) قولان:

أ. أحدهما قال ابن عباس وأبو موسى الأشعري وسعيد بن المسيب وسعيد ابن جبير وشريح وإبراهيم وابن سيرين ومجاهد وابن زيد واختاره أبو علي الجبائي، وهو قول أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام أنهما من غير أهل ملتكم.

ب. الثاني: قال عكرمة وعبيدة ـ بخلاف عنه ـ وابن شهاب والحسن: يعني من غير عشيرتكم، قال الحسن لأن عشيرة الموصي أعلم بأحواله من غيرهم، وهو اختيار الزجاج، قال: لأنه لا يجوز قبول شهادة الكفار مع كفرهم وفسقهم وكذبهم على الله.

١١. معنى (أو) ـ هاهنا ـ

أ. للتفصيل لا للتخيير، لأن المعنى أو آخران من غيركم إن لم تجدوا منكم، وهو قول أبي عبيدة وشريح ويحيى بن يعمر وابن عباس وإبراهيم وسعيد بن جبير والسدي، وهو قول أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام.

ب. وقال قوم: هو بمعنى التخيير فيمن ائتمنه الموصي من مؤمن أو كافر.

١٢. ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني أن أنتم سافرتم كما قال: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾

١٣. ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ فيه محذوف، وتقديره وقد اسنتم الوصية اليهما فارتاب الورثة بهما تحبسونهما، ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ خطاب للورثة والهاء في (به) تعود إلى القسم بالله.

١٤. والصلاة المذكورة في هذه الآية قيل فيها ثلاثة أقوال:

أ. أولها: قال شريح وسعيد بن جبير وإبراهيم وقتادة، وهو قول أبي جعفر عليه السلام أنها صلاة العصر.

ب. الثاني: قال الحسن: هي الظهر أو العصر، وكل هذا لتعظيم حرمت وقت الصلاة على غيره من الأوقات، وقيل: لكثرة اجتماع الناس كان بعد صلاة العصر.

ج. الثالث: قال ابن عباس صلاة أهل دينهما يعني في الذميين لأنهم لا يعظمون أوقات صلاتنا.

١٥. ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ الفاء دخلت لعطف جملة ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ في قول الآخرين الذين ليسا من أهل ملتنا أو من غير قبيلة الميت فغلب في ظنكم خيانتهم، ولا خلاف أن الشاهد لا يلزمه اليمين إلا أن يكونا شاهدين على وصية مستندة اليهما فيلزمهما اليمين لأنهما مدعيان.

١٦. ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ لا نشتري جواب ما يقتضيه قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾ لأن (أقسم) ونحوه يتلقى بما تتلقى به الايمان، ومعنى قوله: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ لا نشتري بتحريف شهادتنا ثمنا، فحذف المضاف وذكر الشهادة، لأن الشهادة قول كما قال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى﴾ ثم قال: ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ لما كانت القسمة يراد بها المقسوم، إلا ترى أن القسمة التي هي افراد الأنصباء لا يرزق منه، وإنما يرزق من التركة، وتقديره لا نشتري به ثمنا أي ذا ثمن، إلا ترى أن الثمن لا يشترى، وإنما الذي

يشترى المبيع دون ثمنه، وكذلك قوله: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ الله ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي ذا ثمن، والمعنى انهم آثروا الشيء القليل على الحق، فاعرضوا عنه وتركوه، ولا يكون (اشتروا) في الآية بمعنى (باعوا) لأن بيع الشيء إخراج وإنفاذ له من البائع، وليس المعنى - هاهنا - على الإنفاذ وإنما هو على التمسك به، والإيثار له على الحق.

١٧. ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ تقديره ولو كان المشهود له ذا قربى، وخصَّ ذو القربى لميل الناس إلى قراباتهم، ومن يناسبونه.

١٨. ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ الله إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ معناه انَّا أن كتمناها لمن الآثمين، وقال: (شهادة الله) فأضاف الشهادة إلى الله لأمره بها وبإقامتها والنهي عن كتمانها في قوله: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فإنه آثِمٌ قَلْبُهُ﴾، وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لله﴾

١٩. ﴿فإن عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِالله لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قرأ حفص والأعشى إلا النفار والكسائي عن أبي بكر (استحق) بفتح التاء والحاء، الباقون - بضم التاء وكسر الحاء - والابتداء على الأول بكسر الهمزة، وقرأ حمزة وأبو بكر إلا الأعشى - في غير رواية النفار - ويعقوب، وخلف (الأوَّلين) بتشديد الواو، وكسر اللام وفتح النون على الجمع، والباقون بسكون الواو، وفتح اللام وكسر النون على التثنية.

٢٠. وقد ذكرنا سبب نزول الآية عمن رويناه عنه، فذكروا أنها نزلت في أمر رسول الله ﷺ أن يستحلفوهما (والله ما قبضنا له غير هذا ولا كتمناه) ثم ظهر على إناء من فضة منقوش مذهب معهما، فقالوا: هذا من متاعه، فقالا: اشتريناه منه، فارتفعوا إلى رسول الله فنزلت قوله تعالى: ﴿فإن عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ﴾ فأمر رسول الله رجلين من أهل البيت أن يحلفا على ما كتما وغيبا، فحلف عبد الله ابن عمر والمطلب بن أبي وداعة فاستحقا، ثم أن تميما أسلم وتابع رسول الله ﷺ وكان يقول: صدق الله، وبلغ رسول الله، أنا أخذت الإناء.

٢١. ومعنى (عثر) ظهر على، تقول: عثرت على خيانته وأعثرت غيري على خيانته أي أطلعته، ومنه قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي أطلعنا عليهم وأصله الوقوع بالشيء من قولهم: عثر الرجل يعثر عثوراً إذا وقع إصبعه بشيء صدمته، وعثر الفرس عثاراً قال الشاعر:

بذات لوث عفرناة إذا عثرت فالتعس أدنى لها من أن أقول لعا

وأعثر الرجل يعثر عثراً إذا أطلع على أمر كان خافياً عنه، لأنه وقع عليه بعد خفائه، والعثير الغبار الساطع، لأنه يقع على الوجه وغيره، والعثير الأثر الخفي، لأنه يوقع عليه من خفاء.

٢٢. ﴿عَلَى أَنَّهُمَا﴾:

أ. يعني على أن الوصيين المذكورين أولا في قوله: (اثنان) في قول سعيد بن جبير.

ب. وقال ابن عباس: على أن الشاهدين استحقا اثما يعني خانا وظهر وعلم منهما ذلك.

٢٣. ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ يعني من الورثة ـ في قول سعيد بن جبير وغيره ـ

٢٤. ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ قيل في قوله: ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: قال سعيد بن جبير وابن زيد: الاوليان بالميت.

ب. الثاني قال ابن عباس وشريح: الاوليان بالشهادة وهي شهادة الإيمان.

ج. الثالث قال الزجاج: الأوليان أن يحلفا غيرهما وهما النصرانيان، ويقال هو الأولى بفلان ثم يحذف فلان فيقال: هو الأولى، وهذان الاوليان كما يقال هو الأكبر بمعنى الكبير وهذان الاكبران.

٢٥. في رفع ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: بأنه اسم ما لم يسم فاعله والمعنى استحق عليهم إثم الأولين أي استحق منهم، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

ب. الثاني: بأنه بدل من الضمير (في يقومان) على معنى فليقم الاوليان من الذين استحق عليه الوصية وهو اختيار الزجاج.

ج. الثالث: بدل من قوله: (آخران)، وزعم بعض الكوفيين انه لا يجوز إبداله من (آخرين) لتأخر العطف في (فيقسمان)، لأنه يصير بمنزلة (مررت برجل قام زيد وقعد) قال الرماني: يجوز على العطف بالفاء جملة على جملة، وقال أبو علي الفارسي: ويجوز أن يكون رفعاً بالابتداء وقد أخر، وتقديره فالاوليان بأمر الميت آخران من أهله أو من أهل دينه يقومان مقام الخائنين اللذين عثر عليهما كقولك: تميمي أنا، ويجوز أن يكون خبر ابتداء محذوف، وتقديره فآخران يقومان مقامهما هما الاوليان، واختار أبو الحسن الأخفش أن يكون الاوليان صفة لقوله: (فآخران) لأنه لما وصف اختص، فوصف لأجل الاختصاص بما

توصف به المعارف، واما الجمع فعلى اتباع (الذين) وموضعه الجر وتقديره من الأولين الذين استحق عليهم الإيصاء والإثم، وإنما قيل لهم الأولين من حيث كانوا أولين في الذكر إلا ترى أنه تقدم ﴿يَا أيها الَّذِينَ آمنوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ وكذلك ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ ذكرا في اللفظ، قيل قوله: ﴿أو آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ وحجتهم في ذلك أن قالوا: أرأيت أن كان الاوليان صغيرين أراد انهما إذا كانا صغيرين لم يقوما مقام الكبيرين في الشهادة ولم يكونا لصغرهما أولى بالميت، وان كانا لو كانا كبيرين كانا أولى به.

٢٦. وإنما قال: ﴿اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾:

أ. لأن آخذه إنما يأخذه آثم فسمي (إثماً) كما يسمى ما يؤخذ منك بغير حق مظلمة، قال سيبويه: المظلمة اسم ما أخذ منك قهراً، وكذلك سمي هذا المأخوذ باسم المصدر.

ب. وقيل: معناه استحقا عذاب إثم وحذف المضاف واقام المضاف إليه مقامه كما قال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أي بعقاب اثمي وعقاب اثمك.

٢٧. وقيل في معنى (عليهم) ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أن تكون (على) بمعنى (من) كأنه، قال من الذين استحق منهم الإثم كما قال: ﴿إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ أي من الناس.

ب. الثاني: أن يكون المعنى كما تقول: استحق على زيد مال بالشهادة أي لزمه ووجب عليه الخروج منه، لأن الشاهدين لما عثر على خيانتهما استحق عليهما ما ولياه من أمر الشهادة والقيام بها ووجب عليهما الخروج منها وترك الولاية لها فصار إخراجهما منها مستحقا عليهما كما يستحق على المحكوم عليه الخروج مما وجب عليه.

ج. الثالث: أن تكون (على) بمنزلة (في) كأنه استحق فيهم، وقام (على) مقام (في) كما قام (في) مقام (على) في قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ والمعنى من الذين استحق عليهم بشهادة الآخرين اللذين هما من غيرنا.

٢٨. سؤال وإشكال: هل يجوز أن يسند ﴿اسْتَحَقَّ﴾ فيه إلى ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾؟ والجواب: لا يجوز ذلك لأن المستحق انما يكون الوصية أو شيء منها، ولا يجوز أن يستحق الْأَوْلَيَانِ وهما الْأَوْلَيَانِ بالميت، والْأَوْلَيَانِ بالميت لا يجوز أن يستحقا فيسند (استحق) اليهما.

٢٩. ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ﴾ أي يحلفان بالله، ﴿لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ جواب القسم في قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ﴾، ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ يعني فيما قلنا من أن شهادتنا أحق من شهادتهما ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ تقديره إنا أن اعتدينا لمن الظالمين لنفوسنا.

٣٠. قال الزجاج: هذه الآية أصعب آية في القرآن اعراباً.

٣١. سؤال وإشكال: كيف يجوز أن يقف أولياء الميت على كذب الشاهدين أو خيانتهما حتى حل لهما أن يحلفا؟ والجواب: يجوز ذلك بوجوه:

أ. أحدها: أن يسمعا اقرارهما بالخيانة من حيث لا يعلمان.

ب. أو يشهد عندهم شهود عدول بأنهم سمعوهما يقرَّ أن بأنهما كذبا أو خانا.

ج. أو تقوم البينة عندهما على أنه أوصى بغير ذلك.

د. أو على أن هذين لم يحضرا الوصية أو يعرفان بغير ذلك من الأسباب.

٣٢. ﴿ذَلِكَ أَدْنَى﴾ معناه ذلك الأحلاف والأقسام أو ذلك الحكم أقرب إلى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أي حقها وصدقها، لأن اليمين يردع عن أمور كثيرة لا يرتدع عنها مع عدم اليمين.

٣٣. واختلفوا في أن اليمين هل تجب على كل شاهدين أم لا؟

أ. فقال ابن عباس: انما هي على الكافر خاصة وهو الصحيح.

ب. وقال غيره: هي على كل شاهدين وصيين إذا ارتيب بهما.

٣٤. واختلفوا في نسخ حكم الآيتين المتقدمتين مع هذه على قولين:

أ. فقال ابن عباس وإبراهيم وأبو علي الجبائي: هي منسوخة الحكم.

ب. وقال الحسن وغيره: هي غير منسوخة، وهو الذي يقتضيه مذهبنا واخبارنا، وقال البلخي: أكثر أهل العلم على أنه غير منسوخ، لأنه لم ينسخ من سورة المائدة شيء لأنها آخر ما نزلت.

٣٥. ووجه قول من قال هي منسوخة أن اليمين لا يجب اليوم على الشاهدين بالحقوق، وإنما كان قبل الأمر باشهاد العدول في قوله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ فنسخت هذه الآية ودلت على أن شهادة الذمي لا تقبل إلا على الذمي إذا ارتفعا إلى حكام المسلمين لأن الذمي ليس بعدل ولا ممن يرضى من الشهداء، وهو قول أبي علي الجبائي، ومن ذهب إلى انها منسوخة جعلها بمعنى شهادة الأيمان على الوصيين

فإذا ظهروا على خيانة منهما مما وجد في أيديهما صارا مدعيين وصار الورثة في معنى المنكر فوجبت عليهما اليمين من حيث صارا مدعيين.

٣٦. ﴿أو يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ إيمان بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ يعني أهل الذمة يخافوا أن ترد إيمان على أولياء الميت فيحلفوا على خيانتهم فيفتضحوا ويغرموا وينكشف بذلك للناس بطلان شهادتهم ويسترد منهم ما أخذوه بغير حق، حينئذ يؤدوا الشهادة على وجهها ويحذروا من الكذب.

٣٧. ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا﴾ يعني اجتنبوا معاصيه واحذروا أن تحلفوا ايمانا كاذبة أو تخونوا أمانة واسمعوا مواعظ الله.

٣٨. ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾:

أ. يعني لا يهدي الفاسقين ـ الذين خرجوا من طاعة الله إلى معصيته ـ إلى الجنة.

ب. وقيل إن معنى ﴿لَا يَهْدِي﴾ لا يحكم للفاسقين بأنهم مهتدين ولا يجري عليهم مثل هذه الصفة لأنها صفة مدح.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. العدل مصدر يقال: رجل عدل، ورجلان عدل، ورجال عدل، قال زهير: (فهُمْ رِضًا وهم عدل)، وعن بعضهم: قوم عُدَلَةٌ على وزن فُعَلَة، والحبس مصدر حبسه حبسًا، والحبس ما وقف، ومنه: جاء محمد ببيع الحبس، والضرب في الأرض: الذهاب فيها.

ب. القسم: اليمين، ارتاب افتعل من الريب، وهو الشك، والريب: ما رابك من أمر، تقول: رابني هذا الأمر، أي دخل عليه فيه شك، والإثم: الذنب أثم فهو آثم وأثيم، وتأثم: تحرج من الإثم وكف عنه، ونظيره: حَرِجَ وقع في الحرج، وتحرج: كف عنه، والأثوم: الكذاب.

ج. عثر: بانَ وظهر، وأصله الوقوع بالشيء من قولهم: عَثَرَ الرجل يَعْثُرُ عُثُورًا وعثارًا، وعثر الفرس

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/٤٤٤.

عثارًا، وعثر الرجل على الشيء يَعْثُرُ عِثْرًا وعثورًا إذا اطلع على أمر كان خفيًا لم يطلع عليه كأنه وقع عليه بعد خفائه، ومنه ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: أطلعنا، قال يعقوب: يقال في هذا: عثر عليه يعثر عِثْرًا وعثورًا، والعاثور: حفرة تحفر ليعثر بها الأسد فيصطاد، والعِثْيَرُ الغبار الصادع.

د. حَقَّ واستَحقَّ بمعنى، يقال: حققت عليه القضاء حقًّا، وأحققته إذا أوجبته، واستحق: استوجب، واستحق عليه كأنه ملك عليه حقا، والاستحقاق والاستحباب قريبان.

هـ. الاعتداء: تجاوز الحد.

و. ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ يقال: هو أولى، ورجلان أوليان، ورجال أولون.

ز. الدُّنُوُّ: القرب، دنا يدنو، وسميت الدنيا لدنوها، والنسبة إليها دنياوي، ودانيت بين الأمرين: قاربت بينهما، وأَدْنَتِ الفرسُ دَنَا نتاجها، وأدنى: أقرب، ويُقال: لقيته أَدنَى دَنِيٍّ ودني.

ح. الرد: مصدر رددت الشيء ردًّا، ومنه المرتد الذي يرد نفسه إلى كفره، والرِّدُّ، بكسر الراء: عماد الشيء الذي يرده.

٢. اختلف في سبب نزول الآية الكريمة:

أ. قيل: نزلت الآية في ثلاثة نفر خرجوا تجارًا من المدينة قيل: إلى الشام، وقيل: إلى الحبشة: عدي بن زيد، وتميم بن أوس، وهما نصرانيان، وبُدَيْل مولى العاص السهمي، وكان مسلمًا، واختلفوا في كنية أبيه فقيل: بديل بن أبي مارية، عن الكلبي، وقيل: ابن أبي ماوية، عن عكرمة وابن سيرين وقتادة، وقيل: ابن أبي مريم، عن محمد بن إسحاق، فلما قدموا الشام مرض بديل، وقيل: لما ركب البحر مرض، فكتب صحيفة فيها جميع ما معه وطرحها في وعائه ورفعها ورفع متاعه إلى صاحبيه ليدفعاه إلى أهله، ومات بُديل، قيل: بالشام وقيل: في البحر، فأخذا إناء من فضة منقوشًا بالذهب فيه ثلاثمائة مثقال، ولم يعلما بشأن الصحيفة، فلما انصرفا إلى المدينة دفعا المتاع إلى أهل البيت، فلما قرؤوا الصحيفة فقدوا الإناء فطالبوهما به فقالا: ما لنا بالإناء من علم، فرفعوا إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية عن جماعة من المفسرين.

ب. وقيل: كان هذا الحكم في رجل توفي وليس عنده أحد من أهل الإسلام في ابتداء الإسلام، والناس كفار، فأبيح شهادة أهل الذمة لذلك، ثم لما كثر المسلمون، وفرض الفرائض نسخ ذلك، عن ابن زيد.

ج. وقيل: لما نزلت الآية الأولى: على رسول الله ﷺ صلى العصر، ودعا بعدي وتميم، فاستحلفهما عند المنبر بِالله ما خانا شيئًا، فحلفا، وخلَّى رسول الله ﷺ سبيلهما، وكتما الإناء ما شاء الله ثم ظهر، واختلفوا، فقيل: وجد بمكة فقالوا: اشتريناه من عدي وتميم، عن ابن عباس.

د. وقيل: لما طالت المدة أظهرا الإناء فبلغ ذلك بني سهم فطالبوهما، فقالا: كنا اشتريناه منه، فقالوا: ألم نقل لكم هل باع صاحبنا شيئًا؟ قلتما: لا، فقالا: لم يكن عندنا بينة، فكرهنا أن نقر فكتمنا، فرفعوا القصة إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى﴾ الآية، فلما نزلت الآية قام عمرو بن العاص والمطلب بن وداعة السهميان فحلفا بِالله بعد العصر فدفع الإناء إليهما وإلى أولياء الميت، فكان تميم الداري بعد ما أسلم يقول: صدق الله ورسوله، أنا أخذت الإناء فأتوب إلى الله تعالى، وعن ابن عباس: أن تميما الداري قال بعنا الإناء بألف، وقسمنا الثمن، فلما أسلمت تأثمت بعدما حلفت كاذبًا، فأخبرت موالي الميت بما عندي وعند صاحبي، فأتوا به النبي ﷺ وحلفوا، فنزعت منه خمسمائة، ورددت خمسمائة.

٣. لما تقدم الأمر بالرجوع إلى ما أنزل الله تعالى عقبه بذكر الأحكام المنزلة، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ صدقوا الله ورسوله، وقيل: أيها المؤمنون ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾:

أ. قيل: هي الشهادة التي تقام بها الحقوق عند الحكام.

ب. وقيل: الشهادة بمعنى الحضور، تقول: شهدت وصية فلان، ومنه ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ البقرة ١٣٣، ومنه ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

ج. وقيل: هي شهادة إيمان بِالله إن ارتاب الورثة بالوصيين كقوله: ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِالله إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾

٤. ﴿بَيْنِكُمْ﴾ خطاب للمؤمنين الَّذِينَ تقدم ذكرهم في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

٥. ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾:

أ. قيل: حضر أسباب الموت من مرض ونحوه، ونظيره ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾

ب. وقيل: يقول في حال الصحة أو المرض: إذا حضرني الموت فافعلوا كذا، عن الزجاج.

٦. ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ يعني وقت الوصية ﴿اثْنَانِ﴾:

أ. قيل: هما الشاهدان.

ب. وقيل: هما الوصيان، وأراد تأكيد الأمر في الوصية، فجعل الوصية إلى اثنين، وعلى هذا الشهادة بمعنى الحضور.

٧. ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ أي: أهل عدالة ﴿مِنْكُمْ﴾:

أ. قيل: من المسلمين، عن ابن عباس، وسعيد بن المسيب وعبيدة السلماني ويحيى بن يعمر ومجاهد، تقديره: من أهل دينكم يا معشر المسلمين.

ب. وقيل: معناه من حي الموصي، عن الحسن وعكرمة وعبيدة.

٨. ﴿أَوْ آخَرَانِ﴾:

أ. قيل ﴿أَوْ﴾ للتفصيل لا للتخيير؛ لأن المعنى: ذوا عدل منكم، فإن لم يكن منكم فمن غيركم، عن شريح وعبيدة وابن عباس وإبراهيم والسدي.

ب. وقيل: هو للتخيير فمن يسميه الْمُوصِي من مؤمن أو كافر، آخران اثنان.

٩. ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾:

أ. من غير أهل ملتكم، يعني من غير المسلمين، عن ابن عباس وأبي موسى وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وشريح وإبراهيم وعبيدة وابن سيرين ومجاهد وابن زيد وأبي علي.

ب. وقيل: من غير عشيرتكم، عن الحسن والزهري وعكرمة وابن شهاب والأصم، قال الحسن: لأن عشيرة الموصي أعلم بأحواله من غيرهم، وقيل: لأنهم يكونون أوعى لحقوق الميت.

١٠. ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي سافرتم ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ في الكلام محذوف، تقديره: فأصابتكم مصيبة الموت وقد أسندتم الوصية إليهما، ودفعتم المال إليهما، وارتاب الورثة بهما واتهموهما في ذلك، وادعوا عليهما خيانة، فالحكم فيه أن ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ أي تستوقفونهما، وهما خطاب للورثة في أن يوقف، والكناية فيهما:

أ. قيل: ترجع إلى الشاهدين.

ب. وقيل: إلى الوصيين على حسب اختلافهم في ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾

ج. وقيل: هما في الكفار، فأما في المسلمين فلا يمين عليهما عن ابن عباس.

١١. ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾:

أ. قيل: صلاة العصر، عن شريح وسعيد بن جبير وإبراهيم وقتادة.

ب. وقيل: صلاة الظهر أو العصر، عن الحسن؛ وذلك لتعظيم وقت الصلاة، وإيجاب حرمته.

ج. وقيل: صلاة أهل دينهما يعني في الذمي، عن ابن عباس؛ لأنهم لا يعظمون أوقات صلاتنا.

١٢. ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ﴾ أي يحلفان بالله ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ شككتم واتهمتم، وهو خطاب للورثة ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ أي لا نحلف بالله كاذبين لعوض نأخذه ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي وإن كان الذي نقسم له ذا قرابة منا ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ﴾ يعني شهادة لزمنا أداؤها بأمر الله ﴿إِنَّا إِذًا﴾ إن فعلنا ذلك كنا ﴿لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ المجرمين أي النادمين.

١٣. اختلف في نسخ الآية الكريمة:

أ. من حمل الآية على الشهادة من المسلمين قال الآية محكمة، قال الحسن: وعلى الأمة العمل بها إلى يوم القيامة، فيشهد عدلان على الوصية من عشيرته أو من غيرهم، فإن شهدا وهما عدلان أمضى الحكم.

ب. ومن حمل الآية على أن قوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من أهل الذمة اختلفوا:

- فقال أبو علي وجماعة: كان ذلك في ابتداء الإسلام ثم نسخ، فكذلك نسخ استحلاف الشهود، فلا تجوز شهادة الذمي.

- وقال شريح والأوزاعي: شهادتهم في السفر على الوصية جائزة على المسلمين، فإن شهد مسلمان بخلاف ذلك بطلت شهادة الكافرين.

١٤. في الآية أحكام أربعة:

أ. أولها: شهادة عدلين، وهو ثابت في الشرع في الأموال والحقوق والحدود ما خلا الزنا فإنه يعتبر أربعة رجال، وهل تقبل شهادة العبيد؟ وأكثر الفقهاء على أنها لا تقبل، وقال داوود تقبل إذا كان عدلاً، وروي عن الهادي نحوه، وشهادة الوالد لولده، والولد لوالده لا تقبل، وعن الهادي تقبل، وهو قول عثمان البتي، وأبي ثور، فأما شهادة الصبيان فلا تقبل بالاتفاق، إلا ما يحكى عن مالك في الشجاج ما لم يتفرقوا، وما لم يطلع عليه الرجال تقبل فيه شهادة امرأة واحدة، وقال الشافعي: يشترط أربع من النساء، وشهادة النساء تقبل في الأموال والحقوق، ولا تقبل في الحدود والقصاص، وعند الشافعي لا تقبل إلا في الأموال، وشهادة الأخرس لا تقبل بالاتفاق بين الفقهاء إلا ما يحكى عن مالك أنها تقبل.

ب. ثانيها: شهادة أهل الذمة لا تقبل، وعند الأوزاعي تقبل في السفر على الوصية، فأما شهادة بعضهم على بعض فاختلفوا على أقوال عند الشافعي لا تقبل شهادة كافر بحال، وقال أبو حنيفة: تقبل شهادة بعضهم على بعض، وقال بعض: تقبل شهادة اليهود على اليهود، والنصارى على النصارى، ولا تقبل شهادة اليهود على النصارى، ولا شهادة النصارى على اليهود، وهو قول الليث بن سعد وابن أبي ليلى والحسن بن صالح والأوزاعي ويحيى الهادي، فأما شهادة المجوس فعند أبي حنيفة تقبل على أهل الذمة، وعند الشافعي لا تقبل، وهو اختيار السيد أبي طالب.

ج. ثالثها: استحلاف الشهود، الأكثر على أنه لا يحلف، وعن طاووس والحسن أنه يحلف عند التهمة، وهو قول يحيى الهادي، إلا أنه على الوجه الذي تضمنته الآية لا يحلف، وهو أن يقول: شهادتنا أحق من شهادتهما، أو يحلف الوارث أن قوله أولى من قولهما، فلا بد في الآية من نسخ.

د. رابعها: تخصيص اليمين بوقت ومكان، قال أبو حنيفة: يحلف من غير أن يختص اليمين بزمان أو مكان، وقال الشافعي: يغلظ اليمين بهما في المال الكثير، وأقله عشرون دينارًا، وفي الجراح والطلاق والنكاح والرجعة والعتاق فبِمَكَّةَ بَيْنَ الركن والمقام، وبالمدينة عند المنبر، وبيت المقدس عند الصخرة، وفي سائر البلدان في الجامع، وبعد صلاة الظهر.

١٥. استدل بعض الحنفية بالآية على جواز شهادة أهل الذمة؛ لأن منطوق الآية يدل على جوازه على المسلمين، وفحواه يدل على جوازه على الكفار، نسخُ الأولِ نَفْيَ الثاني.

١٦. ثم بَيَّنَ تعالى الحكم بعد ظهور الخيانة من الوصي أو الشهود فقال سبحانه: ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾:

أ. قيل: اطلع بلغة قريش.

ب. وقيل: بانَ وظهر.

١٧. ﴿عَلَى أَنَّهُمَا﴾:

أ. قيل: الوصيين الَّذِينَ ذكرا في قوله: ﴿اثْنَانِ﴾، عن سعيد ين جبير وابن زيد.

ب. وقيل: الشاهدان، عن ابن عباس.

١٨. ﴿اسْتَحَقَّا﴾ استوجبا ﴿إِثْمًا﴾:

أ. ذنبا بأيمانهما الكاذبة وخيانتهما.

ب. وقيل: عقوبة بها أتيا، عن أبي علي.

١٩. ﴿فَآخَرَانِ﴾ من أولياء الميت ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾:

أ. يعني مقام الوصيين.

ب. وقيل: مقام الشاهدين.

٢٠. ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ﴾:

أ. عليهم بضم التاء: قيل: استحق عليهم المال، وقيل: فيهم ومن أجلهم استحق الإثم.

ب. فأما بفتح التاء يعني الأوليان استحق عليهم المال، وهم ورثة الموصِي.

٢١. ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾:

أ. قيل: الميت من الورثة، عن سعيد بن جبير وابن زيد.

ب. وقيل: الأوليان بالشهادة ممن كان من المسلمين، عن ابن عباس وشريح، وهي شهادة الأيمان.

ج. وقيل: الأوليان أن يحلفا غيرهما، وهما النصرانيان، عن الزجاج.

د. الأولين هم ورثة الميت، ولهم حلف الشهود.

٢٢. ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾ فيحلفان ﴿بِالله لَشَهَادَتُنَا﴾:

أ. قيل: يميننا.

ب. وقيل: شهادتنا وقولنا في وصية صاحبنا.

﴿أَحَقُّ﴾ بالقبول والصدق ﴿مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾:

أ. قيل: من يمين الوصيين.

ب. وقيل: من شهادة النصرانيين.

٢٣. ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ أي ما جاوزنا الحق في الشهادة أو اليمين ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لو فعلنا ذلك لكنا من جملة الظالمين.

٢٤. في الآية، أحكام، واختلفوا فيه على قولين:

أ. منهم من قال إنه ثابت غير منسوخ، ثم اختلفوا، فقال بعضهم: يحلف الشاهد الأول، فإذا ظهرت الخيانة منهم بشهادة آخرين يحلف الشاهد الثاني، ويرد على الورثة ما شهدوا به، وعلى هذا حمله

جماعة، وقالوا: إنها ثابتة، وروي نحوه عن الحسن، وقال بعضهم: إنه في الوصي والورثة، والمراد بالشهادة اليمين، وأن الورثة إذا حَلَّفُوا الوصيَّ عند ارتيابهم فحلف لهم، ثم ظهرت الخيانة بِأَخْذِ مال الميت، وادعى الوصيُّ شراءَ ذلك من الميت انقلب الوصي مُدَّعيًا، والورثة مُدَّعًى عليهم فيحلف الورثة، فحملوا على هذا وهو ثابت.

ب. والقول الثاني أنه منسوخ، وهو استحلاف الشهود، وقبول شهادة الذمي، وهو الأصح، وقول ابن عباس وإبراهيم، واختيار أبي علي والقاضي.

٢٥. تدل الآية الكريمة على:

أ. أن مَنِ اعتدى في الشهادة فهو ظالم.

ب. أن شهادة الزور وكتمان الشهادة من الكبائر.

ج. أن أفعال العباد حادثة من جهتهم؛ لذلك وصفهم به، وأوجب العقاب عليهم.

٢٦. ثم بَيَّنَ تعالى وجه الحكمة في استحلاف الشهود فقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى﴾ أقرب ﴿أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾ أي يؤدونها على وجهها لا يكتمون شيئا ولا يزيدون شيئًا ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ يعني يتحفظون في الشهادة مخافة أن ترد اليمين والشهادة إلى المستحق عليهم، فتظهر الفضيحة، ويسترد المال، فيخافون، ويتحرزون عن الكذب ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ أي اتقوا معاصيه قبل أن تحلفوا كاذبين، أو تخونوا الأمانة، ﴿وَاسْمَعُوا﴾ ما أمرتكم به ووعظتكم به، ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾:

أ. قيل: لا يحكم بهدايتهم، ولا يصفهم به.

ب. وقيل: لا يهديهم إلى ثوابه وجنته، عن أبي علي، والفاسق: الخارج عن طاعة الله تعالى.

٢٧. تدل الآية الكريمة على:

أ. ما لأجله حكم بالإيمان وردها على مَنْ يجب ردها عليه.

ب. أن الهداية لا تنال الفاسق، ولا شبهة أنه تعالى قد دَلَّهُ على الحق، وبين له وأزاح علته، فلم يبق إلا أحد الَّذِينَ ذكرنا.

ج. وجوب التقوى والتحرز في الشهادات، وأنه لا ينبغي أن يُغَيِّرَهَا عن وجهها، بل يؤديها كما هي، وعلى هذا قال ﷺ: (إذا علمت مثل الشمس فاشهد، وإلا فَدَعْ)

د. أنه يفعل ما يفعل لغرض خلاف ما يقوله بعض أهل الجبر؛ لأنه بَيَّنَ أنه أَمَرَ باليمين ليتحرزوا من الخيانة.

٢٨. قراءات ووجوه:

أ. قراءة العامة ﴿شَهَادَةُ﴾ بغير تنوين ﴿بَيْنِكُمْ﴾ بالكسر على الإضافة، وقرأ الحسن ﴿شَهَادَةٌ﴾ بالتنوين أي: هذه شهادة بينكم، وقراءة العامة ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ﴾ بغير تنوين على الإضافة وجر الهاء، وقرأ يعقوب الحضرمي ﴿شَهَادَةً﴾ بالتنوين ﴿آللهِ﴾ بالمد، والاستفهام وكسر الهاء، جعل الاستفهام عوضًا عن حرف القسم، وعن الشعبي ﴿شَهَادَةً﴾ بالتنوين ﴿اللهِ﴾ بكسر الهاء على الاتصال أراد والله على القسم، وقرأ أبو جعفر المدني بالتنوين وكسر الهاء وقطع الألف على معنى: ولا نكتم شهادة، تم الكلام، ثم ابتدأ القسم الله، أي والله عن بعضهم ﴿شَهَادَةً﴾ منونة ﴿اللهَ﴾ بفتح الهاء على معنى: ولا نكتم الله شهادة.

ب. قرأ أبو جعفر ونافع وأبو عمرو وابن كثير في رواية، وابن عامر والكسائي ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتُحِقَّ﴾ بضم التاء وكسر الحاء ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ بالألف على اثنين من الأولى، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر وحمزة ويعقوب ﴿اسْتُحِقَّ﴾ بضم التاء وكسر الحاء ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ بالياء على الجمع من الأول على اتباع الَّذِينَ، وموضعه جر، وقرأ عاصم في رواية حفص، وفي بعض الروايات عن ابن كثير ﴿اسْتَحَقَّ﴾ بفتح التاء والحاء ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ بالألف، وعن الحسن (الأولان)

٢٩. مسائل لغوية ونحوية:

أ. في ارتفاع ﴿شَهَادَةُ بَينِكُمْ﴾ ثلاثة أقوال:.

- الأول: بتقدير شهادة بينكم شهادة اثنين، ويرتفع ﴿اثْنَيْنِ﴾؛ لأنه خبر الابتداء.
- الثاني: على تقدير محذوف، بتقدير: عليكم شهادة بينكم، أو فيما فرض عليكم شهادة بينكم، ويرتفع ﴿اثْنَانِ﴾ بالمصدر ارتفاع الفاعل بفعله.
- الثالث: أن يكون الخبر ﴿إِذَا حَضَرَ﴾، ويرتفع بالابتداء، وعلى هذا لا يجوز أن يرتفع ﴿اثْنَانِ﴾ بالمصدر؛ لأنه خارج عن الصلة لكونه بعد الخبر، ولكن على تقدير: يشهد اثنان.

ب. رفع ﴿آخَرَانِ﴾؛ لأنه بدل من ﴿اثْنَانِ﴾، ﴿بَيْنَكُمْ﴾ إذا نون ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ نصب على الظرف، وإذا أضيف إليه جر بالإضافة، والهاء في ﴿بِهِ﴾ يعود على القسم بِالله.

ج. في ارتفاع ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ ثلاثة أقوال:

• الأول: بأنه اسم ما لم يسم فاعله، المعنى استحق عليه إثم الأولين؛ أي استحق فيهم، فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه.

• الثاني: بأنه بدل من الضمير في ﴿يَقُومَانِ﴾ على تقدير: فليقم الأوليان مِن الَّذِينَ استحقت عليهم الوصية، وهو الاختيار عند الزجاج.

• الثالث: بدل من قوله: ﴿آخَرَانِ﴾

د. في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ هنا ثلاثة أوجه:

• الأول: على أصلها من الاستعلاء أي استحق عليهم الوصية، فأما الأوليان فبدل.

• الثاني: من الَّذِينَ استحق فيهم إثم الأولين كقوله تعالى: ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ أي: في ملك سليمان.

• الثالث: من الَّذِينَ استحق منهم الأوليان كما قال جل ثناؤه: ﴿إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ أي: من الناس.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. عثر الرجل على الشيء يعثر عثورا: إذا اطلع على أمر لم يطلع عليه غيره، وأعثرت فلانا على أمر: أطلعته عليه، ومنه قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ وأصله الوقوع بالشيء من قولهم: عثر الرجل عثارا: إذا وقعت إصبعه بشيء صدمته، وعثر الفرس عثارا، قال الأعشى: بذات لوث عفرناة إذا عثرت... فالتعس أولى بها من أن يقال لعا والعثير: الغبار، لأنه يقع على الوجه وغيره، والعاثور: حفرة تحفر ليعثر بها الأسد، فيصطاد.

ب. الاستحقاق والاستيجاب قريبان، واستحق عليه: كأنه ملك عليه حقا، وحققت عليه القضاء

---

(١) تفسير الطبرسي: ٣/٣٩٩.

حقا، وأحققته: إذا أوجبته، ويكون حق بمعنى استحق.

٢. مما روي في سبب نزول الآيات الكريمة:

أ. سبب نزول هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾: أن ثلاثة نفر خرجوا من المدينة تجارا إلى الشام: تميم بن أوس الداري، وأخوه عدي، وهما نصرانيان، وابن أبي مارية، مولى عمرو بن العاص السهمي، وكان مسلما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، مرض ابن أبي مارية، فكتب وصيته بيده، ودسها في متاعه، وأوصى إليهما، ودفع المال إليهما، وقال: أبلغا هذا أهلي، فلما مات فتحا المتاع، وأخذا ما أعجبهما منه، ثم رجعا بالمال إلى الورثة، فلما فتش القوم المال، فقدوا بعض ما كان قد خرج به صاحبهم، فنظروا إلى الوصية، فوجدوا المال فيها تاما، فكلموا تميما وصاحبه، فقالا: لا علم لنا به وما دفعه إلينا أبلغناه، كما هو، فرفعوا أمرهم إلى النبي ﷺ، فنزلت الآية، عن الواقدي، عن أسامة بن زيد، عن أبيه، وعن جماعة المفسرين، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام.

ب. سبب نزول هذه الآية ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾: قالوا: لما نزلت الآية الأولى، صلى رسول الله ﷺ العصر ودعا تميم وعدي فاستحلفهما عند المنبر بالله، ما قبضنا له غير هذا، ولا كتمناه، فخلى رسول الله ﷺ سبيلهما به، ثم اطلعوا على إناء من فضة منقوش بذهب معهما، فقالوا: هذا من متاعه، فقالا: اشتريناه منه ونسينا أن نخبركم به، فرفعوا أمرهما إلى رسول الله ﷺ فنزل قوله: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ إلى آخره، فقام رجلان من أولياء الميت، أحدهما عمرو بن العاص، والآخر المطلب بن أبي وداعة السهمي، فحلفا بالله أنهما خانا وكذبا، فدفع الإناء إليهما وإلى أولياء الميت، وكان تميم الداري بعد ما أسلم يقول: صدق الله، وصدق رسوله، أنا أخذت الإناء، فأتوب إلى الله، وأستغفره.

٣. لما قدّم الامر بالرجوع إلى ما أنزل، عقبه بذكر هذا الحكم المنزل فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: يا أيها المؤمنون ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ قيل: في معنى الشهادة هنا أقوال:

أ. أحدها: إنها الشهادة التي تقام بها الحقوق عند الحكام، وقد تقدم ذكر ما قيل في تقدير الآية على هذا المعنى، وهو قول ابن عباس.

ب. ثانيها: إنها بمعنى الحضور، كما يقال: شهدت وصية فلان، ومنه قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا

طَائِفَةٌ﴾ ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ فيكون تقديره ليشهدكم في سفركم إذا حضركم الموت، وأردتم الوصية اثنان ذوا عدل منكم أي: وصيان من أهل العدالة، جعلهما اثنين تأكيدا للأمر في الوصية، عن ابن الأنباري، وهو قول سعيد بن جبير وابن زيد

ج. الثالث: إنها شهادة إيمان بالله، إن ارتاب الورثة بالوصيين، من قول القائل في اللعان: أشهد بالله أني لمن الصادقين.

٤. الأول (الشهادة التي تقام بها الحقوق عند الحكام) أقوى وأليق بالآية، وقال صاحب كتاب نظم القرآن: (شهادة: مصدر بمعنى الشهود، كما يقال رجل عدل، ورضا، ورجلان عدل ورضا، ثم قدر حذف المضاف، فيكون المعنى عدد شهود بينكم اثنان، كقوله: (الحج أشهر معلومات) أي: وقت الحج أشهر)، وقال ابن جني: ويجوز أن يكون التقدير: تقيموا شهادة بينكم اثنان، فيكون على هذين القولين حذف المضاف من المبتدأ، وعلى قول الزجاج، وأبي علي من الخبر.

٥. ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾:

أ. أي حضر أسباب الموت من مرض وغيره.

ب. وقال الزجاج: معناه إن الشهادة في وقت الوصية هي للموت ليس أن الموت حاضر، وهو يوصي، إنما يقول الموصي صحيحا كان أو غير صحيح: إذا حضرني الموت، وإذا مت فافعلوا واصنعوا.

٦. ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ أي من أهل دينكم وملتكم ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾:

أ. أي من غير أهل ملتكم، عن ابن عباس، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، وشريح، ومجاهد وابن سيرين، وابن زيد، وإبراهيم، وهو المروي عن الباقر، والصادق عليهما السلام، فيكون (أو) هاهنا للتفصيل، لا للتخيير، لان المعنى أو آخران من غيركم إن لم تجدوا شاهدين منكم.

ب. وقيل: معناه ذوا عدل من عشيرتكم، أو آخران من غير عشيرتكم، عن الحسن، والزهري، وعكرمة، والأصم، وقالوا: لأن عشيرة الموصي أعلم بأحواله من غيرهم، وأجدر أن لا ينسوا ما شهدوا عليه، وقالوا: لا يجوز شهادة كافر في سفر، ولا حضر، واختاره الزجاج.

٧. وذهب جماعة إلى أن الآية كانت في شهادة أهل الذمة، فنسخت، وقد بين أبو عبيدة هذه الأقاويل، ثم قال جل العلماء يتأولونها في أهل الذمة، ويرونها محكمة، ويقوي هذا القول تتابع الآثار في

سورة المائدة بقلة المنسوخ، وأنها من محكم القران، وآخر ما نزل ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ ومعناه فأصابكم الموت، علم الله تعالى أن من الناس من يسافر فيصحبه في سفره أهل الكتاب، دون المسلمين، وينزل القرية التي لا يسكنها غيرهم، ويحضره الموت، فلا يجد من يشهده من المسلمين فقال: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي: من غير دينكم، إن أنتم سافرتم، فأصابتكم مصيبة الموت، فالعدلان من المسلمين للحضر والسفر، إن أمكن إشهادهما في السفر، والذميان في السفر خاصة، إذا لم يوجد غيرهما.

٨. ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ المعنى:

أ. تحبسونهما من بعد صلاة العصر، لان الناس كانوا يحلفون بالحجاز بعد صلاة العصر، لاجتماع الناس وتكاثرهم في ذلك الوقت، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام، وقتادة، وسعيد بن جبير، وغيرهم.

ب. وقيل: هي صلاة الظهر، أو العصر، عن الحسن.

ج. وقيل: بعد صلاة أهل دينهما: يعني الذميين، عن ابن عباس، والسدي.

٩. ومعنى ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾:

أ. تقفونهما كما تقول مر بي فلان على فرس فحبس على دابته، أي: وقفه.

ب. وقيل: معناه تصبرونهما على اليمين، وهو أن يحمل على اليمين، وهو غير متبرع بها، إن ارتبتم في شهادتهما، وشككتم، وخشيتم أن يكونا قد غيرا، أو بدلا، أو كتما وخانا.

١٠. والخطاب في ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾:

أ. للورثة.

ب. ويجوز أن يكون خطابا للقضاة، ويكون بمعنى الامر أي: فاحبسوهما، ذكره ابن الأنباري، وكان يقف على قوله: ﴿مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ ويبتدي بقوله: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾

ج. ويحتمل أن يكون أراد به وصيي الميت إذا ارتاب بهما الورثة، وادعوا أنهما استبدا بشيء من التركة، فيصيران مدعى عليهما، فيحلفان بالله.

١١. ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾:

أ. أي: لا نشتري بتحريف الشهادة ثمنا، والتقدير لا نشتري به ذا ثمن، ألا ترى أن الثمن لا يشترى، وإنما يشترى المبيع دون ثمنه

ب. وقيل: إن الهاء في به يعود إلى القسم بالله.

ج. وقيل: معناه لا نبيعه بعرض من الدنيا، لان من باع شيئا فقد اشترى ثمنه، ويريد: لا نحابي في شهادتنا أحدا.

١٢. ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المشهود له ﴿ذَا قُرْبَى﴾ خص ذا القربى بالذكر لميل الناس إلى أقربائهم، ومن يناسبونه ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ﴾ أي: شهادة لزمنا أداؤها بأمر الله تعالى: ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ أي: إنا إن فعلنا ذلك كنا من الآثمين.

١٣. ثم بين سبحانه الحكم بعد ظهور الخيانة من الوصيين، أو الشاهدين، فقال: ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ أي: اطلع وظهر ﴿عَلَى أَنَّهُمَا﴾ أي: الشاهدين، عن ابن عباس، والوصيين عن سعيد بن جبير ﴿اسْتَحَقَّا﴾ أي: استوجبا ﴿إِثْمًا﴾:

أ. أي: ذنبا بأيمانهما الكاذبة، وخيانتهما، وقصدهما في شهادتهما إلى غير الاستقامة.

ب. وقيل: معناه استحقا عقوبة إثم من قوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أي: بعقوبة اثم قتلي وعقوبة معاصيك المتقدمة عن الجبائي.

١٤. ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾:

أ. أي: مقام الشاهدين اللذين هما من غيرنا.

ب. وقيل: مقام الوصيين ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ والمعنى: ليقم الأوليان بالميت من الذين استحقت عليهم الوصية، أو يكون التقدير: فالأوليان بأمر الميت آخران من أهله، يقومان مقام الخائنين اللذين عثر على خيانتهما، وقد بينا ما قيل فيه، وفي القراءتين الأخريين، فيما قبل.

ج. ويجوز أن يكون الأوليان بدلا من قوله: ﴿آخَرَانِ﴾ فقد يجوز إبدال المعرفة من النكرة، ومعنى الأولين الأقربان إلى الميت.

د. ويجوز أن يكون معناه ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ باليمين، وإنما كان أولين باليمين، لان الوصيين ادعيا أن الميت باع الاناء فانتقل اليمين إلى الأولين، لأنهما صارا مدعى عليهما، أن مورثهما باع الاناء، وهذا كما لو

أقر إنسان لآخر بدين، وادعى قضاءه، حكم برد اليمين إلى الذي ادعى الذين، لأنه صار مدعى عليه أنه استوفى.

هـ. وقيل: معناه الأوليان بالشهادة من المسلمين، عن ابن عباس، وشريح.

١٥. ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾:

أ. قيل: إنه على الظاهر أي: شهادتنا، وقولنا في وصية صاحبنا أحق بالقبول والصدق من شهادتهما، وقولهما.

ب. وقيل: يريد به فيقولان والله، ليميننا خير من يمينهما، عن ابن عباس، وسميت اليمين ها هنا شهادة، لان اليمين كالشهادة على ما يحلف عليه أنه كذلك.

١٦. ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾:

أ. أي: وما جاوزنا الحق فيما طلبناه من حقنا، عن ابن عباس.

ب. وقيل: فيما قلناه من أن شهادتنا أحق من شهادتهما.

١٧. ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ تقديره: إنا إن اعتدينا لمن جملة الظالمين لنفوسنا.

١٨. وهذه الآية مع الآية التي قبلها من أعوص آيات القرآن إعرابا ومعنى وحكما، ولست تجدهما في شيء من مظانها أوفر فائدة، وأغزر عائدة، وأجمع علما، وأوجز لفظا ومعنى، مما لخصته لك، وسقته إليك وبالله التوفيق.

١٩. ثم بين سبحانه وجه الحكمة في استحلاف اليهود فقال: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى﴾ أي ذلك الإحلاف والإقسام، أو ذلك الحكم أقرب إلى ﴿أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾ أي: حقها وصدقها، لا يكتمون شيئا، ولا يزيدون شيئا، لان اليمين تردع عن أمور كثيرة لا يرتدع عنها مع عدم اليمين، ﴿أَوْ يَخَافُوا﴾ أي: أقرب إلى أن يخافوا ﴿أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ﴾ إلى أولياء الميت ﴿بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ فيحلفوا على خيانتهم وكذبهم، فيفتضحوا ويغرموا، فربما لا يحلفون كاذبين، ويتحفظون في الشهادة مخافة رد اليمين والشهادة إلى المستحق عليهم، ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ أن تحلفوا أيمانا كاذبة، أو تخونوا أمانة ﴿وَاسْمَعُوا﴾ الموعظة ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ إلى ثوابه وجنته.

٢٠. قراءات ووجوه:

أ. روي في الشواذ، عن الحسن، والشعبي، والأعرج: (شهادة بينكم)، وعن الأعرج أيضا ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ بالنصب، وروي عن علي، والشعبي، بخلاف، ونعيم بن ميسرة، أنهم قرأوا ﴿شَهَادَةَ اللهِ﴾ بنصب ﴿شَهَادَةً﴾ والمد في ﴿اللهُ﴾، وهو قراءة يعقوب، والشعبي، برواية روح، وزيد، وروي ﴿شَهَادَةَ اللهِ﴾ مقصورة عن الحسن، ويحيى بن يعمر، وسعيد بن جبير، والكلبي، والشعبي:

• أما قول ﴿شَهَادَةً﴾ بالرفع ﴿بَيْنَكُمْ﴾ بالنصب، فعلى نحو القراءة المشهورة ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ إلا أنه حذف التنوين، فانجر الاسم، ويجوز أن يكون المضاف محذوفا من آخر الكلام، أي: شهادة بينكم شهادة اثنين أي: ينبغي أن تكون الشهادة المعتمدة هكذا.

• وأما شهادة بينكم بالنصب والتنوين فعلى إضمار فعل أي: ليقم شهادة بينكم اثنان ذوا عدل، وأما قوله: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ﴾ فهو أعم من قراءة الجماعة المشهورة ﴿شَهَادَةَ اللهِ﴾ بالإضافة.

• وأما المد في ﴿اللهُ﴾ فعلى أن همزة الاستفهام صارت عوضا من حرف القسم، ووقوا همزة الله من الحذف الذي كان يجب فيها من حيث كانت موصولة، ثم فصل بين الهمزتين بألف كما في قوله: ﴿آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ﴾

• وأما ﴿اللهُ﴾ مقصورة بالجر، فعلى ما حكاه سيبويه أن منهم من يحذف حرف القسم ولا يعوض منه همزة الاستفهام، فيقول: الله لقد كان كذا، وذلك لكثرة الاستعمال، وأما تقدير الكلام، فعلى أنه يقول: أتقسم بالله أي: أتقدم على هذا اليمين، وهذا إنما يكون على وجه الإعظام لليمين، والتهيب لها.

ب. قرأ أبو بكر، عن عاصم، وحمزة، وخلف، ويعقوب: (استحق) بضم التاء والحاء، ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ جمع، وقرأ حفص عن عاصم ﴿اسْتَحَقَّ﴾ بفتح التاء والحاء ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ بالألف، تثنية الأولى، وقرأ الباقون ﴿اسْتَحَقَّ﴾ بضم التاء ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ بالألف:

• قال الزجاج: هذا الموضع من أصعب ما في القرآن في الاعراب، الأوليان في قول أكثر البصريين، يرتفعان على البدل، مما في يقومان المعنى: فليقم الأوليان بالميت مقام هذه الخائنين، فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما، فإذا ارتفع الأوليان على البدل، فالذي في استحق من الضمير معنى الوصية، المعنى: فليقم الأوليان من الذين استحقت الوصية والايصاء عليهم، وجائز أن يرتفعا باستحق، ويكون معناهما: الأوليان باليمين، أي: بأن يحلفا من يشهد بعدهما، فإن جاز شهادة النصرانيين، كان الأوليان على هذا القول

النصرانيين، والآخران من غير أهل بيت الميت.

• وقال أبو علي: لا يخلو ارتفاعه من أن يكون على الابتداء، وقد أخر كأنه في التقدير: فالأوليان بأمر الميت آخران من أهله، أو من أهل دينه يقومان مقام الخائنين اللذين عثر على خيانتهما، كقولهم تميمي أنا، أو يكون خبر مبتدأ محذوف، كأنه قال فآخران يقومان مقامهما هما الأوليان، أو يكون بدلا من الضمير الذي في يقومان، أو يكون مسندا إليه استحق.

• وقد أجاز أبو الحسن فيه شيئا آخر، وهو أن يكون الأوليان صفة لقوله فآخران من غيركم، لأنه لما وصف آخران، اختص فوصف لأجل الاختصاص الذي صار له مما يوصف به المعارف، ومعنى الأوليان: الأوليان بالشهادة على وصية الميت، وإنما كانا أولى به ممن اتهم بالخيانة، لأنهما أعرف بأحوال الميت وأموره، ولأنهما من المسلمين، ألا ترى أن وصفهم بأنه ﴿اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ يدل على أنهم مسلمون، لان الخطاب من أول الآية مصروف إليهم؟فأما ما يسند إليه استحق فلا يخلو من أن يكون الإيصاء والوصية، أو الاثم، أو الجار والمجرور، وإنما جاز (استحق الاثم)، لان أخذه بأخذه إثم، فسمي إثما، كما سمي ما يؤخذ منا بغير حق مظلمة.

• قال سيبويه، المظلمة: اسم ما أخذ منك، فلذلك سمي هذا المأخوذ باسم المصدر، فأما قوله: عليهم فيحتمل ثلاثة أضرب:

• أحدها: أن يكون على فيه، بمنزلة قولك: استحق على زيد مال بالشهادة، أي: لزمه ووجب عليه الخروج منه، لأن الشاهدين لما عثر على خيانتهما، استحق عليهما ما ولياه من أمر الشهادة، والقيام بها، ووجب عليهما الخروج منها، وترك الولاية لها، فصار اخراجهما منها مستحقا عليهما، كما يستحق على المحكوم عليه الخروج مما وجب عليه، هذا كلام أبي علي، وأقول: إن الظاهر أن ﴿الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ في الآية، ورثة الميت، والمفهوم من كلام أبي علي هذا، أن الشاهدين اللذين من غيرنا، هما المعنيان بذلك، على ما قرره، والذي يصح في نفسي أن التقدير من الذين استحقت عليهم الوصية، أو استحق عليهم الإيصاء هم عشيرة الميت.

• والضرب الآخر: أن يكون على فيه، بمنزلة من كأنه قال من الذين استحق منهم الإثم، ومثل هذا قوله: ﴿إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ أي من الناس.

• الثالث: أن يكون على، بمنزلة في، كأنه استحق فيهم، وقام على مقام في، كما قام في مقام على في قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ والمعنى من الذي استحق عليهم بشهادة الآخرين اللذين هما من غيرنا، وأقول إن هذا المعنى أيضا إنما يلائم الضرب الأول، والذي يلائم هذا الضرب أن يقال المعني من الذين استحق فيهم الاثم، أي بسببهم استحق الآخران من غيرنا اللذان خانا في الوصية فيهما الإثم بخيانتهما ويمينهما الكاذبة.

• ثم قال أبو علي: فإن قلت هل يجوز أن يسند استحق إلى الأوليان؟ فالقول في ذلك: إنه لا يجوز، لان المستحق إنما يكون الوصية، أو شيئا منها، ولا يجوز أن يستحقا فيسندا استحق إليهما، وأما من قرأ: (من الذين استحق عليهم الأولين) على الجمع، فهو نعت لجميع الورثة المذكورين في قوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ تقديره من الأولين الذين استحق عليهم الإيصاء أو الإثم، وإنما قيل لهم ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ من حيث كانوا أولين في الذكر، ألا ترى أنه قد تقدم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ وكذلك ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ وذكرا في اللفظ قبل قوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾

• واحتج من قرأ الأولين على من قرأ الأوليان بأن قال أرأيت إن كان الأوليان صغيرين أراد أنهما إن كانا صغيرين، لم يقوما مقام الكبيرين في الشهادة، ولم يكونا لصغرهما أولى بالميت، وإن كانا كبيرين كانا أولى به، فيقسمان بالله أي يقسم الآخران اللذان يقومان مقام الشاهدين اللذين هما آخران من غيرنا، وقوله: ﴿لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ متلقى به، فيقسمان بالله.

• ومن قرأ ﴿اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾: فاستحق ههنا بمعنى حق أي: وجب، فالمعنى فآخران من الذين وجب عليهم الإيصاء بتوصية ميتهم، وهم ورثته، وقال أبو علي: تقديره من الذين استحق عليهم الأوليان بالميت، وصيته التي أوصى بها إلى غير أهل دينه، والمفعول محذوف، وحذف المفعول في نحو هذا كثير، وقال الإمام المحمود الزمخشري: معناه من الورثة الذين استحق عليهم الأوليان من بينهم بالشهادة أن يجردوهما، للقيام بالشهادة، ويظهروا بهما كذب الكاذبين، وهذا أحسن الأقوال.

٢١. مسائل لغوية ونحوية:

أ. قال الزجاج ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ يرتفع من وجهين أحدهما: أن يرتفع بالابتداء ويكون خبرها اثنان، والمعنى: شهادة هذا الحال شهادة اثنين، فيحذف شهادة ويقام اثنان مقامها والآخر: أن يكون

التقدير: وفيما فرض عليكم في شهادتكم أن يشهد اثنان، فيرتفع اثنان بشهادة، وهو قول الفراء، واختار أبو علي الفارسي القول الأول، قال واتسع في بين فأضيف إليه المصدر، وهذا يدل على قول من قال إن الظرف يستعمل اسما في غير الشعر، ألا ترى أنه قد جاء ذلك في التنزيل، وهو ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ بالرفع كما جاء في الشعر نحو قوله: (فصادف بين عينيه الجبونا)

ب. وأما قوله: ﴿حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ فيجوز أن يتعلق بالشهادة، فيكون معمولها، ولا يجوز أن يتعلق بالوصية لأمرين أحدهما: إن المضاف إليه لا يعمل فيما قبل المضاف، لأنه لو عمل فيه، للزم أن يقدر وقوعه في موضعه، وإذا قدر ذلك، لزم أن يقدم المضاف إليه على المضاف، ومن ثم لم يجز القتال زيدا حين يأتي والآخر: إن الوصية مصدر فلا يتعلق به ما يتقدم عليه وأما قوله: ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ﴾ فلا يجوز حمله على الشهادة، لأنه إذا عمل في ظرف من الزمان، لم يعمل في ظرف آخر منه، ولكن يحمله على أحد ثلاثة أوجه: إما أن يتعلق بالموت، كأنه يموت في ذلك الحين، وهذا إنما يكون على ما قرب منه كقوله: ﴿حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ وهذا القول إنما يكون قبل الموت، وإما أن يتعلق بحضر أي إذا حضر هذا الحين، وإما أن يكون محمولا على البدل من إذا لأنك ذلك الزمان في المعنى هو هذا الزمان، فتبدله منه، كما تبدل الشيء من الشيء إذا كان إياه.

ج. وقوله: منكم صفة لقوله: اثنان كما أن ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ صفة لهما، وفي الظرف ضميرهما.

د. وقوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ تقديره أو شهادة آخرين من غيركم، و﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾: صفة لآخرين كما كان منكم صفة لاثنين.

هـ. ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ اعتراض بين الصفة والموصوف، وعلم به أن شهادة الآخرين اللذين هما من غير أهل ملتنا، إنما يجوز في السفر، فاستغنى عن جواب إن بما تقدم من قوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ لأنه، وإن كان على لفظ الخبر، فالمعنى على الامر، كان المعنى ينبغي أن تشهدوا إذا ضربتم في الأرض آخرين من غير أهل ملتكم، ويجوز أيضا أن يستغنى عن جواب إذا في قوله: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ بما تقدمها من قوله: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ فإن جعلت إذا بمنزلة حين، فلم تجعل له جوابا، كان بمنزلة الحين، وينتصب الموضع بالمصدر الذي هو ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ كما تقدم، وإن قدرت له جوابا، كان قوله: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ يدل عليه، ويكون موضع إذا في قوله: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾

نصبا بالجواب المقدر المستغنى عنه بقوله: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ لان المعنى ينبغي أن تشهدوا.

و. وقوله: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ صفة ثانية لقوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ﴾

ز. وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ يتعلق بتحبسونهما ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ﴾ الفاء لعطف الجملة على الجملة، وإن شئت جعلت الفاء للجزاء، كما في قول ذي الرمة:

وإنسان عيني يحبس الماء مرة فيبدو وتارات يجم فيغرق

تقديره عندهم: إذا حبس بدا، فكذلك إذا حبستموهما أقسما.

ح. وقوله: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ جواب ما يقتضيه قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ﴾ لان أقسم ونحوه يتلقى بما يتلقى به الأيمان، والتقدير لا نشتري بتحريف شهادتنا ثمنا أي: ذا ثمن، فحذف المضاف في الموضعين، وإنما ذكر الشهادة لان الشهادة قول كما قال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾، ثم قال: ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ لما كان القسمة يراد به المقسوم ألا ترى أن القسمة التي هي إفراز الأنصباء لا يرزق منه، وإنما يرزق من التركة المقسومة، ولو كان ذا قربى، التقدير: ولو كان المشهود له ذا قربى، وأضاف الشهادة إلى الله لأمره بإقامتها، ونهيه عن كتمانها في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ للهِ﴾، وقوله: (من يكتمها فإنه آثم قلبه)، هذا كله مأخوذ من كلام أبي علي الفارسي، وناهيك به فارسا في هذا الميدان نقابا، يخبر عن مكنون هذا العلم، بواضح البيان.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١ . ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾، روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كان تميم الدّاريّ، وعديّ بن بدّاء يختلفان إلى مكّة، فصحبهما رجل من قريش من بني سهم، فمات بأرض ليس فيها أحد من المسلمين، فأوصى إليهما بتركته، فلمّا قدما، دفعاها إلى أهله، وكتما جاما كان معه من فضّة، وكان مخوّصا بالذهب، فقالا: لم نره، فأتي بهما إلى النبيّ ﷺ فاستحلفهما بالله: ما كتما، وخلّى سبيلهما، ثمّ إن الجام وجد عند قوم من أهل مكّة، فقالوا: ابتعناه من تميم الدّاريّ، وعديّ بن بدّاء، فقام أولياء السّهميّ، فأخذوا الجام، وحلف رجلان منهم بالله: إنّ هذا الجام جام صاحبنا، وشهادتنا أحقّ من شهادتهما، وما اعتدينا، فنزلت

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ١/٥٩٦.

هذه الآية، والتي بعدها، قال مقاتل: واسم الميّت: بزيل بن أبي مارية مولى العاص بن وائل السّهميّ، وكان تميم، وعديّ نصرانيين، فأسلم تميم، ومات عديّ نصرانيا.

٢. معنى الآية الكريمة:

أ. قال الفرّاء: ليشهدكم اثنان إذا حضر أحدكم الموت.

ب. قال الزجّاج: المعنى: شهادة هذه الحال شهادة اثنين، فحذف (شهادة) ويقوم (اثنان) مقامها.

ج. وقال ابن الأنباريّ: معنى الآية: ليشهدكم في سفركم إذا حضركم الموت، وأردتم الوصيّة اثنان.

٣. وفي هذه الشّهادة ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أنها الشهادة على الوصيّة التي ثبتت عند الحكّام، وهو قول ابن مسعود، وأبي موسى، وشريح، وابن أبي ليلى، والأوزاعيّ، والثّوريّ، والجمهور.

ب. الثاني: أنها أيمان الوصيّ بالله تعالى إذا ارتاب الورثة بهما، وهو قول مجاهد.

ج. الثالث: أنها شهادة الوصيّة، أي: حضورها، كقوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾، جعل الله الوصيّ هاهنا اثنين تأكيدا، واستدلّ أرباب هذا القول بقوله تعالى: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ﴾ قالوا: والشّاهد لا يلزمه يمين، فأمّا (حضور الموت) فهو حضور أسبابه ومقدّماته، وقوله تعالى: ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾، أي: وقت الوصيّة.

٤. في قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ قولان:

أ. أحدهما: من أهل دينكم وملّتكم، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المسيّب، وسعيد بن جبير وشريح، وابن سيرين، والشّعبيّ، وهو قول أصحابنا.

ب. الثاني: من عشيرتكم وقبيلتكم، وهم مسلمون أيضا، قاله الحسن وعكرمة، والزّهريّ، والسّدّيّ.

٥. ﴿أَوْ آخَرَانِ﴾ تقديره: أو شهادة آخرين من غيركم.

٦. في قوله تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ قولان:

أ. أحدهما: من غير ملّتكم ودينكم، قاله أرباب القول الأوّل.

ب. الثاني: من غير عشيرتكم وقبيلتكم، وهم مسلمون أيضا، قاله أرباب القول الثّاني.

٧. وفي (أو) قولان:

أ. أحدهما: أنها ليست للتّخيير، وإنما المعنى: أو آخران من غيركم إن لم تجدوا منكم، وبه قال ابن عباس، وابن جبير.

ب. الثاني: أنها للتّخيير، ذكره الماورديّ.

٨. القائل بأنّ المراد بالآية شهادة مسلمين من القبيلة، أو من غير القبيلة لا يشكّ في إحكام هذه الآية، فأمّا القائل بأنّ المراد بقوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أهل الكتاب إذا شهدوا على الوصيّة في السّفر، فلهم فيها قولان:

أ. أحدهما: أنها محكمة، والعمل على هذا باق، وهو قول ابن عباس، وابن المسيّب، وابن جبير، وابن سيرين، وقتادة، والشّعبيّ، والثّوريّ، وأحمد في آخرين.. وهو أصحّ، لأنّ هذا موضع ضرورة كما يجوز في بعض الأماكن شهادة نساء لا رجل معهنّ بالحيض والنّفاس والاستهلال.

ب. الثاني: أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾، وهو قول زيد بن أسلم، وإليه يميل أبو حنيفة، ومالك، والشّافعيّ، قالوا: وأهل الكفر ليسوا بعدول.

٩. ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ هذا الشّرط متعلّق بالشهادة، والمعنى: ليشهدكم اثنان إن أنتم ضربتم في الأرض، أي: سافرتم، ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ فيه محذوف، تقديره: وقد أسندتم الوصيّة إليهما، ودفعتم إليهما مالكم.

١٠. ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ خطاب للورثة إذا ارتابوا، وقال ابن عباس: هذا من صلة قوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي: من الكفّار، فأمّا إذا كانا مسلمين، فلا يمين عليهما، وفي هذه الصّلاة قولان:

أ. أحدهما: صلاة العصر، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال شريح، وابن جبير، وإبراهيم، وقتادة، والشّعبيّ.

ب. الثاني: من بعد صلاتهما في دينهما، حكاه السّدّيّ عن ابن عباس، وقال به، وقال الزجّاج: كان الناس بالحجاز يحلفون بعد صلاة العصر، لأنه وقت اجتماع الناس، وقال ابن قتيبة: لأنه وقت يعظّمه أهل الأديان.

١١. ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ﴾ أي: فيحلفان ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أي: شككتم يا أولياء الميّت.

١٢. ومعنى الآية: إذا قدم الموصى إليهما بتركة المتوفّى، فاتّهمهما الوارث، استحلفا بعد صلاة العصر: أنهما لم يسرقا، ولم يخونا، فالشّرط في قوله: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ متعلّق بتحبسونهما، كأنه قال إن ارتبتم حبستموهما فاستحلفتموهما، فيحلفان بالله: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ﴾:

أ. أي: بأيماننا.

ب. وقيل: بتحريف شهادتنا، فالهاء عائدة على المعنى.

١٣. ﴿ثَمَنًا﴾ أي: عرضا من الدّنيا ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي: ولو كان المشهود له ذا قرابة منّا، وخصّ ذا القرابة، لميل القريب إلى قريبه، والمعنى: لا نحابي في شهادتنا أحدا، ولا نميل مع ذي القربى في قول الزّور.

١٤. ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ﴾ إنما أضيفت إليه، لأمره بإقامتها، ونهيه عن كتمانها، وقرأ سعيد بن جبير: (ولا نكتم شهادة) بالتنوين (الله) بقطع الهمزة وقصرها، وكسر الهاء، ساكنة النون في الوصل، وقرأ سعيد بن المسيّب، وعكرمة (شهادة) بالتنوين والوصل منصوبة الهاء، وقرأ أبو عمران الجونيّ (شهادة) بالتنوين وإسكانها في الوصل (الله) بقطع الهمزة وقصرها مفتوحة الهاء، وقرأ الشّعبيّ وابن السّميفع (شهادة) بالتنوين وإسكانها في الوصل (الله) بقطع الهمزة، ومدّها، وكسر الهاء، وقرأ أبو العالية، وعمرو بن دينار مثله، إلّا أنهما نصبا الهاء.

١٥. اختلف العلماء لأي معنى وجبت اليمين على هذين الشّاهدين، على ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: لكونهما من غير أهل الإسلام، روي هذا المعنى عن أبي موسى الأشعريّ.

ب. الثاني: لوصيّة وقعت بخطّ الميّت وفقد ورثته بعض ما فيها، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

ج. الثالث: لأنّ الورثة كانوا يقولون: كان مال ميّتنا أكثر، فاستخانوا الشّاهدين، قاله الحسن، ومجاهد.

١٦. ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾، قال المفسّرون: لمّا نزلت الآية الأولى، دعا رسول الله ﷺ عديّا وتميما، فاستحلفهما عند المنبر: أنهما لم يخونا شيئا ممّا دفع إليهما فحلفا، وخلّى سبيلهما، ثم ظهر الإناء الذي كتماه، فرفعهما أولياء الميّت إلى رسول الله ﷺ فنزلت ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾

١٧. معنى (عثر): اطّلع أي: إن عثر أهل الميّت، أو من يلي أمره، على أنّ الشاهدين اللذين هما آخران من غيرنا ﴿اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ لميلهما عن الاستقامة في شهادتهما ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ أي: مقام هذين الخائنين.

١٨. ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر والكسائيّ: (استحق) بضم التاء، ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ على التّثنية.

١٩. وفي قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ قولان:

أ. أحدهما: أنهما الذّمّيان.

ب. الثاني: الوليّان.

٢٠. على الأوّل في معنى ﴿اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ أربعة أقوال:

أ. أحدها: استحقّ عليهم الإيصاء، قال ابن الأنباريّ: المعنى: من القوم الذين استحقّ فيهم الإيصاء، استحقّه الأوليان بالميّت، وكذلك قال الزجّاج: المعنى: من الذين استحقّت الوصيّة أو الإيصاء عليهم.

ب. الثاني: أنه الظّلم، والمعنى: من الذين استحقّ عليهم ظلم الأوّليان فحذف الظّلم، وأقام الأولين مقامه، ذكره ابن القاسم أيضا.

ج. الثالث: أنه الخروج ممّا قاما به من الشّهادة، لظهور خيانتهما.

د. الرابع: أنه الإثم، والمعنى: استحقّ منهم الإثم، ونابت (على) عن (من) كقوله تعالى: ﴿عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ أي: منهم، وقال الفرّاء: (على) بمعنى (في) كقوله تعالى: ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ أي: في ملكه، ذكر القولين أبو عليّ الفارسيّ.

٢١. على هذه الأقوال مفعول (استحق) محذوف مقدّر، وعلى القول الثاني في معنى ﴿اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ قولان:

أ. أحدهما: استحقّ منهم الأوليان، وهو اختيار ابن قتيبة.

ب. الثاني: جنى عليهم الإثم، ذكره الزجّاج.

٢٢. فأمّا ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ فقال الأخفش: الأوليان: اثنان، واحدهما: الأولى، والجمع: الأولون: ثم

للمفسّرين فيهما قولان:

أ. أحدهما: أنهما أولياء الميّت، قاله الجمهور، قال الزجّاج: (الأوليان) في قول أكثر البصريين يرتفعان على البدل ممّا في (يقومان) والمعنى: فليقم الأوليان بالميت مقام هذين الخائنين، وقال أبو عليّ: لا يخل الأوليان أن يكون ارتفاعهما على الابتداء، أو يكون خبر مبتدإ محذوف، كأنه قال فآخران يقومان مقامهما هما الأوليان، أو يكون بدلا من الضّمير الذي في (يقومان) والتقدير: فيقوم الأوليان.

ب. الثاني: أنّ الأوليان: هما الذّمّيّان، والمعنى: أنّهما الأوليان بالخيانة، ذكرهما ابن الأنباريّ، فعلى هذا يكون المعنى: يقومان، إلا من الذين استحق عليهم، قال الشاعر:

فليت لنا من ماء زمزم شربة   مبردة باتت على طهيان

أي بدلا من ماء زمزم.

٢٣. روى قرّة عن ابن كثير، وحفص عن عاصم: (استحق) بفتح التاء والحاء (الأوليان) على التثنية، والمعنى: استحقّ عليهم الأوليان بالميّت وصيّته التي أوصى بها، فحذف المفعول، وقرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم: (استحق) برفع التاء، وكسر الحاء، (الأولين) بكسر اللام، وفتح النون على الجمع، والتقدير: من الأوّلين الذين استحقّ فيهم الإثم، أي: جني عليهم، لأنّهم كانوا أوّلين في الذّكر، ألا ترى أنه قد تقدّم ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ على قوله تعالى: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾، وروى الحلبيّ عن عبد الوارث (الأوّلين) بفتح الواو وتشديدها، وفتح اللام، وسكون الياء، وكسر النون، وهو تثنية: أوّل، وقرأ الحسن البصريّ: (استحق) بفتح التاء والحاء، (الأوّلان) تثنية (أوّل) على البدل من قوله: (فآخران)

٢٤. قال ابن قتيبة: أشبه الأقوال بالآية أنّ الله تعالى أراد أن يعرّفنا كيف يشهد بالوصيّة عند حضور الموت فقال: ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ أي: عدلان من المسلمين، وعلم أنّ من الناس من يسافر فيصحبه في سفره أهل الكتاب دون المسلمين، وينزل القرية التي لا يسكنها غيرهم، ويحضره الموت، فلا يجد من يشهده من المسلمين، فقال: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾، أي: من غير أهل دينكم، فالذّمّيّان في السّفر خاصّة إذا لم يوجد غيرهما، ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أراد: تحبسونهما من بعد صلاة العصر إن ارتبتم في شهادتهما، وخشيتم أن يكونا قد خانا، أو بدّلا فإذا حلفا، مضت شهادتهما، فإن عثر أي: ظهر على أنّهما استحقّا إثما، أي: حنثا في اليمين بكذب أو خيانة، فآخران، أي: قام في اليمين مقامهما رجلان من قرابة

الميّت الذين استحقّ منهم الأوليان، وهما الوليّان يقال: هذا الأولى: بفلان، ثم يحذف من الكلام (بفلان) فيقال: هذا الأولى، وهذان الأوليان، و(عليهم) بمعنى: (منهم) فيحلفان بالله: لقد ظهرنا على خيانة الذّمّيين، وكذبهما، وما اعتدينا عليهما، ولشهادتنا أصحّ، لكفرهما وإيماننا، فيرجع على الذّمّيين بما اختانا، وينقض ما مضى من الحكم بشهادتهما تلك، وقال غيره: لشهادتنا، أي: ليميننا أحقّ، وسمّيت اليمين شهادة، لأنها كالشّهادة على ما يحلف عليه أنه كذلك، قال المفسّرون: فلمّا نزلت هذه الآية قام عمرو بن العاص، والمطّلب بن أبي وداعة السّهميّان، فحلفا بالله، ودفع الإناء إليهما وإلى أولياء الميّت.

٢٥. ﴿ذَلِكَ أَدْنَى﴾ أي: ذلك الذي حكمنا به من ردّ اليمين، أقرب إلى إتيان أهل الذّمّة بالشّهادة على وجهها، أي: على ما كانت، وأقرب أن يخافوا أن تردّ أيمان أولياء الميّت بعد أيمانهم، فيحلفون على خيانتهم، فيفتضحوا، ويغرّموا، فلا يحلفون كاذبين إذا خافوا ذلك، ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ أن تحلفوا كاذبين، أو تخونوا أمانة، واسمعوا الموعظة.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. لما أمر الله تعالى بحفظ النفس في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] أمر بحفظ المال في قوله: ﴿يَا أيها الَّذِينَ آمنوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾

٢. اتفقوا على أن سبب نزول هذه الآية أن تميما الداري وأخاه عديا كانا نصرانيين خرجا إلى الشام ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص وكان مسلما مهاجرا، خرجوا للتجارة فلما قدموا الشام مرض بديل فكتب كتابا فيه نسخة جميع ما معه وألقاه فيما بين الأقمشة ولم يخبر صاحبه بذلك، ثم أوصى إليهما وأمرهما أن يدفعا متاعه إذا رجعا إلى أهله، ومات بديل فأخذا من متاعه إناء من فضة منقوشا بالذهب ثلاثمائة مثقال، ودفعا باقي المتاع إلى أهله لما قدما، ففتشوا فوجدوا الصحيفة، وفيها ذكر الإناء، فقالوا لتميم وعدي: أين الإناء؟ فقالا لا ندري، والذي رفع إلينا دفعناه إليكم، فرفعوا الواقعة إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

---

(١) التفسير الكبير: ٤٥١/١٢.

٣. ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ يعني شهادة ما بينكم وما بينكم كناية عن التنازع والتشاجر، وإنما أضاف الشهادة إلى التنازع لأن الشهود إنما يحتاج إليهم عند وقوع التنازع، وحذف ما من قوله: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ جائز لظهوره، ونظيره قوله: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨] أي ما بيني وبينك، وقوله: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] في قراءة من نصب.

٤. ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ يعني الشهادة المحتاج إليها عند حضور الموت، وحين الوصية بدل من قوله: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ﴾ لأن زمان حضور الموت هو زمان حضور الوصية، فعرف ذلك الزمان بهذين الأمرين الواقعين فيه، كما يقال: ائتني إذا زالت الشمس حين صلاة الظهر، والمراد بحضور الموت مشارفته وظهور أمارات وقوعه، كقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة: ١٨٠]

٥. قوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ دليل على وجوب الوصية، لأنه تعالى جعل زمان حضور الموت غير زمان الوصية، وهذا إنما يكون إذا كانا متلازمين، وإنما تحصل هذه الملازمة عند وجوب الوصية.

٦. ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ في الآية حذف، والمراد أن يشهد ذوا عدل منكم، وتقدير الآية: شهادة ما بينكم عند الموت الموصوف، هي أن يشهد اثنان ذوا عدل منكم، وإنما حسن هذا الحذف لكونه معلوما.

٧. اختلف المفسرون في قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾، على قولين:

أ. الأول: وهو قول عامة المفسرين أن المراد: اثنان ذوا عدل منكم يا معشر المؤمنين، أي من أهل دينكم وملتكم، وقوله: ﴿أو آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني أو شهادة آخرين من غير أهل دينكم وملتكم إذا كنتم في السفر، فالعدلان المسلمان صالحان للشهادة في الحضر والسفر، وهذا قول ابن عباس، وأبي موسى الأشعري، وسعيد بن جبير، وسعيد بن المسيب، وشريح ومجاهد وابن سيرين وابن جريج، قالوا: إذا كان الإنسان في الغربة، ولم يجد مسلما يشهده على وصيته، جاز له أن يشهد اليهودي أو النصراني أو المجوسي أو عابد الوثن أو أي كافر كان وشهادتهم مقبولة، ولا يجوز شهادة الكافرين على المسلمين إلا في هذه الصورة قال الشعبي: مرض رجل من المسلمين في الغربة، فلم يجد أحدا من المسلمين يشهده على وصيته، فأشهد رجلين من أهل الكتاب، فقدما الكوفة وأتيا أبا موسى الأشعري، وكان واليا

عليها فأخبراه بالواقعة وقد ما تركته ووصيته، فقال أبو موسى: هذا أمر لم يكن بعد لذي كان في عهد الرسول ﷺ، ثم حلفهما في مسجد الكوفة بعد العصر، بالله أنهما ما كذبا ولا بدلا وأجاز شهادتهما، ثم إن القائلين بهذا القول، منهم من قال هذا الحكم بقي محكما ومنهم من قال صار منسوخا.. واحتج الذاهبون إلى هذا القول على صحة قولهم بوجوه:

• الأولى: أنه تعالى قال في أول الآية ﴿يَا أيها الَّذِينَ آمنوا﴾ فعم بهذا الخطاب جميع المؤمنين، فلما قال بعده ﴿أو آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ كان المراد أو آخران من جميع المؤمنين لا محالة.

• الثانية: أنه قال تعالى: ﴿أو آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ وهذا يدل على أن جواز الاستشهاد بهذين الآخرين مشروط بكون المستشهد في السفر، فلو كان هذان الشاهدان مسلمين لما كان جواز الاستشهاد بهما مشروطا بالسفر، لأن استشهاد المسلم جائز في السفر والحضر.

• الثالثة: الآية دالة على وجوب الحلف على هذين الشاهدين من بعد الصلاة، وأجمع المسلمون على أن الشاهد المسلم لا يجب عليه الحلف، فعلمنا أن هذين الشاهدين ليسا من المسلمين.

• الرابعة: أن سبب نزول هذه الآية ما ذكرناه من شهادة النصرانيين على بديل وكان مسلما.

• الخامسة: ما روينا أن أبا موسى الأشعري قضى بشهادة اليهوديين بعد أن حلفهما، وما أنكر عليه أحد من الصحابة، فكان ذلك إجماعا.

• السادسة: أنا إنما نجيز إشهاد الكافرين إذا لم نجد أحدا من المسلمين، والضرورات قد تبيح المحظورات، ألا ترى أنه تعالى أجاز التيمم والقصر في الصلاة، والإفطار في رمضان، وأكل الميتة في حال الضرورة، والضرورة حاصلة في هذه المسألة، لأن المسلم إذا قرب أجله في الغربة ولم يجد مسلما يشهده على نفسه، ولم تكن شهادة الكفار مقبولة فإنه يضيع أكثر مهماته، فإنه ربما وجبت عليه زكوات وكفارات وما أداها، وربما كان عنده ودائع أو ديون كانت في ذمته، وكما تجوز شهادة النساء فيما يتعلق بأحوال النساء، كالحيض والحبل والولادة والاستهلال لأجل أنه لا يمكن وقوف الرجال على هذه الأحوال، فاكتفينا فيها بشهادة النساء لأجل الضرورة، فكذا هاهنا، وأما قول من يقول: بأن هذا الحكم صار منسوخا فبعيد، لاتفاق أكثر الأمة على أن سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن، وليس فيها منسوخ.

• وأجابوا على احتجاج المخالفين بقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ والكافر لا يكون

عدلا بقولهم: لم لا يجوز أن يكون المراد بالعدل من كان عدلا في الاحتراز عن الكذب، لا من كان عدلا في الدين والاعتقاد، والدليل عليه: أنا أجمعنا على قبول شهادة أهل الأهواء والبدع، مع أنهم ليسوا عدولا في مذاهبهم، ولكنهم لما كانوا عدولا في الاحتراز عن الكذب قبلنا شهادتهم، فكذا هاهنا سلمنا أن الكافر ليس بعدل، إلا أن قوله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [الطلاق: ٢] عام، وقوله في هذه الآية ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أو آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ خاص فإنه أوجب شهادة العدل الذي يكون منا في الحضر، واكتفى بشهادة من لا يكون منا في السفر، فهذه الآية خاصة، والآية التي ذكرتموها عامة، والخاص مقدم على العام، لا سيما إذا كان الخاص متأخرا في النزول، ولا شك أن سورة المائدة متأخرة، فكان تقديم هذه الآية الخاصة على الآية العامة التي ذكرتموها واجبا بالاتفاق.

ب. الثاني: وهو قول الحسن والزهري وجمهور الفقهاء: أن قوله: ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ أي من أقاربكم وقوله: ﴿أو آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي من الأجانب إن أنتم ضربتم في الأرض أي إن توقع الموت في السفر، ولم يكن معكم أحد من أقاربكم، فاستشهدوا أجنبيين على الوصية، وجعل الأقارب أولا لأنهم أعلم بأحوال الميت وهم به أشفق، وبورثته أرحم وأرأف.. واحتجوا بقوله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ والكافر لا يكون عدلا.

٨. ﴿أو آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ قوله: ﴿أو آخَرَانِ﴾ عطف على قوله: ﴿اثْنَانِ﴾ والتقدير: شهادة بينكم أن يشهد اثنان منكم أو آخران من غيركم.

٩. ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ المقصود منه بيان أن جواز الاستشهاد بآخرين من غيرهم مشروط بما إذا كان المستشهد مسافرا ضاربا في الأرض وحضرت علامات نزول الموت به.

١٠. ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾، أي توقفونهما كما يقول الرجل: مرّ بي فلان على فرس فحبس على دابته أي أوقفها وحبست الرجل في الطريق أكلمه أي أوقفته، وموقع تحبسونهما: هو استئناف كأنه قيل كيف نعمل إن حصلت الريبة فيهما فقيل تحبسونهما.

١١. في قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ أقوال:

أ. الأول: قال ابن عباس من بعد صلاة أهل دينهما.

ب. الثاني: قال عامة المفسرين من بعد صلاة العصر.. وعرف أن المراد هو صلاة العصر، مع أن المذكور هو الصلاة المطلقة بوجوه:

• أحدها: أن هذا الوقت كان معروفا عندهم بالتحليف بعدها فالتقييد بالمعروف المشهور أغنى عن التقييد باللفظ.

• ثانيها: ما روي أنه لما نزلت هذه الآية صلّى النبي ﷺ صلاة العصر، ودعا بعدي وتميم، فاستحلفهما عند المنبر، فصار فعل الرسول دليلا على التقييد.

• ثالثها: أن جميع أهل الأديان يعظمون هذا الوقت ويذكرون الله فيه ويحترزون عن الحلف الكاذب، وأهل الكتاب يصلون لطلوع الشمس وغروبها.

• الثالث: قال الحسن: المراد بعد الظهر أو بعد العصر، لأن أهل الحجاز كانوا يقعدون للحكومة بعدهما.

• الرابع: أن المراد بعد أداء الصلاة أي صلاة كانت والغرض من التحليف بعد إقامة الصلاة هو أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فكان احتراز الحالف عن الكذب في ذلك الوقت أتم وأكمل.

١٢ . ١٣. اختلف في اعتبار المكان والزمان عند الأيمان:

أ. قال الشافعي: الأيمان تغلظ في الدماء والطلاق والعتاق، والمال إذا بلغ مائتي درهم في الزمان والمكان، فيحلف بعد العصر بمكة بين الركن والمقام، وبالمدينة عند المنبر، وفي بيت المقدس عند الصخرة، وفي سائر البلدان في أشرف المساجد،

ب. وقال أبو حنيفة: يحلف من غير أن يختص الحلف بزمان أو مكان، وهذا على خلاف الآية، ولأن المقصود منه التهويل والتعظيم، ولا شك أن الذي ذكره الشافعي أقوى.

١٤ . ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ الفاء في قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ﴾ للجزاء يعني: تحبسونهما فيقدمان لأجل ذلك الحبس على القسم، ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ اعتراض بين القسم والمقسم عليه، والمعنى: ان ارتبتم في شأنهما واتهمتموهما فحلفوهما، وبهذا يحتج من يقول الآية نازلة في إشهاد الكفار، لأن تحليف الشاهد المسلم غير مشروع، ومن قال الآية نازلة في حق المسلم قال إنها منسوخة، وعن علي عليه السلام أنه كان يحلف الشاهد والراوي عند التهمة.

١٥. ﴿لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً﴾ يعني يقسمان بالله أنا لا نبيع عهد الله بشيء من الدنيا قائلين لا نشتري به ثمنا، وهو كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧] أي لا نأخذ ولا نستبدل، ومن باع شيئا فقد اشترى ثمنه، ﴿وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى﴾ أي لا نبيع عهد الله بشيء من الدنيا، ولو كان ذلك الشيء حبوة ذي قربى أو نفسه، وخص ذا القربى بالذكر لأن الميل إليهم أتم والمداهنة بسببهم أعظم، وهو كقوله: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لله وَلَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ أوِ الْوالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]

١٦. ﴿وَلا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللهِ﴾ هذا عطف على قوله: ﴿لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً﴾ يعني أنهما يقسمان حال ما يقولان لا نشتري به ثمنا ولا نكتم شهادة الله أي الشهادة التي أمر الله بحفظها وإظهارها، ﴿إِنَّا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ يعني إذا كتمناها كنا من الآثمين.

١٧. نقل عن الشعبي أنه وقف على قوله ﴿شَهادَةُ﴾ ثم ابتدأ الله بالمد على طرح حرف القسم، وتعويض حرف الاستفهام منه، وروي عنه بغير مد على ما ذكره سيبويه أن منهم من يقول الله لقد كان كذا، والمعنى تالله.

١٨. ﴿فإِن عُثِرَ عَلى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا﴾ إِثْماً قال الليث: عثر الرجل يعثر عثورا إذا هجم على أمر لم يهجم عليه غيره، وأعثرت فلانا على أمري أي أطلعته عليه، وعثر الرجل يعثر عثرة إذا وقع على شيء قال أهل اللغة: وأصل عثر بمعنى اطلع من العثرة التي هي الوقوع وذلك لأن العاثر إنما يعثر بشيء كان لا يراه، فلما عثر به اطلع عليه ونظر ما هو، فقيل لكل من اطلع على أمر كان خفيا عليه قد عثر عليه، وأعثر غيره إذا أطلعه عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ﴾ [الكهف: ٢١] أي اطلعنا، ومعنى الآية فإن حصل العثور والوقوف على أنهما أتيا بخيانة واستحقا الإثم بسبب اليمين الكاذبة.

١٩. ﴿فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيانِ﴾ معنى الآية فإن عثر بعد ما حلف الوصيان على أنهما استحقا إثما أي حنثا في اليمين بكذب في قول أو خيانة في مال قام في اليمين مقامهما رجلان من قرابة الميت فيحلفان بالله لقد ظهرنا على خيانة الذميين وكذبهما وتبديلهما وما اعتدينا في ذلك وما كذبنا.

٢٠. روي أنه لما نزلت الآية الأولى: صلّى رسول الله ﷺ العصر ودعا بتميم وعدي فاستحلفهما عند

المنبر بالله الذي لا إله إلا هو أنه لم يوجد منا خيانة في هذا المال ولما حلفا خلى رسول الله ﷺ سبيلهما وكتما الإناء مدة ثم ظهروا، واختلفوا فقيل: وجد بمكة، وقيل: لما طالت المدة أظهرا الإناء فبلغ ذلك بني سهم فطالبوهما فقالا كنا قد اشتريناه منه فقالوا ألم نقل لكم هل باع صاحبنا شيئا فقلتما لا؟ فقالا لم يكن عندنا بينة فكرهنا أن نعثر فكتمنا فرفعوا القصة إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: فإن عُثِرَ الآية فقام عمرو بن العاص والمطلب بن أبي رفاعة السهميان فحلفا بالله بعد العصر فدفع الرسول ﷺ الإناء إليهما وإلى أولياء الميت، وكان تميم الداري يقول بعد ما أسلم: صدق الله ورسوله أنا أخذت الإناء فأتوب إلى الله تعالى، وعن ابن عباس أنه بقيت تلك الواقعة مخفية إلى أن أسلم تميم الداري فلما أسلم أخبر بذلك وقال: حلفت كاذبا وأنا وصاحبي بعنا الإناء بألف وقسمنا الثمن، ثم دفع خمسمائة درهم من نفسه ونزع من صاحبه خمسمائة أخرى ودفع الألف إلى موالي الميت.

٢١. ﴿فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما﴾ أي مقام الشاهدين اللذين هما من غير ملتهما ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيانِ﴾ المراد به موالي الميت، وقد أكثر الناس في أنه لم وصف موالي الميت بهذا الوصف، والأصح عندي فيه وجه واحد، وهو أنهم إنما وصفوا بذلك لأنه لما أخذ مالهم فقد استحق عليهم مالهم فإن من أخذ مال غيره فقد حاول أن يكون تعلقه بذلك المال مستعليا على تعلق مالكه به فصح أن يوصف المالك بأنه قد استحق عليه ذلك المال، أما قوله ﴿الْأَوْلَيانِ﴾ ففيه وجوه:

أ. الأول: أن يكون خبر المبتدأ محذوف والتقدير: هما الأوليان وذلك لأنه لما قال: ﴿فَآخَرانِ يَقُومانِ﴾ مَقامَهُما فكأنه قيل: ومن هما فقيل: الأوليان.

ب. الثاني: أن يكون بدلا من الضمير الذي في يقومان والتقدير فيقوم الأوليان.

ج. الثالث: أجاز الأخفش أن يكون قوله: ﴿الْأَوْلَيانِ﴾ صفة لقوله ﴿فَآخَرانِ﴾ وذلك لأن النكرة إذا تقدم ذكرها ثم أعيد عليها الذكر صارت معرفة، كقوله تعالى: ﴿كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ﴾ [النور: ٣٥] فمصباح نكرة ثم قال: ﴿الْمِصْباحُ﴾ ثم قال: ﴿فِي زُجاجَةٍ﴾ ثم قال: ﴿الزُّجاجَةُ﴾، وهذا مثل قولك رأيت رجلا، ثم يقول إنسان من الرجل، فصار بالعود إلى ذكره معرفة.

د. الرابع: يجوز أن يكون قوله: ﴿الْأَوْلَيانِ﴾ بدلا من قوله آخران، وإبدال المعرفة من النكرة كثير.

٢٢. إنما وصفهما بأنهما ﴿الْأَوْلَيانِ﴾ لوجهين:

أ. الأول: معنى ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ الأقربان إلى الميت.

ب. الثاني: يجوز أن يكون المعنى الأوليان باليمين، والسبب فيه أن الوصيين قد ادعيا أن الميت باع الإناء الفضة فانتقل اليمين إلى موالي الميت، لأن الوصيين قد ادعيا أن مورثهما باع الإناء وهما أنكرا ذلك، فكان اليمين حقا لهما، وهذا كما أن إنسانا أقر لآخر بدين ثم ادعى أنه قضاه حكم برد اليمين إلى الذي ادعى الدين أولا لأنه صار مدعى عليه أنه قد استوفاه.

٢٣. ﴿فَيُقْسِمانِ بِالله لَشَهادَتُنا أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِما وَمَا اعْتَدَيْنا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ والمعنى ظاهر أي وما اعتدينا في طلب هذا المال، وفي نسبتهم إلى الخيانة، وقوله إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ أي إنا إذا حلفنا موقنين بالكذب معتقدين الزور والباطل.

٢٤. ﴿ذلِكَ أَدْنى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلى وَجْهِها أو يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ إيمان بَعْدَ أَيْمانِهِمْ﴾ والمعنى ذلك الحكم الذي ذكرناه والطريق الذي شرعناه أقرب إلى أن يأتوا بالشهادة على وجهها، وأن يأتوا بالشهادة لا على وجهها، ولكنهم يخافون أن يحلفوا على ما ذكروه لخوفهم من أن ترد إيمان على الورثة بعد أيمانهم، فيظهر كذبهم ويفتضحون فيما بين الناس.

﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾ والمعنى اتقوا الله أن تخونوا في الأمانات واسمعوا مواعظ الله أي اعملوا بها وأطيعوا الله فيها والله لا يهدي القوم الفاسقين، وهو تهديد ووعيد لمن خالف حكم الله وأوامره فهذا هو القول في تفسير هذه الآية التي اتفق المفسرون على أنها في غاية الصعوبة إعرابا ونظما وحكما، وروى الواحدي في (البسيط) عن عمر بن الخطاب أنه قال هذه الآية أعضل ما في هذه السورة من الأحكام، والحكم الذي ذكرناه في هذه الآية منسوخ عند أكثر الفقهاء والله أعلم بأسرار كلامه.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]

١. قال مكي: هذه الآيات الثلاث عند أهل المعاني من أشكل ما في القرآن إعرابا ومعنى وحكما،

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/٣٤٦.

قال ابن عطية: هذا كلام من لم يقع له الثلج في تفسيرها، وذلك بين من كتابه.

٢. ما ذكره مكي ذكره أبو جعفر النحاس قبله أيضا، ولا أعلم خلافا أن هذه الآيات نزلت بسبب تميم الداري وعدي بن بداء:

أ. روى البخاري والدارقطني وغيرهما عن ابن عباس قال: كان تميم الداري وعدي بن بداء يختلفان إلى مكة، فخرج معهما فتى من بني سهم فتوفي بأرض ليس بها مسلم، فأوصى إليهما، فدفعا تركته إلى أهله وحبسا جاما من فضة مخوصا بالذهب، فاستحلفهما رسول الله ﷺ (ما كتمتما ولا اطلعتما) ثم وجد الجام بمكة فقالوا: اشتريناه من عدي وتميم، فجاء رجلان من ورثة السهمي فحلفا أن هذا الجام للسهمي، ولشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا، قال فأخذوا الجام، وفيهم نزلت هذه الآية، لفظ الدارقطني.

ب. وروى الترمذي عن تميم الداري في هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ برئ منها الناس غيري وغير عدي بن بداء ـ وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام، فأتيا الشام بتجارتهما، وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له: بديل ابن أبي مريم بتجارة، ومعه جام من فضة يريد به الملك، وهو عظم تجارته، فمرض فأوصى إليهما، وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله، قال تميم: فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم ثم اقتسمناها أنا وعدي بن بداء، فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا، وفقدوا الجام فسألونا عنه فقلنا: ما ترك غير هذا، وما دفع إلينا غيره، قال تميم: فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة تأثمت من ذلك، فأتيت أهله وأخبرتهم الخبر، وأديت إليهم خمسمائة درهم، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها، فأتوا به إلى رسول الله ﷺ فسألهم البينة فلم يجدوا، فأمرهم أن يستحلفوه بما يقطع به على أهل دينه، فحلف فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ فقام عمرو بن العاص ورجل آخر منهم فحلفا فنزعت الخمسمائة من يدي عدي بن بداء، قال أبو عيسى: هذا حديث غريب وليس إسناده بصحيح.

ج. وذكر الواقدي أن الآيات الثلاث نزلت في تميم وأخيه عدي، وكانا نصرانيين، وكان متجرهما إلى مكة، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة قدم ابن أبي مريم مولى عمرو بن العاص المدينة وهو يريد الشام تاجرا، فخرج مع تميم وأخيه عدي، وذكر الحديث.

د. وذكر النقاش قال نزلت في بديل بن أبي مريم مولى العاص بن وائل السهمي، كان خرج مسافرا

في البحر إلى أرض النجاشي، ومعه رجلان نصرانيان أحدهما يسمى تميما وكان من لخم وعدي بن بداء، فمات بديل وهم في السفينة فرمي به في البحر، وكان كتب وصيته ثم جعلها في المتاع فقال: أبلغا هذا المتاع أهلي، فلما مات بديل قبضا المال، فأخذا منه ما أعجبهما فكان فيما أخذا إناء من فضة فيه ثلاثمائة مثقال، منقوشا مموها بالذهب، وذكر الحديث، وذكره سنيد وقال: فلما قدموا الشام مرض بديل وكان مسلما، الحديث.

٣. ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ ورد ﴿شَهِدَ﴾ في كتاب الله تعالى بأنواع مختلفة: منها قوله تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [البقرة] قيل: معناه أحضروا، ومنها ﴿شَهِدَ﴾ بمعنى قضى أي أعلم، قاله أبو عبيدة كقوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران]، ومنها ﴿شَهِدَ﴾ بمعنى أقر، كقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء]، ومنها ﴿شَهِدَ﴾ بمعنى حكم، قال الله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف]، ومنها ﴿شَهِدَ﴾ بمعنى حلف، كما في اللعان، ﴿وَشَهِدَ﴾ بمعنى وصى، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾، وقيل: معناها هنا الحضور للوصية، يقال: شهدت وصية فلان أي حضرتها، وذهب الطبري إلى أن الشهادة بمعنى اليمين، فيكون المعنى يمين ما بينكم أن يحلف اثنان، واستدل على أن ذلك غير الشهادة التي تؤدى للمشهود له بأنه لا يعلم لله حكم يجب فيه على الشاهد يمين، واختار هذا القول القفال، وسميت اليمين شهادة، لأنه يثبت بها الحكم كما يثبت بالشهادة، واختار ابن عطية أن الشهادة هنا هي الشهادة التي تحفظ فتؤدى، وضعف كونها بمعنى الحضور واليمين.

٤. ﴿بَيْنِكُمْ﴾: قيل: معناه ما بينكم فحذفت ﴿مَا﴾ وأضيفت الشهادة إلى الظرف، واستعمل اسما على الحقيقة، وهو المسمى عند النحويين بالمفعول على السعة، كما قال يوما شهدناه سليما وعامرا أراد شهدنا فيه، وقال تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ] أي مكركم فيهما، وأنشد: تصافح من لاقيت لي ذا عداوة...صفاحا وعني بين عينيك منزويأراد ما بين عينيك فحذف، ومنه قوله تعالى: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف] أي ما بيني وبينك.

٥. ﴿إِذَا حَضَرَ﴾ معناه إذا قارب الحضور، وإلا فإذا حضر الموت لم يشهد ميت، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾ [النحل]، وكقوله: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطلاق] ومثله كثير، والعامل في ﴿إِذَا﴾ المصدر الذي هو﴿شَهَادَةً﴾

٦. ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ﴾ ﴿حِينٌ﴾ ظرف زمان والعامل فيه ﴿حَضَرَ﴾، وقوله: ﴿اثْنَانِ﴾ يقتضي بمطلقه شخصين، ويحتمل رجلين، إلا أنه لما قال بعد ذلك: ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ بين أنه أراد رجلين، لأنه لفظ لا يصلح إلا للمذكر، كما أن ﴿ذَوَاتَا﴾ [الرحمن] لا يصلح إلا للمؤنث، وارتفع ﴿اثْنَانِ﴾ على أنه خبر المبتدأ الذي هو﴿شَهَادَةً﴾ قال أبو علي ﴿شَهَادَةً﴾ رفع بالابتداء والخبر في قوله: ﴿اثْنَانِ﴾ التقدير شهادة بينكم في وصاياكم شهادة اثنين، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، كما قال تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب] أي مثل أمهاتهم، ويجوز أن يرتفع ﴿اثْنَانِ﴾ بـ ﴿شَهَادَةً﴾، التقدير وفيما أنزل عليكم أو ليكن منكم أن يشهد اثنان، أو ليقم الشهادة اثنان.

٧. ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ صفة لقوله: ﴿اثْنَانِ﴾ و﴿مِنْكُمْ﴾ صفة بعد صفة، وقوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي أو شهادة آخرين من غيركم، فمن غيركم صفة لآخرين، وهذا الفصل هو المشكل في هذه الآية، والتحقيق فيه أن يقال: اختلف العلماء فيه على ثلاثة أقوال:

أ. الأول: أن الكاف والميم في قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ ضمير للمسلمين ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ للكافرين فعلى هذا تكون شهادة أهل الكتاب على المسلمين جائزة في السفر إذا كانت وصية، وهو الأشبه بسياق الآية، مع ما تقرر من الأحاديث، وهو قول ثلاثة من الصحابة الذين شاهدوا التنزيل، أبو موسى الأشعري وعبد الله بن قيس، وعبد الله بن عباس فمعنى الآية من أولها: إلى آخرها على هذا القول أن الله تعالى أخبر أن حكمه في الشهادة على الموصي إذا حضر الموت أن تكون شهادة عدلين فإن كان في سفر وهو الضرب في الأرض، ولم يكن معه أحد من المؤمنين، فليشهد شاهدين ممن حضره من أهل الكفر، فإذا قدما وأديا الشهادة على وصيته حلفا بعد الصلاة أنهما ما كذبا وما بدلا، وأن ما شهدا به حق، ما كتما فيه شهادة وحكم بشهادتهما، فإن عثر بعد ذلك على أنهما كذبا أو خانا، ونحو هذا مما هو إثم حلف رجلان من أولياء الموصي في السفر، وغرم الشاهدان ما ظهر عليهما، هذا معنى الآية على مذهب أبي موسى الأشعري، وسعيد بن المسيب، ويحيى بن يعمر، وسعيد بن جبير وأبي مجلز وإبراهيم وشريح وعبيدة السلماني، وابن سيرين ومجاهد وقتادة والسدي وابن عباس وغيرهم، وقال به من الفقهاء سفيان الثوري، ومال إليه أبو عبيد القاسم بن سلام لكثرة من قال به، واختاره أحمد بن حنبل وقال: شهادة أهل الذمة جائزة على المسلمين في السفر عند عدم المسلمين كلهم يقولون ﴿مِنْكُمْ﴾ من المؤمنين ومعنى ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ يعني

الكفار، قال بعضهم: وذلك أن الآية نزلت ولا مؤمن إلا بالمدينة، وكانوا يسافرون بالتجارة صحبة أهل الكتاب وعبدة الأوثان وأنواع الكفرة، والآية محكمة على مذهب أبي موسى وشريح وغيرهما، القول.

ب. الثاني: أن قوله سبحانه: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ منسوخ، هذا قول زيد بن أسلم والنخعي ومالك، والشافعي وأبي حنيفة وغيرهم من الفقهاء، إلا أن أبا حنيفة خالفهم فقال: تجوز شهادة الكفار بعضهم على بعض، ولا تجوز على المسلمين واحتجوا بقوله تعالى: ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [الطلاق]، فهؤلاء زعموا أن آية الدين من آخر ما نزل، وأن فيها ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ فهو ناسخ لذلك، ولم يكن الإسلام يومئذ إلا بالمدينة، فجازت شهادة أهله الكتاب، وهو اليوم طبق الأرض فسقطت شهادة الكفار، وقد أجمع المسلمون على أن شهادة الفساق لا تجوز، والكفار فساق فلا تجوز شهادتهم، قلت: ما ذكرتموه صحيح إلا أنا نقول بموجبه، وأن ذلك جائز في شهادة أهل الذمة على المسلمين في الوصية في السفر خاصة للضرورة بحيث لا يوجد مسلم، وأما مع وجود مسلم فلا، ولم يأت ما ادعيتموه من النسخ عن أحد ممن شهد التنزيل، وقد قال بالأول ثلاثة من الصحابة وليس ذلك في غيره، ومخالفة الصحابة إلى غيرهم ينفر عنه أهل العلم، ويقوي هذا أن سورة المائدة) من آخر القرآن نزولا حتى قال ابن عباس والحسن وغيرهما: إنه لا منسوخ فيها، وما ادعوه من النسخ لا يصح فإن النسخ لا بد فيه من إثبات الناسخ على وجه يتنافى الجمع بينهما مع تراخي الناسخ، فما ذكروه لا يصح أن يكون ناسخا، فإنه في قصة غير قصة الوصية لمكان الحاجة والضرورة، ولا يمتنع اختلاف الحكم عند الضرورات، ولأنه ربما كان الكافر ثقة عند المسلم ويرتضيه عند الضرورة، فليس فيما قالوه ناسخ، القول.

ج. الثالث: أن الآية لا نسخ فيها، قاله الزهري والحسن وعكرمة، ويكون معنى قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ أي من عشيرتكم وقرابتكم، لأنهم أحفظ وأضبط وأبعد عن النسيان، ومعنى قوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي من غير القرابة والعشيرة، قال النحاس: وهذا ينبني على معنى غامض في العربية، وذلك أن معنى ﴿آخَرَ﴾ في العربية من جنس الأول، تقول: مررت بكريم وكريم آخر، فقوله: ﴿آخَرَ﴾ يدل على أنه من جنس الأول، ولا يجوز عند أهل العربية مررت بكريم وخسيس آخر، ولا مررت برجل وحمار آخر، فوجب من هذا أن يكون معنى قوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي عدلان، والكفار لا يكونون عدولا

فيصح على هذا قول من قال: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من غير عشيرتكم من المسلمين، وهذا معنى حسن من جهة اللسان، وقد يحتج به لمالك ومن قال بقوله، لأن المعنى عندهم ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من غير قبيلتكم على أنه قد عورض هذا القول بأن في أول الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فخوطب الجماعة من المؤمنين.

٨. استدلّ أبو حنيفة بهذه الآية على جواز شهادة الكفار من أهل الذمة فيما بينهم، قال: ومعنى ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي من غير أهل دينكم، فدل على جواز شهادة بعضهم على بعض، فيقال له: أنت لا تقول بمقتضى هذه الآية، لأنها نزلت في قبول شهادة أهل الذمة على المسلمين وأنت لا تقول بها فلا يصح احتجاجك بها، فإن قيل: هذه الآية دلت على جواز قبول شهادة أهل الذمة على المسلمين من طريق النطق، ودلت على قبول شهادتهم على أهل الذمة من طريق التنبيه، وذلك أنه إذا قبلت شهادتهم على المسلمين فلأن تقبل على أهل الذمة أولى، ثم دل الدليل على بطلان شهادتهم على المسلمين، فبقي شهادتهم على أهل الذمة على ما كان عليه، وهذا ليس بشيء، لأن قبول شهادة أهل الذمة على أهل الذمة فرع لقبول شهادتهم على المسلمين، فإذا بطلت شهادتهم على المسلمين وهي الأصل فلأن تبطل شهادتهم على أهل الذمة وهي فرعها أحرى وأولى.

٩. ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي سافرتم، وفي الكلام حذف تقديره إن أنتم ضربتم في الأرض ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ فأوصيتم إلى اثنين عدلين في ظنكم، ودفعتم إليهما ما معكم من المال، ثم متم وذهبا إلى ورثتكم بالتركة فارتابوا في أمرهما، وادعوا عليهما خيانة، فالحكم أن تحبسوهما من بعد الصلاة، أي تستوثقوا منهما، وسمى الله تعالى الموت في هذه الآية مصيبة، قال علماؤنا: والموت وإن كان مصيبة عظمى، ورزية كبرى، فأعظم منه الغفلة عنه، والإعراض عن ذكره، وترك التفكر فيه، وترك العمل له، وإن فيه وحده لعبرة لمن اعتبر، وفكرة لمن تفكر، وروي عن النبي ﷺ [أنه قال: لو أن البهائم تعلم من الموت ما تعلمون ما أكلتم منها سمينا)، ويروى أن أعرابيا كان يسير على جمل له، فخر الجمل ميتا فنزل الأعرابي عنه، وجعل يطوف به ويتفكر فيه ويقول: ما لك لا تقوم!؟ ما لك لا تنبعث!؟ هذه أعضاؤك كاملة، وجوارحك سالمة، ما شأنك!؟ ما الذي كان يحملك!؟ ما الذي كان يبعثك!؟ ما الذي صرعك!؟ ما الذي عن الحركة منعك!؟ ثم تركه وانصرف متفكرا في شأنه، متعجبا من أمره.

١٠. ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ قال أبو علي: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ صفة لـ ﴿آخَرَانِ﴾ واعترض بين الصفة

والموصوف بقوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ﴾، وهذه الآية أصل في حبس من وجب عليه حق، والحقوق على قسمين: منها ما يصلح استيفاؤه معجلا، ومنها ما لا يمكن استيفاؤه إلا مؤجلا، فإن خلي من عليه [الحق] غاب واختفى وبطل الحق وتوي فلم يكن بد من التوثق منه فإما بعوض عن الحق وهو المسمى رهنا، وإما بشخص ينوب منابه في المطالبة والذمة وهو الحميل، وهو دون الأول، لأنه يجوز أن يغيب كمغيبه ويتعذر وجوده كتعذره، ولكن لا يمكن أكثر من هذا فإن تعذرا جميعا لم يبق إلا التوثق بحبسه حتى تقع منه التوفية لما كان عليه من حق، أو تبين عسرته.

١١. فإن كان الحق بدنيا لا يقبل البدل كالحدود والقصاص ولم يتفق استيفاؤه معجلا، لم يكن فيه إلا التوثق بسجنه، ولأجل هذه الحكمة شرع السجن، روى أبو داوود والترمذي وغيرهما عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ حبس رجلا في تهمة، وروى أبو داوود عن عمرو بن الشريد عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال: لي الواجد يحل عرضه وعقوبته [، قال ابن المبارك يحل عرضه يغلظ له، وعقوبته يحبس له، قال الخطابي: الحبس على ضربين، حبس عقوبة، وحبس استظهار، فالعقوبة لا تكون إلا في واجب، وأما ما كان في تهمة فإنما يستظهر بذلك ليستكشف به ما وراءه، وقد روي أنه حبس رجلا في تهمة ساعة من نهار ثم خلى عنه، وروى معمر عن أيوب عن ابن سيرين قال كان شريح إذا قضى على رجل بحق أمر بحبسه في المسجد إلى أن يقوم فإن أعطاه حقه وإلا أمر به إلى السجن.

١٢. ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ يريد صلاة العصر، قاله الأكثر من العلماء، لأن أهل الأديان يعظمون ذلك الوقت ويتجنبون فيه الكذب واليمين الكاذبة، وقال الحسن: صلاة الظهر، وقيل: أي صلاة كانت، وقيل: من بعد صلاتهما على أنهما كافران، قاله السدي، وقيل: إن فائدة اشتراطه بعد الصلاة تعظيما للوقت، وإرهابا به، لشهود الملائكة ذلك الوقت، وفي الصحيح (من حلف على يمين كاذبة بعد العصر لقي الله وهو عليه غضبان)

١٣. هذه الآية أصل في التغليظ في الأيمان، والتغليظ يكون بأربعة أشياء:

أ. أحدها: الزمان كما ذكرنا.

ب. الثاني: المكان كالمسجد والمنبر، خلافا لأبي حنيفة وأصحابه حيث يقولون: لا يجب استحلاف أحد عند منبر النبي ﷺ، ولا بين الركن والمقام لا في قليل الأشياء ولا في كثيرها، وإلى هذا القول ذهب

البخاري ـ حيث ترجم باب يحلف المدعى عليه حيثما وجبت عليه اليمين ولا يصرف من موضع إلى غيره)، وقال مالك والشافعي: ويجلب في أيمان القسامة إلى مكة من كان من أعمالها، فيحلف بين الركن والمقام، ويجلب إلى المدينة من كان من أعمالها فيحلف عند المنبر.

ج. الثالث: الحال روى مطرف وابن الماجشون وبعض أصحاب الشافعي أنه يحلف قائما مستقبل القبلة، لأن ذلك أبلغ في الردع والزجر، وقال ابن كنانة: يحلف جالسا، قال ابن العربي: والذي عندي أنه يحلف كما يحكم عليه بها إن كان قائما فقائما وإن جالسا فجالسا إذ لم يثبت في أثر ولا نظر اعتبار ذلك من قيام أو جلوس، قلت: قد استنبط بعض العلماء من قوله في حديث علقمة بن وائل عن أبيه: [فانطلق ليحلف] القيام ـ والله أعلم ـ أخرجه مسلم.

د. الرابع: التغليظ باللفظ، فذهبت طائفة إلى الحلف بالله لا يزيد عليه، لقوله تعالى: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ﴾، وقوله: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي﴾ [يونس]، وقال: ﴿وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ [الأنبياء]، وقوله ﷺ: (من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت)، وقول الرجل: والله لا أزيد عليهن، وقال مالك: يحلف بالله الذي لا إله إلا هو ما له عندي حق، وما ادعاه علي باطل، والحجة له ما رواه أبو داوود عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال ـ يعني لرجل حلفه:(احلف بالله الذي لا إله إلا هو ما له عندك شي) يعني للمدعي، قال أبو داوود أبو يحيى اسمه زياد كوفي ثقة ثبت، وقال الكوفيون: يحلف بالله لا غير، فإن اتهمه القاضي غلظ عليه اليمين، فيحلفه بالله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم الذي يعلم من السر ما يعلم من العلانية الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وزاد أصحاب الشافعي التغليظ بالمصحف، قال ابن العربي: وهو بدعة ما ذكرها أحد قط من الصحابة، وزعم الشافعي أنه رأى ابن مازن قاضي صنعاء يحلف بالمصحف ويأمر أصحابه بذلك، ويرويه عن ابن عباس، ولم يصح، وفي كتاب (المهذب) وإن حلف بالمصحف وما فيه من القرآن فقد حكى الشافعي عن مطرف أن ابن الزبير كان يحلف على المصحف، قال ورأيت مطرفا بصنعاء يحلف على المصحف، قال الشافعي: وهو حسن، قال ابن المنذر: وأجمعوا على أنه لا ينبغي للحاكم أن يستحلف بالطلاق والعتاق والمصحف، قلت: قد تقدم في الأيمان: وكان قتادة يحلف بالمصحف، وقال أحمد وإسحاق: لا يكره ذلك، حكاه عنهما ابن المنذر.

١٤. اختلف مالك والشافعي من هذا الباب في قدر المال الذي يحلف به في مقطع الحق، فقال

مالك: لا تكون اليمين في مقطع الحق في أقل من ثلاثة دراهم قياسا على القطع، وكل مال تقطع فيه اليد وتسقط به حرمة العضو فهو عظيم، وقال الشافعي: لا تكون اليمين في ذلك في أقل من عشرين دينارا قياسا على الزكاة، وكذلك عند منبر كل مسجد.

١٥. ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ﴾ الفاء في ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾ عاطفة جملة على جملة، أو جواب جزاء، لان ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ معناه احبسوهما، أي لليمين، فهو جواب الأمر الذي دل عليه الكلام كأنه قال إذا حبستموهما أقسما، قال ذو الرمة:

وإنسان عيني يحسر الماء مرة فيبدو وتارات يجم فيغرق

تقديره عندهم: إذا حسر بدا.

١٦. اختلف من المراد بقوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾؟ فقيل: الوصيان إذا ارتيب في قولهما وقيل: الشاهدان إذا لم يكونا عدلين وارتاب بقولهما الحاكم حلفهما، قال ابن العربي مبطلا لهذا القول: والذي سمعت ـ وهو بدعة ـ عن ابن أبي ليلى أنه يحلف الطالب مع شاهديه أن الذي شهدا به حق، وحينئذ يقضى له بالحق، وتأويل هذا عندي إذا ارتاب الحاكم بالقبض فيحلف إنه لباق، وأما غير ذلك فلا يلتفت إليه، هذا في المدعي فكيف يحبس الشاهد أو يحلف!؟ هذا ما لا يلتفت إليه، قلت: وقد تقدم من قول الطبري في أنه لا يعلم لله حكم يجب فيه على الشاهد يمين، وقد قيل: إنما استحلف الشاهدان لأنهما صارا مدعى عليهما، حيث ادعى الورثة أنهما خانا في المال.

١٧. ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ شرط لا يتوجه تحليف الشاهدين إلا به، ومتى لم يقع ريب ولا اختلاف فلا يمين، قال ابن عطية: أما إنه يظهر من حكم أبي موسى في تحليف الذميين أنه باليمين تكمل شهادتهما وتنفذ الوصية لأهلها روى أبو داوود عن الشعبي أن رجلا من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقاء هذه، ولم يجد أحدا من المسلمين حضره يشهده على وصيته، فأشهد رجلين من أهل الكتاب، فقدما الكوفة فأتيا الأشعري فأخبراه، وقدما بتركته ووصيته، فقال الأشعري: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد رسول الله ﷺ، فأحلفهما بعد العصر: بالله ما خانا ولا كذبا ولا بدلا ولا كتما ولا غيرا وإنها لوصية الرجل وتركته فأمضى شهادتهما، قال ابن عطية: وهذه الريبة عند من لا يرى الآية منسوخة تترتب في الخيانة، وفي الاتهام بالميل إلى بعض الموصى لهم دون بعض، وتقع مع ذلك اليمين عنده، وأما من يرى الآية منسوخة فلا يقع

تحليف إلا أن يكون الارتياب في خيانة أو تعد بوجه من وجوه التعدي، فيكون التحليف عنده بحسب الدعوى على منكر لا على أنه تكميل للشهادة، قال ابن العربي: يمين الريبة والتهمة على قسمين: أحدهما: ما تقع الريبة فيه بعد ثبوت الحق وتوجه الدعوى فلا خلاف في وجوب اليمين، والثاني: التهمة المطلقة في الحقوق والحدود، وله تفصيل بيانه في كتب الفروع، وقد تحققت ها هنا الدعوى وقويت حسبما ذكر في الروايات.

١٨. الشرط في قوله: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ يتعلق بقوله: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ لا بقوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾ لأن هذا الحبس سبب القسم.

١٩. ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي يقولان في يمينهما لا نشتري بقسمنا عوضا نأخذه بدلا مما أوصى به ولا ندفعه إلى أحد ولو كان الذي نقسم له ذا قربى منا، وإضمار القول كثير، كقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الرعد] أي يقولون سلام عليكم، والاشتراء ها هنا ليس بمعنى البيع، بل هو التحصيل.

٢٠. اللام في قوله: ﴿لَا نَشْتَرِي﴾ جواب لقوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾ لأن أقسم يلتقي بما يلتقي به القسم، وهو﴿لَا﴾ و﴿مَا﴾ في النفي، ﴿وَإِنَّ﴾ واللام في الإيجاب، والهاء في ﴿بِهِ﴾ عائد على اسم الله تعالى، وهو أقرب مذكور، المعنى: لا نبيع حظنا من الله تعالى بهذا العرض، ويحتمل أن يعود على الشهادة وذكرت على معنى القول، كما قال ﷺ: [واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب] فأعاد [الضمير] على معنى الدعوة الذي هو الدعاء، وقد تقدم في سورة النساء، الموفية

٢١. ﴿ثَمَنًا﴾ قال الكوفيون: المعنى ذا ثمن أي سلعة ذا ثمن، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وعندنا وعند كثير من العلماء أن الثمن قد يكون هو ويكون السلعة، فإن الثمن عندنا مشترى كما أن المثمون مشترى، فكل واحد من المبيعين ثمنا ومثمونا كان البيع دائرا على عرض ونقد، أو على عرضين، أو على نقدين، وعلى هذا الأصل تنبني مسألة: إذا أفلس المبتاع ووجد البائع متاعه هل يكون أولى به؟ قال أبو حنيفة: لا يكون أولى به، وبناه على هذا الأصل، وقال: يكون صاحبها أسوة الغرماء، وقال مالك: هو أحق بها في الفلس دون الموت، وقال الشافعي: صاحبها أحق بها في الفلس والموت، تمسك أبو حنيفة بما ذكرنا، وبأن الأصل الكلي أن الدين في ذمة المفلس والميت، وما بأيديهما محل للوفاء، فيشترك جميع الغرماء

فيه بقدر رؤوس أموالهم، ولا فرق في ذلك بين أن تكون أعيان السلع موجودة أو لا، إذ قد خرجت عن ملك بائعها ووجبت أثمانها لهم في الذمة بالإجماع، فلا يكون لهم إلا أثمانها أو ما وجد منها، وخصص مالك والشافعي هذه القاعدة بأخبار رويت في هذا الباب رواها الأئمة أبو داوود وغيره.

٢٢. ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ﴾ أي ما أعلمنا الله من الشهادة، وفيها سبع قراءات من أرادها وجدها في التحصيل) وغيره.

٢٣. ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ قال عمر: هذه الآية أعضل ما في هذه السورة من الأحكام، وقال الزجاج: أصعب ما في القرآن من الإعراب قوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾، عثر على كذا أي اطلع عليه، يقال: عثرت منه على خيانة أي اطلعت، وأعثرت غيري عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [الكهف]، لأنهم كانوا يطلبونهم وقد خفي عليهم موضعهم، وأصل العثور الوقوع والسقوط على الشيء ومنه قولهم: عثر الرجل يعثر عثورا إذا وقعت إصبعه بشيء صدمته، وعثرت إصبع فلان بكذا إذا صدمته فأصابته ووقعت عليه، وعثر الفرس عثارا قال الأعشى:

بذات لوث عفرناة إذا عثرت   فالتعس أدنى لها من أن أقول لعاو

العثير الغبار الساطع، لأنه يقع على الوجه، والعثير الأثر الخفي لأنه يوقع عليه من خفاء، والضمير في ﴿أَنَّهُمَا﴾ يعود على الوصيين اللذين ذكرا في قوله تعالى: ﴿اثْنَانِ﴾ عن سعيد ابن جبير، وقيل: على الشاهدين، عن ابن عباس، و﴿اسْتَحَقَّا﴾ أي استوجبا ﴿آثِمًا﴾ يعني بالخيانة، وأخذهما ما ليس لهما، أو باليمين الكاذبة أو بالشهادة الباطلة، وقال أبو علي: الإثم هنا اسم الشيء المأخوذ، لأن آخذه بأخذه آثم، فسمي إثما كما سمي ما يؤخذ بغير حق مظلمة، وقال سيبويه: المظلمة اسم ما أخذ منك، فكذلك سمي هذا المأخوذ باسم المصدر وهو الجام.

٢٤. ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ يعني في الأيمان أو في الشهادة، وقال: ﴿آخَرَانِ﴾ بحسب أن الورثة كانا اثنين، وارتفع ﴿آخَرَانِ﴾ بفعل مضمر، ﴿يَقُومَانِ﴾ في موضع نعت، ﴿مَقَامَهُمَا﴾ مصدر، وتقديره: مقاما مثل مقامهما، ثم أقيم النعت مقام المنعوت، المضاف مقام المضاف إليه

٢٥. ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ قال ابن السري: المعنى استحق عليهم الإيصاء، قال النحاس: وهذا من أحسن ما قيل فيه، لأنه لا يجعل حرف بدلا من حرف، واختاره ابن العربي، وأيضا فإن

التفسير عليه، لأن المعنى عند أهل التفسير: من الذين استحقت عليهم الوصية، و﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ بدل من قوله: فآخران قاله ابن السري، واختاره النحاس وهو بدل المعرفة من النكرة وإبدال المعرفة من النكرة جائز، وقيل: النكرة إذا تقدم ذكرها ثم أعيد ذكرها صارت معرفة، كقوله تعالى: ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور] ثم قال: ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ [النور] ثم قال: ﴿الزُّجَاجَةُ﴾ [النور]، وقيل: وهو بدل من الضمير في ﴿يَقُومَانِ﴾ كأنه قال فيقوم الأوليان أو خبر ابتداء محذوف، التقدير: فآخران يقومان مقامهما هما الأوليان، وقال ابن عيسى: ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ مفعول ﴿اسْتَحَقَّ﴾ على حذف المضاف، أي استحق فيهم وبسببهم إثم الأوليين فعليهم بمعنى فيهم مثل ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة] أي في ملك سليمان، وقال الشاعر:

متى ما تنكروها تعرفوها على أقطارها علق نفيث

أي في أقطارها، وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ جمع أول على أنه بدل من ﴿الَّذِينَ﴾ أو من الهاء والميم في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وقرأ حفص: ﴿اسْتَحَقَّ﴾ بفتح التاء والحاء، وروي عن أبي بن كعب، وفاعله ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ والمفعول محذوف، والتقدير: من الذين استحق عليهم الأوليان بالميت وصيته التي أوصى بها، وقيل: استحق عليهم الأوليان رد الأيمان، وروي عن الحسن: الأولان) وعن ابن سيرين: ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ قال النحاس: والقراءتان لحن، لا يقال في مثنى، مثنان، غير أنه قد روي عن الحسن الأولان)

٢٦. ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ أي يحلفان الآخران اللذان يقومان مقام الشاهدين أن الذي قال صاحبنا في وصيته حق، وأن المال الذي وصى به إليكما كان أكثر مما أتيتمانا به وأن هذا الإناء لمن متاع صاحبنا الذي خرج به معه وكتبه في وصيته، وأنكما خنتما) فذلك قوله: ﴿لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ أي يميننا أحق من يمينهما، فصح أن الشهادة قد تكون بمعنى اليمين، ومنه قوله تعالى: ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ﴾ [النور]، وقد روى معمر عن أيوب عن ابن سيرين عن عبيدة قال قام رجلان من أولياء الميت فحلفا، ﴿لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ﴾ ابتداء وخبر، وقوله: ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ أي تجاوزنا الحق في قسمنا، ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي إن كنا حلفنا على باطل، وأخذنا ما ليس لنا.

٢٧. ﴿ذَلِكَ أَدْنَى﴾ ابتداء وخبر، ﴿أَنْ﴾ في موضع نصب، ﴿يَأْتُوا﴾ نصب بـ ﴿أَنْ﴾، ﴿أَوْ يَخَافُوا﴾ عطف عليه، ﴿أَنْ تُرَدَّ﴾ في موضع نصب بـ ﴿يَخَافُوا﴾، ﴿أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: قيل: الضمير في

﴿يَأْتُوا﴾ و﴿يَخَافُوا﴾ راجع إلى الموصى إليهما، وهو الأليق بمساق الآية، وقيل: المراد به الناس، أي أحرى أن يحذر الناس الخيانة فيشهدوا بالحق خوف الفضيحة في رد اليمين على المدعي.

٢٨. ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا﴾ أمر، ولذلك حذفت منه النون، أي اسمعوا ما يقال لكم، قابلين له، متبعين أمر الله فيه، ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ فسق يفسق ويفسق إذا خرج من الطاعة إلى المعصية.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. قال مكيّ: (هذه الآيات الثلاث عند أهل المعاني من أشكل ما في القرآن إعرابا ومعنى وحكما)، قال ابن عطية: (هذا كلام من لم يقع له الثلج في تفسيرها، وذلك بيّن من كتابه) يعني من كتاب مكي، قال القرطبي: ما ذكره مكي ذكره أبو جعفر النحاس قبله أيضا، قال السعد في حاشيته على الكشاف: واتفقوا على أنها أصعب ما في القرآن إعرابا ونظما وحكما.

٢. ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ أضاف الشهادة إلى البين توسعا لأنها جارية بينهم؛ وقيل: أصله شهادة ما بينكم فحذفت ما وأضيفت إلى الظرف كقوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ ومنه قول الشاعر:

تصافح من لاقيت لي ذا عداوة   صفاحا وعنّي بين عينيك منزوي

أراد ما بين عينيك، ومثله قول الآخر: (ويوما شهدناه سليما وعامرا)، أي شهدنا فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ قيل: والشهادة هنا بمعنى الوصية؛ وقيل: بمعنى الحضور للوصية، وقال ابن جرير الطبري: هي هنا بمعنى اليمين، فيكون المعنى: يمين ما بينكم أن يحلف اثنان، واستدلّ على ما قاله بأنه لا يعلم لله حكما يجب فيه على الشاهد يمين، واختار هذا القول القفال، وضعف ذلك ابن عطية واختار أنّ الشهادة هنا هي الشهادة التي تؤدّى من الشهود.

٣. ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ ظرف للشهادة، والمراد إذا حضرت علاماته، لأن من مات لا يمكنه الإشهاد، وتقديم المفعول للاهتمام ولكمال تمكن الفاعل عند النفس.

٤. ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ ظرف لحضر أو للموت، أو بدل من الظرف الأوّل، ﴿اثْنَانِ﴾ خبر شهادة

---

(١) فتح القدير: ٢/٩٩.

على تقدير محذوف: أي شهادة اثنين أو فاعل للشهادة على أن خبرها محذوف: أي فيما فرض عليكم شهادة بينكم اثنان على تقدير أن يشهد اثنان، ذكر الوجهين أبو عليّ الفارسي.

٥. ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ صفة للاثنان وكذا منكم: أي كائنان منكم: أي من أقاربكم أَوْ آخَرانِ معطوف على ﴿اثْنَانِ﴾، ومِنْ غَيْرِكُمْ صفة له: أي كائنان من الأجانب؛ وقيل: إن الضمير في ﴿مِنْكُمْ﴾ للمسلمين، وفي ﴿غَيْرِكُمْ﴾ للكفار وهو الأنسب لسياق الآية، وبه قال أبو موسى الأشعري وعبد الله بن عباس وغيرهما، فيكون في الآية دليل على جواز شهادة أهل الذمة على المسلمين في السفر في خصوص الوصايا كما يفيده النظم القرآني، ويشهد له السبب للنزول وسيأتي؛ فإذا لم يكن مع الموصي من يشهد على وصيته من المسلمين فليشهد رجلان من أهل الكفر، فإذا قدما وأدّيا الشهادة على وصيته حلفا بعد الصلاة أنهما ما كذبا ولا بدّلا، وأن ما شهدا به حق، فيحكم حينئذ بشهادتهما.

٦. ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ بعد ذلك عَلَى ﴿أَنَّهُمَا﴾ كذبا أو خانا حلف رجلان من أولياء الموصي، وغرم الشاهدان الكافران ما ظهر عليهما من خيانة أو نحوها، هذا معنى الآية عند من تقدم ذكره، وبه قال سعيد بن المسيب ويحيى بن يعمر وسعيد بن جبير وأبو مجلز والنّخعي وشريح وعبيدة السّلماني وابن سيرين ومجاهد وقتادة والسدّي والثوري وأبو عبيد وأحمد بن حنبل، وذهب إلى الأول: أعني تفسير ضمير ﴿مِنْكُمْ﴾ بالقرابة أو العشيرة، وتفسير مِنْ ﴿غَيْرِكُمْ﴾ بالأجانب الزهري والحسن وعكرمة، وذهب مالك والشافعي وأبو حنيفة وغيرهم من الفقهاء أن الآية منسوخة، واحتجوا بقوله: ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ﴾

٧. ﴿وأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ والكفار ليسوا بمرضيين ولا عدول، وخالفهم الجمهور فقالوا: الآية محكمة، وهو الحق لعدم وجود دليل صحيح يدل على النّسخ، وأما قوله تعالى: ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ﴾ وقوله: ﴿وأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ فهما عامان في الأشخاص والأزمان والأحوال، وهذه الآية خاصة بحالة الضرب في الأرض وبالوصية وبحالة عدم الشهود المسلمين، ولا تعارض بين عامّ وخاص.

٨. ﴿إِنْ أَنْتُمْ﴾ هو فاعل فعل محذوف يفسره ضربتم، أو مبتدأ وما بعده خبره، والأوّل مذهب الجمهور من النحاة، والثاني مذهب الأخفش والكوفيين، والضرب في الأرض هو السفر.

٩. ﴿فَأَصابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ معطوف على ما قبله وجوابه محذوف؛ أي إن ضربتم في الأرض فنزل بكم الموت وأردتم الوصية ولم تجدوا شهودا عليها مسلمين، ثم ذهبا إلى ورثتكم بوصيتكم وبما تركتم فارتابوا في أمرهما وادّعوا عليهما خيانة، فالحكم أن تحبسوهما، ويجوز أن يكون استئنافا لجواب سؤال مقدّر، كأنهم قالوا: فكيف نصنع إن ارتبنا في الشهادة؟ فقال: تحبسونهما من بعد الصّلاة إن ارتبتم في شهادتهما، وخص بعد الصلاة: أي صلاة العصر، قاله الأكثر لكونه الوقت الذي يغضب الله على من حلف فيه فاجرا كما في الحديث الصحيح؛ وقيل: لكونه وقت اجتماع الناس وقعود الحكام للحكومة؛ وقيل: صلاة الظهر؛ وقيل: أيّ صلاة كانت، قال أبو عليّ الفارسي: ﴿تَحْبِسُونَهُما﴾ صفة لآخران، واعترض بين الصفة والموصوف بقوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾

١٠. والمراد بالحبس: توقيف الشاهدين في ذلك الوقت لتحليفهما، وفيه دليل على جواز الحبس بالمعنى العام، وعلى جواز التغليظ على الحالف بالزمان والمكان ونحوهما.

١١. ﴿فَيُقْسِمانِ بِاللهِ﴾ معطوف على ﴿تَحْبِسُونَهُما﴾ أي يقسم بالله الشاهدان على الوصية أو الوصيان، وقد استدلّ بذلك ابن أبي ليلى على تحليف الشاهدين مطلقا إذا حصلت الريبة في شهادتهما، وفيه نظر لأن تحليف الشاهدين هنا إنما هو لوقوع الدعوى عليهما بالخيانة أو نحوها.

١٢. ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ جواب هذا الشرط محذوف دلّ عليه ما تقدّم كما سبق، ﴿لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً﴾ جواب القسم، والضمير في بِهِ راجع إلى الله تعالى، والمعنى: لا نبيع حظّنا من الله تعالى بهذا العرض النزر، فنحلف به كاذبين لأجل المال الذي ادّعيتموه علينا؛ وقيل: يعود إلى القسم: أي لا نستبدل بصحة القسم بالله عرضا من أعراض الدنيا؛ وقيل: يعود إلى الشهادة، وإنما ذكر الضمير لأنها بمعنى القول: أي لا نستبدل بشهادتنا ثمنا، قال الكوفيون: المعنى ذا ثمن، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وهذا مبنيّ على أن العروض لا تسمى ثمنا، وعند الأكثر أنها تسمى ثمنا كما تسمى مبيعا.

١٣. ﴿وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى﴾ أي ولو كان المقسم له أو المشهود له قريبا فإنا نؤثر الحق والصدق، ولا نؤثر العرض الدنيوي ولا القرابة، وجواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه: أي ولو كان ذا قربى لا نشتري به ثمنا.

١٤. ﴿وَلا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللهِ﴾ معطوف على لا نَشْتَرِي داخل معه في حكم القسم، وأضاف الشهادة

إلى الله سبحانه لكونه الآمر بإقامتها والناهي عن كتمها.

١٥. ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً﴾ عثر على كذا: اطلع عليه، يقال: عثرت منه على خيانة: أي اطلعت وأعثرت غيري عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وكَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ﴾ وأصل العثور الوقوع والسقوط على الشيء، والمعنى: أنه إذا اطلع بعد التحليف على أنّ الشّاهدين أو الوصيين استحقّا إثما: أي استوجبا إثما إما بكذب الشهادة أو اليمين أو بظهور خيانة، قال أبو علي الفارسي: الإثم هنا اسم الشيء المأخوذ، لأن آخذه يأثم خذه، فسمي إثما كما سمي ما يؤخذ بغير حق مظلمة، وقال سيبويه: المظلمة اسم ما أخذ منك فكذلك سمي هذا المأخوذ باسم المصدر.

١٦. ﴿فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما﴾ أي فشاهدان آخران أو فحالفان آخران يقومان مقام اللذين عثر على أنهما استحقا إثما فيشهدان أو يحلفان على ما هو الحق، وليس المراد أنهما يقومان مقامهما في أداء الشهادة التي شهدها المستحقان للإثم.

١٧. ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيانِ﴾ استحق مبنيّ للمفعول، في قراءة الجمهور: وقرأ علي وأبيّ وابن عباس وحفص على البناء للفاعل، و﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ على القراءة الأولى: مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف: أي هما الأوليان، كأنه قيل: من هما؟ فقيل: هما الأوليان؛ وقيل: هو بدل من الضمير في يقومان أو من آخران، وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة الأولين: جمع أول على أنه بدل من الذين، أو من الهاء والميم في عليهم، وقرأ الحسن الأولان، والمعنى على بناء الفعل للمفعول: من الذين استحق عليهم الإثم: أي جنى عليهم، وهم أهل الميت وعشيرته فإنهم أحق بالشهادة أو اليمين من غيرهم، فالأوليان تثنية أولى، والمعنى على قراءة البناء للفاعل: من الذين استحق عليهم الأوليان من بينهم بالشهادة أن يجردوهما للقيام بالشهادة ويظهروا بها كذب الكاذبين لكونهما الأقربين إلى الميت، فالأوليان فاعل استحق ومفعوله أن يجردوهما للقيام بالشهادة؛ وقيل: المفعول محذوف، والتقدير: من الذين استحق عليهم الأوليان بالميت وصيته التي أوصى بها.

١٨. ﴿فَيُقْسِمانِ بِاللهِ﴾ عطف على ﴿يَقُومَانِ﴾: أي فيحلفان بالله لشهادتنا: أي يميننا، فالمراد بالشهادة هنا اليمين، كما في قوله تعالى: ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ﴾ أي يحلفان لشهادتنا على أنهما كاذبان خائنان أحق من شهادتهما: أي من يمينهما على أنهما صادقان أمينان ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ أي تجاوزنا

الحق في أيمننا ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إن كنا حلفنا على باطل.

١٩. ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾ أي ذلك البيان الذي قدمه الله سبحانه في هذه القصة وعرفنا كيف يصنع من أراد الوصيّة في السفر، ولم يكن عنده أحد من أهله وعشيرته وعنده كفار ﴿أَدْنَى﴾: أي أقرب إلى أن يؤدي الشهود المتحملون للشهادة على الوصية بالشهادة على وجهها فلا يحرّفوا ولا يبدّلوا ولا يخونوا وهذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر المنفعة والفائدة في هذا الحكم الذي شرعه الله في هذا الموضع من كتابه؛ فالضمير في ﴿يَأْتُوا﴾ عائد إلى شهود الوصية من الكفار؛ وقيل: إنه راجع إلى المسلمين المخاطبين بهذا الحكم، والمراد تحذيرهم من الخيانة، وأمرهم بأن يشهدوا بالحق.

٢٠. ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي تردّ على الورثة فيحلفون على خلاف ما شهد به شهود الوصية فيفتضح حينئذ شهود الوصية، وهو معطوف على قوله: ﴿أَنْ يَأْتُوا﴾ فتكون الفائدة في شرع الله سبحانه لهذا الحكم هي أحد الأمرين: إما احتراز شهود الوصية عن الكذب والخيانة فيأتون بالشهادة على وجهها، أو يخافوا الافتضاح إذا ردّت الأيمان على قرابة الميت فحلفوا بما يتضمن كذبهم أو خيانتهم فيكون ذلك سببا لتأدية شهادة شهود الوصية على وجهها من غير كذب ولا خيانة؛ وقيل: إن ﴿يَخَافُوا﴾ معطوف على مقدّر بعد الجملة الأولى، والتقدير: ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ويخافوا عذاب الآخرة بسبب الكذب والخيانة أو يخافوا الافتضاح بردّ اليمين، فأيّ الخوفين وقع حصل المقصود.

٢١. ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ في مخالفة أحكامه ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن طاعته بأيّ ذنب، ومنه الكذب في اليمين أو الشهادة.

٢٢. وحاصل ما تضمّنه هذا المقام من الكتاب العزيز أن من حضرته علامات الموت أشهد على وصيته عدلين من عدول المسلمين، فإن لم يجد شهودا مسلمين، وكان في سفر، ووجد كفارا جاز له أن يشهد رجلين منهم على وصيته، فإن ارتاب بهما ورثة الموصي حلفا بالله على أنهما شهدا بالحق وما كتما من الشهادة شيئا ولا خانا مما تركه الميت شيئا، فإن تبين بعد ذلك خلاف ما أقسما عليه من خلل في الشهادة أو ظهور شيء من تركة الميت زعما أنه قد صار في ملكهما بوجه من الوجوه حلف رجلان من الورثة وعمل بذلك.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفَيِّش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُم﴾ أي: عليكم شهادة بينكم، أو فيما أمرتكم به شهادة بينكم، أو فرضت شهادة بينكم، فـ (اثْنَانِ) بعدُ في تقدير: (يشهد اثنان)، أو (ليشهد اثنان) بلام الأمر، أو هو فاعل (شَهَادَةُ)، أو شهادة بينكم اثنان، أي: شهادة اثنين، أو أهل شهادة بينكم اثنان، وأضيفت الشهادة إلى البيْن باعتبار جريانها بينهم، أو باعتبار تعلُّقها بما يجري بينهم من الخصومات، والمراد بالشهادة: ظاهرُها، أو الإشهادُ، والمعنى على الأوَّل: إخبار أحد بِحَقٍّ على أحد، أو حضور وصيَّة المحتضر، وعلى الثاني: إشهاد المحتضر عدلين على ما يوصي به، أو إحضارهما للشهادة، وقيل: الشهادة بمعنى الشهود، كـ (رجلٌ عَدْلٌ)

٢. ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: حضره مَبْدَؤُهُ بحسب ما يظهر، فهو حضور حقوق، وإن أريد: الموتُ التامُّ فالمعنَى: إذا قاربه وظهرت أمارته، و(إِذَا) متعلِّق بـ (شَهَادَةُ) خارج عن الشرط والصدر [أي: الصدارة]

٣. ﴿حِينَ الوَصِيَّةِ﴾ بدلٌ من (إِذَا) كما أبدل ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنسَانُ﴾ من ﴿إِذَا دُكَّتِ الَارْضُ﴾ [الفجر: ٢١، ٢٣]، أو متعلِّق بـ (حَضَرَ) أو بـ (الْمَوْتُ)، وفي الإبدال تنبيهٌ على أن لا يتهاون بالوصيَّة إذ جعل زمانها زمان حضور الموت، والوصيَّة كالموت، لا تَتَخَلَّفُ عن ذلك الزمان، كما لا يتخلَّف الموت، والوصيَّة بمعنى الإيصاء.

٤. ﴿اثْنَانِ﴾ وصيَّان اثنان، أو شاهدان اثنان، وجه الأوَّل أنَّ الآية نزلت فيهما، ولقوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾، والشاهد لا يحلف، إِلَّا أنَّ الأصل أن لا يتعدَّد، ولكن عدّد تأكيدًا، وعليه تكون الشهادة بمعنى الحضور.

٥. ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُم﴾ من أقاربكم، أو منكم معشر المسلمين، كذا قيل، وفيه أنَّه لم يَجْرِ للمشركين ذكرٌ سوى مقابلته بعدُ بقوله: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾، و(مِنكُمْ) نعت ثان لـ (اِثْنَانِ)، أو حال.

٦. ﴿أَوَ اَخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُم﴾ من غير أقاربكم، فلا مدخل للمشركين في الشهادة للمسلم أو عليه، أو من غيركم معشرَ المسلمين وهم المشركون، وَمَعنَى عدالةِ المشركين تحرُّزُهم عن الكذب، كما تقبل شهادة

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/١٥٥.

قومنا، غلبونا أو غلبناهم على الصحيح إذا كانوا عدولاً في مذهبهم، ثمَّ نُسخت إجازة شهادة المشركين لَمَّا كثر المسلمون، وسواء أهل الكتاب وغيرهم، ولو نزلت في قصَّة أهل الكتاب، وإن وجدتم المسلمين فاستشهدوهم لا المشركين، قال شريح ٥ : وإنَّما جازت قبل النسخ في السفر، لأنَّه مظنَّة الحاجة إليها، كما قال: ﴿إِنَ اَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الَارْضِ﴾ أي: سافرتم، وقيل: لم تجز شهادة المشركين على المسلم أَوْ له قطُّ، فضلاً عن أن تنسخ، وقيل: جائزة عند السفر للضرورة بلا نسخ.

٧. وعن أبي موسى الأشعريِّ أنَّه حكم حين كان واليًا على الكوفة بمحضر من الصحابة بشهادة ذمِّيَّيْن بعد تحليفهما في وصيَّة مسلم في السفر، وبه قال أحمد، والأصل: (إن ضربتم ضربتم)، فحذف (ضرب) الأوَّل، وانفصل فاعله المُتَّصِل، وكذا كلَّما حذف العامل في المستتر أو المُتَّصِل وحده انفصل الضمير، وذلك قيدٌ لقوله: ﴿أَوَ اخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ والقيد الآخر: حضور الموت، أو قيد للمسألة كلِّها إرشاد للمصلحة، كما أنَّه يجوز أن يراد بـ (غَيْرِكُم) غير أقاربكم وهم مسلمون أجانب، وجملة (شَهَادَةُ بَيْنِكُم..) إلخ إخبار بأنَّ الأمر الشرعيَّ ما ذُكر، أو بمعنى الأمر.

٨. ﴿فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ قاربتم الموت، ويجوز أن يكون (إِنَ انتُمْ ضَرَبْتُمْ) كلامًا غير قيد لِمَا قبله، وأنَّ المعنى: إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت فأوصيتم إلى اثنين عدلين في ظنِّكم، وجمعتم إليهم معكم من المال ثمَّ مِتُّم وذهب الاثنان إلى ورثتكم بالتركة فارتَابُوا في أمرهما وادَّعوا عليهم خيانة، فالحكم أن تحسبوهما من بعد الصلاة استيثاقًا منهما.

٩. ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ توقفونهما عن الذهاب حيث شاءا، نعت لـ (آخَرَانِ)، أو جواب سؤال يفرض، كأنَّه قيل: كيف نعمل بالشاهدَيْنِ إن ارتبنا؟ فقال: (تَحْبِسُونَهُمَا)

١٠. ﴿مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ صلاة العصر المعهودة للتحليف عندهم، لأنَّه وقت اجتماع الناس وتصادم ملائكة الليل وملائكة النهار، ولتكثر الشهود، ولأنَّ جميع الملل يعظِّمون هذا الوقت ويجتنبون فيه الحلف الكاذب، وقال الحسن: صلاة الظهر أو العصر، لأنَّ أهل الحجاز يقعدون للحكم بعدهما، وقيل: أيِّ صلاة، لأنَّ الصلاة داعية إلى الصدق ومجانبة الفحشاء والمنكر، وقيل: من بعد صلاتهما على أنَّهما مسلمان.

١١. ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾ يحلفان ﴿بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ ارتاب الوارث، والمراد الجنس الصادق بالواحد

فصاعدًا، أو خاطب المسلمين عمومًا، لأنَّ الورثة منهم، ويجري الحكم على أيديهم، أو إن ارتبتم معشر الورثة الواحد فصاعدًا، والارتياب يتصوَّر بالخيانة من الشاهدين، أو بأخذهما شيئًا من التركة، وجواب (إِن) أغنى عنه (تَحْبِسُونَهُمَا) و(يُقْسِمَانِ بِالله)

١٢. وجواب (يُقْسِمَانِ) هو قوله: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾، وإن لم ترتابوا فلا حلف، وهاء (بِهِ) قيل عائدة إلى الله، أي: لا نشتري بيمين الله، وقيل: إلى الإقسام، أي: الحلف المعلوم من قوله: ﴿يُقْسِمَانِ﴾، وقال الفارسيُّ: إلى تحريف الشهادة، وهو أقوى من حيث المعنى، لأنَّه أليق بإجابة القسم؛ لأنَّ المقام للحلف على ما بأيديهما، والصدق فيما قالا في شأنه، وقيل: إلى الشهادة.

١٣. والتذكيرُ في هاء (بِهِ) لأنَّ فيها معنى القول، وأمَّا إذا عادت إلى الله أو إلى الإقسام فلا تكفي جملة (لَا نَشْتَرِي) جوابًا بل يُقَدَّرُ الجواب، وتكون الجملة مفعولاً به لقولٍ مُقَدَّر هكذا: (فيقسمان بالله إن ارتبتم إنَّا لصادقان فيما قلنا في شأن المال)، أو (في أمر الوصيَّة ما خنتُ في المال الذي بيدي) ويقولان: (لا نشتري)، أو قائلين: (لا نشتري) وحاصل ذلك أنَّ الجملة مستتبعة لجواب القسم لا نفس الجواب، كما عهد الحالف أن يزيد على قسمه ما يؤكِّد به جوابه.

١٤. والثمن: العَرَضُ المأخوذ على التحريف من المال على سبيل الفرض والتقدير، والشراء على ظاهره، ويجوز أن يكون بمعنى البيع، فيكون الثمن المثمن، وهو التحريف، وضمير (كَانَ) عائد إلى المقسم له المعلوم مِن (يُقْسِمَانِ)، أو المشهود له المعلوم من لفظ: (شَهَادَةُ)، والأوَّل أولى لقربه، الثاني أولى لكونه مبنيَّ الكلام، والقربى: قرابة النسب، أي: ولو كان قريبًا مناسبًا.

١٥. ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ﴾ عطف على (لَا نَشْتَرِي)، والمراد: الشهادة التي أمرنا الله بأدائها، ولأمره بها أضيفت إليه، ﴿إِنَّآ إِذًا﴾ إذ كتمناها لو كتمناها ﴿لَمِنَ الْاثِمِينَ﴾

١٦. ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ اطُّلِعَ، يستعمل في الاطِّلَاع على ما يخفى، مأخوذ من عَثَرَ إذا كَبَا؛ لأنَّ العاثر ينظر إلى موضع عثاره فيعرفه، وذلك مجاز بحسب الأصل، ثمَّ صار حقيقة عرفيَّة عَامَّة، وذلك إذا قلنا مصدرهما واحد، ﴿عَلَىٰ أَنَّهُمَا اَسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ أي: على استحقاقهما إثما، وذلك نائب فاعل (عُثِرَ)، وقيل: مصدره العثور؛ ومصدرُ (عَثَرَ) بمعنى سقط أو كاد يسقط: العَثْرةُ والعثارُ، فلا مجاز لأنَّ معنى الاطِّلَاع من مصدرٍ، ومعنى السقوط من وزن مصدرٍ آخر.

١٧. واستحقاق الإثم: فِعْلُ ما يثبته، كتحريفٍ وخيانة وكذب في الشهادة، بأن وجد عندهما ما اتُّهما به، وادَّعيا أنَّهما اشترياه من الميِّت، أو أعطاهما إيَّاه أو أوصى لهما به، أو وُجِد عند شخص آخر باعه له به، أو أعطاه إيَّاه أو نحو ذلك، وقدَّر بعضٌ: (عُقُوبَةَ الإِثْمِ)، والهاء للشاهدين الحالفين، أو الوصيَّين، على ما مَرَّ أنَّ الاثنين المذكورين في الآية شاهدان أو وصيَّان.

١٨. ﴿فَئَاخَرَانِ﴾ فالواجب شاهدان آخران، أو فعليكم شاهدان آخران أو مبتدأٌ خبره قوله: ﴿يَقُومَانِ﴾، أو هذا نعته والخبرُ (الاَوْلَيَانِ)، أو (مِنَ الذِينَ)، ولا يحتاج لمسوِّغ، لأنَّه وصفٌ لمحذوف، وما لم يجعل خبرَه فهو نعته أو حاله، إلَّا (الاَوْلَيَانِ) فلا يصحُّ حالاً، لأنَّه مرفوع، وصحَّ نعت نكرة به، لأنَّ (ال) فيه للجنس، وإذا جُعل هو الخبرَ ففيه الإخبار بالمعرفة عن النكرة، وهو مرجوح، وَلَكِنَّهَا هنا كالنكرة؛ لأنَّ (ال) فيه للجنس، وإذا جُعل نعتًا و(يَقُومَانِ) خبرًا ففيه الفصل بين المبتدأ ونعته بالخبر، وكذا إذا جُعل (مِنَ الَّذِينَ) نعتا و(يَقُومَانِ) خبرا وهو مرجوح، فالأَوْلى في (مِنَ الَّذِينَ) جَعْلُهُ حالاً من ألف (يَقُومَانِ)، لَكِنَّ فاء الجزاء أجازت كون الخبر أجنبيًّا من الموصوف بناء على أنَّها جَعلت مضمون الجملة الجزائيَّة لازما للعثور على خيانتهما، والمعنى: (فإن عثر على أنَّ الاثنين منكم أو من غيركم استحقَّا إثمًا بخيانتهما فآخران من أولياء الميِّت يقومان)

١٩. ﴿مَقَامَهُمَا﴾ في توجُّه اليمين عليهما، ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتُحِقَّ عَلَيْهِم﴾ من الورثة الذين استحقَّ عليهم، أي: جُنِي عليهم، فإنَّ الشاهدين أو الوصيَّين لَمَّا جنيا واستحقَّا إثمًا بسبب جنايتهما على الورثة كانت الورثة مجنيًّا عليهم، متضرِّرين بجنايتهما، واستحقاق الإثم كناية عن هذا المعنى، لأنَّ معنى (استحقَّ الشيءَ): لَاقَ به أن ينسب إليه، فالجاني لَاقَ أن يُنسب إليه الإثمُ، واستحقاق الإثمِ: ارتكابه، و(عَلَيْهِم) نائب الفاعل، أو استُحِقَّ الإيصاءُ عليهم، أي: لهم، أي: لأجلهم، بردِّ التركة إليهم وهم الورثة، أو استحقَّ الإثم عند الجمهور، أو الضمير للإيصاء، وقيل: للمال، وقيل: للوصية، وعليه فالتذكير بتأويل ما ذكر.

٢٠. ﴿الاَوْلَيَانَ﴾ الأقربان إلى الميِّت نسبًا الوارثان له، وأيضا هما أحقُّ بالشهادة لقربهما ومعرفتهما، والمفرد: (أَوْلَى)، أي: أقرب، قُلبت الألف ياء، وَتَقَدَّمَ إعرابه، ويجوز جعله خبرًا لمحذوف، أي: هما الأوليان، أو خبرًا آخرَ لـ (آخَرَانِ)، أو مبتدأً خبره: (آخَرَانِ)، أو بدلاً من أَلِف (يَقُومَانِ)

٢١. ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ﴾ على خيانة الشاهدين أو الوصيَّين، ويقولان في حلفهما: ﴿لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن

شَهَادَتِهِمَا﴾ (والله لشهادتنا..) إلخ، فَـ (يُقْسِمَانِ) في الآية قائم مقام (وَاللهِ)، فكان قوله تعالى: ﴿لَشَهَادَتُنَا﴾ إلخ جوابًا لقوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾، والشهادة في الموضعين بمعنى اليمين عند ابن عبَّاس والجمهور، كقوله تعالى: ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعَ شَهَادَات﴾ إلخ [النور: ٦]، واليمين كالشهادة على ما يحلف عليه أنَّه كذلك، أو عَلَى ظاهرها، إلَّا أنَّها تقرن باليمين، كما أنَّ اليمين يقرن بها.

٢٢. ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَآ﴾ ما جاوزنا الحقَّ باليمين بل صَدَقْنا فيها، ﴿إِنَّآ إِذًا﴾ إذا اعتدينا ﴿لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لصاحب الحقِّ ولأنفسنا بوضع الباطل موضع الحقِّ.

٢٣. ومعنى الآيتين: أنَّه يُشهِد المحتضرُ على وصيَّته اثنين، أو يوصي إليهما بدفع تركته إلى ورثته، وهما مسلمان أو كافران إن فقد المسلمين لسفر أو نحوه، والأَوْلى أن يكونا مسلمين من قرابته، وإن لم يجد مِن قرابته فَمِن غيرهم، والإيصاء إلى الاثنين احتياط، فإن رَابَهما الورثة بالخيانة بأحد أوجهها السابقة، حَلَفَا على صدق ما قالا بالتغليظ في الوقت، وإن اطَّلَعَ الورثة بأمارة فادَّعيا الإعطاء لهما أو لمن انتقل منهما إليه، حلف اثنان من الورثة على صدق ما قالا وعلى كذب مَا قال الشاهدان أو الوصيَّان.

٢٤. والحكم منسوخ إن كان الاثنان في الآية الشاهدين، والحكم اليمين والشاهد لا يحلف ولا يعارض يمينه بيمين الورثة، وإن كان الاثنان الوصيَّين فالحكم منسوخ أيضًا، وهو حلف المدَّعي إذا عجز عن البيِّنة، رضي المنكر بحلفه أو لم يرض، وإنَّما الثابت حلفه برضا المنكر، وقيل أيضًا: لا يجوز، وعن عليٍّ أنَّه كان يحلِّف الشاهدَ والراويَ إذا اتَّهمهما، وفي بعض كتب الحنفيَّة أنَّ الشاهد إن لم يجد من يزكِّيه يجوز تحليفه احتياطًا، وروي أنَّ المائدة لا منسوخ فيها.

٢٥. روي أنَّ رجلاً من بني سهم خرج مع تميم الداري وعديِّ بن بداء - وروي ابن نداء بالنون - وهما نصرانيَّان، فمات السهميُّ بأرض ليس فيها مسلم، ولمَّا قدما بتركته فَقَدَ الورثةُ جامًا من فضَّة مخوَّصًا بالذهب، فرفعا إليه ﷺ فنزلت، فحلَّفهما ثمَّ وُجد الجام بِمَكَّةَ، فقال المكِّيُّ: ابتعناه من تميم وعديٍّ، فنزلت الآية الثانية: ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ إلخ، فقام رجلان من أولياء الميِّت السهميِّ فحلَّفاه؛ وفي رواية الترمذيِّ: فقام عمرو بن العاصي ورجل آخر منهم، أي: وهو المطَّلب بن أبي وداعة وكانا أقرب إليه؛ وفي رواية: فمرض فأوصى إليهما وأمرهما أن يبلِّغا ما ترك إلى أهله، ولمَّا مات أخذا الجام ودفعا إلى أهله ما بقي، ورَدُّ اليمين إلى الورثة إمَّا لظهور خيانة الوصيَّين وتصديق الوصيَّين لأمانته، وإمَّا لتغيُّر الدعوى بأن صار الوصيَّان مدَّعيين

للملك، والورثة منكرين، فليس ذلك من ردِّ اليمين، وأسلم تميم الداري وعديٌّ بن بداء بعد ذلك.

٢٦. وروي أنَّ تميمًا وعديًّا المذكورين خرجا في تجرٍ وهما نصرانيَّان ومعهما بديل مولى عمرو بن العاصي مسلمًا إلى الشام، ومرض بديل فيه فدوَّن ما معه في صحيفة وطرحها في متاعه ولم يخبرهما بها، وأوصى إليهما أن يدفعا متاعه إلى أهله، ومات ففتَّشاه وأخذا منه إناء من فضَّة فيه ثلاثمائة مثقال منقوشًا بالذهب، فغيَّباه فوجد أهلُه الصحيفة فطلبوهما بالإناء فَجَحَدا، فترافعوا إلى رسول الله ﷺ ، ونزلت: ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ إلخ فقام عمرو بن العاصي والمطَّلب بن أبي وداعة السهميَّان، وحلفا أنَّ الجام للميِّت.

٢٧. ولا يخفى أنَّ الوصيَّ الواحد يكفي شأن الميِّت إجماعًا، وإنَّما عدَّد الوصيَّين في الآية على أنَّهما المراد بالاثنين لهذه الواقعة الحالية المتعدِّدين هما فيها، والسهميُّ: بُدَيْلُ بن أبي مارية ـ بدال مهملة ـ وهو تميميٌّ وليس بديل بن ورقاء، لأنَّ هذا خزاعيٌّ، ويروى بزايٍ بدل الدال وكلاهما مصغَّر، وعديُّ بن بَدَّاء ـ بالفتح والشدِّ والمدِّ والصرف ـ قال الذهبيُّ: لم يبلغنا إسلامه، وروي أنَّهما جحدا أشياء من متاع السهميِّ المكتوب منها الجام، وروي أنَّ بُدَيْلاً أراد بذلك الجام ملك الشام.

٢٨. وروي أنَّ أهله وجدوا الصحيفة فقالوا لهما: هل باع صاحبنا شيئًا؟ قالا: لا، قالوا فهل اتَّجر تجارة؟ قالا: لا، قالوا: فهل طال مرضه فأنفق على نفسه؟ قالا: لا، قالوا: فإنَّا وجدنا في متاعه صحيفة فيها تسمية ما معه، وإنَّا فقدنا منها إناء من فضَّة مموَّها بالذهب وزنه ثلاثمائة مثقال من فضَّة، قالا: ما ندري إنَّما أوصى لنا بشيء وأَمَرَنا أن ندفعه لكم فدفعناه وما لنا علم بالإناء، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ ، وأنكرا وحلفا، ونزلت الآية الأولى، وصلَّى رسول الله ﷺ صلاة العصر ودعاهما وحلَّفهما عند المنبر: بالله الذي لا إله إلَّا هو أنَّهما لم يختانا شيئًا ممَّا دفع إليهما.. إلخ ما مَرَّ.

٢٩. ﴿ذَالِكَ﴾ الحكم المذكور من ردِّ اليمين على الورثة، والتحليف والحبس بعد الصلاة، وسائر ما ذكر من الأحكام بتفاصيلها في هذه القصَّة، ﴿أَدْنَى أَنْ يَّاتُواْ﴾ إلى أن يأتوا ﴿بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ بنفسها بلا تغيير، خوفًا من عذاب الآخرة ﴿أَوْ يَخَافُواْ﴾ أو أدنى إلى أن يخافوا ﴿أَن تُرَدَّ﴾ مفعول (يَخَاف)، أو يراد: يخافوا من أن تردَّ ﴿أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ كما ردَّت إلى الورثة في القِصَّة، فيؤخذ الحقُّ لهم فيفتضح الشهود بظهور الخيانة واليمين الكاذبة.

٣٠. والعطف على محذوف هكذا: (ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة محقَّقةً ويخافوا عذاب الآخرة

بالكذب، أو يخافوا أن تردَّ الأيمان إلى الورثة فيحلفوا، فيأخذوا ما بأيديهم فيخجلوا على رؤوس الأشهاد)، و(أَوْ) لأحد الشيئين، إمَّا أداء الشهادة صدقًا، أو الامتناع عن أدائها كذبًا، وربَّما لا يحلفون كاذبين إن خانوا، وهذا أولى من كون (أو) بمعنى الواو أو بل، ولم يقل: أن يأتيا أو يخافا وأيمانهما، لأنَّ المراد عموم القصَّة فيشمل كلَّ الشهود.

٣١. ﴿وَاتَّقُواْ اللهَ﴾ حذف المتعلّق للعموم، بحيث يذهب فهم السامع إلى ترك كلِّ ما نهي عنه، ومنه الخيانة والكذب، والعطف على محذوف، أي: اِحفظوا أحكام الله واتَّقوا، ﴿وَاسْمعُواْ﴾ امتثلوا وانتهوا، أو الاتِّقاء في المعاصي، والسمع في الطَّاعة.

٣٢. ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَومَ الْفَاسِقِينَ﴾ لا يهدي إلى الخير أو الجنَّة أو الحجَّةِ المصرِّين على الفسق، وهو الخروج عن الطَّاعة، فإن لم تسمعوا وتتَّقوا كنتم فاسقين، والفاسقون لا حجَّة لهم ولا يمشون بعد بعثهم في أرض توصلهم إلى الجنَّة، وأمَّا الهداية بمعنى البيان، فلا بدَّ في حكمة الله منها، خلافًا للأشعريَّة، وليس من الحكمة إهمال العاقل ولا قطع العذر بلا بيان.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: ظهرت أماراته ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ بدل من الظرف، لا ظرف (للموت) ولا لحضوره، فإن في الإبدال تنبيها على أن الوصية من المهمات التي لا ينبغي التهاون بها، وقوله تعالى: ﴿اثْنَانِ﴾ خبر ﴿شَهَادَةً﴾ بتقدير مضاف، أي شهادة بينكم حينئذ، شهادة اثنين، أو فاعل (شهادة) على أن خبرها محذوف، أي: فيما نزل عليكم، أن يشهد بينكم اثنان ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ أي من المسلمين: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي من أهل الذمة.

٢. ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي سافرتم فيها ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا﴾ أي: توقفونهما للتحليف ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ أي صلاة العصر، كما قاله ابن عباس وثلّة من التابعين، وعدم تعيينها، لتعيينها عندهم بالتحليف بعدها، لأنه وقت اجتماع الناس ووقت تصادم ملائكة الليل وملائكة

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/٢٨١.

النهار، واجتماع طائفتي الملائكة، فيه تكثير للشهود منهم على صدقه وكذبه، فيكون أقوى من غيره وأخوف، وعن الزهريّ: بعد أيّ صلاة للمسلمين كانت، وذلك لأن الصلاة داعية إلى النطق بالصدق، وناهية عن الكذب والزور، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فالتعريف في ﴿الصَّلَاةَ﴾ إما للعهد أو للجنس.

٣. ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾ أي: يحلفان ﴿بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أي: شككتم فيهما بخيانة وأخذ شيء من تركة الميت، وقوله تعالى: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ جواب للقسم، أي يقولان: لا نأخذ لأنفسنا بدلا من الله، أي: من حرمته عرضا من الدنيا بأن نهتكها ونزيلها بالحلف الكاذب، أي لا نحلف بالله كاذبين لأجل المال ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ أي: من نقسم له ونشهد عليه، المدلول عليه بفحوى الكلام ﴿ذَا قُرْبَى﴾ أي: قريبا منا، تأكيد لتبرئهم من الحلف كاذبا، ومبالغة في التنزه عنه، كأنهما قالا: لا نأخذ لأنفسنا بدلا من حرمة اسمه تعالى مالا، ولو انضم إليه رعاية جانب الأقرباء، فكيف إذا لم يكن كذلك؟ ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ﴾ أي: الشهادة التي أمرنا الله تعالى بإقامتها، وإضافتها إلى الاسم الكريم تشريفا لها وتعظيما لأمرها ﴿إِنَّا إِذًا﴾ إن كتمناها ﴿لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ أي: المعدودين من المستقرين في الإثم.

٤. ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ أي اطلع بعد التحليف ﴿عَلَى أَنَّهُمَا﴾ أي: الشاهدين الوصيين ﴿اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ أي: فعلا ما يوجبه من خيانة أو غلول شيء من المال الموصى به إليهما ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ أي: فرجلان آخران يقومان مقام اللذين عثر على خيانتهما أي: في توجه اليمين عليهما لإظهار الحق وإبراز كذبهما فيما ادعيا من استحقاقهما لما في أيديهما.

٥. ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ أي: من ورثة الميت الذين استحق من بينهم الأوليان، أي: الأقربان إلى الميت، الوارثان له، الأحقّان بالشهادة، أي: اليمين، فـ (الأوليان) فاعل (استحقّ)، ومفعول (استحقّ) محذوف، قدّره بعضهم (وصيتهما) وقدره ابن عطية (مالهم وتركتهم)، وقدره الزمخشري أن يجردوهما للقيام بالشهادة لأنها حقهما ويظهروا بهما كذب الكاذبين، وقرئ على البناء للمفعول أي: من الذين استحق عليهم الإثم، أي: جنى عليهم، وهم هل الميت وعشيرته، فـ (الأوليان) مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، كأنه قيل: ومن هما؟ فقيل: الأوليان، أو هو بدل من الضمير في (يقومان) أو من (آخران) وقد جوز ارتفاعه (استحقّ) على حذف المضاف، أي: استحق عليهم ندب الأوليين منهم

للشهادة، وقرئ الأوّلين جمع (أوّل) على أنه صفة للذين، مجرور أو منصوب على المدح، ومعنى الأوّلية التقدم على الأجانب في الشهادة لكونهم أحق بها، وقرئ الأوليين، علي التثنية، وانتصابه على المدح، أفاده أبو السعود، وقرئ الأوّلين تثنية (أول) نصبا على ما ذكر، كما في البيضاويّ، قال أبو البقاء: ويقرأ الأوليين وهو جمع (أولى) وإعرابه كاعراب الأوّلين، ويقرأ الأولان، تثنية (الأول) وإعرابه كإعراب (الأوليان) ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ﴾ عطف على (يقومان) ﴿لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ﴾ أي: بالقبول ﴿مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ أي: لقولنا: إنهما خانا وكذبا فيما ادعيا من الاستحقاق، أحق من شهادتهما المتقدمة، لما أنه قد ظهر للناس استحقاقهما للإثم ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ أي: ما تجاوزنا الحق فيها أو فيما قلنا فيهما من الخيانة ﴿إِنَّا إِذًا﴾ أي: إن اعتدينا ﴿لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي أنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى وعذابه، بسبب هتك حرمة اسم الله تعالى، أو من الواضعين الحق في غير موضعه.

٦. ومعنى الآية الكريمة أن الرجل إذا حضرته الوفاة في سفر، فليشهد رجلين من المسلمين، فإن لم يجدهما، فرجلين من أهل الكتاب، يوصي إليهما ويدفع إليهما ميراثه، فإذا قدما بتركته، فإن صدّقهما الورثة وعرفوا ما لصاحبهم قبل قولهما وتركا، وإن اتهموهما، رفعوهما إلى السلطان فحلفا بعد صلاة العصر بالله، ما كتمنا ولا كذبنا ولا خنّا ولا غيرنا، فإن اطلع الأوليان على أن الكافرين كذبا في شهادتهما، قام رجلان من الأولياء، فحلفا بالله؛ أن شهادة الكافرين باطلة، وأنا لم نعتد، فترد شهادة الكافرين وتجوز شهادة الأولياء، هكذا روى ابن جرير عن ابن عباس وابن جبير وغيرهما.

٧. قال ابن كثير: وهذا التحليف للورثة والرجوع إلى قولهما، والحالة هذه، كما يحلف أولياء المقتول، إذا ظهر لوث في جانب القاتل، فيقسم المستحقون على القاتل، فيدفع برمته إليهم، كما هو مقرر في (باب القسامة)، وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة، روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس عن تميم الداريّ في هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾.. إلى آخرها قال برئ الناس منها غيري وغير عديّ بن بداء، وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام، فأتيا الشام لتجارتهما، وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له بديل (بدال أو زاي مصغرا، وضبطه بالثانية: ابن ماكولا) ابن أبي مريم بتجارة، معه جام من فضة يريد به الملك، وهو أعظم تجارته، فمرض فأوصى إليهما، وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله، قال تميم: فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم، واقتسمناه أنا وعديّ، فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم

ما كان معنا، وفقدوا الجام فسألونا عنه، فقلنا: ما ترك غير هذا، وما دفع إلينا غيره، قال تميم: فلما أسلمت، بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة تأثمت من ذلك، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر، ودفعت إليهم خمسمائة درهم، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها، فوثبوا عليه، فأمرهم النبيّ ﷺ أن يستحلفوه بما يحكم به على أهل دينه، فحلف فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾، فقام عمرو بن العاص ورجل آخر منهم فحلفا، فنزعت الخمسمائة من عديّ بن بداء.

٨. وهكذا رواه الترمذيّ وابن جرير عن محمد بن إسحاق به، فذكره، وعنده: فأتوا به رسول الله ﷺ فسألهم البيّنة فلم يجدوا، فأمرهم أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه فحلف، فأنزل الله هذه الآية، فقام عمرو بن العاص ورجل آخر فحلفا، فنزعت الخمسمائة من عديّ بن بداء، ثم تكلم الترمذيّ على إسناده، وأسند بعد ذلك هذه القصة مختصرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال خرج رجل من بني سهم مع تميم الداريّ وعديّ بن بداء، فمات السهميّ بأرض ليس بها مسلم، فلما قدما بتركته فقدوا جاما من فضة مخوّصا بذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ، ثمّ وجد الجام بمكة، فقيل: اشتريناه من تميم وعديّ، فقام رجلان من أولياء السهميّ فحلفا بالله لشهادتنا أحقّ من شهادتهما، وأنّ الجام لصاحبهم، وفيهم نزلت هذه الآية، وكذا رواه أبو داوود ثم قال الترمذيّ: حديث حسن غريب! وأقول: أخرجه البخاريّ أيضا في كتاب (الوصايا) تحت باب عقده لهذه الآية بخصوصها، و(الجام) الإناء، وتخويصه أن يجعل عليه صفائح من ذهب كخوص النخل.

٩. قال ابن كثير: وقد ذكر هذه القصة مرسلة غير واحد من التابعين، منهم عكرمة ومحمد بن سيرين وقتادة، وذكروا أن التحليف كان بعد صلاة العصر، رواه ابن جرير، وكذا ذكرها مرسلة مجاهد والحسن والضحاك، وهذا يدلّ على اشتهارها في السلف وصحتها، ومن الشواهد لصحة هذه القصة ما رواه ابن جرير بإسنادين صحيحين، وأبو داوود بإسناد ـ رجاله ثقات ـ عن الشعبيّ: أن رجلا من المسلمين حضرته الصلاة بدقوقاء، قال فحضرته الوفاة ـ ولم يجد أحدا من المصلين يشهده على وصيّته ـ فأشهده رجلين من أهل الكتاب، قال فقدما الكوفة فأتيا أبا موسى الأشعريّ رضي الله عنه فأخبراه، وقدما الكوفة بتركته ووصيته، فقال الأشعريّ: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ، قال فأحلفهما بعد العصر بالله ما خانا ولا كذبا ولا بدّلا ولا كتما ولا غيرا، وإنّها لوصية الرجل وتركته، قال فأمضى شهادتهما،

وقوله: (هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ) الظاهر ـ والله أعلم ـ أنه إنما أراد بذلك قصة تميم وعديّ بن بداء.

١٠. ثم بيّن وجه الحكمة والمصلحة المتقدم تفصيله بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الحكم المذكور ﴿أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾ أي: أقرب إلى أن يؤدي الشهود ـ أو الأوصياء ـ الشهادة في نحو تلك الحادثة على حقيقتها من غير تغيير لها، خوفا من العذاب الأخرويّ، فـ (الوجه) بمعنى الذات والحقيقة.

١١. قال أبو السعود: وهذه ـ كما ترى ـ حكمة شرعية التحليف بالتغليظ المذكور! وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ بيان لحكمة شرعية ردّ اليمين على الورثة، معطوف على مقدر ينبئ عنه المقام؛ كأنه قيل: ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها، ويخافوا عذاب الآخرة بسبب اليمين الكاذبة، أو يخافوا أن ترد اليمين على المدعين بعد أيمانهم، فيفتضحوا بظهور الخيانة واليمين الكاذبة، ويغرموا فيمتنعوا من ذلك، ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ أي: في مخالفة أحكامه التي منها هذا الحكم، وهو ترك الخيانة والكذب ﴿وَاسْمَعُوا﴾ أي: ما تؤمرون به سماع قبول ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته، أي إلى طريق الجنة أو إلى ما فيه نفعهم.

١٢. وقد استفيد من الآية أحكام:

أ. الأول: لزوم الوصية حال الخوف من الموت وحضور قرائنه، لأنه تعالى قال: ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ أي: وقت أن تحق الوصية وتلزم.

ب. الثاني: قال بعضهم: دلّ قوله تعالى: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ على أن الحكم شرطه أن يشهد فيه اثنان عدلان، وهذا إطلاق لم يفصل فيه بين حقّ الله وحق غيره، ولا بين الحدود وغيرها، إلّا شهادة الزنى، فلقوله تعالى في النور: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ [النور: ٤]، وهذا مجمع عليه.

١٣. قال ابن القيّم في (أعلام الموقّعين): إنه سبحانه ذكر ما يحفظ به الحقوق من الشهود ولم يذكر أن الحكام لا يحكمون إلّا بذلك، فليس في القرآن نفي الحكم بشاهد ويمين، ولا بالنكول، ولا باليمين المردودة، ولا بأيمان القسامة، ولا بأيمان اللعان وغير ذلك مما يبين الحق ويظهره ويدل عليه، والشارع ـ في جميع المواضع ـ يقصد ظهور الحقّ بما يمكن ظهوره به من البينات التي هي أدلة عليه وشواهد له، ولا يردّ حقّا قد ظهر بدليله أبدا، فيضيع حقوق الله وحقوق عباده ويعطلها، ولا يقف ظهور الحق على أمر معين

لا فائدة في تخصيصه به مع مساواة غير في ظهور الحق أو رجحانه عليه ترجيحا لا يمكن جحده ودفعه، وقد أطال في ذلك بما لا يستغنى عن مراجعته.

١٤. في قوله تعالى: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ دلالة على صحة شهادة الذميّ على المسلم عموما، لكن خرج جوازها فيما عدا وصية المسلم في السفر بالإجماع، قال بعض المفسّرين: ذهب الأكثر إلى أن شهادة الذميين قد نسخت، وعن الحسن وابن أبي ليلى والأوزاعيّ وشريح والراضي بالله وجدّه الإمام عبد الله بن الحسين: أنها صحيحة ثابتة، وكذا ذهب الأكثر إلى أن تحليف الشهود منسوخ، وقال طاووس والحسن والهادي: إنه ثابت، أقول: لم يأت من ادعى النسخ بحجة تصلح لذكرها وتستدعي التعرّض لدفعها.

١٥. قال ابن القيّم في (أعلام الموقّعين): أمر تعالى في الشهادة على الوصية في السفر باستشهاد عدلين من المسلمين أو آخرين من غيرهم، وغير المؤمنين هم الكفار، والآية صريحة في قبول شهادة الكافرين على وصية في السفر عند عدم الشاهدين المسلمين، وقد حكم به النبيّ ﷺ والصحابة بعده، ولم يجئ بعدها ما ينسخها، فإنّ (المائدة) من آخر القرآن نزولا وليس فيها منسوخ، وليس لهذه الآية معارض البتة، ولا يصح أن يكون المراد بقوله: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من غير قبيلتكم؛ فإن الله سبحانه خاطب بها المؤمنين كافة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية، ولم يخاطب بذلك قبيلة معينة حتى يكون قوله: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أيتها القبيلة، والنبيّ ﷺ لم يفهم هذا من الآية، بل إنما فهم منها ما هي صريحة فيه، وكذلك أصحابه من بعده.

١٦. وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح): واستدلّ بالآية على جواز شهادة الكفار بناء على المراد بال (غير) الكفار، وخصّ جماعة القبول بأهل الكتاب وبالوصية وبفقد المسلم حينئذ، منهم: ابن عباس وأبو موسى الأشعريّ، وسعيد بن المسيّب، وابن سيرين، والأوزاعيّ، والثوريّ، وأبو عبيد، وأحمد ـ وهؤلاء أخذوا بظاهر الآية ـ وقوّى ذلك حديث الباب ـ يعني حديث ابن عباس المتقدم ـ فإن سياقه مطابق لظاهر الآية، وقيل: المراد بال (غير) العشيرة، والمعنى (منكم) أي: من عشيرتكم ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي: من غير عشيرتكم، وهو في قول الحسن واحتجّ له النحاس بأن لفظ (آخر) لا بدّ أن يشارك الذي قبله في الصفة، حتى لا يسوغ أن تقول: مررت برجل كريم ولئيم آخر، فعلى هذا فقد وصف (الاثنان) بالعدالة،

فيتعيّن أن يكون (الآخران) كذلك، وتعقب بأن هذا ـ وإن ساغ في الآية الكريمة ـ لكن الحديث دلّ على خلاف ذلك، والصحابيّ إذا حكى سبب النزول كان ذلك في حكم الحديث المرفوع اتفاقا، وأيضا، ففي ما قال ردّ المختلف فيه بالمختلف فيه، لأن اتّصاف الكافر بالعدالة مختلف فيه، وهو فرع قبول شهادته، فمن قبلها وصفه بها، ومن لا، فلا، واعترض أبو حيّان على المثال الذي ذكره النحاس بأنه غير مطابق، فلو قلت: جاءني رجل مسلم وآخر كافر، صحّ، بخلاف ما لو قلت: جاءني رجل مسلم وكافر آخر، والآية من قبيل الأول لا الثاني، لأن قوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ﴾ من جنس قوله: (اثنان)، لأن كلاهما منهما صفة (رجلان)، فكأنه قال فرجلان اثنان ورجلان آخران، وذهب جماعة من الأئمة إلى أن هذه الآية منسوخة، وأن ناسخها قوله تعالى: ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ واحتجوا بالإجماع على ردّ شهادة الفاسق، والكافر شرّ من الفاسق، وأجاب الأولون: بأن النسخ لا يثبت بالاحتمال، وأن الجمع بين الدليلين أولى من إلغاء أحدهما، وبأن سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن، حتى صحّ عن ابن عباس وعائشة وعمرو بن شرحبيل وجمع من السلف، أن سورة المائدة محكمة، وعن ابن عباس؛ أن الآية نزلت فيمن مات مسافرا وليس عنده أحد من المسلمين، فإن اتّهما استحلفا، أخرجه الطبريّ بإسناد رجاله ثقات، وأنكر أحمد على من قال إن هذه الآية منسوخة، وصحّ عن أبي موسى الأشعريّ أن عمل بذلك بعد النبيّ ﷺ كما تقدّم، ورجّح الفخر الرازيّ ـ وسبقه الطبريّ ـ لذلك، أن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خطاب للمؤمنين، فلما قال: ﴿أَوْ آخَرَانِ﴾ وضح أنه أراد غير المخاطبين، فتعيّن أنهما من غير المؤمنين، وأيضا: فجواز استشهاد المسلم ليس مشروطا بالسفر، وأن أبا موسى حكم بذلك فلم ينكره أحد من الصحابة، فكان حجة.

١٧. وفي (فتح البيان): الحق أن الآية محكمة لعدم وجود دليل صحيح يدل على النسخ، وأما قوله تعالى: ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾، وقوله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ فهما عامّان في الأشخاص والأزمان والأحوال، وهذه الآية خاصة بحالة الضرب في الأرض وبالوصية وبحالة عدم الشهود المسلمين، ولا تعارض بين خاصّ وعامّ.

١٨. وقد أطنب الرازيّ في (تفسيره) في الاحتجاج على عدم نسخها بوجوه عديدة، وجوّد الكلام ـ في أن المراد من ﴿غَيْرِكُمْ﴾ أي: من غير ملّتكم ـ تجويدا فائقا.

١٩. قال الحافظ ابن حجر في (الفتح): ذهب الكرابيسيّ ثم الطبريّ وآخرون إلى أنّ المراد بالشهادة

في الآية اليمين، قال وقد سمى الله اليمين شهادة في آية اللعان، وأيدوا ذلك بالإجماع على أن الشاهد لا يلزمه أن يقول: أشهد بالله، وأنّ الشاهد لا يمين عليه أنه شهد بالحق، قالوا: فالمراد بالشهادة اليمين لقوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ﴾ أي: يحلفان، فإن عرف أنهما حلفا على الإثم رجعت اليمين على الأولياء، وتعقب بأن اليمين لا يشترط فيها عدد ولا عدالة، بخلاف الشهادة، وقد اشترطا في هذه القصة، فقوي حملها على أنها شهادة، وأما اعتلال من اعتل في ردّها بأنها تخالف القياس والأصول ـ لما فيها من قبول شهادة الكافر وحبس الشاهد وتحليفه وشهادة المدعي لنفسه واستحقاقه بمجرّد اليمين ـ فقد أجاب من قال به بأنه حكم بنفسه مستغن عن نظيره، وقد قبلت شهادة الكافر في بعض المواضع، كما في الطبّ، وليس المراد بالحبس السجن، وإنما المراد: الإمساك لليمين ليحلف بعد الصلاة، وأما تحليف الشاهد فهو مخصوص بهذه الصورة عند قيام الريبة، وأما شهادة المدعي لنفسه واستحقاقه بمجرّد اليمين، فإن الآية تضمّنت نقل الأيمان إليهم عند ظهور اللوث بخيانة الوصيّين، فيشرع لهما أن يحلفا ويستحقا، كما يشرع لمدعي الدم في القسامة أن يحلف ويستحق فليس هو من شهادة المدعي لنفسه، بل من باب الحكم له بيمينه القائمة مقام الشهادة لقوة جانبه، وأيّ فرق بين ظهور اللوث في صحة الدعوى بالدم، وظهوره في صحة الدعوى بالمال؟ وحكى الطبريّ: أنّ بعضهم قال المراد بقوله: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ الوصيان، قال والمراد بقوله: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ معنى الحضور لما يوصيهما به الموصي، ثم زيف ذلك.

٢٠. ولا يخفاك أنّ الآية بنفسها ـ مع ما ورد في نزولها ـ غنيّة عن تكلف إدخالها تحت القياس والقواعد والتمحّل لتأويلها.

٢١. في قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ دلالة على تغليظ اليمين، قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) وبعض المفسّرين: ذهب الجمهور إلى وجوب التغليظ بالزمان والمكان، فأما في الزمان فبعد العصر، وأما في المكان: ففي المدينة عند المنبر، وبمكة بين الركن والمقام، وفي بيت المقدس عند الصخرة، وبغيرهما بالمسجد الجامع، واتفقوا على أنّ ذلك في الدماء والمال الكثير، لا في القليل.

٢٢. وذهبت الزيدية والحنفية والحنابلة إلى أن اليمين لا تغلظ بزمان ولا بمكان، وأخذوا بعموم قوله ﷺ: البيّنة على المدّعى واليمين على من أنكر، ولم يفصل، قالوا: وقوله تعالى في هذه الآية ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ يحتمل أن ذكره لأنهم كانوا لا يعتادون الحكم إلّا في ذلك الوقت، قال بعض الزيدية: وهل

التغليظ في المكان والزمان على سبيل الوجوب أو الاستحباب؟ قال الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة: المختار، التغليظ في الأيمان لفساد أهل الزمان، وذلك مرويّ عن أمير المؤمنين المرتضى وأبي بكر وعمر وعثمان وابن عباس ومالك والشافعيّ، قال والمختار أنّه مستحبّ غير واجب.

٢٣. قال ابن أبي الفرس: في قوله تعالى: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ﴾ دليل على أن (أقسم بالله) يمين، لا (أقسم) فقط.

٢٤. في قوله تعالى: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ﴾ الآية دليل على تحريم كتمان الشهادة، وذلك لا إشكال فيه.

٢٥. قال السيوطيّ: تخصيص الحلف في الآية باثنين من أقرب الورثة (يعني على قراءة الأوليان) لخصوص الواقعة التي نزلت لها، ثم ساق رواية البخاريّ السابقة، أي: وللإشارة إلى الاكتفاء باثنين من أقرب الورثة أيضا وإن كان فيهم كثرة.

٢٦. قال مكيّ في كتابه المسمّى بـ (الكشف): هذه الآيات الثلاث ـ عند أهل المعاني ـ من أشكل ما في القرآن إعرابا ومعنى وحكما وتفسيرا، ولم يزل العلماء يستشكلونها ويكفّون عنها، قال ويحتمل أن يبسط ما فيها من العلوم في ثلاثين ورقة أو أكثر، وقد ذكرناها مشروحة في كتاب مفرد، قال ابن عطيّة: هذا كلام من لم يقع له النتاج في تفسيرها، وذلك بيّن من كتابه ـ يعني من كتاب مكيّ ـ، قال القرطبيّ: ما ذكره مكيّ، ذكره أبو جعفر النحاس قبله أيضا، قال السعد في (حاشيته على الكشاف): واتفقوا على أنها أصعب ما في القرآن إعرابا ونظما وحكما.

٢٧. هذه الآية الكريمة غنيّة بنفسها ـ مع ما ورد في سبب نزولها، وما قاله حبر الأمة وترجمان القرآن في معناها ـ عن التشكيك فيها، والتكلّف لإدخالها تحت القواعد، والتمحّل لتأويلها، فخذ ما نقلناه من محاسن تأويلها وكن من الشاكرين.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

---

(١) تفسير المنار: ١٨٣/٧.

١ . هذا ما ورد في سبب نزول[1] هذه الآيات وتفسير بعضها من قوي وضعيف وأما وجه اتصالها بما قبلها مباشرة فقد قال الرازي فيه: إنه تعالى لما أمر بحفظ النفس في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أمر بحفظ المال في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾) وهذا قول غير ظاهر بل لا يصح على المعنى المعروف عند العلماء لحفظ النفس والمال إلا أن يحمل الكلام على لازم معناه، وأظهر منه أن يقال إنه تعالى لما ذكرنا في آخر الآية السابقة بأن مرجعنا إليه بعد الموت وأنه يحاسبنا ويجازينا ناسب أن يرشدنا في إثر ذلك إلى الوصية قبل الموت وإلى العناية بالإشهاد عليها لئلا تضيع.

٢ . وأما مفرداتها التي يحسن التذكير بمعناها قبل تفسير النظم الكريم فمنها:

أ. ﴿الشَّهَادَةَ﴾ وهي كالشهود حضور الشيء مع مشاهدته بالبصر أو البصيرة أو مطلقا ـ كما قال الراغب ـ قال لكن الشهود بالحضور المجرد أولى، والشهادة مع المشاهدة أولى.. والشهادة قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصيرة أو بصر.. و(شهدت) يقال على ضربين أحدهما جار مجرى العلم وبلفظه تقام الشهادة ويقال: (أشهد بكذا) ولا يرضى من الشاهد أن يقول: ﴿أَعْلَمُ﴾ بل يحتاج أن يقول ﴿أُشْهِدُ﴾ والثاني يجري مجرى القسم فيقول: (أشهد بالله أن زيدا منطلق) فيكون قسما، ومنهم من يقول: إن قال: ﴿أُشْهِدُ﴾ ولم يقل ﴿بِاللَّهِ﴾ يكون قسما، ويجري ﴿عَلِمَتْ﴾ مجراه في القسم فيجاب بجواب القسم، نحو قول الشاعر: (ولقد علمت لتأتين منيتي)، وقد ترد بمعنى الإقرار بالشيء.

ب. و(البين): أمر اعتباري يفيد صلة أحد الشيئين بالآخر أو الأشياء من زمان أو مكان أو حال أو عمل، وقالوا إنه يطلق على الوصل والفرقة، ومن الثاني قولهم (ذات البين) للعداوة والبغضاء، قال تعالى: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١] أي ما بينكم من عداوة أو فساد، وهو أمر معنوي متصل بين الأفراد.

ج. ومنها: ﴿ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٠١] أي سافرتم وتقدم في سورة النساء.

د. ومنها: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ وهو من الحبس بمعنى إمساك الشيء ومنعه من الإنبعاث، والحبس مصنع الماء التي يمنع فيه من الجريان، ومنها: ﴿عُثِرَ﴾ وهو من العثور على الشيء بمعنى الاطلاع عليه بالاتفاق

---

(١) ذكر ما ورد في سبب النزول الذي سبق ذكره.

من غير سبق طلب له أو من غير حسبان، أو عثره عليه ـ أوقفه عليه وأعلمه به من حيث لم يكن يتوقع ذلك، وأصله من عثر (كقعد) عثارا وعثورا إذا سقط.

٣. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ أي حكم ما يقع بينكم من الشهادة أو كيفيته إذا نزلت بأحدكم أسباب الموت ومقدماته وأراد حينئذ أن يوصي هو أن يشهد اثنان الخ أو الشهادة المشروعة بينكم في ذلك هي شهادة اثنين من رجالكم ذوي العدل والاستقامة، وذلك بأن يشهدهما الموصي على وصيته سواء ائتمنهما على ما يوصي به كما في واقعة سبب النزول أم لا، ويترتب على إشهاده إياهما أن يشهدا بذلك، ومن إيجاز الآية أن عبارتها تدل على الإشهاد والشهادة جميعا، والمراد بقوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ من المؤمنين وهو قول الجمهور، وقيل من أقاربكم وروي عن الحسن والزهري وأخذ به كثير من الفقهاء.

٤. ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ أي أو شهادة شهيدين آخرين من غير المسلمين أو من الأجانب إن كنتم مسافرين ونزلت بكم مقدمات الموت وأردتم الإيصاء، وفي الكلام تأكيد شديد للوصية وللإشهاد عليها.

٥. ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ استئناف بياني كأن السامع لما تقدم يقول وكيف يشهدان؟ فأجيب بهذا الجواب أي تمسكون الشهيدين اللذين أشهدا على الوصية من بعد الصلاة:

أ. قال الأكثرون: المراد صلاة العصر ـ لأن النبي ﷺ حلف عديا وتميما فيه، ولأن العمل جرى عليه فكان التحليف فيه هو المعتاد المعروف، ولأنه الوقت الذي يقعد فيه الحكام للقضاء والفصل في المظالم والدعاوى لاعتداله واجتماع الناس فيه إذ يكونون قد فرغوا من معظم أعمال النهار ـ أو لأن هذا الوقت وقت الصلاة عند غير المسلمين أيضا فهو وقت ذكر الله الذي يرجى فيه اتقاء الكذب والخيانة منهم أيضا ـ أو لأن صلاة العصر هي الصلاة الوسطى، أو لأنها تحضرها ملائكة الليل والنهار فيتحرى المؤمن أن يكون بعدها متصفا بالكمال.

ب. وقيل إن المراد جنس الصلاة المفروضة لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر فيكون جديرا بالصدق من يكون قريب عهد بها.

ج. وقال الحسن البصري المراد الظهر أو العصر لأن أهل الحجاز كانوا يقعدون للحكومة بعدهما.

د. وروي عن ابن عباس أن الشهيدين إذا كانا غير مسلمين فالمراد بالصلاة صلاة أهل دينهما، أي لما ذكرنا من علة ذلك آنفا ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أي فيقسم الشاهدان على الوصية إن شككتم في صدقهما فيما يقران به، أي وتستقسمونهما فيقسمان، والأمين يصدق باليمين.

٦. وقال بعضهم: الفاء للجزاء أي تحبسونهما فيقدمان لأجل ذلك على القسم، قيل هذا خاص بالشهود من الكفار إذا اتهموا أي لأنه لم يشترط فيهم أن يكونوا عدولا، وقيل عام وقد نسخ، والصواب أنه لا نسخ في الآيات، قال الرازي: وعن علي عليه السلام، أنه كان يحلف الشاهد والراوي عند التهمة، ويجب أن يصرحا في قسمهما بقولهما.

٧. ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي لا نشتري بيمين الله ثمنا، أي لا نجعل يمين الله كالسلعة التي تبذل لأجل ثمن ينتفع به في الدنيا ولو كان المقسم له من أقاربنا، وصح إرجاع الضمير إلى المقسم لأجله للعلم به من فحوى الكلام كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [الأنعام: ١٥٣] وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥] والمراد أن يقول المقسم أنه يشهد لله بالقسط ولا يصده عن ذلك ثمن يبتغيه لنفسه، ولا مراعاة قريب له إن فرض أن له نفعا في إقراره وقسمه، أي ولو اجتمعت المنفعتان كلتاهما.

٨. ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ﴾ ويقولان في قسمهما أيضا: ولا نكتم الشهادة التي أوجبها الله تعالى وأمر بأن تقام له المؤكدة بالحلف به ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ للهِ﴾ [الطلاق: ٢] ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ أي إنا إذا اشترينا بالقسم ثمنا أو راعينا به قريبا بأن كذبنا فيه لمنفعة أنفسنا أو منفعة قرابة لنا، أو كتمنا شهادة الله كلها أو بعضها بأن ذكرنا بعض الحق وكتمنا بعضا ـ لمن المتحملين للإثم، المتمكنين فيه المستحقين لجزائه، والإثم في الأصل ما يقعد بصاحبه عن عمل الخير والبر من معصية وغيرها، وهذا التعبير أبلغ من (إنا إذا لآثمون)

٩. ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ قرأ الجمهور ﴿اسْتُحِقَّ﴾ بضم التاء على البناء للمفعول، وحفص عن عاصم بفتح التاء بالبناء للفاعل وهي مروية عن علي وابن عباس وأبي، وقرأ يعقوب وخلف وحمزة وعاصم في رواية أبي بكر عنه ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ جمع الأول الذي يقابله آخر، مع قراءتهم استحق بالبناء للمفعول، وقرأه الباقون ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾

مثنى الأولى: سواء منهم من قرأ استحق بالبناء للمفعول ومن قرأه بالبناء للفاعل، ورسم الأوليان الأولين في المصحف الإمام واحد وهو هكذا ﴿الْأَوَّلِينَ﴾، والمعنى فإن اتفق الاطلاع على أن الشهيدين المقسمين استحقا إثما بالكذب أو الكتمان في الشهادة أو بالخيانة وكتمان شيء من التركة في حالة ائتمانهما عليها ـ كما ظهر في الواقعة التي كانت سبب النزول ـ فالواجب أو فالذي يعمل لإحقاق الحق هو أن يرد اليمين إلى الورثة بأن يقوم رجلان آخران مقامهما من أولياء الميت الوارثين له الذين استحق ذلك الإثم بالإجرام عليهم والخيانة لهم، وهذان الرجلان الوارثان ينبغي أن يكونا هما الأوليين بالميت أي الأقربين إليه الأحقين بإرثه إن لم يمنع من ذلك مانع ـ كما تفيده قراءة الجمهور ـ أو غيرهما منهم كما تفيده قراءة من قرأ ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ وهو صفة للذين استحق عليهم أو منصوب على الاختصاص، وتحمل القراءة الأولى: على طلب الأكمل وهو أن يشهد أقرب الورثة إلى الميت، والقراءة الثانية على ما إذا منع مانع من إقسام أقرب الورثة أو كانت المصلحة في حلف غيره منهم لامتيازه بالسن أو الفضيلة، هذا إذا أريد ب الأوليين الأوليان بأمر الميت الموصي، ويجوز أن يراد بهما الأوليان بالقسم في هذه الحالة، أي أجدر الورثة باليمين لقربهما من الميت أو لعلمهما أو لفضلهما، وأما قراءة حفص عن عاصم ـ وبها يقرأ أهل بلادنا ـ فقال أكثر المفسرين في توجيهها أن ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ فيها فاعل استحق والمفعول محذوف والتقدير: من الورثة الذين استحق عليهم الأوليان بأمر الميت منهم ما أوصى به أو ما تركه ـ أو ندبهما للشهادة.

١٠. وذهب الرازي إلى أن الأوليين في هذه القراءة هما الوصيان قال ووجهه أن الوصيين اللذين ظهرت خيانتهما هما أولى من غيرهما ـ بسبب أن الميت عينهما للوصاية ولما خانا في مال الورثة صح أن يقال إن الورثة قد استحق عليهم الأوليان أي خان في مالهم الأوليان، وقرأ الحسن الأولان ووجهه ظاهر مما تقدم.

١١. الوجه عندي في ذلك أنهما الأوليان باليمين في الأصل لأنهما منكران واليمين على من أنكر، وكان المقام مقام الإضمار ـ بأن يقال: من الذين استحقا عليهم الإثم ـ فوضع المظهر وه الأوليان موضع الضمير لإفادة أن الأصل في الشرع أن تكون اليمين عليهما ولكن استحقاقهما الإثم بما ظهر من حنثهما اقتضى ردها أي اليمين إلى الورثة ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ أي يحلفان على أن ما يشهدان به من خيانة الشهيدين اللذين شهدا على وصية ميتهما أحق وأصدق من شهادتهما بما كانا

شهدا به، وأنهما ما اعتديا عليهما بتهمة باطلة أو ما اعتديا الحق فيما اتهموهما به ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي ويقولان في قسمهما إنا إذا اعتدينا الحق وقلنا الباطل لداخلون في عداد الظالمين لأنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى وانتقامه، والظالمين لمن ائتمنه ميتهم، وظلمهما محرم عليهم.

١٢. ثم بين تعالى حكمة شرعه لهذه الشهادة وهذه الأيمان، في هذا الأمر المبني على الثقة والائتمان، فقال: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي ذلك الذي ذكر من تكليف المؤتمن على الوصية القيام على مشهد من الناس بعد الصلاة وإقسامه تلك اليمين المغلظة أقرب الوسائل إلى أن يؤدي الشهداء الشهادة على وجهها بلا تغيير ولا تبديل، تعظيما لله ورهبة عن عذابه ورغبة في ثوابه، أو خوفا من الفضيحة التي تعقب استحقاقهما الإثم في الشهادة برد أيمان إلى الورثة بعد أيمانهم تكون مبطلة لها، فمن لم يمنعه خوف الله وتعظيمه أن يكذب أو يخون لضعف دينه يمنعه خوف الفضيحة على أعين الناس.

١٣. ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي واتقوا الله أيها المؤمنون في الشهادة والأمانة وفي كل شيء واسمعوا سمع إجابة وقبول هذه الأحكام وسائر ما شرعه الله تعالى لكم، فإن لم تتقوا وتسمعوا كنتم فاسقين عن أمر الله تعالى محرومين من هدايته مستحقين لعقابه.

١٤. قال الرازي بعد تفسير الآية الثانية: اتفق المفسرون على أنها في غاية الصعوبة إعرابا ونظما وحكما، وروى الواحدي في البسيط عن عمر بن الخطاب أنه قال: (هذه الآية أعضل ما في هذه السورة من الأحكام)، وأورد الآلوسي في روح المعاني عبارة الرازي عن المفسرين دون رواية الواحدي عن عمر، ثم نقل مثلها عن السعد التفتازاني وعن الطبرسي في الآيتين ـ لا الثانية: فقط ـ وقال إن الطبرسي افتخر بما أتى فيه ولم يأت بشيء، أقول: نحن لا يروعنا ما يراه المفسرون من الصعوبة في إعراب بعض الآيات أو في حكمها لأن لهم مذاهب في النحو والفقه يزنون بها القرآن فلا يفهمونه إلا منها، والقرآن فوق النحو والفقه والمذاهب كلها، فهو أصل الأصول، ما وافقه فهو مقبول، وما خالفه فهو مردود مرذول، وإنما يهمنا ما يقوله علماء الصحابة والتابعين فيه، فهو العون الأكبر لنا على فهمه، ولم يرو عن أحد منهم ما يدل على وجدان شيء من الصعوبة في عبارة الآيتين، وما نقله الواحدي عن عمر في آية ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ فليس مما يؤيد ما نقل عن المفسرين من استصعابها، بل معناه أن أحكامها أشد من سائر أحكام

السورة، ولعله يعني بذلك ما فيها من التضييق في رد أيمان بعد أيمان، وإظهار فضائح من كذب وخان، قال في حقيقة الأساس: عضلت على فلان ـ ضيقت عليه أمره وحلت بينه وبين ما يريد، ومنه النهي عن عضل النساء أي منعهن من الزواج.

١٥. ولكن أصحاب المذاهب الفقهية اضطربوا في عدة أحكام من أحكامها لمجيئها مخالفة لأقيستهم ولما عليه العمل بثبوته في سائر الأحكام ـ منها حلف الشاهد اليمين، ومنها شهادة غير المسلم فيما هو خاص بالمسلمين، ومنها العمل بيمين المدعي، وقد اجتهدوا في تخريج كل مسألة من تلك المسائل على الثابت عندهم كما تراه قريبا، حتى ادعوا في بعضها النسخ، ورووه عن بعض الصحابة بسند لم يصح، فلهذا رأينا بعد تفسير الآيتين بما يفهم من ظاهر اللفظ بالاختصار أن نفصل ما اشتملتا عليه من الفوائد والأحكام، ليظهر حتى للضعيف في علم العربية ما فيهما من إعجاز الإيجاز، وما جنته المذاهب النحوية والفقهية على كثير من العلماء، حتى قال ما قال في الآيتين أشهرهم بسعة الاطلاع أو بالدقة والذكاء.

١٦. أما دعوى النسخ فقد علم مما سلف ومما سيأتي قريبا ما عليه المحققون من أنه ليس في سورة المائدة منسوخ، وقد حرر المسألة الحافظ ابن كثير في تفسيره فقال: (ومن الشواهد لصحة هذه القصة أيضا ما رواه أبو جعفر بن جرير: عن الشعبي أن رجلا من المسلمين حضرته الصلاة بدقوقا، قال فحضرته الوفاة ولم يجد أحدا من المسلمين يشهده على وصيته فأشهد رجلين من أهل الكتاب ـ قال ـ فقدما الكوفة فأتيا الأشعري يعني أبا موسى الأشعري فأخبراه وقدما الكوفة بتركته ووصيته، فقال الأشعري هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ ـ قال ـ فأحلفهما بعد العصر بالله ما خانا ولا كذبا ولا بدلا ولا كتما ولا غيرا، وأنها لوصية الرجل وتركته، ـ قال ـ فأمضى شهادتهما، ثم رواه عن عمرو بن علي الفلاس عن أبي داوود الطيالسي عن شعبة عن مغيرة الأزرق عن الشعبي أن أبا موسى قضى به، وهذان إسنادان صحيحان إلى الشعبي عن أبي موسى الأشعري، فقوله: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ: الظاهر ـ والله أعلم ـ أنه إنما أراد بذلك قصة تميم وعدي بن بداء، وقد ذكروا أن إسلام تميم بن أوس الداري كان سنة تسع من الهجرة، فعلى هذا يكون هذا الحكم متأخرا يحتاج مدعي نسخه إلى دليل فاصل في هذا المقام والله أعلم)

١٧. ثم قال الحافظ ابن كثير بعد أن أورد قول السدي في الآية الأولى: قال عبد الله بن عباس كأني

أنظر إلى العلجين حين انتُهيَ بهما إلى أبي موسى الأشعري في داره ففتح الصحيفة فأنكر أهل الميت وخوفوهما فأراد أبو موسى أن يستحلفهما بعد العصر، فقلت إنهما لا يباليان صلاة العصر، ولكن استحلفهما بعد صلاتهما في دينهما، فيوقف الرجلان بعد صلاتهما في دينهما فيحلفان بالله (لا نشتري به ثمنا قليلا ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله إنا إذا لمن الآثمين) أن صاحبهم بهذا أوصى وأن هذه لتركته، فيقول لهما الإمام (أي الحاكم) قبل أن يحلفا إنكما إن كتمتما أو خنتما فضحتكما في قومكما ولم تجز لكما شهادة وعاقبتكما، فإذا قال لهما ذلك فإن ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾ رواه ابن جرير) المراد من كلام ابن كثير، وتأمل قوله: (ولم تجز لكما شهادة) فالظاهر أنه من كلام ابن عباس وسيأتي لبحث دعوى النسخ واستشكال الفقهاء مزيد بيان قريبا.

١٨ . أما الفوائد والأحكام التي اشتملت عليها الآيتان بإيجازهما، فهاك ما يتبادر إلى الذهن منها.

أ. الحث على الوصية وتأكيد أمرها وعدم التهاون فيها بشواغل السفر وإن قصرت فيه الصلاة وأبيح فيه الإفطار في رمضان.

ب. الإشهاد على الوصية في الحضر والسفر، ليكون أمرها أثبت، والرجاء في تنفيذها أقوى، وإن كثيرا من الناس لا يكتبون وصيتهم ولا يشهدون أحدا عليها فيكون ذلك في بعض الأحيان سببا لضياعها.

ج. إن الأصل في الإشهاد على الوصية أن يختار الشاهدان من المؤمنين الموثوق بعدالتهم كما ثبت في آيات أخرى أيضا، وحكمته ظاهرة من وجوه لا حاجة إلى شرحها.

د. إن إشهاد غير المسلمين على الوصية جائز مشروع، فإن وجبت الوصية وجب بشرطه وإلا فهو مندوب، لأن مقصد الشارع من إثبات الوصية لا يترك البتة إذا لم يتيسر إقامته على وجه الكمال، إذ الميسور لا يسقط بالمعسور، والمقام هنا مقام إثبات الحقوق، لا مقام التعبد الذي يشترط فيه الإيمان ولا مقام التشريف والتكريم للأديان وأهل الأديان.

هـ. إن الشهادة تشمل ما يقوله كل من الخصمين من إقرار في القضية أو إنكار، ونفي للمدعي به أو إثبات.

و. شرعية اختيار الأوقات التي تؤثر في قلوب الشهود ومقسمي الأيمان ويرجى أن يصدقوا ويبروا فيها كما بيناه في تعليل القسم بعد الصلاة، ومثله في ذلك اختيار المكان، وهو مشروع أيضا، ومما ورد في

السنة في ذلك ما رواه مالك وأحمد وأبو داوود والنسائي وصححه وابن ماجه بسند رجاله ثقات وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححوه عن جابر مرفوعا (لا يحلف أحد عند منبري كاذبا إلا تبوأ مقعده من النار) وعن أبي هريرة حديث بمعناه عند أحمد وابن ماجه، وروى النسائي بإسناد رجاله ثقاب عن أبي أمامة بن ثعلبة رفعه (من حلف عند منبري هذا بيمين كاذبة يستحل بها مال امرئ مسلم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا) واستدل بالآية وبهذه الأحاديث جماهير الفقهاء على جواز التغليظ على الحالف بمكان معين تثبت حرمته شرعا كالمسجد الحرام، وخاصة ما بين الركن ومقام إبراهيم ﷺ، والمسجد النبوي وخاصة ما كان منه عند منبره ﷺ، وبالزمان كيوم الجمعة وبعد صلاة العصر، وقال بعضهم ـ ومنهم الحنفية ـ أن ما ذكر من النصوص لا يدل على ذلك، ولعله لا ينكر أحد التغليظ بما ورد فيها، وإنما الخلاف في القياس عليها أو الأخذ بفحواها.

ز. التغليظ على الحالف بصيغة اليمين بأن يقول فيه ما يرجى أن يكون رادعا للحالف عن الكذب كالألفاظ التي وردت في الآية، وأشد منها ما ورد في شهادة اللعان، وقد جرى على هذا أصحاب الجمعيات السياسية في الإسلام وغيره فاخترعوا أيمانا وأقساما قد يتحامى أفسق الناس وأجرأهم على الإجرام أن يحنث بها، وقد بينا ما يجب البر به وما يجب الحنث به من الأيمان وسائر مهمات أحكامها في تفسير آية كفارتها من هذه السورة.

ح. إن الأصل في أخبار الناس وشهادتهم التي هي أخبار مؤكدة صادرة عن علم صحيح أن تكون مقبولة مصدقة، ولهذا شرط في حكم تحليف الشاهدين الارتياب في خبرهما، وصدر هذا الشرط بأن التي لا تدل على تحقق الوقوع، إشارة إلى أن الأصل في وقوعها أن يكون شاذا.

ط. إن الأصل في الناس أن يكونوا أمناء، وفي المؤتمن أن يكون أمينا، وأن يكون ما يقوله في أمر الأمانة مقبولا، ولذلك قال: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ فأفادت أداة الشرط أن الأصل في هذا أن لا يقع، وأنه إن وقع كان شاذا، وأفاد فعل ﴿عُثِرَ﴾ المبني للمفعول إن هذا الشذوذ إن وقع فشأنه أن يطلع عليه بالمصادفة والاتفاق، لا بالبحث وتتبع العثرات.

ي. شرعية تحليف الشهود إذا ارتاب الحكام أو الخصوم في شهادتهم، وهو الذي عليه العمل الآن في أكثر الأمم، بل تحتمه قوانينها الوضعية باطراد لكثرة ما يقع من شهادة الزور، وسيأتي بحث الفقهاء في

ذلك.

ك. شرعية ائتمان المسلم لغير المسلم على المال وشرعية تحليف المؤتمن والعمل بيمينه.

ل. شرعية رد اليمين إلى من قام الدليل على ضياع حق الله له بيمين صار حالفها خصما له، ومن هذا القبيل شهادة المتلاعنين وأقسامها، فإذا شهد الرجل على امرأته بالزنا تلك الشهادة المشروعة في سورة النور المتضمنة للقسم المغلظ ـ ترد الشهادة مع اليمين إلى زوجه التي رماها بذلك، فإذا شهدت بالله مثل شهادته سقط عنها الحد وبرئت من التهمة في شرع الله، وبالنسبة إلى غيره من عباد الله، ومنه أيمان القسامة في الدماء، وقد اختلف الفقهاء فيمن يبدأ باليمين ـ المدعون ذووا القتيل؟ أم المدعى عليهم ذووا المتهم بالقتل، وأيا ما كان البادئون فإن الأيمان ترد إلى الآخرين.

م. إذا احتيج إلى قيام بعض الورثة لميت بأمر يتعلق بالتركة فالذي يجب تقديمه منهم للقيام به من كان أولاهم به، ومن بلاغة الإيجاز إبهام الأولين بالقسم في الآية لاختلاف الأولوية باختلاف الأحوال والوقائع كما أشرنا إليه، فإذا تعين أصحاب الأولوية بلا نزاع فذاك وإلا فالحاكم هو الذي يقدم من يراه الأولى.

ن. صحة شهادة غير المسلم على المسلم والعمل بها في الجملة، وأخرناه ليتصل بما نوضحه به في الفصل الآتي.

١٩. كل هذه الأحكام مفهومة من الآيتين فتأمل جمعهما لهذه المعاني الكثيرة على إيجازهما وإيضاحهما للمعنى المقصود بهما بالذات.

٢٠. فصل في حكم شهادة غير المسلمين على المسلمين: هذا بحث شرعي يجب أن نعطيه حقه من الاستقلال في الاستدلال فنقول[1]:

أ. اعلم أن آيات القرآن في الإشهاد والاستشهاد منها المطلق ومنها المقيد، قال تعالى في اللاتي يأتين الفاحشة من المسلمات: ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ [النساء: ١٤] الآية وقال تعالى في شأن المطلقات المعتدات ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ

(١) تقسيم الفروع هنا ليس منهجيا، وإنما من باب التبسيط فقط

مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لله ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [الطلاق: ٢]، وقال تعالى في آية التداين (واستشهدوا شهيدين من رجالكم، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء - ثم قال فيها - وأشهدوا إذا تبايعتم) [البقرة: ٢٨٢] ولم يقل هنا ﴿ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ ومثله في الإطلاق قوله تعالى في الأيتام ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ٥]

ب. فإذا تأملنا في هذه الآيات مع آيتي المائدة اللتين نحن في صدد تفسيرهما وبحثنا عن حكمة الإطلاق والتقييد فيهن كلهن نرى أنه جل وعلا اشترط في الاستشهاد أو الإشهاد في الوقائع المتعلقة بأمور المؤمنات الشخصية أن يكون الشهداء من المؤمنين، ولم يذكر هذا القيد في الإشهاد على دفع أموال اليتامى إليهم ولا الإشهاد على البيع، والفرق بين الأحكام المالية المحضة وأحكام النساء المؤمنات جلي واضح، وأما قوله في آية الدين وهي في الأحكام المالية ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ فظاهر اللفظ أن المراد به الرجال المؤمنون لأنهم المخاطبون، وهو الذي عليه الجماهير، ويحتمل أن يكون هذا الوصف لأجل بيان تقديم صنف الرجال في الشهادة على ما يقابله من شهادة الصنفين، وإن الإضافة فيه روعي فيها الواقع أو الغالب بقرينة وصف المقابل بقوله: ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢] إذ لم يقل (من شهدائكم) أو (من رجالكم ونسائكم) ثم بقرينة إطلاق الأمر بالإشهاد على الدين في الآية نفسها.

ج. فلقائل أن يقول: لو أراد الله تعالى أن يبين لنا أنه لا يجوز لنا أن نشهد في الأعمال المالية غير المؤمنين لجاء في كل نص من تلك النصوص بما يدل على ذلك وإن تقاربت على حد قوله في الأمور العامة: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٢] وإنما يدل مجموع الآيات على أن الأصل أو الكمال في الإشهاد أن يكون الشهود من عدول المؤمنين للثقة بشهادتهم، والاحتراز من الكذب والزور والخيانة التي يكثر وقوعها ممن لا ثقة بإيمانهم وعدالتهم، وأن يلتزم هذا الأصل في الإشهاد على الأمور الخاصة بنساء المسلمين وبيوتهم إذ لا يحتاج فيها إلى غيرهم، وليس من شأن سواهم أن يعرفها، ولوجوب الاحتياط فيها، ولذلك قال في آية الطلاق ﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [الطلاق: ٢] وورود نص القرآن فيمن يقذف امرأة بأن يجلد ثمانين جلدة وأن لا تقبل له شهادة أبدا، وبناء على هذا يقال في آية المائدة إن الله تعالى قدم إشهاد عدول المؤمنين على الوصية لأنه الأصل الذي يحصل به المقصود على الوجه الكامل، وأجاز إشهاد غيرهم في الحال التي لا يتيسر فيها ذلك،

وأن الشرط في قوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ جاء لبيان هذه الحال فمفهومه غير مراد، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣] ومن يرى رأي الحنفية في عدم الاحتجاج بمفهوم الشرط ومفهوم اللقب يمكنه أن يرجح هذا القول أي ترجيح، والكلام فيما تدل عليه آيات القرآن، دون ما يدعى فيه غير ذلك من قياس أو إجماع فقهاء.

د. ودونك ما ورد في ذلك عن علماء السلف وأئمة الفقه كما لخصه الحافظ ابن حجر في شرح البخاري ـ ونقله الشوكاني عنه في (نيل الأوطار) في شرح حديث ابن عباس في قصة السهمي المتقدمة الذي رواه البخاري وأبو داوود قال واستدل بهذا الحديث على جواز شهادة الكفار بناء على أن المراد بالغير في الآية الكريمة الكفار، والمعنى ﴿مِنْكُمْ﴾ أي من أهل دينكم ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي من غير أهل دينكم، وبذلك قال أبو حنيفة ومن تبعه، وتعقب بأنه لا يقول بظاهرها فلا يجيز شهادة الكفار على المسلمين وإنما يجيز شهادة بعض الكفار على بعض، وأجيب بأن الآية دلت بمنطوقها على قبول شهادة الكافر على المسلم، وبإيمائها على قبول شهادة الكافر على الكافر بطريق الأولى، ثم دل الدليل على أن شهادة الكافر على المسلم غير مقبولة، فبقيت شهادة الكافر على الكافر على حالها، وهذا الجواب على التعقب في غير محله لأن التعقب هو باعتبار ما يقوله أبو حنيفة لا باعتبار استدلاله.

هـ. وخص جماعة القبول بأهل الكتاب وبالوصية وبفقد المسلم حينئذ، ومنهم ابن عباس وأبو موسى الأشعري وسعيد بن المسيب وشريح وابن سيرين والأوزاعي والثوري وأبو عبيدة وأحمد وأخذوا بظاهر الآية وحديث الباب، فإن سياقه مطابق لظاهر الآية.

و. وقيل المراد بالغير غير العشيرة والمعنى منكم أي من عشيرتكم أو آخران من غيركم أي من غير عشيرتكم وهو قول الحسن البصري، واستدل له النحاس بأن لفظ آخر لا بد أن يشارك الذي قبله في الصفة حتى لا يسوغ أن يقول مررت برجل كريم ولئيم آخر، فعلى هذا فقد وصف الاثنان بالعدالة فتعين أن يكون الآخران كذلك، وتعقب بأن هذا وإن ساغ في الآية لكن الحديث دل على خلاف ذلك والصحابي إذا حكى سبب النزول كان ذلك في حكم الحديث المرفوع ـ اتفاقا ـ وأيضا ففيما قال رد المختلف فيه بالمختلف فيه، لأن اتصاف الكافر بالعدالة مختلف فيه وهو فرع قبول شهادته، فمن قبلها وصفه بها ومن لا فلا.

ز. واعترض أبو حيان على المثال الذي ذكره النحاس بأنه غير مطابق، فلو قلت جاءني رجل مسلم وآخر كافر صح، بخلاف ما لو قلت جاءني رجل مسلم وكافر آخر، والآية من قبيل الأول لا الثاني، لأن قوله آخران من جنس قوله اثنان لأن كلا منهما صفة رجلان فكأنه قال فرجلان اثنان ورجلان آخران.

ح. وذهب جماعة من الأئمة إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢] واحتجوا بالإجماع على رد شهادة الفاسق، والكافر شر من الفاسق، وأجاب الأولون أن النسخ لا يثبت بالاحتمال، وأن الجمع بين الدليلين أولى من إلغاء أحدهما، وبأن سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن، حتى صح عن ابن عباس وعائشة وعمرو بن شرحبيل وجمع من السلف أن سورة المائدة محكمة، وعن ابن عباس أن الآية نزلت فيمن مات مسافرا وليس عنده أحد من المسلمين فإن اتهما استحلفا، أخرجه الطبري بإسناد رجاله ثقات، وأنكر أحمد على من قال إن هذه الآية منسوخة، وقد صح عن أبي موسى الأشعري أنه عمل بذلك بعد النبي ﷺ، وساق الحافظ الحديث وقال إن حكمه لم ينكره أحد من الصحابة فكان حجة وذكر رد الطبري والرازي لقول من قال إنها في الأقارب والأجانب وقد تقدم ذلك كله ثم قال: (وذهب الكرابيسي والطبري وآخرون إلى أن المراد بالشهادة في الآية اليمين، قالوا وقد سمى الله اليمين شهادة في آية اللعان، وأيدوا ذلك بالإجماع على أن الشاهد لا يلزمه أن يقول أشهد بالله؛ وأن الشاهد لا يمين عليه أنه شهد بالحق، قالوا فالمراد بالشهادة اليمين لقوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ﴾ أي يحلفان فإن عرف أنهما حلفا على الإثم رجعت اليمين على الأولياء، وتعقب بأن اليمين لا يشترط فيه عدد ولا عدالة بخلاف الشهادة، وقد اشترطا في هذه القصة فقوي حملها على أنها شهادة، (وأما اعتلال من اعتل في ردها بأن الآية تخالف القياس والأصول لما فيها من قبول شهادة الكافر وحبس الشاهد وتحليفه، وشهادة المدعي لنفسه، واستحقاقه بمجرد اليمين، فقد أجاب من قال به بأنه حكم لنفسه مستغن عن نظيره، وقد قبلت شهادة الكافر في بعض المواضع كما في الطب، وليس المراد بالحبس السجن وإنما المراد الإمساك لليمين ليحلف بعد الصلاة، وأما تحليف الشاهد فهو مخصوص بهذه الصورة عند قيام الريبة، وأما شهادة المدعي لنفسه واستحقاقه بمجرد اليمين فإن الآية تضمنت نقل الأيمان إليهم عند ظهور اللوث بخيانة الوصيين، فيشرع لهما أن يحلفا ويستحقا، كما يشرع لمدعي القسامة أن يحلف ويستحق، فليس هو من شهادة المدعي لنفسه بل من باب الحكم له بيمينه القائمة مقام الشهادة لقوة جانبه، وأي فرق بين ظهور اللوث في صحة

الدعوى بالدم وظهوره في صحة الدعوى بالمال؟ وحكى الطبري أن بعضهم قال المراد بقوله: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ الوصيان قال والمراد بقوله: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ معنى الحضور لما يوصيهما به الوصي، ثم زيف ذلك)

ط. قال الشوكاني بعد نقل ما تقدم عن الفتح: وهذا الحكم يختص بالكافر الذمي، وأما الكافر الذي ليس بذمي فقد حكى في البحر الإجماع على عدم قبول شهادته على المسلم مطلقا،) وأقول: ما أورده الشوكاني من دعوى صاحب البحر من أئمة الزيدية الإجماع على عدم قبول شهادة الكافر غير الذمي مطلقا مردود بما نقله ابن جرير واختار أن ﴿غَيْرَكُمْ﴾ يدخل فيه المجوس وعبدة الأوثان وأهل كل دين.

٢١. سؤال وإشكال: بقي ههنا بحث مهم وهو أن أحكام القرآن في هذه المسألة وفي غيرها أوسع مما جرى عليه الفقهاء، وكذلك أحكام السنة، وكل ما في الفقه من التشديد والتقييد فهو من اجتهاد الفقهاء، ولا سيما المصنفين منهم الذين جاءوا بعد الصحابة والتابعين، وأولى الأحكام الاجتهادية بالنظر والاعتبار ما اتفق عليه كبار المجتهدين، وجرى عليه عمل حكام العصور الأولى من المسلمين، ومنه عدم قبول شهادة الكافر على المسلم في القضايا الشخصية والمدنية والجنائية على حد سواء، فما سبب ذلك؟ ولماذا لما يأخذوا بظاهر آية المائدة ـ وهي من آخر ما نزل من القرآن ـ فيعدوها شارعة لقبول شهادة غير المسلم عند الحاجة مطلقا، أو في غير ما ورد النص بإشهاد المسلمين العدول عليه لحكمة تقتضي ذلك كما تقدم آنفا في بيان المقابلة بين آيات الشهادة؟ أوليس الغرض من الشهادة أن تكون بينة يعرف بها الحق، وقد يتوقف بيانه على شهادة شهداء من غير المسلمين يثق الحاكم بصدقهم وصحة شهادتهم؟ والجواب: يعلم بالنظر فيما استدلوا به على منع شهادة الكافر وبمعرفة حال المسلمين مع الكفار في عصر التنزيل وعصر وضع الفقه والتصنيف فيه وعمل الحكام باجتهادهم ثم بأقوال علمائه، فأما الاستدلال فقد علم مما تقدم أن له من القرآن مأخذين:

أ. الأول: جعل قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ مقيدا للإطلاق في قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ وفي هذا الاستدلال أبحاث:

• أحدها: أنه من مسائل الأصول التي اختلف فيها المتفقون على منع شهادة غير المسلم على المسلم، وقد اتفقوا على أن المطلق والمقيد إذا اختلفا في السبب والحكم لا يحمل أحدهما على الآخر، وإذا اتفقا

فالخلاف في عدم الحمل ضعيف والجمهور على الحمل، وأما إذا اختلفا في السبب دون الحكم كمسائل الإشهاد على النساء واليتامى والبيع والوصية وكذا عتق الرقبة في كفارات القتل والظهار واليمين، فالخلاف في الحمل وعدمه قوي والأقوال فيه متعددة، فلم اتفق المختلفون فيها على منع شهادة غير المسلم مطلقا أو فيما عدا الوصية أو الطب؟

• ثانيها: أن الإشهاد الاختياري غير الشهادة، فالأمر باختيار أفضل الناس إيمانا وعدالة للإشهاد لا يستلزم عدم الاعتداد بشهادة من دونهم في الفضيلة، فإن الشهادة بينة، والبينة كل ما يتبين به الحق كما يدل عليه استعمال الكتاب والسنة، وقد أطال العلامة ابن القيم في إثبات هذا وإيضاحه في كتابه (أعلام الموقعين)

• ثالثها: أن قوله تعالى: ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ فيه توسعة عظيمة في الإشهاد، ونحن إلى التوسعة في الشهادة نفسها أحوج، فإن كثيرا من الجنايات والعقود والإقرار قد تقع من بعض المسلمين على مرأى ومسمع من غيرهم، وقد يكون هؤلاء الذين سمعوا ورأوا من أهل الصدق والأمانة، لأن دينهم يحرم الكذب والخيانة، فلماذا نضيع أمثال هذه الحقوق التي يمكن إثباتها بشهادتهم إذا تجرأ الذين أنكروها على اليمين كما تجرؤوا على الكذب بالإنكار؟

ب. الثاني: إن الله تعالى قد أمرنا أن نشهد ذوي عدل منا معشر المؤمنين وعلة ذلك بدهية وهي أن المؤمن العدل؛ يتحرى الصدق الذي يثبت به الحق، ونحن نشترط في قبول الشهادة الأمرين، ونرى أن غير المؤمن المسلم لا يكون صادقا عدلا، وإذا كان فقد العدالة يوجب رد الشهادة عندنا ففقد الإيمان أولى بذلك، وفي هذا الاستدلال نظر من وجهين:

• أحدهما: أن الإيمان بالله وبشرع له يحرم الكذب كاف لتحقيق المقصد الذي تتوخونه من الشهادة، وهذا مما يوجد في غير الإسلام من الملل، وقولكم إن غير المسلم لا يكون صادقا ولا عدلا لا دليل عليه من النقل، ولا من سيرة البشر المعلومة بالاختيار والعقل، أما النقل فقد جاء على خلافه فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] فإن حمل هذا على من كان قبل بعثة نبينا أو على من آمن به فلا يمكن أن يحمل عليهم قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥] فهذه شهادة لهم بالأمانة، وقد استشهد الرسول ﷺ بعض اليهود على آية

الرجم في التوراة فاعترف بها بعضهم لما أقسم عليه بالله الذي أنزل التوراة على موسى، وقد بينا في التفسير مرارا عدل القرآن ودقته في الحكم بالفساد على الأمم إذ يحكم على الأكثر أو يستثني بعد إطلاق الحكم العام، وما روي من قبول النبي ﷺ ثم أبي موسى الأشعري لشهادتهم في الوصية عملا بالقرآن مبني على أن الأصل في خبر الإنسان الصدق وإن كان كافرا، وأنه لا يعدل عن هذا الأصل إلا عند وجود التهمة، وعليه جمهور السلف، وهو يستلزم إثبات عدالتهم كما تقدم عن الحافظ ابن حجر وبهذا يسقط قياس الكافر على الفاسق، وقد قبل المحدثون رواية المبتدع الذي يحرم الكذب مطلقا أو فيما عدا تأييد بدعته، وأما سيرة البشر المعلومة بنقل المؤرخين وبسنن الله في أخلاق البشر وطباعهم التي هي القانون العقلي لمن يريد الحكم الصحيح عليهم ـ فهي مؤيدة لحكم القرآن العادل على المشركين والكفار من العرب والعجم بمثل قوله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢]، وقوله في عدة آيات ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧] ـ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: ٦٠] ـ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١] ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨] ـ ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ [الفرقان: ٤٤] ومثل هذا كثير، وهو خاص بأحوال الأمم في طور الفساد وضعف الدين والأخلاق، الذي كان عليه جميع أهل الملل عند ظهور الإسلام.

• فننتقل إذا إلى بيان المسألة الثانية: التي نراها هي السبب الاجتماعي الحقيقي لعدم قبول شهادة غير المسلم فنقول: حال المسلمين مع غيرهم في العصر الأول: إن حالة الأمم الاجتماعية والسياسية والأدبية لها شأن كبير في تطبيق الأحكام على الوقائع وهو ما يسميه علماء الأصول (تحقيق المناط) ومن عرف التاريخ وفقه قواعد علم الاجتماع منه فإنه هو الذي يفقه سبب إعراض الفقهاء والحكام عن قبول شهادة غير المسلمين عليهم، وأحق ما يجب فقهه من تلك القواعد أربع ينبغي التأمل فيها بعين العقل والإنصاف:

○ أحدها: ما كان عليه المسلمون في القرون الأولى: للإسلام من الاستمساك بعروة الحق، وإقامة ميزان العدل، وعدم المحاباة والتفرقة في ذلك بين مؤمن وكافر، وقريب وبعيد، وصديق وعدو.

○ ثانيها: ما كانت عليه جميع الأمم التي فتحوا بلادها، وأقاموا شريعتهم فيها، من ضعف وازع الدين، وفساد الأخلاق والآداب، وقد قرر ذلك مؤرخو الإفرنج وغيرهم وجعلوه أول الأسباب

الاجتماعية لسرعة الفتح الإسلامي في الخافقين.

○ ثالثها: ما جرى عليه الفاتحون من المسلمين من المبالغة في التوسعة على أهل ذمتهم في الاستقلال الديني والمدني، إذ كانوا يسمحون لهم بأن يتحاكموا إلى رؤسائهم في الأمور الشخصية وغيرها ـ فكان من المعقول مع هذا أن لا يشهدوهم على قضايا أنفسهم الخاصة، وأن يمنعهم نظرهم إلى ما بينهما من التفاوت في الأحوال الدينية والأدبية التي أشرنا إليها آنفا من قبول شهادتهم على أنفسهم، مع عدم ثقتهم بتدينهم وعدالتهم.

○ رابعها: تأثير عزة السلطان وعهد الفتح الذي كانت الأحكام فيه أشبه بما يسمونه الآن بالأحكام العسكرية، واعتبر ذلك بأحكام دول الإفرنج في أيام الحرب، بل في المستعمرات التي طال عليها عهد الفتح أو ما يشبه الفتح، يتبين لك أن أشد أحكام فقهاء المسلمين وحكامهم على غيرهم هي أقرب إلى العدل والرحمة من أحكام أرقى أمم المدينة من دونهم، وقد علم من حال البشر أن الغالب قلما يرى شيئا من فضائل المغلوب وإن كثرت، فكيف يرجى أن يرى قليلها الضئيل الخفي؟ والجماعات الكبيرة والصغيرة كالأفراد في نظر كل إلى نفسه وإلى أبناء جنسه بعين الرضا وإلى مخالفه بعين السخط، مثال ذلك أن امرأة من فضليات نساء سويسرة دينا وأدبا وعلما راقبت أحوال محمد عبده وسيرته مدة طويلة إذ كان يختلف إلى مدرسة (جنيف) لتلقي آداب اللغة الفرنسية، وكلمته مرارا في مسائل من علم الأخلاق والتربية ـ وكانت بارعة ومصنفة فيهما ـ فأعجبها رأيه، كما أعجبها فضله وهديه، ثم قالت له بعد ذلك: إنني لم أكن أظن قبل أن عرفتك أن القداسة توجد في غير المسيحيين.

٢٢. فمن تأمل ما ذكر تجلت له الأسباب المعنوية والاجتماعية التي صدت الحكام والفقهاء عن قبول شهادة غير المسلم على المسلم، وتعجب من سعة أحكام القرآن، التي يتوهم الجاهلون أنها ضد ما هي عليه من الإطلاق وموافقته كل زمان ومكان، فتراهم ينسبون إلى القرآن كل ما ينكرونه على المسلمين من آرائهم وأعمالهم وأحكامهم بالحق أو بالباطل، ولو كان المسلمون عاملين بالقرآن كما يجب لما أنكر عليهم أحد، بل لاتبعهم الناس في هديهم، كما اتبعوا سلفهم من قبلهم، بل لكانوا أشد اتباعا لهم، بما يظهر لهم من موافقة هدايته لهذا الزمان كغيره، وكونها أرقى من كل ما وصل إليه البشر من نظام وأحكام، وهذا من أجل معجزاته التي تتجدد بتجدد الأزمان.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بعد أن ذكر سبحانه في الآية السالفة أن المرجع إليه بعد الموت، وأنه لا بد من الحساب والجزاء يوم القيامة ـ أرشدنا إثر ذلك إلى الوصية قبل الموت وأنه تجب العناية بالإشهاد عليها حتى لا تضيع على مستحقيها.

٢. ﴿يَا أيها الَّذِينَ آمنوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ أي الشهادة المشروعة بينكم في ذلك هي شهادة اثنين من رجالكم من ذوى العدل والاستقامة يشهدهما الموصى على وصيته، فيشهدان بذلك عند الحاجة، وقوله منكم أي من المؤمنين.

٣. ﴿أو آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ أي أو شهادة اثنين آخرين من غير المسلمين إن كنتم مسافرين ونزلت بكم مقدمات الموت وعلاماته وأردتم الإيصاء، ولا يخفى ما في الآية من تأكيد الوصية والإشهاد عليها.

٤. ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ المراد بالصلاة صلاة العصر، لأن النبي ﷺ حلّف عديا وتميما بعدها، ولأن العمل قد جرى عليه، فكان التحليف فيه هو المعروف، ولأنه هو الوقت الذي يقعد فيه الحكام للفصل في المظالم والدعاوى، إذ يكون الناس قد فرغوا من معظم أعمال النهار، وروى عن ابن عباس أن الشهيدين إذا كانا غير مسلمين، فالمراد بالصلاة صلاة أهل دينهما.

٥. ﴿فَيُقْسِمَانِ بِالله إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أي وتستقسمون الشاهدين وتطلبون حلفهما على الوصية، إن شككتم في صدقهما فيقسمان، أما الأمين فيصدق بلا يمين.

٦. ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي يقسمان بقولهما لا نشترى بيمين الله ثمنا ولو كان المقسم له من أقاربنا: أي لا نجعل يمين الله كالسلعة التي تبذل لأجل ثمن ينتفع به في الدنيا، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿يَا أيها الَّذِينَ آمنوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أو الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾

٧. والخلاصة ـ أن يقول الحالف: إنه يشهد لله بالقسط ولا يصدّه عن ذلك ثمن يبتغيه لنفسه، ولا

---

(١) تفسير المراغي ٧/٤٨.

مراعاة قريب له إن فرض أن في إقراره وقسمه نفعا له ـ أي ولو اجتمعت هاتان الفائدتان.

٨. ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ﴾ أي ويقولان في يمينهما أيضا: ولا نكتم الشهادة التي أوجبها الله وأمر أن تقام له كما قال: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ للهِ﴾

٩. ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ أي إنا إذا فعلنا ذلك واشترينا بالقسم ثمنا أو راعينا به قريبا بأن كذبنا فيه لمنفعة لأنفسنا أو لذوى قرابتنا، أو كتمنا شهادة الله كلا أو بعضا لكنا من المتحملين للإثم المستحقين للجزاء عليه.

١٠. ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ أي فإن اتفق وحصل الاطلاع على أن الشهيدين الحالفين استحقا إثما بكذب في الشهادة أو بالخيانة أو بكتمان شيء من التركة في حال ائتمانهما عليها أو كتمان في الشهادة ـ فالواجب حينئذ أن تردّ اليمين إلى الورثة بأن يقوم رجلان آخران مقامهما من أولياء الميت الوارثين له وهذان الرجلان الوارثان ينبغي أن يكونا هما الأولين بالميت أي الأقربين الأحقين بإرثه إن لم يمنع من ذلك مانع، وعلى هذا ف الأوليان فاعل استحق ومفعوله محذوف يقدّر بنحو قولنا ما أوصى به أو ما تركه: أي من الورثة الذين استحق الأوليان من بينهم ما أوصى به.

١١. ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ المراد بالشهادة اليمين كما في قوله تعالى: ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ﴾ أي فيحلفان بالله لأيماننا على خيانة الشهيدين اللذين حلفا على وصية ميتهما أحق وأصدق من أيمانهما، وأنهما ما اعتديا عليهما بتهمة باطلة.

١٢. ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي ويقولان في يمينهما إنا إذا اعتدينا الحق فحلفنا مبطلين كاذبين ـ لنكونن من الظالمين لأنفسهم بتعريضها لسخط الله وانتقامه.

١٣. ثم بين سبحانه الحكمة في شرع هذه الشهادة وهذه الأيمان فقال: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أو يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ إيمان بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي ذلك الذي شرعناه من تكليف المؤتمن على الوصية أن يقوم على مرأى من الناس ويشهد بعد الصلاة ويقسم الأيمان المغلظة، أدنى الطرق وأقربها إلى أن يؤدى الشهداء الشهادة على وجهها بلا تبديل ولا تغيير، تعظيما لله ورهبة من عذابه ورغبة في ثوابه أو خوفا من الفضيحة التي تعقب استحقاقهما الإثم في الشهادة برد إيمان الورثة بعد أيمانهم تكون مبطلة لها،

إذ من لم يمنعه خوف الله وتعظيمه أن يكذب لضعف دينه يمنعه خوف الخزي والفضيحة بين الناس.

١٤. ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي واتقوا الله وراقبوه في أيمانكم أن تحلفوا بها كاذبة، وأن تخونوا من ائتمنكم، واسمعوا ما يقال لكم وما توعظون به سمع إجابة وقبول لهذه الأحكام وغيرها، فإن لم تتقوا كنتم فاسقين عن أمر الله مطرودين من هدايته مستحقين لعقابه.

١٥. وقد استنبط العلماء من هاتين الآيتين فوائد وأحكاما نذكر أهمها فيما يلي:

أ. الحديث على الوصية وعدم التهاون في أمرها في سفر أو حضر.

ب. الإشهاد عليها لتثبيت أمرها والرجاء في تنفيذها.

ج. بيان أن الأصل في الشاهدين عليها أن يكونا مؤمنين موثوقا بعدالتهما.

د. بيان أن إشهاد غير المسلمين على الوصية جائز مشروع، لأن مقصد الشارع منها إذا لم يمكن أداؤه على وجه الكمال فلا يترك البتة.

هـ. شرعية اختيار الأوقات التي تؤثّر في قلوب الشهود ومقسمى الأيمان رجاء أن يصدقوا ويبرّوا فيها.

و. التغليظ على الحالف بصيغة اليمين بأن يقول فيه ما يرجى أن يكون رادعا للحالف عن الكذب.

ز. إن الأصل في أخبار الناس وشهاداتهم أن تكون مصدّقة مقبولة، ومن ثمّ شرط في تحليف الشاهدين الارتياب في خبرهما.

ح. شرعية تحليف الشهود إذا ارتاب الحكام والخصوم في شهادتهم، وهو الذي عليه العمل الآن في أكثر الأمم وقد حتمته القوانين الوضعية لكثرة ما يقع من شهادة الزور.

ط. شرعية رد اليمين إلى من قام الدليل على ضياع حق له بيمين صار حالفها خصما له.

ي. إذا احتيج إلى قيام بعض الورثة في أمر يتعلق بالتركة فأولاهم بذلك أقربهم إليه.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/٩٩٤.

١. الآن يجيء الحكم الأخير من الأحكام الشرعية التي تتضمنها السورة، في بيان بعض أحكام المعاملات في المجتمع المسلم، وهو الخاص بتشريع الإشهاد على الوصية في حالة الضرب في الأرض، والبعد عن المجتمع، والضمانات التي تقيمها الشريعة ليصل الحق إلى أهله.

٢. وبيان هذا الحكم الذي تضمنته الآيات الثلاث: أن على من يحس بدنو أجله، ويريد أن يوصي لأهله بما يحضره من المال، أن يستحضر شاهدين عدلين من المسلمين إن كان في الحضر، ويسلمهما ما يريد أن يسلمه لأهله غير الحاضرين، فأما إذا كان ضاربا في الأرض، ولم يجد مسلمين يشهدهما ويسلمهما ما معه، فيجوز أن يكون الشاهدان من غير المسلمين.

٣. فإن ارتاب المسلمون ـ أو ارتاب أهل الميت ـ في صدق ما يبلغه الشاهدان وفي أمانتهما في أداء ما استحفظا عليه، فإنهم يوقفونهما بعد أدائهما للصلاة ـ حسب عقيدتهما ـ ليحلفا بالله، أنهما لا يتوخيان بالحلف مصلحة لهما ولا لأحد آخر، ولو كان ذا قربى، ولا يكتمان شيئا مما استحفظا عليه.. وإلا كانا من الآثمين.. وبذلك تنفذ شهادتهما.

٤. فإذا ظهر بعد ذلك أنهما ارتكبا إثم الشهادة الكاذبة واليمين الكاذبة والخيانة للأمانة، قام أولى اثنين من أهل الميت بوراثته، من الذين وقع عليهم هذا الإثم، بالحلف بالله، أن شهادتهما أحق من شهادة الشاهدين الأولين، وأنهما لم يعتديا بتقريرهما هذه الحقيقة، وبذلك تبطل شهادة الأولين، وتنفذ الشهادة الثانية.

٥. ثم يقول النص: إن هذه الإجراءات أضمن في أداء الشهادة بالحق؛ أو الخوف من رد أيمان الشاهدين الأولين، مما يحملهما على تحري الحق، ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾

٦. وينتهي إلى دعوة الجميع إلى تقوى الله، ومراقبته وخشيته، والطاعة لأوامره، لأن الله لا يهدي من يفسقون عن طريقه، إلى خير ولا إلى هدى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

٧. قال القرطبي في تفسيره عن سبب نزول هذه الآيات الثلاث: (ولا أعلم خلافا أن هذه الآيات الثلاث نزلت بسبب تميم الداري، وعدي بن بدّاء روى البخاري والدار قطني وغيرهما عن ابن عباس قال: كان تميم الداري وعدي بن بداء، يختلفان إلى مكة؛ فخرج معهما فتى من بني سهم، فتوفي بأرض ليس

بها مسلم، فأوصى إليهما، فدفعا تركته إلى أهله، وحبسا جاما من فضة مخوصا بالذهب، فاستحلفهما رسول الله ﷺ: (ما كتمتما ولا اطلعتما)، ثم وجد الجام بمكة، فقالوا: اشتريناه من عدي وتميم، فجاء رجلان من ورثة السهمي فحلفا أن هذا الجام للسهمي، ولشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا، قال فأخذ الجام، وفيهم نزلت هذه الآية.. وواضح أن لطبيعة المجتمع الذي نزلت هذه الأحكام لتنظيمه دخلا في شكل الإجراءات، وربما في طبيعة هذه الإجراءات، فالإشهاد والائتمان على هذا النحو، ثم الحلف بالله في مجتمع بعد الصلاة، لاستجاشة الوجدان الديني، والتحرج كذلك من الفضيحة في المجتمع عند ظهور الكذب والخيانة.. كلها تشي بسمات مجتمع خاص، تفي بحاجاته وملابساته هذه الإجراءات.

٨. ولقد تملك المجتمعات اليوم وسائل أخرى للإثبات، وأشكالا أخرى من الإجراءات، كالكتابة والتسجيل والإيداع في المصارف.. وما إليها.. ولكن، أو فقد هذا النص قدرته على العمل في المجتمعات البشرية؟ إننا كثيرا ما نخدع ببيئة معينة، فنظن أن بعض التشريعات وبعض الإجراءات قد فقدت فاعليتها، ولم تعد لها ضرورة، وأنها من مخلفات مجتمعات مضى زمنها! لأن البشرية استجدّت وسائل أخرى! أجل كثيرا ما نخدع فننسى أن هذا الدين جاء للبشرية جميعا، في كل أقطارها، وفي كل أعصارها، وأن كثرة ضخمة من هذه البشرية اليوم ما تزال بدائية أو متدرجة من البداوة، وأنها في حاجة إلى أحكام وإجراءات تواكب حاجاتها في جميع أشكالها وأطوارها، وأنها تجد في هذا الدين ما يلبي هذه الحاجات في كل حالة، وأنها حين ترتقي من طور إلى طور تجد في هذا الدين كفايتها كذلك بنفس النسبة؛ وتجد في شريعته ما يلبي حاجاتها الحاضرة، ثم يرتقي بها إلى تلبية حاجاتها المتطورة.. وأن هذه معجزة هذا الدين ومعجزة شريعته؛ وآية أنه من عند الله، وأنها من اختياره سبحانه، على أننا نخدع كذلك مرة أخرى حين ننسى الضرورات التي يقع فيها الأفراد من البيئات التي تجاوزت هذه الأطوار؛ والتي يسعفهم فيها يسر هذه الشريعة وشمولها، ووسائل هذا الدين المعدة للعمل في كل بيئة وفي كل حالة، في البدو والحضر، في الصحراء والغابة، لأنه دين البشرية كلها في جميع أعصارها وأقطارها.. وتلك أيضا إحدى معجزاته الكبرى.

٩. إننا نخدع حين نتصور أننا ـ نحن البشر ـ أبصر بالخلق من رب الخلق.. فتردنا الوقائع إلى التواضع! وما أولانا أن نتذكر قبل أن تصدمنا الأحداث، وأن نعرف أدب البشر في حق خالق البشر..

أدب العبيد في حق رب العبيد.. لو كنا نتذكر ونعرف، ونثوب.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. هذه الآيات الثلاث تعرض لأمر كان يقع كثيرا في حياة المسلمين وهم على سفر، لغزو أو تجارة، وبمنقطع عن أهليهم وذوى قرابتهم.. فيمرض أحدهم، ويجد ريح الموت دانية منه، وبين يديه مال أو متاع، يريد أن يصل إلى ولده وأهله.. تلك هي المشكلة التي عرضت لها هذه الآيات، وجاءت لتضع العلاج السليم لها، حتى تصل الحقوق إلى أهلها، وحتى يموت الميت وهو مطمئن إلى أنه لن يعتدى على ماله، وهو لا يملك أن يدفع هذا الاعتداء، وقد أصبح في عالم الموتى!

٢. والملاحظ في هذه الآيات أنها جاءت على نظم خاص، وأسلوب يكاد يكون فريدا في القرآن الكريم.. فقد كثر فيها الخروج على مألوف النظم القرآني خروجا متعمّدا.. فهناك تقديم وتأخير.. بحيث تبدو الجمل، وكأنما يدفع بعضها بعضا، ليزيله عن موضعه قسرا.. وهناك جمل اعتراضية، تكاد تعزل المبتدأ عن خبره، والفعل عن فاعله.. بحيث لا يهتدى إلى الجمع بينهما إلا بعد نظر دقيق، وبحث شامل.. وهناك ضمائر يتجاذبها أكثر من عائد يريدها أن تعود إليه، وتلتقى به.. ثم هناك هذا العسر الشديد في التقاط الكلمات، وشدّها إلى اللسان، وجمعها عليه.. هذا وذاك كلّه، مما يجعلنا نقف بين يدى هذه الآيات، ونملأ العين والقلب من بعض ما يفيض من أضوائها، لعلّنا نمسك بشيء من الحكمة في قيام بنائها على هذه الصورة الفريدة في النظم القرآني ونقرأ الآيات مرة ومرة، فإذا هي كعهدنا بها تتأبّى على اللسان، وتكاد تمسك به.

٣. ثم نعود فنقرؤها قرآنا مرتلا، ونجيئها مستصحبين قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾، فإذا هي كلمات متناغمة، يأنس بعضها إلى بعض، ويتجاوب بعضها مع بعض، وإذا هي على اللسان ليّنة المسّ، عذبة المذاق، وإذا هي على الأذن لحن موسيقى، علوىّ النغم، يهزّ القلب، ويمسك بمجامعه! وننظر في وجه الآيات مرة أخرى، فإذا هي مسفرة مشرقة، تتلألأ بأضواء الحكمة والموعظة الحسنة، وإذا بنا منها بين

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/٦٤.

يدى دعوة قاهرة، وسلطان غالب، يلزمنا أن نقف عند حدوده، ويمسكنا أن نفلت من بين يديه، إذا نحن حاولنا ذلك، واستجبنا لداعى أنفسنا للإفلات منه..

٤. سؤال وإشكال: ونسأل: ما حكمة هذا التدبير في النظم الذي جاءت عليه تلك الآيات؟ ولم هذا الخروج الذي جاء عن عمد، على غير المألوف من النظم القرآني؟ والجواب:

أ. أولا: أن هذه الآيات تضبط حالا من أحوال الناس، تقع على صورة غير مألوفة لما تجرى عليه حياتهم، في الغالب الأعمّ منها.. فالناس أكثر ما يموتون، يموتون وهم بين أهليهم، وذوى قرابتهم.. حيث يجد من يحضره الموت منهم، الوجوه التي ألفها، وعاش معها، وأودعها سرّه وما ملكت يمينه.. فلا يجد ـ والحال هذه ـ من الوحشة للموت، أو الفزع منه، والخوف الكارب من الضياع له، ولماله ومتاعه الذي بين يديه، ما يجده ذلك الذي يموت غريبا، في طريق سفر، أو دار غربة.. ومن هنا جاءت كلمات الآية متزاحمة، متراكبة، أشبه بتلك الحال القلقة المضطربة، المستولية على هذا الغريب الذي يحضره الموت، وفي صدره كثير من الأسرار، يريد أن يفضى بها إلى أهله، ويكشف مستورها لهم، هذه واحدة!

ب. وثانيا: الذين حضروا هذا الميت الغريب، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة من الحياة، قد شهدوا منه هذا الاضطراب المستولى عليه، وتلك الوحشة التي تمسك لسانه، وتردّ الأسرار التي تضطرب في صدره.. ثم إذ هم يطلّون عليه بنظرات حزينة، مواسية، يرى أنهم أهل لأن يفضى لهم ببعض ما عنده.. إذ كان ما لا بد أن يكون.. وهنا شدّ وجذب، وأخذ وعطاء، وخواطر متناثرة، وكلمات حذرة قلقة، ملفّفة في دخان من الريبة والشك، وأسرار تمشى على استحياء، يعرّف بعضها ويعرض عن يعض.. ومن هنا أمسك النظم القرآني بهذه المشاعر المختلطة المضطربة، وعرضها في هذه الصورة، التي تكاد تكون وعاء حاملا لتلك المشاعر، بحيث ترى وتحسّ، وتلك أخرى..

ج. وثالثا: هذا المتاع الذي بين يدى هذا الإنسان المحتضر.. إنه متعلق بأكثر من جهة.. فهناك صاحب هذا المتاع الذي يريده أن يبلغ أهله، وهو في شك من أن يصل إليهم سالما.. وهناك الشاهدان اللذان أشهدهما المحتضر على وصيّته، ووضع في أيديهما كل ما في يده.. إنهما يحملان أمانة ليس وراءها من يطالبهم بها، إلا ما معهما من إيمان وتقوى.. وما أكثر وساوس النفس في تلك الحال، وما أكثر نداءها الصارخ لاغتيال هذا المال الذي غاب عنه صاحبه.. إن لم يكن كله، فالخيار الكريم منه، وهناك ورثة

صاحب هذا المال، ومن أوصى لهم بشيء منه.. إنهم مهما حرص الشاهدان على أداء الأمانة كاملة فيما اؤتمنا عليه، ومهما تحرّيا الصدق في قولهما، وفيما أدى إليهما هذا الميت من اعترافات وأسرار وأموال ـ فلن يقع هذا كله من أهل الميت موقع اليقين والطمأنينة.. من أجل هذا أيضا كان تنازع الكلمات القرآنية فيما بينها، حتى لكأنها هذه الجهات المتنازعة المتخاصمة، في مسارب نفوسها، وفي مجرى خواطرها، حتى وإن لم يتخذ هذا النزاع وذلك التخاصم صورة عملية في واقع الحياة..! وقد آن لنا ـ بعد هذا ـ أن ننظر في معنى هذه الآيات، على هذا الوجه الذي فهمناها عليه، ونظرنا إليها منه..

٥. فقوله تعالى: ﴿يَا أيها الَّذِينَ آمنوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أو آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ هو تشريع للمؤمنين، فيما يواجهون به موقفا كهذا الموقف، وهو موت أحدهم، وهو يضرب في الأرض، بعيدا عن أهله، وذوى قرابته، ففي تلك الحال ينبغي أن يتخيّر المحتضر شاهدين، يتوسم فيهما الأمانة والاستقامة، ثم يدعوهما إليه، ويفضى إليهما بما يريد أن يوصى به أهله فيما خلّفه وراءه من شئون تتصل بماله وأهله، وماله، وما عليه.. ثم يسلّم إليهما ما يريد أن يحملاه إلى أهله، من ماله ومتاعه، فقوله تعالى: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ مبتدأ، خبره ﴿اثْنَانِ﴾، والجملة الخبرية هنا مراد بها الأمر والإلزام.. والتقدير، إذا حضر أحدكم الموت فشهادة قائمة بينكم لهذا المحتضر، يشهدها اثنان ذوا عدل منكم.. أي من المؤمنين، ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي غير المؤمنين، عند الضرورة.

٦. وقوله تعالى: ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ إشارة إلى أن هذا الموت الذي يقع في الغربة هو شيء أكثر من الموت، لما يبعث من حسرة مضاعفة.. في المحتضر الذي لم يشهده أهله، وفي أهله الذين لم يحضروا موته، ولم يؤدّوا ما يجب للميت على الحىّ.. ومن هنا جاء التعبير عن الموت بالمصيبة، الذي هو في واقعه شيء طبيعي في غير تلك الحال التي وقع فيها.

٧. فإذا أدّى الشاهدان ما حمّلهما الميت إلى أهله، من قول، ومن مال ومتاع، ورضى أهله بما أدّى إليهما الشاهدان، فقد انتهى الأمر عند هذا الحدّ، ولا متعلّق لأحد عند هذين الشاهدين، أما إذا وقع في نفس الورثة وأولياء الميت شيء من الريبة والشك، فيما جاءهم به الشاهدان من عند صاحبهم، ثم ارتقى هذا الشك والارتياب إلى التهمة، ثم النزاع والخصام، فإن للقضية وجها آخر.. بل وجهين آخرين.

٨. والوجه الأول، هو أن يدعى الشاهدان إلى الحلف على ما أشهدهما عليه الميت، وما حملهما من مال ومتاع.. وحلف الشاهدين مشروط بشرط، وهو أن يدعيا بعد الصلاة مباشرة، وهما خارجان من بين يدى الله، قبل أن يتلبّسا بشيء من أمور الدنيا، وذلك ليكون لهذا الموقف أثره في إقامة شهادتهما على الحق والعدل، أو على ما هو أقرب إلى الحق والعدل.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾، فحبسهما من بعد الصلاة، هو إمساكهما قبل أن يتّصلا بالحياة العامة، ويباشرا شئونا مختلفة فيها.. حتى يكونا أقرب إلى الخير، وأبعد من الضلال، وقد اختلف في الصلاة التي يحبسان بعدها، أهي صلاة العصر، أو صلاة الظهر؟، والرأي أنها أي صلاة، حيث أطلق القرآن ذلك، ولم يقيده.

٩. وقوله تعالى: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ هو جملة اعتراضية، أريد بها بيان الحال الدّاعية إلى حلف الشاهدين، وهي الشك والريبة في شهادتهما.. وقوله تعالى: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ هو بيان لنصّ الحلفة التي يحلف بها الشاهدان.. وفيها من التوكيد والتحذير والتخويف، ما يجعل لهذه الحلفة أثرا واقعا في نفس الشاهدين.. والضمير في قوله تعالى: ﴿بِهِ﴾ يعود إلى هذا القسم الذي يقسمان به، وأنهما لا يحنثان في هذا القسم، ولا يبيعانه بهذا الثمن وإن كثر، لأنه حطام من حطام الدنيا، لا يساوى شيئا إزاء جلال الله وعظمته، وقد أقسما به، وأشهداه على ما يقولان.

١٠. هذا، وقد أثار بعض الفقهاء والمفسرين اعتراضا على حلف الشاهدين.. وأنهما حين ردّ ورثة الميت شهادتهما، أصبحا متهمين بالنسبة لهم، على حين أصبح أهل الميت أصحاب دعوى عليهما.. وإذ لم يكن لأهل الميت بينة على دعواهم، كان على المدعى عليهما الحلف، عملا بالمبدإ الشرعي: (البينة على من ادّعى واليمين على من أنكر)، فهما على هذا الرأي متهمان، وليسا شاهدين، فإذا وجد أهل الميت مقنعا بعد حلف الشاهدين، انتهى الأمر، وإلا سارت القضية إلى الوجه الآخر من وجهيها.. وفي هذا الوجه يندب أهل الميت اثنين منهما، فيشهدان بما يعلمان من أمر الميت، مما لم يشهد به الشاهدان من قبل.. على أنه لا يصار إلى هذا الموقف إلا بعد أن يثبت بالبيّنة القاطعة، والبرهان الواضح، أن الشاهدين لم يقولا الحق، ولم يؤدّيا الأمانة.. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿فإِن عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾، والمعنى: فإن

ظهر، أو تبين أن الشاهدين قد اقترفا إثما بسبب تلك الشهادة التي أدّياها على غير وجهها، فليقم آخران مقامهما بتلك الشهادة، من أهل الميت الدين فرض عليهم الشاهدان السابقان، واللذان كانا أولى منهم بالحكم في شئون قريبهم الميت، لأنهما شاهدان، رأيا، وسمعا، على حين أن أهله غائبون عنه، لم يروا ولم يسمعوا..

١١. في قوله تعالى: ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ تحريض للشاهدين على أن يؤدّيا الشهادة على وجهها، وأنهما بما احتملا من أمانة الشهادة، أصبحا بهذه المنزلة من الميت، وأنهما أقرب من قرابته وأولى منهم بكلمة الفصل في شئونه، ولكنهما إذا خانا الأمانة، ولم يؤديا الشهادة على وجهها، زحزحا عن هذا الموقف، وانتقلا من منصّة الحكم، إلى موقف الاتهام.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أو يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ إيمان بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾.. أي في هذا التدبير الحكيم بإقامة شاهدين من أولياء الميت مقام هذين الشاهدين، عند العثور على خيانتهما ـ في هذا ما يدعوهما إلى الحرص على أداء الشهادة، أقرب ما تكون إلى الحق، إن لم يكن ذلك عن ديانة وإيمان، كان عن خوف من الفضيحة والاتهام والخزي أمام الناس.

١٢. ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ هو دعوة للشاهدين، ولأولياء الميت، ثم لكل مؤمن، بتقوى الله، والامتثال لأمره ونهيه، فمن خرج عن شريعة الله، فهو في ضلال دائم، لا يهتدى إلى خير أبدا.. ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٥]

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. استؤنفت هذه الآي استئنافا ابتدائيا لشرع أحكام التوثّق للوصية لأنّها من جملة التشريعات التي تضمّنتها هذه السورة، تحقيقا لإكمال الدين، واستقصاء لما قد يحتاج إلى علمه المسلمون وموقعها هنا سنذكره.

٢. وقد كانت الوصية مشروعية بآية البقرة [١٨٠] ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ

---

(١) التحرير والتنوير: ٥/٢٤٤.

خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾ وتقدّم القول في ابتداء مشروعيتها وفي مقدار ما نسخ من حكم تلك الآية وما أحكم في موضعه هنالك، وحرص رسول الله ﷺ على الوصية وأمر بها، فكانت معروفة متداولة منذ عهد بعيد من الإسلام، وكانت معروفة في الجاهلية كما تقدّم في سورة البقرة، وكان المرء يوصي لمن يوصي له بحضرة ورثته وقرابته فلا يقع نزاع بينهم بعد موته مع ما في النفوس من حرمة الوصية والحرص على إنفاذها حفظا لحقّ الميّت إذ لا سبيل له إلى تحقيق حقّه، فلذلك استغنى القرآن عن شرع التوثّق لها بالإشهاد، خلافا لما تقدّم به من بيان التوثّق في التبايع بآية ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] والتوثّق في الدين بآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ﴾ [البقرة: ٢٨٢] إلخ فأكملت هذه الآية بيان التوثّق للوصية اهتماما بها ولجدارة الوصية بالتوثيق لها لضعف الذياد عنها لأنّ البيوع والديون فيها جانبان عالمان بصورة ما انعقد فيها ويذبّان عن مصالحهما فيتّضح الحقّ من خلال سعيهما في إحقاق الحقّ فيها بخلاف الوصية فإنّ فيها جانبا واحدا وهو جانب الموصى له لأنّ الموصي يكون قد مات وجانب الموصى له ضعيف إذ لا علم له بما عقد الموصي ولا بما ترك، فكانت معرّضة للضياع كلّها أو بعضها.

٣. وقد كان العرب في الجاهلية يستحفظون وصاياهم عند الموت إلى أحد يثقون به من أصحابهم أو كبراء قبيلتهم أو من حضر احتضار الموصي أو من كان أودع عند الموصي خبر عزمه، فقد أوصى نزار بن معدّ وصية موجزة وأحال أبناءه على الأفعى الجرهمي أن يبيّن لهم تفصيل مراده منها، وقد حدثت في آخر حياة الرسول ﷺ حادثة كانت سببا في نزول هذه الآية، ولعلّ حدوثها كان مقارنا لنزول الآي التي قبلها فجاءت هذه الآية عقبها في هذا الموضع من السورة، ذلك أنّه كان في سنة تسع من الهجرة نزلت قضية: هي أن رجلين أحدهما تميم الداريّ اللخمي والآخر عدي بن بدّاء، كانا من نصارى العرب تاجرين، وهما من أهل (دارين) وكانا يتّجران بين الشام ومكة والمدينة، فخرج معهما من المدينة بديل بن أبي مريم مولى بني سهم - وكان مسلما - بتجارة إلى الشام، فمرض بديل (قيل في الشام وقيل في الطريق برّا أو بحرا) وكان معه في أمتعته جام من فضة مخوّص بالذهب قاصدا به ملك الشام، فلمّا اشتدّ مرضه أخذ صحيفة فكتب فيها ما عنده من المتاع والمال ودسّها في مطاوي أمتعته ودفع ما معه إلى تميم وعدي وأوصاهما بأن يبلّغاه مواليه من بني سهم، وكان بديل مولى للعاصي بن وائل السهمي، فولاؤه بعد موته لابن عمرو بن العاصي، وبعض المفسّرين يقول: إنّ ولاء بديل لعمرو بن العاصي والمطلب بن وداعة، ويؤيّد قولهم أنّ المطلب

حلف مع عمرو بن العاصي على أنّ الجام لبديل بن أبي مريم، فلمّا رجعا باعا الجام بمكة بألف درهم ورجعا إلى المدينة فدفعا ما لبديل إلى مواليه، فلمّا نشروه وجدوا الصحيفة، فقالوا لتميم وعدي: أين الجام فأنكرا أن يكون دفع إليهما جاما، ثم وجد الجام بعد مدة يباع بمكة فقام عمرو بن العاصي والمطلب بن أبي وداعة على الذي عنده الجام فقال: إنّه ابتاعه من تميم وعديّ، وفي رواية أنّ تميما لما أسلم في سنة تسع تأثّم ممّا صنع فأخبر عمرو بن العاصي بخبر الجام ودفع له الخمسمائة الدرهم الصائرة إليه من ثمنه، وطالب عمرو عديا ببقية الثمن فأنكر أن يكون باعه، وهذا أمثل ما روي في سبب نزول هذه الآية، وقد ساقه البخاري تعليقا في كتاب الوصايا، ورواه الترمذي في كتاب التفسير، وقال: ليس إسناده بصحيح، وهو وإن لم يستوف شروط الصحة فقد اشتهر وتلقّى بالقبول، وقد أسنده البخاري في (تاريخه)

٤. واتّفقت الروايات على أنّ الفريقين تفاضوا في ذلك إلى رسول الله ﷺ ونزلت هذه الآية في ذلك، فحلف عمرو بن العاصي والمطّلب بن أبي وداعة على أنّ تميما وعديا أخفيا الجام وأنّ بديلا صاحبه وما باعه ولا خرج من يده، ودفع لهما عدي خمسمائة درهم وهو يومئذ نصراني، وعدي هذا قيل: أسلم، وعدّه ابن حبّان وابن مندة في عداد الصحابة، وقيل: مات نصرانيا، ورجّح ذلك ابن عطية، وهو قول أبي نعيم، ويروى عن مقاتل، ولم يذكره ابن عبد البر في الصحابة، واحتمل أن يكون نزولها قبل الترافع بين الخصم في قضية الجام، وأن يكون نزولها بعد قضاء النبي ﷺ في تلك القضية لتكون تشريعا لما يحدث من أمثال تلك القضية.

٥. و﴿بَيْنِكُمْ﴾ أصل (بين) اسم مكان مبهم متوسّط بين شيئين يبيّنه ما يضاف هو إليه، وهو هنا مجاز في الأمر المتعلّق بعدّة أشياء، وهو مجرور بإضافة ﴿شَهَادَةُ﴾ إليه على الاتّساع، وأصله (شهادة) بالتنوين والرفع (بينكم) بالنصب على الظرفية، فخرج (بين) عن الظرفية إلى مطلق الاسمية كما خرج عنها في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] في قراءة جماعة من العشرة برفع ﴿بَيْنُكُمْ﴾

٦. وارتفع ﴿شَهَادَةُ﴾ على الابتداء، وخبره ﴿اثْنَانِ﴾، و﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ ظرف زمان مستقبل، وليس في (إذا) معنى الشرط، والظرف متعلّق بـ ﴿شَهَادَةُ﴾ لما فيه من معنى الفعل، أي ليشهد إذا حضر أحدكم الموت اثنان، يعني يجب عليه أن يشهد بذلك ويجب عليهما أن يشهدا لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢]

٧. و﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ بدل من ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ بدلا مطابقا، فإنّ حين حضور الموت هو الحين الذي يوصي فيه الناس غالبا، جيء بهذا الظرف الثاني ليتخلّص بهذا البدل إلى المقصود وهو الوصية، وقد كان العرب إذا راوا علامة الموت على المريض يقولون: أوص، وقد قالوا ذلك لعمر بن الخطاب حين أخبر الطبيب أنّ جرحه في أمعائه، ومعنى حضور الموت حضور علاماته لأن تلك حالة يتخيّل فيها المرء أنّ الموت قد حضر عنده ليصيّره ميتا، وليس المراد حصول الغرغرة لأنّ ما طلب من الموصي أن يعمله يستدعي وقتا طويلا، وقد تقدّم عند قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ في سورة البقرة [١٨٠]

٨. وقوله: ﴿اثْنَانِ﴾ خبر عن ﴿شَهَادَةً﴾، أي الشهادة على الوصية شهادة اثنين، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فأخذ إعرابه، والقرينة واضحة والمقصود الإيجاز، فما صدق ﴿اثْنَانِ﴾ شاهدان، بقرينة قوله: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾، وقوله: ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾، وهذان الشاهدان هما وصيّان من الميّت على صفة وصيّته وإبلاغها، إلّا أن يجعل الموصي وصيا غيرهما فيكونا شاهدين على ذلك، والعدل والعدالة متّحدان، أي صاحبا اتّصاف بالعدالة.

٩. ومعنى ﴿مِنْكُمْ﴾ من المؤمنين، كما هو مقتضى الخطاب بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، لأنّ المتكلّم إذا خاطب مخاطبه بوصف ثم أتبعه بما يدلّ على بعضه كان معناه أنّه بعض أصحاب الوصف، كما قال الأنصار يوم السقيفة: منّا أمير ومنكم أمير، فالكلام على وصية المؤمنين، وعلى هذا درج جمهور المفسّرين، وهو قول أبي موسى الأشعري، وابن عبّاس، وسعيد بن المسيّب، وقتادة، والأئمة الأربعة، وهو الذي يجب التعويل عليه، وهو ظاهر الوصف بكلمة ﴿مِنْكُمْ﴾ في مواقعها في القرآن، وقال الزهري، والحسن، وعكرمة: معنى قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ من عشيرتكم وقرابتكم، ويترتّب على التفسير الأول أن يكون معنى مقابله وهو﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أنّه من غير أهل ملّتكم، فذهب فريق ممّن قالوا بالتفسير الأول إلى إعمال هذا وأجازوا شهادة غير المسلم في السفر في الوصية خاصّة، وخصّوا ذلك بالذمّي، وهو قول أحمد، والثوري، وسعيد بن المسيّب، ونسب إلى ابن عبّاس، وأبي موسى، وذهب فريق إلى أنّ هذا منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [الطلاق: ٢]، وهو قول مالك، وأبي حنيفة، والشافعي، ونسب إلى زيد بن أسلم، وقد تمّ الكلام على الصورة الكاملة في شهادة الوصية بقوله: ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾

١٠. وقوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ الآيات.. تفصيل للحالة التي تعرض في السفر، و(أو) للتقسيم لا للتخيير، والتقسيم باعتبار اختلاف الحالين: حال الحاضر وحال المسافر، ولذلك اقترن به قوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، فهو قيد لقوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾

١١. وجواب الشرط في قوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ محذوف دلّ عليه قوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾، والتقدير: إن أنتم ضربتم في الأرض فشهادة آخرين من غيركم، فالمصير إلى شهادة شاهدين من غير المسلمين عند من يراه مقيّد بشرط ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، والضرب في الأرض: السير فيها، والمراد به السفر، وتقدّم عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ في سورة آل عمران [١٥٦]

١٢. ومعنى: ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ حلّت بكم، والفعل مستعمل في معنى المشارفة والمقاربة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً﴾ [النساء: ٩]، أي لو شارفوا أن يتركوا ذرّيّة، وهذا استعمال من استعمال الأفعال، ومنه قولهم في الإقامة: قد قامت الصلاة.

١٣. وعطف قوله: ﴿فَأَصَابَتْكُمْ﴾ على ﴿ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، فكان من مضمون قوله قبله ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾، أعيد هنا لربط الكلام بعد ما فصل بينه من الظروف والشروط، وضمير الجمع في ﴿فَأَصَابَتْكُمْ﴾ كضمير الجمع في ﴿ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، والمصيبة: الحادثة التي تحلّ بالمرء من شرّ وضرّ، وتقدّم عند قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ في سورة النساء [٧٢]

١٤. وجملة ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ حال من ﴿آخَرَانِ﴾ عند من جعل قوله: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ بمعنى من غير أهل دينكم، وأمّا عند من جعله بمعنى من غير قبيلتكم فإنّه حال من ﴿اثْنَانِ﴾ ومن ﴿آخَرَانِ﴾ لأنّهما متعاطفان بـ (أو)، فهما أحد قسمين، ويكون التحليف عند الاسترابة، والتحليف على هذا التأويل بعيد إذ لا موجب للاسترابة في عدلين مسلمين.

١٥. وضمير الجمع في ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ كضميري ﴿ضَرَبْتُمْ﴾ ـ و﴿فَأَصَابَتْكُمْ﴾، وكلّها مستعملة في الجمع البدلي دون الشمولي، لأنّ جميع المخاطبين صالحون لأن يعتريهم هذا الحكم وإنّما يحلّ ببعضهم، فضمائر جمع المخاطبين واقعة موقع مقتضى الظاهر كلّها، وإنّما جاءت بصيغة الجمع لإفادة العموم، دفعا لأن يتوهّم أنّ هذا التشريع خاصّ بشخصين معيّنين لأنّ قضية سبب النزول كانت في شخصين؛ أو

الخطاب والجمع للمسلمين وحكّامهم، والحبس: الإمساك، أي المنع من الانصراف، فمنه ما هو بإكراه كحبس الجاني في بيت أو إثقافه في قيد، ومنه ما يكون بمعنى الانتظار، كما في حديث عتبان بن مالك فغدا علي رسول الله وأبو بكر ـ إلى أن قال ـ وحبسناه على خزير صنعناه، أي أمسكناه، وهذا هو المراد في الآية، أي تمسكونهما ولا تتركونهما يغادرانكم حتّى يتحمّلا الوصية، وليس المراد به السجن أو ما يقرب منه، لأنّ الله تعالى قال: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]

١٦. وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ توقيت لإحضارهما وإمساكهما لأداء هذه الشهادة، والإتيان بـ (من) الابتدائية لتقريب البعديّة، أي قرب انتهاء الصلاة، وتحتمل الآية أنّ المراد بالصلاة صلاة من صلوات المسلمين، وبذلك فسّرها جماعة من أهل العلم، فمنهم من قال هي صلاة العصر، وروي أنّ النبي ﷺ أحلف تميما الداري وعدي بن بدّاء في قضية الجام بعد العصر، وهو قول قتادة، وسعيد، وشريح، والشعبي، ومنهم من قال الظهر، وهو عن الحسن، وتحتمل من بعد صلاة دينهما على تأويل من غيركم بمعنى من غير أهل دينكم، ونقل عن السديّ، وابن عبّاس، أي تحضرونهما عقب أدائهما صلاتهما لأنّ ذلك قريب من إقبالهما على خشية الله والوقوف لعبادته.

١٧. وقوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ﴾ عطف على ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ فعلم أنّ حبسهما بعد الصلاة لأجل أن يقسما بالله، وضمير ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾ عائد إلى قوله: ﴿آخَرَانِ﴾، فالحلف يحلفه شاهدا الوصية اللذان هما غير مسلمين لزيادة الثقة بشهادتهما لعدم الاعتداد بعدالة غير المسلم.

١٨. وقوله: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ تظافرت أقوال المفسّرين على أنّ هذا شرط متّصل بقوله: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ وما عطف عليه، واستغني عن جواب الشرط لدلالة ما تقدّم عليه ليتأتّى الإيجاز، لأنّه لو لم يقدّم لقيل: أو آخران من غيركم فإن ارتبتم فيهما تحبسونهما إلى آخره، فيقتضي هذا التفسير أنّه لو لم تحصل الريبة في صدقهما لما لزم إحضارهما من بعد الصلاة وقسمهما، فصار ذلك موكولا لخيرة الولي، وجملة الشرط معترضة بين فعل القسم وجوابه، والوجه عندي أن يكون قوله: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ من جملة الكلام الذي يقوله الشاهدان، ومعناه أنّ الشاهدين يقولان: إن ارتبتم في شهادتنا فنحن نقسم بالله لا نشتري به ثمنا ولو كان ذا قربى ولا نكتم الشهادة، أي يقولان ذلك لاطمئنان نفس الموصي، لأنّ العدالة مظنّة الصدق مع احتمال وجود ما ينافيها ممّا لا يطّلع عليه فأكّدت مظنّة الصدق بالحلف؛ فيكون شرع هذا الكلام على كلّ شاهد ليستوي فيه

جميع الأحوال بحيث لا يكون توجيه اليمين في بعض الأحوال حرجا على الشاهدين الذين توجّهت عليهما اليمين من أنّ اليمين تعريض بالشكّ في صدقهما، فكان فرض اليمين من قبل الشرع دافعا للتحرّج بينهما وبين الوليّ، لأنّ في كون اليمين شرطا من عند الله معذرة في المطالبة بها، كما قال جمهور فقهائنا في يمين القضاء التي تتوجّه على من يثبت حقّا على ميّت أو غائب من أنّها لازمة قبل الحكم مطلقا ولو أسقطها الوارث الرشيد، ولم أقف على من عرّج على هذا المعنى من المفسّرين إلّا قول الكواشي في (تلخيص التفسير): (وبعضهم يقف على ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾ ويبتدئ ﴿بِاللهِ﴾ قسما ولا أحبّه)، وإلّا ما حكاه الصفاقسي في (معربه) عن الجرجاني (أنّ هنا قولا محذوفا تقديره: فيقسمان بالله ويقولان)، ولم يظهر للصفاقسي ما الذي دعا الجرجاني لتقدير هذا القول، ولا أراه حمله عليه إلّا جعل قوله: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ من كلام الشاهدين، وجواب الشرط محذوف يدلّ عليه جواب القسم، فإنّ القسم أولى بالجواب لأنّه مقدّم على الشرط.

١٩. وقوله: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾، ذلك هو المقسم عليه، ومعنى ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ لا نعتاض بالأمر الذي أقسمنا عليه ثمنا، أي عوضا، فضمير به، عائد إلى القسم المفهوم من ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾، وقد أفاد تنكير ﴿ثَمَنًا﴾ في سياق النفي عموم كلّ ثمن، والمراد بالثمن العوض، أي لا نبدّل ما أقسمنا عليه بعوض كائنا ما كان العوض، ويجوز أن يكون ضمير ﴿بِهِ﴾ عائدا إلى المقسم عليه وهو ما استشهدا عليه من صيغة الوصي بجميع ما فيها.

٢٠. وقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ حال من قوله: ﴿ثَمَنًا﴾ الذي هو بمعنى العوض، أي ولو كان العوض ذا قربى، أي ذا قربى منّا، و(لو) شرط يفيد المبالغة فإذا كان ذا القربى لا يرضيانه عوّضا عن تبديل شهادتهما فأولى ما هو دون ذلك، وذلك أنّ أعظم ما يدفع المرء إلى الحيف في عرف القبائل هو الحميّة والنصرة للقريب، فذلك تصغر دونه الرّشا ومنافع الذات، والضمير المستتر في ﴿كَانَ﴾ عائد إلى قوله: ﴿ثَمَنًا﴾، ومعنى كون الثمن، أي العوض، ذا قربى أنّه إرضاء ذي القربى ونفعه فالكلام على تقدير مضاف، وهو من دلالة الاقتضاء لأنّه لا معنى لجعل العوض ذات ذي القربى، فتعيّن أنّ المراد شيء من علائقه يعيّنه المقام، ونظيره ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، وقد تقدّم وجه دلالة مثل هذا الشرط بـ(لو) وتسميتها وصلية عند قوله تعالى: ﴿وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾ من سورة آل عمران [٩١]

٢١. وقوله: ﴿وَلَا نَكْتُمُ﴾ عطف على ﴿لَا نَشْتَرِي﴾، لأنّ المقصود من إحلافهما أن يؤدّيا الشهادة

كما تلقّياها فلا يغيّرا شيئا منها ولا يكتماها أصلا، وإضافة الشهادة إلى اسم الجلالة تعظيم لخطرها عند الشهادة وغيره لأنّ الله لمّا أمر بأدائها كما هي وحضّ عليها أضافها إلى اسمه حفظا لها من التغيير، فالتصريح باسمه تعالى تذكير للشاهد به حين القسم.

٢٢. وفي قوله: ﴿وَلَا نَكْتُمُ﴾ دليل على أنّ المراد بالشهادة هنا معناها المتعارف، وهو الإخبار عن أمر خاصّ يعرض في مثله الترافع، وليس المراد بها اليمين كما توهّمه بعض المفسّرين فلا نطيل بردّه فقد ردّه اللفظ.

٢٣. وجملة ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ مستأنفة استئنافا بيانيا لأنّها جواب سؤال مقدّر بدليل وجود ﴿إِذًا﴾، فإنّه حرف جواب: استشعر الشاهدان سؤالا من الذي حلفا له بقولهما: لا نشتري به ثمنا ولا نكتم شهادة الله، يقول في نفسه: لعلّكما لا تبرّان بما أقسمتما عليه، فأجابا: إنّا إذن لمن الآثمين، أي إنّا نعلم تبعة عدم البرّ بما أقسمنا عليه أن نكون من الآثمين، أي ولا نرضى بذلك، والآثم: مرتكب الإثم، وقد علم أنّ الإثم هو الحنث بوقوع الجملة استئنافا مع (إذن) الدالّة على جواب كلام يختلج في نفس أولياء الميّت.

٢٤. وقوله: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ﴾ الآية، أي إن تبيّن أنّهما كتما أو بدّلا وحنثا في يمينهما، بطلت شهادتهما، لأنّ قوله: ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ فرع عن بطلان شهادتهما، فحذف ما يعبّر عن بطلان شهادتهما إيجازا كقوله: ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ [البقرة: ٦٠] أي فضرب فانفجرت.

٢٥. ومعنى ﴿عُثِرَ﴾ اطّلع وتبيّن ذلك، وأصل فعل عثر أنّه مصادفة رجل الماشي جسما ناتئا في الأرض لم يترقّبه ولم يحذر منه فيختلّ به اندفاع مشيه، فقد يسقط وقد يتزلزل، ومصدره العثار والعثور، ثم استعمل في الظفر بشيء لم يكن مترقّبا الظفر به على سبيل الاستعارة، وشاع ذلك حتّى صار كالحقيقة، فخصّوا في الاستعمال المعنى الحقيقي بأحد المصدرين وهو العثار، وخصّوا المعنى المجازي بالمصدر الآخر، وهو العثور.

٢٦. ومعنى ﴿اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ ثبت أنّهما ارتكبا ما يأثمان به، فقد حقّ عليهما الإثم، أي وقع عليهما، فالسين والتاء للتأكيد، والمراد بالإثم هو الذي تبرّءا منه في قوله: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ﴾، فالإثم هو أحد هذين بأن يظهر أنّهما استبدلا بما استؤمنا عليه عوضا لأنفسهما أو

لغيرهما، أو بأنّ يظهر أنّهما كتما الشهادة، أي بعضها، وحاصل الإثم أن يتّضح ما يقدح في صدقهما بموجب الثبوت.

٢٧. وقوله: ﴿فَآخَرَانِ﴾ أي رجلان آخران، لأنّ وصف آخر يطلق على المغاير بالذات أو بالوصف مع المماثلة في الجنس المتحدّث عنه، والمتحدث عنه هنا ﴿اثْنَانِ﴾، فالمعنى فاثنان آخران يقومان مقامهما في إثبات الوصية، ومعنى يقومان مقامهما، أي يعوّضان تلك الشهادة، فإنّ المقام هو محلّ القيام، ثم يراد به محلّ عمل ما، ولو لم يكن فيه قيام، ثم يراد به العمل الذي من شأنه أن يقع في محلّ يقوم فيه العامل، وذلك في العمل المهمّ، قال تعالى: ﴿إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي﴾ [يونس: ٧١]، فمقام الشاهدين هو إثبات الوصية.

٢٨. و﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ تبعيضية، أي شخصان آخران يكونان من الجماعة من الذين استحق عليهم، والاستحقاق كون الشيء حقيقا بشيء آخر، فيتعدّى إلى المفعول بنفسه، كقوله: ﴿اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾، وهو الشيء المستحق، وإذا كان الاستحقاق عن نزاع يعدّى الفعل إلى المحقوق بعلى الدالّة على الاستعلاء بمعنى اللزوم له وإن كره، كأنّهم ضمّنوه معنى وجب كقوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٠٥]، ويقال: استحقّ زيد على عمرو كذا، أي وجب لزيد حقّ على عمرو، فأخذه منه.

٢٩. وقرأ الجمهور ﴿اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ بالبناء للمجهول فالفاعل المحذوف في قوله: ﴿اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ هو مستحقّ ما، وهو الذي انتفع بالشهادة واليمين الباطلة، فنال من تركة الموصي ما لم يجعله له الموصي وغلب وارث الموصي بذلك، فالذين استحقّ عليهم هم أولياء الموصي الذين لهم ماله بوجه من وجوه الإرث فحرموا بعضه، وقوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ قائم مقام نائب فاعل ﴿اسْتَحَقَّ﴾

٣٠. وقوله: ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ تثنية أولى، وهو الأجدر والأحقّ، أي الأجدران بقبول قولهما، فما صدقه هو ما صدق الآخران ومرجعه إليه فيجوز، أن يجعل خبرا عن ﴿فَآخَرَانِ﴾، فإنّ ﴿فَآخَرَانِ﴾ لمّا وصف بجملة ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ صحّ الابتداء به، أي فشخصان آخران هما الأوليان بقبول قولهما دون الشاهدين المتّهمين، وإنّما عرّف باللّام لأنّه معهود للمخاطب ذهنا لأنّ السامع إذا سمع قوله: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ ترقّب أن يعرف من هو الأولى: بقبول قوله في هذا الشأن، فقيل له: آخران هما الأوليان بها،

ويجوز أن يكون ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ مبتدأ و﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ﴾ خبره، وتقديم الخبر لتعجيل الفائدة، لأنّ السامع يترقّب الحكم بعد قوله: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ فإنّ ذلك العثور على كذب الشاهدين يسقط شهادتهما ويمينهما، فكيف يكون القضاء في ذلك، فعجّل الجواب، ويجوز أن يكون بدلا من ﴿فَآخَرَانِ﴾ أو من الضمير في ﴿يَقُومَانِ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف، أي هما الأوليان، ونكتة التعريف هي هي على الوجوه كلّها.

٣١. ومعنى ﴿لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ أنّها أولى بأن تقبل شهادتهما من اللذين عثر على أنّهما استحقّا إثما، ومعنى ﴿أَحَقَّ﴾ أنّها الحقّ، فصيغة التفضيل مسلوبة المفاضلة.

٣٢. وقوله: ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ توكيد للأحقّيّة، لأنّ الأحقّية راجعة إلى نفعهما بإثبات ما كتمه الشاهدان الأجنبيان، فلو لم تكن كذلك في الواقع لكانت باطلا واعتداء منهما على مال مبلّغي الوصية، والمعنى: وما اعتدينا على الشاهدين في اتّهامهما بإخفاء بعض التركة.

٣٣. وقوله: ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لو اعتدينا لكنّا ظالمين، والمقصود منه الإشعار بأنّهما متذكّران ما يترتّب على الاعتداء والظلم، وفي ذلك زيادة وازع.

٣٤. وقد تضمّن القسم على صدق خبرهما يمينا على إثبات حقّهما فهي من اليمين التي يثبت بها الحقّ مع الشاهد العرفي، وهو شاهد التهمة التي عثر عليها في الشاهدين اللذين يبلّغان الوصية.

٣٥. والكلام في (إذن) هنا مثل الكلام في قوله: ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾، والمعنى أنّه إن اختلّت شهادة شاهدي الوصية انتقل إلى يمين الموصى له سواء كان الموصى له واحدا أم متعدّدا، وإنّما جاءت الآية بصيغة الاثنين مراعاة للقضية التي نزلت فيها، وهي قضية تميم الداري وعدي بن بدّاء، فإنّ ورثة صاحب التركة كانا اثنين هما: عمرو بن العاصي والمطلب بن أبي وداعة، وكلاهما من بني سهم، وهما موليا بديل بن أبي مريم السهمي صاحب الجام، فبعض المفسّرين يذكر أنهما موليا بديل، وبعضهم يقول: إنّ مولاه هو عمرو بن العاصي، والظاهر من تحليف المطلب ابن أبي وداعة أنّ له ولاء من بديل، إذ لا يعرف في الإسلام أن يحلف من لا ينتفع باليمين، فإن كان صاحب الحقّ واحدا حلف وحده وإن كان أصحاب الحقّ جماعة حلفوا جميعا واستحقّوا، ولم يقل أحد أنّه إن كان صاحب الحقّ واحدا يحلف معه من ليس بمستحقّ، ولا إن كان صاحب الحقّ ثلاثة فأكثر أن يحلف اثنان منهم ويستحقّون كلّهم، فالاقتصار على اثنين في أيمان

الأوليين ناظر إلى قصّة سبب النزول، فتكون الآية على هذا خاصّة بتلك القضية، ويجري ما يخالف تلك القضية على ما هو المعروف في الشريعة في الاستحقاق والتهم، وهذا القول يقتضي أنّ الآية نزلت قبل حكم الرسول ﷺ في وصية بديل بن أبي مريم، وذلك ظاهر بعض روايات الخبر، وفي بعض الروايات ما يقتضي أنّ الآية نزلت بعد أن حكم الرسول ﷺ وحينئذ يتعيّن أن تكون تشريعا لأمثال تلك القضية ممّا يحدث في المستقبل، فيتعيّن المصير إلى الوجه الأول في اشتراط كون الأوليين اثنين إن أمكن، وبقيت صورة لم تشملها الآية مثل أن لا يجد المحتضر إلّا واحدا من المسلمين، أو واحدا من غير المسلمين، أو يجد اثنين أحدهما مسلم والآخر غير مسلم، وكلّ ذلك يجري على أحكامه المعروفة في الأحكام كلّها من يمين من قام له شاهد أو يمين المنكر.

٣٦. والمشار إليه في قوله: (ذلك أدنى) إلى المذكور من الحكم من قوله: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ - إلى قوله - ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾، و﴿أَدْنَى﴾ بمعنى أقرب، والقرب هنا مجاز في قرب العلم وهو الظنّ، أي أقوى إلى الظنّ بالصدق.

٣٧. وضمير ﴿يَأْتُوا﴾ عائد إلى (الشهداء) وهم: الآخران من غيركم، والآخران اللذان يقومان مقامهما، أي أن يأتي كلّ واحد منهم، فجمع الضمير على إرادة التوزيع، والمعنى أنّ ما شرع الله من التوثيق والضبط، ومن ردّ الشهادة عند العثور على الريبة أرجى إلى الظنّ بحصول الصدق لكثرة ما ضبط على كلا الفريقين ممّا ينفي الغفلة والتساهل، بله الزور والجور مع توقّي سوء السمعة.

٣٨. ومعنى ﴿أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ﴾: أن يؤدّوا الشهادة، جعل أداؤها والإخبار بها كالإتيان بشيء من مكان.

٣٩. ومعنى قوله: ﴿عَلَى وَجْهِهَا﴾، أي على سنّتها وما هو مقوّم تمامها وكمالها، فاسم الوجه في مثل هذا مستعار لأحسن ما في الشيء وأكمله تشبيها بوجه الإنسان، إذ هو العضو الذي يعرف به المرء ويتميز عن غيره، ولمّا أريد منه معنى الاستعارة لهذا المعنى، وشاع هذا المعنى في كلامهم، قالوا: جاء بالشيء الفلاني على وجهه، فجعلوا الشيء مأتيّا به، ووصفوه بأنه أتي به متمكّنا من وجهه، أي من كمال أحواله، فحرف (على) للاستعلاء المجازي المراد منه التمكّن، مثل ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥]

٤٠. والجارّ والمجرور في موضع الحال من ﴿بِالشَّهَادَةِ﴾، وصار ذلك قرينة على أنّ المراد من الوجه

غير معناه الحقيقي، وسنّة الشهادة وكمالها هو صدقها والتثبّت فيها والتنبّه لما يغفل عنه من مختلف الأحوال التي قد يستخفّ بها في الحال وتكون للغفلة عنها عواقب تضيّع الحقوق، أي ذلك يعلّمهم وجه التثبّت في التحمّل والأداء وتوخّي الصدق، وهو يدخل في قاعدة لزوم صفة اليقظة للشاهد.

٤١. وفي الآية إيماء إلى حكمة مشروعية الإعذار في الشهادة بالطعن أو المعارضة، فإنّ في ذلك ما يحمل شهود الشهادة على التثبّت في مطابقة شهادتهم، للواقع لأنّ المعارضة والإعذار يكشفان عن الحقّ.

٤٢. وقوله: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ عطف على قوله: ﴿أَنْ يَأْتُوا﴾ باعتبار ما تعلّق به من المجرورات، وذلك لأنّ جملة ﴿يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾ أفادت الإتيان بها صادقة لا نقصان فيها بباعث من أنفس الشهود، ولذلك قدّرناه بمعنى أن يعلموا كيف تكون الشهادة الصادقة، فأفادت الجملة المعطوف عليها إيجاد وازع للشهود من أنفسهم، وأفادت الجملة المعطوفة وازعا هو توقّع ظهور كذبهم، ومعنى ﴿أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ﴾ أن ترجّع أيمان إلى ورثة الموصي بعد أيمان الشهيدين، فالردّ هنا مجاز في الانتقال، مثل قولهم: قلب عليه اليمين، فيعيّروا به بين الناس؛ فحرف (أو) للتقسيم، وهو تقسيم يفيد تفصيل ما أجمله الإشارة في قوله: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى﴾.. وجمع الأيمان باعتبار عموم حكم الآية لسائر قضايا الوصايا التي من جنسها، على أنّ العرب تعدل عن التثنية كثيرا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤] وذيّل هذا الحكم الجليل بموعظة جميع الأمّة فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ الآية.

٤٣. وقوله: ﴿وَاسْمَعُوا﴾ أمر بالسمع المستعمل في الطاعة مجازا، كما تقدّم في قوله تعالى: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ في هذه السورة [٧]

٤٤. وقوله: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ تحريض على التقوى والطاعة لله فيما أمر ونهى، وتحذير من مخالفة ذلك، لأنّ في اتّباع أمر الله هدى وفي الإعراض فسقا، ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي المعرضين عن أمر الله، فإنّ ذلك لا يستهان به لأنّه يؤدّي إلى الرين على القلب فلا ينفذ إليه الهدى من بعد فلا تكونوهم وكونوا من المهتدين.

٤٥. هذا تفسير الآيات توخّيت فيه أوضح المعاني وأوفقها بالشريعة، وأطلت في بيان ذلك لإزالة ما غمض من المعاني تحت إيجازها البليغ، وقد نقل الطيبي عن الزجّاج أنّ هذه الآية من أشكل ما في القرآن من الإعراب، وقال الفخر: روى الواحدي عن عمر: هذه الآية أعضل ما في هذه السورة من الأحكام،

وقال ابن عطية عن مكّي بن أبي طالب: هذه الآيات عند أهل المعاني من أشكل ما في القرآن إعرابا ومعنى وحكما، قال ابن عطية: وهذا كلام من لم يقع له الثلج في تفسيرها، وذلك بيّن من كتابه.

٤٦. ولقصد استيفاء معاني الآيات متتابعة تجنّبت التعرّض لما تفيده من الأحكام واختلاف علماء الإسلام فيها في أثناء تفسيرها، وأخّرت ذلك إلى هذا الموضع حين انتهيت من تفسير معانيها، وقد اشتملت على أصلين: أحدهما الأمر بالإشهاد على الوصية، وثانيهما فصل القضاء في قضية تميم الداري وعدي بن بدّاء مع أولياء بديل بن أبي مريم:

أ. فالأصل الأول: من قوله تعالى: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ﴾

ب. والأصل الثاني: من قوله: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ إلى قوله: ﴿بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، ويحصل من ذلك معرفة وجه القضاء في أمثال تلك القضية ممّا يتّهم فيه الشهود.

٤٧. وقوله: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ الآية بيان لكيفية الشهادة، وهو يتضمّن الأمر بها، ولكن عدل عن ذكر الأمر لأنّ الناس معتادون باستحفاظ وصاياهم عند محلّ ثقتهم.

٤٨. وأهمّ الأحكام التي تؤخذ من الآية ثلاثة:

أ. أحدها: استشهاد غير المسلمين في حقوق المسلمين، على رأي من جعله المراد من قوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾

ب. ثانيها: تحليف الشاهد على أنّه صادق في شهادته.

ج. ثالثها: تغليظ اليمين بالزمان.

٤٩. فأمّا الحكم الأول: فقد دلّ عليه قوله تعالى: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾، وقد بيّنا أنّ الأظهر أنّ الغيرية غيرية في الدين، وقد اختلف في قبول شهادة غير المسلمين في القضايا الجارية بين المسلمين؛ فذهب الجمهور إلى أنّ حكم هذه الآية منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [الطلاق: ٢] ـ وقوله ـ ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وهذا قول مالك، وأبي حنيفة، والشافعي، وذهب جماعة إلى أنّ الآية محكمة، فمنهم من جعلها خاصّة بالشهادة على الوصية في السفر إذا لم يكن مع الموصي مسلمون، وهو قول أبي موسى الأشعري، وابن عباس، وقضى بذلك أبو موسى الأشعري في وصية مثل هذه، أيام قضائه بالكوفة، وقال: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد رسول الله ﷺ، وهو قول سعيد بن المسيّب،

وابن جبير، وشريح، وابن سيرين، ومجاهد، وقتادة، والسدّي، وسفيان الثوري، وجماعة، وهم يقولون: لا منسوخ في سورة المائدة، تبعا لابن عباس.

٥٠. ومنهم من تأوّل قوله: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ على أنّه من غير قبيلتكم، وهو قول الزهري، والحسن، وعكرمة، وقال أحمد بن حنبل بقياس بقية العقود المشهود فيها في السفر على شهادة الوصية، فقال بأنّ شهادة أهل الذمّة على المسلمين في السفر ماضية، وزاد فجعلها بدون يمين، والأظهر عندي أنّ حكم الآية غير منسوخ، وأنّ قبول شهادة غير المسلمين خاصّ بالوصية في السفر حيث لا يوجد مسلمون للضرورة، وأنّ وجه اختصاص الوصية بهذا الحكم أنّها تعرض في حالة لا يستعدّ لها المرء من قبل فكان معذورا في إشهاد غير المسلمين في تلك الحالة خشية الفوات، بخلاف غيرها من العقود فيمكن الاستعداد لها من قبل والتوثّق لها بغير ذلك؛ فكان هذا الحكم رخصة.

٥١. والحكمة التي من أجلها لم تقبل في شريعة الإسلام شهادة غير المسلمين إلّا في الضرورة، عند من رأى إعمالها في الضرورة، أنّ قبول الشهادة تزكية وتعديل للشاهد وترفيع لمقداره إذ جعل خبره مقطعا للحقوق، فقد كان بعض القضاة من السلف يقول للشهود: اتّقوا الله فينا فأنتم القضاة ونحن المنفّذون، ولمّا كان رسولنا ﷺ قد دعا الناس إلى اتّباع دينه فأعرض عنه أهل الكتاب لم يكونوا أهلا لأن تزكّيهم أمّته وتسمهم بالصدق وهم كذّبوا رسولنا، ولأنّ من لم يكن دينه ديننا لا نكون عالمين بحدود ما يزعه عن الكذب في خبره، ولا لمجال التضييق والتوسّع في أعماله الناشئة عن معتقداته، إذ لعلّ في دينه ما يبيح له الكذب، وبخاصّة إذا كانت شهادته في حقّ لمن يخالفه في الدين، فإنّنا عهدنا منهم أنّهم لا يتوخّون الاحتياط في حقوق من لم يكن من أهل دينهم، قال تعالى حكاية عنهم (ذلك بأنّهم قالوا ليس علينا في الأمّيين (أي المسلمين) سبيل) فمن أجل ذلك لم يكن مظنّة للعدالة ولا كان مقدارها فيه مضبوطا، وهذا حال الغالب منهم، وفيهم من قال الله في شأنه ﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥] ولكن الحكم للغالب.

٥٢. وأمّا حكم تحليف الشاهد على صدقه في شهادته: فلم يرد في المأثور إلّا في هذا الموضع؛ فأمّا الذين قالوا بنسخ قبول شهادة الكافر فتحليف شاهدي الوصية الكافرين منسوخ تبعا، وهو قول الجمهور، وأمّا الذين جعلوه محكما فقد اختلفوا، فمنهم من خصّ اليمين بشاهدي الوصية من غير المسلمين، ومنهم

من اعتبر بعلّة مشروعية تحليف الشاهدين من غير المسلمين، فقاس عليه تحليف الشاهدين إذا تطرّقت إليهما الريبة ولو كانا مسلمين، وهذا لا وجه له إذ قد شرط الله فيهما العدالة وهي تنافي الريبة، نعم قد يقال: هذا إذا تعذّرت العدالة أو ضعفت في بعض الأوقات ووقع الاضطرار إلى استشهاد غير العدول كما هي حالة معظم بلاد الإسلام اليوم، فلا يبعد أن يكون لتحليف الشاهد المستور الحال وجه في القضاء، والمسألة مبسوطة في كتب الفقه.

٥٣. وأمّا حكم تغليظ اليمين: فقد أخذ من الآية أنّ اليمين تقع بعد الصلاة، فكان ذلك أصلا في تغليظ اليمين في نظر بعض أهل العلم، ويجيء في تغليظ اليمين أن يكون بالزمان والمكان واللفظ، وفي جميعها اختلاف بين العلماء، وليس في الآية ما يتمسّك به بواحد من هذه الثلاثة إلّا قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ وقد بيّنت أنّ الأظهر أنّه خاصّ بالوصية، وأمّا التغليظ بالمكان وباللفظ فتفصيله في كتب الخلاف.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. في الآيات السابقة ذكر سبحانه وتعالى أحكام الطيبات وأنه لا يجوز تحريمها، وأن المشركين يحرمون على أنفسهم ما أحل الله تعالى، ويدعون أن تحريم ذلك دين متبع، وقد بين سبحانه وتعالى بطلان ذلك، وبين سبحانه وتعالى أن على المؤمنين أن يحفظوا أنفسهم، ويلتزموا الهدى، وألا ينحرفوا عن الحق، وفى هذه الآيات المقبلة بيان طريق من طرق الإثبات وهو الإثبات بالشهادة، والجملة السابقة كانت لبيان الحق في عامة صوره وأحواله، وهذه الآيات في صورة منه وهي أدق الصور، وهي التي تكون بعد الوفاة.

٢. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ قال فخر الدين الرازي في الربط بين هذه الآية وما قبلها: (اعلم أنه تعالى لما أمر بحفظ النفس في قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أمر بحفظ المال في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾، وموضوع هذه الآية أدق الموضوعات في باب الإثبات، وقد قرر علماء القانون الوضعى دقة الإثبات في موضوعها، وهو

---

(١) زهرة التفاسير: ٢٣٨١/٥.

الوصية التي تكون في سفر، ويموت صاحبها في هذا السفر، وإنهم قد تساهلوا في طرق الإثبات فيها تحققا من صحة الوصية والأموال ومآلها، حتى لقد قال بعض القانونيين: إنه تثبت الوصية بالكتابة على الرمل لمن حضرته الوفاة، وهو نائم على ذلك الرمل؛ وذلك لأن الإثبات في هذه الحال التي مات فيها صاحب الوصية من غير أن يتمكن من أن يكتب وصيته صعب.

٣. ولهذا شدد الإسلام في ضرورة كتابة الوصية، والشخص قوى معافى، حتى لا يدركه الموت قبل أن يتمكن، حتى أن عبد الله بن عمر ليقول: (لا يحل لمؤمن إلا أن يبيت ووصيته مكتوبة قد وضعها تحت وسادته)

٤. الخطاب في قوله تعالى للمؤمنين بقوله تعالت كلماته: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ للإشارة إلى أنه من مقتضيات الإيمان العناية بالوصية، ونقلها وتنفيذها بالعدل، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة]

٥. والشهادة على الوصية نصابها اثنان ذوا عدل منكم والعدالة هي الصدق في القول والأمانة على المال والقيام بأوامر الدين، والانتهاء عن منهياته، بحيث لا يجاهر بمعصية، ولا يرتكب منكرا إلا اللمم كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم] والقيام على الوصية يكون بتنفيذها كاملة موفورة، والمحافظة على الأموال، ونقل إرادة صاحب تلك الأموال.

٦. وإنه لا يتوافر العدل في كل الأحوال في الوصية، فإنه قد يكون الموت في سفر، ولا يتوافر العدل من المؤمنين، فقد يكون المصاحب للمتوفى من غير المؤمنين، أو من غير العدول، ففي هذه الحال يتساهل وتقبل شهادة غير المسلمين، ولذا قال سبحانه: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾

٧. قوله تعالى: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ ما المراد بهذا المغاير؟ وذلك يستدعى بلا ريب تفسير (منكم)

أ. فقد قال بعض العلماء: إن منكم معناها من قبيلتكم، أو من أقاربكم، ويكون من غيركم معناه من غير قبيلكم أو من غير ذوى قرابتكم، والجميع في دائرة أهل الإيمان ويتمسك هذا الفريق بأنه لا تقبل شهادة غير المؤمن، فلا يمكن أن يكون المراد من غيركم الكافرين؛ لأن الكافر لا تقبل شهادته على المؤمن

عندهم.

ب. وقد قال آخرون: إن المراد بقوله تعالى: ﴿مِنْكُمْ﴾ هو أن يكون الخطاب للمؤمنين؛ لأن النداء في الذين آمنوا لا في قبيل منهم، إذ النداء لهم قاطبة لا لفريق منهم، ولذلك يكون الاثنان اللذان من غيرهم من غير المؤمنين، ومقتضى هذا التخريج أن تقبل شهادة غير المسلمين في هذه الحال، وقد أجازها جمع من التابعين منهم سعيد بن المسيب وابن سيرين، ويحيى بن يعمر، وعكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والشعبي وإبراهيم النخعي وقتادة، وشريح القاضي وهذا رواية عن أحمد بن حنبل، وقد قرروا أن شهادة غير المسلم على المسلم تقبل في حال السفر، وعلى أن تكون الشهادة في وصية كما نص القرآن الكريم، وذلك لمقام الضرورة، ولمنع ضياع الحقوق ما أمكن ولأن ذلك يشبه التحري ويكون المراد من العدالة الاشتهار بالصدق والأمانة، ومنهم من يكون كذلك، وإن أصاب الضلال اعتقاده، وثانيا لأن قبول شهادتهم استثناء فيقتصر على موضع الوصية، فيقتصر على مورد النص، وهي تقييد الحال بحال السفر، وتقييد الموضوع بأن يكون في الوصية.

٨. هنا إشارات غير لفظية:

أ. الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، المراد به إذا سافرتم؛ لأن المسافر يضرب في الأرض، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل.

ب. الثانية: قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾، أي نزل بكم، وسماه سبحانه وتعالى مصيبة؛ لأنه بطبيعته يؤلم أو يصحبه أو يقارنه أو يسبقه آلام نفسية، ولأنه حق ليس بمحبوب وخصوصا لمن يموتون حتف أنفسهم، ولا يموتون استشهادا في سبيل الله تعالى، ورجاء لقائه، ولأنهم يفدون بموتهم جماعة المؤمنين؛ فالثمن الذى أخذوه أغلى من الموت الذى قدموه.

ج. الثالثة: أنه عندما ذكر سبحانه الاثنين من غير المؤمنين لم يذكر العدالة ولكن المفروض أن يكونا صادقين اشتهرا بالأمانة، ولكن لم تذكر العدالة؛ لأنه لا يمكن أن يكون غير المؤمن عدلا عدالة مطلقة، بل تكون مقيدة، هذا، ويلاحظ أن الأئمة الثلاثة مالكا والشافعي وأبا حنيفة وأصحابه لا يقبلون شهادة غير المسلم على المسلم مطلقا في سفر أو حضر، في وصية أو غير وصية، ويظهر أنهم يسيرون على التخريج الأول.

٩. بين سبحانه طريق أداء الشهادة، فقال: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ الضمير في قوله تعالى: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ يعود على الشاهدين ذوى العدل من المسلمين أو من غيرهما، والحبس الإمساك لأداء الشهادة اللازمة حتى تؤدى، والصلاة كما يفسر التابعون الذين تلقوا تفسير أصحاب رسول الله ﷺ يراد بها صلاة العصر؛ إذ يكون وقت استجمام النفس، واستحضار عظمة الله تعالى، وطيب الجو، والفقهاء يعتبرون من السنة سماع الشهادة بعد صلاة العصر، حيث تكون النفوس قارة مطمئنة، وإذا كانا غير مسلمين، فإنهما يسمعان بعد صلاتهم، وهذا حكم عام، ويلاحظ أن شهود الوصية لهم صفتان:

أ. إحداهما: صفة الشاهد العدل المخبر عن الواقع الناطق بالصدق فيه الذى يشهد على مثل الشمس عيانا، الصفة

ب. الثانية: أنهما وصيان للميت أمينان على ماله، يحافظان عليه، حتى يصل إلى أهله، ويسلم إليهم موفورا غير منقوص، ولذلك كان حقا عليهما أمانة الله تعالى، ولذلك كان أي ريب فيهما يؤدى إلى ضياع المال وحق المتوفى، وحق ذويه، ولذلك شرع القسم إن كانت ريبة أي ريبة كانت، ولو كانت نفسية ليس لها مظاهر مادية.

١٠. ولذا قال: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ وهذا النص الكريم يفيد أن الحبس بعد الصلاة والقسم على صدق القول لا يكون إلا حال الارتياب، وبهذا يرد قول الذين يقولون: إن الشهود لا يستقسمون:

أ. أولا: لأن هؤلاء ليسوا شهودا من كل الوجوه، لأن لهم صفة أنهم أوصياء، والأوصياء يحلفون إن كان ثمة ريبة في تصرفهم.

ب. وثانيا:لأن الحال حال استثنائية فيجب ما أمكن الاحتياط، والحلف عند الارتياب، فلا بد من توثيق القول بالوثائق، لكى يكون الاطمئنان بدل الشك والارتياب.

١١. وبين سبحانه تتميما للاستيثاق صيغة اليمين، فقال: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ الشراء يطلق بمعنى البيع، والمعنى لا نبيع يمين الله تعالى الذى أقسمنا به، ولا عهدنا الذى عاهدناه بهذه اليمين بأي ثمن كائنا ما كان وبأي قدر كان، فالضمير يعود على القسم بالله المفهوم من قوله تعالى: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾

١٢. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي ولو كان الذى يستفيد من شهادتنا ذا قرابة قريبة، فكلمة قربى لا تطلق إلا على القرابة القريبة التي تحمل غير الأتقياء على الكذب في الشهادة، ومن موضوع القسم، والتغليظ فيه عدم كتمان الشهادة، وكتمانها هنا يشمل ثلاث صور من الكتمان:

أ. أولاها: أن يخفى بعض الحق.

ب. ثانيها: أن يخفى بعض الموصى به فلا يذكره كله، والصورة

ج. الثالثة: لمن لا ينقل كلاما للموصى يحرر إرادته، ومن مؤكدات القسم أن يقولوا مع قولهم في القسم ﴿لا نَكْتُمُ﴾، ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾، وذلك بأن يقروا على أنفسهم بالإثم إن حادوا أو كذبوا في يمين الله، أو قالوا غير الحق الذى كانوا أوصياء عليه، وقد أكدوا الإثم على أنفسهم في إيمانهم بمؤكدات أربعة:

- أولها: التعبير بالجملة الاسمية.
- ثانيها: التوكيد بـ (إنا).
- ثالثها: اعتبار الحكم على أنفسهم بالإثم نتيجة منطقية لأعمالهم، ولإخفائهم الحق.
- رابعها: أن يخرجوا من زمرة الأبرار الأطهار ويدخلوا في زمرة الآثمين الأشرار، والأمر بالنسبة للذي غيب في التراب، وهو لا ينطق بما يري.

١٣. ويبين ما عليه حاله وماله يوجب الاحتياط فيهما قبل الشهادة، والتحري على أمره بعد وفاته، فعسى أن يكون حق قد ضاع شيء وقد تبين سبحانه حال العثور عليه، فقال: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ عثر الرجل يعثر عثرا إذا وقع على أمر لم يكن معلوما من قبله، ولم يقع عليه غيره ممن يهمهم، ويقال: أعثرت فلانا على أمر أطلعته عليه، وكل من اطلع على أمر كان خفيا يقال: قد عثر عليه، والعثور على الشيء يكون في الغالب العلم الذى لم يكن له مقدمات عنده، بل ربما يكون الاطلاع عليه بالمصادفة.

١٤. والأمر في هذه الحال الذى يموت فيها المورث يكون محل جهل إذ يموت في سفر، ولا طريق للعلم إلا عن طريق هذين الشاهدين اللذين لهما مع الشهادة صفة الوصية، والعثور يكون بمثل الاطلاع على شيء من ماله عندهما لم يكن قد جرى ذكره على لسانهما، ومعروف عند ورثته أنه كان يملكه، أو يظهر

عليهما يسار مفاجئ ويتبين من قرائن الأحوال أنه كان من ماله، أو يظهر من كتب أرسلها المتوفى قبيل وفاته تدل على ما كان يملكه عند الوفاة، ولم يذكرا في شهادتهما وهكذا يكون العثور على شيء لم يكونوا يعلمونه.

١٥. ومعنى قوله تعالى: ﴿اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ - أي أنهما خانا في الأمانة، فلم يقوما بحق الوصاية، وكذبا في الشهادة فلم يصدقا، وحلفا يمينا غموسا تغمس صاحبها في النار، فاستحقاقهما للإثم بسبب ذلك الكذب وتلك الخيانة، والحلف الكذب، وقوله تعالى: ﴿اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ تتضمن كل هذه المعاني وغيرها، والإثم هو هذه المعاني كلها، والعثور على ما يتضمن ضياع حقوق الورثة، وذهاب أموالهم، وما قالوه فيه بخس لما يستحقون، وضياع لما يملكون، إذ قوله تعالى حين الوصية أي حين إخبار المتوفى بأمواله وإيصائهم بالمحافظة عليها، وتوزيعها بين مستحقيها وإذا كانت جناية هؤلاء على المستحقين للتركة، فالقول قول المستحقين يدلون به، ولذا قال سبحانه: ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾، أي فشاهدان آخران يقومان في إحقاق الحق، وإظهار الحقيقة، وبيان ما خفى من إرادة المتوفى وأمواله وما له من حقوق وعليه من واجبات مقام الأولين، وهذا التعبير من ألطف التعابير بعد ظهور الإثم، إذ إنه ينبئ عن التعاون بين هؤلاء الآثمين، والأبرياء في إظهار الحق، إذ إن المجنى عليهم يقومان مقام من جنوا.

١٦. وقد بين سبحانه من الذين يختار منهم الآخران اللذان يقومان، فقال سبحانه: ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ في هذا النص السامي بيان من يختار منهم، وكيف يختاران، والضمير في قوله تعالى: ﴿اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ يعود على الإثم المذكور في من استحقا إثما، وهو الفاعل؟ والمعنى أن الذى يكون منهم الآخران الذين استحق الإثم عليهم أي حقت آثاره ومغبته عليهم وهم الورثة، وهذا على قراءة الفعل بالبناء للمعلوم، ومعناها - كما رأيت - الذين حقت عليهم مغبة الإثم ونتائجه، وهم المستحقون للمال بعد وفاة المتوفى بوصية المورث أو بوصية الله تعالى بالميراث، وهناك قراءة بالبناء للمجهول، ومعناها الذى استحق عليهم أي أخذ منهم بمقتضى الشهادة الباطلة، والمؤدى في القراءتين واحد.

١٧. ذكر النص أنهما الأوليان بالنطق بالحق لأجل الورثة، إما لأنهم أقرب الورثة أو لأنهما أرشدهم، أو ألحق بمحبتهم، ومعنى النص الكريم على هذا أن اللذين شهدا المتوفى عند وفاته هما أولى الناس بذكر الحقيقة، وإن كان ارتياب يحبسان بعد الصلاة ويستقسمان قسما موثقا، فإن ظهر ما يدعو إلى تكذيب شهادتهما في كلها أو في بعضها، كان للمستحقين للتركة حق الشهادة ويختار أولاهما بالتحدث عن

المتوفى، وهذا معنى (أوليان)، وهي خبر لمبتدإ محذوف، وتدل على طريقة الاختيار، وإن هؤلاء لأن المال يؤول إليهم لا يقبل قولهم إلا بيمين لأنهم بمنزلة المدعى عليه بكلام الأوصياء الذين يكذبونهم.

١٨. ولذا قال سبحانه: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الفاء هنا للإفصاح عن شرط مقدر، وتقديره إذا كانا يتقدمان لإحقاق الحق فلا بد أن يقسما بالله، وهنا إيجاز معجز، إذ يقسمان بالله تعالى على الختل في الأمانة وعلى ما يريان أنه الحق، ثم يقسمان مع ذلك على أمرين:

أ. أولهما ـ أن شهادتهما أحق بالقبول من شهادة الآخرين لصدقها، ولظهور الخيانة في قولهم، ولأنه فقدت قوتها لعدم الأمانة.

ب. وثانيهما: أن يقسما على أنهما ما اعتديا، بأخذ ما ليس بحقهما، وكان التعبير بنفي الاعتداء؛ لأنهما مطالبان، والمطالب يخشى اعتداؤه؛ لأن كذبه يتضمن اليمين الغموس، ويتضمن الأخذ بغير حق، فيكون اعتداء.

١٩. ولقد أكد الله سبحانه وتعالى عليهم عدم الاعتداء بأن يقولوا: ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وذلك فيه تأكيد لعدم الاعتداء، وبيان أن شهادتهما أحق من شهادة الأولين، إذ لو لم يكونوا صادقين لكانوا ظالمين، وقد أكدوا ظلمهم بأربعة مؤكدات:

أ. أولها: الجملة الاسمية.

ب. ثانيها: بأن المؤكدة.

ج. ثالثها: بإثبات أن الحكم بالظلم له مقدماته فيكون منطقيا.

د. رابعها: دخولهم في زمرة الظالمين، وخروجهم من طائفة الأبرار الأخيار.

٢٠. وإن ذلك كله تقريب للحق، وبعد عن الباطل، ولا يمكن أن يكون الحق مؤكدا من كل الوجوه، بل لا بد من التقريب دون التحديد، ولذلك قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ الإشارة في ذلك إلى النظام كله الذى نظمه القرآن الكريم، والنسق الحكيم من الشهادة التي يقوم بها الوصيان تكون ابتداء من أهل التقوى ويعتمد على تقواهم وعدالتهم، فإن أمسكا بعد الصلاة، وأخذت عليهما الأيمان المغلظة ويتعرف الأمر من ورائهما، ولا يترك من غير تحريات كاشفة، فإن عثر على أن الشهادة فيها إثم أو غير حق استشهد غيرهما من الذين ينقص

حقهم بشهادتها، واختير أولى الناس من المستحقين بالقول، ذلك النظام كله أقرب إلى أن يؤدى الشاهد الشهادة على وجهها، إما لأنه يريد الحق لذات الحق، أو لأنه يخاف أن الأيمان الشاهدة الجارية على لسان غيره بعد يمينه تعلن كذبه على الأشهاد، وخيانته بين الجموع والآحاد، فمعنى ترد أي تترك أيمانهم، وتطرح ويعاد القول إلى غيرهم بعد تكذيبهم.

٢١. والنص يومئ إلى أنه إذا عثر على كذب بعد شهادة الأقربين ترد الشهادة على من يليهم حتى لا يضيع حق قط، ولقد يروى الرواة قصة في هذا الموضوع ويذكرونها على أنها سبب النزول، وإنا نذكرها؛ لأنها موضحة للوقائع[1].

٢٢. وقد ختم الله تعالى بيان ذلك الحكم الشرعي بقوله تعالت كلماته: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ختم الله تعالى بيان ذلك الحكم الشرعي الدقيق بأمرين، وذكر أمر كلى:

أ. أما الأمر الأول فهو الأمر بالتقوى بأن يملئوا قلوبهم بخشية الله تعالى ومهابته، واتقاء عصيانه، وجعل وقاية بينهم وبين عذابه، وذلك أمر لازم لكل مؤمن، وخصوصا لمن يودعون أسرار الناس، الذين لا يستطيعون دفع الكذب والباطل عنهم.

ب. والأمر الثاني: هو ما قرره بقوله سبحانه: ﴿وَاسْمَعُوا﴾ أي اسمعوا قول الحق وعوه، واعملوا به ولا تيأسوا، ولا يأخذكم السأم عن أن تسمعوا كل قول حتى تصلوا إلى الحق الذى تبتغونه.

ج. وأما الأمر الكلى فهو أن الله سبحانه وتعالى لا يهدى القوم الفاسقين، ومعنى عدم هدايتهم أنهم بسبب ما اكتسبوا من سيئات الفسق، وما أحاطت به خطيئاتهم أصبح الحق لا يدخل إلى قلوبهم، فلا يهتدون لأن الفسق صار شأنا من شئونهم، ولا يمكن أن تلتقى الهداية مع الفسق في قلب من فسق عن أمر ربه.. اللهم جنبنا الباطل وأهله، إنك سميع مجيب.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

١. هذه الآيات الثلاث من آيات الأحكام، وتدخل في باب الوصية والشهادة، وفيها الأحكام

(١) ذكر ما ورد في سبب النزول الذي سبق ذكره.

(٢) التفسير الكاشف: ٣/١٤٠.

التالية:

أ. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾، يريد جلت عظمته أن من أحس بدنو أجله، وأراد أن يوصي بها أحب استحضر عدلين من المسلمين، وأشهدهما على وصيته.. وتجدر الاشارة إلى أن الوصية مستحبة، ولا تجب إلا على من كان عليه حقوق لله أو للناس، وظهرت له دلائل الموت، وخاف ضياعها من بعده.

ب. ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾، قال الشيعة الإمامية والحنابلة: إذا أوصى رجل مسلم في السفر، ولم يكن أحد من المسلمين عنده فله أن يشهد اثنين من أهل الكتاب، على أن يستحلفا بعد الصلاة بين جمع من الناس إنهما ما خانا، ولا كتما، ولا اشتريا بشهادتهما ولا بقسمهما ثمنا قليلا، وعندها تقبل شهادتهما كما تقبل من المسلمين، وتجب عليهما اليمين مع الشك في صدقهما، أما الأمين فلا يمين عليه، لقوله تعالى: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾، هذا ما أفتى به الإمامية والحنابلة معتمدين على هذه الآية، وقال أبو حنيفة ومالك والشافعي: لا تقبل شهادة غير المسلم على المسلم بحال، وأولو الآية بمعنى آخر، وقال المالكية والشافعية: لا تقبل شهادة غير المسلمين إطلاقا، ولو كانت من بعضهم على بعض، (المغني باب الشهادات)

ج. ﴿فإن عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾، جاء في صحاح الشيعة والسنة أن هذه الآية نزلت في ثلاثة نفر خرجوا في سفر للتجارة، أحدهم مسلم والآخران من النصارى، وفي الطريق تمرض المسلم، وأحس بدنو أجله، فكتب وصيته وذكر فيها كل ما يحمل معه، ودسها في بعض متاعه، دون أن يعلم صاحباه بذلك، ثم أوصى اليهما أن يدفعا متاعه إلى أهله، ولما مات أخذا شيئا منه، ودفعا الباقي إلى أهله، ولما عثر أهله على وصيته رأوا فيها ذكر الشيء الذي أخذاه، فسألوهما فأنكرا، وقالا ما دفعه إلينا دفعناه إليكم، وحلفا على ذلك.. وبعد حين رأى أهل الميت ذاك الشيء مع ثالث، فقالوا: من أين لك هذا؟ قال اشتريته من فلان وفلان، أي من المتهمين، فترافعوا إلى النبي ﷺ.. وقيل: أن المتهمين حين فوجئا بذلك قالا: اشتريناه منه، فنزل قوله تعالى: ﴿فإن عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا﴾، والمعنى فإن ظهرت أمارات

تستدعي الريبة بالمتهمين فالواجب حينئذ أن يقوم رجلان من ورثة الميت، ويحلفا بالله انهما أصدق من المتهمين، وأن يقولا في اليمين: وما اعتدينا انّا إذا لمن الظالمين، وبعد الحلف يحكم على المتهمين.

٢. سؤال وإشكال: لقد طال كلام المفسرين وتضارب حول قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ حتى نقل عن بعض القدامى أنه قال هذه أشكل جملة في كتاب الله من حيث التركيب، فما هو القول الصحيح في تفسيرها؟ والجواب: أن الذي أوقع المفسرين في الارتباك هو أن ضمير (عليهم) إلى من يعود؟ والذي نراه انه يعود إلى ورثة الميت، لأن ما كان مستحقا عليه من الديون ونحوها يصير بعد موته مستحقا على ورثته، وعليه يكون المعنى يحلف اثنان من الذين وجب عليهم ما كان واجبا على مورثهم، والسياق يؤكد هذا، لأن الآخرين اللذين يقومان مقام المتهمين في اليمين لا بد أن يكونا من ورثة الميت باتفاق المفسرين ولا يجوز أن يكونا من غيرهم بحال، إذن، يتعين أن يكون ضمير (عليهم) عائدا اليهم بالذات.

٣. ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أو يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ إيمان بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، ذلك إشارة إلى الحكم السابق، وقوله: ﴿أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا﴾) بيان لعلة الحكم، أي أن القصد مما شرعناه أن لا يحرّف الشهود شهادتهم، ويحلفوا اليمين الكاذبة، أو يمتنعوا عن اليمين بالمرة خوفا أن ترد ـ بعد الحلف ـ على الورثة.

٤. سؤال وإشكال: إن الله سبحانه حين بيّن الحكم ثنّى، وقال: شهادتهما.. ويقسمان، وحين أشار إلى علة الحكم جمع، وقال: أن يأتوا بالشهادة، فما هو الوجه؟ والجواب: أن الشهود أربعة، اثنان يشهدان ابتداء، واثنان يقومان مقامهما إذا ظهر الإثم على الشاهدين الأولين.. هذا، إلى أن المفروض في علة الحكم أن تكون عامة تشمل المورد المذكور وغيره.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. الآيات الثلاث الأول في الشهادة، والأخيرة لا تخلو عن اتصال ما بها بحسب المعنى.

٢. ﴿يَا أيها الَّذِينَ آمنوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ إلى آخر الآيتين، محصل مضمون الآيتين أن أحدهم إذا كان

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٦/١٩٦.

على سفر فأراد أن يوصي فعليه أن يشهد حين الوصية شاهدين عدلين من المسلمين وإن لم يجد فشاهدين آخرين من غير المسلمين من أهل الكتاب فإن ارتاب أولياء الميت في أمر الوصية يحبس الشاهدان بعد الصلاة فيقسمان بالله على صدقهما فيما يشهدان عليه وترفع بذلك الخصومة، فإن اطلعوا على أن الشاهدين كذبا في شهادتهما أو خانا في الأمر فيوقف شاهدان آخران مقام الشاهدين الأولين فيشهدان على خلافهما ويقسمان بالله على ذلك.

٣. فهذا ما تفيده الآيتان بظاهرهما فقوله: ﴿يَا أيها الَّذِينَ آمنوا﴾ خطاب للمؤمنين والحكم مختص بهم ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ أي شهادة بينكم ذوي عدل منكم ففي جانب الخبر مضاف مقدر، أو شهداء بينكم ذوا عدل منكم، والمراد أن عدد الشهود اثنان فالمصدر ـ الشهادة ـ بمعنى اسم الفاعل كقولهم: رجل عدل ورجلان عدل، وحضور الموت كناية عن حضور داعي الوصية فإن الناس بحسب الطبع لا يشتغلون بأمثال هذه الأمور من غير حضور أمر يوجب الظن بالموت، وهو عادة المرض الشديد الذي يشرف الإنسان به على الموت.

٤. وقوله: ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ ظرف متعلق بالشهادة أي الشهادة حين الوصية، والمراد بالعدل وهو مصدر ـ الاستقامة في الأمر، وقرينة المقام تعطي أن المراد به الاستقامة في أمر الدين، ويتعين بذلك أن المراد بقوله: ﴿مِنْكُمْ﴾

٥. وقوله: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ المسلمون وغير المسلمين، دون القرابة والعشيرة فإن الله سبحانه قابل بين قوله: ﴿اثْنَانِ﴾، وقوله: ﴿آخَرَانِ﴾، ثم وصف الأول بقوله: ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾، وقوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ ولم يصف الثاني إلا بقوله: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ دون أن يصفه بالعدالة، والاتصاف بالاستقامة في الدين وعدمه إنما يختلف في المسلم وغير المسلم، ولا موجب لاعتبار العدالة في الشهود إذا كانوا قرابة أو من عشيرة المشهود له وإلغائها إذا كان الشاهد أجنبيا، وعلى هذا فقوله: ﴿أو آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ ترديد على سبيل الترتيب أي إن كان هناك نفر من المسلمين يستشهد اثنان منهم، وإن لم يكن إلا من غير المسلمين يستشهد باثنين منهم، كل ذلك بالاستفادة من قرينة المقام.

٦. وهذه القرينة بعينها هي التي توجب أن يكون قوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ قيدا متعلقا بقوله: ﴿أو آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ فإن المسلم لما كان بالطبع إنما يعيش في مجتمع

المسلمين لا تمس الحاجة في الحضر عادة إلى الاستشهاد بشهيدين من غير المسلمين بخلاف حالة السفر والضرب في الأرض فإنها مظنة وقوع أمثال هذه الوقائع والاضطرار ومسيس الحاجة إلى الانتفاع من غير المسلم بشهادة أو غيرها، وقرينة المقام أعني المناسبة بين الحكم والموضوع بالذوق المتخذ من كلامه تعالى تدل على أن المراد من غير المسلمين أهل الكتاب خاصة لأن كلامه تعالى لا يشرف المشركين بكرامة.

٧. وقوله تعالى: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ أي توقفونهما، والحبس الإيقاف، ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ﴾ أي الشاهدان ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أي شككتم فيما يظهره الوصي من أمر الوصية أو المال الذي تعلقت به الوصية أو في كيفية الوصية، والمقسم عليه هو قوله: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي لا نشتري بالشهادة للوصي فيما يدعيه ثمنا قليلا ولو كان ذا قربى، واشتراء الثمن القليل بالشهادة أن ينحرف الشاهد في شهادته عن الحق لغاية دنيوية من مال أو جاه أو عاطفة قرابة فيبذل شهادته بإزاء ثمن دنيوي، وهو الثمن القليل، وذكر بعضهم أن الضمير في قوله: ﴿مُصِيبَةٍ﴾ إلى اليمين أي لا نشتري بيميننا ثمنا، ولازمه إجراء اليمين مرتين والآية بمعزل عن الدلالة على ذلك.

٨. وقوله: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ﴾ أي بالشهادة على خلاف الواقع ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ الحاملين للإثم، والجملة معطوفة على قوله: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ كعطف التفسير.

٩. وإضافة الشهادة إلى الله في قوله: ﴿شَهَادَةَ اللهِ﴾:

أ. إما لأن الواقع يشهده الله سبحانه كما شهده الشاهدان فهو شهادته سبحانه كما هو شهادتهما والله أحق بالملك فهو شهادته تعالى حقا وبالأصالة وشهادتهما تبعا، وقد قال تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩] وقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

ب. وإما لأن الشهادة حق مجعول لله على عباده يجب عليهم أن يقيموها على وجهها من غير تحريف أو كتمان، وهذا كما يقال: دين الله، فينسب الدين إليه تعالى مع أن العباد هم المتلبسون به، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ للهِّ﴾ [الطلاق: ٣] وقال: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ [البقرة: ٢٨٣]

١٠. وقوله: ﴿فإِن عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ العثور على الشيء الحصول عليه ووجدانه، وهذه الآية بيان وتفصيل للحكم في صورة ظهور خيانة الشاهدين وكذبهما في شهادتهما، والمراد باستحقاق الإثم الاجرام والجناية يقال: استحق الرجل أي أذنب، واستحق فلان إثما على فلان كناية عن إجرامه وجنايته

عليه ولذا عدي بعلى في قوله تعالى ذيلا: ﴿اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ أي أجرما وجنيا عليهم بالكذب والخيانة، وأصل معنى قولنا: استحق الرجل طلب أن يحق ويثبت فيه الإثم أو العقوبة فاستعماله الكنائي من قبيل إطلاق الطلب وإرادة المطلوب ووضع الطريق موضع الغاية، وإنما ذكر الإثم في قوله: ﴿اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ بالبناء على ما تقدم في قوله: ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾

١١. ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ أي إن عثر على أن الشاهدين استحقا بالكذب والخيانة فشاهدان آخران يقومان مقامهما في اليمين على شهادتهما عليهما بالكذب والخيانة.

١٢. ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ في موضع الحال أي حال كون هذين الجديدين من الذين استحق عليهم أي أجرم وجنى عليهم الشاهدان الأولان اللذين هما الأوليان الأقربان بالميت من جهة الوصية كما ذكره الرازي في تفسيره، والمراد بالذين استحق عليهم الأوليان أولياء الميت، وحاصل المعنى أنه إن عثر على أن الشاهدين أجرما على أولياء الميت بالخيانة والكذب فيقوم شاهدان آخران من أولياء الميت الذين أجرم عليهم الشاهدان الأولان الأوليان بالموت قبل ظهور استحقاقهما الإثم.

١٣. هذا على قراءة ﴿اسْتَحَقَّ﴾ بالبناء للفاعل وهو قراءة عاصم على رواية حفص، وأما على قراءة الجمهور ﴿اسْتَحَقَّ﴾ بضم التاء وكسر الحاء بالبناء للمفعول فظاهر السياق أن يكون الأوليان مبتدأ خبره قوله: ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ﴾، قدم عليه لتعلق العناية به، والمعنى إن عثر على أنهما استحقا إثما فالأوليان بالميت هما آخران يقومان مقامهما من أوليائه المجرم عليهم، وفي قراءة عاصم من طريق أبي بكر وحمزة وخلف ويعقوب (الأولين) جمع الأول مقابل الآخر، وهو بظاهره بمعنى الأولياء والمقدمين، وصف أو بدل من قوله: ﴿الَّذِينَ﴾

١٤. وقد ذكر المفسرون في تركيب أجزاء الآية وجوها كثيرة جدا لو ضرب بعضها في بعض للحصول على معنى تمام الآية ارتقت إلى مئين من الصور، وقد ذكر الزجاج فيما نقل عنه: (أنها أشكل آية في كتاب الله من حيث التركيب)، والذي أوردناه من المعنى هو الظاهر من سياق اللفظ من غير تعسف في الفهم، وأضربنا عن استقصاء ما ذكروه من المحتملات لأن تكثيرها لا يزيد اللفظ إلا إبهاما، ولا الباحث إلا حيرة.

١٥. وقد فرع على قوله: ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ﴾ الآية، تفريع الغاية على ذي الغاية قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ

بِاللهِ﴾ أي الشاهدان الآخران من أولياء الميت ﴿لَشَهَادَتُنَا﴾ بما يتضمن كذبهما وخيانتهما ﴿أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ أي من شهادة الشاهدين الأولين بما يدعيان من أمر الوصية ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ عليهما بالشهادة على خلاف ما شهدا عليه ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

١٦. ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أو يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ إيمان بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ الآية في مقام بيان حكمة التشريع وهي أن هذا الحكم على الترتيب الذي قرره الله تعالى أحوط طريق إلى حيازة الواقع في المقام، وأقرب من أن لا يجور الشاهدان في شهادتهما ويخافا من أن يتغير الأمر عليهما برد شهادتهما بعد قبولها، فإن الإنسان ذو هوى يدعوه إلى التمتع بكل ما يسعه التمتع به والقبض على كل ما يتهوسه إذا لم يكن هناك مانع يصرفه عنه سواء كان ذلك منه عن حق يستحقه أو جورا، عدلا أو ظلما وتعديا على غيره بإبطال حقه والغلبة عليه، وإنما ينصرف الإنسان عن هذا التعدي والتجاوز إما لمانع يمنعه من خارج بسياسة أو عقوبة أو فضيحة، وإما لرادع يردعه من نفسه؛ وأقوى رادع نفساني هو الاعتقاد بالله الذي إليه مرجع العباد وحساب الأعمال والقضاء الفصل والجزاء المستوفى.

١٧. وإذا كان الواقع من أمر الوصية بحسب فرض المقام مجهولا لا طريق إلى كشفه إلا شهادة من أشهدهما الميت من الشاهدين فأقوى ما يقرب شهادتهما من الصدق أن يؤخذ في ذلك بأيمانهما بالله تعالى وهو اليمين، وأن يرد اليمين إلى الورثة الأولياء مع يمينهما على تقدير انكشاف كذبهما وخيانتهما عند الورثة، فهذان أعني يمينهما أولا ثم رد اليمين إلى الورثة أقرب وسيلة إلى صدقهما في شهادتهما وخوفهما فضيحة رد اليمين، والرادعان أقوى ما يردعهما من الانحراف.

١٨. ثم عقب تعالى القول بالموعظة والإنذار فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ والمعنى واضح.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/٣٩٢.

﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ هي الشهادة التي تؤدى بين المؤمنين عند الحاجة، والمراد هنا: تحملها، بدليل قوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ وتحملها ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ وهي الشهادة على ما أوصى به الميت فلا بد من استشهاد اثنين ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ العدل ضد الجور فهما ملتزمان بالعدل مجتنبان للجور ﴿مِنْكُمْ﴾ أي من الذين آمنوا.

٢. ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ فلا يكفي شاهدان من غير الذين آمنوا، إلا في حال الضرورة الملجئة إلى استشهاد شهيدين من غير الذين آمنوا، وذلك إذا ضربنا في الأرض وخرجنا من بلاد الإسلام ولم نجد إلا من غير الذين آمنوا لتضيق الحادثة بحضور الموت، وظاهره: الإطلاق، بل هو ظاهر في الكفار الذين يؤدي إليهم الضرب في الأرض، حيث كان الإسلام لم ينتشر في الأرض، وكان الضرب في الأرض مظنة الخروج من بلاد الإسلام.

٣. ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ عند أداء الشهادة، راجع إلى أول الكلام فهو في العدلين من الذين آمنوا، وإنما قوله تعالى: ﴿أَوْ آخَرَانِ﴾ إلى الموت شبه المعترض بين الكلامين.

٤. ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ يقسمان بالله بعد الصلاة: لا نكتمها أو نغيرها لأجل مال نعطاه لنكتم الشهادة أو نلويها فيكون بدلاً من أدائها على وجهها، وقوله تعالى: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أي قلقتم لتجويز أن يكتمها شاهد أو يغير فيها والشك في ذلك، فخذوا منهما العهد المذكور، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي المشهود عليه فـ ﴿لَا نَشْتَرِي﴾ بالشهادة ﴿ثَمَنًا﴾ لأن المشهود عليه ﴿ذَا قُرْبَى﴾

٥. ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ هذا تمام ما يقسمان عليه: الالتزام بأن لا يكتما الشهادة، والاعتراف بأنها حق لله عليهما، وأنهما إذا كتماها من ﴿الْآثِمِينَ﴾ فيكون اعترافهما هذا حجة عليهما إن كتما يوم القيامة، وفي الدنيا إن عثر على كتمانها، وحبس الشاهدين من بعد الصلاة ليؤديا اليمين هو توقيفهما ليحلفا قبل أن يشهدا، وهذا عند أداء الشهادة.

٦. ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ عثر عليه: انكشف وظهر أن الشاهدين ﴿اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ بتغيير في الشهادة، إما بتبديل، أو بزيادة، أو نقص، فلم يؤدياها على وجهها، فاستحقا عقوبة ذلك الإثم، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ﴾ [الفرقان:٦٨ ـ ٦٩]

٧. ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ لأن الشاهدين كتما الشهادة أو غَيَّراها، فكاد الحق أن يفوت، وكاد المستحق عليه أن يضيع الحق عليه، فكان الآخران اللذان ينال بشهادتهما الحق من المستحق عليه هما ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ بأن يشهدا ويعمل بشهادتهما؛ لأنهما قاما من الذين استحق عليهم الحق مقام الصدق، وشهدا عليه بالحق وهو مقام الشاهدين الأولين لو أقاما الشهادة ولم يكتما أو يغيرا، فمقامهما من المشهود عليه هو قيامهما عليه بأداء الشهادة بالحق، فلما تخلف الأولان عن مقامهما من المشهود عليه كان الآخران الأوليين بذلك المقام.

٨. ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ (آخران) مبتدأ، وجملة ﴿يَقُومَانِ﴾ إلى قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ صفة سوغت الابتداء بالنكرة، الأوليان خبر المبتدأ، و﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ﴾ ومجرورها متعلقان بمقامهما وهي (من) التي تحدد المسافة والنسبة، كالحديث: (أنت مني بمنزلة هارون من موسى) وقول عنترة:

ولقد نزلتِ فلا تظني غيره   مني بمنزلة المحَب المكرَم

بناء على أن قوله: (مني) متعلق بـ (نزلتِ) وهو الظاهر عندي، ومنه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦] و﴿مَقَامَهُمَا﴾ مصدر، أو ظرف مكان.

٩. ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ تأكيداً لشهادتهما ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ في شهادتنا على المستحق عليه، أي لم نعتدِ عليه ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إنا إذا اعتدينا عليه وشهدنا عليه بما ليس عليه ﴿لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ تسجيلاً على أنفسهم بالظلم وإقراراً بإثم الظلم إن اعتديا، وهذا من تأكيد الشهادة.

١٠. سؤال وإشكال: كيف يتصور العثور على أن الأولين كتما مثلاً؟ والجواب: إذا شهدا على إقرار الميت ببعض الحق الذي يعلمه الآخران عليه فالمستحق عليهم الورثة، وإذا شهدا على دعوى الميت بعض الحق له الذي يعلمه الآخران فالمستحق عليهم المدعَى عليهم، فالعثور: هو الاطلاع على ما كتم الشاهدان بسبب معاينة المعاملة سابقاً قبل ضرب الأرض أو سماع الإقرار سابقاً من الميت أو من غرمائه، أو بسبب إقرار الشاهدين من بعد الشهادة على ما كتما، أو بسبب من حضر عند الوصية من المسلمين ولم يكونا باسم متحملين للشهادة، أو حضرا في مرض الموصي قبل أن يوصي وسمعا منه ما يناقض شهادة الشاهدين ويبين

ما كتما، هذا الظاهر عندي، ولا يجب تنزيل الآية على قصة تميم الداري.

١١. ﴿ذَلِكَ﴾ الذي أمر الله به في الآيتين ﴿أَدْنَى﴾ أقرب ﴿أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾ أن يأتوا الأولان والآخران، فالأولان بتحليفهما قبل الشهادة بعد الصلاة، والآخران بقسمهما: ﴿لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾، والكل من الأولين والآخرين لخوف الفضيحة بورود أيمان تكشف كتمانهم.

١٢. ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ﴾ أي أدنى أن يخافوا ﴿أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ﴾ يؤتى بها بعد غيابها عن موقف الشاهدين فتكشف كتمانهما، وهذا الخوف يصلح للأولين والآخرين؛ ولذلك قال تعالى: ﴿أَوْ يَخَافُوا﴾ بالجمع.

١٣. سؤال وإشكال: فلماذا قيل: ﴿أَوْ يَخَافُوا﴾ ولم يؤتَ بـ (الواو) مكان (أو)؟ والجواب: إذا أتوا بالشهادة على وجهها لأجل ما ذكر كله فهو المراد، وقد تضمن ذلك الخوفَ المؤدي إلى أداء الشهادة على وجهها، وإنما جيئ بـ (أو) لأجل حالة الكتمان أو التغيير؛ لأنه جعل مقابل أداء الشهادة على وجهها الخوف من انكشاف الكتمان أو التغيير، وفائدة ذلك: أنه إذا خان مع خوفه أن يفتضح كان مستحقاً للفضيحة أكثر من غيره؛ لأنه قد تعرض لها عمداً.

١٤. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ عطف على الأوامر المذكورة في الآية للتحذير من المخالفة في شيء منها أو في غيرها، وتمهيداً للأمر بالسماع ﴿وَاسْمَعُوا﴾ أوامر الله سماع من يريد الاتباع، أو بمعنى: اقبلوا، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الذين تركوا التقوى والسماع، فهم مخذولون.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. هذا نداء للمؤمنين حول الشهادة على الوصيّة، فقد أراد الله للحقوق الّتي بين النّاس أن لا تضيع ولا تخضع للصّدف في طبيعة وسائل الإثبات، فجعل الشهادة وسيلة لتأكيد الحقّ عندما تتحرّك النوازع الذاتية لتدفع الإنسان إلى الانحراف والوقوع في قبضة الهوى والطمع، فأراد أن يحمي الإنسان من نفسه، فلا يستسلم لهواه، ويحمي الحقّ من العدوان، فلا يسقط أمام حالات الخيانة، فإذا عرف من عليه

---

(١) من وحي القرآن: ٨/٣٧٥.

الحقّ أنّ هناك شهودا، كان ذلك ضمانة له من الانحراف، وإذا عرف من له الحق أنّ له الحجّة في حقّه، كان ذلك موجبا للاطمئنان والثقة بالمستقبل.

٢. وقد ركّزت هذه الآيات على حالة خاصة من جملة الحالات الّتي تفرض الإتيان بالشهود، وهي الحالة الّتي يصبح فيها الإنسان في مواجهة استحقاق الموت، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ حيث يسبق هذا الاستحقاق بالوصيّة لمن خلفه من الأبناء والأهل والأقارب، وربّما كان التركيز على حالة الموت، باعتبار أنّها الحالة الّتي يخشى فيها الإنسان فوات الحقّ أو الحاجة، فأراد الله للإنسان أن يشهد عدلين من المسلمين.

٣. ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ ممن تتوفر فيهم صفات الاستقامة على خط الشرع، وتتحقق لديهم العناصر الأخلاقيّة الّتي تدعو إلى الثقة بصدقهم، أمّا إذا كان الإنسان في سفر، ولم يجد أحدا من المسلمين ليشهده على ذلك، فلا مانع من أن يشهد شخصين من غير المسلمين.

٤. ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ﴾، وقد جاءت الأحاديث عن أئمة أهل البيت عليهم السّلام أنّ المراد بهم أهل الكتاب، ولعلّ ذلك بلحاظ الحاجة إلى القسم بالله في بعض الحالات، مما لا يتأتى إلّا من المؤمنين بالله، فإذا مات الإنسان، وارتاب أولياء الميت بالشاهدين بسبب بعض الأوضاع الّتي تدفع إلى الشك، مما يحقق لديهم قناعة أو ما يشبه القناعة بانحرافهما عن الخط الصحيح للمسألة، فيتقدمان إلى مجلس القسم.

٥. ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾، وذلك بعد صلاة العصر بحسب إفادة بعض الرّوايات، واختيار هذا التوقيت، قد يكون إمعانا في توكيد الجوّ الروحي الّذي يوحي بالمسؤوليّة، ويثير في النفس شيئا من الرهبة والخوف، لأنّها الحالة الّتي يعيش فيها النّاس مع الله، وخلاصة القسم، أنّهما لا ينحرفان عن خط الصدق في الشهادة مهما كلفهما ذلك من تضحيات، ومهما قدم إليهما من إغراءات، لأنّ الشهادة تمثّل، في وعيهما، موقف الحقّ في شخصيّة الإنسان المؤمن، فلا يمكن أن يبيع موقفه هذا لأحد مهما كان حجم الثمن وقيمته، وأنّهما لا يكتمان أيّ شيء منها، لأنّها أمانة الله عندهما، فهما لم يشهدا ليضيفا إلى معلوماتهما الشخصيّة معلومات جديدة عن الأحداث والأشخاص، بل شهدا من أجل إثبات الحقيقة، وإيصال صاحب الحقّ إلى حقّه، ويضيفان إلى ذلك،

التأكيد على الموقف إنّهما لمن الآثمين إذا انحرفا، وبذلك يقرّان على نفسيهما باستحقاق العقاب من الله على ذلك فيما يمثّله الإثم من نتائج وخيمة عند الله.

٦. ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ أي وجد أولياء الميّت ﴿عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾، ولكنّهم لا يملكون الدليل المثبت لذلك، فهم يعتقدون فيهما الكذب انطلاقا من بعض القرائن القاطعة، فيؤتى بشاهدين منهم، وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ وأقرب إلى الواقع، ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وينفيان الاعتداء عليهما في هذا التكذيب، ويثبتان على نفسيهما الظلم، لو كانا كاذبين أو معتديين.

٧. وهكذا يثير الله أمامنا ـ في نهاية المطاف ـ الحكمة من هذا التشريع المرتكز على التأكيد الشديد بالقسم في حالة الشك والريبة، ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ بأنّ ذلك هو أقرب إلى أن يأتيا بالشهادة على وجهها الصحيح عندما يعرفان النتائج السلبيّة الّتي قد تلحقهما في حالة الانحراف، أو يخافا أن تكذّبهما الأيمان اللاحقة فتبطل أيمانهما، مما يسبّب لهما الفضيحة أمام النّاس، فيمنعهما ذلك من الشهادة بالباطل، أو إخفاء الحقّ، ويختم الله الآيات بالدعوة إلى التقوى.

٨. ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا﴾ في جميع المواقع العمليّة ليتحرّك الإنسان في الحياة من موقع المسؤوليّة الّتي تحميه من نفسه، وتحمي الإنسان منه، وتثير أمامه الأمر بالاستماع إلى ما يتلى عليه من الآيات، ليعرف من خلال ذلك، ما يجب عليه الالتزام به، أو ليستقيم له الدرب، ولتتم له الهداية.

٩. ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ فإنّ الله يهدي الّذين يخافونه ويراقبونه فيسمعون آياته وتعاليمه فيهتدون بها، الّذين أغلقوا قلوبهم عن خوف الله ومحبته وأصموا آذانهم عن آياته وكلماته، فتركهم لأنفسهم، وأوكلهم إلى أهوائهم.

١٠. وقد ثار جدل كثير حول معنى هذه الآية.. ولكنّنا استقربنا ما قدمناه من تفسير واستوحيناه من بعض الرّوايات الّتي تحدثت عن مناسبة نزول هذه الآيات، وهو حديث لا يخلو من الطرافة والإيحاء بالأسلوب الهادئ الّذي يسود أجواء الحكم فيما يثأر من قضايا النزاع والخلاف أمام القضاء الإسلامي.. ولذلك فإنّنا ننقل الحديث كما ورد، ليستعين به القارئ على فهم الآيات، وليستوحي منه روح العدالة في

الإسلام[1].

١١. هناك روايات أخرى تدل على أنّ تميما الداري هو أحد الشخصين اللّذين قاما بالخيانة وحلفا بغير الحقّ.. وليست المسألة في هذه الآيات هي مسألة صاحب القضيّة، ولكنّها مسألة مثل هذه الواقعة في دلالاتها الشرعيّة من حيث الدعوة إلى الوصيّة حين الموت وتثبيتها بالإشهاد استحبابا إذا لم يكن هناك مثل هذا الحق وخاف ضياعه من بعده، فإن وجد مسلمين عدلين فليشهدهما على الوصيّة، وإن لم يجد مسلمين فليشهد اثنين من أهل الكتاب ممن يؤمن بالله ويخاف منه إذا حلف به كاذبا فيقول الحقّ على أساس الإيمان والتقوى الدينيّة، ولا بدّ من أن يستحلفهما الحاكم بعد الصّلاة أمام الملأ بأنّهما لم يشهدا من موقع خيانة أو كتم معلومات، ولم يأخذا مالا على أن يكذبا، فتقبل شهادتهما كما تقبل من المسلمين.

١٢. وقد جاءت الفتوى بذلك من الإماميّة والحنابلة استنادا إلى هذه الآية، وخالفهم في ذلك أبو حنيفة ومالك والشافعي فقالوا: لا تقبل شهادة غير المسلمين مطلقا ولو كانت من بعضهم على بعض، فإذا ظهرت الريبة على الشاهدين فيمكن الاعتماد على اثنين آخرين يملكان المعلومات الدقيقة على الموضوع، فيقسمان بالله على ذلك، ويؤكدان بطلان شهادة الشاهدين السابقين وعدم قيامهما بأي موقف عدواني ضد أصحاب الحقّ، مما يعني أنّ الشهود أربعة، يشهد الأولان بما لديهما، فإن انحرفا قام الآخران مقامهما بالشهادة.

١٣. وقد نستوحي من ذلك في الموارد الأخرى أنّ للقاضي أن لا يقتصر على بيّنة واحدة إذا خشي وجود الخلل فيها، لأنّ القضيّة المطروحة هي أن تنطلق الشهادة من الشهود على وجهها الصحيح بعيدا عن أيّ ريب من حيث الخيانة في الشهادة أو في اليمين، مما يفرض التدقيق في المسألة، ولا يكتفى بالشكل الساذج الّذي يستمع فيه القاضي إلى البيّنة من دون تحقيق شامل، أو يكتفى بالحلف دون الدخول في دراسة شاملة لشخصيّة الحالف أو طبيعة اليمين، إنّها استيحاءات لا بدّ لنا من ملاحقتها في حركة القضاء، ليخرج القضاء الإسلامي عن تبسيط المسألة بالاكتفاء بالبيّنة ـ بمعناها المصطلح ـ أو اليمين، فينفتح على وسائل أخرى للتدقيق من خلال إطلالة القاضي على مجريات الأمور في حركة الواقع للمسألة، وهذا ما قد نلاحظه

---

(١) ذكر ما ورد في سبب النزول الذي سبق ذكره.

فيما روي عن الإمام عليّ عليه السّلام في طريقته في القضاء بين النّاس الّتي ارتكزت على المزيد من التدقيق في البيّنة وفي حركة الإيمان والله العالم.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. جاء في (مجمع البيان) وبعض التفاسير الأخرى في سبب نزول هذه الآيات[2].. غير أن سبب النّزول المذكور في (الكافي) يقول: إنّهما أنكرا أوّلا وجود متاع آخر، ووصل الأمر إلى رسول الله ﷺ ولما لم يكن هناك دليل ضدهما طلب منهما رسول الله ﷺ أن يحلفا اليمين، وبرأهما، ولكن بعد أيّام قليلة ظهر بعض المتاع المسروق عند الرجلين فثبت كذبهما، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فانتظر حتى نزلت الآيات المذكورة، عندئذ أمر أولياء الميت بالقسم، وأخذ الأموال دفعها إليهم.

٢. من أهم المسائل التي يؤكّدها الإسلام هي مسألة حفظ حقوق الناس وأموالهم وتحقيق العدالة الاجتماعية هذه الآيات تبيّن جانبا من التشريعات الخاصّة بذلك، فلكيلا تغمط حقوق ورثة الميت وأيتامه الصغار، يصدر الأمر للمؤمنين قائلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ﴾، المقصود بالعدل هنا العدالة، وهي تجنب الذنوب الكبيرة ونظائرها، ولكن يحتمل من معنى الآية أيضا أنّ يكون المقصود من العدالة: الأمانة في الشؤون المالية، إلّا إذا ثبت بدلائل أخرى ضرورة توفر شروط أخرى في الشاهد، و(منكم) تعني من المسلمين بإزاء غير المسلمين، الذين تأتي الإشارة إليهم في العبارة التّالية من الآية.

٣. لا بدّ من القول بأنّ القضية هنا لا تتعلق بالشهادة العادية المألوفة، بل هي شهادة مقرونة بالوصاية، أي أن هذين وصيان وشاهدان في الوقت نفسه، أمّا الاحتمال القائل باختيار شخص ثالث كوصي بالإضافة إلى الشاهدين هنا، فإنه خلاف ظاهر الآية ويخالف سبب نزولها، لأنّنا لاحظنا أنّ ابن أبي مارية لم يكن يرافقه في السفر غير اثنين اختارهما وصيين وشاهدين.

٤. ثمّ تأمر الآية: إذا كنتم في سفر ووافاكم الأجل ولم تجدوا وصيّا وشاهدا من المسلمين فاختاروا

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/١٧٥.

(٢) ذكر ما ورد في سبب النزول الذي سبق ذكره.

اثنين من غير المسلمين: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾، وعلى الرغم من عدم وجود ما يفهم من الآية أنّ اختيار الوصي والشاهد من غير المسلمين مشروط بعدم وجودهما من المسلمين، فهو واضح، لأنّ الاستعاضة تكون عندما لا تجد من المسلمين من توصيه، كما أنّ ذكر قيد السفر يفيد هذا المعنى أيضا، وعلى الرغم من أنّ (أو) تفيد (التخيير) عادة، إلّا أنّها هنا ـ وفي كثير من المواضع الأخرى ـ تفيد (الترتيب)، أي اخترهما أوّلا من المسلمين، فإن لم تجد، فاخترهما من غير المسلمين.

٥. وغني عن القول أنّ المقصود من غير المسلمين هم أهل الكتاب من اليهود والنصاري طبعا، لأنّ الإسلام لم يقم وزنا في أية مناسبة للمشركين وعبدة الأصنام مطلقا.

٦. ثمّ تقرر الآية حمل الشاهدين عند الشهادة على القسم بالله بعد الصّلاة، في حالة الشك والتردد: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾، ويجب أنّ تكون شهادتهما بما مفاده: إنّنا لسنا على استعداد أن نبيع الحقّ بمنافع مادية، فنشهد بغير الحقّ حتى وإن كانت الشهادة ضد أقربائنا: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ وإننا لن نخفي أبدا الشهادة الإلهية، وإلّا فسنكون من المذنبين: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾

٧. ولا بدّ أن نلاحظ ما يلي:

أ. أوّلا: إنّ هذه التفاصيل في أداء الشهادة إنّما تكون عند الشك والتردد.

ب. ثانيا: لا فرق بين المسلم وغير المسلم في هذا كما يبدو من ظاهر الآية، وإنّما هو في الحقيقة ـ وسيلة لإحكام أمر حفظ الأموال في إطار الاتهام، وليس في هذا ما يناقض القبول بشهادة عدلين بغير تحليف، لأنّ هذا يكون عند انتفاء الشك في الشاهدين، لذلك فلا هو ينسخ الآية ولا هو مختص بغير المسلمين (تأمل بدقّة)

ج. ثالثا: الصّلاة بالنسبة لغير المسلمين يقصد بها صلاتهم التي يتوجهون فيها إلى الله ويخشونه، أمّا بالنسبة للمسلمين فيقول بعض: إنّها خاصّة بصلاة العصر، وفي بعض الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام إشارة إلى ذلك، إلّا أنّ ظاهر الآية هو الإطلاق ويشمل الصلوات جميعها، ولعل ذكر صلاة العصر في رواياتنا يعود إلى جانبه الاستحبابي، إذ أنّ الناس يشتركون أكثر في صلاة العصر، ثمّ ان وقت

العصر كان الوقت المألوف للتحكيم والقضاء بين المسلمين.

د. رابعا: اختيار وقت الصّلاة للشهادة يعود إلى أنّ المرء في هذا الوقت يعيش آثار الصّلاة التي ﴿تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ وأنّه في هذا الظرف الزماني والمكاني يكون أقرب إلى الحقّ، بل قال بعضهم: إنّ من الأفضل أن تكون الشهادة في (مكّة) عند الكعبة وبين (الركن) و(المقام) باعتباره من أقدس الأمكنة، وفي المدينة تكون جنب قبر رسول الله ﷺ.

٨. وفي الآية التّالية يدور الكلام على ثبوت خيانة الشاهدين إذا شهدا بغير الحقّ، كما جاء في سبب نزول الآية، فالحكم في مثل هذه الحالة ـ أي عند الاطلاع على أن الشاهدين قد ارتكبا إثمّ العدوان على الحقّ واضاعته ـ هو أن تستعيضوا عنهما باثنين آخرين ممن ظلمهما الشاهدان الأولان (أي ورثة الميت) فيشهدان لإحقاق حقهما: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾

٩. يذهب العلّامة الطبرسي في (مجمع البيان) إلى أنّ هذه الآية تعتبر من حيث المعنى والإعراب من أعقد الآيات وأصعبها، ولكن بالالتفات إلى نقطتين نجد أنّها ليست بتلك الصعوبة والتعقيد:

أ. فالنّقطة الاولى: هي أن معنى (استحق) هنا بقرينة كلمة (إثم) هو إثمّ العدوان على حق الآخرين.

ب. والنّقطة الثّانية: هي أنّ (الأوليان) تعني هنا (الأولان) أي الشاهدان اللذان كانا عليهما أنّ يشهدا أوّلا ولكنّهما انحرفا عن طريق الحقّ.

١٠. وعليه يكون المعنى: إذا ثبت أنّ الشاهدين الأولين ارتكبا مخالفة، فيقوم مقامهما اثنان آخران ممن وقع عليهم ظلم الشاهدين الأولين.

١١. ثمّ تبيّن ما ينبغي على هذين الشاهدين أن يفعلاه ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾، لمّا كان أولياء الميت على علم بالأموال والأمتعة التي أخذها معه عند سفره أو التي يملكها عموما، فيمكن أن يشهدوا على أنّ الشاهدين الأولين قد خانا وظلما، وتكون هذه الشهادة حسية مبنية على القرائن، لا حدسية.

١٢. والآية الأخيرة، في الحقيقة، بيان لحكمة الأحكام التي جاءت في الآيات السابقة بشأن

الشهادة وهي أنّه إذا أجريت الأمور بحسب التعاليم، أي إذا طلب الشاهدان للشهادة بعد الصّلاة بحضور جمع، ثمّ ظهرت خيانتهما، وقام اثنان آخران من الورثة مقامهما للكشف عن الحقّ، فذلك يحمل الشهود على أن يكونوا أدق في شهادتهم، خوفا من الله أو خوفا من الناس: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، في الواقع سيكون هذا سببا في الخشية من المسؤولية أمام الله وأمام الناس، فلا ينحرفان عن محجة الصواب.

١٣. ولتوكيد الأحكام المذكورة يأمر الناس قائلا: ﴿اتَّقُوا اللهَ واسْمَعُوا واللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾

٨٩. مساءلة الرسل والمسيح

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٨٩] من سورة المائدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٠٩ ـ ١١٠]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾، فيقولون للرب ـ تبارك وتعالى ـ: لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ فرقا تذهل عقولهم، ثم يرد الله إليهم عقولهم، فيكونون هم الذين يسألون، يقول الله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦][2]

٣. عن عطاء بن أبي رباح قال: جاء نافع بن الأزرق إلى ابن عباس، فقال: والذي نفسي بيده، لتفسرن لي آيا من كتاب الله عز وجل، أو لأكفرن به، فقال: ويحك! أنا لها اليوم، أي آي؟ قال: أخبرني عن قول الله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾، وقال في آية أخرى: ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ للهِ﴾ [القصص: ٧٥] [القصص: ٧٥]، فكيف علموا وقد

---

(١) ابن جرير ٩/١١١.

(٢) ابن أبي حاتم ٤/١٢٣٥.

قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾؟ وأخبرني عن قول الله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١]، وقال في آية أخرى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ [ق: ٢٨]، فكيف يختصمون وقد قال: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾؟ وأخبرني عن قول الله: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾ [يس: ٦٥]، فكيف شهدوا وقد ختم على الأفواه؟ فقال ابن عباس: ثكلتك أمك، يا ابن الأزرق! إن للقيامة أحوالا وأهوالا وفظائع وزلازل، فإذا تشققت السماوات، وتناثرت النجوم، وذهب ضوء الشمس والقمر، وذهلت الأمهات عن الأولاد، وقذفت الحوامل ما في البطون، وسجرت البحار، ودكدكت الجبال، ولم يلتفت والد إلى ولد، ولا ولد إلى والد، وجيء بالجنة تلوح فيها قباب الدر والياقوت، حتى تنصب على يمين العرش، ثم جيء بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام من حديد، ممسك بكل زمام سبعون ألف ملك، لها عينان زرقاوان، تجر الشفة السفلى أربعين عاما، تخطر كما يخطر الفحل، لو تركت لأتت على كل مؤمن وكافر، ثم يؤتى بها حتى تنصب عن يسار العرش، فتستأذن ربها في السجود، فيأذن لها، فتحمده بمحامد لم يسمع الخلائق بمثلها؛ تقول: لك الحمد إلهي إذ جعلتني أنتقم من أعدائك، ولم تجعل لي شيئا مما خلقت تنتقم به مني، إلي أهلي، فلهي أعرف بأهلها من الطير بالحب على وجه الأرض، حتى إذا كانت من الموقف على مسيرة مائة عام ـ وهو قول الله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [الفرقان: ١٢] زفرت زفرة، فلا يبقى ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا صديق منتخب، ولا شهيد مما هنالك إلا خر جاثيا على ركبتيه، ثم تزفر الثانية زفرة، فلا يبقى قطرة من الدموع إلا بدرت، فلو كان لكل آدمي يومئذ عمل اثنين وسبعين نبيا لظن أنه سيواقعها، ثم تزفر الثالثة زفرة، فتنقلع القلوب من أماكنها، فتصير بين اللهوات والحناجر، ويعلو سواد العيون بياضها، ينادي كل آدمي يومئذ: يا رب، نفسي نفسي، لا أسألك غيرها، حتى إن إبراهيم ليتعلق بساق العرش ينادي: يا رب، نفسي نفسي، لا أسألك غيرها، ونبيكم ﷺ يقول: (يا رب، أمتي أمتي)، لا همة له غيركم، فعند ذلك يدعى بالأنبياء والرسل، فيقال لهم: ماذا أجبتم؟ قالوا: لا علم لنا، طاشت الأحلام، وذهلت العقول، فإذا رجعت القلوب إلى أماكنها ﴿نزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله﴾، وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فهذا وهم بالموقف يختصمون، فيؤخذ للمظلوم من الظالم، وللمملوك من المالك، وللضعيف من الشديد، وللجماء من القرناء، حتى يؤدى إلى كل ذي حق حقه، فإذا أدي إلى كل ذي حق حقه أمر بأهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار،

فلما أمر بأهل النار إلى النار اختصموا، فقالوا: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف: ٣٨]، و﴿رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ [ص: ٦١]، فيقول الله تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٨]، إنما الخصومة بالموقف، وقد قضيت بينكم بالموقف، فلا تختصموا لدي، وأما قوله: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾ فهذا يوم القيامة، حيث يرى الكفار ما يعطي الله أهل التوحيد من الفضائل والخير، يقولون: تعالوا حتى نحلف بالله ما كنا مشركين، فتتكلم الأيدي بخلاف ما قالت الألسن، وتشهد الأرجل تصديقا للأيدي، ثم يأذن الله للأفواه فتنطق، فقالوا لجلودهم: لم شهدتم علينا؟ قالوا: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء[(١)].

٤. روي أنّه قال: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾، أي: الآيات التي وضع على يديه؛ من إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله، وإبراء الأسقام، والخبر بكثير من الغيوب مما يدخرون في بيوتهم، وما رد عليهم من التوراة مع الإنجيل الذي أحدث الله إليه، ثم ذكر كفرهم بذلك كله[(٢)].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) أنّه قال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾، قال: فيفزعون، فيقول: ماذا أجبتم؟ فيقولون: لا علم لنا، فترد إليهم أفئدتهم، فيعلمون[(٣)].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ من هول ذلك اليوم[(٤)].

٢. روي أنّه قال في قول الله: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ

---

(١) الخطيب في تاريخه ١٢/٣٠٢.

(٢) ابن أبي حاتم ٤/١٢٤٢.

(٣) عبد الرزاق ١/٢٠١.

(٤) ابن جرير ٩/١١٠.

إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾ [القصص: ٧]: إلهام ألهمهم[١].

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ يقول: ماذا أجبتم في أوصيائكم الذين خلفتم على أمتكم؟ ـ قال: ـ فيقولون: لا علم لنا بما فعلوا من بعدنا[٢].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١ . روي أنّه قال: ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ كان عيسى يقرأ التوراة والإنجيل[٣].

٢ . روي أنّه قال: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ وحي قذف في قلوبهم، ليس بوحي نبوة، والوحي وحيان: وحي تجيء به الملائكة، وحي يقذف في قلب العبد[٤].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) أنّه قال: ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ معناه قويتك[٥].

السدي:

روي عن إسماعيل السدي الكوفي (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١ . روي أنّه قال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ ذلك أنهم نزلوا منزلا ذهلت فيه العقول، فلما سئلوا قالوا: لا علم لنا، ثم نزلوا منزلا آخر فشهدوا على قومهم[٦].

٢ . روي أنّه قال: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾، يقول: قذفت في قلوبهم[٧].

---

(١) عبد الله بن وهب في الجامع ـ تفسير القرآن ٢/٥٣.

(٢) تفسير العيّاشي ١/٣٤٩.

(٣) ابن أبي حاتم ٤/١٢٤٠.

(٤) عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد.

(٥) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٢.

(٦) ابن جرير ٩/١١٠.

(٧) ابن جرير ٩/١١٦.

ابن أسلم:

روي عن زيد بن أسلم (ت ١٣٦ هـ) أنّه قال: يأتي على الخلق ساعة يذهل فيها عقل كل ذي عقل، ثم قرأ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾[١].

الكلبي:

روي عن محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) أنّه قال: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ قذف في قلوبهم[٢].

الصادق:

روي عن الإمام الصادق (ت ١٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ إن لهذا تأويلا، يقول: ماذا أجبتم في أوصيائكم الذين خلفتم على أممكم؟ ـ قال: ـ فيقولون: لا علم لنا بما فعلوا من بعدنا)[٣].

٢. روي أنّه قال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ يقولون: لا علم لنا بسواك.. القرآن كله تقريع، وباطنه تقريب، قال: ابن بابويه: يعني بذلك أنه من وراء آيات التوبيخ والوعيد آيات الرحمة والغفران[٤].

٣. روي أنّه سئل: هل كان عيسى بن مريم عليه السلام أحيا أحدا بعد موته بأكل ورزق ومدة وولد؟فقال: (نعم، إنه كان له صديق مؤاخ له في الله تبارك وتعالى، وكان عيسى عليه السلام يمر به، وينزل عليه، وإن عيسى عليه السلام غاب عنه حينا، ثم مر به ليسلم عليه، فخرجت إليه امه، فسألها عنه، فقالت: مات يا رسول الله، فقال: أتحبين أن تريه؟ قال: نعم، فقال لها: إذا كان غدا فآتيك حتى أحييه لك بإذن الله تبارك وتعالى، فلما كان من الغد أتاها، فقال لها: انطلقي معي إلى قبره، فانطلقا حتى أتيا قبره، فوقف عليه عيسى عليه السلام، ثم دعا الله عز وجل فانفرج القبر، وخرج ابنها حيا، فلما رأته امه ورءاها بكيا، فرحمهما

---

(١) عزاه السيوطي إلى أبي الشيخ.

(٢) عبد الرزاق ٢٠٠/١.

(٣) الكافي ٣٣٨/٨.

(٤) معاني الأخبار: ١/٢٣١.

عيسى عليه السلام، فقال له عيسى عليه السلام: أتحب أن تبقى مع أمك في الدنيا؟ فقال: يا رسول الله، بأكل ورزق ومدة، أم بغير أكل ولا رزق ولا مدة؟ فقال له عيسى عليه السلام: بأكل ورزق ومدة، وتعمر عشرين سنة، وتزوج ويولد لك، قال: نعم إذن، فدفعه عيسى إلى امه، فعاش عشرين سنة وتزوج، وولد له)[1].

٤. روي أنّه قال: إن عيسى بن مريم جاء إلى قبر يحيى بن زكريا عليهما السلام، وكان سأل ربه أن يحييه له، فدعاه فأجابه، وخرج إليه من القبر، فقال له: ما تريد مني؟ فقال له: أريد أن تؤنسني كما كنت في الدنيا، فقال له: يا عيسى، ما سكنت عني حرارة الموت، وأنت تريد أن تعيدني إلى الدنيا، وتعود علي حرارة الموت!؟ فتركه، وأعاده إلى قبره)[2].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾ يعني: الأنبياء، ﴿فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ﴾ في التوحيد، ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾، وذلك أول ما بعثوا عند زفرة جهنم؛ لأن الناس إذا خرجوا من قبورهم تاهت عقولهم، فجالوا في الدنيا ثلاثين سنة، ويقال: أربعين سنة، ثم ينادي مناد عند صخرة بيت المقدس: يا أهل الدنيا، هاهنا موضع الحساب، فيسمع النداء جميع الناس، فيقبلون نحو الصوت، فإذا اجتمعوا ببيت المقدس زفرت جهنم زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا ظن أنه لو جاء بعمل سبعين نبيا ما نجا، فعند ذلك تاهت عقولهم، فيقول لهم عند ذلك ـ يعني: المرسلين ـ: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمْ﴾ في التوحيد، ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، ثم رجعت عقولهم بعد ذلك إليهم، فشهدوا على قومهم أنهم قد بلغوا الرسالة عن ربهم، فذلك قوله سبحانه: ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ يعني: الأنبياء ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ [هود: ١٨][3].

٢. روي أنّه قال: ﴿إِذْ قال الله يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ في الآخرة، ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى

(١) الكافي ٨/٣٣٧.

(٢) الكافي ٣/٢٦٠.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٤.

﴿وَالِدَتِكَ﴾ يعني: مريم[1].

٣. روي أنّه قال: ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾، فالنعمة على عيسى حين أيده بروح القدس، يعني: جبريل عليه السلام[2].

٤. روي أنّه قال: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ يعني: تكلم بني إسرائيل صبيا في المهد حين جاءت به أمه تحمله، ﴿و﴾ يكلمهم ﴿كهلا﴾ حين اجتمع واستوت لحيته[3].

٥. روي أنّه قال: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ يعنى: الخفاش ﴿بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا﴾ يعني: في الهيئة ﴿فتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾[4].

٦. روي أنّه قال: ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾ يعني: الأعمى الذي يخرج من بطن أمه أعمى، فكان عيسى عليه السلام يرد إليه بصره بإذن الله تعالى، فيمسح بيده عليه فإذا هو صحيح بإذن الله، ﴿و﴾ يبرئ ﴿الأبرص﴾ يمسحهما بيده فيبرئهما ﴿بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ أحياء[5].

٧. روي أنّه قال: ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾، يعني: علم التوراة والإنجيل، وجعله نبيا ورسولا إلى بني إسرائيل[6].

٨. روي أنّه قال: وأما النعمة على مريم فهي أنه اصطفاها ـ يعني: اختارها ـ، وطهرها من الإثم، واختارها على نساء العالمين، وجعلها زوجة محمد ﷺ في الجنة، ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ﴾ يعني: عن قتلك حين رفعه الله عز وجل إليه، وقتل شبيهه، وهو الرقيب الذي كان عليه، ﴿إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: بالعجائب التي كان يصنعها؛ من إبراء الأكمه، والأبرص، والموتى، والطائر، ونحوه، ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ يعني: من اليهود من بني إسرائيل: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يعني: ما هذا الذي يصنع

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٥.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٥.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٥.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٥.

(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٥.

(٦) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٥.

عيسى من الأعاجيب ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يعني: بين، نظيرها في الصف[1].

ابن جريج:

روي عن ابن جريج (ت ١٥٠ هـ) أنّه قال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾، يقول: ماذا عملوا بعدكم، وماذا أحدثوا بعدكم؟ قالوا: ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[2].

ابن إسحاق:

روي عن محمد بن إسحاق (ت ١٥١ هـ) أنّه قال: ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾، أي: كتاب لم يسمعوا به جاءهم به، وكتاب قد سمعوا به مضى ودرس علمه من بين أظهرهم، فرد به عليهم[3].

الرضا:

روي عن ابن السكيت أنّه قال للإمام الرضا الرضا (ت ٢٠٣ هـ): لماذا بعث الله تعالى موسى بن عمران عليه السلام بيده البيضاء والعصا وآلة السحر، وبعث عيسى عليه السلام بالطب، وبعث محمدا ﷺ بالكلام والخطب؟فقال الإمام الرضا: (إن الله تبارك وتعالى لما بعث موسى عليه السلام كان الأغلب على أهل عصره السحر، فأتاهم من عند الله تعالى بما لم يكن عند القوم وفي وسعهم مثله، وبما أبطل به سحرهم وأثبت به الحجة عليهم، وإن الله تبارك وتعالى بعث عيسى عليه السلام في وقت ظهرت فيه الزمانات، واحتاج الناس إلى الطب، فأتاهم من عند الله تعالى بما لم يكن عندهم مثله، وبما أحيا لهم الموتى، وأبرأ لهم الأكمه والأبرص، بإذن الله عز وجل، وأثبت به الحجة عليهم، وإن الله تبارك وتعالى بعث محمدا ﷺ في وقت كان الأغلب على أهل عصره الخطب والكلام ـ وأظنه قال: والشعر ـ فأتاهم من كتاب الله تعالى ومواعظه وأحكامه ما أبطل به قولهم، وأثبت به الحجة عليهم)، قال ابن السكيت: تالله ما رأيت مثلك اليوم قط، فما الحجة على الخلق اليوم؟فقال عليه السلام: (العقل يعرف به الصادق على الله فيصدقه، والكاذب على الله فيكذبه)، فقال ابن السكيت: هذا ـ والله ـ هو الجواب[4].

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٦.

(٢) ابن جرير ٩/١١٢.

(٣) ابن أبي حاتم ٤/١٢٤٠.

(٤) علل الشرائع: ١٢١/٦.

الداراني:

روي عن أبي سليمان الداراني (ت ٢١٢ هـ)، قال: قلت لإسحاق بن خلف: قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾، قلت: أليس قد علموا ماذا عليهم في الدنيا؟ قال: بلى، ولكن من عظم قول السؤال طاشت عقولهم، فلم يدروا ما أجيبوا، فإذا رجعت إليهم بعد عرفوا، فحدث به أبو سليمان الدراني، فقال: هم في سماعهم تلك صادقين، ثم ترجع إليهم عقولهم بعد، فيخبر بما أجيبوا[١].

الرسّي:

ذكر الإمام القاسم الرسي (ت ٢٤٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. وسألت عن: قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾، ومسألة الرسل من الله عن ما أجيبوا في يوم البعث: فمسألة عن الله ذات حقيقة، وحكمة ورحمة، برية من كل جهل وعبث، وإنما هي تقرير لهم ولأممهم، وتعريف وتوقيف، وإبانة أنه لا يأخذ أممهم إلا بجرمهم؛ لأنه هو الله الرحيم الرؤوف، وأنه علام ما خفي عن الرسل من غيرهم، فيما كان من الجواب لهم، في حسناتهم وذنوبهم.

الهادي إلى الحق:

ذكر الإمام الهادي إلى الحق (ت ٢٩٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٣]:

١. سؤال وإشكال: وأما ما سأل عنه، من قول الله لعيسى بن مريم المسيح العبد الكريم: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، فقال: هل كانت بنو إسرائيل تقدر على أن تبسط أيديها إليه، وقد كفها الله عنه، وأنعم بذلك عليه؟ والجواب: قولنا في ذلك: أن الله لم يكف أيديهم عنه جبرا؛ ولكنه ألقى في قلوبهم الهيبة له، ولمن معه من الحواريين، وأعلم نبيه صلى الله عليه بما يريدون منه، وما يريدون فيه، فحذرهم، واستعد بمن معه لهم، فخافوهم وحذروهم، فلاشى عزيمتهم، وأبطل في ذلك إرادتهم، ومن على نبيه صلى الله عليه بما ألقى له وللحق في قلوبهم من الهيبة والمخافة، فرجعوا خائبين، ومما أرادوا مؤيسين، وأعز الله سبحانه المؤمنين، وكبت الفاسقين، فهذا ـ

---

(١) ابن أبي حاتم ٤/١٢٣٦.

(٢) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/٣٥٩.

(٣) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/٣٦٢.

إن شاء الله ـ معنى ما ذكر الله، من كف أيديهم عن عيسى بن مريم صلى الله عليه نبيهم، والمظهر للحق فيهم، والمطلق لهم بعض الذي حرم عليهم، المبريء لأكمههم وأبرصهم، الشافي لسقيمهم، والمحيي لميتهم، والمنبيء لهم عما يأكلون ويدخرون في بيوتهم؛ وتلك أعظم آيات ربهم، وبراهين خالقهم، فلما عتوا عن أمر خالقهم قال حين ذلك نبيهم عليه السلام: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾، وأعوانك وأنصارك وخدامك؛ فآمن معه من بني إسرائيل الحواريون، وكفر سائر الإسرائليين؛ فأيد الله المؤمنين، فأصبحوا ـ كما قال الله ـ ظاهرين، حين يقول عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قال: الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤]

٢. فهذا قولنا في رب العالمين، لا كقول الجاهلين، الذين نسبوا إلى الله عز وجل أفعال العباد، وقلدوه ما يكون في ذلك من الفساد؛ فتعالى الله الواحد الرحمن، عن زخرف أقاويل الشيطان، المضاهين لمذاهب عبدة الأوثان، وما حكى فيهم الرحمن من قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية [النحل: ٣٥]

المرتضى:

ذكر الإمام المرتضى بن الهادي (ت ٣١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي:

١. سؤال وإشكال: وسألت عن: قول الله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.. والجواب: معنى قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾ فهو: يوم القيامة، وهو اليوم الذي قال الله عز وجل: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١]، فيحضر عز وجل أنبياءه وأممهم، ثم يقول سبحانه لهم عندما يكون من تغيير الأمم وأفعالهم، خلاف ما أعطوا أنبيائهم من أنفسهم، وأبانوه من علانيتهم، عند كشف سرائرهم، وتوقيفهم على أعمالهم، التي خالفوا فيها ما كان من ظاهرهم، فيقول تبارك وتعالى لأنبيائهم: ما هذا أجبتم؛ أي ليس هذا الفعل الذي أعاقبهم عليه، وأجزيهم فيه ـ الذي أعطوكم من أنفسهم، ولم يفوا بما أظهروا لكم من ألسنتهم؛ بل كانت لهم أعمال دون ذلك.. فيقول الأنبياء: سبحانك، ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، أرادوا بذلك: أنه لا علم لهم بضمائرهم، ولا ما استجن في قلوبهم، ولم يكن عندهم من العلم

إلا ما أظهروا من أنفسهم، ولا يعلمون منهم إلا ما كان يظهر من قولهم، الذي كانوا يبدونه لأنبيائهم، وهو ظاهر الأمور، لا باطنها؛ ألا ترى كيف يقول: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، فهذا دليل على أن الله عز وجل أعلم أنبياءه بما كان في ضمائر من أرسلهم إليهم، إذ سألهم عند معاقبته لهم، مما لا علم لهم به.. وأما ما يقول به من لا علم له: أنه سألهم يوم القيامة سبحانه عن مطيعي أممهم؛ فأنكروه ولم يعرفوه ـ فعلى ما أحضرهم عز وجل شهودا، إذا كانوا لا يعرفون من أطاعهم في عصرهم!؟ فهذا ما لا يقول به أحد يميز، وليس القول فيه إلا القول الأول الذي قلنا.

٢. وقد قيل في ذلك عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٩]، فقال: يقول ماذا أجابكم قومكم، وهذا في بعض مواطن القيامة، ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾؛ من شدة هول المسألة، وهول ذلك الموطن، ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، ثم رجعت إليهم عقولهم، فشهدوا على قومهم: أنهم قد بلغوهم الرسالة.. وهذا قول ليس هو عندي بثابت؛ بل هو مدخول، وكيف يحزن أولياء الله ورسله المطهرون في ذلك اليوم، والله سبحانه يخبر بأن المؤمنين الذين آمنوا في ذلك اليوم غير محزونين ولا خائفين؛ وذلك قوله عز وجل: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٣]، فكيف يحزن من تتلقاه الملائكة عند خروجه من قبره، تبشره بالرضا من الله عز وجل، والجنة وحسن الثواب، والأمن من أليم العقاب؛ والقول الأول الذي قلنا به في صدر جوابنا هذا ـ هو أقرب إلى الحق، وهو الصواب عندنا، وبالله نستعين على طاعة خالقنا.

٣. ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾، هو الروح المطهر الزكي المكرم، فلما أن أيده الله به كان فضلا منه سبحانه عليه، وتعظيما لعيسى.. وقد قيل: إنه جبريل أيده الله به عز وجل، وأعانه به على أهل الكيد له، والطلب لتلفه.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

---

(١) تأويلات أهل السنة: ٣/٦٤٥.

١. ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ قال أهل التأويل: بل إنما يقولون ذلك؛ لفزعهم من هول ذلك اليوم وشدته، تطير قلوبهم، وتذهل أفئدتهم، فيقولون: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، فلو كان ذلك منهم للهول والفزع على ما قاله أهل التأويل لكان لا يتهيأ لهم الإجابة، وقد قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾؛ دل أنه لا لما ذكروا، ولكن للوجهين الآخرين.

أ. أحدهما: أن سألهم عن حقيقة إجابة قومهم لهم بالضمائر، أي: لم تطلعنا على علم الضمائر والغيوب، فأنت أعلم بذلك.

ب. الثاني: أن أحدثوا أمورا وأبدعوها من دأب أنفسهم، فنسبوا ذلك إلى الرسل؛ كقوله تعالى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ إلى قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾، كأنهم قالوا: إن عيسى عليه السلام هو الذي دعاهم إلى ذلك، فيقول لهم: ماذا أجبتم؟ فقالوا: لا علم لنا فيما ادعوا علينا من الأمور التي أتوها، إنك أنت علام الغيوب بأنا لم نقل لهم، ولم نَدْعُهُم إلى ما ادَّعَوا من الأمور.

٢. على هذين الوجهين يخرج تأويل الآية، ومثل هذا السؤال لهم بما أخبر في آية أخرى: أنه يسألهم؛ كقوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ يسأل الرسل عن تبليغ الرسالة إلى قومهم، ويسأل قومهم عن إجابتهم لهم؛ ليقطع احتجاجهم، وإن لم يكن لهم الحجاج.

٣. وقوله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾، أما نعمه عليه ما ذكر على إثره: ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ إلى قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾، شهد في حال طفولته بوحدانية الله وربوبيته وإخلاص عبوديته له، وذلك من أعظم نعم الله عليه وأجل مننه، وما ذكره أيضًا: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ الآية.

٤. إلى آخر ما ذكر من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وكف بني إسرائيل عنه عند مجيء الآيات، وهو كقوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، ففيه أعظم النعم عليه، وما ذكر ـ أيضًا ـ في بعض القصة ـ إن ثبت ـ أن عيسى لما دُفِعَ إلى الكُتَّابِ جعل المعلم يقول له: باسم، فيقول هو: باسم الله، وإذا قال

المعلم: باسم الله، فيقول هو: الرحمن، وإذا قال الرحمن، فيقول هو: الرحيم، فيقول المعلم: كيف أعلم من هو أعلم مني؟ ونحو هذا كثير مما يكثر ويطول ذكره، وأما ما أنعم الله على والدته هو ما ذكر في قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ وما ذكر في قوله: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾، طهرها عن جميع ما تبلى به بنات آدم؛ فذلك من أعظم النعم، وأجل المنن، ثم أمر عيسى بشكر ما أنعم عليه وعلى والدته؛ حيث قال: ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ وفي ذكر النعم شكرها، وأمر ـ أيضًا ـ بشكر ما أنعم على والدته ليعلم أن على المرء شكر ما أنعم على والدته، كما يلزم شكر ما أنعم على نفسه.

٥. وقوله عز وجل: ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ اختلف فيه:

أ. قال بعضهم: بروحه المبارك الذي أعطى في حال طفولته، به كان يدعو الناس إلى توحيد الله وعبادتهم له.

ب. وقيل: إن روح القدس هو الدعاء المبارك الذي به كان يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص بدعائه.

ج. وقال أهل التأويل: الروح: هو جبريل، والقدس هو الله؛ كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ أي: جبريل.

٦. وقوله عز وجل: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾:

أ. قال الحسن: الكتاب والحكمة واحد، الكتاب هو الحكمة، والحكمة هي الكتاب؛ لأن جميع كتب الله كان حكمة.

ب. وقال بعضهم: الكتاب: ما يكتب من العلم، والحكمة: هي ما يعطى الإنسان من العلم على غير تعلم.

ج. وقال بعضهم: الكتاب: هو ما يحفظ، والحكمة هي الفقه، وهو واحد.

٧. قوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ﴾: أي: تصور وتقدر ﴿مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ كان من عيسى التصوير والتقدير، وإلا كان التخليق من الله في الحقيقة؛ لأنه هو المنفرد به دون الخلق، غير أنه أجرى ذلك على يدي عيسى؛ ليكون له آية لصدقه ونبوته، وعلى ذلك الآيات التي يأتي بها الرسل، ليست الرسل يأتون

بها في الحقيقة، بل كان الله هو الآتي بها، والمنشئ تلك الآيات حقيقة، لكنه يجريها على أيدي الرسل؛ لتكون آيات صدقهم، ودلالات رسالتهم، فأما أن يأتي الرسل بالآيات والحجج من عند أنفسهم فلا.

٨. وقوله عز وجل: ﴿تَخْلُقُ﴾ ذكر التخليق؛ لما تسمي العرب تصوير الشيء وتقديره: تخليقًا؛ فعلى ذلك خرج الخطاب، وقد ذكرنا هذا فيما تقدم.

٩. وقوله عز وجل: ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾:

أ. قيل: الأكمه: الذي يولد أعمى، وأما الأعمى فهو الذي يذهب بصره بعد ما كان بصيرًا.

ب. وقيل الأكمه: هو الذي لا حدقة له، وهو ما ذكرنا.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. معنى قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، يريد عز وجل أنه يوم القيامة يجمع الرسل صلوات الله عليهم، ثم يقول بماذا أجابكم قومكم؟ أبحقيقة كانت إجابتهم لكم، فيقولون صلوات الله عليهم لا علم لنا بما كان في أنفسهم، فيبين الله حينئذ نفاق من كان زعم لهم أنه قد صدقهم وأجابهم، من سفساف هؤلاء المقرين بألسنتهم، الكاذبين في عملهم وفعلهم، الذين أقروا وشهدوا باللسان، وهم كاذبون مرتكبون للعدوان، وقد شاهدنا كثيراً ممن يقر بخاتم النبيين، وهو جاهل بالله وبجميع المرسلين، فإقرار ذلك محال وزور، وعمله كله هباء منثور، فنعوذ بالله من دعاوى المحال، والإقرار الكاذب الذي لا يصدق بالفعال.

٢. معنى قول سيدنا عز وجل: ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾، أي قويتك ونصرتك بجبريل، والقدس: هو النزاهة والبركات، والرفعة والفخر والجلال والحسنات.. ومعنى قوله: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾، أي وأنت طفل في المهد، وهو الفراش الممهد الذي يفترشه الأطفال.. ومعنى قوله: ﴿وَكَهْلًا﴾، أي وتكلمهم بعد ذلك رجلاً كاملاً، والكهل: هو الكامل الذي بين الشيخ والغلام.

٣. معنى قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾، أي تُصَوِّرُ من الطين كمثل صورة

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/٢٣٠.

الطير.. معنى قوله: ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾، أي تبرئ الأعمى، قال الشاعر: (كمهت عيناه حتى ابيضتا)

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ولم يكن هذا الكلام منهم إنكاراً لما علموه ولكنهم فوضوا أمرهم إلى من هو أعلم ببواطن أمورهم وظواهرهم منهم لجواز النسيان والغفلة على الرسول ﷺ لما يرون من أهوال ذلك اليوم.

٢. سؤال وإشكال: فإن قيل: فلم سألهم وهو أعلم بأعمالهم منهم؟ والجواب: عن هذا جوابان:

أ. أحدهما أنه إنما سألهم ليعلمهم ما لم يعلموا من كفر أممهم وتغييرهم بعدهم ونفاقهم وكذبهم عليهم من بعدهم،

ب. الثاني: أراد أن يفضح أهل المعاصي والكفر بإشهادهم عليهم.

٣. ﴿إِذْ قال الله يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ وإنما ذكر الله سبحانه نعمته عليه وعلى والدته وإن لم يجر لهما ذكر لأمرين:

أ. أحدهما: ليتلوا على الأمم ما خص به من الكرامة وصيره به من علو المنزلة.

ب. الثاني: ليؤكد به حجته ويرغم جاحده، ثم أخذ في ترتيب نعمه فقال: ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ يعني قويتك مأخوذ من الأيد وهو القوة.

٤. وروح القدس هو جبريل وتأييده له من وجهين:

أ. أحدهما تقويته له على أمر دينه.

ب. الثاني: معونته على رفع ظلم اليهود والكافرين.

٥. ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أما كلامه في المهد فهو معجز خصه الله به وكلامه لهم في المهد إنما اختص بتعريفه حال نبوته وقوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم]، وكلامه لهم كهلاً دعاءهم إلى ما أمرهم به من الصلاة

---

(١) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/٢٢٩.

والزكاة وذلك حين صار ابن ثلاثين سنة.

٦. ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ يعني بقوله: تخلق أي تفعل وتصور صورة الطير من الطين والخلق فعل ثاني على سبيل القصد والتقدير من غير شهوة ولا مجازفة، وقوله: ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا﴾ يعني الروح والروح جسم لطيف والمتولي لذلك المسيح وقوله: ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ يعني إن الله تعالى الذي يقلبها حيواناً بعد نفخ الروح فيها فإذنه أمره أن يصير بأمر الله لا بفعل المسيح ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ أي تدعوني أن أبرئ الأكمه والأبرص فأجيب دعاءك وأبرئ فهو فعل الله تعالى نسبه إلى المسيح مجازاً لأنه فعله لأجل دعائه.

٧. ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ يعني واذكر نعمتي عليك إذ تدعوني أن أحيي الموتى فأجيب دعاءك حتى أخرجهم من القبور أحياء ونسب ذلك إليه توسعاً أيضاً لأجل دعائه والذي أحيي من الموتى رجلين وامرأة.

٨. ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ﴾ أي الكتب وإن أراد به الجنس ثم قال: ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي العلم بما في تلك الكتب من جميع ما يحتاج إليه من دينه ودنياه ثم قال: ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ يريد تأويلها وتلاوتها.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. في قوله تعالى: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ خمسة تأويلات:

أ. أحدها: لم يكن ذلك إنكاراً لِمَا علموه ولكن ذهلوا عن الجواب من هول ذلك اليوم ثم أجابوا بعدما ثابت عقولهم، قاله الحسن، والسدي.

ب. الثاني: لا علم لنا إلا ما علمتنا، قاله مجاهد.

ج. الثالث: لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا، قاله ابن عباس.

د. الرابع: لا علم لنا بما أجاب به أممنا، لأن ذلك هو الذي يقع عليه الجزاء، وهو مروي عن الحسن أيضاً.

---

(١) تفسير الماوردي: ٢/٧٨.

هـ. الخامس: أن معنى قوله: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ﴾ أي ماذا عملوا بعدكم.

٢. ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ قاله ابن جريج، وفي قوله: ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ تأويلان:

أ. أحدهما: أنه مبالغة.

ب. الثاني: أنه لكثير المعلومات.

٣. سؤال وإشكال: لم سألهم عما هو أعلم به منهم؟ والجواب: عليه جوابان:

أ. أحدهما: أنه إنما سألهم ليعلمهم ما لم يعلموا من كفر أممهم ونفاقهم وكذبهم عليهم من بعدهم.

ب. الثاني: أنه أراد أن يفضحهم بذلك على الأشهاد ليكون ذلك نوعاً من العقوبة لهم.

٤. ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ وإنما ذكَّر الله عيسى عليه السلام نعمته عليه على والدته، وإن كان لهما ذاكراً لأمرين:

أ. أحدهما: ليتلو على الأمم ما خصه به من الكرامة ومَيّزَه به من علو المنزلة.

ب. الثاني: ليؤكد به حجته ويرد به جاحده.

٥. ثم أخذ تعالى في تعديد نعمه فقال: ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ يعني قويتك، مأخوذ من الأيد وهو القوة، وروح القدس جبريل، والقدس هو الله تعالى تقدست أسماؤه، وتأييده له من وجهين:

أ. أحدهما: تقويته على أمر دينه.

ب. الثاني: معونته على دفع ظلم اليهود والكافرين له.

٦. ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أما كلامه لهم في المهد إنما اختص بتعريفهم حال نبوته، ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ الله آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً وَجَعَلَنِي مُبَارَكَاً أَيْنَمَا كُنتُ وَأَوْصانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَياً﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣١]، وكلامه لهم كهلاً دعاؤهم إلى ما أمر الله به من الصلاة والزكاة، وذلك حين صار ابن ثلاثين سنة وإن كان مبعوثاً حين ولد، فمكث فيهم ثلاثين سنة ثم رفعه الله، ولم يبعث الله نبياً حين ولد غيره ولذلك خصه الله بالكلام في المهد صبياً.

٧. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ﴾ وفيه تأويلان:

أ. أحدهما: يريد الخط.

ب. الثاني: يريد الكتب فعبر عنها بالكتاب إرادة للجنس.

٨. ثم فصل فقال تعالى: ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ وفيها تأويلان:

أ. أحدهما: أنها العلم بها في تلك الكتب.

ب. الثاني: أنها جميع ما يحتاج إليه في دينه ودنياه.

٩. ثم قال تعالى: ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ يريد تلاوتها وتأويلها.

١٠. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ يعني بقوله: ﴿تَخْلُقُ﴾ أي تفعل وتصور من الطين مثل صورة الطير، لأن الخلق فعل لكن على سبيل القصد والتقدير من غير سهو ولا مجازفة ولذلك وُصِفَتْ أفعال الله تعالى بأنها مخلوقة لأنها لا تكون إلا عن قصد وتقدير ووصفت بعض أفعال العباد بأنها مخلوقة إذا كانت مقدرة مقصودة ولم توصف جميعها بهذه الصفة لجواز كون بعضها سهواً أو مجازفة.

١١. وقوله تعالى: ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا﴾ يعني الروح، والروح جسم، وفي الْمُتَوَلِّي لنفخها وجهان:

أ. أحدهما: أنه المسيح ينفخ الروح في الجسم الذي صوره من الطين كصورة الطير.

ب. الثاني: أنه جبريل.

١٢. وقوله تعالى: ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ يعني أن الله تعالى يقلبها بعد نفخ الروح فيها لحماً ودماً، ويخلق فيها الحياة، فتصير طيراً بإذن الله تعالى وأمره، لا بفعل المسيح.

١٣. ثم قال تعالى: ﴿وَتُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ أي تدعوني أن أبرىء الأكمه والأبرص، فأجيب دعاءك وأبرئها، وهو فعل الله تعالى، وإنها نَسَبَهُ إلى المسيح مجازاً لأن فعله لأجل دعائه.

١٤. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ يعني واذكر نعمتي عليك، إذ تدعوني أن أحيي الموتى، فأجيب دعاءك، حتى تخرجهم من القبور أحياء، ونسب إليه ذلك توسعاً أيضاً لأجل دعائه، ويجوز أن ينسب إخراجهم إليه حقيقة، لأن إخراجهم من قبورهم بعد إحياء الله لهم يجوز أن يكون من فعل المسيح، قال الكلبي: والذين أحياهم من الموتى رجلان وامرأة.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ في ما ينتصب به قوله: (يوم) ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: انه انتصب بمحذوف تقديره احذروا ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾

ب. الثاني: اذكروا يوم يجمع الله.

ج. الثالث: قال الزجاج: ينتصب بقوله: ﴿اتَّقُوا اللهَ﴾

د. وقال المغربي: يتعلق بقوله: ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ إلى الجنة ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ﴾ ولا يجوز أن ينتصب على الظرف بهذا الفعل، لأنهم لم يؤمروا بالتقوى في ذلك اليوم، لكن انتصب على أنه مفعول به، واليوم لا يتقى ولا يحذر، وإنما يتقى ما يكون فيه من العقاب والمحاسبة والمناقشة كأنه قال اتقوا عقاب يوم، وحذف المضاف واقام المضاف إليه مقامه.

١. ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ﴾ تقرير للرسل في صورة الاستفهام على وجه التوبيخ للمنافقين عند اظهار فضيحتهم وهتك أستارهم على رؤوس الاشهاد.

٢. وقول الرسل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ قيل فيه ثلاثة أقوال:

أ. أولها: قال الحسن والسدي ومجاهد أنهم قالوا ذلك لذهولهم من هول ذلك المقام، سؤال وإشكال: كيف يجوز ذهولهم مع أنهم آمنون لا يخافون؟ كما قال: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ وقال: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والجواب: أن الفزع الأكبر دخول جهنم، وقوله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ هو كقولك للمريض لا خوف عليك، ولا بأس عليك، مما يدل على النجاة من تلك الحال، وخالف أبو علي في هذا ولم يجز إلا ما نحكيه عنه.

ب. الثاني: قال ابن عباس، ومجاهد ـ في رواية أخرى ـ أن معناه لا علم لنا إلا ما علمتنا فحذف لدلالة الكلام عليه.

ج. الثالث: قال الحسن في رواية أخرى وأبو علي الجبائي: أن معناه لا علم لنا بباطن ما أجاب به

---

(١) تفسير الطوسي: ٤/٥٣.

أممنا لأن ذلك هو الذي يقع عليه الجزاء.

د. وقال بعضهم معناه لا علم لنا مع علمك أي ليس عندنا شيء مما نعلمه إلا وانت عالم به وبكل ما غاب وحضر بدلالة قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ وقيل في معنى قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ انه قال علام للبالغة ها هنا لا للتكثير المعلوم.

٣. ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أنه من صفة يوم القيامة كما أن ما قبله من صفتها ومن خطاب الرسل بالمسألة والتذكير بالنعمة لتوبيخ من يستحق التوبيخ من أممهم وتبشير من يستحق البشارة منهم.

٤. العامل في (إذ) يحتمل أحد أمرين:

أ. أحدهما: الابتداء عطفاً على قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ قال وذلك (إذ قال فيكون موضعه رفعاً كما يقول القائل كأنك بنا قد وردنا بلد كذا فصنعنا فيه وفعلنا إذ صاح بك صائح فأجبته وتركتني.

ب. الثاني: اذكر إذ قال الله، وقال بعضهم أن معناه ماذا أجبتم على عهد عيسى، قال الرماني: هذا غلط، لأنه من صفة (يوم القيامة) وعندي لا يمتنع أن يكون المراد بذلك إخبار النبي ﷺ إذ قال الله لعيسى بن مريم اذكر، أي أخبر قومك ما أنعمت به عليك وعلى أمك، واشكر ذلك إذ أيدتك بروح القدس.

٥. وحسن قوله: (إذ قال) ولم يقل (يقول) لأنه عطف على ما قبله لأنه قدم ذكر الوقت، وتأييد الله هو ما قواه به وأعانه على أمور دينه، وعلى رفع ظلم اليهود والكافرين عنه، ووزن (أيدتك) فعلتك من الأيد على وزن قربتك، وقال الزجاج: يجوز أن يكون فاعلتك من الأيد، وقرأ مجاهد: أيدتك على وزن أفعلتك من الأيد، وروح القدس جبرائيل قال الحسن والقدس هو الله.

٦. ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ أي انك تكلم الناس في حال ما كنت صبياً في المهد ـ والمهد حجر أمه، في قول الحسن ـ وفي حال ما كنت كهلا، قال أبو علي فكان كلم الناس في هذين الوقتين بتبليغه إياهم ما أرسله الله به إلى عباده، وما يدعوهم إليه من طاعة الله وتصديق رسله، لأنه كان بين لهم عند كلامه في المهد: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أين مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ فبين لهم في هذا وفي وقت ما صار كهلا أن الله بعثه نبيا ولم

يتكلم أحد من الأنبياء في المهد سواه ولم يبعث أحد عندما ولد غيره، فذكره هذه النعمة التي خصه بها ليشكره على ذلك.

٧. نصب قوله: (كهلا) يحتمل أمرين:

أ. أحدهما: على أن يكون عطفا على موضع تكلم أي أيدتك صغيراً وكهلا.

ب. الثاني: أن يكون عطفاً على موضع في المهد، أي وتكلمهم كهلا بالرسالة.

٨. ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ﴾ يعني واذكر (إذ)، وقيل في معنى (الكتاب) قولان:

أ. أحدهما: انه أراد الخط الكتابة.

ب. الثاني: الكتب فيكون على طريق الجنس ثم فصله بذكر التوراة والإنجيل.

٩. ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ يعني العلم بها في تلك الكتب.

١٠. ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ أي واذكر ذلك أيضا كل ذلك تذكير له بنعمه عليه والخلق هو الفعل المقدر على مقدار يعرفه الفاعل، فعلى هذا جميع أفعاله تعالى توصف بأنها مخلوقة، لأنه ليس فيها شيء على وجه السهو والغفلة، ولا على سبيل المجازفة، ومعنى ذلك أنه خلق من الطين كهيئة الطير أي تصور الطين بصورة الطير الذي تريد، وسماه خلقاً لأنه كان يقدره، ﴿بِإِذْنِي﴾ أي تفعل ذلك باذني وأمري.

١١. ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ معناه أنه نفخ فيها الروح، لأن الروح جسم ويجوز أن ينفخها المسيح بأمر الله، والطير يؤنث ويذكر فمن أنت أراد الجمع ومن ذكر فعلى اللفظ، والطير واحده طائر مثل ضائن وضأن وراكب وركب، وقد قالوا (أطيار) مثل صاحب وأصحاب وشاهد وأشهاد، ويمكن أن يكون (أطيار) جمع طير مثل ثبت واثبات وبيت وأبيات، قال أبو علي وقد ينفخها في الجسم على ما أخبر الله به جبرائيل، وعلى ما روي عن النبي ﷺ أنه يبعث إليه ملكا عند تمام مائة وعشرين يوما فينفخ فيه الروح ويكتب أجله ورزقه وشقي هو أم سعيد.

١٢. وبين بقوله: ﴿فتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ أنه إذا نفخ المسيح عليه السلام فيها الروح قلبها الله لحماً ودماً، وخلق فيها الحياة فصارت طائراً بإذن الله وإرادته لا بفعل المسيح عليه السلام فلذلك قال: ﴿فتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾

١٣. ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ معناه إنك تدعوني حتى أبرئ الأكمه، وهو الذي خلق أعمى، وقال الخليل: يكون الذي عمي بعد أن كان بصيراً والأصل الأول، والأبرص معروف ونسب ذلك إلى المسيح لما كان بدعائه وسؤاله.

١٤. ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ أي اذكر إذ تدعوني فأحيي الموتى عند دعائك وأخرجهم من القبور حتى يشادهم الناس أحياء، وإنما نسبه إلى عيسى لما بينا من أنه كان بدعائه.

١٥. ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي اذكر إذ كففت هؤلاء عن قتلك وإذ أيدتك حين جئتهم بالبينات مع كفرهم وعتوهم مع قولهم أن ما جئت به من الآيات سحر مبين، ويجوز أن يكون كفهم بألطافه التي لا يقدر عليها غيره، ويجوز أن يكون كفهم بالمنع والقهر كما منع من أراد قتل نبينا ﷺ وقيل لأنه ألقى شبهه على غيره حتى قتلوه ونجا.

١٦. ومن قرأ (ساحر) أراد أن عيسى ساحر مبين أي ظاهر بين، والسحر هو الباطل المموه بالحق.

١٧. وقوله في أول الآية ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ أي أخبر بها قومك الذين كذبوا عليك ليكون حجة عليهم، لأنهم ادعوا عليه أنه إله وأنه لم يكن عبداً منعما عليه، ثم عدد النعم نعمة نعمة على ما بينا، وقال الطبري: انما عدد الله تعالى هذه النعم على عيسى عليه السلام حين رفعه إليه فلذلك قال: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ﴾

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. عَلَّام: مبالغة من عالم، يقال: علم فهو عالم وعلام، وأصل فَعَّال للتكثير، قال أبو علي: هو ههنا للمبالغة لا للتكثير، وقيل: بل هو للتكثير المعلوم.

ب. الأَيْدُ: القوة، ومنه ﴿أَيَّدْتُكَ﴾ على وزن فَعَّلْتُكَ نحو: قَوَّيْتُكَ من القوة، وقيل: وزنه فاعلتك كقوله: عاونتك، عن الزجاج، وقرأ مجاهد ﴿أَيَّدْتُكَ﴾ على وزن أفعلتك، وأصله من الأيد، آد الرجل يَئِيد

(١) التهذيب في التفسير: ٣/٤٥٦.

أيْدا إذا اشتد وقوي، ومنه ﴿دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾

ج. القدس: الطهر، والمقدسة: المطهرة، والقادسية موضع سمي بذلك؛ لأن إبراهيم دعا لها بالقدس على ما روي.

د. الأكمه: الذي يُولَد أعمى، وقال الخليل: قد يكون أيضًا الذي يعمى ـ بعد أن يكون بصيرًا، قال سويد: كَمَهَتْ عَيْنَاهُ حَتَّى ابْيَضَّتَا.

هـ. الكف: أصله المنع، كففته عن الأمر: منعته، وكفكفته: لفقته، والمكفوف: الأعمى؛ لأنه مُنِعَ من الرؤية، ومنه الكف؛ لأنه يُمْنَعُ به.

٢. مما ذكر في علاقة الآية الكريمة ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ بما قبلها:

أ. قيل: تتصل بما قبلها أي لا يهدي القوم الفاسقين يوم يجمع.

ب. وقيل: اتقوا يوم يجمع ذلك.

ج. وقيل: لما بين الشهادة والوصايا اتصل بها الزجر عن إظهار خلاف الحق؛ لأن الْمُجَازِيَ عالم بجميع ذلك.

٣. ﴿يَوْمَ﴾ أي احذروا يوم، والمراد يوم القيامة ﴿يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾:

أ. أي ما الذي أجابكم قومكم فيما دعوتموهم إليه، ومَنْ قَبِلَ، ومَنْ رَدَّ.

ب. وقيل: ما الذي أحدثوا بعدكم، عن ابن جريج، وهذا سؤال توبيخ للمنافقين عند هتك أستارهم.

ج. وقيل: سؤال ليشهدوا عليهم كما يسأل الشهود بين يدي الحكام، ثم يشهدوا.

٤. ﴿قَالُوا﴾ أي فتقول ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾:

أ. قيل: بالمهتوك، من هول ذلك المقام، عن الحسن ومجاهد والسدي قال ثم يشهدون بعدما ثابت إليهم أنفسهم.

ب. وقيل: لا علم لنا بباطن ما أجاب به أممنا؛ لأن الجزاء يقع عليه، عن الحسن وأبي علي، وهو الوجه، وأنكر أبو علي الوجه الأول لقوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾

ج. وقيل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾، أنت أعلم به منا، فهو تصغير لعلمهم، عن أبي مسلم، كأنه

قيل: لا حاجة إلى علمنا مع علم علام الغيوب.

د. وقيل: لا علم لنا بها أحدثوه بعدنا.

هـ. وقيل: عَلِمُوا الجملة ولم يعلموا التفصيل.

و. وقيل: هو تحقيق فضيحتهم كمن يقول لغيره: ما يقول فلان؟ فيقول: أنت أعلم به مني، كأنه قيل: لا يحتاج في حاله إلى الشهادة لظهوره.

٥. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ يعني تعلم الغيب، فيدل ذلك على أن المراد بقوله: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ علم الباطن.

٦. مما ذكر في علاقة القصة بما قبلها:

أ. قيل: لأنها من صفة يوم القيامة، كما أن ما قبله من صفتها، ومن خطاب الرسل بالمسألة بالتذكير بالنعمة والتوبيخ لمن يستحق التوبيخ من الأمم، عن علي بن عيسى.

ب. وقيل: لما عَرَّفَ القيامة بما وصف به من بعث الرسل عطف عليه بذكر المسيح، و﴿إِذِ﴾ إشارة إلى وقت مستقبل ماض، وهو يصلح للماضي والمستقبل، عن أبي مسلم.

ج. وقيل: إنه توبيخ للنصارى يوم القيامة، واحتجاج بأن عيسى ابن مريم، فخاطب عيسى، والمراد قومه كما في قوله: ﴿فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ﴾

٧. ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾:

أ. يعني يقول الله.

ب. وقيل: اذكر إذ قال.

﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ إشارة إلى بطلان قول النصارى؛ لأن من يكون له أم لا يكون إلهًا؛ لأنه بمنزلة سائر الأجسام، ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي﴾ اشكرها ﴿عَلَيْكَ﴾ أي ما أنعم عليك من النبوة والمعجزة ورفع الشأن ﴿وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ أي أنعم عليها بضروب النعم، ثم فصل النعم، فقال سبحانه: ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ﴾ قَوَّيْتُكَ ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾:

أ. قيل: الروح جبريل، والقدس هو الله، كأنه أضافه إلى نفسه تعظيمًا، عن الحسن.

ب. وقيل: هو ما نفخ في مريم فخلق منه عيسى، عن أبي علي، والقدس الطاهر.

٨. ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾:

أ. قيل: تكلم صبيًّا وكهلاً على حَدٍّ واحد، عن أبي مسلم.

ب. وقيل: تَكَلَّم صغيرًا في المهد بالحق، وتكلم كهلاً بالرسالة.

ج. وقيل: أيدتك صبيًّا تكلم في المهد، وأيدتك كهلا.

٩. ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ﴾:

أ. قيل: الخط والكتابة.

ب. وقيل: الإنجيل، عن الأصم.

ج. وقيل: الكتب، وذكر الكتاب وأراد الجنس.

١٠. ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي العلم والشريعة، ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾:

أ. قيل: هو تفصيل الكتاب.

ب. وقيل: هو معطوف عليه غيره.

ج. وقيل: بعثه الله وهو ابن ثلاثين سنة، ولبث ثلاثين شهرًا، ثم رفعه الله، عن ابن عباس.

د. وقيل: كان رسولاً من وقت صغره إلى وقت كبره، عن أبي علي.

١١. سؤال وإشكال: أليس في إرسال صبي تنفير عنه؟ والجواب: إنما يكون تنفيرًا إذا كان باقيًا على حاله في الصبا، فأما إذا كان على ما كان عليه عيسى ففيه الإعجاز، ويكون أقرب إلى القبول.

١٢. سؤال وإشكال: كيف المراد بتعليم التوراة والإنجيل؟ والجواب: علمه التوراة حتى حفظها، وأنزل عليه الإنجيل حتى حفظه.

١٣. سؤال وإشكال: كيف يحفظ جميع هذه الكتب في مدة يسيرة؟ والجواب: الحفظ فعل الله تعالى بالعادة عند القراءة والتكرار، فَنَقَضَ العادة فيه، وخلق فيه جميع ذلك.

١٤. ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾ تصوِّر وتقدِّر ﴿مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ أي خلقته وصورته ﴿بِإِذْنِي﴾:

أ. قيل: بأمري.

ب. وقيل: بعلمي.

١٥. ﴿فَتَنفُخ فِيهَا﴾ يعني في الهيئة والصورة ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا﴾ أي: تصير طيرًا حيًّا ﴿بِإِذْنِي﴾ بأمري

﴿وَتُبْرِئُ﴾ تصح وتشفي ﴿الْأَكْمَهَ﴾ الذي ولد أعمى ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ من به برص مستحكم ﴿بِإِذْنِي﴾ بأمري ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ أي: تدعوهم، فيخرجون من قبورهم أحياء إليك ﴿بِإِذْنِي﴾ وروي أنه أحيا سامَ بنَ نوحٍ، ورجلين وامرأة وجارية.

١٦. ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ﴾ أي منعت وصرفت ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني اليهود ﴿عَنْكَ﴾ أي عن قتلك حين هموا بقتلك ﴿إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي أتيتهم بالحجج والمعجزات ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جحدوا نبوتك ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ﴾ يعني: عيسى سِحْرٌ، أي ما جاء به ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهر واضح.

١٧. تدل الآية الكريمة على:

أ. إثبات المعاد.

ب. أنه تعالى يجمع الرسل، ويشهدون على أممهم، وذلك تحذير للمكلفين مِنَ المعاصي.

ج. أنه تعالى يعلم السرائر، لذلك فوضوا علم الباطن إليه.

د. عظيم نعمه تعالى على عيسى بما عد في الآية.

هـ. أن الخلق معناه التقدير، فلذلك أضاف إلى عيسى، وإلا فالأجسام التي هي الطير لا يقدر عليها غيره تعالى.

و. أن ما فَعَلَ عيسى فعله بأمره، سؤال وإشكال: إذا كان جميع ذلك فِعْلَهُ تعالى لا يقدر عليه عيسى فلمَ أضافه إليه؟ والجواب: لأنه فَعَلَهُ عند مسألته، ودعائه معجزة له، ولولاه لما فعل.

ز. معجزات عظيمة لعيسى.

ح. أنه كان نبيًّا في ذلك الوقت؛ لأن المعجز لا يجوز ظهوره على غير الأنبياء.

ط. كذب من قال إن عيسى قُتِلَ؛ لأنه تعالى بَيَّنَ أنه كفهم عنه.

١٨. قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب (فيكون طائرا) بألف، الباقون ﴿طَيْرًا﴾ بغير ألف، وطير جمع طائر، ومنه استطار الفجر انتشر، والطيرة من التطير أخذ من الطير كالغراب ونحوه، وقرأ حمزة والكسائي ﴿سَاحِرٌ﴾ بألف، وكذلك في يونس وهود والصف، وقرأ ابن كثير وعاصم في يونس بألف فقط، وقرأ الباقون ﴿سِحْرٌ﴾ فمن قرأ ﴿سَاحِرٌ﴾ أراد النبي ﷺ، ومن قرأ السحر أراد الكتاب أو المعجز الذي أتى به.

١٩. مسائل لغوية ونحوية:

أ. نصب ﴿يَوْمَ﴾:

• قيل: محذوف على تقدير: احذروا يوم.

• وقيل: اذكروا يوم يجمع.

• وقيل: اتقوا يوم عن الزجاج، ولا يجوز أن ينتصب على الظرف لهذا الفعل؛ لأنهم لم يؤمروا بالتقوى في ذلك اليوم، ولكن على المفعول له.

ب. ﴿أَجَبْتُمُ﴾ في موضع رفع؛ لأنه اسم ما لم يُسَمَّ فاعله.

ج. في عامل الإعراب في ﴿إِذِ﴾ قولان:

• الأول: على الابتداء على ذلك ﴿إِذْ قَالَ اللهُ﴾ فيكون موضعه رفعًا.

• الثاني: اذكر إذ قال فيكون موضعه نصبًا، وقيل: ماذا أجبتم على عهد عيسى إذ قال الله.

د. موضع ﴿عِيسَى﴾ من الإعراب:

• قيل: نصب؛ لأنه نداء منسوب إذا جعلته نداء واحدًا.

• وإن شئت جعلته نداء ينفي كون ﴿عِيسَى﴾ في محل الرفع؛ لأنه نداء مفرد، وتقديره: يا عيسى يا بن مريم، وابن مريم، موضع ﴿ابْنِ﴾ نصب؛ لأنه نداء مضاف، تقديره: عيسى ابن مريم، كقولهم: عبدَ الله، قال الشاعر:

يَا حَكَمُ بْنَ الْمُنْذِرِ بنِ الجارودِ أنت الجَوَادُ ابنُ الجوادِ المحمود

هـ. لك في ﴿الْحُكْمُ﴾ الرفع والنصب، وليس في ﴿ابْنِ﴾ غير النصب.

و. في عطف ﴿وَكَهْلًا﴾ أقوال:

أ. الأول: على موضع ﴿تُكَلِّمَ﴾، تقديره: أَيَّدْتُكَ صغيرًا وكهلاً.

ب. الثاني: على موضع ﴿فِي الْمَهْدِ﴾؛ أي ويكلمهم كهلاً بالرسالة.

ج. وقيل: نصب على الحال؛ أي أيدتك في حال الكهولة.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾ هو كقوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾ وإنما انتصب ﴿يَوْمَ﴾ على أنه مفعول به، ولم ينتصب على الظرف، لأنهم لم يؤمروا بالتقوى في ذلك اليوم، والمعنى: اتقوا عقاب يوم يجمع الله فيه الرسل، لان اليوم لا يتقى ولا يحذر، فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه.

٢. ﴿فَيَقُولُ﴾ لهم ﴿مَاذَا أَجَبْتُمْ﴾ أي: ما الذي أجابكم قومكم فيما دعوتموهم إليه، وهذا تقرير في صورة الاستفهام على وجه التوبيخ للمنافقين عند إظهار فضيحتهم على رؤوس الإشهاد.

٣. ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ قيل فيه أقوال:

أ. أحدها: إن للقيامة أهوالا حتى تزول القلوب من مواضعها، فإذا رجعت القلوب إلى مواضعها، شهدوا لمن صدقهم على من كذبهم، يريد أنه عزبت عنهم أفهامهم من هول يوم القيامة، فقالوا: لا علم لنا، عن عطاء، عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد، والسدي، والكلبي، وهو اختيار الفراء.

ب. ثانيها: إن المراد لا علم لنا كعلمك، لأنك تعلم باطنهم، وإنا لا نعلم غيبهم وباطنهم، وذلك هو الذي يقع عليه الجزاء، عن الحسن في رواية أخرى، واختاره الجبائي، وأنكر القول الأول، وقال: كيف يجوز ذهولهم من هول يوم القيامة، مع قوله: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾، وقوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؟ ويمكن أن يجاب عن ذلك بأن الفزع الأكبر دخول النار وقوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ إنما هو كالبشارة بالنجاة من أهوال ذلك اليوم، مثل ما يقال للمريض: لا بأس عليك، ولا خوف عليك.

ج. ثالثها: إن معناه لا حقيقة لعلمنا إذ كنا نعلم جوابهم، وما كان من أفعالهم وقت حياتنا، ولا نعلم ما كان منهم بعد وفاتنا، وإنما الثواب والجزاء يستحقان بما يقع به الخاتمة مما يموتون عليه، عن ابن الأنباري.

د. رابعها: إن المراد لا علم لنا إلا ما علمتنا فحذف لدلالة الكلام عليه، عن ابن عباس، في رواية أخرى.

هـ. خامسها: إن المراد به: تحقيق فضيحتهم أي: أنت أعلم بحالهم منا، ولا تحتاج في ذلك إلى

(١) تفسير الطبرسي: ٣/٤٠١.

شهادتنا.

٤. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ إنما قال: ﴿عَلَّامُ﴾:

أ. للمبالغة، لا للتكثير.

ب. وقيل: أراد به تكثير المعلوم والمراد: أنت تعلم ما غاب وما بطن، ونحن إنما نعلم ما نشاهد، وفي هذه الآية دلالة على إثبات المعاد، والحشر، والنشر.

٥. ذكر الحاكم أبو سعيد في تفسيره أنها تدل على بطلان قول الإمامية: إن الأئمة يعلمون الغيب[١]، وأقول: إن هذا القول ظلم منه لهؤلاء القوم، فإنا لا نعلم أحدا منهم، بل أحدا من أهل الاسلام، يصف أحدا من الناس بعلم الغيب، ومن وصف مخلوقا بذلك فقد فارق الدين، والشيعة الامامية براء من هذا القول، فمن نسبهم إلى ذلك، فالله فيما بينه وبينهم!

٦. ثم لما عرف سبحانه يوم القيامة بما وصفه به من جمع الرسل فيه، عطف عليه بذكر المسيح فقال: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ﴾ ومعناه: إذ يقول الله في الآخرة، وذكر لفظ الماضي تقريبا للقيامة، لان ما هو آت فكأن قد وقع ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ وهذا إشارة إلى بطلان قول النصارى لان من له أم لا يكون إلها.

٧. ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ أي اذكر ما أنعمت به عليك، وعلى أمك، واشكره، أفرد النعمة في اللفظ، ويريد به الجمع، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ وإنما جاز ذلك لأنه مضاف، فصلح للجنس.

٨. ثم فسر نعمته بأن قال: ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وهو جبرائيل عليه السلام، وقد مضى تفسيره في سورة البقرة عند قوله وأيدناه بروح القدس.

٩. ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي: في حال ما كنت صبيا في المهد، وفي حال ما كنت كهلا، وقال الحسن: المهد حجر أمه، ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ﴾:

أ. قيل: الكتابة يعني الخط ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: العلم، والشريعة.

ب. وقيل: أراد الكتب فيكون الكتاب اسم جنس.

---

(١) حذفنا قوله هذا عند ذكر تفسيره للآية، بناء على كونها دعوى طائفية

١٠. ثم فصله بذكر التوراة والإنجيل، فقال: ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ أي: واذكر ذلك أيضا إذ تصور الطين كهيئة الطير الذي تريد أي: كخلقته وصورته، وسماه خلقا لأنه كان يقدره، وقوله: ﴿بِإِذْنِي﴾ أي: تفعل ذلك بإذني وأمري ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا﴾ أي تنفخ فيها الروح، لأن الروح جسم يجوز أن ينفخه المسيح بأمر الله، ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ والطير: يؤنث ويذكر، فمن أنث فعلى الجمع، ومن ذكر فعلى اللفظ، وواحد الطير: طائر، فيكون مثل ظاعن وظعن، وراكب وركب.

١١. وبين بقوله: ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ أنه إذا نفخ المسيح فيها الروح قلبها الله لحما ودما، ويخلق فيها الحياة، فصارت طائرا بإذن الله أي: بأمره وإرادته، لا بفعل المسيح.

١٢. ﴿وَتُبْرِئُ﴾ أي: تصحح ﴿الْأَكْمَهَ﴾: الذي ولد أعمى، ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ من به برص مستحكم ﴿بِإِذْنِي﴾ أي: بأمري، ومعناه أنك تدعوني حتى أبرئ الأكمه والأبرص، ونسب ذلك إلى المسيح، لما كان بدعائه وسؤاله.

١٣. ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ أي: أذكر إذ تدعوني فأحيي الموتى عند دعائك، وأخرجهم من القبور حتى يشاهدهم الناس أحياء، ونسب ذلك إلى المسيح لما كان بدعائه.

١٤. ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ﴾: عن قتلك وأذيتك ﴿إِذْ جِئْتَهُمْ﴾ أي: حين جئتهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أتيتهم بالحجج والمعجزات، مع كفرهم وعنادهم:

أ. ويجوز أن يكون تعالى كفهم عنه بألطافه التي لا يقدر عليها غيره.

ب. ويجوز أن يكون كفهم بالمنع والقهر، كما منع من أراد قتل نبينا.

١٥. ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وجحدوا نبوتك ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من بني إسرائيل ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يعنون به عيسى، و﴿سِحْرٌ مُبِينٌ﴾: يعني به أن ما جاء به سحر ظاهر واضح.

١٦. وينبغي أن يكون قوله سبحانه في أول الآية ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي﴾ يعني: أخبر بها قومك الذين كذبوا عليك، ليكون حجة عليهم، لأنهم ادعوا عليه أنه إله، ثم عدد النعمة نعمة نعمة، على ما بيناه.

١٧. قرأ أهل الكوفة غير عاصم (ساحر مبين) بالألف، وكذلك في سورة يونس، وهود، والصف، وقرأ ابن كثير، وعاصم، في سورة يونس ﴿لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ بالألف فقط، وأهل المدينة، والبصرة، والشام

﴿سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ بغير الألف في جميع ذلك:

أ. من قرأ، ﴿إِلَّا سِحْرٌ﴾ جعله إشارة إلى ما جاء به، كأنه قال ما الذي جئت به إلا سحر مبين.

ب. ومن قرأ (إلا ساحر) أشار إلى الشخص، لا إلى الحديث الذي أتى به، وكلاهما حسن لاستواء كل واحد منهما في أن ذكره قد تقدم، غير أن الاختيار سحر لوقوعه على الحدث والشخص، أما وقوعه على الحدث فظاهر، وأما وقوعه على الشخص فهو أن يراد به ذو سحر، كما جاء ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ﴾ أي ذا البر، وقالوا إنما أنت سير، وإنما هي إقبال وإدبار، وقد جاء أيضا فاعل يراد به الكثرة في حروف ليست بالكثيرة، نحو: عائذا بالله من شرها أي: عياذا، ونحو: العافية، ولم تصر هذه الحروف من الكثرة بحيث يقاس عليها.

١٨. مسائل لغوية ونحوية:

أ. (يوم) ينتصب على تقدير واتقوا يوم يجمع ويتصل بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا﴾ عن الزجاج، وقيل: إنه يتعلق بقوله: ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾ عن المغربي، وقيل: انه يتعلق بمحذوف على تقدير احذروا، أو اذكروا ذلك اليوم.

ب. العامل في إذ يحتمل أمرين:

• أحدهما: الابتداء عطفا على قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾ ثم قال وذلك إذ قال فيكون موضعه رفعا كما يقول القائل: كأنك بنا قد وردنا بلد كذا، وصنعنا فيه، وفعلنا إذ صاح بك صائح، فأجبته وتركتني.

• الثاني: أذكر ﴿إِذْ قَالَ اللهُ﴾ فيكون موضعه نصبا (يا عيسى بن مريم) يجوز أن يكون عيسى مضموما في التقدير، فإنه منادى مفرد، فيكون نداءين، وتقديره يا عيسى، يا بن مريم، أو تكون وصفت المضموم بمضاف فنصب المضاف كقول الشاعر: يا زبرقان أخا بني خلف، ويجوز أن يكون عيسى مبنيا مع الابن على الفتح في التقدير، لوقوع الابن بين علمين، وهذا كما أنشد النحويون من قول الشاعر:

يا حكم بن المنذر بن الجارود أنت الجواد بن الجواد بن الجود

ج. روي في حكم الضم والفتح ﴿تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ في موضع نصب على الحال.

د. ﴿وَكَهْلًا﴾ عطف على موضع في المهد وهو جملة ظرفية في موضع نصب على الحال من ﴿تُكَلِّمَ﴾ فالمعنى مكلما الناس صغيرا، وكبيرا.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾ قال الزجّاج: نصب (يوم) محمول على قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾: واتّقوا يوم جمعه للرّسل، ومعنى مسألته للرّسل توبيخ الذين أرسلوا إليهم.

٢. فأمّا قول الرّسل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ ففيه ستة أقوال:

أ. أحدها: أنهم طاشت عقولهم حين زفرت جهنّم، فقالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ ثم تردّ إليهم عقولهم، فينطلقون بحجّتهم، رواه أبو الضّحى عن ابن عباس، وبه قال الحسن، ومجاهد، والسّدّيّ.

ب. الثاني: أن المعنى ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ إلّا علم أنت أعلم به منّا، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

ج. الثالث: أنّ المراد بقوله تعالى: ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾: ماذا عملوا بعدكم، وأحدثوا، فيقولون: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾، قاله ابن جريج، وفيه بعد.

د. الرابع: أنّ المعنى: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ مع علمك، لأنك تعلم الغيب، ذكره الزجّاج.

هـ. الخامس: أنّ المعنى: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ كعلمك، إذ كنت تعلم ما أظهر القوم وما أضمروا، ونحن نعلم ما أظهروا، ولا نعلم ما أضمروا، فعلمك فيهم أنفذ من علمنا، هذا اختيار ابن الأنباريّ.

و. السادس: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ بجميع أفعالهم إذ كنّا نعلم بعضها وقت حياتنا، ولا نعلم ما كان بعد وفاتنا، وإنّما يستحقّ الجزاء بما تقع به الخاتمة، حكاه ابن الأنباريّ، قال المفسّرون: إذا ردّ الأنبياء العلم إلى الله أبلست الأمم، وعلمت أنّ ما أتته في الدنيا غير غائب عنه، وأنّ الكلّ لا يخرجون عن قبضته.

٣. ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ قال الخطّابيّ: العلّام: بمنزلة العليم، وبناء (فعّال) بناء التّكثير، فأمّا (الغيوب) فجمع غيب، وهو ما غاب عنك.

٤. ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى﴾ قال ابن عباس: معناه: وإذ يقول، ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ في تذكيره النّعم فائدتان:

أ. إحداهما: إسماع الأمم ما خصّه به من الكرامة.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ١/٦٠٠.

ب. الثانية: توكيد حجّته على جاحده، ومن نعمه على مريم أنه اصطفاها وطهّرها، وأتاها برزقها من غير سبب، وقال الحسن: المراد بذكر النّعمة: الشّكر، فأمّا النّعمة، فلفظها لفظ الواحد، ومعناها الجمع.

٥. سؤال وإشكال: لم قال هاهنا: ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا﴾ وفي آل عمران (فيه)؟ والجواب: أنه جائز أن يكون ذكر الطّير على معنى الجميع، وأنّث على معنى الجماعة، وجاز أن يكون (فيه) للطّير، (وفيها) للهيئة ذكره أبو عليّ الفارسيّ.

٦. ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ قرأ ابن كثير، وعاصم هاهنا، وفي (هود) و(الصّف): ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، وقرأ في (يونس): ﴿لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ بألف، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، الأربعة (سحر مبين) بغير ألف، فمن قرأ (سحر) أشار إلى ما جاء به، ومن قرأ (ساحر)، أشار إلى الشّخص.

الرّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. عادة الله تعالى جارية في هذا الكتاب الكريم أنه إذا ذكر أنواعا كثيرة من الشرائع والتكاليف والأحكام، أتبعها إما بالإلهيات، وإما بشرح أحوال الأنبياء، أو بشرح أحوال القيامة ليصير ذلك مؤكدا لما تقدم ذكره من التكاليف والشرائع فلا جرم لما ذكر فيما تقدم أنواعا كثيرة من الشرائع أتبعها بوصف أحوال القيامة أولا، ثم ذكر أحوال عيسى، أما وصف أحوال القيامة فهو قوله ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾

٢. في هذه الآية قولان:

أ. أحدهما: أنها متصلة بما قبلها وعلى هذا التقدير ففيه وجهان:

• الأول: قال الزجاج تقديره: واتقوا الله يوم يجمع الله الرسل، ولا يجوز أن ينصب على الظرف لهذا الفعل لأنهم لم يؤمروا بالتقوى في ذلك اليوم، ولكن على المفعول له.

• الثاني: قال القفال: يجوز أن يكون التقدير: والله لا يهدي القوم الفاسقين يوم يجمع الله الرسل، أي لا يهديهم إلى الجنة كما قال: ﴿وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً إلا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]

ب. الثاني: أنها منقطعة عما قبلها، وعلى هذا التقدير ففيه أيضا وجهان:

---

(١) التفسير الكبير: ٤٥٧/١٢.

• الأول: أن التقدير: اذكر يوم يجمع الله الرسل.

• الثاني: أن يكون التقدير: يوم يجمع الله الرسل كان كيت وكيت.

٣. ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ قال صاحب (الكشاف) قوله (ماذا) منتصب بأجبتم انتصاب مصدره على معنى أي أجابه أجبتم إجابة إنكار أم إجابة إقرار، ولو أريد الجواب لقيل بما ذا أجبتم، سؤال وإشكال: وأي فائدة في هذا السؤال؟ والجواب: توبيخ قومهم كما أن قوله: ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩] المقصود منه توبيخ من فعل ذلك الفعل.

٤. سؤال وإشكال: ظاهر قوله تعالى: ﴿قالُوا لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ يدل على أن الأنبياء عليهم السلام لا يشهدون لأممهم، والجمع بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً﴾ [النساء: ٤١] مشكل، وأيضا قوله تعالى: ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] فإذا كانت أمتنا تشهد لسائر الناس فالأنبياء أولى بأن يشهدوا لأممهم بذلك، والجواب: من وجوه:

أ. الأول: قال جمع من المفسرين: إن للقيامة زلازل وأهوالا بحيث تزول القلوب عن مواضعها عند مشاهدتها، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام عند مشاهدة تلك الأهوال ينسون أكثر الأمور، فهنالك يقولون لا علم لنا، فإذا عادت قلوبهم إليهم فعند ذلك يشهدون للأمم، وهذا الجواب وإن ذهب إليه جمع عظيم من الأكابر فهو عندي ضعيف، لأنه تعالى قال في صفة أهل الثواب: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقال أيضا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩] بل إنه تعالى قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمنوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخر وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] فكيف يكون حال الأنبياء والرسل أقل من ذلك، ومعلوم أنهم لو خافوا لكانوا أقل منزلة من هؤلاء الذين أخبر الله تعالى عنهم أنهم لا يخافون ألبتة.

ب. الثاني: أن المراد منه المبالغة في تحقيق فضيحتهم كمن يقول لغيره ما تقول في فلان؟ فيقول: أنت أعلم به مني، كأنه قيل: لا يحتاج فيه إلى الشهادة لظهوره، وهذا أيضا ليس بقوي لأن السؤال إنما وقع عن كل الأمة وكل الأمة ما كانوا كافرين حتى تريد الرسل بالنفي تبكيتهم وفضيحتهم.

ج. الثالث: وهو الأصح وهو الذي اختاره ابن عباس أنهم إنما قالوا: لا علم لنا لأنك تعلم ما أظهروا وما أضمروا ونحن لا نعلم إلا ما أظهروا فعلمك فيهم أنفذ من علمنا، فلهذا المعنى نفوا العلم عن أنفسهم لأن علمهم عند الله كلا علم.

د. الرابع: أنهم قالوا: لا علم لنا، إلا أن علمنا جوابهم لنا وقت حياتنا، ولا نعلم ما كان منهم بعد وفاتنا، والجزاء والثواب إنما يحصلان على الخاتمة وذلك غير معلوم لنا، فلهذا المعنى قالوا لا علم لنا وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ يشهد بصحة هذين الجوابين.

هـ. الخامس: وهو الذي خطر ببالي وقت الكتابة، أنه قد ثبت في علم الأصول أن العلم غير والظن غير والحاصل عند كل أحد من حال الغير إنما هو الظن لا العلم، ولهذا قال ﷺ: (نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر)، وقال ﷺ: (إنكم لتختصمون لدي ولعلّ بعضكم ألحن بحجته فمن حكمت له بغير حقه فكأنما قطعت له قطعة من النار)، أو لفظ هذا معناه، فالأنبياء قالوا: لا علم لنا ألبتة بأحوالهم، إنما الحاصل عندنا من أحوالهم هو الظن، والظن كان معتبرا في الدنيا، لأن الأحكام في الدنيا كانت مبنية على الظن، وأما الآخرة فلا التفات فيها إلى الظن لأن الأحكام في الآخرة مبنية على حقائق الأشياء، وبواطن الأمور، فلهذا السبب قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إلا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ ولم يذكروا ألبتة ما معهم من الظن لأن الظن لا عبرة به في القيامة.

و. السادس: أنهم لما علموا أنه سبحانه وتعالى عالم لا يجهل، حكيم لا يسفه، عادل لا يظلم، علموا أن قولهم لا يفيد خيرا، ولا يدفع شرا فرأوا أن الأدب في السكوت، وفي تفويض الأمر إلى عدل الحي القيوم الذي لا يموت.

٥. دلّت الآية على جواز إطلاق لفظ العلام عليه، كما جاز إطلاق لفظ الخلاق عليه، أما العلّامة فإنهم أجمعوا على أنه لا يجوز إطلاقها في حقه ولعل السبب ما فيه من لفظ التأنيث.

٦. ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ بينا أن الغرض من قوله تعالى للرسل ﴿مَاذَا أَجَبْتُمْ﴾ توبيخ من تمرد من أممهم وأشد الأمم افتقارا إلى التوبيخ والملامة النصارى الذين يزعمون أنهم أتباع عيسى عليه السلام لأن طعن سائر الأمم كان مقصورا على الأنبياء وطعن هؤلاء الملاعين تعدى إلى جلال الله وكبريائه حيث وصفوه بما لا يليق بعاقل أن يصف الإله به، وهو اتخاذ الزوجة

والولد فلا جرم ذكر الله تعالى أنه يعدد أنواع نعمه على عيسى بحضرة الرسل واحدة فواحدة والمقصود منه توبيخ النصارى وتقريعهم على سوء مقالتهم فإن كل واحدة من تلك النعم المعدودة على عيسى تدل على أنه عبد وليس بإله، والفائدة في هذه الحكاية تنبيه النصارى الذين كانوا في وقت نزول هذه الآية على قبح مقالتهم وركاكة مذهبهم واعتقادهم.

٧. موضع ﴿إِذِ﴾ يجوز أن يكون رفعا بالابتداء على معنى ذاك إذ قال الله، ويجوز أن يكون المعنى اذكر إذ قال الله، وخرج قوله: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ﴾ على لفظ الماضي دون المستقبل وفيه وجوه:

أ. الأول: الدلالة على قرب القيامة حتى كأنها قد قامت ووقعت وكل آت قريب ويقال: الجيش قد أتى، إذا قرب إتيانهم، قال الله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ﴾ [النحل: ١]

ب. الثاني: أنه ورد على حكاية الحال ونظيره قول الرجل لصاحبه كأنك بنا وقد دخلنا بلدة كذا فصنعنا فيها كذا إذ صاح صائح فتركتني وأجبته، ونظيره من القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ﴾ [سبأ: ٥١]، ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ [الأنفال: ٥٠]، ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [سبأ: ٣١] والوجه في كل هذه الآيات ما ذكرناه، من أنه خرج على سبيل الحكاية عن الحال.

٨. ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ يجوز أن يكون (عيسى) في محل الرفع لأنه منادى مفرد وصف بمضاف ويجوز أن يكون في محل النصب لأنه في نية الإضافة ثم جعل الابن توكيدا وكل ما كان مثل هذا جاز فيه وجهان نحو يا زيد بن عمرو، وأنشد النحويون: يا حكم بن المنذر بن الجارود برفع الأول ونصبه على ما بيناه.

٩. ﴿نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ أراد الجمع كقوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨] وإنما جاز ذلك لأنه مضاف يصلح للجنس، وفسّر الله تعالى نعمته عليه بأمور:

أ. أولها: قوله: ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وفيه وجهان:

• الأول: روح القدس هو جبريل عليه السلام، الروح جبريل والقدس هو الله تعالى، كأنه أضافه إلى نفسه تعظيما له.

• الثاني: إن الأرواح مختلفة بالماهية فمنها طاهرة نورانية ومنها خبيثة ظلمانية، ومنها مشرقة، ومنها

كدرة، ومنها خيرة، ومنها نذلة ولهذا قال ﷺ: (الأرواح جنود مجندة)، فالله تعالى خصّ عيسى بالروح الطاهرة النورانية المشرقة العلوية الخيرة، سؤال وإشكال: لقائل أن يقول: لما دلّت هذه الآية على أن تأييد عيسى إنما حصل من جبريل أو بسبب روحه المختص به، قدح هذا في دلالة المعجزات على صدق الرسل لأنا قبل العلم بعصمة جبريل نجوز أنه أعان عيسى عليه السلام على ذلك، على سبيل إغواء الخلق وإضلالهم فما لم تعرف عصمة جبريل لا يندفع هذا وما لم تعرف نبوّة عيسى عليه السلام لا تعرف عصمة جبريل، فيلزم الدور والجواب: ما ثبت من أصلنا أن الخالق ليس إلا الله وبه يندفع هذا السؤال.

ب. ثانيها: قوله تعالى: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أما كلام عيسى في المهد فهو قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ [مريم: ٣٠]، وقوله: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ في موضع الحال، والمعنى: يكلمهم طفلا وكهلا من غير أن يتفاوت كلامه في هذين الوقتين وهذه خاصية شريفة كانت حاصلة له وما حصلت لأحد من الأنبياء قبله ولا بعده.

ج. ثالثها: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ﴾ وفي ﴿الْكِتَابِ﴾ قولان:

- أحدهما: المراد به الكتابة وهي الخط.
- الثاني: المراد منه جنس الكتب، فإن الإنسان يتعلم أولا كتبا سهلة مختصرة، ثم يترقى منها إلى الكتب الشريفة.

د. رابعها: قوله تعالى: ﴿والْحِكْمَةَ﴾ هي عبارة عن العلوم النظرية، والعلوم العملية.

هـ. خامسها: قوله تعالى: ﴿التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ وفيه وجهان:

- الأول: أنهما خصا بالذكر بعد ذكر الكتب على سبيل التشريف كقوله: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧]
- الثاني: وهو الأقوى أن الاطلاع على أسرار الكتب الإلهية، لا يحصل إلا لمن صار بانيا في أصناف العلوم الشرعية والعقلية الظاهرة التي يبحث عنها العلماء، فقوله: ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ إشارة إلى الأسرار التي لا يطلع عليها أحد إلا أكابر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

و. سادسها: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾

سؤال وإشكال: ذكر الله تعالى هاهنا ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا﴾ وذكر في آل عمران ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٤٩]، والجواب: أن قوله: ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ أي هيئة مثل هيئة الطير فقوله: ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا﴾ الضمير للكاف، لأنها صفة الهيئة التي كان يخلقها عيسى وينفخ فيها ولا يرجع إلى الهيئة المضاف إليها لأنها ليست من خلقه ولا نفخه في شيء إذا عرفت هذا فنقول: الكاف تؤنث بحسب المعنى لدلالتها على الهيئة التي هي مثل هيئة الطير وتذكر بحسب الظاهر، وإذا كان كذلك جاز أن يقع الضمير عنها تارة على وجه التذكير وأخرى على وجه التأنيث، واعتبر الله تعالى الإذن في خلق الطين كهيئة الطير، وفي صيرورته ذلك الشيء طيرا، وإنما أعاد قوله: ﴿بِإِذْنِي﴾ تأكيدا لكون ذلك واقعا بقدرة الله تعالى وتخليقه لا بقدرة عيسى وإيجاده.

ز. سابعها: قوله تعالى: ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ وإبراء الأكمه والأبرص معروف وقال الخليلي: الأكمه من ولد أعمى والأعمى من ولد بصيرا ثم عمي.

ح. ثامنها: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ أي وإذ تخرج الموتى من قبورهم أحياء باذني أي بفعلي ذلك عند دعائك، وعند قولك للميت اخرج بإذن الله من قبرك، وذكر الإذن في هذه الأفاعيل إنما هو على معنى إضافة حقيقة الفعل إلى الله تعالى كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إلا بِإِذْنِ الله﴾ [آل عمران: ١٤٥] أي إلا بخلق الله الموت فيها.

ط. تاسعها: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه هذه البينات التي تقدم ذكرها وعلى هذا التقدير فالألف واللام للعهد، ويحتمل أن يكون المراد منه جنس البينات، روي أنه عليه السلام لما أظهر هذه المعجزات العجيبة قصد اليهود قتله فخلصه الله تعالى منهم حيث رفعه إلى السماء.

١٠. ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ قرأ حمزة والكسائي ساحر بالألف وكذلك في يونس وهود والصف، وقرأ ابن عامر وعاصم في يونس بالألف فقط والباقون ﴿سِحْرٌ﴾ فمن قرأ ساحر أشار إلى الرجل ومن قرأ ﴿سِحْرٌ﴾ أشار به إلى ما جاء به، وكلاهما حسن لأن كل واحد منهما قد تقدم ذكره، قال الواحدي: والاختيار ﴿سِحْرٌ﴾ لجواز وقوعه على الحدث والشخص، أما وقوعه على الحدث فظاهر وأما وقوعه على الشخص، فتقول: هذا سحر وتريد به ذو سحر كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ﴾ [البقرة: ١٧٧] أي ذا البر قال الشاعر: (فإنما هي إقبال وإدبار)

١١. سؤال وإشكال: شرع الله تعالى هاهنا في تعديد نعمه على عيسى عليه السلام وقول الكفار في حقه ﴿إِنْ هَذَا إلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ليس من النعم، فكيف ذكره هاهنا؟ والجواب: أن من الأمثال المشهورة ـ أن كل ذي نعمة محسود ـ وطعن الكفار في عيسى عليه السلام بهذا الكلام، يدل على أن نعم الله في حقه كانت عظيمة فحسن ذكره عند تعديد النعم للوجه الذي ذكرناه.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾ يقال: ما وجه اتصال هذه الآية بما قبلها؟ فالجواب ـ أنه اتصال الزجر عن الإظهار خلاف الإبطان في وصية أو غيرها مما ينبئ أن المجازي عليه عالم به، و﴿يَوْمَ﴾ ظرف زمان والعامل فيه ﴿وَاسْمَعُوا﴾ أي واسمعوا خبر يوم، وقيل: التقدير واتقوا يوم يجمع الله الرسل، عن الزجاج، وقيل: التقدير اذكروا أو احذروا يوم القيامة حين يجمع الله الرسل، والمعنى متقارب، والمراد التهديد والتخويف.

٢. ﴿فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ﴾ أي ما الذي أجابتكم به أممكم؟ وما الذي رد عليكم قومكم حين دعوتموهم إلى توحيدي؟ ﴿قَالُوا﴾ أي فيقولون: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ واختلف أهل التأويل في المعنى المراد بقولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾:

أ. فقيل: معناه لا علم لنا بباطن ما أجاب به أممنا، لأن ذلك هو الذي يقع عليه الجزاء، وهذا مروي عن النبي ﷺ.

ب. وقيل: المعنى لا علم لنا إلا ما علمتنا، فحذف، عن ابن عباس ومجاهد بخلاف.

ج. وقال ابن عباس أيضا: معناه لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا، وقيل: إنهم يذهلون من هول ذلك ويفزعون من الجواب، ثم يجيبون بعد ما تثوب إليهم عقولهم فيقولون: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ قاله الحسن ومجاهد والسدي، قال النحاس: (وهذا لا يصح، لأن الرسل صلوات الله عليهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)، هذا في أكثر مواطن القيامة، ففي الخبر (إن جهنم إذا جيء بها زفرت زفرة فلا يبقى نبي ولا

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/٣٦٠.

صديق إلا جثا لركبتيه)، وقال رسول الله ﷺ: (خوفني جبريل يوم القيامة حتى أبكاني فقلت يا جبريل ألم يغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر؟ فقال لي يا محمد لتشهدن من هول ذلك اليوم ما ينسيك المغفرة)، فإن كان السؤال عند زفرة جهنم ـ كما قاله بعضهم ـ فقول مجاهد والحسن صحيح.

د. قال النحاس: والصحيح في هذا أن المعنى: ماذا أجبتم في السر والعلانية ليكون هذا توبيخا للكفار، فيقولون: لا علم لنا، فيكون هذا تكذيبا لمن اتخذ المسيح إلها.

هـ. وقال ابن جريج: معنى قوله: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمْ﴾ ماذا عملوا بعدكم؟ قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، قال أبو عبيد: ويشبه هذا حديث النبي ﷺ أنه قال: يرد علي أقوام الحوض فيختلجون فأقول أمتي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، وكسر الغين من الغيوب حمزة والكسائي وأبو بكر، وضم الباقون.

و. قال الماوردي: سؤال وإشكال: فإن قيل: فلم سألهم عما هو أعلم به منهم؟ والجواب: عنه جوابان:

- أحدهما: أنه سألهم ليعلمهم ما لم يعلموا من كفر أممهم ونفاقهم وكذبهم عليهم من بعدهم.
- الثاني: أنه أراد أن يفضحهم بذلك على رؤوس الأشهاد ليكون ذلك نوعا من العقوبة لهم.

٣. ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ هذا من صفة يوم القيامة كأنه قال اذكر يوم يجمع الله الرسل وإذ يقول الله لعيسى كذا، قاله المهدوي، و﴿عِيسَى﴾ يجوز أن يكون في موضع رفع على أن يكون ﴿ابْنُ مَرْيَمَ﴾ نداء ثانيا، ويجوز أن يكون في موضع نصب، لأنه نداء منصوب كما قال يا حكم بن المنذر بن الجارود ولا يجوز الرفع في الثاني إذا كان مضافا إلا عند الطوال.

٤. ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ إنما ذكر الله تعالى عيسى نعمته عليه وعلى والدته وإن كان لهما ذاكرا لأمرين:

أ. أحدهما: ليتلو على الأمم ما خصهما به من الكرامة، وميزهما به من علو المنزلة.

ب. الثاني: ليؤكد به حجته، ويرد به جاحده.

٥. ثم أخذ في تعديد نعمه فقال: ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ﴾ يعني قويتك، مأخوذ من الأيد وهو القوة، وقد تقدم، وفي ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وجهان:

أ. أحدهما: أنها الروح الطاهرة التي خصه الله بها كما تقدم في قوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء]

ب. الثاني: أنه جبريل عليه السلام وهو الأصح، كما تقدم في البقرة.

٦. ﴿تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ يعني وتكلم الناس في المهد صبيا، وفي الكهولة نبيا، وقد تقدم ما في هذا في آل عمران فلا معنى لإعادته، ﴿كَفَفْتُ﴾ معناه دفعت وصرفت ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ﴾ حين هموا بقتلك، ﴿إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي الدلالات والمعجزات، وهي المذكورة في الآية، ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني الذين لم يؤمنوا بك وجحدوا نبوتك، ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي المعجزات، ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، وقرا حمزة والكسائي ﴿لَسَاحِرٌ﴾ أي إن هذا الرجل إلا ساحر قوي على السحر.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾ العامل في الظرف فعل مقدّر: أي اسمعوا، أو اذكروا، أو احذروا، وقال الزجاج: هو منصوب بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ المذكور في الآية الأولى؛ وقيل: بدل من مفعول ﴿اتَّقُوا﴾ بدل اشتمال؛ وقيل: ظرف لقوله: ﴿لَا يَهْدِي﴾ المذكور قبله؛ وقيل: منصوب بفعل مقدّر متأخر تقديره: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾ يكون من الأحوال كذا وكذا.

٢. ﴿مَاذَا أَجَبْتُمْ﴾ أي أيّ إجابة أجابتكم به أممكم الذين بعثكم الله إليهم؟ أو أيّ جواب أجابوكم به؟ وعلى الوجهين تكون ما منصوبة بالفعل المذكور بعدها، وتوجيه السؤال إلى الرسل لقصد توبيخ قومهم، وجوابهم بقولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ مع أنهم عالمون بما أجابوا به عليهم، تفويض منهم، وإظهار للعجز، وعدم القدرة، ولا سيما مع علمهم بأن السؤال سؤال توبيخ فإن تفويض الجواب إلى الله أبلغ في حصول ذلك؛ وقيل المعنى: لا علم لنا لما أحدثوا بعدنا؛ وقيل: لا علم لنا بما اشتملت عليه بواطنهم؛ وقيل المعنى: لا علم لنا إلا علم ما أنت أعلم به منا؛ وقيل: إنهم ذهلوا عما أجاب به قومهم لهول المحشر.

٣. ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ إذ: بدل من: يوم يجمع، وهو تخصيص بعد التعميم وتخصيص عيسى عليه السلام من بين الرسل لاختلاف طائفتي اليهود والنصارى فيه إفراطا وتفريطا، هذه تجعله

---

(١) فتح القدير: ٢/١٠٤.

إلها، وهذه تجعله كاذبا، وقيل: هو منصوب بتقدير اذكر.

٤. ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ ذكّره سبحانه نعمته عليه وعلى أمه ـ مع كونه ذاكرا لها عالما بتفضل الله سبحانه بها ـ لقصد تعريف الأمم بما خصّهما الله به من الكرامة وميزهما به من علوّ المقام، أو لتأكيد الحجة وتبكيت الجاحد بأن منزلتهما عند الله هذه المنزلة وتوبيخ من اتخذهما إلهين ببيان أن ذلك الإنعام عليهما كله من عند الله سبحانه، وأنهما عبدان من جملة عباده منعم عليهما بنعم الله سبحانه ليس لهما من الأمر شيء.

٥. ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ إذ ظرف للنعمة لأنها بمعنى المصدر: أي اذكر إنعامي عليك وقت تأييدي لك، أو حال من النعمة: أي كائنة ذلك الوقت ﴿أَيَّدْتُكَ﴾ قوّيتك مأخوذ من الأيد، وهو القوّة، وفي روح القدس وجهان: أحدهما أنها الروح الطاهرة التي خصه الله بها، وقيل: إنه جبريل عليه السلام، وقيل: إنه الكلام الذي يحيي به الأرواح، والقدس: الطهر، وإضافته إليه لكونه سببه.

٦. وجملة ﴿تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ مبينة لمعنى التأييد، و﴿فِي الْمَهْدِ﴾ في محل نصب على الحال: أي تكلم الناس حال كونك صبيا وكهلا لا يتفاوت كلامك في الحالتين مع أن غيرك يتفاوت كلامه فيهما تفاوتا بينا.

٧. ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ﴾ معطوف على ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ﴾ أي واذكر نعمتي عليك وقت تعليمي لك الكتاب: أي جنس الكتاب، أو المراد بالكتاب الخطّ، وعلى الأوّل يكون ذكر التوراة والإنجيل من عطف الخاص على العام، وتخصيصهما بالذكر لمزيد اختصاصه بهما: أما التوراة فقد كان يحتجّ بها على اليهود في غالب ما يدور بينه وبينهم من الجدال كما هو مصرّح بذلك في الإنجيل، وأما الإنجيل فلكونه نازلا عليه من عند الله سبحانه، والمراد بالحكمة جنس الحكمة؛ وقيل: هي الكلام المحكم.

٨. ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ أي: تصوّر تصويرا مثل صورة الطير ﴿بِإِذْنِي﴾ لك بذلك وتيسيري له ﴿فَتَنْفُخُ﴾ في الهيئة المصوّرة ﴿فَتَكُونَ﴾ هذه الهيئة ﴿طَيْرًا﴾ متحركا حيا كسائر الطيور.

٩. ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ لك وتسهيله عليك وتيسيره لك، وقد تقدّم تفسير هذا مطوّلا في البقرة فلا نعيده ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ من قبورهم فيكون ذلك آية لك عظيمة ﴿بِإِذْنِي﴾، وتكرير بإذني في المواضع الأربعة للاعتناء بأن ذلك كله من جهة الله ليس لعيسى عليه السلام فيه فعل إلا مجرد امتثاله لأمر الله سبحانه.

١٠. ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ﴾ معطوف على ﴿إِذْ تُخْرِجُ﴾ كففت معناه: دفعت وصرفت ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ﴾ حين هموا بقتلك ﴿إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات الواضحات ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي ما هذا الذي جئت به إلا سحر بين، لما عظم ذلك في صدرهم وانبهروا منه لم يقدروا على جحده بالكلية، بل نسبوه إلى السحر.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾ متعلِّق بـ (يَهْدِي) كما رأيت، أو مفعول لمحذوف، أي: (اذْكُرْ)، وهو يوم القيامة، وقيل: بدلُ اشتمال من لفظ الجلالة في قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ وبدل الاشتمال ما بينه وبين المبدل منه ملابسة بغير الكُلِّيَّة والجزئيَّة، وقيل: متعلِّق بمضاف محذوف، أي: اتَّقوا عقاب الله يومَ.

٢. ﴿فَيَقُولُ﴾ قولَ توبيخ لأقوام الرسل وهو عالم بما أجيب به الرسل، ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ (مَاذَا) مفعول مطلق واقع على الردِّ المفسَّر به (أُجِبْتُمْ)، أيُّ ردٍّ ردَّ عليكم أقوامُكم في الدُّنيا حين بلَّغتم الرسالة؟ أو (مَا) اسم استفهام مبتدأ، و(ذَا) خبرٌ، أو بالعكس و(ذَا) موصول، أي: ما الذي أُجبتم؟ أي: ما الردُّ الذي رُدَّ عليكم؟، أو: ما الذي أُجبتم به؟ بناء على جواز حذف الرابط إذا عُلِم بلا شرط، ويضعف جعل (مَاذَا) مجرورًا بحرف مُقدَّر، أي: بماذا أُجبتم؟

٣. وعلى كُلِّ حال المراد: ماذا أجابكم أقوامكم في التوحيد وغيره من أمر الله ونهيه جلَّ وعلا في الدنيا؟، والاستفهام توبيخ لأقوام الرُّسل بلا خطاب لهم، وإنَّما كان بلا خطاب لتحقيرهم وشدَّة السخط، حتَّى إنَّه لذلك لم يذكرهم إذ لم يقل: ماذا أجابكم أممُكم؟

٤. ﴿قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ بماذا أجابونا، نَسَوْا لدهش القيامة، ثمَّ ترجع إليهم عقولهم فيقولون؛ لأنَّ يوم القيامة مواطن، فتارة يذهلون وتارة يجيبون، ثمَّ رأيت لابن عبَّاس مثل هذا مجيبًا به لابن الأزرق، فلا يَرِدُ على ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الَاكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]

٥. ولا يصحُّ أن يقال: لا علم لنا بما كنت تعلمه من الغيب مِمَّا في قلوبهم أو غيرها في أقوامنا، ومن

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/١٦٤.

تحقيق الأمر، أو من الخاتمة، أو بحال من جاء بعدنا؛ لأنَّ سؤال الله لهم ليس لذلك؛ ولأنَّهم قد رأوا أثر الشقوة، ولا يصحُّ أنَّه ردٌّ للأمرِ إلى الله تعالى إذ ذلك كذبٌ لا يقولون: ما علمنا، وهم علموا، وكذا يوجب الكذب ما قيل: إنَّهم علموا أنَّ الله عالم لا يظلم، وأنَّ قولهم لا يدفع شرًّا، فردُّوا العلم إلى الله بنفيه عنهم تأدُّبًا، ولا ما قيل: إنَّهم جعلوا علمهم كلا علم بالنسبة إلى علم الله، وذلك أنَّهم نفوا العلم عن أنفسهم بـ (لا) النافية للجنس، فلم تصحَّ تلك الدعاوي، ولا يخفى تكلُّف ما قيل: إنَّ نفي العلم كناية عن التشكِّي من أقوامهم والالتجاء إلى الله، و(قَالُوا) بمعنى: يقولون، لكنَّه لوجوب وقوع القول صاروا كأنَّهم قد قالوا.

٦. ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ما غاب عن خلقك البتَّة أو غاب عنهم بعد علمهم به، وجمع الغيب مع أنَّه مصدر صالح يصلح للكثير، لأنَّ المراد الدلالة على أنواع الغيب، وذلك بمعنى أنَّه يعلم غيب ما غاب، وذلك علم للغائب، وأمَّا إن قلنا: الغيب نفس ما غاب، أو: الغيوب جمع غيب مخفَّف غيب فلا إشكال في الجمع.

٧. ﴿إِذْ قَالَ اللهُ﴾ إذ يقول الله، وصيغتا المضيِّ للتحقُّق كما مَرَّ، و(إِذْ) بدل من (يَوْمَ)، أو مفعول لـ (اُذْكُرْ)، وصحَّ الإبدال لأنَّ يومَ جمعِ الرسلِ وقولِهِ لعيسى: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾.. إلخ يومٌ واحدٌ، يَجْمَعُ توبيخَ الأقوامِ على تكذيبهم للأنبياء حتَّى قالوا: سحرةٌ، ومجانين، وأساطير الأولين، وأكاذيب، وعلى غلوِّ من غلا حتَّى قال: إنَّ عزيرَ ابنُ الله، وحتَّى قال: إنَّ عيسى إله أو ابن الله، والآية ردٌّ لتفريط اليهود في عيسى عليه السلام وإفراط النصارى فيه، إذا جعلنا (ابْنَ) نعتَ (عِيسَى) جاز في الجملة تقدير الضمَّة على الألف كما هو الأصل، وتقدير الفتحة كما هو القاعدة في مثل قولك: يا زيدَ بنَ سعيد، ولكن لا داعي إلى تقدير خلاف الأصل ولا دَلِيل عليه يُترك به الأصل.

٨. ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي﴾ إنعامي - بكسر الهمزة - ﴿عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ﴾ متعلِّق بـ (نِعْمَتِي) كـ (عَلَى)؛ لأنَّه بمعنى إنعامي، وإن جعلنا النِّعمة بمعنى ما أنعم به عليه فـ (عَلَى) متعلِّق بمحذوفٍ حالٌ من نعمة، والإضافة للجنس، لأنَّ نِعَمَه عليه مُتَعَدِّدَة، وأمَرَه بذكر النِّعم تشريفًا له بها على رؤوس الأشهاد والأعداء وتلذيذًا، وتوبيخًا لليهود والنصارى المخطئين في شأنه، وإذا جُعل (نِعْمَتِي) بمعنى ما أنعم به فـ (إِذْ) متعلِّق بمحذوف حالٌ من نعمة أو بدل من (إِذْ)، ﴿أَيَّدتُّكَ﴾ قوَّيتك، من الأيد مفردًا، بمعنى القوَّة،

﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ هو جبريل، لا يفارقه من حين ولد إلى أن رفع، والقدس: الطهر، أو روح القدس: الكلام الذي يحيي به الدِّين، أو النفسَ حياة أبديَّة، ويطهِّر من الآثام، ويُقوِّي تفسيرَه بالكلام قولُه تعالى:

٩. ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ حالٌ، عُطِفَ عليه حالٌ آخر في قوله: ﴿وَكَهْلاً﴾ أي: ثابتًا في المهد وكهلاً، المعجزة: التَّكَلُّم في المهد لا التَّكَلُّم في الكهولة، ولكن ذَكَرَ الكهولة إيذانًا بأنَّ كلامه في المهد وكلامه في الكهولة وما بينهما سواءٌ في الحكمةِ ومطابقةِ كلامِ كُتُبِ الله وأنبيائه وكاملي العقول، وممَّا قال في المهد: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ ءَاتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ الآية [مريم: ٣٠]، وتكلَّم في الكهولة بما أوحي إليه، والكَهْلُ: من جاوز الثلاثين ووخطه الشيب، وإن جعلنا (نِعْمَتِي) بمعنى: ما أنعم به، فـ (عَلَيْكَ) حالٌ، و(إِذْ) بدلٌ منها بدلَ اشتمالٍ، أو متعلِّق بـ (عَلَيْكَ) أو بمتعلَّقه، أو حال من ضمير الحال الاستقراريِّ، ويجوز تعليق (فِي الْمَهْدِ) بـ (تُكَلِّمُ)، فيُقَدَّرُ: وتُكَلِّمُهم كهلاً.

١٠. وقد عدَّد عليه من النعم سبعًا: ﴿إِذَ اَيَّدتُّكَ﴾، ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ﴾، ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾، ﴿وَتَبْرِئُ﴾، ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾، ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ﴾، ﴿وَإِذَ اَوْحَيْتُ﴾

١١. واستدلَّ بعضٌ بقوله: ﴿وَكَهْلاً﴾ على أنَّه سينزل؛ لأنَّه رفع غير بالغ سنَّ الكهولة، وليس كذلك؛ لأنَّه أرسل ابن ثلاثين سنة، ومكث في رسالته ثلاثين شهرًا ثمَّ رفعه الله إليه، هكذا روي عن ابن عبَّاس، ويروى: ابن ثلاث وثلاثين سنة، وقيل: وثلاثة أشهر وثلاثة أيَّام، وقيل: ابن أربع وثلاثين، وما صحَّ أنَّه وخطه شيب، وتكَلَّفَ مَن قالَ: المراد: وشِبْهَ كهلٍ.

١٢. ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ﴾ أي: الخطَّ، تكتب وتقرأ ما كُتب، أو علَّمتك الكتب المنزَّلة كالصحف والزبور والتوراة والإنجيل، وخصَّهما بالذكر في قوله: ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالاِنجِيلَ﴾ تفضيلاً لهما على الكتب التي قبلهما، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ العلم وفهم معاني الكتب وأسرارها، واستكمال النفس بالعلم والعمل والصواب في السيرة، ﴿وَالتَّوْرَاةَ﴾ هو الكتاب المنزَّل على موسى ﴿وَالاِنجِيلَ﴾ المنزَّل على عيسى، على نبيِّنا وعليهما أفضل الصلاة والسلام.

١٣. ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾ تصوِّر ﴿مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ أي: بأمري، الكاف اسم مضاف لـ (هَيْئَةِ)، مفعول لـ (تَخْلُقُ)، أي: تخلق مثل هيئة الطير، أي: كصورة الطير، ﴿فَتَنفُخُ﴾ بفيك ﴿فِيهَا﴾ أي: في مثل هيئة الطير، ورجع ضمير المؤنث إلى الكاف وهو مذكَّر إذ هو بمعنى مِثْل، لأنَّ المعنى: صورة أو

هيئة مثل هيئة الطير، والطير: اسم جمع لطائر، أو جمع له، كما في راكب ورَكْب، أي: كصورة الطيور، واستعمال الطير مفردًا مرجوح، كان الناس يقولون له على وجه التعنُّت: اُخلق لنا خُفاشًا واجعل فيه روحًا إن كنت صادقًا، فيفعل بإذن الله، كما قال الله تعالى :

١٤. ﴿فَتَكُونُ طَآئِرَا بِإِذْنِي﴾ أَنِّي خالق فيها حياة وروحًا لا أنت ولا غيرك، فذلك نعمة منِّي إليك إذ نصرتك بالحجَّة على أعدائك، والمراد حيوانًا طائرًا وهو الخفاش، أو خفاشًا طائرًا.

١٥. ﴿وَتُبْرِئُ الَاكْمَهَ﴾ مَن وُلِدَ لا يبصر، أو زال بصره، ﴿وَالَابْرَصَ بِإِذْنِي﴾ أي: بقدرتي لأنِّي قادر على كلِّ شيء.

١٦. ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ من قبورهم أحياء كسام، ومن تقدَّم في آل عمران، يكرِّر (إِذْ) أوَّل كُلِّ نوع مخالف لِمَا قبله فيما مَرَّ وما يأتي، ولا سيما إخراج الموتى من القبور فإنَّه معجزة عظيمة، إذ كانوا رماما فيحييهم بإذن الله تعالى ؛ ولذلك لم يكتف عن (إِذْ) فيها بـ (إِذْ) التي قبلها مع أنَّهما معًا في إحياء ما لا حياة فيه، ومِن هذا الإحياء: إبراء الأكمه والأبرص، وأَمَّا بالمقابلة فإحياءُ الطينِ أشدُّ إعجازا، لأنَّ الطين لم تَتَقَدَّم فيه حياة بخلاف إخراج الموتى، نعم إخراجُ الموتى أبلغُ من التعبير بإحياء الموتى.

١٧. ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ﴾ منعتُ ﴿بَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾ اليهودَ ﴿عَنكَ﴾ إذ قصدوك للقتل خداعًا، وقصدوك به مجاهرة، ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات المحَسَّات فلم يقتلوك ولكن قتلوا الشبه، و(إِذْ) متعلِّق بـ (كَفَفْتُ) قبله.

١٨. ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: هؤلاء الذين قصدوا قتلك بعد البَيِّنَات فصرفتهم، فمقتضى الظاهر: فقالوا إنْ هذا إلَّا سحر مبين، ولكن أَظْهَرَ ليصفهم بالكفر بك الموجب للعذاب والذمِّ، ﴿مِنْهُم﴾ (مِن) للبيان، فبنو إسرائيل المكفوفون هم الذين قالوا: إن هذا إلَّا سحر مبين، أو (مِن) للتبعيض فبنو إسرائيل كلٌّ لا كُلِّيَّة، والحكم الإيقاعيُّ على المجموع.

١٩. ﴿إِنْ﴾ ما ﴿هَذَا﴾ أي: الذي جئت به مِمَّا تدَّعيه معجزات ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، أو الإشارة لعيسى، أي: ما عيسى إلَّا سحر، وذلك مبالغة إذ جعلوه نفس السحر، أو يقدَّر مضاف، أي: ما شأن هذا إلَّا سحر، أو ما هذا إلَّا ذو سحر مبين.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿يَوْمَ﴾ منصوب بـ (اذكروا) أو (احذروا) ﴿يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾ وذلك يوم القيامة، وتخصيص الرسل بالذكر ليس لاختصاص الجمع بهم دون الأمم، كيف لا؟ وذلك يوم مجموع له الناس، بل لإبانة شرفهم وأصالتهم والإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بجمع غيرهم، بناء على ظهور كونهم أتباعا لهم.

٢. ﴿فَيَقُولُ﴾ أي: للرسل ﴿مَاذَا أَجَبْتُمْ﴾ أي: ما الذي أجابكم من أرسلتم إليهم؟ ففيه إشعار بخروجهم عن عهدة الرسالة، إذا لم يقل: هل بلّغتم رسالاتي؟ وفي توجيه السؤال إليهم، والعدول عن إسناد الجواب إلى قومهم بأن يقال: ماذا أجابوا ـ من الإنباء عن شدة الغضب الإلهيّ ما لا يخفى، في (الصحيح) في حديث الشفاعة: إنّ ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله.

٣. ﴿قَالُوا﴾ من هيبته تعالى، وتفويضا للأمر إلى علم سلطانه وتأدّيا بليغا في ذاك الموقف الجلاليّ ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ أي: ومن علم الخفيات، لم تخف عليه الظواهر التي منها إجابة أممهم لهم.

٤. سؤال وإشكال: ما معنى سؤالهم؟ والجواب: قال الزمخشريّ: توبيخ قومهم، كما كان سؤال الموءودة توبيخا للوائد.

٥. سؤال وإشكال: كيف يقولون: لا علم لنا، وقد علموا بما أجيبوا؟ والجواب:

أ. قال الزمخشريّ: يعلمون أن الغرض بالسؤال توبيخ أعدائهم، فيكلون الأمر إلى علمه، وإحاطته بما منوا به منهم، وكابدوا من سوء إجابتهم، إظهارا للتشكي واللجأ إلى ربهم في الانتقام منهم، وذلك أعظم على الكفرة، وأفتّ في أعضادهم، وأجلب لحسرتهم وسقوطهم في أيديهم، إذا اجتمع توبيخ الله وتشكّي أنبيائه عليهم، ومثاله: أن ينكب بعض الخوارج على السلطان، خاصة من خواصّه نكبة، قد عرفها السلطان واطلع على كنهها، وعزم على الانتصار له منه، فيجمع بينهما ويقول له: ما فعل بك هذا الخارجيّ؟ (وهو عالم بما فعل به) يريد توبيخه وتبكيته، فيقول له: أنت أعلم بما فعل بي، تفويضا للأمر إلى علم سلطانه، واتكالا عليه، وإظهارا للشكاية، وتعظيما لما حلّ به منه.

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/٢٩٠.

ب. واستظهر الرازيّ أن نفي العلم لهم على حقيقته عملا بما تقرر من أن العلم غير الظن، قال لأن الحاصل من حال الغير عن كل أحد إنما هو الظن لا العلم، وفي الحديث: نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر، وقال ﷺ: (إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار)، فالأنبياء قالوا: لا علم لنا البتة بأحوالهم، إنما الحاصل عندنا من أحوالهم هو الظن، والظن كان معتبرا في الدنيا، وأما الآخرة فلا التفات فيها إلى الظن، لأن الأحكام في الآخرة مبنية على حقائق الأشياء وبواطن الأمور، فلهذا السبب قالوا: لا علم لنا، ولم يذكروا ما معهم من الظن، لأن الظن لا عبرة به في القيامة.

٦. دلت الآية الكريمة عل جواز إطلاق لفظ (العلّام) عليه، كما جاز إطلاق لفظ (الخلّاق) عليه، وأما العلّامة فإنهم أجمعوا على أنه لا يجوز إطلاقه في حقه، ولعل السبب ما فيه من لفظ التأنيث، أفاده الرازيّ.

٧. ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ شروع في بيان ما جرى بينه تعالى وبين واحد من الرسل المجموعين، من المفاوضة، على التفصيل، إثر بيان ما جرى بينه تعالى وبين الكل على وجه الإجمال، ليكون ذلك كالأنموذج لتفاصيل أحوال الباقين، وتخصيص شأن عيسى عليه السلام بالبيان، تفصيلا بين شؤون سائر الرسل عليهم السلام، مع دلالتها على كمال هول ذلك اليوم ونهاية سوء حال المكذبين بالرسل ـ لما أن شأنه عليه السلام متعلق بكلا الفريقين من أهل الكتاب الذين نعيت عليهم في السورة الكريمة جناياتهم، فتفصيله أعظم عليهم وأجلب لحسرتهم وندامتهم، وأدخل في صرفهم عن غيهم وعنادهم، أفاده أبو السعود.

٨. ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ أي: منّتي عليك ﴿وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ بما طهرها واصطفاها على نساء العالمين ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ﴾ أي: قوّيتك ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي: بجبريل عليه السلام لتثبيت الحجة، أو بجعل روحك طاهرة عن العلائق الظلمانية، بحيث يعلم أنه ليس بواسطة البشر، فيشهد ببراءتك وبراءة أمك، ومن ذلك التأييد قويت نفسك الناطقة، لذلك ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي: في أضعف الأحوال وأقواها، بكلام واحد من غير أن يتفاوت في حين الطفولة وحين الكهولة، الذي هو وقت كمال العقل وبلوغ الأشد.

٩. قال ابن كثير: أي جعلتك نبيّا داعيا إلى الله في صغرك وكبرك، فأنطقتك في المهد صغيرا، فشهدت ببراءة أمك من كل عيب، واعترفت لي بالعبودية، وأخبرت عن رسالتي إياك ودعوتك إلى عبادتي، لهذا قال: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي: تدعو إلى الله الناس في صغرك وكبرك، وضمن ﴿تُكَلِّمَ﴾ تدعو، لأن كلامه الناس في كهولته ليس بأمر عجيب، ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ﴾ أي: الخط وظاهر العلم الذي يكتب ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: الفهم وباطن العلم الذي لا يكتب، بل يخص به أهله ﴿وَالتَّوْرَاةَ﴾ وهي المنزلة على موسى الكليم عليه السلام ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ وهو الذي أنزله عليه، ﷺ ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ أي: تقدر وتصور منه صورة مماثلة لهيئة الطير ﴿بِإِذْنِي﴾ أي: لك في ذلك ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا﴾ أي: في تلك الهيئة المصورة ﴿فَتَكُونَ﴾ أي: فتصير تلك الهيئة ﴿طَيْرًا﴾ لحصول الروح من نفختك فيها ﴿بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾ أي: الذي يولد أعمى مطموس البصر ﴿وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ أي: من القبور أحياء ﴿بِإِذْنِي﴾ فهذا مما فعل به من جرّ المنافع، ثم أشار إلى ما دفع عنه من المضارّ، فقال سبحانه ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ﴾ أي: منعت اليهود الذين أرادوا بك السود وسعوا في قتلك وصلبك، فنجيتك منهم ورفعتك إليّ وطهرتك من دنسهم ﴿إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: المعجزات التي توجب انقيادهم لك لتعاليها عن قوى البشر فلا يتوهم فيها السحر ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي: ما هذا الذي يرينا إلا سحر ظاهر.

١٠. سؤال وإشكال: إن السياق في تعديد نعمه تعالى على عيسى عليه السلام وقول الكفار في حقه، إن هذا إلا سحر مبين، ليس من النعم بحسب الظاهر، فما السر في ذكره؟ والجواب: من الأمثال المشهورة: إن كل ذي نعمة محسود، فطعن اليهود فيه بهذا الكلام يدل علي أن نعم الله في حقه كانت عظيمة، فحسن ذكره عند تعديد النعم، للوجه الذي ذكرناه، أفاده الرازيّ.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. بينا في أول تفسير الآيتين ٩٠ و٩١ من هذه السورة وجه الاتصال والترتيب بين مجموع آياتها

(١) تفسير المنار: ٧/٢٠٢.

وطوائفها من أولها: إلى هذا السياق الأخير منها وهو يتعلق بمحاجة أهل الكتاب عامة، والنصارى منهم خاصة، وفيه ذكر المعاد والحساب والجزاء الذي ينتهي إليه أمر المختلفين في الدين، وأمر المؤمنين المخاطبين بالأحكام التي سبق بيانها، وهذا هو وجه المناسبة والاتصال بين هذه الآيات وما قبلها مباشرة من آيات الأحكام.

٢. يرى بعض المفسرين أن كلمة ﴿يَوْمَ﴾ في أولها من متعلقات الآية أو الجملة التي قبلها كما ترى فيما يلي:

أ. ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ قيل: إن هذا متعلق بالفعل من آخر جملة مما قبله، والتقدير: والله لا يهدي القوم الفاسقين إلى طريق النجاة يوم يجمع الرسل في الآخرة ويسألهم عن تبليغ الرسالة وما أجابتهم به أقوامهم ـ أو لا يهديهم يومئذ طريقا إلا طريق جهنم، وقيل إنه متعلق بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ أو بقوله: ﴿وَاسْمَعُوا﴾ أي واتقوا عقاب الله يوم جمعه الرسل، ـ أو ـ واسمعوا يوم يجمع الله الرسل، أي خبره وما يكون فيه.

ب. وذهب آخرون إلى أن الآية منقطعة عما قبلها ـ والمعنى: يوم يجمع الله الرسل ويسألهم يكون من الأهوال ما لا يفي ببيانه مقال ـ أو المعنى: واذكر أيها الرسول يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم، وهذا التقدير أظهر وله في التنزيل نظائر، والمراد من السؤال توبيخ أممهم، وإقامة الحجة على الكافرين منهم، والمعنى أي إجابة أجبتم؟ أإجابة إيمان وإقرار، أم إجابة كفر واستكبار؟ فهو سؤال عن نوع الإجابة لا عن الجواب ماذا كان، وإلا لقرن بالباء، وقيل الباء محذوفة والتقدير بماذا أجبتم، وهذا السؤال للرسل من قبيل سؤال الموءودة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩] في أن كلا منهما وجه إلى الشاهد دون المتهم لما ذكر آنفا من الحكمة، وهو يكون في بعض مواقف القيامة ويشهدون على الأمم بعد التفويض الآتي أو عقب سؤال غير هذا، ويسأل الله تعالى الأمم في موقف آخر أو في وقت آخر، كما هو شأن قضاة التحقيق في سؤال الخصم والشهود، لتحقق شرائط الحكم الصحيح كما هو المعهود، قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦، ٧]

٣. ولما كان الله تعالى يسأل كلا من الفريقين عما هو أعلم به منه، وكان الرسل عليهم الصلاة

والسلام على علم يقيني بذلك ـ يكون جوابهم في أول العهد بالسؤال التبرؤ من العلم وتفويضه إلى الله تعالى ـ إما لنقصان علمهم بالنسبة إلى علمه تعالى كما نقل عن ابن عباس، وإما لما يفاجئهم من فزع ذلك اليوم أو هوله أو ذهوله كما نقل عن الحسن ومجاهد والسدي، وذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾

٤. ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ جاء الجواب منفصلا كسائر ما يأتي من أقوال المراجعة على طريقة الاستئناف البياني، وعبر بالماضي عن المستقبل لتحقق وقوعه حتى كأنه وقع، قال ابن عباس: يقولون للرب: لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا، يعني أنه ليس بنفي لعلمهم بإطلاق وإنما هو نفي لعلم الإحاطة الذي هو خاص بالخلاق العليم، إذ الرسل كانوا يعلمون ظاهر ما أجيبوا به من مخاطبيهم ولا يعلمون بواطنهم، ولا حال من لم يروه من أممهم، إلا ما يوحيه تعالى إليهم من ذلك وهو قليل من كثير، ولذلك قرنوا نفي العلم عنهم بإثبات المبالغة في علم الغيب له تعالى، فإن صيغة علام معناها كثير العلم أي بكثير المعلومات، وإلا فعلمه واحد محيط بكل شيء إحاطة كاملة، ولا يوصف تعالى بالعلامة، ولعله لما فيه من تاء التأنيث، قال تعالى لنوح عليه السلام لما سأل ربه أن ينجي ولده من الطوفان ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٦]، وقال لخاتم رسله ﷺ ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١]

٥. قال الفخر الرازي ما معناه: (إن الرسل أرادوا إنه لم يكن لهم من حقيقة حال أممهم إلا الظن الذي هو ظاهر حالهم لا العلم القطعي الذي يتوقف على معرفة الظاهر والباطن بدليل ما ورد في الحديث من الحكم بالظاهر قال: (فالأنبياء قالوا: لا علم لنا البتة بأحوالهم إنما الحاصل عندنا من أحوالهم هو الظن، والظن كان معتبرا في الدنيا لأن الأحكام في الدنيا كانت مبنية على الظن، وأما الآخرة فلا التفات فيها إلى الظن لأن الأحكام في الآخرة مبنية على حقائق الأشياء وبواطن الأمور، فلهذا السبب قالوا: (لا علم لنا إلا ما علمتنا) ولم يذكروا البتة ما معهم من الظن لأن الظن لا عبرة به في القيامة)، ونقول: إن هذا رأي ضعيف وإن بني على اصطلاح أهل الكلام والأصول في تفسير الظن والعلم، والصواب ما بيناه قبله، وذلك أن الرسل يعلمون كثيرا من الحقائق علما يقينيا، كاستكبار المجرمين عن إجابة دعوتهم وإصرارهم على كفرهم، ومن علمهم بذلك ما شهد به التنزيل إذ أخبرهم الله أن أولئك المعاندين لا يؤمنون ولو

جاءتهم كل آية، وأنه قد ختم على قلوبهم وحق القول عليهم، ومنهم من يكاشف النبي بحالهم ويمثلون له في النار، كما كان يعلم أن بعض المؤمنين صادقون في إيمانهم وبشرهم بالجنة، وأن بعضهم ضعفاء الإيمان ولكن إيمانهم صحيح مقبول عند الله تعالى والعلم بالظاهر يقبل في شهادتهم على الجاحدين إذ لا عبرة بالإيمان في الباطن مع الجحود في الظاهر بل هو أشد الكفر، وقد أخبرنا الله تعالى أنهم يشهدون على أممهم، فلو كان كل ما يعرفون من أحوال أممهم ظنا لا عبرة به في القيامة، لما كان لشهادتهم فائدة ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]

٦. ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ ذكر الله سؤال الرسل وجوابهم بالإجمال بين بالتفصيل سؤال واحد منهم عن التبليغ وجوابه عن السؤال لإقامة الحجة على من يدعون اتباعه وهم الذين حاجتهم هذه السورة فيما يقولون في رسولهم أوسع الاحتجاج، وأقامت عليهم البرهان في إثر البرهان، وقدم عز وجل على هذا السؤال والجواب ما خاطب به هذا الرسول من بيان نعمته عليه وآياته له التي كانت منشأ افتتان الناس به فقال: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ قال البيضاوي في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ﴾: (بدل من ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ﴾ وهو على طريقة ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤] ـ أي في التعبير عن المستقبل بالماضي ـ والمعنى أنه تعالى يوبخ الكفرة يومئذ بسؤال الرسل عن إجابتهم وتعديد ما ظهر عليهم من الآيات، فكذبتهم طائفة وسموهم سحرة، وغلا آخرون واتخذوهم آلهة، أو نصب بإضمار ﴿اذْكُرْ﴾)

٧. والنعمة تستعمل مصدرا واسما لما حصل بالمصدر، والمفرد المضاف يفيد التعدد، والمعنى: اذكر إنعامي عليك وعلى والدتك وقت تأييدي إياك بروح القدس الخ أو أذكر نعمي حال كونها واقعة عليك وعلى والدتك إذ أيدتك أي قويتك شيئا فشيئا بروح القدس الذي تقوم به حجتك، وتبرأ من تهمة الفاحشة والدتك، حال كونك تكلم الناس في المهد بما يبرئها من قول الآثمين الذين أنكروا عليها أن يكون لها غلام من غير زوج يكون أبا له ـ وكهلا حين بعثت فيهم رسولا تقيم عليهم الحجة، بما ضلوا به عن المحجة، فكلامه في المهد هو قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠] الخ ما ذكره في سورة مريم.

٨. ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ هو ملك الوحي الذي يؤيد الله به الرسل بالتعليم الإلهي والتثبيت في المواطن التي من شأن البشر أن يضعفوا فيها، قال تعالى في شأن القرآن: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقد تقدم في موضعين من سورة البقرة، وقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢]

٩. ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ أي ونعمتي عليك إذ علمتك قراءة الكتاب أي ما يكتب ـ أو الكتابة بالقلم ـ أي وفقتك لتعلمها، والحكمة وهي العلم الصحيح الذي يبعث الإرادة إلى العمل النافع بما فيه من الإقناع والعبرة والبصيرة وفقه الأحكام، والتوراة ـ وهي الشريعة الموسوية، والإنجيل ـ وهو ما أوحاه تعالى إليه من الحكم والأحكام، والبشارة بخاتم الرسل عليهم الصلاة والسلام، وقد سبق لنا تفصيل القول في حقيقة التوراة والإنجيل في تفسير أول سورة آل عمران.

١٠. ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ قرأ نافع هنا وفي آية آل عمران (فتكون طائرا) والطائر واحد الطير ـ كراكب وركب ـ والجمهور ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا﴾ قيل هو جمع وقيل اسم جمع، وأجاز أبو عبيدة وقطرب إطلاق طيرا على الواحد ولعله مبني على أن أصله المصدر كما وجهه ابن سيده، ولفظ الطير مؤنث بمعنى جماعة، والخلق في أصل اللغة التقدير أي جعل الشيء بمقدار معين، يقال خلق الإسكافي النعل ثم فراه، أي عين شكله ومقداره ثم قطعه قال الشاعر:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ... ـضُ القوم يخلق ثم لا يفري

ومنه خلق الكذب والإفك قال تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧] أي تقدرون وتزورون كلاما يأفك سامعه أي يصرفه عن الحق، ويستعمل في إيجاد الله تعالى الأشياء بتقدير معين في علمه، والمعنى: واذكر نعمتي عليك إذ تجعل قطعة من الطين مثل هيئة الطير في شكلها ومقادير أعضائها فتنفخ فيها بعد ذلك فتكون طيرا بإذن الله ومشيئته، أو بتسهيله أو تكوينه، إذ يجعل جلت قدرته نفسك سببا لحلول الحياة في تلك الصورة من الطين، فأنت تفعل التقدير والنفخ، والله هو الذي يكوّن الطير.

١١. وقد تقدم في تفسير نظير هذه الآية من سورة آل عمران كلام عن شيخنا محمد عبده مضمونه أن عيسى عليه السلام أعطي هذه الآية أي مكنه الله منها ولم يفعلها، واستدركنا على ذلك بالإشارة إلى دلالة آية المائدة هذه على وقوعها من غير جزم بذلك، وبينا سر ذلك وحكمته عند الصوفية وهو قوة

روحانية عيسى عليه السلام، ولا يبعد كتمان اليهود لهذه الآية إذا كان رآها بعضهم مرة واحدة وعدها من السحر اعتقادا أو مكابرة وخاف أن تجذب قومه إلى المسيح، ولكن قوله تعالى ـ ﴿بِإِذْنِي﴾ ـ يدل على أن المسيح لم يعط هذه القوة دائما بحيث جعل السبب الروحي فيها كالأسباب الجسمانية المطردة، بل كانت هذه الآية كغيرها لا تقع إلا بإذن من الله وتأييد من لدنه، ونكتة التعبير بالمضارع عن فعل مضى هي تصوير ذلك الماضي وتمثيله حاضرا في الذهن كأنه حاضر في الخارج، لا لإفادة الاستمرار فإنه فعل مضى والكلام تذكير به كما وقع إذ وقع.

١٢. ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ عطف التذكير بإبراء الأكمه والأبرص على ما قبله مباشرة فلم يبدأ بإذ، وبدئ بها التذكير بإخراج الموتى، فكان عطفا على قوله: ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ ولعل نكتة ذلك أن إبراء الأكمه والأبرص من جنس شفاء المرض الذي قد يقع بعض أفراده على أيدي غير الأنبياء المرسلين، ولا سيما من يظن المرضى فيهم الصلاح والولاية، فلما كان كذلك ذكر بالتبع لإحياء الصورة من الطير، ولما كان إحياء الموتى أعظم جعل نعمة مستقلة فقرن بإذ، والمراد بالأكمه والأبرص والموتى الجنس ـ والأكمه من ولد أعمى، ويطلق على من عمى بعد الولادة أيضا، وفي كتب العهد الجديد أنه أبرأ كثيرا من العمى والبرص وأحيى ثلاثة أموات:

أ. الأول: ابن أرملة وحيد في (نابين) كانوا يحملونه على النعش فلمس النعش وأمر الميت أن يقوم منه فقام فقال الشعب (قد قام فينا نبي عظيم وافتقد الله شعبه) أي شعب إسرائيل) (من إنجيل لوقا ٧: ١١ ـ ١٧)

ب. الثاني: ابنة رئيس ماتت ودعاه لإحيائها فجاء بيته وقال للجمع (تنحوا فإن الصبية لم تمت لكنها نائمة فضحكوا عليه فلما أخرج الجمع دخل وأمسك بيدها فقامت الصبية) والقصة في (إنجيل متى ٩: ١٨ ـ ٢٦) ونفيه لموتها ثم إثباته لنومها ينافي أن يكون أراد بالنوم الموت مجازا على ما نقل عنه في غير هذا الموضع، وعليه يقال يحتمل أن يكون أغمي عليها فظنوا أنها ماتت فعلم بالكشف أو الوحي أنها لم تمت، والمسلمون لا يثقون بنقول القوم ولا بدقتهم في الترجمة ومراعاة ما يدل عليه الإثبات بعد النفي.

ج. الثالث: ألعازر الذي كان يحبه جدا ويحب أختيه مريم ومرثا كما يحبونه، ففي الفصل الحادي عشر من إنجيل يوحنا أنه كان مات في بيت عنيا ووضع في مغارة فجاء المسيح وكان له أربعة أيام فرفع

عينيه إلى فوق وقال: (أيها الآب أشكرك لأنك سمعت لي، وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي، ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت، ليؤمنوا إنك أرسلتني، ولما قال هذا: صرخ بصوت عظيم (ألعازر هلم خارجا) فخرج الميت) الخ.

١٣. وملاحدة أوروبة يزعمون أن ألعازر تماوت بإذن المسيح والتواطؤ معه.. وقد كذبوا أخزاهم الله تعالى، ولم ينقل النصارى عنه أنه أحيا أمواتا كانوا تحت التراب بعد البلى كما نقل عن دانيال عليهما السلام.

١٤. وتكرار كلمة (الإذن) بتقييد كل فعل من تلك الأفعال بها يفيد أنه ما وقع شيء منها إلا بمشيئة الله الخاصة وقدرته، والإذن يطلق على الإعلام بإجازة الشيء والرخصة فيه وعلى الأمر به وكذا على المشيئة والتيسير كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] ومحال أن يكون معناه بإجازته أو أمره، ومثله بل أظهر منه قوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ﴾ [آل عمران: ١٦٦] أي بإرادته وتيسيره.

١٥. ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي واذكر نعمتي عليك حين كففت بني إسرائيل عنك فلم أمكنهم من قتلك وصلبك وقد أرادوا ذلك وقت تكذيب كفارهم إياك وزعمهم أن ما جئت به من البينات لم يكن إلا سحرا ظاهرا، لا من جنس الآيات التي جاء بها موسى، على أنها مثلها أو أظهر منها.

١٦. قرأ الجمهور ﴿سِحْرٌ﴾ وقرأ حمزة والكسائي ﴿سَاحِرٌ﴾ بالألف، ورسمها في المصحف الإمام بغير ألف ككلمة ﴿مَلِكِ﴾ في الفاتحة وتقرأ ﴿مَالِكُ﴾ وكلمة (الكتب) في عدة سور تقرأ فيها ﴿الْكِتَابِ﴾ بالإفراد كما تقرأ في بعضها بصيغة الجمع، ولو كتبت هذه الكلمات بالألف لما احتملت إلا قراءة المد وحدها، وظاهر أن قراءة الجمهور ﴿سِحْرٌ﴾ يراد بها أن تلك البينات التي جاء بها من السحر وهو التمويه والتخييل الذي يري الإنسان الشيء على غير حقيقته، أو ما له سبب خفي عن غير فاعله، وأن قراءة ﴿سَاحِرٌ﴾ يراد بها أن من أتى بتلك البينات ساحر، إذ جاء بأمر صناعي أو بتخييل باطل، والمراد من القراءتين كلتيهما أن الذين كفروا بعيسى عليه السلام طعنوا في تلك الآيات بأنها سحر، وفيمن جاء بها بأنه من جنس السحرة، أي فلا يعتد بشيء مما يظهر على يديه من خوارق العادات، فأفاد أنهم لا يؤمنون وإن

جاءهم بآيات أخرى، إذ لم يكن الطعن فيما كان قد جاء به لشبهات تتعلق بها، وإنما كان عن عناد ومكابرة ادعوا بها أن السحر صنعة له يجب أن يوصف به كل شيء غريب يجيء به.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ أي اذكر أيها الرسول يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم؟ أي أي إجابة أجبتم؟ أإجابة إيمان وإقرار؟ أم إجابة إنكار واستكبار؟ فهو سؤال عن نوع الإجابة لا عن الجواب ماذا كان، والمراد من سؤال توبيخ أممهم وإقامة الحجة على الكافرين منهم.

٢. وهذا السؤال للرسل من وادي سؤال الموءودة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ في أن كلا منهما وجه فيه السؤال إلى الشاهد دون المتهم للتوبيخ والإنكار على الفعل، وليوم القيامة مواقف، في بعضها يشهد الرسل على أممهم، وفى بعض آخر يسأل الله الأمم كما يشاهد لدى قضاة التحقيق، فقد يسأل الخصم حينا والشهود حينا آخر، يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ولَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾

٣. ومن قبل أن الله تعالى يسأل كلا من الفريقين عما هو أعلم به، وكان الرسل صلوات الله عليهم على علم يقيني بما سئلوا عنه ـ كان جوابهم الآتي الدال على نفى العلم عن أنفسهم وتفويضه إلى علام الغيوب في أول عهدهم بالسؤال ـ لأحد أمرين:

أ. أولهما ما اختاره ابن عباس من أنهم قالوا ذلك لنقصان علمهم بالنسبة إلى علمه تعالى، فالله يعلم ما أظهروا وما أضمروا وهم لا يعلمون إلا ما أظهروا، فعلمه أنفذ من علمهم.

ب. وثانيهما أن ما يفاجئهم من هول ذلك اليوم، وفزعه يذهلهم عن الجواب، إذ ينسون أكثر الأمور، وهنالك يقولون لا علم لنا، فإذا عادت إليهم قلوبهم يشهدون لأممهم ونقل هذا عن الحسن ومجاهد والسّدّى، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾

٤. خلاصة هذا على رأى ابن عباس أن المراد نفى علم الإحاطة والشمول الخاص بالله تعالى بدليل

---

(١) تفسير المراغي: ٧/٥٥

قولهم أنت علام الغيوب أي كثير العلم بكثرة المعلومات.

٥. وبعد أن ذكر سؤال الرسل وجوابهم إجمالا بين سؤال واحد منهم بالتفصيل وجوابه لإقامة الحجة على من يدعون اتباعه، ولكن قدم قبل هذا ما خاطب به هذا الرسول من بداية نعمته عليه وآياته التي كانت سببا في فتنة الناس به فقال: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي اذكر إنعامي عليك وعلى والدتك حين تأييدى إياك بروح القدس وتكليمك الناس في المهد بما يبرئ أمك من قول الآثمين الذين أنكروا عليها أن يكون لها غلام من غير زوج يكون أبا له، وذلك قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ وكهلا حين بعثت فيهم رسولا تقيم عليهم الحجة بما ضلوا فيه عن الصراط السوي.

٦. وفائدة هذا القصص تنبيه النصارى الذين كانوا عصر التنزيل إلى قبح مقالتهم وسوء معتقدهم، لأن طعن سائر الأمم كان مقصورا على الأنبياء، وطعن هؤلاء تعدى إلى جلال الله وكبريائه، إذ وصفوه بما لا يليق به من اتخاذ الزوجة والولد.

٧. ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ أي واذكر نعمتي عليك بتعليمك وتوفيقك لقراءة الكتب والعلم النافع لك في الدين والدنيا ولا سيما التوراة والإنجيل.

٨. ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ أي واذكر نعمتي عليك إذ تجعل قطعة من الطين مثل هيئة الطير في شكلها ومقادير أعضائها فتنفخ فيها بعد ذلك فتكون طيرا بإذن الله وتكوينه، فأنت تفعل التقدير والنفخ، والله هو الذي يكوّن الطير، وفى قوله ﴿بِإِذْنِي﴾ إشارة إلى أن المسيح لم يعط هذه القوة دائما بحيث جعل السبب الروحي مطردا كالأسباب الجسمانية، بل كانت هذه الآية كغيرها لا تقع إلا بإذن من الله وتأييده.

٩. ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ جاء في كتب العهد الجديد أنه أبرأ كثيرا من العمى والبرص وأحيا ثلاثة أموات:

أ. ابن أرملة وحيد كانوا يحملونه على النعش، فلمس النعش وأمر الميت أن يقوم منه فقام، فقال الشعب: قد قام فينا نبي عظيم وافتقد الله شعبه إنجيل لوقا.

ب. ابنة رئيس ماتت ودعاه لإحيائها فجاء بيته وقال للجمع تنحّوا فإن الصبية لم تمت لكنها نائمة

فضحكوا عليه، فلما أخرج الجمع دخل وأمسك بيدها فقامت الصبية ـ إنجيل متى.

ج. عازر الذي كان يحبه جدا ويحب أختيه مريم ومرثا كما يحبونه؛ ففي إنجيل يوحنا أنه كان مات في بيت عنيا ووضع في مغارة فجاء المسيح وكان له أربعة أيام فرفع عينيه إلى فوق وقال: (أيها الأب أشكرك لأنك سمعت لي وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك أرسلتنى) وما قال هذا: صرخ بصوت عظيم لعازر هلمّ خارجا، فخرج الميت إلخ، وتعيين كل فعل بالإذن للدلالة على أنه ما وقع شيء منها إلا بمشيئة الله وقدرته وتيسيره.

١٠. ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي واذكر نعمتي عليك حين كففت عنك بنى إسرائيل فلم يتمكنوا من قتلك وصلبك، وقد كانوا أرادوا ذلك، وقال الكافرون منهم ما هذا إلا ساحر، وما جاء به من البينات لم يكن إلا سحرا ظاهرا، وليس من جنس ما جاء به موسى، على أنه مثله أو أظهر منه.

١١. والخلاصة ـ أنهم لا يعتدّون بما جاء على يديه من الآيات وخوارق العادات، ولا يؤمنون به وإن جاء بآيات أخرى، إذ لم يكن طعنهم لشبهات تتصل بها بل كان عنادا ومكابرة، ومن ثم ادّعوا أن السحر صنعته، والتمويه وقلب الحقائق دأبه وعادته.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. هذا الدرس بطوله بقية في تصحيح العقيدة؛ وتقويم ما دخل عليها عند النصارى من انحرافات أخرجتها عن أصلها السماوي عند قاعدتها الأساسية، إذ أخرجتها من التوحيد المطلق الذي جاء به عيسى عليه السلام كما جاء به كل رسول قبله، إلى ألوان من الشرك، لا علاقة لها أصلا بدين الله.

٢. ومن ثم فإن هذا الدرس كذلك يستهدف تقرير حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ـ كما هي في التصور الإسلامي ـ تقرير هذه الحقيقة من خلال هذا المشهد العظيم الذي يعرضه؛ والذي يقرر فيه عيسى عليه السلام على ملأ من الرسل، ومن البشر جميعا، أنه لم يقل لقومه شيئا مما زعموه من ألوهيته ومن تأليه

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/٩٩٦.

أمه؛ وأنه ما كان له أن يقول من هذا الشرك كله شيئا! والسياق القرآني يعرض هذه الحقيقة في مشهد تصويري من (مشاهد القيامة) التي يعرضها القرآن الكريم عرضا حيا ناطقا، موحيا مؤثرا، عميق التأثير، يهتز له الكيان البشري وهو يتلقاه كأنما يشهده اللحظة في الواقع المنظور، الواقع الذي تراه العين، وتسمعه الأذن، وتتجلى فيه الانفعالات والسمات النابضة بالحياة فها نحن أولاء أمام المشهد العظيم.

٣. ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ يوم يجمع الله الرسل الذين فرقهم في الزمان فتتابعوا على مداره؛ وفرقهم في المكان فذهب كل إلى قريته؛ وفرقهم في الأجناس فمضى كل إلى قومه.. يدعون كلهم بدعوة واحدة على اختلاف الزمان والمكان والأقوام؛ حتى جاء خاتمهم ﷺ بالدعوة الواحدة لكل زمان ومكان وللناس كافة من جميع الأجناس والألوان.. هؤلاء الرسل إلى شتى الأقوام، في شتى الأمكنة والأزمان.. ها هو ذا مرسلهم فرادى، يجمعهم جميعا؛ ويجمع فيهم شتى الاستجابات، وشتى الاتجاهات، وها هم أولاء.. نقباء البشرية في حياتها الدنيا؛ ومعهم رسالات الله إلى البشرية في شتى أرجائها، ووراءهم استجابات البشرية في شتى أعصارها، هؤلاء هم أمام الله.. رب البشرية سبحانه في مشهد يوم عظيم.

٤. وها هو ذا المشهد ينبض بالحياة: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾.. ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ﴾، فاليوم تجمع الحصيلة، ويضم الشتات، ويقدم الرسل حساب الرسالات، وتعلن النتائج على رؤوس الأشهاد، ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ﴾، والرسل بشر من البشر؛ لهم علم ما حضر، وليس لديهم علم ما استتر، لقد دعوا أقوامهم إلى الهدى؛ فاستجاب منهم من استجاب، وتولى منهم من تولى.. وما يعلم الرسول حقيقة من استجاب إن كان يعرف حقيقة من تولى، فإنما له ظاهر الأمر وعلم ما بطن لله وحده.. وهم في حضرة الله الذي يعرفونه خير من يعرف؛ والذي يهابونه أشد من يهاب؛ والذي يستحيون أن يدلوا بحضرته بشيء من العلم وهم يعلمون أنه العليم الخبير.

٥. إنه الاستجواب المرهوب في يوم الحشر العظيم، على مشهد من الملأ الأعلى، وعلى مشهد من الناس أجمعين، الاستجواب الذي يراد به المواجهة.. مواجهة البشرية برسلها؛ ومواجهة المكذبين من هذه البشرية خاصة برسلهم الذين كانوا يكذبونهم، ليعلن في موقف الإعلان، أن هؤلاء الرسل الكرام إنما جاءوهم من عند الله بدين الله؛ وها هم أولاء مسئولون بين يديه سبحانه عن رسالاتهم وعن أقوامهم

الذين كانوا من قبل يكذبون.

٦. أما الرسل فهم يعلنون أن العلم الحق لله وحده؛ وأن ما لديهم من علم لا ينبغي أن يدلوا به في حضرة صاحب العلم، تأدبا وحياء، ومعرفة بقدرهم في حضرة الله: ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾

٧. فأما سائر الرسل ـ غير عيسى عليه السّلام ـ فقد صدق بهم من صدق، وقد كفر بهم من كفر؛ ولقد انتهى أمرهم بهذا الجواب الكامل الشامل، الذي يدع العلم كله لله، ويدع الأمر كله بين يديه، سبحانه.. فما يزيد السياق شيئا في هذا المشهد عنهم.. إنما يلتفت بالخطاب إلى عيسى بن مريم وحده، لأن عيسى بن مريم هو الذي فتن قومه فيه، وهو الذي غام الجو حوله بالشبهات، وهو الذي خاض ناس في الأوهام والأساطير حول ذاته، وحول صفاته، وحول نشأته ومنتهاه.

٨. يلتفت الخطاب إلى عيسى بن مريم ـ على الملأ ممن ألهوه وعبدوه وصاغوا حوله وحول أمه ـ مريم ـ التهاويل.. يلتفت إليه يذكره نعمة الله عليه وعلى والدته؛ ويستعرض المعجزات التي آتاها الله إياه ليصدق الناس برسالته، فكذبه من كذبه منهم أشد التكذيب وأقبحه؛ وفتن به وبالآيات التي جاءت معه من فتن؛ وألهوه مع الله من أجل هذه الآيات، وهي كلها من صنع الله الذي خلقه وأرسله وأيده بالمعجزات.

٩. إنها المواجهة بما كان من نعم الله على عيسى بن مريم وأمه.. من تأييده بروح القدس في مهده، وهو يكلم الناس في غير موعد الكلام؛ يبرئ أمه من الشبهة التي أثارتها ولادته على غير مثال؛ ثم وهو يكلمهم في الكهولة يدعوهم إلى الله.. وروح القدس جبريل عليه السلام يؤيده هنا وهناك.. ومن تعليمه الكتاب والحكمة؛ وقد جاء إلى هذه الأرض لا يعلم شيئا، فعلمه الكتابة وعلمه كيف يحسن تصريف الأمور، كما علّمه التوراة التي جاء فوجدها في بني إسرائيل، والإنجيل الذي آتاه إياه مصدقا لما بين يديه من التوراة، ثم من إيتائه خارق المعجزات التي لا يقدر عليها بشر إلا بإذن الله، فإذا هو يصور من الطين كهيئة الطير بإذن الله؛ فينفخ فيها فتكون طيرا بإذن الله ـ لا ندري كيف لأننا لا ندري إلى اليوم كيف خلق الله الحياة، وكيف يبث الحياة في الأحياء ـ وإذا هو يبرئ المولود أعمى ـ بإذن الله ـ حيث لا يعرف الطب كيف يرد إليه البصر ـ ولكن الله الذي يهب البصر أصلا قادر على أن يفتح عينيه للنور ـ ويبرئ الأبرص

بإذن الله، لا بدواء ـ والدواء وسيلة لتحقيق إذن الله في الشفاء، وصاحب الإذن قادر على تغيير الوسيلة، وعلى تحقيق الغاية بلا وسيلة ـ وإذا هو يحيي الموتى بإذن الله ـ وواهب الحياة أول مرة قادر على رجعها حين يشاء ـ ثم يذكره بنعمة الله عليه في حمايته من بني إسرائيل إذ جاءهم بهذه البينات كلها فكذبوه وزعموا أن معجزاته هذه الخارقة سحر مبين! ذلك أنهم لم يستطيعوا إنكار وقوعها ـ وقد شهدتها الألوف ـ ولم يريدوا التسليم بدلالتها عنادا وكبرا.. حمايته منهم فلم يقتلوه ـ كما أرادوا ولم يصلبوه، بل توفاه الله ورفعه إليه.. كذلك يذكره بنعمة الله عليه في إلهام الحواريين أن يؤمنوا بالله وبرسوله؛ فإذا هم ملبون مستسلمون، يشهدونه على إيمانهم وإسلامهم أنفسهم كاملة لله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾،

١٠. إنها النعم التي آتاها الله عيسى بن مريم، لتكون له شهادة وبينة، فإذا كثرة من أتباعه تتخذ منها مادة للزيغ؛ وتصوغ منها وحولها الأضاليل ـ فها هو ذا عيسى يواجه بها على مشهد من الملأ الأعلى، ومن الناس جميعا، ومنهم قومه الغالون فيه.. ها هو ذا يواجه بها ليسمع قومه ويروا؛ وليكون الخزي أوجع وأفضح على مشهد من العالمين!

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. الظرف في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾ متعلق بقوله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي أن الله لا يهدى الفاسقين، إلى رضوانه، ونعيم جناته، يوم القيامة، يوم يجمع الله الرسل.. وسؤال الرسل يوم القيامة، يكون في مواجهة من أرسلوا إليهم، ومن دانوا بشريعتهم، حيث يقول الله تعالى: (فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ) [الأعراف: ٥]

٢. وفي هذا الجمع بين الرسل وبين من أرسلوا إليهم، وفي هذه المساءلة في مواجهتهم، تحذير من هذا الموقف، الذي يجزى فيه من وقف من رسل الله موقف المحادّة والعناد، حيث لا يجد الضالّون والمعاندون ما يقولونه، وحيث لا يكون قول الرسل فيهم إلا وبالا عليهم، وخزيا وفضحا لهم..

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/٧٢.

٣. ﴿مَاذَا أَجَبْتُمْ﴾ أي ماذا أجبتم به ممن دعوتموهم إلى الإيمان وهل استجابوا أم أبوا؟ ومن استجاب منهم ومن أبى؟

٤. في قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ وفي التعبير بلفظ الماضي عن إجابتهم، ما يشير إلى أن ذلك هو قول الرسل دائما، إذا سئلوا من قبل الله عن شيء إن علمهم بهذا الشيء لا يعتبر علما إلى علم الله، الذي يعلم الشيء ظاهرا وباطنا، وحقيقة وكونا.

٥. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.. الغيوب جمع غيب، وهو بالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى شيء واحد، واقع تحت علمه، أما بالنسبة للرسل وغيرهم، فهو غيب وغيوب.

٦. يوم يجمع الله الرسل، يوم القيامة، ويسألهم الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمْ﴾ - في هذا اليوم يستدعى سبحانه وتعالى عيسى عليه السلام بين يديه، ويذكره بأفضاله ونعمه، وما أجرى على يديه من معجزات.. وفي إلفات عيسى، عليه السلام، إلى هذه النعم، وفي تذكيره بالمعجزات التي طلع بها على بنى إسرائيل - في هذا تسفيه لبنى إسرائيل، السابقين منهم واللاحقين، إذ كفروا بتلك المعجزات الناطقة، التي لا ينكرها إلا مكابر ومعاند، ولا يمارى فيها إلا غويّ ضال، أحمق جهول، فقد كان كلام عيسى عليه السلام في المهد، وخلقه من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيرا، وإبراؤه الأكمه والأبرص، وإحياؤه الموتى، وبعثهم من القبور - كان هذا، بل بعض هذا جديرا به أن يبعث الطمأنينة والإيمان، في قلب أي إنسان له مسكة من عقل، أو أثارة من إدراك، حيث يرى وليدا يخرج من رحم أمه ليومه، ينطق بلسان مبين، ومنطق مستقيم، وهو مع هذا لا يملك من أمر نفسه شيئا، إذ هو ما زال في صورة الوليد ليومه.. في كل شيء إلا هذا اللسان الذي نطق به..! فمن أنطقه؟ ومن أعطاه تلك الكلمات البيّنات؟ ومن منح لسانه هذه القدرة على النطق بها فصيحة مبينة؟ أليس ذلك برهانا مبينا على أن ما نطق به هذا الوليد، هو إشارة إلى أنه آية من آيات الله، ومعجزة من معجزاته، تشهد بأنه رسول من الله رب العالمين؟

٧. وإذا لم يكن في هذا النطق آية متحدّية، يشهدها بنو إسرائيل، أفلم يكن إحياؤه الموتى، وإبراؤه الأكمه والأبرص، وخلقه من الطين طيرا.. أفلم يكن في هذه الآيات المتظاهرة ما يقيم لبنى إسرائيل طريقا إلى الإيمان بهذا الإنسان الذي أجرى الله على يديه تلك المعجزات، وإلى أنه رسول الله، يحمل إليهم كلمات الله وآياته؟ وبأي شيء يؤمن الناس إذا لم يؤمنوا بتلك الشموس الطالعة، لا يحجبها سحاب أو ضباب؟

وبأي داع يدعوهم الله سبحانه إليه، إن لم يكن في هذا الداعي مقنعا لهم، وهاديا يهديهم إلى الله؟ إنه ليس بعد هذا إلا أن يروا الله جهرة..! وقد فعلها بنو إسرائيل من قبل، فقالوا لموسى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، ألا ما أشدّ غباء القوم، وما أقسى قلوبهم، وما أنكد حظهم من البصيرة والأبصار! ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١].. هذا، وقد توسعنا في معنى هذه المعجزات في الآيات الواردة في سورة آل عمران [آل عمران: ٤٨ ـ ٥٠].. فليرجع إليها من شاء.

٨. في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ إشارة إلى ما أبطل الله سبحانه وتعالى به مكر بنى إسرائيل، حين مكروا بعيسى، وأرادوا صلبه، مدّعين عليه كذبا وبهتانا أنه ساحر مشعوذ، يدّعى على الله كذبا أنه ﴿الْمَسِيحُ﴾، فنجّاه الله منهم، وأوقعهم في سوء أعمالهم، وكتب عليهم عقوبة دم نبيّ أيقنوا أنهم قتلوه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ٥٦]

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. جملة ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾ استئناف ابتدائي متّصل بقوله: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٥]، وما بينهما جمل معترضة نشأ بعضها عن بعض، فعاد الكلام الآن إلى أحوال الذين اتّبعوا عيسى عليه السلام، فبدّل كثير منهم تبديلا بلغ بهم إلى الكفر ومضاهاة المشركين، للتذكير بهول عظيم من أهوال يوم القيامة تكون فيه شهادة الرسل على الأمم وبراءتهم ممّا أحدثه أممهم بعدهم في الدين ممّا لم يأذن به الله، والتخلّص من ذلك إلى شهادة عيسى على النصارى بأنّه لم يأمرهم بتأليهه وعبادته، وهذا متّصل في الغرض بما تقدّم من قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ [المائدة: ٨٢]، فإنّ في تلك الآيات ترغيبا وترهيبا، وإبعادا وتقريبا، وقع الانتقال منها إلى أحكام تشريعية ناسبت ما ابتدعه اليهود والنصارى، وذلك من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧] وتفنّن الانتقال إلى هذا المبلغ، فهذا عود إلى بيان تمام نهوض

(١) التحرير والتنوير: ٥/٢٥٨.

الحجّة على النصارى في مشهد يوم القيامة، ولقد جاء هذا مناسبا للتذكير العامّ بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٨]، ولمناسبة هذا المقام التزم وصف عيسى بابن مريم كلّما تكرّر ذكره في هذه الآيات أربع مرات تعريضا بإبطال دعوى أنّه ابن لله تعالى.

٢. ولأنّه لمّا تمّ الكلام على الاستشهاد على وصايا المخلوقين ناسب الانتقال إلى شهادة الرسل على وصايا الخالق تعالى، فإنّ الأديان وصايا الله إلى خلقه، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ [الشورى: ١٣]، وقد سمّاهم الله تعالى شهداء في قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]

٣. فقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ﴾ ظرف، والأظهر أنه معمول لعامل محذوف يقدّر بنحو: اذكر يوم يجمع الله الرسل، أو يقدّر له عامل يكون بمنزلة الجواب للظرف، لأنّ الظرف إذا تقدّم يعامل معاملة الشرط في إعطائه جوابا، وقد حذف هذا العامل لتذهب نفس السامع كلّ مذهب ممكن من التهويل، تقديره يوم يجمع الله الرسل يكون هول عظيم لا يبلغه طول التعبير فينبغي طيّه، ويجوز أن يكون متعلّقا بفعل ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾، أي أنّ ذلك الفعل هو المقصود من الجملة المستأنفة، وأصل نظم الكلام: يجمع الله الرسل يوم القيامة فيقول إلخ، فغيّر نظم الكلام إلى الأسلوب الذي وقع في الآية للاهتمام بالخبر، فيفتتح بهذا الظرف المهول وليورد الاستشهاد في صورة المقاولة بين الله والرسل.

٤. والمقصود من الكلام هو ما يأتي بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦] وما بينهما اعتراض، ومن البعيد أن يكون الظرف متعلّقا بقوله: ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٨] لأنّه لا جدوى في نفي الهداية في يوم القيامة، ولأنّ جزالة الكلام تناسب استئنافه، ولأنّ تعلّقه به غير واسع المعنى، ومثله قول الزجّاج: إنّه متعلّق بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ [المائدة: ١٠٨] على أنّ ﴿يَوْمَ﴾ مفعول لأجله، وقيل: بدل اشتمال من اسم الجلالة في قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ [المائدة: ١٠٨] لأنّ جمع الرسل ممّا يشمل عليه شأن الله، فالاستفهام في قوله: ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ مستعمل في الاستشهاد، ينتقل منه إلى لازمه، وهو توبيخ الذين كذّبوا الرسل في حياتهم أو بدّلوا وارتدّوا بعد مماتهم.

٥. وظاهر حقيقة الإجابة أنّ المعنى: ماذا أجابكم الأقوام الذين أرسلتم إليهم، أي ماذا تلقّوا به دعواتكم، حملا على ما هو بمعناه في نحو قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ [النمل: ٥٦]، ويحمل قول

الرسل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ على معنى لا علم لنا بما يضمرون حين أجابوا فأنت أعلم به منّا، أو هو تأدّب مع الله تعالى لأنّ ما عدا ذلك ممّا أجابت به الأمم يعلمه رسلهم؛ فلا بدّ من تأويل نفي الرسل العلم عن أنفسهم وتفويضهم إلى علم الله تعالى بهذا المعنى، فأجمع الرسل في الجواب على تفويض العلم إلى الله، أي أنّ علمك سبحانك أعلى من كلّ علم وشهادتك أعدل من كلّ شهادة، فكان جواب الرسل متضمّنا أمورا:

أ. أحدها: الشهادة على الكافرين من أممهم بأنّ ما عاملهم الله به هو الحقّ.

ب. الثاني: تسفيه أولئك الكافرين في إنكارهم الذي لا يجديهم.

ج. الثالث: تذكير أممهم بما عاملوا به رسلهم لأنّ في قولهم: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، تعميما للتذكير بكلّ ما صدر من أممهم من تكذيب وأذى وعناد، ويقال لمن يسأل عن شيء لا أزيدك علما بذلك، أو أنت تعرف ما جرى، وإيراد الضمير المنفصل بعد الضمير المتّصل لزيادة تقرير الخبر وتأكيده.

٦. وعن ابن الأنباري تأويل قول الرسل ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ بأنّهم نفوا أن يكونوا يعلمون ما كان من آخر أمر الأمم بعد موت رسلهم من دوام على إقامة الشرائع أو التفريط فيها وتبديلها فيكون قول الرسل ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ محمولا على حقيقته ويكون محمل ﴿مَاذَا﴾ على قوله: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمْ﴾ هو ما أجيبوا به من تصديق وتكذيب ومن دوام المصدّقين على تصديقهم أو نقض ذلك، ويعضّد هذا التأويل ما جاء بعد هذا الكلام من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ وقول عيسى عليه السلام ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ الآية ـ فإنّ المحاورة مع عيسى بعض من المحاورة مع بقية الرسل، وهو تأويل حسن.

٧. وعبّر في جواب الرسل بـ ﴿قَالُوا﴾ المفيد للمضي مع أنّ الجواب لم يقع، للدلالة على تحقيق أنّه سيقع حتى صار المستقبل من قوة التحقّق بمنزلة الماضي في التحقّق، على أنّ القول الذي تحكى به المحاورات لا يلتزم فيه مراعاة صيغته لزمان وقوعه لأنّ زمان الوقوع يكون قد تعيّن بقرينة سياق المحاورة.

٨. وفصل ﴿قَالُوا﴾ جريا على طريقة حكاية المحاورات، كما تقدّم في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ في سورة البقرة [٣٠]

٩. وقوله: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ ظرف، هو بدل من ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾ بدل اشتمال، فإنّ يوم الجمع مشتمل على زمن هذا الخطاب لعيسى، ولذلك لم تعطف هذه الجملة على التي

قبلها، والمقصود من ذكر ما يقال لعيسى يومئذ هو تقريع اليهود، والنصارى الذين ضلّوا في شأن عيسى بين طرفي إفراط بغض وإفراط حبّ.

١٠. فقوله: ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥] استئناس لعيسى لئلّا يفزعه السؤال الوارد بعده بقوله: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾.. وهذا تقريع لليهود، وما بعدها تقريع للنصارى، والمراد من ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي﴾ الذّكر ـ بضمّ الذال ـ وهو استحضار الأمر في الذهن، والأمر في قوله: ﴿اذْكُرْ﴾ للامتنان، إذ ليس عيسى بناس لنعم الله عليه وعلى والدته، ومن لازمه خزي اليهود الذين زعموا أنّه ساحر مفسد إذ ليس السحر والفساد بنعمة يعدّها الله على عبده، ووجه ذكر والدته هنا الزيادة من تبكيت اليهود وكمدهم لأنّهم تنقّصوها بأقذع ممّا تنقّصوه.

١١. والظرف في قوله: ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ متعلّق بـ ﴿نِعْمَتِي﴾ لما فيها من معنى المصدر، أي النعمة الحاصلة في ذلك الوقت، وهو وقت التأييد بروح القدس، وروح القدس هنا جبريل على الأظهر، والتأييد وروح القدس تقدّما في سورة البقرة [٨٧] عند قوله: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾

١٢. وجملة ﴿تُكَلِّمُ﴾ حال من الضمير المنصوب بـ ﴿أَيَّدْتُكَ﴾ وذلك أنّ الله ألقى الكلام من الملك على لسان عيسى وهو في المهد، وفي ذلك تأييد له لإثبات نزاهة تكوّنه، وفي ذلك نعمة عليه، وعلى والدته إذ ثبتت براءتها ممّا اتّهمت به.

١٣. والجارّ والمجرور في قوله: ﴿فِي الْمَهْدِ﴾ حال من ضمير ﴿تُكَلِّمُ﴾، و﴿كَهْلًا﴾ معطوف على ﴿فِي الْمَهْدِ﴾ لأنّه حال أيضا، كقوله تعالى: ﴿دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ [يونس: ١٢]، والمهد والكهل تقدّما في تفسير سورة آل عمران، وتكليمه كهلا أريد به الدعوة إلى الدين فهو من التأييد بروح القدس، لأنّه الذي يلقي إلى عيسى ما يأمره الله بتبليغه.

١٤. ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ تقدّم القول في نظيره في سورة آل عمران، وكذلك قوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ تقدّم القول في نظيره هنالك، إلّا أنّه قال هنا: ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا﴾ وقال في سورة آل عمران [٤٩] ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ﴾ فعن مكّي بن أبي طالب أنّ الضمير في سورة آل عمران عاد إلى الطير، والضمير في هذه السورة عاد إلى الهيئة، واختار ابن

عطية أن يكون الضمير هنا عائدا إلى ما تقتضيه الآية ضرورة، أي بدلالة الاقتضاء، وذلك أنّ قوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ يقتضي صورا أو أجساما أو أشكالا، وكذلك الضمير المذكّر في سورة آل عمران [٤٩] يعود على المخلوق الذي يقتضيه ﴿أَخْلُقُ﴾ وجعله في (الكشاف) عائدا إلى الكاف باعتبار كونها صفة للفظ هيئة المحذوف الدّال عليه لفظ هيئة المدخول للكاف وكلّ ذلك ناظر إلى أنّ الهيئة لا تصلح لأن تكون متعلّق ﴿فَتَنْفُخُ﴾، إذ الهيئة معنى لا ينفخ فيها ولا تكون طائرا، وقال هنا ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ ولم يقل: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى﴾، كما قال في سورة آل عمران [٤٩]، أي تخرجهم من قبورهم أحياء، فأطلق الإخراج وأريد به لازمه وهو الإحياء، لأنّ الميّت وضع في القبر لأجل كونه ميّتا فكان إخراجه من القبر ملزوما الانعكاس السبب الذي لأجله وضع في القبر، وقد سمّى الله الإحياء خروجا في قوله: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١]، وقال: ﴿إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥]

١٥. وقوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ﴾ عطف على ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ﴾ وما عطف عليه، وهذا من أعظم النعم، وهي نعمة العصمة من الإهانة؛ فقد كفّ الله عنه بني إسرائيل سنين، وهو يدعو إلى الدين بين ظهرانيهم مع حقدهم وقلّة أنصاره، فصرفهم الله عن ضرّه حتى أدّى الرسالة، ثمّ لمّا استفاقوا وأجمعوا أمرهم على قتله عصمه الله منهم فرفعه إليه ولم يظفروا به، وماتت نفوسهم بغيظها، وقد دلّ على جميع هذه المدّة الظرف في قوله: ﴿إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فإنّ تلك المدّة كلّها مدّة ظهور معجزاته بينهم، وقوله: ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ تخلّص من تنهية تقريع مكذّبيه إلى كرامة المصدّقين به.

١٦. واقتصر من دعاوي تكذيبهم إيّاه على قولهم ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، لأنّ ذلك الادّعاء قصدوا به التوسّل إلى قتله، لأنّ حكم الساحر في شريعة اليهود القتل إذ السحر عندهم كفر، إذ كان من صناعة عبدة الأصنام، فقد قرنت التوراة السحر وعرافة الجانّ بالشرك، كما جاء في سفر اللاويّين في الإصحاح العشرين.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. الكلام من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة]، كان في أهل الكتاب، ومعاندة اليهود، وتحريف النصارى عقيدة المسيح عليه السلام، ثم بين سبحانه علاقة المسلمين بالمشركين واليهود، ومن جاورهم من النصارى، وبين أن الأخيرين كانت علاقتهم بالمسلمين مودة، وذكر الرهبان عندهم، وبين بهذه المناسبة إباحة القرآن للطيبات، وأشار إلى تحريمه للخبائث في ذاتها بتحريم الخمر، ثم أشار إلى ما حرم من مكان معلوم ووقت معلوم ثم ذكر مكانة الكعبة، وما حرمه المشركون على أنفسهم من غير حجة ولا سلطان مبين، ثم تكلم عن شهادة أوصياء الميت إذا مات غريبا وكان المناسب بعد ذلك أن يتكلم عن حال الناس بعد أن يجمعوا يوم القيامة، ومقالة الرسل لمن بعثوا إليهم، وأخصهم عيسى عليه السلام الذى ادعيت ألوهيته.

٢. ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾:

أ. قال كثيرون من المفسرين، وعلى رأسهم إمام البلاغة الزمخشري إن هذه الآية غير مقطوعة عن سابقتها من ناحية السياق اللغوي لأن ﴿يَوْمَ﴾ متعلق بقوله سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا﴾: أي اتقوا الله تعالى واسمعوا الحق وأنصتوا إليه يوم القيامة يوم يجمع الله الرسل، ويسألهم عن إجابة أقوامهم لدعواتهم الحق، ويصح أن تكون متعلقة بقوله تعالى: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، والمعنى، والله سبحانه وتعالى لا يهدى القوم الفاسقين إلى ما فيه نعيم يوم القيامة، يوم يجمع الله الرسل ويسألهم؛ لأن اليوم ليس بيوم تكليف ولكنه يوم جزاء، ويكون الفسق شاملا للكفر؛ لأن الكافر فاسق عن أمر ربه.

ب. وبعض المفسرين، قطع الآية عما قبلها واعتبرها إنذارا مبتدأ، وقالوا إن قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾، متعلق بمحذوف مقدر هو ـ اذكر ـ لأهل الكتاب يوم يجمع الله الرسل.

٣. في هذا اليوم المشهود يقول الله تعالى مخاطبا رسله الأكرمين بالتجلى عليهم: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمْ﴾، والمعنى أي إجابة أجبتموها؟ وذكر بالبناء للمفعول، ولم يذكر أقوامهم، فلم يقل ولله المثل الأعلى أي إجابة أجاب أقوامكم، تحقيرا لأولئك الأقوام، إذ جهلوا مع أسباب العلم، وكفروا مع قيام ذرائع الإيمان ولأن

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/٢٣٩١.

الصلة بينهم وبين رسلهم قد قطعت يوم القيامة، فلا ينالون شرف الاتصال بهم، إذ الاتصال كان للهداية وقد حرموها.

٤. وكانت إجابة الرسل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ أي إنك أنت وحدك العالم علما ليس فوقه علم؛ لأن التعبير بصيغة المبالغة: ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ أي لكل ما يغيب عن الناس أجمعين، وما يغيب عنهم.

٥. سؤال وإشكال: لكن لماذا نفوا عن أنفسهم العلم، مع أن عندهم بعض العلم؟ والجواب:

أ. أجيب عن ذلك بأنهم علموا أن المقصود استنكار حال من بعثوا إليهم وتوبيخهم، فساروا على مقتضى السياق، وقالوا: لا علم لنا في هذا بل أنت الأعلم.

ب. وقيل في الجواب عن هذا: إنهم كانوا في حال ذهول، فنفوا عن أنفسهم العلم في حال ذهولهم.

ج. وقيل في الجواب أيضا: إنهم استحقروا علمهم بجوار علم الله تعالى.

د. وقيل: إن علمهم كان بمن عاصروهم لا بمن جاء بعدهم.

٦. وقد جاء في الكشاف في توضيح الجواب الأول ما لا يغنى عنه التلخيص، فقال ـ أي الزمخشري ـ: (فإن قلت: كيف يقولون لا علم لنا، وقد علموا بما أجيبوا؟ قلت: يعلمون أن الغرض من السؤال توبيخ أعدائهم، فيكلون الأمر إلى علمه وإحاطته بما منوا به منهم وكابدوا من سوء إجابتهم إظهارا للتشكى، واللجأ إلى ربهم في الانتقام منهم وذلك أعظم على الكفرة، وأفتّ في أعضادهم، وأجلب لحسرتهم وسقوطهم في أيديهم، إذا اجتمع توبيخ الله تعالى وتشكى أنبيائه عليهم، ومثاله أن ينكب بعض الخوارج على السلطان وخاصة من خواصه نكبة قد عرفها السلطان، واطلع على كنهها، وعزم على الانتصار له منه، فيجمع بينها، ويقول: ما فعل بك هذا الخارجي وهو عالم بما فعل به يريد توبيخه وتبكيته، فيقول له: أنت أعلم بما فعل بي تفويضا للأمر إلى علم سلطانه، واتكالا عليه، وإظهارا للشكاية، وتعظيما لما حل منه، وقيل: من هول ذلك اليوم يفزعون ويذهلون عن الجواب، ثم يجيبون بعد ما تثوب إليهم عقولهم بالشهادة على أنفسهم، وقيل معناه: ساقط مع علمك ومغمور؛ لأنك علام الغيوب، ومن علم الخفيات لم تخف عليه الظواهر التي فيها إجابة الأمم لرسلهم، وقيل: لا علم لنا ما كان منهم بعدنا، وإنما الحكم للخاتمة، وكيف يخفى عليهم أمرهم، وقد رأوهم سود الوجوه موبخين)

٧. ولقد كان الذين أرسل إليهم منهم من حرّف الدعوة، وجحد بعضها، ومنهم من آمن، ولكن الذين حرفوا من المسيحيين لم يحرفوا الدعوة فقط، بل تكلموا في شخص المسيح عليه السلام، وأخرجوه من البشرية في زعمهم وافتروا له الألوهية، ولذلك خصه الله تعالى بذكر ما يكون له يوم القيامة، وما أجرى من معجزات على يديه: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ (إذ) هنا بدل من يوم يجمع الله الرسل، أي اتقوا الله واسمعوا يوم الجمع، ووقت أن يخاطب عيسى عليه السلام بهذا الخطاب، وعيسى عليه السلام بعث في قوم لا يؤمنون إلا بالمادة، وبالأسباب الظاهرة، ويسندون كل أمر في هذا الوجود إلى سبب يعلمونه، لا يؤمنون بالروحانيات، ويكفرون بما لا يعلمون بالأسباب، فجاء عيسى عليه السلام روحانيا ظاهر الروحانية، وجاء من غير أب ليكون شخصه خرقا للأسباب، ولتكون مظاهر حياته دافعة للمادة، يخاطب الله عيسى عليه السلام بقوله تعالى: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾، وفى هذا النداء إشارة إلى أنه ابن مريم لا ابن أحد سواها فقد ولد من غير أب، والإله أو ابن الإله لا يمكن أن يكون متولدا، ولا يمكن أن يكون محدثا ومخلوقا، فهذا النداء في ذاته مع بيان حقيقة سيدنا المسيح عليه السلام رد عليهم وعلى افترائهم في وقت لا يستطيعون فيه تمويه الباطل وتزيينه بقول الزور والبهتان الآثم.

٨. وقد ذكر سبحانه وتعالى عيسى عليه السلام في ذلك اليوم المحشود، وما كان التذكير إلا للمبطلين الذين افتروا عليه، وهو سرد لنعم الله تعالى على عيسى وأمه، وأنه مخلوق من فضل الله، وما أعطى من خواص فبفضل من الله تعالى، وهو مانحها ومعطيها، وما دام هو المانح، وهو المعطى، فلا فضل لعيسى على أحد إلا بفضل من أعطى، ولا يمكن أن يكون له ولدا أو قرينا.

٩. وابتدأ سبحانه بتذكير نعمته عليه وعلى أمه، ونعمته على والدته مشهورة في القرآن قد ذكرها سبحانه وتعالى في سورة آل عمران فقال: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ

هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٣ ـ ٣٧] إلى أن قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران]، كانت السيدة مريم ـ على هذا النسق المتلو ـ مصطفاة من قوم مصطفين أخيار أطهار وكفلها نبي وخاطبتها الملائكة حتى قال الأكثرون إن فيها نبوة ولا يعلم أن أنثى كانت من الأنبياء غيرها.

١٠. ونعمة الله تعالى على سيدنا عيسى ذكرها الله تعالى بقوله تعالى: ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ نعمتان ذاتيتان كانتا مع شخص المسيح عليه السلام وليس فيهما أمر كسبي بل فيهما خلق روحاني:

أ. أما الأولى، وهي التأييد بروح القدس فلها تخريجان أو هما معا:

• أولهما: أن الله تعالى أيده بطبيعة روحانية مطهرة في وقت سادت فيه المادية وسيطرت، فخلق الله تعالى فيه تلك الطبيعة الروحانية، فمعنى قوله روح القدس روح الطهارة والنزاهة والكمال الذى اتسم به، وأي نعمة أجل من هذه النعمة.

• والتخريج الثاني أن معنى أيدناه بروح القدس أيدناه بجبريل عليه السلام، فقد عبر في القرآن بروح القدس وأريد به جبريل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ [النحل]

• وعندى أن الأمرين يجوز جمعهما، وكلاهما صادق فعيسى عليه السلام كان روحانيا مطهرا، وكان مملوءا بالروح المطهرة، وأيده جبريل هو وأمه، كما قال تعالى، في تبشيرها بالمسيح عليه السلام وولادته: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا يَا أُخْتَ هَارُونَ

مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم]

ب. هذه نعمة التأييد، وهناك نعمة أخرى هي في ذاتها نعمة، ولذا ذكرت منفصلة مقرونة بكلمة (إذ) أي اذكر ـ وهي أنه تكلم في المهد، أي تكلم وهو مولود، فالمهد مكان تربية الطفل عقب ولادته، وذلك تأييد لبراءة مريم البتول وذكر كلامه وهو كهل، عندما استوى رجلا مكتملا، للإشارة إلى أن كلامه وهو في المهد يشبه كلامه وهو رجل مكتمل، وتلك حكمة الله تعالى، وبيان أن الأسباب لا تتقيد بها إرادة الله تعالى.

١١. ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ كان ما سبق هداية ربانية صرفة، وتأييدا لصدق أمه وبراءتها، وإرهاصا بنبوته، وهو منحة ليس لكسب العبد فيه إرادة، وهذه النعمة الأخيرة التي جاء بها ذلك النص الحكيم هي نعمة للعبد فيها كسب، وللإرادة البشرية فيها مكان فوق أنها جميعا لله تعالى، ولذلك أضاف سبحانه التعليم إليه، فالتعليم منه سبحانه، والتعلم من عيسى عليه السلام، والكتاب، يفسره بعض العلماء بالكتابة، فلم يكن عيسى عليه السلام أميا، بل كان قارئا لأن معجزاته الكبرى لم يكن كتابا منزلا من عند الله يتحدى به البشر أن يأتوا بمثله، ولأنه لم يكن في قوم أميين، بل كان في قوم فيهم علم الكتابة وفيهم الدراسة والبحث ولهم فلسفة، وفسر الكتاب بعض العلماء بما سبقه من كتب النبيين كزبور داوود وما جاء عن أخبار سليمان وإبراهيم عليه السلام وإسحاق ويعقوب والأسباط، ويصح أن يراد الأمران، وهو ما نختاره، فالله سبحانه وتعالى قد ألهمه تعلم الكتابة وقرأ بها كتب النبيين وأخبار من سبقوه.

١٢. والحكمة هي في العرف الأدبى العام العلوم النافعة، والكلام المحكم الدقيق العميق الذى يكشف للناس عن أسرار هذا الوجود، ونفوس الناس، ويوجهها إلى الخير، ويدخل في الحكمة على هذا كل التعليمات المرشدة الهادية إلى مكارم الأخلاق، وقد كان سيدنا عيسى عليه السلام نبيا حكيما مرشدا أمينا.

١٣. وعلم الله تعالى رسوله الأمين التوراة التي نزلت على موسى والإنجيل الذى نزل عليه

صلوات الله تعالى وسلامه عليه، ولماذا ذكر سبحانه وتعالى التوراة مع أنها قد تكون داخلة في ضمن الكتاب الذى علمه أولا، ونقول في الجواب عن ذلك، بأن التوراة تحتمل الدخول في الكتب المذكورة أولا، وتحتمل أن يقصد بالكتاب الثقافة العامة الدينية وما كان شائعا من أفكار مدونة في عصره، وبذلك لا تشتمل التوراة، وتحتمل اشتمال كلمة الكتاب الذى يراد به الجنس على التوراة، ويكون تخصيصها بالذكر مقترنة بالإنجيل، للإشارة إلى أنهما متلازمان وأن الإنجيل الذى جاء به عيسى عليه السلام متمم للتوراة التي جاء بها موسى عليه السلام، وأنه منفذ لأحكامها إلا ما جاء به الإنجيل ناسخا لها.

١٤. بعد هذا التعليم الذى علمه لعيسى عليه السلام أخذ سبحانه وتعالى يذكر بعض معجزاته، وهي كبراها، فقال: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ كل معجزاته عليه السلام كانت من جنس طبيعته التي فطره الله تعالى عليها، لقد كانت ولادته خارقة للعادة؛ إذ خلقه الله سبحانه وتعالى من غير أب يلقى النطفة في رحم، بل ولد من أم من غير أب، لبيان أن الله تعالى لا تحكمه الأسباب التي تجرى في مجرى العادات، إنما هو سبحانه خالق الأسباب والمسببات فعال لما يريد، لا تخضع إرادته لسلطان سبحانه وتعالى، فمعجزات عيسى كلها بيان لأن الله تعالى فوق قاعدة السببية التي كانت مسيطرة في ذلك العصر المادي الذى كان لا يذعن إلا للأسباب والمسببات المادية.

١٥. وهذه المعجزة باهرة قاطعة في أن الخالق لهذا الكون لا تحكمه الأسباب، إذ إن الناس يجدون أسباب الخلق هو التوالد بأن تحمل الأنثى من ذكر، وتلد، ثم يكون الحى من بعد ذلك، فيكون من خرق الأسباب أن يكون الحى بإجراء الحياة على يد مخلوق لله تعالى، فقد أذن لعيسى عليه السلام أن يصور من الطين كهيئة الطير، فمعنى (خلق) هنا هو تصويره جسدا من الطين، وجعله على شكل طائر، ثم نفخ فيه بإذنه سبحانه، فيكون طيرا بإذن الله تعالى.

١٦. وذكرت كلمة ﴿بِإِذْنِي﴾ عند تصوير شكل الطير، وعند ما صار طيرا؛ للإشارة إلى أن كل ذلك من عند الله، وأنه الخالق وليس عيسى هو الخالق، ولكنه سبحانه وتعالى أجرى الخلق على يديه.

١٧. ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ الأكمه هو المولود أعمى، ويقال لمن طمست عينه بفقء أو نحوه: كمهت عيناه، والبرص داء إلى الآن لم يوجد له دواء يشفيه وقد يوجد دواء يجعله أسهل احتمالا مع بقائه، وقد كان سيدنا عيسى يبرئ الأكمه بإذن الله تعالى فيجعله مبصرا،

وذلك يشبه إيجاد الحياة في غير الحى؛ لأن إيجاد البصر في غير المبصر، والمولود غير مبصر، وغير قابل للإبصار بحكم الأسباب الطبيعية يعد إنشاء وإيجادا، ويقاربه علاج البرص، لأنه بدوامه يشبه الذى يكون جبلة، وإذا كانوا لا يعرفون سببا للشفاء فالله تعالى خالق الأسباب أجرى الشفاء على يدى عيسى عليه السلام، لأنه سبحانه فعال لما يريد، وكان معجزة لعيسى عليه السلام.

١٨. وهناك معجزة رابعة، وهي إحياء الموتى، وقد ذكرت هذه المعجزة في سورة آل عمران على لسان عيسى عليه السلام بما حكاه الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَأُحْيِ الْمَوْتى بِإِذْنِ اللهِ﴾ [آل عمران]، والمذكور هنا هو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ والنصان يتلاقيان في المؤدى، وإن اختلفا في اللفظ، فالأول يفيد أن سيدنا عيسى عليه السلام قد أجرى الله تعالى على يديه إحياء الموتى إذا لم يكن قد دفن، وذلك ما يدل عليه النص الأول، والثاني يدل على أنه قد أجرى الله تعالى على يديه إحياء الموتى بعد دفنها ووضعها في قبورها، فقد كان عليه السلام يجرى الله تعالى على يديه إخراجها من القبور أي أنها تحيا في قبرها، وتخرج إلى الوجود في حياة.

١٩. وإحياء الموتى بعد الدفن أو قبل الدفن غير تصوير البطن طيرا ثم النفخ؛، لأن هذا إيجاد للحياة في جماد، والثاني إعادة للحياة وقد ذكرت كلمة ﴿بِإِذْنِي﴾ في كل هذا، لبيان أن العمل ليس لعيسى، وإن جرى على يديه، إنما هو لله سبحانه وتعالى خالق كل شيء وقد كان موجب هذه البينات الباهرة القاهرة أن يؤمنوا.

٢٠. ولكن بنى إسرائيل فيهم عناد وطغيان فكفر كثيرون، وهموا بأذى عيسى عليه السلام فكانت نعمة الله تعالى عليه أن يكفهم عنه، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، لا تزيد الحجة المتعنت إلا طغيانا وكفرا، وكلما قويت الحجة تحركت في نفسه عوامل الحسد والحقد، فأوجدت ضغنا فيطمس الله تعالى على بصيرته، فلا يدرك.

٢١. جاءهم عيسى عليه السلام بالبينات أي الحجج المبينة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فناوءوه العداوة؛ لأنه كانت لهم الرئاسة الدينية، وهذه الحجج إن اتبعوا ما توجبه حسبوا أن الرئاسة تذهب منهم، فقاوموها، ولا يمكن أن يقاوم صاحب الحق إلا بالباطل، ولا يمكن أن يقاوم صاحب الحجة والبرهان الساطع إلا بالباطل، لذلك قاوموا بطرق ثلاثة كلها شر، حاربوه بتأليب الناس ودعوة

أتباعهم إلى الإعراض عنه، وحاربوه ثانيا بالأذى ينزلونه به، والتحريض عليه، والائتمار به، ولكن دعوته كانت تنفذ إلى القلوب من غير حجاب، وذلك لأن الله كف عنه أذاهم، ولما يئسوا منه خلصوا إلى الطريق القاتل، وهو الدس عند ذوى السلطان، وكانت نعمة من الله تعالى عليه أعظم وأوضح، فقد نجاه الله تعالى من أيديهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء]

٢٢. كف الله تعالى الأذى عن سيدنا عيسى عليه السلام وقد كفروا مع ظهور هذه الآيات الباهرة التي فيها البرهان القاطع الذى لا يقبل جدلا، أشار الله تعالى إلى ما اتخذوه من تعلات بقوله تعالت كلماته: ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، أي إذا كانت هذه البينات ظاهرة، فهي لا ترفع اللجاجة من الذين كفروا وجحدوا؛ لأن الذين يكفرون بالحق عندما يجيئهم يسارعون بالكفر، ثم يحاولون أن يوجدوا ما يبرر كفرهم، كشأن كل من يحكم بالباطل يسارع إليه؛ لأنه غاية مراده له، ثم يتلمس التعلات لكفره، أو بعبارة أخرى يحكمون بالباطل، ثم يحاولون سماع الشهادات الباطلة التي تؤيد ذلك الباطل، لقد قالوا إن كل ما فعله عيسى عليه السلام من تصوير الطير والنفخ فيه بالحياة، وإبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى ـ ما هو إلا سحر مبين، أي بين واضح مع أنه أمور واقعة محسوسة، وليست تمويها باطلا خادعا، ولا تخييلا غير واقع، مما يدل على أن المبطل اللجوج لا يقنعه دليل مهما يكن، اللهم اجعلنا مع الحق، وللحق.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾، قال الرازي: (إن عادة الله تعالى جارية في كتابه الكريم انه إذا ذكر أنواعا من الأحكام أتبعها إما بالإلهيات وإما بشرح أحوال الأنبياء، وإما بشرح أحوال القيامة، ليصير ذلك مؤكدا لما تقدم.. ولما ذكر هنا أحكاما من الشريعة اتبعها أولا بوصف أحوال القيامة، ثم أحوال عيسى)، والمشهد الذي ذكره هنا سبحانه مشهد رهيب، يحشر فيه الخلائق للحساب والمحاكمة

(١) التفسير الكاشف: ٣/١٤٤.

قبل صدور الحكم بالعفو أو الادانة.. إنه تعالى يجمع رسله الذين كان قد فرقهم ووزعهم في محافظاته وأقاليمه وقراه.. وبديهة أن قراه تعالى وأقاليمه غير قرانا وأقاليمنا.. إنها الأمم والأجناس والأقوام، ثم يجابه كل أمة وكل قوم برسولهم ويقول له: ماذا قال لك هؤلاء؟. يريد بهذا السؤال أن يلقي الحجة على عباده، ويمهد للحكم وحيثياته، ويجيب الأنبياء في هذا المشهد: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ومن علم الغيوب فلا تخفى عليه الظواهر.

٢. سؤال وإشكال: الأنبياء يعلمون من جحد رسالتهم، وحاربهم من أجلها في حياتهم، فما هو الوجه لقولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾؟ والجواب: ليس المراد من قولهم هذا نفي العلم إطلاقا، بل المراد أن علمهم ليس بشيء في جانب علمه تعالى، لأنهم يعلمون من أمتهم ما أظهروا وهو يعلم ما أظهروا وأضمروا.

٣. ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾، بعد أن استجوب سبحانه أنبياءه بكلمة موجزة ﴿مَاذَا أَجَبْتُمْ﴾ خص عيسى عليه السلام من بينهم بخطاب مطول ومفصل يذكره فيه بنعمته عليه وعلى والدته ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ تنزيها لأمك من كل شبهة ﴿وَكَهْلًا﴾ أي أن كلامه في المهد كان مثل كلامه، وهو كهل ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ﴾ قيل المراد به الخط لأن الكتاب مأخوذ من الكتابة ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ الشريعة ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾، مر تفسير نظيره في الآية ٤٩ من سورة آل عمران، وكرر سبحانه ﴿بِإِذْنِي﴾ أربع مرات للتأكيد على أن الخلق والإحياء والإبراء من الله، لا من سواه، وإنما أظهر سبحانه هذه الأفعال على يد عيسى عليه السلام لتكون دليلا على صدقه ونبوته.

٤. قد يظن أو يموه أن عيسى عليه السلام نبي صغير.. لأنه تكلم في المهد، أي في حجر أمه، وهذا جهل أو تدليس.. لأن عيسى عليه السلام إنما تكلم في المهد تبرئة لأمه من قول الآثمين، لا لأنه رسول من المرسلين.. وإذا كان الله قد أسقط التكليف الخفيف عن الصبيان فهل يكلفهم بالأحمال والأثقال؟. ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، ومن يسمع له ويطيع، وهو في المهد؟، وهل تقوم الحجة لله على عباده بطفل رضيع؟ وأين التعاليم التي بلّغها للناس عن الله، وهو يلتقم ثدي أمه؟ إن الأناجيل المعتبرة عند النصارى تنص على أن عيسى بعث في سن الثلاثين، فقد جاء في إنجيل لوقا الفصل الثالث رقم ٢٣

ما نصه بالحرف: (ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة)، وفي شروح على الأناجيل المقدسة المطبوعة مع الأناجيل الأربعة في المطبعة الكاثوليكية سنة ١٩٣٨ ص ٥١٩ ما نصبه بالحرف: (ذكر الانجيليّ أن عمر المسيح كان ثلاثين سنة لما ابتدأ حياته العلنية والبشارة بملكوت الله)، وفي بعض كتب المسلمين ما يؤيد ذلك.

٥. وغريبة الغرائب أن تقول أناجيل النصارى: أن دعوة عيسى عليه السلام ابتدأت في سن الثلاثين، ثم يقول انتهازي محترف متزلفا إلى وجوه النصارى، يقول هذا المتزلف: (ان عيسى عليه السلام نبيء طفلا صغيرا، على العكس من محمد ﷺ الذي بعث بعد الأربعين) ويستدل على افترائه هذا بأن عيسى تكلم في المهد بنص القرآن.. متجاهلا أنه إنما تكلم تبرئة لأمه الصديقة الطاهرة، لا ليبلغ رسالة الله إلى عباده، وهو متعلق بالثدي.

٦. ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، جاء في خطبة من خطب نهج البلاغة: (كان عيسى يتوسد الحجر ويلبس الخشن، ويأكل الجشب، وكان أدامه الجوع، وسراجه بالليل القمر، وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها، وفاكهته وريحانه ما تنبت الأرض للبهائم، ولم تكن له زوجة تفتنه، ولا ولد يحزنه، ولا مال يلفته، ولا طمع يذله، دابته رجلاه، وخادمه يداه)، ومع هذا لم يسلم من اليهود، فحاولوا قتله، ووصفوه بالكذب والسحر، وألصقوا بأمه العار، لا لشيء إلا لأنه نطق بالحق، ودعاهم إليه، وأمرهم به.. ولا يختص هذا باليهود، فإن كثيرا من الناس ينصبون العداء لمن يرشدهم إلى الخير، ويتمنى لهم الهداية.

٧. ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمنوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾، يطلق الوحي على معان، منها الإلهام، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٦٨]، وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص: ٧]، وهذا المعنى هو المراد بقوله: (أوحيت إلى الحواريين)

٨. سؤال وإشكال: لماذا ذكر الله سبحانه عيسى بنعمه عليه من دون الأنبياء، مع أن فضله ونعمه عليهم لا يبلغها الإحصاء؟ والجواب: أن الله سبحانه أجمل الخطاب مع الرسل، وفصله مع عيسى لأن أتباعه غالوا فيه، أما اتباع غيره فلم يدّعوا الالوهية لنبيهم، فجاء التفصيل لإقامة الحجة على الغلاة.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ الآية لا تأبى الاتصال بما قبلها فإن ظاهر قوله تعالى في ذيل الآية السابقة: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا﴾، وإن كان مطلقا لكنه بحسب الانطباق على المورد نهي عن الانحراف والجور في الشهادة والاستهانة بأمر اليمين بالله فناسب أن يذكر في المقام بما يجري بينه سبحانه وبين رسله يوم القيامة وهم شهداء على أممهم وأفضل الشهداء، حيث يسألهم الله سبحانه عن الذي أجابهم به أممهم وهم أعلم الناس بأعمال أممهم والشاهدون من عند الله عليهم فيجيبونه بقولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، فإذا كان الأمر على هذه الوتيرة، وكان الله سبحانه هو العالم بكل شيء حق العلم فجدير بالشهود أن يخافوا مقام ربهم: ولا ينحرفوا عن الحق الذي رزقهم الله العلم به، ولا يكتموا شهادة الله فيكونوا من الآثمين والظالمين والفاسقين، فقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ﴾، ظرف متعلق بقوله في الآية السابقة: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾، وذكر جمع الرسل دون أن يقال: (يوم يقول الله للرسل) لمكان مناسبة مع جمع الشهداء للشهادة كما يشعر به قوله: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ﴾

٢. وأما نفيهم العلم يومئذ عن أنفسهم بقولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ فإثباتهم جميع علوم الغيوب لله سبحانه على وجه الحصر يدل على أن المنفي ليس أصل العلم فإن ظاهر قولهم: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ يدل على أنه لتعليل النفي، ومن المعلوم أن انحصار جميع علوم الغيب في الله سبحانه لا يقتضي رفع كل علم عن غيره وخاصة إذا كان علما بالشهادة، والمسئول عنه أعني كيفية إجابة الناس لرسلهم من قبيل الشهادة دون الغيب.

٣. فقولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ ليس نفيا لمطلق العلم بل لحق العلم الذي لا يخلو عن التعلق بالغيب فإن من المعلوم أن العلم إنما يكشف لعالمه من الواقع على قدر ما يتعلق بأمر من حيث أسبابه ومتعلقاته، والواقع في العين مرتبط بجميع أجزاء الخارج مما يتقدم على الأمر الواقع في الخارج وما يحيط به مما يصاحبه

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٦/٢٠٠.

زمانا فالعلم بأمر من الأمور الخارجية بحقيقة معنى العلم لا يحصل إلا بالإحاطة بجميع أجزاء الوجود ثم بصانعه المتعالي من أن يحيط به شيء وهذا أمر وراء الطاقة الإنسانية، فلم يرزق الإنسان من العلم في هذا الكون الذي يبهته التفكير في سعة ساحته، وتهوله النظرة في عظمة أجرامه ومجراته، ويطير لبه الغور في متون ذرأته، ويأخذه الدوار إذا أراد الجري بين هاتين الغايتين إلا اليسير من العلم على قدر ما يحتاج إليه في مسير حياته كالشمعة الصغيرة يحملها طارق الليل المظلم لا ينتفع من نورها إلا أن يميز ما يضع عليه قدمه من الأرض، فما يتعلق به علم الإنسان ناشب بوجوده متعلق بواقعيته بأطراف ثم بأطراف أطراف وهكذا كل ذلك في غيب من إدراك الإنسان فلا يتعلق العلم بحقيقة معنى الكلمة بشيء إلا إذا كان متعلقا بجميع الغيوب في الوجود، ولا يسع ذلك لمخلوق محدود مقدر إنسانا أو غيره إلا لله الواحد القهار الذي عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، قال الله تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] فدل على أن من طبع الإنسان الجهل فلا يرزق من العلم إلا محدودا مقدرا كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إلا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] وهو قوله عليه السلام: حيث سئل عن علة احتجاب الله عن خلقه ـ فقال: لأنه بناهم بنية على الجهل، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فدل على أن العلم كله لله، وإنما يحيط منه الإنسان بما شاء الله، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] فدل على أن هناك علما كثيرا لم يؤت الإنسان إلا قليلا منه.

٤. فإذن حقيقة الأمر أن العلم حق العلم لا يوجد عند غير الله سبحانه، وإذ كان يوم القيامة يوما يظهر فيه الأشياء بحقائقها على ما تفيده الآيات الواصفة لأمره فلا مجال فيه إلا للكلام الحق كما قال تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ [النبأ: ٣٩] كان من الجواب الحق إذا ما سئل الرسل فقيل لهم: ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ أن يجيبوا بنفي العلم عن أنفسهم لكونه من الغيب، ويثبتوه لربهم سبحانه بقولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، وهذا الجواب منهم عليه السلام نحو خضوع لحضرة العظمة والكبرياء واعتراف بحاجتهم الذاتية وبطلانهم الحقيقي قبال مولاهم الحق رعاية لأدب الحضور وإظهارا لحقيقة الأمر، وليس جوابا نهائيا لا جواب بعده البتة:

أ. أما أولا فلأن الله سبحانه جعلهم شهداء على أممهم كما ذكره في قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وقال: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ

وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩] ولا معنى لجعلهم شهداء إلا ليشهدوا على أممهم يوم القيامة بما هو حق الشهادة يومئذ، فلا محالة هم سيشهدون يومئذ كما قدر الله ذلك فقولهم يومئذ: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ جري على الأدب العبودي قبال الملك الحق الذي له الأمر والملك يومئذ، وبيان لحقيقة الحال وهو أنه هو يملك العلم لذاته ولا يملك غيره إلا ما ملكه، ولا ضير أن يجيبوا بعد هذا الجواب بما لهم من العلم الموهوب المتعلق بأحوال أممهم، وهذا مما يؤيد ما قدمناه في البحث عن قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ الآية [البقرة: ١٤٣] أن هذا العلم والشهادة ليسا من نوع العلم والشهادة المعروفين عندنا وأنهما من العلم المخصوص بالله الموهوب لطائفة من عباده المكرمين.

ب. وأما ثانيا فلأن الله سبحانه أثبت العلم لطائفة من مقربي عباده يوم القيامة على ما له من الشأن، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦] وقال تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُون كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إلا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧] وعيسى بن مريم عليه السلام ممن تعمه الآية وهو رسول فهو ممن يشهد بالحق وهم يعلمون، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣١] والمراد بالرسول رسول الله ﷺ والذي تحكيه الآية من قوله هو بعينه جواب لما تشتمل عليه هذه الآية من السؤال أعني قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ﴾ فظهر أن قول الرسل عليه السلام: (لا علم لنا) ليس جوابا نهائيا كما تقدم.

ج. وأما ثالثا فلأن القرآن يذكر السؤال عن المرسلين والمرسل إليهم جميعا كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾[الأعراف: ٦] ثم ذكر عن الأمم المرسل إليهم جوابات كثيرة عن سؤالات كثيرة، والجواب يستلزم العلم كما أن السؤال يقرره، وقال أيضا فيهم: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، وقال أيضا: ﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكسورؤوسهم عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[السجدة: ١٢] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، وإذا كانت الأمم ـ وخاصة المجرمون منهم ـ على علم في هذا اليوم فكيف يتصور أن يعدمه الرسل الكرام عليه السلام فالمصير إلى ما قدمناه.

٥. ذكر هنا مجموعة مباحث حول معنى الشهادة والعدالة واليمين، ليس له صلةا مباشرة بالتفسير

التحليلي، نقلناها إلى محله من السلسلة.

٦. في تفسير البرهان، عن الصادق عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ ـ قال: يقولون لا علم لنا بسواك ـ قال وقال: الصادق عليه السلام: القرآن كله تقريع وباطنه تقريب.. وما نقله عن الصدوق في معنى قوله عليه السلام: (القرآن كله تقريع وباطنه تقريب) لا ينطبق عليه لا بالنظر إلى صدر الرواية فإن كون معنى قول الرسل عليه السلام: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ أنه لا علم لنا بسواك غير مرتبط بكون القرآن مشتملا على نوعين من الآيات: آيات الوعد وآيات الوعيد، ولا بالنظر إلى سياق نفس الجملة أعني قوله: (القرآن كله تقريع وباطنه تقريب) فإن الكلام ظاهر في أن القرآن كله تقريع وكله تقريب، وإنما يختلف الأمر بحسب الباطن والظاهر فباطنه تقريب وظاهره تقريع، لا أن القرآن منقسم إلى قسمين فقسم منه آيات التقريع ووراءه القسم الآخر وهو آيات التقريب، والتأمل في كلامه عليه السلام مع ملاحظة صدر الرواية يعطي أن مراده عليه السلام من التقريع بالنظر إلى مقابلة التقريب لازم معناه وهو التبعيد المقابل للتقريب، والقرآن كله معارف وحقائق فظاهره تبعيد الحقائق بعضها من بعض وتفصيل أجزائها، وباطنه تقريب البعض من البعض وإحكامها وتوحيدها، ويعود محصل المراد إلى أن القرآن بحسب ظاهره يعطي حقائق من المعارف مختلفة بعضها بائن منفصل من بعض لكنها على كثرتها وبينونتها وابتعاد بعضها من بعض بحسب الباطن يقترب بعضها من بعض وتلتئم شتى معانيها حتى تتحد حقيقة واحدة كالروح الساري في الجميع، وليست إلا حقيقة التوحيد قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، ويظهر حينئذ انطباقه على ما ذكره عليه السلام في صدر الرواية أن معنى قول الرسل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ أن لا علم لنا بسواك فإن الإنسان أو أي عالم فرض إنما يعلم ما يعلم بالله بمعنى أن الله سبحانه هو المعلوم بذاته وغيره معلوم به، وبعبارة أخرى إذا تعلق العلم بشيء فإنما يتعلق أولا بالله سبحانه على ما يليق بساحة قدسه وكبريائه ثم يتعلق من جهته بذلك الشيء لما أن الله سبحانه عنده علم كل شيء يرزق منه لمن يشاء من عباده على قدر ما يشاء كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ)[البقرة: ٢٥٥] وقد تقدم رواية عبد الأعلى مولى آل سام عن الصادق عليه السلام وغيره من الروايات في هذا المعنى، وعلى هذا فمعنى قولهم: (لا عِلْمَ لَنَا بسواك إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) على تفسيره عليه السلام أنه لا علم لنا

بشيء من دونك وإنما نعلم ما نعلم من جهة علمنا بك لأن العلم كله لك وإذا كان كذلك فأنت أعلم به منا لأن الذي نعلمه من شيء هو علمك الذي أحطنا بشيء منه بمشيئتك ورزقك.

٧. وعلى هذا يتجلى معنى آخر لقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ هو أرفع منالا مما تقدم من المعنى، وهو أن كل شيء من الخليقة لما كان منفصل الوجود عن غيره كان في غيب منه لما أن وجوده محدود مقدر لا يحيط إلا بما شاء الله أن يحيط به، والله سبحانه هو المحيط بكل شيء العالم بكل غيب لا يعلم شيء شيئا إلا من جهته تعالى وتقدس عن كل نقص، وعلى هذا فتقسيم الأمور إلى غيب وشهادة تقسيم بالحقيقة إلى غيب شاء الله إحاطتنا به وغيب مستور عنا، وربما تؤيد هذا المعنى بظاهر قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: ٢٧] بالنظر إلى ما تفيده إضافة الغيب إلى الضمير، وعليك بإجادة التأمل في هذا المقام.

٨. ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ الآيتان وكذا الآيات التالية لها القاصة قصة نزول المائدة والتالية لها المخبرة عما سيسأل الله عيسى بن مريم عليه السلام عن اتخاذ الناس إياه وأمه إلهين من دون الله سبحانه وما يجيب به عن ذلك، كلها مرتبطة بغرض السورة الذي افتتحت به، وهو الدعوة إلى الوفاء بالعهد والشكر للنعمة والتحذير عن نقض العهود وكفران النعم الإلهية وبذلك يتم رجوع آخر السورة إلى أولها وتحفظ وحدة المعنى المراد.

٩. الآية تعد عدة من الآيات الباهرة الظاهرة بيده عليه السلام إلا أنها تمتن بها عليه وعلى أمه جميعا، وهي مذكورة بهذا اللفظ تقريبا فيما يحكيه تعالى من تحديث الملائكة مريم عند بشارتها بعيسى عليه السلام في سورة آل عمران، قال تعالى: ﴿إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ} - إلى أن قال - ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ - إلى أن قال - {وَيُعَلِّمُهُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ، أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ الله وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتى بِإِذْنِ الله﴾ الآيات.

١٠. والتأمل في سياق الآيات يوضح الوجه في عد ما ذكره من الآيات المختصة ظاهرا بالمسيح نعمة عليه وعلى والدته جميعا كما تشعر به آيات آل عمران فإن البشارة إنما تكون بنعمة، والأمر على ذلك فإن ما اختص به المسيح عليه السلام من آية وموهبة كالولادة من غير أب والتأييد بروح القدس وخلق

الطير وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله سبحانه فهي بعينها كرامة لمريم كما أنها كرامة لعيسى عليه السلام فهما معا منعمان بالنعمة الإلهية كما قال تعالى: ﴿نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾، وإلى ذلك يشير تعالى بقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١] حيث عدهما معا آية واحدة لا آيتين.

١١. ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ﴾ الظاهر أن التأييد بروح القدس هو السبب المهيئ له لتكليم الناس في المهد، ولذلك وصل قوله: ﴿تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ من غير أن يفصله بالعطف إلى الجملة السابقة إشعارا بأن التأييد والتكليم معا أمر واحد مؤلف من سبب ومسبب، واكتفى في موارد من كلامه بذكر أحد الأمرين عن الآخر كقوله في آيات آل عمران المنقولة آنفا: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾، وقوله: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، على أنه لو كان المراد بتأييده بروح القدس مسألة الوحي بوساطة الروح لم يختص بعيسى بن مريم عليه السلام وشاركه فيها سائر الرسل مع أن الآية تأبى ذلك بسياقها.

١٢. ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ من الممكن أن يستفاد منه أنه عليه السلام إنما تلقى علم ذلك كله بتلق واحد عن أمر إلهي واحد من غير تدريج وتعدد كما أنه أيضا ظاهر جمع الجميع وتصديرها بإذ من غير تكرار لها، وكذلك قوله: ﴿إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ ظاهر السياق من جهة عدم تكرار لفظة (إِذْ) أن خلق الطير وإبراء الأكمه والأبرص كانا متقارنين زمانا، وأن تذييل خلق الطير بذكر الإذن من غير أن يكتفي بالإذن المذكور في آخر الجملة إنما هو لعظمة أمر الخلق بإفاضة الحياة فتعلقت العناية به فاختص بذكر الإذن بعده من غير أن ينتظر فيه آخر الكلام صونا لقلوب السامعين من أن يخطر فيها أن غيره تعالى يستقل دونه بإفاضة الحياة أو تلبث فيها هذه الخطرة ولو لحظات يسيرة.

١٣. ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ إخراج الموتى كناية عن إحيائها، وفيه عناية ظاهرة بأن الإحياء الذي جرى على يديه عليه السلام كان إحياء لموتى مقبورين بإفاضة الحياة عليهم وإخراجهم من قبورهم إلى حياة دنيوية، وفي اللفظ دلالة على الكثرة، وقد تقدم في الكلام على آيات آل عمران بقية ما يتعلق بهذه الآيات من الكلام فراجع ذلك.

١٤. ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ﴾ إلى آخر الآية، فيه دلالة على أنهم قصدوه بشر فكفهم الله

عن ذلك فينطبق على ما ذكره الله في سورة آل عمران في قصصه عليه السلام بقوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ اذكر يوم يجمع الله الرسل يوم القيامة ﴿فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ﴾ أيُّ إجابة أجبتم في الدنيا من أممكم الذين أرسلتم إليهم إجابة حسنة!؟ أم سيئة!؟ أم ماذا!؟ سؤال عن إجابة أممهم كلها، وهم لا يحيطون بها علماً؛ لأن من أممهم من لم يشاهدوه لغيابه عنهم، أو لأنه كان بعد توفيهم، وكذلك من أممهم من لا يعلمون سره ونيته وما بطن من إجابته، ولذلك نفوا العلم بما يطابق السؤال، أما العلم ببعض الإجابة فهو غير مسئول عنه هنا، وفيه دلالة على أنهم لا يعلمون الغيب لا علماً ذاتياً، ولا بإعلام الله تعالى لهم؛ لأنهم نفوا العلم عموماً، ولو كانوا يعلمون ذلك كله لما ساغ النفي للعلم في جواب هذا السؤال، فتأويله: بأنه لا علم لنا ذاتياً خلاف الظاهر، وكذا قوله: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف:٩] وفي هذا رد على بعض الإمامية الذين يدَّعون أن المهدي يَعْلَمُ أنصاره ومن خالفه ومن هو متَّبع له على التفصيل بأسمائهم، ويعلم ما يفعلون.

٢. ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ هذا يكون يوم القيامة يوم يجمع الله الرسل، واختص بالكلام لما سبق في الدنيا من غلوِّ بعض النصارى فيه، وهذا الكلام يشير إلى أنه عبد لله أنعم عليه.

٣. ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ ﴿أَيَّدْتُكَ﴾ قويتك، و(روح القدس) جبريل عليه السلام، قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ [النحل:١٠٢] فهو له معين، ولعل هذا في صغره وكبره، أما الصغير فإنه ضعيف يحتاج إلى من يرعاه، وأما الكبير فلأنه يحتاج إلى من يعينه على أعدائه وفي بعض مهماته، و﴿الْمَهْدِ﴾ ما يمهد للصبي من فراش يجعل عليه، والكهل: فوق الشباب، أي من تجاوز سن الشباب، أو هو في آخر الشباب، وحكى الشرفي في (المصابيح) عن الإمام أبي الفتح الديلمي ـ صاحب

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/٣٩٦.

البرهان ـ: أن الكهل: ابن ثلاثين سنة، وأفاد الراغب في (مفرداته): أنه من شارف الشيب، ولعله يعني: من ظهر فيه بياض بعض شعره، ولم يغلب على السواد، وقال: (صاحب الكشاف): (وحين الكهولة الذي هو وقت كمال العقل وبلوغ الأشد، والحد الذي يستنبأ فيه الأنبياء)، وفي (الصحاح): (الكهل: الذي جاوز الثلاثين، ووخطه الشيب) والمعنى متقارب، وهذا التكليم في المهد وكهلاً نعمة، من حيث أن التكليم في المهد نعمة عليه بالمعجزة، وعلى والدته بالتبرئة، والدلالة على فضلها، وفي المهد من حيث أنه كان يكلم الناس بما أرسله الله به، وعلى والدته برسالة ابنها وسلامته حتى بلغ الكهولة، مع أن القدرة على تكليم الناس نعمة على كل حال.

٤. ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ ﴿الْكِتَابِ﴾ اسم يعم الكتب، كقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أو هو مصدر (كَتَب) أي علمتك الكلام، وعلمتك الكتاب الذي هو أحد اللسانين وبه تحصل العلوم المكتوبة، قال تعالى: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق:٤] و﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ المعلومات النافعة كأسباب الزهد في الدنيا، وقد حكي عنه عليه السلام كثير من الحكم في كتاب (الاعتبار وسلوة العارفين) للإمام الموفق بالله عليه السلام، و(التوراة) التي أنزلت على موسى و(الإنجيل) الذي أنزل على عيسى، والإنجيل لم ينسخ التوراة، بل هي معمول بها في دين عيسى عليه السلام، إلا ما خصه دليل من كلام عيسى عليه السلام أو من (الإنجيل) لقوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران:٥٠]

٥. ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ أذن الله له بالتصوير، ولعل هذا يشير إلى أن الأصل التحريم في تصوير صورة الحيوان، وإنما أذن الله لعيسى عليه السلام لما في ذلك من الحكمة الخاصة ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا﴾ أي من الصورة المفهومة من قوله: ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾، والظاهر: أنه النفخ المطلق الذي هو إرسال النفس من الفم بقوة، ولو كان المراد نفخ الروح لقيل: فتنفخ فيها الروح؛ لأنه لا يعبر عن نفخ الروح بمطلق النفخ، فتكون طائراً ﴿بِإِذْنِي﴾ بإذني أن تكون طائراً بذلك السبب، وهو صناعة الطين كهيئة الطير والنفخ، فكان سبباً لحياته بجعل الله له سبباً، كما جعل حضانة البيضة سبباً لحياة الفرخ.

٦. وفي قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِي﴾ دلالة على إحاطة قدرة الله تعالى وعلمه بما صنعه عيسى عليه السلام

فلو شاء لم تكن طيراً، ودلالة على سهولة الأمر الخارق على الله، حتى كأنه في وجوده لا يحتاج إلا إلى الإذن بوجوده، وفيه ـ أيضاً ـ رد على النصارى الذين زعموا أن إحياءه عليه السلام للموتى راجع إلى أنه إله سبحان الله عما يقولون علواً كبيراً.

٧. ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ ﴿الْأَكْمَهَ﴾ الأعمى الذي ولد أعمى وإيجاد البصر له من الله، وأذن تعالى أن يكون على يد عيسى عليه السلام معجزة لَه كسائر المعجزات الخارقة للعادة، فقوله: ﴿بِإِذْنِي﴾ كذلك رد على النصارى ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ كذلك يصعب علاجه، فإبراؤه معجزة تكون بإذن الله، ولا يستقل بها عيسى بقدرته، كسائر المعجزات التي تكون على أيدي الرسل، كفلق البحر بضربة عصى موسى، والبرص: بياض يكون في الجلد ويكون به الجلد خشناً في ملمسه، وهذا الفارق بينه وبين البهق.

٨. ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ ﴿الْمَوْتَى﴾ أي الجنس، مثل: ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٧] قال في (المصابيح): والذي أحيى من الموتى رجلين وامرأة، ذكره في (البرهان) وهذا نظير إحياء الطير، و(إخراج الموتى): إخراجهم من قبورهم، وهذه آية عظيمة لدلالة هذا على إحيائه وقوته على الخروج من بين التراب، فهذه المعجزات تقوية له وتصديق من الله له.

٩. ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وإذ نصرتك على الذين كفروا وحاولوا قتلك، بأن كففتهم عنك ﴿إِذْ جِئْتَهُمْ﴾ بالآيات البينات، الدالة على أنك رسول الله إلى بني إسرائيل، وكذلك كففت الذين آمنوا بهدايتهم للإيمان، فالكف لبني إسرائيل جملة؛ لأنهم أشداء يقتلون الأنبياء، ولولا إيمان من آمن لكان مثل الذين كفروا يريد قتلك، أما ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقالوا: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي ما هذا الذي جئتهم به ﴿إِلَّا سِحْرٌ﴾ وتخييل، وليس شيئاً واقعياً بزعمهم كصنع الساحر في تخييله قلب الحبل حية، وقولهم: ﴿مُبِينٌ﴾ أي بيّن أنه سحر، مبالغة منهم في الكفر.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

---

(١) من وحي القرآن: ٣٨٣/٨.

١. ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ ويقف الرسل أمام الله يوم القيامة، ليسألهم الله عن أممهم كيف كان ردّ الفعل لديهم تجاه الرسالة؟ وما كان جوابهم عن الدعوة الّتي أطلقوها في واقعهم؟ وما النتائج العمليّة في ذلك كله؟ ويقف الرسل في حيرة أمام السؤال، فقد فهموا منه، أنّه لا يطلب منهم الحديث عن ردود الفعل الفوريّة الّتي واجهوها في حياتهم، بل إنّه يطلب منهم أن يقدموا تقريرا وافيا عن حركة الدعوة في حياة الأجيال المقبلة الّتي جاءت من بعدهم فاستحدثت أفكارا وعادات وطقوسا، لم تجيء بها الرسالات، ولم يبلّغها الرسل، تماما كما هو السؤال الّذي وجهه الله سبحانه وتعالى لعيسى عليه السّلام في قوله تعالى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [المائدة: ١١٦] لذلك كان جوابهم ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ لأنّ القضيّة كانت بالنسبة إليهم حديثا عن الغيب الّذي لم يمنحهم الله علمه فيما منحهم من علم، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ لإحاطتك بالمستقبل تماما كما هو الحاضر والماضي، وبذلك يرفعون عن موقفهم أيّة مسئوليّة فيما جرى من بعدهم، لأنهم لا يملكون علمه، ولا القدرة عليه، من قريب أو من بعيد.

٢. ولعلّ هذا الوجه أوفق بمدلول الآية من الوجوه الّتي ذكرت في تفسير نفي الرسل لعلمهم بما كان عليه موقف أقوامهم، فقد ذهب البعض إلى أنّهم خضعوا لأهوال يوم القيامة فذهلوا عن وعي القضيّة في تاريخها الواقعي عندما كانوا في الدنيا، وذهب البعض إلى أنّ المقصود بقولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ أي كعلمك، لأنّك تعلم باطنهم وغيبهم الّذي لا نعلمه، وذهب بعضهم إلى أنّ المراد لا علم لنا إلّا ما علمتنا، ونحو ذلك مما لا دلالة للّفظ عليه.

٣. ولعلّ الآية الكريمة واردة في مقام تأكيد الفكرة الّتي لا بدّ من أن يعيشها النّاس الّذين كانوا مع الرسل في واقع الدعوة الرساليّة، ممن انحرفوا أو غيروا وبدّلوا، ودخلت فيهم التطورات الفكريّة والمتغيرات العمليّة بعيدا عن الخط المستقيم للرسل وللرسالة، بأنّ الله مطّلع على كل التاريخ الّذي عاشوا فيه، بكل دقائقه وتفاصيله، حاضرا ومستقبلا، مما أحصاه الرسل في حياتهم مع أممهم، ومما لم يحصوه مما غاب عنهم شهوده لأنّه حدث من بعدهم، ليكون ذلك أقرب إلى وعي المسؤوليّة عند النّاس في مراقبتهم لله في كل أمورهم لأنّه علام الغيوب.

٤. وقد ذكر صاحب مجمع البيان في كتابه قال: (ذكر الحاكم أبو سعيد في تفسيره أنّها تدل على

بطلان قول الإماميّة إنّ الأئمة يعلمون الغيب)، وعلقّ على ذلك بقوله: (وأقول إنّ هذا القول ظلم منه لهؤلاء القوم، فإنّا لا نعلم أحدا منهم بل أحدا من أهل الإسلام يصف أحدا من النّاس بعلم الغيب، ومن وصف مخلوقا بذلك فقد فارق الدين، والشيعة الإماميّة برآء من هذا القول، فمن نسبهم إلى ذلك، فالله فيما بينه وبينهم)

٥. وقد ذكر صاحب تفسير الميزان تفسيرا للآية، فقال: (أمّا نفيهم العلم يومئذ عن أنفسهم بقولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ فإثباتهم جميع علوم الغيوب لله سبحانه على وجه الحصر يدل على أنّ المنفي ليس أصل العلم، فإنّ ظاهر قولهم: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ يدل على أنّه لتعليل النفي، ومن المعلوم أنّ انحصار جميع علوم الغيب في الله سبحانه لا يقتضي رفع كل علم عن غيره وخاصة إذا كان علما بالشهادة والمسؤول عنه، أعني كيفيّة إجابة النّاس لرسلهم، من قبيل الشهادة دون الغيب، فقولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ ليس نفيا لمطلق العلم بل لحق العلم الّذي لا يخلو عن التعلّق بالغيب، فإنّ من المعلوم أنّ العلم إنّما يكشف لعالمه من الواقع على قدر ما يتعلّق بأمر من حيث أسبابه ومتعلقاته، والواقع في العين مرتبط بجميع أجزاء الخارج مما يتقدم على الأمر الواقع في الخارج وما يحيط به مما يصاحبه زمانا، فالعلم بأمر من الأمور الخارجيّة بحقيقة معنى العلم لا يحصل إلّا بالإحاطة بجميع أجزاء الوجود ثمّ بصانعه المتعالي من أن يحيط به شيء وهذا أمر وراء الطاقة الإنسانيّة)

٦. ويتابع، فيرى أنّ الجواب الصادر من الرسل ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ ليس جوابا نهائيا لا جواب بعده البتة:

أ. وذلك أولا: (لأنّ الله سبحانه جعلهم شهداء على أممهم كما ذكره في قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وقال: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩] ولا معنى لجعلهم شهداء إلّا ليشهدوا على أممهم يوم القيامة بما هو حقّ الشهادة يومئذ، فلا محالة هم سيشهدون يومئذ كما قدّر الله ذلك، فقولهم يومئذ: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ جري على الأدب العبودي قبال الملك الحقّ الّذي له الأمر والملك يومئذ، وبيان لحقيقة الحال، وهو أنّه هو يملك العلم لذاته ولا يملك غيره إلّا ما ملكه، ولا ضير أن يجيبوا بعد هذا الجواب بما لهم من العلم الموهوب المتعلّق بأحوال أممهم..

ب. وأمّا ثانيا: فلأنّ الله سبحانه، أثبت العلم لطائفة من مقربي عباده يوم القيامة على ما له من الشأن..

ج. وأمّا ثالثا: فلأنّ القرآن يذكر السؤال عن المرسلين والمرسل إليهم جميعا كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] ثمّ ذكر عن الأمم المرسل إليهم جوابات كثيرة عن سؤالات كثيرة، والجواب يستلزم العلم كما أنّ السؤال يقرره)

٧. ونحن نلاحظ على ما ذكره:

أ. أنّه على خلاف ظاهر الآية في سياقها الفكري في الموضوع الّذي جاءت الآية لتأكيده، وهو أنّ الأنبياء لم يطلعوا على الواقع الّذي كان يعيشه النّاس من بعدهم لأنّهم لم يملكوا معرفته ـ حتّى بواسطة العلم الّذي يمنحهم الله إياه من غيبه المستقبلي ـ لأنّه لم يمنحهم علم ذلك، إذ لا حاجة لهم به في مهمتهم الرساليّة المقتصرة على إبلاغ الرسالة للنّاس بكل الوسائل المتاحة لهم، فالآية تدل على أنّ الرسل كانوا في مقام نفي العلم عن معرفة النتائج الحاسمة الأخيرة في الموضوع، لأنّه غيب الله الّذي لم يطلعوا عليه، وهذا هو المناسب لقولهم: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، ولا ظهور لذلك فيما قاله من أنّ حصر العلم بالغيب بالله يدل على (أنّ المنفي ليس أصل العلم بل لحق العلم) وهو الإحاطة بجميع أجزاء الوجود ثمّ بصاحبه المتعالي من أن يحيط به شيء بل الآية ظاهرة بأنّ الغيب ـ في كل ما لم يصل إليه الإنسان ولم يملك الوسيلة إلى معرفته من خلال الحس والفكر ـ هو من خصوصيات الله، ولهذا فإنّ نفيهم العلم عن أنفسهم في هذا الأمر الغيبي، لأنّهم لا يملكون علم الغيب ـ إلّا ما عرّفهم إياه ـ لأنّهم لا يملكون الطريق إليه.

ب. أمّا استدلاله بدور الشهادة فغير تام، لأنّ مسألة الشهادة متعلقة بما وصل إليهم علمه مما كان يدور في حياتهم في تجربتهم الرساليّة، لا في كل الأمور الّتي غابت عنهم بعد وفاتهم، ولعلّ هذا ما نستوحيه من قوله تعالى، في حديثه عن حوارة مع عيسى عليه السّلام عندما سأله الله: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ الله﴾ فأجاب عليه السلام بما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ الله قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ

عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٧]، فإنّنا نقرأ في هاتين الآيتين أنّ النّبيّ مسئول عن أن يقدّم حسابه عمّا قام به في حياته وما واجهه من القضايا، وأمّا شهادته على قومه، فإنّها مختصة بالفترة الّتي كان فيها معهم، فلا شمول للشهادة إلى ما غاب عنه علمه، ولم يعلّمه الله إياه قبل ذلك، مع ملاحظة أنّ الشهادة تتبع الشهود الحسي للواقع ليشهد بما رآه في واقعهم الرسالي، فلا يشمل ما بعد ذلك.

ج. ولا مانع من ذلك ما قاله ثانيا: (إنّ الله قد أعطى العلم لبعض مقربي عباده يوم القيامة على ما له من الشأن) لأنّ القضيّة ـ في موضوع الآية ـ هو السؤال عن قضيّة محددة، فلا ينفي العلم بها العلم بأشياء أخرى مما منحه الله للمقربين من عباده.

د. ولا ندري ما هي المناسبة في الرد على نفي العلم بأنّ القرآن يذكر السؤال عن المرسلين والذين أرسل إليهم جميعا، فإنّ سؤالهم كان عمّا واجهوه من التجارب الحيّة في حياتهم مما يملكون معرفته مما لم يطلع عليه المرسلون، فلكل واحد منهم سؤاله عمّا يعلمه لا عمّا لا يعلمه، والله العالم.

هـ. ونحن ـ في ملاحظتنا هذه ـ لا نريد الدخول في الجدل الدائر حول مدى علم الأنبياء وسعته وكيفيّة حصولهم عليه هل هو فيض فعليّ يفيضه عليهم، أو هو متعلّق بإرادتهم فإذا شاءوا علموا، ونحو ذلك، ولكنّنا نقف مع العلّامة الطباطبائي في تفسير الآية في دلالتها التفسيريّة والفكريّة.

٨. ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ يذكّر الله تعالى في هذه الآيات، نبيّه عيسى بن مريم عليه السّلام بجملة من نعمه الجليلة، ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ والّتي تتراوح بين صورة المعجزة من جهة، ولطف الرحمة من جهة أخرى، وتسديد الموقف بالتأييد والتوفيق والنصرة من جهة ثالثة، ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ وليس تذكير الله تعالى أنبياءه من قبيل التذكير الرافع للنسيان أو الغفلة، لأنّ هذا مما يتعارض مع عصمتهم ومنزلتهم ودورهم الريادي في الحياة، وإنّما هو من قبيل التقرير والتسجيل لبيان هذه الحقيقة لأممهم الّتي رفعتهم إلى مقام الألوهيّة، أو ما يقرب من ذلك، كما حدث مع عيسى عليه السّلام حيث قال النّاس بألوهيته، فأراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يبيّن لهم، بأسلوب غير مباشر، وذلك من خلال الحديث الّذي أثاره مع عيسى عليه السّلام، أنه لا

يملك من أمره شيئا، بل كل ما لديه من طاقات وأعمال ومعاجز، هي من نعم الله تعالى عليه، وأنّه ليس أكثر من رسول له ـ تعالى ـ إلى النّاس، فلا صفة له إلّا صفة الرسالة، ولا طاقة له إلّا الطاقة الّتي وهبها الله له، وقد تقدم الحديث عن بعض هذه الأمور في سورة آل عمران، من تكليمه النّاس في المهد وفي حالة الكهولة، وقيامه بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله، وجاءت الآيات هنا، لتثير تأييده بروح القدس، فيما يمثّله ذلك من قوّة روحيّة خفيّة، كانت بمثابة الأساس لكل ما حدث له، وصدر عنه، لأنّ الطاقة البشريّة في طبيعتها، لا تملك القيام بذلك كله بعيدا عمّا يمنحه الله لها من تأييد روحيّ معجز، وقد يكون تصوّر المعنى المقصود من روح القدس غامضا بعض الشيء لأنّ ذلك ليس من الأمور الماديّة الّتي تدخل في نطاق التصوّر البشري، ولكنّنا نعرف ـ من خلال معطيات القرآن الكريم ـ أنه يمثل لونا من ألوان اللطف الإلهي الّذي تتمثّل فيه القدرة المطلقة، الّتي بها تتميّز الأشياء بخصائصها، وتبدع الأمور بطاقاتها، فمن ذا الّذي يستطيع أن يكلم النّاس في المهد من خلال التكوين البشري الذاتي فيما يملكه البشر من خصائص القدرة على التكلم الواعي الناضج على أساس النمو الّذي يحتاج إلى مراحل متقدمة من العمر والتربية والتعليم؟ ليس هناك إلّا القدرة الإلهيّة الّتي تمنح الأشخاص بعضا من لطفها الّذي به يقول للشيء ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ فلا مجال لوجود أجزاء إلهيّة فيما يتصوره النّاس من أضاليلهم، بل كل ما هناك، هو مظهر القدرة بالطريقة المألوفة أو غير المألوفة.

٩. وانتهت الآية إلى إبراز الدعم والتأييد الإلهي القوي لعيسى عليه السّلام في مواجهة (بني إسرائيل) ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ حيث كفّ شرّهم عنه، لا سيما الكفّار منهم، ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ رموه بالسحر على عادتهم مع الأنبياء الآخرين، فهم لا يناقشون الأفكار الّتي يثيرونها في حياتهم، ولا يتدبرون المعاجز الّتي يقدمونها إليهم، بل يرفضون ذلك كلّه بما اعتادوه من كلمات غير مسئولة، ولكنّ الله قهرهم بقوّة القدرة الّتي أيّد بها رسوله، فلم يتركه وحده تحت رحمة الكافرين، بل (أوحى) إلى الحواريين، أن يؤمنوا به وبرسوله ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾

١٠. سؤال وإشكال: كيف تكون هذه الآيات المتعلّقة بعيسى عليه السّلام نعمة على والدته الّتي لم تشارك في ذلك؟ والجواب: أنّ من الممكن أن تكون النعمة على والدته من حيث إكرامها بالكرامة الإلهيّة

في إظهار قدرة الله في خلق عيسى عليه السّلام من خلالها، واصطفاء الله لها وتطهيرها ورعايته لها في كل حياتها، مع كون الآيات المذكورة في الآية مختصة بعيسى عليه السّلام، ومن الممكن أن تكون المسألة من حيث إنّ النعمة الّتي تصل إلى الولد هي نعمة على الأم أيضا، لأنّه فرع منها، فما يصل إليه من الكرامة يصل إليها، لأنّ الله يكرم الأم بإكرام ولدها، والله العالم.

١١. سؤال وإشكال: لماذا هذا التكرار في كلمة ﴿بِإِذْنِي﴾ أربع مرات مع إمكان الاكتفاء بكلمة واحدة للدلالة على أنّ ما صدر عن عيسى عليه السّلام ليس ناشئا من قدرته الذاتية بل هو ناتج عن قدرة الله سبحانه؟ والجواب: أنّ ذلك قد يكون واردا للتأكيد على رفض النسبة الذاتيّة الخاصة في صدور هذه المعاجز المدهشة والقدرات العجيبة إلى عيسى عليه السّلام، باعتبارهما أقرب إلى الأفعال الإلهيّة، وبالتالي لبيان أنّ ذلك منطلق من إذن الله له في القيام بذلك بالمعنى التكويني للإذن، أي أنّ قدرته كانت مستمدة من إعطاء الله له تلك الطاقة الّتي تنتج الأعاجيب، وذلك لإبعاد فكرة الغلو فيه وادعاء الألوهيّة له، كما حدث بعد ذلك، ولبيان أنّه عبد من عباد الله في الطاقات الّتي وهبها الله له مما هو خارج عن المألوف للبشر، كما هو عبد من عباد الله في الطاقات البشرية الّتي أعطاها له، لأنّ الإعجاز الإلهي الذاتي ظاهر في القدرات العاديّة وغير العاديّة على حدّ سواء في عظمة القدرة الإلهيّة، لأنّ الأشياء بطبيعتها لا تملك أيّة طاقة ذاتية بعيدا عما أودعه الله فيها من القدرة الخاصة، على أساس السببيّة الّتي تختلف بين المألوف وغير المألوف، والظاهر والخفي، والله العالم.

١٢. ربما يرى بعض العلماء والمفسرين أنّ هذه الآية والآيات المماثلة تدلّ على ولاية أولياء الله التكوينيّة، بحيث يتصرفون في عالم التكوين من حيث القدرات العجيبة الّتي يزودهم بها، فيتحركون في إدارة الأمور في حركة الواقع الوجودي للأشياء، كما يتحركون في إدارة الواقع الرسالي للنّاس، ولكنّنا، مع التأكيد على الظاهر القرآني، وهو أنّ الله يزود أنبياءه وأولياءه ببعض القدرات الخاصة الّتي تتحرك أفعالا خارقة للمألوف في مستوى العجائب، لا نرى أنّ التعبير عنه بالولاية التكوينيّة صحيح، لأنّ قضيّة الولاية ـ بمعناها المعروف ـ توحي بالموقع الّذي يملكه الوليّ التكويني الّذي أريد له أن يتحرك في إرادة متعلّق الولاية بإرادته وفاعليته في كل المساحة الولايتية الكونيّة.

١٣. وهذا المعنى ليس مستفادا من إعطاء الله لعيسى هذه القدرة الخاصة، لأنّه لا يدل إلّا على

العطيّة الخاصة في المورد الخاص من خلال حاجته إلى إظهار المعجزة للنّاس كما هي حاجة موسى عليه السّلام إليها في اليد البيضاء وتحوّل العصا إلى ثعبان، فهي مسألة تتصل بالظروف الخاصة في الموارد الخاصة، ولا تتصل بتحول الذات إلى ذات، تملك ـ بالإذن الإلهي ـ قدرة عامة تتحرك في الكون لتديره بإذن الله، بالطريقة الّتي يدير الله فيها الكون، لا سيما وأنّ ولاية الله تامّة السببيّة في حركة التدبير الكونيّة، فلا نقصان في ولايته في الكون ليجعل وليا له، أمّا إذا أريد من ذلك أنّ الله يوظفهم للقيام بذلك كما يوظف الملائكة بمعنى أن يكونوا وسائل للتدبير الإلهي، فهذا مما لا دليل عليه، بل الدليل من القرآن على خلاف ذلك.

١٤. إنّ القرآن لا يثبت للأنبياء وللأولياء، كآصف بن برخيا، إلّا بعض القدرات الخاصة الّتي تنتج أعمالا خاصة للحاجة إليها في عالم التحدي والكرامة، ولم يثبت لهم أكثر من ذلك، بل إنّه يتحدث عن نقاط الضعف البشري الّذي يتحركون به في قدراتهم المحدودة مما لا يتناسب مع فكرة أنّهم أولياء الكون من الناحية التكوينيّة، والله العالم.

١٥. جاء في معاني الأخبار بإسناده عن أبي يعقوب البغدادي قال: (قال ابن السكيت لأبي الحسن الرضا عليه السّلام: لماذا بعث الله موسى بن عمران بيده البيضاء والعصا وآلة السحر، وبعث عيسى بآلة الطب، وبعث محمدا ﷺ بالكلام والخطب؟ فقال أبو الحسن عليه السّلام: (إنّ الله تعالى لما بعث موسى عليه السّلام كان الأغلب على أهل عصره السحر، فأتاهم من عند الله تعالى بما لم يكن عند القوم وفي وسعهم مثله، وبما أبطل به سحرهم، وأثبت به الحجّة عليهم، وإنّ الله تعالى بعث عيسى في وقت ظهرت فيه الزمانات، واحتاج النّاس إلى الطب، فأتاهم من عند الله تعالى بما لم يكن عندهم مثله، وبما أحيى لهم الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله، وأثبت به الحجّة عليهم، وإنّ الله تعالى بعث محمدا ﷺ في وقت كان الأغلب على أهل عصره الخطب والكلام والشعر، فأتاهم من كتاب الله والموعظة والحكمة بما أبطل به قولهم، وأثبت به الحجّة عليهم)، قال ابن السكيت: (ما رأيت مثلك اليوم قط، فما الحجّة على الخلق اليوم؟ فقال: العقل يعرف به الصادق على الله فيصدقه، والكاذب على الله فيكذبه، قال ابن السكيت: هذا والله هو الجواب):

أ. لعلّ قيمة هذا الحديث تكمن في الدلالة على أنّ قصة المعجزة، في نوعيتها، تنطلق من الواقع

الثقافي الّذي تتميّز به الذهنيّة العامة للمجتمع الّذي يرسل إليه النبيّ، من أجل أن تمثّل النبوّة قوّة ثقافيّة غير عاديّة، تصدم الواقع الثقافي الّذي ربّما يبلغ حالة من الاستعلاء، الّذي قد يترك تأثيره السلبي على واقع النبوّة في حركة الرسالة في النّاس، لأنّ الوضع الطبيعي للثقافة العامة قد يجعل النّبيّ شخصا عاديا في النظرة الشعبية بحيث لا يتميّز عن الآخرين، بل قد يتميّزون عليه من ناحية اختصاصهم الّذي يترك أثره على النّاس.

ب. وفي ضوء ذلك، فإنّ المعجزة تمثّل قمّة التحدي لهذا الواقع بالدرجة الّتي تشكّل صدمة له من خلال المستوى الإعجازي الّذي لا يمكن صدوره من قدرات بشريّة، فيدل على علاقته الرساليّة بالله، ولكن ربّما لا تحتاج النبوّة إلى المعجزة لعدم وجود التحدي الصارخ في المسألة الثقافيّة المضادّة، بل تكون القضيّة قضيّة رفض شعبيّ ذاتيّ لا يترك تأثيره الواقعي على حركة الرسالة من موقع النبيّ، بحيث تكون المعجزة وعدمها على حد سواء، وهذا ما نلاحظه في كثير من حالات الأنبياء الّذين لم يأتوا بالمعجزة، أو الّذين جاؤوا بها أخيرا كما في قصة نوح وإبراهيم عليه السّلام.

ج. وربّما كانت القيمة الأخرى للمضمون الفكري في الحديث ـ وهو كلام الإمام الرضا عليه السّلام ـ على تقدير صحة الرّواية ـ عن العقل ـ في غياب النّبيّ صاحب المعجزة أو في حالة عدم وعي النّاس لتأثيراتها على وجدانهم الثقافي الّذي لا يملك دراسة الأمور بدقة وتحقيق، أنّ العقل هو الحجّة الإلهيّة الّتي أرادها الله أن تقود الإنسان إلى التمييز بين الصادق على الله بما يمثّله من الحجّة البشريّة فيصدقه على أساس ذلك، أو الكاذب عليه الّذي لا يمثّل الحجّة فيكذبه.

د. وهذا هو المنهج الإسلامي ـ في خط أهل البيت عليه السّلام ـ المرتكز على أساس الخط القرآني الّذي يوحي بأنّ العقل هو حجّة الله الفطرية على خلقه الّذي يتحرك ليحدد الحجّة البشريّة من الله والاتجاه العملي الّذي يميّز الحقّ من الباطل والخير من الشر، ليحيا من حيّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

---

(١) تفسير الأمثل: ١٨١/٤.

١. هذه الآية، في الحقيقة، تكملة للآيات السابقة، ففي ذيل تلك الآيات الخاصّة بالشهادة الحقّة والشهادة الباطلة، كان الأمر بالتقوى والخشية من عصيان أمر الله، وفي هذه الآية تذكير بذلك اليوم الذي يجمع الله الرسل فيه ويسألهم عن رسالتهم ومهمتهم وعمّا قاله الناس ردا على دعواتهم.

٢. ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾، لقد نفوا عن أنفسهم العلم، وأوكلوا جميع الحقائق إلى علم الله و﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ وعليه فإنكم أمام علام الغيوب وأمام محكمة هذا شأنها، فاحذروا أن تنحرف شهادتكم عن الحقّ والعدل.

٣. سؤال وإشكال: إنّ ما يستفاد من الآيات القرآنية أنّ الأنبياء شهداء على أممهم، بينما نجدهم في هذه الآية ينكرون كل علم ويوكلون كل شيء إلى الله، والجواب: ليس في هذا اختلاف ولا تضاد، بل هو يحكي عن مرحلتين، في المرحلة الاولى وهي التي تشير إليها الآية التي نحن بصددها، يظهر الأنبياء الأدب بإزاء سؤال الله، فينفون العلم عن أنفسهم، ويوكلون كل شيء إلى علم الله، ولكنّهم في المراحل التّالية يبيّنون ما يعرفونه عن أممهم ويشهدون، وهذا يكاد يشبه المعلم الذي يطلب من تلميذه أن يجيب على سؤال فيظهر التلميذ التأدب أوّل الأمر ويقول: أن علمه لا شيء بالنسبة لعلم المعلم، ثمّ بعد ذلك يدلي بما يعرف.

٤. سؤال وإشكال: كيف ينفي الأنبياء العلم عن أنفسهم مع أنّهم إضافة إلى العلوم العادية يعلمون الكثير من الحقائق الخفية التي علمها الله لهم؟ والجواب: رغم أنّ للمفسّرين كلاما كثيرا في جواب هذا السؤال، نرى أنّ الموضوع واضح وهو أنّ الأنبياء يرون علمهم لا شيء بالنسبة لعلم الله، والحقّ كذلك، فوجودنا لا شيء بالنسبة لوجود الله الأبدي وعلمنا لا وزن له بإزاء علم الله، فمهما يكن (الممكن) فإنّه لا يكون شيئا بإزاء (الواجب)، وبعبارة أخرى: إنّ علم الأنبياء، وإن كان في حد ذاته غزيرا، لكنه لا شيء بالقياس إلى علم الله، وفي الحقيقة، العالم الحقيقي هو الذي يكون حاضرا وناظرا في كل مكان وزمان، وعارفا بتركيب كل ذرة من ذرات العالم، وبكل أجزاء هذا العالم المترابط في وحدة واحدة، وهذه صفة تختص بالله سبحانه.

٥. يتّضح ممّا قلنا أنّ هذه الآية ليست دليلا على نفي كل علم بالغيب عن الأنبياء والأئمّة كما زعم بعضهم، وذلك لأن (علم الغيب) بالذات يختص بمن يكون حاضرا في كل مكان وزمان، وأمّا غيره تعالى فإنّه لا علم له بالغيب سوى ما يعلمه الله، وهذا مأخوذ من آيات عديدة في القرآن، منها الآية من سورة

الجن: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ والآية من سورة هود: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾، يستفاد من هذه الآيات وأمثالها أنّ علم الغيب مختص بذات الله، ولكنّه يعلّمه لمن يشاء وبالقدر الذي يشاء.

٦. ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ هذه الآية والآيات التّالية لها حتى آخر سورة المائدة تختص بسيرة حياة السيد المسيح عليه السّلام والنعم التي أسبغها الله عليه وعلى أمّته، يبيّنها الله هنا لتوعية المسلمين وايقاظهم فتقول الآية: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾، ومعنى (إذ قال): واذكر إذ قال وحسب هذا التّفسير، تشرع هذه الآيات ببحث مستقل له جانبه التربوي للمسلمين ويرتبط بهذه الدنيا، إلّا أن عددا من المفسّرين ـ كالطبرسي والبيضاوي وأبي الفتوح والرازي ـ يرون أنّ هذه الآية تابعة للآية السابقة وتتعلق بالحوار الذي يدور بين الله والأنبياء يوم القيامة، وعلى هذا يكون الفعل الماضي (قال) بمعنى (يقول) المضارع، غير أنّ هذا يخالف ظاهر الآية، خاصّة وأنّ تعداد النعم التي أنزلت على شخص ما يستهدف إحياء روح الاعتراف بالجميل والشكر فيه، وهذا لإمكان له يوم القيامة.

٧. ثمّ تشرع الآية بذكر النعم: ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾، لقد بحثنا معنى (روح القدس) سابقا بحثا مستفيضا وأحد الاحتمالات المقصودة هو أنّه إشارة إلى ملك الوحي، جبرائيل، والاحتمال الآخر هو تلك القوة الغيبية التي كانت تعين عيسى على إظهار المعجزات وعلى تحقيق رسالته المهمّة، وهذا المعنى موجود في غير الأنبياء أيضا بدرجة أضعف.

٨. من نعم الله الأخرى: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي أنّ كلامك في المهد، مثل كلامك وأنت كهل، كلام ناضج ومحسوب، لا كلام طفل غر، ثمّ أيضا: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ إنّ ذكر التّوراة والإنجيل بعد ذكر كلمة كتاب مع أنّهما من الكتب السماوية، إنّما هو من باب التفصيل بعد الإجمال، ومن النعم الأخرى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾، ومع ذلك فإنّك تشفي بإذن الله الأعمى بالولادة والمصاب بالمرض الجلدي البرص: ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾، ثمّ ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾

٩. وأخيرا كان من نعمي عليك بأن منعت عنك أذي بني إسرائيل يوم قام الكافرون منهم

بوجهك ووسموا ما تفعل بأنّه السحر، فدفعت أذى أولئك المعاندين اللجوجين عنك وحفظتك حتى تسير بدعوتك: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾

١٠. يستلفت النظر في هذه الآية أنّها تكرر ﴿بِإِذْنِي﴾ أربع مرات لكيلا يبقى مكان للغلو في المسيح عليه السّلام وادعاء الألوهية له، أي أنّ ما كان يحققه المسيح عليه السّلام بالرغم من إعجازه وإثارته الدهشة ومشابهته للأفعال الإلهية، لم يكن ناشئا منه، بل كان من الله وباذنه، فما كان عيسى سوى عبد من عبيد الله، مطيع لأوامره، وما كان له إلّا ما يستمده من قوة الله الخالدة.

١١. سؤال وإشكال: إنّ كانت هذه النعم كلها قد أسبغت على عيسى عليه السّلام فلماذا تعتبر الآية هذه النعم قد أسبغت على أمّه أيضا؟ والجواب: لا شك أنّ كل موهبة تصل الابن تكون قد وصلت الأم أيضا، فكلاهما من اصل واحد، ومن شجرة واحدة.

١٢. كما ذكرنا في ذيل الآية من سورة آل عمران، فإن هذه الآية والآيات المشابهة دلائل على ولاية أولياء الله التكوينية، ففي تاريخ حياة المسيح عليه السّلام ينسب إليه إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، ولكن بأمر الله وإذنه، يتّضح من هذا أنّ من الممكن أن ينعم الله على من يشاء قدرة كهذه تمكنه من التصرف بعالم التكوين والقيام بأمثال هذه الأعمال أحيانا، إنّ تفسير هذه الآية بأنّها تشير إلى دعاء الأنبياء واستجابة الله لدعائهم هو خلاف ظاهر الآية، وأنّ ما نقصده بولاية أولياء الله التكوينية هو هذا الذي قلناه آنفا، إذ ليس ثمّة دليل على أكثر من هذا المقدار (انظر تفسير سورة آل عمران الآية لمزيد من التوضيح)

٩٠. الحواريون والمائدة

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٩٠] من سورة المائدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَّ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ قَالَ اللهَّ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١١ ـ ١١٥]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

كعب:

روي عن كعب الأحبار (ت ٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: نزلت يوم الأحد، لذلك اتخذه النصارى عيدا[١].

٢. روي أنّه قال: نزلت مائدة منكوسة تطير بها الملائكة بين السماء والأرض، عليها كل الطعام إلا اللحم[٢].

سلمان:

روي عن سلمان الفارسي (ت ٣٤ هـ) أنّه قال: لما سأل الحواريون عيسى ابن مريم المائدة كره ذلك جدا، وقال: اقنعوا بما رزقكم الله في الأرض، ولا تسألوا المائدة من السماء، فإنها إن نزلت عليكم كانت آية من ربكم، وإنما هلكت ثمود حين سألوا نبيهم آية، فابتلوا بها حتى كان بوارهم فيها، فأبوا إلا أن يأتيهم بها، فلذلك قالوا: ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾، فلما رأى عيسى أن قد أبوا إلا أن يدعو لهم بها، قام فألقى عنه الصوف، ولبس الشعر الأسود، وجبة من

---

(١) تفسير الثعلبي ٤/١٢٧.

(٢) تفسير البغوي ٣/١١٩.

شعر، وعباءة من شعر، ثم توضأ واغتسل، ودخل مصلاه، فصلى ما شاء الله، فلما قضى صلاته قام قائما مستقبل القبلة، وصف قدميه حتى استويا، فألصق الكعب بالكعب، وحاذى الأصابع بالأصابع، وضع يده اليمنى على اليسرى فوق صدره، وغض بصره، وطأطأ رأسه خشوعا، ثم أرسل عينيه بالبكاء، فما زالت دموعه تسيل على خديه، وتقطر من أطراف لحيته، حتى ابتلت الأرض حيال وجهه من خشوعه، فلما رأى ذلك دعا الله، فقال: ﴿اللهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ تكون عظة منك لنا، ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ أي: علامة منك، تكون بيننا وبينك، وارزقنا عليها طعاما نأكله، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾، فأنزل الله عليهم سفرة حمراء بين غمامتين؛ غمامة فوقها، وغمامة تحتها، وهم ينظرون إليها في الهواء منقضة من فلك السماء تهوي إليهم، وعيسى يبكي خوفا للشروط التي اتخذ الله عليهم فيها؛ أنه يعذب من يكفر بها منهم بعد نزولها عذابا لم يعذبه أحدا من العالمين، وهو يدعو الله في مكانه، ويقول: إلهي، اجعلها رحمة، إلهي، لا تجعلها عذابا، إلهي، كم من عجيبة سألتك فأعطيتني، إلهي، اجعلنا لك شاكرين، إلهي، أعوذ بك أن تكون أنزلتها غضبا ورجزا، إلهي، اجعلها سلامة وعافية، ولا تجعلها فتنة ومثلة، فما زال يدعو حتى استقرت السفرة بين يدي عيسى، والحواريون وأصحابه حوله، يجدون رائحة طيبة، لم يجدوا فيما مضى رائحة مثلها قط، وخر عيسى والحواريون لله سجدا؛ شكرا له بما رزقهم من حيث لم يحتسبوا، وأراهم فيه آية عظيمة ذات عجب وعبرة، وأقبلت اليهود ينظرون، فرأوا أمرا عجيبا أورثهم كمدا وغما، ثم انصرفوا بغيظ شديد، وأقبل عيسى والحواريون وأصحابه حتى جلسوا حول السفرة، فإذا عليها منديل مغطى، قال عيسى: من أجرؤنا على كشف المنديل عن هذه السفرة، وأوثقنا بنفسه، وأحسننا بلاء عند ربه، فليكشف عن هذه الآية حتى نراها، ونحمد ربنا، ونذكر باسمه، ونأكل من رزقه الذي رزقنا؟ فقال الحواريون: يا روح الله وكلمته، أنت أولانا بذلك، وأحقنا بالكشف عنها، فقام عيسى، فاستأنف وضوءا جديدا، ثم دخل مصلاه، فصلى بذلك ركعات، ثم بكى طويلا، ودعا الله أن يأذن له في الكشف عنها، ويجعل له ولقومه فيها بركة ورزقا، ثم انصرف، وجلس إلى السفرة، وتناول المنديل، وقال: بسم الله خير الرازقين، وكشف عن السفرة، وإذا هو عليها سمكة ضخمة مشوية، ليس عليها بواسير، وليس في جوفها شوك، يسيل السمن منها سيلا، قد نضد حولها بقول من كل صنف غير الكراث، وعند رأسها خل، وعند ذنبها ملح، وحول البقول خمسة أرغفة، على واحد منها زيتون، وعلى الآخر ثمرات،

وعلى الآخر خمس رمانات، فقال شمعون رأس الحواريين لعيسى: يا روح الله وكلمته، أمن طعام الدنيا هذا، أم من طعام الجنة؟ فقال: أما آن لكم أن تعتبروا بما ترون من الآيات، وتنتهوا عن تنقير المسائل، ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا في سبب هذه الآية، فقال شمعون: لا وإله إسرائيل، ما أردت بها سوءا، يا ابن الصديقة، فقال عيسى: ليس شيء مما ترون عليها من طعام الجنة، ولا من طعام الدنيا، إنما هو شيء ابتدعه الله في الهواء بالقدرة الغالبة القاهرة؛ فقال له: كن، فكان أسرع من طرفة عين، فكلوا مما سألتم باسم الله، واحمدوا عليه ربكم، يمدكم منه ويزدكم، فإنه بديع قادر شاكر، فقالوا: يا روح الله وكلمته، إنا نحب أن ترينا آية في هذه الآية، فقال عيسى: سبحان الله، أما اكتفيتم بما رأيتم من هذه الآية حتى تسألوا فيها آية أخرى! ثم أقبل عيسى على السمكة، فقال: يا سمكة، عودي بإذن الله حية كما كنت، فأحياها الله بقدرته، فاضطربت وعادت بإذن الله حية طرية، تلمظ كما يتلمظ الأسد، تدور عيناها، لها بصيص، وعادت عليها بواسيرها، ففزع القوم منها وانحاسوا[1]، فلما رأى عيسى ذلك منهم فقال: ما لكم تسألون الآية، فإذا أراكموها ربكم كرهتموها!؟ ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا بما تصنعون، يا سمكة، عودي بإذن الله كما كنت، فعادت بإذن الله مشوية كما كانت في خلقها الأول، فقالوا لعيسى: كن أنت يا روح الله الذي تبدأ بالأكل منها، ثم نحن بعد، فقال: معاذ الله من ذلك، يبدأ بالأكل من طلبها، فلما رأى الحواريون وأصحابهم امتناع نبيهم منها خافوا أن يكون نزولها سخطة، وفي أكلها مثلة، فتحاموها، فلما رأى ذلك عيسى دعا لها الفقراء والزمنى، وقال: كلوا من رزق ربكم ودعوة نبيكم، واحمدوا الله الذي أنزلها لكم؛ ليكون مهناها لكم وعقوبتها على غيركم، وافتتحوا أكلكم باسم الله، واختموه بحمد الله، ففعلوا، فأكل منها ألف وثلاثمائة إنسان، بين رجل وامرأة، يصدرون عنها كل واحد منهم شبعان يتجشأ، ونظر عيسى والحواريون فإذا ما عليها كهيئة إذ نزلت من السماء، لم ينتقص منه شيء، ثم إنها رفعت إلى السماء وهم ينظرون، فاستغنى كل فقير أكل منها، وبرئ كل زمن منهم أكل منها، فلم يزالوا أغنياء صحاحا حتى خرجوا من الدنيا، وندم الحواريون وأصحابهم الذين أبوا أن يأكلوا منها ندامة سالت منها أشفارهم، وبقيت حسرتها في قلوبهم إلى يوم الممات، قال: فكانت المائدة إذا نزلت بعد ذلك أقبلت بنو إسرائيل إليها من كل مكان يسعون، يزاحم

(١) حاسوا وجاسوا، بِمَعْنًى واحد: يذهبون ويجيئون.

بعضهم بعضا، الأغنياء والفقراء، والنساء والصغار والكبار، والأصحاء والمرضى، يركب بعضهم بعضا، فلما رأى عيسى ذلك جعلها نوبا بينهم، فكانت تنزل يوما ولا تنزل يوما، فلبثوا في ذلك أربعين يوما، تنزل عليهم غبا عند ارتفاع الضحى، فلا تزال موضوعة يؤكل منها، حتى إذا قالوا ارتفعت عنهم بإذن الله إلى جو السماء، وهم ينظرون إلى ظلها في الأرض حتى توارى عنهم، فأوحى الله إلى عيسى: أن اجعل رزقي في المائدة لليتامى والفقراء والزمنى، دون الأغنياء من الناس، فلما فعل الله ذلك ارتاب بها الأغنياء، وغمصوا، ذلك، حتى شكوا فيها في أنفسهم، وشككوا فيها الناس، وأذاعوا في أمرها القبيح والمنكر، وأدرك الشيطان منهم حاجته، وقذف وسواسه في قلوب المرتابين، حتى قالوا لعيسى: أخبرنا عن المائدة ونزولها من السماء حق؛ فإنه ارتاب بها بشر منا كثير؟ قال: عيسى: هلكتم، وإله المسيح، طلبتم المائدة إلى نبيكم أن يطلبها لكم إلى ربكم، فلما أن فعل وأنزلها الله عليكم رحمة ورزقا، وأراكم فيها الآيات والعبر؛ كذبتم بها، وشككتم فيها! فأبشروا بالعذاب، فإنه نازل بكم إلا أن يرحمكم الله، وأوحى الله إلى عيسى: إني آخذ المكذبين بشرطي، فإني معذب منهم من كفر بالمائدة بعد نزولها عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين، فلما أمسى المرتابون بها، وأخذوا مضاجعهم في أحسن صورة من نسائهم آمنين، فلما كان من آخر الليل مسخهم الله خنازير، وأصبحوا يتتبعون الأقذار في الكناسات[1].

عمار:

روي عن عمار بن ياسر (ت ٣٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: (أنزلت المائدة من السماء خبزا ولحما، وأمروا ألا يخونوا ولا يدخروا لغد، فخانوا وادخروا ورفعوا لغد، فمسخوا قردة وخنازير)[2].

٢. روي أنّه قال: نزلت المائدة عليها ثمر من ثمر الجنة[3].

٣. عن رجل من بني عجل، قال: صليت إلى جنب عمار بن ياسر، فلما فرغ قال: هل تدري كيف كان شأن مائدة بني إسرائيل؟ قال: فقلت: لا، قال: إنهم سألوا عيسى ابن مريم مائدة يكون عليها طعام

---

(١) ابن أبي حاتم ٤/١٢٤٤.

(٢) الترمذي ٥/٣٠٢.

(٣) ابن جرير ٩/١٢٨.

يأكلون منه لا ينفد، قال: فقيل لهم: فإنها مقيمة لكم ما لم تخبئوا أو تخونوا أو ترفعوا، فإن فعلتم فإني أعذبكم عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين، قال: فما تم يومهم حتى خبئوا ورفعوا وخانوا، فعذبوا عذابا لم يعذبه أحدا من العالمين، وإنكم معشر العرب كنتم تتبعون أذناب الإبل والشاء، فبعث الله فيكم رسولا من أنفسكم تعرفون حسبه ونسبه، وأخبركم على لسان نبيكم أنكم ستظهرون على العرب، ونهاكم أن تكنزوا الذهب والفضة، وأيم الله، لا يذهب الليل والنهار حتى تكنزوهما ويعذبكم عذابا أليما[1].

عائشة:

روي عن عائشة (ت ٥٧ هـ) أنّها قالت: كان الحواريون أعلم بالله من أن يقولوا: هل يستطيع ربك؟ إنما قالوا: هل تستطيع أنت ربك؛ هل تستطيع أن تدعوه؟[2].

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنه قال: أكل منها ـ يعني: من المائدة ـ حين وضعت بين أيديهم آخر الناس كما أكل منها أولهم[3].

٢. روي أنّه قال: المائدة سمكة وأرغفة[4].

٣. روي أنّه قال: أنزل على المائدة كل شيء غير اللحم[5].

٤. روي أنّه قال: نزل على عيسى ابن مريم والحواريين خوان عليه خبز وسمك، يأكلون منه أينما نزلوا إذا شاءوا[6].

٥. روي أنّه قال في المائدة: كان طعاما ينزل عليهم من السماء حيثما نزلوا[7].

---

(١) ابن جرير ٩/١٢٧.

(٢) يحيى بن سلام ـ كما في تفسير ابن أبي زمنين /.

(٣) ابن جرير ٩/١٢٤.

(٤) ابن أبي حاتم ٤/١٢٤٦.

(٥) تفسير ابن أبي زمنين ٢/٥٥.

(٦) ابن جرير ٩/١٢٦.

(٧) ابن جرير ٩/١٢٨.

٦. روي أنّه كان يحدث عن عيسى ابن مريم أنه قال: لبني إسرائيل: هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوما، ثم تسألوه فيعطيكم ما سألتم، فإن أجر العامل على من عمل له؟ ففعلوا، ثم قالوا: يا معلم الخير، قلت لنا: إن أجر العامل على من عمل له، وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوما، ففعلنا، ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يوما إلا أطعمنا، فـ ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء، عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة، حتى وضعتها بين أيديهم، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم[1].

السلمي:

روي عن أبو عبد الرحمن السلمي (ت ٧٤ هـ) أنّه قال: ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ خبزا، وسمكا[2].

ابن العاص:

روي عن ابن عمرو بن العاص (ت ٧٧ هـ) أنّه قال: إن أشد الناس عذابا يوم القيامة من كفر من أصحاب المائدة، والمنافقون، وآل فرعون[3].

ابن جبير:

روي عن سعيد بن جبير (ت ٩٥ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿مَائِدَةً﴾ المائدة: الخوان[4].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَتَطْمَئِنَّ﴾ توقن[5].

٣. روي أنّه قال: أنزل على المائدة كل شيء إلا اللحم، والمائدة: الخوان[6].

٤. روي أنّه قال: نزلت المائدة وهي طعام يفور، فكانوا يأكلون منها قعودا، فأحدثوا، فرفعت

---

(١) ابن جرير ٩/١٢١.

(٢) ابن الأنباري في كتاب الأضداد ص ٣٥١.

(٣) ابن جرير ٩/١٣٢.

(٤) ابن أبي حاتم ٤/١٢٤٤.

(٥) ابن أبي حاتم ٤/١٢٤٤.

(٦) ابن أبي حاتم ٤/١٢٤٥.

شيئا، فأكلوا على الركب، ثم أحدثوا، فرفعت شيئا، فأكلوا قياما، ثم أحدثوا، فرفعت البتة[1].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ هو مثل ضرب، ولم ينزل عليهم شيء[2].

٢. روي أنّه قال: مائدة عليها طعام، أبوها حين عرض عليهم العذاب إن كفروا، فأبوا أن تنزل عليهم[3].

٣. روي أنّه قال: هو الطعام ينزل عليهم حيث نزلوا[4].

عكرمة:

روي عن عكرمة (ت ١٠٥ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: إن رسول الله ﷺ قال: (لولا بنو إسرائيل ما خنز[5]، الخبز، ولا نتن اللحم، ولكنهم خبئوه لغد؛ فأنتن اللحم، وخنز الخبز)[6].

٢. روي أن الخبز الذي أنزل مع المائدة كان من أرز[7].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: يقولون: هل ربك فاعل، وهو كلام العرب: ما أستطيع ذلك؛ أي: ما أنا بفاعل ذلك[8].

---

(١) ابن الأنباري ص ٣٥١ واللفظ له، وأبو الشيخ في العظمة (١٠١٣).

(٢) ابن جرير ٩/١٣٠.

(٣) ابن جرير ٩/١٣٠.

(٤) ابن جرير ٩/١٢٦.

(٥) ما خنز: ما أنتن.

(٦) عزاه السيوطي إلى سفيان بن عيينة.

(٧) ابن أبي حاتم ٤/١٢٤٦.

(٨) تفسير ابن أبي زمنين ٢/٥٤.

٢. روي أنّه قال: لما قيل لهم: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا﴾، قالوا: لا حاجة لنا فيها، فلم تنزل عليهم[١].

العوفي:

روي عن عطية العوفي (ت ١١٢ هـ) أنّه قال: المائدة سمكة فيها من طعم كل طعام[٢].

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ قال: (ألهموا)[٣].

٢. روي أنّه قال: (المائدة التي نزلت على بني إسرائيل مدلاة بسلاسل من ذهب، عليها تسعة أحوتة وتسعة أرغفة)[٤]

ابن منبه:

روي عن وهب بن منبه (ت ١١٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه سئل عن المائدة التي أنزلها الله من السماء على بني إسرائيل، قال: كان ينزل عليهم في كل يوم في تلك المائدة من ثمار الجنة، فأكلوا ما شاءوا من ضروب شتى، فكانت يقعد عليها أربعة آلاف، فإذا أكلوا أبدل الله مكان ذلك بمثله، فلبثوا بذلك ما شاء الله[٥].

٢. روي أنّه قال: ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ نزل عليهم قرصة من شعير، وأحوات، قال: الحسن: قال: أبو بكر: فحدثت به عبد الصمد بن معقل، فقال: سمعت وهبا وقيل له: وما كان ذلك يغني عنهم؟ فقال: لا شيء، ولكن الله حشا بين أضعافهن البركة، فكان قوم يأكلون ثم يخرجون، ويجيء آخرون فيأكلون ثم يخرجون، حتى أكلوا جميعهم وأفضلوا[٦].

---

(١) ابن جرير ٩/١٣٠.

(٢) ابن جرير ٩/١٢٥.

(٣) تفسير العيّاشي ١/٣٥٠.

(٤) تفسير العيّاشي ١/٣٥٠.

(٥) ابن أبي حاتم ٤/١٢٤٨.

(٦) عبد الرزاق ١/٢٠٠.

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾، قال: أرادوا أن تكون لعقبهم من بعدهم[(١)].

٢. روي أنّه قال: كانت تنزل عليهم بكرة وعشيا، حيث كانوا كالمن والسلوى لبني إسرائيل[(٢)].

٣. روي أنّه قال: ذكر لنا: أنها كانت مائدة ينزل عليها الثمر من ثمار الجنة، وأمروا ألا يخبئوا ولا يخونوا ولا يدخروا لغد، بلاء أبلاهم الله به، وكانوا إذا فعلوا شيئا من ذلك أنبأهم به عيسى، فخان القوم فيه، فخبئوا وادخروا لغد[(٣)].

٤. روي أنّه قال: ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، قال: ذكر لنا: أنهم لما صنعوا في المائدة ما صنعوا حولوا خنازير[(٤)].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ معناه ألقيت في قلوبهم[(٥)].

٢. روي أنّه قال: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ معناه هل يريد ربّك[(٦)].

السدي:

روي عن إسماعيل السدي الكوفي (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ قالوا: هل يطيعك ربك إن سألته؟ فأنزل الله عليهم مائدة من السماء، فيها جميع الطعام إلا اللحم، فأكلوا منها[(٧)].

---

(١) ابن جرير ٩/١٢٣.

(٢) تفسير البغوي ٣/١٢٠.

(٣) ابن جرير ٩/١٢٩.

(٤) ابن جرير ٩/١٣٢.

(٥) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٢.

(٦) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٢.

(٧) ابن جرير ٩/١٢١.

٢. روي أنّه قال: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾، يقول: نتخذ اليوم الذي نزلت فيه عيدا، نعظمه نحن ومن بعدنا[١].

٣. روي أنّه قال: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ﴾: بعدما جاءته المائدة ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ يقول: أعذبه بعذاب لا أعذبه أحدا غير أهل المائدة[٢].

الكلبي:

روي عن محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: كان عليها خبز، ورز، وبقل[٣].

٢. روي أنّه قال: أنزل الله خبزا، وسمكا، وخمسة أرغفة، فأكلوا ما شاء الله تعالى، والناس ألف ونيف، فلما رجعوا إلى قراهم ونشروا الحديث ضحك منهم من لم يشهد، وقالوا: ويحكم! إنما سحر أعينكم، فمن أراد الله به الخير ثبته على بصيرته، ومن أراد فتنته رجع إلى كفره، ومسخوا خنازير ليس فيهم صبي ولا امرأة، فمكثوا بذلك ثلاثة أيام، ثم هلكوا، ولم يتوالدوا، ولم يأكلوا، ولم يشربوا، وكذلك كل ممسوخ[٤].

الصادق:

روي عن الإمام الصادق (ت ١٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: لما أنزلت المائدة على عيسى، قال: للحواريين: لا تأكلوا منها، حتى آذن لكم، فأكل منها رجل منهم، فقال بعض الحواريين: يا روح الله، أكل منها فلان، فقال له عيسى: أكلت منها؟ فقال له: لا، فقال الحواريون: بلى والله ـ يا روح الله ـ لقد أكل منها، فقال لهم عيسى: صدق أخاك، وكذب بصرك)[٥].

---

(١) ابن جرير ١٢٣/٩.

(٢) ابن جرير ١٣٢/٩.

(٣) تفسير البغوي ١١٩/٣.

(٤) تفسير البغوي ١٢٠/٣.

(٥) تفسير العيّاشي ٣٥٠/١.

٢. روي أنّه قال: معنى الآية: هل تستطيع أن تدعو ربك[1].

ابن جريج:

روي عن ابن جريج (ت ١٥٠ هـ) أنّه قال: ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا﴾ الذين هم أحياء منهم يومئذ، ﴿وَآخِرِنَا﴾ من بعدهم منهم[2].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾، وهم: القصارون مبيضو الثياب، وكانوا اثني عشر رجلا، والوحي إليهم من الله عز وجل هو إلهام، قذف في قلوبهم التصديق بالله عز وجل بأنه واحد لا شريك له[3].

٢. روي أنّه قال: ﴿أَنْ آمِنُوا بِي﴾: أن صدقوا بأني واحد ليس معي شريك، ﴿وَبِرَسُولِي﴾ عيسى ابن مريم أنه نبي رسول، ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ يعني: صدقنا بما جاء به من عند الله، ونشهد أن الله عز وجل واحد لا شريك له، وأنك رسوله، ﴿وَاشْهَدْ﴾ يا عيسى ﴿بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ يعني: مخلصون بالتوحيد[4].

٣. روي أنّه قال: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ يقول: هل يقدر على أن يعطيك ربك إن سألته ﴿أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَ﴾ فلا تسألوه البلاء ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإنها إن نزلت ثم كذبتم عوقبتم[5].

٤. روي أنّه قال: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ فقد جعنا، ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ يعني: وتسكن قلوبنا إلى ما تدعونا إليه، ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ بأنك نبي رسول، ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ يعني: على المائدة عند بني إسرائيل إذا رجعنا إليهم، وكان القوم الذين خرجوا وسألوا المائدة خمسة آلاف بطريق،

---

(١) مجمع البيان ٣/٤٠٦.

(٢) ابن جرير ٩/١٢٤.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٧.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٧.

(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٧.

وهم الذين سألوا المائدة مع الحواريين[1].

٥. روي أنّه قال: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ عليه السلام عند ذلك: ﴿اللهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ يقول: تكون عيدا لمن كان في زماننا عند نزول المائدة، وتكون عيدا لمن بعدنا، ﴿و﴾ تكون المائدة ﴿آية منك وارزقنا﴾ يعني: المائدة، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ من غيرك، يقول: فإنك خير من يرزق[2].

٦. روي أنّه قال: ﴿قَالَ اللهُ﴾ عز وجل: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ يعني: المائدة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ فنزلها يوم الأحد، ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ﴾ نزول المائدة ﴿مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، فنزلت من السماء عليها سمك طري، وخبز رقاق، وتمر، وذكروا: أن عيسى ﷺ قال: لأصحابه وهم جلوس في روضة: هل مع أحد منكم شيء؟ فجاء شمعون بسمكتين صغيرتين، وخمسة أرغفة، وجاء آخر بشيء من سويق، فعمد عيسى ﷺ فقطعهما صغارا، وكسر الخبز فوضعها فلقا فلقا،، وضع السويق، فتوضأ، ثم صلى ركعتين، ودعا ربه عز وجل، فألقى الله عز وجل على أصحابه شبه السبات، ففتح القوم أعينهم، فزاد الطعام حتى بلغ الركب، فقال عيسى ﷺ للقوم: كلوا، وسموا الله عز وجل، ولا ترفعوا، وأمرهم أن يجلسوا حلقا حلقا، فجلسوا فأكلوا حتى شبعوا، وهم خمسة آلاف رجل، وهذا ليلة الأحد ويوم الأحد، فنادى عيسى ﷺ، فقال: أكلتم؟ قالوا: نعم، قال: لا ترفعوا، قالوا: لا نرفع، فرفعوا، فبلغ ما رفعوا من الفضل أربعة وعشرين مكتلا، فآمنوا عند ذلك بعيسى ﷺ، وصدقوا به، ثم رجعوا إلى قومهم اليهود من بني إسرائيل ومعهم فضل المائدة، فلم يزالوا بهم حتى ارتدوا عن الإسلام، فكفروا بالله، وجحدوا بنزول المائدة، فمسخهم الله عز وجل وهم نيام خنازير، وليس فيهم صبي ولا امرأة[3].

الثوري:

روي عن سفيان الثوري (ت ١٦١ هـ) أنّه قال: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾، قالوا: نصلي فيه، نزلت

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٧.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٨.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٨.

مرتين[1].

الكاظم:

روي عن الإمام الكاظم (ت ١٨٣ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: إن الخنازير من قوم عيسى، سألوا نزول المائدة فلم يؤمنوا بها، فمسخهم الله خنازير[2].

٢. روي أنّه قال: كانت الخنازير قوم من القصارين، كذبوا بالمائة، فمسخوا خنازير[3].

الرضا:

روي عن الإمام الرضا (ت ٢٠٣ هـ) أنه قيل له: لم سمي الحواريون الحواريين؟ فقال: (أما عند الناس فإنهم سموا الحواريين لأنهم كانوا قصارين، يخلصون الثياب من الوسخ بالغسل، وهو اسم مشتق من الخبز الحوار، وأما عندنا فسمي الحواريون الحواريين لأنهم كانوا مخلصين في أنفسهم، ومخلصين لغيرهم من أوساخ الذنوب، بالوعظ والتذكير)، فقيل له: فلم سمي النصارى نصارى؟قال: (لأنهم كانوا من قرية اسمها ناصرة، من بلاد الشام، نزلتها مريم ونزلها عيسى (عليهما السلام) بعد رجوعهما من مصر)[4].

المرتضى:

ذكر الإمام المرتضى بن الهادي (ت ٣١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[5]:

١. معنى ﴿أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ هو: ما أوحى عز وجل إلى عيسى، من الأمر لهم والنهي والدعاء إلى الله عز وجل، فلما كان ذلك إليهم جاز أن يقول: أوحيت؛ لأن الأمر والنهي كان فيهم ولهم.

٢. قد سئل جدي القاسم عن هذه المسألة، فقال: معنى ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾: يقولون: هل ذلك مما يجوز طلبنا له.. والحواريون فلا يشكون ولا ينكرون: أن الله سبحانه يستطيع ويقدر، والشك في هذا

---

(١) ابن جرير ٩/١٢٤.

(٢) تفسير العيّاشي ١/٣٥١.

(٣) تفسير العيّاشي ١/٣٥١.

(٤) علل الشرائع: ١/٨٠.

(٥) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/٣٦٤.

كفر بالله عز وجل، فهل يتوهم على الحواريين الشك في قدرة الله عز وجل، وقال: ﴿يَسْتَطِيعُ﴾ يقرأ بالياء، ولا يقرأ بالتاء.

٣. ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، فقلت: هل أنزلها عليهم أم لا؟ والجواب: بل قد أنزلت عليهم؛ ألا تسمع كيف يقول، وقوله الحق: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، ومعنى قوله: ﴿عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾، وإنما سألوا أن تكون لهم المائدة عيدا، فكان ذلك يوم عيد من أعيادهم، فقالوا: لأولنا وآخرنا.. أرادوا: جميعهم، الأول منهم هو: نبلهم المقدمون، والآخر المؤخر هو: الأوسط منهم التابع للأول؛ وهذا موجود في لغة العرب، يقول: (بلغت الرسالة أولهم وآخرهم)، يريد بقوله ذلك: أي جميعهم، ويقول القائل: (خرجوا عن آخرهم)، وهذا الكلام حسن جميل جائز.. وقد قيل: إنها لم تنزل عليهم.. وليس ذلك عندي كذلك؛ لأن الله سبحانه يقول: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، وقوله الحق، ووعده الصدق، تعالى علوا كبيرا.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. وقوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ والحواريون: قيل: هم خواصه، وكذلك أصحاب رسول الله ﷺ هم حواريوه، وقد ذكرنا هذا في سورة آل عمران والاختلاف فيه.

٢. ثم قوله: ﴿أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ يحتمل الوحي إليهم وجهين:

أ. أحدهما: أنه أوحى إلى رسوله عيسى عليه السلام فنسب ذلك إليهم وأضيف؛ لأن الوحي إلى عيسى كالوحي إليهم؛ كقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ وما أنزل علينا، وما أنزل على كذا ما أنزل إلى رسول الله كالمنزل إلينا؛ فعلى ذلك الوحي إلى عيسى هو كالوحي إليهم.

ب. الثاني: أوحى إليهم وحي إلهام؛ كقوله: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾ ونحوه، أنه وحي إلهام وقذف لا وحي إرسال، والقذف في القلب من غير تكلف ولا كسب، وهو الإخطار بالقلب على السرعة، والخطر يكون من الله تعالى، ويكون من الشيطان، لكن ما يكون من الله تعالى يكون خيرًا، يتبين ذلك في آخره.

---

(١) تأويلات أهل السنة: ٣/٦٤٩.

٣. وقوله عز وجل: ﴿قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ يحتمل وجهين:

أ. يحتمل: أن قالوا لعيسى: واشهد أنت عند ربك بأننا مسلمون.

ب. ويحتمل: أن سألوا ربهم: أن يكتبهم من الشاهدين؛ كقوله تعالى: ﴿آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾

٤. وقوله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ اختلف فيه:

أ. قيل: إن قومًا من غير الحواريين سألوا الحواريين أن يسألوا عيسى عليه السلام حتى يسأل ربه أن ينزل عليهم مائدة من السماء؛ لأن الحواريين قد قلنا: إنهم كانوا خواص عيسى عليه السلام فكان كمن بدت له حاجة إلى بعض الملوك؛ فإنه إنما يرفع أولا إلى خواصه؛ فهم الذين يتولون رفعها إلى الملك؛ فعلى ذلك رفعوا حاجتهم إلى الحواريين؛ ليسألوا هم نبي الله عيسى عليه السلام ليسأل ربه.

ب. وقال آخرون: لم يسألوا قومهم ذلك؛ ولكن الحواريين هم الذين سألوا عيسى عليه السلام أن يسأل ربه حتى ينزل عليهم مائدة من السماء، لكن سؤالهم ذلك يحتمل وجوها:

• الأول: يحتمل سألوا ذلك؛ لما أرادوا أن يشاهدوا الآية، ولم يكونوا شاهدوا قبل ذلك؛ فأحبوا أن يشاهدوها، وإن كانوا قد آمنوا به وصدقوه من قبل؛ ليزداد لهم بذلك طمأنينة ويقينًا، وهو كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، لما يحتمل أن نفسه كانت تحدث وتنازع في ذلك، وأحب أن يعاين ذلك ويشاهده؛ ليزداد له طمأنينة ويقينًا؛ فعلى ذلك أُولَئِكَ كانت أنفسهم تحدث وتنازع في مشاهدة الآيات؛ فأحبوا أن يريهم بذلك؛ ليزداد لهم ـ طمأنينة ويقينًا وصلابة في التصديق.

• الثاني: يحتمل أن يكون عيسى يخبرهم أن لهم كرامة ومنزلة عند الله؛ فأحبوا أن يعرفوا منزلتهم عند الله وكرامتهم.

• الثالث: سألوا ذلك؛ ليعرفوا منزلة عيسى عليه السلام عند الله وكرامته: هل يجيب ربه دعاءه إذا سأل ربه؟ والله أعلم.

٥. وإن كان السؤال من قوم غير الحواريين؛ فهو لما بدت لهم من الحاجة إليها، ولا نعلم ذلك إلا بالخبر الصادق.

٦. وقوله: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ يقرأ بالياء والتاء جميعًا:

أ. فمن قرأ بالتاء ذهب في التأويل إلى أن فيه إضمارًا؛ كأنهم قالوا: هل تستطيع أن تسأل ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء.

ب. ومن قرأ بالياء قال: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾، أي: هل يجيب ربُّك دعاءك إذا دعوته أن ينزل علينا مائدة من السماء.

٧. قال الفراء: قد يكون مثل هذا السؤال على غير الجهل من السائل بالمسئول؛ لأنه يجوز أن يقال في الكلام: هل يستطيع فلان أن يقوم في حاجتنا وفي أمرنا، على علم منه أنه يستطيع، ولكنه يسأل عنه: أيفعل أم لا؟ وذلك جائز في العربية؛ ألا ترى أن قراءة من قرأ بالتاء ـ وهو ابن عباسٍ وعائشة: ﴿هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ﴾ ـ على علم منهم أن عيسى يستطيع السؤال لربه!؟ لكنهم قالوا ذلك لما ذكرنا، وذلك جائز في اللغة، ويجوز أن يراد بالاستطاعة: الإرادة، يقول الرجل لآخر: لا أستطيع أن أنظر إلى فلان، وهو يقدر النظر، لكنه يريد بذلك: لا أريد أن أنظر إليه؛ فعلى ذلك قوله: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾: هل يأذن لك ربُّك بالسؤال في ذلك.

٨. وقوله: عز وجل: ﴿اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، أي: اتقوا الله، ولا تسألوا شيئًا لم يأذن لكم في ذلك ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

٩. وقوله عز وجل: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾، يدل أنهم سألوا ذلك؛ لما كانت تحدث أنفسهم وتنازع في مشاهدة الآيات ومعاينتها، وإن كانوا صدقوا عيسى عليه السلام فيما يقول لهم ويخبر عن الله؛ للمعنى الذي ذكرنا في إبراهيم عليه السلام.

١٠. وقوله عز وجل: ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾، اختلف في تلاوته وفي تأويله:

أ. قال بعضهم بالنصب ﴿وَنَعْلَمَ﴾، فهي القراءة الظاهرة المشهورة، ومعناه: وأن نعلم ما قد صدقتنا.

ب. الثاني: أن العلم بالشيء من جهة الخبر ربما يعترض الوساوس والشبه فطلبوا آية من جهة الحس والعيان؛ ليكون ذلك أدفع لما يعترض من الشبه والوساوس.

١١. وقوله عز وجل: ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾، أي: نكون عليها لمن أنكرها من

الشاهدين: أنها نزلت.

١٢. وقوله عز وجل: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾، أي: طعامًا دائمًا، قال بعضهم: قوله: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾، أي: مجتمعًا، وسمي يوم العيد؛ لاجتماع الخلق، ثم قيل: نزلت يوم الأحد؛ فجعلوا ذلك اليوم يوم عيدهم.

١٣. ثم اختلف في نزول المائدة:

أ. قال الحسن: لم تنزل المائدة؛ لأنه سأل أن تكون لنا عيدًا لأولنا وآخرنا، ونحن من آخرهم، فلم يكن لنا ما ذكر الثاني: ﴿قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، وقد كفر منهم، ثم لم يظهر أنه عذبهم عذابًا لم يعذبه أحدًا من العالمين.

ب. وقال بعضهم: ليس فيه دلالة أنها لم تنزل؛ لأنه يجوز أن يكون قوله: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ ما لم يأت النسخ، فكان لهم ذلك إلى أن بعث نبيُّنا مُحَمَّد ﷺ فنسخ ذلك بيوم الجمعة، وقالوا: قوله: ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ذكر في بعض القصة أن من كفر منهم بعد ذلك مسخهم خنازير، فذلك تعذيب لم يعذبه أحدًا من العالمين، وقيل: يحتمل قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ في الآخرة، والله أعلم بذلك كله.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. معنى قوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾، أي جعلت الوحي إليهم على لسان النبي صلى الله عليه ﴿أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾

٢. معنى قوله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ الآية: يمكن ـ والله أعلم ـ أن يكون قال: اتقوا الله ووعظهم في قولهم: هل يستطيع ربك، لأنه لفظ قبيح لا معنى له، ولم يعظهم في طلبهم للمائدة، لأنه لا بأس بذلك، وإنها جاء الخطأ في قولهم: هل يقدر ربك على أن ينزل عليهم مائدة!؟ والله يقدر على أكثر من ذلك، ولكنهم أخطؤوا في اللفظ على غير

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/٢٣٠.

يقين، فزجرهم ووعظهم في ذلك، ولا أحسب إلا أنهم جهلوا في اللفظ ولم يتعمدوا.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ أي ألهمتهم كما قال: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل:٦٨]، أي ألهمهم ويجوز أن يكون الوحي مما عاينوا وشاهدوا من الآيات والدلالات الظاهرة فجرى ذلك مجرى الوحي إليهم أن يؤمنوا أي وربك وفي التذكير بهذه النعمة قولان:

أ. أحدهما: أنها نعمة على الحواريين أن آمنوا فذكر الله بها عيسى لأنهم أنصاره.

ب. الثاني: أنها نعمة على عيسى لأنه جعل له أنصاراً من الحواريين قد آمنوا به وهم خواصه الذين قد استخصهم من جملة الناس.

٢. ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ يعني بالله تعالى ربك ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ أشهدوا الله تعالى وعيسى على إسلامهم.

٣. ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ بالتاء وبالياء فمن قرأ بالياء ضم الباء من ربك ومن قرأ بالتاء فتح الباء من ربك أي هل تستطيع أن تسأل ربك؛ فمن قرأ بالياء أي هل يستجيب ويطيعك.

٤. ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ وهذا اعتذار منهم بينوا سبب سؤالهم حين نهوا عنه فقالوا: ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ وإنما أرادوا تبركاً بها لا حاجة إليها داعية لأنهم لو كانوا محتاجين لما نهوا عن السؤال ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ بأن الله سبحانه وتعالى قد بعثك إلينا نبياً وقد اختارنا لك أعواناً ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ بأنك نبي وأنا لك أعوان وإنما استزادوا بسؤالهم علماً إلى علمهم ويقيناً إلى يقينهم ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لك بها عند الله بأنك قد أديت ما بعثك به إلينا.

٥. ﴿أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ والمائدة لا تكون مائدة حتى يكون عليها الطعام وهي من قبل خوان ﴿قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وإنما أمرهم بذلك لأن التقوى خير لهم مما سألوا فأدبهم ليتقوا

---

(١) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/٢٣١.

الله في سؤال الأنبياء طلباً لعنتهم فأما استزادة الآيات منهم إن كنتم لهم مؤمنين ومصدقين لهم لأن ما قامت به دلائل صدقهم يغنيهم عن استزادة الآيات.

٦. ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ إنما زيدت الميم في آخر قوله اللهم مثقلة عوضاً من حرف النداء ولم يجز أن يدخل عليه حرف النداء فلا يجوز أن يقال: يا اللهم لأن الميم المعوضة قد أغنت عنه قال الشاعر:

وما عليك أن تقولي كلما سبحت أو هللت يا اللهما

اردد علينا سجيناً مسلما.. وهذا لضرورة الشعر فسأل عيسى ربه أن ينزل عليهم المائدة التي سألوها وإنما كان السؤال من عيسى تفضيلاً على الحواريين لأنهم سألوا بعد ظهور آياته ومعجزاته واستحكام معرفتهم به.

٧. ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ أي نتخذ اليوم الذي تنزل فيه عيداً لنا نعظمه ونفخمه نحن ومن بعدنا ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ أي علامة من علامات الإعجاز والدلالة على صدق أنبيائك ﴿وَارْزُقْنَا﴾ أي وارزقنا الشكر على ما أنعمت به علينا من إجابتك.

٨. ﴿قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ فهذا وعد من الله سبحانه وتعالى أجاب به عيسى كما كان سؤال عيسى إجابة للحواريين وفي هذا السؤال مثل ضربه الله تعالى لخلقه ينهاهم به عن مسألة الآيات لأنبيائه بعد إقرارهم بنبوته وتصديقهم بمعجزاتهم وقيل إن الله سبحانه وتعالى أنزل المائدة على عيسى وكان عليها ثمار الجنة وأطعمتها.

٩. وفي قوله: ﴿عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي من عالمي زمانهم في العذاب قولان:

أ. أحدهما: أن يمسخوا قردة.

ب. الثاني أنه جنس من العذاب لا يعذب به غيرهم لأنهم كفروا بعد أن رأوا من الآيات ما لم يره غيرهم فكانوا أعظم كفراً فصاروا أعظم عذاباً.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ في وحيه إلى الحواريين وجهان:

أ. أحدهما: معناه أَلْهَمْتُهُم أن يؤمنوا بي، ويصدقوا أنك رسولي، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]

ب. الثاني: يعني ألقيت إليهم بالآيات التي أريتهم أن يؤمنوا بي وبك.

٢. وفي التذكير بهذه النعمة قولان:

أ. أحدهما: أنها نعمة على الحواريين أن آمنوا، فذكر الله تعالى به عيسى لأنهم أنصاره.

ب. الثاني: أنها نعمة على عيسى، لأنه جعل له أنصاراً من الحواريين قد آمنوا به، والحواريون: هم خواص عيسى عليه السلام الذين استخلفهم من جملة الناس.

٣. ﴿قَالُوا ءَامَنَّا﴾ يعني بالله تعالى ربك، ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ يحتمل وجهين:

أ. أحدهما: أنهم أشهدوا عيسى عليه السلام على إسلامهم بالله تعالى وبه.

ب. الثاني: أنهم أشهدوا الله تعالى بذلك على أنفسهم.

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾، قرأ الكسائي وحده (هل تَّستطيع ربَّك) بالتاء والإدغام، وربك بالنصب، وفيها وجهان:

أ. أحدهما: معناه هل تستدعي طاعة ربك فيما تسأله، قاله الزجاج.

ب. الثاني: هل تستطيع أن تسأل ربك، قاله مجاهد، وعائشة.

٤. وقرأ الباقون ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ بالياء والإظهار، وفي ذلك التأويل ثلاثة أوجه:

أ. أحدها: هل يقدر ربك، فكان هذا السؤال في ابتداء أمرهم قبل استحكام معرفتهم بالله تعالى.

ب. الثاني: معناه هل يفعل ربك، قاله الحسن، لأنهم سموا بالحواريين بعد إيمانهم.

ج. الثالث: معناه هل يستجيب لك ربك ويطيعك.

٥. ﴿أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ قاله السدي، قال قطرب: والمائدة لا تكون مائدة حتى يكون

(١) تفسير الماوردي: ٢/٨١.

عليها طعام، فإن لم يكن قيل: خِوان، وفي تسميتها مائدة وجهان:

أ. أحدهما: لأنها تميد ما عليها أي تعطي، قال رؤبة: (إلى أمير المؤمنين الممتاد) أي المستعطي.

ب. الثاني: لحركتها بما عليها من قولهم: مَادَ الشيء إذا مال وتحرك، قال الشاعر:

لعلك باك إن تغنت حمامة   يميد غصن من الأيك مائل

٦. ﴿قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فيه قولان:

أ. أحدهما: يعني اتقوا معاصي الله إن كنتم مؤمنين به، وإنما أمرهم بذلك لأنه أولى من سؤالهم.

ب. الثاني: يعني اتقوا الله في سؤال الأنبياء إما طلباً لِعَنَتِهِم وإما استزادة للآيات منهم، إن كنتم مؤمنين بهم ومصدقين لهم لأن ما قامت به دلائل صدقهم يغنيكم عن استزادة الآيات منهم.

٧. ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ وهذا اعتذار منهم بَيَّنُوا به سبب سؤالهم حين نهوا عنه فقالوا: ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾، يحتمل وجهين:

أ. أحدهما: أنهم أرادوا الأكل منها للحاجة الداعية إليها.

ب. الثاني: أنهم أرادوه تبركاً بها لا لحاجة دعتهم إليها، وهذا أشبه لأنهم لو احتاجوا لم ينهوا عن السؤال.

٨. ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ يحتمل ثلاثة أوجه:

أ. أحدها: تطمئن إلى أن الله تعالى قد بعثك إلينا نبياً.

ب. الثاني: تطمئن إلى أن الله تعالى قد اختارنا لك أعواناً.

ج. الثالث: تطمئن إلى أن الله قد أجابنا إلى ما سألنا.

٩. ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾:

أ. في أنك نبي إلينا، وذلك على الوجه الأول.

ب. وعلى الوجه الثاني: صدقتنا في أننا أعوان لك.

ج. وعلى الوجه الثالث: أن الله قد أجابنا إلى ما سألنا.

١٠. وفي قولهم ﴿وَنَعْلَمُ﴾ وجهان:

أ. أحدهما: أنه علم مستحدث لهم بهذه الآية بعد أن لم يكن، وهذا قول من زعم أن السؤال كان

قبل استحكام المعرفة.

ب. الثاني: أنهم استزادوا بذلك علماً إلى علمهم ويقيناً إلى يقينهم، وهذا قول من زعم أن السؤال كان بعد التصديق والمعرفة.

١١. ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ يحتمل وجهين.

أ. أحدهما: من الشاهدين لك عند الله بأنك قد أديت ما بعثك به إلينا.

ب. الثاني: من الشاهدين عند من يأتي من قومنا بما شاهدناه من الآيات الدالة على أنك نبي إليهم وإلينا.

١٢. ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ إنما زيدت الميم في آخر اللهم مثقلة عوضاً عن حرف النداء، فلم يجز أن يدخل عليه حرف النداء فلا يقال يا اللهم لأن الميم المُعَوِّضة منه أغنت عنه، فأما قول الشاعر:

وما عليك أن تقولي كلما	سبحت أو هللت يا اللهم
أردد علينا شيخنا مسلما	فإننا من خيره لن نعْدَما

فلأن ضرورة الشعر جوزته، سأل عيسى ربه، أن ينزل عليهم المائدة التي سألوه.

١٣. وفي سؤاله وجهان:

أ. أحدهما: أنه تفضل عليهم بالسؤال، وهذا قول من زعم أن السؤال بعد استحكام المعرفة.

ب. الثاني: أنه رغبة منه إلى الله تعالى في إظهار صدقه لهم، وهذا قول من زعم أن السؤال قبل استحكام المعرفة.

١٤. ﴿تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ فيه ثلاثة تأويلات:

أ. أحدها: نتخذ اليوم الذي أنزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا قاله قتادة والسدي، وقيل: إن المائدة أنزلت عليهم في يوم الأحد غداة وعشية، ولذلك جعلوا الأحد عيداً.

ب. الثاني: معناه عائدة من الله تعالى علينا، وبرهاناً لنا ولمن بعدنا.

ج. الثالث: يعني نأكل منها جميعاً، أولنا وآخرنا، قاله ابن عباس.

١٥. ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾:

أ. يعني علامة الإِعجاز الدالة على توحيدك وقيل التي تدل على صدق أنبيائك، الشكر على ما أنعمت به علينا من إجابتك.

ب. وقيل: أرزقنا ذلك من عندك.

١٦. قوله تعالى: ﴿قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وهذا وعد من الله تعالى أجاب به سؤال عيسى كما كان سؤال عيسى إجابة للحواريين.

١٧. واختلفوا في نزول المائدة على ثلاثة أقاويل:

أ. أحدها: أنه مثل ضربه الله تعالى لخلقه، ينهاهم به عن مسألة الآيات لأنبيائه، قاله مجاهد.

ب. الثاني: أنهم سألوا ووعدهم بالإِجابة، فلما قال لهم: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ استعفوا منها فلم تنزل عليهم، قاله الحسن.

ج. الثالث: أنهم سألوا فأجابهم، ولم يستعفوا، لأنه ما حكى الاستعفاء عنهم، ثم أنزلها عليهم، لأنه قد وعدهم، ولا يجوز أن يخلف وعده، ومن قال بهذا اختلفوا في الذي كان عليها حين نزلت على ستة أقاويل:

- أحدها: أنه كان عليها ثمار الجنة، قاله قتادة.
- الثاني: أنه كان عيها خبز ولحم، قاله عمار بن ياسر.
- الثالث: أنه كان عليها سبعة أرغفة، قاله إسحاق بن عبد الله.
- الرابع: كان عليها سمكة فيها طعم كل الطعام، قاله عطاء، وعطية.
- الخامس: كان عليها كل طعام إلا اللحم، قاله ميسرة.
- السادس: رغيفان وحوتان، أكلو منها أربعين يوماً في سفرة، وكانوا ومن معهم نحو خمسة آلاف، قاله جويبر، وأُمِرُوا أن يأكلوا منها ولا يخونوا ولا يدخروا، فخانوا وادخروا فَرُفِعَتْ.

١٨. وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قولان:

أ. أحدهما: يعني من عالمي زمانهم.

ب. الثاني: من سائر العالمين كلهم.

١٩. وفيهم قولان:

أ. أحدهما: هو أن يمسخهم قردة، قاله قتادة.

ب. الثاني: أنه جنس من العذاب لا يعذب به غيرهم لأنهم كفروا بعد أن رأوا من الآيات ما لم يره غيرهم، فكانوا أعظم كفراً فصاروا أعظم عذاباً.

٢٠. وهل هذا العذاب في الدنيا أو في الآخرة؟ قولان: وفي الحواريين قولان:

أ. أحدهما: أنهم خواص الأنبياء.

ب. الثاني: أنهم المندوبون لحفظ شرائعهم إما بجهاد أو علم.

٢١. وفي تسميتهم بذلك ثلاثة أقاويل:

أ. أحدها: لبياض ثيابهم، وهذا قول ابن عباس، تشبيهاً بما هم عليه من نقاء سرائرهم، قاله الضحاك، وهو بلغة القبط حواري.

ب. الثاني: لنظافة ثيابهم وطهارتها بطهارة قلوبهم.

ج. الثالث: بجهادهم عن أنبيائهم، قال الشاعر:

ونحن أناس نملأ البيد مأمنا ونحن حواريون حين نزاحف

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمنوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ التقدير واذكر إذ أوحيت إلى الحواريين، وفي معنى ﴿أَوْحَيْتُ﴾ قولان:

أ. أحدهما: أن معناه ألهمتهم كما قال: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ أي ألهمها، وقيل أمرتهم.

ب. الثاني: ألقيت اليهم بالآيات التي أريتهم إياها كما قال الشاعر:

الحمد لله الذي استقلت باذنه السماء واطمأنت

أوحى لها القرار فاستقرت.. أي القى إليها ويروى وحى لها.

٢. والفرق بين أوحى ووحى من وجهين:

---

(١) تفسير الطوسي: ٤/٥٨.

أ. أحدهما: أن أوحى بمعنى جعلها على صفة كقولك جعلها مستقرة، ووحى جعل فيها معنى الصفة، لأن أفعل أصله التعدية.

ب. وقال قوم: هما لغتان.

٣. وقال البلخي: معنى ﴿أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ أي أوحيت اليك أن تبلغهم أو إلى رسول متقدم، وقوله: ﴿أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ يعني أوحيت إلى الرسول الذي جاءهم، وفي معنى الآية قولان:

أ. أحدهما: قال أبو علي اذكر نعمتي عليك إذ أوحيت إلى الحواريين الذين هم أنصارك.

ب. الثاني: اذكر نعمتي على الحواريين لما في ذلك من العلم بنعم الله خاصة وعامة، وإنما حسن الحذف في التذكير بالنعمة للشهرة وعظم المنزلة باجلال النعمة ولذلك يحسن الحذف في الافتخار كقول الأعشى:

إن محلا وان مرتحلا وإن في السفر إذ مضوا مهلا

أي لنا محلا.

٤. ﴿الْحَوَارِيِّينَ﴾:

أ. قال الحسن: هم أنصار عيسى.

ب. وقيل:هم وزراؤه على أمره.

ج. وقيل: هم خاصة الرجل وخلصائه، ومنه قول النبي ﷺ للزبير أنه حواري، ومعناه خالصتي من الناس، والرفيق الحواري، لأنه أخلص إليه من كل ما يشوبه، وأصله الخلوص، ومنه حار يحور أي رجع إلى حال الخلوص، ثم كثر حتى قيل صار لكل راجع

د. وقيل: انهم كانوا قصارين.

٥. ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قرأ الكسائي والأعشى إلا النفار (هل تستطيع) بالتاء (ربك) بنصب الباء، الباقون بالياء وضم الباء، وأدغم الكسائي اللام في التاء.

٦. قيل في العامل في (إذ) قولان:

أ. أحدهما: أوحيت.

ب. الثاني: اذكر إذ قال الحواريون، وكلاهما يحتمل.

٧. وقيل في معنى قوله: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: هل يقدر وكان هذا في ابتداء أمرهم قبل أن تستحكم معرفتهم بالله تعالى، وما يجوز عليه وما لا يجوز من الصفات، ولذلك أنكر عليهم نبيهم، فقال: ﴿اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، لأنه لم يستكمل إيمانهم في ذلك الوقت.

ب. الثاني: هل يفعل ذلك قاله الحسن، كما يقول القائل: هل تستطيع أن تنهض أي هل تفعل، لأن المانع من جهة الحكمة أو الشهوة قد يجعل بمنزلة المنافي للاستطاعة.

ج. الثالث: هل يستجيب لك ربك، قال السدي هل يطيعك ربك أن سألته، فهذا على معنى استطاع وأطاع كقولهم استجاب بمعنى أجاب، وإنما حكى سيبويه استطاع بمعنى أطاع على زيادة السين، ومعنى قراءة الكسائي (هل تستطيع) أن تستدعي اجابة ربك، وأصله هل تستدعي طاعته فيما قبله من هذا ـ هذا قول الزجاج وفيه وجه آخر وهو هل تقدر أن تسأل ربك.

٨. والفرق بين الاستطاعة والقدرة أن الاستطاعة انطياع الجوارح للفعل والقدرة هي ما أوجبت كون القادر قادراً ولذلك يوصف تعالى بأنه قادر، ولا يوصف بأنه مستطيع.

٩. المائدة الخوان لأنها تميد بما عليها أي تحركه، قال أبو عبيدة: هي (مفعولة) في المعنى ولفظها (فاعلة) كقوله: ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أي مرضية وأصل المائدة الحركة من قولهم ماد يميد ميداً إذا تحرك، عن الزجاج، ومنه المائد المدار به في البحر ماد يميد ميداً، ومادة إذا أعطاه ومنه قول رؤبة:

نهدي رؤوس المترفين الأنداد　　　إلى أمير المؤمنين الممتاد

أي المستعطي ومادهم يميدهم ميداً إذا أطعمهم على المائدة ثم كثر حتى قيل لكم مطعم.

١٠. ﴿قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ معناه اتقوا معاصيه وكثرة سؤال الآيات، لأنكم إن كنتم مؤمنين بالله وبصحة نبوة عيسى، فقد أغناكم ما عرفتموه عن الآيات واتقوا سؤال نزول المائدة، فإنكم لا تعلمون ما يفعل الله بكم عند هذا السؤال.

١١. ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ قيل في معنى (الإرادة) هاهنا قولان:

أ. أحدهما: أن يكون بمعنى المحبة التي هي ميل الطباع.

ب. الثاني: أن تكون الإرادة التي هي من أفعال القلوب، ويكون التقدير فيه نريد بسؤالنا هذا، كأنهم قالوا: نريد السؤال من أجل هذا الذي ذكرنا، وهذه الإرادة وان تقدمت المراد بأوقات لا توصف بأنها عزم، لأنها متعلقة بفعل الغير.

١٢. ﴿تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا﴾: يجوز أن يكونوا قالوه وهم مستبصرون في دينهم مؤمنون كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ تحقيقه لنزداد طمأنانية إلى ما نحن عليه من المعرفة، وان كانت المعرفة لا تكون إلا مع الثقة التامة، فإن الدلائل كلما كثرت مكنت في النفس المعرفة.

١٣. ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ يعني الشاهدين لله بتوحيده بالدليل الذي نراه في المائدة والشهادة لك بالنبوة من جهة ذلك الدليل، والصدق هو الإخبار بالشيء على ما هو به والكذب هو الاخبار بالشيء لا على ما هو به.

١٤. ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللهُمَّ رَبَّنَا أنزل عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أخبر الله تعالى عن عيسى عليه السلام أنه سأل ربه أن ينزل عليه مائدة من السماء تكون عيداً لهم لأولهم وآخرهم على ما يقترحه قومه، ورفع (تكون) لأنه صفة للمائدة كما قال: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي﴾ في قراءة من رفعه لأنه جعله صفة، وفيه محذوف، لأن تقديره عيداً لنا ولأولنا وآخرنا لتصح الفائدة في تكرير اللام في أولنا وآخرنا، وقيل في معناه قولان:

أ. أحدهما: نتخذ اليوم الذي تنزل فيه عيداً نعظمه نحن ومن يأتي بعدنا ـ في قول السدي وقتادة وابن جريج ـ وهو قول أبي علي.

ب. الثاني: يكون ذلك عائدة فضل من الله ونعمة منه تعالى، والأول هو وجه الكلام، وقيل: إنها نزلت يوم الأحد.

١٥. ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ فالآية هي الدلالة العظيمة الشأن في إزعاج قلوب العباد إلى الإقرار بمدلولها، والاعتراف بالحق الذي يشهد به ظاهرها، فهي دلالة على توحيدك وصحة نبوة نبيك.

١٦. وقيل في طعام المائدة ثلاثة أقوال:

أ. أولها: قال ابن عباس وأبو عبد الرحمن: هو خبز وسمك، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام قال عطية: كانوا يجدون في السمك طيب كل طعام.

ب. الثاني: قال عمار بن ياسر: كان ثمراً من ثمار الجنة.

ج. الثالث: قال زادان وأبو ميسرة: كان عليها من كل طعام إلا اللحم.

١٧. ﴿وَارْزُقْنَا﴾ قيل في معناه ـ هاهنا ـ قولان:

أ. أحدهما: واجعل ذلك رزقاً لنا.

ب. الثاني: وارزقنا الشكر عليها ـ ذكرهما الجبائي ـ وإنما يكون الشكر رزقاً منه لنا لأنه لطف فيه ووفق له وإعانة عليه كما يكون المال رزقا لنا إذا ملكنا إياه لا بخلقه له.

١٨. وفي الآية دلالة على أن العباد يرزق بعضهم بعضا بدلالة قوله: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ لأنه لو لم يصح ذلك لم يجز ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ كما أنه لما لم يجز أن يكونوا آلهة لم يصح أن يقول أنت خير الآلهة، وصح ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ و﴿أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ و﴿أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾، و﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾

١٩. ﴿قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قرأ (منزلها) بالتشديد أهل المدينة وابن عامر، وعاصم، الباقون بالتخفيف، ومن خفف طابق بينه وبين قوله: (أنزل علينا) ومن ثقل، فلأن نزل وأنزل بمعنى قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾، وقال: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي أنزل عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾

٢٠. لما سئل الله عيسى عليه السلام أن ينزل عليه المائدة تكون عيداً لأولهم وآخرهم، قال تعالى مجيبا له إلى ما التمسه ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ يعني المائدة ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ﴾ يعني بعد إنزالها عليكم ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ وقيل في معناه ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: قال قتادة: مسخوا قردة وخنازير، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام ولم يمسخ أحد خنازير سواهم.

ب. الثاني: أنه أراد به من عالمي زمانهم.

ج. الثالث: أنه أراد به جنسا من العذاب لا يعذب به أحداً غيرهم.

٢١. وإنما استحقوا هذا النوع من العذاب بعد نزول المائدة لأنهم كفروا بعد ما رأوا الآية التي هي

من أزجر الآيات عن الكفر لم يرها غيرهم بعد سؤالهم لها وتعلق سببهم بها فاقتضت الحكمة اختصاصهم بضرب من العذاب عظيم الموقع، كما اختصت آيتهم بضرب من الزجر في عظيم الموقع:

أ. قال الحسن ومجاهد: ان المائدة لم تنزل عليهم، لأنهم استعفوا من نزولها لما سمعوا الوعيد المقرون بها.

ب. وقال قوم: هذا غلط من قائله، لأنه تعالى وعد بانزالها ولا خلاف لقوله وأكثر أهل العلم على أنها أنزلت: منهم ابن عمر، وعمار بن ياسر وأبو عبد الرحمن السلمي، وقتادة والسدي، وهو ظاهر القرآن، وأيضا فلا يجوز أن يسأل نبي على رؤوس الملأ آية لإيجاب إليها، لأن ذلك ينفر عنه.

ج. وقال الحسن: انما كان الوعد من الله بإنزال المائدة بشرط أن يكون بتقدير اني منزلها عليكم أن تقبلتم الوعيد فيها ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ﴾ الآية، وهذا الشرط الذي ذكره لا دليل عليه، والمطلق لا يحمل على المقيد إلا بقرينة.

د. وقال قوم: إنها لو نزلت فكفروا لعذبوا وأنزل ذلك في القرآن ولو لم يكفروا لكانت المائدة قائمة للمسلمين إلى يوم القيامة، وهذا ليس بصحيح لأنه يجوز أن يكون عنى بالعذاب ما يفعله بالآخرة، ويجوز أن يكون عنى عذاب الدنيا ولم يذكره، لأنه ليس بواجب أن يكون كل من اختصه بضرب من العذاب لا بد أن يخبرنا عنه في القرآن، لأنه يكون تجويز ذلك على منازل عظيمة في الجملة أهول وأملأ للصدر من ذكره بالتصريح على تفصيل أمره، وأما بقاؤها إلى يوم القيامة فلا يلزم لأن وجه السؤال أن يكون يوم نزولها عيداً لهم ولمن بعدهم ممن كان على شريعتهم.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الوحي: إلقاء المعنى في النفس على وجه يخفى، ثم ينقسم فيكون بإرسال الملك إليه، وبمعنى الإلهام، وبمعنى الإعلام، وأوحى وَوَحَى بمعنى.

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/٤٦٣.

ب. أصل الحَوْرُ الخلوص، ومنه الخبز الحواري، ومنه ﴿يَحُورَ﴾ أي يرجع إلى حال الخلوص، ثم كثر حتى قيل لكل راجع: حارٍ، والحَوَرُ في العين قيل: شدة بياضها في شدة سوادها، وقال أبو عمرو: أنْ تسود العين كلها سمي بذلك لخلوصها، وحورت الثياب بيضتها، فأما الحواريون فقيل: كانوا يحورون الثياب أي يبيضونها، والحواري أيضًا الناصر، ومنه قيل للزبير: حَوَارِيّ.

ج. الاستطاعة والقوة والقدرة من النظائر غير أن أصل الاستطاعة انطياع الجوارح للفعل، ولذلك لا يوصف الله تعالى بأنه مستطيع، ويوصف بأنه قادر قوي.

د. المائدة: الخوان الذي عليه الطعام، لا يسمى بذلك إلا وعليه طعام، وأصل الباب: الحركة، ماد يميد ميدًا إذا تحرك عن الزجاج، ومنه مادَهُ: أعطاه، وسميت، المائدة؛ لأنها تميد بما عليها، أي تحركه، وقيل: سميت مائدة؛ لأنها مغطاة، وقيل: فاعلة بمعنى المفعول، أي يميد الآكلون إليها يقال: مادهم يميدهم ميدًا إذا أطعمهم على المائدة، ويسمى الطعام أيضًا مائدة.

هـ. العيد: اليوم الذي يعود فيه مثل ما كانوا فيه، والأصل عِوْدٌ من عاد يعود، فلما انكسر ما قبل الواو صار ياء، كقولهم: ميثاق، وميعاد، وميزان، وميقات، وقال الخليل: العيد كل يوم مجمع كأنهم عادوا إليه، وقيل: سمي عيدًا لعود كل إنسان إلى قدر منزلته لاختلاف الأحوال والملابس والمطاعم.

و. الآية: الدلالة العظيمة البيان، والجمع آيات، ونَزَّل بالتشديد للتكثير والتخفيف مرة واحدة.

٢. بَيَّنَ الله تعالى إتمام نعمه على عيسى وقومه، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ﴾:

أ. قيل: ألهمت، كقوله: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾

ب. وقيل: أخطر بقلوبهم ما به يعرف الحق.

ج. وقيل: ألقيت إليهم بالآيات التي أريتهم، عن الأصم.

د. وقيل: أمرت.

٣. ﴿إِلَى﴾ صلة، عن أبي عبيدة ﴿إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾:

أ. قيل: أنصار عيسى، عن الحسن.

ب. وقيل: هم وزراؤه على أمره، عن قتادة.

ج. وقيل: هم خاصته وخلصاؤه وأصفياؤه، عن عكرمة، واختلفوا، فقيل: كانوا قصارين، عن

الحسن.

د. وقيل: كانوا صيادين، عن مجاهد.

هـ. وقيل: ملاحين.

و. وقيل: كانوا اثني عشر رجلاً.

٤. ﴿أَنْ آمِنُوا بِي﴾ أي: صدقوا بتوحيدي وصفاتي وما يجوز علي، وما لا يجوز ﴿وَبِرَسُولِي﴾ يعني بعيسى صدقوه بأنه عَبْدٌ ونبي ﴿قَالُوا﴾ يعني الحواريين ﴿آمَنَّا﴾ صدقنا ﴿وَاشْهَدْ﴾:

أ. قيل: اشهد يا الله.

ب. وقيل: اشهد يا عيسى، عن الأصم.

٥. ﴿بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ منقادون.

٦. ثم بَيَّنَ تعالى ما سأل الحواريون، فقال سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ يعني أنصار عيسى ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾:

أ. قيل: هل يفعل ربك كما يقال: هل تستطيع أن تنهض؛ أي هل تفعل؛ لأن المنافي من جهة الحكمة كالمنافي من جهة القدرة.

ب. وقيل: هل يستجيب لك ربك، قال السدي: هل يطيعك ربك إن سألته، فهذا على أن ﴿اسْتَطَاعَ﴾ بمعنى ﴿أَطَاعَ﴾، والسين زائدة.

ج. وقيل: هل يقدر، وكان هذا في ابتداء أمرهم قبل أن تستحكم معرفتهم بالله؛ ولذلك أنكر عليهم عيسى فقال: ﴿اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، وقد روينا عن عائشة إنكار ذلك، وبَيَّنَّا أن وصفهم بالإيمان ينافي ذلك، وإنما أنكر عيسى سؤال المائدة؛ ولذلك أوعد الله تعالى بعد إنزاله بالعذاب ولم ينكر هذه المقالة.

٧. ﴿أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً﴾ أي: خوانًا عليه طعام ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ فقال عيسى مجيبًا لهم ﴿اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾:

أ. قيل: اتقوا فلا تشكوا في قدرته إن آمنتم به.

ب. وقيل: اتقوا الله فلا تسألوه شيئًا لم يسأله، عن الأصم.

ج. وقيل: نهاهم لأنه اقتراح معجزة بعد ظهور معجزات كثيرة مع جواز أن يكون مفسدة، وهو الوجه.

٨. ﴿قَالُوا﴾ يعني الحواريين ﴿نُرِيدُ﴾ نحب أ﴿أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ من المائدة ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾:

أ. أي تسكن بذهاب الشك، وليس بالوجه.

ب. وقيل: لنعاين ونعلم ضرورة كقول إبراهيم: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾

٩. ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ بأنك رسول ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾:

أ. لله بالتوحيد، ولك بالنبوة.

ب. وقيل: نكون من الشاهدين عند بني إسرائيل إذا رجعنا إليهم.

١٠. ثم بَيَّنَ تعالى ما دعا به عيسى عليه السلام، وما أجيب به في ذلك، فقال سبحانه: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾:

أ. قيل: سأل عن قومه لما التمسوا منه.

ب. وقيل: سأل بإذن الله له في السؤال.

١١. ﴿اللهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا﴾ قيل: تنزل ونحن نراها عن أبي علي ﴿مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ خوانًا عليه طعام.

١٢. ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾:

أ. قيل: نتخذ ذلك اليوم الذي تنزل فيه المائدة عيدًا نعظمه نحن ومَنْ يأتي مِنْ بعدنا، عن قتادة وابن جريج والسدي وأبي علي.

ب. وقيل: عائدة فضل من الله علينا ونعمة منه لنا.

ج. وقيل: يومًا نصلي فيه، عن سفيان.

د. وقيل: نجعل ذلك اليوم يومًا نتقرب إليك بالقرابين.

١٣. ﴿لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾:

أ. قيل: تكون عيدًا لأولنا وآخرنا.

ب. وقيل: يأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم، عن ابن عباس، فسألوا بقاء المائدة إلى آخر الناس.

١٤. ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ أي مع كونها نفعًا معجزة لنبيك، قال الأصم: لأول أمتي وآخرها حتى يجيء محمد فينسخ ذلك.

١٥. ﴿وَارْزُقْنَا﴾:

أ. قيل: اجعل ذلك رزقًا لنا.

ب. وقيل: ارزقنا الشكر عليها، كلاهما عن أبي علي.

١٦. قال الله مجيبا لعيسى ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ يعني المائدة ﴿عَلَيْكُمْ﴾:

أ. قيل: بالتشديد إني منزلها مرة بعد مرة.

ب. وبالتخفيف مرة واحدة.

١٧. ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ﴾ أي: بعد نزول المائدة:

أ. قيل: هو شرط، عن الحسن.

ب. وقيل: هو ابتداء كلام، عن غيره من المفسرين.

١٨. ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا﴾:

أ. قيل: أراد عذاب الاستئصال.

ب. وقيل: عذاب الآخرة.

١٩. ﴿لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾:

أ. قيل: لأنهم مسخوا قردة.

ب. وقيل: من عالمي زمانهم.

ج. وقيل: جنس من العذاب لا يعذب به غيرهم.

٢٠. تدل الآية الكريمة على:

أ. نعمه تعالى على الحواريين.

ب. أن الوحي قد يكون بغير معنى الرسالة؛ إذ لا شبهة أنهم لم يكونوا أنبياء.

ج. نعمه على عيسى عليه السلام إذ أيده بهم، وأمرهم بتصديقه.

د. كونهم مؤمنين.

هـ. أنه تعالى ورسوله يشهد للمُؤْمِنِينَ، بأن يصف حاله معظمًا له.

و. سؤالهم عيسى ونهيه، وقد بينا ما قيل فيه.

ز. أنهم سألوه الطعام؛ لأن اسم المائدة يتناوله، ولقولهم: نأكل منها، سؤال وإشكال: كيف قالوا ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ بعدما أقروا برسالته؟ والجواب: قد بَيَّنَا أن فيه قولين:

- منهم من قال كان هذا في ابتداء أمرهم، وإن ذلك غير صحيح.
- وأن الصحيح أنهم طلبوا المعاينة والعلم الضروري والتأكيد في الإعجاز.

ح. أن المائدة نزلت لقوله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾، وقوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ﴾ بحق النزول، وليس بشرط، بل هو إخبار بما يفعله بمن يكفر.

ط. أن غرضهم كان على الخوان؛ لذلك قال: ﴿نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ ﴿وَارْزُقْنَا﴾ فيبطل قول مَنْ زعم أن المائدة نزلت خالية من الطعام.

ي. يدل قوله: ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أن غير الله يرزق كقوله: ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

ك. عظم عذاب أولئك، وهكذا جرت العادة إذا اقترحوا شيئًا، ثم كفروا بعد ذلك، فإنه تعالى يعذبهم بعذاب الاستئصال؛ ولذلك لم يفعل تعالى كثيرًا مما اقترحوا على نبينا ﷺ؛ وذلك لأنهم إذا سألوا وعاينوا ثم كفروا كان فعلهم أفحش، وعن عبد الله بن عمر: (أشد الناس عذابًا يوم القيامة المنافقون ثم من كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون)، وقيل: مسخوا قردة.

٢١. القصة:

أ. قيل: إنهم سألوا عيسى عليه السلام ذلك عند نزولهم في مفازة على غير ماء ولا طعام، ثم اختلفوا:

- فقيل: سأل عيسى عنهم، وإن أضاف إلى نفسه، كما سأل موسى الرؤية عن قومه، وإن أضافه إلى نفسه، لكن دلالة الحال تدل عليه.
- وقيل: بل سأل عن نفسه بإذن الله.

ب. واختلفوا، هل نزلت المائدة:

- فقيل: بلى، عن ابن عباس وعمارة وقتادة والسدي وأكثر أهل العلم.

• وقيل: لا، عن الحسن ومجاهد، قال الحسن: لما قال: ﴿أُعَذِّبُهُ عَذَابًا﴾ استعفوا، وقالوا: لا نريد، والصحيح الأول، وروي عن جماعة من الصحابة والتابعين أنها نزلت، وقيل: نزلت يوم الأحد فجعلوها عيدًا، عن كعب.

ج. واختلفوا في صفة ما نزل على خمسة أقوال:

• الأول: خبز وسمك عن ابن عباس وفي حديث مرفوع: (خبز ولحم)

• الثاني: ثمر من ثمار الجنة عن عمارة.

• الثالث: كان عليها من كل طعام إلا اللحم، عن زاذان وأبي ميسرة.

• الرابع: سمكة فيها طعم كل شيء عن عطية العوفي.

• الخامس: أقرصة من شعير وحيتان، عن وهب.

د. اختلفوا في كيفية نزولها:

• قيل: إن الملائكة أقبلت بالمائدة يحملونها، فأكلوا منها.. وهو الأوجه؛ لأنهم سألوا المائدة، فلمَّا رجعوا إلى الحَضَرِ تحدثوا، فضحك منهم من لم يشاهدها، فمسخوا قردة.

• وقيل: كان تنزل بكرة وعشيًّا عن قتادة كالمن والسلوى لبني إسرائيل.

• وقيل: نزلت سفرة حمراء بين غمامتين.

• وقيل: نزلت المائدة، وعليها أرغفة، ودعا عيسى، فبورك فيها حتى كثرت، وأكل جميعهم.

• وقيل: كفر بعض من شاهده، فمسخوا قردة، ومكثوا ثلاثة أيام، ثم هلكوا.

٢٢. قراءات ووجوه:

أ. قرأ الكسائي وأبو عبيدة (هل تَسْتَطِيعُ) بالتاء ﴿رَبَّكَ﴾ بالنصب وبإدغام اللام في التاء، وهو مروي عن علي وابن عباس وعائشة وسعيد بن جبير ومجاهد، وروي عن عائشة قالت: كانوا أعلم بِالله من أن يقولوا: هل يستطيع، وإنما قالوا: هل تستطيع أن تسأل ربك، وعن معاذ بن جبل: أقرأني النبي: (هلا تستطيعُ) بالتاء ﴿رَبَّكَ﴾ بالنصب، وقراءة القراء نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة ﴿يَسْتَطِيعُ﴾ بالياء ﴿رَبُّكَ﴾ بالرفع والإظهار، ومعنى قراءة الكسائي: هل تستدعي إجابة ربك، وأصله: هل تستدعي طاعته فيما يسأله من هذا، عن الزجاج، وقيل: هل تقدر أن تسأل ربك؟ قال لأن الحواريين

لم يكونوا شاكين في قدرة الله تعالى، فأما قراءة الباقين ليس على الشك لكن معناه: هل ينزل أملا؟ كقولك لغيرك: هل تستطيع أن تنهض، يعني هل تفعل، وقيل: إنهم كانوا شاكين، وليس بصحيح؛ لأنه تعالى وصفهم بالإيمان ومدحهم، ومَنْ شك في قدرته تعالى يكفر.

ب. قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر وعاصم ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ بالتشديد، وقرأ الباقون مخففة الزاي، وهما لغتان نَزَّلَ تنزيلاً، وَأَنْزَلَ إنزالاً.

ج. قراءة العامة ﴿تَكُونُ لَنَا﴾ بالرفع رَدًّا على الاستقبال، وقرأ عبد الله والأعمش ﴿تَكُنْ﴾ بالجزم على جواب الدعاء.

٢٣. مسائل لغوية ونحوية:

أ. العامل في ﴿إِذْ﴾:

- محذوف تقديره: واذكر إذ أوحيت.
- وقيل: واذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أوحيت إلى الحواريين.
- وقيل: واذكر نعمتي على الحواريين إذ أوحيت إليهم.
- وقيل: هو معطوف على قوله: ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ﴾، عن أبي مسلم.

ب. العامل في قوله: ﴿إِذْ﴾:

- قيل: أوحيت.
- وقيل: اذكر إذ قال وكلا الوجهين محتمل؛ لأنه كان في وقت الإيحاء، وهو يذكره به.

ج. ﴿تَكُونُ﴾ رفع ولم يجزم؛ لأنه في موضع الحال أي كانت لنا عيدًا، أو ستكون لنا عيدًا، فلما كان في موضع الحال لم يدخله الجزم، ونصب ﴿آيَةً﴾؛ لأنه خبر ﴿كَانَ﴾، تقديره: تكون المائدة آية منك.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. شرح مختصر للكلمات:

---

(١) تفسير الطبرسي: ٣/٤٠٤.

أ. الوحي: إلقاء المعنى إلى النفس على وجه يخفى، ثم ينقسم، فيكون بإرسال الملك، ويكون بمعنى الإلهام، قال الشاعر:

الحمد لله الذي استقلت بإذنه السماء واطمأنت

أوحى لها القرار فاستقرت.. أي ألقى إليها ويروى: وحي لها القرار، والفرق بين أوحى ووحى من وجهين: أحدهما: إن أوحى بمعنى جعلها على صفة، ووحى، بمعنى جعل فيها معنى الصفة، لان أفعل أصله التعدية، وقيل: إنهما لغتان.

ب. الحواري: خالصة الرجل وخلصاؤه من الخبز الحواري، لأنه أخلص لبه من كل ما يشوبه، وأصله الخلوص، ومنه حار يحور: إذا رجع إلى حال الخلوص، ثم كثر حتى قيل لكل راجع.

ج. بين الاستطاعة والقدرة: إن الاستطاعة انطباق الجوارح للفعل، والقدرة: هي ما أوجب كون القادر عليه قادرا، ولذلك لا يوصف تعالى بأنه مستطيع، ويوصف بأنه قادر.

د. المائدة: الخوان، قال الأزهري في تهذيب اللغة: هي في المعنى مفعولة، ولفظها فاعلة، لأنها من العطاء، وقد ماد زيد عمرا: إذا أعطاه، وقيل: هي من ماد يميد إذا تحرك، فهي فاعلة، ويقال: مائدة وميدة، قال الشاعر:

وميدة كثيرة الألوان تصنع للاخوان والجيران

وماد به البحر، يميد فهو مائد: إذا تحرك به، وماد يميد: إذا تبختر، وماد أهله: إذا مادهم وأصله الحركة.

هـ. العيد: اسم لما عاد إليك من شيء في وقت معلوم، حتى قالوا للخيال عيد، ولما يعود إليك من الحزن عيد، قال الأعشى:

فوا كبدي من لاعج الهم والهوى إذا اعتاد قلبي من أميمة عيدها

وقال الليث: العيد كل يوم مجمع، قال العجاج كما يعود العيد نصراني قال المفضل: عادني عيدي أي: عادتي، وأنشد: عاد قلبي من الطويلة عيد وإنما قول تأبط شرا: يا عيد ما لك من شوق وإبراق فإنه أراد الخيال الذي يعتاده.

٢. بين سبحانه تمام نعمته على عيسى فقال: (وإذ أوحيت) أي: واذكر إذ أوحيت:

أ. أي: ألهمتهم.

ب. وقيل: ألقيت إليهم بالآيات التي أريتهم إياها.

٣. ﴿إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾: مضى الكلام في الحواريين في سورة آل عمران، وهم وزراء عيسى، عن قتادة، وأنصاره، عن الحسن، ﴿أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ أي: صدقوا بي وبصفاتي، وبعيسى أنه عبدي ونبيي ﴿قَالُوا﴾ أي: قال الحواريون ﴿آمَنَّا﴾ أي: صدقنا ﴿وَاشْهَدْ﴾ يا الله ﴿بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾

٤. ثم أخبر سبحانه عن الحواريين وسؤالهم، فقال: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾:

أ. والعامل في إذ قوله: أوجبت.

ب. ويحتمل أن يكون معناه واذكر إذ قال الحواريون.

٥. ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ قيل فيه أقوال:

أ. أحدها: أن يكون معناه: هل يفعل ربك ذلك بمسألتك إياه، ليكون علما على صدقك، ولا يجوز أن يكونوا شكوا في قدرة الله تعالى، على ذلك، لأنهم كانوا عارفين مؤمنين، وكأنهم سألوه ذلك، ليعرفوا صدقه، وصحة أمره، من حيث لا يعرض عليهم فيه إشكال ولا شبهة، ومن ثم قالوا ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ كما قال إبراهيم: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، عن أبي علي الفارسي.

ب. ثانيها: إن المراد هل يقدر ربك وكان هذا في ابتداء أمرهم قبل أن تستحكم معرفتهم بالله، ولذلك أنكر عليهم عيسى عليه السلام، فقال: ﴿اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم لم يستكمل إيمانهم في ذاك الوقت.

ج. ثالثها: أن يكون معناه هل يستجيب لك ربك، وإليه ذهب السدي في قوله: يريد هل يطيعك ربك إن سألته، وهذا على أن يكون استطاع: بمعنى أطاع، كما يكون استجاب: بمعنى أجاب.

د. قال الزجاج: يحتمل مسألة الحواريين عيسى عليه السلام المائدة، على ضربين:

أ. أحدهما: أن يكونوا أرادوا أن يزدادوا تثبيتا كما قال إبراهيم (ربي أرني كيف تحيي الموتى)

ب. وجائز: أن يكون مسألتهم المائدة قبل علمهم أنه أبرأ الأكمه، والأبرص، وأحيا الموتى.

٦. ﴿قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾:

أ. معناه اتقوا الله أن تسألوه شيئا لم تسأله الأمم قبلكم.

ب. وقيل: إن معناه الامر بالتقوى مطلقا، كما أمر الله المؤمنين بها في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ﴾ عن أبي علي الفارسي.

ج. وقيل: أمرهم أن لا يقترحوا الآيات، وأن لا يقدموا بين يدي الله ورسوله، لان الله تعالى قد أراهم البراهين والمعجزات بإحياء الموتى وغيره مما هو أوكد مما سألوه وطلبوه، عن الزجاج.

٧. ﴿قَالُوا﴾ أي: قال الحواريون ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ قيل في معناه قولان:

أ. أحدهما: أن تكون الإرادة التي هي من أفعال القلوب، ويكون التقدير فيه: نريد السؤال من أجل هذا الذي ذكرنا.

ب. والآخر: أن يكون الإرادة هاهنا بمعنى المحبة التي هي ميل الطباع أي: نحب ذلك.

٨. ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ يجوز أن يكونوا قالوا وهم مستبصرون في دينهم، ومعناه نريد أن نزداد يقينا، وذلك أن الدلائل كلما كثرت مكنت المعرفة في النفس عن عطاء، ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ بأنك رسول الله، وهذا يقوي قول من قال إن هذا كان في ابتداء أمرهم، والصحيح أنهم طلبوا المعاينة والعلم الضروري والتأكيد في الإعجاز.

٩. ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾:

أ. لله بالتوحيد، ولك بالنبوة.

ب. وقيل: من الشاهدين لك عند بني إسرائيل إذا رجعنا إليهم.

١٠. ثم أخبر سبحانه عن سؤال عيسى عليه السلام إياه فقال: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ عن قومه، لما التمسوا منه، وقيل: إنه إنما سأل ربه ذلك حين أذن له في السؤال ﴿اللهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً﴾ أي: خوانا عليه طعام.

١١. ﴿مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ قيل في معناه قولان:

أ. أحدهما: نتخذ اليوم الذي تنزل فيه عيدا نعظمه نحن، ومن يأتي بعدنا، عن السدي، وقتادة، وابن جريج، وهو قول أبي علي الجبائي.. وهو الوجه.

ب. الثاني: إن معناه تكون عائدة فضل من الله علينا، ونعمة منه لنا.

١٢. ﴿لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾:

أ. أي: لأهل زماننا، ومن يجئ بعدنا.

ب. وقيل: معناه يأكل منها آخر الناس، كما يأكل أولهم، عن ابن عباس.

١٣. ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ أي: ودلالة منك عظيمة الشأن في إزعاج قلوب العباد إلى الإقرار بمدلولها، والاعتراف بالحق الذي تشهد به ظاهرها، تدل على توحيدك، وصحة نبوة نبيك.

١٤. ﴿وَارْزُقْنَا﴾:

أ. أي: واجعل ذلك رزقا لنا.

ب. وقيل: معناه وارزقنا الشكر عليها عن الجبائي.

١٥. ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وفي هذا دلالة على أن العباد قد يرزق بعضهم بعضا، لأنه لو لم يكن كذلك لم يصح أن يقال له سبحانه ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ كما لا يجوز أن يقال أنت خير الآلهة، لما لم يكن غيره إلها.

١٦. ﴿قَالَ اللهُ﴾ مجيبا له إلى ما التمسه ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ يعني: المائدة ﴿عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ﴾ أي: بعد إنزالها عليكم.

١٧. ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قيل في معناه أقوال:

أ. أحدها: إنه أراد عالمي زمانه، فجحد القوم فكفروا بعد نزولها، فمسخوا قردة وخنازير، عن قتادة، وروي عن أبي الحسن موسى أنهم مسخوا خنازير

ب. ثانيها: إنه أراد عذاب الاستئصال.

ج. ثالثها: إنه أراد جنسا من العذاب، لا يعذب به أحدا غيرهم، وإنما استحقوا هذا النوع من العذاب بعد نزول المائدة، لأنهم كفروا بعد ما رأوا الآية التي هي من أزجر الآيات عن الكفر بعد سؤالهم لها، فاقتضت الحكمة اختصاصهم بفن من العذاب عظيم الموضع، كما اختصت آيتهم بفن من الزجر عظيم الموقع.

١٨. اختلف العلماء في المائدة هل نزلت أم لا؟

أ. فقال الحسن، ومجاهد: إنها لم تنزل، وإن القوم لما سمعوا الشرط استعفوا عن نزولها، وقالوا: لا نريدها، ولا حاجة لنا فيها، فلم تنزل.

ب. والصحيح أنها نزلت، لقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، ولا يجوز أن يقع في خبره الخلف، ولأن الأخبار قد استفاضت عن النبي ﷺ، والصحابة، والتابعين، أنها نزلت، قال كعب: إنها نزلت يوم الأحد، ولذلك اتخذه النصارى عيدا، واختلفوا في كيفية نزولها، وما عليها:

• فروي عن عمار بن ياسر، عن النبي ﷺ، قال نزلت المائدة خبزا ولحما، وذلك لأنهم سألوا عيسى عليه السلام طعاما لا ينفد، يأكلون منها قال فقيل لهم: فإنها مقيمة لكم ما لم تخونوا، وتخبؤوا، وترفعوا، فإن فعلتم ذلك عذبتم، قال فما مضى يومهم حتى خبأوا ورفعوا وخانوا.

• وقال ابن عباس: إن عيسى بن مريم قال لبني إسرائيل: صوموا ثلاثين يوما، ثم اسألوا الله ما شئتم، يعطيكم، فصاموا ثلاثين يوما، فلما فرغوا قالوا: يا عيسى! إنا لو عملنا لأحد من الناس، فقضينا عمله، لأطعمنا طعاما، وإنا صمنا وجعنا، فادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء، فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها، عليها سبعة أرغفة، وسبعة أحوات، حتى وضعوها بين أيديهم، فأكل منها آخر الناس، كما أكل أولهم)، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام.

• وروى عطاء بن السائب، عن زاذان، وميسرة قالا: كانت إذا وضعت المائدة لبني إسرائيل، اختلف عليهم الأيدي من السماء، بكل طعام إلا اللحم، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أنزل على المائدة كل شيء إلا الخبز واللحم.

• وقال عطاء: نزل عليها كل شيء إلا السمك واللحم.

• وقال عطية العوفي: نزل من السماء سمكة فيها طعم كل شيء وقال عمار، وقتادة: كان عليها ثمر من ثمار الجنة.

• وقال قتادة: كانت تنزل عليهم بكرة وعشيا حيث كانوا كالمن والسلوى لبني إسرائيل.

• وقال يمان بن رئاب: كانوا يأكلون منها ما شاءوا وروى عطاء بن أبي رباح، عن سلمان الفارسي أنه قال والله ما تبع عيسى شيئا من المساوئ قط، ولا انتهر يتيما، ولا قهقه ضحكا، ولا ذب ذبابا عن وجهه، ولا أخذ على أنفه من شيء نتن قط، ولا عبث قط، ولما سأله الحواريون أن ينزل عليهم المائدة، لبس صوفا وبكى وقال: ﴿اللهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً﴾ الآية، فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين، وهم ينظرون إليها، وهي تهوي منقضة حتى سقطت بين أيديهم، فبكى عيسى وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين، اللهم

اجعلها رحمة، ولا تجعلها مثلة وعقوبة، واليهود ينظرون إليها، ينظرون إلى شيء لم يروا مثله قط، ولم يجدوا ريحا أطيب من ريحه، فقام عيسى فتوضأ، وصلى صلاة طويلة، ثم كشف المنديل عنها، وقال بسم الله خير الرازقين، فإذا هو سمكة مشوية ليس عليها فلوسها، تسيل سيلا من الدسم، وعند رأسها ملح، وعند ذنبها خل، وحولها من أنواع البقول ما عدا الكراث، وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون، وعلى الثاني عسل، وعلى الثالث سمن، وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد، فقال شمعون: يا روح الله! أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الآخرة؟ فقال عيسى: ليس شيء مما ترون من طعام الدنيا، ولا من طعام الآخرة، ولكنه شيء افتعله الله بالقدرة الغالبة، كلوا مما سألتم يمددكم ويزدكم من فضله، فقال الحواريون: يا روح الله! لو أريتنا من هذه الآية اليوم آية أخرى؟ فقال عيسى: يا سمكة أحيي بإذن الله، فاضطربت السمكة، وعاد عليها فلوسها وشوكها، ففزعوا منها، فقال عيسى: ما لكم تسألون أشياء إذا أعطيتموها كرهتموها ما أخوفني عليكم أن تعذبوا يا سمكة عودي كما كنت بإذن الله، فعادت السمكة مشوية كما كانت، فقالوا: يا روح الله! كن أول من يأكل منها، ثم نأكل نحن، فقال عيسى: معاذ الله أن آكل منها، ولكن يأكل منها من سألها، فخافوا أن يأكلوا منها، فدعا لها عيسى أهل الفاقة، والزمني، والمرضى، والمبتلين، فقال: كلوا منها جميعا، ولكم المهنا ولغيركم البلاء، فأكل منها ألف وثلاثمائة رجل وامرأة، من فقير، ومريض، ومبتلى، وكلهم شبعان يتجشى، ثم نظر عيسى إلى السمكة فإذا هي كهيئتها حين نزلت من السماء، ثم طارت المائدة صعدا، وهم ينظرون إليها، حتى توارت عنهم، فلم يأكل منها يومئذ زمن إلا صح، ولا مريض إلا أبرئ، ولا فقير إلا استغنى، ولم يزل غنيا حتى مات وندم الحواريون، ومن لم يأكل منها، وكانت إذا نزلت اجتمع الأغنياء والفقراء، والصغار والكبار، يتزاحمون عليها، فلما رأى ذلك عيسى جعلها نوبة بينهم، فلبثت أربعين صباحا تنزل ضحى، فلا تزال منصوبة يؤكل منها، حتى إذا فاء الفيء طارت صعدا، وهم ينظرون في ظلها حتى توارت عنهم، وكانت تنزل غبا يوما، ويوما لا، فأوحى الله إلى عيسى: اجعل مائدتي للفقراء دون الأغنياء، فعظم ذلك على الأغنياء، حتى شكوا وشككوا الناس فيها، فأوحى الله إلى عيسى: إني شرطت على المكذبين شرطا أن من كفر بعد نزولها أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين، فقال عيسى ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فمسخ منهم ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون رجلا باتوا من ليلهم على فرشهم مع نسائهم في ديارهم، فأصبحوا خنازير، يسعون في الطرقات

والكناسات، ويأكلون العذرة في الحشوش، فلما رأى الناس ذلك فزعوا إلى عيسى، وبكوا وبكى على المسوخين أهلوهم، فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا.

• وفي تفسير أهل البيت عليهم السلام: كانت المائدة تنزل عليهم، فيجتمعون عليها، ويأكلون منها، ثم ترتفع، فقال كبراؤهم ومترفوهم: لا ندع سفلتنا يأكلون منها معنا، فرفع الله المائدة ببغيهم، ومسخوا قردة وخنازير.

١٩. قراءات ووجوه:

أ. قرأ الكسائي وحده: (هل تستطيع) بالتاء ﴿رَبَّكَ﴾ بالنصب، والباقون ﴿يَسْتَطِيعُ﴾ بالياء ﴿رَبُّكَ﴾ مرفوع.. وجه قراءة الكسائي أن المراد هل تستطيع سؤال ربك؟ وذكروا الاستطاعة في سؤالهم، لا لأنهم شكوا في استطاعته، ولكن كأنهم ذكروه على وجه الاحتجاج عليه منهم، كأنهم قالوا: إنك مستطيع فما يمنعك؟ ومثل ذلك قولك لصاحبك: أتستطيع أن تذهب عني، فإني مشغول أي: إذهب لأنك غير عاجز عن ذلك، و﴿أَنْ يُنَزِّلَ﴾ على هذه القراءة متعلق بالمصدر المحذوف، لا يستقيم الكلام إلا على تقدير ذلك، ألا ترى أنه لا يصح أن تقول: هل تستطيع أن يفعل غيرك؟ فـ ﴿أَنْ يُنَزِّلَ﴾ في موضع نصب بأنه مفعول به، والتقدير: هل تستطيع أن تسأل ربك إنزال مائدة من السماء علينا، وروي عن أبي عبد الله عليه السلام، ما يقارب هذا التقدير قال يعني هل تستطيع أن تدعو ربك.

ب. أدغم الكسائي اللام في التاء، وهو حسن، لأن أبا عمرو أدغم اللام في الثاء في ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ﴾ والتاء أقرب إلى اللام من الثاء، والإدغام إنما يحسن في المتقاربين، وأنشد سيبويه:

فذر ذا ولكن هتعين متيما على ضوء برق آخر الليل ناصب

ج. قرأ أهل المدينة، والشام، وعاصم: (منزلها) بالتشديد، والباقون ﴿مُنَزِّلُهَا﴾ مخففة.. يقوي التخفيف قوله: ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً﴾ والأولى: أن يكون الجواب على وفق السؤال، والوجه في التشديد أن نزل وأنزل بمعنى واحد.

٢٠. مسائل لغوية ونحوية:

أ. ﴿تَكُونُ لَنَا﴾ في موضع النصب، صفة لمائدة ولنا في موضع الحال، لأن تقديره تكون عيدا لنا، فقوله لنا صفة لعيد فلما تقدمه، انتصب على الحال.

ب. ﴿لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ بدل من قوله لنا.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. في الوحي إلى الحواريين قولان:

أ. أحدهما: أنه بمعنى الإلهام، قاله الفرّاء، وقال السّدّيّ: قذف في قلوبهم.

ب. الثاني: أنه بمعنى الأمر، فتقديره: أمرت الحواريين، و(إلى) صلة، قاله أبو عبيدة.

٢. في قوله تعالى: ﴿وَاشْهَدْ﴾ قولان:

أ. أحدهما: أنهم يعنون الله تعالى.

ب. الثاني: عيسى عليه السّلام.

٣. ﴿بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ أي: مخلصون للعبادة والتّوحيد، وقد سبق شرح ما أهمل هاهنا فيما تقدّم.

٤. ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ قال الزجّاج: أي: هل يقدر، وقرأ الكسائيّ: (هل تستطيع) بالتاء، ونصب الرّبّ، قال الفرّاء: معناه: هل تقدر أن تسأل ربّك، قال ابن الأنباريّ: ولا يجوز لأحد أن يتوهّم أنّ الحواريين شكّوا في قدرة الله، وإنّما هذا كما يقول الإنسان لصاحبه: هل تستطيع أن تقوم معي، وهو يعلم أنه مستطيع، ولكنّه يريد: هل يسهل عليك، وقال أبو عليّ: المعنى: هل يفعل ذلك بمسألتك إيّاه، وزعم بعضهم أنّهم قالوا ذلك قبل استحكام إيمانهم ومعرفتهم، فردّ عليهم عيسى بقوله: اتّقوا الله، أن تنسبوه إلى عجز، والأوّل أصحّ.

٥. فأمّا (المائدة) فقال اللغويّون: المائدة: كلّ ما كان عليه من الأخونة طعام، فإذا لم يكن عليه طعام فليس بمائدة، والكأس: كلّ إناء فيه شراب فإذا لم يكن فيه شراب، فليس بكأس، ذكره الزجّاج، قال الفرّاء: وسمعت بعض العرب يقول للطبق الذي تهدى عليه الهديّة: هو المهدى، مقصور، ما دامت عليه الهديّة، فإذا كان فارغا رجع إلى اسمه إن كان طبقا أو خوانا أو غير ذلك، وذكر الزجّاج عن أبي عبيدة أنّ لفظها فاعلة، وهي في المعنى مفعولة، مثل ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾، قال أبو عبيدة: وهي من العطاء، والممتاد: المفتعل

(١) زاد المسير في علم التفسير: ١/٦٠١.

المطلوب منه العطاء، قال الشاعر: (إلى أمير المؤمنين الممتاد) وماد زيد عمرا: إذا أعطاه، قال الزجّاج: والأصل عندي في (مائدة) أنها فاعلة من: ماد يميد: إذا تحرّك، فكأنّها تميد بما عليها، وقال ابن قتيبة: المائدة: الطّعام، من: مادني يميدني، كأنّها تميد الآكلين، أي: تعطيهم، أو تكون فاعلة بمعنى: مفعول بها، أي: ميد بها الآكلون.

٦. ﴿اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: اتّقوه أن تسألوه البلاء، لأنها إن نزلت وكذّبتم، عذّبتم، قاله مقاتل.

ب. الثاني: أن تسألوه ما لم تسأله الأمم قبلكم، ذكره أبو عبيد.

ج. الثالث: أن تشكّوا في قدرته.

٧. ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ هذا اعتذار منهم بيّنوا به سبب سؤالهم حين نهوا عنه، وفي إرادتهم للأكل منها ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أنهم أرادوا ذلك للحاجة، وشدّة الجوع، قاله ابن عباس.

ب. الثاني: ليزدادوا إيمانا، ذكره ابن الأنباريّ.

ج. الثالث: للتبرّك بها، ذكره الماورديّ، وفي قوله تعالى:

٨. في قوله تعالى: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: تطمئنّ إلى أنّ الله تعالى قد بعثك إلينا نبيا.

ب. الثاني: إلى أنّ الله تعالى قد اختارنا أعوانا لك.

ج. الثالث: إلى أنّ الله تعالى قد أجابك، وقال ابن عباس: قال لهم عيسى: هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوما، ثمّ لا تسألونه شيئا إلا أعطاكم؟ فصاموا، ثم سألوا المائدة، فمعنى: ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ في أنّا إذا صمنا ثلاثين يوما لم نسأل الله شيئا إلا أعطانا.

٩. وفي هذا العلم قولان:

أ. أحدهما: أنّه علم يحدث لهم لم يكن، وهو قول من قال كان سؤالهم قبل استحكام معرفتهم.

ب. الثاني: أنه زيادة علم إلى علم، ويقين إلى يقين، وهو قول من قال كان سؤالهم بعد معرفتهم.

١٠. قرأ الأعمش: (وتعلم) بالتاء، والمعنى: وتعلم القلوب أن قد صدقتنا.

١١. في قوله تعالى: ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أربعة أقوال:

أ. أحدها: من الشّاهدين لله بالقدرة، ولك بالنّبوّة.

ب. الثاني: عند بني إسرائيل إذا رجعنا إليهم، وذلك أنهم كانوا مع عيسى في البرّيّة عند هذا السّؤال.

ج. الثالث: من الشّاهدين عند من يأتي من قومنا بما شاهدنا من الآيات الدّالة على أنّك نبيّ.

د. الرابع: من الشّاهدين لك عند الله بأداء ما بعثت به.

١٢. ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ وقرأ ابن محيصن، وابن السّميفع، والجحدريّ: (لأولانا وأخرانا) برفع الهمزة، وتخفيف الواو:

أ. والمعنى: يكون اليوم الذي نزلت فيه عيدا لنا، نعظّمه نحن ومن بعدنا، قاله قتادة، والسّدّيّ.

ب. وقال كعب: أنزلت عليهم يوم الأحد، فاتّخذوه عيدا.

ج. وقال ابن قتيبة: عيدا، أي: مجمعا.

د. قال الخليل بن أحمد: العيد: كلّ يوم يجمع، كأنّهم عادوا إليه.

هـ. وقال ابن الأنباريّ: سمّي عيدا للعود من التّرح إلى الفرح.

١٣. ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ أي علامة منك تدلّ على توحيدك، وصحّة نبوّة نبيّك، وقرأ ابن السّميفع، وابن محيصن، والضّحّاك (وأنه منك) بفتح الهمزة، وبنون مشدّدة.

١٤. في قوله تعالى: ﴿وَارْزُقْنَا﴾ قولان:

أ. أحدهما: ارزقنا ذلك من عندك.

ب. الثاني: ارزقنا الشّكر على ما أنعمت به من إجابتك لنا.

١٥. ﴿قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ قرأ نافع وعاصم وابن عامر (منزّلها) بالتّشديد، وقرأ الباقون خفيفة، وهذا وعد بإجابة سؤال عيسى.

١٦. اختلف العلماء: هل نزلت أم لا؟ على قولين:

أ. أحدهما: أنها نزلت، قاله الجمهور، فروى وهب بن منبّه عن أبي عثمان النّهديّ، عن سلمان الفارسيّ قال: لّما رأى عيسى أنهم قد جدّوا في طلبها لبس جبّة من شعر، ثم توضّأ، واغتسل، وصفّ قدميه

في محرابه حتى استويا، وألصق الكعب بالكعب، وحاذى الأصابع بالأصابع، ووضع يده اليمنى على اليسرى فوق صدره، وطأطأ رأسه خضوعا، ثم أرسل عينيه بالبكاء، فما زالت تسيل دموعه على خدّه، وتقطر من أطراف لحيته حتى ابتلّت الأرض من دموعه حيال وجهه، ثمّ رفع رأسه إلى السّماء، فقال: اللهمّ ربّنا أنزل علينا مائدة من السّماء، فبينما عيسى كذلك، هبطت عليهم مائدة من السماء، سفرة حمراء بين غمامتين، غمامة من تحتها، وغمامة من فوقها، وعيسى يبكي ويتضرّع، ويقول: إلهي اجعلها سلامة، لا تجعلها عذابا، حتى استقرّت بين يديه، والحواريّون من حوله، فأقبل هو وأصحابه حتى قعدوا حولها، وإذا عليها منديل مغطّى، فقال عيسى: أيّكم أوثق بنفسه وأقلّ بلاء عند ربّه فليأخذ هذا المنديل، وليكشف لنا عن هذه الآية، قالوا: يا روح الله أنت أولانا بذلك، فاكشف عنها، فاستأنف وضوا جديدا، وصلّى ركعتين، وسأل ربّه أن يأذن له بالكشف عنها، ثم قعد إليها، وتناول المنديل، فإذا عليها سمكة مشويّة، ليس فيها شوك، وحولها من كل البقل ما خلا الكرّاث، وعند رأسها الخلّ، وعند ذنبها الملح، وحولها خمسة أرغفة، على رغيف تمر، وعلى رغيف زيتون، وعلى رغيف خمس رمّانات، فقال شمعون رأس الحواريين: يا روح الله أمن طعام الدّنيا هذا، أمّن طعام الجنّة؟ فقال عيسى: سبحان الله أما تنتهون! ما أخوفني عليكم، قال شمعون: لا وإله بني إسرائيل ما أردت بهذا سوءا، قال عيسى: ليس ما ترون عليها من طعام الدنيا، ولا من طعام الجنة، إنما هو شيء ابتدعه الله، فقال له: (كن) فكان أسرع من طرفة عين، فقال الحواريّون: يا روح الله إنما نريد أن ترينا في هذه الآية آية، فقال: سبحان الله! ما اكتفيتم بهذه الآية!؟ ثمّ أقبل على السّمكة فقال: عودي بإذن الله حيّة طريّة، فعادت تضطرب على المائدة، ثم قال عودي كما كنت، فعادت مشويّة، فقال: يا روح الله كن أنت أوّل من يأكل منها، فقال: معاذ الله بل يأكل منها من سألها، فلمّا رأوا امتناعه، خافوا أن يكون نزولها عقوبة، فلمّا رأى عيسى ذلك دعا لها الفقراء والزّمنى واليتامى، فقال: كلوا من رزق ربّكم، ودعوة نبيّكم، ليكون مهنؤها لكم، وعقوبتها على غيركم، فأكل منها ألف وسبعمائة إنسان، يصدرون عنها شباعا وهي كهيئتها حين نزلت، فصحّ كلّ مريض، واستغنى كلّ فقير أكل منها، ثمّ نزلت بعد ذلك عليهم، فازدحموا عليها، فجعلها عيسى نوبا بينهم، فكانت تنزل عليهم أربعين يوما، تنزل يوما وتغبّ يوما، وكانت تنزل عند ارتفاع الضّحى، فيأكلون منها حتى إذا قالوا، ارتفعت إلى السماء وهم ينظرون إلى ظلّها في الأرض، وقال قتادة: كانت تنزل عليهم بكرة وعشيّة، حيث كانوا، وقال غيره: نزلت

يوم الأحد مرّتين، وقيل: نزلت غدوة وعشيّة يوم الأحد، فلذلك جعلوه عيدا.

ب. الثاني: أنها لم تنزل، روى قتادة عن الحسن أنّ المائدة لم تنزل، لأنّه لمّا قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قالوا: لا حاجة لنا فيها، وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد، قال أنزلت مائدة عليها ألوان من الطعام، فعرضها عليهم، وأخبرهم أنه العذاب إن كفروا، فأبوها فلم تنزل، وروى ليث عن مجاهد قال هذا مثل ضربه الله تعالى لخلقه، لينهاهم عن مسألة الآيات لأنبيائه، ولم ينزل عليهم شيء والأوّل أصحّ.

١٧. وفي الذي كان على المائدة ثمانية أقوال:

أ. أحدها: أنه خبز ولحم، روي عن عمّار بن ياسر عن النبيّ ﷺ أنه قال (نزلت المائدة من السّماء خبزا ولحما)

ب. الثاني: أنها سمكة مشويّة، وخمس أرغفة، وتمر، وزيتون، ورمّان، وقد ذكرناه عن سلمان.

ج. الثالث: ثمر من ثمار الجنّة، قاله عمّار بن ياسر، وقال قتادة: ثمر من ثمار الجنة، وطعام من طعامها.

د. الرابع: خبز، وسمك، رواه العوفيّ عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وأبو عبد الرّحمن السلميّ.

هـ. الخامس: قطعة من ثريد، رواه الضّحّاك عن ابن عباس.

و. السادس: أنه أنزل عليها كل شيء إلا اللحم، قاله سعيد بن جبير.

ز. السابع: سمكة فيها طعم كلّ شيء من الطعام، قاله عطيّة العوفيّ.

ح. الثامن: خبز أرز وبقل، قاله ابن السّائب.

١٨. ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ﴾ أي: بعد إنزال المائدة، وفي العذاب المذكور قولان:

أ. أحدهما: أنه المسخ.

ب. الثاني: جنس من العذاب لم يعذّب به أحد سواهم، قال الزجّاج: ويجوز أن يعجّل لهم في الدنيا، ويجوز أن يكون في الآخرة.

١٩. في (العالمين) قولان:

أ. أحدهما: أنه عامّ.

ب. الثاني: عالمو زمانهم.

٢٠. وقد ذكر المفسّرون أنّ جماعة من أصحاب المائدة مسخوا، وفي سبب مسخهم ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أنهم أمروا أن لا يخونوا، ولا يدّخروا، فخانوا وادّخروا، فمسخوا قردة وخنازير، رواه عمّار بن ياسر عن النبيّ ﷺ.

ب. الثاني: أنّ عيسى خصّ بالمائدة الفقراء، فتكلّم الأغنياء بالقبيح من القول، وشكّكوا الناس فيها، وارتابوا، فلمّا أمسى المرتابون بها، وأخذوا مضاجعهم، مسخهم الله خنازير، قاله سلمان الفارسيّ.

ج. الثالث: أن الذين شاهدوا المائدة، ورجعوا إلى قومهم، فأخبروهم، فضحك بهم من لم يشهد، وقالوا: إنما سحر أعينكم، وأخذ بقلوبكم، فمن أراد الله به خيرا، ثبت على بصيرته، ومن أراد به فتنة، رجع إلى كفره، فلعنهم عيسى، فأصبحوا خنازير، فمكثوا ثلاثة أيام، ثمّ هلكوا، قاله ابن عباس.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمنوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ تقدم تفسير الوحي:

أ. فمن قال إنهم كانوا أنبياء قال ذلك الوحي هو الوحي الذي يوحى إلى الأنبياء.

ب. ومن قال إنهم ما كانوا أنبياء قال المراد بذلك الوحي الإلهام والإلقاء في القلب كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، وقوله: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]

٢. إنما ذكر هذا في معرض تعديد النعم لأن صيرورة الإنسان مقبول القول عند الناس محبوبا في قلوبهم من أعظم نعم الله على الإنسان، وذكر تعالى أنه لما ألقى ذلك الوحي في قلوبهم، آمنوا وأسلموا وإنما قدم ذكر الإيمان على الإسلام، لأن الإيمان صفة القلب والإسلام عبارة عن الانقياد والخضوع في الظاهر، يعني آمنوا بقلوبهم وانقادوا بظواهرهم.

٣. سؤال وإشكال: إنه تعالى قال في أول الآية ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ [المائدة:

---

(١) التفسير الكبير: ٤٦٢/١٢.

١١٠] ثم إن جميع ما ذكره تعالى من النعم مختص بعيسى عليه السلام، وليس لأمه بشيء منها تعلق، والجواب: كل ما حصل للولد من النعم الجليلة والدرجات العالية فهو حاصل على سبيل الضمن والتبع للأم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠] فجعلهما معا آية واحدة لشدة اتصال كل واحد منهما بالآخر، وروي أنه تعالى لما قال لعيسى ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ [المائدة: ١١٠] كان يلبس الشعر ويأكل الشجر، ولا يدخر شيئا لغد ويقول مع كل يوم رزقه، ومن لم يكن له بيت فيخرب، ولا ولد فيموت، أينما أمسى بات.

٤. في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ﴾ وجهان:

أ. الأول: أوحيت إلى الحواريين إذ قال الحواريون.

ب. الثاني: اذكر إذ قال الحواريون.

٥. ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ قرأ الكسائي هل تستطيع بالتاء ربك بالنصب وبإدغام اللام في التاء، وسبب الإدغام أن اللام قريب المخرج من التاء لأنهما من حروف طرف اللسان وأصول الثنايا وبحسب قرب الحرف من الحرف يحسن الإدغام، وهذه القراءة مروية عن علي وابن عباس، وعن عائشة أنها قالت: كانوا أعلم بالله من أن يقولوا هل يستطيع وإنما قالوا هل تستطيع أن تسأل ربك، وعن معاذ بن جبل: أقرأني رسول الله ﷺ هل تستطيع بالتاء ربك بالنصب، والباقون ﴿يَسْتَطِيعُ﴾ بالياء ﴿رَبُّكَ﴾ برفع الباء وبالإظهار، فأما القراءة الأولى: فمعناها: هل تسطيع سؤال ربك؟ قالوا وهذه القراءة أولى من الثانية: لأن هذه القراءة توجب شكهم في استطاعة عيسى، والثانية: توجب شكهم في استطاعة الله، ولا شك أن الأولى: أولى.

٦. سؤال وإشكال: في القراءة الثانية إشكال، وهو أنه تعالى حكى عنهم أنهم ﴿قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١] وبعد الإيمان كيف يجوز أن يقال إنهم بقوا شاكين في اقتدار الله تعالى على ذلك، والجواب: من وجوه:

أ. الأول: أنه تعالى ما وصفهم بالإيمان والإسلام بل حكى عنهم ادعاءهم لهما ثم أتبع ذلك بقوله حكاية عنهم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ فدل ذلك على أنهم كانوا شاكين متوقفين فإن هذا القول لا يصدر عمن كان كاملا في الإيمان وقالوا: ونعلم أن قد صدقتنا وهذا يدل على

مرض في القلب وكذلك قول عيسى عليه السلام لهم ﴿اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يدل على أنهم ما كانوا كاملين في الإيمان والوجه

ب. الثاني: أنهم كانوا مؤمنين إلا أنهم طلبوا هذه الآية ليحصل لهم مزيد الطمأنينة كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] فإن مشاهدة مثل هذه الآية لا شك أنها تورث الطمأنينة ولهذا السبب قالوا وتطمئن قلوبنا.

ج. الثالث: أن المراد من هذا الكلام استفهام أن ذلك هل هو جائز في الحكمة أم لا وذلك لأن أفعال الله تعالى لما كانت موقوفة على رعاية وجوه الحكمة ففي الموضع الذي لا يحصل فيه شيء من وجوه الحكمة يكون الفعل ممتنعا فإن المنافي من جهة الحكمة كالمنافي من جهة القدرة، وهذا الجواب يتمشى على قول المعتزلة، وأما على قولنا فهو محمول على أن الله تعالى هل قضى بذلك وهل علم وقوعه فإنه إن لم يقض به ولم يعلم وقوعه كان ذلك محالا غير مقدور لأن خلاف المعلوم غير مقدور.

د. الرابع: قال السدي: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ أي هل يطيعك ربك إن سألته، وهذا تفريع على أن استطاع بمعنى أطاع والسين زائدة.

هـ. الخامس: لعلّ المراد بالرب: هو جبريل عليه السلام، لأنه كان يربيه ويخصه بأنواع الإعانة، ولذلك قال تعالى في أول الآية: ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠] يعني أنك تدعي أنه يربيك ويخصك بأنواع الكرامة، فهل يقدر على إنزال مائدة من السماء عليك.

و. السادس: أنه ليس المقصود من هذا السؤال كونهم شاكين فيه بل المقصود تقرير أن ذلك في غاية الظهور كمن يأخذ بيد ضعيف ويقول هل يقدر السلطان على إشباع هذا ويكون غرضه منه أن ذلك أمر جلي واضح، لا يجوز لعاقل أن يشك فيه، فكذا هاهنا.

٧. ﴿مَائِدَةً﴾ قال الزجاج: المائدة فاعلة من ماد يميد، إذا تحرك فكأنها تميد بما عليها وقال ابن الأنباري سميت مائدة لأنها عطية من قول العرب: ماد فلان فلانا يميده ميدا إذا أحسن إليه، فالمائدة على هذا القول، فاعلة من الميد بمعنى معطية، وقال أبو عبيدة: المائدة فاعلة بمعنى مفعولة مثل عيشة راضية، وأصلها مميدة ميد بها صاحبها، أي أعطيها وتفضل عليه بها، والعرب تقول مادني فلان يميدني إذا أحسن إليه.

٨. في قوله تعالى: ﴿قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وجهان:

أ. الأول: قال عيسى عليه السلام اتقوا الله في تعيين المعجزة، فإنه جار مجرى التعنت والتحكم، وهذا من العبد في حضرة الرب جرم عظيم، ولأنه أيضا اقتراح معجزة بعد تقدم معجزات كثيرة، وهو جرم عظيم.

ب. الثاني: أنه أمرهم بالتقوى لتصير التقوى سببا لحصول هذا المطلوب، كما قال: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وقال: ﴿يَا أيها الَّذِينَ آمنوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إليه الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني إن كنتم مؤمنين بكونه سبحانه وتعالى قادرا على إنزال المائدة فاتقوا الله لتصير تقواكم وسيلة إلى حصول هذا المطلوب.

٩. ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ والمعنى كأنهم لما طلبوا ذلك قال عيسى لهم: إنه قد تقدمت المعجزات الكثيرة فاتقوا الله في طلب هذه المعجزة بعد تقدم تلك المعجزات القاهرة، فأجابوا وقالوا: إنا لا نطلب هذه المائدة لمجرد أن تكون معجزة بل لمجموع أمور كثيرة:

أ. أحدها: أنا نريد أن نأكل منها فإن الجوع قد غلبنا ولا نجد طعاما آخر.

ب. ثانيها: أنا وإن علمنا قدرة الله تعالى بالدليل، ولكنا إذا شاهدنا نزول هذه المائدة ازداد اليقين وقويت الطمأنينة.

ج. ثالثها: أنا وإن علمنا بسائر المعجزات صدقك، ولكن إذا شاهدنا هذه المعجزة ازداد اليقين والعرفان وتأكدت الطمأنينة.

د. رابعها: أن جميع تلك المعجزات التي أوردتها كانت معجزات أرضية، وهذه معجزة سماوية وهي أعجب وأعظم، فإذا شاهدناها كنا عليها من الشاهدين، نشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بني إسرائيل، ونكون عليها من الشاهدين لله بكمال القدرة ولك بالنبوة.

١٠. ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللهُمَّ رَبَّنَا أنزل عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أما الكلام في ﴿اللهُمَّ﴾ فقد تقدم بالاستقصاء في سورة آل عمران في قوله: ﴿قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] فقوله: ﴿اللهُمَّ﴾ نداء، وقوله: ﴿رَبَّنَا﴾ نداء ثان.

١١. ﴿تَكُونُ لَنَا﴾ صفة للمائدة وليس بجواب للأمر، وفي قراءة عبد الله تكن لأنه جعله جواب الأمر، قال الفرّاء: وما كان من نكرة قد وقع عليها أمر جاز في الفعل بعده الجزم والرفع، ومثاله قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي﴾ [مريم: ٥ـ٦] بالجزم والرفع ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ [القصص: ٣٤] بالجزم والرفع.

١٢. ﴿عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ أي نتخذ اليوم الذي تنزل فيه المائدة عيدا نعظمه نحن ومن يأتي بعدنا، ونزلت يوم الأحد فاتخذه النصارى عيدا، والعيد في اللغة اسم لما عاد إليك في وقت معلوم، واشتقاقه من عاد يعود فأصله هو العود، فسمي العيد عيدا لأنه يعود كل سنة بفرح جديد.

١٣. ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ أي دلالة على توحيدك وصحة نبوّة رسولك ﴿وَارْزُقْنَا﴾ أي وارزقنا طعاما نأكله وأنت خير الرازقين.

١٤. تأمل في هذا الترتيب فإن الحواريين لما سألوا المائدة ذكروا في طلبها أغراضا، فقدموا ذكر الأكل فقالوا: ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ١١٣] وأخروا الأغراض الدينية الروحانية، فأما عيسى عليه السلام فإنه لما طلب المائدة وذكر أغراضه فيها قدم الأغراض الدينية وأخر غرض الأكل حيث قال: ﴿وَارْزُقْنَا﴾ وعند هذا يلوح لك مراتب درجات الأرواح في كون بعضها روحانية وبعضها جسمانية، ثم إن عيسى عليه السلام لشدة صفاء دينه وإشراق روحه لما ذكر الرزق بقوله: ﴿وَارْزُقْنَا﴾ لم يقف عليه، بل انتقل من الرزق إلى الرازق فقال: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾:

أ. فقوله: ﴿رَبَّنَا﴾ ابتداء منه بذكر الحق سبحانه وتعالى.

ب. وقوله: ﴿أنزل عَلَيْنَا﴾ انتقال من الذات إلى الصفات.

ج. وقوله: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ إشارة إلى ابتهاج الروح بالنعمة لا من حيث إنها نعمة، بل من حيث إنها صادرة عن المنعم.

د. وقوله: ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ إشارة إلى كون هذه المائدة دليلا لأصحاب النظر والاستدلال.

هـ. وقوله: ﴿وَارْزُقْنَا﴾ إشارة إلى حصة النفس وكل ذلك نزول من حضرة الجلال، فانظر كيف ابتدأ بالأشرف فالأشرف نازلا إلى الأدون فالأدون.

و. ثم قال: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وهو عروج مرة أخرى من الخلق إلى الخالق ومن غير الله إلى

الله ومن الأخس إلى الأشرف، وعند ذلك تلوح لك شمة من كيفية عروج الأرواح المشرقة النورانية الإلهية ونزولها اللهم اجعلنا من أهله.

١٥. ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ﴾ أي بعد إنزال المائدة ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال ابن عباس: يعني مسخهم خنازير، وقيل: قردة وقيل: جنسا من العذاب لا يعذب به غيرهم، قال الزجاج: ويجوز أن يكون ذلك العذاب معجلا لهم في الدنيا، ويجوز أن يكون مؤخرا إلى الآخرة، ﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ يعني عالمي زمانهم.

١٦. قيل: إنهم سألوا عيسى عليه السلام هذا السؤال عند نزولهم في مفازة على غير ماء ولا طعام ولذلك قالوا نريد أن نأكل منها، واختلفوا في أن عيسى عليه السلام هل سأل المائدة لنفسه أو سألها لقومه وإن كان قد أضافها إلى نفسه في الظاهر وكلاهما محتمل.

١٧. اختلفوا في أنه هل نزلت المائدة:

أ. قال الحسن ومجاهد: ما نزلت واحتجوا عليه بوجهين:

• الأول: أن القوم لما سمعوا قوله: ﴿أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ استغفروا وقالوا: لا نريدها.

• الثاني: أنه وصف المائدة بكونها عيدا لأولهم وآخرهم فلو نزلت لبقي ذلك العيد إلى يوم القيامة.

ب. وقال الجمهور الأعظم من المفسرين: أنها نزلت لأنه تعالى قال: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وهذا وعد بالإنزال جزما من غير تعليق على شرط، فوجب حصول هذا النزول:

• والجواب عن الأول: أن قوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ﴾ شرط وجزاء لا تعلق له بقوله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾

• والجواب عن الثاني: أن يوم نزولها كان عيدا لهم ولمن بعدهم ممن كان على شرعهم.

١٨. روي أن عيسى عليه السلام لما أراد الدعاء لبس صوفا، ثم قال: اللهم أنزل علينا فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين غمامة فوقها وأخرى تحتها، وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم فبكى عليه السلام وقال: (اللهم اجعلني من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة)، وقال لهم: ليقم أحسنكم عملا يكشف عنها ويذكر اسم الله عليها ويأكل منها، فقال شمعون رأس الحواريين: أنت أولى

بذلك، فقام عيسى وتوضأ وصلّى وبكى ثم كشف المنديل، وقال: بسم الله خير الرازقين، فإذا سمكة مشوية بلا شوك ولا فلوس تسيل دسما، وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل، وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثاني عسل، وعلى الثالث سمن، وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد، فقال شمعون: يا روح الله: أمن طعام الدنيا أمن طعام الآخرة؟ فقال: ليس منهما ولكنه شيء اخترعه الله بالقدرة العالية: كلوا ما سألتم واشكروا يمددكم الله ويزدكم من فضله، فقال الحواريون: يا روح الله لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى فقال يا سمكة احيي بإذن الله فاضطربت، ثم قال لها: عودي كما كنت فعادت مشوية، ثم طارت المائدة ثم عصوا من بعدها، فمسخوا قردة وخنازير.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]

١. ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ قد تقدم القول في معاني هذه الآية، والوحي في كلام العرب معناه الإلهام ويكون على أقسام: وحي بمعنى إرسال جبريل إلى الرسل عليهم السلام، ووحي بمعنى الإلهام كما في هذه الآية، أي ألهمتهم وقذفت في قلوبهم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل] ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾ [القصص] ووحي بمعنى الإعلام في اليقظة والمنام، قال أبو عبيدة: أوحيت بمعنى أمرت، و﴿إِلَى﴾ صلة يقال: وحى وأوحى بمعنى، قال الله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ [الزلزلة]، وقال العجاج: وحى لها القرار فاستقرت أي أمرها بالقرار فاستقرت، وقيل: ﴿أَوْحَيْتُ﴾ هنا بمعنى أمرتهم، وقيل: بينت لهم.

٢. ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ على الأصل، ومن العرب من يحذف إحدى النونين، أي واشهد يا رب، وقيل: يا عيسى بأننا مسلمون لله.

٣. ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾:

أ. قراءة الكسائي وعلي وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد (هل تستطيع) بالتاء ﴿رَبَّكَ﴾ بالنصب، وأدغم الكسائي اللام من ﴿هَلْ﴾ في التاء، وقرأ الباقون بالياء، ﴿رَبُّكَ﴾ بالرفع، وهذه القراءة

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/٣٦٣.

أشكل من الأولى، فقال السدي: المعنى هل يطيعك ربك إن سألته ﴿أَنْ يُنَزِّلَ﴾ فيستطيع بمعنى يطيع، كما قالوا: استجاب بمعنى أجاب، وكذلك استطاع بمعنى أطاع.

ب. وقيل المعنى: هل يقدر ربك وكان هذا السؤال في ابتداء أمرهم قبل استحكام معرفتهم بالله تعالى، ولهذا قال عيسى في الجواب عند غلطهم وتجويزهم على الله ما لا يجوز: ﴿اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي لا تشكوا في قدرة الله تعالى.

ج. وهذا فيه نظر، لأن الحواريين خلصان الأنبياء ودخلاؤهم وأنصارهم كما قال: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾ [الصف]، وقال ﷺ: (لكل نبي حواري وحواري الزبير) ومعلوم أن الأنبياء ﷺم جاءوا بمعرفة الله تعالى وما يجب له وما يجوز وما يستحيل عليه وأن يبلغوا ذلك أممهم، فكيف يخفى ذلك على من باطنهم واختص بهم حتى يجهلوا قدرة الله تعالى؟ إلا أنه يجوز أن يقال: إن ذلك صدر ممن كان معهم، كما قال بعض جهال الأعراب للنبي ﷺ: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، وكما قال من قال من قوم موسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف] على ما يأتي بيانه في الْأَعْرَافِ إن شاء الله تعالى.

د. وقيل: إن القوم لم يشكوا في استطاعة الباري سبحانه لأنهم كانوا مؤمنين عارفين عالمين، وإنما هو كقولك للرجل: هل يستطيع فلان أن يأتي وقد علمت أنه يستطيع، فالمعنى: هل يفعل ذلك؟ وهل يجيبني إلى ذلك أم لا؟ وقد كانوا عالمين باستطاعة الله تعالى لذلك ولغيره علم دلالة وخبر ونظر فأرادوا علم معاينة كذلك، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة] على ما تقدم وقد كان إبراهيم علم لذلك علم خبر ونظر، ولكن أراد المعاينة التي لا يدخلها ريب ولا شبهة، لأن علم النظر والخبر قد تدخله الشبهة والاعتراضات، وعلم المعاينة لا يدخله شي من ذلك، ولذلك قال الحواريون: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ كما قال إبراهيم: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة]، وهذا تأويل حسن، وأحسن منه أن ذلك كان من قول من كان مع الحواريين، على ما يأتي بيانه.

٤. وقد أدخل ابن العربي المستطيع في أسماء الله تعالى، وقال: لم يرد به كتاب ولا سنة اسما وقد ورد فعلا، وذكر قول الحواريين: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾، ورده عليه ابن الحصار في كتاب شرح السنة له وغيره، قال ابن الحصار: وقوله سبحانه مخبرا عن الحواريين لعيسى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ ليس بشك في

الاستطاعة، وإنما هو تلطف في السؤال، وأدب مع الله تعالى، إذ ليس كل ممكن سبق في علمه وقوعه ولا لكل أحد، والحواريون هم كانوا خيرة من آمن بعيسى، فكيف يظن بهم الجهل باقتدار الله تعالى على كله شي ممكن!؟ وأما قراءة التاء فقيل: المعنى هل تستطيع أن تسأل ربك هذا قول عائشة ومجاهد، قالت عائشة: كان القوم أعلم بالله تعالى من أن يقولوا ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ [قالت] ولكن هل تستطيع ربك)، وروي عنها أيضا أنها قالت: كان الحواريون لا يشكون أن الله يقدر على إنزال مائدة ولكن قالوا: (هل تستطيع ربك) وعن معاذ بن جبل قال: (أقرأنا النبي ﷺ هل تستطيع ربك) قال معاذ: وسمعت النبي ﷺ مرارا يقرأ بالتاء هل تسطيع ربك) وقال الزجاج: المعنى هل تستدعي طاعة ربك فيما تسأله، وقيل: هل تستطيع أن تدعو ربك أو تسأله، والمعنى متقارب، ولا بد من محذوف كما قال: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف] وعلى قراءة الياء لا يحتاج إلى حذف.

٥. ﴿قَالَ اتَّقُوا اللهَ﴾ أي اتقوا معاصيه وكثرة السؤال، فإنكم لا تدرون ما يحل بكم عند اقتراح الآيات، إذ كان الله تعالى إنما يفعل الأصلح لعباده، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم مؤمنين به وبما جئت به فقد جاءكم من الآيات ما فيه غنى.

٦. ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ نصب بأن ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ عطف كله، بينوا به سبب سؤالهم حين نهوا عنه، وفي قولهم: ﴿نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ وجهان:

أ. أحدهما: أنهم أرادوا الأكل منها للحاجة الداعية إليها، وذلك أن عيسى عليه السلام كان إذا خرج اتبعه خمسة آلاف أو أكثر، بعضهم كانوا أصحابه وبعضهم كانوا يطلبون منه أن يدعو لهم لمرض كان بهم أو علة، إذ كانوا زمنى أو عميانا، وبعضهم كانوا ينظرون ويستهزئون فخرج يوما إلى موضع فوقعوا في مفازة ولم يكن معهم نفقة فجاعوا وقالوا للحواريين: قولوا لعيسى حتى يدعو بأن تنزل علينا مائدة من السماء، فجاءه شمعون رأس الحواريين وأخبره أن الناس يطلبون بأن تدعو بأن تنزل عليهم مائدة من السماء، فقال عيسى لشمعون: قل لهم ﴿اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فأخبر بذلك شمعون القوم فقالوا له: قل له: ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ الآية.

ب. الثاني: ﴿نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ لننال بركتها لا لحاجة دعتهم إليها، قال الماوردي: وهذا أشبه، لأنهم لو احتاجوا لم ينهوا عن السؤال]

٧. وقولهم: [﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ يحتمل ثلاثة أوجه:

أ. أحدها: تطمئن إلى أن الله تعالى بعثك إلينا نبيا.

ب. الثاني: تطمئن إلى أن الله تعالى قد اختارنا لدعوتنا.

ج. الثالث: تطمئن إلى أن الله تعالى قد أجابنا إلى ما سألنا، ذكرها الماوردي وقال المهدوي: أي تطمئن بأن الله قد قبل صومنا وعملنا، قال الثعلبي: نستيقن قدرته فتسكن قلوبنا.

٨. ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ بأنك رسول الله ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لله بالوحدانية، ولك بالرسالة والنبوة، وقيل: ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لك عند من لم يرها إذا رجعنا إليهم.

٩. ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللهُمَّ رَبَّنَا﴾ الأصل عند سيبويه يا الله، والميمان بدل من ﴿يَا﴾ ربنا نداء ثان، لا يجيز سيبويه غيره ولا يجوز أن يكون نعتا لأنه قد أشبه الأصوات من أجل ما لحقه.

١٠. ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً﴾ المائدة الخوان الذي عليه الطعام قال قطرب: لا تكون المائدة مائدة حتى يكون عليها طعام فإن لم يكن قيل: خوان وهي فاعلة من ماد عبده إذا أطعمه وأعطاه، فالمائدة تميد ما عليها أي تعطي ومنه قول رؤبة أنشده الأخفش:

تهدي رؤوس المترفين الأنداد   إلى أمير المؤمنين الممتاد

أي المستعطى المسئول فالمائدة هي المطعمة والمعطية الآكلين الطعام ويسمى الطعام أيضا مائدة تجوزا لأنه يؤكل على المائدة، كقولهم للمطر سماء، وقال أهل الكوفة: سميت مائدة لحركتها بما عليها من قولهم: ماد الشيء إذا مال وتحرك قال الشاعر:

لعلك باك إن تغنت حمامة   يميد بها غصن من الأيك مائل

وقال آخر:

وأقلقني قتل الكناني بعده   فكادت بي الأرض الفضاء تميد

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل]، وقال أبو عبيدة: مائدة فاعلة بمعنى مفعولة، مثل ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة] بمعنى مرضية و﴿مَاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق] أي مدفوق.

١١. ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ ﴿تَكُونُ﴾ نعت لمائدة وليس بجواب، وقرأ الأعمش ﴿تَكُنْ﴾ على الجواب، والمعنى: يكون يوم نزولها ﴿عِيدًا لِأَوَّلِنَا﴾ أي لأول أمتنا وآخرها فقيل: إن المائدة نزلت عليهم

يوم الأحد غدوة وعشية فلذلك جعلوا الأحد عيدا:

أ. والعيد واحد الأعياد وإنما جمع بالياء وأصله الواو للزومها في الواحد ويقال: للفرق بينه وبين أعواد الخشب وقد عيدوا أي شهدوا العيد قاله الجوهري.

ب. وقيل: أصله من عاد يعود أي رجع فهو عود بالواو، فقلبت ياء لانكسار ما قبلها مثل الميزان والميقات والميعاد فقيل ليوم الفطر والأضحى: عيدا لأنهما يعودان كل سنة، وقال الخليل: العيد كل يوم يجمع كأنهم عادوا إليه، وقال ابن الأنباري: سمي عيدا للعود في المرح والفرح فهو يوم سرور الخلق كلهم، ألا ترى أن المسجونين في ذلك اليوم لا يطالبون ولا يعاقبون ولا يصاد الوحش ولا الطيور ولا تنفذ الصبيان إلى المكاتب.

ج. وقيل: سمي عيدا لأن كل إنسان يعود إلى قدر منزلته ألا ترى إلى اختلاف ملابسهم وهيئاتهم ومآكلهم فمنهم من يضيف ومنهم من يضاف ومنهم من يرحم ومنهم من يرحم.

د. وقيل: سمي بذلك لأنه يوم شريف تشبيها بالعيد: وهو فحل كريم مشهور عند العرب وينسبون إليه فيقال: إبل عيدية قال عيدية أرهنت فيها الدنانير وقد تقدم، وقرأ زيد بن ثابت (لأولانا وأخرانا) على الجمع قال ابن عباس: يأكل منها آخر الناس كما يأكل منها أولهم.

١٢. ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ يعني دلالة وحجة، ﴿وَارْزُقْنَا﴾ أي أعطنا، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي خير من أعطى ورزق، لأنك الغني الحميد.

١٣. ﴿قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ هذا وعد من الله تعالى أجاب به سؤال عيسى كما كان سؤال عيسى إجابة للحواريين وهذا يوجب أنه قد أنزلها ووعده الحق، فجحد القوم وكفروا بعد نزولها فمسخوا قردة وخنازير، قال ابن عمر: إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾

١٤. واختلف العلماء في المائدة هل نزلت أم لا؟ فالذي عليه الجمهور ـ وهو الحق ـ نزولها لقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، وقال مجاهد: ما نزلت وإنما هو ضرب مثل ضربه الله تعالى لخلقه فنهاهم عن مسألة الآيات لأنبيائه، وقيل: وعدهم بالإجابة فلما قال لهم: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ﴾ الآية استعفوا منها، واستغفروا الله وقالوا: لا نريد هذا، قاله الحسن، وهذا القول الذي قبله خطأ والصواب أنها نزلت، قال

ابن عباس: إن عيسى ابن مريم قال لبني إسرائيل: صوموا ثلاثين يوما ثم سلوا الله ما شئتم يعطكم فصاموا ثلاثين يوما وقالوا: يا عيسى لو عملنا لأحد فقضينا عملنا لأطعمنا، وإنا صمنا وجعنا فادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها، عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات فوضعوها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم.

١٥. جاء في حديث سلمان بيان المائدة وأنها كانت سفرة لا مائدة ذات قوائم والسفرة مائدة النبي ﷺ وموائد العرب خرج أبو عبد الله الترمذي الحكيم: عن أنس قال: ما أكل رسول الله ﷺ على خوان قط ولا في سكرجة ولا خبز له مرقق، قال قلت لأنس: فعلام كانوا يأكلون؟ قال على السفر قال محمد بن بشار: يونس هذا هو أبو الفرات الإسكاف، قلت: هذا حديث صحيح ثابت اتفق على رجاله البخاري ومسلم وخرجه الترمذي قال حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا معاذ بن هشام فذكره وقال فيه: حسن غريب، قال الترمذي أبو عبد الله: الخوان هو شي محدث فعلته الأعاجم وما كانت العرب لتمتهنها وكانوا يأكلون على السفر واحدها سفرة وهي التي تتخذ من الجلود ولها معاليق تنضم وتنفرج فبالانفراج سميت سفرة لأنها إذا حلت معاليقها انفرجت فأسفرت عما فيها فقيل لها السفرة وإنما سمي السفر سفرا لإسفار الرجل بنفسه عن البيوت وقوله: ولا في سكرجة لأنها أوعية الأصباغ، وإنما الأصباغ للألوان ولم تكن من سماتهم الألوان وإنما كان طعامهم الثريد عليه مقطعات اللحم، وكان يقول: (انهسوا اللحم نهسا فإنه أشهى وأمرأ)

١٦. سؤال وإشكال: فقد جاء ذكر المائدة في الأحاديث من ذلك حديث ابن عباس قال لو كان الضب حراما ما أكل على مائدة النبي ﷺ، خرجه مسلم وغيره، وعن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: (تصلي الملائكة على الرجل ما دامت مائدته موضوعة) خرجه الثقات والجواب: إن المائدة كل شي يمد ويبسط مثل المنديل والثوب.

١٧. وكان من حقه أن تكون مادة الدال مضعفة فجعلوا إحدى الدالين ياء فقيل: مائدة، والفعل واقع به فكان ينبغي أن تكون ممدودة ولكن خرجت في اللغة مخرج فاعل كما قالوا: سر كاتم وهو مكتوم وعيشة راضية وهي مرضية وكذلك خرج في اللغة ما هو فاعل على مخرج مفعول فقالوا: رجل مشئوم وإنما هو شائم وحجاب مستور وإنما هو ساتر قال فالخوان هو المرتفع عن الأرض بقوائمه والمائدة ما مد وبسط

والسفرة ما أسفر عما في جوفه وذلك لأنها مضمومة بمعاليقها وعن الحسن قال الأكل على الخوان فعل الملوك وعلى المنديل فعل العجم وعلى السفرة فعل العرب وهو السنة.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ هو معطوف على ما قبله، وقد تقدّم تفسير ذلك، والوحي في كلام العرب معناه الإلهام: أي ألهمت الحواريين وقذفت في قلوبهم؛ وقيل معناه: أمرتهم على ألسنة الرسل أن يؤمنوا بي بالتوحيد والإخلاص ويؤمنوا برسالة رسولي.

٢. ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ جملة مستأنفة كأنه قيل: ماذا قالوا؟ فقال: قالوا آمنا ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ أي مخلصون للإيمان: أي واشهد يا رب، أو واشهد يا عيسى.

٣. ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر: أي اذكر أو نحوه كما تقدّم، قيل: والخطاب لمحمد ﷺ، قرأ الكسائي (هل تستطيع) بالفوقية، ونصب ربك، وبه قرأ عليّ وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد، وقرأ الباقون بالتحتية ورفع ربك، واستشكلت القراءة الثانية: بأنه قد وصف سبحانه الحواريين بأنهم قالوا: ﴿آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ والسؤال عن استطاعته لذلك ينافي ما حكوه عن أنفسهم، وأجيب بأن هذا كان في أوّل معرفتهم قبل أن تستحكم معرفتهم بالله، ولهذا قال عيسى في الجواب عن هذا الاستفهام الصادر منهم: ﴿اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي لا تشكوا في قدرة الله؛ وقيل: إنهم ادّعوا الإيمان والإسلام دعوى باطلة، ويردّه أن الحواريين هم خلصاء عيسى وأنصاره كما قال: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾ وقيل: إن ذلك صدر ممن كان معهم، وقيل: إنهم لم يشكّوا في استطاعة الباري سبحانه، فإنهم كانوا مؤمنين عارفين بذلك، وإنما هو كقول الرجل: هل يستطيع فلان أن يأتي؟ مع علمه بأنه يستطيع ذلك ويقدر عليه؛ فالمعنى: هل يفعل ذلك وهل يجيب إليه؟ وقيل: إنهم طلبوا الطمأنينة كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ الآية، ويدل على هذا قولهم من بعد ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ وأما على القراءة الأولى، فالمعنى: هل تستطيع أن تسأل ربك، قال الزجاج: المعنى هل تستدعي

---

(١) فتح القدير: ٢/١٠٥.

طاعة ربك فيما تسأله فهو من باب ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾

٤. ﴿مَائِدَةً﴾: الخوان إذا كان عليه الطعام، من مادة: إذا أعطاه ورفده كأنها تميد من تقدّم إليه قاله قطرب وغيره؛ وقيل: هي فاعلة بمعنى مفعولة كـ ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ قاله أبو عبيدة.

٥. فأجابهم عيسى عليه السلام بقوله: ﴿اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي اتقوه من هذا السؤال وأمثاله إن كنتم صادقين في إيمانكم، فإن شأن المؤمن ترك الاقتراح على ربه على هذه الصفة، وقيل: إنه أمرهم بالتقوى ليكون ذلك ذريعة إلى حصول ما طلبوه.

٦. ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ بينوا به الغرض من سؤالهم نزول المائدة، وكذا ما عطف عليه من قولهم: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ والمعنى: تطمئن قلوبنا بكمال قدرة الله، أو بأنك مرسل إلينا من عنده، أو بأنّ الله قد أجابنا إلى ما سألناه، ونعلم علما يقينا بأنك قد صادقتنا في نبوّتك، ونكون عليها من الشّاهدين: عند من لم يحضرها من بني إسرائيل أو من سائر الناس أو من الشّاهدين لله بالوحدانية، أو من الشّاهدين: أي الحاضرين دون السّامعين، ولما رأى عيسى ما حكوه عن أنفسهم من الغرض بنزول المائدة قال: ﴿اللهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي كائنة أو نازلة من السماء، وأصل اللهمّ عند سيبويه وأتباعه: يا الله، فجعلت الميم بدلا من حرف النداء، وربنا نداء ثان، وليس بوصف.

٧. ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ وصف لمائدة، وقرأ الأعمش يكون لنا عيدا أي يكون نزولها لنا عيدا، وقد كان نزولها يوم الأحد، وهو يوم عيد لهم؛ والعيد واحد الأعياد، وإنما جمع بالياء وأصله الواو للزومها في الواحد؛ وقيل: للفرق بينه وبين أعواد جمع عود، ذكر معناه الجوهري، وقيل: أصله من عاد يعود: أي رجع فهو عود بالواو، وتقلب ياء لانكسار ما قبلها مثل الميزان والميقات والميعاد، فقيل: ليوم الفطر والأضحى عيدان، لأنهما يعودان في كل سنة، وقال الخليل: العيد كل يوم جمع كأنهم عادوا إليه.

٨. ﴿لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ بدل من الضمير في لنا بتكرير العامل: أي لمن في عصرنا ولمن يأتي بعدنا من ذرارينا وغيرهم، ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ عطف على عيدا، أي دلالة وحجّة واضحة على كمال قدرتك وصحة إرسالك من أرسلته ﴿وَارْزُقْنَا﴾ أي: أعطنا هذه المائدة المطلوبة، أو ارزقنا رزقا نستعين به على عبادتك ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ بل لا رازق في الحقيقة غيرك ولا معطي سواك.

٩ . فأجاب الله سبحانه سؤال عيسى عليه السلام فقال: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ أي المائدة ﴿عَلَيْكُمْ﴾، وقد اختلف أهل العلم هل نزلت عليهم المائدة أم لا؟ فذهب الجمهور إلى الأوّل وهو الحق لقوله سبحانه: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ووعده الحق وهو لا يخلف الميعاد، وقال مجاهد: ما نزلت وإنما هو ضرب مثل ضربه الله لخلقه نهيا لهم عن مسألة الآيات لأنبيائه، وقال الحسن: وعدهم بالإجابة، فلما قال: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ﴾ استغفروا الله وقالوا: لا نريدها.

١٠ . ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ﴾ أي بعد تنزيلها ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا﴾ أي تعذيبا ﴿لَا أُعَذِّبُهُ﴾ صفة لعذابا، والضمير عائد إلى العذاب بمعنى التعذيب: أي لا أعذب مثل ذلك التعذيب ﴿أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قيل: المراد عالمي زمانهم، وقيل: جميع العالمين، وفي هذا من التهديد والترهيب ما لا يقادر قدره.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١ . ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ بواسطة رسلي الماضين وعيسى، أو بواسطة عيسى، أو أوحيت بمعنى ألهمت، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٧]، ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، إذ ليس الحواريُّون وأمُّ موسى والنحلُ أنبياءً، والحواريُّون: أصحاب عيسى وخواصُّه، ويجوز تفسيره بـ (أَمَرْتُ)، ومن استعماله بمعنى الأمر ما رواه الزجَّاج: (الحمد لله الذي استقلَّت بإذنه السماء واطمأنَّت، أوحى لها القرار فاستقرَّت)، إلَّا أنِّي أظنُّه مصنوعًا، ألا ترى إلى جعله الرويَّ تاء لا حرفًا مكرَّرًا قبله؟

٢ . ﴿أَنَ ـ امِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾ عيسى، (أَنْ) مفسِّرة ـ لتقدُّم جملة فيها معنى القول لا حروفُه ـ لا مَصْدَرِيَّة، لدخولها على الأمر، والأمر لا خارج له بوحي، والمصدر غير الصريح لا يدلُّ على الأمر، ﴿قَالُواْ آمَنَّا﴾ بك وبرسولك ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ متَّبعون الإيمان بالإسلام، أي: بانقياد الجوارح للعمل به، وذلك إخلاص، وقدَّموا الإيمان لأنَّه المأمور به ولو كان المراد: الإيمان التامُّ المتبوع بالانقياد إذ قال: ﴿أَنَ ـ امِنُواْ﴾، ولا عبرة بإذعان الجوارح بلا تحقيق إيمان، فقَدَّمَ الإيمان لذلك، ولو كان الإسلام ـ أي: الإذعان ـ

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ١٧٠.

بالجوارح لا عبرة به بلا إيمان، لأنَّ الإيمان على كلِّ حال هو الأصل.

٣. ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ متعلِّق بـ (قَالُوا)، أو مفعول لِـ (اذْكُرْ)، وعلى تعليقه بـ (قَالُوا) يكون تنبيها على أنَّ دعواهم الإيمان واستتباع الجوارح للإيمان غير متحقِّقة، لِمَا ذَكَرَ اللهُ عنهم مِن سؤالهم المائدة، ولو تحقَّقت لم يسألوا المائدة ولم يشكُّوا في استطاعة الله تنزيل المائدة، أي: ﴿قَالُواْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ وهم غير قويِّين في الإيمان بل ضعُف إيمانهم، ومقتضى الظاهر: (إذ قالوا) بردِّ الضمير للحواريِّين ولكن أظهر لأنَّه كلام في قصَّة جرت بينه وبينهم غير ما قبلها، وقال هنا: ﴿بِأَنَّنَا﴾ بِنونَين على الأصل، لأنَّ المؤمَن به ـ بفتح الميم الثانية ـ مُتَعَدِّد: (بِي وَبِرَسُولِي)، وفي موضع آخر بنون واحدة، لأنَّ المؤمَن به واحدٌ في آمنا بالله، كذا قيل، وفيه سوء أدب، إذ لا ضعف في ذكر الله وحده مع أنَّه لا شيء إلَّا منه ولا قوَّة إلَّا به.

٤. ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ يقدِر ربُّك، ويحتمل أنَّ المراد: هل في حكمته تنزيل المائدة، فليسوا شاكِّين ولا غير صادقين، وصرَّح بعض بأنَّهم مجمع على إيمانهم، ويدلُّ على إيمانهم قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَّكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾، إلَّا أنَّه يجاب باحتمال أن يراد فمن يبقَ على الكفر، أو يَزِدْ كفرًا فإنَّ كلَّ إنكار لما يجب الإيمان به كفر على حدة، فيجاب بأنَّه لا دَلِيل على هذا الاحتمال، ولا يُقبل المحتمَل المخالِف للظاهر إلَّا بدليل.

٥. ويدلُّ على إيمانهم وصفُهم بـ (الْحَوَارِيُّونَ)، فإنَّه ينافي كونهم على الباطل، ودعوى أنَّهم حواريُّون ظاهرًا يحتاج إلى دَلِيل، ويدلُّ على إيمانهم أمرُ الله تعالى المؤمنين بالتشبُّه بهم كما قال تعالى: ﴿كُونُوا أَنصَارًا لِّلهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنَ اَنصَارِيَ إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ﴾ الآية [الصف: ١٤]، ويدلُّ على إيمانهم قوله ﷺ: (لِكُلِّ نبيء حواريٌّ وإن حوارِيَّ الزبير) رواه قومنا، ودعوى أنَّ من الحواريِّين طائفة لم تؤمن أو ارتابت فطلبت المائدة تحتاج إلى صِحَّةٍ، وتفسيرُ ﴿تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ بزيادة الإيمان، وتفسيرُ ﴿صَدَقْتَنَا﴾ بالإلحاح في علامة أنَّ الله يجيب دعاءنا.

٦. وقيل: (يَسْتَطِيعُ) بمعنى يطيع، كـ (استجاب) بمعنى: أجاب، وَلَكِنَّ وَصْفَ الله بطاعة غيره ولو كانت بمعنى الإجابة تحتاج إلى توقيف، وذكر أبو شامة أنَّ أبا طالب قال لِرَسُولِ الله ﷺ: (يا ابن أخي اُدع ربَّك أن يشفيني)، فدعا، فكأنَّما نشط من عقال، فقال: (إنَّ ربَّك يطيعك)، فقال: (لو أطعتَه لكان يطيعك)، فاستعمل إطاعة الله لغيره بمعنى الإجابة، وحَسَّنَهُ المشاكلة لقول عمِّه: (إنَّ ربَّك يطيعك)، أو

(يَسْتَطِيعُ) بمعنى: يفعل، تعبيرًا باللازم؛ لأنَّه يلزم من فعل الشيء أنَّ فاعله قادر عليه، أو بالملزوم البيانيِّ عن اللازم، فإنَّه يلزم مِن استطاعة الشيءِ فعْلُهُ، أي: ترتُّبُه عليه في الجملة، أو بالسبب العاديِّ عن المُسَبَّب، فإنَّ القدرة سبب الفعل، أو المعنى السؤال لغيرهم مِمَّن لم يطمئنَّ لا لهم، كما سأل موسى الرؤية عن قومه لا من نفسه، وذلك كُلُّه خروج عن كفر الحواريِّين لأنَّهم كالمجمع على إيمانهم.

٧. ﴿أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ﴾ إناء يعدُّ للطعام الواسع بأنواع منه، وإن لم يكن فيه طعام فهو خِوان، كإناء شرب خمر يسمَّى: كأسًا إن كان فيه الخمر وإلَّا فقدح، وكما يستقى به يسمَّى ذَنوبًا، وسَجْلاً إن كان فيه ماء وإلَّا فدَلوٌ، وكالجِلد هو جِراب إن دُبغ وإلَّا فإهابٌ، وهي من (مَادَ): تحرَّك، كأنَّها تميد بما فيها من الطعام، أو مِن مادَّهُ: أعطاه، كأنَّها مَعطيَّة للآكلين، كما تقول شجرة مطعِمة، وقيل: فاعلة بمعنى مفعولة، أي: معطاة.

٨. ﴿قَالَ اتَّقُواْ اللهَ﴾ من مثل هذا السؤال، أو اتَّقوا الله لتحصل الإجابة، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَّتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]

٩. ﴿إِن كُنتُم مُّومِنِينَ﴾ إيمانًا حقيقيًّا يستتبع الأعمال الصالحة والإخلاص، أو إن كنتم صادقين في دعوى الإيمان والإسلام، وليس المعنى: إن كنتم مؤمنين بكمال قدرة الله ونبوءتي؛ لأنَّ من يسأل هذا السؤال شاكٌّ في قدرة الله جلَّ وعلا وفي نبوءة عيسى عليه السلام ، فلا يقال له: إن كنت مؤمنًا بذلك، إلَّا أنَّه قد تقدَّم تفاسير في استطاعة تنزيل المائدة لا تنافي الإيمان، كما أخبر عنهم بقوله: ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّاكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا﴾ متعلِّق بـ (شَاهِدِينَ) محذوف، أو متعلِّق بـ (نشهد) محذوفًا معترضٍ، جوابٌ لقولِ من يقول: علام تشهدون؟ أو حال من ضمير (نَكُونَ)، أو متعلِّق بـ (شَاهِدِينَ) بعده، على أنَّ (ال) حرف تعريف، أو على أنَّها موصولة، وقد قيل عن الكوفيِّين جواز تقديم معمول الصلة على الموصول، ولا سيما معمول مجرور بحرف أو ظرف.

١٠. ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ فإنَّ حاصله أنَّا لسنا شاكِّين في كمال قدرة الله تعالى أو نبوءتك، ولا متعنِّتين باقتراح آية، بل نريد الأكل منها تبرُّكًا في الإيمان والأبدان والقلوب، وتشفِّيًا من الأمراض والأدواء، وتقوِّيًا لضعفائنا، واستغناء لفقرائنا، ولا سيما أنَّا في زمان القحط، ونريد بالأكل منها اطمئنان قلوبنا وازدياد إيمانها؛ لأنَّ العَيان أقوى من الاستدلال بكمال قدرته تعالى، ونريد أن نزداد علمًا في دعوى الإجابة والنبوءة

أنَّه - أي: الشأن، أو أنَّك - قد صدقتنا - وقد أجاز بعضٌ تقدير الضمير لغير الشأن مِن تكلُّمٍ أو خطابٍ أو غيبةٍ بحسب الإمكان، حيث يُقَدِّرُون ضمير الشأن ويقيسون على ذلك - ونريد أن نشهد لك عند الله وعند الخلق على نبوءتك بآية سماويَّة غير سائر معجزاتك الأرضيَّة مرغوب فيها طبعًا، والمعنى: من الشاهدين لك بها عند من لم يشاهدها، أو: من الشاهدين لك بالنبوءة، أو: من الشاهدين لله بالوحدانيَّة.

١١. ﴿قَالَ عِيسَى اَبْنُ مَرْيَمَ﴾ أظهر بعد الإضمار زيادةً في تفخيم شأنه عليه السلام في إجابته إلى مرغوب فيه عظيم، ﴿اللهُمَّ رَبَّنَآ﴾ بدل، أو منادى بمحذوف، لا نعتٌ، (اللهمَّ) لا ينعت ولا يعطف عليه بحرف ولا ببيان؛ لأنَّ الله لا يخفى عنه، وقيل: يجوز نعته والعطف عليه نحو: (اللهمَّ وخالق كُلِّ شيء)

١٢. ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ﴾ لم يقل: المائدة مع عهدها تعظيمًا، ولأنَّ المعهود من كلامهم مطلق المائدة، والتي في دعائه مقيَّدة بأنَّها تكون عيدًا كما قال: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ يكون يوم نزولها عيدًا نعظِّمه كلَّ عام على استمرار، فنزلت يوم الأحد فاتَّخذوه عيدًا، وتركوا الجمعة المأمورين هم بها، أو المخيَّرين فيها وفي غيرها، فحُذِفَ مضافان، أو سمَّاها عيدًا لأنَّها سبب كون اليوم عيدًا، أو (عيدًا): سرورًا، أي: نَتَّخِذُ يوم نزولها يوم سرور وعبادة، وما يعود ويتكرَّر يسمَّى عيدًا، ويوم العيد يعود كلَّ سنة أو يعود بالفرح، ويقال لِكُلِّ حالة تعاود الإنسانَ أو غيره عيدٌ، والياء عن واو، أو تكون لنا طعامًا يعود إلينا مرَّة بعد أخرى؛ وإسناد العيديَّة إليها على هذا حقيقة.

١٣. ﴿لأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ بدل مِن (لَنَا)، أي: لمتقدِّمينا ومتأخِّرينا بدل مطابق؛ لأنَّ المُتَقَدِّمين والمتأخِّرين هم معنى (نَا) من قولهم: (لَنَا)، والمراد: لنا ولمن بعدنا، فإمَّا أن يريدوا يوم نزولها وهو مستمرٌّ، أو يريدوا دوامها، أو تجدُّد نزولها.

١٤. ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ يا رَبِّ، تدلُّ على كمال قدرتك وصحَّة نبوءتي، ﴿وَارْزُقْنَا﴾ المائدةَ، وكلَّ ما نحتاج إليه، والشكرَ على الرزق، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ لأنَّك خالق الرزق جوادٌ معطٍ بلا عوض.

١٥. لَمَّا رأى غرضهم صحيحًا في ذلك، ورآهم لا يكفُّون عنه، وخاف كفرهم إن لم يفعل، قام واغتسل ولبس المسح من الشعر، وطرح الصوف، وصلَّى ركعتين وقام مستقبلاً، وَصَفَّ قدميه حتَّى ألصق كعبًا بكعب، ووضع يمناه على يسراه فوق صدره، وبكى حتَّى ابتلَّت لحيته، ووصل الدمع الأرض، وطأطأ رأسه، وغضَّ بصره، وقال: ﴿اللهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً

مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾

١٦. ﴿قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ مرارا، كما يدلُّ عليه التشديد، ﴿عَلَيْكُمْ﴾ إجابة لدعائك وسؤالهم، ﴿فَمَنْ يَّكْفُرْ﴾ بي أو بك، أو بصفة من صفاتي ﴿بَعْدُ﴾ بعد نزولها ﴿مِنكُمْ فَإِنِّيَ أُعَذِّبُهُ عَذَابًا﴾ اسم مصدر هو التعذيب مفعول مطلق لا مفعول به، لأنَّ عذَّب متعدٍّ لواحد وهو هاء (أُعَذِّبُهُ)

١٧. ﴿لَآ أُعَذِّبُهُ﴾ هذه الهاء مفعول مطلق واقعة على (عذاب)، بمعنى التعذيب، كقولك: القيام قمته، لا مفعول به، والمفعول به هو قوله: ﴿أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ الخلق كلِّهم، لأنَّهم مسخوا قردة وخنازير ولم يعذَّب بذلك أحد قبلهم ولا بعدهم، وقوم داود الصائدون في السبت مُسخوا قردة خاصَّة مع أنَّهم ماضون، والآية في المستقبل فَالْمُرَادُ: لا أعذِّبه بعدهم، فإنَّه قال: ﴿لَآ أُعَذِّبُهُ﴾ ولم يقل: لم أعذِّبْهُ، أو المراد عالمُو زمانهم، وقيل: مسخ قوم داود قردة وخنازير وأصحاب المائدة خنازير فقط، وقيل: المراد عذاب الآخرة، فعن ابن عمر: (أشدُّ الناس عذابًا يوم القيامة من كفر من أصحاب المائدة، والمنافقون، وآل فرعون)

١٨. والمشهور ما ذُكر من أنَّها نزلت، وقيل: عن مجاهد والحسن أنَّه لَمَّا قال: ﴿فَمَنْ يَّكْفُرْ﴾ إلخ، قالوا: لا حاجة لنا بها فلم تنزل، والصحيح نزولها، ولَمَّا نزلت جاءت اليهود ينظرون فرأوا ما غمَّهم وغاظهم فرجعوا، وشرط عليهم أن لا يخونوا ولا يدَّخروا ففعلوا ما نهوا عنه فرُفِعت، روي أنَّه نزلت سفرة حمراء بين غمامتين وهم ينظرون حتَّى سقطت بين أيديهم فبكى عليه السلام ، وقال: (اللهُمَّ اجعلني من الشاكرين، اللهُمَّ اجعلها رحمة للعالمين، ولا تجعلها مُثْلة وعقوبة)، ثمَّ قام فتوضَّأ وصلَّى وبكى ثمَّ كشف المنديل، وقال: باسم الله خير الرازقين، فإذا سمكة مشوية بلا فلوس ولا شوك تسيل دسمًا، وعند رأسها ملح وعند ذنبها خلٌّ، وحولها من أنواع البقول ما خلا الكراث، وإذا خمسة أرغفة على واحد زيتون وعلى الثاني عسل، وعلى الثالث سمن، وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد، وقيل: على واحد زيتون، وعلى الآخر تمرات، وعلى الآخر خمس رمَّانات، وقيل: فيها سبعة أرغفة، وسبعة أحوات، والفلوس: ما يقشَّر منها، والشوك: عظامها الشبيهة بالشوك، فقال شمعون: يا روح الله أَمِنْ طعام الدُّنيا أم من طعام الآخرة؟ قال: ليس منها ولكن اخترعه الله تعالى بقدرته، كلوا ما سألتم، واشكروا يمددكم الله ويزدكم من فضله، فقالوا: يا روح الله لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى، فقال: يا سمكة، أحيي بإذن الله، فاضطربت ثمَّ قال

لها عودي كما كنت فعادت مشوية، وأكل من أكل من المائدة في ذلك، فطارت وقد شبعوا، ولم تنزل بعدُ.

١٩. قال القرطبي جاء في حديث سلمان أنَّ المائدة سفرة لا مائدة ذات قوائم، والسفرة مائدة النبيِّ ﷺ وموائد العرب، ويقال الخوان: مَا ارتفع من الأرض بقوائمه، والمائدة: ما بسط على الأرض من الثياب والمناديل، والسفرة: ما أسفر عمَّا في جوفه، وعن الحسن: الأكل على الخوان فعل الملوك، وعلى المنديل فعل الأعاجم، وعلى السفر فعل العرب، والسفرة في الأصل: طعام يَتَّخِذُه المسافر، والغالب حمله في جلد مستدير، فنقل اسمه لذلك الجلد فسمِّي به، ولأنَّ للجلد المذكور مغاليق تنضمُّ وتنفرج فللانفراج سمِّيت سفرة، وعصوا بعدما رفعت فمسخوا، وقيل: كانت تأتيهم أربعين يومًا، تأتي في يوم ولا تأتي في يوم، تجتمع عليها الفقراء والأغنياء والصغار والكبار، يأكلون حتَّى إذا فاء الفيء طارت، وهم ينظرون في ظلِّها، ويقعد لها أربعة آلاف ولا ينقص منها شيء، ولا يأكل منها فقير إلَّا غَنِيَ مدَّةَ عمره، ولا مريض إلَّا برأ ولن يمرض أبدًا، حتَّى أوحى الله إلى عيسى عليه السلام أن اجعل مائدتي في الفقراء دون الأغنياء والأصحَّاء، فاضطرب الناس لذلك، فمسخ منهم ثلاثة وثمانون رجلاً، وروي ثلاثمائة وثمانون، باتوا ليلتهم مع نسائهم ثمَّ أصبحوا خنازير، ولَّما أبصرت الخنازير عيسى بكت وجعلت تُطيف به، وجعل يدعوهم بأسمائهم ويشيرون برؤوسهم ولا يقدرون على الكلام، فعاشوا ثلاثة أيَّام وماتوا، وقيل: سبعة، وقيل: أربعة، وقيل: دعا الله عيسى أن يقبض أرواحهم فأصبحوا لا يدرى هل الأرض ابتلعتهم أو ما الله فاعل بهم.

٢٠. وعن كعب: نزلت تطير بها الملائكة بين السماء والأرض، عليها كلُّ الطعام إلَّا اللحم، وعن قتادة: عليها ثمر من ثمر الجنَّة، وهو رواية عمَّار بن ياسر، وعن عطية العوفيِّ: نزلت سمكة فيها طعم كُلِّ شيء، وذكروا أنَّهم قالوا لعيسى عليه السلام : ابدأ الأكل، فقال: معاذ الله إنَّما يبدأ من طلبها، فقيل: لَّما قال ذلك تحاموها، فدعا لها الفقراء والزمنَى، فقال: ابدؤوا باسم الله واختموا بحمده سبحانه، وقيل: أكل منها مرَّة واحدة ألف إنسان بين ذكر وأنثى وثلاث مائة، وقيل: كرِّرت وتزاحم الناس، فجُعلت للفقراء والصبيان فكفر الأغنياء بها، وقيل: لَّما نزلت لم يكشف عليها عيسى بل قال: ليقم أحسنكم عملاً فيكشف عنها، ويسمِّي اللهَ، ففعل شمعون وهو رئيس الحواريِّين.

وقال الحسن ومجاهد: لَّما أراد الله إنزالها على شرط إن لم يؤمنوا عذِّبوا، استعفوا فلم تنزل، فمعنى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ إنزالها على قبول الشرط فلم يقبلوه، وأخطأ من قال: المائدة عبارة عن حقائق المعارف رغبوا

في الوقوف عليها، وشرط عليهم أن يتَّقوا فيطَّلعوا عليها، وأن لا يضعفوا عن مقامها فيزلُّوا فيهلكوا.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. لما بين تعالى النعم اللازمة، تأثّرها بنعمه عليه المتعدية، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ أي: بطريق الإلهام والإلقاء في القلب ﴿أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ أي: عن دعوته ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ وأكدوا إيمانهم بقولهم ﴿وَاشْهَدْ﴾ أي: لتؤديها عند ربك ﴿بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ أي: منقادون لكل ما تدعونا إليه.

٢. إنما قدموا ذكر الإيمان لأنه صفة القلب، والإسلام عبارة عن الانقياد والخضوع في الظاهر، يعني آمنا بقلوبنا وانقدنا بظواهرنا.

٣. إنما ذكر تعالى هذا في معرض تعديد النعم، لأن صيرورة الإنسان مقبول القول عند الناس، محبوبا في قلوبهم، من أعظم نعم الله تعالى على الإنسان، كذا قاله الرازيّ، قال المهايميّ: ليحصل له رتبة التكميل وثواب رشدهم.

٤. قيل: أريد بالذكر في قوله تعالى: ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي﴾ الشكر، ففي ذلك دلالة على وجوب شكر النعمة، وإن النعمة على الأم نعمة على الولد، والشكر يكون بالقول والفعل والاعتقاد.

٥. ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ ذكروه باسمه ونسبوه إلى أمه لئلا يتوهم أنهم اعتقدوا إلهيته أو ولديته، ليستقل بإنزال المائدة ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ هذه قصة المائدة وإليها تنسب السورة فيقال: سورة المائدة.

٦. وهاهنا قراءتان: الأولى ﴿يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ بالياء على أنه فعل وفاعل و﴿أَنْ يُنَزِّلَ﴾ المفعول، والثانية: بالتاء و﴿رَبَّكَ﴾ نصب أي سؤال ربك، فحذف المضاف، والمعنى: هل تسأله ذلك من غير صارف يصرفك عنه؟ وهي قراءة عليّ وعائشة وابن عباس ومعاذ، وسعيد بن جبير والكسائيّ، في آخرين، قال أكثر المفسرين: الاستفهام على القراءة الأولى: محمول على المجاز، إذ لا يسوغ لأحد أن يتوهم على الحواريين

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/٢٩٤.

أنهم شكّوا في قدرة الله تعالى، لكنه كما يقول الرجل لصاحبه: هل تستطيع أن تقوم معي؟ مع علمه بأنه يقدر على القيام، مبالغة في التقاضي، وإنما قصد بقوله: (هل تستطيع) هل يسهل عليك، وهل يخف أن تقوم معي؟ فكذلك معنى الآية، لأن الحواريين كانوا مؤمنين عارفين بالله عز وجل، ومعترفين بكمال قدرته، وسؤالهم ليس لإزاحة شك، بل ليحصل لهم مزيد الطمأنينة، كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، ولا شك أن مشاهدة هذه الآية العظيمة تورث مزيد الطمأنينة في القلب، ولهذا السبب قالوا: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ وحاصله أن ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ﴾ سؤال عن الفعل دون القدرة عليه، تعبيرا عنه بلازمه، أو عن المسبب بسببه، وقيل المعنى: هل يطيع ربك؟ أي هل يستجيب دعوتك إذا دعوته؟ (فيستطيع) بمعنى (يطيع) وهما بمعنى واحد، والسين زائدة، كاستجاب وأجاب واستجب وأجب و(يطيع) بمعنى (يجيب) مجازا، لأن المجيب مطيع.

٧. ذكر أبو شامة أن النبيّ ﷺ عاد أبا طالب في مرض، فقال له: يا ابن أخي! ادع ربك أن يعافيني، فقال: اللهمّ! اشف عمي، فقام كأنما نشط من عقال، فقال: يا ابن أخي! إن ربك الذي تعبده ليطيعك، فقال: يا عم! وأنت لو أطعته لكان يطيعك، أي يجيبك لمقصودك، وحسنه في الحديث المشاكلة، فظهر أن العرب استعملته بهذا المعنى.

٨. قال الخازن: وقال بعضهم: هو على ظاهره، وقال: غلط القوم وقالوا ذلك قبل استحكام الإيمان والمعرفة في قلوبهم، وكانوا بشرا، فقالوا هذه المقالة، فرد عليهم غلطهم بقوله: ﴿قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني اتقوا الله أن تشكّوا في قدرته، والقول الأول أصح.

٩. وعليه فمعنى ﴿اتَّقُوا اللهَ﴾ من أمثال هذا السؤال، وأن توقفوا إيمانكم على رؤية المائدة ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ به وبرسالتي ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان مما يوجب التقوى والاجتناب عن أمثال هذه الاقتراحات.

١٠. في المائدة قولان:

أ. الأول: أنها الطعام نفسه، من (ماد) إذا أفضل، كما في (اللسان) وهذا القول جزم به الأخفش وأبو حاتم، أي: وإن لم يكن معه خوان، كما في (التقريب) و(اللسان) وصرح به ابن سيده في (المحكم)، قال الفاسيّ: والآية صريحة فيه، قاله أرباب التفسير والغريب.

ب. الثاني: أنها الخوان عليه الطعام، قال الفارسيّ: لا تسمى مائدة حتى يكون عليها طعام، وإلا

فهي خوان، وصرّح به فقهاء اللغة، وجزم به الثعالبيّ وابن فارس، واقتصر عليه الحريريّ في (درة الغوّاص) وزعم أن غيره من أوهام الخواص، وذكر الفاسيّ في (شرحها) أنه يجوز إطلاق (المائدة) على (الخوان) مجرّدا عن الطعام، باعتبار أنه وضع أو سيوضع، وقال ابن ظفر: ثبت لها اسم المائدة بعد إزالة الطعام عنها، كما قيل (لقحة) بعد الولادة، وقال أبو عبيد: المائدة في المعنى مفعولة، ولفظها فاعلة، وهي مثل عيشة راضية، وقيل: من (ماد) إذا أعطى، يقال: ماد زيدا عمرا، إذا أعطاه، وقال أبو إسحاق: الأصل عندي في (مائدة) أنها فاعلة، من (ماد يميد) إذا تحرّك، فكأنها تميد بما عليها، أي: تتحرك، وقال أبو عبيدة: سميت (مائدة) لأنها ميد بها صاحبها، أي: أعطيها وتفضّل عليه بها، وفي (العناية): فكأنها تعطي من حولها مما حضر عليها، وفي (المصباح): لأن المالك مادها للناس، أي: أعطاهم إياها، ومثله في كتاب (الأبنية لابن القطاع): ويقال في المائدة ميدة، قاله الجرميّ وأنشد:

وميدة كثيرة الألوان   تصنع للإخوان والجيران

كذا في (القاموس وشرحه)، والخوان بضم الخاء وكسرها ما يؤكل عليه الطعام كما في (القاموس)، معرّب كما في (الصحاح) و(العين)، وقيل: إنه عربيّ مأخوذ من (تخونه) أي نقص حقه، لأنه يؤكل عليه فينقص، كذا في (العناية)

١١. ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ أي آمنا، لكنا نريد الأكل منها من غير مشقة تشغلنا عن عبادة الله تعالى: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ أي فلا تعتريها شبهة لا يؤمن من ورودها، لولا مثل هذه الآية، فإن انضمام علم المشاهدة إلى العلم الاستدلاليّ مما يوجب قوة اليقين.

١٢. ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أي في دعوى النبوة، وفيما تعدنا من نعيم الجنة، مع أنها سماوية ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي فنشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بني إسرائيل، ليزداد المؤمنون منهم بشهادتنا طمأنينة ويقينا، ويؤمن بسببها كفارهم، أو من الشاهدين للعين دون السامعين للخبر.

١٣. ثم لما رأى أن لهم غرضا صحيحا في ذلك، وأنهم لا يقلعون عنه، أزمع على استدعائها واستنزالها، روى ابن أبي حاتم، أنه توضأ واغتسل ودخل مصلاه، فصلّى ما شاء الله، فلما قضى صلاته قام مستقبل القبلة، وصفّ قدميه، ووضع يده اليمنى على اليسرى فوق صدره، وغض بصره وطأطأ برأسه، خشوعا، ثم أرسل عينيه بالبكاء، فما زالت دموعه تسيل على خديه، وتقطر من أطراف لحيته، حتى ابتلت

الأرض حيال وجهه، من خشوعه، فعند ذلك دعا الله تعالى فقال: اللهمّ! ربنا، كما قال تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللهُمَّ رَبَّنَا﴾ أي: يا الله المطلوب لكل مهمّ، الجامع للكمالات، الذي ربانا بها، ناداه سبحانه وتعالى مرتين بوصف الألوهية والربوبية، إظهارا لغاية التضرع ومبالغة في الاستدعاء.

١٤. ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾، أي التي فيها ما تعدنا من نعيم الجنة ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ أي يكون يوم نزولها عيدا نعظمه ونسرّ به، نحن الذين يدركونها، ومن بعدنا الذين يسمعونها فيتقوّون في دينهم، و(العيد) العائد، مشتق من (العود) لعوده في كل عام بالفرح والسرور، وكل ما عاد عليك في وقت فهو عيد، قال الأعشى:

فوا كبدي من لا عج الحب والهوى   إذا اعتاد قلبي من أميمة عيدها

كذا في (العناية)، وفي (القاموس) (العيد) بالكسر، ما اعتادك من هم أو مرض أو حزن ونحوه، وكل يوم فيه جمع.

١٥. ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ أي: على كمال قدرتك وصدق وعدك وتصديقك إياي ﴿وَارْزُقْنَا﴾ أي: أعطنا ما سألناك ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي: خير من يرزق، لأنه خالق الرزق ومعطيه بلا عوض.

١٦. ﴿قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ إجابة لدعوتكم ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ﴾ أي: بي وبرسولي ﴿بَعْدِ﴾ أي بعد تنزيلها، المفيد للعلم الضروريّ بي وبرسولي ﴿مِنْكُمْ﴾ أيها المنعّمون بها ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي من عالمي زمانهم، أو من العالمين جميعا، روى ابن جرير بسنده إلى قتادة قال كان الحسن يقول: لما قيل لهم ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ﴾ قالوا: لا حاجة لنا فيها، فلم تنزل، وروى منصور بن زاذان عن الحسن أيضا، أنه قال في المائدة: أنها لم تنزل، وروى ابن أبي حاتم وابن جرير عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد قال: هو مثل ضربه الله ولم ينزل شيء أي مثل ضربه الله لخلقه، نهيا لهم عن مسألة الآيات لأنبيائه، قال الحافظ ابن كثير: وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن، وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا تعرفه النصارى، وليس هو في كتابهم، ولو كانت قد نزلت، لكان ذلك مما يتوفر الدواعي على نقله، وكان يكون موجودا في كتابهم متواترا، ولا أقل من الآحاد والله أعلم.

١٧. ثم قال ولكن الجمهور أنها نزلت، وهو الذي اختاره ابن جرير، قال لأن الله تعالى أخبر بنزولها في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ووعد الله ووعيده حق وصدق، وهذا القول هو، والله أعلم، الصواب،

كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم[1].

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

١. ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ أي واذكر نعمتي عليك حين ألهمت الحواريين أن يؤمنوا بك ـ وقد كذبك جمهور بني إسرائيل ـ فجعلتهم أنصارا لك يؤيدون حجتك، وينشرون دعوتك، والوحي في أصل اللغة الإشارة السريعة الخفية، أو الإعلام بالشيء بسرعة وخفاء، كما بيناه من قبل، ولو وجد هذا التلغراف في عهد العرب الخلص لسموا خبره وحيا، والمصريون يسمونه حتى في الرسميات إشارة، وأطلق الوحي في القرآن على ما يلقيه الله تعالى في نفوس الأحياء من الإلهام كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٦٨]، وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص: ٧] وهكذا ألقى الله تعالى في قلوب الحواريين الإيمان به وبرسوله عيسى عليه السلام، وقيل الوحي إليهم هو ما أنزل على أنبيائهم.

٢. والحواريون جمع حواري وهو من خلص لك وأخلص سرا وجهرا في مودتك، ومعناه في أصل اللغة الأبيض النقي اللون، والحواريات من النساء النقيات الألوان والجلود لبياضهن، قال في اللسان: والأعراب تسمى نساء الأمصار حواريات لبياضهن وتباعدهن من قشف الأعراب بنظافتهن، قال:

فقلت إن الحواريات معطبة　　　إذا تفتلن من تحت الجلابيب

وأما الحور العين فهما جمع حوراء وعيناء، من الحور (بالتحريك) وهو شدة بياض العين مع شدة سوادها، فالحوراء مؤنث الأحور، والحوارية مؤنث الحواري، ثم استعمل الحواري بمعنى النقي الخالص في غير اللون، قال في اللسان: وقال بعضهم: الحواريون صفوة الأنبياء الذين خلصوا لهم، قال الزجاج: الحواريون خلصان الأنبياء عليهم السلام وصفوتهم، قال والدليل على ذلك قول النبي ﷺ (الزبير ابن

---

(١) ذكر هنا بعض الأحاديث والآثارالتي سبق ذكرها.

(٢) تفسير المنار: ٧/٢٠٧.

عمتي، وحواري من أمتي) أي خاصتي من أصحابي وناصري قال ـ وأصحاب النبي ﷺ حواريون، وتأويل الحواريين في اللغة: الذين أخلصوا ونقوا من كل عيب.

٣. واللغة لا تدل على النقاء من كل عيب بهذا التحديد، وإنما تدل على النقاء والخلوص مطلقا، فيكفي في صحة الإطلاق أن يكونوا قد خلصوا لنصره، أو خلصوا ونقوا من الكفر والنفاق، وقد حكى الله عنهم هنا أنهم قالوا: آمنا، أي بالله ورسوله عيسى عليه السلام، وأشهدوا الله على أنفسهم إنهم مسلمون، أي مخلصون في إيمانهم مذعنون لما يترتب عليه من الأمر والنهي، وحكى عنهم في سورتي [آل عمران] و[الصف] أنهم حين قال المسيح ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ قالوا ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾

٤. ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ قال أبو السعود العمادي في تفسير ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ ما نصه: (كلام مستأنف مسوق لبيان بعض ما جرى بينه عليه السلام وبين قومه منقطع عما قبله كما ينبئ عنه الإظهار في موقع الإضمار، و﴿إِذْ﴾ منصوب بمضمر خوطب به النبي ﷺ، بطريق تلوين الخطاب والالتفات، لكن لا لأن الخطاب السابق لعيسى عليه السلام فإنه ليس بخطاب وإنما هو حكاية خطاب، بل لأن الخطاب لمن خوطب بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ـ الآية ـ فتأمل، كأنه قيل للنبي ﷺ عقيب حكاية ما صدر عن الحواريين من المقالة المعدودة من نعم الله تعالى الفائضة على عيسى عليه السلام: اذكر للناس وقت قولهم الخ وقيل هو ظرف لقالوا أريد به التنبيه على أن ادعاءهم الإيمان والإخلاص، لم يكن عن تحقيق وإيقان، ولا يساعده النظم الكريم)

٥. في متعلق الظرف قولان للمفسرين رجح أبو السعود المشهور منهما وهو الأول ورد الثاني الذي جرى عليه الزمخشري في الكشاف وهو أنه متعلق بقوله تعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ أي ادعوا الإيمان وأشهدوا الله على أنفسهم أنهم مسلمون مخلصون في إيمانهم في الوقت الذي قالوا فيه ما ينافي ذلك وهو قولهم: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ ويقول الزمخشري: (إن الله تعالى ما وصفهم بالإيمان والإسلام وإنما حكى قولهم حكاية ووصله بما يدل على كذبهم فيه وهو سؤالهم هذا وجوابه عليه السلام لهم إذ أمرهم بتقوى الله إن كانوا مؤمنين حقا، وإصرارهم على السؤال بعد ذلك)، ووجه رد هذا القول أنه لو كان هو المراد لقيل: (إذ قالوا يا عيسى ابن مريم) ولم يقل: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ ولما صح أن تكون دعوى الإيمان من الحواريين نعمة من الله على عيسى ـ وهي كاذبة ـ ولا أن تكون عن

وحي من الله تعالى، ولكن هذا الأخير لا يرد على الزمخشري لأنه فسر الوحي إلى الحواريين بالإيمان بأنه أمر الله إياهم بذلك على ألسنة الرسل، أي أمر إياهم مع غيرهم إذ كلف الناس كافة بأن يؤمنوا بما تجيئهم به الرسل، ولكن يرد قوله أيضا تسميتهم بالحواريين وما في سورتي آل عمران والصف من إجابتهم عيسى إلى نصره، ولعله يرى أن هذا شأنهم في أول الدعوة ثم آمنوا بعد ذلك وصاروا أنصار الله ورسوله عيسى عليه السلام.

٦. وقد حكى أبو السعود بعد ما ذكرناه عنه الخلاف في إيمانهم، ومنشأ هذا الخلاف كلمة ﴿يَسْتَطِيعُ﴾ وقد قرأ الكسائي (هل تستطيع ربك) قالوا أي سؤال ربك، وهذه القراءة مروية عن علي وعائشة وابن عباس ومعاذ من علماء الصحابة، وقد صحح الحاكم عن معاذ أن النبي ﷺ أقرأه (تستطيع ربك) ومثله في ذلك غيره لأن تلقين القرآن لا يتوقف على تصريح الصحابي برفعه، وقرأ الجمهور ﴿يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ وهذا الذي استشكل بأنه لا يصدر عن مؤمن صحيح الإيمان وأجاب عنه القائلون بصحة إيمانهم من وجوه:

أ. أن هذا السؤال لأجل اطمئنان القلب بإيمان العيان لا للشك في قدرة الله تعالى على ذلك، فهو على حد سؤال إبراهيم ﷺ رؤية كيفية إحياء الموتى ليطمئن قلبه بإيمان الشهادة والمعاينة مع إقراره بإيمانه بذلك بالغيب.

ب. أنه سؤال عن الفعل دون القدرة عليه فعبر عنه بلازمه.

ج. أن السؤال عن الاستطاعة بحسب الحكمة الإلهية لا بحسب القدرة، أي هل ينافي حكمة ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء أم لا، فإن ما ينافي الحكمة لا يقع وإن كان مما تتعلق به القدرة، كعقاب المحسن على إحسانه، وإثابة الظالم المسيء على ظلمه.

د. أن في الكلام حذفا تقديره: هل تستطيع سؤال ربك، ويدل عليه قراءة: هل تستطيع ربك، والمعنى هل تستطيع أن تسأله من غير صارف يصرفك عن ذلك.

هـ. أن الاستطاعة هنا بمعنى الإطاعة، والمعنى هل يطيعك ويجيبك دعاءك ربك إذا سألته ذلك.

٧. وأقول ربما يظن الأكثرون أن هذا الوجه الأخير تكلف بعيد وليس كذلك، فالاستطاعة استفعال من الطوع وهو ضد الكره، قال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١]

وفي لسان العرب: الطوع نقيض الكره، والاسم الطواعة والطواعية ثم قال ويقال طعت له وأنا أطيع طاعة، ولتفعلنه طوعا أو كرها، وطائعا أو كارها، وجاء فلان طائعا غير مكره.. قال ابن سيده: وطاع يطاع وأطاع ـ لان وانقاد، وأطاعه إطاعة وانطاع له كذلك، وفي التهذيب: وقد طاع له يطوع إذا انقاد له بغير ألف، فإذا مضى لأمره فقد أطاعه، فإذا وافقه فقد طاوعه، اه، فيفهم من هذا أن إطاعة الأمر فعله عن اختيار ورضا ولذلك عبر به عن امتثال أوامر الدين لأنها لا تكون دينا إلا إذا كانت عن إذعان ووازع نفسي، والذي أفهمه أن الاستفعال في هذه المادة كالاستفعال في مادة الإجابة، فإذا كان (استجاب له) بمعنى أجاب دعاءه أو سؤاله ـ فمعنى استطاعه أطاعه، أي انقاد له وصار في طوعه أو طوعا له، والسين والتاء في المادتين على أشهر معانيهما وهو الطلب، ولكنه طلب دخل على فعل محذوف دل عليه المذكور المترتب على المحذوف، فأصل استطاع الشيء ـ طلب وحاول أن يكون ذلك الشيء طوعا له فأطاعه وانقاد له، ومعنى استجاب ـ سئل شيئا وطلب منه أن يجيب إليه فأجاب.

٨. فبهذا الشرح الدقيق تفهم صحة قول من قال من المفسرين أن يستطيع هنا بمعنى يطيع، وأن معنى يطيع يفعل مختارا راضيا غير كاره، فصار حاصل معنى الجملة هل يرضى ربك ويختار أن ينزل علينا مائدة من السماء إذا نحن سألناه أو سألته لنا ذلك؟ والمائدة في اللغة الخوان الذي عليه الطعام، فإذا لم يكن عليه طعام العيد لا يسمى مائدة، وقد يطلق لفظ المائدة على الطعام نفسه حقيقة أو مجازا من إطلاق اسم المحل على الحال، وهو اسم فاعل من ماد بمعنى تحرك أو من ماد أهله بمعنى نعشهم كما في الأساس أي أعاشهم وسد فقرهم، كأنها هي تميد من يجلس إليها ويأكل منها وقيل إنها بمعنى اسم المفعول على حد: عيشة راضية.

٩. ﴿قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي قال عيسى لهم اتقوا الله أن تقترحوا عليه أمثال هذه الاقتراحات التي كان سلفكم يقترحها على موسى لئلا تكون فتنة لكم فإن من شأن المؤمن الصادق الإيمان أن لا يجرب ربه ـ أو أن يعمل ويكسب ولا يطلب من ربه أن يعيش بخوارق العادات، وعلى غير السنن التي جرت عليها معايش الناس، أو المعنى: اتقوا الله وقوموا بما يوجبه الإيمان من العمل والتوكل عسى أن يعطيكم ذلك، من باب قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]

١٠. ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي نطلبها لأربعة فوائد:

أ. إحداها: إننا نريد أن نأكل منها لأننا في حاجة إلى الطعام ولا نجد ما يسد حاجتنا، وقيل المراد أكل التبرك.

ب. الثانية: نريد أن تطمئن قلوبنا بما نؤمن به من قدرة الله بمشاهدة خرقه للعادة، أي بضم علم المشاهدة واللمس والذوق والشم إلى علم السمع منك وعلم النظر والاستدلال.

ج. الثالثة: أن نعلم هذا النوع من العلم ـ أي علم المشاهدة ـ أن الحال والشأن معك هو أنك قد صدقتنا ما وعدتنا من ثمرات الإيمان كاستجابة الدعاء ولو بخوارق العادات.

د. الرابعة: أن نكون من الشاهدين على هذه الآية عند بني إسرائيل فيؤمن المستعد للإيمان ويزداد الذين آمنوا إيمانا، ـ فهذا ما نراه في توجيه أقوالهم، على المختار من صحة إيمانهم.

١١. ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي لما علم عيسى عليه السلام صحة قصدهم وأنهم لا يريدون تعجيزا ولا تجربة دعا الله تعالى بهذا الدعاء، فناداه باسم الذات الجامع لمعنى الألوهية والقدرة والحكمة والرحمة وغير ذلك فقال: ﴿اللَّهُمَّ﴾ ومعناه يا الله، ثم باسم الرب الدال على معنى الملك والتدبير والتربية والإحسان خاصة، فقال: ﴿رَبَّنَا﴾ أي يا ربنا ومالكنا كلنا ومتولي أمورنا لأمر بينا، أنزل علينا مائدة سماوية، جثمانية أو ملكوتية، يراها هؤلاء المقترحون بأبصارهم، وتتغذى بها أبدانهم أو أرواحهم، ولو لم يقل من السماء لشمل الطلب إعطاءهم مائدة من الأرض ولو بطريقة عادية، فإن كل ما يعطى من الله تعالى يسمى إنزالا لتحقق معنى العلو المطلق غير المقيد بجهة من الجهات لله سبحانه فإنه هو العلي القاهر فوق عباده.

١٢. ثم وصف عيسى عليه السلام هذه المائدة بما أحب أن يستفاد من إنزالها فقال في وصفها:

أ. ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ أي عيدا خاصا بنا معشر المؤمنين دون غيرنا، أو تكون كرامة ومتاعا لنا في عيدنا، ثم قال: ﴿لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ وهو بدل من قوله: ﴿لَنَا﴾ الذي ذكر أولا لإفادة الحصر والاختصاص، أي عيدا لأول من آمن منا وآخر من آمن، والمتبادر أنه أراد بأولهم من كان آمن عند ذلك الدعاء وبآخرهم من يؤمن بعد نزول المائدة ممن يشهد لهم من شهدها وغيرهم، ويحتمل على بعد أن يراد أول جماعته

الحاضرين معهم إيمانا وآخرهم، وروي أن المعنى يأكل منها آخر القوم كما يأكل أولهم أو كافية للفريقين، وكلمة العيد تستعمل بمعنى الفرح والسرور، وبمعنى الموسم الديني أو المدني الذي يجتمع له الناس في يوم معين أو أيام معينة من السنة للعبادة أو لشيء آخر من أمور الدنيا، ولذلك قال السدي في تفسير العبارة: أي نتخذ ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيدا نعظمه نحن ومن بعدنا، وقال سفيان الثوري: يعني يوما نصلي فيه، وقال قتادة: أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم، وقال سلمان الفارسي: عظة لنا ولمن بعدنا، ويصح أن يسمى طعام العيد عيدا على سبيل المجاز كما أشرنا إليه آنفا.

ب. ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ معناه وتكون آية وعلامة منك على صحة نبوتي ودعوتي، ولعل المراد بنص قوله: ﴿مِنْكَ﴾ ـ مع العلم بأن كل شيء منه تعالى ولا سيما الآيات ـ النص على أن الآيات إنما تكون من الله وحده، أو أن تكون المائدة من لدنه تعالى بغير واسطة منه عليه السلام تشبه السبب كالآيات السابقة، ومما نقل عنه وعن نبينا عليهما الصلاة والسلام إطعام العدد الكثير من الطعام القليل بخلق الله الزيادة فيه، وروي عن نبينا أيضا إسقاء العدد الكثير من الماء القليل إذ وضع يده فصار يزيد ويفور من بين أصابعه، فأمثال هذه الآيات ـ وإن كانت من الله ككل شيء ـ تحصل بما يشبه الأسباب، وفيها مجال لاشتباه المرتاب، لأن كل من يأخذ من ذلك الطعام أو الماء فإنما يأخذ من شيء كان موجودا وهو لم يشاهد حدوث الزيادة فيه، وينقل الناس مثل هذا عن غير الأنبياء من الصالحين كالسحرة والمشعوذين، وقد كان معروفا في بني إسرائيل، ولذلك وصف الحواريون المائدة بما وصفوها به، وقال هو ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ لتوافق مطلوبهم فلا يقترحوا شيئا آخر، وإنني أذكر حكايتين عن بعض المعاصرين توضح ما أريد:

• حدثني الثقة أن بعض رجال العلم والدين عاد مريضا من الرجال المعتقدين المشهورين بالكرامات فأقام عنده في حجرة النوم ساعة وكان قد نقه، ثم أراد الانصراف فآلى عليه أن يتعشى معه، ثم دعي بالخوان فنصب ولم يوضع عليه شيء من الطعام، فجلس إليه الشيخان وصار المزور يقترح على الزائر أن يذكر ما يشتهي من ألوان الطعام وكلما ذكر شيئا مد المزور صاحب الدار يده فأخرج صحنا من تحت كرسي أو أريكة بجانبه مملوءاً بذلك اللون وهو سخن يتصاعد بخاره، حتى ذكر عدة ألوان لا تناسب بينها ولم تجر عادة البلد بالجمع بينها، وأبعد من ذلك أن تكون طبخت ووضعت تحت ذلك الكرسي وبقيت على حرارتها كل تلك المدة، فأمثال هذه الحكاية يعدها بعض من ثبتت روايتها عنده من الخوارق، ويعدها

بعضهم من الشعوذة والحيل التي اكتشف مثلها وهو موضوع الحكاية

• الثانية: حدثني شيخ من كبار شيوخ الطريق والمناصب العلمية بواقعة وقعت لوالده ـ وكان معتقدا محترما ـ مع رجل غريب جاء مدينتهم وظهر على يديه عدة غرائب عدت من الكرامات، وقال: إن والده أخذ هذا الرجل مرة وطاف به في ضواحي البلد مدة طويلة انتهوا في آخرها إلى المقبرة التي دفن فيها أجدادهم فزاروا قبورهم واستراحوا هنالك وشكوا ما عرض لهم من الجوع بطول المشي، فأظهر والد محدثي للشيخ الغريب أنه يمكنهم أن يستضيفوا أجداده السادة الكرام، ثم نادى أحدهم واستجداه ودس يده في تراب قبره فأخرج منه صحفة فيها عدة مكرَّشات (كروش غنم مطبوخة وهي محشوة بالرز واللحم والصنوبر)، فأكلوا منها فإذا هي حارة، وقد استطابها الرجل الغريب جدا حتى توهم أنها ليست من طعام الدنيا، ولا أذكر أكان اختيار هذه الأكلة وإخراجها باقتراح الرجل نفسه أم باقتراح غيره وإنما أظن ظنا قويا أنها اقترحت، قال محدثي: وسر هذه المسألة أن والدي أمر قبل خروجه بأن تطبخ عندنا هذه الكروش ويأخذها أحد الخدم أو المريدين (الشك مني) فيدفنها في ذلك القبر في صحفة مغطاة بحيث تبقى سخنة ولا يصيبها تراب، وإنما فعل ذلك لاختبار الرجل وحمله إياه على مكاشفته بحقيقة ما يعمله من الغرائب في مقابلة إخباره إياه بسر هذه المسألة، ولا أتذكر ما كان من أمرهما بعد ذلك فإنني سمعت هذه القصة في أوائل العهد بطلب العلم، فأمثال هذه الوقائع التي يعهدها الناس في كل زمان ويعلمون أن منها ما هو حيل أو صناعة تتلقى بالتعليم والتمرين ـ هي التي حملت بعض الناس على الشك والارتياب في آيات الأنبياء، وبعضهم على تسميتها سحرا مبينا، وبعضهم على التثبت فيها للتفرقة بين الحق والباطل، وهو ما طلبه الحواريون لأجل تحصيل العلم اليقيني الذي تطمئن به قلوبهم وتقوم به حجتهم على غيرهم، على ما اخترناه مع الجمهور من صحة إيمانهم قبل طلب المائدة أو لأجل تحصيل اليقين في الإيمان بعد التسليم في الظاهر كما اختار الزمخشري وغيره، ولهذه الحكمة جعل الله تعالى الآية الكبرى لرسالة خاتم رسله ﷺ علمية حتى لا يبقى مجال لارتياب أحد من طلاب الحق المخلصين فيها، وهي إتيان رجل أمي عاش بين الأميين إلى سن الكهولة بكتاب فيه أعلى العلوم الإلهية والأدبية والاجتماعية والشرعية وأخبار الأمم والأنبياء السابقين الذين لم يقرأ هو ولا قومه عنهم شيئا وغير ذلك من أخبار الغيب التي ظهر صدقها في زمنه وبعد زمنه، ببلاغة عجز البلغاء عن مثلها وأسلوب أشد إعجازا، كما تقدم شرحه في تفسير سورة

البقرة.

ج. ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ معناه وارزقنا منها أو من غيرها ما تتغذى به أجسامنا أيضا وأنت خير الرازقين ترزق من تشاء بحساب، وترزق من تشاء بغير حساب، ومن محاسنه أنه أخر ذكر فائدة المائدة المادية عن ذكر فائدتها الدينية الروحية، أو معناها وارزقنا الشكر عليها، وربما يقويه إنذار الله من يكفر بعد إنزالها إذ قال: ﴿قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾

١٣. ﴿قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم ونافع منزلها بالتشديد من التنزيل المفيد للتكثير أو التدريج، والباقون منزلها بالتخفيف من الإنزال، وقيل إنهما هنا بمعنى واحد، أي وعد الله عيسى بتنزيلها عليهم مرة أو مرارا، ولكنه رتب على هذا الوعد شرطا أي شرط، فقال: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، مثل ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ١، ٢] والمعنى أن من يكفر منهم بعد هذه الآية التي اقترحوها على الوجه الذي لا يحتمل الاشتباه ولا التأويل فإن الله تعالى يعذبه عذابا شديدا لا يعذب مثله أحدا من سائر كفار العالمين كلهم أو عالمي أمتهم الذين لم يعطوا مثل هذه الآية، وإنما يعاقب الخاطئ والكافر بقدر تأثير الخطيئة أو الكفر، والبعد فيه عن الشبهة والعذر، وما أعطي من موجبات الشكر، وأي شبهة أو عذر لمن يرى الآيات من رسوله ثم يقترح آية بينة على وجه مخصوص تشترك في العلم بها جميع حواسه، وينتفع بها في دنياه قبل آخرته، فيعطى ما طلب أو خيرا منه ثم ينكص بعد ذلك كله على عقبيه ويكون من الكافرين؟

١٤. وقد اختلف مفسرو السلف في المائدة أنزلت بالفعل أم لا؟

أ. فروي عن بعضهم أنها نزلت، واختلف هؤلاء في الطعام الذي نزل ـ أي أعطي على وجه المعجزة من الله ـ فأبهمه بعضهم، وقيل هو خبز وسمك، وصرح بعضهم بأن الخبز من الشعير، وقيل خبز ولحم، وقيل من ثمار الجنة، وقيل كل شيء إلا اللحم، وقيل كان ينزل عليهم طعام أينما ذهبوا كما كان ينزل المن على بني إسرائيل، ولا يصح من أسانيد هذه الروايات شيء ولذلك رجح ابن جرير نزولها انجازا للوعد وأنه كان عليها مأكول لا نعينه، بل قال غير جائز أن يكون سمكا وخبزا، وقال إن العلم به لا ينفع والجهل به لا يضر، ونقول إذا إنه يصدق بمثل ما كان ينزل على بني إسرائيل في التيه من المن الذي يجمعونه عن الحجارة وورق الشجر، وعبارة ابن عباس عند ابن جرير وابن الأنباري في كتاب الأضداد من طريق

عكرمة: كان طعاما ينزل عليهم من السماء حيثما نزلوا، ويصدق بها يأتي عن إنجيل يوحنا من إطعام الألوف في عيد الفصح من خمسة أرغفة وسمكتين أكل منها أول ذلك الجمع كآخره.

ب. وقال آخرون إنها لم تنزل البتة قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: وقال قائلون إنها لم تنزل، فروى ليث بن أبي سليم عن مجاهد في قوله: ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ قال هو مثل ضربه الله ولم ينزل شيء رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، قال ابن جرير: حدثنا القاسم ـ هو ابن سلام ـ حدثنا حجاج عن ابن جريج عن مجاهد قال مائدة عليها طعام، وعنه قال أبوها حين عرض عليهم العذاب إن كفروا فأبوا أن تنزل عليهم، وقال أيضا: حدثنا ابن المثنى حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن منصور بن زاذان عن الحسن أنه قال في المائدة: إنها لم تنزل، وحدثنا بشر حدثنا يزيد وحدثنا سعيد عن قتادة قال كان الحسن يقول لما قيل لهم: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قالوا لا حاجة لنا فيها فلم تنزل، وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن، وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا تعرفه النصارى وليس هو في كتابهم ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعي على نقله وكان يكون موجودا في كتابهم بالتواتر ولا أقل من الآحاد والله أعلم) ثم ذكر الحافظ رأي الجمهور وترجيح ابن جرير له.

١٥. وذكر الرازي أن الذين قالوا بنفي نزولها احتجوا عليه بوجهين ذكرهما وأجاب عنهما فقال: (أحدهما: أن القوم لما سمعوا قوله: ﴿أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ استغفروا وقالوا لا نريدها، والثاني: أنه وصف المائدة بكونها عيدا لأولهم وآخرهم فلو نزلت لبقي ذلك العيد إلى يوم القيامة، وبعد ذكر قول الجمهور بنزولها لوجوب إنجاز الوعد الجازم غير المعلق قال ـ والجواب عن الأول أن قوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ﴾ شرط وجزاء لا تعلق له بقوله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ والجواب عن الثاني أن يوم نزولها كان عيدا لهم ولمن بعدهم ممن كان على شرعهم)، أقول:

أ. أما جوابه عن الحجة الأولى، ففي غير محله لوجهين:

• أحدهما: أنها عبارة عن خبر إن صح لا ترد صحته بكون جملة الوعيد الشرطية غير متعلقة بجملة الوعد، إلا إذا قاله هذان التابعيان الجليلان من قبيل التفسير بالرأي، والأقرب أن له عندهما أصلا مرفوعا.

• فالأولى: أن يحمل على وجه يتفق مع صدق الوعد، وهو الوجه الثاني: وذلك بأن يقال إن جملة الوعيد مرتبة على جملة الوعد لعطفها عليها بالفاء كما بيناه آنفا، وهذا الترتيب كاف لحمل الحواريين على

ترك طلبها بل طلب الاستقالة من إنزالها، وما كان مثل الحسن ومجاهد وقتادة من أئمة التفسير ليخفى عليهم أن الوعد غير معلق بشرط وأنه إنما جعل الوعيد مرتبا عليه ترتيبا، ولكنهم رأوا أن هذا سبب كاف في عدم معارضة الوعد لما رووه من تنصل القوم واستقالتهم من ذلك الطلب وإقالة الله إياهم منه، وحينئذ لا يكون عدم إنزالها إخلافا للوعد، فإن من وعد غيره بشيء وأراد أن ينجزه له مرتبا عليه تكليفا أو تخويفا حمل الموعود على عدم القبول لا يسمى مخلفا.

ب. وأما جوابه عن الحجة الثانية: فهو دعوى تحتاج إلى إثبات إذ لا يثبت أنه كان عند أتباع المسيح عيد للمائدة إلا بنص عن المعصوم أو نقل يعتد به من تاريخهم، وسيأتي ما عند النصارى من ذلك وأنه ليس بعيد ليوم نزول المائدة والظاهر أن الرازي لم يطلع عليه، ومنه يعلم ما في قول الحافظ ابن كثير: إن النصارى لا تعرف خبر المائدة وإنه ليس في كتابهم المقدس عندهم، نعم إن كتابهم أو كتبهم ليس لها أسانيد متصلة لا بالتواتر ولا بالآحاد، ولكن يقال مع ذلك أنه لو كان لسلفهم عيد عام للمائدة لكان من الشعائر التي تتوفر الدواعي على نقلها بالقول والعمل، ويجاب بأنه يجوز أن يكون المراد بالعيد اجتماع الحواريين وأمثالهم لصلاة ونحوها كما قيل، فإن هذا يجوز أن ينسى لإخفائهم إياه في زمن الاضطهاد، أو بأن الذين أظهروا النصرانية بعد استخفاء أهلها بالاضطهاد لا يدخلون في عموم قوله: ﴿وَآخِرِنَا﴾ لأنهم بدلوا وهو الذي أجاب به الرازي، أو بأن المراد بالعيد الذكرى والموعظة لمؤمنيهم المتبعين له عليه السلام كما تقدم عن سلمان، ويجوز أيضا أن يكون العيد بغير اسم المائدة، وأن يكون معنى قوله: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ ـ تكون طعاما للعيد، وهو يصدق بإطعامه العدد الكثير من الخبز والسمك القليل في عيد الفصح كما يأتي قريبا، ثم إن كتب النصارى من الأناجيل وغيرها قسمان أحدهما قانوني وهو ما أقرته الكنيسة واعتمدته، والثاني غير قانوني وهو ما رفضته الكنيسة ولم تعتمده، ومنه إنجيل برنابا الذي صرح فيه بالتوحيد الخالص والبشارة بنبوة محمد ﷺ، وإنجيل الطفولية الذي ذكر فيه مسألة جعله هيئة من الطين كهيئة الطير نفخ فيها فطارت، فيجوز أن يكون خبر هذه القصة في بعض الأناجيل التي رفضتها الكنيسة وفقدت بعد ذلك، وقد صرح يوحنا في إنجيله بأن الآيات التي عملها المسيح كثيرة لو كتبت كلها لا يسع العالم الكتب المكتوبة ـ وأننا نرى بعض أصحاب الأناجيل الأربعة المعتمدة كتب منها ما لم يكتبه الآخرون، وقد صرحوا بأن أكثر كلام المسيح كان أمثالا ورموزا، ويعدون من هذه الرموز كل ما ورد من خبر الأكل والشرب في

الملكوت وكذلك بعض النصوص في الأكل والشرب في الدنيا، فما يدرينا أنهم أشاروا إلى هذه القصة ببعض التأويلات حسب فهمهم واعتقادهم إذ كانوا ينقلون ذلك بالمعنى ثم نقل عنهم بالترجمة وقد فقدت الأصول ولا يعلم عنها شيء يقيني كما بينا ذلك من قبل بالنقول عنهم.

١٦. وأنا أذكر هنا ما في هذه الأناجيل بمعنى قصة المائدة:

أ. جاء في أول الفصل السادس من إنجيل يوحنا أن المسيح عليه السلام ذهب إلى بحر الجليل (بحيرة طبرية) وتبعه خلق كثير لأنهم رأوا آياته، فصعد إلى جبل وجلس هناك مع تلاميذه. وهم الحواريون. قال يوحنا: (٤ ـ وكان الفصح عيد اليهود قريبا٥ ـ فرفع يسوع عينيه ونظر أن جمعا كثيرا مقبل إليه فقال لفيلبس من أين نبتاع خبزا ليأكل هؤلاء٦ ـ وإنما قال هذا ليمتحنه لأنه هو علم ما هو مزمع أن يفعل٧ ـ أجابه فيلبس لا يكفيهم خبز بمئتي دينار ليأخذ كل واحد منهم شيئا يسيرا٨ ـ قال له واحد من تلاميذه وهو اندراوس أخو سمعان بطرس٩ ـ هنا غلام معه خمسة أرغفة شعير وسمكتان ولكن ما هذا لمثل هؤلاء١٠ ـ فقال يسوع اجعلوا الناس يتكئون، وكان في المكان عشب كثير فاتكأ الرجال وعددهم خمسة آلاف ١١ ـ وأخذ يسوع الأرغفة وشكر ووزع على التلاميذ والتلاميذ على المتكئين، وكذلك كل من السمكتين بقدر ما شاءوا)

ب. ثم بين أن المسيح عاتب التلاميذ على الشبع من ذلك الخبز وقال: (٢٧ ـ اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي، للحياة الأبدية التي يعطيكم ابن الإنسان لأن هذا الله الآب قد ختمه ٢٨ ـ فقالوا له ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله ٢٩ ـ أجاب يسوع وقال لهم هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أرسله ٣٠ ـ فقالوا له فأية آية تصنع لنرى ونؤمن بك، ماذا تعمل ٣١ ـ آباؤنا أكلوا المن في البرية كما هو مكتوب أنه أعطاهم خبزا من السماء ليأكلوا ٣٢ ـ فقال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء بل أبي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء ٣٣ ـ لأن خبز الله هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم ٣٤ ـ فقالوا أعطنا في كل حين هذا الخبز ٣٥ ـ فقال لهم يسوع أنا هو خبز الحياة من يقبل إلي فلا يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش أبدا ٣٦ ـ ولكنني قلت لكم إنكم قد رأيتموني ولستم تؤمنون) الخ القصة وفيها تكرار أنه هو خبز الحياة النازل من السماء لا المن الذي نزل على أجدادهم، وأن من يأكل جسده ويشرب دمه فله الحياة الأبدية لأنه يثبت فيه.

١٧. فهذه القصة أولها: يشير إلى المائدة الجسدية، وآخرها يشير إلى المائدة الروحية، وهي قد وقعت في عيد الفصح المتفق عليه عند اليهود والنصارى إلى اليوم، ولا يزال النصارى يحتفلون به ويأكلون فيه خبزا ويشربون خمرا باسم المسيح ويسمونه العشاء الرباني، فهذا دليل على أن لهذه الآية أصلا عندهم، ونحن نعتقد أن القرآن مهيمن على كتبهم فما حكاه عن أنبيائهم فهو الحق اليقين، وما نفاه فهو المنفي الذي لا يقبل الثبوت، ومن الغريب أن يوحنا يثبت هنا أن التلاميذ قالوا للمسيح بعد ما رأوا إطعامه العدد الكثير من الطعام القليل: أية آية تصنع لنرى ونؤمن بك، وأنه قال لهم: إنكم قد رأيتموني ولستم تؤمنون، فهذا يوافق قول من قال إنهم سألوا المائدة امتحانا ولم يكونوا مؤمنين حقا كما ادعوا وهو ظاهر الآيتين هنا، وإنما استدللنا على صحة إيمانهم بتسميتهم حواريين، وبما في آل عمران والصف، على أنه حكاية عنهم أيضا، والله أعلم بالسرائر.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ الوحى في اللغة: الإشارة السريعة الخفية، والإعلام بالشيء بسرعة وخفاء، والمراد به هنا ما يلقيه الله في نفوس الأحياء من الإلهام كما في قوله: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ وهكذا ألقى الله في قلوب الحواريين الإيمان به وبرسوله عيسى عليه السلام، أي واذكر نعمتي عليك حين ألهمت الحواريين أن يؤمنوا بك وقد كذبك جمهور بنى إسرائيل وجعلتهم أنصارا لك يؤيدون دعوتك وينشرون شريعتك، وقد حكى الله عنهم أنهم قالوا آمنا أي بالله وبرسوله عيسى عليه السلام وأشهدوا الله على أنفسهم أنهم مسلمون أي مخلصون في إيمانهم مذعنون لأوامره وتاركون لنواهيه.

٢. ثم ذكر كلاما منقطعا عما قبله ليبين ما جرى بينه عليه السلام وبين قومه عقب حكاية ما صدر من الحواريين من المقالة المعدودة من نعم الله عليه، فقال: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ

(١) تفسير المراغي: ٧/٥٨

﴿يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي اذكر للناس وقت قول الحواريين لعيسى: يا عيسى هل يرضى ربك ويختار أن ينزل علينا مائدة من السماء إذا نحن سألناه أو سألته ذلك؟

٣. فسر بعضهم الاستطاعة بمعنى القدرة وقالوا إن هذا السؤال لا يصدر عن مؤمن صحيح الإيمان وأجابوا عن ذلك بعدة أجوبة:

أ. إن هذا السؤال لأجل اطمئنان القلب بإيمان العيان لا للشك في قدرة الله على ذلك، كما سأل إبراهيم ﷺ رؤية كيفية إحياء الموتى ليطمئن قلبه بإيمان الشهادة والمعاينة مع إقراره بإيمانه بذلك الغيب.

ب. إنه سؤال عن الاستطاعة بحسب الحكمة الإلهية أي هل ينافي الحكمة أن ينزل علينا مائدة من السماء، فإن ما ينافي الحكمة لا يقع وإن كان مما تتعلق به القدرة كعقاب المحسن على إحسانه وإثابة الظالم على ظلمه.

ج. إن المراد هل تستطيع سؤال ربك.

٤. ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي قال لهم عيسى اتقوا الله أن تقترحوا عليه أمثال هذه المقترحات التي كان سلفكم يقترحها على موسى، لئلا تكون فتنة لكم فإن من شأن المؤمن الصادق إلا يجرب ربه باقتراح الآيات، وقد يكون المعنى ـ اتقوا الله وقوموا بما يوجبه الإيمان من العمل والتوكل عليه تعالى عسى أن يوفقكم إلى ذلك.

٥. ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي قالوا نطلبها لفوائد:

أ. إننا نريد أن نأكل منها لأننا محتاجون إلى الطعام، فإن الجوع قد غلبنا ولا نجد طعاما آخر.

ب. إننا إذا شاهدنا نزولها ازداد اليقين وقويت الطمأنينة، إذ ينضم علم المشاهدة باللمس والذوق والشم إلى علم السمع منك وعلم النظر والاستدلال.

ج. أن نكون من الشاهدين على هذه الآية عند بنى إسرائيل الذين لم يحضروها، أو من الشاهدين لله بكمال القدرة ولك بالنبوة، وبذا يؤمن المستعد للإيمان ويزداد الذين آمنوا إيمانا.

٦. ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي إن عيسى عليه السلام لما علم صحة قصدهم وأنهم لا يريدون

تعجيزه ولا اقتراح آية ـ دعا الله بهذا الدعاء وناداه بالاسم الكريم الدال على الألوهية والقدرة والحكمة إلى نحو أولئك من صفات الكمال، ثم باسم الرب الجامع لمعنى الملك والتدبير والتربية والإنعام، أي يا الله يا مالك أمرنا ومتولى تربيتنا أنزل علينا مائدة سماوية يراها هؤلاء المقترحون بأبصارهم وتتغذى بها أبدانهم، وتكون عيدا خاصا بنا معشر المؤمنين دون غيرنا بأول من آمن منا وآخر من آمن، واجعلها علامة من لدنك ترشد القوم إلى صحة دعوتى وصدق نبوتى، وارزقنا منها ومن غيرها ما به تتغذى أجسامنا، فأنت خير الرازقين ترزق من تشاء بغير حساب.

٧. ومن محاسن هذا الدعاء أنه أخر ذكر الفائدة المادية للمائدة عن ذكر فائدتها الدينية الروحية، بعكس ما فعله الحواريون، إذ قدموا الأكل على غيره من الفوائد الأخرى.

٨. ﴿قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ أي وعد الله عيسى بإنزال المائدة مرة أو مرارا لكنه رتب شرطا على هذا الوعد فقال: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي إن من يكفر منكم بعد نزول هذه الآية التي اقترحتموها، وجاءت بطريق لا لبس فيه ولا شك، فإني أعذبه عذابا شديدا لا أعذب مثله أحدا من سائر كفار العالمين، لأن عقاب المخطئ أو الكافر يكون بقدر تأثير الخطيئة أو الكفر في نفسه، والبعد فيه عن الشبهة والعذر، وأي شبهة أو عذر لمن يرى الآيات من رسوله تترى، ثم يقترح آية خاصة تشترك في العلم بها حواسه جميعا وينتفع بها في دنياه قبل آخرته، فيعطى ما طلب، ثم ينكص بعد ذلك كله على عقبيه ويكون من الكافرين.

٩. وللعلماء في الطعام الذي نزل في المائدة آراء: فقيل هو خبز وسمك، وقيل خبز ولحم، وقيل كان ينزل عليهم طعاما أينما ذهبوا كما كان ينزل المنّ على بنى إسرائيل كما رواه ابن جرير عن ابن عباس، وجاء في إنجيل يوحنا أنه كان يطعم الألوف في عيد الفصح من خمسة أرغفة وسمكتين ـ أكل منها أول ذلك الجمع كآخره.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

(١) في ظلال القرآن: ٢/٩٩٩.

١. يستطرد السياق في معرض النعم على عيسى بن مريم وأمه، إلى شيء من نعمة الله على قومه، ومن معجزاته التي أيده الله بها وشهدها وشهد بها الحواريون.. ويكشف لنا هذا الحوار عن طبيعة قوم عيسى.. المستخلصين منهم وهم الحواريون.. فإذا بينهم وبين أصحاب رسولنا ﷺ فرق بعيد.. إنهم الحواريون الذين ألهمهم الله الإيمان به وبرسوله عيسى، فآمنوا، وأشهدوا عيسى على إسلامهم.. ومع هذا فهم بعد ما رأوا من معجزات عيسى ما رأوا، يطلبون خارقة جديدة، تطمئن بها نفوسهم، ويعلمون منها أنه صدقهم، ويشهدون بها له لمن وراءهم، فأما أصحاب محمد ﷺ فلم يطلبوا منه خارقة واحدة بعد إسلامهم.. لقد آمنت قلوبهم واطمأنت منذ أن خالطتها بشاشة الإيمان ولقد صدقوا رسولهم فلم يعودوا يطلبون على صدقه بعد ذلك البرهان، ولقد شهدوا له بلا معجزة إلا هذا القرآن..

٢. هذا هو الفارق الكبير بين حواريي عيسى عليه السّلام ـ وحواريي محمد ﷺ ذلك مستوى، وهذا مستوى.. وهؤلاء مسلمون وأولئك مسلمون.. وهؤلاء مقبولون عند الله وهؤلاء مقبولون.. ولكن تبقى المستويات متباعدة كما أرادها الله..

٣. وقصة المائدة ـ كما أوردها القرآن الكريم ـ لم ترد في كتب النصارى، ولم تذكر في هذه الأناجيل التي كتبت متأخرة بعد عيسى عليه السلام بفترة طويلة، لا يؤمن معها على الحقيقة التي تنزلت من عند الله، وهذه الأناجيل ليست إلا رواية بعض القديسين عن قصة عيسى عليه السلام وليست هي ما أنزله الله عليه وسماه الإنجيل الذي آتاه.. ولكن ورد في هذه الأناجيل خبر عن المائدة في صورة أخرى: فورد في إنجيل متى في نهاية الإصحاح الخامس عشر: (وأما يسوع فدعا تلاميذه، وقال: إني أشفق على الجميع، لأن لهم الآن ثلاثة أيام يمشون معي، وليس لهم ما يأكلون، ولست أريد أن أصرفهم صائمين لئلا يخوروا في الطريق، فقال له تلاميذه: من أين لنا في البرية خبز بهذا المقدار حتى يشبع جمعا هذا عدده؟ فقال لهم يسوع: كم عندكم من الخبز؟ فقالوا: سبعة وقليل من صغار السمك، فأمر الجموع أن يتكئوا على الأرض؛ وأخذ السبع خبزات والسمك، وشكر وكسر، وأعطى تلاميذه، والتلاميذ أعطوا الجمع، فأكل الجمع وشبعوا، ثم رفعوا ما فضل من الكسر سبعة سلال مملوءة، والآكلون كانوا أربعة آلاف، ما عدا النساء الأولاد).. وورد مثل هذه الرواية في سائر الأناجيل.

٤. وبعض التابعين ـ كمجاهد والحسن ـ يريان أن المائدة لم تنزل، لأن الحواريين حينما سمعوا قول

الله سبحانه: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، خافوا وكفوا عن طلب نزولها.. ولكن أكثر آراء السلف على أنها نزلت، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، ووعد الله حق، وما أورده القرآن الكريم عن المائدة هو الذي نعتمده في أمرها دون سواه..

٥. إن الله سبحانه يذكر عيسى بن مريم ـ في مواجهة قومه يوم الحشر وعلى مشهد من العالمين ـ بفضله عليه: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾، لقد كان الحواريون ـ وهم تلاميذ المسيح وأقرب أصحابه إليه وأعرفهم به ـ يعرفون أنه بشر.. ابن مريم.. وينادونه بها يعرفونه عنه حق المعرفة، وكانوا يعرفون أنه ليس ربا وإنما هو عبد مربوب لله، وأنه ليس ابن الله، إنما هو ابن مريم ومن عبيد الله؛ وكانوا يعرفون كذلك أن ربه هو الذي يصنع تلك المعجزات الخوارق على يديه، وليس هو الذي يصنعها من عند نفسه بقدرته الخاصة.. لذلك حين طلبوا إليه، أن تنزل عليهم مائدة من السماء، لم يطلبوها منه، فهم يعرفون أنه بذاته لا يقدر على هذه الخارقة، وإنما سألوه: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾،

٦. واختلفت التأويلات في قولهم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾، كيف سألوا بهذه الصيغة بعد إيمانهم بالله وإشهاد عيسى عليه السلام على إسلامهم له، وقيل: إن معنى يستطيع ليس (يقدر) ولكن المقصود هو لازم الاستطاعة وهو أن ينزلها عليهم، وقيل: إن معناها: هل يستجيب لك إذا طلبت، وقرئت: (هل تستطيع ربك)، بمعنى هل تملك أنت أن تدعو ربك لينزل علينا مائدة من السماء.. وعلى أية حال فقد رد عليهم عيسى عليه السلام محذرا إياهم من طلب هذه الخارقة.. لأن المؤمنين لا يطلبون الخوارق، ولا يقترحون على الله، ﴿قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، ولكن الحواريين كرروا الطلب، معلنين عن علته وأسبابه وما يرجون من ورائه: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾، فهم يريدون أن يأكلوا من هذا الطعام الفريد الذي لا نظير له عند أهل الأرض، وتطمئن قلوبهم برؤية هذه الخارقة وهي تتحقق أمام أعينهم؛ ويستيقنوا أن عيسى عليه السّلام قد صدقهم، ثم يكونوا شهودا لدى بقية قومهم على وقوع هذه المعجزة.

٧. وكلها أسباب كما قلنا تصور مستوى معينا دون مستوى أصحاب محمد ﷺ فهؤلاء طراز آخر بالموازنة مع هذا الطراز! عندئذ اتجه عيسى عليه السلام إلى ربه يدعوه: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللهُمَّ رَبَّنَا

﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾،

٨. وفي دعاء عيسى ـ بن مريم ـ كما يكرر السياق القرآني هذه النسبة ـ أدب العبد المجتبى مع إلهه ومعرفته بربه، فهو يناديه: يا الله، يا ربنا، إنني أدعوك أن تنزل علينا مائدة من السماء، تعمنا بالخير والفرحة كالعيد، فتكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا؛ وأن هذا من رزقك فارزقنا وأنت خير الرازقين.. فهو إذن يعرف أنه عبد؛ وأن الله ربه، وهذا الاعتراف يعرض على مشهد من العالمين، في مواجهة قومه، يوم المشهد العظيم!

٩. واستجاب الله دعاء عبده الصالح عيسى بن مريم؛ ولكن بالجد اللائق بجلاله سبحانه.. لقد طلبوا خارقة، واستجاب الله، على أن يعذب من يكفر منهم بعد هذه الخارقة عذابا شديدا بالغا في شدته لا يعذبه أحدا من العالمين: ﴿قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، فهذا هو الجد اللائق بجلال الله؛ حتى لا يصبح طلب الخوارق تسلية ولهوا، وحتى لا يمضي الذين يكفرون بعد البرهان المفحم دون جزاء رادع! وقد مضت سنة الله من قبل بهلاك من يكذبون بالرسل بعد المعجزة.. فأما هنا فإن النص يحتمل أن يكون هذا العذاب في الدنيا، أو أن يكون في الآخرة.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمنوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وما بعده.. أي واذكر يا عيسى من نعمتي عليك أنى أوحيت إلى الحواريين وألهمتهم أن يتبعوك، ويكونوا أنصارا لك، وقوة إلى جوارك، في مواجهة القوى الضالّة من بنى إسرائيل.. فآمن هؤلاء الحواريون بك، وصدّقوك، وكانوا ردءا لك، وأنسا لوحشتك في هذا الظلام الكثيف المنعقد حولك، والحواريون: جمع حواريّ، والحوارى: هو الناصر والمعين على الخير، وأصله اللّباب من كل شيء ومنه الحوارى، وهو لباب الدقيق.

١. وقع بين المفسرين اختلاف شديد في مائدة بنى إسرائيل هذه، وفي الحواريّين الذين طلبوا هذا الطلب.. فأنكر بعضهم أن يكون من الحواريين هذا الطلب المتحدّي الأمر الذي لا يكون إلا من إنسان لم

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/٧٥.

يؤمن بالله.. وكيف وهم قد دعاهم الله إليه فاستجابوا من غير تردد، وتبعوا المسيح، وساروا مسيرته خطوة خطوة، كأنهم بعض ظلّه على الأرض؟

٢. وقد كان للمنكرين على الحواريين أن يكون منهم هذا الطلب، تأويلان لهذا الاعتراض:

أ. التأويل الأول: أن هؤلاء الحواريين، لم يكونوا مؤمنين إيمانا صادقا، وأنهم حين دعوا إلى الإيمان فقالوا ﴿آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ ـ لم يكن هذا القول إلا بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم فلا يستغرب منهم ـ وهذا إيمانهم ـ أن يطلبوا هذا الطلب، الذي لا يكون ممن آمن بالله إيمانا صادقا! وهذا التأويل فاسد، ظاهر الفساد، فالحواريون مدعوّون من الله، ملهمون إلى الإيمان به.. فكيف يكون إيمانهم على تلك الصفة الهزيلة المنافقة؟ إن من يدعى من الله هذه الدعوة، ويلهم هذا الإلهام إلى الإيمان به، لا بدّ أن يكون أشدّ الناس إيمانا، وأوثقهم يقينا واطمئنانا، وإن غير ذلك هو اتهام للهّ، ولعلمه، وقدرته.. ولقد كان الحواريون على إيمان وثيق بالله، أقرب إلى إيمان أنبياء الله ورسله، كما يشهد لذلك قول الله تعالى فيهم: ﴿يَا أيها الَّذِينَ آمنوا كُونُوا أَنْصَارَ الله كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى الله قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ الله﴾ [الصفّ: ١٤].. فهم القدوة في وثاقة الإيمان وفي نصرة دين الله، ونصرة رسول الله.. ولهذا دعا الله المؤمنين أن يكونوا أنصار الله ورسول الله محمد ﷺ.. كما كان هؤلاء الحواريون أنصار الله، وأنصار رسول الله عيسى، عليه السلام، فكيف يلتقى هذا القول بنفاقهم وضعف إيمانهم مع هذا الذي يقوله الله سبحانه وتعالى فيهم؟ إن مثل ذلك القول في الحواريين هو تكذيب صريح لكلام الله!

ب. أما التأويل الآخر لهذا الطلب الذي كان من الحواريين بإنزال مائدة من السماء عليهم، فقد اعتمد فيه القائلون به، على قراءة من قرأ قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ على هذا الوجه: (هل تستطيع ربّك) أي هل تستطيع أنت يا عيسى أن تطلب من ربّك أن ينزل علينا مائدة من السماء.. فتكون الاستطاعة هنا مضافة إلى عيسى عليه السلام، لا إلى الله سبحانه وتعالى.. وعلى هذا، فإنه لا بأس من أن يطلب الحواريّون إلى عيسى هذا الطلب، ويراودوه عليه! وهذا تأويل مقبول على هذه القراءة..

٣. سؤال وإشكال: لكن ما تأويل طلب الحواريين على القراءة المشهورة: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾؟ والجواب: نقول ـ والله أعلم ـ إن الاستطاعة هنا لا يراد بها القدرة على إجابة الطلب، وإنما المراد بها الرضا والقبول له، بمعنى: هل يرضى ربّك، أو يقبل ربّك أن ينزّل علينا مائدة من

السماء؟ فهذا أمر لم تجر به العادة، ولم يقع في حياة الناس.. والحواريون إذ يطلبون هذا الطلب الغريب، لا يتوقعون استجابته، وإنما كان طلبهم له من قبيل الاستطراد للمعجزات الخارقة، التي كانت تقع تحت حواسّهم، من إحياء الموتى، وخلق طير من الطين، وبعث الحياة فيه، وإبراء الأكمه والأبرص.. فماذا لو طلبوا هذا الطلب الغريب؟ هل يقبله الله؟ وهل يجيبهم إليه؟ إنهم لا يشكّون في قدرة الله، ولكنهم يشكون في أن يستجاب لهم فيما طلبوا.. ومن هنا أخذ هذا الطلب صورة الاستدعاء بالقدرة والاستطاعة.. لا بالإضافة إلى من طلب إليه، ولكن بالنسبة لمن طلب له.. كمن يقول لمن هو أعلى منه منزلة: هل تستطيع أن تعطينى هذا الكتاب الذي معك؟ إنه لا شك مستطيع، إذ لا شيء يمسكه عن ذلك.. ولكن الأمر متروك لتقديره هو.. وهل يرى هذا الشخص مستحقا لهذه المكرمة أو غير مستحق لها؟

٤ . وليس في قول الحواريين: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ إنكار لربوبية الله لهم، ولكنه استصغار لشأنهم، وإخفاء لذاتهم، وهم يطلبون هذا الطلب، الذي لا يصح أن يكون طالبه من الله إلا إنسانا له عنده من المنزلة مثل ما لعيسى عليه السلام، فهو ربّه الذي أفاض عليه هذه المكرمات، وهو ربّه الذي يطلب منه هذه المكرمة.. ولهذا أضافوا عيسى إلى الربّ، ولم يضيفوا هم أنفسهم إليه، استصغارا لمكانهم في هذا المقام.

٥ . وفي قول عيسى عليه السلام للحواريين: ﴿اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ تأديب لهم، ودعوة إلى ما هو أولى بالمؤمنين أن يكونوه مع الله، كما يقول السيد المسيح في بعض تعاليمه: (لا تجرّب الربّ إلهك).. فذلك هو الكمال كلّه، والإيمان كلّه، ولكن ـ كما قلنا ـ للمؤمنين المقربين إلى الله، المشاهدين لعظمة جلاله، المحفوفين بخفيّ ألطافه ـ لهؤلاء المؤمنين أنس بروح الله، وانتشاء بنسائم قربه، وأنفاس مودته، وذلك ممّا يحملهم على هذا الدّلال في طلب ما لا يطلب الناس، ولا يطمعون فيه.. وفي إبراهيم عليه السلام مثل لهذا.. فقد طلب من الله سبحانه أن يريه كيف يحيى الموتى! وقد أجابه مولاه ـ كرما ولطفا ـ إلى ما طلب.. وكذلك ما كان من موسى عليه السلام حيث طلب أكثر من هذا، فقال: (ربّ أرنى انظر إليك)! وموسى يعلم يقينا أن الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يرى، إذ لو رؤى لتحدّد، ولو تحدّد لتحيّز، ولو تحيّز لكان مخلوقا.. لا خالقا! وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.. ومع هذا فقد طلب موسى هذا الطلب، الذي لا تدركه الأبصار.. فكان جواب الحق جلّ وعلا: ﴿لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فإن اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوّل الْمُؤْمِنِينَ﴾

[الأعراف: ١٤٢]

٦. فمثل هذا الطلب من الحواريين، لا يدلّ بحال على ضعف إيمان، أو شك في الله، ولكنه طلب المزيد من الإيمان والرضوان من الله! ولهذا كان جوابهم على عيسى عليه السلام: ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ فهم يريدون المائدة لأمور.. منها:

أ. أولا: أن يأكلوا منها.. فهي في هذا لا تختلف كثيرا عن المنّ والسّلوى الذي أطعمه الله سبحانه وتعالى آباءهم، حين نجّاهم من فرعون على يد موسى.. فلما كفروا بهذه النعم لعنهم الله، وضرب عليهم الذلة والمسكنة.

ب. وثانيا: أن تطمئن قلوبهم إلى رحمة الله بهم، وألطافه عليهم، باستجابة طلبهم.. وفي هذا ما يفتح لهم إلى الله طريقا يرون منه إشارات السماء بحواسّهم، بعد أن أدركوها بعقولهم.. وهذا ما يبعث في قلوبهم الطمأنينة التي تثبّت الإيمان فلا يهتزّ لعارض يعرض له من ريبة أو شك.

ج. وثالثا: أن يزداد علمهم بصدق عيسى، وبصدق هذه الآيات التي تجرى على يديه، فلا يطوف بأنفسهم منها طائف من الشك والوسوسة، التي كان يثيرها اليهود حولها.

د. ورابعا: أن تكون هذه المائدة المنزلة من السماء شهادة بين أيديهم في دعوتهم الناس إلى الإيمان.. إذ كانوا ممن طعموا منها، ومثل هذا الطعام السماوي لا بدّ أن يترك آثارا فيمن طعم منه.. وربما كانت آثاره مادية ومعنوية معا، يراها الناس ظاهرة عليهم، فيكون منها شهادة للحواريين، أنهم ممن لبسوا تلك النعمة الإلهية، وفي هذا ما يجعل القلوب مطمئنة إليهم، وإلى ما يدعون إليه.

٧. وأمر آخر من تلك المائدة، أثار اختلافا بين المفسّرين، حتى لقد رأى بعضهم أن المائدة لم تنزل، وأن الحواريين حين سمعوا قول الله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قالوا: لا حاجة لنا.. فلم تنزل عليهم! وهذا قول مردود، ورأى فاسد.. وذلك:

أ. أولا: أن عيسى عليه السلام، دعا ربّه، وضرع إليه، أن ينزّل هذه المائدة، كما طلبها الحواريون ولم يكتف بهذا، بل لقد جعل لطلبها أسبابا ومبررات من عنده، حتى لكأن هذا الطلب كان منه ابتداء، لما حمّل هذا الطلب من ثمرات طيبة تجيء معه، كما يقول الله سبحانه وتعالى على لسانه: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللهُمَّ رَبَّنَا أنزل عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾

أفبعد هذا لا يستجيب الله لعيسى بن مريم، ولا يحقق له ما دعا به إليه؟ إن عيسى عليه السلام يقول: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا﴾ ولم يقل عليهم.. ويقول: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ ولم يقل: تكون لهم عيدا لأولهم وآخرهم) وقال: ﴿وَارْزُقْنَا﴾ ولم يقل: وارزقهم.، فهي عيد وبهجة ومسرّة للمسيح، ولمن يطعم من تلك المائدة من أتباعه، ثم هي آية من آيات الله وشاهد من شهود قدرته وجلاله، وهي رزق كريم طيب.. وليست لعنة، ولا عقوبة.

ب. وثانيا: أن الله سبحانه وتعالى استجاب لعيسى، فقال سبحانه: ﴿قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾.. وفي هذا: أن القائل ليس أي قائل، بل هو الله سبحانه وتعالى.. ﴿قَالَ اللهُ﴾.. وأنه سبحانه قد حكم هذا الحكم القاطع المؤكد: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾.. هكذا: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾.. وذلك التوكيد، ليرفع أي احتمال للشك عند أقلّ المؤمنين إيمانا بالله، بأن المائدة لم تنزل، فكيف يقع لعقل عاقل أن كلمة الله لا تنفذ، وأن قضاءه لا يمضي؟ ولا ندرى كيف نظر شيخ المفسّرين (الطبري) إلى هذه الآية، ولا كيف طوّع له قلمه أن يجعل لهذا الرأي مكانا في تفسيره؟

٨. وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ إنما هو حراسة لهذه النعمة العظيمة، من أن يعبث بها العابثون، أو يلحد بها الملحدون.. إنها شمس طالعة في وجه صبح مشرق.. فمن عمى عنها، ولم يهتد بها، فهو في حرب سافرة مع الله.. لا جزاء له إلا أن يلقى أشد العذاب! وليس في هذا تهديد للحواريين، ولا وعيد لما سيكون منهم من كفر بهذه الآية، ومكر بها.. بل هو استبعاد لأن يقع شيء من هذا منهم، وإن جاز أن يقع من غيرهم.. وأنه لو جاز أن يكفر أحد من الحواريين بهذه الآية فإنه سيلقى هذا العذاب.. فكيف يكون العذاب لمن كفر من غيرهم؟ وهذا أسلوب من أساليب القرآن في مخاطبة من يستبعد منهم فعل منكر، ليكون ذلك تخويفا لغيرهم، وزجرا لهم عن إتيان هذا الإثم.. يقول تعالى مخاطبا نبيّه الكريم: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ويقول سبحانه وتعالى مشيرا إليه ﷺ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أحد عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧]، والنبي الكريم أبعد من أن يطوف به طائف من الشرك، وأبعد من أن يتقوّل على الله قولا.. إن ذلك كان أمرا مستحيلا بالنسبة لذاته الكريمة.. ولكنّ المقام مقام تحريم الشرك والتشنيع عليه، فناسب أن يبرز في تلك الصورة المفزعة التي تحبط كل عمل، ولو كان

نبيّا كريما من أنبياء الله، ورسولا مجتبى من رسله.. فكيف غير النبيّ وغير الرسول! وكذلك الأمر في التقول على الله والافتراء عليه.

٩. وفي قوله تعالى على لسان السيد المسيح: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ أي ينال منها، ويسعد بها كلّ من اتبعه، وآمن به، واجتمع إليه، لا الحواريون وحدهم الذين كان منهم هذا الطلب ابتداء ـ فهي رحمة منزلة من السماء، ونعمة محمولة على جناح الرحمة، ينال منها كل من صدّق بصاحب هذه الدعوة، واتبع سبيله، من أقرب المقربين إليه، إلى من هم أبعد منهم صلة به.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ يجوز أن يكون عطفا على جملة ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠]، فيكون من جملة ما يقوله الله لعيسى يوم يجمع الرسل، فإنّ إيمان الحواريّين نعمة على عيسى إذ لو لم يؤمنوا به لما وجد من يتّبع دينه فلا يحصل له الثواب المتجدّد بتجدد اهتداء الأجيال بدينه إلى أن جاء نسخه بالإسلام.

٢. والمراد بالوحي إلى الحواريّين إلهامهم عند سماع دعوة عيسى للمبادرة بتصديقه، فليس المراد بالوحي الذي به دعاهم عيسى، ويجوز أن يكون الوحي الذي أوحي به إلى عيسى ليدعو بني إسرائيل إلى دينه، وخصّ الحواريّون به هنا تنويها بهم حتّى كأنّ الوحي بالدعوة لم يكن إلّا لأجلهم، لأنّ ذلك حصل لجميع بني إسرائيل فكفر أكثرهم على نحو قوله تعالى: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى الله قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ الله فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ [الصف: ١٤]؛ فكان الحواريّون سابقين إلى الإيمان لم يتردّدوا في صدق عيسى، و﴿إِنَّ﴾ تفسيرية للوحي الذي ألقاه الله في قلوب الحواريّين.

٣. وفصل جملة ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ لأنّها جواب ما فيه معنى القول، وهو (أوحينا)، على طريقة الفصل في المحاورة كما تقدّم في سورة البقرة، وهو قول نفسي حصل حين ألقى الله في قلوبهم تصديق عيسى فكأنّه

---

(١) التحرير والتنوير: ٥/٢٦٣.

خاطبهم فأجابوه، والخطاب في قولهم: ﴿وَاشْهَدْ﴾ لله تعالى وإنّما قالوا ذلك بكلام نفسي من لغتهم، فحكى الله معناه بما يؤدّيه قوله: ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾، وسمّى إيمانهم إسلاما لأنّه كان تصديقا راسخا قد ارتفعوا به عن مرتبة إيمان عامّة من آمن بالمسيح غيرهم، فكانوا مماثلين لإيمان عيسى، وهو إيمان الأنبياء والصدّيقين، وقد قدّمت بيانه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ في سورة آل عمران [٦٧]، وفي تفسير قوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ في سورة البقرة [١٣٢] فارجع إليه.

٤. جملة: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ يجوز أن تكون من تمام الكلام الذي يكلّم الله به عيسى يوم يجمع الرسل، فيكون ﴿إِذِ﴾ ظرفا متعلّقا بفعل ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ [المائدة: ١١١] فيكون ممّا يذكر الله به عيسى يوم يجمع الرسل، فحكي على حسب حصوله في الدنيا وليس ذلك بمقتض أنّ سؤالهم المائدة حصل في أول أوقات إيمانهم بل في وقت آخر ﴿قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١]؛ فإنّ قولهم ﴿آمَنَّا﴾ قد يتكرّر منهم بمناسبات، كما يكون عند سماعهم تكذيب اليهود عيسى، أو عندما يشاهدون آيات على يد عيسى، أو يقولونه لإعادة استحضار الإيمان شأن الصدّيقين الذين يحاسبون أنفسهم ويصقلون إيمانهم فيقولون في كلّ معاودة، آمنّا واشهد بأنّنا مسلمون، وأمّا ما قرّر به (الكشاف) ومتابعوه فلا يحسن تفسير الكلام به.

٥. ويجوز أن يكون جملة: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ ابتدائية بتقدير: اذكر، على أسلوب قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ في سورة النمل [٧]، فيكون الكلام تخلّصا إلى ذكر قصّة المائدة لمناسبة حكاية ما دار بين عيسى وبين الحواريّين في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ وابتدؤوا خطابهم عيسى بندائه باسمه للدلالة على أنّ ما سيقولونه أمر فيه اقتراح وكلفة له، وكذلك شأن من يخاطب من يتجشّم منه كلفة أن يطيل خطابه طلبا لإقبال سمعه إليه ليكون أوعى للمقصود.

٦. وجرى قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ على طريقة عربية في العرض والدعاء، يقولون للمستطيع لأمر: هل تستطيع كذا، على معنى تطلّب العذر له إن لم يجبك إلى مطلوبك وأنّ السائل لا يحبّ أن يكلّف المسئول ما يشقّ عليه، وذلك كناية فلم يبق منظورا فيه إلى صريح المعنى المقتضي أنّه يشكّ في استطاعة المسئول، وإنّما يقول ذلك الأدنى للأعلى منه، وفي شيء يعلم أنه مستطاع للمسئول، فقرينة الكناية

تحقّق المسئول أنّ السائل يعلم استطاعته، ومنه ما جاء في حديث يحيى المازني (أنّ رجلا قال لعبد الله بن زيد: أتستطيع أن تريني كيف كان رسول الله يتوضّأ)، فإنّ السائل يعلم أنّ عبد الله بن زيد لا يشقّ عليه ذلك، فليس قول الحواريّين المحكي بهذا اللفظ في القرآن إلّا لفظا من لغتهم يدلّ على التلطّف والتأدّب في السؤال، كما هو مناسب أهل الإيمان الخالص، وليس شكّا في قدرة الله تعالى ولكنّهم سألوا آية لزيادة اطمئنان قلوبهم بالإيمان بأن ينتقلوا من الدليل العقلي إلى الدليل المحسوس، فإنّ النفوس بالمحسوس آنس، كما لم يكن سؤال إبراهيم بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠] شكّا في الحال، وعلى هذا المعنى جرى تفسير المحققين مثل ابن عطية، والواحدي، والبغوي خلافا لما في (الكشاف)

٧. وقرأ الجمهور: ﴿يَسْتَطِيعُ﴾ بياء الغيبة ورفع ﴿رَبُّكَ﴾، وقرأه الكسائي هل تستطيع ربك ـ بتاء المخاطب ونصب الباء الموحّدة ـ من قوله: ﴿رَبَّكَ﴾ على أنّ ﴿رَبَّكَ﴾ مفعول به، فيكون المعنى هل تسأل لنا ربّك، فعبّر بالاستطاعة عن طلب الطاعة، أي إجابة السؤال، وقيل: هي على حذف مضاف تقديره هل تستطيع سؤال ربّك، فأقيم المضاف إليه مقام المضاف في إعرابه، وفي رواية الطبري عن عائشة قالت: كان الحواريّون أعلم بالله عزّ وجل من أن يقولوا: هل يستطيع ربّك، ولكن قالوا: هل تستطيع ربّك، وعن معاذ بن جبل أقرأنا النبي هل تستطيع ربك.

٨. واسم ﴿مَائِدَةً﴾ هو الخوان الموضوع عليه طعام، فهو اسم لمعنى مركّب يدلّ على طعام وما يوضع عليه، والخوان ـ بكسر الخاء وضمّها ـ تخت من خشب له قوائم مجعول ليوضع عليه الطعام للأكل، اتّفقوا على أنّه معرّب، قال الجواليقي: هو أعجمي، وفي حديث قتادة عن أنس قال: ما أكل رسول الله ﷺ على خوان قطّ، ولا في سكرّجة، قال قتادة: قلت لأنس: فعلام كنتم تأكلون قال على السّفر، وقيل: المائدة اسم الطعام، وإن لم يكن في وعاء ولا على خوان، وجزم بذلك بعض المحقّقين من أهل اللغة، ولعلّه مجاز مرسل بعلاقة المحلّ، وذكر القرطبي أنّه لم تكن للعرب موائد إنّما كانت لهم السفرة، وما ورد في الحديث من قول ابن عباس في الضبّ: لو كان حراما ما أكل على مائدة رسول الله، إنّما يعني به الطعام الموضوع على سفرة، واسم السفرة غلب إطلاقه على وعاء من أديم مستدير له معاليق ليرفع بها إذ أريد السفر به، وسمّيت سفرة لأنّها يتّخذها المسافر.

٩. وإنّما سأل الحواريّون كون المائدة منزّلة من السماء لأنّهم رغبوا أن تكون خارقة للعادة فلا تكون

ممّا صنع في العالم الأرضي فتعيّن أن تكون من عالم علوي.

١٠. وقول عيسى عليه السلام حين أجابهم: ﴿اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أمر بملازمة التقوى وعدم تزلزل الإيمان ولذلك جاء بـ ﴿إِنَّ﴾ المفيدة للشكّ في الإيمان ليعلم الداعي إلى ذلك السؤال خشية أن يكون نشأ لهم عن شكّ في صدق رسولهم، فسألوا معجزة يعلمون بها صدقه بعد أن آمنوا به، وهو قريب من قوله تعالى لإبراهيم المحكي في قوله: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ أي ألم تكن غنيّا عن طلب الدليل المحسوس، فالمراد بالتقوى في كلام عيسى ما يشمل الإيمان وفروعه.

١١. وقيل: نهاهم عن طلب المعجزات، أي إن كنتم مؤمنين فقد حصل إيمانكم فما الحاجة إلى المعجزة، فأجابوه عن ذلك بأنّهم ما أرادوا ذلك لضعف في إيمانهم إنّما أرادوا التيمّن بأكل طعام نزل من عند الله إكراما لهم، ولذلك زادوا ﴿مِنْهَا﴾ ولم يقتصروا على ﴿أَنْ نَأْكُلَ﴾ إذ ليس غرضهم من الأكل دفع الجوع بل الغرض التشرّف بأكل من شيء نازل من السماء، وهذا مثل أكل أبي بكر من الطعام الذي أكل منه ضيفه في بيته حين انتظروه بالعشاء إلى أن ذهب جزء من الليل، وحضر أبو بكر وغضب من تركهم الطعام، فلمّا أخذوا يطعمون جعل الطعام يربو فقال أبو بكر لزوجه: ما هذا يا أخت بني فراس، وحمل من الغد بعض ذلك الطعام إلى رسول الله ﷺ فأكل منه، ولذلك قال الحواريّون: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ أي بمشاهدة هذه المعجزة فإنّ الدليل الحسي أظهر في النفس، ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾، أي نعلم علم ضرورة لا علم استدلال فيحصل لهم العلمان، ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾، أي من الشاهدين على رؤية هذه المعجزة فنبلّغها من لم يشهدها، فهذه أربع فوائد لسؤال إنزال المائدة، كلّها درجات من الفضل الذي يرغب فيه أمثالهم.

١٢. وتقديم الجارّ والمجرور في قوله: ﴿عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ للرعاية على الفاصلة.

١٣. إن كان قوله: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: ١١٢] من تمام الكلام الذي يلقيه الله على عيسى يوم يجمع الله الرسل كانت هذه الجملة وهي ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً﴾ معترضة بين جملة ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ [المائدة: ١١١] وجملة ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦] الآية، وإن كان قوله: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ﴾ [المائدة: ١١٢]

الآية ابتداء كلام بتقدير فعل اذكر كانت جملة: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللهُمَّ رَبَّنَا﴾ الآية مجاوبة لقول الحواريّين ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ [المائدة: ١١٢] الآية على طريقة حكاية المحاورات.

١٤. وقوله: ﴿اللهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً﴾ اشتمل على نداءين، إذ كان قوله: ﴿رَبَّنَا﴾ بتقدير حرف النداء، كرّر النداء مبالغة في الضراعة، وليس قوله: ﴿رَبَّنَا﴾ بدلا ولا بيانا من اسم الجلالة، لأنّ نداء ﴿اللهُمَّ﴾ لا يتبع عند جمهور النحاة لأنّه جار مجرى أسماء الأصوات من أجل ما لحقه من التغيير حتى صار كأسماء الأفعال، ومن النحاة من أجاز اتباعه، وأيّا ما كان فإنّ اعتباره نداء ثانيا أبلغ هنا لا سيما وقد شاع نداء الله تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾ مع حذف حرف النداء كما في الآيات الخواتم من سورة آل عمران، وجمع عيسى بين النداء باسم الذات الجامع لصفات الجلال وبين النداء بوصف الربوبية له وللحواريّين استعطافا لله ليجيب دعاءهم.

١٥. ومعنى ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ أي يكون تذكّر نزولها بأن يجعلوا اليوم الموافق يوم نزولها من كلّ سنة عيدا، فإسناد الكون عيدا للمائدة إسناد مجازي، وإنّما العيد اليوم الموافق ليوم نزولها، ولذلك قال: ﴿لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾، أي لأوّل أمّة النصرانية وآخرها، وهم الذين ختمت بهم النصرانية عند البعثة المحمدية، والعيد اسم ليوم يعود كلّ سنة، ذكرى لنعمة أو حادثة وقعت فيه للشكر أو للاعتبار، وقد ورد ذكره في كلام العرب، وأشهر ما كانت الأعياد في العرب عند النصارى منهم، قال العجاج: (كما يعود العيد نصرانيّ مثل يوم السباسب) في قول النابغة: (يحيّون بالرّيحان يوم السّباسب) وهو عيد الشعانين عند النصارى، وقد سمّى النبي ﷺ يوم الفطر عيدا في قوله لأبي بكر لمّا نهى الجواري اللّاء كنّ يغنّين عند عائشة (إنّ لكلّ قوم عيدا وهذا عيدنا) وسمّى يوم النحر عيدا في قوله: (شهرا عيد لا ينقصان رمضان وذو الحجّة)، والعيد مشتقّ من العود، وهو اسم على زنة فعل، فجعلت واوه ياء لوقوعها إثر كسرة لازمة، وجمعوه على أعياد بالياء على خلاف القياس، لأنّ قياس الجمع أنّه يردّ الأشياء إلى أصولها، فقياس، جمعه أعواد لكنّهم جمعوه على أعياد، وصغّروه على عييد، تفرقة بينه وبين جمع عود وتصغيره.

١٦. وقوله: ﴿لِأَوَّلِنَا﴾ بدل من الضمير في قوله: ﴿لَنَا﴾ بدل بعض من كلّ، وعطف ﴿وَآخِرِنَا﴾ عليه يصيّر الجميع في قوة البدل المطابق، وقد أظهر لام الجرّ في البدل، وشأن البدل أن لا يظهر فيه العامل الذي عمل في المبدل منه لأنّ كون البدل تابعا للمبدل منه في الإعراب مناف لذكر العامل الذي عمل في

المتبوع، ولهذا قال النحاة: إنّ البدل على نية تكرار العامل، أي العامل منوي غير مصرّح به، وقد ذكر الزمخشري في (المفصّل) أنّ عامل البدل قد يصرّح به، وجعل ذلك دليلا على أنّه منوي في الغالب ولم يقيّد ذلك بنوع من العوامل، ومثّله بقوله تعالى: ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ﴾ [الزخرف: ٣٣]، وبقوله في سورة الأعراف [٧٥] ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ وقال في (الكشاف) في هذه الآية ﴿لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ بدل من ﴿لَنَا﴾ بتكرير العامل، وجوّز البدل أيضا في آية الزخرف ثم قال ويجوز أن يكون اللّامان بمنزلة اللّامين في قولك: وهبت له ثوبا لقميصه، يريد أن تكون اللام الأولى متعلّقة بـ ﴿تَكُونُ﴾ الثانية متعلّقة بـ ﴿عِيدًا﴾

١٧. وقد استقريت ما بلغت إليه من موارد استعماله فتحصّل عندي أنّ العامل الأصيل من فعل وشبهه لا يتكرّر مع البدل، وأمّا العامل التكميلي لعامل غيره وذلك حرف الجرّ خاصّة فهو الذي ورد تكريره في آيات من القرآن من قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ في سورة الأعراف [٧٥]، وآية سورة الزخرف، وقوله: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ [الأنعام: ٩٩]، ذلك لأنّ حرف الجرّ مكمّل لعمل الفعل الذي يتعلّق هو به لأنّه يعدّي الفعل القاصر إلى مفعوله في المعنى الذي لا يتعدّى إليه بمعنى مصدره، فحرف الجرّ ليس بعامل قوي ولكنّه مكمّل للعامل المتعلّق هو به، ثمّ إنّ علينا أن نتطلّب الداعي إلى إظهار حرف الجرّ في البدل في مواقع ظهوره، وقد جعل ابن يعيش في (شرح المفصّل) ذلك للتأكيد قال: (لأن الحرف قد يتكرّر لقصد التأكيد)، وهذا غير مقنع لنا لأنّ التأكيد أيضا لا بدّ من داع يدعو إليه، فما أظهر فيه حرف الجرّ من هذه الآيات كان مقتضي إظهاره إمّا قصد تصوير الحالة كما في أكثر الآيات، وأمّا دفع اللبس، وذلك في خصوص آية الأعراف لئلّا يتوهّم السامع أنّ من يتوهّم أنّ (من آمن) من المقول وأنّ (من) استفهام فيظنّ أنّهم يسألون عن تعيين من آمن من القوم، ومعنى التأكيد حاصل على كلّ حال لأنّه ملازم لإعادة الكلمة، وأمّا ما ليس بعامل فهو الاستفهام وقد التزم ظهور همزة الاستفهام في البدل من اسم استفهام، نحو: أين تنزل أفي الدار أم في الحائط، ومن ذا أسعيد أم علي.

١٨. وهذا العيد الذي ذكر في هذه الآية غير معروف عند النصارى ولكنّهم ذكروا أنّ عيسى عليه السلام أكل مع الحواريّين على مائدة ليلة عيد الفصح، وهي الليلة التي يعتقدون أنّه صلب من صباحها،

فلعلّ معنى كونها عيدا أنّها صيّرت يوم الفصح عيدا في المسيحية كما كان عيدا في اليهودية، فيكون ذلك قد صار عيدا باختلاف الاعتبار وإن كان اليوم واحدا لأنّ المسيحيين وفّقوا لأعياد اليهود مناسبات أخرى لائقة بالمسيحية إعفاء على آثار اليهودية.

١٩. وجملة ﴿قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ جواب دعاء عيسى، فلذلك فصلت على طريقة المحاورة، وأكّد الخبر بإن تحقيقا للوعد، والمعنى إنّي منزّلها عليكم الآن، فهو استجابة وليس بوعد.

٢٠. وقوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ﴾ تفريع عن إجابة رغبتهم، وتحذير لهم من الوقوع في الكفر بعد الإيمان إعلاما بأهمّية الإيمان عند الله تعالى، فجعل جزاء إجابته إيّاهم أن لا يعودوا إلى الكفر فإن عادوا عذّبوا عذابا أشدّ من عذاب سائر الكفّار لأنّهم تعاضد لديهم دليل العقل والحسّ فلم يبق لهم عذر.

٢١. والضمير المنصوب في قوله: ﴿لَا أُعَذِّبُهُ﴾ ضمير المصدر، فهو في موضع المفعول المطلق وليس مفعولا به، أي لا أعذّب أحدا من العالمين ذلك العذاب، أي مثل ذلك العذاب.

٢٢. وقد وقفت قصّة سؤال المائدة عند هذا المقدار وطوي خبر ماذا حدث بعد نزولها لأنّه لا أثر له في المراد من القصّة، وهو العبرة بحال إيمان الحواريّين وتعلّقهم بما يزيدهم يقينا، وبقربهم إلى ربّهم وتحصيل مرتبة الشهادة على من يأتي بعدهم، وعلى ضراعة المسيح الدالّة على عبوديته، وعلى كرامته عند ربّه إذ أجاب دعوته، وعلى سعة القدرة.

٢٣. وأمّا تفصيل ما حوته المائدة وما دار بينهم عند نزولها فلا عبرة فيه، وقد أكثر فيه المفسّرون بأخبار واهية الأسانيد سوى ما أخرجه الترمذي في أبواب التفسير عن الحسن بن قزعة بسنده إلى عمّار بن يسار قال قال رسول الله ﷺ: (أنزلت المائدة من السماء خبزا ولحما) الحديث، قال الترمذي: هذا الحديث رواه غير واحد عن عمّار بن ياسر موقوفا ولا نعرفه مرفوعا إلّا من حديث الحسن بن قزعة ولا نعلم للحديث المرفوع أصلا.

٢٤. واختلف المفسّرون في أنّ المائدة هل نزلت من السماء أو لم تنزل، فعن مجاهد والحسن أنّهم لمّا سمعوا قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ﴾ الآية خافوا فاستعفوا من طلب نزولها فلم تنزل، وقال الجمهور: نزلت، وهو الظاهر لأنّ قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وعد لا يخلف، وليس مشروطا بشرط ولكنه معقّب بتحذير من الكفر، وذلك حاصل أثره عند الحواريّين وليسوا ممّن يخشى العود إلى الكفر سواء

نزلت المائدة أم لم تنزل، وأمّا النصارى فلا يعرفون خبر نزول المائدة من السماء، وكم من خبر أهملوه في الأناجيل.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ والوحى معناه الإلهام ويكون على أقسام: وحى بمعنى إرسال جبريل إلى الرسل عليهم السلام، ووحى بمعنى الإلهام كما في هذه الآية؛ أي ألهمتهم وقذفت في قلوبهم؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾ [القصص]، ووحى بمعنى الإعلام في اليقظة والمنام، قال أبو عبيدة: أوحيت بمعنى أمرت، ﴿إِلَى﴾ صلة؛ يقال: وحى وأوحى بمعنى؛ قال الله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ [الزلزلة]

٢. ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ ما تقدم من الأعراب ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ﴾ يستطيع بمعنى يطيع؛ كما قالوا: استجاب بمعنى أجاب، وكذلك استطاع بمعنى أطاع:

أ. وقيل المعنى: هل يقدر ربك، وكان هذا السؤال في ابتداء أمرهم قبل استحكام معرفتهم بالله عزّ وجل؛ ولهذا قال عيسى في الجواب عن غلطهم وتجويزهم على الله ما لا يجوز: ﴿اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي لا تشكو في قدرة الله تعالى، وهذا فيه نظر؛ لأن الحواريين خلصان الأنبياء ودخلاؤهم وأنصارهم كما قال: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِّ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِّ﴾، ومعلوم أن الأنبياء عليهم السلام جاءوا بمعرفة الله تعالى وما يجب له وما يجوز ما يستحيل عليه وأن يبلغوا ذلك أممهم؛ فكيف يخفى ذلك على من باطنهم واختص بهم حتى يجهلوا قدرة الله تعالى؟ إلا أنه يجوز أنه يقال: إن ذلك صدر ممن كان معهم، كما قال بعض جهال الأعراب للنبي ﷺ: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط.

ب. وقيل: إن القوم لم يشكوا في استطاعة الباري سبحانه لأنهم كانوا مؤمنين عارفين عالمين، وإنما هو كقولك للرجل: هل يستطيع فلان أن يأتي وقد علمت أنه يستطيع؛ فالمعنى: هل يفعل ذلك؟ وهل يجيبنى إلى ذلك أم لا؟ وقد كانوا عالمين باستطاعة الله تعالى لذلك ولغيره علم دلالة وخبر ونظر فأرادوا

---

(١) زهرة التفاسير: ٢٤٠١/٥.

علم معاينة كذلك؛ كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة] على ما تقدم، وقد كان إبراهيم علم لذلك علم خبر ونظر، ولكن أراد المعاينة التي لا يدخلها ريب ولا شبهة؛ لأن علم النظر والخبر قد تدخله الشبهة والاعتراضات، وعلم المعاينة لا يدخله شيء من ذلك؛ ولذلك قال الحواريون: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ كما قال إبراهيم: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة]

٣. ﴿قَالَ اتَّقُوا اللهَ﴾ أي اتقوا مغاضبه وكثرة السؤال؛ فإنكم لا تدرون ما يحل بكم عند اقتراح الآيات؛ إذ كان الله عزّ وجل إنما يفعل الأصلح لعباده، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم مؤمنين به وبما جئت به، فقد جاءكم من الآيات ما فيه غنى.

٤. ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ نصب بـ (أن)، وقوله: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ عطف كله، بينوا به سبب سؤالهم حين نهوا عنه، وفي قولهم: ﴿نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ وجهان:

أ. أحدهما: أنهم أرادوا الأكل منها للحاجة الداعية إليها؛ وذلك أن عيسى عليه السلام كان إذا خرج اتبعه خمسة آلاف أو أكثر، بعضهم كانوا أصحابه، وبعضهم كانوا يطلبون منه أن يدعو لهم لمرض كان بهم أو علّة، إذ كانوا زمنى أو عميانا، وبعضهم كانوا ينظرون ويستهزئون فخرج يوما إلى موضع فوقعوا في مفازة، ولم يكن معهم نفقة فجاعوا وقالوا للحواريين: قولوا لعيسى حتى يدعو بأن تنزل عليهم مائدة من السماء، فقال عيسى لشمعون: ﴿قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فأخبر بذلك شمعون القوم فقالوا له: قل له: ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ الآية،.

ب. الثاني: ﴿نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ لننال بركتها لا لحاجة دعتهم إليها.

٥. وقولهم: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ يحتمل ثلاثة أوجه:

أ. أحدها: تطمئن إلى أن الله تعالى بعثك إلينا نبيا.

ب. الثاني: تطمئن إلى أن الله تعالى قد اختارنا لدعوتنا.

ج. الثالث: تطمئن إلى أن الله تعالى قد أجابنا إلى ما سألنا؛ وقيل: أي تطمئن بأن الله قد قبل صومنا وعملنا.

٦. ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ بأنك رسول الله، ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لله بالوحدانية،

ولك بالرسالة والنبوة، وقيل: ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لك عند من لم يرها إذا رجعنا إليهم.

٧. ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللهُمَّ رَبَّنَا﴾ اللهم أصلها يا الله، والميمان في (اللهمّ) بدل من (يا)، ﴿رَبَّنَا﴾ نداء ثان، ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ المائدة الخوان الذى عليه الطعام؛ لا تكون المائدة حتى يكون عليها طعام، فإن لم يكن قيل: خوان، وهي فاعلة من ماد عبده إذا أطعمه وأعطاه؛ فالمائدة تمد ما عليها أي تعطى.

٨. وقوله تعالى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾، ﴿تَكُونُ﴾ نعت لمائدة وليس بجواب، ﴿عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ أي لأول أمتنا وآخرها؛ فقيل: إن المائدة نزلت عليهم يوم الأحد غدوة وعشية؛ فلذلك جعلوا الأحد عيدا، والعيد واحد الأعياد؛ وإنما جمع بالياء وأصله الواو للزومها في الواحد، ويقال: للفرق بينه وبين أعواد الخشب، وقد عيّدوا أي شهدوا العيد؛ وقيل: أصله من عاد يعود أي رجع فهو عود بالواو، فقلبت ياء لانكسار ما قبلها، مثل الميزان والميقات والميعاد؛ فقيل ليوم الفطر والأضحى: عيدا لأنهما يعودان كل سنة، وقيل: سمى عيدا للعود في المرح والفرح، فهو يوم سرور الخلق كلهم؛ وقيل: سمى عيدا لأن كل إنسان يعود إلى قدر منزلته؛ ألا ترى إلى اختلاف ملابسهم وهيئاتهم ومآكلهم فمنهم من يضيف ومنهم من يضاف، ومنهم من يرحم ومنهم من يرحم، وقيل: سمى بذلك لأنه يوم شريف تشبيها بالعيد: وهو فحل كريم مشهور عند العرب وينسبون إليه، فيقال: إبل عيدية؛ قال عيديّة أرهنت فيها الدنانير، وقرأ زيد بن ثابت ﴿لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ على الجمع، قال ابن عباس: يأكل منها آخر الناس كما يأكل منها: أولهم.

٩. ﴿قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ هذا وعد من الله تعالى أجاب به سؤال عيسى كما كان سؤال عيسى إجابة للحواريين، وهذا يوجب أنه قد أنزلها ووعده الحق، فجحد القوم وكفروا بعد نزولها مسخوا قردة وخنازير، قال ابن عمر: إن أشدّ الناس عذابا يوم القيامة المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، واختلف العلماء في المائدة هل نزلت أم لا؟ فالذي عليه الجمهور ـ وهو الحق ـ نزولها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، وقال مجاهد: ما نزلت وإنما هو ضرب مثل ضربه الله تعالى لخلقه فنهاهم من مسألة الآيات لأنبيائه، وقيل: وعدهم بالإجابة فلما قال لهم: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ﴾ ـ الآية، واستغفروا الله وقالوا: لا نريد هذا؛ وهذا القول والذى قبله خطأ، والصواب أنها نزلت، قال ابن عباس: إن عيسى بن مريم قال

لبنى إسرائيل: (صوموا ثلاثين يوما ثم سلوا الله ما شئتم يعطيكم) فصاموا ثلاثين يوما وقالوا: يا عيسى لو عملنا لأحد فقضينا عملنا لأطعمنا، وإنا صمنا وجعنا فادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء، فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها، عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات، فوضعوها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم، وعن ابن عباس وأبى عبد الرحمن السّلميّ كان طعام المائدة خبزا وسمكا، وخرّج التّرمذىّ في أبواب التفسير عن عمّار بن ياسر قال قال رسول الله ﷺ:

(أنزلت المائدة من السماء خبزا ولحما وأمروا ألا يخونوا ولا يدّخروا لغد فخانوا وادّخروا ورفعوا لغد فمسخوا قردة وخنازير)

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. لقد كثر الكلام حول المائدة وطلابها: هل كانوا مؤمنين أو مشككين؟ وهل نزلت المائدة بالفعل، أو أنها لم تنزل، لأن الحواريين عدلوا عن طلبها بعد أن هددهم الله بقوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، ومع افتراض نزولها فعلى أية حال نزلت؟ وما هي أصنافها وألوانها؟ ثم هل مسخوا بعدها قردة وخنازير، لأن بعضهم سرق منها؟. إلى غير ذلك من القول على الله من غير علم، ونقف نحن في حديثنا عن هذه الآيات الأربع عند مدلول كلماتها وما يتصل به.

٢. ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَّ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، تومئ هذه الآية إلى أن الحواريين ما كانوا مؤمنين بعيسى عندما طلبوا منه هذه المائدة، لأنهم في غنى عنها مع التصديق والتسليم، والذي يؤكد ذلك قولهم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ فإنه يشعر بالتشكيك في قدرة الله.. مع أن الآية السابقة قد شهدت لهم بالإيمان ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا﴾.. هذا، إلى أن لفظ الحواريين يدل بنفسه على إيمانهم بعيسى وإخلاصهم له، فما هو وجه الجمع بين الآيتين؟

٣. وأجاب كثير من المفسرين بأن سؤالهم هذا لا يتنافى مع إيمانهم، لأن القصد منه الايمان عن

(١) التفسير الكاشف: ٣/١٤٧.

طريق الحس والعيان بعد الإيمان عن طريق العقل والبرهان، وبكلمة القصد تقوية الايمان وتثبيته، تماما كما قال إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.. وقد أفصح الحواريون عن هذا القصد بدلالة قوله في الآية الثانية: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ جوابا على قول عيسى لهم: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، أما قولهم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ فمعناه هل يستجيب ربك أن سألته أن ينزل علينا مائدة السماء.

٤ . ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾، يريدون أن يأكلوا ليؤمنوا ويعلموا، أو يريدون أن يأكلوا ليقوى ويرسخ الايمان في قلوبهم، والعلم في عقولهم، كما قدمنا، ثم يخبروا من لم يحضر المائدة من قومهم، فيؤمن الجاحد، ويطمئن المؤمن ـ وإن لم يأكل.

٥ . كان لمحمد ﷺ حواريون، كما كان لعيسى عليه السلام، ولأي نبي من الأنبياء، ولكن صحابة محمد ﷺ ما سألوه أن يطعمهم من جوع بآياته ومعجزاته كما فعل أصحاب عيسى الذين قالوا له: نريد أن نأكل منها، ولا أن يؤمنهم من خوف كما فعل أصحاب موسى، بل قالوا له في بعض معاركه بلسان المقداد بن الأسود: (امض يا رسول الله لما أرادك الله، فنحن معك، ولا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا أنا هاهنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا انّا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه، حتى تبلغه)، وكانوا يتساقطون شهداء بين يديه، وهم يقولون: فزنا ورب الكعبة، وروى عنهم التاريخ في ذلك ما يشبه الأساطير، قاتل عمارة بن يزيد يوم أحد، حتى أثخنته الجراح، ولما أيقن بالموت رمى برأسه على قدمي رسول الله، ولم يرفعه، حتى فارق الحياة سعيدا بهذه الخاتمة، وسقط سعد بن الربيع شهيدا في أحد، فقال لأحد أصحابه: قل لرسول الله يقول لك سعد بن الربيع: جزاك عنا خير ما جزى نبيا عن أمته، وابلغ قومك عني السلام، وقل لهم: أن ابن الربيع يقول لكم: انه لا عذر لكم عند الله أن خلص إلى نبيكم، ومنكم عين تطرف، وكان عمرو بن الجموح أعرج، وأراد الخروج مع النبي إلى حرب أحد، فحاول أولاده أن يمنعوه من الخروج، فاشتكى لرسول الله، وقال: اني أرجو أن أعرج الليلة إلى الجنة، فأذن رسول الله له، وقتل هو وأولاده الأربعة، وشقيق زوجته، فجاءت أرملته بعد المعركة، وحملت زوجها وأخاها وأولادها الأربعة على جمل، وذهبت بهم إلى المدينة، فقابلتها النساء يسألنها عن الأخبار، قالت: أما رسول الله فبخير، وكل مصيبة بعده تهون، فسألنها: وما هذه الجثث؟ قالت: هؤلاء أولادي وزوجي وأخي أكرمهم الله بالشهادة، وأحملهم

لأدفنهم.

٦. هذه أمثلة نقدمها للدلالة على مدى الفرق بين حواريي محمد، وحواريي غيره من الأنبياء، ولا نبالغ إذا ما قلنا: أن ما من نبي على الإطلاق ظفر بما ظفر محمد رسول الله ﷺ من أصحاب صدقوا ما عاهدوه عليه، أما السر فيكمن في شخصيته، وعظمة رسالته.

٧. ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ لما رأى عيسى منهم الإصرار، وعلم انهم لا يقصدون العنت والتعجيز دعا الله سبحانه بدعاء العبد الخاضع المتضرع لسيده، مناديا: يا ربنا.. ومنك.. وانت.. الخ دفعا لكل شبهة وتكذيبا لكل زاعم أن لعيسى فيها يدا، وانها من صنعه، لا من صنع الواحد الأحد.. والمراد بالآية المعجزة، وبالعيد الفرحة والسرور.

٨. ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ استجاب سبحانه لتضرع عيسى ليزداد أصحابه ثقة به، وإيمانا بنبوته، وتلزمهم الحجة إذا خالفوا، ويستحقوا أشد العقاب الذي لا يعاقب الله به أحدا ممن جحد وكفر، لأنهم هم الذين اقترحوا المائدة، وطلبوها بالذات، ومن استجيب إلى طلبه تقوم عليه الحجة وتنقطع منه كل معذرة إذا خالف ونكص.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ الآية، الآية منطبقة على آيات سورة آل عمران بقوله: (فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)[آل عمران: ٥٢]، ومن هنا يظهر أن هذا الإيمان الذي ذكره في الآية بقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا﴾، الآية غير إيمانهم الأول به عليه السلام فإن ظاهر قوله في آية آل عمران: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ أنه كان في أواخر أيام دعوته وقد كان الحواريون وهم السابقون الأولون في الإيمان به ملازمين له.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٦/٢٢٢.

٢. على أن ظاهر قوله في آية آل عمران: ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أن الدعوة إنما سيقت لأخذ الميثاق على نصرة دين الله لا أصل الإيمان بالله، ولذلك ختم الآية بقولهم: ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ وهو التسليم لأمر الله بإقامة دعوته وتحمل الأذى في جنبه، وكل ذلك بعد أصل الإيمان بالله طبعا، فتبين أن المراد بقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ قصة أخذ الميثاق من الحواريين، وفي الآية أبحاث أخر مرت في تفسير سورة آل عمران.

٣. الآيات تذكر قصة نزول المائدة على المسيح عليه السلام وأصحابه، وهي وإن لم تصرح بأن الله أنزلها عليهم غير أن الآية الأخيرة تتضمن الوعد المنجز منه بإنزالها من غير تقييد وقد وصف تعالى نفسه بأنه لا يخلف الميعاد، وقول بعضهم: (إنهم استقالوا عيسى عليه السلام بعد ما سمعوا الوعيد الشديد من الله تعالى لمن يكفر منهم بعد نزول المائدة) قول من غير دليل من كتاب أو حديث يعتمد عليه، وقد نقل ذلك عن جمع من المفسرين، وممن يذكر منهم: المجاهد والحسن، ولا حجة في قولهما ولا قول غيرهما ولو عد قولهما رواية كانت من الموقوفات التي لا حجية لها لضعفها على أنها معارضة بغيرها من الروايات الدالة على نزولها، على أنها لو صحت لم تكن إلا من الآحاد التي لا يعتمد عليها في غير الأحكام.

٤. وربما يستدل على عدم نزولها بأن النصارى لا يعرفونها وكتبهم المقدسة خالية عن حديثها، ولو كانت نازلة لتوفرت الدواعي على ذكره في كتبهم وحفظه فيما بينهم بسيرة مستمرة كما تحفظوا على العشاء الرباني لكن الخبير بتاريخ شيوع النصرانية وظهور الأناجيل لا يعبأ بأمثال هذه الأقاويل فلا كتبهم مكتوبة محفوظة على التواتر إلى زمن عيسى عليه السلام، ولا هذه النصرانية الحاضرة تتصل بزمنه حتى ينتفع بها فيها يعتورونه يدا بيد، أو فيما لا يعرفونه مما ينسب إلى الدعوة العيسوية أو يتعلق بها.

٥. نعم وقع في بعض الأناجيل إطعام المسيح تلاميذه وجماعة من الناس بالخبز والسمك القليلين على طريق الإعجاز، غير أن القصة لا تنطبق على ما قصة القرآن في شيء من خصوصياته، ورد في إنجيل يوحنا، الإصحاح السادس ما هذا نصه: (بعد هذا مضى يسوع إلى عبر بحر الجليل وهو بحر طبرية وتبعه جمع كثير لأنهم أبصروا آياته التي كان يصنعها في المرضى فصعد يسوع إلى جبل وجلس هناك مع تلاميذه وكان الفصح عند اليهود قريبا فرفع يسوع عينيه ـ ونظر أن جمعا كثيرا مقبل إليه ـ فقال لفيلبس من أين نبتاع خبزا ليأكل هؤلاء وإنما قال هذا ليمتحنه لأنه هو علم ما هو مزمع أن يفعل أجابه فيلبس لا يكفيهم خبز

بمأتي دينار ـ ليأخذ كل واحد منهم شيئا يسيرا قال له واحد من تلاميذه وهو أندراوس أخو سمعان بطرس هنا غلام معه خمسة أرغفة شعير وسمكتان ـ ولكن ما هذا لمثل هؤلاء ـ فقال يسوع اجعلوا الناس يتكئون ـ وكان في المكان عشب كثير فاتكأ الرجال ـ وعددهم نحو خمسة آلاف وأخذ يسوع الأرغفة وشكر ـ ووزع على التلاميذ والتلاميذ أعطوا المتكئين ـ وكذلك من السمكتين بقدر ما شاءوا فلما شبعوا قال لتلاميذه ـ أجمعوا الكسر الفاضلة لكي لا يضيع شيء فجمعوا وملئوا اثنتي عشرة قفة من الكسر ـ من خمسة أرغفة الشعير التي فضلت عن الآكلين فلما رأى الناس الآية التي صنعها يسوع ـ قالوا إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم وأما يسوع فإذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ـ ليجعلوه ملكا انصرف أيضا إلى الجبل وحده)

٦. ثم إن التدبر في هذه القصة بما لها من سياق مسرود في كلامه تعالى يهدي إلى جهة أخرى من البحث فإن السؤال المذكور في أولها بظاهره خال عن رعاية الأدب والواجب حفظه في جنب الله سبحانه، وقد انتهى الكلام إلى وعيد منه تعالى لمن يكفر بهذه الآية وعيدا لا يوجد له نظير في شيء من الآيات التي اختص الله سبحانه بها أنبياءه أو اقترحها أممهم عليهم كاقتراح أمم نوح وهود وصالح وشعيب وموسى ومحمد ﷺ، فهل كان ذلك لكون الحواريين وهم السائلون أساءوا الأدب في سؤالهم؟ لأن لفظهم لفظ من يشك في قدرة الله سبحانه؛ ففي اقتراحات الأمم السابقة عليهم من الإهانة بمقام ربهم والسخرية والهزء بأنبيائهم وكذا ما توجد حكايته في القرآن من طواغيت قوم النبي ﷺ واليهود المعاصرين له ما هو أوقح من ذلك وأشنع!.. أو أنهم لكونهم مؤمنين قبل السؤال والنزول لو كفروا بعد النزول ومشاهدة الآية الباهرة استحقوا هذا الوعيد على هذه الشدة؟ فالكفر بعد مشاهدة الآية الباهرة وإن كان عتوا وطغيانا كبيرا لكنه لا يختص بهم، ففي سائر الأمم أمثال لهم في ذلك ولم يوعدوا بمثل هذا الوعيد قط حتى الذين ارتدوا منهم بعد التمكن في مقام القرب والتحقق بآيات الله سبحانه كالذي يذكره الله سبحانه في قوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥]

٧. والذي يمكن أن يقال في المقام أن هذه القصة بما صدر به من السؤال يمتاز بمعنى يختص به من بين سائر معجزات الأنبياء التي أتوا بها لاقتراح من أممهم أو لضرورات أخر تدعو إلى ذلك:

أ. وذلك أن الآيات المعجزة التي يقصها الكلام الإلهي إما آيات آتاها الله الأنبياء حين بعثهم لتكون

حجة مؤيدة لنبوتهم أو رسالتهم كما أوتي موسى عليه السلام اليد البيضاء والعصا، وأوتي عيسى عليه السلام إحياء الموتى وخلق الطير وإبراء الأكمه والأبرص، وأوتي محمد ﷺ القرآن، وهذه آيات أوتيت لحاجة الدعوة إلى الإيمان وإتمام الحجة على الكفار ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة.

ب. وإما آيات معجزة أتى بها الأنبياء والرسل لاقتراح الكفار عليهم كناقة صالح، ويلحق بها المخوفات والمعذبات المستعملة في الدعوة كآيات موسى عليه السلام على قوم فرعون من الجراد والقمل والضفادع وغير ذلك في سبع آيات، وطوفان نوح، ورجفة ثمود وصرصر عاد وغير ذلك، وهذه أيضا آيات متعلقة بالمعاندين الجاحدين.

ج. وإما آيات أراها الله المؤمنين لحاجة مستها، وضرورة دعت إليها، كانفجار العيون من الحجر ونزول المن والسلوى على بني إسرائيل في التيه، ورفع الطور فوق رؤوسهم وشق البحر لنجاتهم من فرعون وعمله، فهذه آيات واقعة لإرهاب العاصين المستكبرين أو كرامة للمؤمنين لتتم كلمة الرحمة في حقهم من غير أن يكونوا قد اقترحوها، ومن هذا الباب المواعيد التي وعدها الله في كتابه المؤمنين كرامة لرسوله ﷺ كوعد فتح مكة ومقت المشركين من كفار قريش وغلبة الروم إلى غير ذلك.

د. فهذه أنواع الآيات المقتصة في القرآن والمذكورة في التعليم الإلهي، وأما اقتراح الآية بعد نزول الآية فهو من التهوس يعده التعليم الإلهي من الهجر الذي لا يعبأ به كاقتراح أهل الكتاب أن ينزل النبي ﷺ عليهم كتابا من السماء مع وجود القرآن بين أيديهم، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أهل الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾ ـ إلى أن قال ـ ﴿لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أنزل إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، وكما سأل المشركون النبي ﷺ إنزال الملائكة أو إراءة ربهم تعالى وتقدس قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أنزل عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أو نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أنزل إليه مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أو يُلْقَى إليه كَنْزٌ أو تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إلا رَجُلًا مَسْحُورًا انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٩] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، وليس ذلك كله إلا لأن عنوان نزول الآية هو ظهور الحق وتمام الحجة فإذا نزلت فقد ظهر الحق وتمت الحجة فلو أعيد سؤال نزول الآية

وقد نزلت وحصل الغرض فلا عنوان له إلا العبث بآيات الله واللعب بالمقام الربوبي والتذبذب في القبول، وفيه أعظم العتو والاستكبار، وهذا لو صدر عن المؤمنين لكان الذنب فيه أكثف والإثم فيه أعظم فماذا يصنع المؤمن بنزول الآية السماوية وهو مؤمن وخاصة إذا كان ممن شاهد آيات الله فآمن عن مشاهدتها؟ وهل هو إلا أشبه شيء بما يقترحه أرباب الهوى والمترفون في مجالس الأنس وحفل التفكه من المشعوذين أو أصحاب الرياضات العجيبة أن يطيبوا عيشهم بإتحافهم بأعجب ما يقدرون عليه من الشعبذة والأعمال الغريبة؟

٨. والذي يفيده ظاهر قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً﴾ أنهم اقترحوا على المسيح عليه السلام أن يريهم آية خاصة وهم حواريوه المختصون به وقد رأوا تلك الآيات الباهرة والكرامات الظاهرة فإنه عليه السلام لم يرسل إلى قومه إلا بالآيات المعجزة كما يعطيه قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ﴾ الخ[آل عمران: ٤٩]، وكيف يتصور في من آمن بالمسيح عليه السلام أن لا يعثر منه على آية وهو عليه السلام بنفس وجوده آية خلقه الله من غير أب وأيده بروح القدس يكلم الناس في المهد وكهلا ولم يزل مكرما بآية بعد آية حتى رفعه الله إليه وختم أمره بأعجب آية، فاقتراحهم آية اختاروها لأنفسهم بعد هاتيك الآيات على كثرتها من قبيل اقتراح الآية بعد الآية وقد ركبوا أمرا عظيما ولذلك وبخهم عيسى عليه السلام بقوله: ﴿اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

٩. ولذلك بعينه وجهوا ما اقترحوا عليه وفسروا قولهم ثانيا بما يكسر سورة ما أوهمه إطلاق كلامهم، ويزيل عنه تلك الحدة فقالوا: ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ فضموا إلى غرض الأكل أغراضا أخر يوجه اقتراحهم، يريدون به أن اقتراحهم هذا ليس من قبيل التفكه بالأمور العجيبة والعبث بآيات الإلهية بل له فوائد مقصودة: من كمال علمهم وإزالة خطرات السوء من قلوبهم وشهادتهم عليها، لكنهم مع ذلك لم يتركوا ذكر إرادة الأكل ومنه كانت الخطيئة ولو قالوا: (نريد أن نأكل منها فتطمئن قلوبنا) إلخ، لم يلزمهم ما لزمهم إذ قالوا: ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾، إلخ فإن الكلام الأول يقطع جميع منابت التهوس والمجازفة دون الثاني.

١٠. ولما ألحوا عليه أجابهم عيسى عليه السلام إلى ما اقترحوا عليه والتمسوه وسأل ربه أن

يكرمهم بها، وهي معجزة مختصة في نوعها بأمته لأنها الآية الوحيدة التي نزلت إليهم عن اقتراح في أمر غير لازم ظاهرا وهو أكل المؤمنين منها، ولذلك عنونها عليه السلام عنوانا يصلح به أن يوجه الوجه بسؤاله إلى ساحة العظمة والكبرياء فقال: ﴿اللهُمَّ رَبَّنَا أنزل عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ فعنونها بعنوان العيدية، والعيد عند قوم هو اليوم الذي نالوا فيه موهبة أو مفخرة مختصة بهم من بين الناس، وكان نزول المائدة عليهم منعوتا بهذا النعت.

١١. ولما سأل عيسى ربه ما سأل ـ وحاشاه أن يسأل إلا ما يعلم أن من المرجو استجابته وأن ربه لا يمقته ولا يفضحه، وحاشا ربه أن يرده خائبا في دعائه ـ استجاب له ربه دعاءه غير أنه شرط فيها لمن يكفر بها عذابا يختص به من بين جميع الناس كما أن الآية آية خاصة بهم لا يشاركهم في نوعها غيرهم من الأمم فقال الله سبحانه ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾

١٢. ﴿إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ) (إِذْ﴾ ظرف متعلق بمقدر والتقدير اذكر إذ قال، أو ما يقرب منه، وذهب بعضهم إلى أنه متعلق بقوله في الآية السابقة: ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾، إلخ أي قال الحواريون: آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون في وقت قالوا فيه لعيسى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ والمراد أنهم ما كانوا على صدق في دعواهم، ولا على جد في إشهادهم عيسى عليه السلام على إسلامهم له، وفيه أنه مخالف لظاهر السياق، وكيف يكون إيمانهم غير خالص؟ وقد ذكر الله أنه هو أوحى إليهم أن آمنوا بي وبرسولي وهو تعالى يمتن بذلك على عيسى عليه السلام؛ على أنه لا وجه حينئذ للإظهار في قوله: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾، إلخ، و(المائدة) الخوان إذا كان فيه طعام، قال الراغب: (والمائدة الطبق الذي عليه الطعام، ويقال لكل واحدة منهما مائدة، ويقال: مادني يميدني أي أطعمني)

١٣. ومتن السؤال الذي حكي عنهم في الآية وهو قولهم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ بحسب ظاهر ما يتبادر من معناه مما يستبعد العقل صدوره عن الحواريين وهم أصحاب المسيح وتلامذته وأخصاؤه الملازمون له المقتبسون من أنوار علومه ومعارفه المتبعون آدابه وآثاره، والإيمان بأدنى مراتبه ينبه الإنسان على أن الله سبحانه على كل شيء قدير، لا يجوز عليه العجز ولا يغلبه العجز؛

فكيف جاز أن يستفهموا رسولهم عن استطاعة ربه على إنزال مائدة من السماء، ولذلك قرأ الكسائي من السبعة: (هل تستطيع ربك) بتاء المضارعة ونصب (ربك) على المفعولية أي هل تستطيع أنت أن تسأل ربك، فحذف الفعل الناصب للمفعول وأقيم (تستطيع) مقامه، أو أنه مفعول لفعل محذوف فقط.

١٤. وقد اختلف المفسرون في توجيهه على بناء من أكثريهم على أن المراد به غير ما يتبادر من ظاهره من الشك في قدرة الله سبحانه لنزاهة ساحتهم من هذا الجهل السخيف، وأوجه ما يمكن أن يقال هو أن الاستطاعة في الآية كناية عن اقتضاء المصلحة ووقوع الإذن كما أن الإمكان والقدرة والقوة يكنى بها عن ذلك كما يقال: (لا يقدر الملك أن يصغي إلى كل ذي حاجة) بمعنى أن مصلحة الملك تمنعه من ذلك وإلا فمطلق الإصغاء مقدور له، ويقال: (لا يستطيع الغني أن يعطي كل سائل) أي مصلحة حفظ المال لا تقتضيه، ويقال: (لا يمكن للعالم أن يبث كل ما يعلمه) أي يمنعه عن ذلك مصلحة الدين أو مصلحة الناس والنظام الدائر بينهم، ويقول أحدنا لصاحبه: (هل تستطيع أن تروح معي إلى فلان)؟ وإنما السؤال عن الاستطاعة بحسب الحكمة والمصلحة لا بحسب أصل القدرة على الذهاب، هذا، وهناك وجوه أخرى ذكروها:

أ. منها: أن هذا السؤال لأجل تحصيل الاطمئنان بإيمان العيان لا للشك في قدرة الله سبحانه فهو على حد قول إبراهيم عليه السلام فيما حكى الله عنه: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، وفيه: أن مجرد صحة أن تسأل الآية لزيادة الإيمان واطمئنان القلب لا يصحح حمل سؤالهم عليه ولم تثبت عصمتهم كإبراهيم عليه السلام حتى تكون دليلا منفصلا يوجب حمل كلامهم على ما لا حزازة فيه بل الدليل على خلافه حيث لم يقولوا: نريد أن نأكل منها فتطمئن قلوبنا كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ بل قالوا: ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ فعدوا الأكل بحيال نفسه غرضا، على أن هذا الوجه إنما يستدعي تنزه قلوبهم عن شائبة الشك في قدرة الله سبحانه وأما حزازة ظاهر الكلام فعلى حالها، على أنه قد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إبراهيم رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ الخ[البقرة: ٢٦٠] أن مراده عليه السلام لم يكن مشاهدة تلبس الموتى بالحياة بعد الموت كما عليه بناء هذا الوجه ولو كان كذلك لكان من قبيل طلب الآية بعد العيان وهو في مقام المشافهة مع ربه بل مراده مشاهدة كيفية الإحياء بالمعنى الذي تقدم بيانه.

ب. ومنها: أنه سؤال عن الفعل دون القدرة عليه فعبر عنه بلازمه، وفيه: أنه لا دليل عليه، ولو سلم فإنه إنما ينفي عنهم الجهل بالقدرة المطلقة الإلهية وأما منافاة إطلاق اللفظ للأدب العبودي فعلى حالها.

ج. ومنها: أن في الكلام حذفا تقديره: هل تستطيع سؤال ربك؟ ويدل عليه قراءة هل تستطيع ربك والمعنى: هل تستطيع أن تسأله من غير صارف يصرفك عن ذلك، وفيه أن الحذف والتقدير لا يعيد لفظة ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ إلى قولنا هل تستطيع سؤال ربك بأي وجه فرض لمكان اختلاف الفعل في القراءتين بالغيبة والحضور، والتقدير لا يحول الغيبة إلى الخطاب البتة، وإن كان ولا بد فليقل: أنه من قبيل إسناد الفعل المنسوب إلى عيسى عليه السلام إلى ربه من جهة أن فعله فعل الله أو أن كل ما له عليه السلام فهو لله سبحانه، وهذا الوجه مع كونه فاسدا من جهة أن الأنبياء والرسل إنما ينسب من أفعالهم إلى الله ما لا يستلزم نسبته إليه النقص والقصور في ساحته تعالى كالهداية والعلم ونحوهما، وأما لوازم عبوديتهم وبشريتهم كالعجز والفقر والأكل والشرب ونحو ذلك فمما لا تستقيم نسبته إليه تعالى البتة فمشكلة ظاهر اللفظ على حالها.

د. ومنها: أن الاستطاعة هنا بمعنى الإطاعة والمعنى: هل يطيعك ربك ويجيب دعاءك إذا سألته ذلك، وفيه: أنه من قبيل تبديل المشكل بما هو أشكل فإن الاستفهام عن إطاعة الله سبحانه لرسوله وانقياده له أشنع وأفظع من الاستفهام عن استطاعته، وقد انتصر بعضهم لهذا الوجه فقال في تقريره ما محصله: (أن الاستطاعة والإطاعة من مادة الطوع مقابل الكره فإطاعة الأمر فعله عن رضى واختيار، والاستفعال في هذه المادة كالاستفعال في مادة الإجابة فإذا كان معنى استجابة: أجاب دعاءه أو سؤاله فمعنى استطاعة: أطاعه أي أنه انقاد له وصار في طوعه أو طوعا له، والسين والتاء في المادتين على أشهر معانيهما وهو الطلب، ولكنه طلب دخل على فعل محذوف دل عليه المذكور المترتب على المحذوف، ومعنى استطاع الشيء طلب وحاول أن يكون ذلك الشيء طوعا له فأطاعه وانقاد له، ومعنى استجاب: سئل شيئا وطلب منه أن يجيب إليه فأجاب، قال فبهذا الشرح الدقيق تفهم صحة قول من قال من المفسرين: إن ﴿يَسْتَطِيعُ﴾ هنا بمعنى يطيع وإن معنى يطيع: يفعل مختارا راضيا غير كاره فصار حاصل معنى الجملة: هل يرضى ربك ويختار أن

ينزل علينا مائدة من السماء إذا نحن سألناه أو سألته لنا ذلك)، وفيه[1]:

• أولا: أنه لم يأت بشيء دون أن قاس استطاع باستجاب ثم أعطى هذا معنى ذاك وهو قياس في اللغة ممنوع.

• وثانيا: أن كون الاستطاعة والإطاعة راجعين بحسب المادة إلى الطوع مقابل الكره لا يستلزم وجوب جريان الاستعمال على رعاية معنى المادة الأصلية في جميع التطورات الطارئة عليها فكثير من المواد هجرت خصوصية معناها الأصلي في ما عرضها من الهيئات الاشتقاقية نظير ضرب وأضرب وقبل وأقبل وقبل وقابل واستقبل بحسب التبادر الاستعمالي، واعتبار المادة الأصلية في البحث عن الاشتقاقات اللغوية لا يراد به إلا الاستعلام مبلغ ما يعيش المادة الأصلية بين مشتقاتها بحسب عروض تطورات الاشتقاق عليها، أو انقضاء أمد حياتها بحسب المعنى وتبدله إلى معنى آخر لا أن يلغى حكم التطورات ويحفظ المعنى الأصلي ما جرى اللسان، فافهم ذلك، فالاعتبار في اللفظ بما يفيده بحسب الاستعمال الدائر الحي لا بما تفيده المادة اللغوية وقد استعمل لفظ الاستطاعة في كلامه تعالى في أزيد من أربعين موضعا، وهو في الجميع بمعنى القدرة، واستعمل لفظ الإطاعة فيما يقرب من سبعين موضعا وهو في الجميع بمعنى الانقياد، واستعمل لفظ الطوع فيما استعمل وهو مقابل الكره؛ فكيف يسوغ أن يؤخذ لفظ يستطيع بمعنى يطيع ثم يطيع بمعنى الطوع ثم يحكم بأن يستطيع في الآية بمعنى يرضى؟ وأما حديث أجاب واستجاب فقد استعملا معا في كلامه تعالى بمعنى واحد وورد استعمال الاستجابة في موارد هي أضعاف ما استعملت فيه الإجابة فإنك تجد الاستجابة فيما يقرب من ثلاثين موضعا، ولا تجد الإجابة في أكثر من عشرة مواضع فكيف يقاس عليها أطاع واستطاع؟ وكونهما بمعنى واحد ليس إلا لانطباق عنايتين مختلفتين على مورد واحد فمعنى أجاب أن الجواب تجاوز عن المسئول إلى السائل، ومعنى استجاب أن المسئول طلب من نفسه الجواب فأداه إلى السائل، ومن هنا يظهر أن الذي فسر به الاستجابة وهو قوله: (ومعنى استجاب سئل شيئا وطلب منه أن يجيب إليه فأجاب) ليس على ما ينبغي فإن باب الاستفعال هو طلب (فعل) لا طلب (افعل) وهو ظاهر.

---

(١) يقصد الانتقادات الموجهة له

• وثالثا: أن السياق لا يلائم هذا المعنى إذ لو كان معنى قولهم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ إنه هل يرضى ربك أن نسأله نحن أو تسأله أنت أن ينزل علينا مائدة من السماء، وكان غرضهم من هذا السؤال أو النزول أن يزدادوا إيمانا ويطمئنوا قلبا فما وجه توبيخ عيسى عليه السلام لهم بقوله: ﴿اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؟ وما وجه وعيده تعالى الكافرين بها بعذاب لا يعذبه أحدا من العالمين، وهم لم يقولوا إلا حقا ولم يسألوا إلا مسألة مشروعة، وقد قال تعالى: ﴿وَسْئَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾[النساء: ٣٢]

١٥. ﴿قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ توبيخ منه عليه السلام لهم لما يشتمل عليه ظاهر كلامهم من الاستفهام عن استطاعة ربه على إنزال المائدة فإن كلامهم مريب على أي حال، وأما على ما قدمناه من أن الأصل في مؤاخذتهم الذي يترتب عليه الوعيد الشديد في آخر الآيات هو أنهم سألوا آية حيث لا حاجة إليها واقترحوا بها في معنى العبث بآيات الله سبحانه، ثم تعبيرهم بها يتبادر من ظاهره كونهم كأنهم لم يعقدوا قلوبهم على القدرة الربوبية فوجه توبيخه عليه السلام لهم بقوله: ﴿اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أظهر.

١٦. ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ السياق ظاهر في أن قولهم هذا عذر اعتذروا به للتخلص من توبيخه عليه السلام وما ذكروه ظاهر التعلق باقتراحهم الآية بنزول المائدة دون ما يظهر من قولهم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ﴾، من المعنى الموهم للشك في إطلاق القدرة، وهذا أيضا أحد الشواهد على أن ملاك المؤاخذة في المقام هو أنهم سألوا آية على آية من غير حاجة إليها، وأما قولهم: ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾، إلخ فقد عدوا في بيان غرضهم من اقتراح الآية أمورا أربعة:

أ. أحدها: الأكل وكان مرادهم بذكره أنهم ما أرادوا به اللعب بآيات الله بل أرادوا أن يأكلوا منها، وهو غرض عقلائي، وقد تقدم أن هذا القول منهم كالتسليم لاستحقاقهم التوبيخ من عيسى عليه السلام والوعيد الشديد من الله لمن يكفر منهم بآية المائدة، وذكر بعضهم: أن المراد بذكر الأكل إبانة أنهم في حاجة شديدة إلى الطعام ولا يجدون ما يسد حاجتهم، وذكر آخرون أن المراد نريد أن نتبرك بأكله، وأنت تعلم أن المعنى الذي قرر في كل من هذين الوجهين أمر لا يدل عليه مجرد ذكر الأكل، ولو كان مرادهم ذلك وهو أمر يدفع به التوبيخ لكان مقتضى مقام الاعتذار التصريح بذكره، وحيث لم يذكر شيء من ذلك مع حاجة

المقام إلى ذكره لو كان مرادا فليس المراد بالأكل إلا مطلق معناه من حيث إنه غرض عقلائي هو أحد أجزاء غرضهم في اقتراح نزول المائدة.

ب. الثاني: اطمئنان القلب وهو سكونه باندفاع الخطورات المنافية للخلوص والحضور.

ج. الثالث: العلم بأنه عليه السلام قد صدقهم فيما بلغهم عن ربه، والمراد بالعلم حينئذ هو العلم اليقيني الذي يحصل في القلب بعد ارتفاع الخطورات والوساوس النفسانية عنه، أو العلم بأنه قد صدقهم فيما وعدهم من ثمرات الإيمان كاستجابة الدعاء كما ذكره بعضهم، لكن يبعده أن الحواريين ما كانوا يسألون إنزال المائدة من السماء إلا بدعاء عيسى عليه السلام ومسألته، وبالجملة بإعجاز منه عليه السلام وقد كانوا رأوا منه عليه السلام آيات كثيرة فإنه عليه السلام لم يزل في حياته قرينا لآيات إلهية كبري، ولم يرسل إلى قومه ولم يدعهم دعوة إلا مع آيات ربه فلم يزالوا يرون ثمرات إيمانه من استجابة الدعاء إن كان المراد الثمرة التي هي استجابة دعائه عليه السلام، وإن كان المراد الثمرة التي هي استجابة دعائهم أنفسهم فإنهم لم يسألوا نزول الآية بدعاء أنفسهم، ولم تنزل إلا بدعاء عيسى عليه السلام.

د. الرابع: أن يكونوا عليها من الشاهدين عندما يحتاج إلى الشهادة كالشهادة عند المنكرين، والشهادة عند الله يوم القيامة، فالمراد بها مطلق الشهادة، ويمكن أن يكون المراد مجرد الشهادة عند الله سبحانه كما وقع في بعض قولهم الذي حكاه الله تعالى إذ قال: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، فقد تحصل أنهم ـ فيما اعتذروا به ـ ضموا أمورا جميلة مرضية إلى غرضهم الآخر الذي هو الأكل من المائدة السماوية ليحسموا به مادة الحزازة عن اقتراحهم الآية بعد مشاهدة الآيات الكافية فأجابهم عيسى عليه السلام إلى مسألتهم بعد الإصرار.

١٧. ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللهُمَّ رَبَّنَا أنزل عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾:

أ. خلط عليه السلام نفسه بهم في سؤال المائدة، وبدأ بنداء ربه بلفظ عام فقال: ﴿اللهُمَّ رَبَّنَا﴾ وقد كانوا قالوا له: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ ليوافق النداء الدعاء.

ب. وقد توحد هذا الدعاء من بين جميع الأدعية والمسائل المحكية في القرآن عن الأنبياء عليه السلام بأن صدر (باللهم ربنا) وغيره من أدعيتهم مصدر بلفظ (رب) أو (ربنا) وليس إلا لدقة المورد

وهول المطلع، نعم يوجد في أقسام الثناء المحكية نظير هذا التصدير كقوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ للهِّ﴾ [النمل: ٥٩] وقوله: ﴿قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦] وقوله: ﴿قُلِ اللهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٤٦]

ج. ثم ذكر عليه السلام عنوانا لهذه المائدة النازلة هو الغرض له ولأصحابه من سؤال نزولها وهو أن تنزل فتكون عيدا له ولجميع أمته، ولم يكن الحواريون ذكروا فيما اقترحوه أنهم يريدون عيدا يخصون به لكنه عليه السلام عنون ما سأله بعنوان عام وقلبه في قالب حسن ليخرج عن كونه سؤالا للآية مع وجود آيات كبري إلهية بين أيديهم وتحت مشاهدتهم، ويكون سؤالا مرضيا عند الله غير مصادم لمقام العزة والكبرياء فإن العيد من شأنه أن يجمع الكلمة، ويجدد حياة الملة، وينشط نفوس العائدين، ويعلن كلما عاد عظمة الدين، ولذلك قال: ﴿عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ أي أول جماعتنا من الأمة وآخر من يلحق بهم ـ على ما يدل عليه السياق ـ فإن العيد من العود ولا يكون عيدا إلا إذا عاد حينا بعد حين، وفي الخلف بعد السلف من غير تحديد، وهذا العيد مما اختص به قوم عيسى عليه السلام كما اختصوا بنوع هذه الآية النازلة على ما تقدم بيانه.

د. وقوله: ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ لما قدم مسألة العيد وهي مسألة حسنة جميلة لا عتاب عليها عقبها بكونها آية منه تعالى كأنه من الفائدة الزائدة المترتبة على الغرض الأصلي غير مقصودة وحدها حتى يتعلق بها عتاب أو سخط، وإلا فلو كانت مقصودة وحدها من حيث كونها آية لم تخل مسألتها من نتيجة غير مطلوبة فإن جميع المزايا الحسنة التي كان يمكن أن يراد بها كانت ممكنة الحصول بالآيات المشهودة كل يوم منه عليه السلام للحواريين وغيرهم.

هـ. وقوله: ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وهذه فائدة أخرى عدها مترتبة على ما سأله من العيد من غير أن تكون مقصودة بالذات، وقد كان الحواريون ذكروه مطلوبا بالذات حيث قالوا: ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ فذكروه مطلوبا لذاته وقدموه على غيره، لكنه عليه السلام عده غير مطلوب بالذات وأخره عن الجميع وأبدل لفظ الأكل من لفظ الرزق فأردفه بقوله: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾، والدليل على ما ذكرنا أنه عليه السلام جعل ما أخذوه أصلا فائدة مترتبة أنه سأل أولا لجميع أمته ونفسه، وهو سؤال العيد الذي إضافة إلى سؤالهم فصار بذلك كونها آية من الله ورزقا وصفين خاصين للبعض دون البعض كالفائدة

المترتبة غير الشاملة.

١٨. فانظر إلى أدبه عليه السلام البارع الجميل مع ربه، وقس كلامه إلى كلامهم - وكلا الكلامين يؤمان نزول المائدة - تر عجبا فقد أخذ عليه السلام لفظ سؤالهم فأضاف وحذف، وقدم وأخر، وبدل وحفظ حتى عاد الكلام الذي ما كان ينبغي أن يوجه به إلى حضرة العزة وساحة العظمة أجمل كلام يشتمل على أدب العبودية، فتدبر في قيود كلامه عليه السلام تر عجبا.

١٩. ﴿قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قرأ أهل المدينة والشام وعاصم ﴿مُنَزِّلُهَا﴾ بالتشديد والباقون ﴿مُنَزِّلُهَا﴾ بالتخفيف - على ما في المجمع -، والتخفيف أوفق لأن الإنزال هو الدال على النزول الدفعي، وكذلك نزلت المائدة، وأما التنزيل فاستعماله الشائع إنما هو في النزول التدريجي كما تقدم كرارا.

٢٠. ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وعد صريح بالإنزال وخاصة بالنظر إلى الإتيان به في هيئة اسم الفاعل دون الفعل، ولازم ذلك أن المائدة قد نزلت عليهم، وذكر بعض المفسرين أنها لم تنزل كما روي ذلك في الدر المنثور، ومجمع البيان وغيرهما عن الحسن ومجاهد: قالا: إنها لم تنزل وإن القوم لما سمعوا الشرط استعفوا عن نزولها وقالوا: لا نريدها ولا حاجة لنا فيها فلم تنزل، والحق أن الآية ظاهرة الدلالة على النزول فإنها تتضمن الوعد الصريح بالنزول وحاشاه تعالى أن يجود لهم بالوعد الصريح وهو يعلم أنهم سيستعفون عنها فلا تنزل، والوعد الذي في الآية صريح والشرط الذي في الآية يتضمن تفرع العذاب وترتبه على الكفر بعد النزول، وبعبارة أخرى: الآية تتضمن الوعد المطلق بالإنزال ثم تفريع العذاب على الكفر لا أنها تشتمل على الوعد بالإنزال على تقدير قبولهم العذاب على الكفر، حتى يرتفع موضوع الوعد عند عدم قبولهم الشرط فلا تنزل المائدة باستعفائهم عن نزولها، فافهم.

٢١. وكيف كان فاشتمال وعده تعالى بإنزال المائدة على الوعيد الشديد بعذاب الكافرين بها منهم ليس ردا لدعاء عيسى عليه السلام وإنما هو استجابة له غير أنه لما كان ظاهر الاستجابة بعد الدعاء - على ما له من السياق - أن هذه الآية تكون رحمة مطلقة منه لهم يتنعم بها آخرهم وأولهم، قيد تعالى هذا الإطلاق بالشرط الذي شرط عليهم، ومحصله أن هذا العيد الذي خصهم الله به لا ينتفع به جميعهم بل إنما ينتفع به المؤمنون المستمرون على الإيمان منهم، وأما الكافرون بها فيستضرون بها أشد الضرر.

٢٢. فالآيتان في كلامه تعالى من حيث إطلاق الدعاء بحسب لازمه وتقييد الاستجابة كقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إبراهيم رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] وقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]

٢٣. وقد عرفت فيما تقدم أن السبب الأصلي في هذا العذاب الموعود الذي يختص بهم إنما هو اقتراحهم آية هي في نوعها مختصة بهم لا يشاركهم فيها غيرهم من الأمم فإذا أجيبوا إلى ذلك أوعدوا على الكفر عذابا لا يشاركهم فيها غيرهم كما شرفوا بمثل ذلك.

٢٤. ومن هنا يظهر أن المراد بالعالمين عالمو جميع الأمم عالمو زمانهم فإن ذلك مرتبطا بمن يمتازون عنهم من الناس وهم جميع الأمم لا أهل زمان عيسى عليه السلام خاصة من أمم الأرض.

٢٥. ومن هناك يظهر أيضا أن قوله: ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ وإن كان وعيدا شديدا بعذاب بئيس لكن الكلام غير ناظر إلى كون العذاب فوق جميع العذابات والعقوبات في الشدة والألم، وإنما هو مسوق لبيان انفراد العذاب في بابه، واختصاصهم من بين الأمم به.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ (الحواريون) الخلص من بني إسرائيل الذين دعاهم عيسى عليه السلام الذين هم الصفوة منهم، وهذا الوحي الراجح: أنه هدايتهم، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل:٦٨] فالمعنى: هدايتهم للإيمان بي وبرسولي، ليكونوا أنصاراً لك ومصدقين لك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾ [آل عمران:٥٢]، وقوله تعالى: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ

(١) التيسير في التفسير: ٢/٤٠١.

مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ﴾ الآية [الصف:١٤]، فهم معروفون بنصره عليه السلام، وهدايتهم للإيمان بالله وبرسوله عيسى عليه السلام من النعم عليه؛ لتأييده بهم ﴿قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ لله لا نجعل له شريكاً، وهذا من الرد على النصارى.

٢. ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ﴾ هل يقدر على هذا الأمر الخارق للعادة!؟ وقولهم: ﴿رَبُّكَ﴾ يشير إلى أنهم يريدون أن يدعوَ لهم أو يسأل الله عن ذلك فيجيب من أجل عيسى عليه السلام، وقولهم: ﴿عَلَيْنَا﴾ لأنهم يريدون المائدة لأنفسهم.

٣. ﴿قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فلا تشكوا في قدرته على كل شيء لأن المؤمن لا يرتاب في أن الله على كل شيء قدير، أو لا تسألوا هذا السؤال الموهم للشك في الله لما فيه من قلة الأدب، أو لا تطلبوا الأمر الخارق وقد رأيتم من الآيات ما كفاكم للإيمان بالله وبرسوله، واشتغلوا بتقوى الله عن طلبه، أو أراد الكل من هذه المعاني، فأجابوه عن المعنى الأخير.

٤. ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ لنسد جوعنا ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ بوقوع الآية التي طلبنا، فنزداد إيماناً، وتسكن قلوبنا عن الخواطر التي تدعو إلى الشك ونحتاج إلى مدافعتها بالتذكر لما مضى من الآيات ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ في كل ما أخبرتنا به عن الله، وعن قدرته، وعن رسالتك، وعن اليوم الآخر ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لنشهد لمن لم يعاينها أنها وقعت هذه الآية العظيمة وعايناها، أي لنتحمل الشهادة بها.

٥. ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ﴿اللهُمَّ﴾ أي يا الله ربنا كلنا، يقابل قولهم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ ﴿أَنْزَلَ﴾ علينا طلَبَها له ولهم، لعله أراد بذلك أن يعرفوا جده في الدعاء، قال الشرفي في (المصابيح): (قال المرتضى عليه السلام: وإنما سألوا أن تكون المائدة لهم عيداً، وكان ذلك يوم عيد من أعيادهم، فقالوا: ﴿لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ وأرادوا جميعهم، وهذا موجود في لغة العرب، تقول: بلغت الرسالة أولهم وآخرهم، وهذا الكلام حسن جميل جائز، وقلت: هل أنزلها عليهم أم لا!؟ قال عليه السلام: بل قد أنزلها، ألا تسمع كيف يقول ـ وقوله الحق ـ: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وقد قيل: إنها لم تنزل عليهم، وليس ذلك عندي كذلك؛

لأن الله سبحانه يقول: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، وقوله الحق، ووعده الصدق، تعالى علواً كبيراً)

٦. ويؤكد أن المراد بقوله تعالى: ﴿لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ لجميعنا قوله: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ ولو كان المراد أن تتكرر للموجودين ومن سيوجد لقال: تكون لنا أعياداً، وقوله: ﴿وَارْزُقْنَا﴾ يدل به على أن سؤال المائدة ليس لمجرد العيد، بل لأنه طلب رزق ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ثناء على الله بما هو أهله مناسب لطلب الرزق.

٧. ﴿قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ﴾ يجحد بعد هذه الآية العظيمة التي طلبوها وجاءت لطلبهم، أو يكفر النعمة بعد هذه النعمة العظيمة التي يزدادون بها إيماناً مع ما فيها من التكريم لهم، قال الراغب: (والمائدة: الطبق الذي عليه الطعام، ويقال: لكل واحدة منهما: مائدة)، وقال في (الصحاح): (وهي خوان عليه طعام، فإذا لم يكن عليه طعام فليس بمائدة، وإنما هو خِوَان)، والأولى: أنه في الآية الطعام على الخوان؛ لقوله: ﴿نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ وكما أفاده الراغب.

٨. وقوله تعالى: ﴿لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ لعل المراد: أنه عذاب خاص، يكون خزياً عليهم من حيث أنه خصهم، وما يروى أنهم طلبوا عيسى أن يريهم من هذه الآية آية أخرى ثم كفروا بعد ذلك فمسخوا قردة وخنازير لا ينبغي اعتماد الرواية إذا لم تأتِ من مصدر صحيح؛ لأن القرآن أثنى على الحواريين، ولم يذكر عنهم سوى هذا السؤال الذي يعاب عليهم، ولا أستبعد أن الرواية من كذب اليهود، اختلقوها على الحواريين عداوةً لهم.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾، ومن المعلوم أنّ هذا الوحي لم ينزل عليهم كما ينزل على الأنبياء، بل هو من قبيل الإيحاء بالوسائل الطبيعيّة الّتي يمهد بها الله للإنسان سبيل الإيمان من العقل والكتاب والإرادة، أو من قبيل الإلهام، ولعله هو الأقرب هنا لمناسبته أكثر مع معنى الوحي

(١) من وحي القرآن: ٣٩٢/٨.

الّذي هو لغة نوع من الإلقاء الخفي، فكان أن استجاب الحواريون لنداء الله، ﴿قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ فأعلنوا إيمانهم وطلبوا من الله أن يشهد عليهم بالإسلام فيما يريدهم أن يعتقدوه، وفي ما يكلفهم أن يفعلوه.

٢. سؤال وإشكال: ما معنى إيحاء الله للحواريين، هل هو على طريقة الإيحاء للأنبياء ـ بواسطة جبرائيل ـ أو أنّ للوحي هنا معنى آخر؟ والجواب: الظاهر ـ والله العالم ـ أنّ الإيحاء بمعنى الإلهام الخفي الّذي ينطلق من حركة الفطرة في النفس الّتي تنطلق في حساباتهم الإيمانيّة من الدلائل والمعطيات المتوفرة لها في دلالة الجانب الحسي على الجانب المعنوي مع بعض الألطاف الإلهيّة الروحيّة الّتي يقوي الله بها العناصر الداخليّة للإيمان للإنسان، وربّما كان الإيحاء من خلال رسالة السيّد المسيح عليه السّلام ودلائله.

٣. آمن الحواريون بعيسى عليه السّلام، لكنّهم أرادوا آية يستريحون إليها، ويحققون فيها بعض أمنياتهم الذاتيّة، ويحصلون من خلالها على حالة الاطمئنان القلبي الّتي تتطلب معرفة القضايا بالحس، بعد معرفتها بالعقل، لأنّ المعرفة العقليّة قد تقنع الفكر ببراهينها وحججها، ولكنّ الحس يبقى عرضة للأوهام والهواجس الّتي تمر به كمثل الأشباح، وتمنحهم حجّة ذاتية أمام خصوم الرسالة، بالمستوى الّذي يجعلهم شهودا على القضيّة بالطريقة الحسيّة المباشرة، كانوا يريدون أن يشعروا بالخصوصية الحميمة في علاقتهم بعيسى عليه السّلام، وكانوا يتساءلون، فيما بينهم وبين أنفسهم، عن منزلتهم عند الله سبحانه وتعالى، بحيث تأتي استجابته تعالى كاشفة عن هذه المنزلة، وبالتالي كمحفز ومنشّط لإيمانهم وفاعليته في الحياة، وهكذا كان، رفعوا طلبهم إلى عيسى عليه السّلام بأن يسأل الله أن ينزل عليهم مائدة من السماء، لكنهم صاغوا السؤال بطريقة ملفتة للنظر، فقالوا له: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾

٤. سؤال وإشكال: هنا يتساءل الإنسان: هل كانوا في شك من قدرة الله، فيما يوحي به السؤال، أو أنّ هناك معنى آخر؟ والجواب:

أ. ربّما اختار البعض الشق الأول من السؤال، على أساس رد الفعل من عيسى عليه السّلام، فيما نقله الله عنه من قوله: ﴿قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، فإنّ مواجهتهم بالأمر بالتقوى، وإثارة موضوع الإيمان أمامهم، يدل على أنّ هذا الطلب يتنافى مع خط الإيمان والتقوى.

ب. ولكنّ بعضا من المفسرين رد على هذا الزعم، بأنّه ليس من الضروري أن يكون ذلك موجها إليهم باعتبار الشك في قدرة الله، بل من جهة أنّ هذا الطلب منهم يمثل شيئا لا معنى له ولا مبرر، لأنّ مثل هذه الاقتراحات تصدر غالبا من غير المؤمنين للتعجيز، أو لإثبات النبوّة، فلا تصدر من المؤمنين الّذين يفرض عليهم إيمانهم الثقة بقدرة الله على كل شيء لأنّ ذلك هو معنى الألوهيّة الّتي تدعو إليها الرسالات السماويّة.

٥. وعلى ضوء هذا، لا بدّ لنا من أن نطلب معنى آخر، وقد جاء في بعض الأحاديث أنّ معناه: هل تستطيع أن تطلب من ربّك!؟ ولعل هذا التفسير ينطلق من الأسلوب المتعارف في طلب بعض الأشياء مما يعتقد الطالب بأنّ الشخص القادر على فعل ما، لا يرفض تحقيق الطلب من خلال لطفه وكرمه وحاجة الطالب إليه، كما يقول بعض النّاس لبعضهم البعض: هل تستطيع أن تفعل ذلك؟ ومراده أنّك تستطيع ذلك فافعله، وبذلك يطلق هذا الكلام في المورد الّذي يثق فيه الإنسان بقدرة المطلوب منه على ذلك، أو في المورد الّذي لا يثق بقدرته، وعلى هذا الأساس، يمكن لنا أن نتمثّل في حوارهم الّذي أداروه مع عيسى عليه السّلام، أنّهم يقولون له: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا﴾، فإذا كان يستطيع ذلك كما نعتقد وكما تعتقد أنت من خلال رسالتك، فاطلب منه ذلك، لأنّك تستطيع أن تطلب منه ما يستطاع، وربّما كانت الفكرة الّتي تدور حولها الاستطاعة هي كون الشيء واجدا لشروطه الذاتيّة من توفر الحكمة فيه، وقابليّة الطالبين لاستجابته لهم من حيث ارتباطه بمصلحتهم، لأنّ الله لا يفعل شيئا لا حكمة ولا مصلحة فيه للعباد، ويطلب عيسى عليه السّلام منهم التراجع عن ذلك الطلب، لأنّه لا ينسجم مع خط التقوى والإيمان، لأنّ الّذين يقترحون المعجزات، هم الّذين لا يؤمنون بها، أو الّذين لا يؤمنون إلّا من خلالها.

٦. وعاد الحواريون ليبرروا طلبهم، ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ والقضيّة هي أنّهم يتمنون أن يأكلوا من طعام السماء، ليحصلوا على الطمأنينة القلبيّة الّتي تحب أن تضيف إلى المعرفة العقليّة معرفة حسّية، ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ وليعلموا ـ علم اليقين ـ أنّه مرسل من الله فيما بلّغه إليهم عن الله، ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ فتكون حجّتهم أقوى، وموقفهم أشد، في مواجهة المنكرين والمرتابين.

٧. واستجاب الله لهم الدعاء بعد أن طالب عيسى عليه السّلام منه ذلك ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ

اللهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ لتكون عيدا للأولين والآخرين، وآية للحق، ورحمة من الله لهم، وقال تعالى لعيسى عليه السّلام ﴿قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ إنّه منزلها عليهم، كما طلبوا وكما أحبوا، ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، ولكن من شرط المعاجز أنّها تطبق بالحجّة على مقترحيها، فلا مجال معها لآية رحمة أو عفو أو مغفرة، بل هو العذاب الشديد الّذي لا يعذّب به أحدا من العالمين، لأنّ الجحود. ـ بعد ذلك ـ يمثّل أقصى حالات التّمرد والكفران.

٨. وهكذا وقفت الآيات عند هذا الحد، فلم تتحدث عن طبيعة ما حدث بعد ذلك، هل تراجعوا عن طلبهم بعد هذا التهديد، فلم ينزلها الله عليهم لذلك!؟ أو أنّهم استمروا على هذا الطلب، وأنّ الله قد أنزلها عليهم، كما توحي بها كلمة ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ الّتي تدل على التحقيق، وليس لنا أن نفيض في ذلك كله، بل نسكت على ما سكت الله عنه، لأنّه لا يتعلّق بشأن من شؤون العقيدة أو أمر من أمور العمل، وقد يبدو للبعض أن يعترض على هذه القصة، فيقول: إنّ النصارى لا يعرفونها بما جاء به الإنجيل، أو بما تناقلته كتب التاريخ، ولكنّ ذلك لا يصلح دليلا للنفي، لأنّ من الممكن أن يكون قد سقط فيما سقط من بعض آيات الإنجيل، أو يكون مما أغفله المؤرّخون، أو لم يطلعوا عليه ككثير من القضايا الّتي عاشت في التاريخ القديم.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. تعقيبا على ما جاء في الآيات السابقة من بحث حول ما أنعم الله به على المسيح عليه السّلام وأمّه يدور الحديث هنا حول النعم التي أنعم الله بها على الحواريين، أي أصحاب المسيح عليه السّلام، ففي البداية تشير الآية إلى ما أوحي إلى الحواريين أن يؤمنوا بالله وبرسوله المسيح عليه السّلام فاستجابوا ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾

٢. إن للوحي في القرآن معنى واسعا لا ينحصر في الوحي الذي ينزل على الأنبياء، بل إن الإلهام

(١) تفسير الأمثل: ٤/١٨٧.

الذي ينزل على قلوب الناس يعتبر من مصاديقه أيضا، لذلك جاء هذا المعنى في الآية من سورة القصص بشأن أم موسى التي أوحي إليها، بل إن الكلمة تطلق في القرآن حتى على الغرائز التكوينية عند الحيوان، كالنحل، وهناك احتمال أن يكون المقصود هو الإيحاء الذي كان يلقيه المسيح عليه السّلام بواسطة المعاجز في نفوسهم.

٣. ثمّ تذكر الآية نزول المائدة من السماء: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾، (المائدة) تعني في اللغة الخوان والسفرة والطبق، كما تعني الطعام الذي يوضع عليها وأصلها من (ميد) بمعنى التحرك والاهتزاز، ولعل سبب إطلاق لفظة المائدة على السفرة والطعام هو ما يلازمها من تحريك وانتقال.

٤. شعر المسيح عليه السّلام بالقلق من طلب الحواريين هذا الذي يدل على الشك والتردد، على الرغم من كل تلك الأدلة والآيات، فخاطبهم و﴿قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، ولكنّهم سرعان ما أكّدوا للمسيح عليه السّلام أن هدفهم بريء وأنّهم لا يقصدون العناد واللجاج، بل يريدون الأكل منها (مضافا إلى الحالة النّورانية في قلوبهم المترتبة على تناول الغذاء السماوي لأنّ للغذاء ونوعيته اثر مسلّم في روح الإنسان) ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾، فبيّنوا قصدهم أنّهم طلبوا المائدة للطعام، ولتطمئن قلوبهم به لما سيكون لهذا الطعام الإلهي من أثر في الروح ومن زيادة في الثقة واليقين.

٥. ولمّا أدرك عيسى عليه السّلام حسن نيّتهم في طلبهم ذاك، عرض الأمر على الله: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾، من الواضح هنا أنّ الأسلوب الذي عرض به عيسى بن مريم الأمر على الله كان أليق وأنسب، ويحكي عن روح البحث عن الحقيقة ورعاية الشؤون العامّة للمجتمع.

٦. فاستجاب الله لهذا الطلب الصادر عن حسن نية وإخلاص، ﴿قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، فبعد نزول المائدة تزداد مسئوليات هؤلاء وتقوى الحجة عليهم، ولذلك فإنّ العقاب سيزداد أيضا في حالة الكفر والانحراف.

٧. سؤال وإشكال: ما القصد من طلب المائدة؟ والجواب: لا شك أنّ الحواريين لم يكونوا

مدفوعين بقصد شيء في طلبهم هذا، ولا هم كانوا يريدون المشاكسة والمعاندة، بل كانوا يرغبون في بلوغ مرحلة الاطمئنان الأقوى وإبعاد ما بقي من رواسب الشك والوسوسة من أعماقهم، فكثيرا ما يحدث أنّ إنسانا يتأكد من أمر بالمنطق وحتى بالتجربة، ولكن إذا كان الأمر مهما جدّا فإنّ بقايا من الشك والتردد تظل في ثنايا قلبه، لذلك فهو شديد الرغبة في أن تتكرر تجاربه واختباراته، أو أن تتبدل استدلالاته المنطقية والعلمية إلى مشاهدات عينية تقتلع من أعماق قلبه جذور تلك الشكوك والوساوس، ولهذا نرى إبراهيم عليه السّلام، على ما كان عليه من مقام ويقين يسأل الله أن يرى المعاد رأي العين لكي يتبدل إيمانه العلمي إلى (عين اليقين) وإلى (شهود)، ولكن أسلوب طلب الحواريين تميز بشيء من الفضاضة لذلك ظن عيسى عليه السّلام أنّهم بصدد البحث عن الأعذار والحجج، فاعترضهم وبعد أن شرحوا له حقيقة موقفهم وافق على طلبهم.

٨. سؤال وإشكال: ما المقصود بعبارة ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾؟ والجواب: لا شك أنّ ظاهر هذا الكلام يوحي بأنّ الحواريين كانوا يشكون في قدرة الله على إنزال مائدة، إلّا أنّ المفسّرين المسلمين لهم آراء أخرى في تفسيرها:

أ. منها أنّ هذا الطلب وقع في بداية أمرهم وقبل أن يتعرفوا على جميع صفات الله.

ب. ورأي آخر يقول: إنّ سؤالهم يعني: هل يرى الله أن من المصلحة أن ينزل عليهم مائدة من السماء؟ كأن يقول شخص: لا أستطيع أن أعهد إلى فلان بكل ثروتي، ولا يعني أنّه ليس بقادر على ذلك، بل يعني أنّه لا يرى مصلحة في الأمر.

ج. ورأي ثالث يقول: أن (يستطيع) تعني (يستجيب) لأن مادة (طوع) تعني الانقياد، فإذا وردت من باب (الاستفعال) فيمكن أن تفيد المعنى نفسه، فيكون المعنى: هل يستجيب الله لطلبنا بشأن إنزال مائدة من السماء؟

٩. سؤال وإشكال: ما هي تلك المائدة السماوية؟ والجواب: لم يذكر القرآن شيئا عن محتوياتها، ولكن يستفاد من بعض الأحاديث، وخاصة الحديث المروي عن الإمام الباقر عليه السّلام، أن تلك المائدة كانت تحوي أرغفة من الخبز ومقدارا من السمك، ولعل سبب طلب هذه المعجزة كان ما سمعوه عن المائدة السماوية التي نزلت على بني إسرائيل باعجاز من موسى عليه السّلام فطلبوا هم أيضا من عيسى

عليه السّلام مثل ذلك.

١٠. سؤال وإشكال: هل نزلت عليهم مائدة؟ والجواب: رغم أنّ الآيات المذكورة تكاد تصرح بنزول المائدة، فالله لا يخلف وعده، ولكن العجيب أنّ بعض المفسّرين يشكون في نزول المائدة، ويقولون: إنّ الحواريين حين عرفوا عظم المسؤولية التي سوف تقع عليهم بعد نزول المائدة، تخلوا عن طلبهم، ولكن الواقع أنّ المائدة قد نزلت فعلا.

١١. سؤال وإشكال: ما العيد؟ والجواب: (العيد) في اللغة من (العود) أي الرجوع، لذلك فذكرى الأيّام التي تنداح فيها المشاكل عن قوم أو مجتمع وتعود أيام الفوز والهناء الأوّل تكون عيدا، كذلك هي الأعياد الإسلامية فبعد شهر من طاعة الله في صوم رمضان، أو بعد أداء فريضة الحج العظيمة، يعود إلى النفس طهرها وصفاؤها الأولين الفطريين، ويزول التلوث عن الفطرة، فيكون العيد، ولما كان يوم نزول المائدة يوم العودة إلى الفوز والطهارة والإيمان بالله، فقد سمّاه المسيح عليه السّلام عيدا، وقد ورد في الأخبار أنّ نزول المائدة كان في يوم الأحد، ولعل هذا هو سبب الاحترام الذي يكنه المسيحيون لهذا اليوم، إنّنا نقرأ لأمير المؤمنين علي عليه السّلام قوله: (وكل يوم لا يعصى الله فيه فهو يوم عيد)، وفي هذا إشارة إلى الموضوع نفسه، لأنّ يوم ترك المعصية هو يوم فوز وطهارة وعودة إلى الفطرة الاولى.

١٢. سؤال وإشكال: لماذا العقاب الشديد؟ والجواب: هنا أمر مهم ينبغي ألا نغفل عنه، وذلك أنّه عندما يبلغ الإيمان مرحلة الشهود وعين اليقين أي عندما ترى الحقيقة رأي العين، ولا يبقى مكان لأي شك أو تردد، فإنّ مسئولية المرء تزداد وتثقل، لأنّ هذا المرء لم يعد ذلك الذي كانت تنتابه الوساوس والشكوك من قبل، بل هو امرؤ ورد مرحلة جديدة من الإيمان وتحمل المسؤولية، فأقل تقصير أو غفلة من جانبه يستدعي العقاب الشديد، ولهذا فإنّ مسئولية الأنبياء وأولياء الله أشد وأثقل، بحيث أنّهم كانوا في خشية دائمة منها، إننا في الحياة اليومية نصادف نماذج من هذا القبيل أيضا، فمثلا يعلم كل شخص أنّ في بلده أو مدينته جياعا يتحمل مسئوليتهم، ولكنه عندما يرى بعينيه إنسانا بريئا يتضور جوعا ويتألم سغبا، فلا شك أنّ درجة مسئوليته تكون عندئذ أعلى.

١٣. في الأناجيل الأربعة الموجودة حاليا لا نجد كلاما عن المائدة كما في القرآن، عدا ما جاء في إنجيل يوحنا، في الباب، حول استضافة المسيح الإعجازية جمعا من الناس بالخبز والسمك، ولكننا بقليل

من التفحص ندرك أنّ ذلك لا علاقة له بالمائدة التي نزلت من السماء للحواريين.

١٤. ثمّة كلام في كتاب (أعمال الرسل) وهو من كتب العهد الجديد، يدور حول نزول مائدة على أحد الحواريين واسمه بطرس، ولكن هذا أيضا ليس هو الموضوع الذي نحن بصدده، غير أنّنا نعلم أن كثيرا من الحقائق التي نزلت على عيسى عليه السّلام لا أثر لها في الأناجيل السائدة، كما أن كثيرا ممّا نراه في هذه الأناجيل لم ينزل على المسيح عليه السّلام.

٩١. المسيح وجوابه عن شرك قومه

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٩١] من سورة المائدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٨]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

الأشعري:

روي عن أبو موسى الأشعري (ت ٤٤ هـ) أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا كان يوم القيامة دعي بالأنبياء وأممها، ثم يدعى بعيسى، فيذكره الله نعمته عليه، فيقر بها، فيقول: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ الآية، ثم يقول: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾، فينكر أن يكون قال: ذلك، فيؤتى بالنصارى فيسألون، فيقولون: نعم، هو أمرنا بذلك، فيطول شعر عيسى، حتى يأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه وجسده، فيجاثيهم بين يدي الله مقدار ألف عام، حتى يوقع عليهم الحجة، ويرفع لهم الصليب، وينطلق بهم إلى النار)[١].

أبو ذر:

١. روي عن أبي ذر (ت ٢٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

٢. روي أنّه قال: صلى رسول الله ﷺ ليلة، فقرأ بآية حتى أصبح، يركع بها ويسجد بها: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ الآية، فلما أصبح قلت: يا رسول الله، ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت! قال: (إني

---

(١) ابن بشران في أماليه ص ٣١.

سألت ربي الشفاعة لأمتي فأعطانيها، وهي نائلة ـ إن شاء الله ـ من لا يشرك بالله شيئا)[١].

٣. روي أنّه قال: قام النبي ﷺ بآية حتى أصبح يرددها: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٢].

٤. روي أنّه قال: بات رسول الله ﷺ ليلة يشفع لأمته، فكان يصلي بهذه الآية: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ إلى آخر الآية، كان بها يسجد، وبها يركع، وبها يقوم، وبها يقعد، حتى أصبح[٣].

٥. روي أنّه قال: قلت للنبي ﷺ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، قمت الليلة بآية من القرآن ومعك قرآن، لو فعل هذا بعضنا لوجدنا عليه! قال: (دعوت لأمتي)، قال: فماذا أجبت؟ قال: (أجبت بالذي لو اطلع كثير منهم عليه تركوا الصلاة)، قال: أفلا أبشر الناس؟ قال: (بلى)، فقال عمر: يا رسول الله، إنك إن تبعث إلى الناس بهذا نكلوا عن العبادة، فناداه: أن ارجع، فرجع، وتلا الآية التي يتلوها: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٤].

ابن مسعود:

روي عن عبد الله بن مسعود (ت ٣٢ هـ) أنّه قال: قال النبي ﷺ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾: ما كنت فيهم[٥].

أبو هريرة:

روي عن أبي هريرة (ت ٥٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن عيسى حاجه ربه، فحاج عيسى ربه، والله لقاه حجته بقوله: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ الآية[٦].

٢. روي أنّه قال: يلقى عيسى حجته، والله لقاه في قوله: ﴿وَإِذْ قال الله يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ

---

(١) أحمد ٣٥/٢٥٦.

(٢) أحمد ٣٥/٣٠٩.

(٣) عزاه السيوطي إلى ابن مردويه.

(٤) أحمد ٣٥/٣٩٠.

(٥) عزاه الهيثمي في المجمع ٧/١٩.

(٦) عزاه السيوطي إلى أبي الشيخ.

قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾، قال: أبو هريرة عن النبي ﷺ: (فلقاه الله: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ الآية كلها[1].

جابر:

روي عن جابر بن عبد الله (ت ٧٣ هـ) أنّه سمع النبي ﷺ يقول: (إذا كان يوم القيامة جمعت الأمم، ودعي كل أناس بإمامهم)، قال: (ويدعى عيسى، فيقول لعيسى: يا عيسى، ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾؟ فيقول: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ إلى قوله: ﴿يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾[2].

ابن عمرو:

روي عن ابن عمرو بن العاص (ت ٧٧ هـ): أن النبي ﷺ تلا قول الله في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦] الآية، وقال عيسى ابن مريم: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فرفع يديه، فقال: (اللهم، أمتي أمتي)، وبكى، فقال الله عز وجل: يا جبريل، اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فسله ما يبكيك؟، فأتاه جبريل صلع فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال: وهو أعلم، فقال الله: يا جبريل، اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك، ولا نسوءك[3].

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: خطب رسول الله ﷺ، فقال: (يا أيها الناس، إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلا)، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، ثم قال: (ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي، فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يا رب، أصحابي أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال: العبد الصالح: ﴿وَكُنْتُ

---

(١) الترمذي ٥/٣٠٣.

(٢) الدارقطني في كتاب رؤية الله ص ١٦٨.

(٣) مسلم ١/١٩١.

عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾، فيقال: أما هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم مذ فارقتهم)[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ سيدي وسيدكم[2].

٣. روي أنّه قال: ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾، قال: الحفيظ[3].

٤. روي أنّه قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ يقول: عبيدك قد استوجبوا العذاب بمقالتهم، ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي: من تركت منهم ومد في عمره حتى أهبط من السماء إلى الأرض لقتل الدجال، فنزلوا عن مقالتهم، وحدوك، وأقروا أنا عبيد، وإن تغفر لهم حيث رجعوا عن مقالتهم ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[4].

طاووس:

روي عن طاووس بن كيسان (ت ١٠٦ هـ) أنّه قال في هذه الآية: احتج عيسى وربه، والله وفقه، فقال: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾[5].

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال في قول الله تبارك وتعالى لعيسى عليه السلام: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾: لم يقله، وسيقوله، إن الله إذا علم أن شيئا كائن أخبر عنه خبر ما قد كان[6].

٢. روي أنّه قال في تفسير هذه الآية ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾: إن اسم الله الأكبر ثلاثة وسبعون حرفا، فاحتجب الرب تبارك وتعالى منها بحرف، فمن ثم لا يعلم أحد ما في نفسه عز وجل، أعطى آدم اثنين وسبعين حرفا، فتوارثها الأنبياء حتى صارت إلى عيسى

---

(١) البخاري ٦/٥٥.

(٢) عزاه السيوطي إلى أبي الشيخ.

(٣) عزاه السيوطي إلى ابن المنذر.

(٤) عزاه السيوطي إلى أبي الشيخ.

(٥) ابن جرير ٩/١٣٨.

(٦) تفسير العيّاشي ١/٣٥١.

عليه السلام، فذلك قول عيسى عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ يعني اثنين وسبعين حرفا من الاسم الأكبر، يقول: أنت علمتنيها، فأنت تعلمها ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ يقول: لأنك احتجبت من خلقك بذلك الحرف، فلا يعلم أحد في نفسك[١].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ متى يكون ذلك؟ قال: يوم القيامة، ألا ترى أنه يقول: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾[٢].

٢. روي أنّه قال: ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ﴾، قال: الحفيظ[٣].

٣. روي أنّه قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ والله، ما كانوا طعانين، ولا لعانين[٤].

السدي:

روي عن إسماعيل السدي الكوفي (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال في قوله: ﴿وَإِذْ قال الله يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾: لما رفع الله عيسى ابن مريم إليه قالت النصارى ما قالت، وزعموا أن عيسى أمرهم بذلك، فسأله عن قوله، فقال: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[٥].

٢. روي أنّه قال: ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾، قال: أما الرقيب فهو الحفيظ[٦].

٣. روي أنّه قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾، يقول: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ﴾: تمتهم بنصرانيتهم، فيحق عليهم العذاب؛ فإنهم عبادك، ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فتخرجهم من النصرانية، وتهديهم إلى الإسلام؛ ﴿فَإِنَّكَ

---

(١) تفسير العيّاشي ١/٣٥١.

(٢) عبد الرزاق ١/٢٠١.

(٣) عبد الرزاق ١/٢٠١.

(٤) عبد الرزاق ١/٢٠١.

(٥) ابن جرير ٩/١٣٣.

(٦) ابن جرير ٩/١٣٨.

﴿أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، هذا قول عيسى عليه السلام في الدنيا[1].

الصادق:

روي عن الإمام الصادق (ت ١٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنه قيل له: قول الله لعيسى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ قال الله بهذا الكلام؟ فقال: إن الله إذا أراد أمرا أن يكون قصه قبل أن يكون، كأن قد كان[2].

٢. روي أنّه قال: كان مع عيسى عليه السلام حرفان يعمل بهما، وكان مع موسى عليه السلام أربعة، وكان مع إبراهيم عليه السلام ستة، وكان مع نوح عليه السلام ثمانية، وكان مع آدم عليه السلام خمسة وعشرون، وجمع ذلك كله لرسول الله ﷺ إن اسم الله ثلاثة وسبعون حرفا، كان معرسول الله ﷺ اثنان وسبعون حرفا، وحجب عنه واحد[3].

ابن جريج:

روي عن ابن جريج (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَإِذْ قال الله يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ والناس يسمعون، فراجعه بما قد رأيت، فأقر له بالعبودية على نفسه، فعلم من كان يقول في عيسى ما كان يقول أنه إنما كان يقول باطلا[4].

٢. روي أنّه قال: ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ الحفيظ[5].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَإِذْ قال الله يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ يعني: بني إسرائيل في

---

(١) ابن جرير ٩/١٣٩.

(٢) تفسير العيّاشي ١/٣٥١.

(٣) تفسير العيّاشي ١/٣٥٢.

(٤) ابن جرير ٩/١٣٣.

(٥) ابن جرير ٩/١٣٨.

الدنيا: ﴿اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ﴾ مريم ﴿إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ فنزه الرب عز وجل أن يكون أمرهم بذلك، فقال: ﴿مَا يَكُونُ لِي﴾ يعني: ما ينبغي لي ﴿أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ يعني: بعدل أن يعبدوا غيرك، ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ﴾ لهم ﴿فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ يعني: ما كان مني وما يكون، ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ يقول: ولا أطلع على غيبك، وقال أيضا: ﴿وَلَا أَعْلَمُ﴾ ما في علمك، ما كان منك وما يكون، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ يعني: غيب ما كان، وغيب ما يكون، وإنما قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قال الله يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ ولم يقل: وإذ يقول يا عيسى ابن مريم، لأنه قال سبحانه قبل ذكر عيسى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾، قالوا يومئذ ـ وهو يوم القيامة ـ حين يفرغ من مخاصمة الرسل، فينادي: أين عيسى ابن مريم؟ فيقوم عيسى ﷺ شفق فرق، يرعد رعدة حتى يقف بين يدي الله عز وجل: يا عيسى ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾، وكما قال سبحانه: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، فلما دخلوا الجنة قال: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤]، فنسق بالماضي على الماضي والمعنى مستقبل، ولو لم يذكر الجنة قبل بدئهم بالكلام الأول لقال في الكلام الأول: وينادي أصحاب الجنة أصحاب النار، وكل شيء في القرآن على هذا النحو، ثم قال: عيسى ﷺ لربه عز وجل في الآخرة: يا رب، غبت عنهم، وتركتهم على الحق الذي أمرتني به، فلم أدر ما أحدثوا بعدي[(١)].

٢. روي أنّه قال: ما يكون ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ وأنت تعلم ﴿إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ في الدنيا: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ يعني: وحدوا الله ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ قال لهم عيسى ﷺ ذلك في هذه السورة، وفي كهيعص، وفي الزخرف[(٢)].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ يعني: على بني إسرائيل بأن قد بلغتهم الرسالة ﴿مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ يقول: ما كنت بين أظهرهم[(٣)].

٤. روي أنّه قال: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ يقول: فلما بلغ بي أجل الموت فمت ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٩.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٩.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٩.

عَلَيْهِمْ﴾ يعني: الحفيظ، ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ يعني: شاهدا بما أمرتهم من التوحيد، و[شهيدا] عليهم بما قالوا من البهتان[1].

٥. روي أنّه قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ﴾ فتميتهم على ما قالوا من البهتان والكفر؛ ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ وأنت خلقتهم، ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فتتوب عليهم، وتهديهم إلى الإيمان والمغفرة بعد الهداية إلى الإيمان؛ ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ في ملكك، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أمرك[2].

الرسّي:

ذكر الإمام القاسم الرسي (ت ٢٤٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[3]:

١. سؤال وإشكال: إن سأل سائل ذو حيرة عن قول الله عز وجل: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾، وعن قوله سبحانه: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، وتوهم أن لله عز وجل نفسا كنفس الإنسان، وأنها جزء الجسم، وأنها جوهر يقيم الأعراض؟ والجواب: قيل له: إن معنى قول الله سبحانه في كتابه: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾: أي: تعلم ما أعلم، ولا أعلم الذي تعلم، وكذلك قال عز وجل: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، فالكاتب هو: المكتوب عليه، وهو الله عز وجل، الكاتب والمكتوب عليه.

٢. وإن زعم أن النفس معنى غير ذاته، وزعم أنه شخص ـ سئل عما في النفس: أهي النفس أم غير النفس!؟ فإن زعم أنها غير النفس، زعم أن في ربه غير ربه، وإن زعم أن الذي في النفس هي: النفس ـ زعم أنه لا معنى لقوله: ﴿فِي نَفْسِي﴾!!.. ويسألون: هل كانت النفس، وفيها ذلك الذي هو غيرها!؟ فإن زعموا أنه لم يزل، جحدوا قول الله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ [الحديد:٣]، وإن زعموا أنها كانت، وليس فيها ذلك الذي في النفس، وأن ذلك محدث ـ جحدوا أن يكون كان عالما لم يزل.

٣. واعلم أن للنفس في لغة العرب معاني، فمنها ما يجوز على الله تبارك وتعالى، ومنها ما لا يجوز عليه، فأما ما لا يجوز عليه: فمعنى النفس التي هي: الروح، وما ذكر الله تعالى من قوله: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥١٩.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥٢١.

(٣) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/٣٦٦.

﴿زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]؛ فهذه النفوس هي: أجزاء الإنسان التي هي أرواحهم، وقد قيل في اللغة في ذكر هذه النفس: (فاضت نفس فلان)، يعنون: خروج روحه، وهذا المعنى عن الله عز وجل منفي.

٤. وقال الله عز وجل في كتابه، يذكر النفس بغير هذا المعنى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: ١٠]، يعني: من آدم، فسماه: نفسا، ولم يرد به: روحه، وقال: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي﴾ [الفجر: ٢٧]، يعني: يا أيها الإنسان، ولم يرد النفس التي هي الروح فقط، وإنما أراد الحي الذي هو الإنسان، وكذلك قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٢٨]، أي: كل إنسان بما كسب رهين، وقال: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ﴾ [الزمر: ٥٦]، يعني: أن يقول الإنسان، وقال: ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، يريد: الإنسان، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [العنكبوت: ٥٧]، يعني: أن كل إنسان ميت؛ والعرب قد تقول للشيء الذي لا روح له ولا شخص: (هذا نفس كلامك، وهذا النور بنفسه)، وقال الشاعر:

قالت له النفس إني لا أرى طمعا ، وإن مولاك لم يسلم ولم يصد

وقال آخر:

وهل نحن إلا أنفس مستعارة ، تمر بها الروحات والغدوات

يعني: هل نحن إلا أناسي مستعارون، ولو أراد بذكر النفس: معنى الروح ـ لما جاز أن يسمى كله نفسا؛ لأنه بدن ونفس.

وقال آخر:

وقد وفدت إليك بذات نفسي ، قصائد يعترفن بما نشاء

يعني بقوله: (بذات نفسي)، أي: بي، كما أنا؛ كما قيل في اللغة: (جئتك بنفسي)، ولم يريدوا بقولهم: معنى ثانيا، هو غير (جئتك)؛ لأنه إذا قيل: (جئتك) دل على الجائي تاما، ولما قال: (بنفسي) لم يرد: معنى ثانيا هو غير المعنى الذي هو (جئتك).. وقال آخر: وما لام نفسي مثلها لي لائم.. قال الله عز وجل: ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١]، يعني: نحن وأنتم، وقال الله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]؛ فالمحذر هو: المحذر منه، يعني: يحذركم الله، أي: يعذبكم، كما قال: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، وليس الكاتب غير المكتوب عليه.

٥. وأما قول الله سبحانه: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ هو: ويحذركم إياه لا غيره، وقوله عن عيسى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾، يعني: أنت تعلم ما أعلم، ولا أعلم أنا ما تعلم، كما يقول القائل: (هذا نفس الحق، وهذا نفس الصواب)، يريد: هذا هو الحق، وهذا هو الباطل، وهذا وجه الرأي، ووجه الحق، كقوله ولا نظير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

المرتضى:

ذكر الإمام المرتضى بن الهادي (ت ٣١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. قد سئل عن هذه المسألة جدي القاسم، فقال: هذا تسبيح لله، وإكبار لله عز وجل عن أن يقول في ذلك على الله؛ ما كان وما يكون يقول، إفك مفترا مكذوب، لا يصح فيه أبدا قول في فطرة، ولا يقوم في عقل سليم ولا فكرة، فقال صلى الله عليه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة:١١٧]، فأنبأهم أنه عبد له كما هم كلهم جميعا لله عز وجل عبيد.

٢. ٣. وأخبر الله سبحانه من قوله في ذلك بما لا تنكره النصارى كلها، وإن اختلفت في أديانها، وفرقتها البلدان في كل مفترق من أوطانها، لما رأوا منه عيانا، وأيقنه من غاب عنه منهم إيقانا، من عبادته لله سبحانه، واجتهاده في طاعة الله عز وجل، وكان فيما عاينوا من مشابهته لهم في الخلقة ـ دليل مبين، على أنه عبد الله، يجري عليه من حكم الله عز وجل في أنه عبد لله ـ ما جرى عليهم؛ بما بان من أثر تدبير الله وصنعه فيه وفيهم.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ الآية، يحتمل هذا القول أوجهًا ثلاثة:

أ. أحدها: أن كان هذا القول منه في الوقت الذي كان عيسى بين أظهرهم؛ ليكون ذلك آية وحجة

---

(١) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ٣٦٨/١.

(٢) تأويلات أهل السنة: ٦٥٣/٣.

لمن تبعه على من زاغ عن طريقه، وضل عن سبيل الهدى؛ لأنه تبرأ أن يكون قال لهم ذلك.

ب. ويحتمل: أن يكون قال ذلك له وقت رفعه إلى السماء: قرر عنده أن قومه يقولون ذلك القول بعد مفارقته قومه.

ج. وقيل: إنه يقول ذلك له يوم القيامة ويكون (قال): بمعنى: (يقول)؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾، وكقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾، أي: يقولون، وذلك جائز (قال) بمعنى: (يقول)، وذلك في القرآن كثير.

٢. واتخاذهم عيسى وأمه إلهين قول متناقض؛ لأنهم سمَّوها: أم عيسى؛ فإذا ثبتت لها الأمومة بطل أن تكون إلهًا؛ وكذلك عيسى: إذا ظهر أنه كان ابنا لها، بطل أن يكون إلها؛ لأنه لا يكون ابن غيره إلهًا، لكنهم قوم سفهاء، يقولون ذلك عن سفه.

٣. ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي: لا ينبغي لي أن أقول ما ليس ذلك بحق، ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾، يتكلم في النفس على وجهين:

أ. أحدهما: يراد ما يضمر.

ب. الثاني: على إرادة الذات؛ فإن كان الله يتعالى عن أن يوصف بالذات كما يوصف الخلق؛ دل أنه إنما يراد بذلك غيره، وهو أن يقال: تعلم ما عندي ولا أعلم ما عندك، أو يقول: تعلم ما كان مني ولا أطلع على غيبك.

٤. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، أي: إنك أنت علام ما غاب عن الخلق.

٥. قوله عز وجل: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾، أي: ما دعوتهم إلا إلى ما أمرتني أن أدعوهم إليه من التوحيد والعبادة لك.

٦. وقوله: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾:

أ. أي: شاهدًا عليهم، هذا يدل على أن ذلك القول كان منه وقت رفعه إلى السماء، أو يكون يوم القيامة.

ب. ويقال: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾، أي: كنت عليهم حفيظًا ما كنتُ بين أظهرهم.

٧. ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾، أي: الحفيظ عليهم، ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾،

بما أمرتهم من التوحيد والعبادة لك، وشاهدًا عليهم بما قالوا من البهتان.

٨. وذكر في بعض القصة: لما قال الله تعالى لعيسى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ ـ قيل: فَأُرعِدَتْ مفاصله، وخشي أن يكون قالها؛ فقال: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ الآية، وذكر ـ أيضًا ـ متكلمان يتكلمان يوم القيامة: نبي الله عيسى ابن مريم عليه السلام وعدو الله إبليس ـ لعنه الله ـ:

أ. فأما كلام عيسى عليه السلام يقول الله: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾؛ فقال عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

ب. وأما كلام اللعين: فيقول: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ الآية.

٩. وقوله عز وجل: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ اختلف فيه:

أ. عن الحسن قال يقول ذلك في الآخرة: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ﴾ إن تعذب من مات على ما كان منه من القول الوحش في الله، ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾، أي: وإن تغفر لمن أكرمت له بالإسلام والهدى ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ لأن منهم من قد آمن بعد هذا القول الوحش في الله.

ب. وقال آخرون: هذا القول كان من عيسى في الدنيا: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ﴾، يقول: إن تعذب من مات على الكفر الذي كان منهم ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ﴾ من أكرمت له الهدى ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: أنت العزيز وهم عبادك أذلاء.

ج. وفي حرف ابن مسعود: ﴿فإنك أنت الغفور الرحيم﴾ وهو ظاهر؛ لأنه ذكر أنه غفور على إثر المغفرة.

د. وروي في الخبر أن نبي الله عليه السلام كان أحيا ليله بقوله: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ به قام، وبه سجد، وبه قعد، فهو على التشفع والتضرع إليه؛ كأنه قال:

• إن خذلتهم فمن الذي ينصرهم ويدفع ذلك عنهم دونك، وهم عبادك أذلاء!؟ وإن أكرمتهم فمن الذي يمنعك عن إكرامهم!؟

• الثاني: إن تعذبهم فلك سلطان عليهم، ولست أنت في تعذيبك إياهم جائرا؛ لأنهم عبادك؛ لأن الجور هو المجاوزة عن الحد الذي له إلى الحد الذي ليس له.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. معنى قول سيدنا عز وجل: ﴿وَإِذْ قال الله يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾، أي ولا أعلم ما تعلم بنفسك التي هي ذاتك وهي علمك وقدرتك ما قلت لهم إلا ما أمرتني به إلى آخر الآية: يريد أن هذا الخطاب منا لعيسى وهو يوم القيامة على تكذيبهم، عند تبكيتنا لهم، وتوقيفنا لعيسى على تكذيبهم، ليكون ذلك أكمل لحجتنا عليهم، وأقطع لمعاذيرهم وعللهم، وأعظم لحسرتهم وندامتهم.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ﴾ ومعنى (إذ) هاهنا بمعنى إذا كما قال: أبو النجم:

ثم جزاك الله عنا إذ جزى جنات عدن في السماوات العلى

وقام الفعل الماضي مقام الفعل المستقبل وهذا جائز في اللغة كما قال: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ [الأعراف:٤٤]

٢. وهذا السؤال خرج مخرج الاستفهام فإنما هو بمعنى التوبيخ والتقريع كقوله: ولمن ادعى ذلك عليه ليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ في التكذيب وأشد في التوبيخ والتعنيف ويجوز أن يكون عرف بهذا السؤال أن قومه غيروا بعده وادعوا عليه ما لم يقل.

٣. سؤال وإشكال: إن قيل: فالنصارى لم تتخذ مريم إلهاً والجواب: لزمهم أن يقولوا إنها لأجل المعصية بمثابة من ولدته فصاروا حين لزمهم ذلك كالقائلين به وهذا إنما يكون يوم القيامة لقوله عز وجل

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/٢٣٢.

(٢) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/٢٣٤.

من بعد: ﴿قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ وإنما نفعهم الصدق لوقوع الجزاء فيه وإن كان في كل الأيام نافعاً.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ الآية، ﴿إِذِ﴾ ها هنا بمعنى (إذا) كما قال أبو النجم:

ثم جزاك الله عني إذ جزى　　　جنات عدن في السموات العلا

يعني إذا جزى، فأقام الماضي مقام المستقبل وهذا جائز في اللغة كما قال تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤]

٢. واختلف أهل التأويل في معنى هذا السؤال وليس باستفهام وإن خرج مخرج الاستفهام على قولين:

أ. أحدهما: أنه تعالى سأله عن ذلك توبيخاً لمن ادعى ذلك عليه، ليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ في التكذيب وأشد في التوبيخ والتقريع.

ب. الثاني: أنه قصد بهذا السؤال تعريفه أن قومه غُيِّرُوا بعده وادعوا عليه ما لم يقله.

٣. سؤال وإشكال: فالنصارى لم تتخذ مريم إلهاً، فكيف قال تعالى فيهم ذلك؟ والجواب: لما كان من قولهم أنها لم تلد بشراً وإنما ولدت إلَهاً لزمهم أن يقولوا إنها لأجل البعضي بمثابة من ولدته، فصاروا حين لزمهم ذلك كالقائلين له.

٤. وفي زمان هذا السؤال قولان:

أ. أحدهما: أن الله تعالى قال ذلك لعيسى حين رفعه إليه في الدنيا، قاله السدي وميسرة.

ب. الثاني: أن الله تعالى يقول له ذلك يوم القيامة، قاله ابن جريج وقتادة وهو أصح القولين.

٥. ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي أدعي لنفسي ما ليس من شأنها،

---

(١) تفسير الماوردي: ٢/٨٨.

يعني أنني مربوب ولست برب، وعابد ولست بمعبود.

٦. وبدأ بالتسبيح قبل الجواب لأمرين:

أ. أحدهما: تنزيهاً له عما أضيف إليه.

ب. الثاني: خضوعاً لعزته وخوفاً من سطوته.

٧. ثم قال: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ فرد ذلك إلى علمه تعالى، وقد كان الله عالماً به أنه لم يقله، ولكن قاله تقريعاً لمن اتخذ عيسى إلهاً.

٨. ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ فيه وجهان.

أ. أحدهما: تعلم ما أخفيه ولا أعلم ما تخفيه.

ب. الثاني: تعلم ما أعلم ولا أعلم ما تعلم.

٩. وفي النفس قولان:

أ. أحدهما: أنها عبارة عن الجملة كلها.

ب. الثاني: أنها عبارة عن بعضه، كقولهم قتل فلان نفسه.

١٠. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ يحتمل وجهين:

أ. أحدهما: عالم السر والعلانية.

ب. الثاني: عالم ما كان وما يكون.

١١. وفي الفرق بين العالم والعلام وجهان:

أ. أحدهما: أن العلام الذي تقدم علمه، والعالم الذي حدث علمه.

ب. الثاني: أن العلام الذي يعلم ما كان وما يكون، والعالم الذي يعلم ما كان ولا يعلم ما يكون.

١٢. قوله عز وجل: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ لم يذكر عيسى ذلك على وجه الإخبار به لأن الله عالم به، ويحتمل وجهين:

أ. أحدهما: تكذيباً لمن اتخذ إلهاً معبوداً.

ب. الثاني: الشهادة بذلك على أمته فيما أمرهم به من عبادة ربه.

١٣. قوله تعالى: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ يحتمل وجهين:

أ. أحدهما: إعلامهم أن الله ربه وربهم واحد.

ب. الثاني: أن عليه وعليهم أن يعبدوا رباً واحداً حتى لا يخالفوا فيما عبدوه.

١٤. ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ يحتمل وجهين:

أ. أحدهما: يعني شاهداً.

ب. الثاني: شاهداً عليهم.

١٥. ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ فيه وجهان:

أ. أحدهما: أنه الموت.

ب. الثاني: أنه رفعه إلى السماء.

١٦. ﴿الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ فيه وجهان:

أ. أحدهما: الحافظ عليهم.

ب. الثاني: العالم بهم.

١٧. ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ يحتمل وجهين:

أ. أحدهما: شاهداً لما حضر وغاب.

ب. الثاني: شاهداً على من عصى، وأطاع.

١٨. قوله عز وجل: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ يحتمل وجهين:

أ. أحدهما: أنه قاله على وجه الاستعطاف لهم والرأفة بهم كما يستعطف العبد سيده.

ب. الثاني: أنه قاله على وجه التسليم لأمر ربه والاستجارة من عذابه.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي اذكر، ويحتمل ثلاثة أوجه:

أ. أولها: أن يكون معطوفاً على ما قبله، كأنه قال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾، ثم

---

(١) تفسير الطوسي: ٤/٦٥.

قال وذلك إذ يقول يا عيسى اذكر نعمتي وإذ يقول له أأنت قلت للناس.

ب. الثاني: قال البلخي: يمكن أن يكون لما رفع الله عيسى إليه قال له ذلك، فيكون المقال ماضيا.

ج. الثالث: ذكره أيضا البلخي أن (إذ) استعملت بمعنى (إذا) فيصح حينئذ أن يكون القول من الله يوم القيامة، ومثله ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ﴾ كأنه قال إذ يفزعون، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ كأنه قال إذا وقفوا لأن هذا لم يقع بعد، وقال أبو النجم:

ثم جزاه الله عنا إذ جزا جنات عدن في العلاليِّ العلا

والمعنى إذا جزى، وقال الأسود (أعشى بني نهشل)

فالآن إذ هازلتهن فانما يقلن إلا لم يذهب المرء مذهبا

وقال أوس:

الحافظ الناس في تحوط إذا لم يرسلوا تحت مائذ ربعا

وهبت الشامل البليل وإذ بات كميع الفتاة ملتفعا

يقال: (إذا) و(إذ) بمعنى واحد، وقال بعض أهل اليمن:

وندمان يزيد الكأس طيبا سقيت إذا تغورت النجوم

فقال: (إذا) والمعنى (إذ) لأنه انما يخبر عما مضى، وقال أبو عبيدة (إذ) صلة، والمعنى قال الله: يا عيسى، وقد بينا فساد هذا القول فيما مضى.

٢. فأما لفظ ﴿قَالَ﴾ في معنى (يقول) فمستعمل كثيراً وان كان مجازاً، قال الله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ والمراد ينادي، وقد استعمل المستقبل بمعنى الماضي، قال زياد الأعجم في المغيرة بن المهلب يرثيه بعد موته:

فإذا مررت بقبره فانحر به خوص الركاب وكل طرف سابح

وانضح جوانب قبره بدمائها فلقد يكون أخادم وذبائح

فقال: (يكون) ومعناه (كان) لدلالة الكلام عليه، لأنه في مرثية له بعد موته.

٣. ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾:

أ. يحتمل عيسى أن يكون منصوبا مثل ما تقول: يا زيد بن عبد الله، وهو الأكثر في كلام العرب،

وإنما يجوز ذلك إذا وقع الابن بين علمين، فأما إذا قلت يا زيد ابن الرجل لم يجز في زيد إلا الضم.

ب. ويحتمل أن يكون عيسى في موضع الضم ويكون نداء (ابن) كأنه قال يا عيسى يا ابن مريم.

٤. ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾:

أ. تقريع في صورة الاستفهام والمراد بذلك تقريع وتهديد من ادعى ذلك، لأنه تعالى كان عالما بذلك هل كان أو لم يكن.

ب. ويحتمل وجهاً آخر ـ ذكره البلخي ـ أن الله تعالى أراد أن يعلم عيسى أن قومه اعتقدوا فيه وفي أمه أنهما إلهان كما أن الواحد منا إذا أرسل رسولا إلى قوم أن يفعلوا فعلا فأدى الرسالة وانصرف فخالفوا ذلك وعلم المرسل ولم يعلم الرسول جاز أن يقول المرسل للرسول: أأنت أمرتهم بذلك؟ وغرضه أن يعلمه أنهم خالفوه.

٥. وإنما قال: ﴿إِلَهَيْنِ﴾ تغليباً للذكر على الأنثى، والغرض بالكلام أن النصارى يعتقدون في المسيح أنه صادق لا يكذب وأنه الذي أمرهم بأن يتخذوه وأمه إلهين، فإذا كذبهم الصادق عندهم الذي ينسبون الأمر به إليه كان ذلك آكد في الحجة عليهم وأبلغ في التوبيخ لهم والتوبيخ ضرب من العقوبة، وقيل في قوله تعالى: ﴿إِلَهَيْنِ﴾ ثلاثة أوجه:

أ. أحدها: أنهم لما عظموهما تعظيم الآلهة أطلق ذلك عليهما كما قال: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾ وإنما أراد تقريعهم على معصيتهم.

ب. الثاني: أنهم جعلوه إلها وجعلوا مريم والدة له ميزوها من جميع البشر تمييزاً شابهت الإلهية وأطلق ذلك، لأنه مستخرج من قصدهم، وان لم يكن صريح ألفاظهم، على طريقة الإلزام لهم.

ج. الثالث: أنهم لما سمُّوه إلها وعظموها هي، وكانا مجتمعين سماهما إلهين على طريقة العرب كقولهم: القمران للشمس والقمر، والعمران لأبي بكر وعمر، قال الشاعر:

جزاني الزهدمان جزاء سوء — وكنت المرء يجزى بالكرامة

يريد زهدماً وقيساً ابني حزن القيسين، وهذا كثير.

٦. وذكر لي بعض النصارى الذي قرأ كتب النصارى عن جاثليق لهم لم يكن في زمانه مثله، أنه سأله عن هذا فقال: كنت شاكا في ذلك إلى أن قرأت في كتاب ذكره أن فيما مضى كان قوم يقال لهم المريمية

كانوا يعتقدون في مريم أنها آلهة، فعلى هذا القول أقرب، وورد كما قلناه في الحكاية عن اليهود أنهم قالوا: عزير ابن الله، وقد ذكرناه في سورة التوبة.

٧. ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ معناه أنزهك أن يكون معك آلهة وأن يكون للأشياء إليه غيرك، واعترف بأنه لم يكن لي أن أقول هذا القول.

٨. ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ أي لم أقله لأني لو كنت قلته لما خفي عليك إذ كنت علام الغيوب، ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ أي تعلم غيبي ولا أعلم غيبك، لأن ما في نفس عيسى وما في قلبه هو ما يغيبه عن الخلق، وإنما يعلمه الله، وسمي ما يختص الله بعلمه بأنه في نفسه على طريق الازدواج في الكلام كما قال: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ﴾، ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾، ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا﴾ وكل ذلك وجه ازدواج الكلام، ويقوي هذا التأويل قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ لأنه علل أنه إنما يعلم ما في نفس عيسى، لأنه علام الغيوب، وعيسى ليس كذلك، فلذلك لم يعلم ما يختص الله بعلمه.

٩. والنفس في اللغة على ضروب:

أ. أحدها: نفس الإنسان التي بها حياته، يقولون خرجت نفسه أي روحه وفي نفسي أن افعل أي في روعي.

ب. ثانيها: أن نفس الشيء ذات الشيء يقولون: قتل فلان نفسه أي ذاته، وعلى هذا حمل قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ أي ذاته وقيل عذابه.

ج. والنفس الهم بالشيء كما يحكى أن سائلا سأل الحسن فقال: أن لي نفسين إحداهما تقول لي حج، والآخر تزوج، فقال الحسن: النفس واحدة، وإنما لك همان همٌّ ـ بكذا وهم بكذا.

د. والنفس الأنفة كقولهم: ليس لفلان نفس أي لا أنفة له.

هـ. والنفس الإرادة يقولون نفس فلان في كذا أي إرادته قال الشاعر:

فنفساي نفس قالت ائت ابن بحدل ... تجد فرجا من كل غمى تهابها

ونفس تقول أجهد نجاءك ولا تكن ... كخاضبة لم يغن عنها خضابها

و. والنفس أيضاً العين التي تصيب الإنسان يقال أصابت فلانا نفس أي عين ومنه قوله ﷺ في رقيا

(بسم الله أرقيك والله يشفيك من كل عاهة فيك من كل عين عاين ونفس نافس وحسد حاسد) وقال عبيد الله بن قيس الرقيات:

تتقي نفسها النفوس عليها فعلى نحرها الرقى والتميم

وقال ابن الاعرابي: (النفوس التي تصيب الناس بالنفس)

ز. والنفس أيضاً من الدباغ مقدار الدبغة.

١٠. ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ هذا اخبار عن عيسى عليه السلام أنه يقول لله تعالى في جواب ما قرره عليه اني لم أقل للناس إلا ما أمرتني به، من الإقرار لك بالعبودية وأنك ربي وربهم وإلهي وإلههم، وأمرتهم بأن يعبدوك وحدك ولا يشركوا معك في العبادة، وقال: اني كنت شهيداً أي شاهداً عليهم ما دمت فيهم بما شاهدته منهم وعلمته وبما بلغتهم من رسالتك التي حملتنيها وأمرتني بأدائها اليهم ما دمت حياً بينهم، ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ أي قبضتني اليك وأمتني ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ والرقيب هو الذي يشاهد القوم ويرقب ما يعملون ويعرف ذلك.

١١. ثم اعترف بأنه تعالى: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لأنه عالم بجميع الأشياء لا يخفى عليه خافية ولا يغيب عنه شيء فهو يشهد على العباد بكل ما يعملونه.

١٢. وفي إخباره تعالى عن المسيح أنه نفى القول الذي أدعوه عليه تأكيد لتبكيت النصارى وتكذيب لهم وتوبيخ على ما أدعوه من ذلك عليه.

١٣. قال الجبائي: وفي الآية دلالة على أنه تعالى أمات عيسى عليه السلام وتوفاه عندما رفعه، لأنه بيّن أنه كان شهيداً عليهم، وتوفيه إياه بعد أن كان بينهم انما كان عند رفعه إياه إلى السماء عندما أرادوا قتله، وعندي أن الذي ذكره لا يدل على أنه أماته، لأن التوفي هو القبض إليه ولا يستفاد منه الموت إلا بشاهد الحال، ولذلك قال تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ فبين أنه يتوفى التي لم تمت فنفس التوفي لا يفيد الموت بحال.

١٤. ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾:

أ. يجوز أن تكون (أن) بمعنى (أي) مفسرة في قول سيبويه، كما قال: ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ

امْشُوا﴾ أي امشوا، لأنها مفسرة لما قبلها، والمعنى ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله.

ب. ويجوز أن تكون (أن) في موضع خفض على البدل من الهاء وتكون (أن) موصولة بـ ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، ومعناه إلا ما أمرتني به بأن يعبدوا الله.

ج. ويجوز أن تكون موضعها نصبا على البدل من (ما) والمعنى ما قلت لهم شيئا إلا أن اعبدوا الله، أي ما ذكرت لهم إلا عبادة الله.

١٥. وقوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ شاهد بلفظ الإنجيل فإنه ذكر في الفصل الرابع من إنجيل لوقا، قال المسيح: مكتوب أن اسجد لله ربك وإياه وحده فأعبد، وهذا لفظه وهو صريح التوحيد.

١٦. ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾:

أ. ظاهر هذه الآية يدل على أن عيسى عليه السلام لم يكن أعلمه الله أن الشرك لا يغفر على كل حال، فلذلك قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ الذين كفروا بك وجحدوا إلهيتك وكذبوا رسلك ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

ب. وقال البلخي: أن عيسى عليه السلام أخبر أنه لا علم له بما صنعوا بعده من الكفر به حتى قيل له: ماذا أجبت؟ قال لا علم لي، ثم قال: إن كانوا كفروا فعذبتهم فهم عبادك وان كانوا ثبتوا على ما دعوتهم إليه أو تابوا من كفرهم فغفرت لهم فأنت العزيز الحكيم.

ج. ومن ذهب إلى أن قول الله: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ إخبار عما مضى وأن الله قال ذلك عندما رفعه إليه، قال: إنما عنى عيسى إن تعذبهم بمقامهم على معصيتك فإنهم عبادك وإن تغفر لهم بتوبة تكون منهم، لأن القوم كانوا في الدنيا لأن عيسى لم يشك في الآخرة أنهم مشركون، وقد انقطعت التوبة، وإنما قال ذلك في الدنيا وجعل قول الله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ جوابا للرسل حين سألهم ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ فصدقهم الله في ذلك، ومثل ذلك قال عمرو ابن عبيد والجبائي والزجاج وكلهم شرط التوبة، وهذا الذي ذكروه ترك للظاهر وزيادة شرط في ظاهرها ليس عليه دليل، وقوله: ﴿إن الله لايغفر أن يشرك به﴾ إنما هو إخبار لأمة نبينا بأن لايغفر الشرك ولا نعلم أن مثل ذلك أخبر به الأمم الماضية فلا متعلق بذلك.

د. ويمكن أن يكون الوجه في الآية مع تسليم أن كان عارفا بأن الله لا يغفر أن يشرك به وأنه أراد

بذلك تفويض الأمر إلى مالكه وتسليمه إلى مدبره والتبري من أن يكون له شيء من أمر قومه، كما يقول الواحد منا إذا تبرء من تدبير أمر من الأمور ويريد تفويضه إلى غيره: هذا الأمر لا مدخل لي فيه فإن شئت أن تفعله وإن شئت أن تتركه مع علمه أن أحدهما لا يكون منه.

١٧ . ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ معناه إنك القادر الذي لا يغالب وأنت حكيم في جميع أفعالك فيما تفعله بعبادك، وقيل معناه ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ القدير الذي لا يفوتك مذنب ولا يمتنع من سطوتك مجرم (الحكيم) فلا تضع العقاب والعفو إلا موضعهما، ولو قال (الغفور الرحيم) كان فيه معنى الدعاء لهم والتذكير برحمته، على أن العذاب والعفو قد يكونان غير صواب ولا حكمة فالإطلاق لا يدل على الحكمة والحسن، والوصف بالعزيز الحكيم يشتمل على العذاب والرحمة إذا كانا صوابين، وقال الحسين بن علي المغربي رأيت على باب بمصرفى موضع يقال له (بيطار بلال) معروف لوحا قديماً من ساج عليه هذا العشر وفيه (فإنك أنت الغفور الرحيم) وتأريخ الدار سنة سبعين من الهجرة أو نحوها ولعلها باقية إلى اليوم.

١٨ . سؤال وإشكال: قول عيسى عليه السلام ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ يدل على أن الله تعالى له أن يعاقب عبيده من غير جرم كان منهم لأنه علل حسن ذلك بكونهم عبيدا لا بكونهم عصاة، وذلك خلاف ما تذهبون إليه؟ والجواب: لا يجوز أن يريد عيسى عليه السلام بكلامه ما يدل على أن الفعل على كونه غير جائز عليه تعالى، ولا يحسن منه تعالى أيضا أن يترك انكار ذلك فلما علمنا أن الله تعالى لا يجوز أن يعاقب خلقه من غير معصية سبقت منهم من حيث كان ذلك ظلماً محضاً، علمنا أن عيسى أراد بقوله ذلك: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ الجاحدون لك المتخذون معك إلهاً غيرك لأن ما تقدم من الكلام دل عليه فلم يحتج أن يذكره في اللفظ فبطل ما توهموه.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١ . أصل الرقيب المراقبة، وهي المراعاة، ومنه الرقبة؛ لأنها في مثل موضع الرقيب من علو المكان، والرقيب: الحافظ، والرقيب: المنتظِر، تقول: رقبت أرقبت رقبة ورقبانًا: إذا انتظرت، والمَرْقَبُ المكان العالي

(١) التهذيب في التفسير: ٣/٤٧٠.

الذي يقف عليه الرقيب.

٢. بين تعالى من تمام قصة عيسى وقومه يوم القيامة، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ﴾:

أ. أي واذكر إذ قال الله.

ب. وقيل: هو عطف على قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى﴾

٣. اختلفوا متى قيل هذا لعيسى:

أ. قيل: يوم القيامة، عن قتادة وابن جريج وأبي علي والزجاج وأبي مسلم لقوله: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ ولأن ما قبله وما بعده صفة القيامة.. وهو الوجه؛ لأنه يقول توبيخًا وتقريعًا لقومه.

ب. وقيل: قاله لعيسى عليه السلام حين رفعه إلى السماء في الدنيا، عن السدي وقطرب والأصم؛ لأن مخرج الفعل مخرج الماضي.

٤. ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾:

أ. هذا سؤال توبيخ لمن ادعى ذلك على عيسى، عن أبي علي والزجاج.

ب. وقيل: تعريف أن قومه غيروا الأمر إلى الأمر العجيب، عن السدي، على أنه سأله في الدنيا.

ج. وقيل: ليشهد عليهم ببطلان ما هم فيه يوم القيامة، ويتبرأ منهم، ويقر بالعبودية حجة عليهم للناس، قيل: لمن غَيَّرَ دينه إلى النصرانية وكفروا.

٥. ﴿اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ﴾ أما اتخاذهم عيسى إلهًا فلأنهم قالوا: اتحد اللاهوت بالناسوت فصارا شيئًا واحدًا يعبد، وقالوا: هو جوهر واحد ثلاثة أقانيم: أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم روح القدس، ومنهم من يقول: اتحد الأقانيم بالمسيح:

أ. وقيل: اعتقدوا أن أمه ولدت إلهًا، فإن كان ولدها إلهًا فهي أولى.. وهو الوجه؛ لأنه قول لجميعهم.

ب. وقيل: قد كان ذلك قولاً لهم.

ج. وقيل: أعطوها اسم القدماء وأخرجوها عن أسماء النساء، وهذا يرجع إلى ما بينا من الأقانيم فقد اتخذوها إلهًا من جهة المعنى وإن لم يصرحوا به.

د. وقيل: بلغوا بتعظيمها وتعظيم ابنها الآلهة.

٦. ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾:

أ. قيل ﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية، كأنه قيل: من دون عبادة الله؛ لأنها صارت بدلاً من الإخلاص لعبادة الله.

ب. وقيل: هو تأكيد للتمكين في النفس.

٧. ﴿قَالَ﴾ يعني عيسى ﴿سُبْحَانَكَ﴾:

أ. أي: تنزيهًا لك، وبراءة مما لا يجوز عليك.

ب. وقيل: تنزيهًا لك من أن تبعث رسولاً يدعي الإلهية لنفسه ويكفر بنعمتك، فجمع بين التوحيد والعدل.

٨. ثم تبرأ من قول النصارى، فقال: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾:

أ. يعني إذ كنت رسولاً فكيف أقول خلاف الحق؟

ب. وقيل: العبادة إنها تحق لك لقدرتك على أصول النعم، ولا تحق لي، فكيف أقول لنفسي ما ليس لي بحق؟

٩. ثم استشهد الله على براءته من ذلك القول فقال سبحانه: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ يعني تعلم أني لم أقله ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾:

أ. قيل: تعلم ما أخفي ولا أعلم ما تخفي، فذكر النفس لمزاوجة الكلام؛ لأن ما يخفيه كأنه أخفي في النفس.

ب. وقيل: تعلم ما عندي، ولا أعلم ما عندك.

ج. وقيل: تعلم ما في غيبي، ولا أعلم ما في غيبك، عن ابن عباس.

د. وقيل: تعلم ما كان مني في الدنيا ولا أعلم ما يكون منك في الآخرة، عن أبي روق.

هـ. وقيل: تعلم جميع ما أعلم ولا أعلم جميع ما تعلم، عن الزجاج.

و. وقيل: معنى النفس ذاته، يعني تعلم ما أقول وأفعل ولا أعلم ما تقول وتفعل، عن الأصم.

ز. وقيل: أراد بقوله: ﴿نَفْسُكَ﴾ نفس عيسى إلا أنه أضافه إليه من حيث خلقه وملكه، يعني تعلم مما في نفسي أمورًا لا أعلمها أنا من كيفية التراكيب، وخطرات القلب، وحركات الأعضاء، وليس بالوجه؛

لأنه خلاف الظاهر.

١٠. ثم بين ما قاله لهم فقال سبحانه حاكيًا عن عيسى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده ولا تشركوا به شيئًا وأطيعوه؛ لأنه ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ وخالقي وخالقكم ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾:

أ. قيل: شاهدًا.

ب. وقيل: مشاهدًا ﴿مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ حيًّا بين أظهرهم.

١١. ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾:

أ. قيل: هو وفاة الرفع إلى السماء، عن الحسن؛ أي: قبضتني.

ب. وقيل: وفاة الموت، عن أبي علي.

١٢. ﴿كُنْتَ أَنْتَ﴾ يا رب ﴿الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ قيل: الحفيظ، عن قتادة وابن جريج والسدي ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾:

أ. قيل: شاهد له؛ لأنك عليم به.

ب. وقيل: مشاهد على تقدير: يشاهد كل شيء من المشاهدات.

١٣. ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾:

أ. قيل: هذا تسليم الأمر إلى الله تعالى، وأنه قادر على ما يشاء، وليس يشك في أنه لا يغفر للكفار، والمعنى أنهم عبادك لا يقدرون على دفع شيء عن أنفسهم، فإن عذبتهم فقد عذبت المستحق، وأنت قادر لا يمكنه مدافعة، وإن غفرت فحكيم في ذلك تغفر لمن استحق الغفران، عن أبي علي، وهذا أحسن ما قيل في معنى الكلام.

ب. وقيل: هذا إخبار منه بأن فيهم مُصِرًّا وتائبًا، فقال: إن تعذب المُصِرَّ فبقدرتك، وإن غفرت للتائب فبحكمتك.

ج. وقيل: إن عذبتهم على كفرهم فهم أهل له حيث كانوا عبيدك، واتخذوا إلهًا غيرك، وإن غفرت فأنت أهل الكرم، والفضل يحسن منك ذلك، كأنه قال يجوز الغفران عقلاً غير أنه وعد ألا يغفر.

د. وقيل ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ﴾ فبتقصيرهم في توحيدك وعبادتك فهم أهل له، وأنت قادر على الانتقام،

وإن تغفر فأنت أهل الغفران.

هـ. وقيل: إن تعذبهم فلإقامتهم على الكفر، وإن تغفر فبتوبة كانت منهم، عن الحسن، والعزيز: القادر الذي لا يجوز عليه المنع، والحكيم المحكم لأفعاله، وإنما أتى بهاتين الصفتين تسليمًا للأمر، ولو قال الغفور الرحيم لأوهم أنه يسأل المغفرة.

و. وقيل: ليبين أنه قادر على ما يشاء، ولا يفعل إلا الحكمة في التعذيب، والغفران.

١٤. تدل الآية الكريمة على:

أ. كذب النصارى على المسيح فيما أضافوه إليه.

ب. تنزيهه تعالى في توحيده وعدله عما لا يليق به من صفات النقص.

ج. تحذير العباد من المعاصي، حيث تشهد عليهم الرسل يوم القيامة.

د. أن عيسى مات بعدما رفعه إلى السماء، خلاف من يقول: إنه لا يموت البتَّة.

١٥. قراءة العامة ﴿عِبَادَكَ﴾، وعن الحسن عبيدك)، والمعنى واحد، والعبد واحد العبيد، وأصل العبودية الخضوع، ومنه: طريق مُعَبَّدٌ، أي مذلل.

١٦. مسائل لغوية ونحوية:

أ. في العامل في ﴿إِذِ﴾ قولان:

• الأول: ما عمل في ﴿إِذِ﴾ الأولى: فيكون عامل الإعراب فيهما واحدًا.

• الثاني: عطف جملة على جملة لتطاول الكلام بينهما، فيكون العامل مضمرًا غير الأول.

ب. ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ جاء على صفة الماضي والمراد به المستقبل لتحقيق كونه وظهور برهانه كقوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ لأنه بمنزلة ما قد وقع وشوهد، قال أبو النجم: (ثم جزاه الله عنا إذ جزى) يعني إذا جزى، قال زياد الأعجم يرثي المغيرة بن المهلب:

فإذا مررت بقبره فانحر له ... كوم الهجان وكل طرف سابح

وانضح جوانب قبره بدمائها ... فلقد يكون أخا دم وذبائح

يعني كان، والعرب تفعل مثل هذا للتصرف في الكلام، الكوم: القطعة من الإبل، والكوماء: الناقة العظيمة السنام، والهجان من الإبل: البيض الكرام..

ج. في موضع ﴿أَنْ﴾ في قوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا﴾ أقوال:

• الأول: الجر على البدل من الضمير في ﴿بِهِ﴾

• الثاني: النصب على البدل من ﴿مَا﴾

• الثالث: لا موضع لها على أن تكون بمعنى ﴿أَيِّ﴾

د. ﴿الرَّقِيبَ﴾ نصب؛ لأنه خبر ﴿كَانَ﴾، و﴿أَنْتَ﴾ صلة وعماد.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. النفس: تقع على وجوه:

• فالنفس نفس الإنسان وغيره من الحيوان، وهي التي إذا فارقها خرج من كونه حيا، ومنه قوله: ﴿﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾

• والنفس أيضا: ذات الشيء الذي يخبر عنه، كقولهم فعل ذلك فلان نفسه.

• والنفس أيضا: الإرادة كما في قوله الشاعر:

فنفساي نفس قالت ائت ابن بجدل	تجد فرجا من كل غمي تهابها
ونفس تقول أجهد بخائك لا تكن	كخاضبة لم يغن شيئا خضابها

وقال النمر بن تولب:

أما خليلي فإني لست معجله	حتى يؤامر نفسية كما زعما
نفس له من نفوس القوم صالحة	تعطي الجزيل ونفس ترضع الغنما

يريد أنه بين نفسين: نفس تأمره بالجود، وأخرى تأمره بالبخل، وكنى برضاع الغنم عن البخل، كما يقال لئيم راضع.

• والنفس: العين التي تصيب الإنسان، وروي أن رسول الله ﷺ كان يرقي فيقول: بسم الله أرقيك،

(١) تفسير الطبرسي: ٣/٤١١.

والله يشفيك، من كل داء هو فيك، من كل عين عاين، ونفس نافس،، وحسد حاسد قال ابن الأعرابي: النفوس الذي تصيب الناس بالنفس، وذكر رجلا فقال كان حسودا نفوسا كذوبا، وقال ابن قيس الرقيات:

يتقي أهلها النفوس عليها فعلى نحرها الرقي والتميم

وقال مضرس:

وإذا نموا صعدا فليس عليهم منا الخيال ولا نفوس الحسد

- والنفس: الغيب يقال اني لأعلم نفس فلان أي غيبه، وعلى هذا تأويل الآية.
- ويقال النفس أيضا: العقوبة، وعليه حمل بعضهم قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾

ب. الرقيب: أصله من الترقب وهو الانتظار، ومعناه: الحافظ، ورقيب القوم: حارسهم.

ج. الشهيد: الشاهد لما يكون، ويجوز أن يكون بمعنى العليم.

٢. عطف سبحانه على ما تقدم من أمر المسيح فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ﴾ والمعنى: إذ يقول الله يوم القيامة لعيسى ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾:

أ. هذا، وإن خرج مخرج الاستفهام، فهو تقريع وتهديد لمن ادعى ذلك عليه من النصارى، كما جرى في العرف بين الناس أن من ادعى على غيره قولا، فيقال لذلك الغير بين يدي المدعى عليه ذلك القول أأنت قلت هذا القول، ليقول: لا، فيكون ذلك استعظاما لذلك القول، وتكذيبا لقائله.. وهو أصح.

ب. وذكر فيه وجه آخر وهو: أن يكون تعالى أراد بهذا القول تعريف عيسى أن قوما قد اعتقدوا فيه، وفي أمه، أنهما إلهان، لأنه يمكن أن يكون عيسى لم يعرف ذلك إلا في تلك الحال، عن البلخي.

٣. سؤال وإشكال: وقد اعترض على قوله: إلهين، فقيل: لا يعلم في النصارى من اتخذ مريم إلها؟

والجواب: من وجوه:

أ. أحدها: إنهم لما جعلوا المسيح إلها، لزمهم أن يجعلوا والدته أيضا إلها، لان الولد يكون من جنس الوالدة، فهذا على طريق الإلزام لهم.

ب. الثاني: إنهم لما عظموهما تعظيم الآلهة، أطلق اسم الآلهة عليهما، كما أطلق اسم الرب على الرهبان والأحبار في قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾ لما عظموهم تعظيم الرب.

ج. الثالث: إنه يحتمل أن يكون فيهم من قال بذلك، ويعضد هذا القول ما حكاه الشيخ أبو جعفر،

عن بعض النصارى أنه قد كان فيما مضى قوم يقال لهم المريمية، يعتقدون في مريم أنها إله، فعلى هذا يكون القول فيه كالقول في الحكاية عن اليهود وقولهم عزير ابن الله.

٤. ﴿قَالَ﴾ يعني: عيسى ﴿سُبْحَانَكَ﴾:

أ. جل جلالك، وعظمت، وتعاليت، عن عطاء.

ب. وقيل: معناه تنزيها لك، وبراءة مما لا يجوز عليك.

ج. وقيل: تنزيها لك من أن تبعث رسولا يدعي إلهية لنفسه، ويكفر بنعمتك، فجمع بين التوحيد والعدل.

٥. ثم تبرأ من قول النصارى، فقال: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي: لا يجوز لي أن أقول لنفسي ما لا يحق لي، فأمر الناس بعبادتي، وأنا عبد مثلهم، وإنما تحق العبادة لك لقدرتك على أصول النعم.

٦. ثم استشهد الله تعالى على براءته من ذلك القول فقال: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ يريد أني لم أقله، لأني لو كنت قلته لما خفي عليك، لأنك علام الغيوب ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ أي: تعلم غيبي وسري، ولا أعلم غيبك وسرك، عن ابن عباس، وإنما ذكر النفس لمزاوجة الكلام، والعادة جارية بأن الإنسان يسر في نفسه، فصار قوله: ﴿مَا فِي نَفْسِي﴾ عبارة عن الإخفاء، ثم قال: ﴿مَا فِي نَفْسِكَ﴾ على جهة المقابلة، وإلا فالله منزه عن أن يكون له نفس، أو قلب، تحل فيه المعاني، ويقوي هذا التأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ لأنه علل علمه بما في نفس عيسى، بأنه علام الغيوب، وعيسى ليس كذلك، فلذلك لم يعلم ما يختص الله بعلمه.

٧. ثم قال حكاية عن عيسى في جواب ما قرره تعالى عليه ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أي: لم أقل للناس إلا ما أمرتني به من الإقرار لك بالعبودية، وإنك ربي وربهم، وإلهي وإلههم، وأمرتهم أن يعبدوك وحدك، ولا يشركوا معك غيرك في العبادة.

٨. ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي: شاهدا ﴿مَا دُمْتُ﴾ حيا ﴿فِيهِمْ﴾ بما شاهدته منهم، وعلمته، وبما أبلغتهم من رسالتك التي حملتنيها، وأمرتني بأدائها إليهم.

٩. ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾:

أ. أي: قبضتني إليك، وأمتني، عن الجبائي.

ب. وقيل: معناه وفاة الرفع إلى السماء، عن الحسن.

١٠. ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ﴾ أي: الحفيظ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عن السدي، وقتادة، ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: أنت عالم بجميع الأشياء، لا تخفى عليك خافية، ولا يغيب عنك شيء قال الجبائي: وفي هذه الآية دلالة على أنه أمات عيسى وتوفاه، ثم رفعه إليه لأنه بين أنه كان شهيدا عليهم ما دام فيهم، فلما توفاه الله كان هو الشهيد عليهم، وهذا ضعيف لان التوفي لا يستفاد من إطلاقه الموت ألا ترى إلى قوله: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ فبين أنه تعالى يتوفى الأنفس التي لم تمت.

١١. ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ لا يقدرون على دفع شيء من أنفسهم ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾:

أ. في هذا تسليم الأمر لمالكه، وتفويض إلى مدبره، وتبرؤ من أن يكون إليه شيء من أمور قومه، كما يقول الواحد منا إذا تبرأ من تدبير أمر من الأمور، ويريد تفويضه إلى غيره: هذا الأمر لا مدخل لي فيه، فإن شئت فافعله، وإن شئت فاتركه، مع علمه وقطعه على أن أحد الأمرين لا يكون منه.

ب. وقيل: إن المعنى إن تعذبهم فبإقامتهم على كفرهم، وإن تغفر لهم فبتوبة كانت منهم عن الحسن، فكأنه اشترط التوبة، وإن لم يكن الشرط ظاهرا في الكلام، وإنما لم يقل فإنك أنت الغفور الرحيم، لان الكلام لم يخرج مخرج السؤال، ولو قال ذلك لأوهم الدعاء لهم بالمغفرة، على أن قوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أبلغ في المعنى، وذلك أن المغفرة قد تكون حكمة، وقد لا تكون، والوصف بالعزيز الحكيم، يشتمل على معنى الغفران والرحمة، إذا كانا صوابين، ويزيد عليهما باستيفاء معان كثيرة، لان العزيز هو المنيع القادر، الذي لا يضام، والقاهر الذي لا يرام، وهذا المعنى لا يفهم من الغفور الرحيم، والحكيم هو الذي يضع الأشياء مواضعها، ولا يفعل إلا الحسن الجميل، فالمغفرة والرحمة إن اقتضتهما الحكمة، دخلتا فيه، وزاد معنى هذا اللفظ عليهما، من حيث اقتضى وصفه بالحكمة في سائر أفعاله.

١٢. مسائل لغوية ونحوية:

أ. حقيقة إذ: أن يكون لما مضى، وهذا معطوف على ما قبله، فكأنه قال يوم يجمع الله الرسل، فيقول: ماذا أجبتم، وذلك إذ يقول يا عيسى، وقيل: إنه تعالى إنما قال له ذلك حين رفعه إليه، فيكون القول ماضيا،

عن البلخي، وهذا قول السدي، والصحيح الأول، لأن الله عقب هذه الآية بقوله: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ وأراد به يوم القيامة، وإنما خرج هذا مخرج الماضي، وهو للمستقبل تحقيقا لوقوعه، كقوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ ومثله قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ﴾ يريد إذ يفزعون، وكذلك قوله: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾، وقال أبو النجم:

ثم جزاه الله عني إذ جزى... جنات عدن في العلالي العلا

ب. ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾: من زائدة مؤكدة للمعنى.

ج. ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ﴾ المعنى إن أكن الآن قلته فيما مضى، وليس كان فيه على المعنى، لان الشرط والجزاء لا يقعان إلا فيما يستقبل، وحرف الجزاء يغير معنى المضي إلى الاستقبال لا محالة، هذا قول المحققين.

د. ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ ذكر في محله وجوه أحدها: النصب بدلا مما أمرتني به، والثاني: أن يكون مجرورا لموضع بدلا من الهاء في به، والثالث: أن يكون أن مفسرة لما أمر به بمعنى أي، وعلى هذا، فلا موضع لها من الاعراب.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ في زمان هذا القول قولان:

أ. أحدهما: أنه يقوله له يوم القيامة، قاله ابن عباس، وقتادة، وابن جريج.

ب. الثاني: أنه قاله له حين رفعه إليه، قاله السّدّيّ، والأوّل أصحّ.

٢. في (إذ) ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أنها زائدة، والمعنى: وقال الله، قاله أبو عبيدة.

ب. الثاني: أنها على أصلها، والمعنى: وإذ يقول الله له، قاله ابن قتيبة.

ج. الثالث: أنها بمعنى: (إذا)، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا﴾، والمعنى: إذا، قال أبو النجم:

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ١/٦٠٥.

ثمّ جزاك الله عنّي إذ جزى جنّات عدن في السّماوات العلا

ولفظ الآية لفظ الاستفهام، ومعناها التّوبيخ لمن ادّعى ذلك على عيسى.

٣. قال أبو عبيدة: وإنّما قال: (إلهين)، لأنّهم إذ أشركوا فعل ذكر مع فعل أنثى ذكّروهما.

٤. سؤال وإشكال: النّصارى لم يتّخذوا مريم إلها، فكيف قال الله تعالى ذلك فيهم؟ والجواب: أنهم لمّا قالوا: لم تلد بشرا، وإنّما ولدت إلها، لزمهم أن يقولوا: إنّها من حيث البعضيّة بمثابة من ولدته، فصاروا بمثابة من قاله.

٥. ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ أي: براءة لك من السّوء ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي: لست أستحقّ العبادة فأدعو الناس إليها، وروى عطاء بن السّائب عن ميسرة قال لمّا قال الله تعالى لعيسى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ رعد كلّ مفصل منه حتى وقع مخافة أن يكون قد قاله، وما قال إنّي لم أقل، ولكنه قال: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾

٦. سؤال وإشكال: ما الحكمة في سؤال الله تعالى له عن ذلك وهو يعلم أنه ما قاله؟ والجواب: أنه تثبيت للحجّة على قومه، وإكذاب لهم في ادّعائهم عليه أنه أمرهم بذلك، ولأنّه إقرار من عيسى بالعجز في قوله: ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ وبالعبوديّة في قوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾

٧. ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ قال الزجّاج: تعلم ما أضمره، ولا أعلم ما عندك علمه، والتّأويل: تعلم ما أعلم وأنا لا أعلم ما تعلم.

٨. ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ قال مقاتل: وحّدوه.

٩. ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي: على ما يفعلون ما كنت مقيما فيهم.

١٠. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ فيه قولان:

أ. أحدهما: بالرّفع إلى السّماء.

ب. الثاني: بالموت عند انتهاء الأجل.

١١. (الرّقيب) مشروح في سورة (النّساء)، و(الشّهيد) في (آل عمران)

١٢. ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾:

أ. قال الحسن، وأبو العالية: إن تعذّبهم، فبإقامتهم على كفرهم، وإن تغفر لهم، فبتوبة كانت منهم.

ب. وقال الزجّاج: علم عيسى أنّ منهم من آمن، ومنهم من أقام على الكفر، فقال في جملتهم: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ﴾ أي: إن تعذّب من كفر منهم فإنهم عبادك، وأنت العادل فيهم، لأنك قد أوضحت لهم الحقّ، فكفروا، وإن تغفر لهم، أي: وإن تغفر لمن أقلع منهم، وآمن، فذلك تفضّل منك، لأنه قد كان لك أن لا تغفر لهم بعد عظيم فريتهم، وأنت في مغفرتك لهم عزيز، لا يمتنع عليك ما تريد، حكيم في ذلك.

ج. وقال ابن الأنباريّ: معنى الكلام: لا ينبغي لأحد أن يعترض عليك، فإن عذّبتهم، فلا اعتراض عليك، وإن غفرت لهم ـ ولست فاعلا إذا ماتوا على الكفر ـ فلا اعتراض عليك، وقال غيره: العفو لا ينقص عزّك، ولا يخرج عن حكمك.

د. وقد روى أبو ذرّ قال قام رسول الله ﷺ قيام ليلة بآية يردّدها: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَإِذْ قالَ اللهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾:

أ. هذا معطوف على قوله: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ [المائدة: ١١٠] وعلى هذا القول فهذا الكلام إنما يذكره لعيسى يوم القيامة.. وهو أصح، لأن الله تعالى عقيب هذه القصة بقوله: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩] والمراد به يوم القيامة، وأما التمسك بكلمة إذ فقد سبق الجواب عنه.

ب. ومنهم من قال إنه تعالى قال هذا الكلام لعيسى عليه السلام حين رفعه إليه وتعلق بظاهر قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ﴾ وإذ تستعمل للماضي.

٢. سؤال وإشكال: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ الاستفهام كيف يليق بعلام الغيوب؟ والجواب: أنه استفهام على سبيل الإنكار.

٣. سؤال وإشكال: الله تعالى كان عالما بأن عيسى عليه السلام لم يقل ذلك فلم خاطبه به؟ فإن

(١) التفسير الكبير: ١٢/٤٦٦.

قلتم الغرض منه توبيخ النصارى وتقريعهم فنقول: إن أحدا من النصارى لم يذهب إلى القول بإلهية عيسى ومريم مع القول بنفي إلهية الله تعالى فكيف يجوز أن ينسب هذا القول إليهم مع أن أحدا منهم لم يقل به؟

والجواب: أن الإله هو الخالق، والنصارى يعتقدون أن خالق المعجزات التي ظهرت على يد عيسى ومريم هو عيسى عليه السلام ومريم والله تعالى ما خلقها ألبتة وإذا كان كذلك فالنصارى قد قالوا إن خالق تلك المعجزات هو عيسى ومريم والله تعالى ليس خالقها، فصح أنهم أثبتوا في حق بعض الأشياء كون عيسى ومريم إلهين له مع أن الله تعالى ليس إلها له فصح بهذا التأويل هذه الحكاية والرواية.

٤. ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أما قوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ فقد فسرناه في قوله: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا﴾ [البقرة: ٣٢]

٥. لما سأل الله تعالى عيسى عليه السلام أنك هل قلت كذا لم يقل عيسى بأني قلت أو ما قلت بل قال ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، وهذا ليس بحق ينتج أنه ما يكون لي أن أقول هذا الكلام ولما بيّن أنه ليس له أن يقول هذا الكلام شرع في بيان أنه هل وقع هذا القول منه أم لا فلم يقل بأني ما قلت هذا الكلام لأن هذا يجري مجرى دعوى الطهارة والنزاهة، والمقام مقام الخضوع والتواضع، ولم يقل بأني قلته بل فوض ذلك إلى علمه المحيط بالكل، فقال: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ وهذا مبالغة في الأدب وفي إظهار الذل والمسكنة في حضرة الجلال وتفويض الأمور بالكلية إلى الحق سبحانه.

٦. ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ المفسرون ذكروا فيه عبارات:

أ. تعلم ما أخفي ولا أعلم ما تخفي

ب. وقيل: تعلم ما عندي ولا أعلم ما عندك.

ج. وقيل: تعلم ما في غيبي ولا أعلم ما في غيبك.

د. وقيل: تعلم ما كان مني في الدنيا ولا أعلم ما كان منك في الآخرة.

هـ. وقيل: تعلم ما أقول وأفعل، ولا أعلم ما تقول وتفعل.

٧. تمسكت المجسمة بهذه الآية وقالوا: النفس هو الشخص وذلك يقتضي كونه تعالى جسما، والجواب من وجهين:

أ. الأول: أن النفس عبارة عن الذات، يقال نفس الشيء وذاته بمعنى واحد.

ب. الثاني: أن المراد تعلم معلومي ولا أعلم معلومك ولكنه ذكر هذا الكلام على طريق المطابقة والمشاكلة وهو من فصيح الكلام.

٨. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ وهذا تأكيد للجملتين المتقدمتين أعني قوله: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾، وقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾

٩. ثم قال تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أن مفسرة والمفسر هو الهاء في به الراجع إلى القول المأمور به والمعنى ما قلت لهم إلا قولا أمرتني به وذلك القول هو أن أقول لهم: اعبدوا الله ربي وربكم، وكان الأصل أن يقال: ما أمرتهم إلا بما أمرتني به إلا أنه وضع القول موضع الأمر، نزولا على موجب الأدب الحسن، لئلا يجعل نفسه وربه أمرين معا، ودلّ على الأصل بذكر أن المفسرة.

١٠. ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي كنت أشهد على ما يفعلون ما دمت مقيما فيهم، ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ والمراد منه، وفاة الرفع إلى السماء، من قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]

١١. ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ قال الزجاج: الحافظ عليهم المراقب لأحوالهم، ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ يعني أنت الشهيد لي حين كنت فيهم وأنت الشهيد عليهم بعد مفارقتي لهم، فالشهيد الشاهد ويجوز حمله على الرؤية، ويجوز حمله على العلم، ويجوز حمله على الكلام بمعنى الشهادة فالشهيد من أسماء الصفات الحقيقية على جميع التقديرات.

١٢. ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ معنى الآية ظاهر، سؤال وإشكال: كيف جاز لعيسى عليه السلام أن يقول ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ والله لا يغفر الشرك، والجواب: من وجوه:

أ. الأول: أنه تعالى لما قال لعيسى عليه السلام: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [المائدة: ١١٦] علم أن قوما من النصارى حكوا هذا الكلام عنه، والحاكي لهذا الكفر عنه لا يكون كافرا بل يكون مذنبا حيث كذب في هذه الحكاية وغفران الذنب جائز، فلهذا المعنى: طلب المغفرة من الله تعالى.

ب. الثاني: أنه يجوز على مذهبنا[١] من الله تعالى أن يدخل الكفار الجنة وأن يدخل الزهاد والعباد النار، لأن الملك ملكه ولا اعتراض لأحد عليه، فذكر عيسى هذا الكلام ومقصوده منه تفويض الأمور كلها إلى الله، وترك التعرض والاعتراض بالكلية، ولذلك ختم الكلام بقوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يعني أنت قادر على ما تريد، حكيم في كل ما تفعل لا اعتراض لأحد عليك، فمن أنا والخوض في أحوال الربوبية، وقوله إن الله لا يغفر الشرك فنقول: إن غفرانه جائز عندنا، وعند جمهور البصريين من المعتزلة قالوا: لأن العقاب حق الله على المذنب وفي إسقاطه منفعة للمذنب، وليس في إسقاطه على الله مضرة، فوجب أن يكون حسنا بل دلّ الدليل السمعي في شرعنا على أنه لا يقع، فلعل هذا الدليل السمعي ما كان موجودا في شرع عيسى عليه السلام.

ج. الثالث: أن القوم قالوا هذا الكفر فعيسى عليه السلام جوّز أن يكون بعضهم قد تاب عنه، فقال: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ﴾ علمت أن أولئك المعذبين ماتوا على الكفر فلك أن تعذبهم بسبب أنهم عبادك، وأنت قد حكمت على كل من كفر من عبادك بالعقوبة، وإن تغفر لهم علمت أنهم تابوا عن الكفر، وأنت حكمت على من تاب عن الكفر بالمغفرة.

د. الرابع: أنا ذكرنا أن من الناس من قال إن قول الله تعالى لعيسى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ الله﴾ [المائدة: ١١٦] إنما كان عند رفعه إلى السماء لا في يوم القيامة، وعلى هذا القول فالجواب سهل لأن قوله: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ يعني ان توفيتهم على هذا الكفر وعذبتهم فإنهم عبادك فلك ذاك، وان أخرجتهم بتوفيقك من ظلمة الكفر إلى نور الايمان، وغفرت لهم ما سلف منهم فلك أيضا ذاك وعلى هذا التقدير فلا إشكال.

١٣. احتج بعض الأصحاب[٢] بهذه الآية على شفاعة محمد ﷺ في حق الفساق قالوا: لأن قول عيسى عليه السلام ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ ليس في حق أهل الثواب لأن التعذيب لا يليق بهم، وليس أيضا في حق الكفار لأن قوله: ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لا يليق بهم فدل على أن ذلك ليس إلا في حق الفساق من أهل الايمان، وإذا ثبت شفاعة الفساق في حق عيسى عليه السلام ثبت في حق

---

(١) يقصد أهل السنة، والأشاعرة خصوصا

(٢) يقصد أهل السنة، والأشاعرة خصوصا

محمد ﷺ بطريق الأولى: لأنه لا قائل بالفصل.

١٤. روى الواحدي أن في مصحف عبد الله (وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم) سمعت شيخي ووالدي رحمه الله يقول: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هاهنا أولى من الغفور الرحيم، لأن كونه غفورا رحيما يشبه الحالة الموجبة للمغفرة والرحمة لكل محتاج، وأما العزة والحكمة فهما لا يوجبان المغفرة، فإن كونه عزيزا يقتضي أنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وأنه لا اعتراض عليه لأحد فإذا كان عزيزا متعاليا عن جميع جهات الاستحقاق، ثم حكم بالمغفرة كان الكرم هاهنا أتم مما إذا كان كونه غفورا رحيما يوجب المغفرة والرحمة، فكانت عبارته رحمه الله أن يقول: عز عن الكل، ثم حكم بالرحمة فكان هذا أكمل، وقال قوم آخرون: إنه لو قال فإنك أنت الغفور الرحيم، أشعر ذلك بكونه شفيعا لهم، فلما قال: ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ دل ذلك على أن غرضه تفويض الأمر بالكلية إلى الله تعالى، وترك التعرض لهذا الباب من جميع الوجوه.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾، اختلف في وقت هذه المقالة فقال قتادة وابن جريج وأكثر المفسرين: إنما يقال له هذا يوم القيامة، وقال السدي وقطرب، قال له ذلك حين رفعه إلى السماء وقالت النصارى فيه ما قالت، واحتجوا بقوله: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة] فإن ﴿إِذِ﴾ في كلام العرب لما مضى.

٢. والأول أصح يدل عليه ما قبله من قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾ [المائدة] الآية وما بعده ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة]، وعلى هذا تكون ﴿إِذِ﴾ بمعنى ﴿إِذَا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا﴾ [سبأ] أي إذا فزعوا، وقال أبو النجم:

ثم جزاه الله عني إذ جزى   جنات عدن في السماوات العلا

يعني إذا جزى، وقال الأسود بن جعفر الأزدي:

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/٣٧٤.

فالآن إذ هازلتهن فإنما   يقلن ألا لم يذهب الشيخ مذهبا

يعني إذا هازلتهن فعبر عن المستقبل بلفظ الماضي لأنه لتحقيق أمره وظهور برهانه كأنه قد وقع، وفي التنزيل ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف] ومثله كثير وقد تقدم.

٣. واختلف أهل التأويل في معنى هذا السؤال وليس هو باستفهام وإن خرج مخرج الاستفهام على قولين:

أ. أحدهما: أنه سأله عن ذلك توبيخا لمن ادعى ذلك عليه ليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ في التكذيب وأشد في التوبيخ والتقريع.

ب. الثاني: قصد بهذا السؤال تعريفه أن قومه غيروا بعده، وادعوا عليه ما لم يقله.

٤. سؤال وإشكال: فالنصارى لم يتخذوا مريم إلها فكيف قال ذلك فيهم؟ والجواب: لما كان من قولهم إنها لم تلد بشرا وإنما ولدت إلها لزمهم أن يقولوا إنها لأجل البعضية بمثابة من ولدته، فصاروا حين لزمهم ذلك بمثابة القائلين له.

٥. ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ خرج الترمذي عن أبي هريرة قال تلقى عيسى حجته ولقاه الله في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: فلقاه الله ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ الآية كلها، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وبدأ بالتسبيح قبل الجواب لأمرين:

أ. أحدهما: تنزيها له عما أضيف إليه.

ب. الثاني: خضوعا لعزته وخوفا من سطوته، ويقال: إن الله تعالى لما قال لعيسى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أخذته الرعدة من ذلك القول حتى سمع صوت عظامه في نفسه فقال: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ ثم قال: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي أن أدعي لنفسي ما ليس من حقها يعني أنني مربوب ولست برب وعابد ولست بمعبود، ثم قال: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ فرد ذلك إلى علمه وقد كان الله عالما به أنه لم يقله ولكنه سأله عنه تقريعا لمن اتخذ عيسى إلها.

٦. ثم قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ أي تعلم ما في غيبي ولا أعلم ما في غيبك،

وقيل: المعنى تعلم ما أعلم ولا أعلم ما تعلم وقيل: تعلم ما أخفيه ولا أعلم ما تخفيه، وقيل: تعلم ما أريد ولا أعلم ما تريد وقيل: تعلم سري ولا أعلم سرك لأن السر موضعه النفس، وقيل: تعلم ما كان مني في دار الدنيا ولا أعلم ما يكون منك في دار الآخرة.. والمعنى في هذه الأقوال متقارب أي تعلم سري وما انطوى عليه ضميري الذي خلقته ولا أعلم شيئا مما استأثرت به من غيبك وعلمك.

٧. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ما كان وما يكون وما لم يكن وما هو كائن.

٨. ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ يعني في الدنيا بالتوحيد، ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ ﴿أَنْ﴾ لا موضع لها من الإعراب وهي مفسرة مثل ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾ [ص]، ويجوز أن تكون في موضع نصب أي ما ذكرت لهم إلا عبادة الله، ويجوز أن تكون في موضع خفض أي بأن اعبدوا الله وضم النون أولى لأنهم يستثقلون كسرة بعدها ضمة والكسر جائز على أصل التقاء الساكنين.

٩. ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي حفيظا بما أمرتهم، ﴿مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ ﴿مَا﴾ في موضع نصب أي وقت دوامي فيهم، ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ قيل: هذا يدل على أن الله تعالى توفاه أن يرفعه وليس بشيء لأن الأخبار تظاهرت برفعه وأنه في السماء حي وأنه ينزل ويقتل الدجال على ما يأتي بيانه وإنما المعنى فلما رفعتني إلى السماء، قال الحسن: الوفاة في كتاب الله تعالى على ثلاثة أوجه: وفاة الموت وذلك قوله تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر] يعني وقت انقضاء أجلها، ووفاة النوم قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ [الانعام] يعني الذي ينيمكم، ووفاة الرفع قال الله تعالى: ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران]

١٠. وقوله ﴿كُنْتَ أَنْتَ﴾ أنت هنا توكيد ﴿الرَّقِيبَ﴾ خبر ﴿كُنْتُ﴾ ومعناه الحافظ عليهم والعالم بهم والشاهد على أفعالهم، وأصله المراقبة أي المراعاة ومنه المرقبة لأنها في موضع الرقيب من علو المكان، و(أنت على كل شي شهيد) أي من مقالتي ومقالتهم، وقيل: على من عصى وأطاع.

١١. خرج مسلم عن ابن عباس قال قام فينا رسول الله ﷺ خطيبا بموعظة فقال: (يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين، ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم ﷺ ألا وإنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول يا رب أصحابي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا

دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ قال: فيقال لي إنهم لم يزالوا مدبرين مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم.

١٢. ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ شرط وجوابه ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ مثله، روى النسائي عن أبي ذر قال قام النبي ﷺ بآية ليلة حتى أصبح، والآية: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، واختلف في تأويله:

أ. فقيل: قاله على وجه الاستعطاف لهم والرأفة بهم كما يستعطف السيد لعبده ولهذا لم يقل: فإنهم عصوك.

ب. وقيل: قاله على وجه التسليم لأمره والاستجارة من عذابه وهو يعلم أنه لا يغفر لكافر، وقيل الهاء والميم في ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ﴾، لمن مات منهم على الكفر والهاء والميم في إن تغفر لهم) لمن تاب منهم قبل الموت وهذا حسن، وأما قول من قال إن عيسى عليه السلام لم يعلم أن الكافر لا يغفر له فقول مجترئ على كتاب الله تعالى لأن الأخبار من الله تعالى لا تنسخ.

ج. وقيل: كان عند عيسى أنهم أحدثوا معاصي وعملوا بعده بها لم يأمرهم به إلا أنهم على عمود دينه فقال: وإن تغفر لهم ما أحدثوا بعدي من المعاصي.

١٣. وقال: ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ولم يقل: فإنك أنت الغفور الرحيم على ما تقتضيه القصة من التسليم لأمره والتفويض لحكمه، ولو قال فإنك أنت الغفور الرحيم لأوهم الدعاء بالمغفرة لمن مات على شركه وذلك مستحيل فالتقدير إن تبقهم على كفرهم حتى يموتوا وتعذبهم فإنهم عبادك، وإن تهدهم إلى توحيدك وطاعتك فتغفر لهم فإنك أنت العزيز الذي لا يمتنع عليك ما تريده، الحكيم فيما تفعله تضل من تشاء وتهدي من تشاء، وقد قرأ جماعة: (فإنك أنت الغفور الرحيم) وليست من المصحف، ذكره القاضي عياض في كتاب (الشفا) وقال أبو بكر الأنباري: وقد طعن على القرآن من قال إن قوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ليس بمشاكل لقوله: ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ لأن الذي يشاكل المغفرة فإنك أنت الغفور الرحيم ـ والجواب ـ أنه لا يحتمل إلا ما أنزله الله ومتى نقل إلى الذي نقله إليه ضعف معناه، فإنه ينفرد الغفور الرحيم بالشرط الثاني فلا يكون له بالشرط الأول تعلق وهو على ما أنزله الله تعالى واجتمع على

قراءته المسلمون مقرون بالشرطين كليهما أولها وآخرهما إذ تلخيصه إن تعذبهم فإنك أنت عزيز حكيم، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم في الأمرين كليهما من التعذيب والغفران فكان العزيز الحكيم أليق بهذا المكان لعمومه فإنه يجمع الشرطين ولم يصلح الغفور الرحيم إذ لم يحتمل من العموم ما احتمله العزيز الحكيم وما شهد بتعظيم الله تعالى وعدله والثناء عليه في الآية كلها والشرطين المذكورين أولى وأثبت معنى في الآية مما يصلح لبعض الكلام دون بعض.

١٤. خرج مسلم من غير طريق عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ تلا قوله تعالى في إبراهيم ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم]، وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فرفع يديه وقال: (اللهم أمتي) وبكى فقال الله تعالى: يا جبريل اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فسله ما يبكيك فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال ـ وهو أعلم ـ فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك) وقال بعضهم: في الآية تقديم وتأخير ومعناه إن تعذبهم فإنك أنت العزيز الحكيم وإن تغفر لهم فإنهم عبادك ووجه الكلام على نسقه أولى لما بيناه.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ﴾ معطوف على ما قبله في محل نصب بعامله أو بعامل مقدّر هنا: أي أذكر، وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذا القول منه سبحانه هو يوم القيامة، والنكتة توبيخ عباد المسيح وأمه من النصارى، وقال السدّي وقطرب: إنه قال له هذا القول عند رفعه إلى السماء لما قالت النصارى فيه ما قالت، والأوّل أولى: قيل: ﴿وَإِذْ﴾ هنا بمعنى إذا، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا﴾ أي إذا فزعوا، وقول أبي النجم:

ثمّ جزاه الله عنّي إذ جزى جنّات عدن في السّموات العلى

أي إذا جزى، وقول الأسود بن جعفر الأزدي:

---

(١) فتح القدير: ١٠٩/٢.

فالآن إذ هازلتهنّ فإنّما يقلن ألا لم يذهب الشّيخ مذهبا

أي إذا هازلتهنّ تعبيرا عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيها على تحقيق وقوعه، وقد قيل في توجيه هذا الاستفهام منه تعالى إنه لقصد التوبيخ كما سبق؛ وقيل: لقصد تعريف المسيح بأن قومه غيروا بعده وادّعوا عليه ما لم يقله.

٢. ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ متعلق بقوله: ﴿اتَّخِذُونِي﴾ على أنه حال: أي متجاوزين الحدّ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف هو صفة لإلهين: أي كائنين من دون الله، ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيه له سبحانه: أي أنزهك تنزيها ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي ما ينبغي لي أن أدّعي لنفسي ما ليس من حقها.

٣. ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ ردّ ذلك إلى علمه سبحانه، وقد علم أنه لم يقله، فثبت بذلك عدم القول منه، ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ هذه الجملة في حكم التعليل لما قبلها: أي تعلم معلومي ولا أعلم معلومك، وهذا الكلام من باب المشاكلة كما هو معروف عند علماء المعاني والبيان؛ وقيل المعنى: تعلم ما في غيبي ولا أعلم ما في غيبك؛ وقيل: تعلم ما أخفيه ولا أعلم ما تخفيه؛ وقيل: تعلم ما أريد ولا أعلم ما تريد.

٤. ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ هذه جملة مقرّرة لمضمون ما تقدّم: أي ما أمرتهم إلا بما أمرتني ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ هذا تفسير لمعنى ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ أي ما أمرتهم، وقيل: عطف بيان للمضمر في ﴿بِهِ﴾ وقيل: بدل منه ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي: حفيظا ورقيبا أرعى أحوالهم وأمنعهم عن مخالفة أمرك ﴿مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي: مدّة دوامي فيهم.

٥. ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ قيل: هذا يدل على أن الله سبحانه توفاه قبل أن يرفعه، وليس بشيء لأن الأخبار قد تضافرت بأنه لم يمت، وأنه باق في السماء على الحياة التي كان عليها في الدنيا حتى ينزل إلى الأرض آخر الزمان، وإنما المعنى: فلما رفعتني إلى السماء، قيل: الوفاة في كتاب الله سبحانه جاءت على ثلاثة أوجه: بمعنى الموت، ومنه قوله تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ وبمعنى النوم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ أي ينيمكم، وبمعنى الرفع، ومنه ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ و﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾

٦. ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أصل المراقبة: المراعاة، أي كنت الحافظ لهم، والعالم بهم والشاهد

عليهم ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ تصنع بهم ما شئت وتحكم فيهم بما تريد ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي القادر على ذلك الحكيم في أفعاله، قيل: قاله على وجه الاستعطاف كما يستعطف السيد لعبده، ولهذا لم يقل إن تعذبهم فإنهم عصوك؛ وقيل: قاله على وجه التسليم لأمر الله والانقياد له، ولهذا عدل عن الغفور الرحيم إلى العزيز الحكيم.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ أي: يقول، والماضي للتحقُّق كأنَّه وقع، والعطف على (إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ)، وقيل: قال ذلك حين رُفع إلى السماء، ﴿اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وأُمِّي﴾ لم يقل ومريم ليوبِّخهم أيضًا بأنَّهم جعلوا من هو مولود ومن هي والدة إلهين، مع أنَّ الإله لا يلد ولا يولد.

٢. ﴿إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ﴾ لَمَّا نزلت الآية أنكر النصارى القول بأنَّ مريم إله خجلاً، أو كان قوم منهم قبلهم يقولون ذلك ولم يدروا بهم، كما حَكَى بعضُ الشيعة عن بعض النصارى أنَّ طائفة منهم فيما مضى تسمَّى الْمَرْيَمِيَّة يعتقدون ألوهيَّتها، كما أنَّ في أسلاف اليهود قومًا يقولون: عزيز ابن الله تعالى، وذلك أولى من أن يقال عظَّموها تعظيم الله سبحانه فَكَأَنَّهُم جعلوها إلهًا، كقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ﴾ إلخ [التوبة: ٣١]، وأولى من أن يقال: لَمَّا جعلوا عيسى إلهًا لزم أنَّ أمَّه إله، لأنَّ الولد من جنس من ولده، توبيخ للنصارى بإقرار عيسى ومريم بعبوديَّتهما لله تعالى، وبكذبهم على قولهم بألوهيَّة عيسى وأمِّه ٦ ، وأنَّ عيسى قائل لهم: (اتَّخِذُونِي..) إلخ؛ ولهذا قال: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ﴾ ولم يقل: (أقلت؟)، ولا يصحُّ ما قيل: إنَّه لو قال: (أقلت) لكان المستفهَم عنه وقوع الاتِّخاذ، وهو معلوم الوقوع لا يستفهم عنه، لأنَّا نقول المستفهَم عنه القولُ لا الاتِّخَاذ.

٣. وَمَعنَى الاتِّخَاذ من دون الله: استلحاقهما بالله توصُّلاً بهما إليه تعالى، كقول عبدة الأصنام: تقرِّبُنا إلى الله زُلفى، ويقال: لم ينف اللهَ نصرانيٌّ بل يعبدون الله وإيَّاهُما، قالوا لعنهم الله: الله كالشمس، وهما كشعاعها، ومَن فَعَل ذلك لم يكن عابدًا إلَّا لغير الله؛ لأنَّ الله أغنى الشركاء عن الشركة، أو معنى الاتِّخَاذِ

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ١٧٩/٤.

من دون الله: الاقتصارُ على عبادتها، ولو عبدوه أيضًا، لبطلان عبادته بالشركة، وَالأُلُوهِيَّة لا تتعدَّد ولا تتجزَّأ، ولو كان معتقدهم اجتماع عبادته وعبادتها، أو أنَّهما الإلهان لا الله، حتَّى قالوا: إنَّه هو خالق معجزاته لا الله، ولا قائل الآن من النصارى إنَّ عيسى وأمَّه خلقا تلك المعجزات.

٤. ﴿قَالَ﴾ مرتعدًا مقشعِرًّا متفجِّرة من أصل كُلِّ شعرة عينُ دَم، ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أسبِّحك عن الإنكار والشركة وصفات الخلق!، وقدَّر بعض: (سبحانك أن أقول ذلك)، أو يقال: وقدَّر بعض: (سبحانك أن يكون لك شريك فضلاً عن أن تُنفَى الألوهةُ عنك وتُثبت لغيرك)، وقدَّر بعض: (سبحانك أن تبعث رسولاً يدَّعي الألوهة لنفسه أو غيره ويدعو إليهما ويكفر نعمتك)

٥. ﴿مَا يَكُونُ﴾ لا يليق ولا يثبت ﴿لِيَ أَنَ اَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ من إثبات الأُلُوهِيَّة لي ولأمِّي، والأمر باتِّخاذها لغيرك، و(بِحَقٍّ) خبر (لَيْسَ)، و(لِي) متعلِّق بـ (لَيْسَ) أو (بِحَقٍّ)، أو حال منه أو بيانٌ، أي: أعني لي، والخبرُ: (لِي)، فتكون الباء غير صلة بل تعلَّق بـ (لِي)، أو باستقراره، أو حال من ضمير الاستقرار، ولا إشكال في نصب القول المفرد الذي معناه جملة، فإنَّ ما في الآية بمعنى: ﴿اِتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ﴾ كما تقول: قال شعرًا، وإنَّما يؤوَّل بالذِّكر لو نصب مفردًا ليس في معنى الجملة، نحو: قلت: الله، أي: ذكرت هذا اللفظ.

٦. ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ صحَّ الماضي المجرَّد المتصرِّف خبرًا لـ (كان)، لأنَّه في مقام الشرط، والشرط أبدًا مستقبل كالجواب، وهو هنا كذلك؛ لأنَّ المعنى: إن صحَّ أنِّي قلته، والصحَّة منتظرة الوقوع، وفي معناه قول الفارسي: إنَّ المعنى: إن كنت الآن قد قلته فيما مضى، لأنَّ كونه الآن مُتَّصِفًا بأنَّه قاله في الماضي، منتظر الصِّحَّة، وكذا علمته، أي: فقد تَبَيَّنَ الآن عِلْمُكَهُ، فكان كغيرها للاستقبال بعد أداة الشرط، والآية من انتفاء الملزوم بانتقاء اللازم، فإنَّ كون عيسى قائلاً بذلك يستلزم علم الله تعالى بكونه قال، فإذا انتفى علم الله به فهو لم يكن.

٧. ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ أجاز بعضٌ كونَ العلم بمعنى المعرفة، ولم يشترط للمعرفة تقدُّم الجهل فله مفعول واحد، ومَن شرط ذلك قدَّر: (تعلم ما في نفسي ثابتًا)، والنفس: الذَّات أو القلب، ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ ما في معلوماتك التي لم تطلعنا عليها، أو ما عندك، وعبر بالنفس للمشاكلة، لأنَّه جلَّ وعلا لا يتَّصف بالقلب، وكذا لا يقال: لا أعلم ما في ذاتك؛ لأنَّه تعالى لا يكون ظرفًا، وإن فَسَّرنَا النفس بالذَّات

فالمشاكلة بلفظ (فِي) والنفس جناس، ومن هذا المعنى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١]، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨، ٣٠]، وقوله ﷺ: (أقسم ربِّي على نفسه أن لا يشرب عبد خمرًا ولم يتب إلى الله تعالى منه إلَّا سقاه من طينة الخبال)، وقوله ﷺ: (ليس أحد أحبَّ إليه المدحُ من الله تعالى؛ ولذلك مدح نفسه)، وقوله ﷺ: (سبحان الله عدد خلقه ورضا نفسه)، أو (نَفْسِكَ) بمعنى غَيْبكَ، وأجيز أنَّ النفس الثانية: نفس عيسى أيضًا أضافها إلى الله تعالى، لأنَّه سبحانه خالقها ومالكها، ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾ لا أنا ولا غيري ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ تقرير بمنطوقه لقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ وتقرير بمفهومه لقوله: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾، ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مآ أَمَرْتَنِي بِهِ أَنُ اعْبُدُواْ اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ تأكيدًا لقوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾، ولقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِيَ أَنَ اَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾، وللمراد بقوله: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ فإنَّه انتفاء من أن يقوله، و(أَنُ اعْبُدُواْ اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ) تفسيرٌ لقوله: ﴿مَآ أَمَرْتَنِي﴾، فيكون في قوله: ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ التفات من الغيبة إلى غيرها، والأصل: (أن اعبدوا الله ربَّ كُلِّ شيء)، ومن كان ربًّا لعيسى ومخاطبيه يكون ربًّا لِكُلِّ شيء، فلا يكون قوله: ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ مانعًا من التفسير، وذلك التفات، وأجاز بعض أن يكون المعنى: ما قلت لهم شيئًا سوى قولك: قل لهم: أن اعبدوا الله رَبِّي وَرَبُّكُمْ، وَضَعَ القول موضع الأمر، فصحَّ ذلك بلا تأويل بالالتفات السكَّاكي، وفيه تكلُّف.

٨. ويجوز تضمين القول معنى الأمر، فيصحُّ أن يكون تفسيرًا للقول وأمَّا على إبقائه على ظاهره فلا، لأنَّ (أن) التفسيريَّة لا تتوسَّط بين القول ومحكيِّه، وقال ابن الصائغ وأبو حيَّان: (أَنْ) تفسيريَّة لـ (اعْبُدُوا الله)، ومن أجاز دخول (أن) المصدريَّة على الأمر والنهي أجاز أن يكون مصدر (اعْبُدُوا) بدلاً أو بيانًا من (ما) في قوله: ﴿إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِ﴾، والقول يُحكى به الجملةُ والمفرد الذي في معنى الجملة، مثل (ما) هذه فإنَّها حكيت بالقول مع أنَّها مفرد، ومثل لفظ العبادة في مقام الأمر بها، فإنَّها تُؤدى بقولك: (اعبدوا)، فَمَعنَى قولك (ما قلت لهم إلَّا العبادة): إلَّا الأمر بها، ولا سيما أنَّ الجملة قبل التأويل بالمصدر موجودة، أو يُضَمَّن القول معنى الذكر فينصُبُ المفردَ، وذِكرُ العبادةِ أمرٌ بها، أو بدلاً أو بيانًا من هاء (بِهِ)، ولا يشترط في البدل أن يحلَّ محلَّ المبدل منه من كلِّ وجه، فلو قلت في: أكلت الرغيف ثلثه أكلت ثلثه، لم يتبيَّن مرجع الضمير، فكذا لو قلت: (ما قلت لهم إلَّا ما أمرتني عبادة الله ربِّي وربِّكم) لبقي الموصول بلا عائد.

٩. ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ رقيبًا أنهاهم عن الكفر، أو مشاهدًا لأحوالهم من كفر وإيمان ﴿مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي: المدَّة الماضية من كوني فيهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ أمتَّني في الأرض بلا قتل، كما قيل: إنَّه مات وأحياه الله ورفعه إلى السماء، ويبعد أن يقال: أَمَتَّني عند قرب الساعة فكُنتَ عليهم شهيدًا فيما بقي من الدُّنيا بعدي، وقبل ذلك كنت شاهدًا عليهم، قبل الرفع وفي السماء بعد الرفع، بأن يؤتى بأخبارهم إليه في السماء، أو المراد بالتوفِّي إليه: رفعُه بلا موت، أي: أخذتني وافيًا إلى السماء، لأنَّ التوفِّي بمعنى الأخذ واردٌ، والجمهور على أنَّه رُفِع بلا موت قبله، وقيل: مات وأحياه ورفعه، وكذا تقول النصارى.

١٠. ﴿كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ الحافظ لأعمالهم، والمراقب لأحوالهم، والموفِّق لمن أردت والخاذل لمن أردت، أو الرقيب بإرسال الدلائل وإقامة الحجج، قال الغزالي: الرقيب أخصُّ من الحافظ؛ لأنَّ الرقيب هو الذي يراعي الشيء ولا يغفل عنه أصلاً، ويلاحظه ملاحظة واجبة لازمة، ولو كانا في صفة الله سواء، ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ومنه قولي لهم وقولهم معي وبعدي، ﴿شَهِيدٌ﴾ مطَّلع عالم.

١١. ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ لإصرارهم فلا اعتراض عليك، أو فأنت عدل في تعذيبهم، أو غير ظالم لهم، أو لا يمتنعوا من عذابك لأنَّهم في أسر ملكك، كما قال: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ لأنَّهم ﴿عِبَادُكَ﴾ مملوكوك، وعن ابن عبَّاس: (وقد عبدوا غيرك فهم أهلٌ للتعذيب)

١٢. ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ بأن تابوا وماتوا غير مصرِّين على الشرك أو ما دونه، والكلام كلٌّ لا كُلِّيَّة، لأنَّهم لم يصرُّوا جميعًا، ولم يتوبوا جميعًا، فقد أحسنت إليهم وقبلت توبتهم، ﴿فَإِنَّكَ﴾ لأنَّك ﴿أَنتَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب في أمره لا يردُّ له قضاء ولا فعل ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يعبث ولا يسفه، ولا يضع الشيء في غير موضعه، وقيل: ذلك من كلام عيسى في الدُّنيا، إن تعذبهم بإبقائهم على الكفر فإنَّهم عبادك، وإن تغفر لهم بالتوفيق إلى الإسلام فإنَّك أنت العزيز الحكيم، تلا ﷺ : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ﴾ إلخ، وقولَه تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ﴾ إلخ [إبراهيم: ٣٦] وبكى، ورفع يديه وقال: (اللهُمَّ أمَّتي أمَّتي) فأوحى الله تعالى إليه: (إنَّا سَنُقِرُّ عينك في أمَّتك ولا نسوءك)

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ بينا أن الغرض من قوله تعالى للرسل ﴿مَاذَا أَجَبْتُمْ﴾ توبيخ من تمرد من أممهم، وأشد الأمم افتقار إلى التوبيخ والملامة النصارى، الذي يزعمون أنهم أتباع عيسى عليه السلام، لأن طعن سائر الأمم كان مقصورا على الأنبياء، وطعن هؤلاء الملحدة تعدى إلى جلال الله وكبريائه، حيث وصفوه بها لا يليق أن يوصف مقامه به، وهو اتخاذ الزوجة والولد، فلا جرم، ذكر تعالى أنه يعدد أنواع نعمه على عيسى بحضرة الرسل واحدة فواحدة، إشعارا بعبوديته، فإن كل واحدة من تلك النعم المعدودة عليه، تدل على أنه عبد وليس بإله، ثم أتبع ذلك باستفهامه لينطق بإقراره، عليه السلام، على رؤوس الأشهاد، بالعبودية، وأمره لهم بعبادة الله عز وجل، إكذابا لهم في افترائهم عليه، وتثبيتا للحجة على قومه؛ فهذا سر سؤاله تعالى له، مع علمه بأنه لم يقل ذلك، وكل ذلك لتنبيه النصارى الذين كانوا في وقت نزول الآية ومن تأثرهم، على قبح مقالتهم وركاكة مذهبهم واعتقادهم.

٢. روي عن قتادة: أن هذا القول يكون يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾، وقال السدّيّ: هذا الخطاب والجواب، في الدنيا وصوّبه ابن جرير، قال: وكان ذلك حين رفعه إلى السماء، واحتج ابن جرير على ذلك بوجهين: أحدهما: أن الكلام بلفظ المضيّ، و(الثاني) قوله: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ﴾، ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾، قال الحافظ ابن كثير: وهذان الدليلان فيهما نظر، لأن كثيرا من أمور يوم القيامة ذكر بلفظ المضيّ ليدل على الوقوع والثبوت، ومعنى قوله: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ الآية: التبرؤ منهم وردّ المشيئة فيهم إلى الله تعالى، وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضي وقوعه، كما في نظائر ذلك من الآيات، فالذي قاله قتادة وغيره هو الأظهر، فالله أعلم أنّ ذلك كائن يوم القيامة، ليدلّ على تهديد النصارى وتقريعهم وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد، قد روي بذلك حديث مرفوع، رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عبد الله مولى عمر بن عبد العزيز، وكان ثقة قال: سمعت أبا بردة يحدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه، أبي موسى الأشعري، قال قال رسول الله ﷺ: إذا كان يوم القيامة دعي بالأنبياء وأممهم، ثم يدعى

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/٣٠٠.

بعيسى فيذكره الله نعمته عليه فيقرّ بها فيقول: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ الآية، ثم يقول: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ فينكر أن يكون قال ذلك، فيؤتى بالنصارى فيسألون فيقولون: نعم هو أمرنا بذلك! قال فيطول شعر عيسى عليه السلام، فيأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه وجسده فيجاثيهم بين يدي الله عز وجل مقدار ألف عام حتى ترفع عليهم الحجة ويرفع لهم الصليب وينطلق بهم إلى النار! قال ابن كثير: وهذا حديث غريب عزيز!

٣. إيثار قوله تعالى ﴿أُمِّي﴾ على ﴿مَرْيَمَ﴾ توبيخ للمتخذين، على توبيخ، أي مع أنك بشر تلد وتولد قبل هذا.

٤. سؤال وإشكال: توهم بعضهم أن كلمة (من دون الله) تفيد أنّ النصارى يعتقدون أن عيسى وأمه، عليهما السلام، مستقلان باستحقاق العبادة، بدلا عن الله تعالى، كما يقال: اتخذت فلانا صديقا دوني، فإن معناه أنه استبدله به، لا أنه جعله صديقا معه، وهم لم يقولوا بذلك، بل ثلّثوا، والجواب: بأن من أشرك مع الله غيره فقد نفاه معنى، لأنه وحده لا شريك له، منزه عن ذلك، فإقراره بالله كلا إقرار، فيكون ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ مجازا عن (مع الله)، ولا يخفى أن هذا تكلف، لأن توبيخهم إنما يحصل بما يعتقدونه ويعترفون به صريحا لا بما يلزمه بضرب من التأويل، فالصواب أن المراد اتخاذهما بطريق إشراكهما به سبحانه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقوله عز وجل: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ - إلى قوله تعالى - ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، إذ به يتأتى التوبيخ، ويتسنى التقريع والتبكيت، هذا ما حققوه هنا.

٥. إن كلمة (دون) في هذه الآية وأمثالها بمعنى (غير) كما حققه اللغويون، ولا تفيد، وضعا، الاستقلال والبدلية، كما توهم وسر ذكرها إفهام الشركة، لأنه لولاها لتوهم دعوى انحصار الألوهية فيما عداه، مع أنهم لا يعتقدون ذلك، ولا يفهم من نحو (اتّخذت صديقا من دوني) الاستبدال، فذاك من قرينة خارجية، وإلا فالمثال لا يعينه، لجواز إرادة اتخاذه معه كما لا يخفي، فتبصر.

٦. ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ أي أنزهك تنزيها لائقا بك من أن يقال هذا وينطق به ﴿مَا يَكُونُ لِي﴾ أي ما يتصور مني بعد إذ بعثتني لهداية الخلق ﴿أَنْ أَقُولَ﴾ أي في حق نفسي ﴿مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي ما استقر في قلوب العقلاء عدم استحقاقي له مما يضلهم.

٧. ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ استئناف مقرر لعدم صدور القول المذكور عنه عليه السلام، بالطريق البرهانيّ، فإن صدوره عنه مستلزم لعلمه تعالى به قطعا، فحيث انتفى علمه تعالى به، انتفى صدره عنه حتما، ضرورة، أن عدم اللازم مستلزم لعدم الملزوم، قاله أبو السعود ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله، كأنه قيل: لأنك تعلم ما أخفيه في نفسي، فكيف بها أعلنه؟ وقوله تعالى: ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ بيان للواقع، وإظهار لقصوره، أي ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك، أفاده أبو السعود ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾

٨. ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ أي ما أمرتهم إلا بما أمرتني به، وإنما قيل: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ نزولا على قضية حسن الأدب، ومراعاة لما ورد في الاستفهام، وقوله تعالى: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ تفسير للمأمور به.

٩. ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾، أي: رقيبا أراعي أحوالهم وأحملهم على العمل بموجب أمرك، ويتأتى لي نهيهم عما أشاهده فيهم مما لا ينبغي.

١٠. ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ أي: بالرفع إلى السماء، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، والتوفي: أخذ الشيء وافيا، والموت نوع منه، قال تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وسبق في قوله تعالى: ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ في (آل عمران) زيادة إيضاح على ما هنا، فتذكر ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: الناظر لأعمالهم، فمنعت من أردت عصمته من التفوّه بذلك، وخذلت من خذلت من الضالين، فقالوا ما قالوا.

١١. ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ اعتراض تذييليّ مقرر لما قبله، وفيه إيذان بأنه تعالى كان هو الشهيد على الكل، حين كونه عليه السلام فيما بينهم.

١٢. دلت الآية الكريمة على أن الأنبياء، بعد استيفاء أجلهم الدنيويّ، ونقلهم إلى البرزخ لا يعلمون أعمال أمتهم، وقد روى البخاري هنا عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال خطب رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس! إنكم محشرون إلى الله حفاة عراة غرلا، ثم قال: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ إلى آخر الآية، ثم قال: ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: يا رب! أصيحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول

كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم.

١٣. ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ قال الحافظ ابن كثير: هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله عزّ وجلّ، فإنه الفعال لما يشاء ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ويتضمن التبرؤ من النصارى الذين كذبوا على الله ورسوله، وجعلوا لله ندّا وصاحبة وولدا، تعالى الله عما يقولون علوّا كبيرا.

١٤. أي: إن تعذبهم فإنك تعذب عبادك، ولا اعتراض على المالك المطلق فيما يفعل بملكه، وفيه تنبيه على أنهم استحقوا ذلك لأنهم عبادك وقد عبدوا غيرك، وإن تغفر لهم فلا عجز ولا استقباح، لأنك القادر القوي على الثواب والعقاب، الذي لا يثيب ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب، فإن المغفرة مستحسنة لكل مجرم، فإن عذبت فعدل، وإن غفرت ففضل، وعدم غفران الشرك مقتضى الوعيد، فلا امتناع فيه لذاته، ليمتنع الترديد والتعليق بـ (إن)، أفاده البيضاوي.

١٥. يعني أن المغفرة، وإن كانت قطعية الانتفاء بحسب الوجود، لكنها لما كانت بحسب العقل، تحتمل الوقوع واللاوقوع، استعمل فيها كلمة (إن) فسقط ما يتوهم أن تعذيبهم، مع أنه قطعيّ الوجود، كيف استعمل فيه (إن) وعدم وقوع العفو بحكم النص والإجماع.

١٦. وفي كتب الكلام: إن غفران الشرك جائز عقلا عندنا وعند جمهور البصريين من المعتزلة، لأن العقاب حق الله على المذنب، وليس في إسقاطه مضرة.

١٧. وبالجملة: فليس قوله تعالى ﴿إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ تعريضا بسؤاله العفو عنهم، وإنما هو لإظهار قدرته على ما يريد، وعلى مقتضى حكمه وحكمته، ولذا قال إنك أنت العزيز الحكيم، تنبيها على أنه لا امتناع لأحد عن عزته، فلا اعتراض في حكمه وحكمته.

١٨. وفي (العناية) ما ملخصه: أن ما ظنه بعضهم من أن مقتضى الظاهر ﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ بدل ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ كما وقع في مصحف عبد الله بن مسعود - فقد غاب عنه سر المقام، لأنه ظن تعلقه بالشرط الثاني فقط، لكونه جوابه، وليس كما توهم، بل هو متعلق بهما، ومن له الفعل والترك عزيز حكيم، فهذا أنسب وأدق وأليق بالمقام، أو هو متعلق بالثاني، وإنه احتراس، لأن ترك عقاب الجاني قد يكون لعجز ينافي

القدرة، أو لإهمال ينافي الحكمة، فبيّن أن ثوابه وعقابه مع القدرة التامة والحكمة البالغة.

١٩. قال الحافظ ابن كثير: هذه الآية لها شأن عظيم ونبأ عجيب، وقد ورد في الحديث أن النبيّ ﷺ قام بها ليلة إلى الصباح يرددها، روى أحمد عن أبي ذر قال: صلى النبيّ ﷺ ذات ليلة، فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فلما أصبح قلت: يا رسول! لم تزل تقرأ هذه الآية حتى أصبحت، تركع بها وتسجد بها؟ قال إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي؛ فأعطانيها، وهي نائلة، إن شاء الله، لمن لا يشرك بالله شيئا، وأخرجه النسائي أيضا، روى أحمد أيضا عن أبي ذر قال: قام رسول الله ﷺ ليلة من الليالي في صلاة العشاء، فصلى بالقوم ثم تخلف أصحاب له يصلون، فلما رأى قيامهم وتخلفهم انصرف إلى رحله، فلما رأى القوم قد أخلوا المكان رجع إلى مكانه فصلى، فجئت فقمت خلفه فأومأ إليّ بيمينه، فقمت عن يمينه، ثم جاء ابن مسعود فقام خلفي، وخلفه، فأومأ إليه بشماله فقام عن شماله، فقمنا ثلاثتنا يصلي كل واحد منا بنفسه، ونتلو من القرآن ما شاء الله أن نتلو، وقام بآية من القرآن يرددها، حتى صلى الغداة، فلما أصبحنا اومأت إلى عبد الله بن مسعود، أن سله ما أراد إلى ما صنع البارحة؟ فقال ابن مسعود: لا أسأله عن شيء حتى يحدث إليّ، فقلت: بأبي وأمي! قمت بآية من القرآن ومعك القرآن، لو فعل هذا بعضنا لوجدنا عليه، قال دعوت لأمتي، قلت: فماذا أجبت؟ أو ماذا رد عليك؟ قال أجبت بالذي لو اطلع عليه كثير منهم طلعة، تركوا الصلاة، قلت: أفلا أبشر الناس، قال بلى، فانطلقت معنقا قريبا من قذفة بحجر، فقال عمر: يا رسول الله؟ إنك إن تبعث بهذا نكلوا عن العبادة، فناداه أن ارجع، فرجع، وتلك الآية ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. اتصال هذه الآيات بما قبلها جلي ظاهر، والخطاب للنبي ﷺ، فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ الخ والمعنى: اذكر أيها الرسول للناس يوم يجمع الله الرسل

(١) تفسير المنار: ٧/٢١٨.

فيسألهم جميعا عما أجابتهم به أممهم إذ يقول لعيسى اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك الخ وإذ يقول له بعد ذلك: أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ أي يسأله: أقالوا هذا القول بأمر منك أم هم افتروه وابتدعوه من عند أنفسهم؟

٢. ومعنى قوله: ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ كائنين من دون الله ـ أو حال كونكم متجاوزين بذلك توحيد الله وإفراده بالعبادة، فهذا التعبير يصدق باتخاذ إله أو أكثر مع الله تعالى وهو الشرك، فإن عبادة الشريك المتخذ غير عبادة الله خالق السماوات والأرض، سواء اعتقد المشرك أن هذا المتخذ ينفع ويضر بالاستقلال ـ وهو نادر ـ أو اعتقد أنه ينفع ويضر بإقدار الله إياه وتفويضه بعض الأمر إليه فيما وراء الأسباب، أو بالوساطة عند الله أي بحمله تعالى بما له التأثير والكرامة على النفع والضر، وهو الأكثر الذي كان عليه مشركو العرب عند البعثة كما حكى الله عنهم في قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] وقلما يوجد في البشر المتدينين من يتخذ إلها غير الله متجاوزا بعبادته الإيمان بالله الذي هو خالق الكون ومدبره، فإن الإيمان الفطري المغروس في غرائز البشر هو أن تدبير الكون كله صادر عن قوة غيبية لا يدرك أحد كنهها، فالموحدون أتباع الرسل يتوجهون بعباداتهم القولية والفعلية إلى صاحب هذه القوة الغيبية وحده، معتقدين أنه هو الفاعل المطلق وحده، وأن كل فعل ينسب إلى غيره فإنما ينسب إليه كذبا أو على أنه فعله بإقدار الله إياه عليه وتسخيره له بمقتضى سننه في خلقه، التي قام بها نظام الأسباب والمسببات بمشيئته وحكمته، والمشركون يتوجهون تارة إليه وتارة إلى بعض ما يستكبرون خصائصه من خلقه، كالشمس والنجم، وبعض مواليد الأرض، وتارة يتوجهون إليهما معا فيجعلون الثاني وسيلة إلى الأول.

٣. ومن يشعر بسلطة غيبية تتجلى له في بعض الخلق فهو يخشى ضرها ويرجو نفعها، ولا يمتد نظر عقله ولا شعور قلبه إلى سلطة فوقها، ولا يتفكر في خلق هذه الأكوان، فهو أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان، فلا يعد من العقلاء المستعدين لفهم الشرائع وحقائق الدين، على أنه يصدق عليه أنه اتخذ إلها من دون الله، ولكن هذا النوع من الاتخاذ غير مراد هنا لأن الذين شرعوا للناس عبادة المسيح وأمه كانوا من شعوب مرتقية حتى في وثنيتها، ولها فلسفة دقيقة فيها، وهم اليونان والرومان، وبعض اليهود المطلعين

على تلك الفلسفة جد الاطلاع، وجملة القول أن اتخاذ إله من دون الله يراد به عبادة غيره سواء كانت خالصة لغيره أو شركة بينه وبين غيره، ولو بدعاء غيره والتوجه إليه ليكون واسطة عنده ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]

٤. أما اتخاذهم المسيح إلها فقد تقدم بيانه في مواضع من تفسير هذه السورة، وأما أمه فعبادتها كانت متفقا عليها في الكنائس الشرقية والغربية بعد قسطنطين، ثم أنكرت عبادتها فرقة البروتستانت التي حدثت بعد الإسلام بعدة قرون.

٥. إن هذه العبادة التي توجهها النصارى إلى مريم والدة المسيح (عليهما السلام) منها ما هو صلاة ذات دعاء وثناء، واستغاثة واستشفاع، ومنها صيام ينسب إليها، ويسمى باسمها، وكل ذلك يقرن بالخضوع والخشوع لذكرها ولصورها وتماثيلها، واعتقاد السلطة الغيبية لها، التي يمكنها بها في اعتقادهم أن تنفع وتضر في الدنيا والآخرة بنفسها أو بواسطة ابنها، وقد صرحوا بوجوب العبادة لها، ولكن لا نعرف عن فرقة من فرقهم إطلاق كلمة ﴿إِلَهٍ﴾ عليها، بل يسمونها (والدة الإله) ويصرح بعض فرقهم بأن ذلك حقيقة لا مجاز، والقرآن يقول هنا إنهم اتخذوها وابنها إلهين، والاتخاذ غير التسمية، فهو يصدق بالعبادة وهي واقعة قطعا، وبين في آية أخرى أنهم قالوا: (إن الله هو المسيح عيسى ابن مريم) وذلك معنى آخر وقد فسر النبي ﷺ قوله تعالى في أهل الكتاب ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أنهم اتبعوهم فيما يحلون ويحرمون لا أنهم سموهم أربابا.

٦. وأول نص صريح رأيته في عبادة النصارى لمريم عبادة حقيقية ما في كتاب (السواعي) من كتب الروم الأرثوذكس، وقد اطلعت على هذا الكتاب في دير يسمى (دير البلمند) وأنا في أول العهد بمعاهد التعليم، وطوائف الكاثوليك يصرحون بذلك ويفاخرون به، وقد زين الجزويت في بيروت العدد التاسع من السنة السابعة لمجلتهم (المشرق) بصورتها وبالنقوش الملونة، إذ جعلوه تذكارا لمرور خمسين سنة على إعلان البابا بيوس التاسع أن مريم البتول (حبل بها بلا دنس الخطية) وأثبتوا في هذا العدد عبادة الكنائس الشرقية لمريم كالكنائس الغربية، ومنه قول (الآب لويس شيخو) في مقالة له فيه عن الكنائس الشرقية (إن تعبد الكنيسة الأرمنية للبتول الطاهرة أم الله لأمر مشهور) وقوله: (قد امتازت الكنيسة القبطية بعبادتها للبتول المغبوطة أم الله)

٧. من يسمع أو يقرأ سؤال الله تعالى لعيسى عن عبادة الله له ولأمه تتوق نفسه إلى معرفة جوابه عليه السلام، وتتوجه إلى السؤال والاستفهام، فلذلك جاء كأمثاله بأسلوب الاستئناف ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ بدأ عليه السلام جوابه بتنزيهه إلهه وربه عز وجل عن أن يكون معه إله، خلافا لمن قال إن التنزيه هنا إنما هو عن ذلك القول المسؤول عنه، فذهب إلى أن معنى الجملة: أنزهك تنزيها لائقا من أن أقول ذلك، أو من أن يقال ذلك في حقك، وظن أن هذا هو الذي يقتضيه سياق النظم، وستعلم ما فيه من الضعف، وأن ما اخترناه هو الحق.

٨. وكلمة ﴿سُبْحَانَ﴾ قيل إنها علم للتسبيح، وقيل إنها مصدر للتسبيح الثلاثي كالغفران، واستعملت مضافة باطراد إلا ما شذ في الشعر، والتسبيح تنزيه الله تعالى عما لا يليق به، وهو من مادة السبح والسباحة وهي الذهاب السريع البعيد في البحر أو البر، ومن الثاني سبح الخيل وقالوا فرس سبوح (كصبور) ومثله التقديس من القدس وهو الذهاب البعيد في الأرض، ثم استعمل التسبيح والتقديس في التنزيه، قالوا: إن التسبيح يدل على الإبعاد ولكن عن كل شر وسوء، ولذا خص بتنزيه الله تعالى، ويقابله اللعن فهو يدل على الإبعاد ولكن عن كل خير، وكذلك لفظ الإبعاد والبعد غلب استعماله في مقام الشر؛ ﴿أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠] ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٤]، قال الراغب: والتسبيح تنزيه الله تعالى، وأصله المر السريع في عبادة الله تعالى، وجعل ذلك في فعل الخير، كما جعل الإبعاد في الشر، فقيل أبعده الله، وجعل التسبيح عاما في العبادات قولا كان أو فعلا أو نية)، ثم أورد الشواهد من الآيات على إطلاق التسبيح بمعنى الصلاة وبمعنى الدلالة على التنزيه كتسبيح السماوات والأرض وما فيهما، والمراد بتسبيح النية العلم والاعتقاد، وفي كلمة ﴿سُبْحَانَكَ﴾ ـ ومثلها سبحان الله ـ مبالغة في هذا التنزيه أي مبالغة، إذ تدل على المبالغة بمادتها الدالة بمأخذها الاشتقاقي على البعد والايغال والسبح الطويل في هذا البحر المديد الطويل، وبصيغتها الأصلية وهي التسبيح ـ التي هي مسمى اسم المصدر ﴿سُبْحَانَ﴾ ومدلوله ـ فإن التفعيل يدل على التكثير، ثم بالعدول عن هذه الصيغة التي هي مصدر إلى الاسم الذي جعل علما عليها ـ على قول ابن جني ـ فإن اسم المصدر يدل على تأكيد معنى المصدر وثباته وحقيقته، لأن مدلوله هو لفظ المصدر، فانتقال الذهن منه إلى المصدر ومن المصدر إلى المعنى بمنزلة تكرار لفظ المصدر، بل هو أبلغ منه وأدل على إرادة الحقيقة دون التجوز، ولم أر أحدا سبقني إلى بيان هذا على كونه في غاية

الظهور عند من تأمله، ومن شدة الظهور الخفاء.

٩. قلنا إن عيسى عليه السلام بدأ جوابه بتنزيه الله عز وجل عن أن يكون معه إله، فأثبت بهذا أنه على علم يقيني ضروري بأن الله تعالى منزه في ذاته وصفاته عن أن يشارك في ألوهيته، وانتقل من هذا إلى تبرئة نفسه العالمة بالحق، عن قول ما ليس له بحق، فقال: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي ليس من شأني ولا مما يصح وقوعه مني أن أقول قولا ليس لي أدنى حق أن أقوله، لأنك أيدتني بالعصمة من مثل هذا الباطل، ولا يخفى أن هذا أبلغ في البراءة من نفي ذلك القول وإنكاره إنكارا مجردا، لأن نفي الشأن يستلزم نفي الفعل نفيا مؤيدا بالدليل، فهو بتنزيه الله تعالى أولا أثبت أن ذلك القول الذي سئل عنه ـ تمهيدا لإقامة الحجة على من اتخذوه وأمه إلهين ـ قول باطل ليس فيه شائبة من الحق، ثم قفى على ذلك بأنه ليس من شأنه ولا مما يقع من مثله أن يقول ما ليس له بحق، فنتيجة المقدمتين الثابتتين أنه لم يقل ذلك القول.

١٠. ثم أكد هذه النتيجة بحجة أخرى قاطعة على سبيل الترقي من البرهان الأدنى الراجع إلى نفسه وهو عصمته عليه السلام، إلى البرهان الأعلى الراجع إلى ربه العلام، فقال: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ أي إن كان ذلك القول قد وقع مني فرضا فقد علمته، لأن علمك محيط بكل شيء تعلم ما أسره وأخفيه في نفسي، فكيف لا تعلم ما أظهرته ودعوت إليه فعلمه مني غيري؟ ولا أعلم ما تخفيه من علومك الذاتية التي لا تهديني إليها بنظر واستدلال كسبي، إلا ما تظهرني عليه بوحي وهبي، قيل إن إضافة كلمة نفس إلى الله تعالى من باب المشاكلة، على أنها وردت بغير مقابل يسوغ ذلك كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] ـ ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨] وقيل إنها بمعنى الذات، والمهم فهم المعنى من هذا الإطلاق، وتنزيه الله تعالى عن مشابهة نفسه لأنفس خلقه معروف بالنقل والعقل، فاستشكال إطلاق الوحي للأسماء مع هذا ضرب من الجهل.

١١. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ أي إنك أنت المحيط بالعلوم الغيبية وحدك لأن علمك المحيط بكل ما كان وما يكون وما هو كائن علم ذاتي لا منتزع من صور المعلومات، ولا مستفاد بتلقين ولا بنظر واستدلال، وإنما علم غيرك منك لا من ذاته، فإما أن يناله بما آتيته من المشاعر أو العقل، وإما أن يتلقاه مما تهبه من الإلهام والوحي، أي وقد علمت أني لم أقل ذلك القول، وشرط ﴿إِنَّ﴾ لا يقتضي الوقوع.

١٢. ثم إنه بعد تنزيه ربه، وتبرئة نفسه، وإقامة البرهانين على براءته، بين حقيقة ما قاله لقومه، لأن

الشهادة عليهم لا تكون تامة كاملة، بحيث تظهر لهم هنالك حجة الله البالغة، إلا بإثبات ما كان يجب أن يكونوا عليه من أمر الدين والتوحيد بعد نفي ضده، فكان من شأن السامع لما سبق من النفي أن يسأل عما قاله في موضوعه، ولذلك قال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ فهذا قول يتضمن إنكار أن يكون أمرهم باتخاذه وأمه إلهين وإثبات ضده، أي ما قلت لهم في شأن الإيمان وأصل الدين وأساسه الذي يبنى عليه غيره ولا يعتد بغيره دونه، إلا ما أمرتني بالتزامه اعتقادا وتبليغا وهو الأمر بعبادتك وحدك، مع التصريح بأنك ربي وربهم، وأنني عبد من عبادك مثلهم، أي إلا أنك خصصتني بالرسالة إليهم، فقوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ تفسير للمأمور به، وإنما قال ما قلت لهم إلا ما أمرتني به، ولم يقل ما أمرتهم إلا بما أمرتني به، أدبا مع الله تعالى ومراعاة لما ورد في السؤال ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ﴾

١٣. ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي وكنت قائما عليهم أراقبهم وأشهد على ما يقولون ويفعلون فأقر الحق وأنكر الباطل مدة دوام وجودي بينهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي فلما توفيتني إليك كنت أنت المراقب لهم وحدك إذ انتهت مدة رسالتي فيهم ومراقبتي لهم وشهادتي عليهم، فلا أشهد على ما وقع منهم وأنا لست فيهم، وأنت شهيد عليهم وشهيد بيني وبينهم، بما أنك شهيد على كل شيء في ملكك، وأنت أكبر شهادة ممن تجعلهم شهداء من خلقك، ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]

١٤. وقد مر في هذه السورة ما يزكي تبرئة عيسى عليه السلام لنفسه ويؤيد قوله هنا، وذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٥] فجملة ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الخ حالية أي قالوا قولهم ذلك والحال أن المسيح أمرهم بضده، وهو أن يعبدوا الله وحده.

١٥. وفي أناجيلهم من بقايا التوحيد الذي أمرهم به ما رواه يوحنا في إنجيله عنه وهو قوله عليه السلام: (وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته) وفي إنجيل برنابا من تجريد التوحيد والاستدلال عليه بالآيات البينات ما هو جدير بأن يكون وحيا صحيحا من الله تعالى إلى رسوله عيسى عليه السلام.

١٦. ولما كان المراد من السؤال الذي أجيب عنه بهذا الجواب هو إقامة الحجة التي يظهر بها عدل الله تعالى يوم القيامة فيما يجزي به من اتخذ عيسى وأمه إلهين وغيرهم من قومه فوض عليه السلام أمر الجزاء إليه تعالى بحسب ما تقتضيه شهادته تعالى وصفاته فقال: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي إن تعذب أولئك الناس الذين أرسلتني إليهم فبلغتهم ما أمرتني به من توحيدك وعبادتك وحدك، فضل من ضل منهم، وقالوا ما لم أقله لهم، واهتدى من اهتدى منهم فلم يعبدوا معك أحدا من دونك، فإنهم عبادك وأنت ربهم الأولى، والأحق بأمرهم، ولست أنا ولا غيري من الخلق بأرحم بهم، ولا بأعلم بحالهم، وإنما تجزيهم بحسب علمك بظواهرهم وبواطنهم، فأنت أعلم بالمؤمن الموحد، والمشرك المثلث، والطائع الصالح، والعاصي الفاسق، والمقر للكفر والفسق والمنكر لهما، وأنت عالم الغيب والشهادة تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، ولا تظلم أحدا مثقال ذرة، فالمراد إذا: إن تعذب فإنما تعذب من يستحق التعذيب منهم، ولا يمنع إرادة هذا المعنى إطلاق الضمير الراجع إلى جملتهم فإنه ضمير الجنس الذي يصدق ببعض الأفراد، وهو لم يرد بصيغة من صيغ العموم، ولذلك أطلقه في المقابل، وهو قوله: ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي وإن تغفر فإنما تغفر لمن يستحق المغفرة منهم، فإنك أنت العزيز أي القوي الغالب على أمره، الحكيم في جميع تصرفه وصنعه، فيضع كل حكم وجزاء وفعل في موضعه، وهو أعلم بموضع العدل، وموضع الرحمة والفضل.

١٧. وهذا التوجيه أظهر من قول بعضهم إن تعذب من أشرك منهم فإنهم عبادك، وإن تعذب من آمن منهم فإنك أنت العزيز الحكيم، فإن هذا تعيين لمن يعذبه ومن يغفر له، ينافيه إطلاق ضمير الجنس في مقام التفويض الذي مهد له بالبراءة مما قالوه فيه وفي أمه، مخالفا لما بلغهم عن ربه، وإثبات أن الله تعالى هو الرقيب عليهم، والشهيد مدة وجودي بينهم وبعد وفاتي، وأنت الشهيد عليهم ولا شهادة أكبر ولا أصدق من شهادتك، فمهما توقعه فيهم من عذاب فلا دافع له من دونك، إذ لا يوجد أحد أرحم منك بعبادك فيرحمهم أو يسألك أن ترحمهم، ومهما تمنحهم من مغفرة فلا يستطيع أحد حرمانهم منها بحوله وقوته، لأنك أنت العزيز الذي يغلب ولا يغلب، ويمنع من شاء ولا يمنع، ولا بتحويلك عن إرادتك فإنك أنت الحكيم الذي تضع كل شيء موضعه، فلا يمكن لأحد غيرك أن يرجعك عنه، بناء على أن غيره أولى منه، فمن ذا الذي يستطيع الاستدراك أو الافتيات عليك؟

١٨. فهذا بيان ما يقتضيه التفويض المطلق إلى الله تعالى وحده، بل أقول إن في جزاء الشرط الأول إشارة إلى أن تعذيب من يظن المخلوقون أنهم يستحقون المغفرة إن وقع من الله فلا يكون إلا عدلا، لأنهم عباد الله المضافون إليه، ومن شأن هذه الإضافة أن تفيدهم مغفرة منه ورحمة، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨] ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] وأمثالها من الآيات التي أضيف فيها لفظ عباد إلى الله، فإذا وقع عليهم العذاب فلا بد أن يكون سببه الذي خفي عن المخلوقين عظيما، فالأدب التفويض ـ وفي جزاء الشرط الثاني إشارة إلى أن المغفرة إن أصابت من يظن المخلوقون أنه يستحق العذاب فلا تكون من الله تعالى إلا لغاية اقتضتها عزة الألوهية، وحكمة الربوبية، فلا عبرة بالظواهر التي تبدو للمخلوقين بالنسبة إلى علم علام الغيوب وحكمته ولا سيما في ذلك اليوم، فالواجب أن يفوض إليه الأمر كله، يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء.

١٩. وبهذا تنجلي نكتة اختيار ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هنا على ﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ على خلاف المعروف من أسلوب القرآن في مراعاة مناسبة المقام في قرن الأسماء الإلهية بالأفعال والأحكام، كما تقدم بيانه في تفسير ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨، ٣٩] فذكر عيسى عليه السلام لاسمي الله ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ في جزاء شرطية المغفرة كذكره لكلمة ﴿عِبَادَكَ﴾ في جزاء شرطية التعذيب، كل منهما وقع في محله الذي تقتضيه البلاغة في مقام التفويض فكان حجة له، ولو أراد بكلامه الشفاعة والاسترحام لعكس، ولكل مقام مقال، ولولا هذا لكان كل منهما اعتراضا على الرب، أو تعريضا بحكمه جل وعز، وحاشا لعيسى عليه السلام من ذلك.

٢٠. ولما غفل من غفل من المفسرين عن هذا مع تصريح بعضهم بأن الكلام في تفويض الأمر إلى الله تعالى استشكلوا العبارة، وحاروا فيما فهموه من دلالتها على جواز غفران الشرك، وطفقوا يتلمسون النكتة لترتيب الغفران على صفتي العزة والحكمة، دون ما يتبادر من ترتيبه على صفتي المغفرة والرحمة، واستنجدوا مذاهبهم الكلامية في ذلك فأنجدت مفسري الأشعرية، بما استطالوا به على مفسري المعتزلة، فقالوا إن المعنى: إن تعذبهم فإنهم عبيدك والمالك يتصرف بعبيده كما يشاء فلا يسأل ولا يعترض عليه وإن

عذب أكملهم إيمانا وإسلاما وإحسانا، وقال بعضهم إن المراد فإنهم عبيدك الأرقاء في أسر ملكك، الضعفاء العاجزون عن الامتناع من عقابك، وإن تغفر لهم ما كان من شركهم وكفرهم وما يتبعه من سوء أعمالهم فإنك أنت القوي القادر على ذلك الحكيم فيه من حيث إن المغفرة مستحسنة لكل مجرم، قاله أبو السعود، وقال الآلوسي: والمغفرة للكافر لم يعدم فيها وجه حكمة، لأن المغفرة حسنة لكل مجرم في المعقول، بل متى كان المجرم أعظم جرما كان العفو عنه أحسن لأنه أدخل في الكرم، وإن كانت العقوبة أحسن في حكم الشرع من جهات أخر،) وظاهر هذا أن حكم الشرع في هذا الأصل من أصول الدين على خلاف المعقول، وليس كذلك، وأجاب الرازي عن الإشكال الموهوم بأربعة وجوه:

أ. أحدها: (إن ما ذكر في سؤال الله لعيسى بعلم منه إن قوما من النصارى حكوا عنه ما هو كفر ـ وحاكي الكفر ليس بكافر بل مذنب بكذبه في هذه الحكاية فلهذا المعنى طلب المغفرة له).. وهذا وجه أملاه عليه ما اعتاد من الجدل في الألفاظ وهو غافل عن حال من حكى الله عنهم ذلك القول، وهو أنهم يدعون ألوهية المسيح ويعبدونه ويعبدون أمه، وعن حال من حكوه هم عنه، وهو أنه رسول الله إليهم، وحكاية الشرك والكفر عن الرسول كفر في نفسه، ويستلزم إما الكفر بالرسول وإما الأخذ بما حكي عنه من الكفر!!

ب. الثاني: قوله: (إنه يجوز ـ على مذهبنا ـ من الله تعالى أن يدخل الكفار الجنة وأن يدخل الزهاد والعباد النار، لأن الملك ملكه ولا اعتراض لأحد عليه، فذكر عيسى هذا الكلام ومقصوده منه تفويض الأمور كلها إلى الله وترك التعرض والاعتراض بالكلية، ولذا ختم الكلام بقوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يعني أنت قادر على ما تريد، حكيم في كل ما تفعل لا اعتراض لأحد عليك، فمن أنا والخوض في أحوال الربوبية، وقوله إن الله لا يغفر الشرك فنقول: إن غفرانه جائز عندنا وعند جمهور البصريين من المعتزلة، قالوا لأن العقاب حق الله على المذنب وفي إسقاطه منفعة للمذنب وليس في إسقاطه على الله مضرة، فوجب أن يكون حسنا، بل دل الدليل السمعي في شرعنا على أنه لا يقع، فلعل الدليل السمعي ما كان موجودا في شرع عيسى عليه السلام)، وهذا الوجه مخالف للمعقول والمنقول من نصوص القرآن وصحاح الأحاديث من عدة وجوه لا حاجة في هذا الموضع إلى تفصيلها وترجيح مذهب السلف وأهل الأثر بها على مذهب الأشاعرة في موضوع إثبات العدل والحكمة لله تعالى ـ لا عليه ـ وتنزيهه عن ضدهما، ولا إلى بيان كون العدل والحكمة لا يعقل أن يتحققا فيمن لا فرق في أفعاله بين الأضداد، بحيث يكون الضدان

عنده في الحسن والعدل والحكمة سواء، ولكننا نقول: إن حاصل هذا الوجه أن عيسى عليه السلام يجيز ويستحسن الغفران للمشركين من قومه، بناء على أنه حسن معقول في نفسه، وأنه لا يوجد مانع يمنع منه في شرعه، وهذا يخالف نص قوله تعالى المتقدم في هذه السورة ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢] ثم إن هذا الوجه يقتضي اختلاف دين الله الواحد، في هذا الأصل من أصول العقائد، وأن تكون ملة محمد ﷺ أبعد من ملة عيسى عن رحمة الله ومغفرته! والنصوص تدل على أنها أجدر من غيرها بهذه السعة، ومنها مسألة غفران الشرك لو كان مما يشرعه الله ويرضاه، لأن من جاء بها هو الذي خاطبه الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال فيه إنه يضع عن اليهود والنصارى إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

ج. وأما الوجه الثالث من أجوبته فمبني على جواز توبة من قالوا ذلك الكفر، وهو بديهي البطلان، ولو صح لقيل إن المعهود في القرآن أن تقرن المغفرة للتائبين بذكر المغفرة والرحمة لا بذكر العزة والحكمة.

د. وأما الوجه الرابع فهو مبني على ما روي عن السدي مخالفا للجمهور من أن هذا السؤال والجواب في الآيات كانا بعد رفع عيسى إلى السماء (قال في تصويره): يعني إن توفيتهم على الكفر وعذبتهم فإنهم عبادك فلك ذاك، وإن أخرجتهم بتوفيقك من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان وغفرت لهم ما سلف منهم فلك أيضا ذاك، وعلى هذا التقدير فلا إشكال.. وهذا الوجه أضعف من الوجه الذي قبله.

٢١. فجميع ما أورده الرازي من الوجوه ضعيف، وما كان ليخفى ضعفها بل سقوطها وبطلان كثير من مسائلها على ذكائه النادر، واطلاعه الواسع، لولا عصبية المذاهب، ولكن قوله في أثناء شرح الوجه الثاني: إن مقصد عيسى عليه السلام من كلامه تفويض الأمر إلى الله عز وجل هو الحق المبين، وقد هدانا الله تعالى إلى تفسيره وشرح نكتة البلاغة فيه بأوضح تبيين، وقد علم مما بيناه أن كلام عيسى عليه السلام لا يتضمن شيئا من الشفاعة لقومه، ويؤيد هذا عدة أحاديث منها: حديث عبد الله بن عمرو بن العاص في صحيح مسلم أن النبي ﷺ تلا قول الله تعالى في إبراهيم ﷺ ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦] ـ الآية، وقول عيسى عليه السلام ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فرفع يديه وقال: (اللهم أمتي أمتي) وبكى فقال الله عز وجل يا جبريل اذهب إلى

محمد ـ وربك أعلم ـ فسله: ما يبكيك؟ فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال ـ وهو أعلم ـ فقال الله (يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك) (ومنها) حديث ابن عباس في صحيح البخاري قال فيه: (ألا وإنه يجاء برجال من أمتي يوم القيامة فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح (وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ـ إلى قوله الحكيم) [المائدة: ١١٧، ١١٨] قال فيقال: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم)، وفي حديث أبي هريرة عند البخاري وغيره بهذا المعنى زيادة (فأقول بعدا لهم وسحقا) وقد ورد هذا المعنى في عدة أحاديث في الصحاح والسنن في ألفاظها بعض اختلاف لا يغير المعنى، منها أن هؤلاء الذين أحدثوا بعده ﷺ يذادون أي يطردون عن الحوض، واختلف العلماء فيهم فقيل هم الذين ارتدوا بعده عن الإسلام وقاتلهم أبو بكر وقيل هم المنافقون وقيل هم المبتدعة، (ومنها) حديث أبي ذر عند أحمد والنسائي وابن مردويه أنه ﷺ قام بهذه الآية ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ الخ حتى أصبح يركع بها ويسجد فسأله أبو ذر عن ذلك فقال: (إني سألت ربي سبحانه الشفاعة فأعطانيها وهي نائلة إن شاء الله تعالى من لا يشرك بالله شيئا)

٢٢. فهذه الأحاديث تدل على أن مقام التفويض غير مقام الشفاعة وأن الشفاعة لا تنال أحدا يشرك بالله تعالى شيئا، وفاقا لما جاء به الوحي على لسان عيسى عليه السلام كما تقدم في هذه السورة ولسان محمد ﷺ كما تقدم في آيتين من سورة النساء، ووفاقا للآيات التي تنفي الشفاعة في الآخرة بإطلاق أو تنفي قبولها، أو تقيدها على تقرير حصولها بمثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. كان الكلام قبل هذه الآيات في تعداد النعم التي أنعم بها سبحانه على عيسى، وفى إلهامه للحواريين الإيمان به وبرسوله، وفى طلب الحواريين من عيسى إنزال مائدة من السماء ثم طلب عيسى من

(١) تفسير المراغي ٧/٦١.

ربه إجابة مطلبهم، وإخبار الله تعالى بأنه أجابهم إلى ما طلبوا، ولا يزال الكلام في هذه الآيات مع عيسى أيضا، ففيها سؤال من الله على مرأى من قومه توبيخا وتقريعا لهم على افترائهم، وإجابة من عيسى عن ذلك فيها تنصل من ذلك الذنب العظيم الذي اقترفوه بعده وهو القول بالتثليث، ثم إخبار من الله بها ينجّى الإنسان من عذاب يوم القيامة، مع بيان أن ما في السموات والأرض كله مملوك له وفى قبضته يتصرف فيه بعدله وحكمته وهو القادر على كل شيء لا شريك له يمنعه إن أعطى، أو يلزمه بالإعطاء إن منع.

٢. ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ الخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ، أي واذكر أيها الرسول للناس يوم يجمع الله الرسل فيسألهم جميعا عما أجابت به أممهم، حين يقول لعيسى اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك.. وحين يقول له بعد ذلك: أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين؟ أي يسأله أقالوا هذا القول بأمر منك أم هم افتروه وابتدعوه من عند أنفسهم؟

٣. ومعنى قوله ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي متجاوزين بذلك توحيد الله وإفراده بالعبادة، وذلك إما أن يكون باتخاذ إله أو أكثر مع الله تعالى وهو الشرك، إذ عبادة الشريك المتخذ غير عبادة الله خالق السموات والأرض، سواء اعتقد المشرك أن هذا الشريك ينفع ويضر استقلالا، أو اعتقد أنه ينفع ويضر بإقدار الله إياه وتفويضه بعض الأمر إليه فيما وراء الأسباب أو بالوساطة عند الله أي بما له من التأثير والكرامة على النفع والضر وهذا هو الأكثر الذي كان عليه مشركو العرب عند البعثة، كما حكاه الله عنهم في قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أولياء مَا نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾

٤. وقل أن يوجد من المشركين من يتخذ إلها غير الله متجاوزا بعبادته الإيمان بالله الذي هو خالق الكون ومدبره؛ فالإيمان الفطري الذي غرس في نفوس البشر يرشد إلى أن تدبير الكون كله صادر عن قوة غيبية لا يدرك كنهها أحد، فالموحدون أتباع الأنبياء يتوجهون بعباداتهم إلى رب هذه السلطة الغيبية وحده اعتقادا منهم أنه هو الفاعل الكامل التصرف، وإن نسب الفعل إلى غيره فبإقدار الله إياه وتسخيره له بمقتضى سننه في خلقه، والمشركون يتوجهون إليه تارة وإلى بعض ما يستكبرون من خلقه تارة أخرى كالشمس والنجم والملائكة وبعض مخلوقات أخرى، ويتوجهون أحيانا إليهما معا فيجعلون تلك المخلوقات المعظمة وسيلة إلى خالق الأكوان ومدبر الكائنات.

٥. والخلاصة ـ إن اتخاذ إله من دون الله يراد به عبادة غيره سواء أكانت خالصة لغيره أو شركة بينه وبين غيره ولو بدعاء هذا الغير والتوجه إليه ليكون واسطة عنده.

٦. وقد نعى الله عليهم اتخاذ المسيح إلها في مواضع عدة من هذه السورة، وعبادة أمه كانت معروفة في الكنائس الشرقية والغربية، ثم أنكرت عبادتها فرقة البروتستانس (إصلاح المسيحية) التي جاءت بعد الإسلام بزمن طويل، وهذه العبادة منها ما هو صلاة ذات دعاء وثناء على المعبود، ومنها ما هو استغاثة واستشفاع، ومنها ما هو صيام ينسب إليها ويسمى بصيام العذراء، وكل أولئك يقترن بخشوع وخضوع لذكرها ولصورها وتماثيلها واعتقاد السلطة الغيبية لها وأنها تنفع وتضر في الدنيا والآخرة إما بنفسها أو بواسطة ابنها ويسمونها (والدة الإله)، والآية ترشد إلى أنهم اتخذوها هي وابنها إلهين (والاتخاذ غير التسمية) فيصدق بالعبادة وهي واقعة حتما.

٧. ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ التسبيح تنزيه الله تعالى عما لا يليق به، وأصل الكلمة من السبح والسباحة، وهي الذهاب السريع البعيد في البحر أو البر ومنه فرس سبوح، أي أنزهك يا الله عن أن يكون معك إله آخر، وبذا أثبت له التنزيه عن المشاركة في الذات والصفات.

٨. ثم انتقل من هذا إلى تبرئة نفسه العالمة بالحق عن قول ما ليس بحق فقال: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي ليس من شأني ولا مما يصح أن يقع منى أن أقول قولا لا حق لي أن أقوله، لأنك أيدتنى بالعصمة عن مثل هذا القول الباطل، وهو بتنزيهه الله أوّلا أثبت أن ذلك القول الذي نسب إليه قول لا شائبة فيه من الحق وليس من شأنه ولا مما يقع من مثله.

٩. وقد أكد هذا النفي مرة أخرى بحجة أخرى ارتقى فيها من برهان راجع إلى نفسه وهو عصمته عليه السلام إلى برهان أعلى راجع إلى ربه علام الغيوب فقال: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ أي إن ذلك القول إن كان قد صدر منى فقد علمته، إذ علمك واسع محيط بكل شيء فأنت تعلم ما أسره وأخفيه في نفسى فكيف لا تعلم ما أظهرته ودعوت إليه وعلمه منى غيرى؟ كما أنى لا أعلم ما تخفيه من علومك الذاتية التي لا ترشدنى إليها بالكسب والاستدلال، لكنى أعلم ما تظهره لي بالوحى بواسطة ملائكتك المقربين إليك.

١٠. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ أي لأنك أنت المحيط بالعلوم الغيبية وحدك، ما كان منها وما

سيكون وما هو كائن، وعلم غيرك مستمد من فيضك لا من ذاته، فهو إما أن يناله بواسطة المشاعر والحواس أو العقل، وإما أن يتلقاه هبة منك بالوحى والإلهام.

١١. وبعد تنزيه ربه وتبرئة نفسه وإقامة البراهين على ذلك ـ بين حقيقة ما قاله لقومه، إذ الشهادة عليهم لا تكون تامة كاملة إلا بإثبات ما يجب أن يكونوا عليه من أمر التوحيد بعد نفى ضده، فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أي إني ما قلت لهم في شأن الإيمان وأساس الدين إلا ما أمرتني بالتزامه اعتقادا وتبليغا لهم، بأنك ربى وربهم وأننى عبد من عبادك مثلهم إلا أنك خصصتنى بالرسالة إليهم.

١٢. ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي وكنت قائما عليهم أراقبهم وأشهد على ما يقولون وما يفعلون، فأقر الحق وأنكر الباطل مدة وجودي بينهم.

١٣. ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي فلما قبضتنى إليك كنت أنت الحفيظ عليهم دونى، لأنى إنما شهدت من أعمالهم ما عملوه وأنا بين أظهرهم، وأنت تشهد على كل شيء إذ لا يخفى عليك شيء وفى هذا إيماء إلى أن الله إنما عرّفه أفعال القوم ومقالتهم بعد ما قبضه إليه بقوله: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ﴾

١٤. وقد تقدم في هذه السورة ما يثبت براءة عيسى عليه السلام من مثل هذه المقالة، وذلك قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾، وجاء في إنجيل يوحنا (وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته)

١٥. ثم فوّض عليه السلام أمر الجزاء إليه تعالى فقال: (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن نغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) أي إن تعذب من أرسلتنى إليهم فبلّغتهم ما أمرتني به من توحيدك وعبادتك فضلّ منهم من ضل وقالوا ما لم أقله، واهتدى منهم من اهتدى فلم يعبدوا معك سواك، فإنهم عبادك وأنت الرحيم بهم، ولست أنا ولا غيرى من الخلق بأرحم بهم منك، وإنما تجزيهم بحسب علمك بما يظهرون وما يبطنون، فأنت العليم بالمؤمن المخلص في إيمانه، وبمن أشرك بك غيرك أو بمن أطاعك وبمن عصاك وأنت عالم الغيب والشهادة تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، وإن تغفر فإنما تغفر لمن يستحق المغفرة،

وإنك أنت العزيز الغالب على أمره، الحكيم في تصرفه وصنعه، فيضع كل جزاء وكل فعل في موضعه.

١٦. وخلاصة المعنى - إنك إن تعذب فإنما تعذب من يستحق التعذيب، وإن تغفر فإنما تغفر لمن هو أهل لذلك، ومهما توقعه فيهم من عذاب فلا دافع له من دونك، ومهما تمنحهم من مغفرة فلا يستطيع أحد حرمانهم منها بحوله وقوته، لأنك أنت العزيز الذي يغلب ولا يغلب، ويمنع من شاء ما شاء ولا يمنع، وأنت الحكيم الذي تضع كل شيء موضعه، فلا يمكن أحدا غيرك أن يرجعك عنه.

١٧. ومن هذا تعلم أن كلام عيسى عليه السلام لا يتضمن شيئا من الشفاعة لقومه، ومما يؤيد هذا ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص (أن النبي ﷺ تلا قول الله تعالى في إبراهيم ﷺ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فإنه مِنِّي﴾ الآية، وقول عيسى عليه السلام ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فرفع يديه إلى السماء وقال: (اللهم أمتي أمتي وبكى، فقال الله عزّ وجل: يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال - وهو أعلم - فقال الله يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك)، وما رواه البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: (إلا وإنه يجاء برجال من أمتي يوم القيامة فيؤخذ بهم ذات اليمين وذات الشمال فأقول: أصحابى، فيقال: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ - إلى قوله - ﴿الْحَكِيمُ﴾ قال فيقال إنهم لم يزالوا مرتدّين على أعقابهم) وما رواه أحمد والنسائي وابن مردويه (أنه ﷺ قام بهذه الآية: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادَكَ﴾ حتى أصبح يركع بها ويسجد فسأله أبو ذر عن ذلك فقال: إني سألت ربى الشفاعة فأعطانيها وهي نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئا)، فهذه الأحاديث صريحة في أن الشفاعة لا ينالها أحد يشرك بالله شيئا.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. يسكت السياق بعد وعد الله وتهديده.. ليمضي إلى القضية الأساسية.. قضية الألوهية والربوبية.. وهي القضية الواضحة في الدرس كله.. فلنعد إلى المشهد العظيم فهو ما يزال معروضا على

(١) في ظلال القرآن: ٢/١٠٠١.

أنظار العالمين، لنعد إليه فنسمع استجوابا مباشرا في هذه المرة في مسألة الألوهية المدعاة لعيسى بن مريم وأمه، استجوابا يوجه إلى عيسى عليه السلام في مواجهة الذين عبدوه، ليسمعوه وهو يتبرأ إلى ربه في دهش وفزع من هذه الكبيرة التي افتروها عليه وهو منها بريء.

٢. إن الله سبحانه ليعلم ماذا قال عيسى للناس، ولكنه الاستجواب الهائل الرهيب في اليوم العظيم المرهوب: الاستجواب الذي يقصد به إلى غير المسئول؛ ولكن في صورته هذه وفي الإجابة عليه ما يزيد من بشاعة موقف المؤلهين لهذا العبد الصالح الكريم.. إنها الكبيرة التي لا يطيق بشر عادي أن يقذف بها.. أن يدعي الألوهية وهو يعلم أنه عبد.. فكيف برسول من أولي العزم؟ كيف بعيسى بن مريم؛ وقد أسلف الله له هذه النعم كلها بعد ما اصطفاه بالرسالة وقبل ما اصطفاه؟ كيف به يواجه استجوابا عن ادعاء الألوهية، وهو العبد الصالح المستقيم؟

٣. من أجل ذلك كان الجواب الواجف الراجف الخاشع المنيب.. يبدأ بالتسبيح والتنزيه: ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾، ويسرع إلى التبرؤ المطلق من أن يكون من شأنه هذا القول أصلا: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾، ويستشهد بذات الله سبحانه على براءته؛ مع التصاغر أمام الله وبيان خصائص عبوديته وخصائص ألوهية ربه: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾

٤. وعندئذ فقط، وبعد هذه التسبيحة الطويلة يجرؤ على الإثبات والتقرير فيما قاله وفيما لم يقله، فيثبت أنه لم يقل لهم إلا أن يعلن عبوديته وعبوديتهم لله ويدعوهم إلى عبادته: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾

٥. ثم يخلي يده منهم بعد وفاته.. وظاهر النصوص القرآنية يفيد أن الله سبحانه قد توفى عيسى بن مريم ثم رفعه إليه، وبعض الآثار تفيد أنه حي عند الله، وليس هنالك ـ فيما أرى ـ أي تعارض يثير أي استشكال بين أن يكون الله قد توفاه من حياة الأرض، وأن يكون حيا عنده، فالشهداء كذلك يموتون في الأرض وهم أحياء عند الله، أما صورة حياتهم عنده فنحن لا ندري لها كيفا، وكذلك صورة حياة عيسى عليه السلام وهو هنا يقول لربه: إنني لا أدري ماذا كان منهم بعد وفاتي: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾،

٦. وينتهي إلى التفويض المطلق في أمرهم؛ مع تقرير عبوديتهم لله وحده، وتقرير قوة الله على المغفرة لهم أو عذابهم؛ وحكمته فيما يقسم لهم من جزاء سواء كان هو المغفرة أو العذاب: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فيا لله للعبد الصالح في موقفه الرهيب! وأين أولئك الذين أطلقوا هذه الفرية الكبيرة؛ التي يتبرأ منها العبد الطاهر البريء ذلك التبرؤ الواجف، ويبتهل من أجلها إلى ربه هذا الابتهال المنيب؟

٧. أين هم في هذا الموقف، في هذا المشهد؟. إن السياق لا يلقي إليهم التفاتة واحدة، فلعلهم يتذاوبون خزيا وندما، فلندعهم حيث تركهم السياق!

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ معطوف على ما قبله مما عطف على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾.. فهذه المساءلة لعيسى من الله تعالى، تكون يوم القيامة.. يوم يجمع الله الرسل..

٢. قوله تعالى: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ إنما يراد به إقامة الحجة على أتباعه، الذين غيّروا معالم رسالته، وقلبوا حقائقها، واتخذوا من المسيح وأمه إلهين.. المسيح ابن الله، وأمه مريم زوجا لله! وفي خطاب المسيح بقوله تعالى: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ إشارة إلى الصفة التي هي له ولأمه.. فهو ابن مريم لا ابن الله، وأمّه أمة من إماء الله، لها ولد كما للنساء أولاد.

٣. وفي سؤال المسيح: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أخذ اعترافه وإقراره على هؤلاء الذين ألبسوه وأمه هذا الثوب الإلهي وعبدوهما من دون الله، وفي هذا الإقرار خزى بعد خزى وإذلال بعد إذلال لهم، حيث يكشف المسيح عن وجهه ووجهه أمّه أمام هؤلاء الذين ضلّوا، ورأوا فيه وفي أمّه غير الحق..

٤. ويواجه المسيح هؤلاء الذين كفروا بالله، وجعلوا المسيح وأمه إلهين ـ يواجههم بما يخزيهم ويبهتهم، ويملأ قلوبهم حسرة وندما: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ والذي ليس لي

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/٨٣.

بحق هو أنى لست إلها ولا ابن إله، والذي هو لي بحق أنى عبد الله ورسوله.. فإن كنت قلت ما ليس لي بحق فقد علمته، وعليّ تبعة هذا القول المنكر العظيم.. إن يكن قد كان منىّ..

٥. في قوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ توكيد لما بين المسيح وبين الألوهية من بعد بعيد.. فلو أنه كان إلها لعلم ما يعلم الله، ولكنه لا يعلم حتى ما اشتملت عليه ذاته، وسكن في كيانه.. أمّا الله سبحانه فهو يعلم كل شيء.. لا يعزب عنه مثقال ذرّة في السموات ولا في الأرض.. هذا وسنعرض لألوهية المسيح، ودعوى الذين يدعونها له في مبحث خاص، بعد ختام هذه السورة.

٦. وفي جواب المسيح: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ إشارة إلى أن المسيح مأمور، وأنه لا يقول شيئا من عنده، وإنما هو رسول يبلغ ما أمره به ربّه، وقد بلّغ رسالة ربّه، كما أمره بها: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾.. فالمسيح عبد لله، كما أنهم عبيد له.. ومن كان عبدا لله فليس له إلى الألوهية سبيل.

٧. ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ هو توكيد لبراءة عيسى مما تقوّله عليه أتباعه، وأنه كان عليهم شهيدا مدّة وجوده معهم، يقوّم انحرافهم، ويصحح معتقدهم، فلما قبضه الله إليه، انقطع اتصاله بهم، وبما أحدثوا بعده من هذه المعتقدات الفاسدة فيه، وفي أمّه.. وأنه إذا كان المسيح لم يعلم شيئا مما أحدثوا من بعده، فذلك ما لا يغيب عن علم الله، فقد علمه الله منهم، وأحصاه عليهم، وها هم أولاء بين يديه يلقون جزاء ما صنعوا.. والشهيد: من يرى ما يقع في محيط حواسه.. مما يدانيه ويختلط به.. والرقيب: من يرى من مكان عال، وهو المرقب، حيث ينكشف له ما لا ينكشف لغيره.. ولهذا كان التعبير في جانب المسيح، بالشهيد، والتعبير في جانب الله، بالرقيب.. وهذا تمثيل، ولله سبحانه وتعالى المثل الأعلى.

٨. ثم كان من تمام هذا التمثيل قوله: ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي تطلع على كل شيء قريب وبعيد، ظاهر وخفى، اطلاع شهادة وحضور.

٩. ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هو تفويض لله سبحانه وتعالى للقضاء في أمر هؤلاء، الذين حملوا أوزارهم على ظهورهم، وأحاطت بهم خطيئتهم.. فإلى الله

سبحانه وتعالى أمرهم، لا شفاعة لأحد فيهم.

١٠. ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ وصنعة يديك، وربائب نعمتك، وغرس فضلك.. وليس لأحد أن يشارك المالك في تصرفه فيما ملك، ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لا يسألك أحد لم غفرت لهؤلاء العصاة الظالمين.. فما غفرانك لهم عن عجز أو قصور أن تنالهم يدك، ويأخذهم عقابك، وإنما هو حلم الحليم، وحكمة الحكيم.. فعن قدرة عفا وغفر، وعن حكمة كان هذا العفو وتلك المغفرة.. سمع أعرابي قارئا يقرأ: (إن تعذبهم فإنّهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم) فأنكر ما سمع، وقال ما هذا كلام الله، إذ ينقض آخره أوله.. فأعاد القارئ قراءة الآية على وجهها: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فقال الأعرابي نعم هذا كلام الله.. عزّ فحكم، فإن شاء عفا وغفر!

١١. ذكر هنا فصلا مطولا بعنوان مبحث في المسيح الإله والمسيح الإنسان.. نقلناه إلى محله من التفسير الموضوعي من السلسلة.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ﴾ عطف على قوله: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ [المائدة: ١١٠] فهو ما يقوله الله يوم يجمع الرسل وليس ممّا قاله في الدنيا، لأنّ عبادة عيسى حدثت بعد رفعه، ولقوله: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾، فقد أجمع المفسّرون على أنّ المراد به يوم القيامة، وأنّ قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ قول يقوله يوم القيامة، وهذا مبدأ تقريع النصارى بعد أن فرغ من تقريع اليهود من قوله: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ [المائدة: ١١٠] إلى هنا، وتقريع النصارى هو المقصود من هذه الآيات كما تقدّم عند قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾ [المائدة: ١٠٩] الآية، فالاستفهام هنا كالاستفهام في قوله تعالى للرسل ﴿مَاذَا أَجَبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩] والله يعلم أنّ عيسى لم يقل ذلك ولكن أريد إعلان كذب من كفر من النصارى.

٢. وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ يدلّ على أنّ الاستفهام

---

(١) التحرير والتنوير: ٥/٢٧١.

متوجّه إلى تخصيصه بالخبر دون غيره مع أنّ الخبر حاصل لا محالة، فقول قائلين: اتّخذوا عيسى وأمّه إلهين، واقع، وإنّما ألقي الاستفهام لعيسى أهو الذي قال لهم ذلك تعريضا بالإرهاب والوعيد بتوجّه عقوبة ذلك إلى من قال هذا القول إن تنصّل منه عيسى فيعلم أحبارهم الذين اخترعوا هذا القول أنّهم المراد بذلك، والمعنى أنّه إن لم يكن هو قائل ذلك فلا عذر لمن قاله لأنّهم زعموا أنّهم يتّبعون أقوال عيسى وتعاليمه، فلو كان هو القائل لقال: اتّخذوني وأمّي، ولذلك جاء التعبير بهذين اللفظين في الآية، والمراد بالناس أهل دينه.

٣. وقوله: ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ متعلّق بـ ﴿اتَّخِذُونِي﴾، وحرف ﴿مِنَ﴾ صلة وتوكيد، وكلمة ﴿دُونَ﴾ اسم للمكان المجاوز، ويكثر أن يكون مكانا مجازيا مرادا به المغايرة، فتكون بمعنى (سوى)، وانظر ما تقدّم آنفا عند قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [المائدة: ٧٦]، والمعنى اتّخذوني وأمّي إلهين سوى الله.

٤. وقد شاع هذا في استعمال القرآن قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ [يونس: ١٨]، وغير ذلك من الآيات التي خوطب بها المشركون مع أنّهم أشركوا مع الله غيره ولم ينكروا إلهيّة الله.

٥. وذكر هذا المتعلّق إلزاما لهم بشناعة إثبات إلهية لغير الله لأنّ النصارى لمّا ادّعوا حلول الله في ذات عيسى توزّعت الإلهية وبطلت الوحدانية، وقد تقدّم بيان هذا المذهب عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ في هذه السورة [١٧]

٦. وجواب عيسى عليه السلام بقوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيه لله تعالى عن مضمون تلك المقالة، وكانت المبادرة بتنزيه الله تعالى أهمّ من تبرئته نفسه، على أنّها مقدّمة للتبرّي لأنّه إذا كان ينزّه الله عن ذلك فلا جرم أنّه لا يأمر به أحدا، وتقدّم الكلام على ﴿سُبْحَانَكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا﴾ في سورة البقرة [٣٢]

٧. وبرّأنفسه فقال: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾؛ فجملة ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ﴾ مستأنفة لأنّها جواب السؤال، وجملة ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تمهيد.

٨. وقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِي﴾ مبالغة في التبرئة من ذلك، أي ما يوجد لديّ قول ما ليس لي بحقّ،

فاللام في قوله: ﴿مَا يَكُونُ لِي﴾ للاستحقاق، أي ما يوجد حقّ أن أقول، وذلك أبلغ من لم أقله لأنّه نفى أن يوجد استحقاقه ذلك القول.

٩. والباء في قوله: ﴿بِحَقٍّ﴾ زائدة في خبر ﴿لَيْسَ﴾ لتأكيد النفي الذي دلّت عليه ﴿لَيْسَ﴾، واللام في قوله: ﴿لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ متعلّقة بلفظ ﴿بِحَقٍّ﴾ على رأي المحقّقين من النحاة أنّه يجوز تقديم المتعلّق على متعلّقه المجرور بحرف الجرّ، وقدّم الجارّ والمجرور للتنصيص على أنّه ظرف لغو متعلّق ﴿بِحَقٍّ﴾ لئلا يتوهّم أنّه ظرف مستقرّ صفة لحق حتى يفهم منه أنّه نفى كون ذلك حقّا له ولكنّه حقّ لغيره الذين قالوه وكفروا به، وللمبادرة بما يدلّ على تنصّله من ذلك بأنّه ليس له، وقد أفاد الكلام تأكيد كون ذلك ليس حقّا له بطريق المذهب الكلامي لأنّه نفى أن يباح له أن يقول ما لا يحقّ له، فعلم أنّ ذلك ليس حقّا له وأنّه لم يقله لأجل كونه كذلك، فهذا تأكيد في غاية البلاغة والتفنّن.

١٠. ثم ارتقى في التبرّي فقال: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾، فالجملة مستأنفة لأنّها دليل وحجّة لمضمون الجملة التي قبلها، فكانت كالبيان فلذلك فصلت، والضمير المنصوب في ﴿قُلْتُهُ﴾ عائد إلى الكلام المتقدّم، ونصب القول للمفرد إذا كان في معنى الجملة شائع كقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، فاستدلّ على انتفاء أن يقوله بأنّ الله يعلم أنّه لم يقله، وذلك لأنّه يتحقّق أنّه لم يقله، فلذلك أحال على علم الله تعالى، وهذا كقول العرب: يعلم الله أني لم أفعل، كما قال الحارث بن عبّاد:

لم أكن من جناتها علم الل　　　ه وأني لحرّها اليوم صال

ولذلك قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾، فجملة ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ بيان لجملة الشرط ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ فلذلك فصلت.

١١. والنفس تطلق على العقل وعلى ما به الإنسان، إنسان وهي الروح الإنساني، وتطلق على الذات، والمعنى هنا: تعلم ما أعتقده، أي تعلم ما أعلمه لأنّ النفس مقرّ العلوم في المتعارف، وقوله: ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ اعتراض نشأ عن ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ لقصد الجمع بين الأمرين في الوقت الواحد وفي كلّ حال، وذلك مبالغة في التنزيه وليس له أثر في التبرّي، والتنصّل، فلذلك تكون الواو اعتراضية، وإضافة النفس إلى اسم الجلالة هنا بمعنى العلم الذي لم يطلع عليه غيره، أي ولا أعلم ما تعلمه، أي ممّا انفردت بعمله، وقد حسّنه هنا المشاكلة كما أشار إليه في (الكشاف)، وفي جواز إطلاق النفس على ذات الله

تعالى بدون مشاكلة خلاف؛ فمن العلماء من منع ذلك وإليه ذهب السعد والسيد وعبد الحكيم في شروح (المفتاح) و(التخليص)، وهؤلاء يجعلون ما ورد من ذلك في الكتاب نحو﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨] من قبيل المتشابه، ومن العلماء من جوّز ذلك مثل إمام الحرمين كما نقله ابن عرفة في (التفسير) عند قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ في سورة الأنعام [٥٤]، ويشهد له تكرّر استعماله في القرآن وكلام النبي ﷺ كما في الحديث القدسي فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي.

١٢. وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ علّة لقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ ولذلك جيء ب (إنّ) المفيدة التعليل، وقد جمع فيه أربع مؤكّدات وطريقة حصر، فضمير الفصل أفاد الحصر، وإنّ وصيغة الحصر، وجمع الغيوب، وأداة الاستغراب.

١٣. وبعد أن تبرّأمن أن يكون أمر أمّته بما اختلقوه انتقل فبيّن أنّه أمرهم بعكس ذلك حسبما أمره الله تعالى فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾، فقوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ ارتقاء في الجواب، فهو استئناف بمنزلة الجواب الأول وهو﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ﴾.. صرّح هنا بما قاله لأنّ الاستفهام عن مقاله، والمعنى: ما تجاوزت فيما قلت حدّ التبليغ لما أمرتني به، فالموصول وصلته هو مقول ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ وهو مفرد دالّ على جمل، فلذلك صحّ وقوعه منصوبا بفعل القول.

١٤. و﴿إِنَّ﴾ مفسّرة ﴿أَمَرْتَنِي﴾ لأنّ الأمر فيه معنى القول دون حروفه وجملة ﴿اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ تفسيرية لـ ﴿أَمَرْتَنِي﴾، واختير ﴿أَمَرْتَنِي﴾ على (قلت لي) مبالغة في الأدب.

١٥. ولمّا كان ﴿أَمَرْتَنِي﴾ متضمّنا معنى القول كانت جملة ﴿اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ هي المأمور بأن يبلّغه لهم فالله قال له: قل لهم اعبدوا الله ربّي وربّكم، فعلى هذا يكون ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ من مقول الله تعالى لأنّه أمره بأن يقول هذه العبارة ولكن لما عبّر عن ذلك بفعل ﴿أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ صح تفسيره بحرف ﴿إِنَّ﴾ التفسيرية فالذي قاله عيسى هو عين اللفظ الذي أمره الله بأن يقوله، فلا حاجة إلى ما تكلّف به في (الكشاف) على أنّ صاحب (الانتصاف) جوّز وجها آخر وهو أن يكون التفسير جرى على حكاية القول المأمور به بالمعنى، فيكون الله تعالى قال له(: قل لهم أن يعبدوا ربّك وربّهم، فلمّا حكاه عيسى قال اعبدوا الله ربّي وربّكم)، وهذا التوجيه هو الشائع بين أهل العلم حتى جعلوا الآية مثالا لحكاية القول بالمعنى، وأقول: هو استعمال فصيح قال ابن عطية في تفسير قوله تعالى: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ في

سورة الأنعام [٦] إذا أخبرت أنّك قلت لغائب أو قيل له أو أمرت أن يقال له: فلك في فصيح كلام العرب أن تحكي الألفاظ المقولة بعينها، فتجيء بلفظ المخاطبة، ولك أن تأتي بالمعنى في الألفاظ بذكر غائب دون مخاطبة اه، وعندي أنّه ضعيف في هذه الآية.

١٦. ثمّ تبرّأمن تبعتهم فقال: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي كنت مشاهدا لهم ورقيبا يمنعهم من أن يقولوا مثل هذه المقالة الشنعاء، و﴿مَا دُمْتُ﴾ (ما) فيه ظرفية مصدرية، و(دام) تامّة لا تطلب منصوبا، و﴿فِيهِمْ﴾ متعلّق بـ ﴿دُمْتُ﴾، أي بينهم، وليس خبرا لـ (دام) على الأظهر، لأنّ (دام) التي تطلب خبرا هي التي يراد منها الاستمرار على فعل معيّن هو مضمون خبرها، أمّا هي هنا فهي بمعنى البقاء، أي ما بقيت فيهم، أي ما بقيت في الدنيا، ولذلك فرّع عنه قوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾، أي فلمّا قضيت بوفاتي، لأنّ مباشر الوفاة هو ملك الموت، والوفاة الموت، وتوفّاه الله أماته، أي قضى به وتوفّاه ملك الموت قبض روحه وأماته، وقد تقدّم ذلك عند قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ في سورة آل عمران [٥٥]، والمعنى: أنّك لمّا توفّيتني قد صارت الوفاة حائلا بيني وبينهم فلم يكن لي أن أنكر عليهم ضلالهم، ولذلك قال: ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾، فجاء بضمير الفصل الدّال على القصر، أي كنت أنت الرقيب لا أنا إذ لم يبق بيني وبين الدنيا اتّصال، والمعنى أنّك تعلم أمرهم وترسل إليهم من يهديهم متى شئت، وقد أرسل إليهم محمدا ﷺ وهداهم بكلّ وجوه الاهتداء، وأقصى وجوه الاهتداء إبلاغهم ما سيكون في شأنهم يوم القيامة.

١٧. وقوله: ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ تذييل، والواو اعتراضية إذ ليس معطوفا على ما تقدّم لئلّا يكون في حكم جواب ﴿فَلَمَّا﴾

١٨. وقوله: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فوّض أمرهم إلى الله فهو أعلم بما يجازيهم به لأنّ المقام مقام إمساك عن إبداء رغبة لشدّة هول ذلك اليوم، وغاية ما عرّض به عيسى أنه جوّز المغفرة لهم رحمة منه بهم.

١٩. وقوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ذكر العزيز كناية عن كونه يغفر عن مقدرة، وذكر الحكيم لمناسبته للتفويض، أي المحكم للأمور العالم بما يليق بهم.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. الكلام إلى الآن في محاسبة الناس يوم القيامة ومجاوبتهم بشأن عيسى ابن مريم من حيث إنهم نحلوه ما ليس فيه، وادعوا ما لم يقله، فادعوا عليه الألوهية هو وأمه فكانت المجاوبة حول هذه الفرية التي افتروها، وذلك الوهم الذى توهموه وادعوه على المسيح عليه السلام.

٢. ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ العطف هنا على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾ [المائدة]، فإن هذا كله صورة للمجاوبة التي تكون يوم القيامة بين الرسل، وأقوامهم، ومن بعثوا إليهم بشكل عام، وخص عيسى عليه السلام في هذا المقام بالمجاوبة؛ لأنه كان أكثر الرسل افتراء على شخصه النبوي الكريم، إذ ادعوا عليه الألوهية، وكان نداؤه بذكر: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ للإشارة إلى الولادة الطبيعية التي تنفى أن يكون إلها أو ابن إله، أو فيه عنصر الألوهية بأي وضع من الأوضاع؛ لأن الألوهية والبشرية نقيضان لا يجتمعان، فلا يمكن أن يكون البشر فيه ألوهية، ولا الإله فيه بشرية، ومعنى ﴿اتَّخِذُونِي﴾، اجعلونى، والتعبير باتخذونى أو اجعلونى يدل على أنه ليس له حقيقة، بل هو في ذاته اتخاذ بها لا أصل له.

٣. والاستفهام للتقرير، أي ليقر عيسى عليه السلام بخلافه، ذكر الحقيقة في ذلك اليوم الذى لا تجزى نفس عن نفس شيئا، والذى يتقرر الجزاء وليس وقت العمل، فيه توبيخ لهم، وتكبير لذنوبهم، وبيان لافترائهم، وعظمه وهو من قبيل إحضار أعمالهم وأقوالهم، وبذلك يرد الاعتراض الذى يورده العلماء إذ يقال كيف يسأل الله تعالى عيسى وهو سبحانه وتعالى يعلم أنه لم يقل شيئا من هذا، ولا يمكن أن يدعى لنفسه ما ادعوه له؟ فالسؤال ليقر في المشهد العظيم بكذبهم وافترائهم على الله سبحانه وتعالى، وفى ذلك أبلغ توبيخ، وتجسيم لذنبهم وأوهامهم، وافترائهم على الله سبحانه وتعالى، والذين قالوا: إن عيسى وأمه إلاهان هم البربرانية من طوائف النصارى، ولم يستنكره غيرهم، فكأنهم أقروه، والذين لم يقروه، قالوا: إن الله ثالث ثلاثة الأب والابن وروح القدس.

٤. والذين قالوا: إن عيسى وأمه إلهان من دون الله لم ينفوا ألوهية الله إذ لم يعرف عنهم أنهم نفوها،

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/٢٤٠٥.

حتى يقال عنهم: إنهم قالوا: إن عيسى ابن مريم وأمه إلهان من دون الله أي غيره، والجواب عن ذلك أن من لم يؤمن بوحدانية الله تعالى بل أشرك غيره معه لا يقال: إنه آمن بالله، واعترف بألوهية الله سبحانه وتعالى؛ لأنه لا يعبد إلا الله وحده، أو نفسر ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي خلاف الله فكأنهم قالوا: إن هناك اثنين مع الله تعالى.. تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

٥. وقد بين الله تعالى إجابة عيسى عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ سبحانك معناها تنزيها لك عن هذا القول وتقديسا، وهي منصوبة على أنها مصدر لفعل محذوف، وتصدير سيدنا عيسى في ذلك اليوم المشهود ـ كلامه بذلك للدلالة على أنه أمر لا يليق في ذاته، فلا يمكن أن يصدر عن عاقل يعي ما يقول ويدركه، ففيه نفى مطلق للشرك وبيان للنزاهة والتقديس، وأنه هو الذى يسبح له وحده.

٦. ثم بعد هذا التنزيه المطلق الذى كان نفيا مطلقا، أخذ ينفى عن نفسه هذا الكلام المحال، فنفى عنه بأنه ليس من شأنه أن يقول مثل هذا القول، بل ذكر استحالة أن يصدر عنه، وقال: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾، وفى هذا تأكيد للنفي من وجوه ثلاثة:

أ. أولها: أنه نفى أن يكون شأنه ذلك القول، فلا يمكن أن يصدر عنه، فهو لم ينف القول فقط، بل نفى احتمال أن يقول، ونفى احتمال القول أقوى في الدلالة من نفى المقولة.

ب. ثانيها: أن كلامه يدل على أن ذلك غير معقول في ذاته، فكيف يقول.

ج. ثالثها: أنه أثبت أنه مستحيل قوله لأنه ليس بحق.

٧. ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، هذه الجملة تأكيد لنفى ما سئل عنه، وهو أنه قال: ﴿اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾، إذ إنه لو كان قد حصل لعلمه الله تعالى، وما دام لم يعلمه، فهو لم يقع، ولا يمكن أن يقع؛ لأن الله لا يغيب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء، وفى هذا النص فوق دلالته على عدم الوقوع بأبلغ تعبير إثبات شمول علم الله تعالى، وإنه بكل شيء محيط.

٨. وقد زكى هذا المعنى الجليل بقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾، ففي هذا النص إثبات قصور علم الإنسان بجوار علم الله تعالى، وإثبات أن علم الله تعالى شامل لمطويات القلوب، وعلم

الإنسان مقصور على ما يظهر من الجوارح فالله يعلم ما يخفى في الصدور، والإنسان لا يعلم إلا ما هو ظاهر محسوس، أو ما يكشف عنه الظاهر المحسوس، فلا يعلم ما الخفي إلا ما يظهره الجلى، والنص يدل على نفى الألوهية من جهة ثالثة؛ لأن علم الله شامل لكل شيء لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وعلم عيسى من النوع القاصر الذى لا يحيط إلا بالمحسوس أو ما ينبئ عنه المحسوس، فهو نفى للألوهية من طريق العلم، ثم هو موازنة من جهة ثانية بين نفس الإنسان المكشوفة لخالقه، وذات الله تعالى التي لا يعلم البشر عنها إلا وحدانيتها، وما يعلمه للإنسان منها.

٩. وقد أكد عيسى علم الله تعالى المحيط الذى يعلو عن الصفات البشر بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ أي إنك يا صاحب الجلالة تقدست أسماؤك تعلم الأمور المغيبة عن حسنا، والمكنونة في المستقبل علما دقيقا لا يخفى منه شيء عليك، ولذلك عبر بصيغة المبالغة الدالة على الكثرة، وعلى الدقة وعلى الإحاطة التامة الكاملة وأنه سبحانه وتعالى يعلم ما بطن كعلمه بما ظهر، فإن ما ظهر وما بطن هو بالنسبة لنا نحن بنى الإنسان، وأما بالنسبة لله تعالى فإن الجميع مكشوف غير مستور، وقد أكد علم الله تعالى للغيب بأربعة مؤكدات:

أ. أولها: بـ (إنّ) المؤكدة.

ب. ثانيها: بالضمير المؤكد في قوله تعالى: ﴿أَنْتَ﴾

ج. ثالثها: بصيغة المبالغة التي تعد مبالغة بالنسبة للعبيد، ولكنها حقيقة فوق ما نتصور بالنسبة لله تعالى العليم الحكيم، وإن هذا أقصى ما تتسع له لغتنا القاصرة عن التعبير عن الحقائق الإلهية.

د. رابعها: جمع الغيوب، فلم يفرد الغيب، بل قال الغيوب بكل أنواعها ما وقع في الماضي وما يقع في المستقبل وما يتعلق بالكائنات كلها الروحاني منها والمادى، والكل خلقه سبحانه، من طيور في الهواء، وأسماك في الماء، وملائكة، وجن، وإنس، وهكذا كل ما هو غيب في ذاته، أو بالنسبة للبشر، أو لطوائف منهم.

١٠. ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾، هذا الكلام السامي في تأكيد القول الأول، وهو إثبات تنزيه الله تعالى، وأنه ما دعا إلا إلى الوحدانية، ولقد كان كل هذا في مقام التوبيخ وإثبات الحجة عليهم، وعقابهم على كفرهم، وافترائهم على الله تعالى ربهم،

وعلى عيسى ابن مريم رسوله سبحانه إليهم.

١١. والجملة السامية السابقة فيها إثبات استحالة أن يكون قد قال: ﴿اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ﴾، فهي تفي بالدليل، وهي هذه الجملة السامية فيها نفى، وإثبات، فيها نفى القول الذى نسبوه بهتانا إليه، وفيه إثبات ما قاله، ولم يقل سواه، ولذلك كان فيه قصر بالنفي والإثبات، فهو يذكر أنه دعا إلى التوحيد المطلق، وفيه إثبات أنه لا يمكن أن يدعو إلا إلى التوحيد المطلق، وذلك لثلاثة أمور:

أ. أولها: أنه هو الذى أمر ربه، ولم يؤمر بغيره، وهو رسول من عند الله، ولا يمكن أن يكون الرسول قد أدى الرسالة على وجهها إلا إذا بلغ ما أمر به دون سواه، ولذا قال عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾، ما أمرتني أن أقوله وأبلغه، وإلا أكن غير مؤد للرسالة.

ب. ثانيها: أنه لم يكتف ببيان أنه أدى ما أمر به إجمالا، بل ذكر حقيقة ما دعا مفسرا غير مجملا، إذ قال: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، فإن هي المفسرة، فهو يفسر ما أمر به وهو بين لا إبهام فيه.

ج. ثالثها: أنه أقام الدليل على استحقاقه وحده للعبادة سبحانه: ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾، أي أنه هو المستحق للعبادة لأنه هو وحده الذى خلقنى، فأنا مخلوق، فكيف أكون إلها، وهو الذى خلقكم وحده فكيف تعبدون غيره!؟، وفى هذا التعبير أثبت وحدانية الخلق والتكوين ووحدانية الذات، كما أثبت تصريح اللفظ وحدانية العبادة.

١٢. وقد أكد عليه السلام أنه بلغهم تلك الحقائق، فقال كما حكى عنه ربه: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾، أي كنت مشاهدا لهم رقيبا عليهم تعلم ما حاولوه من الزيغ والتحريف مدة بقائى فيهم، فما تركت تنبيههم إلى التوحيد في العبادة والذات والصفات والتكوين مدة إقامتى بينهم، ولما تركت الدنيا كنت أنت الرقيب.

١٣. ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ في النص الكريم السابق ذكر عليه السلام شهادته عليهم وهو حي قائم برسالته مؤد لها على وجهها، وفى هذا النص يذكر انتهاء مهمته بوفاته، ويفوض أمرهم إلى ربهم في ألطف تعبير وأدق إشارة، والفاء للتفصيل كما تدل على الحالية والبعد به، والمعنى عند حد وفاتى ومن قبلها، ومن بعد كنت أنت وحدك الرقيب عليهم العالم بحالهم وأنت على كل شيء عالم بحالهم تعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.. وفقنا الله لما يحب ويرضى.

١٤. ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الكلام العظيم موصول في حديث السيد المسيح عيسى ابن مريم ﷺ يوم يجمع الله تعالى الرسل يوم القيامة، ولقد كان من المجاوبة بين الله تعالى، وبين السيد المسيح عليه السلام في شأن الأوهام التي توهمها من يدعون النسبة إليه، وذكرت هذه الأوهام كأنها واقعة في زمن المسيح عليه السلام وهي قد وقعت من بعده ولم يحضرها، ثم المجاوبة تكون من بعد ذلك، إذ إنها تكون يوم القيامة يوم يجمع الله تعالى الرسل، ويسألهم عما كان من شأن إجابات أقوامهم.

١٥. واختص سبحانه وتعالى بالذكر عيسى لما ذكرنا من أنه أشد الأنبياء افتراء عليه إذ ادعوا أنه ابن الله وأن الله ثالث ثلاثة، وذكرت أخبار يوم القيامة ـ كأنها حاضرة لتحضر بين يدى النصارى الذين ادعوا ما ادعوا بالصيغة الإنكارية التي تكون من المسيح عليه السلام ـ يوم، ليتبينوا أن المسيح عليه السلام بريء منهم، ومما يتكلمون به حول ذاته النبوية البشرية.

١٦. وخلاصة تلك المجاوبة: أن العلى القدير سأله سؤال العالم بالجواب ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾، وكان الجواب بالنفي لأن الله تعالى يعلم أنه لم يقع وما كان لهم أن يعتقدوا في السيد المسيح عليه السلام أو أمه ألوهية؛ لأنهما كانا يأكلان الطعام، ويمشيان في الأسواق، وذلك شأن البشرية، لا شأن من يكون إلها، وقد تضمن الجواب تأكيد النفي بأنه ليس من شأنه، ولا يحق له؛ لأنه بشر مخلوق لله سبحانه وتعالى، فالبشرية لا تتخلى عنه، وأنه لا يمكن أن يكون إلها، يشارك الله تعالى في خلقه، فالله خالقه، ولا يمكن أن يكون المخلوق كالخالق، ولأن الله تعالى هو الذى يربه بعد خلقه، وهو الذى علمه الحكمة، وهو الذى جعله يتكلم كما يتكلم الراشدون في المهد، فكان كلامه في المهد ككلامه وهو كهل، أي رشيد قد اكتملت رجولته، واستوى خلقه، وهذا يدل على أن السيد المسيح عليه السلام عاش إلى أن بلغ سن الكهولة، فقد بلغ أشده، وبلغ أربعين، وإن كانت كتب النصارى الحاضرين تومئ إلى أنه لم يصل إلى الأربعين، وقد ذكر سيدنا عيسى عليه السلام أنهم في رقابة الله تعالى من بعده، يعلم حالهم، ومآل أمرهم وانحرافهم عن الجادة التي أرشدهم إليها الله تعالى على لسان نبيه الأمين عيسى ـ عليه السلام، وأنه هو تعالى الذى شاهد أعمالهم، وأنه محاسبهم بها مجازيهم عليها، والأمر في شأنهم إليه، وأمورهم مفوضة إليه، وهو العزيز الحكيم، والغفور الرحيم، فإن شاء أخذهم بذنوبهم كاملة، وإن شاء

عفا عن بعضها، وإن شاء تغمدهم برحمته وغفرانه إن تابوا، وآمنوا بالله وحده وآمنوا بمحمد ﷺ، ولذلك قال تعالى حكاية عن بقية كلام عيسى في ذلك المشهد العظيم.

١٧. ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وإنا نجد في هذا النص الذى يذكر الحال يوم القيامة ينبئ عن رأفة المسيح عليه السلام، ورفقه، ورغبته في ألا يكون الناس في عذاب إلا أن تكون تلك إرادة الله تعالى، فالنص تفويض لله تعالى، وهو يشبه في هذا طلب إبراهيم أبى الأنبياء عليهم السلام الغفران لأبيه كما حكى الله سبحانه وتعالى عنه بقوله تعالى: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء]

١٨. فالمسيح عليه السلام يحكى الله تعالى عنه في ذلك اليوم المشهود قوله: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ أي إن تعاقبهم العقاب الشديد فهم عبادك تملكهم، ولا حق لهم عندك، وهم قد أذنبوا، فبحكمتك وعزتك كان عقابهم، وإن تغفر لهم وتستر سيئاتهم وتصفح عنهم فإن ذلك جائز منك، وهو صفح الغالب القاهر، الذى يضع الأمور في مواضعها وأفعاله في دائرة الحكمة والتدبير المصون عن العبث.

١٩. سؤال وإشكال: كيف يسوغ أن يطلب عيسى عليه السلام في المشهد العظيم الغفران للكفار الذين أشركوا بالله تعالى، فجعلوا عيسى وأمه إلهين وقالوا إن الله ثالث ثلاثة، وقالوا إن المسيح ابن الله؟

٢٠. سؤال وإشكال: أجابوا عن ذلك بإجابات مختلفة أدقها ما قيل من أن الغفران للكفار جائز عقلا، وليس مستحيلا، ولقد كان طلب عيسى عليه السلام؛ الغفران لهم من قبيل طلب إبراهيم عليه السلام الغفران لأبيه، فهو ناتج من فرط الشفقة، والرأفة، على أن عيسى عليه السلام ما طلب الغفران، بل فوض الأمر لرب العالمين تعالت حكمته، وإذا كان ما يناقش في هذا المقام فهو أنه فرض جواز الغفران، ونحن نرى أن ذلك الفرض يتفق مع النسق التاريخى الذى وقع، وذلك بأن نفرض أن المسيحيين الذين أشركوا منهم من كان على ضلاله القديم بعد أن بلغته الدعوة المحمدية، ومنهم من استمر على غيه بعد أن تبلغه الدعوة المحمدية إلى التوحيد، وتبين حقيقة الدعوة المسيحية كما جاء بها الإسلام، وهؤلاء الأخيرون لا مساغ لفرض الغفران لهم شرعا؛ لأنهم أشركوا الأولون فقد كانوا على فترة من الرسل وكانوا على جهالة عمياء لا تسمح لهم أن يعرفوا حقيقة دعوة المسيح ﷺ، وذلك أنه قد نزل بهم بعد المسيح عليه السلام من الاضطهادات والشدائد والكوارث ما جعلهم يستخفون بدينهم، ويفرون بها، ولا شوكة لهم، وقد قارنت

هذه الشدائد المسيحية في نشأتها من بعده وفى تكونها وليدا وفى تدرجها، واستمرت هذه الشدائد نحوا من ثلاثة قرون، نزل فيها أشد ما ينزله الإنسان بأخيه الإنسان حتى أنه كان يتخذ منهم مشاعل تسير في موكب الإمبراطور الروماني نيرون، إذ تطلى أجسامهم بالقار، وتشعل فيها النيران، ويسار بهم في موكبه، ولم يكشف عنهم البلاء إلا بعد أن اختفت المصادر الحقيقية لدينهم، وادعى التثليث تدريجيا، وما كان عندهم من علم يعلمونه ويحاسبون به، وهؤلاء أحسب أن فرض عيسى غفران الله تعالى كان فرضا سليما يتفق مع عزة الله تعالى وحكمته، وشمول علمه.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾، لم يقصد الله تعالى بهذا السؤال عيسى بالذات، لأنه يعلم ما قال عيسى للناس، وإنما قصد به إقامة الحجة على من ادعى لعيسى وأمه هذه الدعوى الكافرة ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ أنت منزه عن الشريك ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ لأنه نبي، والنبي معصوم عن الزلل، وقد بعث لمحاربة الشرك، والدعوة إلى التوحيد، فكيف يدعي الألوهية لنفسه، ويدعو الناس لعبادته.

٢. ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، استشهد على براءته من شركهم بعلم الله، وكفى به شاهدا.

٣. ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ جاء في إنجيل متى الفصل الرابع ما نصه بالحرف: (حينئذ خرج يسوع إلى البرية من الروح ليجرب من إبليس، فصام أربعين يوما وأربعين ليلة، وأخيرا جاع فدنا إليه المجرب ـ أي إبليس ـ قائلا أن كنت ابن الرب فمر أن تصير هذه الحجارة خبزا، فأجاب قائلا مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله، حينئذ أخذه إبليس إلى المدينة المقدسة وأقامه على جناح الهيكل وقال له: أن كنت ابن الله فألق بنفسك إلى أسفل لأنه مكتوب انه يوصي ملائكته بك فتحملك على

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/١٥٢.

أيديها لئلا تصدم بحجر رجلك فقال له يسوع: مكتوب أيضا لا تجرّب الرب إلهك، فأخذه إبليس أيضا إلى جبل عال جدا وأراه جميع ممالك العالم ومجدها، وقال له: أعطيك هذه كلها أن خررت ساجدا لي، حينئذ قال له يسوع: اذهب يا شيطان)، هل يصوم الإله؟ ولمن يصوم؟ وهل يجوع، وهو الرزاق؟ وكيف يجربه إبليس، وهو علاّم الغيوب؟ وكيف استطاع حمله ينتقل به من جبل إلى جبل وهو خالقه، وخالق الكون بكامله؟

٤. ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ جاء في بعض التفاسير أن قول عيسى عليه السلام لله جل وعز: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ يومئ إلى أن عيسى طلب لهم من الله المغفرة بتأدب ورجاء، لأن قوله: فإنهم عبادك، يتضمن هذا الطلب، تماما كما تقول لمن أراد القسوة على ولده: انه ولدك، أي ارفق به.. ولكن بعض المتزمتين أبى إلا أن يتمحل ويقول: (ان المعنى أن تغفر لهم بالتوبة)، ونجيب هذا القائل بأن المغفرة مع التوبة لا تحتاج إلى شفاعة ووساطة، لأن الله قد كتبها على نفسه لكل تائب.. ثم أي مانع يمنع عيسى ومحمدا أن يطلبا من الله الرحمة والمغفرة لعباده، فقد طلبها إبراهيم من قبل لمن عصاه: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فإنه مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، هذا، إلى أن العفو عن المسيء حسن على كل حال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢]

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. مشافهة الله رسوله عيسى بن مريم في أمر ما قالته النصارى في حقه، وكان الغرض من سرد الآيات ذكر ما اعترف به عليه السلام وحكاه عن نفسه في حياته الدنيا: أنه لم يكن من حقه أن يدعي لنفسه ما ليس فقد كان بعين الله التي لا تنام ولا تزيغ وأنه لم يتعد ما حده الله سبحانه له فلم يقل إلا ما أمر أن يقول ذلك، واشتغل بالعمل بما كلفه الله أن يشتغل به وهو أمر الشهادة، وقد صدقه الله تعالى فيما ذكره من حق الربوبية والعبودية.

٢. وبهذا تنطبق الآيات على الغرض النازل لأجله السورة، وهو بيان الحق المجعول لله على عباده

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٢٤١/٦.

أن يفوا بالعهد الذي عقدوه وأن لا ينقضوا الميثاق؛ فليس لهم أن يسترسلوا كيفما أرادوا وأن يرتعوا رغدا حيث شاءوا فلم يملكوا هذا النوع من الحق من قبل ربهم، ولا أنهم قادرون على ذلك من حيال أنفسهم، و﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وبذلك تختتم السورة.

٣. ﴿وَإِذْ قالَ اللهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ الله) (إِذْ﴾ ظرف متعلق بمحذوف يدل عليه المقام، والمراد به يوم القيامة لقوله تعالى فيها: ﴿قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ وقول عيسى عليه السلام فيها: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾

٤. وقد عبرت الآية عن مريم بالأمومة فقيل: ﴿اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ﴾ دون أن يقال: (اتخذوني ومريم إلهين للدلالة على عمدة حجتهم في الألوهية وهو ولادته منها بغير أب، فالبنوة والأمومة الكذائيتين هما الأصل في ذلك فالتعبير به وبأمه أدل وأبلغ من التعبير بعيسى ومريم.

٥. و﴿دُونَ﴾ كلمة تستعمل بحسب المال في معنى الغير، قال الراغب: (يقال للقاصر عن الشيء (دون) قال بعضهم: هو مقلوب من الدنو، والأدون الدني، وقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ أي من لم يبلغ منزلتكم في الديانة، وقيل: في القرابة، وقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي ما كان أقل من ذلك، وقيل: ما سوى ذلك، والمعنيان متلازمان، وقوله: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي غير الله)

٦. وقد استعمل لفظ ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ كثيرا في القرآن في معنى الإشراك دون الاستقلال بمعنى أن المراد من اتخاذ إله أو إلهين أو آلهة من دون الله هو أن يتخذ غير الله شريكا لله سبحانه في ألوهيته لا أن يتخذ غير الله إلها وتنفي ألوهية الله سبحانه فإن ذلك من لغو القول الذي لا يرجع إلى محصل فإن الذي أثبته حينئذ يكون هو الإله سبحانه وينفي غيره، ويعود النزاع إلى بعض الأوصاف التي أثبتها فمثلا لو قال قائل: إن الإله هو المسيح ونفى إله المسيح عاد مفاد كلامه إلى إثبات الإله تعالى وتوصيفه بصفات المسيح البشرية، ولو قال قائل: إن الأصنام أو أرباب الأصنام آلهة ونفى الله تعالى وتقدس فإنه يقول بأن للعالم إلها فقد أثبت الله سبحانه لكنه نعته بنعت الكثرة والتعدد فقد جعل لله شركاء، أو يقول كما يقوله النصارى: ﴿إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ أي واحد هو ثلاث وثلاث هو واحد، ومن قال إن مبدأ العالم هو الدهر أو الطبيعة

ونفى أن يكون للعالم إله تعالى عن ذلك فقد أثبت للعالم صانعا وهو الله عز اسمه لكنه نعته بنعوت القصور والنقص والإمكان، ومن نفى أن يكون لهذا النظام العجيب مبدأ أصلا ونفى العلية والتأثير على الرغم من صريح ما تقضي به فطرته فقد أثبت عالما موجودا ثابتا لا يقبل النفي والانعدام من رأس أي هو واجب الثبوت وحافظ ثبوته ووجوده إما نفسه وليس لطرو الزوال والتغير إلى أجزائه، وإما غيره فهو الله تبارك وتعالى، وله نعوت كماله.

٧. فتبين أن الله سبحانه لا يقبل النفي أصلا إلا بظاهر من القول من غير أن يكون له معنى معقول، والملاك في ذلك كله أن الإنسان إنما يثبت الإله تعالى من جهة الحاجة العامة في العالم إلى من يقيم أود وجوده ويدبر أمر نظامه ثم يثبت خصوصيات وجوده فما أثبته من شيء لسد هذه الخلة ورفع تلك الحاجة فهو الله سبحانه ثم إذا أثبت إلها غيره أو أثبت كثرة فإما أن يكون قد أخطأ في تشخيص صفاته وألحد في أسمائه، أو يثبت له شريكا أو شركاء تعالى عن ذلك، وأما نفيه وإثبات غيره فلا معنى له.

٨. فظهر أن معنى قوله: ﴿إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ شريكين لله هما من غيره، وإن سلم أن الكلمة لا تؤدي معنى الشركة بوجه، قلنا: إن معناها لا يتعدى اتخاذ إلهين هما من سنخ غير الله سبحانه وأما كون ذلك مقارنا لنفي ألوهيته تعالى أو إثباتها فهو مسكوت عنه لا يدل عليه لفظ وإنما يعلم من خارج، والنصارى لا ينفون ألوهيته تعالى مع اتخاذهم المسيح وأمه إلهين من دون الله سبحانه.

٩. وربما استشكل بعضهم الآية بأن النصارى غير قائلين بألوهية مريم العذراء عليه السلام، وذكروا في توجيهها وجوها، لكن الذي يجب أن يتنبه عليه أن الآية إنما ذكرت اتخاذهم إياها إلهة ولم يذكر قولهم بأنها إلهة بمعنى التسمية، واتخاذ الإله غير القول بالألوهية إلا من باب الالتزام، واتخاذ الإله يصدق بالعبادة والخضوع العبودي قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] وهذا المعنى مأثور عن أسلاف النصارى مشهود في أخلافهم، قال الآلوسي في روح المعاني: إن أبا جعفر الإمامي حكى عن بعض النصارى أنه كان فيما مضى قوم يقال لهم: (المريمية) يعتقدون في مريم أنها إله، وقال في تفسير المنار: أما اتخاذهم المسيح إلها فقد تقدم في مواضع من تفسير هذه السورة، وأما أمه فعبادتها كانت متفقا عليها في الكنائس الشرقية والغربية بعد قسطنطين، ثم أنكرت عبادتها فرقة البروتستانت التي حدثت بعد الإسلام بعدة قرون، إن هذه العبادة التي توجهها النصارى إلى مريم والدة المسيح عليه السلام منها ما هو صلاة

ذات دعاء وثناء واستغاثة واستشفاع، ومنها صيام ينسب إليها ويسمى باسمها، وكل ذلك يقرن بالخضوع والخشوع لذكرها ولصورها وتماثيلها، واعتقاد السلطة الغيبية لها التي يمكنها بها في اعتقادهم أن تنفع وتضر في الدنيا والآخرة بنفسها أو بواسطة ابنها، وقد صرحوا بوجوب العبادة لها، ولكن لا يعرف عن فرقة من فرقهم إطلاق كلمة (إله) عليها بل يسمونها (والدة الإله) ويصرح بعض فرقهم أن ذلك حقيقة لا مجاز، والقرآن يقول هنا: إنهم اتخذوها وأمها إلهين، والاتخاذ غير التسمية فهو يصدق بالعبادة وهي واقعة قطعا، وبين في آية أخرى أنهم قالوا: إن الله هو المسيح عيسى بن مريم، وذلك معنى آخر، وقد فسر النبي ﷺ قوله تعالى في أهل الكتاب: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أنهم اتبعوهم فيما يحلون ويحرمون لا أنهم سموهم أربابا، وأول نص صريح رأيته في عبادة النصارى لمريم عبادة حقيقية ما في كتاب (السواعي) من كتب الروم الأرثوذكس، وقد اطلعت على هذا الكتاب في دير يسمى (دير التلميذ) وأنا في أول العهد بمعاهد التعليم، وطوائف الكاثوليك يصرحون بذلك ويفاخرون به، وقد زين الجزويت في بيروت العدد التاسع من السنة السابعة لمجلتهم (المشرق) بصورتها وبالنقوش الملونة إذ جعلوه تذكارا لمرور خمسين سنة على إعلان البابا بيوس التاسع: أن مريم البتول حبل بها بلا دنس الخطية) وأثبتوا في هذا العدد عبادة الكنائس الشرقية لمريم كالكنائس الغربية، ومنه قول الأب (لويس شيخو) في مقالة له فيه عن الكنائس الشرقية: (أن تعبد الكنيسة الأرمنية للبتول الطاهرة أم الله لأمر مشهور) وقوله: (قد امتازت الكنيسة القبطية بعبادتها للبتولة المغبوطة أم الله)

١٠. ونقل أيضا بعض مقالة للأب (إنستاس الكرملي) نشرت في العدد الرابع عشر من السنة الخامسة من مجلة المشرق الكاثوليكية البيروتية قال تحت عنوان قدم (التعبد للعذراء) بعد ذكر عبارة سفر التكوين في عداوة الحية للمرأة ونسلها وتفسير المرأة بالعذراء: (إلا ترى أنك لا ترى من هذا النص شيئا ينوه بالعذراء تنويها جليا إلى أن جاء ذلك النبي العظيم (إيليا) الحي فأبرز عبادة العذراء من حيز الرمز والإبهام إلى عالم الصراحة والتبيان)، ثم فسر هذه الصراحة والتبيان بما في سفر الملوك الثالث (بحسب تقسيم الكاثوليك) من أن إيليا حين كان مع غلامه في رأس الكرمل أمره سبع مرات أن يتطلع نحو البحر فأخبره الغلام بعد تطلعه المرة السابعة: أنه رأى سحابة قدر راحة الرجل طالعة من البحر، قال صاحب المقالة: فمن ذلك النشئ (أول ما ينشأ من السحاب) قلت: إن هو إلا صورة مريم على ما أحقه المفسرون

بل وصورة الحبل بلا دنس أصلي، ثم قال هذا أصل عبادة العذراء في الشرق العزيز، وهو يرتقي إلى المائة العاشرة قبل المسيح، والفضل في ذلك عائد إلى هذا النبي إيليا العظيم، ثم قال ولذلك كان أجداد الكرمليين أول من آمن أيضا بالإله يسوع بعد الرسل والتلامذة، وأول من أقام للعذراء معبدا بعد انتقالها إلى السماء بالنفس والجسد.

١١. إنما نقلنا ما نقلناه بطوله لأن فيه ما يطلع به الباحث المتأمل على نوع منطقهم في إثبات العبادة لها ويشاهد بعض مجازفاتهم في الدين.

١٢. ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ إلى آخر الآية هذه الآية والتي تتلوها جواب المسيح عيسى بن مريم عليه السلام عما سئل عنه وقد أتى عليه السلام فيه بأدب عجيب، فبدأ بتسبيحه تعالى لما فاجأه أن سمع ذكر ما لا يليق نسبته إلى ساحة الجلال والعظمة وهو اتخاذ الناس إلهين من دون الله شريكين له سبحانه فمن أدب العبودية أن يسبح العبد ربه إذا سمع ما لا ينبغي أن يسمع فيه تعالى أو ما يخطر بالبال تصور ذلك، وعليه جرى التأديب الإلهي في كلامه كقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ [الأنبياء: ٢٦] وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لله الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ﴾ [النحل: ٥٧]

١٣. ثم عاد إلى نفي ما استفهم عن انتسابه إليه، وهو أن يكون قد قال للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله، ولم ينفه بنفسه بل بنفي سببه مبالغة في التنزيه فلو قال: (لم أقل ذلك أو لم أفعل) لكان فيه إيماء إلى إمكان وقوعه منه لكنه لم يفعل، لكن إذا نفاه بنفي سببه فقال: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ كان ذلك نفيا لما يتوقف عليه ذلك القول، وهو أن يكون له أن يقول ذلك حقا فنفي هذا الحق نفي ما يتفرع عليه بنحو أبلغ نظير ما إذ قال المولى لعبده: لم فعلت ما لم آمرك أن تفعله؟ فإن أجاب العبد بقوله: (لم أفعل) كان نفيا لما هو في مظنة الوقوع، وإن قال: (أنا أعجز من ذلك) كان نفيا بنفي السبب وهو القدرة، وإنكارا لأصل إمكانه فضلا عن الوقوع.

١٤. وقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ إن كان لفظ ﴿يَكُونُ﴾ ناقصة فاسمها قوله: ﴿أَنْ أَقُولَ﴾ وخبرها قوله: ﴿لِي﴾ واللام للملك، والمعنى: ما أملك ما لم أملكه وليس من حقي القول بغير حق، وإن كانت تامة فلفظ ﴿لِي﴾ متعلق بها وقوله: ﴿أَنْ أَقُولَ﴾ الآية، فاعلها، والمعنى: ما يقع لي القول بغير حق والأول من الوجهين أقرب، وعلى أي حال يفيد الكلام نفي الفعل بنفي سببه.

١٥. وقوله عليه السلام: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ نفي آخر للقول المستفهم عنه لا نفيا لنفسه بنفسه بل بنفي لازمه فإن لازم وقوع هذا القول أن يعلم به الله لأنه الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وهو القائم على كل نفس بما كسبت، المحيط بكل شيء وهذا الكلام منه عليه السلام يتضمن أولا فائدة إلقاء القول مع الدليل من غير أن يكتفي بالدعوى المجردة؛ وثانيا الإشعار بأن الذي كان يعتبره في أفعاله وأقواله هو علم الله سبحانه من غير أن يعبأ بغيره من خلقه علموا أو جهلوا، فلا شأن له معهم.

١٦. وبلفظ آخر السؤال إنما يصح طبعا في ما كان مظنة الجهل فيراد به نفي الجهل وإفادة العلم، إما لنفس السائل إذا كان هو الجاهل بواقع الأمر، أو لغيره إذا كان السائل عالما وأراد أن يعلم غيره بما يعلم هو من واقع الأمر كما يحمل عليه نوع السؤال الواقع في كلامه تعالى، وقوله عليه السلام في الجواب في مثل المقام ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ إرجاع للأمر إلى علمه تعالى وإشعار أنه لا يعتبر شيئا في أفعاله وأقواله غير علمه تعالى.

١٧. ثم أشار بقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ليكون تنزيها لعلمه تعالى عن مخالطة الجهل إياه وهو وإن كان ثناء أيضا في نفسه لكنه غير مقصود لأن المقام ليس بمقام الثناء بل مقام التبري عن انتساب ما نسب إليه، فقوله عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ توضيح لنفوذ العلم الذي ذكره في قوله: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ وبيان أن علمه تعالى بأعمالنا وهو الملك الحق يومئذ ليس من قبيل علم الملوك منا بأحوال رعيته بارتفاع أخبار المملكة إليه ليعلم بشيء ويجهل بشيء ويستحضر حال بعض ويغفل عن حال بعض، بل هو سبحانه لطيف خبير بكل شيء ومنها نفس عيسى بن مريم بخصوصه.

١٨. ومع ذلك لم يستوف حق البيان في وصف علمه تعالى فإنه سبحانه يعلم كل شيء لا كعلم أحدنا بحال الآخر وعلم الآخر بحاله، بل يعلم ما يعلم بالإحاطة به من غير أن يحيط به شيء ولا يحيطون به علما فهو تعالى إله غير محدود وكل من سواه محدود مقدر لا يتعدى طور نفسه المحدود، ولذلك ضم عليه السلام إلى الجملة جملة أخرى فقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾

١٩. أما قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ففيه بيان العلة لقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾، وفيه استيفاء حق البيان من جهة أخرى وهو رفع توهم أن حكم العلم في قوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا

﴿فِي نَفْسِكَ﴾ مقصور بما بينه وبين ربه لا يطرد في كل شيء فبين بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ أن العلم التام بجميع الغيوب منحصر فيه فما كان عند شيء من الأشياء وهو غيب عن غيره فهو معلوم لله سبحانه وهو محيط به.

٢٠. ولازم ذلك أن لا يعلم شيء من الأشياء بغيبه تعالى ولا بغيب غيره الذي هو تعالى عالم به لأنه مخلوق محدود لا يتعدى طور نفسه فهو علام جميع الغيوب، ولا يعلم شيء غيره تعالى بشيء من الغيوب لا الكل ولا البعض، على أنه لو أحيط من غيبه تعالى بشيء فإن أحاط تعالى به لم يكن هذا المحيط محيطا حقيقة بل محاطا له تعالى ملكه الله بمشيئته أن يحيط بشيء من ملكه من غير أن يخرج بذلك من ملكه كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وإن لم يحط سبحانه تعالى بما أحاط به كان مضروبا بحد فكان مخلوقا تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

٢١. قوله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ لما نفى عليه السلام القول المسئول عنه عن نفسه بنفي سببه أولا نفاه ببيان وظيفته التي لم يتعدها ثانيا فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾، وأتى فيه بالحصر بطريق النفي والإثبات ليدل على الجواب بنفي ما سئل عنه وهو القول: ﴿اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾، وفسر ما أمره به ربه من القول بقوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ ثم وصف الله سبحانه بقوله: ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ لئلا يبقى أدنى شائبة من الوهم في أنه عبد رسول يدعو إلى الله ربه ورب جميع الناس وحده لا شريك له.

٢٢. وعلى هذه الصراحة كان يسلك عيسى بن مريم عليه السلام في دعوته ما دعاهم إلى التوحيد على ما يحكي عنه القرآن الشريف، قال تعالى حكاية عنه: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦٤] وقال: ﴿وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٦]

٢٣. وقوله: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ثم ذكر عليه السلام وظيفته الثانية: من جانب الله سبحانه وهو الشهادة على أعمال أمته كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [(النساء: ١٥٩]، يقول عليه السلام ما كان لي من الوظيفة فيهم إلا الرسالة إليهم والشهادة على أعمالهم، أما الرسالة فقد أديتها على أصرح ما يمكن، وأما الشهادة فقد كنت عليها ما دمت فيهم، ولم أتعد ما رسمت لي من الوظيفة فأنا براء من أن أكون ألقي إليهم

أن اتخذوني وأمي إلهين من دون الله.

٢٤. وقوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ الرقوب والرقابة هو الحفظ، والمراد به في المقام بدلالة السياق هو الحفظ على الأعمال، وكأنه أبدل الشهيد من الرقيب احترازا عن تكرر اللفظ بالنظر إلى قوله بعد: ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، ولا نكتة تستدعي الإتيان بلفظ (الشهيد) ثانيا بالخصوص.

٢٥. واللفظ أعني قوله: ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ يدل على الحصر، ولازمه أنه تعالى كان شهيدا ما دام عيسى عليه السلام شهيدا وشهيدا بعده؛ فشهادته عليه السلام كانت وساطة في الشهادة لا شهادة مستقلة على حد سائر التدبيرات الإلهية التي وكل عليها بعض عباده ثم هو على كل شيء وكيل كالرزق والإحياء والإماتة والحفظ والدعوة والهداية وغيرها، والآيات الشريفة في ذلك كثيرة لا حاجة إلى إيرادها، ولذلك عقب عليه السلام قوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ بقوله: ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ليدل بذلك على أن الشهادة على أعمال أمته التي كان يتصداها ما دام فيهم كانت حصة يسيرة من الشهادة العامة المطلقة التي هي شهادة الله سبحانه على شيء فإنه تعالى شهيد على أعيان الأشياء وعلى أفعالها التي منها أعمال عباده، التي منها أعمال أمة عيسى ما دام فيهم وبعد توفيه، وهو تعالى شهيد مع الشهداء وشهيد بدونهم.

٢٦. ومن هنا يظهر أن الحصر صادق في حقه تعالى مع قيام الشهداء على شهادتهم فإنه عليه السلام حصر الشهادة بعد توفيه في الله سبحانه مع أن لله بعده شهداء من عباده ورسله وهو عليه السلام يعلم ذلك، ومن الدليل على ذلك بشارته عليه السلام بمجيء النبي ﷺ - على ما يحكيه القرآن - بقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] وقد نص القرآن على كون النبي ﷺ من الشهداء قال تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]

٢٧. على أن الله سبحانه حكى عنه هذا الحصر: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ ولم يرده بالإبطال فالله سبحانه هو الشهيد لا غير مع وجود كل شهيد أي إن حقيقة الشهادة هي لله سبحانه كما أن حقيقة كل كمال وخير هو لله سبحانه، وأن ما يملكه غيره من كمال أو خير أو حسن فإنما هو بتمليكه تعالى من غير أن يستلزم هذا التمليك انعزاله تعالى عن الملك ولا زوال ملكه وبطلانه، وعليك بالتدبر في أطراف

ما ذكرناه.

٢٨. فبان بما أورده من بيان حاله المحكي عنه في الآيتين أنه بريء مما قاله الناس في حقه وأن لا عهدة عليه فيما فعلوه، ولذلك ختم عليه السلام كلامه بقوله: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ إلى آخر الآية.

٢٩. ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لما اتضح بما أقام عليه السلام من الحجة أن لم يكن له من الوظيفة بالنسبة إلى الناس إلا أداء الرسالة والقيام بأمر الشهادة، وأنه لم يشتغل فيهم إلا بذلك ولم يتعده إلى ما ليس له بحق فهو غير مسئول عما تفوهوا به من كلمة الكفر، بان أنه عليه السلام بمعزل عن الحكم الإلهي المتعلق بهم فيما بينهم وبين ربهم، ولذلك استأنف الكلام ثانيا فقال من غير وصل وتفريع: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ﴾، إلخ.

٣٠. فالآية كالصالحة لأن يوضع موضع البيان السابق، ومفادها أنه لا عهدة علي فيما وقعوا فيه من الشرك الشنيع، ولم أداخل أمرهم في شيء حتى أشاركهم فيما بينك وبينهم من الحكم عليهم بما شئت فهم وحكمك في حقهم بما أردت، وهم وصنعك فيهم بما صنعت، إن تعذبهم بما حكمت فيمن أشرك بك بدخول النار فإنهم عبادك، وإليك تدبير أمرهم، ولك أن تسخط عليهم به لأنك المولى الحق وإلى المولى أمر عباده، وأن تغفر لهم بإمحاء أثر هذا الظلم العظيم فإنك أنت العزيز الحكيم لك حق العزة والحكمة، وللعزيز (وهو الذي له من الجدة والقدرة ما ليس لغيره) ولا سيما إذا كان حكيما (لا يقدم على أمر إلا إذا كان مما ينبغي أن يقدم عليه) أن يغفر الظلم العظيم فإن العزة والحكمة إذا اعتنقتا في فاعل لم تدعا قدرة تقوم عليه ولا مغمضة في ما قضى به من أمر.

٣١. وبما تقدم من البيان ظهر:

أ. أولا: أن قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ بمنزلة أن يقال: (فإنك مولاهم الحق) على ما هو دأب القرآن من ذكر أسماء الله بعد ذكر أفعاله كما في آخر الآية.

ب. وثانيا: أن قوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ليس مسوقا للحصر بل الإتيان بضمير الفصل وإدخال اللام في الخبر للتأكيد، ويئول معناه إلى أن عزتك وحكمتك مما لا يداخله ريب فلا مجال للاعتراض عليك إن غفرت لهم.

ج. وثالثا: أن المقام (مقام المشافهة بين عيسى بن مريم عليه السلام وربه) لما كان مقام ظهور

العظمة الإلهية التي لا يقوم لها شيء كان مقتضاه أن يراعي فيه جانب ذلة العبودية للغاية بالتحرز عن الدلال والاسترسال والتجنب عن مداخلة في الأمر بدعاء أو سؤال، ولذلك قال: عليه السلام: ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ولم يقل (فإنك غفور رحيم) لأن سطوع آية العظمة والسطوة الإلهية القاهرة الغالبة على كل شيء لا يدع للعبد إلا أن يلتجئ إليه بما له من ذلة العبودية ومسكنة الرقية والمملوكية المطلقة، والاسترسال عند ذلك ذنب عظيم، وأما قول إبراهيم عليه السلام لربه: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فإنه مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] فإنه من مقام الدعاء وللعبد أن يثير فيه ناشئة الرحمة الإلهية بما استطاع.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ هذا معطوف على قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي﴾ وهذا السؤال شبه سؤال الموءودة: ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير:٩] وفيه فائدة أخرى: استدعاء التوبيخ والتقريع للنصارى، الذين اتخذوا عيسى إلهاً بما في جواب عيسى عليه السلام وذكر أمه لبيان أنه سواء اتخاذه إلهاً واتخاذها إلهاً؛ أو لأن بعض النصارى أشركوا بها كما يحكى عن بعض الحبشة، ولعل شركهم ليس تصريحاً بإلهيتها، بل بالغلو فيها ونسبة ما لا يقدر عليه إلا الله إليها، من مثل: شفاء المريض، وإطالة العمر، وبركة الرزق، وإنزال المطر، ومنع المطر عن العصاة غضباً عليهم، فاتخاذهم لها إلهاً: دعاؤها لجلب النفع الذي لا يقدر عليه إلا الله تعالى.

٢. ومعنى ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ يتخذوهما إلهين قريبين منهم في اعتقادهم، يعتبرون نفعهما وإجابتهما للدعاء أقرب من إجابة الله، ويتخيلون الله بعيداً منهم، فهذا معنى ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ وليس معناه: نفي إلهية الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا﴾ [الكهف:٩٣]، وقوله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف:٩٠] أي الشمس، وقوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [مريم:١٧] وغير ذلك.

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/٤٠٣.

٣. ﴿قَالَ﴾ أي عيسى ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهاً وتبعيداً عن أن يكون معك إله ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي أن عبوديتي لك وإيماني بالتوحيد لك يمنعني أن أقول ما ليس لي بحق، ونظير هذا النفي: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ [النساء:٩٢] ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ [يونس:١٥] فهو نفي مؤكد بالدلالة على المانع.

٤. ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ نفى أن يكون قال للناس: ﴿اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ﴾ بطريقة إثبات علم الله به لو كان؛ لأنه ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ونفى عن نفسه علم الغيب، تحقيقاً لإقراره بأنه ليس بـ (إله)

٥. ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ لأنك أمرتني أن آمرهم بعبادتك وحدك، فما قلت لهم إلا ذلك المأمور به، وبينت لهم أنك ربي وربهم، فعلينا أن نعبدك وحدك لا شريك لك:

أ. إن جعلت (أَنْ) مفسرة، فعلى تضمين ﴿قُلْتُ لَهُمْ﴾ أمرتهم وعدل عن لفظ الأمر إلى لفظ القول، ليناسب قوله: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ ليناسب مقام الاعتراف بعبوديته لله تعالى الذي هو مقتضى الحال، فلم يقرن أمر الله له بأمره لهم؛ لأن أمره لهم إنما هو أمر تبليغ عن الله تعالى وليس إلهاً من دون الله سبحانه وتعالى، فقد نفى أنه قال لهم ذلك بوجوه: من ذلك قوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ ومن ذلك قوله: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾، ومن ذلك قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ ومن ذلك ما حكاه عن نفسه: ﴿اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ وهذا ينافي دعوى الإلهية، وينافي أمر الناس باتخاذه واتخاذ أمه إلهين من دون الله.

ب. وإن جعلت (أنْ) مصدريةً، فعلى تأويل: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ بمصدر هو أمرهم بعبادة الله ربي وربهم إن صح ذلك؛ لأن الأصل في ﴿إِنَّ﴾ المصدرية أن يكون المعنى على أن تسبك بالمصدر هي والفعل بعدها، والفعل (اعبدوا) فالأصل: ما أمرتني به عبادتهم لله ربي وربهم، أي ما أمرتني بقوله: عبادة الله ربي وربهم، وهذا لم يستقم، ولا يصح تأويل القول بالمقول فيه، مثل: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ [مريم:٨٠] لأن الاستثناء للقول الحقيقي المأمور به الذي هو قول عيسى عليه السلام، لا فعلهم الذي هو عبادة الله وحده، فجعل ﴿إِن﴾ مفسرةً أولى وإن كانت في لفظ القول، وذلك لأن الحكم يختلف مع التضمين للفظ الآخر

إذا روعي التضمين، وقد جعلها مفسرة بناء على التضمين الزمخشري في (كشافه) وهو من علماء العربية، حيث جوَّز جعلها مفسرة على تأويل القول بالأمر، وحسنه ابن هشام في (مغني اللبيب)

٦. ولا إشكال أن معنى ﴿مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ ما أمرتني أن أقوله لهم؛ لأنه مستثنى من قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ غاية ما فيه أنه روعي التضمين باستعمال (أن) المفسرة، وروعي لفظ القول بتعديته إلى المستثنى بنفسه، فروعي اللفظان، كما روعي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء:٢] التضمين لتضموها المناسب لاستعمال (إلى) مع بقاء معنى الإتلاف أو نحوه مما يعبر عنه بالأكل.

٧. ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ متحملاً للشهادة عليهم ﴿مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ معايناً لأعمالهم سامعاً لأقوالهم مشاهداً لهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ لم أعلم ما يفعلون، ﴿وَكُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ تعلم ما يفعلون لا يخفى عليك شيء منهم ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ في كل حال، وفي الآية هذه دلالة على أن الشهداء على الأمم هم ممن شاهد أعمالهم فقط، فالرسول ﷺ شهيد على أمته الموجودين في عهده الذين شاهدهم، أما من بعده فالشهداء عليهم هم خيارهم المشاهدون لهم.

٨. ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ﴾ بسبب شركهم بي وبأمي ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ ليس لي من أمرهم شيء بل أمرهم إليك وحدك تحكم فيهم ما تريد ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فلن تكون المغفرة على وجه يخالف عزتك وحكمتك لمجرد إسعاد شفيع متدخل بشفاعته أو نحو ذلك، وعلى هذا ففرض العفو ليس لاحتمال وقوعه، وإنما هو للدلالة على أن أمر العباد إلى الله وحده، وأنه يقضي فيهم بعزته وحكمته، فالمؤمنون يرحمهم بعزته وحكمته، قال في (سورة التوبة): ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [آية:٧١]، وقال في أعدائه: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦] فمن عزته وحكمته رحمة أوليائه، ومن عزته وحكمته تعذيب أعدائه، فلا مغفرة للمشركين إلا على فرض إمكانها من دون مخالفة لعزته وحكمته وذلك لا يكون لأعداء الله؛ لأنه قد ثبت بقوله تعالى: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦] أن مقتضى عزته وحكمته تعذيبهم.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. هذا أسلوب من أساليب الحوار القرآني الّذي يراد من خلاله إعطاء الفكرة صفة القصة الّتي يدور حولها الحوار من أجل التأكيد على بعض الجوانب الحيّة فيها، كوسيلة من وسائل إثباتها بطريقة حاسمة أو نفيها كذلك، وقد جاءت هذه الآيات لتعالج ما حدث للنصارى الّذين ينتسبون إلى عيسى عليه السّلام، في اعتقادهم بألوهيّة السيّد المسيح وعبادتهم له ولوالدته، فتؤكد أنّ عيسى عليه السّلام غريب عن الموضوع كليّا، فليس له دخل في ذلك من قريب أو من بعيد، بل كانت رسالته على النقيض من ذلك، لأنّها قامت على توحيد الله في العقيدة والعبادة، فليس لأيّ بشر الحقّ في أن يعبدا أحدا من دون الله مهما كانت قيمته، وليس لأيّ إنسان أن يعتقد في نفسه العظمة بالمستوى الّذي يتحول فيه إلى إله أو ما يشبه الإله، فضلا عن أن يرى في ذاته تجسيدا للإله، أو يرى النّاس فيه ذلك.

٢. وقد أدار الله الموضوع بطريقة الحوار بينه وبين عيسى عليه السّلام في يوم القيامة، على الطريقة القرآنيّة الّتي تتحدث عن المستقبل بصيغة الماضي بالنظر إلى أنّه محققّ الثبوت، فقد قال الله له وهو يستعرض له الانحرافات الّتي حدثت من بعده: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ إنّ النّاس تعبدك وتتقرب إليك، وتقدسك وتتخذك إلها، كما أنهم يعبدون أمك فيخشعون لها ويخضعون لتماثيلها، كما يفعلون مع الله، فكأنّهم يتخذونها إلها من دون الله، تماما كما جاء في الآية الكريمة: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] فإنّ اتخاذ الهوى إلها لا يعني إلّا اتباعه وطاعته، وترك طاعة الله فيما أمر الله به أو نهى عنه، فهل كان ذلك من خلال تعاليمك؟ وهل كنت ترضى بذلك؟ ولكنّ عيسى عليه السّلام يقف، من خلال الحوار، وقفه الخاشع الخاضع لربّه، الرافض لهذا الفكر الّذي لا يتناسب مع عظمة الله، الّتي تفرض على النّاس توحيده وتنزيهه عن كل شريك، ليسبّح الله تدليلا على أنّه يعيش الشعور بالعظمة في أعلى مستوياتها: ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ تعظيما لك وتنزيها عن كل ما خالف مقامك، ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾

٣. إنّ الإنسان الّذي يحترم نفسه هو الّذي يقف في حديثه عنها عند حدودها الذاتيّة فيما تملكه من

---

(١) من وحي القرآن: ٨/٤٠٣.

طاقات، وفي ما تتصف به من صفات، ولا يتعدى ذلك إلى الدرجات الّتي لم يبلغها، أو المواقع الّتي لا يملكها، كما يفعل الإنسان الجاهل الّذي لا يعرف قدر نفسه، أو الّذي يقول عن نفسه ما ليس له بحق فيما يعرفه من حدود نفسه، ولست ـ يا ربّ ـ في هذا الموقع، فإنّي عبدك ورسولك الّذي يعرف كيف يعيش العبوديّة لك، وكيف يحس بالانسحاق أمام ألوهيتك، في كل ما لك من الحقّ، وفي ما عليّ من الحق، وماذا بعد ذلك؟ لماذا أقف يا ربّ موقف الدفاع عن نفسي؟ إنّه موقف الّذي يحتاج في إثبات براءته إلى بيّنة، وليس موقفي هو هذا، لأنّني أقف أمامك أنت الله الذّي ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾، فأنت ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾، وتحيط بكل شيء يفكر به الإنسان أو يقوله أو يعمله، ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾، لأنّ علمي مستمد من علمك، فلا يحيط بشيء إلّا ما ألهمتني إياه، فكيف لي الإحاطة بما في نفسك، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ فـ ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾، وأنت تعلم أنّني لم أقل لهم شيئا من ذلك، لأنّ ذلك هو الباطل الّذي لا يحق لي أن أفكر به، فكيف يحقّ لي أن أقوله! ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾، لأنّى عبد ورسولك الّذي أمرته بإبلاغ رسالتك لعبادك ليعبدوك وليوحدوك، فلا يشركوا بك شيئا، وقد قلت لهم ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ وشرحت لهم في جميع مراحل حياتي عندما كنت معهم أنّني مثلهم عبد مربوب لك لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا بك، وأنّني لم أفعل ما فعلته من خوارق الإعجاز إلّا بإذنك وبقدرتك، من دون أن يكون لي فيها شيء ذاتيّ ينطلق من قدرة الذات على الإبداع، وطلبت منهم أن يعبدوك، لأنّ ذلك هو سرّ الاعتراف بالربوبيّة.

٤ . سؤال وإشكال: وقد يخطر بالبال سؤال، هل هذه الكلمة هي كل رسالة عيسى؟ وكيف يمكن أن لا تكون هناك كلمة أخرى في الوقت الّذي كان الإنجيل يمثّل حجما كبيرا في مختلف جوانب الحياة من النصائح والمواعظ والتعاليم؟ والجواب: عن ذلك: إنّ هذه الكلمة تختصر كل تطلعات الرسالة وامتداداتها، لأنّ العبادة لله تتمثّل في تحرير النفس من الخضوع لكل شيء غير الله، سواء كان شخصا، أو جهة، أو صنما، وأن تخضع لله في كل شأن من شؤون حياتك، فتطيعه في ما أمر به فتفعله، وفي ما نهى عنه فتتركه، وفي ما رسمه من وسائل وأهداف فتلتزم بها، وفي ما أوحى به من عقائد ومفاهيم فتعتقد بها.. وهكذا تتسع العبادة لكل قضايا الحياة وأوضاعها، وسبلها، ووسائلها، وغاياتها، فيمثّل قيامك بكل مسئولياتك الفرديّة والاجتماعيّة، المعنى الأعمق للعبادة، وتكون الصّلاة والصوم والحج ونحوها مظهرا

من مظاهرها، لا كلّ شيء فيها، وبذلك تكون كل آفاق الرسالة وتحركاتها لونا من ألوان العبادة الّتي تحول الحياة كلّها إلى مسجد، يتمثّل فيها السجود لله في أكثر من شكل.

٥. ونلاحظ في هذا المجال، أنّ عيسى عليه السّلام لم يقتصر في جوابه على نفي ما قالوه، بنفي تبليغه لهم، بل تعدى ذلك إلى ما أمرهم به، ليكون نفيه حجّة عليهم فيما قالوه، كما يكون ما بلغه حجّة عليهم لإثبات انحرافهم عن خط الله، والّذي التزم به من خلال الالتزام بالرسالة جملة وتفصيلا.

٦. ويتابع عيسى عليه السّلام الحديث عن عدم مسئوليته عن هذا الفكر الّذي يسيرون عليه، ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ فقد كان شهيدا عليهم ما دام معهم، يراقب تحركاتهم وكلماتهم، ويعرف الخطأ من الصواب في ذلك كلّه، ويعرف المطيع والعاصي، فيعظ هذا، وينصح ذاك، ويشجّع آخر، ويؤدي دور الشهادة العمليّة عليهم، لأنّ دور النبيّ ليس دور الشاهد المتفرج.

٧. وهكذا يبدو لنا الفرق بين شهادة النّبيّ على الأمة وشهادة الأمة على نفسها وعلى غيرها، وبين شهادة بقيّة الشهداء في الدعاوي والقضايا العامة، فإنّ هؤلاء لا يمثّلون إلا دور المتفرج الّذي يمارس ويسمع، بينما يكون دور الأنبياء والأمة دور الشاهد الفاعل الّذي يشاهد الانحراف ويتدخل فيه من أجل تغييره، ويتحمّل مسئوليته بقدر طاقته على ذلك كله، ولذلك حصر الشهادة عليهم في حالة وجوده بينهم، أمّا بعد ذلك، فهو لا يعرف من أمرهم شيئا، كما لا يتحمل فيهم أيّة مسئوليّة، ويبقى ذلك كله لله، فهو الرقيب عليهم في كل ما قالوه وفي كل ما فعلوه، وفي جميع الأحوال، فإنّ النّبيّ لا يتحمّل المسؤوليّة إلّا من حيث الإبلاغ والإنذار، فلا مسئوليّة عليه فيما انحرفوا به من القول والعمل، إذا لم يستجيبوا له ولم يطيعوه، ولم يقدر على تغيير ما هم فيه، وليست الآية في مقام تحميله مسئوليّة ذلك، لأنّ الله يعلم أنّ الأنبياء غير مسئولين عن انحراف أمتهم في حياتهم، فكيف يتحملون المسؤوليّة بعد وفاتهم؟ بل كانت الآية واردة في مقام إقامة الحجة عليهم بهذا الأسلوب.

٨. وتأتي كلمة ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ لتُثير الجدل فيها في أنّها بمعنى الموت، أو بمعنى بلوغ الحد في الحياة على أن يكون ذلك بمعنى التوفية أي بلوغ الشيء حدّه، وقد تحدثنا عن ذلك بعض الحديث فيما قدمناه من تفسير الآية الكريمة ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] ذكرنا هناك أنّ الوصول إلى نتيجة حاسمة في هذا الأمر ليس مشكلة فكريّة عقيديّة أو عمليّة، بل نترك لله إجمال ما أجمله مما لم يكلفنا بعلمه.

٩. وتتصاعد الروح الرسولية في إسلام الأمر كله لله الذي بيده العفو وبيده العقاب ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، و﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ وملكك، تتصرف بهم كيف تشاء، لا يملك أحد غيرك ما تملكه منهم، فلك أن تعاقبهم على ما جنوه وفعلوه من التمرّد على طاعتك بعد إقامة الحجّة عليهم من خلال ما بلغه رسلك من رسالتك، ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الّذي لا ينتقص من عزته شيء في ما يقوم به النّاس من معاص، وفي ما يقابلهم به من العفو والمغفرة، لأنّه العفو من موقع العزّة والقدرة، لا من موقع الذلة والإلجاء كما يفعله النّاس، مما يجعل من العفو مظهر قدرة، كما هو العذاب مظهر قوّة، وهو في موقع الحكمة من رعايتك لما يصلح عبادك وما يحقق لهم كمالهم.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. هذه الآيات تشير إلى حديث يدور بين الله والمسيح يوم القيامة، بدليل أنّنا بعد بضع آيات نقرأ: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ ولا شك أنّه يوم القيامة، ثمّ إنّ جملة ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ دليل آخر على أنّ الحوار قد جرى بعد عهد نبوة المسيح عليه السّلام، والفعل (قال) الماضي لا يتعارض مع ما ذهبنا إليه، لأنّ القرآن مليء بذكر أمور عن يوم القيامة استعمل فيها الزمن الماضي، وهو إشارة إلى أنّ وقوعه حتمي، أي أنّ مجيئه في المستقبل على درجة من الثبوت والحتمية بحيث أنّه يبدو وكأنّه قد وقع فعلا، فيستعمل له صيغة الماضي.

٢. على كل حال تقول الآية الاولى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾، لا ريب أنّ المسيح عليه السّلام لم يقل شيئا كهذا، بل دعا إلى التوحيد وعبادة الله، أنّ القصد من هذا الاستفهام هو استنطاقه أمام أمّته وبيان إدانتها، فيجيب المسيح عليه السّلام بكل احترام ببضع جمل على هذا السؤال:

أ. أوّلا ينزّه الله عن كل شرك وشبهة: ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾

ب. ثمّ يقول: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي ما لا يحق لي قوله ولا يليق بي أن أقوله،

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/١٩٣.

فهو في الحقيقة لا ينفي هذا القول عن نفسه فحسب، بل ينفي أن يكون له حق في قول مثل هذا القول الذي لا ينسجم مع مقامه ومركزه.

ج. ثمّ يستند إلى علم الله الذي لا تحده حدود تأكيدا لبراءته فيقول: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾

د. ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَّ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾، لا أكثر من ذلك.

هـ. ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي كنت أحول دون سقوطهم في هاوية الشرك مدّة بقائي بينهم، فكنت الرقيب والشاهد عليهم، ولكن بعد أن رفعتني إليك، كنت أنت الرقيب والشاهد عليهم.

و. ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، أي على كل حال فالأمر أمرك والإرادة إرادتك، إن شئت أن تعاقبهم على انحرافهم الكبير فهم عبيدك وليس بامكانهم أن يفروا من عذابك، فهذا حقّك بإزاء العصاة من عبيدك، وإن شئت أن تغفر لهم ذنوبهم فإنّك أنت القوي الحكيم، فلا عفوك دليل ضعف، ولا عقابك خال من الحكمة والحساب.

٣. سؤال وإشكال: هل يوجد في تاريخ المسيحية ما يدل على أنّهم اتّخذوا من (مريم) معبودة؟ أم أنّهم إنّما قالوا فقط بالتثليث أو الآلهة الثلاثة: (الإله الأب) و(الإله الابن) و(روح القدس) على اعتبار أن (روح القدس) هو الوسيط بين (الإله الأب) و(الإله الابن) وهو ليس (مريم)؟ والجواب: صحيح أنّ المسيحيين لم يؤلهوا مريم، ولكنّهم كانوا يؤدون أمام تمثالها طقوس العبادة، كالوثنيين الذي لم يكونوا يعتبرون الأصنام آلهة، ولكنّهم كانوا يعتبرونها شريكة لله في العبادة، وهناك فرق بين (الله) بمعنى الخالق، والـ (إله) بمعنى المعبود، وكانت (مريم) عند المسيحيين (آلهة) لا أنّها بمثابة (الله)، يقول أحد المفسّرين: إنّ المسيحيين على اختلاف فرقهم، وإن لم يطلقوا كلمة (إله) أو معبود على مريم، واعتبروها أم الإله لا غير، فهم في الواقع يقدمون لها طقوس الدعاء والعبادة، سواء أطلقوا عليها هذا الاسم أم لم يطلقوه، ثمّ يضيف قائلا: قبل مدّة صدر في بيروت العدد التاسع من السنة السابقة من مجلة (المشرق) المسيحية بمناسبة الذكرى الخمسين للبابا (بيوس التاسع) وفيها مواضيع مثيرة عن السيدة مريم، منها تصريح بأنّ كلتا الكنيستين الشرقية والغربية تعبدان (مريم)، وفي العدد الرّابع عشر من السنة الخامسة من الجملة نفسها

مقال بقلم (الأب انستانس الكرملي) حاول فيه أن يعثر عن أصول عبادة مريم حتى في العهد القديم، فراح يفسر حكاية الأفعى (الشيطان) والمرأة (حواء) باعتبارها حكاية مريم، وعليه فإنّ عبادة مريم موجودة بينهم.

٤. سؤال وإشكال: كيف يتحدث المسيح عليه السّلام عن مشركي أمّته بعبارات يشم منها رائحة الشفاعة لهم فيقول: ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؟ أيكون المشرك أهلا للشفاعة والغفران؟

والجواب: لو كان قصد عيسى عليه السّلام هو الشفاعة لهم لكان عليه أن يقول: فإنك أنت الغفور الرحيم لأن غفران الله ورحمته هما اللذان يناسبان مقام الشفاعة، ولكنّنا نراه يقول: ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ من هذا يتّضح أنّه لم يكن في مقام الشفاعة لهم، بل كان يريد أن ينفي عن نفسه أي اختيار وأن يوكل الأمر كلّه إلى الله، إن شاء عفا، وإن شاء عاقب، وكل مشيئة منه سبحانه تستند إلى حكمة، ثمّ ربّما كما بينهم جماعة أدركت خطأها وسارت على طريق التوبة، فتكون هذه الجملة قد قيلت بحقها.

٩٢. الصادقون والجنات والرضوان والفوز

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٩٢] من سورة المائدة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١١٩ ـ ١٢٠]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

الخراساني:

روي عن عطاء الخراساني (ت ٦٠ هـ) أنّه قال: هذا يوم من أيام الدنيا؛ لأن الدار الآخرة دار جزاء، لا دار عمل[١].

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) أنّه قال: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ يقول: هذا يوم ينفع الموحدين توحيدهم[٢].

أنس:

روي عن أنس بن مالك (ت ٩٣ هـ) أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: (ثم تجلى لهم الرب تبارك وتعالى، فيقول: سلوني، سلوني أعطكم، قال: فيسألونه الرضا، فيقول: رضاي أحلكم داري، وأنالكم كرامتي، فاسألونى أعطكم، فيسألونه الرضا، قال: فيشهدهم أنه قد رضي عنهم)[٣].

ابن جبير:

روي عن سعيد بن جبير (ت ٩٥ هـ) أنّه قال: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، يعني: ذلك الثواب الفوز

---

(١) تفسير الثعلبي ٤/١٣٠.

(٢) ابن أبي حاتم ٤/١٢٥٦.

(٣) ابن أبي شيبة ١/٤٧٧.

العظيم[1].

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: هذا ﴿يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ إذا كان يوم القيامة وحشر الناس للحساب، فيمرون بأهوال يوم القيامة، فلا ينتهون إلى العرصة حتى يجهدوا جهدا شديدا ـ قال: ـ فيقفوا بفناء العرصة، ويشرف الجبار عليهم وهو على عرشه، فأول من يدعى بنداء يسمع الخلائق أجمعين أن يهتف باسم محمد بن عبد الله النبي القرشي العربي ـ قال: ـ فيتقدم حتى يقف عن يمين العرش، ثم يدعى باسم وصيه الإمام علي فيتقدم حتى يقف على يسار رسول الله ﷺ، ثم يدعى بامة محمد ﷺ، فيقفون على يسار علي عليه السلام، ثم يدعى بنبي نبي ووصيه، من أولهم إلى آخرهم، وأممهم معهم فيقفون عن يسار العرش.. ثم أول من يدعى للمساءلة القلم ـ قال: ـ فيتقدم فيقف بين يدي الله تعالى في صورة الآدميين، فيقول الله: هل سطرت في اللوح ما ألهمتك وأمرتك به من الوحي؟ فيقول القلم: نعم يا رب، قد علمت أني قد سطرت في اللوح ما أمرتني وألهمتني به من وحيك، فيقول الله تعالى: فمن يشهد لك بذلك؟ فيقول: يا رب، وهل أطلع على مكنون سرك خلقا غيرك؟ ـ قال: ـ فيقول له: أفلجت حجتك.. ثم يدعى باللوح، فيتقدم في صورة الآدميين، حتى يقف مع القلم، فيقول له: هل سطر فيك القلم ما ألهمته وأمرته به من وحيي؟ فيقول اللوح: نعم يا رب، وبلغته إسرافيل، فيدعى بإسرافيل فيتقدم حتى يقف مع القلم واللوح في صورة الآدميين، فيقول الله: هل بلغك اللوح ما سطر فيه القلم من وحيي؟ فيقول: نعم يا رب، وبلغته جبريل، فيدعى بجبريل فيتقدم حتى يقف مع إسرافيل، فيقول الله: هل بلغك إسرافيل، ما بلغ؟ فيقول: نعم يا رب، وبلغته جميع أنبيائك، وأنفذت إليهم جميع ما انتهى إلي من أمرك، وأديت رسالاتك إلى نبي نبي، ورسول رسول، وبلغتهم كل وحيك وحكمتك وكتبك، وإن آخرمن بلغته رسالتك ووحيك وحكمتك وعلمك وكتابك وكلامك محمد بن عبد الله العربي القرشي الحرمي، حبيبك.. فأول من يدعى من ولد آدم للمساءلة محمد بن عبد الله ﷺ، فيدنيه الله، حتى لا يكون خلق أقرب إلى الله تعالى يومئذ منه، فيقول الله: يا محمد، هل بلغك جبريل ما أوحيت إليك وأرسلته به إليك من كتابي

---

(١) ابن أبي حاتم ١٢٥٧/٤.

وحكمتي وعلمي، وهل أوحى ذلك إليك؟ فيقول رسول الله ﷺ: نعم يا رب، قد بلغني جبريل جميع ما أوحيته إليه، وأرسلته به من كتابك وحكمتك وعلمك، وأوحاه إلي، فيقول الله لمحمد: هل بلغت أمتك ما بلغك جبريل من كتابي وحكمتي وعلمي؟ فيقول رسول الله ﷺ: نعم يا رب، قد بلغت امتي ما أوحيت إلي من كتابك وحكمتك وعلمك، وجاهدت في سبيلك، فيقول الله لمحمد ﷺ: فمن يشهد لك بذلك؟ فيقول محمد: يا رب أنت الشاهد لي بتبليغ الرسالة، وملائكتك، والأبرار من امتي، وكفى بك شهيدا، فيدعى بالملائكة فيشهدون لمحمد ﷺ بتبليغ الرسالة، ثم يدعى بامة محمد ﷺ فيسألون: هل بلغكم محمد رسالتي وكتابي وحكمتي وعلمي، وعلمكم ذلك؟فيشهدون لمحمد ﷺ بتبليغ الرسالة والحكمة والعلم، فيقول الله لمحمد ﷺ: فهل استخلفت في أمتك من بعدك من يقوم فيهم بحكمتي وعلمي، ويفسر لهم كتابي، ويبين لهم ما يختلفون فيه من بعدك، حجة لي وخليفة في أرضي؟ فيقول محمد ﷺ: نعم يا رب، قد خلفت فيهم، أخي، ووزيري، ووصيي، وخير امتي، ونصبته لهم علما في حياتي، ودعوتهم إلى طاعته، وجعلته خليفتي في امتي وإماما تقتدي به الامة بعدي إلى يوم القيامة، فيدعى بالإمام علي فيقال له: هل أوصى إليك محمد، واستخلفك في أمته، ونصبك علما لأمته في حياته؟ وهل قمت فيهم من بعده مقامه؟ فيقول له علي: نعم يا رب، قد أوصى إلي محمد ﷺ، وخلفني في أمته، ونصبني لهم علما في حياته، فلما قبضت محمدا إليك جحدني أمته، ومكروا بي، واستضعفوني، وكادوا يقتلونني، وقدموا قدامي من أخرت، وأخروا من قدمت، ولم يسمعوا مني، ولم يطيعوا أمري، فقاتلتهم في سبيلك حتى قتلوني، فيقال للإمام علي: فهل خلفت من بعدك في امة محمد حجة وخليفة في الأرض، يدعو عبادي إلى ديني وإلى سبيلي؟ فيقول علي عليه السلام: نعم يا رب، قد خلفت فيهم الحسن ابني وابن بنت نبيك، فيدعى بالحسن بن علي (عليهما السلام)، فيسأل عما سئل عنه الإمام علي ـ قال: ـ ثم يدعى بإمام إمام، وبأهل عالمه، فيحتجون بحجتهم، فيقبل الله عذرهم، ويجبز حجتهم ـ قال: ـ ثم يقول الله: هذا ﴿يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ قال: ثم انقطع حديث أبي جعفر (عليه وعلى آبائه السلام).>،في المصدر: يقتدي به الأئمّة من.>[١].

قتادة:

(١) تفسير القمّي ١/١٩١.

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) أنّه قال: متكلمان تكلما يوم القيامة؛ نبي الله عيسى، وإبليس عدو الله، فأما إبليس فيقول: ﴿إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وصدق عدو الله يومئذ وكان في الدنيا كاذبا، وأما عيسى فما قص الله عليكم في قوله: ﴿وَإِذْ قال الله يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ إلى آخر الآية، فقال الله: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾، وكان صادقا في الحياة الدنيا، وبعد الموت(١).

السدي:

روي عن إسماعيل السدي الكوفي (ت ١٢٧ هـ) أنّه قال في قوله: ﴿قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩]: هذا فصل من كلام عيسى، وهذا يوم القيامة(٢).

الكلبي:

روي عن محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) أنّه قال: ينفع المؤمنين إيمانهم(٣).

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ يعني: النبيين بما قالوا في الدنيا، فكان عيسى صادقا فيما قال: لربه في الآخرة: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾، فصدقه الله بقوله في الدنيا، وصدقه في الآخرة حين خطب على الناس(٤).

٢. روي أنّه قال: ثم قال: ﴿لَهُمْ﴾ يعني: للصادقين ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا يموتون(٥).

٣. روي أنّه قال: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾ بالطاعة، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بالثواب، ﴿ذَلِكَ﴾ الثواب ﴿الْفَوْزُ

---

(١) عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وأبي الشيخ.

(٢) ابن جرير ٩/١٤٠.

(٣) تفسير البغوي ٣/١٢٤.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥٢١.

(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥٢٢.

﴿الْعَظِيمُ﴾ يعني: النجاء العظيم[1].

٤. روي أنّه قال: ثم عظم الرب جل جلاله نفسه عما قالت النصارى من البهتان والزور؛ أنه ليس كما زعمت، وأنه واحد لا شريك له، فقال: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ من الخلق؛ عيسى ابن مريم وغيره من الملائكة والخلق عباده، وفي ملكه، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من خلق عيسى من غير أب وغيره ﴿قَدِيرٌ﴾[2].

ابن إسحاق:

روي عن محمد بن إسحاق (ت ١٥١ هـ) أنّه قال: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، قال: إن الله على كل شيء ما أراد بعباده من نقمة أو عفو فهو قدير[3].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[4]:

١. قوله عز وجل: ﴿قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ قيل: (قال) بمعنى: (يقول الله يوم القيامة) ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾، أي: اليوم ينفع الصادقين صدقهم في الدنيا، وينفع صدق الصادق ـ أيضًا ـ في الدنيا؛ لأنه إذا عرف بالصدق قُبِلَ قوله، وإن لم يظهر صدقه في قوله.

٢. ثم اختلف في الصادقين من هم:

أ. قال بعضهم: هم المؤمنون جملة، أي: يومئذ ينفع إيمان المؤمنين، وتوحيد الموحدين في الدنيا؛ كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾

ب. وقال بعضهم: الصادقون: هم الأنبياء، عليهم السلام.

٣. وقوله عز وجل: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، قد ذكرناه فيما تقدم، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾، و(خالدين) و(أبدًا) واحد؛ لكنه يذكر على التأكيد،

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥٢٢.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥٢٢.

(٣) ابن أبي حاتم ٤/١٢٥٧.

(٤) تأويلات أهل السنة: ٣/٦٥٦.

٤. ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ لسعيهم في الدنيا، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾، بالثواب لسعيهم، ويحتمل: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما وفقهم على سعيهم المحمود في الدنيا ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، لأنه ليس بعده خوف الهلاك، ولا خوف الفوت؛ فهو الفوز العظيم، ليس كفوز الدنيا؛ لأنه لا يذهب عنه خوف الهلاك، ولا خوف الفوت.

٥. وقوله عز وجل: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ كأنَّ هذا خرج على إثر قوله: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، أي: كيف يتخذ أربابًا وولدًا وله ملك السماوات والأرض وملك ما فيهن من الخلق، كلهم عبيده وإماؤه!؟.

٦. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، لا يعجزه شيء ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ يعني يوم القيامة، وإنما نفعهم الصدق في ذلك اليوم لوقوع الجزاء فيه وإن كان في كلِّ الأيام نافعاً، وفي هذا الصدق قولان:

أ. أحدهما: أن صدقهم الذي كان منهم في الدنيا نفعهم في الآخرة جُوزُوا عليه من الثواب، فعلى هذا المراد بهذا الصدق وجهان محتملان:

- أحدهما: أنه صدقهم في عهودهم.
- الثاني: أنه تصديقهم لرسل الله وكتبه.

ب. الثاني: أنه صدق يكون منهم في الآخرة ينفعهم لقيامهم فيه بحق الله، فعلى هذا في المراد بهذا الصدق وجهان محتملان:

- أحدهما: أنه صدقهم في الشهادة لأنبيائهم بالبلاغ.
- الثاني: صدقهم فيما شهدوا به على أنفسهم عن أعمالهم، ويكون وجه النفع فيه أن يكفوا المؤاخذة بتركهم كتم الشهادة، فيغفر لهم بإقرارهم لأنبيائهم وعلى أنفسهم، وهل هم مصروفون عنه قبل موقف العرض؟ على قولين، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

---

(١) تفسير الماوردي: ٢/٩١.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ قرأ (يوم ينفع) بفتح الميم نافع، الباقون بضمها، من رفع (يوما) جعله خبر المبتدأ الذي هو (هذا) وأضاف (يوما) إلى (ينفع)، والجملة التي هي من المبتدأ والخبر في موضع نصب بأنه مفعول القول، كما تقول: قال زيد عمر أخوك، ومن نصب احتمل أمرين:

أ. أحدهما: أن يكون مفعول قال وتقديره قال الله هذا القصص، وهذا الكلام ﴿يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ﴾ فيوم ظرف للقول (وهذا) اشارة إلى ما تقدم ذكره من قوله: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ وجاء على لفظ الماضي وان كان المراد به المستقبل، كما قال: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ ونحو ذلك على ما بيناه، وليس ما بعد (قال): حكاية في هذا الوجه كما كان إياها في الوجه الآخر.

ب. ويجوز أن يكون المعنى على الحكاية وتقديره قال الله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ﴾ أي هذا الذي اقتصصنا به يقع أو يحدث يوم ينفع، فـ (يوم) خبر المبتدأ الذي هو (هذا) الأمر إشارة إلى حدث، وظروف الزمان تكون إخبارا عن الأحداث، والجملة في موضع نصب بأنها في موضع مفعول، قال الفراء: (يوم) منصوب لأنه مضاف إلى الفعل وهو في موضع رفع بمنزلة (يومئذ) مبني على الفتح في كل حال، قال الشاعر:

على حين عاتبت المشيب على الصبا فقلت ألما تصح والشيب وازع

قال الزجاج: هذا خطأ عند البصريين، لأنهم لا يجيزون هذا يوم آتيتك، يريدون هذا يوم إتيانك، لأن (آتيتك) فعل مضارع فالإضافة إليه لا يزيل الإعراب عن جهته، ولكنهم يجيزون (ذلك يوم يقع زيد أصدقه) لأن الفعل الماضي غير مضارع للمتمكن فهي إضافة إلى غير متمكن والى غير ما ضارع المتمكن ويجوز (هذا يوم) منونا ﴿يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ﴾ على إضمار هذا يوم ينفع، والمعنى فمنهما تارة أموت فيها.

٢. ﴿قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ﴾ يعني يوم القيامة، ودل على أن قول الله للمسيح ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ يكون يوم القيامة، ثم بين أن الصادقين ينفعهم صدقهم

---

(١) تفسير الطوسي: ٤/٧٣.

وهو ما صدقوا فيه في دار التكليف، لأن يوم القيامة لا تكليف فيه على أحد، ولا يخبر أحد فيه إلا بالصدق، ولا ينفع الكفار صدقهم الذي يقولونه يوم القيامة إذا أقروا على أنفسهم بسوء أعمالهم.

٣. ثم بين أن ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، وأنهم خالدون فيها أبدا، في نعيم مقيم لا يزول، وأنه قد ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا﴾ هم عن الله وبين أن ذلك ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وهو ما يحصلون فيه من الثواب والنجاة من النار.

٤. ثم قال تعالى: ﴿للهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ يعني أن ملك السماوات والأرض وما بينهما له بالقدرة على التصرف فيهما وفيما بينهما على وجه ليس لاحد منعه منه ولا معارضته فيه خاصة، ثم بين انه تعالى: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مما كان ويكون مما يصح أن يكون مقدورا له.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الخلود: الدوام، إلا أن في الخلود معنى اللزوم كقولك: خلد في الديوان، أي ألزم؛ ولذلك يوصف الله تعالى بالدوام، ولا يوصف بالخلود.

ب. الفوز: الظفر بالبغية.

ج. المُلْكُ: عِظَمُ سعة المقدور، وقيل: عظم شأن المقدور، وأصله القدرة.

٢. مما ذكر في علاقة الآية الكريمة بما قبلها:

أ. قيل: لما بين حديث عيسى عقبه بذلك احتجاجًا على النصارى أنه الموصوف بكونه إلهًا دون غيره.

ب. وقيل: لما وعد المتقين بالجنة والخلود فيها، عقبه بذكر ما يدل على قدرته على ذلك.

ج. وقيل: لما وعدهم بذلك، كأنه قيل: مَنْ يعطيهم ذلك؟ فقيل: مَنْ له ملك السماوات.

٣. لما بَيَّن الله تعالى عيسى الحق وبطلان ما عليه النصارى قال الله سبحانه ﴿هَذَا يَوْمُ﴾ يعني يوم

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/٤٧٥.

القيامة ﴿يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾:

أ. يعني ينفع المؤمنين صدقهم الذي فعلوه في الدنيا؛ لأن الكافر لا ينفعه شيء عن أبي علي.

ب. وقيل: يوم تظهر منفعة الصدق بإيجاب الثواب لهم.

ج. وقيل: الصادقين النبيين.

د. وقيل: ينفع المؤمنين إيمانهم، عن الكلبي.

هـ. وقيل: إشارة إلى أيام الدنيا؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف عن عطاء.

٤. ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ﴾ بساتين ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ يعني يجري الماء في الأنهار تحت الأبنية والأشجار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي دائمين فيها أحياء ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾ بما فعلوا ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما أعطاهم من الجزاء والرضا بالفعل إرادته، والرضا عن الفاعل إرادة تعظيمه ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا نعمة وراءه.

٥. ﴿للهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ جمع السماوات ووحد الأرض تفخيمًا لشأن السماوات ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ في السماوات والأرض ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قادر على كل شيء.

٦. تدل الآية الكريمة على:

أ. أن الصدق ينفع، وأن الجزاء مستحق على العمل.

ب. أن بعد مضي فعله يوصف بأنه صادق، على ما يقوله أبو هاشم.

ج. دوام الجنة، فيبطل قول جهم.

د. أنه قدير على كل شيء:

• على الوجه الذي يصح، فهو يقدر على المعدوم من مقدوراته بأن يوجده، وعلى الموجود بأن يعدمه، وفي كثير منها بأن يعيدها بعد الإفناء، وعلى مقدور غيره بأن يقدر عليه، ويمنع منه، ويُمَكِّنَ منه، عن أبي بكر أحمد بن علي.

• وقيل: معناه قادر على ما يصح كونه مقدورًا لله، كقوله: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ عن أبي علي.

• وقيل: لا وصف بالقدرة على مقدور غيره؛ لأنه يوهم أنه يوجدها، فيؤدي إلى مقدور بين قادرين.

٧. قرأ نافع ﴿يَوْمَ﴾ بالنصب، والباقون بالرفع على أنه إشارة إلى اليوم، وهو يوم القيامة، كقولك: هذا يوم الرحيل، وأما النصب فعلى الظرف لما أشير إليه في غير اليوم، كأنه قيل: هذا القول في يوم ينفع، وقيل: إنه منصوب؛ لأنه أضيف إلى الفعل، وقراءة العامة بحذف التنوين، وقرأ الأعمش بالتنوين، وكلاهما جائز في العربية.

٨. مسائل لغوية ونحوية:

أ. ﴿هَذَا﴾ ابتداء، وخبره ﴿يَوْمُ يَنْفَعُ﴾، سواء كان ظرفًا أو غير ظرف، وعن بعضهم: الخبر المحذوف على تقدير: هو هذا، وأنكره بعض النحويين.

ب. ﴿يَوْمَ﴾ منهم من يجعله اسمًا، ومن قرأ بالنصب يجعله ظرفًا، يريد في هذا اليوم.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. لما بين عيسى عليه السلام بطلان ما عليه النصارى ﴿قَالَ اللهُ﴾ تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾:

أ. يعني: ما صدقوا فيه في دار التكليف، لأن يوم القيامة لا تكليف فيه على أحد، ولا يخبر أحد فيه إلا بالصدق، ولا ينفع الكفار صدقهم في يوم القيامة، إذا أقروا على أنفسهم بسوء أعمالهم.

ب. وقيل: إن المراد بصدقهم تصديقهم لرسل الله تعالى وكتبه.

ج. وقيل: إنه الصدق في الآخرة، وإنه ينفعهم لقيامهم فيه بحق الله، فعلى هذا يكون المراد به صدقهم في الشهادة لأنبيائهم بالبلاغ.

٢. ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي: دائمين فيها في نعيم مقيم لا يزول ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾ بما فعلوا ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما أعطاهم من الجزاء والثواب ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ هو ما يحصلون فيه من الثواب، قال الحسن: فازوا بالجنة، ونجوا من النار.

٣. ثم بين تعالى عظيم قدرته واتساع مملكته فقال: ﴿لِلهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾:

---

(١) تفسير الطبرسي: ٣/٤١٦.

أ. نزه تعالى نفسه عما قالت النصارى إن معه إلها فقال: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ دون كل من سواه، لقدرته عليه وحده.

ب. وقيل: إن هذا جواب لسؤال مضمر في الكلام، كأنه قيل: من يعطيهم ذلك الفوز العظيم؟ فقيل: الذي له ملك السماوات والأرض، وجمع السماوات، ووحد الأرض، تفخيما لشأن السماوات.

٤. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

أ. فهو يقدر على المعدومات بأن يوجدها، وعلى الموجودات بأن يعدمها، وعلى كثير منها بأن يعيدها بعد الإفناء، وعلى مقدورات غيره بأن يقدر عليها ويمنع منها.

ب. وقيل: معناه أنه قادر على كل شيء يصح أن يكون مقدورا له كقوله: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، عن أبي علي الجبائي.

٥. قرأ نافع وحده: (يوم ينفع) بالنصب، والباقون بالرفع.. قال أبو علي:

أ. من رفع يوما جعله خبر المبتدأ الذي هو هذا، وأضاف يوما إلى ينفع، والجملة التي هي من المبتدأ والخبر في موضع نصب بأنه مفعول القول، كما تقول: قال زيد: عمرو أخوك.

ب. ومن قرأ ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ﴾ احتمل أمرين:

• أحدهما: أن يكون مفعول قال تقديره: قال الله هذا القصص، أو هذا الكلام، يوم ينفع الصادقين صدقهم فيوم ظرف للقول، وهذا إشارة إلى ما تقدم ذكره من قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ وجاء على لفظ الماضي، وإن كان المراد به الآتي، كما قال: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ ونحو ذلك، وليس ما بعد قال حكاية في هذا الوجه، كما كان إياها في الوجه الآخر.

• ويجوز أن يكون المعنى على الحكاية، وتقديره قال الله هذا يوم ينفع أي: هذا الذي اقتصصنا، يقع أو يحدث يوم ينفع، وخبر المبتدأ الذي هو هذا الظرف، لأنه إشارة إلى حدث، وظروف الزمان تكون أخبارا عن الأحداث.

ج. والجملة في موضع نصب بأنها في موضع مفعول، قال ولا يجوز أن تكون في موضع رفع، وقد فتح لأن المضاف إليه معرب، وإنما يكتسب البناء من المضاف إليه، إذا كان المضاف إليه مبنيا، والمضاف مبهما، كما يكون ذلك في هذا الضرب من الأسماء، إذا أضيف إلى ما كان مبنيا، نحو ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾،

و﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ وصار في المضاف البناء للإضافة إلى المبني، كما صار فيه الاستفهام للإضافة إلى المستفهم به، نحو: غلام من أنت؟ وكما صار فيه الجزاء نحو: غلام من تضرب اضرب، وليس المضارع في هذا كالماضي في نحو قوله:

على حين عاتبت المشيب على الصبا   فقلت ألما أصح والشيب وازع

لأن الماضي مبني، والمضارع معرب، وإذا كان معربا لم يكن شيء يحدث من أجله البناء في المضاف، والإضافة إلى الفعل نفسه في الحقيقة، لا إلى مصدره، ولو كانت الإضافة إلى المصدر، لم يبن المضاف لبناء المضاف إليه.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ قرأ الجمهور برفع (اليوم)، وقرأ نافع بنصبه على الظّرف، قال الزجّاج: المعنى: قال الله هذا لعيسى في يوم ينفع الصّادقين صدقهم، ويجوز أن يكون على معنى: قال الله هذا الذي ذكرناه يقع في يوم ينفع الصّادقين صدقهم، والمراد باليوم: يوم القيامة، وإنما خصّ نفع الصّدق به لأنّه يوم الجزاء.

٢. في هذا الصّدق قولان:

أ. أحدهما: أنه صدقهم في الدنيا ينفعهم في الآخرة.

ب. الثاني: صدقهم في الآخرة ينفعهم هنالك.

٣. في هذه الآية تصديق لعيسى عليه السلام فيما قال.

٤. ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾ أي: بطاعتهم، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بثوابه، وفي قوله تعالى: ﴿للهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تنبيه على عبوديّة عيسى، وتحريض على تعليق الآمال بالله وحده.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/٥.

(٢) التفسير الكبير: ١٢/٤٦٩.

١. ﴿قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ أجمعوا على أن المراد بهذا اليوم يوم القيامة، والمعنى أن صدقهم في الدنيا ينفعهم في القيامة، والدليل على أن المراد ما ذكرنا: أن صدق الكفار في القيامة لا ينفعهم، إلا ترى أن إبليس قال: ﴿إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢] فلم ينفعه هذا الصدق، وهذا الكلام تصديق من الله تعالى لعيسى في قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ [المائدة: ١١٧]

٢. قرأ جمهور القرّاء ﴿يَوْمَ﴾ بالرفع، وقرأ نافع بالنصب، واختاره أبو عبيدة، فمن قرأ بالرفع، قال الزجاج: التقدير هذا اليوم يوم منفعة الصادقين، وأما النصب ففيه وجوه:

أ. الأول: على أنه ظرف لقال والتقدير: قال الله هذا القول لعيسى يوم ينفع.

ب. الثاني: أن يكون التقدير: هذا الصدق واقع يوم ينفع الصادقين صدقهم، ويجوز أن تجعل ظروف الزمان أخبارا عن الأحداث بهذا التأويل كقولك: القتال يوم السبت، والحج يوم عرفة، أي واقع في ذلك اليوم.

ج. الثالث: قال الفرّاء: يوم أضيف إلى ما ليس باسم فبني على الفتح كما في يومئذ، قال البصريون هذا خطأ لأن الظرف إنما يبنى إذا أضيف إلى المبنى كقول النابغة: (على حين عاتبت المشيب على الصبا) بنى (حين) لإضافته إلى المبنى وهو الفعل الماضي وكذلك قوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ﴾ [الإنفطار: ١٩] بني لإضافته إلى (لا) وهي مبنية، أما هنا فالإضافة إلى معرب لأن ينفع فعل مستقبل، والفعل المستقبل معرب فالإضافة إليه لا توجب البناء.

٣. ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لما أخبر الله تعالى أن صدق الصادقين في الدنيا ينفعهم في القيامة، شرح كيفية ذلك النفع وهو الثواب، وحقيقة الثواب: أنها منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم:

أ. فقوله: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ إشارة إلى المنفعة الخالصة عن الغموم والهموم.

ب. وقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ إشارة إلى الدوام واعتبر هذه الدقيقة، فإنه أينما ذكر الثواب قال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وأينما ذكر عقاب الفساق من أهل الايمان ذكر لفظ الخلود ولم يذكر معه التأبيد.

ج. وأما قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فهو إشارة إلى التعظيم،

هذا ظاهر قول المتكلمين، وأما عند أصحاب الأرواح المشرقة بأنوار جلال الله تعالى، فتحت قوله: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أسرار عجيبة لا تسمح الأقلام بمثلها جعلنا الله من أهلها.

د. وقوله: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الجمهور على أن قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ عائد إلى جملة ما تقدم من قوله: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي﴾ إلى قوله: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ وعندي أنه يحتمل أن يكون ذلك مختصا بقوله: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فإنه ثبت عند أرباب الألباب أن جملة الجنة بما فيها بالنسبة إلى رضوان الله كالعدم بالنسبة إلى الوجود، وكيف والجنة مرغوب الشهوة، والرضوان صفة الحق وأي مناسبة بينهما، وهذا الكلام يشمئز منه طبع المتكلم الظاهري، ولكن كل ميسر لما خلق له.

٤. ﴿للهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قيل: إن هذا جواب عن سؤال مقدر كأنه قيل: من يعطيهم ذلك الفوز العظيم؟ فقيل: الذي له ملك السموات والأرض، وفي هذه الخاتمة الشريفة أسرار كثيرة ونحن نذكر القليل منها:

أ. الأول: أنه تعالى قال ﴿للهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ ولم يقل ومن فيهن فغلب غير العقلاء على العقلاء، والسبب فيه التنبيه على أن كل المخلوقات مسخرون في قبضة قهره وقدرته وقضائه وقدره، وهم في ذلك التسخير كالجمادات التي لا قدرة لها وكالبهائم التي لا عقل لها، فعلم الكل بالنسبة إلى علمه كلا علم، وقدرة الكل بالنسبة إلى قدرته كلا قدرة.

ب. الثاني: أن مفتتح السورة كان بذكر العهد المنعقد بين الربوبية والعبودية فقال: ﴿يَا أيها الَّذِينَ آمنوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] وكمال حال المؤمن في أن يشرع في العبودية وينتهي إلى الفناء المحض عن نفسه بالكلية، فالأول هو الشريعة وهو البداية والآخر هو الحقيقة وهو النهاية، فمفتتح السورة من الشريعة ومختتمها بذكر كبرياء الله وجلاله وعزته وقدرته وعلوه، وذلك هو الوصول إلى مقام الحقيقة فما أحسن المناسبة بين ذلك المفتتح، وهذا المختتم!

ج. الثالث: أن السورة اشتملت على أنواع كثيرة من العلوم، فمنها: بيان الشرائع والأحكام والتكاليف، ومنها المناظرة مع اليهود في إنكارهم شريعة محمد ﷺ، ومنها المناظرة مع النصارى في قولهم بالتثليث فختم السورة بهذه النكتة الوافية بإثبات كل هذه المطالب، فإنه قال: ﴿للهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ ومعناه أن كل ما سوى الحق سبحانه فإنه ممكن لذاته موجود بإيجاده تعالى، وإذا كان

الأمر كذلك كان مالكا لجميع الممكنات والكائنات موجدا لجميع الأرواح والأجساد، وإذا ثبت هذا لزم منه ثبوت كل المطالب المذكورة في هذه السورة، وأما حسن التكليف كيف شاء وأراد، فذاك ثابت، لأنه سبحانه لما كان مالكا للكل، كان له أن يتصرف في الكل بالأمر والنهي والثواب والعقاب كيف شاء وأراد، فصح القول بالتكليف على أي وجه أراده الحق سبحانه وتعالى، وأما الرد على اليهود فلأنه سبحانه لما كان مالك الملك فله بحكم المالكية أن ينسخ شرع موسى ويضع شرع محمد عليهما الصلاة والسلام وأما الرد على النصارى فلأن عيسى ومريم داخلان فيما سوى الله لأنا بينا أن الموجد إما أن يكون هو الله تعالى أو غيره، وعيسى ومريم لا شك في كونهما داخلين في هذا القسم، فإذا دللنا على أن كل ما سوى الله تعالى ممكن لذاته موجود بإيجاد الله كائن بتكوين الله كان عيسى ومريم عليهما السلام كذلك، ولا معنى للعبودية إلا ذلك، فثبت كونهما عبدين مخلوقين فظهر بالتقرير الذي ذكرناه أن هذه الآية التي جعلها الله خاتمة لهذه السورة برهان قاطع في صحة جميع العلوم التي اشتملت هذه السورة عليها، والله أعلم بأسرار كلامه.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ أي صدقهم في الدنيا فأما في الآخرة فلا ينفع فيها الصدق وصدقهم في الدنيا يحتمل أن يكون صدقهم في العمل لله ويحتمل أن يكون تركهم الكذب عليه وعلى رسله، وإنما ينفعهم الصدق في ذلك اليوم وإن كان نافعا في كل الأيام لوقوع الجزاء فيه، وقيل: المراد صدقهم في الآخرة وذلك في الشهادة لأنبيائهم بالبلاغ وفيما شهدوا به على أنفسهم من أعمالهم ويكون وجه النفع فيه أن يكفوا المؤاخذة بتركهم كتم الشهادة فيغفر لهم بإقرارهم لأنبيائهم وعلى أنفسهم.

٢. قرأ نافع وابن محيصن ﴿يَوْمَ﴾ بالنصب، ورفع الباقون وهي القراءة البينة على الابتداء والخبر فيوم ينفع خبر لـ ﴿هَذَا﴾ والجملة في موضع نصب بالقول، وأما قراءة نافع وابن محيصن فحكى إبراهيم بن حميد عن محمد بن يزيد أن هذه القراءة لا تجوز لأنه نصب خبر الابتداء ولا يجوز فيه البناء، وقال إبراهيم بن السري: هي جائزة بمعنى قال الله هذا لعيسى بن مريم يوم ينفع الصادقين صدقهم فيوم ظرف للقول

(١) تفسير القرطبي: ٦/٣٧٩.

و﴿هَذَا﴾ مفعول القول والتقدير قال الله هذا القول في يوم ينفع الصادقين، وقيل: التقدير قال الله تعالى هذه الأشياء تنفع يوم القيامة، وقال الكسائي والفراء: بني يوم ها هنا على النصب لأنه مضاف إلى غير اسم، كما تقول: مضى يومئذ وأنشد الكسائي:

على حين عاتبت المشيب على الصبا وقلت ألما أصح والشيب وازع

قال الزجاج: ولا يجيز البصريون ما قالاه إذا أضفت الظرف إلى فعل مضارع فإن كان إلى ماض كان جيدا كما مر في البيت وإنما جاز أن يضاف الفعل إلى ظروف الزمان لأن الفعل بمعنى المصدر، وقيل: يجوز أن يكون منصوبا ظرفا ويكون خبر الابتداء الذي هو﴿هَذَا﴾ لأنه مشار به إلى حدث، وظروف الزمان تكون إخبارا عن الأحداث تقول: القتال اليوم والخروج الساعة، والجملة في موضع نصب بالقول، وقيل: يجوز أن يكون ﴿هَذَا﴾ في موضع رفع بالابتداء و﴿يَوْمَ﴾ خبر الابتداء والعامل فيه محذوف والتقدير: قال الله هذا الذي قصصناه يقع يوم ينفع الصادقين صدقهم، وفيه قراءة ثالثة ﴿يَوْمُ يَنْفَعُ﴾ بالتنوين ﴿الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ في الكلام حذف تقديره ﴿فِيهِ﴾ مثل قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة] وهي قراءة الأعمش.

٣. ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ﴾ ابتداء وخبر، ﴿تَجْرِي﴾ في موضع الصفة، ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ أي من تحت غرفها وأشجارها وقد تقدم، ثم بين تعالى ثوابهم وأنه راض عنهم رضا لا يغضب بعده أبدا ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أي عن الجزاء الذي أثابهم به، ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ﴾ أي الظفر) ﴿الْعَظِيمِ﴾ أي الذي عظم خيره وكثر، وارتفعت منزلة صاحبه وشرف.

٤. ﴿للهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية جاء هذا عقب ما جرى من دعوى النصارى في عيسى أنه إله فأخبر تعالى أن ملك السماوات والأرض له دون عيسى ودون سائر المخلوقين، ويجوز أن يكون المعنى أن الذي له ملك السماوات والأرض يعطي الجنات المتقدم ذكرها للمطيعين من عباده جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ أي صدقهم في الدنيا، وقيل في الآخرة، والأوّل أولى، قرأ نافع وابن محيصن يوم بالنصب، وقرأ الباقون بالرفع، فوجه النصب أنه ظرف للقول: أي قال الله هذا القول يوم ينفع الصادقين، ووجه الرفع أنه خبر للمبتدأ هذا وما أضيف إليه، وقال الكسائي نصب يوم هاهنا لأنه مضاف إلى الجملة، وأنشد:

على حين عاتبت المشيب على الصّبا وقلت ألمّا أصح والشّيب وازع

وبه قال الزجاج، ولا يجيز البصريون ما قالاه إلا إذا أضيف الظرف إلى فعل ماض، وقرأ الأعمش ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ﴾ بتنوين يوم كما في قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ فكلاهما مقطوع عن الإضافة بالتنوين، وقد تقدّم تفسير قوله: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾

٢. ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أي رضي عنهم بما عملوه من الطاعات الخالصة له، ورضوا عنه بما جازاهم به مما لا يخطر لهم على بال ولا تتصوره عقولهم، والرضا منه سبحانه هو أرفع درجات النعيم وأعلى منازل الكرامة، والإشارة بذلك إلى نيل ما نالوه من دخول الجنة والخلود فيها أبدا، ورضوان الله عنهم، والفوز: الظفر بالمطلوب على أتمّ الأحوال.

٣. ﴿لِلهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ جاء سبحانه بهذه الخاتمة دفعا لما سبق من إثبات من أثبت إلهية عيسى وأمه، وأخبر بأن ملك السموات والأرض له دون عيسى وأمه ودون سائر مخلوقاته، وأنه القادر على كلّ شيء دون غيره، وقيل المعنى: أن له ملك السموات والأرض يعطي الجنات للمطيعين، جعلنا الله منهم.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ﴿قَالَ اللهُ﴾ يقول الله، فالماضي لتحقُّق الوقوع، ﴿هَذَا﴾ مفعول للقول، لأَنَّهُ إشارة إلى الجملة، وهي قوله: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَآنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ﴾

---

(١) فتح القدير: ٢/١١٠.

(٢) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/١٨٥.

٢. ﴿يَوْمَ﴾ متعلّق بـ (قَالَ)، أعاد ذكر الجملة ليرتِّب عليها قولَه: ﴿يَنفَعُ الصَّادِقِينَ﴾ قولاً وفعلاً واعتقادًا في الدُّنيا، كعيسى، فإنَّ ما أخبر به عن نفسه يوم القيامة إخبار عمَّا صدق به في الدُّنيا، أو مَن صَدَق في الآخرة لم ينفعه صِدْقه إن لم يصْدُق في الدُّنيا، هذا كما يؤمن الكفَّار في الآخرة ويقولون الحقَّ ولا ينفعهم، ومن ذلك قول إبليس: ﴿إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢]، ﴿صِدْقُهُمْ﴾ إلخ، أو المعنى: يقول الله يوم القيامة: هذا اليوم يوم ينفع الصادقين صدقهم.

٣. وبُني (يَوْمَ) على الفتح لإضافته للجملة في قراءة نافع، وهو جائز، ولو كان الفعل معربًا أجازه الكوفيُّون وابن مالك، أو المعنى: يقول الله هذا المذكور من التعذيب والمغفرة ثابتان يوم ينفع.. إلخ، فالفتح [فَتحُ] إعرابٍ، بيَّن النفع بقوله: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الاَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾ أي: عليهم، أي: أعطاهم، أو (عَنْ) لمجاوزة ضدِّ الرضا عنهم، ورضاه: قبوله لأعمالهم، أو إثابته لهم، أو علمه بأنَّهم سعداء، أو إسعاده إيَّاهم، أو مدحه لهم.

٤. ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ عملوا بما أمرهم به، وانتهوا عمَّا نهى، أو قبلوا أحكامه ولم يسخطوها، ولم يكرهوا ما يجري، شقَّ عليهم فصبروا أو لم يشقَّ، اختيارًا لِمَا لله عمَّا لهم، قال الجنيد: (الرضا يكون على قدر قوَّة العلم والرسوخ في المعرفة، والرضا حال يصحب العبد في الدُّنيا والآخرة، وليس محلُّه محلَّ الخوف والرجاء والصبر والإشفاق، وسائر الأحوال التي تزول عن العبد في الآخرة)، قال: (بل العبد يتنعَّم في الآخرة بالرضا ويسأل الله الرضا فيوحى إليهم: (رضائي أَحَلَّكم دَارِي))، قال محمَّد بن الفضل: (الرَّوح والراحة في الرضا واليقين، والرضا باب الله الأعظم، ومحلُّ استراحة العابدين)

٥. ﴿ذَالِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: جميع ما تقدَّم عند الحسن، أو ذلك المذكور من نيل الرضوان.

٦. ﴿لِلهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ منافع ذلك كالمطر والنبات والرزق، ومضارُّه كالقحط والزلازل والصواعق والموت، ولا ملك لذلك في أحد ولا لعيسى ولا لمريم، والكلُّ عبيد له تعالى ، و(مَا) تغليبٌ لغير العاقل، وقيل: تطلق على عموم العاقل وغيره بلا تغليب، بخلاف (مَن) فإنَّها تطلق في العموم على غيره تغليبًا، وفي التعبير بـ (مَا) تلويحٌ إلى أنَّ العقلاء والحيوانات والجمادات سواء في انتفاء الأُلُوهِيَّة واستحقاقها، فالنصارى سفهاء في دعواهم في عيسى ومريم، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومنه خزي النصارى وتعذيبهم دنيًا وأخرى، وإثابة المسلمين ونصرهم فيهما.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ختم الله تعالى حكاية ما حكى مما يقع يوم يجمع الله الرسل، عليهم الصلاة والسلام، مع الإشارة إلى نتيجة ذلك ومآله بقوله تعالى: ﴿قَالَ اللهُ هَذَا﴾ أي: يوم القيامة ﴿يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ لأنه يوم الجزاء، والمراد بـ (الصّادقين) المستمرون على الصدق في الأمور الدينية، التي معظمها التوحيد، الذي الآية في صدده، وفيه شهادة بصدق عيسى عليه السلام فيما قاله، جوابا عن قوله: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ﴾ تفسير للنفع المذكور، ولذا لم يعطف عليه، أي: لهم بساتين من غرس صدقهم ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ أي: من تحت شجرها وسررها ﴿الْأَنْهَارُ﴾ أنهار الماء واللبن والخمر والعسل ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مقيمين لا يموتون ولا يخرجون ﴿أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾ لصدقهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ تحقيقا لصدقهم، فلم يسخطوا لقضائه في الدنيا ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الخلود والرضوان ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: الكبير الذي لا أعظم منه، كما قال تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]، وكما قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]

٢. ﴿للهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ تحقيق للحق وتنبيه على كذب النصارى وفساد ما زعموا في المسيح وأمه، وذلك من تقديم الظرف، لأنه المالك لا غيره، فلا شريك له، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: مبالغ في القدرة، فالجميع ملكه وتحت قهره وقدرته ومشيئته، فلا نظير له ولا وزير، لا إله غيره ولا رب سواه.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. بعدما تقدم من تفويض عيسى أمر قومه إلى ربه عز وجل بتلك العبارة البليغة، في أثر تلك الأجوبة السديدة، تتوجه النفس إلى معرفة ما يقوله الرب في ذلك اليوم العظيم وتسأل عنه بلسان الحال أو المقال إن لم تسمعه وذلك قوله عز وجل: ﴿قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ قرأ الجمهور

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/٣٠٥.

(٢) تفسير المنار: ٧/٢٢٨.

﴿يَوْمَ﴾ بالرفع وهو خبر هذا، أي قال الله تعالى: إن هذا اليوم هو اليوم الذي ينفع فيه الصادقين صدقهم في إيمانهم وشهاداتهم، وفي سائر أقوالهم وأحوالهم، وقرأه نافع بالنصب ـ وقيل البناء على الفتح ـ أي قال الله: هذا أي الذي قاله عيسى واقع أو كائن يوم ينفع الصادقين صدقهم، ثم بين هذا النفع بيانا مستأنفا فقال: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الجملة الأولى تقدم تفسيرها مرارا، وأما الجملة الثانية فهي بيان للنعيم الروحاني بعد ذكر النعيم الجثماني، فإن رضاء الله تعالى عنهم ورضاءهم عنه هو غاية السعادة الأبدية في نفسه، وفيما يترتب عليه من عطاياه تعالى وإكرامه، ومن كونهم يكونون ناعمين بذلك الإكرام مغتبطين به، إذ لا مطلب لهم أعلى منه فتمتد أعناقهم إليه، وتستشرف قلوبهم له حتى يتوقف رضاهم عليه، وأما كونه سعادة في نفسه فيعلم من حال كل من كان في كنف إنسان والد أو أستاذ أو قائد أو رئيس أو سلطان فإن علمه برضاه عنه يجعله في غبطة وهناء وطمأنينة قلب، ويكون سروره وزهوه بذلك على قدر مقام رئيسه الراضي عنه، على حد البيت الذي يتمثل به الصوفية:

قوم تخالجهم زهو بسيدهم والعبد يزهى على مقدار مولاه

٢. على أن رضاء رؤساء الدنيا لا يستلزم رضاء المرؤوسين دائما، لأن منهم الظالمين الذين لا يوفون أحدا حقه وإن كانوا راضين عنه، ورضاء أكرم الأكرمين يستلزم رضاء من رضي هو عنه لأنه يعطيه أضعاف ما يستحق، وفوق ما يؤمل ويرجو، كما قال تعالى في سورة الم السجدة ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] ورضوانه تعالى فوق كل شيء كما قال في سورة التوبة بمعنى ما هنا (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر، وهو الفوز العظيم) [التوبة: ٧٢]

٣. والفوز الظفر بالمطلوب مع النجاة من ضده أو مما يحول دونه، وقال الراغب: الفوز الظفر بالخير مع حصول السلامة، فمعناه مركب من سلب وإيجاب، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وإطلاقه على الظفر بالمطلوب وحده ـ كما في الآية التي نفسرها وآية التوبة التي بمعناها وما يشابهها ـ مراعى فيه المعنى السلبي بالقرائن الحالية، كما يقال في الجيش الذي يغلب عدوه ويظفر بالغنائم منه: إنه فاز، وهو إذا نال مراده من هدم قلعة ودك حصن فهلك تحت

أنقاضه فلا يقال إنه قد فاز، وإذا كان المهم في الفوز المعنى الإيجابي يعدى بالباء فيقال: فاز بكذا، وإذا كان المهم بيان المعنى السلبي يعدى بمن فيقال: فاز من الهلاك قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [آل عمران: ١٧٧] وإنما سميت الفلاة مفازة على سبيل التفاؤل لأنها مظنة الهلاك.

٤. الإشارة في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ إلى كل من النعيمين الجثماني والروحاني اللذين يحصلان بعد النجاة من أهوال يوم القيامة، وقيل إنه للثاني فقط، والأول أصح لأنه الأكمل، ولأن مثل هذا الإطلاق ورد في إثر إطلاق الجزاء بالجنة وحدها في آيتين من سورة التوبة غير الآية التي أوردناها آنفا، وفي إثر إطلاق الجزاء بالجنة مع النجاة من عذاب النار كما تراه في آخر سورة الدخان، وفي معناه ما في سورة المؤمن والحديد والصف والتغابن، فإن ذكر المغفرة فيها يتضمن معنى النجاة من عذاب النار، فنسأل الله الكريم الرحمن الرحيم، أن يجعلنا من أهل هذا الفوز العظيم، بفضله وإحسانه، وتوفيقنا لأسباب مرضاته.

٥. ثم ختم جل جلاله هذه السورة بقوله: ﴿للهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهو مناسب لما قبله مباشرة ومناسب لأن يكون ختاما لمجموع ما في هذه السورة، أما الأول فلما بين ما لأهل الصدق عنده من الجزاء الحق في مقعد الصدق، بين عقبه سعة ملكه وعموم قدرته الدالين على كون ذلك الجزاء لا يقدر عليه غيره، وأما الثاني فلما كان أكثر آيات هذه السورة في محاجة أهل الكتاب عامة، وبسط الحجج على بطلان أقوال النصارى في نبيهم خاصة، وسائرها في بيان أحكام الحلال والحرام، مع النص على إكمال الدين بالقرآن، وعلى وحدة الدين الإلهي واختلاف الشرائع والمناهج للأمم، ـ ولما كان كل من ذينك القسمين في الأصول والفروع قد تكرر فيه الوعد والوعيد، وقفى عليهما بذكر جمع الله تعالى للرسل يوم القيامة وسؤالهم عن التبليغ، وجواب أحدهم الدال على شهادتهم على أقوامهم بالحق وتفويض أمرهم إلى الله عز وجل ـ.

٦. لما كان ما ذكر كما ذكر ناسب أن تختم هذه السورة ببيان كون الملك كله والقدرة كلها لله وحده، وأن ملك السماوات والأرض وما فيهن لله وحده، كما يدل عليه تقدم الظرف ـ وهو خبر المبتدأ ـ وقد اختيرت كلمة ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ على ﴿مِنَ﴾ الخاصة بمن يعقل، وهو الذي من شأنه أن يملك، لأن مدلولها أعم وأشمل، وللإشارة إلى أن يوم الجزاء الحق يستوي فيه من يعقل ومن لا يعقل، فلا يملك معه أحد شيئا، لا حقيقة ولا مجازا، ويدخل في ذلك المسيح وأمة اللذين عبدا من دون الله، فيتضمن الحصر

والتعريض بعبادتهما، وبالاتكال على شفاعتهما، إذ الملك والقدرة لله وحده ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وغاية الأمر أنهما من عباد الله المكرمين ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩] صدق الله العظيم.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ أي قال الله تعالى: إن هذا اليوم هو اليوم الذي ينفع فيه الصادقين صدقهم في إيمانهم وفى شهاداتهم وفى سائر أقوالهم وأحوالهم.

٢. ثم بين هذا النفع فقال: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي للصادقين جنات تجرى من تحتها الأنهار في الآخرة ثوابا من عند الله، ورضي الله عنهم ورضوا عنه، وهذا غاية السعادة الأبدية، إذ لا مطلب لهم أعلى منه حتى تمتد أعناقهم إليه وتتطلع نفوسهم لبلوغه كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

٣. وقوله ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، أي ذلك الذي ذكر من النعيمين الجثمانى والروحاني اللذين يحصلون عليهما بعد النجاة من أهوال يوم القيامة هو الفوز البالغ الغاية، لأن الفوز هو الظفر بالمطلوب مع النجاة من ضده أو مما يحول دونه كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ وبعد أن بين ما لأهل الصدق عنده من الجزاء الحق في مقعد الصدق، بين عقبه سعة ملكه وعموم قدرته الدالين على كون ذلك الجزاء لا يقدر عليه غيره فقال: ﴿لِلهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي إن الملك كله والقدرة كلها لله وحده، وفى قوله: وما فيهن، تعريض بأن المسيح وأمه اللذين عبدا من دون الله داخلان تحت قبضته تعالى، إذ الملك والقدرة له وحده فلا ينبغي لأحد أن يتكل على شفاعتهما ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلا بِإِذْنِهِ﴾ وغاية ما أعطاهم الكرامة لديه والمنزلة الرفيعة من بين عباده

---

(١) تفسير المراغي ٧/٦٧.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. أين هم في هذا الموقف، في هذا المشهد؟. إن السياق لا يلقي إليهم التفاتة واحدة، فلعلهم يتذاوبون خزيا وندما، فلندعهم حيث تركهم السياق! لنشهد ختام المشهد العجيب: ﴿قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾،

٢... هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم.. إنه التعقيب المناسب على كذب الكاذبين؛ الذين أطلقوا تلك الفرية الضخمة على ذلك النبي الكريم، في أعظم القضايا كافة.. قضية الألوهية والعبودية، التي يقوم على أساس الحق فيها هذا الوجود كله وما فيه ومن فيه.... هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم.. إنها كلمة رب العالمين، في ختام الاستجواب الهائل على مشهد من العالمين.. وهي الكلمة الأخيرة في المشهد، وهي الكلمة الحاسمة في القضية، ومعها ذلك الجزاء الذي يليق بالصدق والصادقين: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾، ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾، درجات بعد درجات.. الجنات والخلود ورضا الله ورضاهم بما لقوا من ربهم من التكريم: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

٣. ولقد شهدنا المشهد ـ من خلال العرض القرآني له بطريقة القرآن الفريدة ـ وسمعنا الكلمة الأخيرة.. شهدنا وسمعنا لأن طريقة التصوير القرآنية لم تدعه وعدا يوعد، ولا مستقبلا ينتظر؛ ولم تدعه عبارات تسمعها الآذان أو تقرؤها العيون، إنما حركت به المشاعر، وجسمته واقعا اللحظة تسمعه الآذان وتراه العيون.. على أنه إن كان بالقياس إلينا ـ نحن البشر المحجوبين ـ مستقبلا ننتظره يوم الدين، فهو بالقياس إلى علم الله المطلق، واقع حاضر، فالزمن وحجابه إنما هما من تصوراتنا نحن البشر الفانين..

---

(١) في ظلال القرآن: ١٠٠٢/٢.

٤. وفي نهاية هذا الدرس؛ وفي مواجهة الفرية الكبرى التي لم يفتر أضخم منها قط أتباع رسول! في مواجهة الفرية الكبرى التي أطلقها أتباع المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فرية ألوهيته؛ الفرية التي تبرأ منها هذا التبرؤ، وفوض ربه في أمر قومه بشأنها هذا التفويض.. في مواجهة هذه الفرية، وفي نهاية الدرس الذي عرض ذلك الاستجواب الرهيب عنها، في ذلك المشهد العظيم.. يجيء الإيقاع الأخير في السورة؛ يعلن تفرد الله سبحانه بملك السماوات والأرض وما فيهن؛ وقدرته سبحانه على كل شيء بلا حدود: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.. ختام يتناسق مع تلك القضية الكبرى التي أطلقت حولها تلك الفرية الضخمة، ومع ذلك المشهد العظيم الذي يتفرد الله فيه بالعلم، ويتفرد بالألوهية، ويتفرد بالقدرة، وينيب إليه الرسل؛ ويفوضون إليه الأمر كله؛ ويفوض فيه عيسى بن مريم أمره وأمر قومه إلى العزيز الحكيم، الذي له ملك السماوات والأرض وما فيهن، وهو على كل شيء قدير..

٥. وختام يتناسق مع السورة التي تتحدث عن (الدين) وتعرضه ممثلا في اتباع شريعة الله وحده، والتلقي منه وحده، والحكم بما أنزله دون سواه.. إنه المالك الذي له ملك السماوات والأرض وما فيهن، والمالك هو الذي يحكم: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، إنها قضية واحدة.. قضية الألوهية.. قضية التوحيد.. وقضية الحكم بما أنزل الله.. لتتوحد الألوهية، ويتحقق التوحيد.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. هذا ختام الموقف، وتلك كلمة الفصل من رب العزة جلّ وعلا، في مجمع الرسل والأمم يوم القيامة.. ففي هذا اليوم العظيم يجد الصادقون الذين أخلصوا دينهم لله، ولم يحرّفوا ولم يبدلوا في دين الله ـ يجدون عاقبة هذا الصدق، مغفرة ورحمة ورضوانا في جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا.. لا يتحولون عنها، ولا ينتقلون إلا من نعيم إلى نعيم فيها.

٢. ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بما كان منهم من صدق في القول والعمل، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما أحسن إليهم

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/٨٦.

من جزاء، وأفاض عليهم من نعيم.. و﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي تعدل اللحظة منه عمر الدنيا كلها، وما لقى المنعّمون فيها من نعيم، وما ذاق السعداء فيها من طعوم السعادة، فكل هذا، لا يعدّ شيئا إلى نظرة رضى من الله إلى من رضى الله عنهم، جعلنا الله منهم وأدخلنا في زمرتهم، وأرضانا بما أرضاهم، بما تبلغه بنا سوابغ رحمته، وتؤهلنا له أمداد مننه وأفضاله.

٣. في قوله تعالى: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ لفتة كريمة من ربّ كريم، إلى عباده المكرمين، حيث يرضى عنهم ويرضون عنه، حتى لكأنه رضى متبادل بين الخالق والمخلوقين، والمعبود والعابدين، فسبحانه من ربّ كريم، برّ رحيم.. شاهت وجوه من يتجهون إلى وجه غير وجهه، وخسئ وخسر من يلوذون بجناب غير جنابه، ويطوفون بحمى غير حماه.

٤. ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قولة حق ينطق بها الوجود كله في هذا اليوم، ويشهد تصريفها الناس عيانا في هذا اليوم المشهود، حيث تخشع الوجوه للحىّ القيوم، وتخفت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا، وحيث تذلّ جباه الجبابرة، وتغبر وجوه الظالمين، وحيث ينادى منادى الحق: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ فإذا رجع هذا النداء، هو هذا الوجود كله لسان بسبّح بكلمة الحق: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. جواب عن قول عيسى، فلذلك فصلت الجملة على طريقة الحوار، والإشارة إلى يوم القيامة وهو حاضر حين تجري هذه المقاولة، وجملة: ﴿يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ مضاف إليها ﴿يَوْمَ﴾، أي هذا يوم نفع الصدق.

٢. وقد قرأ غير نافع من العشرة ﴿يَوْمَ﴾ ـ مضموما ضمّة رفع ـ لأنّه خبر ﴿هَذَا﴾، وقرأه نافع ـ مفتوحا ـ على أنّه مبني على الفتح لإضافته إلى الجملة الفعلية، وإضافة اسم الزمان إلى الجملة الفعلية تسوّغ بناءه على الفتح، فإن كانت ماضوية فالبناء أكثر، كقول النابغة: (على حين عاتبت المشيب على الصّبا) وإن

---

(١) التحرير والتنوير: ٥/٢٧٥.

كانت مضارعية فالبناء والإعراب جائزان كما في هذه الآية، وهو التحقيق.

٣. وإضافة الظرف إلى الجملة تقتضي أنّ مضمونها يحصل فيه، فنفع الصدق أصحابه حاصل يومئذ، وعموم الصادقين يشمل الصدق الصادر في ذلك اليوم والصادر في الدنيا، فنفع كليهما يظهر يومئذ؛ فأمّا نفع الصادر في الدنيا فهو حصول ثوابه، وأمّا نفع الصادر في الآخرة كصدق المسيح فيما قاله فهو برضى الله عن الصادق أو تجنّب غضبه على الذي يكذّبه فلا حيرة في معنى الآية.

٤. والمراد بـ ﴿الصَّادِقِينَ﴾ الذين كان الصدق شعارهم لم يعدلوا عنه، ومن أوّل مراتب الصدق صدق الاعتقاد بأن لا يعتقدوا ما هو مخالف لما في نفس الأمر ممّا قام عليه الدليل العقلي أو الشرعي، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [١١٩]

٥. ومعنى نفع الصدق صاحبه في ذلك اليوم أنّ ذلك اليوم يوم الحقّ فالصادق ينتفع فيه بصدقه، لأنّ الصدق حسن فلا يكون له في الحقّ إلّا الأثر الحسن، بخلاف الحال في عالم الدنيا عالم حصول الحقّ والباطل فإنّ الحقّ قد يجرّ ضرّا لصاحبه بتحريف الناس للحقائق، أو بمؤاخذته على ما أخبر به بحيث لو لم يخبر به لما اطّلع عليه أحد، وأمّا ما يترتّب عليه من الثواب في الآخرة فذلك من النفع الحاصل في يوم القيامة، وقد ابتلي كعب بن مالك في الصدق ثم رأى حسن مغبّته في الدنيا.

٦. ومعنى نفع الصدق أنّه إن كان الخبر عن أمر حسن ارتكبه المخبر فالصدق حسن والمخبر عنه حسن فيكون نفعا محضا وعليه جزاءان، كما في قول عيسى: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦] إلى آخره، وإن كان الخبر عن أمر قبيح فإنّ الصدق لا يزيد المخبر عنه قبحا لأنّه قد حصل قبيحا سواء أخبر عنه أم لم يخبر، وكان لقبحه مستحقّا أثرا قبيحا مثله، وينفع الصدق صاحبه مرتكب ذلك القبيح فيناله جزاء الصدق فيخفّ عنه بعض العقاب بما ازداد من وسائل الإحسان إليه.

٧. وجملة: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ﴾ مبيّنة لجملة: ﴿يَنْفَعُ﴾ باعتبار أنّها أكمل أحوال نفع الصدق.

٨. وجملة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ صفة لـ ﴿جَنَّاتٌ﴾ و﴿خَالِدِينَ﴾ حال، وكذلك جملة ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾

٩. ومعنى: ﴿رَضُوا عَنْهُ﴾ المسرة الكاملة بما جازاهم به من الجنّة ورضوانه، وأصل الرضا أنّه ضدّ الغضب، فهو المحبّة وأثرها من الإكرام والإحسان، فرضي الله مستعمل في إكرامه وإحسانه مثل محبّته في

قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ ورضي الخلق عن الله هو محبّته وحصول ما أمّلوه منه بحيث لا يبقى في نفوسهم متطلّع.

١٠. واسم الإشارة في قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ لتعظيم المشار إليه، وهو الجنّات والرضوان.

١١. ﴿للهِّ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تذييل مؤذن بانتهاء الكلام، لأنّ هذه الجملة جمعت عبودية كلّ الموجودات لله تعالى، فناسبت ما تقدّم من الردّ على النصارى، وتضمّنت أنّ جميعها في تصرّفه تعالى فناسبت ما تقدّم من جزاء الصادقين، وفيها معنى التفويض لله تعالى في كلّ ما ينزل، فآذنت بانتهاء نزول القرآن على القول بأنّ سورة المائدة آخر ما نزل، وباقتراب وفاة رسول الله ﷺ لما في الآية من معنى التسليم لله وأنّه الفعّال لما يريد، وتقديم المجرور باللام مفيد للقصر أي له لا لغيره.

١٢. وجيء بالموصول (ما) في قوله: ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ دون (من) لأنّ (ما) هي الأصل في الموصول المبهم فلم يعتبر تغليب العقلاء، وتقديم المجرور بـ ﴿عَلَى﴾ في قوله: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ للرعاية على الفاصلة المبنيّة على حرفين بينهما حرف مدّ، ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ عطف على ﴿مَلِكِ﴾ أي لله ما في السماوات والأرض، كما في سورة البقرة [٢٨٤] ﴿للهِّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فيفيد قصرها على كونها لله لا لغيره، وليس معطوفا على السماوات والأرض إذ لا يحسن أن يقال: لله ملك ما في السماوات والأرض لأنّ الملك يضاف إلى الأقطار والآفاق والأماكن كما حكى الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف: ٥١] ويضاف إلى صاحب الملك كما في قوله: ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ويقال: في مدّة ملك الأشوريين أو الرومان.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. بعد أن ذكر سبحانه من مغيبات الأمور اليوم الذى يجمع الله الرسل وأقوامهم، وتكون المجاوبة بين عيسى وربه، وهو الحق الذى بعث به، وفيها بيان مقامه ممن افتروا عليه الكذب، وضلوا في افترائهم وإذا كان ذلك فيه إشارة إلى العذاب الذى يستقبل أولئك المفترين على الرسول والذين جاءتهم

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/٢٤١٤.

المعجزة الباهرة التي لا يمارى فيها إلا من ران على قلبه، بين سبحانه جزاء الذين يذعنون للحق، وسماهم سبحانه الصادقين وأن الذى ينفعهم هو صدقهم، والصدق شعبة مما طلبه الحق، ولكنه سبحانه جعله شعار المؤمنين، وذلك لأن الصدق هو وصفه الإيمان الذى يلازمه، ويروى في ذلك أن النبي ﷺ سئل: (أيكون المؤمن جبانا؟ فأجاب عليه السلام: يكون المؤمن جبانا، واسأل أيكون بخيلا؟ فأجاب عليه السلام: يكون بخيلا، واسأل أيكون كذابا؟ فقال: لا يكون المؤمن كذابا)، فالكذب والإيمان نقيضان لا يجتمعان، والإيمان يلازمه الصدق، وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة]، والصدق يلازمه الإخلاص، ويكون معه القرب من الله تعالى، ولقد قال ﷺ: (إن الصدق يهدى إلى البر، والبر يهدى إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق حتى يكتب عند الله صديقا)، وإن الصدق ذو شعب ثلاث:

أ. أقربها الصدق في القول، فلا ينطق إلا بالحق، ولا ينطق إلا بما يجول بصدره، ولا يمارى ولا يداهن، ولا يرفث في قول.

ب. الثانية: صدق النفس فلا يغش نفسه، ولا يخدعها، بل يحاول أن يطلع على عيوبها ويعالج هذه العيوب، ولا يخدع نفسه ليكذب عليها.

ج. الثالثة، صدق الإنصاف، فلا يغمط غيره، ولا يحقد ولا يحسد، ولا يضغن، وينصف أعداءه من نفسه.

٢. ومن كانت هذه حاله ينفعه صدقه؛ لأنه صدق القول والنفس والعمل، له جزاؤه في الجنة جنات تجرى من تحتها الأنهار، وفى ذلك النعيم خالد خلودا أبديا جزاؤه في الجنة جنات تجرى من تحتها الأنهار، وفى ذلك النعيم خالد خلودا أبديا لا نهاية له، وفوق هذا الجزاء المادي الحسى، هناك جزاء معنوي وهو رضوان من الله، وهو أكبر من كل جزاء، ولذلك رضى الله عن الصادقين فهم مقربون إليه زلفى، وهم لا يرضون بربهم بديلا ولا شريكا في عبادة أو قربى، أو استعانة أو استجابة، فالله ملء قلوبهم يعبدونه كأنهم يرونه، وإن ذلك هو الفوز العظيم الذى لا فوز يماثله أو يقاربه.

٣. ﴿لِلهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ في هذا النص الكريم بيان للحق الذى لا مجال للريب فيه، وبيان لسلطان الله تعالى على كل ما في السموات وما في الأرض، وأنه ذو

سلطان في الحياة الدنيا وفى الآخرة، وهو القادر على كل شيء يريده، لا يعجزه شيء في السماء ولا في الأرض.

٤. وفى الكلام إشارات بيانية نذكرها:

أ. الأولى: إثبات أن الله وحده هو الجدير بالألوهية، والمستحق للعبادة، لأنه ذو السلطان الكامل المالك لكل شيء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

ب. الثانية: أن تقديم لفظ الجلالة يفيد وحدة سلطانه وملكه وقدرته أي أنه وحده المالك لكل شيء

ج. الثالثة: ذكر السموات والأرض، والتصريح بما فيهن للإشارة إلى أن كل شيء فيهن مخلوق له سبحانه، وليس فوقه أحد فلا يقال: إن أحدا له سلطان بجوار سلطانه وإن المعجزات التي تجرى على أيدى بعض النبيين من خلقه هو الذى خلقه على يديه وليس النبي خالقها.

د. الرابعة: إثبات أنه قادر على كل شيء لا يتقيد بالأسباب والمسببات، لأنه على كل شيء قدير، وهو خالق الأسباب.

هـ. الخامسة: تقديم الجار والمجرور يفيد كمال قدرة الله تعالى على الأشياء إنه حميد مجيد، سميع بصير عزيز حكيم.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. بعد أن حكى عن عيسى انه قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللهَّ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾، بعد هذا عقب بالثناء على الصادقين بوجه العموم، وان من صدق في هذه الحياة ينتفع بصدقه في الحياة الثانية، ويجازى بجنات تجري من تحتها الأنهار، وفي هذا التعقيب شهادة منه تعالى بصدق عيسى في أقواله وأفعاله، وانه أدى رسالة ربه على وجهها الأكمل، وان من كفر وأشرك فعليه وحده تقع التبعة والمسؤولية.

٢. ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، ورضى الله عن عبده جنات ونعيم، ومقام

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/١٥٣.

كريم، ورضى العبد عن ربه أن يفرح بما آتاه الله من فضله، قال الرازي: (في رضى الله أسرار عجيبة تخرس الأقلام عن مثلها، جعلنا الله من أهلها)، ولن يكون أحد من أهلها إلا بعد أن يدفع الثمن، والثمن أن يكون شعار المشتري (لا إله إلا الله) في كل شيء أي أن لا يغضبه في شيء حتى ولو قرض بالمقاريض، ونشر بالمناشير، تماما كما قال سيد الكونين: أن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، وكما قال سبطه الحسين الشهيد: رضى الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، ويوفينا أجور الصابرين.

٣. ﴿للهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ومن كانت له هذه المقدرة، وهذا الملك أعطى من يرضى عنه بغير حساب.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ تقرير لصدق عيسى بن مريم عليه السلام على طريق التكنية فإنه لم يصرح بشخصه وإنما المقام هو الذي يفيد ذلك، والمراد بهذا الصدق من الصادقين صدقهم في الدنيا فإنه تعالى يعقب هذه الجملة بقوله: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، ومن البين أنه بيان لجزاء صدقهم عند الله سبحانه فهو النفع الذي يعود إليهم من جهة الصدق، والأعمال والأحوال الأخروية ـ ومنها صدق أهل الآخرة ـ لا يترتب عليها أثر النفع بمعنى الجزاء وبلفظ آخر: الأعمال والأحوال الأخروية لا يترتب عليها جزاء كما يترتب على الأعمال والأحوال الدنيوية؛ إذ لا تكليف في الآخرة، والجزاء من فروع التكليف، وإنما الآخرة دار حساب وجزاء كما أن الدنيا دار عمل وتكليف، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ إبراهيم: ٤١ وقال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [المؤمن: ٣٩]

٢. والذي ذكره عيسى عليه السلام من حاله في الدنيا مشتمل على قول وفعل وقد قرره الله على الصدق فالصدق الذي ذكر في الآية يشمل الصدق في الفعل كما يشمل الصدق في القول؛ فالصادقون في الدنيا في قولهم وفعلهم ينتفعون يوم القيامة بصدقهم، لهم الجنات الموعودة وهم الراضون المرضيون

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٦/٢٥٢.

الفائزون بعظيم الفوز.

٣. على أن الصدق في القول يستلزم الصدق في الفعل ـ بمعنى الصراحة وتنزه العمل عن سمة النفاق ـ وينتهي به إلى الصلاح، وقد روي أن رجلا من أهل البدو استوصى النبي ﷺ فوصاه أن لا يكذب ثم ذكر الرجل أن رعاية ما وصى به كفه عن عامة المعاصي إذ ما من معصية عرضت إلا ذكر أنه لو اقترحها ثم سئل عنها وجب عليه أن يعترف بها على نفسه ويخبر بها الناس فلم يقترفها مخافة ذلك.

٤. ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ رضي الله عنهم بما قدموا إليه من الصدق، ورضوا عن الله بما آتاهم من الثواب.

٥. وقد علق رضاه بهم أنفسهم لا بأعمالهم كما في قوله تعالى: ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾، وقوله: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] وبين القسمين من الرضى فرق فإن رضاك عن شيء هو أن لا تدفعه بكراهة ومن الممكن أن يأتي عدوك بفعل ترضاه وأنت تسخط على نفسه، وأن يأتي صديقك الذي تحبه بفعل لا ترضاه، فقوله: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾ يدل على أن الله يرضى عن أنفسهم، ومن المعلوم أن الرضى لا يتعلق بأنفسهم ما لم يحصل غرضه جل ذكره من خلقهم، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فالعبودية هو الغرض الإلهي من خلق الإنسان فالله سبحانه إنما يرضى عن نفس عبده إذا كان مثالا للعبودية أي أن يكون نفسه نفس عبد لله الذي هو رب كل شيء فلا يرى نفسه ولا شيئا غيره إلا مملوكا لله خاضعا لربوبيته لا يئوب إلا إلى ربه ولا يرجع إلا إليه كما قال تعالى في سليمان وأيوب: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] وهذا هو الرضى عنه، وهذا من مقامات العبودية، ولازمه طهارة النفس عن الكفر بمراتبه وعن الاتصاف بالفسق كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] وقال تعالى: ﴿فإن اللهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦]

٦. ومن آثار هذا المقام أن العبودية إذا تمكنت من نفس العبد ورأى ما يقع عليه بصره وتبلغه بصيرته مملوكا لله خاضعا لأمره فإنه يرضى عن الله فإنه يجد أن كل ما آتاه الله فإنما آتاه من فضله من غير أن يتحتم عليه فهو جود ونعمة، وأن ما منعه فإنما منعه عن حكمة.

٧. على أن الله سبحانه يذكر عنهم وهم في الجنة بقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ [النحل: ٣١]، ومن المعلوم أن الإنسان إذا وجد كل ما يشاؤه لم يكن له إلا أن يرضى، وهذا غاية السعادة الإنسانية بما هو

عبد، ولذلك ختم الكلام بقوله: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

٨. ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ـ الملك ـ بالكسر ـ سلطة خاصة على رقبة الأشياء وأثره نفوذ الإرادة فيما يقدر عليه المالك من التصرف فيها، والملك ـ بالضم ـ سلطة خاصة على النظام الموجود بين الأشياء وأثره نفوذ الإرادة فيما يقدر عليه، وبعبارة ساذجة: الملك ـ بالكسر ـ متعلق بالفرد، والملك ـ بالضم ـ متعلق بالجماعة، وحيث كان الملك في نفوذ الإرادة بالفعل مقيدا أو متقوما بالقدرة فإذا تمت القدرة وأطلقت كان الملك ملكا مطلقا غير مقيد بشيء دون شيء وحال دون حال، ولبيان هذه النكتة عقب تعالى قوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

٩. واختتمت السورة بهذه الآية الدالة على الملك المطلق، والمناسبة ظاهرة، فإن غرض السورة هو حث العباد وترغيبهم على الوفاء بالعهود والمواثيق المأخوذة عليهم من جانب ربهم، وهو الملك على الإطلاق فلا يبقى لهم إلا أنهم عباد مملوكون على الإطلاق ليس لهم فيما يأمرهم به وينهاهم عنه إلا السمع والطاعة، ولا فيما يأخذ منهم من العهود والمواثيق إلا الوفاء بها من غير نقض.

١٠. في تفسير العياشي، عن جابر الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام: في تفسير هذه الآية: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، قال: (إن اسم الله الأكبر ثلاثة وسبعون حرفا ـ فاحتجب الرب تبارك وتعالى منها بحرف ـ فمن ثم لا يعلم أحد ما في نفسه عز وجل، أعطى آدم اثنين وسبعين حرفا فتوارثها الأنبياء ـ حتى صار إلى عيسى عليه السلام فذلك قول عيسى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ ـ يعني اثنين وسبعين حرفا من الاسم الأكبر ـ يقول: أنت علمتنيها فأنت تعلمها: ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ ـ يقول: لأنك احتجبت بذلك الحرف ـ فلا يعلم أحد ما في نفسك)، سيجيء البحث المبسوط عن أسماء الله الحسنى واسمه الأعظم الأكبر في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ الآية[الأعراف: ١٨٠] ويتبين هناك أن الاسم الأكبر أو الاسم الأعظم ليس من نوع اللفظ حتى يتألف من حروف الهجاء وإنما المراد بالاسم في أمثال هذه الموارد هو المحكي عنه بالاسم اللفظي وهو الذات مأخوذا بصفة من صفاته ووجه من وجوهه ويعود الاسم اللفظي حينئذ اسم الاسم على ما سيتضح بعد، وعلى هذا فقوله: عليه السلام: (إن الاسم الأكبر مؤلف من ثلاثة وسبعين حرفا) ونظيره ما ورد في روايات كثيرة في هذا الباب من أن الاسم الأعظم مؤلف من كذا حرفا، وأنها متفرقة مبثوثة في كذا سورة أو أنه في

كذا آية كل ذلك بيانات مبنية على الرمز، وأمثال مضروبة لتفهيم ما يسع تفهيمه من الحقائق فما كل حقيقة ميسورا بيانها بالصراحة من غير كناية؛ وبالعين دون المثل، والذي يتضح به معنى الحديث بعض الاتضاح هو أن يقال: إنه لا شك أن أسماء الله تعالى الحسنى وسائط لظهور الكون بأعيانه وحدوث حوادثه التي لا تحصى، فإنا لا نشك في أن الله سبحانه خلق خلقه لأنه خالق جواد مبدئ مثلا لا لأنه منتقم شديد البطش، وأنه إنما يرزق من يرزق لأنه رازق معط مثلا لا لأنه قابض مانع، وأنه إنما يفيض الحياة للأحياء لأنه الحي المحيي لا لأنه مميت معيد، والآيات القرآنية أصدق شاهد على هذه الحقيقة، فإنا نرى المعارف المبينة في متون الآيات معللة بالأسماء المناسبة لمعانيها في ذيلها فربما اختتمت الآية لبيان ما تضمه من المعنى باسم، وربما اختتمت باسمين يفيدان بمجموعهما المعنى المذكور فيها، ومن هنا يظهر أن الواحد منا لو رزق علم الأسماء وعلم الروابط التي بينها وبين الأشياء وما تقضيه أسماؤه تعالى مفردة ومؤلفة علم النظام الكوني بما جرى وبما يجري عليه عن قوانين كلية منطبقة على جزئياتها واحدا بعد واحد، وقد بين القرآن الشريف على ما يفهم من ظواهره قوانين عامة كثيرة في المبدإ والمعاد وما رتبه الله تعالى من أمر السعادة والشقاوة ثم خاطب النبي ﷺ بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾، لكنها جميعا قوانين كلية ضرورية إلا أنها ضرورية لا في أنفسها وباقتضاء من ذواتها بل بما أفاده الله سبحانه عليها من الضرورة واللزوم، وإذا كانت هذه الحكومة العقلية القطعية من جهته تعالى وبأمره وإرادته فمن البين أن فعله تعالى لا يجبره تعالى على مؤدى نفسه، ولا يغلبه في ذاته فهو سبحانه القاهر الغالب فكيف يغلبه ما ينتهي إليه تعالى من كل جهة ويفتقر إليه في عينه وأثره، فافهم ذلك، فمن المحال أن يكون العقل الذي يحكم بما يحكم بإفاضة الله ذلك عليه أو تكون الحقائق التي إنما وجدت أحكامها وآثارها به تعالى، حاكمة عليه تعالى مقتضية فيه بالحكم والاقتضاء اللذين هو المبقي لهما القاهر الغالب عليهما، وبعبارة أخرى: ما في الأشياء من اقتضاء وحكم إنما هو أثر التمليك الذي ملكه الله إياها، ولا معنى لأن يملك شيء بالملك الذي ملكه الله بعينه منه تعالى شيئا فهو تعالى مالك على الإطلاق غير مملوك بوجه من الوجوه أصلا، فلو أثاب الله المجرم أو عاقب المثيب أو فعل أي فعل أراد لم يكن عليه ضير، ولا منعه مانع من عقل أو خارج إلا أنه تعالى وعدنا وأوعدنا بالسعادة والشقاء وحسن الجزاء وسوء الجزاء، وأخبرنا أنه لا يخلف الميعاد وأخبرنا من طريق الوحي أو العقل بأمور ثم ذكر أنه لا يقول إلا الحق فسكنت نفوسنا به واطمأنت قلوبنا إليه بما لا طريق للريب إليه،

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]، الرعد: ٣١ وقال تعالى: ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ [ص: ٨٤] وفي معناهما الضرورة العقلية في أحكامها، وهذا الذي بينه هو مقتضى أسمائه تعالى فيما علمنا بتعليمه منها لكن من وراء ذلك أنه تعالى هو المالك على الإطلاق له أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، قال تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وهذا المعنى بعينه اسم من أسمائه تعالى مجهول الكنه لا طريق إلى تعلق العلم به لأحد من خلقه فإن كل ما نعلمه من أسمائه فهو مما يحكيه مفهوم من المفاهيم ثم نشخص بنسبته آثاره في الوجود وأما الآثار التي لا طريق إلى تشخيصها في الوجود فهي لا محالة آثار لاسم لا طريق إلى الحصول على معناها وإن شئت فقل: إنه اسم لا يصطاد بمفهوم، وإنما يشير إليه صفة ملكه المطلق نوعا من الإشارة، فقد تبين أن من أسمائه تعالى ما لا سبيل إليه لأحد من خلقه وهو الذي احتجب تعالى به فافهم ذلك.

١١. ذكر في آخر السورة مباحث متنوعة حول الأدب والرق والاستعباد ومعناى المجازاة والعفو وغيرها، ليس لها صلة مباشرة بالتفسير التحليلي، نقلناه إلى محله من السلسلة.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ ﴿قَالَ اللهُ﴾ لعيسى عليه السلام بشارة له بصدقه في الحياة الدنيا: ﴿هَذَا﴾ اليوم ﴿يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ والصادقون: هم الذين صدقوا الله في إيمانهم فوافق قولهم عملهم ونيتهم، فنصروا الله، وجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم، وأخلصوا دينهم لله، قال تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر:٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]

٢. ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ

(١) التيسير في التفسير: ٢/٤٠٧.

﴿الْعَظِيمُ﴾ وهذا لاستحقاقهم الثواب والتكريم، فبالأولى: أن صدقهم نَفَعهم بأن نجاهم من النار، فتم بالصدق نفع الصادقين، وقوله تعالى: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ لعله بمعنى رضوا عنه في إثابتهم بما أثابهم به من النعم، كقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى:٥] أو هو تعبير عن عظم سعادتهم برضوان الله عنهم، وبرضوانهم عنه وحبهم له ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لأنه سعادة عظمى دائمة، ونجاة من كل شر.

٣. ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿لِلَّهِ﴾ وحده ﴿مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ من المخلوقات من العقلاء وغيرهم، وذلك يعم المسيح ابن مريم وأمه عليهما السلام، والملك لله وحده ليس لهما فيه نصيب يشاركان به ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بما قد تقرر من الاحتجاج في هذه السورة على أهل الكتاب وغيرها، تقرر أن لله ملك السموات والأرض وما فيهن، وأنه على كل شيء قدير.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾، إنّ الموقف هنا هو موقف الصادقين الّذين صدقوا الله العقيدة، كما صدقوه القول والعمل، فهو الّذي ينفعهم ويرفع منزلتهم عند الله، أمّا الكاذبون المبطلون الّذين كذبوا رسول الله وتمرّدوا على رسالته، وكذبوا على أنفسهم وعلى النّاس، أمّا هؤلاء، فسيجزون جزاء كذبهم وانحرافهم، ولعل المتأمل يستوحي من هذه الآية قيمة الصدق في حسابات التقويم عند الله، وشموليته لكلّ الأعمال الّتي يقوم بها الإنسان، بحيث إنّ كل معاني الإيمان ومواقفه وتطلعاته في آفاق الإنسان المؤمن، تمثّل موقف صدق، فيما يمثله الصدق من الارتباط بالحقيقة، لانّه التعبير الواضح عن مطابقة الظاهر للباطن، وموافقة الكلمة للواقع، وانسجام العمل مع الخط المستقيم للعقيدة والشريعة، وبهذا يلتقي موقف الصدق بالموقف الحقّ، ويتمّثل الصادقون في حركة العقيدة في الحياة، كأنموذج للنّاس الّذين يعيشون المعاناة في الدنيا، من خلال ما تفرضه مواقف الصدق من مآس وآلام وخسائر ماديّة،

(١) من وحي القرآن: ٤٠٩/٨.

وينطلقون في مواقف الفوز في الآخرة، انطلاقا من محبة الله لهم، فيما أعلن الله لرسله أنّه يحب الصادقين وانطلق الحديث عن الخير الّذي ينتظر الصادقين عند الله.

٢. ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾، فهناك النعيم الّذي يعيش الإنسان معه في متعة روحيّة وجسديّة مع كل آفاق الخلود وامتداداته، ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فقد أطاعوا الله في حياتهم فنالوا رضاه بذلك، وقد عاشوا الشعور الدائم بالاطمئنان لقضاء الله وقدره، فهم راضون عند الشدة، وراضون عند الرخاء، وهم مرتاحون للعافية، كما هم مرتاحون للبلاء، لأنّهم يعرفون، من موقع إيمانهم، أنّ الله لا يقضي لهم إلّا بما يصلح أمرهم ويرفع درجتهم، وهكذا يعيشون الرضى عن الله في الآخرة فيما يغدقه عليهم من لطفه ورحمته.

٣. ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الّذي لا فوز أعظم منه، وأيّ فوز أعظم من أن يعيش الإنسان الانسجام المطلق مع الله في الدنيا والآخرة، انسجاما تعبق أجواؤه بالروحيّة الفيّاضة الّتي تغمر القلب والشعور معا، بالمحبة المتبادلة بينهم وبين الله، هذه المحبة الّتي تمثّل السعادة، كل السعادة، والفوز، كل الفوز، في الدنيا والآخرة.

٤. ﴿للهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تلك هي الحقيقة الّتي تفرض نفسها على الكون والحياة، وتحدد للإنسان موقعه في أجواء العبوديّة المطلقة أمام الألوهيّة المطلقة، فلله الملك كلّه وللإنسان الحاجة كلّها، التي تربطه بالله في كل شيء لتعطيه الغنى من الله في كل شيء وتلك هي قصة الإسلام في كل مجالاته الروحيّة والعمليّة، وتلك هي قصة الإنسان في الحياة، في انطلاقته في رحاب الله، والحمد لله رب العالمين.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. بعد الحوار الذي جرى بين الله والمسيح عليه السّلام يوم القيامة ـ كما شرحناه في تفسير الآيات السابقة ـ تقول الآية: ﴿قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾، طبيعي أنّ المقصود من هذا هو أنّ

(١) تفسير الأمثل: ٤/١٩٧.

الصدق في القول والعمل في هذه الدنيا هو الذي ينفع في الآخرة، لأنّ الصدق في الآخرة ـ التي لا تكليف فيها ـ لا ينفع شيئا ثمّ أنّ الوضع في تلك الحياة مختلف بحيث لا يستطيع أحد إلّا أن يقول الصدق، حتى المذنبون يعترفون بسيئات ما عملوا، وعلى هذا فلا وجود للكذب يوم القيامة.

٢. وعليه، فإنّ الذين أنجزوا ما كلّفوا من مسئولية ورسالة ولم يسيروا إلّا في طريق الصدق، مثل المسيح عليه السّلام وأتباعه الصادقين، أو أتباع سائر الأنبياء الآخرين الذين التزموا الصدق سينالون ثوابهم.

٣. يتّضح لنا من هذا بأنّ جميع الأعمال الصالحات يمكن أن تنطوي تحت عنوان الصدق في القول والفعل، وأنّه الرصيد الذي ينفع يوم القيامة لا غير.

٤. وهؤلاء الصادقون: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ وخير من هذه النعمة المادية أنّهم: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ ولا شك أنّ هذه النعمة الكبرى التي تجمع بين النعم المادية والنعم المعنوية شيء عظيم: ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.

٥. يلفت النظر أنّ الآية، بعد ذكر بساتين الجنّة ونعمها الكثيرة، تذكر نعمة رضي الله عن عباده، ورضى عباده عنه وتصف ذلك بأنّه الفوز العظيم، وهذا يدل على مدى أهمية هذا الرضى المتبادل، فقد يكون امرؤ غارقا في أرفع نعم الله، ولكنّه إذا أحس بأنّ مولاه ومعبوده ومحبوبه ليس راضيا عنه، فإن جميع تلك النعم والهبات تصير علقما في ذائقة روحه، كما يمكن أن يتوفر لامرئ كل شيء ولكنه لا يكون راضيا ولا قانعا بما عنده، فمن الواضح أنّ هذه النعم بأجمعها غير قادرة على إسعاد تلك الروح، بل تكون دائما معرضة لعذاب قلق غامض واضطراب نفسي مستمر يقضيان على الراحة النفسية التي هي من أعظم نعم الله، ثمّ إذا كان الله راضيا عن امرئ فإنّه يعطيه كل ما يريد، فإذا أعطاه كل ما يريد فإنّه يكون راضيا عن ربّه أيضا، من هنا فإنّ أعظم النعم هي أن يرضى الله عن الإنسان ويرضى الإنسان عن ربّه.

٦. وفي آخر الآية إشارة إلى امتلاك الله كل شيء وسيطرته على السموات والأرض وما فيها، وأنّ قدرته عامّة تشمل كل شيء ﴿لله مُلْكُ السَّماواتِ والْأَرْضِ وَما فِيهِنَّ وهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، هذه الآية، في الواقع، تعتبر سبب رضى عباد الله عن الله، وذلك لأنّ الذي يملك كل شيء في عالم الوجود له القدرة أن يعطي عباده ما يريدون وأن يغفر لهم وأن يفرحهم ويرضيهم، كما تتضمن إشارة إلى عدم صدق أعمال

النصارى في عبادة مريم، لأنّ العبادة جديرة بأن تكون لمن يحكم عالم الخليقة بأكمله، لا مريم التي لا تزيد عن كونها مخلوقة مثلهم.

سورة الأنعام

نتبّه في مقدمة هذه السورة، كما في كل سورة إلى أنّنا قسّمنا السورة إلى مقاطع بحسب معناها، من غير مراعاة لطول المقطع أو قصره، وأنا لم نذكر ما يرتبط بتعريف السورة وفضلها ومواضيعها ونحو ذلك، لأنّا تحدثنا عنه في الكتاب الثاني من هذه السلسلة، وهو (المفسّرون والوحدة الموضوعية للقرآن)، ومثل ذلك حذفنا الإشارات واللطائف والمباحث التي لا علاقة لها مباشرة بالتفسير التحليلي، لأنّا أفردناها بالحديث في سائر كتب السلسلة.

وننبّه إلى أننا نذكر ما ذكره المفسّرون بحسب التسلسل التاريخي ابتداء من الصحابة، فما بعدهم، وقد ذكرنا في مقدمة الكتاب الأسس التي اعتمدناها في اختيار التفاسير، وأولها وأهمها اعتمادها من طرف الطائفة التي ينتمي إليها المفسر، لنكتشف بذلك رؤى الطوائف المختلفة، ومواقفها، وفهومها، ولذلك لا نرى حرجا في التكرار إن ورد، لأن الهدف هو معرفة مدى التوافق بين هذه الطوائف[١].

(١) كرّرنا هذه التنبيهات في كل سورة لأن هناك من لا يطلع على التنبيه الوارد في أول سورة.

١ . رعاية الله لعباده وعلمه بهم

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [١] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١ ـ ٣]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

كعب:

روي عن كعب الأحبار (ت ٣٢ هـ) أنّه قال: (فتحت التوراة بـ ﴿الْحَمْدُ للهِّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، وختمت بـ ﴿الْحَمْدُ للهِّ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١])[١].

علي:

روي عن الإمام علي (ت ٤٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١ . روي أنّه قال: أنزل الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ فكان في هذه الآية رد على ثلاثة أصناف: لما قال: ﴿الْحَمْدُ للهِّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ فكان ردا على الدهرية، الذين قالوا: إن الأشياء لا بدء لها، وهي دائمة، ثم قال: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ فكان ردا على الثنوية، الذين قالوا: إن النور والظلمة هما المدبران، ثم قال: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ فكان ردا على مشركي العرب، الذين قالوا: إن أوثاننا آلهة، ثم أنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخرها، فكان فيها رد على كل من ادعى من دون الله ضدا أو ندا، قال: فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: قولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي نعبد واحدا، لا نقول كما قالت الدهرية: إن

(١) ابن الضريس في فضائل القرآن (١٩٧).

الأشياء لا بدء لها، وهي دائمة، ولا كما قالت الثنوية، الذين قالوا: إن النور والظلمة هما المدبران، ولا كما قال مشركو العرب: إن أوثاننا آلهة، فلا نشرك بك شيئا، ولا ندعو من دونك إلها، كما يقول هؤلاء الكفار، ولا نقول كما قالت اليهود والنصارى: إن لك ولدا، تعاليت عن ذلك علوا كبيرا[1].

٢. عن الشيخ المفيد (ت ٣٣٨ هـ) في (إرشاده)، قال وجاءت الرواية: أن بعض أحبار اليهود جاء إلى أبي بكر، فقال له: أنت خليفة نبي هذه الامة؟ فقال له: نعم، فقال: إنا نجد في التوراة أن خلفاء الأنبياء أعلم أممهم، فأخبرني عن الله أين هو؟ في السماء أم في الأرض؟ فقال له أبو بكر: هو في السماء على العرش، فقال له اليهودي: فأرى الأرض خالية منه، وأراه على هذا القول في مكان دون مكان!؟ فقال له أبو بكر: هذا كلام الزنادقة، أغرب عني وإلا قتلتك، فولى الحبر متعجبا يستهزئ بالإسلام، فاستقبله الإمام علي، فقال له: (يا يهودي، قد عرفت ما سألت عنه، وما أجبت به، وإنا نقول: إن الله عز وجل أين الأين، فلا أين له، وجل أن يحويه مكان، وهو في كل مكان، بغير مماسة ولا مجاورة، يحيط علما بما فيها، ولا يخلو شيء منها من تدبيره، وإني مخبرك بما جاء في كتاب من كتبكم يصدق ما ذكرته لك، فإن عرفته أتؤمن به؟) فقال اليهودي: نعم، قال: (ألستم تجدون في بعض كتبكم أن موسى بن عمران عليه السلام كان ذات يوم جالسا إذ جاءه ملك من المشرق، فقال له موسى: من أين أقبلت؟ قال من عند الله عز وجل، ثم جاءه ملك من المغرب، فقال له: من أين جئت؟ فقال: من عند الله عز وجل، ثم جاءه ملك آخر فقال: قد جئتك من السماء السابعة، من عند الله تعالى، وجاءه ملك آخر، فقال: قد جئتك من الأرض السابعة، من عند الله تعالى، فقال موسى عليه السلام: سبحان من لا يخلو منه مكان، ولا يكون إلى مكان أقرب من مكان)، فقال اليهودي: أشهد أن لا إله إلا الله، هذا هو الحق، وإنك أحق بمقام نبيك ممن استولى عليه[2].

أبو هريرة:

روي عن أبي هريرة (ت ٥٨ هـ) عن النبي ﷺ، قال: (إنّ الله خلق آدم من تراب؛ جعله طينا، ثم تركه حتى كان حمأ مسنونا خلقه وصوره، ثم تركه حتى إذا كان صلصالا كالفخار، فكان إبليس يمرّ به،

---

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري: ٥٤٢/٣٢٤.

(٢) الإرشاد: ١٠٨.

فيقول: خلقت لأمر عظيم، ثم نفخ الله فيه روحه[1].

الخراساني:

روي عن عطاء الخراساني (ت ٦٠ هـ) أنّه قال: ﴿قَضَى أَجَلًا﴾ يقال: ما خلق في ستة أيام[2].

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال:افتتح الله الخلق بالحمد، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، وختمه بالحمد، فقال: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي: بين الخلائق، ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥][3].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ الكفر، والإيمان[4].

٣. روي أنّه قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾، يعني: آدم[5].

٤. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ قال أجل الدنيا، وفي لفظٍ: أجل موته، ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ الآخرة، لا يعلمه إلا الله[6].

٥. روي أنّه قال: ﴿قَضَى أَجَلًا﴾، هو النوم، يقبض فيه الروح، ثم يرجع إلى صاحبه حين اليقظة، ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ قال هو أجل موت الإنسان[7].

٦. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ يعني: أجل الموت، ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾: أجل الساعة، والوقوف عند الله[8].

---

(١) أبو يعلى ١١/٤٥٣.

(٢) ابن أبي حاتم ٤/١٢٦١.

(٣) تفسير البغوي ٣/١٢٥.

(٤) نسبه السيوطي إلى أبي الشيخ.

(٥) نسبه السيوطي إلى ابن المنذر.

(٦) ابن جرير ٩/١٥١.

(٧) ابن جرير ٩/١٥٣.

(٨) ابن جرير ٩/١٥٣.

٧. روي أنّه قال: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾، قال السر: ما أسرّ ابن آدم في نفسه[١].

ابن أبزى:

روي عن عبد الرحمن بن أبزى (ت ٧٠ هـ)، أنّه أتاه رجل من الخوارج، فقرأ عليه: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ الآية، ثم قال أليس الذين كفروا بربّهم يعدلون؟ قال بلى، فانصرف عنه الرجل، فقال له رجل من القوم: يا ابن أبزى، إنّ هذا أراد تفسير الآية غير ما ترى، إنّه رجل من الخوارج، قال: ردّوه عليّ، فلما جاء، قال: أتدري في من أنزلت هذه الآية؟ قال: لا، قال: نزلت في أهل الكتاب، فلا تضعها في غير موضعها[٢].

ابن عمرو:

روي عن ابن عمرو بن العاص (ت ٧٧ هـ)، عن النبي ﷺ أنّه قال: (إنّ الله عز وجل خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه يومئذ من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضلّ)[٣].

ابن جبير:

روي عن سعيد بن جبير (ت ٩٥ هـ) أنّه قال: السّرّ: ما حدّثت به نفسك[٤].

الضحاك:

روي عن الضحاك بن مزاحم (ت ١٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: الحمد لله رداء الله الرحمن تبارك وتعالى[٥].

٢. روي أنّه قال: خلق آدم من طين، وخلق الناس من سلالة من ماء مهين[٦].

٣. روي أنّه قال: ﴿قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ قال قضى أجل الموت، وكل نفس أجلها الموت، قال ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها، ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يعني: أجل الساعة ذهاب الدنيا،

---

(١) ابن أبي حاتم ٤/١٢٦٢.

(٢) ابن جرير ٩/١٤٨.

(٣) أحمد ١١/٢١٩.

(٤) ابن أبي حاتم ٤/١٢٦٣.

(٥) ابن أبي حاتم ٤/١٢٥٨.

(٦) ابن جرير ٩/١٥٠.

والإفضاء إلى الله[1].

٤ . روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾: الأجل الأول من الولادة إلى الموت، والأجل الثاني من الموت إلى البعث، وهو البرزخ[2].

ابن معدان:

روي عن خالد بن معدان (ت ١٠٣ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١ . روي أنّه قال: ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ أجل البعث[3].

٢ . روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، يقول: في البعث[4].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١ . روي أنّه قال: نزلت هذه الآية في الزنادقة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، قالوا: إنّ الله لم يخلق الظلمة، ولا الخنافس، ولا العقارب، ولا شيئا قبيحا، وإنما خلق النور، وكلّ شيءٍ حسن، فأنزلت فيهم هذه الآية[5].

٢ . روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، يشركون[6].

٣ . روي أنّه قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، فكان فيه ردّ على ثلاثة أديانٍ منهم، فكان فيه ردّ على الدّهريّة أنّ الأشياء كلّها دائمة، ثم قال: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، فكان فيه ردّ على المجوس الذين زعموا أنّ الظّلمة والنور هما المدبّران، وقال: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، فكان فيه ردّ على مشركي العرب، ومن دعا دون الله إلها[7].

---

(١) ابن جرير ١٥١/٩.

(٢) تفسير البغوي ١٢٧/٣.

(٣) ابن أبي حاتم ١٢٦٢/٤.

(٤) ابن أبي حاتم ١٢٦٢/٤.

(٥) ابن أبي حاتم ١٢٥٩/٤.

(٦) تفسير مجاهد ص ٣١٩.

(٧) نسبه السيوطي إلى أبي الشيخ.

٤. روي أنّه قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾، هو آدم[١].

٥. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ أجل الدنيا الموت، ﴿أَجَلًا﴾ الآخرة عنده، ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ الدنيا[٢].

عكرمة:

روي عن عكرمة (ت ١٠٥ هـ) أنّه قال: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ قضى أجل الدنيا، ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ هو أجل البعث[٣].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، يعني: الكفر، والإيمان[٤].

٢. روي أنّه قال: ﴿قَضَى أَجَلًا﴾ ما بين أن يخلق إلى أن يموت، ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ ما بين أن يموت إلى أن يبعث[٥].

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: إن الله عز وجل خلق الجنة قبل أن يخلق النار، وخلق الطاعة قبل أن يخلق المعصية، وخلق الرحمة قبل الغضب، وخلق الخير قبل الشر، وخلق الأرض قبل السماء، وخلق الحياة قبل الموت، وخلق الشمس قبل القمر، وخلق النور قبل الظلمة[٦].

٢. روي أنّه سئل عن قول الله عز وجل: ﴿قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ فقال: هما أجلان:

---

(١) ابن جرير ٩/١٥٠.

(٢) تفسير مجاهد ص ٣١٩.

(٣) ابن جرير ٩/١٥٢.

(٤) تفسير البغوي ٣/١٢٦.

(٥) ابن جرير ٩/١٥٢.

(٦) الكافي ٨/١٤٥.

أجل محتوم، وأجل موقوف[١].

٣. روي أنّه قال في قوله عز وجل: ﴿قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ إنهما أجلان: أجل محتوم، وأجل موقوف، فقال له حمران: ما المحتوم؟ قال: (الذي لله فيه المشيئة)، قال حمران: إني لأرجو أن يكون أمر السفياني من الموقوف، فقال [الباقر] الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: ((لا، والله، إنه لمن المحتوم.>.[٢].

ابن منبّه:

روي عن وهب بن منبّه (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: أول ما خلق الله مكانا مظلما، ثم خلق جوهرة، فأضاءت ذلك المكان، ثم نظر إلى الجوهرة نظر الهيبة فصارت ماء، فارتفع بخارها وزبدها، فخلق من البخار السماوات، ومن الزبد الأرضين[٣].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، حمد نفسه؛ فأعظم خلقه[٤].

٢. روي أنّه قال: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، خلق الله السماوات قبل الأرض[٥].

٣. روي أنّه قال: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، خلق الله السماوات قبل الأرض، والظلمة قبل النور، والجنة قبل النار[٦].

٤. روي أنّه قال: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، يعني: الجنة، والنار[٧].

---

(١) الكافي ١/١١٤.

(٢) الغيبة: ٣٠١/ ٥

(٣) تفسير الثعلبي ٤/١٣٣.

(٤) نسبه السيوطي إلى أبي الشيخ.

(٥) ابن جرير ٩/١٤٥.

(٦) ابن جرير ٩/١٤٥.

(٧) تفسير البغوي ٣/١٢٦.

٥. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، كذب العادلون بالله، فهؤلاء أهل الشرك[(١)].

٦. روي أنّه قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ هذا بدء الخلق، خلق آدم من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين[(٢)].

٧. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾، أجل حياتك إلى أن تموت وأجل موتك إلى أن تبعث، فأنت بين أجلين من الله تعالى[(٣)].

٨. روي أنّه قال: ﴿قَضَى أَجَلًا﴾ قضى أجل الدنيا منذ خلقت إلى أن تموت، ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يوم القيامة[(٤)].

٩. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، تشكّون[(٥)].

١٠. روي أنّه قال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، يقول: ما يأتيهم من شيءٍ من كتاب الله إلا أعرضوا عنه[(٦)].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ معناه خلقها.. والظّلمات الكفر.. والنّور: الإيمان[(٧)].

٢. روي أنّه قال: ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ معناه يجعلون له مثلا.. ويشركون به[(٨)].

---

(١) ابن جرير ٩/١٤٥.

(٢) نسبه السيوطي إلى عبد بن حميد.

(٣) ابن جرير ٩/١٥٢.

(٤) عبد الرزاق ١/٢٠٣.

(٥) نسبه السيوطي إلى عبد بن حميد.

(٦) ابن أبي حاتم ٤/١٢٦٣.

(٧) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٣.

(٨) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٣.

٣. روي أنّه قال: ﴿قَضَى أَجَلًا﴾ معناه وقت، وهو الموت[١].

٤. روي أنّه قال: ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ وهو الآخرة.. ويقال قضى أجلا: معناه ما بين أن يخلق إلى أن يموت.. وأجل مسمّى ما بين أن يموت إلى أن يبعث.. ويقال: (أجلا): الدّنيا، وأجل مسمّى عنده: الآخرة[٢].

٥. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ معناه تشكّون[٣].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، الظلمات ظلمة الليل، والنور نور النهار[٤].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، خلق الظلمة قبل النور[٥].

٣. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، هم المشركون[٦].

٤. روي أنّه قال: أمّا ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ فآدم[٧].

٥. روي أنّه قال: بعث الله جبريل إلى الأرض ليأتيه بطائفة منها، فقالت الأرض: إني أعوذ بالله منك أن تنقص مني، فرجع ولم يأخذ، وقال: يا ربّ، إنها عاذت بك، فبعث ميكائيل، فاستعاذت، فرجع، فبعث ملك الموت، فعاذت منه بالله، فقال: وأنا أعوذ بالله أن أخالف أمره، فأخذ من وجه الأرض، وخلط التربة الحمراء والسوداء والبيضاء؛ فلذلك اختلفت ألوان بني آدم، ثم عجنها بالماء العذب والمالح والمر؛ فلذلك اختلفت أخلاقهم، فقال الله عز وجل لملك الموت: رحم جبرئيل وميكائيل الأرض، ولم ترحمها،

---

(١) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٣.

(٢) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٣.

(٣) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٣.

(٤) ابن جرير ٩/١٤٥.

(٥) ابن أبي حاتم ٤/١٢٦٠.

(٦) ابن جرير ٩/١٤٩.

(٧) ابن جرير ٩/١٥٠.

لا جرم أجعل أرواح من أخلق من هذا الطين بيدك[1].

٦. روي أنّه قال: ﴿قَضَى أَجَلًا﴾، أما ﴿قَضَى أَجَلًا﴾ فأجل الموت، ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يوم القيامة[2].

٧. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، تشكّون[3].

الصادق:

روي عن الإمام الصادق (ت ١٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه سئل عن قول الله: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ فقال: المسمى ما سمي لملك الموت في تلك الليلة، وهو الذي قال الله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ وهو الذي سمي لملك الموت في ليلة القدر، والآخر له فيه المشيئة، إن شاء قدمه، وإن شاء أخره[4].

٢. روي أنّه سئل عن قول الله: ﴿قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ فقال: هما أجلان: أجل موقوف يصنع الله ما يشاء، وأجل محتوم[5].

٣. روي أنّه قال: ﴿قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ الأجل الأول هو ما نبذه إلى الملائكة والرسل والأنبياء، والأجل المسمى عنده هو الذي ستره الله عن الخلائق[6].

٤. روي أنّه سئل عن قول الله عز وجل: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ فقال: كذلك هو في كل مكان، قيل: بذاته؟ قال: ويحك، إن الأماكن أقدار، فإذا قلت: في مكان بذاته، لزمك أن تقول: في أقدار، وغير ذلك، ولكن هو بائن من خلقه، محيط بما خلق علما وقدرة وإحاطة وسلطانا وملكا، وليس علمه بما في الأرض بأقل مما في السماء، ولا يبعد منه شيء، والأشياء له سواء، علما وقدرة وسلطانا وملكا

---

(١) تفسير الثعلبي ١٣٤/٤.

(٢) ابن جرير ١٥٣/٩.

(٣) ابن جرير ١٥٤/٩.

(٤) تفسير العيّاشي ٣٥٤/١.

(٥) تفسير العيّاشي ٣٥٤/١.

(٦) تفسير العيّاشي ٣٥٥/١.

وإحاطة[1].

٥. روي أنّه قال: الأجل المقضي: هو المحتوم الذي قضاه الله وحتمه، والمسمى: هو الذي فيه البداء، يقدم ما يشاء، ويؤخر ما يشاء، والمحتوم ليس فيه تقديم ولا تأخير[2].

٦. روي أنّه قال في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ الأجل الذي غير مسمى موقوف، يقدم منه ما يشاء، ويؤخر منه ما يشاء، وأما الأجل المسمى فهو الذي ينزل مما يريد أن يكون من ليلة القدر إلى مثلها من قابل ـ قال ـ وذلك قول الله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[3].

٧. روي أنّه قال: أما الأجل الذي غير مسمى عنده فهو أجل موقوف، يقدم فيه ما يشاء، ويؤخر فيه ما يشاء، وأما الأجل المسمى فهو الذي يسمى في ليلة القدر[4].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: فيها خصومة مشركي العرب وأهل الكتاب، وذلك أن قريشا قالوا للنبي ﷺ: من ربك؟ فقال: (ربي الأحد، الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد)، فقالوا: أنت كذّاب، ما اختصك الله بشيء، وما أنت عليه بأكرم منّا، فأنزل الله عز وجل: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، فحمد نفسه، ودلّ بصنعه على توحيده[5].

٢. روي أنّه قال: ﴿الْحَمْدُ للهِ﴾، فحمد نفسه، ودلّ بصنعه على توحيده[6].

٣. روي أنّه قال: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، لم يخلقها باطلا، خلقها لأمر هو كائن[7].

---

(١) التوحيد: ١٣٢/١٥.

(٢) تفسير القمّي ١/١٩٤.

(٣) تفسير العيّاشي ١/٣٥٤.

(٤) تفسير العيّاشي ١/٣٥٥.

(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥٤٨.

(٦) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥٤٨.

(٧) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥٤٩.

٤. روي أنّه قال: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، يعني: الليل، والنهار[١].

٥. روي أنّه قال: ثم رجع إلى أهل مكة، فقال: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ يعني: يشركون[٢].

٦. روي أنّه قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾، يعني: آدم عليه السلام؛ لأنكم من ذريته[٣].

٧. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ يعني: أجل ابن آدم من يوم ولد إلى أن يموت، ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يعني: البرزخ منذ يوم ولد إلى يوم يموت، إلى يوم القيامة[٤].

٨. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، يعني: تشكّون في البعث، يعني: كفار مكة[٥].

٩. روي أنّه قال: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ أنّه واحد، ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾[٦].

١٠. روي أنّه قال: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ يعني: سرّ أعمالكم، وجهرها، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ يعني: ما تعملون من الخير، والشرّ[٧].

١١. روي أنّه قال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ يعني: انشقاق القمر ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ فلم لا يتفكرون فيها فيعتبروا في توحيد الله!؟[٨].

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنه قال: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، الآلهة التي عبدوها، عدلوها بالله تعالى،

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥٤٩.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥٤٩.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥٤٩.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥٤٩.

(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥٤٩.

(٦) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥٤٩.

(٧) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥٤٩.

(٨) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥٤٩.

وليس لله عدل، ولا ندّ، وليس معه آلهة، ولا اتخذ صاحبة ولا ولدا[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، خلق آدم من طين، ثم خلقنا من آدم حين أخذنا من ظهره، ثم أخذ الأجل والميثاق في أجل واحد مسمى في هذه الحياة الدنيا[2].

٣. روي أنّه قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، خلق آدم من طين، ثم خلقنا من آدم، أخذنا من ظهره، ثم أخذ الأجل والميثاق في أجل واحد مسمى في هذه الحياة الدنيا[3].

٤. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، الشك، ﴿فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ [الحج: ٥٥]، في شكٍّ منه[4].

الكاظم:

روي عن الإمام الكاظم (ت ١٨٣ هـ) أنّه قال: (لكل صلاة وقتان، ووقت يوم الجمعة زوال الشمس) ثم تلا هذه الآية: {الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} قال: يعدلون بين الظلمات والنور، وبين الجور والعدل[5].

الرسّي:

ذكر الإمام القاسم الرسي (ت ٢٤٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[6]:

١. وسألت عن قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، خلقه سبحانه لهم من طين هو: خلقه لأبيهم آدم صلى الله عليه؛ لأن ما كان نسلا منه فمخلوق مما خلق منه، ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾: الأجل المقضي هو: الموت والوفاة، والأجل المسمى عنده هو: أجل يوم الحساب والمجازاة.

---

(١) ابن جرير ٩/١٤٩.

(٢) ابن جرير ٩/١٥٠.

(٣) ابن جرير ٩/١٥٣.

(٤) ابن جرير ٩/١٥٤.

(٥) تفسير العيّاشي ١/٣٥٤.

(٦) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/٣٦٩.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الحمد: هو الثناء عليه بما صنع إلى خلقه من الخير، ألا ترى أن الذم نقيضه في الشاهد، ويحمد المرء بما يصنع من الخير، ويذم على ضده:

أ. فالتحميد: هو تمجيد الرب، والثناء عليه، والشكر له بما أنعم عليهم.

ب. والتسبيح: هو تمجيد الرب وتنزيهه عما قالت الملحدة فيه من الولد وغيره.

ج. والتهليل: هو تمجيد الرب وتنزيهه عما جعلوا له من الشركاء والأضداد، والوصف له بالوحدانية والربوبية.

د. والتكبير: هو تمجيد الرب والوصف له بالعظمة والجلال، وتنزيهه عمّا وصفوه بالعجز والضعف عن أن يكون ينشئ من العظام البالية خلقًا.

٢. ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ سفههم عز وجل بما جعلوا له من الشركاء والأضداد على إقرار منهم أنه خلق السماوات والأرض، ولم يجعلوا له شركاء في خلقهما، وعلى علم منهم أنه تُعَلَّق منافع الأرض بمنافع السماء، مع بعد ما بينهما كيف جعلوا شركاء يشركونهم في العبادة والربوبية!؟.

٣. ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ قال الحسن: الظلمات والنور: الكفر والإيمان، وقال غيره من أهل التأويل: الليل والنهار في الحقيقة ما يكشف عما استتر من الأبصار: أبصار الوجوه، وأبصار القلوب، والظلم ما يستر ويغطي على الأبصار: أبصار الوجوه، وأبصار القلوب، فالظلمة تجعل كل شيء مستورًا عليه، والنور يجعل كل شيء كان مستورًا عليه ظاهرًا باديًا، هذا هو تفسير الظلمة والنور حقيقة.

٤. ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ قيل: يشركون مع ما بيّن لهم ما يدل على وحدانية الرب وربوبيته، أي: جعلوا كل ما يعبدونه دون الله عديلا لله، وأثبتوا المعادلة بينه وبين الله تعالى وليس لله تعالى عديل، ولا نديد، ولا شريك، ولا ولد، ولا صاحبة، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا، وقال الحسن:

(١) تأويلات أهل السنة: ٤/٤.

﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي يكذبون.

٥. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾:

أ. أي: خلق آدم أبا البشر من طين، فأما خلق بني آدم من ماء؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾، أخبر الله تعالى أنه خلق آدم من الطين، وخلق بني آدم ـ سوى عيسى عليه السلام من النطفة، وخلق عيسى عليه السلام لا من الطين ولا من الماء؛ ليعلموا أنه قادر على إنشاء الخلق لا من شيء وأنه لا اختصاص للخلق بشيء، ولا ينكرون ـ أيضًا ـ إنشاء الخلق وإحياءهم وموتهم، وذلك لأنه لا يخلوا إما أن صاروا ترابًا أو ماء، أو لا ذا ولا ذا، فإذا رأوا أنه خلق آدم من الطين، وخلق سائر الحيوان من الماء، وخلق عيسى عليه السلام لا من هذين، كيف أنكروا إنشاء الخلق بعد الموت، وهو لا يخلو من هذه الوجوه التي ذكرنا؛ فيكون دليلا على منكري البعث بعد الموت، على الدهرية في إنشاء الخلق لا من شيء فإنهم ينكرون ذلك ويحيلونه؛ ولهذا وقعوا في القول بقدم العالم، والله الهادي.

ب. ويحتمل قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ أن يراد به في حق جميع بني آدم، وأضاف خلقنا إلى الطين، وكأن الخلق من الماء؛ لما أُبقِيَ في خلقنا من قوة ذلك الطين الذي في آدم وأثره، وإن لم يُره تلك القوة وذلك الأثر، وهذا كما أن الإنسان يرى أنه يأكل، ويشرب، ويغتذي، ويحصل به زيادة قوة في سمعه وبصره، وفي جميع جوارحه، وقد يحيا بها جميع الجوارح، وإن لم ير تلك القوة، فكذلك هذا.

ج. ويحتمل ـ أيضًا ـ على ما روي في القصة أنه يمازج مع النطفة شيئًا من التراب، فيؤمر الملك بأن يأخذ شيئًا من التراب من المكان الذي حكم بأن يدفن فيه، فيخلط بالنطفة، فيصير علقة ومضغة، فإنما نسبهم إلى التراب لهذا.

د. ويحتمل النسبة إلى التراب وإن لم يكونوا من التراب؛ لما أن أصلهم من التراب، وهو آدم.

٦. ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ فالقضاء يتوجه إلى وجوه كلها ترجع إلى معنى انقطاع الشيء وتمامه:

أ. وقد يكون لابتداء فعل وإنشائه؛ كقوله تعالى: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾، ويقال: قضيت هذا الثوب، أي: عملته وأحكمته.

ب. وقد يكون بمعنى الأمر؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ إلا تَعْبُدُوا إلا إِيَّاهُ﴾ أي: أمر ربك؛ لأنه

أمر قاطع حتم.

ج. وقد يكون بمعنى الإعلام؛ قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، أي: أعلمناهم إعلامًا قاطعًا.

د. وقد يكون لبيان الغاية والانتهاء عنه والختم؛ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ أي: ختم ذلك وأتمه.

هـ. وقد يكون غير ما ذكرنا، ثم قوله: ﴿قَضَى أَجَلًا﴾ يحتمل هذا كله سوى الأمر.

٧. ثم قوله: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾:

أ. ﴿قَضَى أَجَلًا﴾ وقيل: هو الموت، ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يوم القيامة، أطلعنا على أحد الأجلين وهو الموت؛ لأنا نرى من يموت ونعاين، ولم يطلعنا على الآخر وهو الساعة والقيامة.

ب. وقيل: ﴿قَضَى أَجَلًا﴾: أجل الدنيا من خلقك إلى أن تموت، ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ ويوم القيامة.

٨. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ أي: تشكون وتكذبون بعد هذا كله.

٩. ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾:

أ. هذا صلة قوله: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ فإذا كان خالقهما لم يَشْرَكْهُ أحد في خلقهما، كان إله من في السماوات وإله من في الأرض لم يَشْرَكْهُ أحد في ألوهيته، ولا في ربوبيته.

ب. ويحتمل قوله: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ أي: إلى الله تدبير، ما في السماوات وما في الأرض، وحفظهما إليه؛ لأنه هو المتفرد بخلق ذلك كله؛ فإليه حفظ ذلك وتدبيره.

١٠. وقوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ اختلف فيه:

أ. قيل: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾: ما تضمرون في القلوب ﴿وَجَهْرَكُمْ﴾: ما تنطقون، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾: من الأفعال التي عملت الجوارح؛ أخبر أنه يعلم ذلك كله؛ ليعلموا أن ذلك كله يحصيه ليحاسبهم على ذلك؛ كقوله: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أو تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾، أخبر أنه يحاسبهم بما أبدوه وما أخفوه، فعلى ذلك الأول قد أفاد أن ذلك كله يحصيه عليهم، ويحاسبهم في ذلك؛ ليكونوا على حذر من ذلك وخوف.

ب. وقيل: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾: ما خلق فيهم من الأسرار، من نحو السمع، والبصر وغيرهما؛ لأن البشر لا يعرفون ماهية هذه الأشياء وكيفيتها، ولا يرون ذلك كما يرون غيرها من الأشياء، ولا يعرفون حقائقها؛ أخبر أنه يعلم ذلك وأنتم لا تعلمون، وقوله عز وجل: ﴿وَجَهْرَكُمْ﴾ أي: الظواهر منكم، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾: من الأفعال والأقوال.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. تأويل قول سيدنا عز وجل: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ أي خلقهما، ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، أي بربهم يشبهون، وهذا من العديل والشبيه والنظير والمثيل، قال الهادي إلى الحق صلوات الله عليه:

ليس له شِبه ولا عديل   جل وعز ربنا الجليل

٢. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ أي ثم قضى أجل الموت وعنده أجل مسمى للبعث والنشور، ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ أي تشكون.

٣. ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ أي وهو الله يعلم سركم وجهركم في السماوات وفي الأرض، ولكن هذا من التقديم والتأخير.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ والظلمات مقدمة على النور ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي يعدلون الأصنام التي عبدوها ويعدلون به إلهاً غيره لم يخلق كخلقه ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ يعني أنا خلقنا آدم وخلق آدم من طين فصار أصل خلقنا من الطين ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ هو الذي كان ينتهي إليه المقتول أو الغريق لو لم يقتل ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ أي تشكون.

٢. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ روينا أن فاتحة التوراة فاتحة الأنعام، وخاتمة

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/١٨٤.

(٢) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/٢٣٥.

التوراة خاتمة هود، والحمد لله ورد على صيغة الخبر ومعناه الأمر أي احمدوا الله عز وجل لأن خلق السماوات والأرض نعم توجب الحمد وجمع السماوات ووحد الأرض لتفخيم السماوات على الأرض والجمع أبلغ في التفخيم من التوحيد كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ [الحجر:٩]، والسماوات مقدمة في الخلق على الأرض.

٣. ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ أي هو المدبر في السماوات والأرض ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ أي ما تخفون وما تظهرون.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الآية قال وهب بن منبه: فاتحة التوراة فاتحة الأنعام إلى قوله: ﴿يَعْدِلُونَ﴾، وخاتمة التوراة خاتمة هود.

٢. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ جاء على صيغة الخبر وفيه معنى الأمر، وذلك أولى من أن يجيء بلفظ الأمر فيقول احْمِدِ الله، لأمرين:

أ. أحدهما: أنه يتضمن تعليم اللفظ والمعنى، وفي الأمر المعنى دون اللفظ.

ب. الثاني: أن البرهان إنما يشهد بمعنى الخبر دون الأمر.

٣. {الَّذِي خَلَقَ السَمَوَاتِ والأرضَ} لأن خلق السموات والأرض نِعَمٌ تستوجب الحمد، لأن الأرض تقل، والسماء تظل، وهي من أوائل نعمه على خلقه، ولذلك استحمد بخلقها وأضاف خلقها إلى نفسه عند حمده، على أن مستحق الحمد هو خالق السموات والأرض، ليكون باستحقاق الحمد منفرداً لانفراده بخلق السموات والأرض.

٤. في جمع السموات وتوحيد الأرض وجهان:

أ. أحدهما: لأن السموات أشرف من الأرض، والجمع أبلغ في التفخيم من الوحيد كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩]

---

(١) تفسير الماوردي: ٢/٩٢.

ب. الثاني: لأن أوامره إلى الأرض تخترق جميع السماوات السبع.

٥. وفي تقديم السموات على الأرض وجهان:

أ. أحدهما: لتقدم خلقها على الأرض.

ب. الثاني: لشرفها فقدمها على ذكر الأرض وإن كانت مخلوقة بعد الأرض.

٦. وهذان الوجهان من اختلاف العلماء أيهما خُلِقَ أولاً.

٧. ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ يعني وخلق، فغاير بين اللفظ ليكون أحسن في النظم، والمراد بالظلمات والنور هنا ثلاثة أوجه:

أ. أحدها: وهو المشهور من قول قتادة، قدم الظلمة على النور لأنه قدم خلق الظلمة على خلق النور، وجمع الظلمات ووحد النور لأن الظلمات أعم من النور.

ب. الثاني: أن الظلمات: الليل، والنور: النهار.

ج. الثالث: أن الظلمات: الكفر، والنور: الإيمان، قاله السدي.

٨. ولأصحاب الخواطر، فيه ثلاثة أوجه أُخَر:

أ. أحدها: أن الظلمات: الأجسام، والنور: الأرواح.

ب. الثاني: أن الظلمات: أعمال الأبدان، والنور: ضمائر القلوب.

ج. الثالث: أن الظلمات: الجهل، والنور: العلم.

٩. ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي يجعلون له مع هذه النَّعَمْ عِدْلاً، يعني مثلاً، وفيه قولان:

أ. أحدهما: أنهم يعدلون به الأصنام التي يعبدونها.

ب. الثاني: أنهم يعدلون به إلهاً غيره لم يُخْلَق مثل خلقه.

١٠. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ في هذين الأجلين أربعة أقاويل:

أ. أحدها: أن الأجل الأول الذي قضاه أجل الحياة إلى الموت، والأجل الثاني المسمى عنده أجل الموت إلى البعث، قاله الحسن، وقتادة.

ب. الثاني: أن الأجل الأول الذي قضاه أجل الدنيا، والأجل الثاني المسمى عنده ابتداء الآخرة، قاله

ابن عباس، ومجاهد.

ج. الثالث: أن الأجل الأول الذي قضاه هو حين أخذ الميثاق على خلقه في ظهر آدم، والأجل الثاني المسمى عنده الحياة في الدنيا، قاله ابن زيد.

د. الرابع: أن الأجل الذي قضاه أجل من مات، والأجل المسمى عنده أجل من يموت بعد، قاله ابن شجرة.

١١. ﴿تَمْتَرُونَ﴾ فيه وجهان:

أ. أحدهما: تشكون، والامتراء: الشك.

ب. الثاني: تختلفون، مأخوذ من المراء وهو الاختلاف.

١٢. {وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ} فيه ثلاثة أقاويل:

أ. أحدها: أن معنى الكلام وهو اله المُدَبِّر في السموات وفي الأرض، ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ أي ما تخفون، وما تعلنون.

ب. الثاني: وهو الله المعبود في السموات، وفي الأرض.

ج. الثالث: أن في الكلام تقديماً وتأخيراً، وتقديره: وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض، لأن في السموات الملائكة، وفي الأرض الإنس والجن، قاله الزجاج.

١٣. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أي ما تعلمون من بعد، ولا يخفى عليه ما كان منكم، ولا ما سيكون، ولا ما أنتم عليه في الحال من سر، وجهر.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. أخبر الله تعالى في هذه الآية أن المستحق للحمد من خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور أي خلقهما لما اشتملا عليه من عجائب الخلق ومتقن الصنع، ثم عجب ممن جعل له شركاء مع ما ترى في السماوات والأرض من الدلالة على أنه الواحد الذي لا شريك له، وقد بينا فيما تقدم وجه دلالة

---

(١) تفسير الطوسي: ٤/٧٧.

ذلك على أنه واحد ليس باثنين.

٢. ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي يجعلون له مثلا يستحق العبادة مأخوذ من قولك: لا أعدل بفلان أحدا، أي لا نظير له عندي ولا أحد يستحق ما يستحقه، قال الكسائي: يقال عدلت الشيء بالشيء أعدله عدولا إذا ساويته، وعدل في الحكم يعدل عدلا، وقال الحسن ومجاهد: معنى يعدلون يشركون.

٣. إنما ابتدأ تعالى هذه السورة بالحمد احتجاجا على مشركي العرب، وعلى من كذب بالبعث والنشور فابتدأ، فقال: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ فذكر أعظم الأشياء المخلوقة، لأن السماء بغير عمد ترونها، والأرض غير مائدة بنا، ثم ذكر الظلمات والنور، وذكر الليل والنهار، وهما مما به قوام الخلق، فأعلم الله تعالى أن هذه خلق له، وأن خالقها لا شيء مثله.

٤. روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: (إن الانعام نزلت جملة، وشيعها سبعون الف ملك حين أنزلت على رسول الله ﷺ فعظموها، وبجلوها، فإن اسم الله تعالى فيها في سبعين موضعا، ولو يعلم الناس ما في قراءتها من الفضل ما تركوها)

٥. معنى قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أي أنشأكم، واخترعكم ﴿مِنْ طِينٍ﴾ ومعناه خلق أباكم ـ الذي هو آدم وأنتم من ذريته، وهو بمنزلة الأصل لنا ـ من طين، فلما كان أصلنا من الطين جاز أن يقول ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾

٦. ﴿ثُمَّ قَضَى﴾ معناه حكم بذلك، والقضاء يكون حكما، ويكون أمرا ويكون الإتمام والإكمال.

٧. ﴿أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ قيل في معنام قولان:

أ. أحدهما: قال أبو علي: كتب للمرء أجلا في الدنيا، وحكم بأنه أجل لنا، وهو الأجل الذي يحيى فيه أهل الدنيا إلى أن يموتوا، وهو أوقات حياتهم، لأن أجل الحياة، هو وقت الحياة، وأجل الموت هو وقت الموت ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يعني آجالكم في الآخرة، وذلك أجل دائم ممدود لا آخر له، وإنما قال له: ﴿مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾، لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، في السماء وهو الموضع الذي لا يملك فيه الحكم على الخلق سواه، وقال الزجاج: أحد الأجلين أجل الحياة، وهو الوقت الذي تحدث فيه الحياة، ويحيون فيه ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يعني أمر الساعة والبعث، وبه قال الحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك.

ب. وقال بعضهم: ﴿قَضَى أَجَلًا﴾ يعني أجل من مضى من الخلق ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ أجل الباقين.

ج. والذي نقوله: أن الأجل هو الوقت الذي تحدث فيه الحياة أو الموت ولا يجوز أن يكون المقدر أجلا، كما لا يجوز أن يكون ملكا، فإن سمي ـ ما يعلم الله تعالى أنه لو لم يقتل فيه لعاش إليه ـ أجلا، كان ذلك مجازا، لأن الحي لا يعيش إليه، ولا يمتنع أن يعلم الله من حال المقتول أنه لو لم يقتله القاتل لعاش إلى وقت آخر، وكذلك ما روي: أن الصدقة وصلة الرحم تزيد في الأجل، وما روي في قصة قوم يونس وأن الله صرف عنهم العذاب، وزاد في آجالهم، لا يمنع منه مانع، وإنما منع من التسمية لما قلناه.

٨. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ خطاب للكفار الذين يشكُّون في البعث والنشور، احتج الله بهذه الآية على الذين عدلوا به غيره، فأعلمهم أنه خلقهم من طين، ونقلهم من حال إلى حال، وقضى عليهم الموت، فهم يشاهدون ذلك، ويقرون بأنه لا محيص منه، ثم عجبهم من امترائهم أي من شكهم في أنه الواحد القهار على ما يشاء، وفي أنه لم يعبث بخلقهم وابقائهم واماتتهم بعد ذلك، وأنه لا بد من جزاء المسيء والمحسن، ومثله قوله: ﴿يَا أيها النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أن الذي قدر على ذلك قادر على أن يبعثكم بعد أن تكونوا ترابا.

٩. ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ رفع على الابتداء وتم الكلام عند قوله: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾

١٠. ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ يحتمل معنيين:

أ. أحدهما: قال الزجاج والبلخي، وغيرهما: أنه المعبود في السماوات والأرض، والمتفرد بالتدبير في السماوات وفي الأرض، لأن حلوله فيهما أو شيء منهما لا يجوز عليه، ولا يجوز أن تقول هو زيد في البيت، والدار، وأنت تريد أنه يدبرهما إلا أن يكون في الكلام ما يدل على أن المراد به التدبير كقول القائل: فلان الخليفة في الشرق والغرب، لأن المعنى في ذلك أنه المدبر فيهما، ويجوز أن يكون خبرا بعد خبر، كأنه قال أنه هو الله وهو في السماوات وفي الأرض، ومثل ذلك قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾

ب. الثاني: قال أبو علي: أن قوله: ﴿وَهُوَ اللهُ﴾ قد تم الكلام، وقوله: ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ يكون متعلقا بقوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ في السماوات وفي الأرض لأن الخلق إما أن يكونوا ملائكة فهم في السماء أو البشر والجن، فهم في الأرض، فهو تعالى عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه خافية، ويقوّيه

قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أي يعلم جميع ما تعملون من الخير والشر فيجازيكم على حسب أعمالكم، ولا يخفى عليه شيء منها، وفي ذلك غاية الزجر والتهديد.

١١. وفي الآية دلالة على فساد قول من قال إنه تعالى في مكان دون مكان تعالى الله عن ذلك.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الخلق: التقدير على حِكْمة وصواب، واختص القديم سبحانه بكونه خالقًا على الإطلاق؛ لأن جميع أفعاله حكمة، ليس فيها عبث وقبيح، ولأنه جاء على مقدار الحاجة من غير زيادة، ولا نقصان، وقيل: هو اختراع بلا آلة، ولا علاج، وهذا مما يختص به القديم سبحانه.

ب. السماوات والأرض معروفات، والعرب تسمي كل عالٍ سماء، وكل سافلٍ أرضًا، يقال: سماء البيت، ويقال لقوائم الفرس وحوافره: أرض، قال الشاعر: (لم يقلب أرضها البيطار)

ج. الجعل: يستعمل بمعنى الخلق، وبمعنى التصيير، وبمعنى التسمية، وبمعنى الحكم، عن أبي مسلم.

د. النور: خلاف الظلمة، نار يَنُور نورًا، فهو نيِّر، نحو: مات يموت موتًا فهو مَيِّت.

هـ. العِدْل بكسر العين: المِثْل، وبفتحها العَدْل: خلاف الجور، عدلت عنه: أعرضت، وعدلت به: سويت به غيره، يقال: عدلت به غيره عدولاً، وعدلت في الحكم عدلاً للفرق بينهما، عن الكسائي، وعدلت عن الطريق: ملت عدولا، وعدلت الشيء فاعتدل، نحو: قومته فاستقام، والعديل: الذي يعادلك في الوزن والقدر.

و. القضاء: الحكم، والقضاء يستعمل بمعنى الخلق، كقوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾: قيل: خَلَقَ، وقيل: أحكم، وقضى بمعنى الإلزام كقوله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ إلا تَعْبُدُوا إلا إِيَّاهُ﴾ وبمعنى الإعلام كقوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وبمعنى الحكم يقال: قضى القاضي بكذا؛ أي حكم.

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/٤٨٠.

ز. الأجل: مدة الشيء وقيل: الأجل الوقت المضروب لانقضاء الأمد، وأجل الإنسان: وقت انقضاء عمره، وأجل الدَّيْن: مَحِلُّه، وهو وقت انقضاء التأخير، وأجل الآخرة: هو الوقت لانقضاء ما قبلها، وأصل الأجل: التأخير، أجَّله تأجيلاً، وعجله تعجيلاً، والآجل: نقيض العاجل.

ح. المرية والامتراء: الشك، وأصله المَرْيُ، وهو أن يمسح ضرع الناقة لاستخراج اللبن، مرى الناقة يَمْرِيها مَرْيًا، ومنه: ماراه مماراة أي جادله، ومراء إذا استخرج ما عنده بالمناظرة، وتماروا تمارِيا، وامترى امتراء: إذا استخرج الشُّبَهَ المشكلة من غير حل، فصار الامتراء: الشك الذي يستخرج الشُّبَه الموجبة له.

ط. السر: إخفاء الشيء في النفس، ونقيضه الجهر: إظهار المعنى الذي في النفس.

ي. الكسب: الفعل لاجتلاب نفع أو دفع ضرر.

٢. مما روي في سبب نزول الآية الكريمة: قال المشركون: يا محمد، من ربك؟ فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، فكذبوه، فأنزل الله تعالى هذه السورة، بدءًا بالحمد له، وبذكر الأدلة على توحيده من صنعه.

٣. ﴿الْحَمْدُ﴾ يعني حسن المحامد كلها ﴿لِلَّهِ﴾ والحمد يكون ابتداء فيحمد بصفاته العلى، وقد يكون عقيب نعمة، فيكون شكرًا، ولما كان جميع النعم أصولها وفروعها منه تعالى، وله الصفات العُلا كان جميع المحامد له، وجميع الشكر له.

٤. سؤال وإشكال: لم افتتح سورًا بالحمد؟ والجواب:

أ. لأن في كل واحد منها في موضعه فائدة لا ينوب غيره عنه.

ب. وقيل: ذكرها هنا لما احتج على الَّذِينَ كفروا بربهم يعدلون.

٥. ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ يعني اخترعها في ستة أيام، قيل: خلق السماوات في يومين: الأحد والاثنين، والأرض في يومين: الثلاثاء والأربعاء، وما بينهما في يومين: الخميس والجمعة.

٦. ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾:

أ. قيل: الليل والنهار لتسكنوا فيه، ولتبتغوا من فضله عن الواقدي والسدي وجماعة.

ب. وقيل: الجنة والنار، عن قتادة.

ج. وقيل: أراد سائر الأنوار والظلم.

٧. سؤال وإشكال: لم جمع الظلمات ووحد النور؟ والجواب: لأن النور مصدر، فيصح أن يراد به الجمع، وقدم الظلمات في الذكر؛ لأنه خلق السماء قبل الأرض، وخلق الظلمة قبل النور، عن قتادة.

٨. ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جحدوا الحق:

أ. قيل: هم عَبَدَةُ الأوثان، عن الحسن وقتادة والسدي وابن زيد.

ب. وقيل: جميع الكفار، وهو الظاهر.

٩. ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾:

أ. يسوون به غيره، بأن جعلوا له أندادًا، عن قطرب وغيره.

ب. وقيل: الباء بمعنى ﴿عَنْ﴾؛ أي يعدلون عن ربهم، يعني يميلون وينحرفون، عن النضر بن شميل.

١٠. وهذا تعجيب من الله لخلقه من فعلهم، ووجه التعجيب:

أ. أنهم مع اعترافهم أن أصول النعم منه، وأنه الخالق الرازق عبدوا غيره، ونقضوا ما اعترفوا به.

ب. وقيل: لأنهم عبدوا ما لا ينفع ولا يضر، وتركوا عبادة من ينفع ويضر.

ج. وقيل: لأنهم مع كثرة البراهين والدلائل وظهور الحجج تركوا ذلك.

١١. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾:

أ. يعني آدم خلقه من طين وهم أولاده، عن الحسن وقتادة والسدي والضحاك وابن زيد.

ب. وقيل: إن أجزاء الطين باقية فيه، وإنما تختلف عليه الأعراض، فإذا زايلتها الأعراض عادت طينًا كما كان.

ج. وعن السدي: بعث الله جبريل، فأخذ التراب من وجه الأرض، فخلط الحمراء والسوداء والبيضاء وعجنها بماء العذب والملح، فلذلك اختلف ألوان بني آدم وأخلاقهم، وعن النبي ﷺ: أنه خلق آدم من تراب وجعله طينًا، ثم تركه حتى كان حمأ مسنونًا، ثم خلقه وصوره حتى صار صلصالاً، ثم نفخ فيه الروح.

١٢. سؤال وإشكال: كيف يخلق من الطين؟ والجواب: بأن يحدث فيه أعراضًا فيصير مؤلفًا لحمًا

ودمًا وعظمًا، ثم يجعل فيه الحواس، وينفخ فيه الروح فيصير بشرًا سويا، وأجزاء الطين فيه باقية بحالها كما هي، وإنما حصلت هناك زيادة وأعراض، وقوله: ﴿مِنْ طِينٍ﴾ توسع؛ أي جعل تلك الأجزاء إنسانًا، لا أنه حصل منه شيء آخر.

١٣. ﴿ثُمَّ قَضَى﴾) أي: كتب وقدر ﴿أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾:

أ. قيل: أجل الحياة إلى الموت، وأجل الموت إلى البعث، عن الحسن وقتادة والضحاك.

ب. وقيل: أجل انقضاء الدنيا، وأجل مسمى عنده لابتداء الآخرة، عن ابن عباس ومجاهد والحسن بخلاف.

ج. وقيل: أجل الدنيا وأجل الآخرة، عن سعيد بن جبير ومجاهد.

د. وقيل: قضى أجلاً يعني النوم، وأجل مسمى الموت، عن عطية عن ابن عباس.

هـ. وقيل: الأجل الأول مدة الأعمار لا يجاوزها أحد، والأجل الثاني لا يعلمها أحد.

و. وقيل: أجلاً؛ أي آجال مَنْ مضى منْ الخلق، وأجل مسمى: آجال الباقين، عن أبي مسلم.

ز. وقيل: أجلاً؛ أي وقتًا مكتوبًا، وأجل مسمى؛ أي: تسمية مكتوبة في موضع لا يملك الحكمَ فيه غيرهُ.

١٤. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ أي مع هذه الدلائل تشكُّون:

أ. قيل: في التوحيد.

ب. وقيل: في البعث، وهو خطاب للذين كفروا بربهم، وهو تعجيب حيث أنكروا البعث مع قدرته على خلق الإنسان، وتنقّله من حال إلى حال، فكيف تنكر قدرته على البعث؟

١٥. ثم عطف على ما تقدم بذكر صفاته وتكذيبهم والوعيد لهم، فقال سبحانه: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ قيل في تقدير الآية وجوه ثلاثة:

أ. الأول: أنه الله مدبر السماوات والأرض، وعالم سركم وجهركم، كما يقال: فلان في أمر كذا؛ أي يدبره.

ب. الثاني: وهو الله كلام تام؛ أي يحق له العبادة، ثم ابتدأ فقال: ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾

ج. الثالث: على التقديم والتأخير، وهو الله يعلم سركم وجهركم.

١٦. ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾:

أ. قيل: مدبرهما.

ب. وقيل: حافظهما.

ج. وقيل: القادر عليهما، العالم بهما.

١٧. ولا يجوز أن يقال: ذاته فيهما؛ لأنه ليس بجسم، ولا يجوز أن يكون في موضع بالتمكن، وليس بِعَرَضٍ، فلا يجوز أن يكون في محل بالحلول، يبين ذلك أن الآية وردت تمدحًا، ولا تَمَدُّحَ بكونه في السماء والأرض، فالتمدح بكونه إلهًا فيهما.

١٨. ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ يعني الخفي المكتوم والظاهر المكشوف ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾:

أ. أي يعلم ما يعملون، وما يستحق عليه من الجزاء.

ب. وقيل: يعلم نياتكم وأقوالكم وأعمالكم، والكسب العمل، عن أبي مسلم.

١٩. تدل الآية الكريمة على:

أ. في الآية تنبيه على وجوب حمده وكيف يحمدونه، وعلى ماذا يحمدونه.

ب. عظيم قدرته ونعمته بخلق السماوات والأرض وما بينهما، ففي السماء خلقه ثم رفعه ثم إمساكه، ثم ترتيبه، ثم إنزال الخيرات منه، فإسكان الملائكة إياه، وتسيير الكواكب والأفلاك، وأما في الأرض فخلقه ثم بَسْطُه ثم إمساكه، ثم ما أودع فيه من المنافع، ثم ما أخرج منه من النبات والثمار، ثم ما في الليل والنهار من تعاقب الظلمة والضياء، والزيادة والنقصان، والسكون وطلب المعاش، ثم ما يصح به من حساب الشهور والسنين، وما يتعلق به من منافع الدين والدنيا، ثم خلق ما بينهما من الحرث والنسل والحيوان، وضروب المخلوقات، فأنعم بجميع ذلك نعمة عامة على خلقه، وفيه عبرة لمن تأمل، وكذلك خلقه الناس من طين، وتنقله من حال إلى حال يدل على نعمته وقدرته وحكمته.

ج. وفيه تنبيه على بطلان أصناف الكفر:

• لأن قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ يبطل قول من يقول بقدم العالم، وقول من يقول: إن التراكيب حصلت بالطبائع، وقول المنجمين: إنها من أثر الكواكب؛ لأنه تعالى نبه على بطلان جميع ذلك بما

دل عليه فإنه لا يخلو من الحوادث، فيكون محدثًا، ولا بد من محدث، ومحدثه هو، فيبطل أقوال جميع الملحدين..

• وقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ تنبيه على فساد قول الثنوية، والقائلين بالنور والظلمة؛ لأنها أجسام بمنزلة غيرها، وعلى فساد قول المشَبِّهة؛ إذ لو كان تعالى نورا لكان محدثًا مصنوعًا، تعالى الله عن ذلك.

• وبقوله: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ نبه على بطلان ما يتهوس فيه الفلاسفة والطبائعيون والمنجمون في تصور الجنين على كثرة مقالاتهم فيه.

د. أن الجواهر متماثلة لانحلال بعضها إلى بعض مما تحله الأعراض.

هـ. كمال قدرته؛ إذ اخترع فيه الأجزاء من عدم إلى وجود، ثم قلبها من حال إلى حال.

و. أن لكل حي أجلاً، واختلفوا: فقيل: الأجل واحد، وهو وقت موته، وقيل: أجلان: أحدهما مقدر، والآخر مسمى، واختلفوا في المقتول لو لم يقتل؟ فكان مشايخنا تقول: كان يجوز أن يعيش ويموت، فإذا قُتل علمنا أن المعلوم كان كذلك، فلا يجوز خلافه، وكانت البغدادية تقول: كان لا بد أن يعيش، وقال أبو الهذيل: كان لابد أن يموت، وإذا علمنا أن الأجل هو الوقت، والإنسان إنما يموت في وقت واحد علمنا أن الأجل واحد، وإذا علمنا أنه تعالى قادر على تبقية مَنْ قُتِل أو لم يقتل، أو على إماتته. فلا معنى لإنكار من أنكر ذلك، إذا قُتِل علمنا أن المعلوم كان كذلك، فخلاف المعلوم لا يوجد.

ز. أن الكفر والعدول عن الحق والامتراء في الدين فِعْلُ العبد، وليس بخلق الله تعالى؛ إذ لو كان خَلْقًا له لما توجه الذم عليهم، ولما صح إضافته إليهم إلا مجازًا؛ ولأنه تعالى لا يخلق القبيح، ثم يذمه.

ح. يدل قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ أنه عالم لذاته؛ لأن العالم بعلم لا يصح ذلك فيه.

ط. تحذير العبد من المعصية، سواء كان سرًّا أو جهرًا.

٢٠. مسائل لغوية ونحوية:

أ. الألف واللام في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ للجنس، وقد تكون للجنس والعهد، فالأول: كقولهم: الناس ولد آدم، والثاني: الرجل الذي كلمته، وهو رفع على الابتداء.

ب. سؤال وإشكال: لم جاء قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على صيغة الخبر، والمراد به الأمر؟ والجواب:

فيه أقوال:

• الأول: لتعليم المعنى واللفظ، ولو قال احمدوا لم يجمع الأمرين.

• الثاني: أنه أبلغ أن يبين؛ لأنه يستحق الحمد على هذه النعم، عمل بها العامل، أو لم يعمل.

• الثالث: لأن تضمن الحجاج بصيغة الخبر أولى به؛ لأن البرهان يشهد بمعنى الخبر، ﴿وَأَجَلٍ﴾ رفع على الابتداء.

ج. في العامل في قوله: ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ قولان:

• قيل: ما دل عليه اسم الله على أنه وقع موقع قولك: المدبر، عن الزجاج.

• وقيل: على الحذف بتقدير: وهو الله مدبر في السماوات.

الطَبَرِسي:

ذكر الفضل الطَبَرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. العدل: خلاف الجور، وعدلت به غيره، أي: سويته به، وعدلت عنه: أي أعرضت، وعدلت الشيء فاعتدل أي: قومته فاستقام.

ب. الأجل: الوقت المضروب لانقضاء الأمد، فأجل الإنسان: وقت انقضاء عمره، وأجل الدين محله: وهو وقت انقضاء التأخير، وأصله التأخير يقال أجله تأجيلا، وعجله تعجيلا، والآجل: نقيض العاجل.

ج. الامتراء: الشك، وأصله من مرأت الناقة: إذا مسحت ضرعها لاستخراج اللبن، ومنه ماراه يماريه مراء ومماراة: إذا استخرج ما عنده بالمناظرة فالامتراء: استخراج الشبهة المشكلة من غير حل.

٢. لما ختم الله سورة المائدة بآية ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ افتتح سورة الأنعام، بما يدل على كمال قدرته من خلق السماوات والأرض، وغيره.

٣. بدأ الله تعالى هذه السورة:

---

(١) تفسير الطبرسي: ٤/٤.

أ. بالحمد لنفسه إعلاما بأنه المستحق لجميع المحامد، لأن أصول النعم وفروعها منه تعالى، ولأن له الصفات العلى، فقال: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ يعني: اخترعهما بما اشتملا عليه من عجائب الصنعة، وبدائع الحكمة.

ب. وقيل: إنه في لفظ الخبر، ومعناه الأمر، أي: احمدوا الله، وإنما جاء على صيغة الخبر، وإن كان فيه معنى الأمر، لأنه أبلغ في البيان من حيث إنه يجمع الأمرين، وقد ذكرنا من معنى الحمد لله وتفسيره في الفاتحة، ما فيه كفاية.

٤. ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾:

أ. يعني: الليل والنهار، عن السدي، وجماعة من المفسرين.

ب. وقيل: الجنة والنار، عن قتادة.

٥. وإنما قدم ذكر الظلمات، لأنه خلق الظلمة قبل النور، وكذلك خلق السماوات قبل الأرض.

٦. ثم عجب سبحانه، ممن ﴿جَعَلَ﴾ له شريكا مع ما يرى من الآيات الدالة على وحدانيته، فقال: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: جحدوا الحق، ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾:

أ. أي: يسوون به غيره، بأن جعلوا له أندادا، مأخوذ من قولهم: ما أعدل بفلان أحدا أي: لا نظير له عندي.

ب. وقيل: معنى يعدلون: يشركون به غيره، عن الحسن، ومجاهد.

٧. ودخول ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ دليل على معنى لطيف، وهو أنه سبحانه أنكر على الكفار العدل به، وعجب المؤمنين من ذلك، ومثله في المعنى قوله فيما بعد ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ والوجه في التعجيب أن هؤلاء الكفار، مع اعترافهم بأن أصول النعم منه، وأنه هو الخالق والرازق، عبدوا غيره، ونقضوا ما اعترفوا به، وأيضا فإنهم عبدوا ما لا ينفع ولا يضر من الحجارة والموات.

٨. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ يعني به آدم، والمعنى أنشأ أباكم، واخترعه من طين، وأنتم من ذريته، فلما كان آدم أصلنا، ونحن من نسله، جاز أن يقول لنا ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾

٩. ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ أي: كتب وقدر أجلا، والقضاء يكون بمعنى الحكم، وبمعنى الأمر، وبمعنى الخلق، وبمعنى الإتمام والإكمال.

١٠. ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ قيل فيه أقوال:

أ. أحدها: إنه يعني بالأجلين: أجل الحياة إلى الموت، وأجل الموت إلى البعث وقيام الساعة، عن الحسن، وسعيد بن المسيب، وقتادة والضحاك، واختاره الزجاج، وروى أيضا عطاء، عن ابن عباس قال: قضى أجلا من مولده إلى مماته، وأجل مسمى عنده من المهات إلى البعث، لا يعلم ميقاته أحد سواه، فإذا كان الرجل صالحا، واصلا لرحمه، زاد الله له في أجل الحياة، ونقص من أجل المهات إلى البعث، وإذا كان غير صالح، ولا واصل، نقصه الله من أجل الحياة، وزاد في أجل المبعث، قال: وذلك قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إلا فِي كِتَابٍ﴾

ب. ثانيها: إنه الأجل الذي يحيا به أهل الدنيا إلى أن يموتوا، وأجل مسمى عنده: يعني الآخرة، لأنه أجل دائم ممدود، لا آخر له، وإنما قال: ﴿مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، في السماء، وهو الموضع الذي لا يملك فيه الحكم على الخلق سواه، عن الجبائي، وهو قول سعيد بن جبير، ومجاهد.

ج. ثالثها: إن ﴿أَجَلًا﴾ يعني به: أجل من مضى من الخلق، و(أجل مسمى عنده) يعني به: آجال الباقين، عن أبي مسلم.

د. رابعها: إن قوله: ﴿قَضَى أَجَلًا﴾ عنى به النوم، يقبض الروح فيه، ثم يرجع إلى صاحبه عند اليقظة، ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾: هو أجل موت الإنسان، وهو المروي عن ابن عباس، ويؤيده قوله: ﴿وَيُرْسِلُ الأخرى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾

١١. الأصل في الأجل هو الوقت، فأجل الحياة هو الوقت الذي يكون فيه الحياة، وأجل الموت، أو القتل هو الوقت الذي يحدث فيه الموت أو القتل، وما يعلم الله تعالى أن المكلف يعيش إليه لو لم يقتل لا يسمى أجلا حقيقة، ويجوز أن يسمى ذلك مجازا، وما جاء في الأخبار من أن صلة الرحم تزيد في العمر، والصدقة تزيد في الأجل، وأن الله تعالى زاد في أجل قوم يونس، وما أشبه ذلك، فلا مانع من ذلك.

١٢. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ خطاب للكفار الذين شكوا في البعث والنشور، واحتجاج عليهم، بأنه سبحانه خلقهم ونقلهم من حال إلى حال، وقضى عليهم الموت، وهم يشاهدون ذلك، ويقرون بأنه لا محيص منه، ثم بعد هذا يشكون ويكذبون بالبعث، ومن قدر على ابتداء الخلق، فلا ينبغي أن يشك في أنه يصح منه إعادتهم، وبعثهم.

١٣. ثم عطف سبحانه على ما تقدم فقال: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ فيه وجوه على ما نذكره في الإعراب:

أ. فعلى التقدير الأول يكون معناه: الله يعلم في السماوات وفي الأرض سركم وجهركم، ويكون الخطاب لجميع الخلق، لأن الخلق إما أن يكونوا ملائكة فهم في السماء، أو بشرا، أو جنا، فهم في الأرض، فهو سبحانه عالم بجميع أسرارهم، وأحوالهم، ومتصرفاتهم، لا يخفى عليه منها شيء،ويقويه قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أي: يعلم جميع ما تعملونه من الخير والشر، فيجازيكم على حسب أعمالكم وعلى التقدير

ب. الثاني: يكون معناه إن المعبود في السماوات وفي الأرض، أو المنفرد بالتدبير في السماوات وفي الأرض، يعلم سركم وجهركم، فلا تخفى عليه منكم خافية، ويكون الخطاب لبني آدم، وإن جعلت اسم الله علما على هذا التقدير، ثم علقت به قوله: ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ لم يجز، وإن علقته بمحذوف، يكون خبر ﴿اللهُ﴾، أو حالا عنه، أوهم بأن يكون الباري سبحانه في محل تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

ج. وقال أبو بكر السراج: إن ﴿اللهُ﴾ وإن كان اسما علما، ففيه معنى الثناء والتعظيم الذي يقرب بها من الفعل، فيجوز أن يوصل لذلك بالمحل، وتأويله: وهو المعظم، أو نحو ذا في السماوات وفي الأرض، ثم قال: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ ومثل ذلك قوله سبحانه ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ قال الزجاج: فلو قلت: هو زيد في البيت والدار، لم يجز إلا أن يكون في الكلام دليل على أن زيدا يدبر أمر البيت والدار، فيكون المعنى: هو المدبر في البيت والدار،ولو قلت: هو المعتضد والخليفة في الشرق والغرب، أو قلت: هو المعتضد في الشرق والغرب جاز، وعلى مقتضى ما قاله أبو بكر والزجاج يكون في متعلقة بما دل عليه اسم الله، ويكون ﴿هُوَ اللهُ﴾ مبتدأ وخبرا، والمعنى: وهو المنفرد بالإلهية في السماوات وفي الأرض لا إله فيهما غيره، ولا مدبر لهما سواه، وإن جعلت ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ خبرا بعد خبر، فيكون التقدير: وهو الله، وهو في السماوات وفي الأرض، يعني أنه في كل مكان، فلا يكون إلى مكان أقرب منه إلى مكان، ثم أخبر سبحانه عن هذا المعنى مبينا لذلك، مؤكدا له، بقوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ أي الخفي المكتوم والظاهر المكشوف منكم، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾: والمعنى يعلم نياتكم وأحوالكم وأعمالكم.

١٤. وهذا الترتيب الذي ذكرته في معاني هذه الآية التي استنبطتها من وجوه الإعراب مما لم أسبق

إليه، وهو في استقامة فصوله، ومطابقة أصول الدين كما تراه، لا غبار عليه، وفيه دلالة على فساد قول من يقول بأن الله تعالى في مكان دون مكان، تعالى عن ذلك وتقدس.

١٥. وفي قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ دلالة على أنه عالم لنفسه، لأن من كان عالما بعلم، لا يصح ذلك منه.

١٦. (هو) الأشبه أن يكون ضمير القصة والحديث، وتقديره الأمر، (الله يعلم في السماوات وفي الأرض سركم وجهركم) فالله: مبتدأ، ويعلم: خبره، و﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾: في موضع النصب بيعلم و﴿سِرَّكُمْ﴾: مفعوله أيضا، ولا يكون الظرف الذي هو الجار والمجرور منصوب الموضع بالمصدر، وإن جعلنا الظرف متعلقا باسم الله جاز في قياس قول من قال إن أصل الله الإله فيكون المعنى: هو المعبود في السماوات وفي الأرض يعلم، وتقديره الأمر المعبود في السماوات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم، ومن جعل اسم الله بمنزلة أسماء الأعلام، فلا يجوز أن يتعلق الظرف به، إلا أن يقدر فيه ضربا من معنى الفعل ويجوز أن يكون ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿وَاللهُ﴾: خبره، والعامل في قوله: ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ اسم الله، على ما قلناه، ويجوز أن يكون خبرا بعد خبر.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ قال كعب: فاتحة التوراة فاتحة الأنعام، وخاتمتها خاتمة هود؛ وإنما ذكر السّماوات والأرض، لأنّهما من أعظم المخلوقات، والمراد (بالجعل): الخلق، وقيل: إنّ (جعل) هاهنا: صلة؛ والمعنى: والظّلمات.

٢. في المراد بالظّلمات والنّور ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: الكفر والإيمان، قاله الحسن.

ب. الثاني: الليل والنّهار، قاله السّدّيّ.

ج. الثالث: جميع الظّلمات والأنوار، قال قتادة: خلق السّماوات قبل الأرض، والظّلمات قبل النّور،

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٩/٢.

والجنّة قبل النّار.

٣. ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: المشركين بعد هذا البيان ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، أي: يجعلون له عديلا، فيعبدون الحجارة الموات، مع إقرارهم بأنه الخالق لما وصف، يقال: عدلت هذا بهذا: إذا ساويته به، قال أبو عبيدة: هو مقدّم ومؤخّر، تقديره: يعدلون بربّهم، وقال النّصر بن شميل: الباء: بمعنى (عن)

٤. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ يعني: آدم، وذلك أنّه لما شكّ المشركون في البعث، وقالوا: من يحيي هذه العظام؟ أعلمهم أنّه خلقهم من طين، فهو قادر على إعادة خلقهم.

٥. ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ فيه ستّة أقوال:

أ. أحدها: أنّ الأجل الأول: أجل الحياة إلى الموت والأجل الثّاني: أجل الموت إلى البعث، روي عن ابن عبّاس، والحسن، وابن المسيّب، وقتادة، والضّحّاك، ومقاتل.

ب. الثّاني: أنّ الأجل الأول: النّوم الذي تقبض فيه الرّوح، ثمّ ترجع في حال اليقظة؛ والأجل المسمّى عنده: أجل موت الإنسان، رواه العوفيّ عن ابن عبّاس.

ج. الثالث: أنّ الأجل الأول: أجل الآخرة متى يأتي، والأجل الثّاني: أجل الدّنيا، قاله مجاهد في رواية.

د. الرابع: أنّ الأول: خلق الأشياء في ستّة أيام، والثاني: ما كان بعد ذلك إلى يوم القيامة، قاله عطاء الخراسانيّ.

هـ. الخامس: أنّ الأول: قضاه حين أخذ الميثاق على خلقه، والثّاني: الحياة في الدنيا، قاله ابن زيد، كأنّه يشير إلى أجل الذّرّية حين أحياهم وخاطبهم.

و. السادس: أنّ الأول: أجل من قد مات من قبل، والثاني: أجل من يموت من بعد، ذكره الماورديّ.

٦. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ﴾ أي بعد هذا البيان ﴿تَمْتَرُونَ﴾ وفيه قولان:

أ. أحدهما: تشكّون قاله قتادة، والسّدّيّ، وفيما شكوا فيه قولان:

- أحدهما: الوحدانيّة.
- الثاني: البعث.

ب. الثاني: يختلفون: مأخوذ من المراء، ذكره الماورديّ.

٧. ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ فيه أربعة أقوال:

أ. أحدها: هو المعبود في السّماوات وفي الأرض، قاله ابن الأنباري.

ب. الثاني: وهو المنفرد بالتدبير في السّماوات وفي الأرض، قاله الزّجّاج.

ج. الثالث: وهو الله في السّماوات، ويعلم سرّكم وجهركم في الأرض، قاله ابن جرير.

د. الرابع: أنّه مقدّم ومؤخّر، والمعنى: وهو الله يعلم سرّكم وجهركم في السّماوات والأرض، ذكره بعض المفسّرين.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. الكلام المستقصى في قوله: ﴿الْحَمْدُ للهِّ﴾ قد سبق في تفسير سورة الفاتحة، ولا بأس بأن نعيد بعض تلك الفوائد.

٢. المدح أعم من الحمد، والحمد أعم من الشكر:

أ. أما بيان أن المدح أعم من الحمد، فلأن المدح يحصل للعاقل ولغير العاقل، ألا ترى أنه كما يحسن مدح الرجل العاقل على أنواع فضائله، فكذلك قد يمدح اللؤلؤ لحسن شكله ولطافة خلقته، ويمدح الياقوت على نهاية صفائه وصقالته! فيقال: ما أحسنه وما أصفاه، وأما الحمد: فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار على ما يصدر منه من الإنعام والإحسان، فثبت أن المدح أعم من الحمد.

ب. وأما بيان أن الحمد أعم من الشكر، فلأن الحمد عبارة عن تعظيم الفاعل لأجل ما صدر عنه من الإنعام سواء كان ذلك الإنعام واصلا إليك أو إلى غيرك، وأما الشكر فهو عبارة عن تعظيمه لأجل إنعام وصل إليك وحصل عندك، فثبت بما ذكرنا أن المدح أعم من الحمد، وهو أعم من الشكر.

٣. إنما لم يقل المدح لله لأنا بينا أن المدح كما يحصل للفاعل المختار، فقد يحصل لغيره، أما الحمد فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار، فكان قوله: ﴿الْحَمْدُ للهِّ﴾ تصريحا بأن المؤثر في وجود هذا العالم فاعل

---

(١) التفسير الكبير: ٤٧٢/١٢.

مختار خلقه بالقدرة والمشيئة وليس علة موجبة له إيجاب العلة لمعلولها، ولا شك أن هذه الفائدة عظيمة في الدين.

٤. إنما لم يقل الشكر لله، لأنا بينا أن الشكر عبارة عن تعظيمه بسبب انعام صدر منه ووصل إليك، وهذا مشعر بأن العبد إذا ذكر تعظيمه بسبب ما وصل إليه من النعمة فحينئذ يكون المطلوب الأصلي به وصول النعمة إليه وهذه درجة حقيرة، فأما إذا قال الحمد لله، فهذا يدل على أن العبد حمده لأجل كونه مستحقا للحمد لا لخصوص أنه تعالى أوصل النعمة إليه، فيكون الإخلاص أكمل، واستغراق القلب في مشاهدة نور الحق أتم، وانقطاعه عما سوى الحق أقوى وأثبت.

٥. الحمد: لفظ مفرد محلى بالألف واللام فيفيد أصل الماهية، فقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يفيد أن هذه الماهية لله، وذلك يمنع من ثبوت الحمد لغير الله، فهذا يقتضي أن جميع أقسام الحمد والثناء والتعظيم ليس إلا لله سبحانه.

٦. سؤال وإشكال: إن شكر المنعم واجب، مثل شكر الأستاذ على تعليمه، وشكر السلطان على عدله، وشكر المحسن على إحسانه، كما قال ﷺ: (من لم يشكر الناس لم يشكر الله)، والجواب: المحمود والمشكور في الحقيقة ليس إلا الله، وبيانه من وجوه:

أ. الأول: صدور الإحسان من العبد يتوقف على حصول داعية الإحسان في قلب العبد، وحصول تلك الداعية في القلب ليس من العبد، وإلا لا فتقر في حصولها إلى داعية أخرى ولزم التسلسل، بل حصولها ليس إلا من الله سبحانه فتلك الداعية عند حصولها يجب الفعل، وعند زوالها يمتنع الفعل فيكون المحسن في الحقيقة ليس إلا الله، فيكون المستحق لكل حمد في الحقيقة هو الله تعالى.

ب. ثانيها: أن كل من أحسن من المخلوقين إلى الغير، فإنه إنما يقدم على ذلك الإحسان إما لجلب منفعة أو دفع مضرة، أما جلب المنفعة: فإنه يطمع بواسطة ذلك الإحسان بما يصير سببا لحصول السرور في قلبه أو مكافأة بقليل أو كثير في الدنيا أو وجدان ثواب في الآخرة، وأما دفع المضرة، فهو أن الإنسان إذا رأى حيوانا في ضر أو بلية فإنه يرق قلبه عليه، وتلك الرقة ألم مخصوص يحصل في القلب عند مشاهدة وقوع ذلك الحيوان في تلك المضرة فإذا حاول إنقاذ ذلك الحيوان من تلك المضرة زالت تلك الرقة عن القلب وصار فارغ القلب طيب الوقت، فذلك الإحسان كأنه سبب أفاد تخليص القلب عن ألم الرقة

الحسيّة، فثبت أن كل ما سوى الحق فإنه يستفيد بفعل الإحسان إما جلب منفعة أو دفع مضرة، أما الحق سبحانه وتعالى، فإنه يحسن ولا يستفيد منه جلب منفعة ولا دفع مضرة، وكان المحسن الحقيقي ليس إلا الله تعالى، فبهذا السبب كان المستحق لكل أقسام الحمد هو الله، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

ج. ثالثها: أن كل إحسان يقدم عليه أحد من الخلق فالانتفاع به لا يكمل إلا بواسطة إحسان الله، إلا ترى أنه لولا أن الله تعالى خلق أنواع النعمة وإلا لم يقدر الإنسان على إيصال تلك الحنطة والفواكه إلى الغير، وأيضا فلولا أنه سبحانه أعطاه المزاج الصحيح والبنية السليمة وإلا لما أمكنه الانتفاع بها، فثبت أن كل إحسان يصدر عن محسن سوى الله تعالى، فإن الانتفاع به لا يكمل إلا بواسطة إحسان الله تعالى، وعند هذا يظهر أنه لا محسن في الحقيقة إلا الله، ولا مستحق للحمد إلا الله، فلهذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

د. رابعها: أن الانتفاع بجميع النعم لا يمكن إلا بعد وجود المتنفع بعد كونه حيا قادرا عالما، ونعمة الوجود والحياة والقدرة والعلم ليست إلا من الله سبحانه والتربية الأصلية والأرزاق المختلفة لا تحصل إلا من الله سبحانه من أول الطفولية إلى آخر العمر، ثم إذا تأمل الإنسان في آثار حكمة الرحمن في خلق الإنسان ووصل إلى ما أودع الله تعالى في أعضائه من أنواع المنافع والمصالح علم أنها بحر لا ساحل له، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] فبتقدير: أن نسلم أن العبد يمكنه أن ينعم على الغير إلا أن نعم العبد كالقطرة، ونعم الله لا نهاية لها أولا وآخرا وظاهرا وباطنا فلهذا السبب كان المستحق للحمد المطلق والثناء المطلق ليس إلا الله سبحانه فلهذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

٧. إنما قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ولم يقل: (أحمد الله)، لوجوه:

أ. أحدها: أن الحمد صفة القلب وربما احتاج الإنسان إلى أن يذكر هذه اللفظة حال كونه غافلا بقلبه عن استحضار معنى الحمد والثناء، فلو قال في ذلك الوقت أحمد الله، كان كاذبا واستحق عليه الذم والعقاب، حيث أخبر عن دعوى شيء مع أنه ما كان موجودا، أما إذا قال الحمد لله، فمعناه: أن ماهية الحمد وحقيقته مسلمة لله تعالى، وهذا الكلام حق وصدق سواء كان معنى الحمد والثناء حاضرا في قلبه أو لم يكن، وكان تكلمه بهذا الكلام عبادة شريفة وطاعة رفيعة فظهر الفرق بين هذين اللفظين.

ب. ثانيها: روي أنه تعالى أوحى إلى داوود عليه السلام يأمره بالشكر، فقال داوود يا رب وكيف أشكرك؟ وشكري لك لا يحصل إلا أن توفقني لشكرك وذلك التوفيق نعمة زائدة وإنها توجب الشكر لي

أيضا وذلك يجر إلى ما لا نهاية له ولا طاقة لي بفعل ما لا نهاية له، فأوحى الله تعالى إلى داوود لما عرفت عجزك عن شكري فقد شكرتني.. فلو قال العبد أحمد الله كان دعوى أنه أتى بالحمد والشكر فيتوجه عليه ذلك السؤال، أما لو قال الحمد لله فليس فيه ادعاء أن العبد أتى بالحمد والثناء، بل ليس فيه إلا أنه سبحانه مستحق للحمد والثناء سواء قدر على الإتيان بذلك الحمد أو لم يقدر عليه فظهر التفاوت بين هذين اللفظين من هذا الوجه.

ج. ثالثها: أنه لو قال أحمد الله كان ذلك مشعرا بأنه ذكر حمد نفسه ولم يذكر حمد غيره، أما إذا قال الحمد لله، فقد دخل فيه حمده وحمد غيره من أول خلق العالم إلى آخر استقرار المكلفين في درجات الجنان ودركات النيران، كما قال تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] فكان هذا الكلام أفضل وأكمل.

٨. هذه الكلمة مذكورة في أول سور خمسة:

أ. أولها: الفاتحة، فقال: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]

ب. ثانيها: في أول هذه السورة، فقال: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] والأول أعم لأن العالم عبارة عن كل موجود سوى الله تعالى، فقوله: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يدخل فيه كل موجود سوى الله تعالى، أما قوله: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ لا يدخل فيه إلا خلق السموات والأرض والظلمات والنور، ولا يدخل فيه سائر الكائنات والمبدعات، فكان التحميد المذكور في أول هذه السورة كأنه قسم من الأقسام الداخلة تحت التحميد المذكور في سورة الفاتحة وتفصيل لتلك الجملة.

ج. ثالثها: سورة الكهف، فقال: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي أنزل عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١] وذلك أيضا تحميد مخصوص بنوع خاص من النعمة وهو نعمة العلم والمعرفة والهداية والقرآن، وبالجملة النعم الحاصلة بواسطة بعثة الرسل.

د. رابعها: سورة سبأ وهي قوله: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ١] وهو أيضا قسم من الأقسام الداخلة تحت قوله: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

هـ. خامسها: سورة فاطر، فقال: ﴿الْحَمْدُ لله فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١] وظاهر أيضا

أنه قسم من الأقسام الداخلة تحت قوله: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

٩. فظهر أن الكلام الكلي التام هو التحميد المذكور في أول الفاتحة وهو قوله: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وذلك لأن كل موجود فهو إما واجب الوجود لذاته، وإما ممكن الوجود لذاته، وواجب الوجود لذاته واحد وهو الله سبحانه وتعالى وما سواه ممكن وكل ممكن فلا يمكن دخوله في الوجود إلا بإيجاد الله تعالى وتكوينه والوجود نعمة فالإيجاد إنعام وتربية، فلهذا السبب قال: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وأنه تعالى المربي لكل ما سواه والمحسن إلى كل ما سواه، فذلك الكلام هو الكلام الكلي الوافي بالمقصود، أما التحميدات المذكورة في أوائل هذه السور فكان كل واحد منها قسم من أقسام ذلك التحميد ونوع من أنواعه.

١٠. سؤال وإشكال: ما الفرق بين الخالق وبين الفاطر والرب؟ وأيضا لم قال هاهنا ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ بصيغة فعل الماضي؟ وقال في سورة فاطر ﴿الْحَمْدُ لله فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بصيغة اسم الفاعل والجواب:

أ. نقول في الجواب عن الأول: الخلق عبارة عن التقدير وهو في حق الحق سبحانه عبارة عن علمه النافذ في جميع الكليات والجزئيات الواصل إلى جميع ذوات الكائنات والممكنات وأما كونه فاطرا فهو عبارة عن الإيجاد وإلا بداع، فكونه تعالى خالقا إشارة إلى صفة العلم، وكونه فاطرا إشارة إلى صفة القدرة، وكونه تعالى ربا ومربيا مشتمل على الأمرين، فكان ذلك أكمل.

ب. والجواب عن الثاني: أن الخلق عبارة عن التقدير وهو في حق الله تعالى عبارة عن علمه بالمعلومات، والعلم بالشيء يصح تقدمه على وجود المعلوم، إلا ترى أنه يمكننا أن نعلم الشيء قبل دخوله في الوجود، أما إيجاد الشيء فإنه لا يحصل إلا حال وجود الأثر بناء على مذهبنا أن القدرة إنما تؤثر في وجود المقدور حال وجود المقدور، فلهذا السبب قال: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾ والمراد أنه كان عالما بها قبل وجودها، وقال: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والمراد أنه تعالى إنما يكون فاطرا لها وموجدا لها عند وجودها.

١١. في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قولان:

أ. الأول: المراد منه احمدوا الله تعالى، وإنما جاء على صيغة الخبر لفوائد:

• إحداها: أن قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يفيد تعليم اللفظ والمعنى، ولو قال احمدوا لم يحصل مجموع هاتين

الفائدتين.

• ثانيها: أنه يفيد أنه تعالى مستحق الحمد سواء حمده حامد أو لم يحمده.

• ثالثها: أن المقصود منه ذكر الحجة فذكره بصيغة الخبر أولى.

ب. الثاني: وهو قول أكثر المفسرين معناه قولوا الحمد لله، قالوا: والدليل على أن المراد منه تعليم العباد أنه تعالى قال في أثناء السورة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهذا الكلام لا يليق ذكره إلا بالعباد.

١٢. المقصود أنه سبحانه لما أمر بالحمد وقد تقرر في العقول أن الحمد لا يحسن إلا على الإنعام، فحينئذ يصير هذا الأمر حاملا للمكلف على أن يتفكر في أقسام نعم الله تعالى عليه، ثم إن تلك النعم يستدل بذكرها على مقصودين شريفين:

أ. أحدهما: أن هذه النعم قد حدثت بعد أن كانت معدومة فلا بدّ لها من محدث ومحصل وليس ذلك هو العبد لأن كل أحد يريد تحصيل جميع أنواع النعم لنفسه، فلو كان حصول النعم للعبد بواسطة قدرة العبد واختياره، لوجب أن يكون كل واحد واصلا إلى جميع أقسام النعم إذ لا أحد إلا وهو يريد تحصيل كل النعم لنفسه، ولما ثبت أنه لا بدّ لحدوث هذه النعم من محدث وثبت أن ذلك المحدث ليس هو العبد، فوجب الإقرار بمحدث قاهر قادر، وهو الله سبحانه وتعالى.

ب. الثاني: من مقاصد هذه الكلمة أن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها فإذا أمر الله تعالى العبد بالتحميد، وكان الأمر بالتحميد مما يحمله على تذكر أنواع نعم الله تعالى، صار ذلك التكليف حاملا للعبد على تذكر أنواع نعم الله عليه، ولما كانت تلك النعم كثيرة خارجة عن الحد والإحصاء، صار تذكر تلك النعم موجبة رسوخ حب الله تعالى في قلب العبد، فثبت أن تذكير النعم يفيد هاتين الفائدتين الشريفتين:

• إحداهما: الاستدلال بحدوثها عن الإقرار بوجود الله تعالى.

• ثانيهما: أن الشعور بكونها نعما يوجب ظهور حب الله في القلب، ولا مقصود من جميع العبادات إلا هذان الأمران، فلهذا السبب وقع الابتداء في هذا الكتاب الكريم بهذه الكلمة، فقال: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

١٣. سؤال وإشكال: قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ جار مجرى ما يقال:

جاءني الرجل الفقيه، فإن هذا يدل على وجود رجل آخر ليس بفقيه، وإلا لم يكن إلى ذكر هذه الصفة حاجة كذا هاهنا قوله: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ يوهم أن هناك إلها لم يخلق السموات والأرض، وإلا فأي فائدة في هذه الصفة؟ والجواب: أنا بينا أن قوله: (الله) جار مجرى اسم العلم، فإذا ذكر الوصف لاسم العلم لم يكن المقصود من ذكر الوصف التمييز، بل تعريف كون ذلك المعنى المسمى، موصوفا بتلك الصفة، مثاله إذا قلنا الرجل العالم، فقولنا: الرجل اسم الماهية، والماهية تتناول الأشخاص المذكورين الكثيرين، فكان المقصود هاهنا من ذكر الوصف تمييز هذا الرجل بهذا الاعتبار عن سائر الرجال بهذه الصفة، أما إذا قلنا: زيد العالم، فلفظ زيد اسم علم، وهو لا يفيد إلا هذه الذات المعينة، لأن أسماء الأعلام قائمة مقام الإشارات، فإذا وصفناه بالعلمية امتنع أن يكون المقصود منه تمييز ذلك الشخص عن غيره، بل المقصود منه تعريف كون ذلك المسمى موصوفا بهذه الصفة، ولما كان لفظ (الله) من باب أسماء الأعلام، لا جرم كان الأمر على ما ذكرناه والله أعلم.

١٤. سؤال وإشكال: لم قدم ذكر السماء على الأرض، مع أن ظاهر التنزيل يدل على أن خلق الأرض مقدم على خلق السماء؟ والجواب[1]: السماء كالدائرة، والأرض كالمركز، وحصول الدائرة يوجب تعين المركز ولا ينعكس، فإن حصول المركز لا يوجب تعين الدائرة لإمكان أن يحيط بالمركز الواحد دوائر لا نهاية لها، فلما كانت السماء متقدمة على الأرض بهذا الاعتبار وجب تقديم ذكر السماء على الأرض بهذا الاعتبار.

١٥. سؤال وإشكال: لم ذكر السماء بصيغة الجمع والأرض بصيغة الواحد مع أن الأرضين أيضا كثيرة بدليل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]؟ والجواب: أن السماء جارية مجرى الفاعل والأرض مجرى القابل، فلو كانت السماء واحدة لتشابه الأثر، وذلك يخل بمصالح هذا العالم، أما لو كانت كثيرة اختلفت الاتصالات الكوكبية فحصل بسببها الفصول الأربعة، وسائر الأحوال المختلفة، وحصل بسبب تلك الاختلافات مصالح هذا العالم، أما الأرض فهي قابلة للأثر والقابل الواحد كاف في القبول، وأما دلالة الآية المذكورة على تعدد الأرضين فقد بينا في تفسير تلك الآية كيفية الحال فيها والله أعلم.

---

(١) السؤال والجواب بناء على المعارف القديمة، ولا علاقة له بالقرآن الكريم

١٦. المقصود من هذه الآية ذكر الدلالة على وجود الصانع، وتقريره أن أجرام السموات والأرض تقدرت في أمور مخصوصة بمقادير مخصوصة، وذلك لا يمكن حصوله إلا بتخصيص الفاعل المختار، أما بيان المقام الأول فمن وجوه:

أ. الأول: أن كل فلك مخصوص اختص بمقدار معين مع جواز أن يكون الذي كان حاصلا مقدارا أزيد منه أو أنقص منه.

ب. الثاني: أن كل فلك بمقدار مركب من أجزاء، والجزء الداخل كان يمكن وقوعه خارجا وبالعكس، فوقوع كل واحد منها في حيزه الخاص أمر جائز.

ج. الثالث: أن الحركة والسكون جائزان على كل الأجسام بدليل أن الطبيعة الجسمية واحدة، ولوازم الأمور الواحدة واحدة، فإذا صح السكون والحركة على بعض الأجسام، وجب أن يصحا على كلها، فاختصاص الجسم الفلكي بالحركة دون السكون اختصاص بأمر ممكن.

د. الرابع: أن كل حركة، فإنه يمكن وقوعها أسرع مما وقع وأبطأ مما وقع، فاختصاص تلك الحركة المعينة بذلك القدر المعين من السرعة والبطء اختصاص بأمر ممكن.

هـ. الخامس: أن كل حركة، وقعت متوجهة إلى جهة، فإنه يمكن وقوعها متوجهة إلى سائر الجهات، فاختصاصها بالوقوع على ذلك الوجه الخاص اختصاص بأمر ممكن.

و. السادس: أن كل فلك فإنه يوجد جسم آخر إما أعلى منه وإما أسفل منه، وقد كان وقوعه على خلاف ذلك الترتيب أمرا ممكنا، بدليل أن الأجسام لما كانت متساوية في الطبيعة الجسمية، فكل ما صحّ على بعضها صح على كلها، فكان اختصاصه بذلك الحيز والترتيب أمرا ممكنا.

ز. السابع: وهو أن لحركة كل فلك أولا، لأن وجود حركة لا أول لها محال، لأن حقيقة الحركة انتقال من حالة إلى حالة، وهذا الانتقال يقتضي كونها مسبوقة بالغير، والأول ينافي المسبوقية بالغير، والجمع بينهما محال، فثبت أن لكل حركة أولا، واختصاص ابتداء حدوثه بذلك الوقت، دون ما قبله وما بعده اختصاص بأمر ممكن.

ح. الثامن: هو أن الأجسام، لما كانت متساوية في تمام الماهية كان اتصاف بعضها بالفلكية وبعضها بالعنصرية دون العكس، اختصاصا بأمر ممكن.

ط. التاسع: وهو أن حركاتها فعل لفاعل مختار، ومتى كان كذلك فلها أول، بيان المقام الأول أن المؤثر فيها لو كان علة موجبة بالذات لزم من دوام تلك العلة دوام آثارها، فيلزم من دوام تلك، دوام كل واحد من الأجزاء المتقومة في هذه الحركة، ولما كان ذلك محالا ثبت أن المؤثر فيها ليس علة موجبة بالذات، بل فاعلا مختارا، وإذا كان كذلك، وجب كون ذلك الفاعل متقدما على هذه الحركات، وذلك يوجب أن يكون لها بداية.

ي. العاشر: أنه ثبت بالدليل أنه حصل خارج العالم خلاء لا نهاية له بدليل أنا نعلم بالضرورة أنا لو فرضنا أنفسنا واقفين على طرف الفلك الأعلى فإنا نميز بين الجهة التي تلي قدامنا وبين الجهة التي تلي خلفنا، وثبوت هذا الامتياز معلوم بالضرورة، وإذا كان كذلك ثبت أنه حصل خارج العالم خلاء لا نهاية له، وإذا كان كذلك فحصول هذا العالم في هذا الحيز الذي حصل فيه دون سائر الأحياز أمر ممكن، فثبت بهذه الوجوه العشرة: أن أجرام السموات والأرضين مختلفة بصفات وأحوال، فكان يجوز في العقل حصول أضدادها ومقابلاتها، فوجب أن لا يحصل هذا الاختصاص الخاص إلا لمرجح ومقدر وإلا فقد ترجح أحد طرفي الممكن على الآخر لا لمرجح وهو محال.

١٧. إذا ثبت هذا، فإنه لا معنى للخلق إلا التقدير، فلما دل العقل على حصول التقدير من هذه الوجوه العشرة، وجب حصول الخلق من هذه الوجوه العشرة، فلهذا المعنى، قال: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ والله أعلم، ومن الناس من قال المقصود من ذكر السموات والأرض والظلمات والنور التنبيه على ما فيها من المنافع.

١٨. منافع السموات أكثر من أن تحيط بجزء من أجزائها المجلدات، وذلك لأن السموات بالنسبة إلى مواليد هذا العالم جارية مجرى الأب والأرض بالنسبة إليها جارية مجرى الأم فالعلل الفاعلة سماوية والعلل القابلة أرضية وبها يتم أمر المواليد الثلاثة، والاستقصاء في شرح ذلك لا سبيل له.

١٩. ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ لفظ (جعل) يتعدى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى أحدث وأنشأ كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ وإلى مفعولين إذا كان بمعنى صير كقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف: ١٩] والفرق بين الخلق والجعل أن الخلق فيه معنى التقدير، وفي الجعل معنى التضمين والتصيير كإنشاء شيء من شيء وتصيير شيء شيئا، ومنه قوله تعالى:

﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا﴾ [الرعد: ٣٨]، وقوله: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥] وإنما حسن لفظ الجعل هاهنا لأن النور والظلمة لما تعاقبا صار كأن كل واحد منهما إنما تولد من الآخر.

٢٠. في لفظ ﴿الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ قولان:

أ. الأول: أن المراد منهما الأمران المحسوسان بحس البصر والذي يقوي ذلك أن اللفظ حقيقة فيهما، وأيضا هذان الأمران إذا جعلا مقرونين بذكر السموات والأرض، فإنه لا يفهم منهما إلا هاتان الكيفيتان المحسوستان

ب. الثاني: نقل الواحدي عن ابن عباس أنه قال: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ أي ظلمة الشرك والنفاق والكفر والنور يريد نور الإسلام والإيمان والنبوّة واليقين، ونقل عن الحسن أنه قال يعني الكفر والإيمان، ولا تفاوت بين هذين القولين، فكان قول الحسن كالتلخيص لقول ابن عباس.

ج. لقائل أن يقول حمل اللفظ على الوجه الأول أولى، لما ذكرنا أن الأصل حمل اللفظ على حقيقته، ولأن الظلمات والنور إذا كان ذكرهما مقرونا بالسموات والأرض لم يفهم منه إلا ما ذكرناه، قال الواحدي: (الأولى: حمل اللفظ عليهما معا)، وهذا مشكل لأنه حمل اللفظ على مجازه، واللفظ الواحد بالاعتبار الواحد لا يمكن حمله على حقيقته ومجازه معا.

٢١. إنما قدم ذكر الظلمات على ذكر النور لأجل أن الظلمة عبارة عن عدم النور عن الجسم الذي من شأنه قبول النور، وليست عبارة عن كيفية وجودية مضادة للنور، والدليل عليه أنه إذا جلس إنسان بقرب السراج، وجلس إنسان آخر بالبعد منه، فإن البعيد يرى القريب ويرى ذلك الهواء صافيا مضيئا، وأما القريب فإنه لا يرى البعيد ويرى ذلك الهواء مظلما، فلو كانت الظلمة كيفية وجودية لكانت حاصلة بالنسبة إلى هذين الشخصين المذكورين، وحيث لم يكن الأمر كذلك علمنا أن الظلمة ليست كيفية وجودية، وبناء على هذا، فإن عدم المحدثات متقدم على وجودها، فالظلمة متقدمة في التقدير والتحقق على النور، فوجب تقديمها في اللفظ، ومما يقوي ذلك ما يروى في الأخبار الإلهية أنه تعالى خلق الخلق في ظلمة، ثم رش عليهم من نوره.

٢٢. سؤال وإشكال: لم ذكر الظلمات بصيغة الجمع، والنور بصيغة الواحد؟ والجواب:

أ. أما من حمل الظلمات على الكفر والنور على الإيمان فكلامه هاهنا ظاهر، لأن الحق واحد والباطل كثير.

ب. وأما من حملها على الكيفية المحسوسة، فإن النور عبارة عن تلك الكيفية الكاملة القوية، ثم إنها تقبل التناقص قليلا قليلا، وتلك المراتب كثيرة، فلهذا السبب عبّر عن الظلمات بصيغة الجمع.

٢٣. ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ العدل هو التسوية، يقال: عدل الشيء بالشيء إذا سواه به، ومعنى ﴿يَعْدِلُونَ﴾ يشركون به غيره، والفائدة في ذكر ﴿ثُمَّ﴾ استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته.

٢٤. سؤال وإشكال: على أي شيء عطف قوله: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ والجواب:

أ. يحتمل أن يكون معطوفا على قوله: ﴿الْحَمْدُ للهِّ﴾ على معنى أن الله حقيق بالحمد على كل ما خلق لأنه ما خلقه إلا نعمة ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ فيكفرون بنعمته.

ب. ويحتمل أن يكون معطوفا على قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ على معنى أن خلق هذه الأشياء العظيمة التي لا يقدر عليها أحد سواه، ثم إنهم يعدلون به جمادا لا يقدر على شيء أصلا.

٢٥. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ هذا الكلام يحتمل أن يكون المراد منه ذكر دليل آخر من دلائل إثبات الصانع تعالى، ويحتمل أن لا يكون المراد منه ذكر الدليل على صحة المعاد وصحة الحشر:

أ. أما الوجه الأول: فتقريره:

• أن الله تعالى لما استدلّ بخلقه السموات والأرض وتعاقب الظلمات والنور على وجود الصانع الحكيم أتبعه بالاستدلال بخلقه الإنسان، على إثبات هذا المطلوب فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ والمشهور أن المراد منه أنه تعالى خلقهم من آدم وآدم كان مخلوقا من طين، فلهذا السبب قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾

• وعندي فيه وجه آخر، وهو أن الإنسان مخلوق من المني ومن دم الطمث، وهما يتولدان من الدم، والدم إنما يتولد من الأغذية، والأغذية إما حيوانية وإما نباتية، فإن كانت حيوانية كان الحال في كيفية تولد ذلك الحيوان كالحال في كيفية تولد الإنسان، فبقي أن تكون نباتية، فثبت أن الإنسان مخلوق من الأغذية

النباتية، ولا شك أنها متولدة من الطين، فثبت أن كل إنسان متولد من الطين، وهذا الوجه عندي أقرب إلى الصواب، إذا عرفت هذا، فالطين قد تولدت النطفة منه بهذا الطريق المذكور، ثم تولد من النطفة أنواع الأعضاء المختلفة في الصفة والصورة واللون والشكل مثل القلب والدماغ والكبد، وأنواع الأعضاء البسيطة كالعظام والغضاريف والرباطات والأوتار وغيرها، وتولد الصفات المختلفة في المادة المتشابهة لا يمكن إلا بتقدير مقدر حكيم ومدبر رحيم وذلك هو المطلوب.

ب. وأما الوجه الثاني: وهو أن يكون المقصود من هذا الكلام تقرير أمر المعاد، فنقول لما ثبت أن تخليق بدن الإنسان إنما حصل، لأن الفاعل الحكيم والمقدر الرحيم، رتب حلقة هذه الأعضاء على هذه الصفات المختلفة بحكمته وقدرته، وتلك القدرة والحكمة باقية بعد موت الحيوان فيكون قادرا على إعادتها وإعادة الحياة فيها، وذلك يدل على صحة القول بالمعاد.

٢٦. ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ لفظ القضاء قد يرد بمعنى الحكم والأمر، قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ إلا تَعْبُدُوا إلا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] وبمعنى الخبر والأعلام، قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ [الإسراء: ٤] وبمعنى صفة الفعل إذا تم، قال تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢] ومنه قولهم قضى فلان حاجة فلان، وأما الأجل فهو في اللغة عبارة عن الوقت المضروب لانقضاء الأمد، وأجل الإنسان هو الوقت المضروب لانقضاء عمره، وأجل الدين محله لانقضاء التأخير فيه وأصله من التأخير يقال أجل الشيء يأجل أجولا، وهو آجل إذا تأخر والآجل نقيض العاجل.

٢٧. ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ معناه أنه تعالى خصص موت كل واحد بوقت معين وذلك التخصيص عبارة عن تعلق مشيئته بإيقاع ذلك الموت في ذلك الوقت، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥]

٢٨. ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ صريح هذه الآية يدل على حصول أجلين لكل إنسان، واختلف المفسرون في تفسيرهما على وجوه:

أ. الأول: قال أبو مسلم قوله: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ المراد منه آجال الماضين من الخلق وقوله: ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ المراد منه آجال الباقين من الخلق فهو خص هذا الأجل.

ب. الثاني: بكونه مسمى عنده، لأن الماضين لما ماتوا صارت آجالهم معلومة، أما الباقون فهم بعد

لم يموتوا فلم تصر آجالهم معلومة، فلهذا المعنى قال ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ والثاني: أن الأجل الأول هو أجل الموت والأجل المسمى عند الله هو أجل القيامة، لأن مدة حياتهم في الآخرة لا آخرة لها ولا انقضاء ولا يعلم أحد كيفية الحال في هذا الأجل إلا الله سبحانه وتعالى.

ج. الثالث: الأجل الأول ما بين أن يخلق إلى أن يموت، والثاني: ما بين الموت والبعث وهو البرزخ.

د. الرابع: أن الأول: هو النوم والثاني: الموت.

هـ. الخامس: أن الأجل الأول مقدار ما انقضى من عمر كل أحد، والأجل الثاني: مقدار ما بقي من عمر كل أحد.

و. السادس: وهو قول حكماء الإسلام أن لكل إنسان أجلين: أحدهما: الآجال الطبيعية، والثاني: الآجال الاخترامية:

• أما الآجال الطبيعية: فهي التي لو بقي ذلك المزاج مصونا من العوارض الخارجية لانتهت مدة بقائه إلى الوقت الفلاني.

• وأما الآجال الاخترامية: فهي التي تحصل بسبب من الأسباب الخارجية: كالغرق والحرق ولدغ الحشرات وغيرها من الأمور المعضلة.

٢٩. ﴿مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ أي معلوم عنده أو مذكور اسمه في اللوح المحفوظ، ومعنى عنده شبيه بما يقول الرجل في المسألة عندي أن الأمر كذا وكذا أي هذا اعتقادي وقولي.

٣٠. سؤال وإشكال: المبتدأ النكرة إذا كان خبره ظرفا وجب تأخيره فلم جاز تقديمه في قوله: ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ والجواب: لأنه تخصص بالصفة فقارب المعرفة كقوله: ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ﴾ [البقرة: ٢٢١]

٣١. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ المرية والامتراء هو الشك، فإن قلنا المقصود من ذكر هذا الكلام الاستدلال على وجود الصانع كان معناه أن بعد ظهور مثل هذه الحجة الباهرة أنتم تمترون في صحة التوحيد، وإن كان المقصود تصحيح القول بالمعاد فكذلك.

٣٢. قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ يحتمل وجهين:

أ. إن كان المقصود من الآية المتقدمة إقامة الدليل على وجود الصانع القادر المختار، فإن المقصود من هذه الآية بيان كونه تعالى عالما بجميع المعلومات، فإن الآيتين المتقدمتين يدلان على كمال القدرة، وهذه الآية تدل على كمال العلم وحينئذ يكمل العلم بالصفات المعتبرة في حصول الإلهية.

ب. وإن كان المقصود من الآية المتقدمة إقامة الدلالة على صحة المعاد، فالمقصود من هذه الآية تكميل ذلك البيان، وذلك لأن منكري المعاد إنما أنكروه لأمرين:

• أحدهما: أنهم يعتقدون أن المؤثر في حدوث بدن الإنسان هو امتزاج الطبائع وينكرون أن يكون المؤثر فيه قادرا مختارا.

• الثاني: أنهم يسلمون ذلك إلا أنهم يقولون إنه غير عالم بالجزئيات فلا يمكنه تمييز المطيع من العاصي، ولا تميز أجزاء بدن زيد عن أجزاء بدن عمرو، ثم إنه تعالى أثبت بالآيتين المتقدمتين كونه تعالى قادرا ومختارا لا علة موجبة، وأثبت بهذه الآية كونه تعالى عالما بجميع المعلومات، وحينئذ تبطل جميع الشبهات التي عليها مدار القول بإنكار المعاد، وصحة الحشر والنشر فهذا هو الكلام في نظم الآية.

٣٣. سؤال وإشكال: القائلون بأن الله تعالى مختص بالمكان تمسكوا بهذه الآية وهو قوله: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ وذلك يدل على أن الإله مستقر في السماء قالوا: ويتأكد هذا أيضا بقوله تعالى: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ﴾ [الملك: ١٦] قالوا: ولا يلزمنا أن يقال فيلزم أن يكون في الأرض لقوله تعالى في هذه الآية ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ وذلك يقتضي حصوله تعالى في المكانين معا وهو محال لأنا نقول أجمعنا على أنه ليس بموجود في الأرض، ولا يلزم من ترك العمل بأحد الظاهرين ترك العمل بالظاهر الآخر من غير دليل، فوجب أن يبقى ظاهر قوله: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ على ذلك الظاهر، ولأن من القراء من وقف عند قوله: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ ثم يبتدئ فيقول ﴿وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ والمعنى أنه سبحانه يعلم سرائركم الموجودة في الأرض فيكون قوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ صلة لقوله: ﴿سِرَّكُمْ﴾ هذا تمام كلامهم، والجواب: نقيم الدلالة أولا على أنه لا يمكن حمل هذا الكلام على ظاهره، وذلك من وجوه:

أ. الأول: أنه تعالى قال في هذه السورة ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢] فبيّن بهذه الآية أن كل ما في السموات والأرض فهو ملك لله تعالى ومملوك له، فلو كان الله أحد الأشياء الموجودة في السموات لزم كونه ملكا لنفسه، وذلك محال، ونظير هذه الآية قوله في سورة طه ﴿لَهُ مَا فِي

السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [طه: ٦] سؤال وإشكال: قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقتضي أن كل ما في السموات فهو لله إلا أن كلمة ما مختصة بمن لا يعقل فلا يدخل فيها ذات الله تعالى، والجواب: لا نسلم والدليل عليه قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: ٥ـ ٧] ونظيره ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٣] ولا شك أن المراد بكلمة ما هاهنا هو الله سبحانه.

ب. الثاني: أن قوله: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ إما أن يكون المراد منه أنه موجود في جميع السموات، أو المراد أنه موجود في سماء واحدة، والثاني: ترك للظاهر، والأول على قسمين لأنه إما أن يكون الحاصل منه تعالى في أحد السموات عين ما حصل منه في سائر السموات أو غيره، والأول: يقتضي حصول المتحيز الواحد في مكانين وهو باطل ببديهة العقل، والثاني: يقتضي كونه تعالى مركبا من الأجزاء والأبعاض وهو محال.

ج. الثالث: أنه لو كان موجودا في السموات لكان محدودا متناهيا وكل ما كان كذلك كان قبوله للزيادة والنقصان ممكنا، وكل ما كان كذلك كان اختصاصه بالمقدار المعين لتخصيص مخصص وتقدير مقدر وكل ما كان كذلك فهو محدث.

د. الرابع: أنه لو كان في السموات فهل يقدر على خلق عالم آخر فوق هذه السموات أو لا يقدر، والثاني يوجب تعجيزه والأول يقتضي أنه تعالى لو فعل ذلك لحصل تحت هذا العالم، والقوم ينكرون كونه تحت العالم.

هـ. الخامس: أنه تعالى قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أين مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إليه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ [البقرة: ١١٥] وكل ذلك يبطل القول بالمكان والجهة لله تعالى.

٣٤. ثبت بهذه الدلائل أنه لا يمكن حمل هذا الكلام على ظاهره فوجب التأويل وهو من وجوه:

أ. الأول: أن قوله: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ يعني وهو الله في تدبير السموات والأرض كما يقال: فلان في أمر كذا أي في تدبيره وإصلاح مهماته، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾

ب. الثاني: أن قوله: ﴿وَهُوَ اللهُ﴾ كلام تام، ثم ابتدأ وقال: ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ والمعنى إله سبحانه وتعالى يعلم في السموات سرائر الملائكة، وفي الأرض يعلم سرائر الإنس والجن.

ج. الثالث: أن يكون الكلام على التقديم والتأخير والتقدير: وهو الله يعلم في السموات وفي الأرض سركم وجهركم، ومما يقوي هذه التأويلات أن قولنا: وهو الله نظير قولنا هو الفاضل العالم، وكلمة هو إنما تذكر هاهنا لإفادة الحصر، وهذه الفائدة إنما تحصل إذا جعلنا لفظ الله اسما مشتقا فأما لو جعلناه اسم علم شخص قائم مقام التعيين لم يصح إدخال هذه اللفظة عليه، وإذا جعلنا قولنا: الله لفظا مفيدا صار معناه وهو المعبود في السماء وفي الأرض، وعلى هذا التقدير يزول السؤال.

٣٥. ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ المراد بالسر صفات القلوب وهي الدواعي والصوارف، والمراد بالجهر أعمال الجوارح، وإنما قدم ذكر السر على ذكر الجهر لأن المؤثر في الفعل هو مجموع القدرة مع الداعي، فالداعية التي هي من باب السر هي المؤثرة في أعمال الجوارح المسماة بالجهر، وقد ثبت أن العلم بالعلة علة للعلم بالمعلول، والعلة متقدمة على المعلول، والمتقدم بالذات يجب تقديمه بحسب اللفظ.

٣٦. سؤال وإشكال: قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ فيه سؤال: وهو أن الأفعال إما أفعال القلوب وهي المسماة بالسر، وإما أعمال الجوارح وهي المسماة بالجهر، فالأفعال لا تخرج عن السر والجهر فكان قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ يقتضي عطف الشيء على نفسه، وأنه فاسد، والجواب: يجب حمل قوله: ﴿مَا تَكْسِبُونَ﴾ على ما يستحقه الإنسان على فعله من ثواب وعقاب والحاصل أنه محمول على المكتسب كما يقال: هذا المال كسب فلان أي مكتسبه، ولا يجوز حمله على نفس الكسب، وإلا لزم عطف الشيء على نفسه على ما ذكرتموه في السؤال.

٣٧. الآية تدل على كون الإنسان مكتسبا للفعل والكسب هو الفعل المفضي إلى اجتلاب نفع أو دفع ضر، ولهذا السبب لا يوصف فعل الله بأنه كسب لكونه تعالى منزّها عن جلب النفع ودفع الضرر.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بدأ سبحانه فاتحتها بالحمد على نفسه وإثبات الألوهية أي إن الحمد كله له فلا شريك له، سؤال وإشكال: فقد افتتح غيرها بالحمد لله فكان الاجتزاء بواحدة يغني عن سائره والجواب: يقال: لأن لكل واحدة منه معنى في موضعه لا يؤدي عنه غيره من أجل عقده بالنعم المختلفة وأيضا فلما فيه من الحجة في هذا الموضع على الذين هم بربهم يعدلون وقد تقدم معنى ﴿الْحَمْدُ﴾ في الفاتحة.

٢. ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أخبر عن قدرته وعلمه وإرادته فقال: الذي خلق أي اخترع وأوجد وأنشأ وابتدع، والخلق يكون بمعنى الاختراع ويكون بمعنى التقدير، وقد تقدم وكلاهما مراد هنا وذلك دليل على حدوثهما فرفع السماء بغير عمد وجعلها مستوية من غير أود وجعل فيها الشمس والقمر آيتين وزينها بالنجوم وأودعها السحاب والغيوم علامتين وبسط الأرض وأودعها الأرزاق والنبات وبث فيها من كل دابة آيات وجعل فيها الجبال أوتادا وسبلا فجاجا وأجرى فيها الأنهار والبحار وفجر فيها العيون من الأحجار دلالات على وحدانيته، وعظيم قدرته وأنه هو الله الواحد القهار وبين بخلقه السماوات والأرض أنه خالق كل شي.

٣. خرج مسلم عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: (خلق الله تعالى التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل)، أدخل العلماء هذا الحديث تفسيرا لفاتحة هذه السورة، قال البيهقي: وزعم أهل العلم بالحديث أنه غير محفوظ لمخالفة ما عليه أهل التفسير وأهل التواريخ، وزعم بعضهم أن إسماعيل بن أمية إنما أخذه عن إبراهيم بن أبي يحيى عن أيوب بن خالد وإبراهيم غير محتج به، وذكر محمد بن يحيى قال سألت علي بن المديني عن حديث أبى هريرة (خلق الله التربة يوم السبت)، فقال علي: هذا حديث مدني رواه هشام بن يوسف عن ابن جريج عن إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن أبي رافع مولى أم سلمة عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي قال علي:

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/٣٨٤.

وشبك بيدي إبراهيم بن أبي يحيى فقال لي: شبك بيدي أيوب بن خالد وقال لي شبك بيدي عبد الله بن رافع وقال لي: شبك بيدي أبو هريرة وقال لي: شبك بيدي أبو القاسم [رسول الله] ﷺ فقال: خلق الله الأرض يوم السبت) فذكر الحديث بنحوه، قال علي بن المديني: وما أرى إسماعيل بن أمية أخذ هذا الأمر إلا من إبراهيم بن أبي يحيى قال البيهقي: وقد تابعه على ذلك موسى بن عبيدة الربذي عن أيوب بن خالد إلا أن موسى بن عبيدة ضعيف، وروي عن بكر بن الشرود عن إبراهيم بن أبي يحيى عن صفوان بن سليم عن أيوب بن خالد ـ وإسناده ضعيف ـ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (إن في الجمعة ساعة لا يوافقها أحد يسأل الله تعالى فيها شيئا إلا أعطاه إياه) قال فقال عبد الله بن سلام: (إن الله تعالى ابتدأ الخلق فخلق الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين وخلق السماوات يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء وخلق الأقوات وما في الأرض يوم الخميس ويوم الجمعة إلى صلاة العصر وما بين صلاة العصر إلى أن تغرب الشمس خلق آدم) خرجه البيهقي، قلت: وفيه (أن الله تعالى بدأ الخلق يوم الأحد لا يوم السبت وكذلك تقدم في البقرة) عن ابن مسعود وغيره من أصحاب النبي ﷺ، وتقدم فيها الاختلاف أيما خلق أولا الأرض أو السماء مستوفى، والحمد لله.

٤. ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ ذكر بعد خلق الجواهر خلق الأعراض لكون الجوهر لا يستغني عنه وما لا يستغني عن الحوادث فهو حادث، والجوهر في اصطلاح المتكلمين هو الجزء الذي لا يتجزأ الحامل للعرض.

٥. سمي العرض عرضا لأنه يعرض في الجسم والجوهر فيتغير به من حال إلى حال والجسم هو المجتمع وأقل ما يقع عليه اسم الجسم جوهران مجتمعان وهذه الاصطلاحات وإن لم تكن موجودة في الصدر الأول فقد دل عليها معنى الكتاب والسنة فلا معنى لإنكارها، وقد استعملها العلماء واصطلحوا عليها وبنوا عليها كلامهم وقتلوا بها خصومهم كما تقدم في البقرة.

٦. اختلف العلماء في المعنى المراد بالظلمات والنور فقال السدي وقتادة وجمهور المفسرين: المراد سواد الليل وضياء النهار، وقال الحسن: الكفر والإيمان قال ابن عطية: وهذا خروج عن الظاهر، قلت: اللفظ يعمه وفي التنزيل: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الانعام]، والأرض هنا اسم للجنس فإفرادها في اللفظ بمنزلة جمعها وكذلك ﴿وَالنُّورِ﴾ ومثله

﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر]، وقال الشاعر: (كلوا في بعض بطنكم تعفوا) وقد تقدم، وجعل هنا بمعنى خلق لا يجوز غيره قاله ابن عطية، قلت: وعليه يتفق اللفظ والمعنى في النسق فيكون الجمع معطوفا على الجمع والمفرد معطوفا على المفرد فيتجانس اللفظ وتظهر الفصاحة.

٧. قيل: جمع ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ ووحد ﴿النُّورِ﴾ لأن الظلمات لا تتعدى والنور يتعدى، وحكى الثعلبي أن بعض أهل المعاني قال: ﴿جَعَلَ﴾ هنا زائدة والعرب تزيد ﴿جَعَلَ﴾ في الكلام كقول الشاعر: وقد جعلت أرى الاثنين أربعة...والواحد اثنين لما هدني الكبر قال النحاس: جعل بمعنى خلق وإذا كانت بمعنى خلق لم تتعد إلا إلى مفعول واحد، وقد تقدم هذا المعنى ومحامل جعل في البقرة مستوفى.

٨. ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ابتداء وخبر والمعنى: ثم الذين كفروا يجعلون لله عدلا وشريكا وهو الذي خلق هذه الأشياء وحده، قال ابن عطية: ف ﴿ثُمَّ﴾ دالة على قبح فعل الكافرين لأن المعنى: أن خلقه السماوات والأرض قد تقرر وآياته قد سطعت وإنعامه بذلك قد تبين ثم بعد ذلك كله عدلوا بربهم فهذا كما تقول: يا فلان أعطيتك وأكرمتك وأحسنت إليك ثم تشتمني ولو وقع العطف بالواو في هذا ونحوه لم يلزم التوبيخ كلزومه بثم.

٩. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ الآية خبر، وفي معناه قولان:

أ. أحدهما وهو الأشهر وعليه من الخلق الأكثر أن المراد آدم عليه السلام والخلق نسله والفرع يضاف إلى أصله فلذلك قال: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ بالجمع فأخرجه مخرج الخطاب لهم إذ كانوا ولده، هذا قول الحسن وقتادة وابن أبي نجيح والسدي والضحاك وابن زيد وغيرهم.

ب. الثاني: أن تكون النطفة خلقها الله من طين على الحقيقة ثم قلبها حتى كان الإنسان منها ذكره النحاس.

١٠. لما ذكر تعالى خلق العالم الكبير ذكر بعده خلق العالم الصغير وهو الإنسان وجعل فيه ما في العالم الكبير على ما بيناه في البقرة في آية التوحيد، وقد روى أبو نعيم الحافظ في كتابه عن مرة عن ابن مسعود: أن الملك الموكل بالرحم يأخذ النطفة فيضعها على كفه ثم يقول: يا رب مخلقة أو غير مخلقة؟ فإن قال مخلقة قال يا رب ما الرزق ما الأثر ما الأجل؟ فيقول: انظر في أم الكتاب فينظر في اللوح المحفوظ فيجد فيه رزقه وأثره وأجله وعمله ويأخذ التراب الذي يدفن في بقعته ويعجن به نطفته فذلك قوله تعالى:

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه]، وخرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ما من مولود إلا وقد ذر عليه من تراب حفرته)، وعلى هذا يكون كل إنسان مخلوقا من طين وماء مهين كما أخبر تعالى في سورة ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ فتنتظم الآيات والأحاديث ويرتفع الإشكال والتعارض.

١١. وأما الإخبار عن خلق آدم عليه السلام فقد تقدم في البقرة ذكره واشتقاقه ونزيد هنا طرفا من ذلك ونعته وسنه ووفاته[١].

١٢. سؤال وإشكال: هل في الآية دليل على أن الجواهر من جنس واحد؟ والجواب: نعم لأنه إذا جاز أن ينقلب الطين إنسانا حيا قادرا عليما جاز أن ينقلب إلى كل حال من أحوال الجواهر لتسوية العقل بين ذلك في الحكم وقد صح انقلاب الجماد إلى الحيوان بدلالة هذه الآية.

١٣. ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ مفعول، ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ ابتداء وخبر:

أ. قال الضحاك: ﴿أَجَلًا﴾ في الموت ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ أجل القيامة فالمعنى على هذا: حكم أجلا وأعلمكم أنكم تقيمون إلى الموت ولم يعلمكم بأجل القيامة.

ب. وقال الحسن ومجاهد وعكرمة وخصيف وقتادة ـ وهذا لفظ الحسن ـ: قضى أجل الدنيا من يوم خلقك إلى أن تموت ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يعني الآخرة.

ج. وقيل: ﴿قَضَى أَجَلًا﴾ ما أعلمناه من أنه لا نبي بعد محمد ﷺ ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ من الآخرة.

د. وقيل: ﴿قَضَى أَجَلًا﴾ مما نعرفه من أوقات الأهلة والزرع وما أشبههما ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أجل الموت لا يعلم الإنسان متى يموت.

هـ. وقال ابن عباس ومجاهد: معنى الآية ﴿قَضَى أَجَلًا﴾ بقضاء الدنيا، ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ لابتداء الآخرة.

و. وقيل: الأول قبض الأرواح في النوم والثاني قبض الروح عند الموت عن ابن عباس أيضا.

١٤. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ ابتداء وخبر: أي تشكون في أنه إله واحد، وقيل: تمارون في ذلك في أي تجادلون جدال الشاكين والتماري المجادلة على مذهب الشك ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾

---

(١) ذكر هنا بعض الأحاديث والآثار، التي سبق ذكرها في أجزاء سابقة.

[النجم]

١٥. ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ سؤال وإشكال: ما عامل الإعراب في الظرف من ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾؟ والجواب: فيه أجوبة:

أ. أحدها: أي وهو الله المعظم أو المعبود في السماوات وفي الأرض، كما تقول: زيد الخليفة في الشرق والغرب أي حكمه، ويجوز أن يكون المعنى وهو الله المنفرد بالتدبير في السماوات وفي الأرض، كما تقول: هو في حاجات الناس وفي الصلاة ويجوز أن يكون خبرا بعد خبر ويكون المعنى: وهو الله في السماوات وهو الله في الأرض.

ب. وقيل: المعنى وهو الله يعلم سركم وجهركم في السماوات وفي الأرض فلا يخفى عليه شي، قال النحاس: وهذا من أحسن ما قيل فيه، وقال محمد بن جرير: وهو الله في السماوات ويعلم سركم وجهركم في الأرض فيعلم مقدم في الوجهين.

١٦. الأول أسلم وأبعد من الإشكال وقيل غير هذا، والقاعدة تنزيهه تعالى عن الحركة والانتقال وشغل الأمكنة.

١٧. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أي من خير وشر، والكسب الفعل لاجتلاب نفع أو دفع ضرر ولهذا لا يقال لفعل الله كسب.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بدأ سبحانه هذه السورة بالحمد لله، للدلالة على أن الحمد كله له، ولإقامة الحجّة على الذين هم بربهم يعدلون، وقد تقدّم في سورة الفاتحة ما يغني عن الإعادة له هنا.

٢. ثم وصف نفسه بأنه: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ إخبارا عن قدرته الكاملة الموجبة لاستحقاقه لجميع المحامد، فإن من اخترع ذلك وأوجده هو الحقيق بإفراده بالثناء وتخصيصه بالحمد، والخلق يكون بمعنى الاختراع، وبمعنى التقدير، وقد تقدّم تحقيق ذلك، وجمع السماوات لتعدد طباقها،

---

(١) فتح القدير: ٢/١١٣.

وقدّمها على الأرض لتقدّمها في الوجود ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾

٣. ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ معطوف على خلق، ذكر سبحانه خلق الجواهر بقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ثم ذكر خلق الأعراض بقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ لأن الجواهر لا تستغني عن الأعراض.

٤. اختلف أهل العلم في المعنى المراد بالظّلمات والنور؛ فقال جمهور المفسرين: المراد بالظلمات سواد الليل، وبالنور ضياء النهار، وقال الحسن: الكفر والإيمان، قال ابن عطية: (وهذا خروج عن الظاهر)، والأولى: أن يقال: إن الظلمات تشمل كلّ ما يطلق عليه اسم الظلمة، والنور يشمل كلّ ما يطلق عليه اسم النور، فيدخل تحت ذلك ظلمة الكفر ونور الإيمان ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾، وأفرد النور لأنه جنس يشمل جميع أنواعه، وجمع الظلمات لكثرة أسبابها وتعدد أنواعها.

٥. قال النحاس: جعل هنا بمعنى خلق: وإذا كانت بمعنى خلق لم تتعدّ إلا إلى مفعول واحد، وقال القرطبي: جعل هنا بمعنى خلق لا يجوز غيره، قال ابن عطية: وعليه يتفق اللفظ والمعنى في النسق، فيكون الجمع معطوفا على الجمع، والمفرد معطوفا على المفرد، وتقديم الظلمات على النور لأنها الأصل، ولهذا كان النهار مسلوخا من الليل.

٦. ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ معطوف على الحمد لله"، أو على خلق السماوات والأرض، وثم: لاستبعاد ما صنعه الكفار من كونهم بربهم يعدلون مع ما تبين من أن الله سبحانه حقيق بالحمد على خلقه السماوات والأرض والظلمات والنور، فإن هذا يقتضي الإيمان به وصرف الثناء الحسن إليه، لا الكفر به واتّخاذ شريك له، وتقديم المفعول للاهتمام، ورعاية الفواصل، وحذف المفعول لظهوره؛ أي يعدلون به ما لا يقدر على شيء مما يقدر عليه، وهذا نهاية الحمق وغاية الرقاعة حيث يكون منه سبحانه تلك النعم، ويكون من الكفرة الكفر.

٧. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ في معناه قولان:

أ. أحدهما وهو الأشهر، وبه قال الجمهور: أن المراد آدم عليه السلام، وأخرجه مخرج الخطاب للجميع، لأنهم ولده ونسله.

ب. الثاني: أن يكون المراد جميع البشر باعتبار أن النطفة التي خلقوا منها مخلوقة من الطين.

٨. ذكر الله سبحانه خلق آدم وبنيه بعد خلق السماوات والأرض اتباعا للعالم الأصغر بالعالم الأكبر، والمطلوب بذكر هذه الأمور دفع كفر الكافرين بالبعث وردّ لجحودهم بما هو مشاهد لهم لا يمترون فيه.

٩. ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ جاء بكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لما بين خلقهم وبين موتهم من التفاوت، وقد اختلف السلف ومن بعدهم في تفسير الأجلين:

أ. فقيل: ﴿قَضَى أَجَلًا﴾ يعني الموت ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يعني القيامة، وهو مروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والضحاك ومجاهد وعكرمة وزيد بن أسلم وعطية والسدي وخصيف ومقاتل وغيرهم.

ب. وقيل: الأول ما بين أن يخلق إلى أن يموت؛ والثاني ما بين أن يموت إلى أن يبعث، وهو قريب من الأول.

ج. وقيل: الأول مدّة الدنيا؛ والثاني عمر الإنسان إلى حين موته، وهو مرويّ عن ابن عباس ومجاهد.

د. وقيل: الأول قبض الأرواح في النوم؛ والثاني: قبض الروح عند الموت.

هـ. وقيل: الأول ما يعرف من أوقات الأهلة والبروج وما يشبه ذلك؛ والثاني أجل الموت.

و. وقيل: الأول لمن مضى؛ والثاني لمن بقي ولمن يأتي.

ز. وقيل: إن الأول الأجل الذي هو محتوم؛ والثاني: لزيادة في العمر لمن وصل رحمه، فإن كان برّا تقيا وصولا لرحمه زيد في عمره، وإن كان قاطعا للرحم لم يزد له، ويرشد إلى هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إلا فِي كِتَابٍ﴾، وقد صحّ عن رسول الله ﷺ أن صلة الرحم تزيد في العمر، وورد عنه أن دخول البلاد التي قد فشا بها الطاعون والوباء من أسباب الموت؛ وجاز الابتداء بالنكرة في قوله: ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ لأنها قد تخصصت بالصفة.

١٠. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ استبعاد لصدور الشّكّ منهم مع وجود المقتضى لعدمه: أي كيف تشكّون في البعث مع مشاهدتكم في أنفسكم من الابتداء والانتهاء ما يذهب بذلك ويدفعه، فإن من خلقكم من

طين، وصيّركم أحياء تعلمون وتعقلون، وخلق لكم هذه الحواس والأطراف، ثم سلب ذلك عنكم فصرتم أمواتا، وعدتم إلى ما كنتم عليه من الجمادية، لا يعجزه أن يبعثكم ويعيد هذه الأجسام كما كانت، ويردّ إليها الأرواح التي فارقتها بقدرته وبديع حكمته.

١١. ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾:

أ. قيل: إن في السموات وفي الأرض، متعلق باسم الله باعتبار ما يدل عليه من كونه معبودا ومتصرفا ومالكا؛ أي هو المعبود أو المالك أو المتصرّف في السموات والأرض، كما تقول: زيد الخليفة في الشرق والغرب؛ أي حاكم أو متصرف فيهما.

ب. وقيل: المعنى: وهو الله يعلم سرّكم وجهركم في السموات وفي الأرض فلا تخفى عليه خافية، فيكون العامل فيهما ما بعدهما، قال النحاس: وهذا من أحسن ما قيل فيه.

ج. وقال ابن جرير: هو الله في السموات ويعلم سركم وجهركم في الأرض، والأول أولى، ويكون ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ جملة مقرّرة لمعنى الجملة الأولى، لأن كونه سبحانه في السماء والأرض يستلزم علمه بأسرار عباده وجهرهم، وعلمه بما يكسبونه من الخير والشرّ وجلب النفع ودفع الضرر.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالَارْضَ﴾ إخبار بأنَّ جميع الحمد لله تعالى، حتَّى حمد مخلوق لمخلوق على نعمةٍ؛ لأن الله تعالى هو الخالقُ لها، الموفِّقُ لإعطائها، والملقي الإحسان في قلب المعطي، فالله أهل للحمد، حُمِد أو لم يُحمد، وإذا قلنا: (الْحَمْدُ للهِ) إخبار منَّا على جهة تعظيم الله بأنه أهل للحمدِ فقد حمدنا، ولا سيما إن قصدنا الإنشاء بالجملة الاسميَّة على القِلَّة، فقد حصل الحمد، إلا أنَّ الوجه الأول أحسن لعمومه من قصد الإنشاء، فإن قصده مطابق لقول من يقول: المرادُ: أحمد الله حمدًا، فنقل للجملة الاسميَّة، فإن قولك: (أحمد) يوهم أداء حقِّ الحمد، ولو على قصد الاستمرار مع أنَّ حقَّ الحمد لا يفي به أحد، فإن كلَّ الحمد نعمة توجب الحمد على التسلسل؛ لأن كلَّ الحمد بتوفيق، وهو نعمة،

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ١٨٧/٤.

كما قال داود ذلك، فأوحى الله إليه: (الآن شكرتني إذ عرفت عجزك عن شكري)، ولمَّا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ علمنا أنَّ المراد بالحمد في أوّل الفاتحة والأنعام وغيرِهما تعليمُ العبادِ اللَّفظَ الذي يلفظون به في إيقاع الحمد، ويجوز أن تكون الجملة إنشاءً من الله، كما ورد أنَّه قال: (سبحاني)، وأن يُقَدَّرَ على تعليم إنشاء الخلق الحمد: قولوا الحمد لله.

٢. وجمع السماوات لتخالفها بالذَّات، كذهب وفضَّة وموج، بخلاف الأرضين فإنَّهنَّ ولو كنَّ سبعًا كالسَّماوات لَكِنَّهُنَّ كُلَّهُنَّ تراب، وورد في بعض الأخبار تخالفهنَّ، والله أعلم بِصِحَّةِ ذلك وعدمه، وأمَّا كونهنَّ سبعًا فهو الحقُّ، كما قال: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، والتأويل خلاف الأصل؛ وقد روى الترمذيُّ عن أبي هريرة عنه ﷺ: (إنَّ الأرضين سبعٌ بين الواحدة والواحدة خمسمائة عام)، وقدَّم السماوات لشرفهنَّ بالوحي والملائكة وعبادتهم، وعدم المعصية فيها إلا ما وقع من إبليس، ولِتقدُّم خلقهنَّ، كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَالِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠]

٣. يقال: خلق الله تعالى إبليس تحت الأرض السابعة، فعَبَده ألف سنة، وفي السابعة ألفين، وفي السادسة ثلاثة آلاف، وفي الخامسة أربعة آلاف، وفي الرابعة خمسة آلاف، وفي الثالثة ستَّة آلاف، وفي الثانية: سبعة آلاف، وفي الأولى: ثمانية آلاف، ثمَّ في السماء الأولى: تسعة آلاف، وفي الثانية: عشرة آلاف، وفي الثالثة أحد عشر ألفًا، وفي الرابعة اثني عشر ألفًا، وفي الخامسة ثلاثة عشر ألفًا، وفي السادسة أربعة عشر ألفًا، وفي السابعة خمسة عشر ألفًا، وذلك مائة وعشرون ألفًا، وقُدَّام العرش ضعف ذلك: مائتين وأربعين ألف سنة، ولم يبق موضع في الأرض إلا سجد فيه، وقال: يا رَبِّ هل بقي موضع لم أسجد فيه؟ قال: نعم هو في الأرض فاهبط، فهبط فقال: ما هو؟ فقال: هو آدم فاسجد له، فقال: هل بقي موضع سوى آدم؟ فقال: لا، قال: لِمَ أمرتني بالسجود له وفضَّلتهُ عليَّ؟ قال: أنا المختار أفعل ما أشاء لا أُسأل عمَّا أفعل، فارتعدت الملائكة، وله ستُّمائة ألف جناح مُرصَّع بالجواهر ولباس من نور، وزالت كلُّها لَمَّا أبى، وقيل: رأى آدم صورة من طين بين مكَّة والطائف فاحْتَقَرَهُ لطينته، فزال ذلك كلُّهُ عنه.

٤. ﴿وَجَعَلَ﴾ أي: خلق، فله مفعول واحد كـ (خَلَقَ)، والفرق أنَّ في الخلق معنى التقدير، كقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أحسن الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقول بعضهم: (وبعض القوم يخلق ثمَّ لا يفري)، فذلك إيجاد من الله بقدر وتسوية، والعطف على ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ لا على ﴿الْحَمْدُ للهِ﴾، وفي الجعل

تحصيل شيءٍ من شيءٍ، أو تصييره إيَّاه، أو نقلٌ منه إليه، ولذلك سُلِّط على ﴿الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ إذ لم تقم الظلمة والنور بأنفسهما كما زعمت المجوس الثنويَّة أنَّ النور والظلمة قائمان بأنفسهما غير مخلوقين، وأنَّ خالقَ كلِّ خيرٍ النورُ وكلِّ شرٍّ الظلمةُ.

٥. من المجوس من قال: النور خلقه هرمز، أي: الله، والظلمة خلقها الشيطان، ومن المجوس من قال يزدان خلق النور وهو الله، وهرمز خلق الشرَّ، وهرمز في هذا القول الشيطان، والآية ردٌّ عليهم.

٦. والله خالق كلِّ شيء، إلا أنَّه خصَّ الظلمات والنور لأنَّهم أعظم المخلوقات للناظرين، و(ال) للاستغراق أو الحقيقة، حتَّى إنَّه قيل: شملت نور العلم والإيمان، وظلمة الجهل والكفر، كما شملت نور الشمس والقمر والنجوم والنار وكلَّ ما له نور، وظلمةَ الليل والكسوف والخسوف، وقيل: الأجرام النيِّرة كالكواكب لا ضوء لها فلا ظلمة لها، وجَمَعَ الظلمة لكثرة الأجرام الحاصلة لها، وكثرة أسبابها، وهو تخلُّل الجرمِ الكثيفِ بين النَّيِّر والمحلِّ المظلم، وكلُّ جرم له ظلٌّ وهو ظلمة، بخلاف النور فإنه جنس واحد، وذلك التخلُّل يكثر بكثرة الأجرام المتخلِّلة، بخلاف النور فإن سببه ليس إلا النَّار والكواكب، بل قيل: الكواكب وكلُّ نيِّر من النَّار، ألا ترى أنَّ الضوء القويَّ حارٌّ؟ كما قيل: الكواكب نوريَّة ناريَّة، وإنَّ الشُّهب تنفصل عنها، والنور يدركه البصر أوَّلاً وبواسطته يُدرك سائر المبصَرات، والظلمة عدم النور فيما يقبله، وقيل: الظلمة: الكيفيَّة الوجوديَّة المضادَّة للنور، استدلالاً بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، كما أنَّ الأَعدام غير مخلوقة، قلت: الحقُّ أنَّ الأَعدام التي بعد الأزل المنبئة على وجود ضِدِّها الثابتة بفقد ضِدِّها وجوديَّة مخلوقة، كالظلمة بعد النور، والأعدام الصرفة غير وجوديَّة فلم تخلق، وأمَّا كثرة الظلمة بمعنى الضلال، وقِلَّة النور بمعنى الهدى فلأنَّ الهدى واحد، ووجوه الضلال متعدِّدة، والظلمة عَرَض يضادُّ النور، ووجوديٌّ، بدليل الجعل في الآية؛ وَقَدَّمَها لتقدُّم الأعدام على الملكة، أعني: الوجود، والظلمة سابقة على النور.

٧. ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ عطف على (الْحَمْدُ لله)؛ لأن المعنى أنَّ الله حقيق بالحمد على صفاته وأفعاله ونعمه وهم لم يوفوه حقَّه في الحمد، بل كفروا وعدلوا، أي: سوَّوا به غيره مِمَّا ليس له ذلك الوصف، وما معه من الأوثان وغيرها، و(ثُمَّ) لِبُعد ذلك عقلاً وشرعًا مبالغةً في ذمِّهم، كما بالغ فيه بتقديمه تحقيقًا للاستبعاد، وبالإظهار في موضع الإضمار تحقيقًا لاستبعاد أن يُكْفَرَ بمن هُو ربٌّ منعم قادرٌ، أو تُعَلَّق

الباء بـ (كَفَرُوا)، يُقَدَّرُ مثله لـ (يَعْدِلُونَ)، أو يُقَدَّرُ: يعدلون عنه، أي: يميلون.

٨. والكفر بمعنى الإشراك وبمعنى كفر النعمة، والآية دَلِيل على التوحيد، والتي بعدها إلى قوله: ﴿تَمْتَرُونَ﴾ دَلِيل على البعث.

٩. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ بخلق أبيكم آدم منه، إذ ما كنتم إلا منه، وهو من طين، فكأنَّكم من طين بلا توسُّط آدم، ويروى عنه ﷺ: (ما من مولود يولد إلا ويدرُّ على النطفة من تراب قبره)، وعلى هذا فهو من طين بلا توسُّط من آدم، وعلى تقدير صحَّة الحديث لا نسلِّم أنَّ درَّ التراب على النطفة خلق من التراب، ويجوز أن تكون الواسطة الغذاءُ المتولِّد من تراب، أو ممَّا تولَّد منه، أو يُقَدَّرُ مضاف، أي: خلق أباكم من طين، ومن خُلِق من طينيٍّ فهو طِينيٌّ، والخطاب لِلكُفَّارِ على طريق الالتفات، وخَلْقُ السماوات والأرض والظلمة والنور دلائل قَوِيَّة على قدرته تعالى على البعث، وعقَّبها بخلفهم من طين لأن دَلِيل الأنفس أقرب إلى الناظر.

١٠. ﴿ثُمَّ قَضَى﴾ في الأزل، أي: قدَّر وحكم ﴿أَجَلاً﴾ للموت، و(ثُمَّ) لترتيب الذكر؛ لأن الخلق مُتَأَخِّر عن القضاء الذي هو الإرادة الأزليَّة والعناية الإلهيَّة المقتضية لنظام الموجودات على ترتيب خاصٍّ، والقَدَرُ: وجودهنَّ خارجًا، وهو تعلُّق تلك الإرادة بالأشياء في أوقاتها، أو قضى: بمعنى أظهر في اللوح المحفوظ وللملائكة، فتكون (ثُمَّ) لترتيب الزمان، وفي البخاري ومسلم وغيرهما عنه ﷺ: (إنَّ أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمِّه أربعين يومًا نطفةً ثمَّ يكون علقة مثل ذلك، ثمَّ يكون مضغة مثل ذلك، ثمَّ يرسل الله إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقيٌّ أو سعيد)

١١. ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ مثبَت مُعَيَّن لا يقبل التغيير، ومعلوم ومذكور في اللوح المحفوظ ﴿عِندَهُ﴾ هو يوم القيامة، وصفه بأنه عنده إشعارًا بأنه لا مدخل ولا قدرة لغيره فيه ولا علم، بخلاف الأجل المذكور أوَّلاً، فقد يكون معلومًا عندنا على التعيين، كما يوحى به للأنبياء، ونعلم أيضًا مدَّة حياة الإنسان إذا شاهدنا موته أو أُخبرنا به، وعلمنا عمره، وذلك بعد الموت، وإنما انتفى قبل موته؛ قال الله تعالى في موضع موته: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]

١٢. والأجل: آخر المدَّة، وقد يطلق أيضًا على المدَّة، كما قال ابن عبَّاس : (لكل أحد أجلان: أجلٌ من ابتداء الخلق إلى الموت، وأجل من الموت إلى البعث، فإن كان برًّا تقيًّا وَصولاً لرحمه زيد له من أجل

البعث في أجل العمر، وإن كان فاجرًا قاطعًا لها نقص من أجل العمر في أجل البعث)، والآية قابلة لهذا، والمعنى: أنَّه قضى له بطول العمر لِبِرِّه أو بِقِصَرِهِ لفجوره، وقيل: الزيادة والنقص: البركة في العمر وعدمها، أو (أجل) الأول في الآية أجل الماضين، والثاني أجل الباقين، وخصَّ الثاني بالعنديَّة لأنَّه لا يعلمه غيره، أو الأول أجل الطبيعة الذي لو بقي الشخص على طبيعته، ومزاجه المختصِّ به، ولم تعرض له آفة خارجة لانتهت إلى أن تنحلَّ رطوبته وتنطفئ حرارته الغريزة فيموت، وكلُّ ذلك بخلق الله تعالى ؛ والثاني أجلُ الاخترام بنحو القتل والغرق، أو الأول للنوم والثاني للموت، وقيل: الأول: الأجل وقت حياته في الدُّنيا، والثاني: أجل الآخرة الذي لا آخر له، ونسب لمجاهد وسعيد بن جبير، وانظر كيف يطلق الأجل على المدَّة التي لا نهاية لها، الجواب أنَّ المراد بالأجل مدَّة لها نهاية وزمان لا ينتهي.

١٣ . ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ تشكُّون أيها المشركون في البعث، و(ثُمَّ) لاستبعاد أن يكون امتراؤهم حَقًّا جائزًا بعد أن ثبت عندهم أنَّه خالقهم، وخالق أصولهم، ومحييهم إلى آجالهم، فكيف لا يَقْدِر على ردِّهم بعد الموت؟ فإنه أهون من خلقهم في بادي الرأي، وسواء في الحقيقة.

١٤ . ﴿وَهُوَ﴾ أي: الله، بمعنى واجب الوجود، أو الشأن، فتكون الجملةُ بعده خبرَه، ﴿اللهُ﴾ أي: المعبود، ولتضمُّنه معنى المعبود علِّق به قوله: ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الاَرْضِ﴾ وذلك نظر إلى أصل لفظ الجلالة في الاشتقاق، فيجوز أن يتعلَّق به أيضًا اعتبارًا لمعنى العلوِّ أو التحيُّر إليه، أي: العالي الشأن فيهما، أو المتحيَّر إليه فيهما، أو باعتبار معنى المالك أو المتصرِّف أو نحو ذلك، أو تعلَّق به لملاحظة أحد تلك المعاني بلا نظر إلى اشتقاق، فصلح التَّعَلُّق ولو على القول بعدم الاشتقاق، كما علِّق بأسد لملاحظة مَعنَى الشجاع بلا اشتقاق في لفظ أسد، أو عَبَّرَ عن علمه بما فيهما بكونه فيهما تعالى عن الكِنِّ، ويضعف تقدير: (وهو الله المعبود أو المدبِّر في السماوات وفي الأرض)، لقلَّة حذف النعت، ويضعف تعليقه بـ (سِرَّكُمْ) لضعف تقدُّم معمول المصدر ولو ظرفًا، إلا أنَّه يسهِّله أنَّ هذا المصدر ليس منحلًّا إلى حرف المصدر والفعل، مع أنَّ المعمول ظرف، ويضعفُ التعليق بـ (يَعْلَمُ) من قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وجَهْرَكُمْ﴾ لأنَّه يوهم استقراره فيهما حاشاه، وكون المعمول فيهما لا يسيغ هذا التعليق كما قيل، وأمَّا قولك: رميت الصيد في الحرم، إذا رميته وأنت في غير الحرم فأساغه أنَّ الرمي صادفه في الحرم، أو في الحرم حال من الصيد، والسرُّ: أفعال القلوب، والجهر: أفعال الجوارح.

١٥. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ يعلم نفس المكسوب من طاعة أو معصية، ومن ثواب أو عقاب، فيجازيكم، أو السرُّ والجهر: ما قد يخفى وقد يظهر، و(مَا تَكْسِبُونَ): أفعال الجوارح، ودخل في الكسب الترك لوجه الله تعالى كترك المعصية لوجه الله تعالى.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي جميع المحامد، بما حمد به نفسه أو خلقه، أو حمد به الخلق ربهم، أو بعضهم، مخصوص به، ثم أخبر عن قدرته الكاملة، الواجبة لاستحقاقه لجميع المحامد بقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ خصهما بالذكر، لأنهما أعظم المخلوقات، فيما يرى العباد، وفيهما العبر والمنافع، لأن السموات بأوضاعها وحركاتها أسباب الكائنات والفاسدات التي هي مظاهر الكمالات الإلهية، والأرض مشتملة على قوابل الكون والفساد التي هي المسببات، ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ أي: أوجدهما منفعة لعباده، في ليلهم، ونهارهم، والمقصود من الآية التنبيه على أن المنعم بهذه النعم الجسام هو الحقيق بالحمد والعبادة، دون ما سواه.

٢. لفظ (جعل) يتعدى إلى واحد إذا كان بمعنى أحدث وأنشأ، كما هنا؛ وإلى مفعولين إذا كان بمعنى (صيّر) كقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف: ١٩]، والفرق بين (الخلق) و(الجعل) أن الخلق فيه معنى التقدير، وفي (الجعل) معنى التضمين، كإنشاء شيء من شيء أو تصيير شيء شيئا، أو نقله من مكان إلى مكان، ومن ذلك: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [الزمر: ٦]، وإنما حسّن لفظ (الجعل) هاهنا، لأن النور والظلمة لما تعاقبا، صار كأن كل واحد منهما إنما تولد من الآخر ـ قاله الرازيّ ـ وسبقه إليه الزمخشريّ.

٣. قال الناصر في (الانتصاف): وقد وردت ﴿جَعَلَ﴾ و﴿خَلَقَ﴾ موردا واحدا، فورد: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]، وورد: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وذلك ظاهر في الترادف، إلا أن للخاطر ميلا إلى الفرق الذي أبداه الزمخشري، ويؤيده أن ﴿جَعَلَ﴾ لم يصحب السموات والأرض،

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/٣١٠.

وإما لزمتها ﴿خَلَقَ﴾، وفي إضافة (الخلق) في هذه الآية إلى السموات والأرض، و(الجعل) إلى الظلمات والنور، مصداق للمميّز بينهما.

٤. سؤال وإشكال: لم جمعت السموات دون الأرض مع أنها مثلهن لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، وفي الحديث: هل تدرون ما هذه؟ قالوا: هذه أرض، هل تدرون ما تحتها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم؟ قال أرض أخرى، وبينهما مسير خمسمائة عام، حتى عدّ سبع أرضين، بين كل أرضين مسيرة خمسمائة عام ـ أخرجه الترمذيّ، وأبو الشيخ عن أبي هريرة؟ والجواب: لأن السموات طبقات متفاضلة بالذات، مختلفة بالحقيقة، بخلاف الأرضين ـ كما قاله البيضاوي ـ، وقال الرازي: (إن السماء جارية مجرى الفاعل، والأرض مجرى القابل، فلو كانت السماء واحدة لتشابه الأثر، وذلك يخلّ بمصالح هذا العالم، أما لو كانت كثيرة اختلفت الاتصالات الكوكبية، فحصل بسببها الفصول الأربعة، وسائر الأحوال المختلفة، وحصل بسبب تلك الاختلافات مصالح هذا العالم، أما الأرض فهي قابلة للأثر، والقابل الواحد كاف في القبول)، وقدم السموات لشرفها وعلوّ مكانها.

٥. الظاهر في (الظلمات والنور) أن المراد منهما الأمران المحسوسان بحس البصر، والذي يقوي ذلك أن اللفظ حقيقة فيهما، والأصل اللفظ على حقيقته، ولأن (الظلمات والنور) إذا قرنا بالسموات والأرض، لم يفهم منهما إلا الأمران المحسوسان، ونقل عن بعض السلف أنه عنى بهما الكفر والإيمان، ورجح الرازي الأول لما ذكر، ووجه بعضهم الثاني بأن المعنى: (أنه لما خلق السموات والأرض، فقد نصب الأدلة على معرفته وتوحيده، ثم بيّن طريق الضلال، وطريق الهدى، بإنزال الشرائع والكتب السماوية، ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ فناسب المقام (ثم) الاستبعادية، إذ يبعد من العاقل الناظر بعد إقامة الدليل، اختيار الباطل)، وعليه فجمع (الظلمات) وتوحيد (النور) ظاهر، لأن الهدى واحد، والضلال متعدد، كما قال في آخر هذه السورة: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وعلى الأول، فجمعها لظهور كثرة أسبابها ومحالها عند الناس، فإن لكل جرم ظلمة، وليس لكل جرم نور، وأما تقديمها فلسبقها في التقدير والتحقق، على النور.

٦. ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ معطوف على الجملة السابقة الناطقة بما مر من موجبات اختصاصه تعالى، بالحمد المستدعى لاقتصار العبادة عليه، مسوق لإنكار ما عليه الكفرة، واستبعاده من

مخالفتهم لمضمونها، واجترائهم على ما يقضي ببطلانه بديهة العقول، والمعنى أنه تعالى مختص باستحقاق الحمد والعبادة، باعتبار ذاته، وباعتبار ما فصل من شؤونه العظيمة الخاصة به، الموجبة لقصر الحمد والعبادة عليه، ثم هؤلاء الكفرة لا يعملون بموجبه، ويعدلون به سبحانه، أي: يسؤون به غيره في العبادة التي هي أقصى غايات الشكر، الذي رأسه الحمد، مع كون كل ما سواه مخلوقا له، غير متصف بشيء من مبادئ الحمد.

٧. كلمة (ثم) لاستبعاد الشرك بعد وضوح ما ذكر من الآيات التكوينية، القاضية ببطلانه، و(الباء) متعلقة بـ(يعدلون) ووضع (الرب) موضع ضميره تعالى، لزيادة التشنيع والتقبيح، والتقديم لمزيد الاهتمام والمسارعة إلى تحقيق مدار الإنكار والاستبعاد، والمحافظة على الفواصل، وترك المفعول لظهوره، أو لتوجيه الإنكار إلى نفس الفعل، بتنزيله منزلة اللازم، إيذانا بأنه المدار في الاستبعاد، لا خصوصية المفعول، هذا هو الحقيق بجزالة التنزيل ـ أفاده أبو السعود ـ، ثم ناقش ما وقع للمفسرين هنا مما يخالفه، فانظره.

٨. وأصل (العدل) مساواة الشيء بالشيء والمعنى: أنهم يجعلون له عديلا من خلقه، مما لا يقدر على شيء فيعبدون الحجارة، مع إقرارهم بأن الله خلق السموات والأرض.

٩. وقال النضر بن شميل: (الباء) بمعنى (عن) أي: عن ربهم يعدلون وينحرفون، من العدول عن الشيء.

١٠. قال ابن عطية: (ثم) دالة على قبح فعل الذين كفروا، لأن المعنى أن خلقه السموات قد تقرر، وآياته قد سطعت، وإنعامه بذلك قد تبين، ثم بعد هذا كله قد عدلوا بربهم، فهذا كما تقول: أعطيتك وأحسنت إليك، ثم تشتمني؟ ولو وقع العطف في هذا ونحوه بـ(الواو) لم يلزم التوبيخ كلزومه بـ(ثم)، أي: ففيها الدلالة على التوبيخ والإنكار، كالتعجيب أيضا، قال أبو حيان: (هذا الذي ذهب إليه ابن عطية من أن (ثم) للتوبيخ، والزمخشري من أنها للاستبعاد ـ مفهوم من سياق الكلام، لا من مدلول (ثم))، وإنما لم تحمل (ثم) على التراخي، مع استقامته، لكون الاستبعاد أوفق بالمقام، لأن التراخي الزمانيّ معلوم فيه، فلا فائدة في ذكره.

١١. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ استئناف مسوق لبيان بطلان كفرهم بالبعث، مع مشاهدتهم

لما يوجب الإيمان به، إثر بيان بطلان إشراكهم به تعالى، مع معاينتهم لموجبات توحيده، وتخصيص خلقهم بالذكر من بين سائر دلائل صحة البعث، مع أن ما ذكره من خلق السموات والأرض من أوضحها وأظهرها، كما ورد في قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١]، لما أن محل النزاع بعثهم، فدلالة بدء خلقهم على ذلك أظهر، وهم بشئون أنفسهم أعرف، والتعامي عن الحجة النيرة أقبح، والالتفات لمزيد التشنيع والتوبيخ، أي: ابتدأ خلقكم منه، فإنه المادة الأولى: للكل، لما أنه منشأ آدم الذي هو أبو البشر.

١٢. وإنما نسب هذا الخلق إلى المخاطبين، لا إلى آدم عليه السلام، وهو المخلوق منه حقيقة، بأن يقال: هو الذي خلق أباكم.. إلخ مع كفاية علمهم بخلقه عليه السلام منه، في إيجاب الإيمان بالبعث، وبطلان الامتراء ـ لتوضيح منهاج القياس، وللمبالغة في إزاحة الاشتباه والالتباس، مع ما فيه من تحقيق الحق والتنبيه على حكمة خفية: هي أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشائه، عليه السلام، منه، حيث لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه، بل كانت أنموذجا منطويا على فطرة سائر آحاد الجنس، انطواء إجماليا، مستتبعا لجريان آثارها على الكل، فكان خلقه عليه السلام من الطين خلقا لكل أحد من فروعه منه، ولما كان خلقه على هذا النمط الساري إلى جميع أفراد ذريته، أبدع من أن يكون ذلك مقصورا على نفسه، كما هو المفهوم من نسبة الخلق المذكور إليه، وأدل على عظم قدرة الخلاق العليم، وكمال علمه وحكمته، وكان ابتداء حال المخاطبين أولى بأن يكون معيارا لانتهائها ـ فعل ما فعل، ولله در شأن التنزيل! وعلى هذا السر مدار قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١١]، إلخ، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩]، كما سيأتي، وقيل: المعنى خلق أباكم منه، على حذف المضاف، وقيل: معنى خلقهم منه، خلقهم من النطفة الحاصلة من الأغذية المتكونة من الأرض، وأيا ما كان، فيه من وضوح الدلالة على كمال قدرته تعالى على البعث، ما لا يخفى، فإن من قدر على إحياء ما لم يشم رائحة الحياة قط، كان على إحياء ما قارنها مدة أظهر قدرة ـ أفاده أبو السعود ـ.

١٣. وفي (العناية): أن في الآية التفاتا، لأن الخطاب ـ وإن صح كونه عامّا ـ لكنه خاص بالذين كفروا، كما يقتضيه ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، ونكتته أن دليل الأنفس أقرب إلى الناظر من دليل الآفاق الذي في الآية السابقة، والشكر عليه أوجب، وقد أشير في كل من الدليلين إلى المبدأ والمعاد، وما بينهما.

١٤. ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ أي: كتب لموت كل واحد منكم أجلا خاصّا به، أي حدّا معينا من الزمان يفنى عند حلوله، أو كتب، لما بين أن يولد كل منكم إلى يوم أن يموت، أجلا، ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ أي: وحدّ معين لبعثكم جميعا، مثبت معيّن في علمه، لا يقبل التغيير، ولا يقف على وقت حلوله أحد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إلا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، فمعنى ﴿عِنْدَهُ﴾ أنه مستقل بعلمه.

١٥. ﴿أَجَل﴾ مبتدأ لتخصيصه بالصفة، ولوقوعه في موقع التفصيل، وتنوينه لتفخيم شأنه، وتهويل أمره، ولذلك أوثر تقديمه على الخبر الذي هو﴿عِنْدَهُ﴾، مع أن الشائع في مثله التأخير، كأنه قيل: وأيّ أجل معين في علمه لا يعلمه أحد لا مجملا ولا مفصلا، أما أجل الموت فمعلوم إجمالا وتقريبا، بناء على ظهور أماراته، أو على ما هو المعتاد في أعمار الإنسان.

١٦. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ استبعاد واستنكار لامترائهم في البعث، بعد معاينتهم لما ذكر من الحجج الباهرة الدالة عليه، أي: تمترون في وقوعه وتحققه في نفسه، مع مشاهدتكم في أنفسكم ما يقطع مادة الامتراء، فإن من قدر على خلق المواد وجمعها وإيداع الحياة فيها، وإبقائها ما يشاء، كان أقدر على جمع تلك المواد وإحيائها ثانيا.

١٧. ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ أي المعبود فيهما، ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ أي من الأقوال أو الدواعي والصوارف القلبية وأعمال الجوارح، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أي: ما تفعلونه من خير أو شر، فيثيب عليه ويعاقب، وتخصيصه بالذكر، مع اندراجه فيما سبق، على التفسير الثاني للسر والجهر ـ لإظهار كمال الاعتناء به الذي يتعلق به الجزاء، وهو السر في إعادة (يعلم)

١٨. قال الناصر في (الانتصاف): وما هاتان الآيتان الكريمتان ـ يعني هذه الآية وآية الزخرف، وهي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] ـ إلا توأمتان، فإن التمدح في آية الزخرف، وقع بما وقع التمدح به هاهنا من القدرة على الإعادة والاستئثار بعلم الساعة والتواجد في الألوهية، وفي كونه تعالى المعبود في السموات والأرض.

١٩. وقال ابن كثير: للمفسرين في هذه الآية أقوال، بعد اتفاقهم على إنكار قول الجهمية:

أ. الأول القائلين ـ تعالى عن قولهم علوا كبيرا ـ بأنه في كل مكان، حيث حملوا الآية على ذلك،

فالأصح من الأقوال أنه المدعوّ في السموات والأرض، أي: يعبده ويوحده ويقرّ له بالآلهية من في السموات ومن في الأرض، ويسمونه الله، ويدعونه ﴿رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، إلا من كفر من الجن والإنس، وهذه الآية ـ على هذا القول ـ كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾، أي: هو إله من في السماء وإله من في الأرض، وعلى هذا، فيكون قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ خبرا أو حالا.

ب. الثاني: إن المراد أنه الله الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض من سر وجهر، فيكون قوله: ﴿يَعْلَمُ﴾ متعلقا بقوله: ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ تقديره: وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات.. إلخ.

٢٠. الثالث: إن قوله: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ وقف تام، ثم استأنف الخبر فقال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ وهذا اختيار ابن جرير.

٢١. ورجح ابن عطية في الآية: أنه الذي يقال له ﴿اللهُ﴾ فيهما، قال: وهذا عندي أفضل الأقوال، وأكثرها إحرازا لفصاحة اللفظ، وجزالة المعنى، وإيضاحه: أنه أراد أن يدل على خلقه، وآيات قدرته، وإحاطته واستيلائه، ونحو هذه الصفات، فجمع هذه كلها في قوله: ﴿وَهُوَ اللهُ﴾ ـ الّذي له هذه كلّها ـ ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ كأنه قال وهو الخالق والرازق والمحيي والمميت فيهما.

٢٢. قال الرازي: الآية تدل على كون الإنسان مكتسبا للفعل، والكسب هو الفعل المفضي إلى اجتلاب نفع، أو دفع ضرّ، ولهذا السبب لا يوصف فعل الله بأنه كسب، لكونه تعالى منزّها عن جلب النفع، ودفع الضرّ.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ الحمد هو الثناء الحسن والذكر بالجميل ـ كما تقدم شرحه في سورة الفاتحة ـ وإسناد الحمد إلى الله تعالى خبر منه تعالى على المختار، والعبد يحكيه بالتلاوة مؤمنا به فيكون حامدا لمولاه، ويذكره في غير التلاوة إنشاء للحمد وتذكرا له، ويجوز

(١) تفسير المنار: ٧/٢٤٤.

أن يكون الحمد هنا إنشاء منه تعالى؛ وأن إنشاء الحمد بالجملة الخبرية جمع بين الخبر والإنشاء، أثنى سبحانه على نفسه بما علم به عباده الثناء عليه، فأثبت أن كل ثناء حسن ثابت له بالاستحقاق، وبما هو متصف به من الخلق والإيجاد والإعداد والإمداد، فذاته تعالى متصفة بجميع صفات الكمال وجوبا فالكمال الأعلى داخل في مفهوم حقيقتها أو لازم بين من لوازمه، وقد وصف تعالى نفسه في مقام هذا الحمد بصفتين من صفاته الفعلية التي هي من موجبات الحمد له وهما خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور:

أ. أما خلق السماوات والأرض فمعناه إيجاد هذه العوالم العلوية التي نرى كثيرا منها فوقنا وهذا العالم الذي نعيش فيه إيجادا مرتبا منظما، وقد تقدم القول في معنى الخلق لغة وشرعا.

ب. وأما جعل الظلمات والنور فهو في الحسيات بمعنى إيجادهما لأن هذا هو معنى الجعل المتعدي إلى مفعول واحد وسيأتي بيان معناه في المعنويات، قال الزمخشري في الكشاف: جعل يتعدى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى أحدث وأنشأ كقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ إلى مفعولين إذا كان بمعنى صير كقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف: ١٩] والفرق بين الخلق والجعل أن الخلق فيه معنى التقدير، وفي الجعل معنى التضمين كإنشاء شيء من شيء أو تصيير شيء شيئا، أو نقله من مكان إلى مكان؛ ومن ذلك: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ لأن الظلمات من الأجرام المتكاثفة والنور من النار ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا﴾ [الرعد: ٣٨] ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥]

٢. وقد أخذه الرازي من غير عزو وزاد عليه قوله: وإنما حسن لفظ الجعل هنا لأن النور والظلمة لما تعاقبا صار كل واحد منهما كأنما تولد من الآخر.

٣. وقال أبو السعود: والجعل هو الإنشاء والإبداع كالخلق خلا أن ذلك مختص بالإنشاء التكويني وفيه معنى التقدير والتسوية، وهذا عام له ـ كما في الآية الكريمة ـ وللتشريع أيضا كما في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ﴾ [المائدة: ١٠٣] الآية.

٤. وفيه كلام آخر فيما يلابس مفعوله من الظروف، وقد بينا في تفسير قوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧] أن الجعل فيها خلقي تكويني وأمري شرعي معا، وقد بين الراغب في مفرداته وجوه استعمال الجعل فكانت خمسة فليراجعها في مفرداته من شاء.

٥. والظلمة الحالة التي يكون عليها كل مكان ليس فيه نور، لا عدم النور ـ أي فقده ـ كما يوهمه كلام كثير من العلماء مع قولهم أن الظلمة هي الأصل كما سيأتي، قال الراغب: الظلمة عدم النور، وقال النور الضوء المنتشر الذي يعين على الإبصار، وقال: الضوء ما انتشر من الأجسام النيرة، ويقال ضاءت النار وأضاءها غيرها، اه، وفرق بعضهم بين الضياء والنور بما لا محل لذكره هنا، ولا يوجد شيء في العالم أظهر من النور والضوء ولا أغنى عن التعريف، وحسبك أنه هو الظاهر بنفسه المظهر لغيره من المبصرات، فهو أعظم المظاهر الحسية للرب تبارك وتعالى، على أن بيان حقيقته العلمية من أعسر الأمور، وكثيرا ما كان الخفاء من شدة الظهور، وأقرب ما نعرفه به للجمهور أن نقول هو اشتعال يحدث في أجسام لطيفة منبثة في الهواء وفي الأجسام الكثيفة التي تستوقد بها النار.

٦. والنور قسمان حسي صوري وهو ما يدرك بالبصر، ومعنوي عقلي أو روحي وهو ما يدرك بالبصيرة، وقد أطلقت كلمة النور في التنزيل على القرآن، وعلى النبي ﷺ، كما تقدم في سورتي النساء والمائدة.

٧. وقد أفرد النور وجمعت الظلمة هنا وفي كل آية قوبل فيها بين النور والظلام سواء كان ذلك في الحسي أو المعنوي، بل لم يذكر النور في القرآن إلا مفردا والظلمة إلا جمعا، وحكمة ذلك أن النور شيء واحد وإن تعددت مصادره ولكنه يكون قويا ويكون ضعيفا، وأما الظلمة فهي تحدث بما يحجب النور من الأجسام غير النيرة وهي كثيرة جدا، وكذلك النور المعنوي شيء واحد في كل نوع من أنواعه أو جزئي من جزئياته، ويقابل كلا منها ظلمات متعددة، فالحق واحد لا يتعدد والباطل الذي يقابله كثير، والهدى واحد لا يتعدد والضلال الذي يقابله كثير، مثال ذلك توحيد الله تعالى وما يقابله من التعطيل والشكر في الألوهية بأنواعه والشكر في الربوبية بأنواعه ـ وفضيلة العدل وما يقابلها من أنواع الظلم، وقد بينا ذلك في تفسير سورتي البقرة والمائدة.

٨. وقدمت الظلمات في الذكر على النور لأن جنسها مقدم في الوجود فقد وجدت مادة الكون وكانت دخانا مظلما ـ أو سديما كما يقول علماء الفلك ـ ثم تكونت الشموس بما حدث فيها من الاشتعال من شدة الحركة كما يقولون، ويشير إليه أو يؤيده حديث عبد الله بن عمرو عند أحمد والترمذي: (إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره ـ وفي رواية ثم ألقى عليهم من نوره ـ فمن أصابه نوره

اهتدى ومن أخطأه ضل) والظاهر أن هذا النور هو المعنوي من حيث إنه مشبه بالنور الحسي في تكوينه، وأما حديث عائشة عند مسلم (خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم) فالظاهر أن النور فيه هو الحسي، ولا يقتضي ذلك أن ترى الملائكة كما يرى النور فالفرق بين الشيء وما خلق منه أصله عظيم كما نراه في أنفسنا، ويجوز أن يكونوا من نور غير هذا الذي نراه بأعيننا.

٩. وسبق الظلمات المعنوية للنور المعنوي أظهر، فإن نور العلم والهداية كسبي في البشر، وما كان غير كسبي في ذاته كالوحي فتلقيه كسبي وفهمه والعمل به كسبيان، وظلمات الجهل والأهواء سابقة على هذا النور، فالرسول لا يولد رسولا وإنما يؤتى الرسالة إذا بلغ أشده واستوى، والعالم لا يولد عالما ولا الفاضل فاضلا (إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم) ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]

١٠. وقد اختلف مفسرو السلف في المراد من الظلمات والنور هنا[1]. وجملة القول أن بعضهم قال بأن المراد بالظلمات هنا الظلمات الحسية وبالنور النور الحسي، وبعضهم قال بما يقابل ذلك، وفي القول الأول رد على المجوس أو الثنوية الذين زعموا أن للعالم ربين أحدهما النور وهو الخالق للخير والثاني الظلمة وهو خالق الشر، ويجوز الجمع بين إرادة الحسي والمعنوي من كل من اللفظين ـ وقال الواحدي: الأولى: حمل اللفظين عليهما ـ واستشكله الرازي لأنه مبني على القول بجواز الجمع بين الحقيقة والمجاز والمختار عندنا جوازه وجواز استعمال المشترك في معنييه أو معانيه إذا احتمل المقام ذلك بلا التباس كما هنا، والتعبير بالجعل دون الخلق يلائم هذا، فإن الجعل يشمل الخلق والأمر ـ أي الشرع ـ كما تقدم، فيفسر جعل كل نور بما يليق به، فجعل الدين شرعه والقرآن إنزاله والرسول إرساله والعلم والهدى تهيئة أسبابهما.

١١. وقدم ذكر خلق السماوات على خلق الأرض لأنه أعظم وأشرف، وقيل لأنها خلقت قبل الأرض كما ذكر عن قتادة آنفا، والأول أظهر وفي الثاني خلاف معروف.

١٢. ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ هذه الجملة معطوفة على جملة ﴿الْحَمْدُ للهِ﴾ أو على جملة ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وقد عطفت بثم الدالة على بعد ما بين مدلولي المعطوف والمعطوف عليه

---

(١) ذكر هنا بعض الأحاديث والآثار، التي سبق ذكرها.

لإفادة استبعاد ما فعله الكافرون وكونه ضد ما كان يجب عليهم للإله الحقيق بجميع المحامد لكونه هو الخالق لجميع الكون العلوي والسلفي وما فيه الظلمات الحسية والمعنوية، والهادي لما فيه من النور الذي يهتدي به الموفقون في كل ظلمة منها، كأنه قال وهم مع ذلك يعدلون به غيره، أي يجعلونه عدلا له أي عديلا مساويا له في كونه يعبد ويدعى لكشف الضر وجلب النفع، فهو بمعنى يشركون به ويتخذون له أندادا، وقيل يعدلون بأفعاله عنه وينسبونها إلى غيره ممن لم يجعله سببا لتلك الأفعال كالمعبودات التي ينسبون إليها ما ليس لها أدنى تأثير فيه، وأدنى من هذا تنسب إلى الأسباب مع نسيان فضل الله الذي سخر لهم تلك الأسباب، وإنما الواجب معرفة السبب والخلق الواضع للأسباب رحمة منه بالعباد، وقيل معناه يعدلون عن الحق وهو التوحيد وما يستلزمه من حمد الخالق وشكره، من قولهم عدل عن الشيء عدولا إذا جاز عنه وانحرف، ومال إلى غيره وانصرف.

١٣. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ هذا كلام مستأنف جاء على الالتفات عن وصف الخالق تعالى بما دل على حمده وتوحيده إلى خطاب المشركين الذين عدلوا به غيره في العبادة، يذكرهم به بما هو ألصق بهم من دلائل التوحيد والبعث، وهو خلقهم من الطين وهو التراب الذي يخالطه الماء فيكون كالعجين إذ كانت حالتها مناسبة لحدوث التولد الذاتي، بل خلق كل فرد من أفراد البشر من سلالة من طين، فبنية الإنسان مكونة من الغذاء ومنه ما في رحم الأنثى من جراثيم النسل، وما يلقحه من ماء الذكر، فهو متولد من الدم والدم من الغذاء، والغذاء من نبات الأرض أو من لحوم الحيوان المتولد من الأرض، فمرجع كل إلى النبات، وإنما النبات من الطين، ومن تفكر في هذا ظهر له ظهورا جليا أن القادر عليه لا يعجزه أن يعيد هذا الخلق كما بدأه إذا هو أمات هذه الأحياء بعد انقضاء آجالها التي قضاها لها في أجل آخر يضربه لهذه الإعادة بحسب علمه وحكمته.

١٤. والأجل في اللغة هو المدة المضروبة للشيء أي المقدار المحدود من الزمان، وقضاء الأجل يطلق على الحكم به وضربه للشي، وعلى القيام بالشيء وفعله، إذ أصل القضاء: فصل الأمر قولا كان ذلك أو فعلا ـ كما قال الراغب ـ مثال الأول أن شعيبا عليه السلام قضى أجلا لخدمة موسى له ثماني سنين وأجلا آخر اختياريا سنتين، فهذا قضاء قولي، وقد قضى موسى عليه السلام الأجل المضروب كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ [القصص: ٢٩] الآية ـ وذلك قضاء فعلي، والقضاء قد يكون نفسيا كأن

يضرب الإنسان في نفسه أجلا لعمل يعمله بأن يكون في نهار أو ساعة من نهار، ويعد هذا من القضاء القولي، لأنه من متعلق الكلام النفسي ـ على أن الكلام إنما يكون على مقتضى العلم ـ وقد يقضيه ويفصل فيه كتابة، فالقضاء القولي يشمل الكلام النفسي وما هو مظهر له من لفظ أو كتاب أو غير ذلك.

١٥. وقد أخبرنا عز وجل أنه قضى لعباده أجلين ـ أجلا لمدة حياة كل فرد منهم ينتهي بموت ذلك الفرد ـ وأجلا لإعادتهم وبعثهم بعد موت الجميع وانقضاء عمر الدنيا، وقيل إن الأجل الآخر هو أجل حياة مجموعهم الذي ينقضي بقيام الساعة وقيل غير ذلك: جاء في تفسير الحافظ ابن كثير في تفسير الأجلين ما نصه: قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: (ثم قضى أجلا) يعني الموت (وأجل مسمى عنده) يعني الآخرة، (وعزاه أيضا إلى ١٠ من التابعين) وقول الحسن في رواية عنه: (ثم قضى أجلا) وهو ما بين أن يخلق إلى أن يموت (وأجل مسمى عنده) وهو ما بين أن يموت إلى أن يبعث ـ هو يرجع إلى ما تقدم وهو تقدير الأجل وهو عمر كل إنسان، وتقدير الأجل العام هو عمر الدنيا بكمالها ثم انتهاؤها وقضاؤها وزوالها والمصير إلى الدار الآخرة.

١٦. وعن ابن عباس ومجاهد ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ يعني مدة الدنيا ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يعني عمر الإنسان إلى حين موته، وكأنه مأخوذ من قوله تعالى بعد هذا ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] الآية وقال عطية عن ابن عباس ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ يعني النوم يقبض الله فيه الروح ثم يرجع (أي الروح) إلى صاحبه عند اليقظة ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يعني أجل موت الإنسان، وهذا قول غريب) ما أورده ابن كثير، وهذا القول الذي استغربه مأخوذ من قوله تعالى في سورة الزمر ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأخرى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢] ولكن الأجل المسمى هنا هو الموت ولم يسم التوفي الأول وهو النوم أجلا، على أن القرآن استدلّ على البعث بالنوم واليقظة في آية الأنعام الآتية وآية الزمر وغيرهما كقوله في سورة النمل: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [النمل: ٨٦]

١٧. هذا وإن من تتبع ذكر الأجل المسمى في القرآن في سياق الكلام عن الناس يراه قد ورد في عمر الإنسان الذي ينتهي بالموت فراجع في ذلك سورة هود: ٣ والنحل: ٦١ وطه: ٢٧ والحج: ٥ والعنكبوت: ٥٣ وفاطر: ٤٥ والزمر: ٣٩ وغافر: ٦٧ ونوح: ٤ وقد ذكر بعضها آنفا، فإذا عد هذا مرجحا

يتسع مجال تأويل الأجل الأول في الآية وهو الذي لم يوصف بالمسمى، فيحتمل ما تقدم من أنه النوم وغير ما تقدم من الأقوال التي قالها مفسرو الخلف ومنها ما عزاه الرازي إلى حكماء الإسلام من (أن لكل مسلم أجلين أحدهما الآجال الطبيعية والثاني الآجال الاخترامية، أما الآجال الطبيعية فهي التي لو بقي ذلك المزاج مصونا من العوارض الخارجية لانتهت مدة بقائه إلى الوقت الفلاني، وأما الآجال الاخترامية فهي التي تحصل بسبب من الأسباب العارضة كالغرق والحرق ولدغ والحشرات وغيرها من الأمور المعضلة) ومنها أنه ما انقضى من عمر كل أحد، ومنها قول أبي مسلم أنه ما انقضى من آجال الأمم الماضية، والمسمى عنده أجل من يأتي من الأمم لأنه لا يزال غيبا ومعنى مسمى عنده أي لا يعلمه غيره، كذا قالوا وهذا إنما يظهر إذا أريد بهذا الأجل الساعة أي القيامة، لأنها هي التي لم يطلع عليها ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا.

١٨ . وأما إذا أريد به الموت فالأظهر أن يكون معنى كونه مسمى عنده أنه مكتوب عنده في الكتاب الذي كتب به مقادير السماوات والأرض وفيها يكتبه الملك عندما ينفخ الروح في الجنين كما ثبت في حديث الصحيحين (ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد) فمعنى العندية إذا اختصاص ذلك بالعالم العلوي الذي لا يصل إليه كسبنا، فهي عندية تشريف وخصوصية، وهذه الكتابة كالعلم الإلهي بالشيء لا تقتضي الجبر ولا سلب اختيار العباد، كما بيناه في مواضع كثيرة.

١٩ . ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ هو كقوله قبله ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ في دلالته على استبعاد الامتراء وهو الشك في البعث من الإله القدير الذي خلقكم وقدر آجالكم فدل ذلك على قدرته وحكمته دلالة لا تبقى لاستبعاد البعث وجها، فإذا كان سبب الاستبعاد عدم رؤية مثال لهذا البعث ـ وهو الواقع ـ فمثله أنكم لا ترون مثلا لخلق أصلكم وجدكم الأول من تراب ولا لخلق غيركم من أنواع الحيوان، فإن التولد الذاتي لا يقع في هذه الأزمان، خلافا لما كان يتوهّمه علماء القرون الماضية في تولد دود الفاكهة والجبن والفئران.

٢٠ . ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ اسم الجلالة (الله) علم لرب العالمين خالق السماوات والأرض، وقد كان هذا معروفا عند مشركي العرب، قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١] ومثلها في سورة الزمر: ٣٩ وفي معنى هذا السؤال والجواب آيات كثيرة وردت في سياق إثبات التوحيد والبعث ـ

راجع من آية ٨٠ إلى ٩٠ من سورة المؤمنين ومن آية ٦١ إلى ٧٠ من سورة النمل، فمن هذه الآيات تعلم أن اسم الجلالة يشمل هذه الصفات أو يستلزمها، فمعنى الآية أن الله تعالى هو الله تعالى المتصف بهذه الصفات المعروف والمعترف له بها في السماوات والأرض، كما تقول أن حاتما هو حاتم في طي وفي جميع القبائل ـ أي هو المعروف بالجود المعترف له به في كل قومه وفي غيرهم، وأن فلانا هو الخليفة في مملكته وفي جميع البلاد الإسلامية، وفي معنى هذا قوله تعالى في أواخر الزخرف ٨٤: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤] الخ الآيات.

٢١. وجعل بعضهم المعنى الاشتقاقي في الاسم الكريم إما المعبود وإما المدعو، وهذا هو معنى (الإله) وهو داخل في مفهوم الاسم الأعظم، والمعنى على هذا: كمعنى آية الزخرف أي وهو المعبود أو المدعو في السماوات والأرض، وقال الحافظ ابن كثير إنه الأصح من الأقوال، وفي الآيات وجوه أخرى: فمنها أنه المعروف بالإلهية أو المتوحد بالإلهية فيهما ـ ومنها أنه الذي يقال له الله فيهما لا يشرك به في هذا الاسم، وقيل إن ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ متعلق بما بعده وفيه إشكال نحوي وإشكال معنوي.

٢٢. وزعمت الجهمية أن المعنى أن الله تعالى كائن في السماوات والأرض، ومنه أخذوا قولهم أنه في كل مكان، والله أعلى وأجل مما قالوا فهو بائن من خلقه غير حال فيه كله ولا في جزء منه، وما صح من إطلاق كونه في السماء ليس معناه أنه حال في هذه الأجرام السماوية كلها أو بعضها، وإنما هو إطلاق لإثبات علوه على خلقه غير مشابه لهم في شيء بل هو بائن منهم ليس كمثله شيء أما جملة ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ فهي تقرير لمعنى الجملة الأولى: لأن الذي استوى في علمه السر والعلانية هو الله وحده، وإلا فهو كلام مبتدأ بمعنى: هو يعلم سركم وجهركم، أو خبر ثان قيل أو ثالث ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ من الخير والشر فيجازيكم عليه.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ أي الحمد والشكر للذي

(١) تفسير المراغي ٧/٧٢.

خلقكم وخلق السموات والأرض فهو المستوجب للحمد بنعمه عليكم، لا من تعبدون من دونه وتجعلونه له شريكا من خلقه، والمراد بالسماوات والأرض: العوالم العلوية التي يرى كثير منها فوقنا وهذا العالم الذي نعيش فيه، وكذلك الذي أوجد الظلمات والنور، واختلف العلماء في المراد منهما، فمن قائل إن المقصود منهما ظلمة الليل ونور النهار وإلى هذا جنح ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدى، وفى ذلك رد على المجوس (الثّنويّة) الذين زعموا أن للعالم وبين أحدهما النور وهو الخالق للخير، والثاني الظلمة وهو الخالق للشر، ومن قائل إن المراد منهما الكفر والإيمان وروى هذا عن ابن عباس.

٢. ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي ثم إنهم مع ذلك يعدلون به سواه، ويسوونه به في العبادة التي هي أقصى غاية الشكر، ويدعونه لكشف الضر وجلب النفع، وهو لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا.

٣. وبعد أن وصف الخالق تعالى بما دل على توحيده واستحقاقه للحمد ـ انتقل إلى خطاب المشركين الذين عدلوا به غيره في العبادة مذكّرا لهم بدلائل التوحيد والبعث فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ أي هو الذي خلقكم من الطين (التراب الذي يخالطه ماء) فقد خلق أباكم آدم من الطين كما خلق سائر الأحياء التي في هذه الأرض بل خلق كل فرد من أفراد البشر من سلالة من طين، فإن بنية الإنسان مكونة من الغذاء ومن ذلك البويضات التي في الأنثى والحيوان المنويّ الذي في الذكر فكلها مكونة من الدم، والدم من الغذاء، والغداء من نبات الأرض أو من لحوم الحيوان المتولدة من النبات فالمرجع إلى النبات من الطين، والناظر في كل هذا يعلم جليا أن القادر على كل هذا لا يعجزه أن يعيد هذا الخلق كما بدأه عند انقضاء آجاله التي قضاها له في أجل آخر يضر به لهذه الإعادة بحسب علمه وحكمته.

٤. والآية ترشد إلى أنه تعالى قضى لعباده أجلين أجلا لحياة كل فرد منهم ينتهى بموته، وأجلا لإعادتهم وبعثهم بعد موت الجميع وانقضاء عمر الدنيا، ومعنى كونه مسمى عنده: أنه لا يعلمه غيره، لأنه لم يطلع أحدا على يوم القيامة لا ملكا مقرّبا ولا نبيا مرسلا.

٥. ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ أي إنه تعالى هو المتصف بهذه الصفات المعروفة المعترف له بها في السموات والأرض، ونظير هذا أن تقول إن حاتما هو حاتم في طيء وفى جميع القبائل، أي هو المعروف بالجود المشهور به في قومه وفى غيرهم.

٦. ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ هذا تقرير وتوكيد لما قبله، لأن الذي يستوى في علمه السر والعلانية هو الله وحده، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ من الخير والشر فيحصى ذلك عليكم ليجازيكم به عند معادكم إليه.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. إنها اللمسات العريضة للحقيقة الكبيرة؛ والإيقاعات المديدة في مطلع السورة، وهي ترسم القاعدة الكلية لموضوع السورة ولحقيقة العقيدة: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، إنها اللمسات الأولى.. تبدأ بالحمد لله، ثناء عليه، وتسبيحا له، واعترافا بأحقيته للحمد والثناء، على ألوهيته المتجلية في الخلق والإنشاء.. بذلك تصل بين الألوهية المحمودة وخصيصتها الأولى.. الخلق.. وتبدأ بالخلق في أضخم مجالي الوجود.. السماوات والأرض.. ثم في أضخم الظواهر الناشئة عن خلق السماوات والأرض وفق تدبير مقصود.. الظلمات والنور.. فهي اللمسة العريضة التي تشمل الأجرام الضخمة في الكون المنظور، والمسافات الهائلة بين تلك الأجرام، والظواهر الشاملة الناشئة عن دورتها في الأفلاك.. لتعجب من قوم يرون صفحة الوجود الضخمة الهائلة الشاملة تنطق بقدرة الخالق العظيم كما تنطق بتدبيره الحكيم، وهم بعد ذلك كله لا يؤمنون ولا يوحدون ولا يحمدون؛ بل يجعلون لله شركاء يعدلونهم به ويساوونه: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، فيا للمفارقة الهائلة بين الدلائل الناطقة في الكون، وآثارها الضائعة في النفس! يا للمفارقة التي تعدل الأجرام الضخمة، والمسافات الشاسعة، والظواهر الشاملة.. بل تزيد..

٢. واللمسة الثانية: {هُوَالَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضى أَجَلًا وأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ}: إنها لمسة الوجود الإنساني، التالي في وجوده للوجود الكوني، ولظاهرتي الظلمات والنور، لمسة الحياة الإنسانية في هذا الكون الخامد، لمسة النقلة العجيبة من عتمة الطين المظلم إلى نور الحياة البهيج؛ تتناسق تناسقا فنيا جميلا مع (الظلمات والنور).. وإلى جانبها لمسة أخرى متداخلة: لمسة الأجل الأول المقضي للموت، والأجل الثاني المسمى للبعث.. لمستان متقابلتان في الهمود والحركة كتقابل الطين الهامد والخلق

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/١٠٣١.

الحي في النشأة.

٣. وبين كل متقابلين مسافة هائلة في الكنه والزمن.. وكان من شأن هذا كله أن ينقل إلى القلب البشري اليقين بتدبير الله، واليقين بلقائه، ولكن المخاطبين بالسورة يشكون في هذا ولا يستيقنون: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾،

٤. واللمسة الثالثة تضم اللمستين الأوليين في اطار واحد؛ وتقرر ألوهية الله في الكون والحياة الإنسانية سواء: {وَهُوَاللهُ فِي السَّماوَاتِ وفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وجَهْرَكُمْ ويَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ}.. إن الذي خلق السماوات والأرض هو الله في السماوات وفي الأرض، هو المتفرد بالألوهية فيهما على السواء، وكل مقتضيات الألوهية متحققة عليهما، من خضوع للناموس الذي سنه الله لهما، وائتمار بأمره وحده.

٥. وكذلك ينبغي أن يكون الشأن في حياة الإنسان، فلقد خلقه الله كما خلق السماوات والأرض؛ وهو في تكوينه الأول من طين هذه الأرض؛ وما رزقه من خصائص جعلت منه إنسانا رزقه إياه الله؛ وهو خاضع من ناحية كيانه الجسمي للناموس الذي سنه الله له ـ رضي أم كره ـ يعطى وجوده وخلقه ابتداء بمشيئة الله، لا بمشيئته هو ولا بمشيئة أبيه وأمه: فهما يلتقيان ولكن لا يملكان أن يعطيا جنينا وجوده! وهو يولد وفق الناموس الذي وضعه الله لمدة الحمل وظروف الولادة! وهو يتنفس هذا الهواء الذي أوجده الله بمقاديره هذه؛ ويتنفسه بالقدر وبالكيفية التي أرادها الله له، وهو يحس ويتألم، ويجوع ويعطش، ويأكل ويشرب.. وبالجملة يعيش.. وفق ناموس الله، على غير إرادة منه ولا اختيار.. شأنه في هذا شأن السماوات والأرض سواء، والله سبحانه يعلم سره وجهره، ويعلم ما يكسب في حياته في سره وجهره.

٦. والأليق به أن يتبع ـ إذن ـ ناموس الله في حياته الاختيارية ـ فيما يتخذه من تصورات اعتقادية، وقيم اعتبارية، وأوضاع حيوية ـ لتستقيم حياته الفطرية المحكومة بناموس الله؛ مع حياته الكسبية حين تحكمها شريعة الله، ولكي لا يناقض بعضه بعضا، ولا يصادم بعضه بعضا؛ ولا يتمزق مزقا بين ناموسين وشرعين: أحدهما إلهي والآخر بشري وما هما بسواء.

٧. إن هذه الموجة العريضة الشاملة في مطلع السورة، إنما تخاطب القلب البشري والعقل البشري بدليل (الخلق) ودليل (الحياة) ممثلين في الآفاق وفي الأنفس.. ولكنها لا تخاطب بهما الإدراك البشري خطابا جدليا، لاهوتيا أو فلسفيا! ولكن خطابا موحيا موقظا للفطرة، حيث يواجهها بحركة الخلق والإحياء؛

وحركة التدبير والهيمنة؛ في صورة التقرير لا في صورة الجدل؛ وبسلطان اليقين المستمد من تقرير الله؛ ومن شهادة الفطرة الداخلية بصدق هذا التقرير فيما تراه.

٨. ووجود السماوات والأرض، وتدبيرهما وفق هذا النظام الواضح؛ ونشأة الحياة ـ وحياة الإنسان في قمتها ـ وسيرها في هذا الخط الذي سارت فيه.. كلاهما يواجه الفطرة البشرية بالحق، ويوقع فيها اليقين بوحدانية الله.. والوحدانية هي القضية التي تستهدف السورة كلها ـ بل القرآن كله ـ تقريرها، وليست هي قضية (وجود) الله، فلقد كانت المشكلة دائما في تاريخ البشرية هي مشكلة عدم معرفة الإله الحق، بصفاته الحقة؛ ولم تكن هي مشكلة عدم الإيمان بوجود إله! ومشركو العرب الذين كانت هذه السورة تواجههم ما كانوا يجحدون الله البتة؛ بل كانوا يقرون بوجوده سبحانه، وبأنه الخالق الرازق، المالك، المحيي المميت.. إلى كثير من الصفات ـ كما يقرر القرآن ذلك في مواجهتهم، وفي حكاية أقوالهم ـ ولكن انحرافهم الذي وصمهم بالشرك هو أنهم ما كانوا يعترفون بمقتضى اعترافهم ذاك: من تحكيم الله سبحانه في أمرهم كله؛ ونفي الشركاء له في تدبير شئون حياتهم؛ واتخاذ شريعته وحدها قانونا، ورفض مبدأ تحكيم غير الله في أي شأن من شئون الحياة، هذا هو الذي وصمهم بالشرك وبالكفر؛ مع إقرارهم بوجود الله سبحانه، ووصفه بتلك الصفات، التي من مقتضاها أن يتفرد سبحانه بالحكم في شأنهم كله، بما أنه الخالق الرازق المالك، كما كانوا يعترفون.

٩. ومواجهتهم في مطلع هذه السورة بصفات الله هذه من الخلق للكون وللإنسان، ومن تدبيره لأمر الكون وأمر الإنسان؛ ومن علمه وإحاطته بسرهم وجهرهم وعملهم وكسبهم.. إنما هو المقدمة التي يرتب عليها ضرورة إفراده سبحانه بالحاكمية والتشريع، كما أوضحنا في التعريف المجمل بخط السورة ومنهجها، ودليل الخلق ودليل الحياة كما أنهما صالحان لمواجهة المشركين لتقرير الوحدانية، ولتقرير الحاكمية، هما كذلك صالحان لمواجهة اللوثات الجاهلية الحديثة التافهة في إنكار الله.

١٠. والحقيقة أن هناك شكا كثيرا فيما إذا كان هؤلاء الملحدون يصدقون أنفسهم! فأغلب الظن أنها بدأت مناورة في وجه الكنيسة؛ ثم استغلها اليهود لرغبتهم في تدمير قاعدة الحياة البشرية الأساسية، كيلا يبقى على وجه الأرض من يقوم على هذه القاعدة غيرهم ـ كما يقولون في بروتوكولات حكماء صهيون ـ ومن ثم تنهار البشرية وتقع تحت سيطرتهم، بما أنهم هم وحدهم الذين سيحافظون على مصدر القوة

الحقيقية الذي توفره العقيدة! واليهود ـ مهما بلغ من كيدهم ومكرهم ـ لا يملكون أن يغلبوا الفطرة البشرية، التي تجد في قرارتها الإيمان بوجود إله ـ وإن كانت تضل فقط في معرفة الإله الحق بصفاته الحقة؛ كما أنها تنحرف بعدم توحيد سلطانه في حياتها، فتوصم بالشرك والكفر على هذا الأساس ـ ولكن بعض النفوس تفسد فطرتها، وتتعطل فيها أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية، وهذه النفوس وحدها هي التي يمكن أن يفلح معها كيد اليهود الذي يستهدف نفي وجود الله فيها، ولكن هذه النفوس المعطلة الفطرة ستظل قليلة وشاذة في مجموع البشر في كل زمان..

١١. والملحدون الحقيقيون على ظهر الأرض اليوم لا يتجاوزون بضعة ملايين في روسيا والصين من بين مئات الملايين الذين يحكمهم الملحدون بالحديد والنار؛ على الرغم من الجهد الناصب خلال أربعين عاما في نزع الإيمان بكل وسائل التعليم والإعلام! إنما يفلح اليهود في حقل آخر، وهو تحويل الدين إلى مجرد مشاعر وشعائر، وطرده من واقع الحياة، وإيهام المعتقدين به أنهم يمكن أن يظلوا مؤمنين بالله؛ مع أن هناك أربابا أخرى هي التي تشرع لحياتهم من دون الله! ويصلون بذلك إلى تدمير البشرية فعلا، حتى مع وهمها أنها لا تزال تؤمن بالله.

١٢. وهم يستهدفون الإسلام ـ قبل كل دين آخر ـ لأنهم يعرفون من تاريخهم كله، أنهم لم يغلبهم إلا هذا الدين يوم كان يحكم الحياة، وأنهم غالبو أهله طالما أهله لا يحكمونه في حياتهم؛ مع توهمهم أنهم ما يزالون مسلمين مؤمنين بالله! فهذا التخدير بوجود الدين ـ وهو غير موجود في حياة الناس ـ ضروري لتنجح المؤامرة.. أو يأذن الله فيصحو الناس! وأحسب ـ والله أعلم ـ أن اليهود الصهيونيين، والنصارى الصليبيين، كليهما، قد يئسوا من هذا الدين في هذه المنطقة الإسلامية الواسعة في إفريقية وآسيا وأوربا كذلك.. يئسوا من أن يحولوا الناس فيها إلى الإلحاد ـ عن طريق المذاهب المادية ـ كما يئسوا كذلك من تحويلهم إلى ديانات أخرى عن طريق التبشير أو الاستعمار.. ذلك أن الفطرة البشرية بذاتها تنفر من الإلحاد وترفضه حتى بين الوثنيين ـ فضلا على المسلمين ـ وأن الديانات الأخرى لا تجرؤ على اقتحام قلب عرف الإسلام، أو حتى ورث الإسلام!

١٣. وأحسب ـ والله أعلم ـ أنه كان من ثمرة اليأس من هذا الدين أن عدل اليهود والصهيونيون والنصارى الصليبيون عن مواجهة الإسلام جهرة عن طريق الشيوعية أو عن طريق التبشير؛ فعدلوا إلى

طرائق أخبث، وإلى حبائل أمكر.. لجئوا إلى إقامة أنظمة وأوضاع في المنطقة كلها تتزيا بزي الإسلام؛ وتتمسح في العقيدة؛ ولا تنكر الدين جملة.. ثم هي تحت هذا الستار الخادع، تنفذ جميع المشروعات التي أشارت بها مؤتمرات التبشير وبروتوكولات صهيون، ثم عجزت عن تنفيذها كلها في المدى الطويل! إن هذه الأنظمة والأوضاع ترفع راية الإسلام ـ أو على الأقل تعلن احترامها للدين ـ بينما هي تحكم بغير ما أنزل الله؛ وتقصي شريعة الله عن الحياة؛ وتحل ما حرم الله؛ وتنشر تصورات وقيما مادية عن الحياة والأخلاق تدمر التصورات والقيم الإسلامية؛ وتسلط جميع أجهزة التوجيه والإعلام لتدمير القيم الأخلاقية الإسلامية، وسحق التصورات والاتجاهات الدينية؛ وتنفذ ما نصت عليه مؤتمرات المبشرين وبروتوكولات الصهيونيين، من ضرورة إخراج المرأة المسلمة إلى الشارع، وجعلها فتنة للمجتمع، باسم التطور والتحضر ومصلحة العمل والإنتاج؛ بينما ملايين الأيدي العاملة في هذه البلاد متعطلة لا تجد الكفاف! وتيسر وسائل الانحلال وتدفع الجنسين إليها دفعا بالعمل والتوجيه.. كل ذلك وهي تزعم أنها مسلمة وأنها تحترم العقيدة! والناس يتوهمون أنهم يعيشون في مجتمع مسلم، وأنهم هم كذلك مسلمون! أليس الطيبون منهم يصلون ويصومون؟

١٤. أما أن تكون الحاكمية لله وحده أو تكون للأرباب المتفرقة، فهذا ما قد خدعتهم عنه الصليبية والصهيونية والتبشير والاستعمار والاستشراق وأجهزة الإعلام الموجهة؛ وأفهمتهم أنه لا علاقة له بالدين، وأن المسلمين يمكن أن يكونوا مسلمين؛ وفي دين الله؛ بينما حياتهم كلها تقوم على تصورات وقيم وشرائع وقوانين ليست من هذا الدين! وإمعانا في الخداع والتضليل؛ وإمعانا من الصهيونية العالمية والصليبية العالمية في التخفي، فإنها تثير حروبا مصطنعة ـ باردة أو ساخنة ـ وعداوات مصطنعة في شتى الصور، بينها وبين هذه الأنظمة والأوضاع التي أقامتها والتي تكفلها بالمساعدات المادية والأدبية، وتحرسها بالقوى الظاهرة والخفية، وتجعل أقلام مخابراتها في خدمتها وحراستها المباشرة! تثير هذه الحروب المصطنعة والعداوات المصطنعة، لتزيد من عمق الخدعة؛ ولتبعد الشبهة عن العملاء، الذين يقومون لها بما عجزت هي عن إتمامه في خلال ثلاثة قرون أو تزيد؛ من تدمير القيم والأخلاق؛ وسحق العقائد والتصورات؛ وتجريد المسلمين في هذه الرقعة العريضة من مصدر قوتهم الأول.. وهو قيام حياتهم على أساس دينهم وشريعتهم.. وتنفيذ المخططات الرهيبة التي تضمنتها بروتوكولات الصهيونيين ومؤتمرات

المبشرين؛ في غفلة من الرقباء والعيون!

١٥. فإذا بقيت بقية في هذه الرقعة لم تجز عليها الخدعة؛ ولم تستسلم للتخدير باسم الدين المزيف؛ وباسم الأجهزة الدينية المسخرة لتحريف الكلم عن مواضعه؛ ولوصف الكفر بأنه الإسلام؛ والفسق والفجور والانحلال، بأنه تطور وتقدم وتجدد.. إذا بقيت بقية كهذه سلطت عليها الحرب الساحقة الماحقة؛ وصبت عليها التهم الكاذبة الفاجرة وسحقت سحقا، بينما وكالات الأنباء العالمية وأجهزة الإعلام العالمية خرساء صماء عمياء!

١٦. ذلك بينما الطيبون السذج من المسلمين يحسبون أنها معركة شخصية، أو طائفية، لا علاقة لها بالمعركة المشبوبة مع هذا الدين؛ ويروحون يشتغلون في سذاجة بلهاء ـ من تأخذه الحمية للدين منهم وللأخلاق ـ بالتنبيه إلى مخالفات صغيرة، وإلى منكرات صغيرة، ويحسبون أنهم أدوا واجبهم كاملا بهذه الصيحات الخافتة..

١٧. بينما الدين كله يسحق سحقا، ويدمر من أساسه؛ وبينما سلطان الله يغتصبه المغتصبون، وبينما الطاغوت ـ الذي أمروا أن يكفروا به ـ هو الذي يحكم حياة الناس جملة وتفصيلا! إن اليهود الصهيونيين والنصارى الصليبيين يفركون أيديهم فرحا بنجاح الخطة وجواز الخدعة؛ بعد ما يئسوا من هذا الدين أن يقضوا عليه مواجهة باسم الإلحاد، أو يحولوا الناس عنه باسم التبشير، فترة طويلة من الزمان..

١٨. إلا أن الأمل في الله أكبر؛ والثقة في هذا الدين أعمق، وهم يمكرون والله خير الماكرين، وهو الذي يقول: {وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ، وعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ، فَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُوانتِقامٍ})

١٩. أما مواجهة دليل الخلق ودليل الحياة للوثة الإلحاد، فهي مواجهة قوية، لا يجد الملحدون إزاءها إلا المماحلة والمغالطة والالتواء: إن وجود هذا الكون ابتداء، بهذا النظام الخاص، يستلزم ـ بمنطق الفطرة البديهي وبمنطق العقل الواعي على السواء ـ أن يكون وراءه خالق مدبر.. فالمسافة بين الوجود والعدم مسافة لا يملك الإدراك البشري أن يعبرها، إلا بتصور إله ينشئ ويخلق ويوجد هذا الوجود، والذين يلحدون يعمدون إلى هذه الفجوة فيريدون ملأها بالمكابرة، ويقولون: إنه لا داعي لأن نفترض أنه كان هناك عدم قبل الوجود!.. ومن هؤلاء فيلسوف عرف بأنه فيلسوف (الروحية) المدافع عنها في وجه

(المادية)، وعلى هذا الأساس ربما أشاد به بعض المخدوعين من (المسلمين) واستأنسوا بأقواله لدينهم كأنما ليؤازروا دين الله بقول عبد من العبيد.. هذا الفيلسوف هو (برجسون).. اليهودي! إنه يقول: إن هذا الوجود الكوني لم يسبقه عدم! وإن فرض الوجود بعدم العدم ناشئ من طبيعة العقل البشري الذي لا يستطيع أن يتصور إلا على هذا النحو.. فإلى أي منطق يا ترى يستند برجسون إذن في إثبات أن الوجود الكوني لم يسبقه عدم؟ إلى العقل؟ لا، فإن العقل ـ كما يقرر ـ لا يمكن أن يتصور إلا وجودا بعد عدم! إلى وحي من الله؟ إنه لا يدعي هذا، وإن كان يقول: إن حدس المتصوفة كان دائما يجد إلها ولا بد أن نصدق هذا الحدس المطرد (الإله الذي يتحدث عنه برجسون ليس هو الله إنما هو الحياة!).. فأين المصدر الثالث الذي يعتمد عليه (برجسون) إذن في إثبات أن الوجود الكوني غير مسبوق بعدم؟ لا ندري! إنه لا بد من الالتجاء إلى تصور خالق خلق هذا الكون.. لا بد من الالتجاء إلى هذا التصور لتعليل مجرد وجود الكون.. فكيف إذا كان الحال أنه لم يوجد مجرد وجود، ولكنه وجد محكوما بنواميس لا تتخلف، محسوبا فيها كل شيء بمقاييس، قصارى العقول البشرية أن تدرك أطرافا منها، بعد التدبر الطويل!؟

٢٠. الهاربون من الكنيسة التي كانت تستطيل على رقاب العباد باسم (الله) كان كل همهم في القرن الثامن عشر والتاسع عشر إنكار (الله)، ولكن (المثاليين) منهم اختاروا (العقل) ليعطوه كل خصائص الله وصفاته! و(الماديين) منهم اختاروا (الطبيعة) ليعطوها هذه الخصائص والصفات، لأنه لم يكن لهؤلاء ولا لهؤلاء مفر من افتراض شيء فوق الطاقة البشرية يكلون إليه تفسير هذا الوجود وما يجري فيه.. وفقط كانوا يريدون انكار الله، ليخلصوا من قبضة الكنيسة!

٢١. كذلك نشأة هذه الحياة، والمسافة بينها وبين المادة ـ أيا كان مدلول المادة ولو كان هو الإشعاع ـ لا يمكن تعليلها إلا بتصور وجود إله خالق مدبر، يخلق الكون بحالة تسمح بنشأة الحياة فيه؛ وتسمح بكفالة الحياة أيضا بعد وجودها، والحياة الإنسانية بخصائصها الباهرة درجة فوق مجرد الحياة.. وأصله من طين.. أي من مادة هذه الأرض وجنسها؛ ولا بد من إرادة مدبرة تمنحه الحياة، وتمنحه خصائص الإنسان عن قصد واختيار.

٢٢. وكل المحاولات التي بذلها الملحدون لتعليل نشأة الحياة باءت بالفشل ـ عند العقل البشري ذاته ـ وآخر ما قرأته في هذا الباب محاولة (ديورانت) المتفلسف الأمريكي للتقريب بين نوع الحركة الذي

في الذرة ـ وهو يسميه درجة من الحياة ـ ونوع الحياة المعروف في الأحياء، وذلك في جهد مستميت لملء الفجوة بين المادة الهامدة والحياة النابضة، بقصد الاستغناء عن الإله الذي ينشئ الحياة في الموات! ولكن هذه المحاولة المستميتة لا تنفعه ولا تنفع الماديين في شيء.. ذلك أنه إن كانت الحياة صفة كامنة في المادة، ولم يكن وراء هذه المادة قوة أخرى ذات إرادة، فما الذي يجعل الحياة التي في المادة الكونية تتبدى في درجات بعضها أرقى وأعقد من بعض؟ فتتبدى في الذرة مجرد حركة آلية غير واعية، ثم تتبدى في النبات في صورة عضوية، ثم تتبدى في الأحياء المعروفة في صورة عضوية أكثر تركيبا وتعقيدا.. ما الذي جعل المادة ـ المتضمنة للحياة كما يقال ـ يأخذ بعضها من عنصر الحياة أكثر مما يأخذ البعض الآخر، بلا إرادة مدبرة؟ ما الذي جعل الحياة الكامنة في المادة، تختلف في مدارجها المترقية!؟ إننا نفهم هذا التفاوت يوم نقدر أن هناك إرادة مدبرة هي التي تصنع ذلك مختارة مريدة، فأما حين تكون المادة (الحية ولنفرض ذلك!) هي وحدها، فإنه يستحيل على العقل البشري ذاته أن يفهم هذا التفاوت أو يعلله! إن التعليل الإسلامي لانبثاق الحياة في درجاتها المتفاوتة هو الحل الوحيد لهذه الظاهرة التي لا تعللها المحاولات المادية البائسة! وإذ كنا ـ في هذه الظلال ـ لا نخرج عن المنهج القرآني؛ فإننا لا نمضي أكثر من هذا في مواجهة لوثة الإلحاد ببراهين الخلق والتدبير والحياة.. فالقرآن الكريم لم يجعل قضية وجود الله قضيته، لعلم الله أن الفطرة ترفض هذه اللوثة، إنما القضية هي قضية توحيد الله؛ وتقرير سلطانه في حياة العبد؛ وهي القضية التي تتوخاها السورة في هذه الموجة التي استعرضناها.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. تفتتح هذه السورة الكريمة، بالحمد، لمستحقّ الحمد، سبحانه وتعالى، ذي القدرة والطول، الذي له ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير، فتلك صفته ـ سبحانه وتعالى ـ التي كانت مختم السورة السابقة، والتي أضيف بها هذا الوجود كله إليه، لا شريك له فيه، ملكه بسلطانه، واستولى عليه بقدرته.. ومن كان هذا شأنه، وتلك صفته، فلا متوجّه إلا إليه، ولا حمد إلا له.

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/١١٧.

٢. فقوله سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قصر للحمد عليه وحده، وهو حمد مطلوب من كل كائن أن يسبّح لله به، إذ هو الذي خلقه وأوجده من عدم.. والوجود بالإضافة إلى العدم نعمة تستأهل الشكر، وتستوجب الحمد.. فأي موجود ـ على أية صفة، وعلى أي حال ـ هو نفحة من نفحات الله سبحانه، وعطاء من عطائه، وصنعة من صنعته، وليس كذلك العدم، الذي هو فناء مطلق، وتيه وضياع أبديّ.. إنه لا شيء وشيء خير من لا شيء إن أي موجود ـ على أية صفة وعلى أي حال ـ هو مجلى قدرة الله، وآية من آيات تلك القدرة الخالقة المبدعة المصوّرة، وإشارة دالة على وجود الخالق، إذ لا يعرف الخالق إلا بما خلق..

٣. وفي أول ما تلقّى النبيّ الكريم من ربّه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ فكانت صفة الربوبية والخلق أول ما صافح أذن النبيّ ومسّ شغاف قلبه من صفات الحق جلّ وعلا.. فالربوبية والخلق صفتان متلازمتان.. إذ لا ربوبية إلا لمربوبين، ولا خلق بغير ربوبية، تمسك الخلق، وتحفظ عليهم وجودهم.. ومن هنا ندرك بعض السرّ في أن كانت فاتحة الكتاب، مفتتحا لرسالة الإسلام وكتابها الكريم، وأن كانت صلاتنا ـ وهي عماد ديننا ـ وتسبيحا بالفاتحة، وأن كان الحمد مفتتح الفاتحة.

٤. وقوله سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ هو صفة الله، المحمود بما خلق من السموات والأرض، وما أبدع في خلقه، وخالف بين مخلوقاته، فجعل الظلمات وجعل النور.

٥. سؤال وإشكال: جمع السموات وإفراد الأرض.. وفي القرآن الكريم، جاءت السموات بلفظ الجمع، كما جاءت بلفظ المفرد: هكذا (السماء).. ولم تجىء الأرض إلا بلفظ المفرد هكذا: (الأرض) فما سر هذا؟ ومدلول اللغة يقضى بأن الجمع أكثر من المفرد عددا.. فالجمع، أكثر من اثنين، إلى ما تنتهى إليه المعدودات من عدد.. والمفرد واحد، لا يزيد.. هذا في الأشياء المتفقة نوعا أو جنسا.. فهل يكون ذلك في المختلف من الأنواع والأجناس؟ وهل إذا كان الجمع أكثر عددا، هل يكون أكبر جرما وقدرا؟ والجواب: أن ذلك ليس بالحتم اللازم، فقد يكون الجمع مع كثرته عددا، أقلّ من المفرد، جرما وقدرا.. فألوف الألوف من النمل مثلا، لا تعدل الفيل جرما.. وألوف الألوف من الحصا، لا تعدل حصاة من ذهب.

٦. سؤال وإشكال: السؤال الوارد هنا: هل جمع السموات وإفراد الأرض، يقضى بأن تكون السموات أكبر جرما وأعظم قدرا من الأرض؟ والجواب: للإجابة على هذا، ننظر في القرآن الكريم، فنجد

أن السموات ذكرت جمعا، في أكثر من مائة وخمسين موضعا، كما ذكرت بلفظ المفرد في نحو مائة وعشرين موضعا:

أ. وأنها حين تذكر جمعا يكون في مقابلها الأرض بلفظ المفرد.. هكذا: ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.. يكاد ذلك يكون مطردا في معظم القرآن.. مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقوله سبحانه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النحل: ٧٧].. ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦] ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣] وهكذا تجمع السموات، وتفرد الأرض في كل مقام يراد فيه عرض جلال الله، وعظمة قدرته، وسعة ملكه، ليكون في ذلك العرض ما يدعو إلى التأمل والنظر، وتوجيه البصائر والأبصار إلى ما وراء هذا الأفق المحدود الذي يعيش فيه من لا يمدون أبصارهم إلى أكثر من مواقع أقدامهم.

ب. وأما حين تذكر السماء مفردة، فتارة يكون في مقابلها الأرض، وتارة تذكر وحدها، غير مقترنة بالأرض، وهي في كلا الحالين لا يراد بها جرمها وبناؤها الكوني وإنما يراد بها أنها جهة علوّ بالنسبة للأرض، وما على الأرض.. مثل قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾.. وقوله سبحانه: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ [الطارق: ١١] والرجع: هو المطر، والصدع: تشقق الأرض حين يخرج منها النبات، وقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧] والحبك: الطرائق الحسنة بين النجوم، وقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٢٤] وقوله سبحانه: ﴿يُدَبِّرُ الأمر مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥] وقوله: ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [غافر: ٦٤] وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢]

ج. ومن هذا نرى أن التعبير القرآني عن السموات بلفظ الجمع يرد دائما حيث يراد المقابلة بينها وبين الأرض، لا من حيث الوضع علوا وسفلا، وإنما من حيث البناء التركيبى لكل منهما، وأن السموات عوالم متعددة، والأرض بالنسبة لها أشبه بالمفرد بالنسبة لجمعه، وأنهما إن اختلفتا اسما، فقد اتفقتا صفة، بأنهما آيتان من آيات الله الدالة على علمه، وقدرته، وحكمته..

د. وحين ينظر الناظر إلى السماء نظرا مباشرا، غير معتمد على كشوفات العلم ومقرراته، فإنه يرى

في السماء من دلائل القدرة الإلهية والإبداع الرباني ما لا يراه في الأرض، ولهذا كان أول ما لفت إبراهيم عليه السلام إلى الله، ما راعه من ملكوت السموات، في بنائها وارتفاعها، سقفا محفوظا بغير عمد، وما زينت به من كواكب.. ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٦ ـ ٧٨]، هذا ما يبدو للنظر المجرد، البعيد عن معطيات العلم ومقرراته.. السماء أكبر جرما من الأرض، وأوسع مدى، وأكثر محتوى للعجائب والغرائب..

هـ. فإذا ووزنت بالأرض من تلك الجهة، فهي جمع والأرض مفرد.. هي سماوات والأرض أرض أو سماء! ثم إذا كشف العلم أن الأرض ليست إلا ذرّة سابحة في فضاء هذا الكون العظيم، لا تعدو أن تكون قطرة من محيط ـ إذا كشف العلم هذا كان للمسلم العالم أن يرى (السماوات) جمعا يدخل في محتواه كل حقيقة يقررها العلم، وتبلغها مقاييسه، وتنكشف لرؤيته أو لرؤاه.. من اتساع وبسطة، وامتداد، بحيث لا يرى الأرض إلا أرضا، هي ذرة من رمال الصحارى أو شواطئ البحار، بالإضافة إلى هذا الكون العظيم،! فالسّماوات بصيغة الجمع صالحة لأن يدخل فيها من أعداد السماء ما لا حصر له.. بلا قيود ولا حدود آية واحدة، جاءت في القرآن الكريم فجمعت بين السموات والأرض بما يشعر بالمساواة بينهما، وهي قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، فالمثليّة هنا قد حملها المفسرون على المثلية في العدد، وأنه كما أن هناك سبع سماوات، فهناك سبع أرضين.. وقد أكثروا من القول في هذه الأرضين، وفي اسم كل أرض، كما قالوا ذلك في السموات السبع، واسم كل سماء..

و. وتحديد السموات بأنها سبع، يعنى أنها سبعة أكوان، ولا يدرى كنه هذا الكون، ولا العوالم التي يحتويها إلا الله سبحانه وتعالى، وأما ما بلغه علمنا من أكوان السموات، فلا يعدو أن يكون أفقا محدودا من آفاق هذه الأكوان، أو موجة على صدر محيطه الغمر الرحيب.

ز. وأما المثلية بين السموات والأرض في قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ فليس من الحتم أن تكون مثلية في العدد، كما فهمها عليه المفسرون، ولعله من الصواب أن يكون المراد هو المثلية في الإبداع والقدرة التي تظهر فيها عظمة الصانع، وقدرته، وحكمته، وعلمه.. فليس الأمر

أمر جرم عظيم، وآخر صغير.. وإنما هو ما يتجلى في أي جرم ـ مهما صغر ـ من دقة الصنعة، وإحكام البناء، وروعة التكوين.. فليس الجبل في ضخامة جرمه بأعظم من الذرة قدرا، ولا أظهر منها بيانا، للدلالة على قدرة الصانع، وروعة إبداعه، وسلطان علمه، وذلك في نظر من له بصيرة نافذة، وإدراك سليم.. الفيل في ضخامة جسمه، وقوة احتماله، ليس أبلغ من النملة في الدلالة على قدرة الله، وعلمه، وحكمته.. بل ربما كانت النملة في جرمها الصغير تحمل من الأجهزة العاملة، ما لا يحمله الفيل في كيانه الضخم العظيم.. وإذن فلكى تكون الأرض في صغرها مثل السموات في كبرها، وامتداد آفاقها، ينبغي أن يكون النظر إليها بعين المستبصر الباحث، الخبير.. فإنه حينئذ تصغر السموات، وتصبح أي رقعة من الأرض أكثر من سماء، وأكبر من سماوات.. إذ كان سلطان الإنسان على الأرض، وعمله فيها، على حين لا سلطان له على السماء، ليكشف أسرارها، ويقف على عوالمها التي لا تنتهى حدودها..

ح. وإذن ـ مرة أحرى ـ فهذه المناظرة التي بين السموات والأرض، في قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ هي إشارة سماوية إلى الإنسان أن يكشف مجاهل هذه الأرض التي يعيش عليها، وأن يفتش في الكشف عن أسرارها، فإنه إن فعل لم يستصغر الكوكب الذي يعيش فيه، ولوجد فيه ما يذهل ويروع من آيات الله.

٧. سؤال وإشكال: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ مع قوله تعالى في السموات والأرض ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.. فهل ثمة فرق بين الخلق والجعل؟ أم أن الخلق هو الجعل، والجعل هو الخلق؟ وأن اختلاف اللفظ مع اتفاق المعنى هو أسلوب من أساليب القرآن، تحاشيا للتكرار وثقله، كما يقول بذلك المفسرون؟ والجواب: القول بأن اختلاف اللفظ مع اتفاق المعنى، إنما داعيته هي أن ينأى القرآن به عن الرتابة والثقل بتكرار اللفظ ـ هو قول إن قيل به في أساليب البلغاء، فلن يقبل في نظم القرآن، الذي يعلو ببلاغته عن هذا المعيار الإنساني.. فإذا كرر القرآن الكريم اللفظ مرة ومرة ومرات، لم ينزله ذلك قيد شعرة عن مكانه السامي من الفصاحة والبيان، وجاء التكرار كلا تكرار، في روعة الأداء، وتجاوب النغم، وحلاوة الجرس.. وكم كرّر القرآن من ألفاظ، وحروف، فكان اجتماعها إعجازا من إعجاز القرآن، وآية من آيات رب العالمين! وسنعرض لهذا في بحث خاص به إن شاء الله، فلا بد إذن أن يكون لهذا الاختلاف في النظم بين ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ داعية، استدعته

وغاية أريد به تحقيقها، والقرآن الكريم قد فرق بين الخلق والجعل في المعنى، كما هما مفترقان في اللفظ:

أ. (فالخلق) في القرآن ـ في كل موضع ورد فيه ـ هو الإيجاد، إيجاد غير الموجود، وإظهاره للوجود.. ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.. ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾.. ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾.. ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.. فالخلق، وهو الإيجاد من عدم، هو مما انفرد به الله سبحانه وتعالى، ولهذا كان من صفاته الكريمة: (الخالق)

ب. أما (الجعل) فهو إضافة تلحق المخلوق، وتكشف عن صفته، وتبرز طبيعته.. هو توجيه الخالق للمخلوق، ليعطى وظيفته، ويحقق وجوده.. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾ [الكهف: ٧].. ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ٩ ـ ١١].. ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾، [السجدة: ٢٤].. ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، بل إن (الجعل) يضاف إلى الإنسان، ويحسب له، أو عليه، كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ ويقول سبحانه: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [التوبة: ١٩] ويقول: ﴿وَيَجْعَلُونَ للهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾

ج. وننظر في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ فنجد أن السموات والأرض، قد خلقنا بيد القدرة القادرة، فكان فعل الخلق (خلق) مطلوبا لتحقيق هذا المعنى المراد هنا.. ونجد أن الظلمات والنور، وإن كانا مخلوقين للهّ، إلا أن الخلق غير مراد هنا، وإنما المراد وظيفة هذين المخلوقين، وأنهما الثّوبان اللذان يلبسان المخلوقات، أو يلبسان الكوكب الأرضي الذي نعيش عليه، ونشهد آثارهما فيه.

٨. سؤال وإشكال: جمع الظلمات، وإفراد النور، ماذا وراء الجمع هناك والإفراد هنا؟ والجواب: إن الظلام كثيف ثقيل، والنور شفيف رقيق.. هكذا موقعهما على العين.. الظلام كأنه ظلمات بعضها فوق بعض.. إذا أقبل عليها النور أزاحها طبقة طبقة.. هذا في واقع الحسّ.. ومن جهة أخرى، فإن الظلام وحشة وعمى وضلال، ومن هنا تتشعب طرقه، وتتعدد مسالك الهائمين فيه.. أما النور فهو أمن وهدى وحق.. وجه واحد، وطريق واحد.. من قصد وجها غير وجهه ضل، ومن سلك طريقا غير طريقه هلك، هذا بعض ما ينكشف من قدرة الله، وعلمه وحكمته، فيما تعرضه كلمات الله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ

وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾

٩. وقد كان جديرا بالإنسان، وقد منحه الله نظرا يبصر، وأذنا تسمع، وعقلا يعقل ويدرك، ومشاعر تتأثر وتنفعل ـ كان جديرا به أن يرى الخالق في هذه الأكوان التي أبدعها، وفي هذا الوجود الذي أقامه، ولكن كثيرا من الناس يذهله اشتغاله بنفسه، وبدواعى نزعاته وأهوائه، عن أن يفتح قلبه لهذا الوجود، ولذلك فهو يعيش مغلقا على نفسه، موقعا في ظلمات جهله وسفهه.. ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، وكثير من الناس أيضا، يرى، ويبصر، ويعقل، ثم يركبه شيطانه، فيغمض عينه عما رأى، ويصمّ أذنه عما سمع، ويتهم عقله فيما عقل، وإذا هو ممن يمكرون بآيات الله، ويولّون وجوههم عن الله إلى آلهة اتخذوها، وأرباب اصطنعوها وعبدوها..

١٠. ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي ثمّ بعد هذه الآيات البينات، يكون في الناس من يكفر بالله، ويجعلون له أندادا، يسوّون بينهم وبينه، ويجعلونهم عدلا له وندا؟

أ. وفي العطف بحرف (ثمّ) ما يشير إلى التهديد والوعيد لهؤلاء الذين كفروا بالله، بعد أن ملأ الله عليهم هذا الوجود بالآيات الناطقة بوجوده، الدالّة على كمال قدرته، وشمول علمه، وبسطة سلطانه.. ففي هذا العطف تعقيب على المعطوف، وهو تعقيب فيه تراخ وامتداد في مسافات الزمان والمكان بين المعطوف والمعطوف عليه، وهذا يؤذن بالمفارقة البعيدة بين المتعاطفين اللذين كان من شأنهما التشاكل والتلاحم.. ولكن كفر الكافرين بالله يجعلهم أبعد من أن يتعاطفوا مع آيات الله، وأن ينتفعوا بها، ويهتدوا بهديها: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

ب. ولو كان ما أعقب هذه الآيات هو التعرف على الله والإيمان به، لجاء النظم القرآني عطفا بالفاء، على هذا النحو مثلا: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾.. فعرفه وآمن به أصحاب الأبصار، وذوو البصائر.. من عباده.

١١. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ الذين كفروا بربهم، وعموا عن آياته التي تملأ الوجود في سمائه وأرضه.. عموا كذلك عن النظر في أنفسهم، فلم يروا أنفسهم، وهم على تلك الصورة البالغة العاقلة، ماذا كانوا قبل أن يكونوا؟ ومن أي شيء كان كونهم؟، إنهم من طين هذه

الأرض التي يطئونها بأقدامهم، ويمشون عليها اختيالا، ويقومون فوقها آلهة يطاولون الله ربّ العالمين، ويحادّونه، ويأبون الولاء له، والخضوع لسلطانه.. هكذا الإنسان كما وصفه خالقه: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]

١٢. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ هو إشارة إلى قدرة الله سبحانه وتعالى، وأنه خلق من هذا الطين كائنا، عاقلا، ناطقا، متصرفا، سميعا، بصيرا.. ثم هو إشارة أخرى إلى ضآلة قدر الإنسان، وصغاره.. ومهانته، بالنسبة لجلال قدرة الله وكماله وعظمته.. وأن الله الذي خلق من هذا الطين المهين كائنا كريما، قادر على أن يعيد هذا الكائن إلى مكانه الذي جاء منه، وهو الطين، أو ما هو دون الطّين قذارة ومهانة!

١٣. وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾، قضى: أي مكث حتى وفّى الزمن المقدور له، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾، وقوله: ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾، وفاعل الفعل (قضى) ضمير يعود إلى الطين، والمعنى أن الله سبحانه وتعالى بدأ خلق الإنسان من طين، وأن هذا الطين مكث زمنا، ينتقل من حال إلى حال، ومن صورة إلى صورة، حتى كان منه هذا الإنسان، وفي العطف بالحرف (ثمّ) ما يشعر بامتداد الزمن وتطاوله، في تلك الدورة الطويلة التي انتقل بها الإنسان من عالم الطين إلى عالم البشر.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ فالخلق مرحلة من مراحل تطور الكائن البشرى.. خلق أولا، أي بدئ في خلقه، ثم صوّر، أي تنقل من حال إلى حال، متصاعدا نحو الكمال، حتى إذا استكمل وجوده البشرى وصار إنسانا، كان خلقا آخر، وعالما غير العالم الذي جاء منه.. وهذا ما يدل عليه قوله سبحانه ﴿يَا أيها الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أي صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾.. فهناك خلق، أي بدء خلق، فتعديل في هذا الخلق، أي تطور وتنقل من حال إلى حال.. حتى بلغ الصورة التي شاء الله سبحانه وتعالى الوقوف بالإنسان عندها، وإخراجه عليها.

١٤. وقوله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ هو إشارة إلى الأجل الذي يعيشه الإنسان، كإنسان في هذه الحياة.. والتقدير: وهناك أجل مسمى يقضيه الإنسان، هو مكتوب عند الله، وهذا الأجل هو المحسوب على الإنسان، إذ فيه يكون أهلا للتكليف، والحساب والجزاء.. ومن هنا أضيف هذا الأجل إلى

الله سبحانه وتعالى، وحسب أنه أجل مقضيّ عند الله، فيه يعرف الإنسان ربّه، ويتعامل معه.

١٥. وفي إضافة هذا الأجل إلى الله سبحانه، إشارة إلى أن الإنسان كائن مضاف إلى الله، إضافة تكريم، اختص بها من بين كثير من الكائنات، وهذا من شأنه أن يحمل الإنسان على أن يحثّ الخطا إلى الله، وأن يدنو منه، ويتعرف إليه، ويتعامل معه.. ليكون أهلا للإضافة إلى الله.. كما يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾

١٦. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ إشارة إلى ما في الإنسان من ضلال وعمى عن الله، وأنه مع هذه الآيات البينات، وتلك النعم والألطاف التي يسوقها سبحانه إلى النّاس، فإنهم يمترون في الله، ويشكّون في وجوده، أو في قدرته، أو في البعث والجزاء.. إلى غير ذلك مما هم فيه مختلفون.

١٧. وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ هو استعراض لقدرة الله وعلمه، وأنه هو الإله الخالق للسماوات والأرض، والمالك لهما، والمتصرف فيهما، لا يملك أحد معه شيئا، ولا لأحد معه تصريف في هذا الوجود.. وإذ كان الله على تلك الصفة، فإنه يعلم بعلمه كل شيء في هذا الوجود، ظاهره وباطنه، جليّه وخفيّه.. ﴿ألا يعلم مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]

١٨. والإنسان صنعة الله.. خلقه من طين، وتنقل به من خلق إلى خلق، حتى صار هذا الكائن البشرى، العاقل، المدرك ـ أفيخفى على الله من أمره شيء وكيف وقد صنعه بيده، ورباه ونشّأه، وأمسك عليه حياته، وعدّ عليه أنفاسه، وأحصى نبضات قلبه؟ ألا يعلم الإنسان كل خافية من صنعة صنعها، أو مخترع اخترعه؟ فكيف بعلم الله الذي علّم الإنسان ما لم يعلم؟ وفي هذا الاستعراض لعلم الله وقدرته استدعاء للإنسان الشارد عن الله، الغافل عن ذكره، المستخفّ بشرائعه ـ أن يعود إلى الله، وأن يخشاه، ويتقى محارمه، حيث يرى الله كلّ ما يعمل، ويعلم ما يخفى وما يعلن.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

---

(١) التحرير والتنوير: ٦/١٠.

١. جملة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تفيد استحقاق الله تعالى الحمد وحده دون غيره لأنّها تدلّ على الحصر، واللام لتعريف الجنس، فدلّت على انحصار استحقاق هذا الجنس لله تعالى، وقد تقدّم بيان ذلك مستوفى في أول سورة الفاتحة.

٢. ثم إنّ جملة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هنا خبر لفظا ومعنى إذ ليس هنا ما يصرف إلى قصد إنشاء الحمد بخلاف ما في سورة الفاتحة لأنّه عقّب بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] إلى آخر السورة، فمن جوّز في هذه أن تكون إنشاء معنى لم يجد التأمّل، فالمعنى هنا أنّ الحمد كلّه لا يستحقّه إلا الله، وهذا قصر إضافي للردّ على المشركين الذين حمدوا الأصنام على ما تخيّلوه من إسدائها إليهم نعما ونصرا وتفريج كربات، فقد قال أبو سفيان حين انتصر هو وفريقه يوم أحد: اعل هبل لنا العزّى ولا عزّى لكم، ويجوز أن يكون قصرا حقيقيا على معنى الكمال وأنّ حمد غيره تعالى من المنعمين تسامح لأنّه في الحقيقة واسطة صورية لجريان نعمة الله على يديه، والمقصود هو هو، وهو الردّ على المشركين، لأن الأصنام لا تستحقّ الحمد الصوري بله الحقيقي كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]، ولذلك عقّبت جملة الحمد على عظيم خلق الله تعالى بجملة ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

٣. والموصول، في محلّ الصفة لاسم الجلالة، أفاد مع صلته التذكير بعظيم صفة الخلق الذي عمّ السماوات والأرض وما فيهنّ من الجواهر والأعراض، وذلك أوجز لفظ في استحضار عظمة قدرة الله تعالى، وليس في التعريف بالموصولية هنا إيذان بتعليل الجملة التي ذكرت قبله، إذ ليست الجملة إنشائية كما علمت، والجملة الخبرية لا تعلّل، لأن الخبر حكاية ما في الواقع فلا حاجة لتعليله، فالمقصود من الأوصاف التمهيد لقوله بعد: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

٤. وجمع: ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ لأنّها عوالم كثيرة، إذ كلّ كوكب منها عالم مستقلّ عن غيره، ومنها الكواكب السبعة المشهورة المعبّر عنها في القرآن بالسماوات السبع فيما نرى، وأفرد الأرض لأنّها عالم واحد، ولذلك لم يجيء لفظ الأرض في القرآن جمعا.

٥. ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ أشار في (الكشاف) أنّ (جعل) إذا تعدّى إلى مفعول واحد فهو بمعنى أحدث وأنشأ فيقارب مرادفة معنى (خلق)، والفرق بينه وبين (خلق)؛ فإن في الخلق ملاحظة معنى التقدير، وفي الجعل ملاحظة معنى الانتساب، يعني كون المجعول مخلوقا لأجل غيره أو منتسبا إلى غيره،

فيعرف المنتسب إليه بمعونة المقام، فالظلمات والنور لمّا كانا عرضين كان خلقهما تكوينا لتكيّف موجودات السماوات والأرض بهما، ويعرف ذلك بذكر ﴿الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ عقب ذكر ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وباختيار لفظ الخلق للسماوات والأرض، ولفظ الجعل للظلمات والنور، ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] فإن الزوج وهو الأنثى مراعى في إيجاده أن يكون تكملة لخلق الذكر، ولذلك عقّبه بقوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] والخلق أعمّ في الإطلاق ولذلك قال تعالى في آية أخرى ﴿يَا أيها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] لأن كلّ تكوين لا يخلو من تقدير ونظام.

٦. وخصّ بالذكر من الجواهر والأعراض عرضين عظيمين، وهما: الظلمات والنور فقال: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ لاستواء جميع الناس في إدراكهما والشعور بهما، وبذكر هذه الأمور الأربعة حصلت الإشارة إلى جنسي المخلوقات من جواهر وأعراض، فالتفرقة بين فعل (خلق) وفعل (جعل) هنا معدود من فصاحة الكلمات، وإنّ لكلّ كلمة مع صاحبتها مقاما، وهو ما يسمّى في عرف الأدباء برشاقة الكلمة ففعل (خلق) أليق بإيجاد الذوات، وفعل (جعل) أليق بإيجاد أعراض الذوات وأحوالها ونظامها.

٧. والاقتصار في ذكر المخلوقات على هذه الأربعة تعريض بإبطال عقائد كفار العرب فإنّهم بين مشركين وصابئة ومجوس ونصارى، وكلّهم قد أثبتوا آلهة غير الله؛ فالمشركون أثبتوا آلهة من الأرض، والصابئة أثبتوا آلهة من الكواكب السماوية، والنصارى أثبتوا إلهية عيسى أو عيسى ومريم وهما من الموجودات الأرضية، والمجوس وهم المانوية ألّهوا النور والظلمة، فالنور إله الخير والظلمة إله الشرّ عندهم، فأخبرهم الله تعالى أنّه خالق السماوات والأرض، أي بما فيهم، وخالق الظلمات والنور.

٨. ثم إنّ في إيثار الظلمات والنور بالذكر دون غيرهما من الأعراض إيماء وتعريضا بحالي المخاطبين بالآية من كفر فريق وإيمان فريق، فإن الكفر يشبه الظلمة لأنّه انغماس في جهالة وحيرة، والإيمان يشبه النور لأنّه استبانة الهدى والحقّ، قال تعالى: ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]

٩. وقدّم ذكر الظلمات مراعاة للترتّب في الوجود لأن الظلمة سابقة النور، فإن النور حصل بعد خلق الذوات المضيئة، وكانت الظلمة عامّة.

١٠. وإنما جمع ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ وأفرد ﴿النُّورِ﴾ اتّباعا للاستعمال، لأن لفظ (الظلمات) بالجمع أخفّ،

ولفظ (النور) بالإفراد أخفّ، ولذلك لم يرد لفظ (الظلمات) في القرآن إلا جمعا ولم يرد لفظ (النور) إلا مفردا، وهما معا دالّان على الجنس، والتعريف الجنسي يستوي فيه المفرد والجمع فلم يبق للاختلاف سبب لاتّباع الاستعمال، خلافا لما في (الكشاف)

١١. ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، عطفت جملة ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ على جملة: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾، فـ ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الرتبي الدالّ على أنّ ما بعدها يتضمّن معنى من نوع ما قبله، وهو أهمّ في بابه، وذلك شأن (ثم) إذا وردت عاطفة جملة على أخرى، فإن عدول المشركين عن عبادة الله مع علمهم بأنه خالق الأشياء أمر غريب فيهم أعجب من علمهم بذلك.

١٢. والحجّة ناهضة على الذين كفروا لأن جميعهم عدا المانوية يعترفون بأنّ الله هو الخالق والمدبّر للكون، ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]

١٣. والخبر مستعمل في التعجيب على وجه الكناية بقرينة موقع ﴿ثُمَّ﴾ ودلالة المضارع على التجدّد، فالتعجيب من شأن المشركين ظاهر وأمّا المانوية فالتعجيب من شأنهم في أنّهم لم يهتدوا إلى الخالق وعبدوا بعض مخلوقاته، فالمراد بـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كلّ من كفر بإثبات إله غير الله تعالى سواء في ذلك من جعل له شريكا مثل مشركي العرب والصابئة ومن خصّ غير الله بالإلهية كالمانوية، وهذا المراد دلّت عليه القرينة وإن كان غالب عرف القرآن إطلاق الذين كفروا على المشركين.

١٤. ومعنى ﴿يَعْدِلُونَ﴾ يسوّون، والعدل: التسوية، تقول: عدلت فلانا بفلان، إذا سوّيته به، كما تقدّم في قوله: ﴿أو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥]، فقوله: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ متعلّق بـ ﴿يَعْدِلُونَ﴾ ولا يصحّ تعليقه بـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لعدم الحاجة إلى ذلك، وحذف مفعول ﴿يَعْدِلُونَ﴾، أي يعدلون بربّهم غيره وقد علم كلّ فريق ماذا عدل بالله، والمراد يعدلونه بالله في الإلهيّة، وإن كان بعضهم يعترف بأنّ الله أعظم كما كان مشركو العرب يقولون: لبّيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك، وكما قالت الصابئة في الأرواح، والنصارى في الابن والروح القدس.

١٥. ومعنى العجيب عامّ في أحوال الذين ادّعوا الإلهيّة لغير الله تعالى سواء فيهم من كان أهلا للاستدلال والنظر في خلق السماوات والأرض ومن لم يكن أهلا لذلك، لأن محلّ التعجيب أنّه يخلقهم ويخلق معبوداتهم فلا يهتدون إليه بل ويختلقون إلهيّة غيره، ومعلوم أنّ التعجيب من شأنهم متفاوت على

حسب تفاوت كفرهم وضلالهم.

١٦. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ استئناف لغرض آخر للتعجيب من حال المشركين إذ أنكروا البعث، فإنه ذكّرهم ابتداء بخلق السماوات والأرض، وعجّب من حالهم في تسويتهم ما لم يخلق السماوات ولا الأرض بالله تعالى في الإلهيّة، ثم ذكّرهم بخلقهم الأول، وعجّب من حالهم كيف جمعوا بين الاعتراف بأنّ الله هو خالقهم الخلق الأول فكيف يمترون في الخلق الثاني.

١٧. وأتي بضمير (هو) في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ ليحصل تعريف المسند والمسند إليه معا، فتفيد الجملة القصر في ركني الإسناد وفي متعلّقها، أي هو خالقكم لا غيره، من طين لا من غيره، وهو الذي قضى أجلا وعنده أجل مسمّى فينسحب حكم القصر على المعطوف على المقصور، والحال الذي اقتضى القصر هو حال إنكارهم البعث لأنّهم لمّا أنكروه وهو الخلق الثاني نزّلوا منزلة من أنكر الخلق الأول إذ لا فرق بين الخلقين بل الإعادة في متعارف الصانعين أيسر كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأول بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]، والقصر أفاد نفي جميع هذه التكوينات عن غير الله من أصنامهم، فهو كقوله: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الروم: ٤٠]

١٨. والخطاب في قوله: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ موجّه إلى الذين كفروا، ففيه التفات من الغيبة إلى الخطاب لقصد التوبيخ، وذكر مادّة ما منه الخلق بقوله: ﴿مِنْ طِينٍ﴾ لإظهار فساد استدلالهم على إنكار الخلق الثاني، لأنّهم استبعدوا أن يعاد خلق الإنسان بعد أن صار ترابا، وتكرّرت حكاية ذلك عنهم في القرآن، فقد اعترفوا بأنّهم يصيرون ترابا بعد الموت، وهم يعترفون بأنّهم خلقوا من تراب، لأن ذلك مقرّر بين الناس في سائر العصور، فاستدلّوا على إنكار البعث بما هو جدير بأن يكون استدلالا على إمكان البعث، لأن مصيرهم إلى تراب يقرّب إعادة خلقهم، إذ صاروا إلى مادة الخلق الأول، فلذلك قال الله هنا ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ وقال في آيات الاعتبار بعجيب تكوينه ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]، وأمثال ذلك.

١٩. وهذا القدح في استدلالهم يسمّى في اصطلاح علم الجدل القول بالموجب، والمنبّه عليه من

خطأ استدلالهم يسمّى فساد الوضع.

٢٠. ومعنى ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ أنّه خلق أصل النّاس وهو البشر الأول من طين، فكان كلّ البشر راجعا إلى الخلق من الطين، فلذلك قال: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾، وقال في موضع آخر ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢] أي الإنسان المتناسل من أصل البشر.

٢١. و﴿ثُمَّ﴾ للترتيب والمهلة عاطفة فعل ﴿قَضَى﴾ على فعل خلق فهو عطف فعل على فعل وليس عطف جملة على جملة، والمهلة هنا باعتبار التوزيع، أي خلق كلّ فرد من البشر ثم قضى له أجله، أي استوفاه له، فـ ﴿قَضَى﴾ هنا ليس بمعنى (قدّر) لأن تقدير الأجل مقارن للخلق أو سابق له وليس متأخّرا عنه ولكن ﴿قَضَى﴾ هنا بمعنى (أوفى) أجل كلّ مخلوق كقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ [سبأ: ١٤]، أي أمتناه، ولك أن تجعل (ثم) للتراخي الرتبي.

٢٢. وإنما اختير هنا ما يدلّ على تنهية أجل كلّ مخلوق من طين دون أن يقال: إلى أجل، لأن دلالة تنهية الأجل على إمكان الخلق الثاني، وهو البعث، أوضح من دلالة تقدير الأجل، لأن التقدير خفي والذي يعرفه الناس هو انتهاء أجل الحياة، ولأنّ انتهاء أجل الحياة مقدمة للحياة الثانية.

٢٣. وجملة ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ معترضة بين جملة ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾، وجملة ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، وفائدة هذا الاعتراض إعلام الخلق بأنّ الله عالم آجال الناس ردّا على قول المشركين {ما يُهْلِكُنا إلا الدَّهْرُ} [الجاثية: ٢٤]، وقد خولفت كثرة الاستعمال في تقديم الخبر الظرف على كلّ مبتدأ نكرة موصوفة، نحو قوله تعالى: ﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [ص: ٢٣]، حتّى قال صاحب (الكشاف): إنّه الكلام السائر، فلم يقدّم الظرف في هذه الآية لإظهار الاهتمام بالمسند إليه حيث خولف الاستعمال الغالب من تأخيره فصار بهذا التقديم تنكيره مفيدا لمعنى التعظيم، أي وأجل عظيم مسمّى عنده.

٢٤. ومعنى: ﴿مُسَمًّى﴾ معيّن، لأن أصل السمة العلامة التي يتعيّن بها المعلّم، والتعيين هنا تعيين الحدّ والوقت، والعندية في قوله: ﴿عِنْدَهُ﴾ عندية العلم، أي معلوم له دون غيره، فالمراد بقوله: ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أجل بعث الناس إلى الحشر، فإن إعادة النّكرة بعد نكرة يفيد أنّ الثانية غير الأولى، فصار المعنى: ثم قضى لكم أجلين: أجلا تعرفون مدّته بموت صاحبه، وأجلا معيّن المدّة في علم الله:

أ. فالمراد بالأجل الأول عمر كلّ إنسان، فإنه يعلمه الناس عند موت صاحبه، فيقولون: عاش كذا

وكذا سنة، وهو وإن كان علمه لا يتحقّق إلا عند انتهائه فما هو إلا علم حاصل لكثير من النّاس بالمقايسة، والأجل المعلوم وإن كان قد انتهى فإنه في الأصل أجل ممتدّ.

ب. والمراد بالأجل الثاني ما بين موت كلّ أحد وبين يوم البعث الذي يبعث فيه جميع الناس، فإنه لا يعلمه في الدنيا أحد ولا يعلمونه يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إلا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥]، وقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]

٢٥. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ عطفت على جملة: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾، فحرف ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الرتبي كغالب وقوعها في عطف الجمل لانتقال من خبر إلى أعجب منه، كما تقدّم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، أي فالتعجيب حقيق ممّن يمترون في أمر البعث مع علمهم بالخلق الأول وبالموت، والمخاطب بقوله: ﴿أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ هم المشركون، وجيء بالمسند إليه ضميرا بارزا للتوبيخ، والامتراء: الشكّ والتردّد في الأمر، وهو بوزن الافتعال، مشتقّ من المرية ـ بكسر الميم ـ اسم للشكّ، ولم يرد فعله إلا بزيادة التاء، ولم يسمع له فعل مجرّد.

٢٦. وحذف متعلّق ﴿تَمْتَرُونَ﴾ لظهوره من المقام، أي تمترون في إمكان البعث وإعادة الخلق، والذي دلّ على أنّ هذا هو المماري فيه قوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ إذ لولا قصد التذكير بدليل إمكان البعث لما كان لذكر الخلق من الطين وذكر الأجل الأول والأجل الثاني مرجّح للتخصيص بالذكر.

٢٧. ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ عطف على قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢] أي، خلقكم ولم يهمل مراقبتكم، فهو يعلم أحوالكم كلّها.

٢٨. فالضمير مبتدأ عائد إلى اسم الجلالة من قوله: ﴿الْحَمْدُ للهِ﴾ وليس ضمير فصل إذ لا يقع ضمير الفصل بعد حرف العطف، وقوله: ﴿اللهُ﴾ خبر عن المبتدأ، وإذ كان المبتدأ ضميرا عائدا إلى اسم الله لم يكن المقصود الإخبار بأنّ هذا الذي خلق وقضى هو الله إذ قد علم ذلك من معاد الضمائر، فتعيّن أن يكون المقصود من الإخبار عنه بأنه الله معنى يفيده المقام، وذلك هو أن يكون كالنتيجة للأخبار الماضية

ابتداء من قوله: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ﴾ [الأنعام: ١] فنبّه على فساد اعتقاد الذين أثبتوا الإلهية لغير الله وحمدوا آلهتهم بأنه خالق الأكوان وخالق الإنسان ومعيده، ثم أعلن أنّه المنفرد بالإلهية في السماوات وفي الأرض؛ إذ لا خالق غيره كما تقرّر آنفا، وإذ هو عالم السرّ والجهر، وغيره لا إحساس له فضلا عن العقل فضلا عن أن يكون عالما، ولمّا كان اسم الجلالة معروفا عندهم لا يلتبس بغيره صار قوله: ﴿وَهُوَ اللهُ﴾ في معنى الموصوف بهذه الصفات هو صاحب هذا الاسم لا غيره.

٢٩. ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ متعلّق بالكون المستفاد من جملة القصر، أو بما في ﴿الْحَمْدُ للهِ﴾ [الأنعام: ١] من معنى الانفراد بالإلهية، كما يقول من يذكر جوادا ثم يقول: هو حاتم في العرب، وهذا لقصد التنصيص على أنّه لا يشاركه أحد في صفاته في الكائنات كلّها.

٣٠. ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ جملة مقرّرة لمعنى جملة ﴿وَهُوَ اللهُ﴾ ولذلك فصلت، لأنّها تتنزّل منا منزلة التوكي لأن انفراده بالإلهيّة في السماوات وفي الأرض ممّا يقتضي علمه بأحوال بعض الموجودات الأرضية.

٣١. ولا يجوز تعليق ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ بالفعل في قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ لأن سرّ النّاس وجهرهم وكسبهم حاصل في الأرض خاصّة دون السماوات، فمن قدّر ذلك فقد أخطأ خطأ خفيّا.

٣٢. وذكر السرّ لأن علم السرّ دليل عموم العلم، وذكر الجهر لاستيعاب نوعي الأقوال.

٣٣. والمراد بـ ﴿تَكْسِبُونَ﴾ جميع الاعتقادات والأعمال من خير وشر فهو تعريض بالوعد والوعيد.

٣٤. والخطاب لجميع السامعين؛ فدخل فيه الكافرون، وهم المقصود الأول من هذا الخطاب، لأنّه تعليم وإيقاظ بالنسبة إليهم وتذكير بالنسبة إلى المؤمنين.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. كان ختام السورة السابقة إثبات سلطان الله تعالى الكامل، وقدرته الشاملة، وأنه لا يعجزه

(١) زهرة التفاسير: ٥/٢٤٣٠.

شيء في السماء ولا في الأرض، إذ قال سبحانه: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة]، وفى هذه الآية يبين سبحانه السبب في كمال سلطانه، والمظهر الأعظم لكمال قدرته، وهو خلق السموات والأرض وخلق الإنسان، فإن هذا من أسباب السلطان الكامل على السموات والأرض ومن فيهن، وهو مظهر كامل لكمال قدرته سبحانه وتعالى، وهذا قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

٢. الحمد معناه اللغوي الثناء على المحمود بالفعل الاختياري الذى يقوم به، فلا يحمد على فعل كان بالجبلة والتسخير، إنما الحمد يكون ثناء على فعل اختياري الحمد بمعنى الثناء مراتب، أدناه الثناء على العباد في أعمالهم الاختيارية، واستعماله في القرآن في الثناء على العباد قليل إلا إذا كان في التنديد بطلبهم للحمد مثل قوله تعالى: ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ [آل عمران]

٣. وأعلى من هذا مرتبة الثناء على الله تعالى بما هو أهله، وذكر صفاته، والإحساس بجلائل نعمه، ولهج لسان العبد بهذه النعم، والمرتبة العليا شكر هذه النعم والخضوع المطلق له سبحانه، والقيام بحق عبادته، وإفراده بالعبودية، وإن ذلك هو المطلوب من العباد، وهو أعلى الشكر، وقد قال سبحانه: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم] والشكر امتلاء القلب بذكر الله تعالى وذكر نعمه، وشكرها، وهو الذى طالب به القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ [البقرة]

٤. (أل) هنا للاستغراق، والمعنى أن المستحق لكل أنواع الحمد ومراتبها هو الله تعالى، فهو المستحق للعبادة، وهي أعلى درجات الحمد، وهو الجدير بكل حمد، دون غيره، وإذا كان ثمة حمد للعباد فهو إن كان على خير أسدوه كان حمد الله تعالى لتوفيقهم وعونهم، وإن كان الدافع على الثناء غير الخير، فهو ليس بحمد، وإنما هو كذب وافتراء على الحق وتعاون على الشر.

٥. وقد ذكر سبحانه أسباب ذلك الحمد الذى بلغ أعلى درجاته، فقال تعالت كلماته: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ هذا وصف لله سبحانه وتعالى يثبت كمال حق العبودية له وحده، وأنه لا يستحق الحمد الكامل سواه، ولقد يقول الصوفية: إن العبودية لله تعالى ثلاث مراتب:

أ. أولاها: أن يعبدوه لذاته.

ب. الثانية: أن يعبدوه لصفة من صفاته كصفة الخلق والتكوين.

ج. الثالثة: أن يعبدوه لتكمل نفوسهم، ويحسوا بفضل الطاعة.

٦. وهذا النص يفيد أن حمد الله تعالى؛ لأنه خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، والحق أن المراتب الثلاث لا تباعد بينها، فمن يعبد الله لذاته، فإن ذاته تعرف بصفاته، ومن يرى شرفه في عبادة الله وحده، فهو يتسامى.

٧. والقول الجملي ـ أن الذكر لخلق السموات والأرض لبيان سلطان الله تعالى وقدرته واستحقاقه وحده الألوهية؛ بدليل قوله سبحانه بعد ذلك: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

٨. سؤال وإشكال: ما سر التعبير في خلق السموات والأرض بـ (خلق)، وفى الظلمات والنور بـ (جعل)؟ والجواب: الخلق معناه الإنشاء الابتدائى هنا، والجعل يتضمن معنى تكوين شيء من شيء أو شيئين، وقد يتضمن الخلق ذلك المعنى بقرينة؛ وهنا المتبادر من المعنى أن الله تعالى أنشأ السموات والأرض إنشاء، وجعل منها الظلمات والنور، فمن اختفاء الشمس عن الأرض يكون ظلام الليل، ومن بزوغ الشمس على الأرض يكون النور، وذلك كله بجعل الله تعالى، وبأصل التكوين والتقدير من العزيز العليم.

٩. سؤال وإشكال: لماذا جمع (الظلمات) وأفرد (النور)؟ والجواب: أن النور واحد، من نتائجه الكشف والظهور، وتعدد أسبابه لا يغير حقيقته، أما الظلمة فإنها متنوعة بتنوع أسبابها.. فهناك ظلمة الليل، وهناك ظلمة المحابس، وهناك ظلمة القبور، وهناك ظلمة الغمام، وهي تتغير حقائقها بتغير أسبابها، ثم ثمة إشارة إلى أمر معنوي وهي أن ظلمة الإدراك تتعدد حقائقها، فهناك ظلمة الانحراف، وظلمة الأهواء والشهوات وطمس القلوب، والنور واحد، ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام] فالنور في هذا واحد.

١٠. سؤال وإشكال: لماذا أفردت الأرض وجمعت السموات مع أنه قد وردت نصوص تعتبر الأرض سبعا كالسماوات؟ والجواب: أنه في كثير من المواضع تفرد وتجمع السماء في مثل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء] وإنما تعدد السموات لعظمها، ولإحاطتها بالأرض، ولما فيها من الآيات البارزة، ولتزيينها بالنجوم، ولأنه لم يعلم أن الله تعالى قد عصي فيها، ولأن طبقاتها متمايزة ينفصل بعضها عن بعض، والأرض

طبقاتها متصلة.

١١. سؤال وإشكال: ما الذى كان العطف عليه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، ولماذا عطف بـ (ثم)؟ والجواب:

أ. هو أن الله سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، وهو وحده يستحق الحمد، ثم مع ذلك يجعل الذين كفروا بسبب ضلالهم مثلا يعدلونه به، وهو أصنامهم، أو ما يزعمون من آلهة.

ب. والتعبير بـ (ثم) للبعد بين الحقيقتين، فالحقيقة الأولى التي توجب توحيد الله تعالى وحده، والثانية: ما يقع من هؤلاء الكافرين على غير بينة ولا إدراك، ولقد قرر الله تعالى الحقيقة الثابتة، فقال عزّ من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾

١٢. بعد أن ذكر جلت قدرته خلقه لهذا الكون وما فيه، وسلطانه على السموات والأرض ومن فيهن، بين سبحانه خلق الإنسان الذى يؤمن ويكفر، ويأثم ويفسق، ويهتدى لأمر ربه، والذى حارت البرية فيه، كما قال أبو العلاء المعرى:

والذى حارت البرية فيه...حيوان مستحدث من جماد

ذكر أن الله تعالى خلقه، أي أنشأه من طين فلا يصح أن يستكبر، ويستغلظ على الهداية، وليذكر أصله، فأصله من طين، ولا يزال رب البرية يربه وينميه من الطين، فغذاؤه نبات أو حيوان يرجع إلى الطين.

١٣. وفى ذكر هذا الأصل إشارة إلى أمرين جليلين:

أ. أولهما عظمة الخالق وإبداعه الذى يجعل من صلصال من حمأ مسنون ذلك الإنسان الحى المتفكر المتدبر الذى يختار الشر فيغوى، ويختار الخير فيهتدى.

ب. والإشارة إلى تذكير الإنسان إلى أصل خلقه، لكيلا يستكبر ولا يغتر ولا يستعلى، وإذا كان أصله من الطين، فليس عجبا أن يعود كما بدأ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف] ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه]

١٤. وإن الله سبحانه وتعالى، قد خلق الإنسان من الطين، أي خلق أصله من طين، ثم توالد وتناسل من بعد ذلك، وعمر الأرض ما شاء أن يعمرها حتى كان منهم من نسى أصله الطينى، وقد قدر

سبحانه لكل إنسان أجلا، ولبنى الإنسان جميعا أجلا:

أ. أما الأول: فقد أشار إليه سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ أي عمرا تكون له نهاية في هذه الدنيا، وعقبى هنالك في الآخرة، وكان العطف بـ (ثم) للإشارة إلى الأطوار التي يمر فيها الإنسان، والأطوار التي يمر بها الجنين، وللتفاوت بين الحقيقة التي نراها ونحسها والغيب الذى لا نعرفه، مما قدره الله تعالى إذ يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان]، هذا هو أجل العمر.

ب. وقال سبحانه بعد ذلك: ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ وما هذا الأجل المسمى عنده، ولا يعلم به أحد الآن يصح أن يكون الأمد الذى يكون بين الوفاة، وبعث من في القبور، ويصح أن يكون ما قدر للإنسان في هذه الأرض من وجود، والأمران متلاقيان، فالزمن الذى يكون بين وفاة كل واحد، والبعث من القبور، والحساب والثواب أو العقاب، ثم الذى تنته به الدنيا، وهو مغيب؛ لأن الساعة علمها عند الله قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إلا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إلا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف]

١٥. ووصف هذا الأجل الثاني بأنه مسمى عنده يفيد اختصاص علمه سبحانه وتعالى بذلك، كما أشارت الآيات التي تلوناها، وقدم ﴿أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ على قوله تعالى: ﴿عِنْدَهُ﴾؛ لأن الأجل المسمى هو المبتدأ، وما بعده خبر، والمبتدأ مقدم حقيقة، ولأن الأجل هو المتحدث عنه باعتبار أن موضعه لا يعلمه إلا الله تعالى، وسوغ الابتداء بالنكرة؛ لأنها موصوفة، والموصوف المنكر يصح أن يكون مبتدأ لأنه معرف بنوع من التعريف، وتأخير ﴿عِنْدَهُ﴾ ليس فقط؛ لأن الأجل هو المبتدأ ـ بل لأن ﴿عِنْدَهُ﴾ متعلقة بكون التسمية عنده فالعندية ليست لذات الخبر، إنما هي للوقت المسمى الذى اختص الله تعالى به، فكان الأنسب أن يكون المسمى مقترنا بالعندية التي هي متعلقه.

١٦. وإذا كانت الآجال ترى مقدرة، فكل حي ينته بالموت لا محالة، فكان الأجل الذى لا يعلمه إلا الله تعالى لا ريب فيه أيضا، ولكن بعض الناس في ريب وشك؛ لأنهم مربوطون بالمحسوس؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ أي أنه مع ما ترون، وتعلمون من أن الإنسان يموت كما ترون، وأنه من طين،

مع ذلك تمترون، أي تشكون وتجادلون في شككم، والأدلة قائمة.

١٧. وكان العطف بـ (ثم) لتباعد ما بين الحقائق الثابتة وأسبابها، والامتراء هو التردد الذى ينته إلى محاجة ومجادلة، وقد ينته إلى شك، ثم إلى إنكار، وكان الخطاب لكل المخاطبين بالقرآن مؤكدا بـ (أنتم)، للإشارة إلى أن النفس البشرية حسية، وهي تأخذ أحكامها على الغائب الخفي من المحسوس الجلى، فكان الخطاب للجميع ليخلعوا من نفوسهم عوامل التردد، ويتجهوا إلى تصديق العليم الحكيم القادر على كل شيء ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾

١٨. بعد أن أشار سبحانه وتعالى أنه الخالق لكل شيء أشار سبحانه إلى البعث وذكر من قبل ذلك أنه الخالق ذو السلطان المطلق في هذا الوجود يسيطر عليه بجلاله، وألوهيته، واستحقاقه للألوهية وحده، وهو العالم فيه بكل شيء فلفظ الجلالة يتضمن معنى الألوهية الحق، ومعنى الوحدانية والعلم والقدرة والإرادة، والسلطان الكامل الذى لا يدانيه سلطان، فمعنى قوله: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ يتضمن خضوع كل من فيهن له سبحانه، وسيطرته الكاملة وقدرته وعلمه، واستحقاقه للعبودية؛ والألوهية وحده.

١٩. والضمير في قوله: ﴿وَهُوَ﴾ يعود على المستحق للحمد الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، والذى خلق الإنسان من طين، وإنه بذلك يكون مستحقا للحمد، ويكون هو المسيطر في الكون الذى أنشأه وفى الإنسان الذى صوره من طين، وسخر له ما في السماء والأرض.

٢٠. وقد ذكر وصفان جليلان فيهما تذكير وتبشير وإنذار:

أ. أولهما ـ أنه يعلم ﴿سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ فإنه يعلم ما تظهره الجوارح وما تخفيه السرائر، يعلم ما يجرى على الإنسان وما تخفى الصدور، فإن حاسب على ما يفعلون، فحسابه حساب اللطيف الخبير الذى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء أنى يكون، وهو مجاز على ذلك إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وهو من بعد الغفور الرحيم.

ب. الثاني: أنه يعلم ما يكسبون من خير أو شر، ولكل ذلك حسابه من هنا إلى يوم القيامة.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، هذه الآيات الثلاث من الآيات الكونية الدالة على وحدانيته وعظمته، وتشير الآية الأولى: إلى خلق السموات والأرض، والظلمات والنور، والثانية: إلى خلق الإنسان وبعثه بعد الموت، والثالثة إلى علم الله واحاطته بكل شيء.

٢. قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لله﴾ يريد به التعليم، أي قولوا يا عبادي الحمد لله، والثناء على الله حسن على كل حال، حتى عند الضراء، لأنه أهل للتقديس والتعظيم.. فإن أصابتك مصيبة، وقلت عندها: الحمد لله فإنك تعبر بذلك عن صبرك على الشدائد، وإيمانك القوي الراسخ الذي لا يزعزعه شيء ويتأكد حسن الحمد ورجحانه عند السراء ودفع البلاء، لأنه شكر لله على ما أسبغ وأنعم.

٣. ووصف الله سبحانه نفسه بخالق السموات والأرض والظلمات والنور لينبه العقول إلى أنه لا شريك له في الخلق والألوهية، فيكون هو وحده الجدير بالحمد والإخلاص له في العبودية.

٤. ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، ومحل التعجب والغرابة أن هذا الكون العجيب بأرضه وسمائه، وهذه البينات الواضحة، والدلائل القاطعة لم تخترق ذاك الظلام الكثيف على عقل المشرك وقلبه الذي أعماه عن الحق، وصور له أن لله مساويا في استحقاق الحمد والعبادة.

٥. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾، أي خلق أصلكم، وهو آدم، وآدم من تراب وماء، أو خلق مادة كل فرد من البشر من طين، لأنه من لحم ودم، وهما من النبات ولحم الحيوان المتولد من النبات، والنبات من الطين.

٦. ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾، للقضاء معان، منها الحكم والأمر: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ إلا تَعْبُدُوا إلا إِيَّاهُ﴾ أي أمر.. ومنها الإخبار والإنهاء: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي انهينا، ومنها الحتم الذي لا مفر منه: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وهذا المعنى هو المراد هنا.

٧. والله سبحانه قضى لكل فرد من عباده أجلين: أحدهما ينتهي بموته، وبعده يعرف كم عاش، وثانيهما لإعادته وبعثه بعد الموت، وعلم هذا عند الله وحده، ولا يطلع عليه أحدا من خلقه، كما دلت على

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/١٥٨.

ذلك كلمة عنده.

٨. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، أي تشكّون، والمعنى: أبعد أن قامت الدلالة على قدرة الله في الخلق الكبير، وهو الكون، وفي الخلق الصغير، وهو خلق الإنسان وموته وبعثه، أبعد هذا تشكون في وجود الله ووحدانيته وعظمته!.. وخير تفسير لهذه الجملة قول علي أمير المؤمنين عليه السلام: (عجبت لمن شك في الله، وهو يرى خلق الله، وعجبت لمن نسي الموت، وهو يرى الموت، وعجبت لمن أنكر النشأة الأخرى، وهو يرى النشأة الأولى)

٩. ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾، ذكر سبحانه في الآية الأولى: أنه خالق السموات والأرض، والنتيجة الحتمية لهذا انه موجود في السموات والأرض، ومعنى وجوده فيهما وجود آثاره، وذكر في الآية الثانية: أنه خالق الإنسان ومميته ومعيده، واللازم القهري لذلك أنه يحيط علما بسره وجهره، وما يكسبه من إيمان وكفر، وإخلاص ونفاق، وأقوال وأفعال تعود عليه بالخير أو الشر.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ افتتح بالثناء على الله وهو كالمقدمة لما يراد بيانه من معنى التوحيد، وذلك بتضمين الثناء ما هو محصل غرض السورة ليتوسل بذلك إلى الاحتجاج عليه تفصيلا، وتضمينه العجب منهم ولومهم على أن عدلوا به غيره والامتراء في وحدته ليكون كالتمهيد على ما سيورد من جمل الوعظ والإنذار والتخويف.

٢. وقد أشار في هذا الثناء الموضوع في الآيات الثلاث إلى جمل ما تعتمد عليه الدعوة الدينية في المعارف الحقيقية التي هي بمنزلة المادة للشريعة، وتنحل إلى نظامات ثلاث:

أ. نظام الكون العام وهو الذي تشير إليه الآية الأولى.

ب. ونظام الإنسان بحسب وجوده، وهو الذي تشتمل عليه الآية الثانية.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/٧.

ج. ونظام العمل الإنساني وهو الذي تومئ إليه الآية الثالثة.

٣. فالمتحصل من مجموع الآيات الثلاث هو الثناء عليه تعالى بما خلق العالم الكبير الذي يعيش فيه الإنسان، وبما خلق عالما صغيرا هو وجود الإنسان المحدود من حيث ابتدائه بالطين ومن حيث انتهائه بالأجل المقضي، وبما علم سر الإنسان وجهره وما يكسبه.

وما في الآية الثالثة: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾، بمنزلة الإيضاح لمضمون الآيتين، السابقتين والتمهيد لبيان علمه بسر الإنسان وجهره وما تكسبه نفسه.

٤. فقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ إشارة إلى نظام الكون العام الذي عليه تدبر الأشياء على كثرتها وتفرقها في عالمنا في نظامه الجاري المحكم إلا عالم الأرض الذي يحيط به عالم السماوات على سعتها ثم يتصرف بها بالنور والظلمات اللذين عليهما يدور رحى العالم المشهود في تحوله وتكامله فلا يزال يتولد شيء من شيء ويتقلب شيء إلى شيء ويظهر واحد ويخفى آخر، ويتكون جديد ويفسد قديم، وينتظم من تلاقي هذه الحركات المتنوعة على شتاتها الحركة العالمية الكبرى التي تحمل أثقال الأشياء، وتسير بها إلى مستقرها.

٥. والجعل في قوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ﴾ بمعنى الخلق غير أن الخلق لما كان مأخوذا في الأصل من خلق الثوب كان التركيب من أجزاء شتى مأخوذا في معناه بخلاف الجعل، ولعل هذا هو السبب في تخصيص الخلق بالسماوات والأرض لما فيها من التركيب بخلاف الظلمة والنور، ولذا خصا باستعمال الجعل.

٦. وقد أتى بالظلمات بصيغة الجمع دون النور، ولعله لكون الظلمة متحققة بالقياس إلى النور فإنها عدم النور فيما من شأنه أن يتنور فتتكثر بحسب مراتب قربه من النور وبعده بخلاف النور فإنه أمر وجودي لا يتحقق بمقايسته إلى الظلمة التي هي عدمية، وتكثيره تصورا بحسب قياسه التصوري إلى الظلمة لا يوجب تعدده وتكثره حقيقة.

٧. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ مسوق للتعجب المشوب بلوم أي إن الله سبحانه بخلقه السماوات والأرض وجعله الظلمات والنور متوحد بالألوهية متفرد بالربوبية لا يماثله شيء ولا يشاركه، ومن العجب أن الذين كفروا مع اعترافهم بأن الخلق والتدبير لله بحقيقة معنى الملك دون الأصنام

التي اتخذوها آلهة يعدلون بالله غيره من أصنامهم ويسوون به أوثانهم فيجعلون له أندادا تعادله بزعمهم فهم ملومون على ذلك.

٨. وبذلك يظهر وجه الإتيان بثم الدال على التأخير والتراخي فكأن المتكلم لما وصف تفرده بالصنع والإيجاد وتوحده بالألوهية والربوبية ذكر مزعمة المشركين وأصحاب الأوثان أن هذه الحجارة والأخشاب المعمولة أصناما يعدلون بها رب العالمين فشغله التعجب زمانا وكفه عن التكلم ثم جرى في كلامه وأشار إلى وجه سكوته، وأن حيرة التعجب كان هو المانع عن جريه في كلامه فقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

٩. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ يشير إلى خلقه العالم الإنساني الصغير بعد الإشارة إلى خلق العالم الكبير فيبين أن الله سبحانه هو الذي خلق الإنسان ودبر أمره بضرب الأجل لبقائه الدنيوي ظاهرا فهو محدود الوجود بين الطين الذي بدأ منه خلق نوعه وإن كان بقاء نسله جاريا على سنة الازدواج والوقاع كما قال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ [السجدة: ٨]

١٠. وبين الأجل المقضي الذي يقارن الموت كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧] ومن الممكن أن يراد بالأجل ما يقارن الرجوع إلى الله سبحانه بالبعث فإن القرآن الكريم كأنه يعد الحياة البرزخية من الدنيا كما يفيده ظاهر قوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أو بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إلا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: (المؤمنون: ١١٤)، وقال أيضا: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾، وقال: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦]

١١. وقد أبهم أمر الأجل بإتيانه منكرا في قوله: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ للدلالة على كونه مجهولا للإنسان لا سبيل له إلى المعرفة به بالتوسل إلى العلوم العادية.

١٢. ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ تسمية الأجل تعيينه فإن العادة جرت في العهود والديون ونحو ذلك بذكر الأجل وهو المدة المضروبة أو آخر المدة باسمه، وهو الأجل المسمى، قال تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ

إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وهو الأجل بمعنى آخر المدة المضروبة، وكذا قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فإن أَجَلَ اللهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥]، وقال تعالى في قصة موسى وشعيب: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فإن أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾إلى أن قال: ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾: (القصص ـ ٢٨) وهو الأجل بمعنى تمام المدة المضروبة.

١٣. والظاهر أن الأجل بمعنى آخر المدة فرع الأجل بمعنى تمام المدة استعمالا أي أنه استعمل كثيرا (الأجل المقضي) ثم حذف الوصف واكتفي بالموصوف فأفاد الأجل معنى الأجل المقضي، قال الراغب في مفرداته: (يقال للمدة المضروبة لحياة الإنسان (أجل) فيقال: دنا أجله عبارة عن دنو الموت، وأصله استيفاء الأجل)، وكيف كان فظاهر كلامه تعالى أن المراد بالأجل والأجل المسمى هو آخر مدة الحياة لإتمام المدة كما يفيده قوله: ﴿فإن أَجَلَ اللهِ لَآتٍ﴾ الآية، فتبين بذلك أن الأجل أجلان: الأجل على إبهامه، والأجل المسمى عند الله تعالى.

١٤. وهذا هو الذي لا يقع فيه تغير لمكان تقييده بقوله: ﴿عِنْدَهُ﴾ وقد قال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] وهو الأجل المحتوم الذي لا يتغير ولا يتبدل قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]، فنسبة الأجل المسمى إلى الأجل غير المسمى نسبة المطلق المنجز إلى المشروط المعلق فمن الممكن أن يتخلف المشروط المعلق عن التحقق لعدم تحقق شرطه الذي علق عليه بخلاف المطلق المنجز فإنه لا سبيل إلى عدم تحققه البتة.

١٥. والتدبر في الآيات السابقة منضمة إلى قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩] يفيد أن الأجل المسمى هو الذي وضع في أم الكتاب، وغير المسمى من الأجل هو المكتوب فيما نسميه بلوح المحو والإثبات، وسيأتي إن شاء الله تعالى أن أم الكتاب قابل الانطباق على الحوادث الثابتة في العين أي الحوادث من جهة استنادها إلى الأسباب العامة التي لا تتخلف عن تأثيرها، ولوح المحو والإثبات قابل الانطباق على الحوادث من جهة استنادها إلى الأسباب الناقصة التي ربما نسميها بالمقتضيات التي يمكن اقترانها بموانع تمنع من تأثيرها.

١٦. واعتبر ما ذكر من أمر السبب التام والناقص بمثال إضاءة الشمس فإنا نعلم أن هذه الليلة

ستنقضي بعد ساعات وتطلع علينا الشمس فتضيء وجه الأرض لكن يمكن أن يقارن ذلك بحيلولة سحابة أو حيلولة القمر أو أي مانع آخر فتمنع من الإضاءة، وأما إذا كانت الشمس فوق الأفق ولم يتحقق أي مانع مفروض بين الأرض وبينها فإنها تضيء وجه الأرض لا محالة، فطلوع الشمس وحده بالنسبة إلى الإضاءة بمنزلة لوح المحو والإثبات، وطلوعها مع حلول وقته وعدم أي حائل مفروض بينها وبين الأرض بالنسبة إلى الإضاءة بمنزلة أم الكتاب المسمى باللوح المحفوظ.

١٧. فالتركيب الخاص الذي لبنية هذا الشخص الإنساني مع ما في أركانه من الاقتضاء المحدود يقتضي أن يعمر العمر الطبيعي الذي ربما حددوه بمائة أو بمائة وعشرين سنة وهذا هو المكتوب في لوح المحو والإثبات مثلا غير أن لجميع أجزاء الكون ارتباطا وتأثيرا في الوجود الإنساني فربما تفاعلت الأسباب والموانع التي لا نحصيها تفاعلا لا نحيط به فأدى إلى حلول أجله قبل أن ينقضي الأمد الطبيعي، وهو المسمى بالموت الاخترامي، وبهذا يسهل تصور وقوع الحاجة بحسب ما نظم الله الوجود إلى الأجل المسمى وغير المسمى جميعا، وأن الإبهام الذي بحسب الأجل غير المسمى لا ينافي التعين بحسب الأجل المسمى، وأن الأجل غير المسمى والمسمى ربما توافقا وربما تخالفا والواقع حينئذ هو الأجل المسمى البتة.

١٨. هذا ما يعطيه التدبر في قوله: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ وللمفسرين تفسيرات غريبة للأجلين الواقعين في الآية:

أ. منها: أن المراد بالأجل الأول ما بين الخلق والموت والثاني ما بين الموت والبعث، ذكره عدة من الأقدمين وربما روي عن ابن عباس.

ب. ومنها: أن الأجل الأول أجل أهل الدنيا حتى يموتوا، والثاني أجل الآخرة الذي لا آخر له، ونسب إلى المجاهد والجبائي وغيرهما.

ج. ومنها: أن الأجل الأول أجل من مضى، والثاني أجل من بقي من سيأتي، ونسب إلى أبي مسلم.

د. ومنها: أن الأجل الأول النوم، والثاني الموت.

هـ. ومنها: أن المراد بالأجلين واحد، وتقدير الآية الشريفة: ثم قضى أجلا وهذا أجل مسمى عنده.

١٩. ولا أرى الاشتغال بالبحث عن صحة هذه الوجوه وأشباهها وسقمها يسوغه الوقت على ضيقه، ولا يسمح بإباحته العمر على قصره.

٢٠. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ من المرية بمعنى الشك والريب، وقد وقع في الآية التفات من الغيبة إلى الحضور، وكأن الوجه فيه أن الآية الأولى: تذكر خلقا وتدبيرا عاما ينتج من ذلك أن الكفار ما كان ينبغي لهم أن يعدلوا بالله سبحانه غيره، وكان يكفي في ذلك ذكرهم بنحو الغيبة لكن الآية الثانية: تذكر الخلق والتدبير الواقعين في الإنسان خاصة فكان من الحري الذي يهيج المتكلم المتعجب اللائم أن يواجههم بالخطاب ويلومهم بالتجبيه كأنه يقول: هذا خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور عذرناكم في الغفلة عن حكمه لكون ذلك أمرا عاما ربما أمكن الذهول عما يقتضيه فما عذركم أنتم في امترائكم فيه وهو الذي خلقكم وقضى فيكم أجلا وأجل مسمى عنده؟

٢١. ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ الآيتان السابقتان تذكران الخلق والتدبير في العوالم عامة وفي الإنسان خاصة، ويكفي ذلك في التنبه على أن الله سبحانه هو الإله الواحد الذي لا شريك له في خلقه وتدبيره، لكنهم مع ذلك أثبتوا آلهة أخرى وشفعاء مختلفة لوجوه التدبير المختلفة كإله الحياة وإله الرزق وإله البر وإله البحر وغير ذلك، وكذا للأنواع والأقوام والأمم المتشتتة كإله السماء وإله هذه الطائفة وإله تلك الطائفة فنفى ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾، فالآية نظيرة قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤] مفادها انبساط حكم ألوهيته تعالى في السماوات وفي الأرض من غير تفاوت أو تحديد، وهي إيضاح لما تقدم وتمهيد لما يتلوها من الكلام.

٢٢. ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ السر والجهر متقابلان وهما وصفان للأعمال، فسرهم ما عملوه سرا وجهرهم ما عملوه جهرا من غير ستر، وأما ما يكسبون فهو الحال النفساني الذي يكسبه الإنسان بعمله السري والجهري من حسنة أو سيئة فالسر والجهر المذكوران ـ كما عرفت ـ وصفان صوريان لمتون الأعمال الخارجية، وما يكسبونه حال روحي معنوي قائم بالنفوس فهما مختلفان بالصورية والمعنوية، ولعل اختلاف المعلومين من حيث نفسهما هو الموجب لتكرار ذكر العلم في قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾

٢٣. والآية كالتمهيد لما ستتعرض له من أمر الرسالة والمعاد فإن الله سبحانه لما كان عالما بما يأتي به الإنسان من عمل سرا أو جهرا، وكان عالما بما يكسبه لنفسه بعمله من خير أو شر، وكان إليه زمام التربية والتدبير كان له أن يرسل رسولا بدين يشرعه لهداية الناس على الرغم مما يصر عليه الوثنيون من الاستغناء

عن النبوة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ [الليل: ١٢]، وكذا هو تعالى لما كان عالما بالأعمال وبتبعاتها في نفس الإنسان كان عليه أن يحاسبهم في يوم لا يغادر منهم أحدا كما قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]

٢٤. في الكافي، بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: (إن الله خلق الجنة قبل أن يخلق النار، وخلق الطاعة قبل أن يخلق المعصية، وخلق الرحمة قبل الغضب، وخلق الخير قبل الشر ـ وخلق الأرض قبل السماء، وخلق الحياة قبل الموت، وخلق الشمس قبل القمر، وخلق النور قبل الظلمة):

أ. خلق النور قبل الظلمة بالنظر إلى كون الظلمة عدميا مضافا إلى النور ظاهر المعنى.

ب. وأما نسبة الخلق إلى الطاعة والمعصية فليس يلزم منها بطلان الاختيار فإن بطلانه يستلزم بطلان نفس الطاعة والمعصية فلا تبقى لنسبتهما إلى الخلق وجه صحة بل المراد كونه تعالى يملكهما كما يملك كل ما وقع في ملكه، وكيف يمكن أن يقع في ملكه ما هو خارج عن إحاطته وسلطانه ومنعزل عن مشيته وإذنه، ولا دليل على انحصار الخلق في الإيجاد والصنع الذي لا واسطة فيه حتى يكون تعالى مستقلا بإيجاد كل ما نسب خلقه إليه فيكون إذا قيل: إن الله خلق العدل أو القتل مثلا أنه أبطل إرادة الإنسان العادل أو القاتل، واستقل هو بالعدل والقتل بإذهاب الواسطة من البين فافهم ذلك، وقد تقدم استيفاء البحث عن هذا المعنى.. وبنظير البيان يتبين معنى نسبة الخلق إلى الخير والشر أيضا، سواء كانا خيرا وشرا في الأمور التكوينية أو في الأفعال.

ج. وأما كون الطاعة مخلوق قبل المعصية، وكذا الخير قبل الشر فيجري أيضا في بيانه نظير ما تقدم من بيان كون النور قبل الظلمة من أن النسبة بينهما نسبة العدم والملكة، والعدم يتوقف في تحققه على الملكة ويظهر به أن خلق الحياة قبل الموت، وبذلك يتبين أن خلق الرحمة قبل الغضب فإن الرحمة متعلقة بالطاعة والخير والغضب متعلق بالمعصية والشر، والطاعة والخير قبل المعصية والشر.

د. وأما خلق الأرض قبل السماء فيدل عليه قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى أن قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أو كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [حم السجدة: ١٢]

هـ. وأما كون خلق الشمس قبل القمر فليس كل البعيد أن يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ

وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ [الشمس: ٢] وقد رجحت الأبحاث الطبيعية اليوم أن الأرض مشتقة من الشمس والقمر مشتق من الأرض.

٢٥. في تفسير العياشي، عن أبي إبراهيم عليه السلام قال: (لكل صلاة وقتان، ووقت يوم الجمعة زوال الشمس ثم تلا هذه الآية: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ـ قال يعدلون بين الظلمات والنور وبين الجور والعدل)، وهذا معنى آخر للآية، وبناؤه على جعل قوله: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ متعلقا بقوله: ﴿كَفَرُوا﴾ دون ﴿يَعْدِلُونَ﴾

في الكافي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألت عن قول الله عز وجل ﴿قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ قال: (هما أجلان أجل محتوم وأجل موقوف)، وفي تفسير العياشي، عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام: في قوله: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ ـ قال: الأجل الذي غير مسمى موقوف يقدم منه ما شاء، وأما الأجل المسمى فهو الذي ينزل مما يريد ـ أن يكون من ليلة القدر إلى مثلها ـ قال فذلك قول الله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، وفيه، عن حمران عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله: ﴿أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ قال: (المسمى ما سمي لملك الموت في تلك الليلة، وهو الذي قال الله ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾) وهو الذي سمي لملك الموت في ليلة القدر، والآخر له فيه المشية إن شاء قدمه، وإن شاء أخره)، وفي هذا المعنى غيرها من الروايات المأثورة عن أئمة أهل البيت عليه السلام، والذي يدل عليه من معنى الأجل المسمى وغيره هو الذي تقدمت استفادته من الآيات الكريمة.

٢٦. في تفسير علي بن إبراهيم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (الأجل المقضي هو المحتوم الذي قضاه الله وحتمه، والمسمى هو الذي فيه البداء ـ يقدم ما يشاء ويؤخر ما شاء، والمحتوم ليس فيه تقديم ولا تأخير)، وقد غلط بعض من في طريق الرواية فعكس المعنى وفسر كلا من المسمى وغيره بمعنى الآخر، على أن الرواية لا تتعرض لتفسير الآية فلا كثير ضير في قبولها.

٢٧. في تفسير العياشي، عن الحصين عن أبي عبد الله عليه السلام: في قوله: ﴿قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ قال ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: (الأجل الأول هو ما نبذه إلى الملائكة والرسل والأنبياء، والأجل المسمى عنده هو الذي ستره الله عن الخلائق)، ومضمون الرواية ينافي ما تقدمت من

الروايات ظاهرا، ولكن من الممكن أن يستفاد من قوله: (نبذه) أن المراد أنه تعالى أعطاهم الأصل الذي تستنبط منه الآجال غير المساة وأما الأجل المسمى فلم يسلط أحدا على علمه بمعنى أن ينبذ إليه نورا يكشف به كل أجل مسمى إذا أريد ذلك، وإن كان تعالى يسميه لملك الموت أو لأنبيائه ورسله إذا شاء، وذلك كالغيب يختص علمه به تعالى، وهو مع ذلك يكشف عن شيء منه لمن ارتضاه من رسول إذا شاء ذلك.

٢٨. في تفسير البرهان، عن محمد بن النعمان قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ قال: كذلك هو في كل مكان، قلت: بذاته؟ قال: (ويحك إن الأماكن أقدار ـ فإذا قلت: في مكان بذاته ـ لزمك أن تقول: في أقدار وغير ذلك، ولكن هو بائن من خلقه محيط بما خلق علما ـ وقدرة وإحاطة وسلطانا ـ وليس علمه بما في الأرض بأقل مما في السماء، ولا يبعد منه شيء والأشياء له سواء علما وقدرة وسلطانا وملكا وإرادة)

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ للهِ﴾ هو المستحق للحمد ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ وذلك دليل على قدرته التي لا تساويها قدرة ولا تقاربها، وعلى سعة علمه وإحاطته بكل شيء لأن صنعه محكم، والإحكام دليل على العلم، ولأن الظلمات والنور مقدران بمقادير محكمة تابعة لمقدار حجم الأرض ومقدار سرعة دورتها، ومقدار نسبة المسافة بين الأرض والشمس، خلق ذلك وقدره بقدرته وعلمه نعمة منه على عباده، والمذكور هنا جعل الظلمات، فأما تقديرها ففي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [الأنبياء:٣٣] ولعل جمع الظلمات هنا لتعدد الحجب التي تحجب النور، كما قال تعالى: ﴿أو كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور:٤٠]

٢. ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ بعد أن دل خلقه على عظمته وجلاله بما خلق

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/٤١١.

وجعل، فـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ بآيات الله وبأنعمه قابلوا ذلك بأنهم ﴿يَعْدِلُونَ﴾ بربهم شركاءهم، أي يجعلونها عديلة لله؛ لأنهم جعلوها آلهة تستحق العبادة بزعمهم، وفي (تفسير الغريب) للإمام زيد بن علي عليهما السلام: (معناه: تجعلون له مثلاً وتشركون به)، وفي (الصحاح): (والعديل: الذي يعادلك ذلك في الوزن والقدر)، قال الشرفي في (المصابيح): (وفائدة ﴿ثُمَّ﴾ استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته)

٣. وفي هذه الآية إشارة إلى معظم ما يأتي في هذه السورة من ذكر آيات الله، وما يأتي فيها من الرد على المشركين، والعدل بالله يصدق على أنواع الشرك كلها.

٤. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ وهذه آية أخرى تدل على قدرته وعلمه وملكه للإنسان، يتصرف فيه كيف يشاء، وقدرته على إحيائه بعد الموت وجزائه.

٥. ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ بدأ خلق الإنسان من طين، وهو خلق أبينا آدم عليه السلام من الطين بتسوية صورته من الطين، الذي هو تراب ممزوج بالبلل.

٦. ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ ثم قضى لكم أجلاً في الحياة أو للمات، والمعنى متقارب، فالحياة حتى المات هي بقضائه تعالى، وذلك يستلزم أن المات بقضائه تعالى، والمات هو بقضائه في حينه المقضي يكون لا يتقدم ولا يتأخر، وذلك يستلزم أن بقاء الحياة بقضائه.

٧. ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ وأجل آخر ﴿مُسَمًّى﴾ معين وقته محدود ﴿عِنْدَهُ﴾ في قدرته وعلمه يأتي بالمؤجل به في حينه، والأقرب: أنه أجل القيامة، وهكذا في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام) فحياة كل شخص مؤقته بتأجيل الله، وتناسل القرون في هذه الحياة الدنيا مؤجل بتأجيل الله، فبقضائه حياة كل فرد وموته، وبقضائه الحياة الأولى: والحياة الآخرة وانتهاء الحياة الأولى: لكل الناس أجمعين بقضائه.

٨. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام) معناه: تشكُّون، أي تشكُّون في صدق الوعد والوعيد؛ استبعاداً للقدرة على إحياء العظام وهي رميم، وقد خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، وخلقكم من طين، وحدد آجالكم وحدد هذه الحياة الأولى: التي هي تَقْدِمَة للآخرة، قال الشرفي في (المصابيح) ـ حاكياً عن الحاكم الجشمي المفسر ـ: (قال الحاكم: فإنه نبه بقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ على إبطال قول من يقول بقدم العالم، وبقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾

على إبطال قول الثنوية القائلين بقدمها لأنها أجسام بمنزلة غيرهما، وبقوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ على إبطال قول الطبائعية) هكذا القرآن شفاء من كل داء.

٩. ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ ﴿وَهُوَ اللهُ﴾ يدعوه أهل السماء وأهل الأرض يدعونه الله؛ لأنه الإله في السموات والأرض، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف:٨٤]

١٠. ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ فهو الذي يعلم دعاءكم له وسائر عبادتكم إياه، فاعبدوه ولا تعبدوا غيره ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ من سيئات أو حسنات فاتقوه وراقبوه.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. بدأت هذه السورة بكلمة ﴿الْحَمْدُ للهِ﴾ كما بدأت بها سورة الفاتحة، للإيحاء بروح التفاعل الإنساني بقضية الإيمان بالله، لأن للجانب التعبيري أثره الكبير في إطلاق الفكرة في النفس وامتدادها في الروح، لأن الكلمة المعبّرة عن المدح والثناء، لا بدّ لها من قاعدة تنطلق منها في عالم التصوّر والشعور، ولا بدّ لها لأجل ذلك من ملاحقة ظاهرة من ظواهر الكون لتكون مدعاة للتأمل والفكر، ولتعود محمّلة بكل المعاني الحيّة التي تثير في الإنسان الإحساس بالعظمة والامتنان.. وهكذا تتحوّل هذه الكلمة التي يعبّر بها عن مشاعره إلى حديث داخليٍّ متجدّد، يذكره بالآفاق الرحبة التي انطلقت منها، مما يجعل منها أداة تفجير دائمة لمنابع الإيمان في النفس.

٢. وهذا ما أرادته التربية الإسلامية في تعاليم الشريعة، من استحباب النطق بكلمة (سبحان الله)، عندما نشاهد بعض مظاهر عظمة الله، وكلمة (الشكر لله) عند إحساسنا ببعض نعمه علينا، وكلمة: (لا حول ولا قوة إلا بالله) عند التوقف أمام تهاويل الخوف التي تثير مواطن الضعف لدى الإنسان أو عند الإحساس بالقوة الذاتية بالطريقة التي قد تبعث فيه الغرور من خلال نسيان مصدر القوة، أو كلمة: (الله أكبر) عند مواجهة القوى الكبيرة في الكون، والشعور بعظمتها داخل الإنسان، لتتضاءل عظمتها أمام

---

(١) من وحى القرآن: ١٦/٩.

عظمة الله، بحيث تتحوّل تلك الكلمات إلى محرّك للمفاهيم الإيمانيّة في كل وقت، لئلا تغيب تلك المفاهيم في غمار المشاكل اليوميّة التي تبعد الإنسان عن الله وتنسيه ذكره، وجاءت الكلمات التالية، لتؤكد القاعدة التي ينطلق منها الحمد لله في حياة الإنسان.

٣. ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ويتطلع الإنسان إلى السماوات، بالنظرة المجرّدة الساذجة، فيرتدّ طرفه خاسئا حسيرا عندما يشاهد الشمس والقمر والكواكب، وهي تتفجر بالنور اللاهب تارة، والدافئ أخرى، والهادىء البارد ثالثة، والخفيف البعيد رابعة.. ويتطلع إلى هذه الأعداد الهائلة من النجوم التي لا تعدّ ولا تحصى، ويحار في طبيعتها وفي طبيعة القوانين التي تحكمها، ويدفعه الخيال إلى تصوّر الكثير من الصور والتهاويل والأفكار التي قد تلامس الحقيقة قليلا، وتبتعد عنها كثيرا.. ويتعمق فيها بالنظرة العلمية العميقة الواسعة، فيصيبه الذهول والشرود عندما يتطلع إلى هذه الأكوان السابحة في الفضاء، المرتكزة على قوانين كونيّة غامضة لم يصل الإنسان إلى اكتشاف أسرارها، بل كل ما هناك أنه وضع يديه على البعض القليل منها، وما يزال يبحث ويسعى للوصول إليها، بالرحلات الفضائية تارة، وبالمناظير المكبّرة أخرى، وبالتحاليل العلمية التي تتأرجح بين الشك واليقين ثالثة.

٤. وتمتلئ النفس بمشاعر الدهشة والعظمة والتضاؤل أمام هذه الأكوان الشاسعة المترامية.. ويعود الإنسان إلى الأرض التي سخرها الله ومهدها له، وجعلها في متناول يده بأنهارها، وبحارها، وجبالها، وسهولها، ومعادنها، وثرواتها، وأشجارها، وخضرتها الممتدة التي تحمل إليه من كل الأزواج المتنوعة من الخضر والفواكه وغيرها.. وحيواناتها السابحة في الماء، والطائرة في الفضاء، والمتحركة في كل صعيد، والسارحة في أعماق الأرض.. وإنسانها الذي يتميز بكل خصائص العقل والقدرة والإرادة والحركة المتغيّرة.. وغير ذلك مما أودعه الله في سطح الأرض وعمقها، مما يحار فيه الفكر ويشرد فيه الخيال، ويخشع له العلم أمام ما يكتشفه من قوانين وأسرار دقيقة أودعها الله في سننه الحتمية التي تحكم المادّة، وتتحكم في حركة الإنسان الفردية والاجتماعية.

٥. ثم يكتشف هذا الإنسان أن هذه الأرض المترامية الأطراف التي لا يبلغ مداها، ليست إلا ذرّة صغيرة سابحة في الفضاء، فيحسّ بالعظمة الكبيرة لذلك كله، وينطلق الفكر بعد ذلك مع القرآن ليتطلع إلى خالق السماوات والأرض، فلا يملك إلا أن يخشع ويخضع ويتضاءل ويشعر بالانسحاق أمام عظمة

القدرة، ولا يجد إلا كلمات الحمد التي لا تنبغي إلا له وحده.

٦. ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ ويعيش الإنسان مع الظلمات التي تطبق على الكون في أعماق البحار، وفي أغوار الكهوف، وفي آفاق الفضاء، عندما يطبق الليل على الأرض، وتبتعد الشمس عن الأفق، فلا يكتفي بالمشاعر السلبيَّة القاتمة التي يعيشها عندما يفتقد بهجة النور في الكون، فيفقد فرح النور في نفسه، أو بالمشاعر الإيجابية من الجانب الآخر، التي تملأ نفسه بالهدوء والسكينة والطمأنينة والسلام أمام سكون الليل وهدوء الظلام، وانسياب المعاني الصوفية الشاعرية الحبيبة في روحية المناجاة مع الكون ومع الله في روحه، بكل وداعة وإبداع.. وينطلق الصباح في مثل الخيوط السحرية التي تتناثر في الفضاء رويدا، تماما كما يتنفس الكون بأنفاس الضياء في تنهيدة عميقة تشهق بالنور كما يشهق الصدر بالهواء.. ويتحرك خيط من هنا.. وخيط من هناك.. ويهدر ينبوع النور في إشراقة الشمس، ورديّ الملامح.. ذهبيّ الخيوط، ناصع البياض كمثل الشلّال، وتنفتح العيون في الإنسان، والحيوان، والنبات، والجماد، وفي كل شيء.. فإذا بكل شيء عين تحدّق في الفضاء من جديد بعد أن أغلقها الظلام بسكونه وغفوته وغلّفها بغلافه الكثيف، وإذا بالبهجة تملأ الروح، والفرحة تغمر القلب، والحركة تدفع الخطى وتحرّك الحياة نحو يوم جديد من أجل إنسان جديد، وحياة جديدة.

٧. وتعود المشاعر لتعيش بين إيجابيّة النور الذي يوقظ الحيوية في الداخل، وبين سلبية الضجيج الذي يرهق السكينة في الأعماق، ولكن القرآن يوجّه الإنسان بعيدا عن كل خلجات المشاعر، ونبضات الأحاسيس، ليربطه بالفكر الذي يتأمّل ويحلّل ويناقش ويستنتج؛ كيف جاء الليل؟ وكيف أقبل النهار؟ وكيف تتحرك هذه الظاهرة الكونية في نظام مستمرٍّ دقيق لم ينحرف عن مساره بمقدار شعرة، بالرغم من تقادم السنين، فيشعر بالرهبة أمام هذا التدبير المحكم، ويقوده ذلك إلى جاعل الظلمات والنور بالحكمة العميقة، والإبداع العظيم، وينطلق الإيمان بالله في فكره وقلبه وضميره، كمثل الشعاع الذي يتدفق به النهار، وكمثل السكينة الوادعة التي ينساب في روحانيتها هدوء الليل.. وهذا هو شأن الذين يفكرون ويتدبرون وينفتحون على كل ظواهر الحياة من خلال التجربة المتحركة اليقظة في كل ما يبصرون ويلمسون ويسمعون، بحيث يتحول ذلك إلى فكر وعلم وإيمان.. وهم المؤمنون الذين لم ينطلق الإيمان في كيانهم من موقع التقليد الساذج الذي يحاكي فيه الأبناء الآباء، بل من موقع المعاناة والجهد والحركيّة الإنسانية في

خطوات الحياة.

٨. أمّا الذين يغلقون أبصارهم عن النور، وأسماعهم عن الهدى، وتجربتهم عن الانفتاح، فلا يمرّون بالأشياء التي من حولهم إلا كما يمرّ الأعمى الذي يحدّق في الظلام بعيون مظلمة باردة، لا توحي له إلا بالمزيد من الظلام في تهاويل الأشباح، أمّا هؤلاء، فإنهم لا يرون في حياتهم، حتى أنفسهم.. لأنّهم إذا أبصروا أنفسهم أبصروا ربّهم، بعين بصيرتهم، بل كل ما يعرفونه من أنفسهم هو حاجاتهم الحسّية، لذا فإنهم لا يؤمنون بالله، بل بما يصنعونه من شركاء يغذّون فيهم جانب الحسّ، ويشغلونهم عن التفكير بما وراء الأشياء، بالاندفاع إلى اللذة التي تحملها ظواهرها.

٩. وقد أثار البعض الحديث عن مسألة مخلوقيّة الظلمة، وهي عنوان عدمي، لأنها تعبر عن عدم النور فكيف يكون العدم مخلوقا، ولكن نرى أنه ليس لهذا الكلام موقع للإشكال، فإن المقصود ـ في التعبير البلاغي ـ أن النور والظلمة في تجاذبهما في الكون ومحو كل منهما في الآخر يمثلان مظهرين من مظاهر قدرة الله في النظام الذي أودعه في الكون، فليست المسألة مسألة مصطلح الجعل بمعناه الإيجادي، بل بمعناه الواقعي الكوني على مستوى مظهر الظلمة والنور في تعاقبهما في الوجود.

١٠. ثمّ قد يقال بأن هناك فرقا بين العدم الذي لا مظهر له والعدم الذي يمثل مظهرا في واقع الوجود، فإن عدمية الظلمة بالنسبة إلى النور لا تمنع من كونه وجودا مؤثرا في صورة الوجود، بحيث إنها مع النور يمثلان صورتين متضادتين في صورة الوجود لا شيئين متناقضين كما هو الوجود والعدم الذي هو بمعنى الخلق، ولهذا صح الحديث عن جعلهما؛ والله العالم.

١١. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ من الذي خلقكم أيها الناس؟ وكيف خلقكم؟ ومن أي شيء كان الخلق؟ وكيف تنتهي بكم الحياة؟ ليس هناك غير الله، حاولوا أن تلتفتوا يمينا وشمالا، ومن بين أيديكم ومن خلفكم، فلا ترون إلا مخلوقات مثلكم، لم تكن ثم كانت كما لم تكونوا، ثم صرتم بشرا سويّا، ثم استنزفوا كل طاقتكم في التفكير، فهل ترون غير الله؟

١٢. وهذه قدرة الخالق الذي خلق البشر على أحسن صورة، ونفخ فيه من روحه كما قال تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨ ـ ٢٩] وتلك هي قصة الإنسان في إبداع الخلق، فهو قطعة من التراب ونفخة من روح الله

وقدرته، وتلك هي قصة آدم وحوّاء.. أما أولادهما فقد خلقهم الله من نطفة من ماء مهين.. ولكنه الماء الذي تأتّى من الغذاء.

١٣. ويحثّ القرآن الإنسان على التفكير في ذلك كله.. كيف تدبّ الروح في التراب؟ وكيف تتحرك الحياة في الجماد الميّت؟ وكيف تحمل النطفة سرّ الحياة بكل تفاصيلها وألوانها ومشاعرها وطاقاتها!؟ ويتعمق الفكر في كل اتجاه من حركة المادّة، فلا يجد إلا الجدران الباردة تضرب رأسه بالحيرة، ولكنه يستفيق على الحقيقة التي تشير إليه نحو الأفق البعيد عن المادّة والحدود والسدود، ليجد الله في قدرته، يبعث الروح في الجماد، وسرّ الحياة في النطفة.

١٤. ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ لهذا الإنسان، فليس هناك خلود في الدنيا، لأن طبيعة المادة لا تحمل سرّ الخلود، فلكل نفس أجل لا بد من أن تنتهي إليه ولا يمكن أن تتعداه في النظام الكوني الذي أودع الله في حناياه عمر كل شيء من مخلوقاته: الإنسان والحيوان والنبات والجماد.

١٥. ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ قد يتفق مع الأجل الذي تقف عنده آجال الأشياء، وقد يسبقه قليلا أو كثيرا لأسباب طارئة تحول دون امتداد الحياة الطبيعية في الزمن، كما يحدث للإنسان من الأمراض والحوادث والحروب التي تنهي حياته قبل أوانها، أو لغير الإنسان من ذلك أو من غيره.

١٦. وقد حار المفسرون في تحديد هذين الأجلين:

أ. فقال بعضهم، إن الأجل الذي قضاه الله هو الموت، وأما الأجل الذي عنده فهو يوم البعث الذي لا يعلمه إلا هو، فلم يجعل الله علمه حتى لرسوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إلا عَشِيَّةً أو ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٢ ـ ٤٦]

ب. وقال بعضهم: إن الأجل المسمى عند الله، هو الأجل المحدد في علمه الموجود في اللوح المحفوظ، أمّا الأجل الذي قضاه الله فهو العمر الطبيعي المحدّد الممتد بالشروط الموضوعية المحيطة بالإنسان من حيث الزمان والمكان والطوارئ.. فإذا تحققت له امتد به العمر إلى النهاية الطبيعية التي يمكن أن يعيشها الجسد في الحالة الطبيعية، وإذا لم تتحقق له انقطع به العمر بانتفاء شروط الحياة، وهذا ما يطلق عليه الأجل المحتوم، وهو العمر الطبيعي الذي تتوفر له كل الشروط الموضوعية للامتداد، سواء من

الجانب الصحي أو الأمني أو غير ذلك، والأجل المخروم وهو العمر الذي يقف بالإنسان عند حدود الطوارئ كمرض عضال يعرض له أو رصاصة تصيبه أو حشرة تلدغه، أو حيوان يفترسه، أو زلزال يصرعه، أو فيضان يغرقه، أو نار تحرقه، أو ضربة تقتله ونحو ذلك، فينخرم أجله بعد أن كان قابلا للامتداد في ذاته، وبهذا نعرف أنّ هذا التقسيم للأجل لا يعني أن للإنسان أجلين في علم الله، لأن ذلك غير معقول إذ ينتهي إلى نسبة الجهل إلى الله أو التغيير في إرادته التكوينية، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، بل يعني أن أجل الإنسان يخضع لعاملين.

• أحدهما: ذاتي، وهو الغاية التي يبلغها الجسد في إمكانيات البقاء من خلال الأجهزة الطبيعية المودعة فيه».

• ثانيهما: طارئ، وهو الأسباب التي تعطل بعض هذه الأجهزة في منتصف الطريق فلا يتمكن معها من الاستمرار في البقاء، ولكن الله يعرف واقع الأشياء قبل أن يخلقها، فإنه يعلم ماذا يحدث لها بعد أن تخلق، ولهذا كان الأجل المسمى عنده هو الحالة التي يكون عليها الإنسان عند موته، سواء كانت ذاتية أو طارئة.

١٧. وقد أكدت أحاديث أهل البيت عليهم السّلام على المعنى الثاني، وهو الأقرب إلى الذهن عند قراءة الآية.. لأنه لو كان المعنى الأول هو المراد، لم يكن منسجما مع الحقيقة الإيمانية القرآنية التي تقرر أن عمر الإنسان مما اختص الله بعلمه، فلا يعلمه الناس إلا من طريقه.. وهذا هو ما جاءت به الآية الكريمة: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤] فلا يبقى هناك فرق بين الساعة التي يموت فيها الإنسان في الدنيا، وبين الساعة التي يبعث فيها في الآخرة، والله العالم بحقائق آياته.

١٨. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ أي تشكّون وترتابون مع دراستكم لهذا التنظيم الدقيق الذي يحكم حياتكم في بداية خلقكم وفي نهاية حياتكم.. فكيف ترتابون وأنتم تفكرون!؟

١٩. ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ لم تنطلق هذه الآية من مواجهة الفكرة الشركيّة التي تتحدث عنها الأساطير اليونانية والقصص الإغريقية من أنّ لكل ظاهرة كونيّة أو حياتية إلها خاصا، فللحرب إله، وللسلم إله، وللشجر إله، وللماء إله، وللحبّ إله، وللسماء إله، وللأرض إله.. بل انطلقت

ـ والله العالم ـ لتقرير المعنى الذي يوحي بالسيطرة المطلقة لله على كل شيء من خلال المعنى الذي تتضمّنه الألوهية من سلطة ممتدّة إلى كل شيء في السماوات والأرض، كما في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وبهذا تتحرك الفقرة الثانية: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ في هذا الاتجاه، لتؤكد الإحاطة بالإنسان في سرّه وعلانيته وجميع أعماله، فيشعر الإنسان بالسيطرة الإلهية عليه من موقع سعة علمه لكل بواطنه وظواهره ومكتسباته.

٢٠. أمّا إيحاءات الآية، فإن الفقرة الأولى، توحي بالشعور بالعظمة المطلقة التي يحس الإنسان معها بالانسحاق أمام الله، فيدفعه ذلك إلى الخضوع له في كل شيء أمّا الفقرة الثانية: فإنها توحي بالإحساس بالمراقبة الكلية المحيطة به من جميع الجوانب من قبل الله الذي يملك أمر حسابه وعقابه وثوابه، فيدفعه ذلك إلى الانضباط في كل خطواته العمليّة فيما يأمره الله به أو ينهاه عنه.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. تبدأ السّورة بالحمد لله والثناء عليه، ثمّ تشرع بتوعية الناس على مبدأ التوحيد، عن طريق خلق العالم الكبير (السموات والأرض) أولا، ثمّ عن طريق خلق العالم الصغير (الإنسان) ثانيا: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الله الذي هو مبدأ الظّلمة والنّور، وبخلاف ما يعتقده الثنويون، وهو وحده خالق كل شيء ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾

٢. غير أنّ الكافرين والمشركين، بدلا من أن يتعلموا من هذا النظام الواحد درس التوحيد، يصطنعون لله الشريك والشبيه: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

٣. نلاحظ أنّ القرآن يذكر عقيدة المشركين بعد حرف العطف (ثم) الذي يدل في اللغة العربية على الترتيب والتراخي، وهذا يدل على أن التوحيد كان في أوّل الأمر مبدأ فطريا وعقيدة عامّة للبشر، بعد ذلك حصل الشرك كانحراف عن الأصل الفطري.

٤. أمّا لماذا استعملت الآية كلمة (الخلق) بشأن السموات والأرض، وكلمة (جعل) بشأن النّور

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/٢٠٤.

والظلمة، فإن للمفسّرين في ذلك كلاما كثيرا، ولكن أقربه إلى الذهن هو القول بأنّ (الخلق) يكون في أصل وجود الشيء و(الجعل) يكون بشأن الخصائص والآثار والكيفيات التي هي نتيجة لخلق تلك المخلوقات، ولما كان النّور والظلمة حالتين تابعتين فقد عبّر عنهما بلفظة (جعل)

٥. روي عن أمير المؤمنين علي عليه السّلام في تفسير هذه الآية قوله: (وكان في هذه الآية ردّ على ثلاثة أصناف منهم، لما قال: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ فكان ردّا على الدهرية الذين قالوا: إنّ الأشياء لا بدء لها وهي دائمة، ثمّ قال: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ فكان ردّا على الثنوية الذين قالوا: إنّ النّور والظلمة هما المدبران، ثمّ قال: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ فكان ردّا على مشركي العرب الذين قالوا: إنّ أوثاننا آلهة)

٦. سؤال وإشكال: تفيد الآية إنّه مثلما أن (النّور) من مخلوقات الله، فإن (الظلمة) كذلك من مخلوقاته، مع أنّ الفلاسفة والمختصين بالعلوم الطبيعية يعرفون أنّ الظلمة هي انعدام النّور، ولهذا فلا يمكن اطلاق صفة (المخلوق) على المعدوم إذن، كيف تعتبر الآية المذكورة الظلمة من المخلوقات؟

والجواب: في ردّ هذا الاعتراض نقول:

أ. أوّلا: الظّلمة ليس تعني دائما الظلام المطلق، بل كثيرا ما تطلق على النّور الضعيف جدا بالمقارنة مع النّور القوي، فنحن جميعا نقول، مثلا، ليل مظلم، مع العلم بأنّ ظلام الليل ليس ظلاما مطلقا، بل هو مزيج من نور النجوم الضعيف أو مصادر أخرى للنور، وعلى هذا يكون مفهوم الآية هو أنّ الله جعل لكم نور النهار وظلام الليل، فالأوّل نور قوي والآخر نور ضعيف جدا وواضح أنّ الظلمة، بهذا المعنى، تكون من المخلوقات.

ب. وثانيا: صحيح أنّ الظلمة المطلقة أمر عدمي، ولكن الأمر العدمي ـ في ظروف خاصّة ـ يكون نابعا من أمر وجودي، أي أنّ يوجد الظلمة المطلقة في ظروف خاصة لهدف معين، لا بدّ أن يكون قد استعمل لذلك وسائل وجودية، فإذا أردنا أنّ نجعل الغرفة مظلمة لتحميض صورة ـ مثلا ـ فعلينا أن نمنع النّور لكي تحصل الظلمة في تلك اللحظة المعينة، وظلمة هذا شأنها ظلمة مخلوقة (مخلوقة بالتبع) وإذا لم يكن (العدم المطلق) مخلوقا، فإن (العدم الخاص) له نصيب من الوجود، وهو مخلوق.

٧. الأمر الآخر الذي ينبغي الالتفات إليه هنا هو أنّ لفظة (نور) ترد في القرآن بصيغة المفرد، بينما

الظلمة تأتي بصيغة الجمع (ظلمات) وقد يكون هذا إشارة لطيفة إلى حقيقة كون الظلام (المادي والمعنوي) مصدرا دائما للتشتت والانفصال والتباعد، بينما النّور رمز التوحد والتجمع طالما شاهدنا أنّنا في الليلة الصيفية الظلماء نوقد سراجا في فناء الدار، ثمّ لا تمضي إلا دقائق حتى نرى مختلف أنواع الحشرات تتجمع حول السراج مؤلفة تجمعا حيا حول النّور، ولكننا إذا أطفأنا السراج تفرقت الحشرات كل إلى جهة، كذلك الحال في الشؤون المعنوية والاجتماعية، فنور العلم والقرآن والإيمان أساس الوحدة، وظلام الجهل والكفر والنفاق أساس التفرق والتشتت.

٨. هذه السورة تسعى إلى لفت نظر الإنسان إلى العالم الكبير لتثبيت قواعد عبادة الله والتوحيد في القلوب، توجه نظره أوّلا إلى العالم الكبير، والآية التّالية تلفت نظره إلى العالم الصغير (الإنسان) فتشير إلى أعجب أمر، وهو خلقه من الطين فتقول ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ صحيح أنّنا ولدنا من أبوينا، لا من الطين، ولكن بما أنّ خلق الإنسان الأول كان من الطين، فيصح أن نخاطب نحن أيضا على أننا مخلوقين من الطين.

٩. وتستمر السورة فتشير إلى مراحل تكامل عمر الإنسان فتقول: إنّ الله بعد ذلك عين مدّة يقضها الإنسان على هذه الأرض للنمو والتكامل: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ (الأجل) في الأصل بمعنى (المدّة المعينة) و(قضاء الأجل) يعني تعيين تلك المدّة أو إنهاءها، ولكن كثيرا ما يطلق على الفرصة الأخيرة اسم (الأجل)، فتقول، مثلا: جاء أجل الدّين، أي أنّ آخر موعد التسديد الدّين قد حل، ومن هنا أيضا يكون التعبير عن آخر لحظة من لحظات عمر الإنسان بالأجل لأنّها موعد حلول الموت.

١٠. ثمّ لاستكمال البحث تقول: ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ بعد ذلك تخاطب الآية المشركين وتقول لهم: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ أي تشكون في قدرة الخالق الذي خلق الإنسان من هذه المادة التافهة (الطين) واجتاز به هذه المراحل المدهشة، وتعبدون من دونه موجودات لا قيمة لها كالأصنام.

١١. لا شك أنّ (الأجل المسمى) و(أجلا) في الآية مختلفتان في المعنى، أمّا اعتبار الإثنين بمعنى واحد فلا ينسجم مع تكرار كلمة (أجل) خاصّة مع ذكر القيد: (مسمى) في الثّاني، لذلك بحث المفسّرون كثيرا في الاختلاف بين التعبيرين، والقرائن الموجودة في القرآن والرّوايات التي وصلتنا عن أهل البيت عليهم السّلام تفيد أنّ (أجل) وحدها تعني غير الحتمي من العمر والوقت والمدّة، و(الأجل المسمى)

بمعنى الحتمي منها، وبعبارة أخرى (الأجل المسمى) هو (الموت الطبيعي) و(الأجل) هو الموت غير الطبيعي.

١٢. ولتوضيح ذلك نقول: إنّ الكثير من الموجودات لها من حيث البناء الطبيعي والذاتي الاستعداد القابلية للبقاء مدّة طويلة، ولكن قد تحصل خلال ذلك موانع تحول بينها وبين الوصول إلى الحد الطبيعي الأعلى، افترض سراجا نفطيا يستطيع أنّ يبقى مشتعلا مدّة عشرين ساعة مع الأخذ بنظر الاعتبار سعته النفطية، غير أن هبوب ريح قوية، أو هطول المطر عليه أو عدم العناية به، يكون سببا في قصر مدّة الإضاءة، فإذا لم يصادف السراج أي مانع، وظل مشتعلا حتى آخر قطرة من نفطه ثمّ انطفأ نقول: إنّه وصل إلى أجله المحتوم، وإذا أطفأته الموانع قبل ذلك، فيكون عمره (أجل) غير محتوم.

١٣. والحال كذلك بالنسبة للإنسان، فإذا توفرت جميع ظروف بقائه وزالت جميع الموانع من طريق استمرار حياته، فإن بنيته تضمن بقاءه مدّة طويلة إلى حد معيّن، ولكنّه إذا تعرض لسوء التغذية، أو ابتلى بنوع من الإدمان، أو إذا انتحر، أو أعدم لجريمة ومات قبل تلك المدّة، فإن موته في الحالة الأولى يكون أجلا محتوما، وفي الحالة الثّانية أجلا غير محتوم.

١٤. وبعبارة أخرى: الأجل الحتمي يكون عندما ننظر إلى (مجموع العلل التامّة) والأجل غير الحتمي يكون عندما ننظر إلى (المقتضيات) فقط.

١٥. استنادا إلى هذين النوعين من الأجل يتّضح لنا كثير من الأمور، من ذلك مثلا ما نقرؤه في الرّوايات والأحاديث من أن صلة الرحم تطيل العمر، وقطعها يقصر العمر، وواضح أنّ العمر هنا هو الأجل غير الحتمي.

١٦. أمّا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، فهو الأجل المحتوم، أي أنّ الإنسان قد وصل إلى نهاية عمره، وهو لا يشمل الموت غير المحتوم السابق لأوانه، ولكن علينا أن نعلم ـ على كل حال ـ أنّ الأجلين يعينهما الله، الأول بصورة مطلقة، والثّاني بصورة معلقة أو مشروطة، وهذا يشبه بالضبط قولنا: إنّ هذا السراج ينطفئ بعد عشرين ساعة بدون قيد ولا شرط، ونقول إنّه ينطفئ بعد ساعتين إذا هبت عليه ريح، كذلك الأمر بالنسبة للإنسان والأقوام والملل، فنقول: إنّ الله شاء أن يموت الشخص الفلاني أو أن تنقرض الأمة الفلانية بعد كذا من السنين، ونقول إنّ هذه الأمة إذا سلكت

طريق الظلم والنفاق والتفرقة والكسل والتهاون فإنّها ستهلك في ثلث تلك المدّة، كلا الأجلين من الله، الأول مطلق والآخر مقيد بشروط.

١٧. جاء عن الإمام الصادق عليه السّلام تعقيبا على هذه الآية قوله: (هما أجلان: أجل محتوم وأجل موقوف) كما جاء عنه في أحاديث أخرى أنّ الأجل الموقوف قابل للتقديم والتأخير، والأجل الحتمي لا يقبل التغيير.

١٨. ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ هذه الآية تكمل البحث السابق في التوحيد ووحدانية الله، وترد على الذين يقولون بوجود إله لكل مجموعة من الكائنات، أو لكل ظاهرة من الظواهر، فيقولون: إله المطر، وإله الحرب، وإله السلم، وإله السماء، وما إلى ذلك، تقول الآية: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ أي كما أنّه خالق كل شيء فهو مدبر كل شيء أيضا، وبذلك ترد الآية على مشركي الجاهلية الذين كانوا يعتقدون أنّ الخالق هو (الله) لكنّهم كانوا يؤمنون أنّ تدبير الأمور بيد الأصنام.

١٩. هنالك احتمال آخر في تفسير الآية، وهو أنّها تعني حضور الله في كل مكان، في السموات والأرض، ولا يخلو منه مكان، فليس هو بجسم ليشغل حيزا معينا، بل هو المحيط بكل الأمكنة.

٢٠. من الطبيعي أن يكون الحاكم على كل شيء والمدبر لكل الأمور والحاضر في كل مكان عارفا بجميع الأسرار والخفايا ولهذا تقول الآية: إنّ ربّا كهذا ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ قد يقال بأنّ (السرّ) و(الجهر) يشملان أعمال الإنسان ونواياه، وعلى ذلك فلا حاجة لذكر ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾

٢١. ولكن ينبغي الالتفات إلى أنّ (الكسب) هو نتائج العمل والحالات النفسية الناشئة عن الأعمال الحسنة والأعمال السيئة، أي أنّ الله يعلم أعمالكم ونواياكم، كما يعلم الآثار التي تخلفها تلك الأعمال والنوايا في نفوسكم، وعلى كل حال، فإن ذكر العبارة هذه يفيد التوكيد بشأن أعمال الإنسان.

٢. آيات الله والمعرضون عنها

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٢] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ٤ ـ ٥]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) أنّه قال: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ٥]، يقول: سيأتيهم يوم القيامة أنباء ما استهزءوا به من كتاب الله عز وجل[١].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) أنّه قال: ﴿أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ معناه أخبار[٢].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) أنّه قال: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ يعني: القرآن، حين جاءهم به محمد ﷺ استهزءوا بالقرآن بأنّه ليس من الله، يعني: كفار مكة؛ منهم أبو جهل بن هشام، والوليد بن المغيرة، ومنبه ونبيه ابنا الحجاج، والعاص بن وائل السهمي، وأبيّ بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعبد الله بن أبي أمية، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو البختري ابن هشام بن أسد، والحارث بن عامر بن نوفل، ومخرمة بن نوفل، وهشام بن عمرو بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، وسهيل بن عمرو، وعمير بن وهب بن خلف، والحارث بن قيس، وعدي بن قيس، وعامر بن خالد الجمحي، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، ومطعم بن عدي، وقرط بن عبد عمرو بن نوفل، والأخنس بن شريق، وحويطب بن

---

(١) ابن أبي حاتم ٤/١٢٦٣.

(٢) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٣.

عبد العزي، وأمية بن خلف، كلهم من قريش، يقول الله عز وجل: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ﴾ يعني: حديث ﴿مَا كَانُوا بِهِ﴾ بالعذاب {يستهزؤن} بأنّه غير نازل بهم، ونظيرها في الشعراء، فنزل بهم العذاب ببدر[١].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. قوله عز وجل: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾:

أ. يحتمل: ما تأتيهم من آية من آيات توحيده، أو من آيات إثبات رسالة مُحَمَّد ونبوته ﷺ.

ب. ويحتمل في إثبات البعث والنشور بعد الموت؛ لما أخبر أنه خلقهم من طين، فإذا ماتوا صاروا ترابًا، فإذا كان بدء إنشائهم من طين، فإذا عادوا إليه يقدر على إنشائهم ثانيا؛ إذ ليس إنشاء الثاني بأعسر من الأول.

ج. ثم يحتمل الآيات آيات القرآن.

د. ويحتمل الآيات ما كان أتى به رسول الله ﷺ من الآيات سوى آيات القرآن.

٢. ثم أخبر عن تعنتهم ومكابرتهم بقوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، فإذا أعرضوا عنها لم ينتفعوا بها؛ ليعلم أنه إنما ينتفع بالآيات من تأملها ونظر فيها لا من أعرض عنها.

٣. ثم سورة الأنعام إنما نزلت في محاجة أهل الشرك، ولو لم يكن القرآن معجزًا كانت سورة الأنعام معجزة؛ لأنها نزلت في محاجة أهل الشرك في إثبات التوحيد والألوهية لله والبعث، فكيف يكون وقد جعل الله القرآن آية معجزة عَجَزَ البشرُ عن إتيان مثله، ولم يكونوا يومئذ يعرفون التوحيد والبعث، كانوا كلهم كفارًا عبدة الأوثان والأصنام لا يحتمل أن يكون رسول الله ﷺ ألف ذلك وأنشأه من ذات نفسه؛ ليعلم أنه إنما عرف ذلك بالله.

٤. وفيه دلالة إثبات المحاجة في التوحيد والمناظرة فيه؛ لأن أكثرها نزلت في محاجة أهل الشرك، وهم كانوا أهل شرك، وينكرون البعث والرسالة، فتنزل أكثرها في محاجتهم في التوحيد وإثبات البعث

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥٤٩.

(٢) تأويلات أهل السنة: ٤/١٨.

والرسالة.

٥. وفيه أنه إذا ثبت فساد قول أحد الخصمين، ثبت صحة قول الآخر؛ لأن إبراهيم لما قال: ﴿هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾، أثبت فساد عبادة من يعبد الآفل بالأفول.

٦. ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾:

أ. يحتمل الحق: الآيات التي كان يأتي بها رسول الله ﷺ من آيات التوحيد وآيات البعث.

ب. ويحتمل القرآن، ولو لم يكن يأتي رسول الله ﷺ بآية كانت نفسه آية عظيمة من أول نشأته إلى آخر عمره؛ لأنه عصم حتى لم يأت منه ما يستسمج ويستقبح قط؛ فدل أن ذلك إنما كان لما جعل آية في نفسه، وموضعًا لرسالته، وعلى ذلك تخرج إجابة أبي بكر في أول دعوة دعاه إلى ذلك لما كان رأى منه من آيات، فلما دعاه أجابه في ذلك مع ما كان منعه من آيات عظيمة، وأعلام عجيبة.

٧. ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾:

أ. معناه أن يأتيهم وينزل بهم ما نزل بالمستهزئين، وإلا كان أتاهم أنباء ما نزل بالمستهزئين، ولكن معناه ما ذكرنا، أي: ينزل بهم ويحل ما نزل وحل بالمستهزئين.

ب. ويحتمل قوله وجهًا آخر: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وهو العذاب؛ لأن الرسل كانوا يوعدونهم أن ينزل بهم العذاب بتكذيبهم الرسل، فعند ذلك يستهزئون بهم؛ كقوله: ﴿عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا﴾، وكقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ﴾، وغير ذلك؛ إذ قالوا: ﴿اللهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فأخبر أنه ينزل بهم ذلك كما نزل بأُولَئِكَ.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. معنى قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي فسوف يأتيهم أخبار ما كانوا يتلهون به من الحق ويلعبون.

الطوسي:

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/١٨٤.

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ في هذه الآية اخبار من الله تعالى أنه لا يأتي هؤلاء الكفار ـ المذكورين في أول الآية ـ من آيات من ربهم، وهي المعجزات التي يظهرها على رسوله وآيات القرآن التي كان ينزلها على نبيه ﷺ ﴿إلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ لا يقبلونها، ولا يستدلون بها على ما دلهم الله عليه من توحيده وصدق رسوله محمد ﷺ.

٢. ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ في هذه الآية إخبار منه تعالى أن الكفار قد كذَّبوا بالحق الذي أتاهم به محمد ﷺ لما جاءهم بالقرآن، وسائر أمور الدين، وأنه سوف يأتيهم خبر العذاب الذي ينزله بهم عقوبة على كفرهم، وهذا العذاب هو الذي كانوا به يستهزئون بأخبار رسول الله إياهم به وبنزوله بهم، فبين أن ذلك سيحل بهم وسيقفون على صحته، ودل ذلك على أنهم كانوا يستهزئون وان كان لم يذكره هاهنا وذكره في موضع آخر، ومثل ذلك قول القائل للجاني عليه: سيعلم عملك، وإنما يريد ستجازى على عملك، وقال الزجاج: معنى ﴿أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي تأويله، والمعنى سيعلمون ما يؤل إليه استهزاؤهم.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الإعراض عن الشيء الانصراف عنه.

ب. النبأ: الخبر، وجمعه: أنباء.

ج. الاستهزاء: إيهام التفخيم في معنى التحقير، ونظيره الهُزْءُ، هَزِئ به هُزْءًا، واستهزأ استهزاءً.

٢. ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ﴾ أي من حجة ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ من حججه، كدلائل التوحيد ودلائل النبوات، كانشقاق القمر، ونزول القرآن، وسائر المعجزات ﴿إلا كَانُوا عَنْهَا﴾ عن الآيات ﴿مُعْرِضِينَ﴾ أي ينصرفون عنها ولا ينظرون فيها.

---

(١) تفسير الطوسي: ٤/٨٠.

(٢) التهذيب في التفسير: ٣/٤٨٦.

٣. ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾:

أ. أي بجميع الحق.

ب. وقيل: بالقرآن.

ج. وقيل: بمحمد ﷺ.

٤. ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ يعني الحق ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ﴾ أخبار ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يعني يأتيهم جزاء استهزائهم، والمراد بأنباء استهزائهم:

أ. عقاب الآخرة.. وهو أصح؛ لأنه موجه لكل كافر.

ب. وقيل: القتل والسبي يوم بدر.

٥. تدل الآية الكريمة على:

أ. يدل قوله: ﴿إلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ على وجوب النظر في الأدلة لذلك ذمهم على الإعراض.

ب. أن الإعراض فِعْلُهم لذلك يصح ذمهم، فيبطل قول الْمُجْبِرَةِ في المخلوق.

ج. أنهم في الكفر أتوا من قِبَلِ أنفسهم، لذلك وصفهم بأنهم مع الآيات يعرضون.

د. أن الباطل إذا قارنه الاستهزاء بالحق كان أعظم في الوزر.

هـ. أن المعارف مكتسبة، وطريقها التدبر في الآيات؛ فلذلك ذمهم على الإعراض.

٦. مسائل لغوية ونحوية:

أ. الفرق بين ﴿مِنْ﴾ الأولى والثانية: في قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾:

• الأولى: لاستغراق الجنس الذي يقع في النفي.

• الثانية: للتبعيض.

ب. ﴿مُعْرِضِينَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾

الطَبرِسي:

ذكر الفضل الطَبرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

---

(١) تفسير الطبرسي: ٤/٧.

١. أخبر سبحانه عن الكفار المذكورين في أول الآية، فقال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ﴾ أي: لا تأتيهم حجة ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي من حججه وبيناته كانشقاق القمر وآيات القرآن، وغير ذلك من المعجزات ﴿إلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾: لا يقبلونها، ولا يستدلون بها على ما دلهم الله عليه من توحيده، وصدق رسوله.

٢. ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: بالحق الذي أتاهم به محمد ﷺ من القرآن، وسائر أمور الدين ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ﴾:

أ. أي أخبار ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ والمعنى: أخبار استهزائهم، وجزاؤه وهو عقاب الآخرة.

ب. وقيل: معناه سيعلمون ما يؤول إليه استهزاؤهم، عن ابن عباس، والحسن، وبه قال الزجاج.

٣. ومعنى الاستهزاء: إيهام التفخيم في معنى التحقير.

٤. ﴿مِنْ﴾ الأولى: مزيدة، وهي التي تقع في النفي لاستغراق الجنس، وموضعه رفع، والثانية: للتبعيض

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ نزلت في كفّار قريش، وفي (الآية) قولان:

أ. أحدهما: أنّها الآية من القرآن.

ب. الثاني: المعجزة، مثل انشقاق القمر.

٢. والمراد بالحقّ: القرآن، والأنباء: الأخبار، والمعنى: سيعلمون عاقبة استهزائهم.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. لما تكلم الله تعالى أولا: في التوحيد، وثانيا: في المعاد، وثالثا: فيما يقرر هذين المطلوبين ذكر بعده ما يتعلق بتقرير النبوّة وبدأ فيه بأن بين كون هؤلاء الكفار معرضين عن تأمل الدلائل، غير ملتفتين إليها.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/١٠.

(٢) التفسير الكبير: ١٢/٤٨٤.

٢. وهذه الآية تدل على أن التقليد باطل، والتأمل في الدلائل واجب، ولولا ذلك لما ذم الله المعرضين عن الدلائل.

٣. ﴿مِنْ﴾:

أ. في قوله: ﴿مِنْ آيَةٍ﴾ قال الواحدي: لاستغراق الجنس الذي يقع في النفي كقولك ما أتاني من أحد،

ب. والثانية: وهي قوله: ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ للتبعيض والمعنى وما يظهر لهم دليل قط من الأدلة التي يجب فيها النظر والاعتبار إلا كانوا عنه معرضين.

٤. ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ رتب الله تعالى أحوال هؤلاء الكفار على ثلاث مراتب:

أ. الأولى: كونهم معرضين عن التأمل في الدلائل والتفكر في البينات.

ب. الثانية: كونهم مكذبين بها وهذه المرتبة أزيد مما قبلها، لأن المعرض عن الشيء قد لا يكون مكذبا به، بل يكون غافلا عنه غير متعرض له، فإذا صار مكذبا به فقد زاد على الاعراض.

ج. الثالثة: كونهم مستهزئين بها لأن المكذب بالشيء قد لا يبلغ تكذيبه به إلى حد الاستهزاء، فإذا بلغ إلى هذا الحد فقد بلغ الغاية القصوى في الإنكار، فبين تعالى أن أولئك الكفار وصلوا إلى هذه المراتب الثلاثة على هذا الترتيب.

٥. اختلفوا في المراد بالحق:

أ. فقيل إنه المعجزات: قال ابن مسعود: انشق القمر بمكة وانفلق فلقتين فذهبت فلقة وبقيت فلقة، وقيل إنه القرآن.

ب. وقيل: إنه محمد ﷺ.

ج. وقيل إنه الشرع الذي أتى به محمد ﷺ والأحكام التي جاء بها محمد ﷺ.

د. وقيل إنه الوعد والوعيد، الذي يرغبهم به تارة ويحذرهم بسببه أخرى.

هـ. والأولى: دخول الكل فيه.

٦. ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ المراد منه الوعيد والزجر عن ذلك الاستهزاء،

فيجب أن يكون المراد بالأنباء الأنباء لا نفس الأنباء بل العذاب الذي أنبأ الله تعالى به ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨] والحكيم إذا توعد فربما قال ستعرف نبأ هذا الأمر إذا نزل بك ما تحذره، وإنما كان كذلك لأن الغرض بالخبر الذي هو الوعيد حصول العلم بالعقاب الذي ينزل فنفس العقاب إذا نزل يحقق ذلك الخبر، حتى تزول عنه الشبهة.

٧. ثم المراد من هذا العذاب يحتمل أن يكون عذاب الدنيا، وهو الذي ظهر يوم بدر ويحتمل أن يكون عذاب الآخرة.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ﴾ أي علامة كانشقاق القمر ونحوها، و﴿مِنْ﴾ لاستغراق الجنس، تقول: ما في الدار من أحد، ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾، ﴿مِنْ﴾ الثانية: للتبعيض.

٢. ﴿مُعْرِضِينَ﴾ خبر ﴿كَانُوا﴾، والإعراض ترك النظر في الآيات التي يجب أن يستدلوا بها على توحيد الله تعالى من خلق السماوات والأرض وما بينهما وأنه يرجع إلى قديم حي غني عن جميع الأشياء قادر لا يعجزه شي عالم لا يخفى عليه شي من المعجزات التي أقامها لنبيه ﷺ، ليستدل بها على صدقه في جميع ما أتى به.

٣. ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ يعني مشركي مكة، ﴿بِالْحَقِّ﴾ يعني القرآن، وقيل: بمحمد ﷺ، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ﴾ أي يحل بهم العقاب، وأراد بالإنباء وهي الأخبار العذاب، كقولك: اصبر وسوف يأتيك الخبر أي العذاب، والمراد ما نالهم يوم بدر ونحوه، وقيل: يوم القيامة.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ﴾ كلام مبتدأ لبيان بعض أسباب كفرهم وتمرّدهم، وهو الإعراض عن آيات الله التي تأتيهم كمعجزات الأنبياء، وما يصدر عن قدرة الله الباهرة مما لا يشكّ من له عقل أنه فعل الله

---

(١) تفسير القرطبي: ٣٩٠/٦.

(٢) فتح القدير: ١١٦/٢.

سبحانه.

٢. والإعراض: ترك النّظر في الآيات التي يجب أن يستدلوا بها على توحيد الله.

٣. و﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنْ آيَةٍ﴾ مزيدة للاستغراق و﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنْ آيَاتِ﴾ تبعيضية: أي وما تأتيهم آية من الآيات التي هي بعض آيات ربّهم إلا كانوا عنها معرضين.

٤. والفاء في ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ جواب شرط مقدر: أي إن كانوا معرضين عنها فقد كذبوا بما هو أعظم من ذلك وهو الحق ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ قيل: المراد بالحق هنا القرآن، وقيل: محمد ﷺ.

٥. ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي أخبار الشيء الذي كانوا به يستهزئون وهو القرآن أو محمد ﷺ، على أن (ما)، عبارة عن ذلك تهويلا للأمر وتعظيما له: أي سيعرفون أن هذا الشيء الذي استهزءوا به ليس بموضع للاستهزاء، وذلك عند إرسال عذاب الله عليهم، كما يقال: اصبر فسوف يأتيك الخبر، عند إرادة الوعيد والتهديد، وفي لفظ الأنبياء ما يرشد إلى ذلك فإنه لا يطلق إلا على خبر عظيم.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَمَا تَاتِيهِم﴾ المضارع لحكاية الحال، والأصل: (وما أتتهم)، أو للاستمرار التجدُّديِّ، والهاء لأهل مكَّة، ﴿مِن﴾ صلة للتأكيد و﴿ءَايَةٍ﴾ دليلٍ ﴿مِنَ ايَاتِ رَبِّهِم﴾ دلائله، أو معجزة من معجزاته، أو آية من القرآن، أو ذلك مطلقًا، والمراد: الدالَّة على الوحدانيَّة، وأضاف الآيات للرَّبِّ ٨ تفخيمًا لشأنها؛ فذلك تهويل عليهم باجترائهم في حقِّها، ﴿إلا كَانُواْ﴾ والمعنى: ما أتتهم إلا كانوا، أو: ما تأتيهم إلا يكونون، والإتيان بمعنى النزول إن كانت الآية قرآنيَّة، وبمعنى الظهور إن كانت معجزة في الخلق، وبمعنى الحصول إن أريد الكلُّ، أو الظهور مطلقًا فإن الحصول والظهور من لوازم المجيء، ﴿عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ مهملين النظر فيها، والجملة حال.

٢. ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ﴾ القرآن أو التوحيد ﴿لَمَّا جَآءَهُم﴾ والفاء لكون التكذيب بالقرآن كالدليل

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ١٩٥/٤.

على التكذيب بها سواهُ، أو لكونه كاللازم للتكذيب بغيره من المعجزات، فهي للسببيَّة، أو للتعليل، أي: كذَّبوا بالمعجزة أو الدليل؛ لأنَّهم كذَّبوا بالقرآن، أو التوحيد، أو سببُ تكذيبهم بالدليل أو المعجزة تكذيبُهم بالقرآن، وإذا فسَّرنا الحقَّ بالقرآن ترجَّح أو تعيَّن أن يراد بالآية غيره، ويجوز أن يراد بالحقِّ الآيةُ، فمقتضى الظاهر: (فقد كذَّبوا بها لَّما جاءتهم)، ووضع الظاهر ليصفها بأنَّها حقٌّ، وصحَّ هذا لأن الإعراض ليس نصًّا في التكذيب، إلا أنَّه سبب للتكذيب أو ملزوم له، ويجوز أن يكون المراد بالحقِّ رسولُ الله ﷺ ، ويجوز ـ على ضعف ـ أن تكون الفاء تعليلاً لجواب شرط قائمة مقام فاء الجواب، أي: (إِن كانوا معرضين عن الآية فلا تعجبْ لأنَّهم قد كذَّبوا بما هو أعظم آية وهو الحقُّ)، [قلت] وفيه كثرة الحذف، وفيه النيابة معه، وفيه أنَّ الحقَّ من الآيات.

٣. وَصَفَ الله تعالى كُفَّار مكَّة أوَّلاً بالإعراض عن التَّأَمُّل في الدلائل والآيات لأنَّه أدنى قبحهم، فإن المعرض عن الشيء قد لا يكذِّبه ولا يستهزئ به، وثانيًا بالتكذيب لأنَّه أقبح من الإعراض، إلا أنَّه قد لا يستهزئ، وثالثًا بالاستهزاء وهو أشدُّ قبحًا إذ قارنه التكذيب المقرون بالإعراض فهو الغاية في القبح؛ ولذلك ختم به إذ قال: ﴿فَسَوْفَ يَاتِيهِمُ أَنبَآؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وقد يكون الاستهزاء بلا تكذيب وهو دون التكذيب.

٤. والأنباء: أنواع العذاب، سمَّاها أنباء لأنَّها يُنبأ، أي: يُخبر بها، وإضافتها لـ {مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ} لأن ما كانوا به يستهزئون هو الآيات المتلوَّة والمعجزات، وهنَّ سبب لأنواع العذاب، وملزوم لها بتوسُّط استهزائهم، أو أضافها لـ {مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ} لأنَّهنَّ الآيات، وهنَّ مخبِرات بأنواع العذاب، أو المراد مضمون أنباء ما كانوا به يستهزئون فحذف المضاف، والنبأ: ما يعظم وقعه من الأخبار، وهو أخصُّ من الخبر، ففي الآية إيذان بغاية عظم عذابهم، وهو في الدنيا مستتبَعًا بعذاب الآخرة، ويضعف أن يُفَسَّرَ بعذاب الآخرة أو بهما أو بظهور الإسلام وعلوِّه؛ لأنَّه لا يناسب ذكر الإهلاك في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ يعني: ما يظهر لكفار مكة دليل من الأدلة التي يجب فيها النظر والاعتبار، أو معجزة من المعجزات، أو آية من آيات القرآن، التي من جملتها الآيات السالفة، الناطقة ببدائع صنعه وقدرته على البعث ﴿إلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي: على وجه التكذيب والاستهزاء، لقلة خوفهم وتدبرهم، في العواقب.

٢. ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ يعني: القرآن الذي تحدّوا به، فعجزوا عنه ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: مصداق أنباء الحق الذي كانوا يكذبون به على سبيل الاستهزاء، وأنباؤه عبارة عما سيحيق بهم من العقوبات العاجلة، فهو وعيد شديد لهم بأنه لا بد لهم أن يذوقوا وباله، وقد ذاقوه يوم بدر وغيره.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. أرشدت الآيات الثلاث السابقة إلى دلائل وحدانية الله تعالى في ربوبيته وألوهيته، وأنها على ظهورها لم تمنع الكافرين من الشرك في الألوهية؛ وأرشدت إلى دلائل البعث وإلى أنها على قوتها لم تمنع المشركين من الشك فيه؛ وبينت الثالثة أن الله تعالى المتصف بالصفات التي يعرفونها ولا ينكرونها هو الله في عالمي السماوات والأرض، المحيط علمه بكل شيء فلا ينبغي أن يتخذ معه إلاه فيهما، ولكن المشركين جهلوا ذلك فجوزوا أن يكون غير الرب إلاها وعبدوا معه آلهة أخرى، فبين لهم الوحي الحق في ذلك وأن الله الذي يعترفون بأنه هو رب السماوات والأرض وما فيهن هو الإله المعبود بالحق فيهن ـ ثم أرشدت هذه الآيات الثلاث اللاحقة سبب عدم اهتدائهم بالوحي، وأنذرتهم عاقبة التكذيب بالحق، ويتلو ذلك في الآيات التي بعدهن كشف شبهاتهم على الوحي وبعثة النبي ﷺ، فيكون الكلام في أصول الدين كلها وكل السورة تفصيل له.

٢. ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي لم يكن كل أمرهم أنهم لم

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/٣١٧.

(٢) تفسير المنار: ٧/٢٥١.

يستدلوا بما ذكر في الآية الأولى من البينات على التوحيد، ولا بما ذكر في الثانية على البعث، ولم ينظروا فيما يستلزمه كونه سبحانه هو الله في السماوات وفي الأرض، المحيط علمه بالسر والجهر وكسب العبد، بل يرونها في الآفاق وفي أنفسهم، عدم الاهتداء بالآيات المتجددة التي تهديهم إلى تلك وتبين لهم وجه دلالتها، وهي آيات القرآن، المرشدة إلى آيات الأكوان، والمثبتة لنبوة محمد ﷺ، وفي معناها كل ما يدل على نبوته ﷺ من معجزات، وذلك أنهم لا تأتيهم آية من الآيات من عند ربهم ـ ولا يقدر عليها غيره ـ إلا كانوا معرضين عنها، غير متدبرين لمعناها، ولا ناظرين فيما تدل عليه وتستلزمه فيهتدوا به.

٣. وأصل الاعتراض التولي عن الشيء الذي يظهر به عرض المتولي المدبر عنه، أي فهم لهذا الإعراض عن النظر في الآيات المنزلة وما فيها من الإعجاز العلمي واللفظي يظلون معرضين عن الآيات الكونية الدائمة الدالة على أن هذا الرب الواحد الذي بيده ملكوت كل شيء هو الحقيق بالألوهية وحده، وأنه لا يجوز أن يدعي غيره ولا أن يعبد سواه، لأن الربوبية والألوهية متلازمان، فالآيات الدالة على أن الرب واحد دالة أيضا على أنه هو الإله وحده، ولولا إعراضهم عن النظر في ذلك والتأمل فيه عنادا من رؤسائهم، وجمودا على التقليد من دهمائهم، المانع من النظر والاستدلال، لظهر لهم ظهورا لا يحتمل المراء ولا يقبل الجدال.

٤. فالآية معطوفة على ما قبلها متممة لمعناه، والمضارع المنفي فيها على إطلاقه دال على التجدد والاستمرار، أو على بيان الشؤون وشرح الحقائق ـ كقوله تعالى: ﴿اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾ [الرعد: ٨] ـ فلا يلاحظ فيه حال ولا استقبال، وفي معنى هذه الآية آية أول سورة الشعراء وسيأتي قريبا، وآية في أول سورة الأنبياء وهي: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢ ـ ٣]

٥. ﴿مِنْ آيَةٍ﴾ يدل على استغراق النفي أو تأكيده، وإضافة الآيات إلى الرب تفيد أن إنزاله الوحي وبعثه للرسل وتأييدهم وهدايته للخلق بهم من مقتضى ربوبيته أي مقتضى كونه هو السيد المالك المربي لخلقه المدبر لأمورهم على الوجه الموافق للحكمة، وأنه لا يقدر عليه غيره ـ فالذين يؤمنون بالرب ولا يؤمنون بكتبه ورسله، يجهلون قدر ربوبيته وكنه حكمته ورحمته.

٦. قيل إن المراد بالآيات هنا الدلائل الكونية الثابتة، وهو ضعيف فإن هذه لا يكاد يعبر عنها

بالإتيان، لأنها مائلة للبصائر والأبصار، وإنما يعبر بالإتيان عن آيات الوحي التي تتجدد وعما يتجدد مثلها من المعجزات، ومصداق الأخبار بالغيب، كالأخبار بنصر الرسل وخذلان أقوامهم وآيات الساعة، مثال ذلك آيتا الأنبياء والشعراء المشار إليهما آنفا وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [غافر: ٤٠] ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ١٣٢] ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ﴾ [يوسف: ١٠٧]

٧. ولما بين أن شأنهم الإعراض عن الآيات المنزلة وسائر ما يؤيد الله به رسله رتب عليه قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي فبسبب ذلك الشأن الكلي العام ـ وهو استمرارهم على الإعراض عن النظر في الآيات ـ قد كذبوا بالحق الذي جاءهم لما جاءهم فلم يتريثوا ولم يتأملوا، وإنما كذبوا ما جهلوا، وما جهلوا إلا لأنهم سدوا على أنفسهم مسالك العلم، وهذا الحق الذي كذبوا به هو دين الله الذي جاءهم به خاتم رسله ﷺ من العقائد والعبادات والآداب، وأحكام الحلال والحرام والمعاملات، وقد دعاهم أولا بمثل هذه السورة إلى كلياته مجملة ثم مفصله، وإنما كان يكون التفصيل بقدر الحاجة، إلى أن تم الدين كله فأكمل الله به النعمة.

٨. والحق في أصل اللغة الموافقة والمطابقة كما قال الراغب، أو الأمر الثابت المتحقق بنفسه، فهو كلي له جزئيات كثيرة، وكلما أطلق في مقام يعرف المراد منه بالقرائن اللفظية أو المعنوية، وقد أطلق في القرآن بمعناه اللغوي المطلق وعلى البارئ تعالى وعلى القرآن وعلى الدين، وذكر الدين مضافا إلى الحق إضافة بيانية كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، وقوله: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٢٩] وأطلق بمعان أخرى تفهم من السياق في كل موضع ـ فالأظهر عندنا أن المراد بالحق هنا الدين المبين في القرآن، وروي عن قتادة تفسيره بالقرآن هنا وفي مثله من سورة ﴿ق﴾ ولا فرق بينه وبينما قبله في المعنى، فإن تكذيبهم بالدين الذي نزل به القرآن هو عين التكذيب بالقرآن الذي نزل بهذا الدين، ولكن الأظهر في توجيه اللفظ والتناسب بين هذه الآية وما قبلها وعطفها عليها بفاء السببية أن يقال: إن إعراضهم عن آيات القرآن الدالة بإعجازها على كونها من عند الله وعلى رسالة من أنزلت عليه ـ وبمعانيها على دلائل التوحيد والبعث، وعلى أحكام الشرائع والآداب، قد كان سببا ترتب عليه تكذيبهم بالحق الذي أنزل القرآن لبيانه وهو تلك المعاني التي هي دين الله عز وجل.

٩ . وإذا فسر الحق هنا بالقرآن نفسه يكون المعنى أنهم كانوا يعرضون عن كل آية من القرآن فكان ذلك سببا لتكذيبهم بالقرآن، وأن المعرض عنه والمكذب به واحد، ووجهه أبو السعود، بضرب من تكلفه المعهود، وقد يتخرج على القول بأن فاء السببية تأتي بمعنى لام العلة فتدل على أن ما بعدها سبب لما قبلها، وفي هذا القول مقال، وفي التخريج عليه ما لا يخفى من الضعف، ولكن يظهر ذلك على القول بأن الآيات التي شأنهم الإعراض عنها هي دلائل الأكوان أو المعجزات مطلقا، إذ يقال حينئذ في تقدير الربط ـ أن كانوا معرضين عن الآيات فقد كذبوا بما هو أعظم آية، وأظهر دلالة، وهو الحق الذي تحدوا به، فعجزوا عن الإتيان بسورة من مثله، وقد علمت أن المختار في الآيات الأول، وقيل إن الحق هنا هو النبي ﷺ قاله ابن جرير الطبري؟ وقيل الوعد والوعيد.

١٠ . ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي فعاقبة هذا التكذيب أنه سوف يحل بهم مصداق الأخبار العظيمة الشأن مما كانوا يستهزئون به من آيات القرآن، والمراد بهذه الأنباء ما في القرآن من الوعد بنصر الله لرسوله وإظهار دينه ووعيد أعدائه بتعذيبهم وخذلانهم في الدنيا ثم بهلاكهم في الآخرة، وقد أتاهم ذلك فكان من أوائله ما نزل بهم من القحط، وما حل بهم في بدر، ثم تم ذلك في يوم الفتح.

١١ . وقد دلت الآية الكريمة على ما جاء مصرحا به في سور أخرى من استهزاء مشركي مكة ـ والكلام فيهم ـ بوعد الله ووعيده، وكذا بآياته ورسله، ولا حاجة إلى تقدير ذلك في الكلام، فهو وإن لم يقدر من بدائع إيجاز القرآن، وقد تكرر في القرآن ذكر استهزائهم واستهزاء من قبلهم من الكفار بالرسل وبما جاءوا من الوعد والوعيد، وإنذارهم عاقبة هذا الاستهزاء في آيات، وبيان نزول العذاب بهم في آيات أخرى كقوله: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [هود: ٨] وهو في سورة هود والنحل والأنبياء والزمر وأكثر الحواميم.

١٢ . جاء الوعيد على الاستهزاء هنا بحرف التسويف، وجاء في آيتين مثل هاتين الآيتين في أول الشعراء بحرف التنفيس، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الشعراء: ٥ ـ ٦] وقد حذف هنا معمول كذبوا، وذكر

السيد الألوسي في روح المعاني تعليل ذلك بما نصه: وفي البحر إنما قيد الكذب بالحق هنا وكان التنفيس بسوف وفي الشعراء ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ [الشعراء: ٦] بدون تقييد الكذب، والتنفيس بالسين، لأن الأنعام متقدمة في النزول على الشعراء، فاستوفي فيها اللفظ، وحذف من الشعراء وهو مراد إحالة على الأول، وقد ناسب الحذف الاختصار في حرف التنفيس فجيء بالسين اه، أقول: ويحسن أن يزاد على ذلك أنه لما كان فعل الاستقبال المقرون بسوف أبعد زمانا من المقرون بالسين تعين الأول فيما نزل أولا والثاني فيما نزل آخرا.

١٣. وفي هذه الآيات عبرة لنا في حال الذين أضاعوا الدين، من أهل التقليد الجامدين، وأهل التفرنج الملحدين، فهي تنادي بقبح التقليد، وتصرح بوجوب النظر في الآيات والاستدلال بها، وبأن التكذيب بالحق والحرمان منه معلول للإعراض عنها، وتثبت أن الإسلام دين مبني على أساس الدليل والبرهان لا كالأديان المبنية على وعث التقليد للأحبار والرهبان أو الرؤساء والكهان، وماذا فعل المسلمون بعد هذا التبيان؟ اتبع جماهيرهم سنن من قبلهم شبرا بشبر وذراعا بذراع، وأضاعوا حجة دينهم بتقليد فلان وعلان، وعكسوا القاعدة المأثورة عن سلفهم وهي: اعرف الرجال بالحق لا الحق بالرجال، ولولا حفظ الله جل وعلا لهذا القرآن، وتوفيقه سلف الأمة للعناية بتدوين سنة المصطفى ﷺ، وأخذ طائفة من أهل النظر بهديهما في كل زمان، لضاع من الوجود هذا الإسلام، كما ضاعت من قبله سائر الأديان، ولم يغن عن ذلك وجود الألوف المؤلفة من كتب الفقه وكتب الكلام.

١٤. كان عاقبة ذلك أن الحق صار مجهولا في نفسه عند الأكثرين، فاتخذ الناس رؤساء جهالا للدنيا وللدين، فتواطأ الفريقان على اضطهاد حملة الحجة من العلماء المستقلين، وظنوا أن ذلك من الكياسة، التي تقتضيها السياسة، ويحفظ بها أمر الملك والرياسة، وما كان إلا فتنة لهم، أضاعوا بها دينهم وملكهم، على أيدي أقوام من أمم الشمال، اقتبسوا من الإسلام وأهله الأولين ذلك الاستقلال، فنسخوا ما كانوا فيه من ظلمات التقليد بنور الاستدلال، فبلغوا من العزة والسيادة أوج الكمال، ثم استدار الزمان فافتتن بعض المسلمين، بما رأوا عليه هؤلاء المستقلين، ولكن داء التقليد العضال، لم يفارقهم في هذه الحال، فطفقوا يقلدونهم في الأزياء والعادات وظواهر الأحكام والأعمال، فازدادوا بذلك خزيا على خزي وضلالا على ضلال، إذ هدموا مقومات أمتهم ومشخصاتها، ولم يستطيعوا أن يكونوها بمقومات ومشخصات غيرها.

١٥. فهذه الآيات الكريمة حجة على مقلدة المسلمين وعلى مقلدة الأوربيين، فإنهم هم الذين أضاعوا الدنيا والدين، وأعجب أمر هؤلاء المتفرنجين أنهم يدعون الاستقلال، ويظنون أنما يهذون به من الشبهات الدينية والاجتماعية ضرب من الاستدلال، فهلم دلائلكم على ما تركتم من هداية، وما استحدثتم من غواية، فإننا لمناظرتكم مستعدون، وكم دعوناكم إليها وأنتم لا تجيبون؟

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. بعد أن أرشد سبحانه في الآيات السالفة إلى دلائل وحدانيته، ودل على أنها مع ظهورها لم تمنع الكافرين من الشك، وإلى دلائل البعث، وأنها على شدة وضوحها لم تمنع المشركين من الشك والريب، وإلى أن الله المتصف بتلك الصفات التي تعرفونها هو الله المحيط علمه بما في السموات والأرض فلا ينبغي أن يشرك به غيره فيهما، ولكن المشركين جهلوا ذلك وجوّزوا أن يكون غير الرب إلها، بل عبدوا معه آلهة أخرى، ذكر هنا سبب عدم اهتدائهم بالوحى، وأنذرهم عاقبة التكذيب بالحق ولفت أنظارهم إلى ما حلّ بالأمم قبلهم حين كذبوا رسلهم لعلهم يرعوون عن غيهم ويثوبون إلى رشدهم.

٢. ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي وما تنزل عليهم آية من آيات القرآن التي من جملتها تلك الآيات الناطقة بتفصيل بدائع صنع الله المنبعثة بجريان أحكام ألوهيته على جميع الكائنات ـ إلا أعرضوا عنها استهزاء وتكذيبا غير متدبرين معناها، ولا ناظرين في دلالتها.

٣. ولما بين سبحانه أن شأنهم الإعراض عن الآيات المنزلة رتّب عليه قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي فبسبب ذلك الإعراض العام عن النظر في الآيات كذبوا بالحق الذي جاءهم حين جاءهم ولم يتريّثوا ولم يتأملوا، لأنهم سدوا على أنفسهم مسالك العلم، وهذا الحق الذي كذبوا به هو الدين الذي جاء به خاتم أنبيائه بما اشتمل عليه من آداب وأخلاق وعبادات ومعاملات، إلى نحو أولئك مما فيه سعادة البشر في دنياهم وآخرتهم.

٤. ثم هددهم وتوعدهم على تكذيبهم فقال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ النبأ:

---

(١) تفسير المراغي ٧/٧٤.

الخبر العظيم أي فستكون عاقبة التكذيب أن تحلّ بهم العقوبات العاجلة التي نطقت بها الآيات وعيدا لهم من القتل والسبي والجلاء عن البلاد ووعدا لرسوله من النصر له وإظهار دينه على الدين كله، وقد أتاهم ذلك فكان منه ما نزل بهم من القحط، ومن الخذلان يوم بدر، ثم تم ذلك يوم الفتح.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. هذه هي الموجة التالية في افتتاح السورة؛ بعد الموجة الأولى: ذات اللمسات العريضة.. الموجة التي غمرت الكون كله بحقيقة الوجود الإلهي متجلية في خلق السماوات والأرض، منشئة للظلمات والنور؛ ثم في خلق الإنسان من مادة هذه الأرض؛ وتقدير أجله الذي ينتهي بالموت؛ والاحتفاظ بسر الأجل الآخر المضروب للبعث؛ والإحاطة بسر الناس وجهرهم، وما يكسبون في السر والجهر.. هذا الوجود الإلهي الذي يتجلى في الآفاق والأنفس، هو وجود متفرد متوحد؛ ليس مثله وجود؛ لأنه ما من خالق غير الله؛ كما أنه وجود غامر باهر قاهر يبدو التكذيب في ظله والإعراض عن هذه الآيات الهائلة، منكرا قبيحا، لا سند له، ولا عذر لصاحبه..

٢. ومن ثم يعرض السياق موقف المشركين الذين يعارضون الدعوة الإسلامية في ظل هذا الوجود الغامر الباهر القاهر؛ فيبدو هذا الموقف منكرا قبيحا، حتى في حس أصحابه الذين يواجههم هذا القرآن بهذه الحقيقة! ويكسب القرآن المعركة في الجولة الأولى، يكسبها في أعماق فطرة الناس، على الرغم من مكابرتهم ومن عنادهم الظاهرين! وهو يعرض في هذه الموجة صورة العناد والمكابرة؛ ويواجهها بالتهديد مرة؛ وبتوجيه القلوب إلى مصارع المكذبين من قبل مرة؛ ويحشد فيها عدة مؤثرات وموحيات، بعد الهزة الأولى: التي مضت بها تلك الموجة العريضة:

٣. ﴿وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إلا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ﴾ إنهم يتخذون موقف الإعراض عنادا وإصرارا، فليس الذي ينقصهم هو الآيات الداعية إلى الإيمان ولا العلامات الدالة على صدق الدعوة والداعية، ولا البراهين الناطقة بما وراء الدعوة والداعية من ألوهية حقة، هي التي يدعون إلى الإيمان بها

(١) في ظلال القرآن: ٢، ص: ١٠٣٦.

والاستسلام لها.. ليس هذا هو الذي ينقصهم، إنما تنقصهم الرغبة في الاستجابة، ويمسك بهم العناد والإصرار، ويقعد بهم الإعراض عن النظر والتدبر.

٤. وحين يكون الأمر كذلك، حين يكون الإعراض متعمدا ومقصودا ـ مع توافر الأدلة، وتواتر الآيات ووضوح الحقائق ـ فإن التهديد بالبطش قد يحدث الهزة التي تفتح نوافذ الفطرة حين تسقط عنها حاجز الكبر والعناد: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

٥. إنه الحق هذا الذي جاءهم من لدن خالق السماوات والأرض، وجاعل الظلمات والنور، وخالق الإنسان من طين، والإله في السماوات والأرض الذي يعلم سرهم وجهرهم ويعلم ما يكسبون.. إنه الحق وقد كذبوا به، مصرين على التكذيب، معرضين عن الآيات، مستهزءين بالدعوة إلى الإيمان.. فليرتقبوا إذن أن يأتيهم الخبر اليقين عما كانوا به يستهزئون! ويتركهم أمام هذا التهديد المجمل، الذي لا يعرفون نوعه ولا موعده.. يتركهم يتوقعون في كل لحظة أن تأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون! حيث يتكشف لهم الحق أمام العذاب المرتقب المجهول!

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ هو تشنيع على الكافرين، وإعراض عنهم، حيث أعرضوا عن الله، واستخفّوا بآياته، ومكروا بها.. ولهذا لم يخاطبهم الله خطاب حضور، بل أنذرهم إنذار غيبة، لأنهم مبعدون من رحمة الله، غائبون بوجودهم عنه، مشغولون بأهوائهم وضلالاتهم عن ذكره.

١. في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ـ ما يكشف عن وجه هؤلاء الذين أعرضوا عن آيات الله، الله، وكفروا بها.. وأن القرآن الكريم وهو الحق من الله، والآية المشرقة من آياته، لم يلقه هؤلاء الضالون إلا بالتكذيب والإعراض والاستهزاء.. فصبرا، فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون، يوم يعرضون على الله بهذا الإثم العظيم الذي حملوه، من

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ١٣٠.

التكذيب لكتاب الله، والاستهزاء بآياته..

٢. وفي قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ جاء الفعل (يستهزئون) بدلا من الفعل الذي يطلبه النظم وهو (يكذبون).. إذ جاء وصفهم بأنهم كذبوا، فكان مقتضى هذا الوصف أن تجيء المجازاة عن التكذيب، لا عن الاستهزاء، وهذا من القرآن الكريم آية من آيات إعجازه، إذ يحمّل بهذا النظم المعجز فعل التكذيب، معنى التكذيب والاستهزاء معا.. فهم لم يكذبوا وحسب، بل أتبعوا التكذيب سخرية واستهزاء! وهذا ما يكشف عنه قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ هذا انتقال إلى كفران المشركين في تكذيبهم رسالة محمد ﷺ بعد أن أقيمت عليهم الحجّة ببطلان كفرهم في أمر الشرك بالله في الإلهيّة، وقد عطف لأن الأمرين من أحوال كفرهم ولأنّ الذي حملهم على تكذيب الرسول ﷺ هو دعوته إياهم إلى التوحيد، فمن أجله نشأ النزاع بينهم وبينه فكذبوه وسألوه الآيات على صدقه.

٢. وضمائر جمع الغائبين مراد منها المشركون الذين هم بعض من شملته ضمائر الخطاب في الآية التي قبلها، ففي العدول عن الخطاب إلى الغيبة بالنسبة إليهم التفات أوجبه تشهيرهم بهذا الحال الذميم، تنصيصا على ذلك، وإعراضا عن خطابهم، وتمحيضا للخطاب للمؤمنين، وهو من أحسن الالتفات، لأن الالتفات يحسنه أن يكون له مقتض زائد على نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب المراد منه تجديد نشاط السامع، وتكون الواو استئنافية وما بعدها كلاما مستأنفا ابتدائيا.

٣. واستعمل المضارع في قوله: ﴿تَأْتِيَهُمُ﴾ للدلالة على التجدّد وإن كان هذا الإتيان ماضيا أيضا بقرينة المضي في قوله: ﴿إلا كَانُوا﴾، والمراد بإتيانها بلوغها إليهم وتحدّيهم بها، فشبّه البلوغ بمجيء الجائي، كقول النابغة: (أتاني أبيت اللعن أنّك لمتني) وحذف ما يدّل على الجانب المأتي منه لظهوره من قوله: ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾، أي ما تأتيهم من عند ربّهم آية من آياته إلا كانوا عنها معرضين.

---

(١) التحرير والتنوير: ١٧/٦.

٤. و﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنْ آيَةٍ﴾ لتأكيد النفي لقصد عموم الآيات التي أتت وتأتي، و﴿مِنَ﴾ التي في قوله: ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ تبعيضية، والمراد بقوله: ﴿مِنْ آيَةٍ﴾ كلّ دلالة تدلّ على انفراد الله تعالى بالإلهية، من ذلك آيات القرآن التي لإعجازها لم كانت دلائل على صدق الرسول ﷺ فيما أخبر به من الوحدانية، وكذلك معجزات الرسول ﷺ مثل انشقاق القمر، وتقدّم معنى الآية عند قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ في سورة البقرة.

٥. وإضافة الربّ إلى ضمير (هم) لقصد التسجيل عليهم بالعقوق لحقّ العبودية، لأن من حقّ العبد أن يقبل على ما يأتيه من ربّه وعلى من يأتيه يقول له: إنّي مرسل إليك من ربّك، ثمّ يتأمّل وينظر، وليس من حقّه أن يعرض عن ذلك إذ لعلّه يعرض عمّا إن تأمله علم أنّه من عند ربّه.

٦. والاستثناء مفرّغ من أحوال محذوفة.

٧. وجملة: ﴿كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ في موضع الحال، واختير الإتيان في خبر كان بصيغة اسم الفاعل للدلالة على أنّ هذا الإعراض متحقّق من دلالة فعل الكون، ومتجدّد من دلالة صيغة اسم الفاعل لأن المشتقّات في قوة الفعل المضارع، والاستثناء دلّ على أنّهم لم يكن لهم حال إلا الإعراض.

٨. وإنما ينشأ الإعراض عن اعتقاد عدم جدوى النظر والتأمّل، فهو دليل على أنّ المعرض مكذّب للمخبر المعرض عن سماعه، وأصل الإعراض صرف الوجه عن النظر في الشيء وهو هنا مجاز في إباء المعرفة، فيشمل المعنى الحقيقي بالنسبة إلى الآيات المبصرات كانشقاق القمر، ويشمل ترك الاستماع للقرآن، ويشمل المكابرة عن الاعتراف بإعجازه وكونه حقّا بالنسبة للذين يستمعون القرآن ويكابرونه، كما يجيء في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ وتقديم المجرور للرعاية على الفاصلة.

٩. ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ الفاء فصيحة على الأظهر أفصحت عن كلام مقدّر نشأ عن قوله: ﴿إلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، أي إذا تقرّر هذا الإعراض ثبت أنّهم كذّبوا بالحقّ لمّا جاءهم من عند الله، فإن الإعراض علامة على التكذيب، كما قدّمته آنفا، فما بعد فاء الفصيحة هو الجزاء.

١٠. ومعناه أنّ من المعلوم سوء عواقب الذين كذّبوا بالحق الآتي من عند الله فلمّا تقرّر في الآية السابقة أنّهم أعرضوا آيات الله فقد ثبت أنّهم كذّبوا بالحقّ الوارد من الله، ولذلك فرّع عليه قوله: ﴿فَسَوْفَ

يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ تأكيدا لوعد المؤمنين بالنصر وإظهار الإسلام على الدين كلّ وإنذار للمشركين بأن سيحلّ بهم ما حلّ بالأمم الذين كذّبوا رسلهم ممّن عرفوا مثل عاد وثمود وأصحاب الرسّ.

١١. وبهذا التقدير لم تكن حاجة إلى جعل الفاء تفريعا محضا وجعل ما بعدها علّة لجزاء محذوف مدلول عليه بعلّته كما هو ظاهر (الكشاف)، وهي مضمون ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ بأن يقدّر: فلا تعجب فقد كذّبوا بالقرآن، لأن من قدّر ذلك أوهمه أنّ تكذيبهم المراد هو تكذيبهم بالآيات التي أعرضوا عنها ما عدا آية القرآن، وهذا تخصيص لعموم قوله: ﴿مِنْ آيَةٍ﴾ بلا مخصّص، فإن القرآن من جملة الآيات بل هو المقصود أولا، وقد علمت أنّ ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ هو الجزاء وأنّ له موقعا عظيما من بلاغة الإيجاز، على أنّ ذلك التقدير يقتضي أن يكون المراد من الآيات في قوله: ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ ما عدا القرآن، وهو تخصيص لا يناسب مقام كون القرآن أعظمها.

١٢. والفاء في قوله: ﴿فَسَوْفَ﴾ فاء التسبّب على قوله: ﴿كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾، أي يترتّب على ذلك إصابتهم بما توعّدهم به الله، وحرف التسويف هنا لتأكيد حصول ذلك في المستقبل، واستعمل الإتيان هنا في الإصابة والحصول على سبيل الاستعارة، والأنباء جمع نبأ، وهو الخبر الذي ب أهميّة، وأطلق تحقّق نبئه، لأن النبأ نفسه قد علم من قبل.

١٣. و﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ هو القرآن، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ الله هُزُوًا﴾ فإن القرآن مشتمل على وعيدهم بعذاب الدنيا بالسيف، وعذاب الآخرة، فتلك أنباء أنبأهم بها فكذّبوه واستهزءوا به فتوعّدهم الله بأنّ تلك الأنباء سيصيبهم مضمونها، فلمّا قال لهم: ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ علموا أنّها أنباء القرآن لأنّهم يعلمون أنّهم يستهزئون بالقرآن وعلم السامعون أنّ هؤلاء كانوا مستهزءين بالقرآن، وتقدّم معنى الاستهزاء عند قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ قد وصف الله الذين كفروا بأنهم

(١) زهرة التفاسير: ٢٤٣٧/٥.

بعد قيام الدلائل التي تدركها الفطرة السليمة على وحدانية الله تعالى يجعلون عديلا لله في وحدانيته، ويشركون فيه، ومع أن الآيات الفطرية تدل أن خلق الإنسان إلى فناء في الدنيا ثم إلى بقاء، وإنها للجنة أبدا، أو للنار أبدا وقد بين من بعد أن الذين طمست فطرتهم فلم تدرك الحق لذات الحق لا تجدى معهم البراهين مهما قويت، ولا الآيات مهما بينت، فبين أنهم معرضون كمن يرى ضوء الشمس فيضع غشاوة لكيلا يراها، ومن يسمع الحق فيضع أكنة على أذنه، وما تأتيهم أية حجة إلا أعرضوا عنها.

٢. هنا بعض المباحث اللفظية التي تقرب معنى الآية الكريمة:

أ. الأول: أن (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ﴾ لعموم النفى ﴿إِلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، واستغراقه، أي لا توجد أي آية.

ب. الثاني: التعبير بقوله تعالى: ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ فيه (من) تبعيضية، والمعنى فيه ما يأتيه آية (من) بعض آيات ربهم الذى خلقهم وذرأهم من العدم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا، وهو الذى يكلؤهم ويرعاهم ـ إلا كانوا عنها معرضين.

ج. الثالث: أن قوله تعالى: ﴿إِلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ فيه إثبات أن الإعراض عن الحق دأبهم وصفة ثابتة فيهم لا يتخلون عنها، ودل على ذلك النفي والإثبات، ثم التعبير بـ (كانوا) الدالة على الدوام والاستمرار، ثم التعبير بالوصف والمعنى الجملي لا تأتيهم معجزة قاطعة في الإثبات من عند خالقهم إلا تلقوها معرضين عن مغزاها، تاركين مؤداها.

٣. ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ إذا كانوا لا تأتيهم آية بينة مثبتة الرسالة إلا استقبلوها بإعراض كأنه عادة لهم، وشأن من شئونهم، فلا بد أن يكذبوا بالحق الذى جاء به النبي ﷺ وهو ما اشتملت عليه الرسالة المحمدية، فهم قوم بور؛ لأن الناس أقسام ثلاثة: قسم يهتدى إلى الحق عندما يدعى إليه؛ لأنه يدرك ببصيرته، إذ هي مشرقة مخلصة تستجيب للفطرة؛ لأن الحق في فطرتها، وفى ثناياها، وقسم يقبل الحق، ويستمع إلى آياته ودلائله ويهتدى به، وقسم على قلبه غشاوة يعرض عن الحق، وعن أدلته، وهؤلاء لا علاج لهم إلا بالسيف يقاتلون به، أو بالعذاب الشديد ينزل بهم في الآخرة.

٤. وأنهم لم يكتفوا بتكذيب الحق إذ جاءهم على لسان الرسول ﷺ، وبما اشتمل عليه القرآن الكريم

من حقائق ثابتة بل تجاوزوا إنكار الحق إلى الاستهزاء بأهله، والسخرية بمعتنقيه؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فإن هذا النص الكريم يشير إلى إخبار بالاستهزاء مطوي قد أغنى عن ذكره ما بعده في ثنايا القول الحكيم، وإن هذا تهديد بأنه سينزل بهم عذاب شديد هو نتيجة وثمرة لاستهزائهم، وكأنه لحتميته نبأ عن القرآن الذى كان به هذا الاستهزاء.

٥. وفى الكلام إشارات بيانية تؤكد أنهم مخاطبون بالرسالة ومعاقبون على الإعراض:

أ. الأولى: في قوله تعالى: ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ وأنه نزل بساحتهم وصار قريبا منهم ففي هذا تنبيه على أنهم المخاطبون بحجيته، وأنه بينهم مستمر دائم لا يتوانى عن تذكيرهم مهما فروا، حتى يكون ضلالهم عن بينة، ومن بعد فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها.

ب. الثانية: تأكيد ما ينزل بهم نتيجة لسخريتهم بـ (اللام) وبـ (سوف)، وبأنه يأتيهم فينزل بساحتهم، وذلك تأكيد لوقوعه.

ج. الثالثة: التعبير عن العذاب بأنه أنباء ما كانوا به يستهزئون، والنبأ هو الخبر العظيم، وقد وضح ذلك الزمخشري في الكشاف فقال: فسوف تأتيهم أنباء الشيء الذى كانوا به يستهزئون، وهو القرآن، أي أخباره وأحواله، بمعنى سيعلمون بأي شيء استهزءوا، وسيظهر لهم أنه لم يكن بموضع استهزاء، وذلك عند إرسال العذاب عليهم في الدنيا أو يوم القيامة أو عند ظهور الإسلام وعلو كلمته.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. أصول العقيدة ثلاثة: التوحيد والنبوة والبعث، والآيات الثلاث السابقة تعرضت للتوحيد ودلائله، وتعرضت هذه الآيات إلى النبوة، وحال المكذبين بها.

٢. ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، المراد بالآية هنا الحجة القاطعة على وجود الله ووحدانيته، وعلى البعث ونبوة محمد، والمعنى أن الكافرين يرفضون دليل الحق، ويعرضون عنه، دون أن ينظروا إليه.. ولو كانوا من طلاب الحقيقة لنظروا إلى الدليل وتدبروه بإمعان، وعملوا

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/١٦١.

بمؤداه، أما الرفض والإعراض قبل النظر والدرس فعناد ومكابرة.

٣. اختلف المفسرون في تعيين المراد من الآية التي أعرض عنها، واستهزأ بها المكذبون: هل هي القرآن، أو غيره من معجزات رسول الله ﷺ، أو أن المراد بالآية جميع ما أتى به من المعجزات؟ وتنبهت، وأنا أتابع هذا الاختلاف، إلى أن الآية التي نفسرها، وما جاء في القرآن من أمثالها تتضمن معنى أجل مما اهتم المفسرون بشرحه، إنها تتضمن الدلالة على أن الإسلام يقوم على حرية العقل والرأي، وأنه لا يحق لأحد، كائنا من كان، أن يطلب من غيره التسليم والإذعان لأقواله تسليما أعمى ومن غير دليل، حتى خالق الكون جلت كلمته لا يفرض على عباده الإيمان به وبكتبه ورسله فرضا ومن غير دليل، إنه تعالى يقيم الحجة على ما يقوله ويدعو إليه، ويطلب من كل عاقل أن ينظر فيها ويتدبرها بإمعان، شأنه في ذلك، تعالى الله علوا عظيما، شأن كل عالم منصف وان بعد القياس والتشبيه بين الخالق والمخلوق، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلا بِالْحَقِّ﴾، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾، وقال: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، إن هذه الآيات وما إليها تدل دلالة قاطعة على أنه تعالى يقيم الدلائل والبينات على دعوة الحق، ويدعو إلى تدبرها والنظر فيها، فإذا أعرض من لا يؤمن إلا بما يريد فهو وحده المسئول عن جحوده وإنكاره.

٤. ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، قد يتجاهل الإنسان الحق غير مكترث به، لا يؤمن به، ولكن لا يؤيده ولا يحاربه، كما هو شأن اللامبالي، وقد يقف منه موقف المكذب، وهذا مكابر إن كذب عن علم بالحق، وإن كذب واستهزأ فهو محارب للحق، والأول أخف جرما من الثاني، لأنه أشبه بمن يمتنع عن الاقتراع، والثاني أخف ذنبا من الثالث، لأنه ضم صوته إلى صوت المكذبين، أما الثالث فقد كذّب وأبدى نشاطا ضد الحق، وهذا الثالث هو المقصود بالتهديد والوعيد، وأنه سيلاقي جزاء عناده واستهزائه.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٧/٧.

١. الآيات إشارة إلى تكذيبهم الحق الذي أرسل به الرسول وتماديهم في تكذيب الحق والاستهزاء بآيات الله سبحانه ثم موعظة لهم وتخويف وإنذار، وجواب عن بعض ما لغوا به في إنكار الحق الصريح.

٢. ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ إشارة إلى أن سجية الاستكبار رسخت في نفوسهم فأنتجت فيهم الإعراض عن الآيات الدالة على الحق فلا يلتفتون إلى آية من الآيات من غير تفاوت بين آية وآية لأنهم كذبوا بالأصل المقصود الذي هو الحق، وهو قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾

٣. ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ تخويف وإنذار فإن الذي يستهزئون به حق، والحق يأبى إلا أن يظهر يوما ويخرج من حد النبإ إلى حد العيان قال تعالى: ﴿وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [الشورى: ٢٤]، وقال: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ﴾ ﴿رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]، وقال في مثل ضربه ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، ومن المعلوم أن الحق إذا ظهر لم يستو في مساسه المؤمن والكافر، والخاضع والمستهزئ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [الصافات: ١٧٧]

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ولذلك فهم يشركون بالله ولا يتقونه مع قيام الحجة عليهم.

٢. ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ بآيات الله ورسوله وكتابه، وما دلت عليه من توحيده وغيره بعد قيام الحجة عليهم ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ قال الراغب في (مفرداته): (النبأ: خبر

(١) التيسير في التفسير: ٢/٤١٣.

ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر في الأصل: نبأ، حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة) وقوله: (ذو فائدة عظيمة) لعل الصواب: ذو فائدة مهمة؛ لقول امرئ القيس:

تطاول ليلك بالإثمد　　　وبات الخلي ولم ترقد

وبات وباتت لَه ليلة　　　كليلة ذي العائر الأرمد

وذلك من نبأ جائني　　　وخبرته عن بني الأسود

وقوله عنترة:

نبئت عمراً غير شاكر نعمتي　　　والكفر مخبثة لنفس المنعم

وغير ذلك.

٣. وقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ إن أريد به القرآن الذي كان المكذبون يستهزئون به، فأنباؤه ما فيه من الوعيد، وإتيانه إتيان المتوعَد به، كقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ﴾ [الرعد:٣١] أي ما وعد به، وإن أريد ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ عامة من الكتاب والرسول وخزنة جهنم والعذاب وغير ذلك، فالنبأ عنه: الإخبار عنه بأنه لم يكن مما يستهزئ به أهل العقول والنبا هذا هو الجزاء الناطق بلسان الحال أنهم كانوا في استهزائهم في غواية بعيدة، أو القول المقارن للعذاب ذوقوا العذاب بما كنتم تستهزئون أو نحو هذا القول مما يحصل به ندمهم على ما قدموا من التكذيب والإستهزاء، وهذا أظهر والإستهزاء استخفاف، والسخرية مثله.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. سلبية الكافرين في مواجهة الرسالات، تلك هي مشكلة الكافرين ـ كما يصوّرها القرآن دائما ـ فهم يمارسون السلبيّة المطلقة أمام الفكر الحق الذي تقدمه الرسالات، وذلك بالإعراض عنه وعن براهينه ودلائله وآياته من دون أساس، وبذلك لم تكن قضية التكذيب به قضية فكر يناقشونه ويرفضونه، بل هي قضية عقدة ذاتية ضد الأمور الجادّة في الحياة، فيعملون على أن لا يلزموا أنفسهم بشيء من ذلك، وذلك

(١) من وحى القرآن: ٩/٢٧.

بأن لا يواجهوا الموقف بالجدية التي تفرض التأمّل والمحاكمة والاقتناع، فلا يفتحون عيونهم على ما يحتاج إلى بصر ولا يوجهون أسماعهم إلى ما يحتاج إلى سمع، ولا يطلقون عقولهم فيما يحتاج إلى تفكير، وهذا ما نزال نلاحظه لدى كثير من شباب الجيل الذين ينحرفون عن الخط دون أن يحاولوا التعرف على ملامحه، وذلك بالاستجابة إلى القراءة والتأمل والحوار، بل هم يتخذون بدلا من ذلك الموقف الذي يرفض بعض الأمور من دون دليل، ويتقبل البعض الآخر من دون حجّة أو برهان.

٢. وهذا ما أوضحه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إلا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ﴾ ويتصاعد الأسلوب التهديدي الذي يواجههم بالحقيقة التي تنتظرهم فيما ينتظرهم من عذاب الله الذي كذبوا به: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وذلك هو جزاء كل هؤلاء الناس الذين يواجهون الحقيقة بالسخرية والاستهزاء ليهزموا دعاتها نفسيا.

٣. ولكن الله أمر رسله أن يثيروا في داخلهم الشعور بالحقيقة المرعبة التي سيلاقونها غدا عندما يلاقون وجه الله، ليوحوا إليهم بأن أساليبهم لا تجدي فيما يحاولونه من هزيمة المؤمنين، بل سترتد عليهم سخرية واقعية تتمثل في أوضاعهم السيئة في نار جهنم.

٤. هناك عدة إشارات في هذه الآيات، منها أن قانون السببية شامل للمواقف الإنسانية كما هو واقع في الظواهر الكونية، فقد جعل الله الواقع الإنساني خاضعا للمواقف التي يتخذها الإنسان من خير أو شر، وهذا ما يجعل النتائج الإيجابية أو السلبية في حياته تابعة لذلك، وهو ما يوحي إلينا بأن الله أوكل للإنسان أمر صياغة دنياه كما أوكل إليه صياغة مستقبله في آخرته، وذلك بقدر ما يتصل الأمر بإرادته واختياره، وهذا ما يصح لنا معه أن نقول: إن الإنسان يصنع قضاءه وقدره في الأمور المرتبطة بحركته الإرادية القادر من خلالها على تحريك الواقع، وليس القضاء والقدر شيئا فوق إرادة الإنسان دائما، بل هو كذلك في الأمور الكونية التي يتحرك بها النظام الكوني، أو في الأمور الحادثة التي يتعرض لها من دون اختياره، وهذا ما توحي به الآية الكريمة: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فهي أنباء السوء الناتجة عن أعمالهم الشريرة ومواقفهم من الحق الذي جاءهم، فاستهزأوا به وأنكروه، فخسروا إيجابيات الحق في الدنيا، وسيواجهون عقاب الله في الآخرة، إنها الأنباء التي يتمخّض عنها الموقف السلبي، وهي ليست أنباء سعيدة على كل حال، وهذا هو منطق السنن الاجتماعية التاريخية

في تقدير الله للكون والإنسان، وهو الذي تتحرك فيه التجارب الإنسانية في الماضي والحاضر والمستقبل، لأن ذلك لا يخضع لحدّ زمني معين، بل هو خاضع للزمن كله ولحركة الحياة في عناصرها الحقيقية.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. معظم الخطاب في سورة الأنعام موجه إلى المشركين، والقرآن يستخدم شتى السبل لإيقاظهم وتوعيتهم، فهذه الآية والآيات الكثيرة التي تليها تواصل هذا الموضوع.

٢. تشير هذه الآية إلى روح العناد واللامبالاة والتكبر عند المشركين تجاه الحقّ وتجاه آيات الله فتقول: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، أي أنّ أبسط شروط الهداية ـ وهو البحث والتقصي ـ غير موجود عندهم، وليس فيهم أي اندفاع لطلب الحقيقة، ولا يحسّون بعطش إليها ليبحثوا عنها، وحتى لو تدفّق ينبوع الماء الزلال عند عتبات بيوتهم لأعرضوا عنه ولما نظروا إليه.. وكذلك فهم يعرضون عن آيات (ربّهم) النازلة لتربيتهم وتكاملهم.

٣. مثل هذه النفسية لا يقتصر وجودها على عهود الجاهلية ومشركي العرب، فاليوم أيضا نجد من بلغ الستين من عمره ومع ذلك لم يجشم نفسه عناء ساعة واحدة من البحث والتحقيق في الله والدين، وإن وقع بيده كتاب أو بحث في هذا الموضوع لم ينظر إليه، وإن تحدث إليه أحد بهذا الشأن لم يصغ إليه، هؤلاء هم الجهلاء المعاندون الغافلون الذين قد يظهرون أحيانا أمام الناس بمظهر العالم المتجبر!

٤. ثمّ تشير الآية إلى نتيجة أعمالهم، وهي: أنّهم عندما رأوا الحقيقة كذبوها، ولو أنّهم دققوا في آيات الله جيدا لرأوا الحقيقة وأدركوها وآمنوا بها: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾، ولسوف تصلهم نتيجة هذا التكذيب والسخرية: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

٥. في هاتين الآيتين إشارة إلى ثلاث مراحل من الكفر تتزايد في الشدّة على التوالي، المرحلة الأولى هي مرحلة الإعراض، ثمّ مرحلة التكذيب، وأخيرا مرحلة الاستهزاء بآيات الله، يدل هذا على أنّ الإنسان في كفره لا يتوقف في مرحلة واحدة، بل يزداد باستمرار إنكارا للحق وعدواة له وابتعادا عن الله.

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/ ٢١١.

٦. المقصود من التهديد المذكور في آخر الآية أنّ أوزار عدم الإيمان ستحيق بهم عاجلا أو آجلا في الدنيا والآخرة، والآيات التّالية تؤكّد هذا التّفسير.

٣. سنن التمكين والهلاك

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٣] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال:أمهلناهم في العمر، والأجسام والأولاد؛ مثل قوم نوح، وعاد، وثمود[١].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾، يقول: يتبع بعضها بعضا[٢].

أبو مالك:

روي عن أبي مالك غزوان الغفاري (ت ١٠٠ هـ) أنّه قال: ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾، أمّة[٣].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) أنّه قال: (وذلك أنهم سألوا رسول الله ﷺ أن يأتيهم بآية؛ بكتاب يقرؤونه، وقالوا: لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه من الله إلى كلّ رجل باسمه: أن آمن بمحمد؛ فإنّه رسولي[٤].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) أنّه قال: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾، يقول:

---

(١) تفسير الثعلبي ٤/١٣٥.

(٢) ابن أبي حاتم ٤/١٢٦٣.

(٣) ابن أبي حاتم ٤/١٢٦٣.

(٤) تفسير ابن أبي زمنين ٢/٥٩.

أعطيناهم ما لم نعطكم[1].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ معناه من أمّة[2].

٢. روي أنّه قال: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ معناه جعلنا لهم منازل[3].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَأَنْشَأْنَا﴾ معناه ابتدأنا[4].

الكلبي:

روي عن محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) أنّه قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾: إنّ مشركي مكة قالوا: يا محمد، والله، لا نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله، ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنّه من عند الله، وأنّك رسوله، فنزلت هذه الآية[5].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: نزلت في النضر بن الحارث، وعبد الله بن أبي أمية، ونوفل بن خويلد، قالوا: يا محمد، لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله، ومعه أربعة من الملائكة، يشهدون عليه أنّه من عند الله، وأنك رسوله، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾[6].

٢. روي أنّه قال: وعظهم ليخافوا، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كفار مكة ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ من أمّة[7].

---

(١) ابن جرير ٩/١٥٦.

(٢) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٣.

(٣) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٣.

(٤) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٣.

(٥) تفسير الثعلبي ٤/١٣٥.

(٦) تفسير الثعلبي ٤/١٣٥.

(٧) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥٥٠.

٣. روي أنّه قال: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾، يقول: أعطيناهم من الخير والتمكين في البلاد ما لم نعطكم، يا أهل مكة[١].

٤. روي أنّه قال: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ بالمطر، يعني: متتابعا[٢].

٥. روي أنّه قال: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ يعني: فعذّبناهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ يعني: بتكذيبهم رسلهم، ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ يقول: وخلقنا من بعد هلاكهم قوما آخرين[٣].

المرتضى:

ذكر الإمام المرتضى بن الهادي (ت ٣١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٤]:

١. سؤال وإشكال: سألت عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾، فقلت: ما تأويل القرن؟ وقلت: إنه يقال عندكم ثمانون سنة؟ والجواب: القرن: الخلف الذي يكون بعد الأول الفاني، فأما ما يقال به من: ثمانين سنة ـ فليس بشيء؛ لأنا قد رأينا قوما يزيدون على الثمانين في عصر واحد؛ ولكن القرن: ما خلف من قد مضى، ويقال: القرن؛ لأنهم غير الأولين، فسبحان الله رب العالمين؛ وفي ذلك يقول الشاعر:

إذا ذهب القرن الذي كنت فيهم وخلفت في قرن فأنت غريب

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٥]:

١. ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ قال الحسن: ألم يروا: ألم يعتبروا ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ وقال أبو بكر الكيساني: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ قد رأوا ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قال وهو واحد، قد رأوا آثار الذين أهلكوا بتكذيبهم الرسل، وتعنتهم ومكابرتهم، لكنهم لم يعتبروا بذلك.

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥٥٠.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥٥٠.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥٥٠.

(٤) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/٣٦٩.

(٥) تأويلات أهل السنة: ٤/٢٣.

٢. ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾:

أ. قال بعضهم: أعطيناهم من الخير والسعة والأموال ما لم نمكن لكم يا أهل مكة أي: لم نعطكم، ثم إذا كذبوا الرسل أهلكهم الله تعالى وعاقبهم بأنواع العقوبة.

ب. ويحتمل: مكناهم في الأرض من القوة والشدة؛ كقوله: ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، ثم مع شدة قوتهم أهلكوا إذ كذبوا الرسل.

ج. ويحتمل وجها آخر: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: في قلوب الخلق، من نفاذ القول، وخضوع الناس لهم؛ لأنهم كانوا ملوكًا وسلاطين الأرض، من نحو نمرود، وفرعون، وعاد، مع ما كانوا كذلك أهلكوا إذ كذبوا الرسل، وأنتم يا هَؤُلَاءِ ليس لكم شيء من ذلك، أفلا تهلكون إذا كذبتم الرسل!؟

٣. وإنما حملهم على تكذيب الرسل لما كانوا ذوي سعة وقوة، فلم يروا الخضوع لمن دونهم في ذلك لما رأوا الأمر بالخضوع لمن دونهم في ذلك جورًا غير حكمة، وإنما أخذوا ذلك من إبليس اللعين؛ حيث قال عند أمره بالسجود لآدم، فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ فعلى ذلك هَؤُلَاءِ الكفرة رأوا الأمر بالخضوع لمحمد ﷺ جورًا منه، حتى قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾

٤. ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ قَالَ الْقُتَبِيُّ: مدرارا بالمطر: أي غزيرا، من درَّ يدرُّ، وقال أبو عَوْسَجَةَ: أي: درت عليهم السماء بالمطر، أي: كثر ودام وتتابع واحدا بعد واحد في وقت الحاجة ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ أخبر عن سعة، أُولَئِكَ، وما أنعم عليهم من كثرة الأمطار والأنهار ما لم يكن ذلك لهَؤُلَاءِ، ثم مع ما كان أعطاهم ذلك أهلكهم إذ كذبوا الرسل.

٥. سؤال وإشكال: كيف ذكر إهلاك هَؤُلَاءِ، وخوف أُولَئِكَ ذلك بتكذيبهم الرسل، وقد أهلك الرسل الأولياء من قبل؟ والجواب: لأن إهلاك أُولَئِكَ إهلاك عقوبة وتعذيب؛ لأنه كان أهلكهم هلاك استئصال واستيعاب؛ خارجًا عن الطبع، وأهلك أُولَئِكَ الرسل الأولياء لا إهلاك عقوبة خارجًا عن الطبع؛ لذلك كان ما ذكر.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ خطاب للغائب وتقديره ألم ير هؤلاء الكفار: ألم يعلموا كم أهلكنا من قبلهم من قرن، ثم قال: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ فخاطب خطاب المواجه، فكأنه أخبر النبي ﷺ ثم خاطبه معهم، كما قال: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ فذكر لفظ الغائب بعد خطاب المواجه.

٢. ومعنى ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ من أمة، قال الحسن: القرن عشرون سنة، وقال إبراهيم: أربعون سنة، وقال أبو ميسرة: هو عشر سنين، وحكى الزجاج والفراء: أنه ثمانون سنة وقال قوم: هو سبعون سنة، وقال الزجاج: عندي القرن هو أهل كل مدة كان فيها نبي أو كان فيها طبقة من أهل العلم، قلت السنون أو كثرت، فيسمى ذلك قرنا، بدلالة قوله ﷺ: (خيركم قرني) يعني أصحابي (ثم الذين يلونهم) يعني التابعين (ثم الذين يلونهم) يعني تابعي التابعين، قال وجائز أن يكون القرن جملة الأمة، وهؤلاء قرن فيها، واشتقاق القرن من الاقتران، وكل طبقة مقترنين في وقت قرن، والذين يأتوا بعدهم ذووا اقتران: قرن آخر.

٣. ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ معناه جعلناهم ملوكا وأغنياء تقول مكنتك، ومكنت لك واحد.

٤. ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ معناه أرسلنا عليهم مطرا كثيرا من السماء يقول القائل أصابتنا هذه السماء، وما زلنا نطأ السماء حتى أتيناكم، يعنون المطر، وقوله: (مدرارا) يعني غزيرا دائماً كثيرا، وهو قول ابن عباس وأبي روق، و(مفعال) من ألفاظ المبالغة، يقال ديمة مدراراً إذا كان مطرها غزيراً حادا، كقولهم امرأة مذكار: إذا كانت كثيرة الولادة للذكور، ومئناث في الإناث، ومفعال لا يؤنث، يقال: امرأة معطار ومئناث ومذكار، بغير هاء.

٥. بين الله تعالى أن هؤلاء الذين آتاهم الله هذه المنافع وأجرى من تحتهم الأنهار، ووسع عليهم، ومكنهم في الأرض، لما كفروا بنعم الله وارتكبوا معاصيه أهلكهم الله بذنوبهم، وأنه أنشأ قوما آخرين بعدهم، يقال: أنشأ فلان يفعل كذا أي ابتدأ فيه.

٦. وموضع (كم) نصب بـ (أهلكنا)، لأن لفظ الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، فلذلك لا يجوز أن

---

(١) تفسير الطوسي: ٨١/٤.

يكون منصوبا بـ (يروا)

٧. سؤال وإشكال: كيف قال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ والقوم كانوا غير مقرين بها أخبروا به من شأن الأمم قبلهم؟ والجواب: كان الكثير منهم مقرا بذلك فإنه دعي بهذه الآية إلى النظر والتدبر ليعرف بذلك ما عرفه غيره.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. القرن: أهل كل عصر، مأخوذ من اقترانهم في العصر، وقال الزجاج: القرن أهل كل عصر فيه نبي، أو من له طبقة عالية في العلم، فجعله من اقتران أهل العصر بأهل العلم، فإذا كان زمانَ فترة وغلبة جهلٍ لم يكن قرنًا، وقيل: القرن مدة من الزمان، وقيل: ثمانون سنة، وقيل: مائة سنة لاقتران أهلها، وأصله من الإقران، ومنه القِرَانُ؛ يعني أن يقرن بين الحج والعمرة في الإحرام، ومنه القرين.

ب. التمكين: إعطاء ما به يصح الفعل كائنًا ما كان من الآلات وغيره، والإقدار: إعطاء القدرة خاصة، يقال: مكنه تمكينًا.

ج. دره السحاب: صَبَّهُ، سحاب مدرار: كثير المطر، ودِيَمة مدرار إذا كان غزيرًا دارًا، والمفعال للمبالغة، ولا يؤنث، يقال: دَرَّتْ السماءُ: إذا أمطرت، ومنه: دَرَّ الضرع: إذا امتلأ لبنًا، والدَّرُّ: اللبن، ولله دره: أي عمله، وفي الذم: لا دَرَّ دَرُّهُ؛ أي لا كثر خيره.

د. الإنشاء: الإيجاد من غير سبب، ومنه: أنشأ الله الخلق، ونشأ السحاب وأنشأه الله.

٢. حذرهم الله تعالى ما نزل بالأمم، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾:

أ. أي ألم يعلموا، وكانت العرب قد علمت أخبار الأمم الهالكة إما بتواتر أو رؤية.

ب. وقيل: معناه ألم تنظروا آثارهم!؟ وكانوا يرون في أسفارهم ديار لوط وثمود، كقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ وكان فيهم من رأى حديث الفيل، وفيهم من سمع.

---

(١) التهذيب في التفسير: ٤٨٨/٣.

٣. ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾:

أ. أمم عاصية.

ب. وقيل: جماعة من الناس، وجمعه: قرون.

٤. ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ أعطيناهم من التمكن في الأرض بالمال والأتباع ﴿مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾:

أ. ما لم نعطكم يا أهل مكة.

ب. وقيل: بسطنا وأعطيناهم الأجسام الأولاد كعاد وثمود، عن ابن عباس.

٥. ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾:

أ. قيل: السماء المطر.

ب. وقيل: معناه من السماء عليهم المطر.

٦. ﴿مِدْرَارًا﴾ أي صبًّا كثيرًا ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ﴾ يعني ماء الأنهار ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي لم تغن عنهم شيئًا من ذلك لما طغوا، وأهلكهم الله ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ خلقنا من بعد هلاكهم ﴿قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أي جماعة آخرين.

٧. سؤال وإشكال: كيف قال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ثم قال: ﴿مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾؟ والجواب:

أ. ذلك للتوسيع في الكلام مع صحة المعنى، ومثل هذا التصرف ممدوح عند العرب كقوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ بعد قوله: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾

ب. وقيل: لأنه دخل معهم غيرهم من جميع الحاضرين، فمرة يخاطب الحاضر، ومرة يخاطب الغائب.

٨. تدل الآية الكريمة على:

أ. وجوب التدبر والتفكر؛ لأن قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ حث على ذلك.

ب. أن المعارف مكتسبة؛ لذلك أمر بالتدبر.

ج. التحذير من الاغترار بالدنيا والاعتبار بمن كان من قبل فمن هو أكثر أموالاً وأطول أعمارًا، فلم يغن عنهم ذلك شيئًا، ولم ينتفعوا بما جمعوا، لما كفروا وضلوا، وتحذيرًا عن مثل حالهم.

د. أن الذنوب فِعْلُهم، وليست بخلق الله.

٩. العامل في قوله: ﴿كَمْ﴾ قوله: ﴿أَهْلَكْنَا﴾، ولا يجوز أن يعمل فيه ﴿يَرَوْا﴾؛ لأن الاستفهام يعمل فيه ما بعده، ولا يعمل فيه ما قبله من أجل أن له صدر الكلام؛ لأنه ينقل ما دخل عليه من الخبر إلى الاستخبار، فصار بمنزلة ما لا ينصرف من عامل الإعراب.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

أ. القرن: أهل كل عصر، مأخوذ من إقرانهم في العصر، قال الزجاج: والقرن ثمانون سنة، وقيل: سبعون سنة، قال: والذي يقع عندي أن القرن أهل كل مدة كان فيها نبي، أو كان فيها طبقة من أهل العلم، قلت السنون أو كثرت، والدليل عليه قول النبي ﷺ: (خيركم قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)

ب. التمكين: إعطاء ما به يصح الفعل كائنا ما كان من آلة وغيرها والإقدار: إعطاء القدرة خاصة.

ج. ﴿مِدْرَارًا﴾ مفعال من أسماء المبالغة يقال: ديمة مدرار إذا كان مطرها غزيرا دارا، وهذا كقولهم امرأة مذكار إذا كانت كثيرة الولادة للذكور، وكذلك مئناث في الإناث، وأصل المدرار: من در اللبن إذا أقبل على الحالب منه شيء كثير، ودرت السماء إذا أمطرت، والدر: اللبن، ويقال: لله دره أي: عمله، وفي الذم: لا در دره أي: لا كثر خيره.

١. حذرهم سبحانه ما نزل بالأمم قبلهم، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: ألم يعلم هؤلاء الكفار ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي: من أمة، وكل طبقة، مقترنين في وقت قرن.

٢. ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾:

أ. معناه: جعلناهم ملوكا وأغنياء، كأنه سبحانه أخبر النبي عنهم في صدر الكلام، ثم خاطبه معهم.

ب. وقال ابن عباس: يريد أعطيناهم ما لم نعطكم، والمعنى: وسعنا عليهم في كثرة العبيد، والأموال، والولاية، والبسطة، وطول العمر، ونفاذ الأمر، وأنتم تسمعون أخبارهم، وترون ديارهم،

(١) تفسير الطبرسي: ٤/٨.

وآثارهم.

٣. ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ قال ابن عباس: يريد به الغيث، والبركة، ﴿وَالسَّمَاءِ﴾ معناه: المطر هنا، ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ﴾ أي: ماء الأنهار ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ ولم يغن ذلك عنهم شيئا لما طغوا، واجترؤوا علينا ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أي: خلقنا من بعد هلاكهم جماعة أخرى.

٤. في هذه الآية دلالة على وجوب التفكر والتدبر، واحتجاج على منكري البعث بأن من أهلك من قبلهم، وأنشأ قوما آخرين، قادر على أن يفني العالم، وينشئ عالما آخر، ويعيد الخلق بعد الإفناء.

٥. مسائل لغوية ونحوية:

أ. ﴿كَمْ﴾ نصب (بأهلكنا) لا بقوله: ﴿يَرَوْا﴾ لأن الاستفهام له صدر الكلام، فلا يعمل فيه ما قبله، وهو تعليق، ومعنى التعليق أن الاستفهام أبطل عمل ﴿يَرَى﴾ في اللفظ، وقد عمل في معناه.

ب. انتقل من الخبر إلى الخطاب في قوله: ﴿مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ اتساعا في الكلام، وقد قال: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، وإنما لم يقل: ما لم نمكنكم، لأن العرب تقول: مكنته، ومكنت له، كما تقول نصحته، ونصحت له.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ القرن: اسم أهل كلّ عصر، وسمّوا بذلك، لاقترانهم في الوجود: وللمفسّرين في المراد بالقرن سبعة أقوال:

أ. أحدها: أنّه أربعون سنة، ذكره ابن سيرين عن النّبيّ ﷺ.

ب. الثاني: ثمانون سنة، رواه أبو صالح عن ابن عبّاس.

ج. الثالث: مائة سنة، قاله عبد الله بن بسر المازنيّ وأبو سلمة بن عبد الرحمن.

د. الرابع: مائة وعشرون سنة، قاله زرارة بن أوفى، وإياس بن معاوية.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/١٠.

هـ. الخامس: عشرون سنة، حكاه الحسن البصري.

و. السادس: سبعون سنة، ذكره الفرّاء.

ز. السابع: أنّ القرن: أهل كلّ مدّة كان فيها نبيّ، أو طبقة من العلماء، قلّت السّنون، أو كثرت؛ بدليل قوله ﷺ: (خيركم قرني) يعني: أصحابي (ثمّ الذين يلونهم) يعني: التّابعين (ثمّ الذين يلونهم) يعني: الذين أخذوا عن التّابعين، فالقرن: مقدار التوسّط في أعمار أهل الزّمان؛ فهو في كلّ قوم على مقدار أعمالهم.

٢. واشتقاق القرن: من الاقتران، وفي معنى ذلك الاقتران قولان:

أ. أحدهما: أنّه سمّي قرنا، لأنّه المقدار الذي هو أكثر ما يقترن فيه أهل ذلك الزّمان في بقائهم، هذا اختيار الزّجّاج.

ب. الثاني: أنّه سمّي قرنا، لأنّه يقرن زمانا بزمان، وأمّة بأمّة، قاله ابن الأنباريّ، وحكى ابن قتيبة عن أبي عبيدة قال: يرون أنّ أقلّ ما بين القرنين: ثلاثون سنة.

٣. ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ قال ابن عبّاس: أعطيناهم ما لم نعطكم، يقال: مكّنته ومكّنت له: إذا أقدرته على الشّيء بإعطاء ما يصحّ به الفعل من العدة، وفي هذه الآية رجوع من الخبر إلى الخطاب.

٤. فأمّا السّماء: فالمراد بها المطر، ومعنى ﴿وَأَرْسَلْنَا﴾: أنزلنا.

٥. (المدرار): مفعال، من درّ يدرّ؛ والمعنى: نرسلها كثيرة الدّرّ، ومفعال: من أسماء المبالغة، كقولهم: امرأة مذكار: إذا كانت كثيرة الولادة للذّكور، وكذلك مئناث، سؤال وإشكال: السّماء مؤنّثة، فلم ذكّر مدرارا!؟والجواب: أن حكم ما انعدل من النعوت عن منهاج الفعل وبنائه، أن يلزم التّذكير في كلّ حال، سواء كان وصفا لمذكّر أو مؤنّث؛ كقولهم: امرأة مذكار، ومعطار؛ وامرأة مذكّر، ومؤنث: وهي كفور، وشكور، بنيت هذه الأوصاف على الفعل، لقيل: كافرة، وشاكرة، ومذكرة؛ فلمّا عدل عن بناء الفعل، جرى مجرى ما يستغني بقيام معنى التأنيث فيه عن العلامة؛ كقولهم: النّعل لبستها، والفأس كسرتها، وكأنّ إيثارهم التّذكير للفرق بين المبنيّ على الفعل، والمعدول عن مثل الأفاعيل، والمراد بالمدرار: المبالغة في اتصال المطر ودوامه؛ يعنى: أنّها تدرّ وقت الحاجة إليها؛ لا أنّها تدوم ليلا ونهارا، فتفسد، ذكره ابن الأنباريّ.

الرّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. لما منعهم الله تعالى عن ذلك الإعراض والتكذيب والاستهزاء بالتهديد والوعيد أتبعه بما يجري مجرى الموعظة والنصيحة في هذا الباب فوعظهم بسائر القرون الماضية، كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم شعيب وفرعون وغيرهم.

٢. القرن: قال الواحدي: القرن القوم المقترنون في زمان من الدهر فالمدة التي يجتمع فيها قوم ثم يفترقون بالموت فهي قرن، لأن الذين يأتون بعدهم أقوام آخرون اقترنوا فهم قرن آخر، والدليل عليه قوله ﷺ: (خير القرون قرني)، واشتقاقه من الأقران، ولما كان أعمار الناس في الأكثر الستين والسبعين والثمانين لا جرم قال بعضهم: القرن هو الستون، وقال آخرون: هو السبعون، وقال قوم هو الثمانون والأقرب أنه غير مقدر بزمان معين لا يقع فيه زيادة ولا نقصان، بل المراد أهل كل عصر فإذا انقضى منهم الأكثر قيل قد انقضى القرن.

٣. وصف الله تعالى القرون الماضية بثلاثة أنواع من الصفات:

أ. الأولى: قوله: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ قال صاحب (الكشاف): مكن له في الأرض جعل له مكانا ونحوه في أرض له ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٨٤] ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ﴾ [القصص: ٥٧] وأما مكنته في الأرض، فمعناه أثبته فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦] ولتقارب المعنيين جمع الله بينهما في قوله: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ والمعنى لم نعط أهل مكة مثل ما أعطينا عادا وثمود وغيرهم من البسطة في الأجسام والسعة في الأموال والاستظهار بأسباب الدنيا.

ب. الثانية: قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ يريد الغيث والمطر، فالسماء معناه المطر هاهنا، والمدرار الكثير الدر وأصله من قولهم در اللبن إذا أقبل على الحالب منه شيء كثير فالمدرار يصلح أن يكون من نعت السحاب، ويجوز أن يكون من نعت المطر يقال سحاب مدرار إذا تتابع أمطاره، ومفعال يجيء في نعت يراد المبالغة فيه، قال مقاتل ﴿مِدْرَارًا﴾ متتابعا مرة بعد أخرى ويستوي في المدرار المذكر والمؤنث.

---

(١) التفسير الكبير: ١٢/٤٨٥.

ج. الثالثة: قوله: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ والمراد منه كثرة البساتين.

٤. المقصود من هذه الأوصاف أنهم وجدوا من منافع الدنيا أكثر مما وجده أهل مكة، ثم بيّن تعالى أنهم مع مزيد العز في الدنيا بهذه الوجوه ومع كثرة العدد والبسطة في المال والجسم جرى عليهم عند الكفر ما سمعتم وهذا المعنى يوجب الاعتبار والانتباه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة.

٥. سؤال وإشكال: ليس في هذا الكلام إلا أنهم هلكوا إلا أن هذا الهلاك غير مختص بهم بل الأنبياء والمؤمنون كلهم أيضا قد هلكوا فكيف يحسن إيراد هذا الكلام في معرض الزجر عن الكفر مع أنه مشترك فيه بين الكافر وبين غيره، والجواب: ليس المقصود منه الزجر بمجرد الموت والهلاك، بل المقصود أنهم باعوا الدين بالدنيا ففاتهم وبقوا في العذاب الشديد بسبب الحرمان عن الدين، وهذا المعنى غير مشترك فيه بين الكافر والمؤمن.

٦. سؤال وإشكال: كيف قال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ مع أن القوم ما كانوا مقرين بصدق محمد ﷺ فيما يخبر عنه وهم أيضا ما شاهدوا وقائع الأمم السالفة، والجواب: أن أقاصيص المتقدمين مشهورة بين الخلق فيبعد أن يقال إنهم ما سمعوا هذه الحكايات ولمجرد سماعها يكفي في الاعتبار.

٧. سؤال وإشكال: ما الفائدة في ذكر إنشاء قرن آخرين بعدهم؟ والجواب: الفائدة هي التنبيه على أنه تعالى لا يتعاظمه أن يهلكهم ويخلي بلادهم منهم، فإنه قادر على أن ينشئ مكانهم قوما آخرين يعمر بهم بلادهم كقوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١٥]

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿كَمْ﴾ في موضع نصب بأهلكنا لا بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ لأن لفظ الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، وإنما يعمل فيه ما بعده من أجل أن له صدر الكلام، والمعنى: إلا يعتبرون بمن أهلكنا من الأمم قبلهم لتكذيبهم أنبياءهم أي ألم يعرفوا ذلك.

٢. والقرن الأمة من الناس، والجمع القرون، قال الشاعر:

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/٣٩١.

إذا ذهب القرن الذي كنت فيهم   وخلفت في قرن فأنت غريب

فالقرن كل عالم في عصره مأخوذ من الاقتران أي عالم مقترن به بعضهم إلى بعض، وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: (خير الناس قرني - يعني أصحابي - ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) هذا أصح ما قيل فيه، وقيل: المعنى من أهل قرن فحذف كقوله: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف]، فالقرن على هذا مدة من الزمان، قيل: ستون عاما وقيل: سبعون، وقيل: ثمانون، وقيل: مائة، وعليه أكثر أصحاب الحديث أن القرن مائة سنة، واحتجوا بأن النبي ﷺ قال لعبد الله بن بسر: (تعيش قرنا) فعاش مائة سنة، ذكره النحاس، وأصل القرن الشيء الطالع كقرن ماله قرن من الحيوان.

٣. ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ خروج من الغيبة إلى الخطاب، عكسه ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس]، وقال أهل البصرة، أخبر عنهم بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ وفيهم محمد ﷺ وأصحابه، ثم خاطبهم معهم، والعرب تقول: قلت لعبد الله ما أكرمه، وقلت لعبد الله ما أكرمك، ولو جاء على ما تقدم من الغيبة لقال: ما لم نمكن لهم، ويجوز مكنه ومكن له، فجاء باللغتين جميعا، أي أعطيناهم ما لم نعطكم من الدنيا.

٤. ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ يريد المطر الكثير، عبر عنه بالسماء لأنه من السماء ينزل، ومنه قول الشاعر: (إذا سقط السماء بأرض قوم) و﴿مِدْرَارًا﴾ بناء دال على التكثير، كمذكار للمرأة التي كثرت ولادتها للذكور، ومئناث للمرأة التي تلد الإناث، يقال: در اللبن يدر إذا أقبل على الحالب بكثرة، وانتصب ﴿مِدْرَارًا﴾ على الحال، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم أي من تحت أشجارهم ومنازلهم، ومنه قول فرعون ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف] والمعنى: وسعنا عليهم النعم فكفروها.

٥. ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي بكفرهم فالذنوب سبب الانتقام وزوال النعم، ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أي أوجدنا، فليحذر هؤلاء من الإهلاك أيضا.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

---

(١) فتح القدير: ١١٦/٢.

١. ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ كلام مبتدأ لبيان ما تقدّمه، والهمزة للإنكار، و﴿كَمْ﴾ يحتمل أن تكون الاستفهامية وأن تكون الخبرية وهي معلقة لفعل الرؤية عن العمل فيما بعده.

٢. ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ تمييز، والقرن يطلق على أهل كلّ عصر، سموا بذلك لاقترانهم، أي ألم يعرفوا بسماع الأخبار ومعاينة الآثار كم أهلكنا من قبلهم من الأمم الموجودة في عصر بعد عصر لتكذيبهم أنبياءهم، وقيل: القرن مدّة من الزمان، وهي ستون عاما أو سبعون أو ثمانون أو مائة على اختلاف الأقوال، فيكون ما في الآية على تقدير مضاف محذوف: أي من أهل قرن.

٣. ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ مكن له في الأرض: جعل له مكانا فيها، ومكنه في الأرض: أثبته فيها، والجملة مستأنفة، جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل: كيف ذلك؟ وقيل: إن هذه الجملة صفة لقرن، والأول أولى.

٤. ﴿مَا﴾ في ﴿مَا لَمْ نُمَكِّنْ﴾ نكرة موصوفة بما بعدها؛ أي مكنّاهم تمكينا لم نمكّنه لكم، والمعنى: أنا أعطينا القرون الذين هم قبلكم ما لم نعطكم من الدنيا وطول الأعمار وقوّة الأبدان وقد أهلكناهم جميعا، فإهلاككم ـ وأنتم دونهم ـ بالأولى.

٥. ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ يريد المطر الكثير، عبر عنه بالسماء، لأنه ينزل من السماء، ومنه قول الشاعر: (إذا نزل السّماء بأرض قوم)، والمدرار: صيغة مبالغة تدلّ على الكثرة كمذكار للمرأة التي كثرت ولادتها للذكور، ومیناث للتي تلد الإناث، يقال درّ اللبن يدرّ: إذا أقبل على الحالب بكثرة، وانتصاب ﴿مِدْرَارًا﴾ على الحال.

٦. وجريان الأنهار من تحتهم معناه من تحت أشجارهم ومنازلهم: أي أن الله وسّع عليهم النعم بعد التمكين لهم في الأرض فكفروها، فأهلكهم الله بذنوبهم.

٧. ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد إهلاكهم ﴿قَرْنًا آخَرِينَ﴾ فصاروا بدلا من الهالكين، وفي هذا بيان لكمال قدرته سبحانه وقوّة سلطانه وأنه يهلك من يشاء ويوجد من يشاء.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ﴾ أي: أهل مكَّة في سفرهم إلى اليمن شتاءً وإلى الشام صيفًا، وإلى غيرهما للتجارة أو غيرها، ﴿كَمَ اَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ إلخ فإنه إهلاك في الدُّنيا، إلا أنَّه مستتبع بعذاب الآخرة، وللانتقام لدين الله تعالى ، و(كَمْ) خبريَّة للتكثير، مفعول لـ (أَهْلَكْنَا)، والجملة مفعول للرؤية البصريَّة علَّقَتها (كم)؛ لأن معنى التعليق التعطيل عن نصب مفرد أو مفردين أو مفرد وجملة، سواء دخل المعلَّق على جملة اِسْمِيَّة أو فعليَّة.

٢. والقرن: أهل عصر فيهم نبيء أو فائق في العلم ولو قَلَّت المدَّة، كما قال الزجَّاج، ويحتاج لدليل؛ سُمُّوا لاقترانهم مدَّة من الزمان، أو المقدار الأوسط من أعمار كُلِّ أهل عصر، أو ثمانون سنة، أو سبعون، أو ستُّون، أو أربعون، أو ثلاثون، أو تسعون، أو عشرون، أو خمسون، أو عشرة، أو ثمانية وعشرون، أو مائة وعشرون، أو مائة لقوله ﷺ لصحابِيٍّ: (تعيش قرنًا) فعاش مائة، أو القرن تلك الأزمنة، فيُقَدَّرُ مضاف، أي: أهل قرن، ولفظ القرن مِن قَرَنَ الشَّيءَ بالشَّيءِ، والصحابيُّ الذي قال له: (تعيش قرنًا) فعاش مائة هو عبد الله بن بشر المازني.

٣. ويجوز أن تكون الرؤية علميَّة فإنَّهم عارفون ذلك، برؤية الآثار وبسماع الأخبار، والمراد: من قبل زمانهم أو من قبل خلقهم، كقوم نوح وعاد وثمود، وقوم لوط وقوم شعيب وفرعون وغيرهم.

٤. وكأنَّه قيل: ما حالهم؟ فقال تعالى: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الاَرْضِ﴾ كعاد وثمود ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ أو الجملة نعت، والمراد: ما لم نمكن لكم يا أهل مكَّة من طول العمر، وعظم الجسم، وَالقُوَّة، وسعة الرزق، والكثرة، و(مَا) واقعة على التمكين، فهي مفعول مطلق موصول، أو نكرة موصوفة، وليس المراد أنَّها نعت لمحذوف، فضلاً عن أن يقال: إنَّه لا ينعت بـ (مَا)، بل معناها: التمكين الذي لم نمكِّنه، أو تمكينا لم نمكِّنه.. ولا يجوز أن تكون نعتًا لمصدر محذوف، أي: تمكينًا مَّا.. ويجوز أن يكون مفعولاً ثانيًا لـ (مَكَّنَّا) لتضمُّنه معنى أعطينا، ومكَّن يتعدَّى بنفسه تارة وبالحرف أخرى، كنصحته ونصحت له، وذكر أبو عبيدة اللغويُّ أنَّها لغتان، قيل: واللام أكثر، ومكَّناه في كذا: أثبتناه فيه، ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ١٩٧/٤.

[الأحقاف: ٢٦]، و(مكّنا له): جعلنا له مكانًا، ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الَارْضِ﴾ [الكهف: ٨٤]، ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا امِنًا﴾ [القصص: ٥٧]، أي: نجعلْ لهم حرمًا آمنا مكانا.

٥. و(لَكُمْ) خطاب التفت الكلام إليه عن الغيبة في (يَرَوْا) و(مِن قَبْلِهِمْ)، وإنما قلت: الخطاب لأهل مكّة لِمَا فيه من الارتباط لِمَا قبله، ولو جاز كونه لجميع الناس، وأبعد من هذا كونه للمؤمنين.

٦. ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَآءَ﴾ المطر، كما روي عن ابن عبَّاس، وكلُّ ما علاك فهو سماء، أو السحاب فإنه علاك، أي: أرسلنا ماء السحاب؛ أو السماء الدُّنيا، أي: أرسلنا ماء السماء الدُّنيا، ﴿عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ وجه إرسال السحاب أو السماء الدُّنيا مدرارًا إرسال مائها، على حذف مضاف كما رأيت، أو كأنَّها أرسلت هي لأن إرسال المطر منها، والله قادر أن يبلغ الماء من السماء الدُّنيا في أقلّ من لحظة، أو جعله الله مستمرَّ النزول في الأزمنة المتطاولة إلى مواقعه.

٧. و(مِدْرَارًا) متتابع أو كثير، مأخوذ من درَّت الناقة ـ مثلاً ـ: تتابع لبنها للحالب لكثرته، حالٌ من (السَّمَاءَ)، وذُكِّرَ، ولو جعلنا السماء بمعنى السماء الدُّنيا أو السحاب مع أنَّهما مؤنَّثان، لأن مفعالاً وفعُولاً وفِعالاً في المبالغة يستوي فِيهِنَّ المذكَّر والمؤنَّث، وتفسير السماء بالسحاب أو المطر أولى لشمول الماء النازل من السماء الدُّنيا والمنعقد من البحار والعيون والبخار.

٨. ﴿وَجَعَلْنَا الَانْهَارَ﴾ صيَّرناها أو أوجدناها، ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ قيل: (مِنْ) في مثل هذا زائدة في الإثبات والتعريف، وقيل: بمعنى (في)، ويجوز أن تكون ابتدائيَّة، فإنَّها ولو جرت متطاولة إلا أنَّ كلَّ مَسْكَنٍ مبدأ لما بعده، والمعنى: مِن تحتِ مساكنهم، أو تحتَ أبدانهم، فإن الماء الجاري يعلوه القائم والقاعد، ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ استأصلناهم، والفاء للتعقيب، أو عاطفة على محذوف، أي: كفروا فأهلكناهم، بلا فاء في المقدَّر، أو بها، ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بسبب ذنوبهم من شرك ومعاصيهم، ولم يمنعهم ثمار شجرهم وحَبُّ حرثهم الكثير العظيم المتولِّد من الأنهار والمطر، ولا كثرة عددهم، ولا قوَّة أجسامهم وآلاتهم، فخافوا يا أهل مكّة أن ينزل بكم الإهلاك كما نزل بهم، وقد كفرتم كما كفروا بتكذيب الأنبياء والكتب، وسائر معاصيهم، وهذا محطُّ قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ إلخ.

٩. ﴿وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ﴾ بعد إهلاكهم ﴿قَرْنًا اخَرِينَ﴾ بدَلَهم يعمرون البلاد، وهذا بيان لكمال قدرته، فلا ينقص إهلاكه تلك القرون من ملكه شيئًا، بل كلَّما أهلك أمَّة أحدث بعدها أخرى، فخافوا يا

أهل مكَّة أن يبدِّلكم بغيركم، والجمهور على أنَّ القرن مائة سنة للحديث المذكور، والقول بأنه مائة وعشرون هو قول إيَّاس بن معاوية بن زرارة بن أبي أوفى، والقول بالثمانين لابن عبَّاس رواه عنه تلميذه صالح، والقول بالسبعين للفرَّاء، وَاحتَجَّ القائل بالسبعين بقوله ﷺ : (معترك المنايا ما بين الستِّين إلى السبعين)، ورفع ابن سيرين إلى النبيء ﷺ : (إنَّ القرن أربعون)، وعن أبي عبيدة أنَّهم يرون ما بين القرنين ثلاثون سنة، والقول بالعشرين قول الحسن البصري، واستحسن بعضٌ أنَّ القرن المقدار الوسط من أعمار أهل ذلك الزمان لأنَّهم يعيشون أربع مائة وألفا وأقلَّ وأكثر، واختاروا أنَّ القرن حقيقة في الناس لغلبة إطلاقه عليهم، لا على الزمان، وقيل: هو حقيقة في الزمان، وقيل: مشترك حقيقة فيهما، والمجاز أولى من الاشتراك.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: ألم يعلموا علما يشبه الرؤية بالبصر، لما سمعوا بالتواتر من إتيان المستهزئين قبلهم، أنباءهم مرارا كثيرة ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي من أمة، فلم نبق منها أحدا، مثل قوم نوح وعاد وثمود، وغيرهم من الأمم الماضية، والقرون الخالية.

٢. ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: قررناهم وثبتناهم في الأرض، ﴿مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ أي: ما لم نجعل لكم من السعة والرفاهية وطول الأعمار، يا أهل مكة!

٣. ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ﴾ أي المطر، قال المهايمي: هو أبلغ من أنزلنا في الدلالة على الكثرة، ﴿عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ أي كثيرا، ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ أي من تحت أشجارهم، فعاشوا في الخصب بين الأنهار والثمار، وسقيا الغيث المدرار.

٤. ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بسبب ذنوبهم وكفرهم، وتكذيبهم رسلهم، وجعلناهم أحاديث، فما أغنى عنهم ما كانوا فيه، أي وسيحل بهؤلاء مثل ما حل بهم من العذاب، ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أي: بدلا من الهالكين، يعني: فلا يتعاظمه تعالى أن يهلك هؤلاء، ويخلي ديارهم منهم، وينشئ

---

(١) تفسير القاسمي: ٣١٧/٤.

أمة سواهم، فما هم بأعزّ على الله منهم، والرسول الذي كذبوه أكرم على الله من رسلهم، فهم أولى بالعذاب، ومفاجأة العقوبة، لولا لطفه وإحسانه.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ الرؤية هنا علمية، و(القرن) من الناس القوم المقترنون في زمن واحد، جمعه قرون، وقد استعمل في القرآن بهذا المعنى مفردا وجمعا، واختلف في الزمن المحدد بقرن فأوسط الأقوال إنه سبعون أو ثمانون سنة، وقيل مئة أو أكثر وقيل ستون أو أربعون، والمعقول أنه مقدار متوسط أعمار الناس في كل زمان، وذهب بعضهم إلى تحديد القرن بالحالة الاجتماعية التي يكون عليها القوم، فقال الزجاج: إنه عبارة عن أهل عصر فيهم نبي أو فائق في العلم، أي أو ملك من الملوك، وهذا أقرب إلى استعمال القرآن، فالظاهر أن قوم نوح قرن وإن امتد زمنه بهم زهاء ألف سنة، وقوم عاد قرن وقوم صالح قرن، ويطلق القرن على الزمن نفسه والمشهور في عرف الكتاب اليوم أن القرن مئة سنة.

٢. و(التمكن) يستعمل باللام في، يقال: مكن له في الأرض ـ جعل له مكانا فيها، ونحوه أرض له، ومنه إنا مكنا له في الأرض وقال: مكنه في الأرض ـ أي أثبته فيها ومنه ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦] كذا في الكشاف قال ولتقارب المعنيين جمع بينهما في هذه الآية، وقيل إن مكنه ومكن له كوهبه ووهب له، وقال أبو علي اللام زائدة كردف وسيأتي تحقيق معنى الاستعمالين.

٣. والسماء المطر، والمدرار المغزار فهو صيغة مبالغة من در، وهو مصدر در اللبن درا، أي كثر وغزر، ويسمى اللبن الحليب درا كالمصدر، والإرسال والإنزال متقربان في المعنى لأن اشتقاق الإرسال من رسل اللبن وما ينزل من الضرع متتابعا، وقال الراغب: أصل الرسل الانبعاث على التؤدة يقال ناقة رسلة سهلة السير، وإبل مراسيل ـ منبعثة انبعاثا سهلا، ومنه رسول المنبعث، ثم ذكر أن الإرسال يكون ببعث من له اختيار كإرسال الرسل، بالتسخير كإرسال الريح والمطر، وبترك المنع نحو قوله: ﴿أَرْسَلْنَا

(١) تفسير المنار: ٧/٢٥٥.

الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [مريم: ٨٣] ويستعمل فيما يقابل الإمساك نحو ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢] والكلام استئناف لبيان ما توعدهم به، وكونه مما سبقت به سنته في المكذبين من أقوام الأنبياء.

٤. والمعنى ألم يعلم هؤلاء الكفار المكذبون بالحق كم أهلكنا من قبلهم من قوم أعطيناهم من التمكين والاستقلال في الأرض وأسباب التصرف فيها ما لم نعطهم هم مثله، ثم لم تكن تلك المواهب والنعم بمانعة لهم من عذابنا لما استحقوه بذنوبهم ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القلم: ٤٣]؟ لا هذا ولا ذاك، إما الإيمان وإما الهلاك ـ وكان الظاهر أن يقال: مكناهم في الأرض ـ أي القرون ـ ما لم نمكنهم ـ أي الكفار المحكي عنهم المستفهم عن حالهم، فعدل عن ذلك بالالتفات عن الغيبة إلى الخطاب لما في إيراد الفعلين بضميري الغيبة من إيهام اتحاد مرجعهما وكون المثبت عين المنفي، فقيل ما لم نمكن لكم: وإنما لم يقل: (ما لم نمكنكم) أو (ومكنا لهم ما لم نمكن لكم) ـ وهو مقتضى المطابقة ـ لنكتة دقيقة لا يدركها لا من فقه الفرق بين مكنه ومكن له وقد غفل عنه جماهير أهل اللغة والتفسير، والتحقيق أن معنى مكنه في الأرض أو في الشيء ـ جعله متمكنا من التصرف تام الاستقلال فيه، وأما مكن له فقد استعمل في القرآن مع التصريح بالمفعول به ومع حذفه، فالأول كقوله تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ [النور: ٥٥]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ [القصص: ٥٧]، والثاني قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١]، وقوله في ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤] فلا بد في مثل هذا من تقدير المفعول المحذوف مع مراعاة ما يناسب ذلك من نكت الحذف ككون المفعول في هاتين الآيتين عاما يتناول كل ما يصلح للمقام، كان يقال مكنا ليوسف ولذي القرنين في الأرض جميع أسباب الاستقلال في التصرف.

٥. إذا فقهت هذا فاعلم أن في هذه الآية احتباكا تقديره (مكناهم في الأرض ما لم نمكنكم، ومكنا لهم ما لم نمكن لكم) ومعنى الأول أنهم كانوا أشد منكم قوة وتمكنا في أرضهم، فلم يكن يوجد حولهم من يضارعهم في قوتهم، ويقدر على سلب استقلالهم، ومعنى الثاني أننا أعطيناهم من أسباب التمكن في الأرض وضروب التصرف وأنواع النعم ما لم نعطكم، فحذف من كل من المتقابلين ما أثبت نظيره في الآخر، وهذا من أعلى فنون الإيجاز، الذي وصل في القرآن إلى أوج الإعجاز، ويصدق كل من المتمكنين

على قوم عاد وثمود وقوم فرعون وغيرهم كما يعلم من قصص الرسل في القرآن ومن التاريخ العام.

٦. ثم عطف على هذا ما امتازت به تلك القرون على كفار قريش من النعم الإلهية الخاصة بمواقع بلادهم من الأرض فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ إرسال السماء عبارة عن إنزال المطر، والمدرار الغزير كما تقدم ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ أي وسخرنا لهم الأنهار ـ وهي مجاري المياه الفائضة ـ وهديناهم إلى الاستمتاع بها بجعلها تجري دائما من تحت مساكنهم التي يبنونها على ضفافها، أو في الجنات والحدائق التي تتفجر خلالها، فيتمتعون بالنظر إلى جمالها، وبسائر ضروب الانتفاع من أموالها.

٧. ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أي فكان عاقبة أمرهم لما كفروا بتلك النعم وكذبوا الرسل أن أهلكنا كل قرن منهم بسبب ذنوبهم التي كانوا يقترفونها، وأنشأنا أي أوجدنا من بعد الهالكين من كل منهم قرنا آخرين يعمرون البلاد ويكونون أجدر بشكر نعم الله عليهم فيها، والذنوب التي يهلك الله بها القرون ويعذب بها الأمم قسمان:

أ. أحدهما: معاندة الرسل والكفر بما جاءوا به.

ب. ثانيهما: كفر النعم بالبطر والأشر وغمط الحق واحتقار الناس وظلم الضعفاء، ومحاباة الأقوياء، والإسراف في الفسق والفجور، والغرور بالغنى والثروة، فهذا كله من الكفر بنعم الله واستعمالها في غير ما يرضيه من نفع الناس والعدل العام.

٨. والآيات الناطقة بتلك الذنوب مجتمعة ومتفرقة كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٨ ـ ٥٩] ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]، ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦] والعذاب الذي يعذب الله به الأمم ويهلك القرون ويديل الدول قسمان أيضا: الجوائح والاستئصال، وفقد الاستقلال، وقد بينا هذا وذاك في مواضع من هذا التفسير.

٩. وفي هذه الآية رد على كفار مكة وهدم لغرورهم بقوتهم وثروتهم بإزاء ضعف عصبية النبي ﷺ وفقره، وقد حكى الله تعالى عنهم ذلك بقوله: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]

١٠. أما القوم أو القرن الآخرون الذين يخلفون من نزل بهم عذاب الله تعالى فهم لا بد أن يكونوا مخالفين لهم في صفاتهم، وإن كانوا من جبلتهم وأبناء جيلهم، فالشعوب التي نكبت بالحرب المشتعلة الآن في أوروبة لا بد أن يخلف الهالكين فيها خلف يتركون كثيرا مما كانت عليه من الكفر بالله وكفر نعمه ويكونون أقل منهم بطرا وقسوة وانغماسا في الترف والسرف وما ينشأ عنهما من الفسق والفجور، قال تعالى في آخر سورة القتال: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بعد أن توعدهم سبحانه بنزول العذاب بهم بيّن أن هذا مما جرت به سنته في المكذبين قبلهم فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ أي ألم يعلم هؤلاء الكفار المكذبون بالحق أنا أهلكنا كثيرا من الأقوام الذين كذبوا الرسل قبلهم بعد أن أعطيناهم من التمكين والاستقلال في الأرض وأسباب التصرف فيها ما لم نعطهم مثله، ثم لم تكن تلك النعم بمانعة لهم من عذابنا لما استحقوه بذنوبهم وعتوهم واستكبارهم.

٢. وذكر بعد هذا ما امتازت به تلك القرون عن كفار قريش من النعم الإلهية التي اقتضتها طبيعة بلادهم وخصب تربتها فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ الإرسال تارة يكون ببعث من له اختيار كإرسال الرسل، وتارة بالتسخير كإرسال الريح والمطر، وتارة بترك المنع نحو﴿أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي وسخرنا لهم الأمطار الغزيرة التي تكوّن الأنهار المترعة بالمياه، وهديناهم إلى الاستمتاع بها بجعلها تجرى دائما تحت مساكنهم التي يبنونها على ضفافها، أو في الجنات والحدائق التي تتفجر خلالها فيتمتعون بالنظر إلى جمالها واستنبات الأشجار والثمار التي يأكلونها،

---

(١) تفسير المراغي ٧/٧٦.

ويولدون النّعم والماشية التي تتغذى من مراعيها.

٣. والخلاصة ـ إنهم أوتوا من البسطة في الأجسام، والامتداد في الأعمال، والسعة في الأموال، والاستمتاع بلذات الدنيا ما لم يؤته أهل مكة، ولكن ذلك لم يغن عنهم شيئا فكفروا بأنعم الله ولم يؤمنوا بما جاءهم به أنبياؤهم، بل كذبوهم فاستحقوا العقاب وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أي فكان عاقبة أمرهم أن أهلكنا كل قرن منهم بسبب ذنوبهم التي كانوا يجترحونها، وأوجدنا من كل منهم قرنا آخر يعمرون البلاد ويكونون أجدر بشكران النعمة، والذنوب التي تدعو إلى الهلاك ضربان:

أ. معاندة الرسل والاستكبار والعتوّ والتكذيب.

ب. كفران النعم بالبطر وغمط الحق وظلم الضعفاء ومحاباة الأقوياء والإسراف في الفسق والفجور والغرور بالغنى والثروة، كما جاء في قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إلا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إلا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾

٤. وفى هذه الآية رد على كفار مكة وهدم لغرورهم بقوتهم وثروتهم بإزاء ضعف أصحاب النبي ﷺ وفقرهم كما حكى الله عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، وهؤلاء القوم الذين يخلفون من نزل بهم عذاب الله لا بد أن يخلفوا عنهم في صفاتهم وإن كانوا من أبناء جنسهم، فالعبر والحوادث واختلاف الزمن لها تأثير كبير في النفوس تخفف من غلواء الناس وتقلل من بطشهم وعتوهم، وفى المشاهدة أكبر دليل على صحة ذلك، انظر إلى ما فعلته الحرب العظمى الثانية في نفوس الشعوب في الشرق والغرب، فإنه قد نشأ بعدها جيل أقل بطرا وانغماسا في الشهوة والترف وما ينشأ عنهما من الفسق والفجور من سابقه، وكذلك في حسن معاملة الناس بعضهم لبعض وحفظ الحقوق والمساواة فيها، ولا يعلم إلا الله ما ستنتهى إليه تلك الحرب الضروس الدائرة رحاها الآن ولا ما ستتمخض عنه من الحوادث الجسام في مستقبل الأمم والشعوب، ولا ما سيكون لها من التأثير في النظم الاجتماعية والاقتصادية والصلات والروابط بين بعض الأمم وبعض.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. في موقف التهديد يلفت أعناقهم وأنظارهم وقلوبهم وأعصابهم إلى مصارع المكذبين من قبلهم ـ وقد كانوا يعرفون بعضها في دور عاد بالأحقاف وثمود بالحجر، وكانت أطلالهم باقية يمر عليها العرب في رحلة الشتاء للجنوب وفي رحلة الصيف للشمال، كما كانوا يمرون بقرى لوط المخسوفة ويعرفون ما يتناقله المحيطون بها من أحاديث ـ فالسياق يلفتهم إلى هذه المصارع وبعضها منهم قريب.

٢. ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ ألم يروا إلى مصارع الأجيال الغابرة، وقد مكنهم الله في الأرض، وأعطاهم من أسباب القوة والسلطان ما لم يعط مثله للمخاطبين من قريش في الجزيرة؛ وأرسل المطر عليهم متتابعا ينشئ في حياتهم الخصب والنماء ويفيض عليهم من الأرزاق.. ثم ماذا ثم عصوا ربهم، فأخذهم الله بذنوبهم، وأنشأ من بعدهم جيلا آخر، ورث الأرض من بعدهم؛ ومضوا هم لا تحفل بهم الأرض! فقد ورثها قوم آخرون!

٣. فما أهون المكذبين المعرضين أصحاب القوة والتمكين من البشر! ما أهونهم على الله؛ وما أهونهم على هذه الأرض أيضا! لقد أهلكوا وغبروا فما أحست هذه الأرض بالخلاء والخواء؛ إنما عمرها جيل آخر؛ ومضت الأرض في دورتها كأن لم يكن هنا سكان؛ ومضت الحياة في حركتها كأن لم يكن هنا أحياء! وهي حقيقة ينساها البشر حين يمكن الله لهم في الأرض، ينسون أن هذا التمكين إنما تم بمشيئة الله، ليبلوهم فيه: أيقومون عليه بعهد الله وشرطه، من العبودية له وحده، والتلقي منه وحده ـ بما أنه هو صاحب الملك وهم مستخلفون فيه ـ أم يجعلون من أنفسهم طواغيت، تدعي حقوق الألوهية وخصائصها؛ ويتصرفون فيما استخلفوا فيه تصرف المالك لا المستخلف.

٤. إنها حقيقة ينساها البشر ـ إلا من عصم الله ـ وعندئذ ينحرفون عن عهد الله وعن شرط الاستخلاف؛ ويمضون على غير سنة الله؛ ولا يتبين لهم في أول الطريق عواقب هذا الانحراف، ويقع الفساد رويدا رويدا وهم ينزلقون ولا يشعرون.. حتى يستوفي الكتاب أجله؛ ويحق وعد الله.. ثم تختلف أشكال النهاية: مرة يأخذهم الله بعذاب الاستئصال ـ بعذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم كما وقع لكثير

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/١٠٣٨.

من الأقوام ـ ومرة يأخذهم بالسنين ونقص الأنفس والثمرات كما حدث كذلك لأقوام ـ ومرة يأخذهم بأن يذيق بعضهم بأس بعض؛ فيعذب بعضهم بعضا، ويدمر بعضهم بعضا، ويؤذي بعضهم بعضا، ولا يعود بعضهم يأمن بعضا؛ فتضعف شوكتهم في النهاية؛ ويسلط الله عليهم عبادا له ـ طائعين أو عصاة ـ يخضدون شوكتهم، ويقتلعونهم مما مكنوا فيه؛ ثم يستخلف الله العباد الجدد ليبتليهم بما مكنهم.

٥. وهكذا تمضي دورة السنة.. السعيد من وعى أنها السنة، ومن وعى أنه الابتلاء؛ فعمل بعهد الله فيما استخلف فيه، والشقي من غفل عن هذه الحقيقة، وظن أنه أوتيها بعلمه، أو أوتيها بحيلته، أو أوتيها جزافا بلا تدبير! وإنه لما يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغي، أو المستهتر الفاسد، أو الملحد الكافر، ممكنا له في الأرض، غير مأخوذ من الله.. ولكن الناس إنما يستعجلون.. إنهم يرون أول الطريق أو وسطه؛ ولا يرون نهاية الطريق..

٦. ونهاية الطريق لا ترى إلا بعد أن تجيء لا ترى إلا في مصارع الغابرين بعد أن يصبحوا أحاديث.. والقرآن الكريم يوجه إلى هذه المصارع ليتنبه المخدوعون الذين لا يرون ـ في حياتهم الفردية القصيرة ـ نهاية الطريق؛ فيخدعهم ما يرون في حياتهم القصيرة ويحسبونه نهاية الطريق!

٧. إن هذا النص في القرآن: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾، وما يماثله، وهو يتكرر كثيرا في القرآن الكريم.. إنما يقرر حقيقة، ويقرر سنة، ويقرر طرفا من التفسير الإسلامي لأحداث التاريخ:

أ. إنه يقرر حقيقة أن الذنوب تهلك أصحابها، وأن الله هو الذي يهلك المذنبين بذنوبهم؛ وأن هذه سنة ماضية ـ ولو لم يرها فرد في عمره القصير، أو جيل في أجله المحدود ـ ولكنها سنة تصير إليها الأمم حين تفشو فيها الذنوب؛ وحين تقوم حياتها على الذنوب.

ب. كذلك هي جانب من التفسير الإسلامي للتاريخ: فإن هلاك الأجيال واستخلاف الأجيال؛ من عوامله، فعل الذنوب في جسم الأمم؛ وتأثيرها في إنشاء حالة تنتهي إلى الدمار؛ إما بقارعة من الله عاجلة ـ كما كان يحدث في التاريخ القديم ـ وإما بالانحلال البطيء الفطري الطبيعي، الذي يسري في كيان الأمم ـ مع الزمن ـ وهي توغل في متاهة الذنوب! وأمامنا في التاريخ القريب ـ نسبيا ـ الشواهد الكافية على فعل الانحلال الأخلاقي، والدعارة الفاشية، واتخاذ المرأة فتنة وزينة، والترف والرخاوة، والتلهي بالنعيم.. أمامنا الشواهد الكافية من فعل هذا كله في انهيار الإغريق والرومان ـ وقد أصبحوا أحاديث ـ

وفي الانهيار الذي تتجلى أوائله، وتلوح نهايته في الأفق في أمم معاصرة، كفرنسا وانجلترا كذلك ـ على الرغم من القوة الظاهرة والثراء العريض.

٨. إن التفسير المادي للتاريخ يحذف هذا الجانب حذفا باتا من تفسيره لأطوار الأمم وأحداث التاريخ، ذلك أن وجهته ابتداء هي استبعاد العنصر الأخلاقي من الحياة، واستبعاد القاعدة الاعتقادية التي يقوم عليها.. ولكن هذا التفسير يضطر إلى مماحكات مضحكة في تفسير أحداث وأطوار في حياة البشرية لا سبيل إلى تفسيرها إلا على أساس القاعدة الاعتقادية، والتفسير الإسلامي ـ بشموله وجديته وصدقه وواقعيته ـ لا يغفل أثر العناصر المادية ـ التي يجعلها التفسير المادي هي كل شيء ـ ولكنه يعطيها مكانها الذي تستحقه في رقعة الحياة العريضة؛ ويبرز العناصر الفعالة الأخرى التي لا ينكرها إلا أصحاب العناد الصفيق لواقعيات الوجود.. يبرز قدر الله من وراء كل شيء ويبرز التغير الداخلي في الضمائر والمشاعر والعقائد والتصورات؛ ويبرز السلوك الواقعي والعنصر الأخلاقي.. ولا يغفل عاملا واحدا من العوامل التي تجري بها سنة الله في الحياة.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. هذه شواهد محسوسة ونذر قائمة بين يدى الناس، يرفعها الله سبحانه وتعالى لهم، بعد أن رفع لعقولهم ومدركاتهم كثيرا من الشواهد والنذر، فلم يبصروها ولم ينتفعوا بها.. فأين تلك الأمم التي كانت أكثر أموالا وأولادا، وأعزّ قوة وسلطانا من أهل مكة، بما ساق الله إليهم من نعم، وما مكّن لهم في الأرض، وما بسط لهم من سلطان عليها، فعمروها أكثر مما عمرها هؤلاء المشركون، ولكنهم حين مكروا بآيات وكفروا بنعمه، لم يكن لهم من أموالهم وأولادهم، وسلطانهم ـ عاصم يعصمهم من نقمة الله، فصبّ عليهم المهلكات، فأصبحوا كهشيم تذروه الرياح..؟

٢. فأين عاد؟ وأين ثمود؟ تلك بيوتهم خاوية بما ظلموا.. يراها المشركون وهم يمرون عليها، في غدوهم ورواحهم مع تجارتهم الغادية الرائحة بين مكة والشام.. وأين سبأ؟ وأين ما كان فيها من جنات

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/١٣٢.

وعيون، ونعمة كانوا فيها فاكهين؟ لقد صارت يبابا خرابا.. يرى المشركون أطلالها في رحلتهم شتاء إلى اليمن تجارا، قد ألهتهم أموالهم وتجارتهم عن النظر فيها، وأخذ العبرة منها.

لقد هلكت عاد وهلكت ثمود، وذهبت سبأ.. وخلفهم آخرون.. وسيهلك هؤلاء المشركون من أهل مكة.. وسيخلفهم غيرهم.. إنهم لن يخلّدوا بما جمعوا من مال، وما استكثروا من بنين، وما بلغوا من جاه وسلطان.. إنهم سيهلكون كما هلك غيرهم، وإنهم لن يعمّروا عمر الزمان، فما هم إلا جيل من أجيال الناس، وقرن من قرون الزمان، ولن يمضى هذا القرن الذي هم فيه حتى يكونوا ترابا في التراب، ليس معهم مما جمعوا إلا هذا الشرك الذي هم فيه.. والذي سيوردهم موارد العذاب المهين..

٣. وفي لفظ (قرن) في قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ إشارة إلى مدى عمر الإنسان في هذه الحياة، وأنه محصور في هذا الإطار من الزمن.. يزيد قليلا أو ينقص قليلا، بل إن ذلك هو عمر الجماعة الإنسانية كلها.. تمر بها القرون قرنا قرنا، وفي كل قرن زرع جديد، قائم على الزرع الذي تم حصاده، مما كان زرعا للقرن الماضي.. وهكذا الدنيا زرع وحصاد، وحصاد وزرع!

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ هذه الجملة بيان لجملة: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، جاء بيانها بطريقة الاستفهام الإنكاري عن عدم رؤية القرون الكثيرة الذين أهلكتهم حوادث خارقة للعادة يدلّ حالها على أنّها مسلّطة عليهم من الله عقابا لهم على التكذيب.

٢. والرؤية يجوز أن تكون قلبية، أي ألم يعلموا كثرة القرون الذين أهلكناهم، ويجوز أن تكون بصرية بتقدير: ألم يروا آثار القرون التي أهلكناها كديار عاد وحجر ثمود، وقد رآها كثير من المشركين في رحلاتهم، وحدّثوا عنها الناس حتى تواترت بينهم فكانت بمنزلة المرئي وتحقّقتها نفوسهم.

٣. وعلى كلا الوجهين ففعل ﴿يَرَوْا﴾ معلّق عن العمل في المفعولين أو المفعول، باسم الاستفهام وهو ﴿كَمْ﴾، و(كم) اسم للسؤال عن عدد مبهم فلا بدّ بعده من تفسير، وهو تمييزه، كما تقدّم في قوله تعالى:

---

(١) التحرير والتنوير: ٦/٢٠.

﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ﴾ في سورة البقرة، وتكون خبرية فتدلّ على عدد كبير مبهم ولا بدّ من مفسّر هو تمييز للإبهام، فأمّا الاستفهامية فمفسّرها منصوب أو مجرور، وإن كانت خبرية فمفسّرها مجرور لا غير، ولمّا كان (كم) اسما في الموضعين كان له موقع الأسماء بحسب العوامل رفع ونصب وجرّ، فهي هنا في موضع مفعول أو مفعولين لـ ﴿يَرَوْا﴾، و(من) فزائدة جارّة لمميّز ﴿كَمْ﴾ الخبرية لوقوع الفصل بينها وبين مميّزها فإن ذلك يوجب جرّه بـ (من)، كما بيّناه عند قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ في سورة البقرة.

٤. والقرن أصله الزمن الطويل، وكثر إطلاقه على الأمة التي دامت طويلا، قال تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأولى﴾ وفسّر القرن بالأمّة البائدة، ويطلق القرن على الجيل من الأمة، ومنه حديث (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)، ويطلق على مقدار من الزمن قدره مائة سنة على الأشهر، وقيل: غير ذلك.

٥. وجملة: ﴿مَكَّنَّاهُمْ﴾ صفة لـ ﴿قَرْنٍ﴾ وروعي في الضمير معنى القرن لأنّه دالّ على جمع، ومعنى: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ ثبّتناهم وملّكناهم، وأصله مشتقّ من المكان، فمعنى مكّنه ومكّن له، وضع له مكانا، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ ومثله قولهم: أرض له، ويكنّى بالتمكين عن الاقدار وإطلاق التصرّف، لأن صاحب المكان يتصرّف في مكانه وبيته ثم يطلق على التثبيت والتقوية والاستقلال بالأمر، ويقال: هو مكين بمعنى ممكّن، فعيل بمعنى مفعول، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ فهو كناية أيضا بمرتبة ثانية، أو هو مجاز مرسل مرتّب على المعنى الكنائي، والتمكين في الأرض تقوية التصرّف في منافع الأرض والاستظهار بأسباب الدنيا، بأن يكون في منعة من العدوّ وفي سعة في الرزق وفي حسن حال، قال تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ وقال: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ الآية، فمعنى مكّنه: جعله متمكّنا ومعنى مكّن له: جعله متمكّنا لأجله، أي رعيا له، مثل حمده وحمد له، فلم تزده اللام ومجرورها إلا إشارة إلى أنّ الفاعل فعل ذلك رغبة في نفع المفعول، ولكن الاستعمال أزال الفرق بينهما وصيّر مكّنه ومكّن له بمعنى واحد، فكانت اللام زائدة كما قال أبو علي الفارسي، ودليل ذلك قوله تعالى: هنا ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ فإن المراد بالفعلين هنا شيء واحد لتعيّن أن يكون معنى الفعلين مستويا، ليظهر وجه فوت القرون الماضية في التمكين على تمكين المخاطبين، إذ التفاوت لا

يظهر إلا في شيء واحد، ولأنّ كون القرون الماضية أقوى تمكّنا من المخاطبين كان يقتضي أن يكون الفعل المقترن بلام الأجل في جانبهم لا في جانب المخاطبين، وقد عكس هنا، وبهذا البيان نجمع بين قول الراغب باستواء فعل مكّنه ومكّن له، وقول الزمخشري بأن: مكّن له بمعنى جعل له مكانا، ومكّنه بمعنى أثبته، وكلام الراغب أمكن عربية، وقد أهملت التنبيه على هذين الرأيين كتب اللغة، واستعمال التمكين في معنى التثبيت والتقوية كناية أو مجاز مرسل لأنّه يستلزم التقوية، وقد شاع هذا الاستعمال حتى صار كالصريح أو كالحقيقة.

٦. و﴿مَا﴾ موصولة معناها التمكين، فهي نائبة عن مصدر محذوف، أي تمكينا لم نمكّنه لكم، فتنتصب (ما) على المفعولية المطلقة المبيّنة للنوع، والمقصود مكّناهم تمكينا لم نمكّنه لكم، أي هو أشدّ من تمكينكم في الأرض.

٧. والخطاب في قوله: ﴿لَكُمْ﴾ التفات موجّه إلى الذين كفروا لأنّهم الممكّنون في الأرض وقت نزول الآية، وليس للمسلمين يومئذ تمكين، والالتفات هنا عكس الالتفات في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ والمعنى أنّ الأمم الخالية من العرب البائدة كانوا أشدّ قوة وأكثر جمعا من العرب المخاطبين بالقرآن وأعظم منهم آثار حضارة وسطوة، وحسبك أنّ العرب كانوا يضربون الأمثال للأمور العظيمة بأنّها عادية أو ثمودية أو سبئية قال تعالى: ﴿وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي عمر الذين من قبل أهل العصر الأرض أكثر ممّا عمرها أهل العصر.

٨. والسماء من أسماء المطر، كما في حديث (الموطأ) من قول زيد بن خالد: صلّى لنا رسول الله ﷺ على إثر سماء، أي عقب مطر، وهو المراد هنا لأنّه المناسب لقوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ بخلافه في نحو قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ والمدرار صيغة مبالغة، مثل منحار لكثير النحر للأضياف، ومذكار لمن يولد له الذكور، من درّت الناقة ودرّ الضرع إذا سمح ضرعها باللبن، ولذلك سمّي اللبن الدّر، ووصف المطر بالمدرار مجاز عقلي، وإنما المدرار سحابه، وهذه الصيغة يستوي فيها المذكّر والمؤنّث.

٩. والمراد إرسال المطر في أوقات الحاجة إليه بحيث كان لا يخلفهم في مواسم نزوله، ومن لوازم ذلك كثرة الأنهار والأودية بكثرة انفجار العيون من سعة ري طبقات الأرض، وقد كانت حالة معظم بلاد العرب في هذا الخصب والسعة، كما علمه الله ودلّت عليه آثار مصانعهم وسدودهم ونسلان الأمم إليها،

ثم تغيّرت الأحوال بحوادث سماوية كالجدب الذي حلّ سنين ببلاد عاد، أو أرضية، فصار معظمها قاحلا فهلكت أممها وتفرّقوا أيادي سبا، وقد تقدّم القول في معنى الأنهار تجري من تحتهم في نظيره وهو ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ في سورة البقرة.

١٠. والفاء في قوله: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ للتعقيب عطف على ﴿مَكَّنَّاهُمْ﴾ وما بعده، ولمّا تعلّق بقوله: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ قوله: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ دلّ على أنّ تعقيب التمكين وما معه بالإهلاك وقع بعد أن أذنبوا، فالتقدير: فأذنبوا فأهلكناهم بذنوبهم، أو فبطروا النعمة فأهلكناهم، ففيه إيجاز حذف على حدّ قوله تعالى: أن ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ﴾ الآية، أي فضرب فانفجرت إلخ، ولك أن تجعل الفاء للتفصيل تفصيلا لـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾ الأول على نحو قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ في سورة الأعراف.

١١. والإهلاك: الإفناء، وهو عقاب للأمّة دالّ على غضب الله عليها، لأن فناء الأمم لا يكون إلا بما تجرّه إلى نفسها من سوء فعلها، بخلاف فناء الأفراد فإنه نهاية محتّمة ولو استقام المرء طول حياته، لأن تركيب الحيوان مقتض للانتهاء بالفناء عند عجز الأعضاء الرئيسية عن إمداد البدن بمواد الحياة فلا يكون عقابا إلا فيما يحفّ به من أحوال الخزي للهالك.

١٢. والذنوب هنا هي الكفر وتكذيب الرسل ونحو ذلك ممّا دلّ عليه التنظير بحال الذين قال الله فيهم هنا: ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ ﴿وما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إلا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ﴾، وما قاله بعد ذلك ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ الآية.

١٣. ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾: الإنشاء الإيجاد المبتكر، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾ والمراد به إنشاؤهم بتلك الصفات التي كان القرن الذين من قبلهم من التمكين في الأرض والإسعاف بالخصب، فخلفوا القرن المنقرضين سواء كان إنشاؤهم في ديار القوم الذين هلكوا، كما أنشأ قريشا في ديار جرهم، أم في ديار أخرى كما أنشأ الله ثمودا بعد عاد في منازل أخرى، والمقصود من هذا تعريض بالمشركين بأنّ الله مهلكهم ومنشئ من بعدهم قرن المسلمين في ديارهم، ففيه نذارة بفتح مكّة وسائر بلاد العرب على أيدي المسلمين، وليس المراد بالإنشاء الولادة والخلق، لأن ذلك أمر مستمرّ في البشر لا ينتهي، وليس فيه عظة ولا تهديد لجبابرة المشركين، وأفرد ﴿قَرْنًا﴾ مع أنّ الفعل الناصب له مقيّد

بأنه من بعد جمع القرون، على تقدير مضاف، أي أنشأنا من بعد كلّ قرن من المهلكين قرنا آخرين.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بين سبحانه لهم العبرة بما نزل بمن سبقوا، ومن مجاورتهم ديارهم، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾، القرن: الجماعة المقترنة التي تعيش في زمن واحد، والاستفهام داخل على فعل محذوف دل عليه سابق الكلام ولا حقه، والمعنى المقرب: أيعرضون ذلك الإعراض عن المعجزات التي تبين لهم الحق، ويستهزئون ذلك الاستهزاء لأهل الحق، ولم يروا بأن ينظروا نظرة تدبر وتفكر العدد الكثير من القرون الذين أهلكناهم من قبل، وكانوا أشد قوة، وآكد منهم، والاستفهام هنا إنكاري لإنكار الواقع فهو للتوبيخ؛ لأنهم فعلا أعرضوا واستهزءوا ولم يتدبروا ويتبصروا.

٢. والآية الكريمة تنبههم إلى وجوب التبصر والتدبر، وتذكرهم بما يستقبلهم إن استمروا على غيهم، وهي فوق ذلك دليل على كمال قدرته على تنفيذ إنذاره.

٣. وقد ذكر الله تعالى لأولئك الأقوام الذين أهلكهم الله تعالى في سبيل بيان العبرة:

أ. أولا: بأنهم مكنوا في الأرض بما لم يمكن للمشركين الذين عاصروا محمدا ﷺ فقال تعالى: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ أي جعلنا لهم مكانا في الأرض لم نمكن لكم مثله، أي لم نمكنه لكم، وذلك كناية عن سعة السلطان، وقيام الصنائع، وكثرة العمران، وثبات حكمهم، واستقرار أمرهم، فأنتم معشر المشركين لم يكن لكم شيء من ذلك، وأنى يكون مكانكم بجوار مكان فرعون وأنى يكون سعة عمرانكم بجوار سبأ في مسكنهم الذى كان فيه جنات عن يمين وشمال.

ب. ثانيا: أن الله جعل لهم العيش رغدا، ورغد العيش كان غيثا من السماء فأرسل عليم السماء مدرارا، والمراد من السماء هنا جهة العلو؛ ولذا أفردت فقال تعالت كلماته: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ أي أرسلنا عليهم السحب تنزل دارّة الماء، ويصح أن نقول: إنه أرسل ما في السماء من السحب،

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/٢٤٣٩.

أو اعتبرت السحب الماطرة فإنها سماء باعتبارها في وجهة العلو، وفى التعبير بـ (أرسل) بدل (أنزل) إشارة إلى معنى الغوث والإمداد المستمر الدائم، والعرب لم يكن مطرهم كثيرا، بل كان غيثا، يجيء الفينة بعد الفينة.

ج. ثالثها: بالأنهار تجرى من تحتهم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ في التعبير بـ (جعل) معنى التحويل، أي حولنا أمطار السماء إلى أنهار تجرى من تحتهم أي تحت سلطانهم يسيرون مجاريها كما يريدون، فكان الماء عندهم غدقا ولم يكن ذلك عند العرب، فبأي شيء يفترون ويستعلون.

٤. وماذا صنع سبحانه بهؤلاء؟ قال: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾، الفاء هنا للتفصيل، والبيان بعد الإجمال، لقد أشار سبحانه إلى ما نزل بهم، وهنا يبين سبحانه أنه أهلكهم بسبب ذنوبهم، والإهلاك بسبب الذنوب له مظهران:

أ. أحدهما: أن الذنوب ذاتها تهلك أمما، إذ تشيع فيهم الترف والغرور والفساد في الأرض، وبذلك تنحل وتضمحل، وتذهب قوتها.

ب. المظهر الثاني: إهلاك الله تعالى الأمم عقابا على أوزارها، وإن الأمم إذا هلكت بسبب فسادها، جاء جيل يصلح أمرها، ويزيل أسباب الفساد، ويجدد المتخرب، وهو الجيل الذى ينشئه الله على آثار المفسدين، وهو غير الجيل السابق؛ ولذلك كان التنكير وكان الوصف بـ ﴿آخَرِينَ﴾

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾، كان عرب الجاهلية يعرفون الكثير عن قوم عاد وثمود ولوط وغيرهم، وكانوا يمرون في رحلاتهم بآثارهم، فيشاهدونها ويتحدثون عنهم وعنها، ويعرفون أن الله سبحانه أهلكهم، لأنهم كذبوا بالحق الذي جاء به أنبياؤهم من عند الله، وهذه الآية تحض الذين كذّبوا محمدا ﷺ أن يعتبروا بهلاك الأجيال الغابرة، وقد كان

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/١٦٣.

لهم من أسباب الملك والقوة والسلطان ما لم يكن للمخاطبين من عرب الجاهلية.

٢. ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾، أي المطر الغزير ينشئ الخصب في حياتهم ويفيض عليهم الأرزاق ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ كناية عن الرخاء وكثرة الانتاج ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ ولم يغن عنهم المال والسلطان ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ والعاقل من اتعظ بغيره قبل أن يتعظ الغير به.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ إلى آخر الآية، قال الراغب: (القرن القوم المقترنون في زمن واحد وجمعه قرون)، وقال أيضا: قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾) وأصله من الدر ـ بالفتح ـ والدرة ـ بالكسر ـ أي اللبن، ويستعار ذلك للمطر استعارة أسماء البعير وأوصافه فقيل: لله دره ودر درك، ومنه أستعير قولهم غسوق دره أي نفاق (بالفتح)

٢. في قوله تعالى: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ التفات من الغيبة إلى الحضور، والوجه فيه ظاهرا رفع اللبس من جهة مرجع الضمير فلولا الالتفات إلى الحضور في قوله: ﴿مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ أوهم السياق رجوعه إلى ما يرجع إليه الضمير في قوله: ﴿مَكَّنَّاهُمْ﴾ وإلا فأصل السياق في مفتتح السورة للغيبة، وقد تقدم الكلام في الالتفات الواقع في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ

٣. في قوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ دلالة على أن للسيئات والذنوب دخلا في البلايا والمحن العامة، وفي هذا المعنى وكذا في معنى دخل الحسنات والطاعات في إفاضات النعم ونزول البركات آيات كثيرة.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ آثار من قد ﴿أَهْلَكْنَا﴾ قبلهم من القرون الكثيرة فيعلموا كثرتها، أو ألم يعلموا

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/١٨.

(٢) التيسير في التفسير: ٢/٤١٥.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ أي جواب كم أهلكنا أي أنهم كثير، يحق لهم أن يعتبروا بهم، ويحذروا أن يهلكهم كما أهلك القرون التي أهلكها من قبلهم، فما بالهم لم يعتبروا بهم ويحذروا التكذيب والإستهزاء بالحق، كأنهم لم يروا كم أهلكنا قبلهم، فالسؤال للتوبيخ.

٢. وأما (القرن) فقال الشرفي في (المصابيح): (وفي القرن يقول المرتضى عليه السلام: القرن: الخلف الذي يكون بعد الأول الفاني، فأما ما يقال به من ثمانين سنة فليس ذلك بشيء؛ لأنا قد رأينا قوماً يزيدون على الثمانين في عصر واحد، ولكن القرن ما خلف مَن قد مضى، ويقال: القرن؛ لأنهم غير الأولين، وفي ذلك ما يقول الشاعر:

إذا ذهب القرن الذي أنت فيهم وخُلِّفتَ في قرن فأنت غريب

٣. ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ بما جعلنا لهم فيها من المستقر والمال والقوة ﴿مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ أي هو قليل بالنسبة لما جعلنا لهم ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ بالأمطار المتابعة الكثيرة.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ماذا ينتظر هؤلاء وغيرهم من المكذّبين؟ هل ينتظرون إلا الهلاك الذي حلّ بالقرون السالفة من قبلهم؟ ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ بما أعطاهم من وسائل القوة، وأسباب النعيم.

٢. ﴿وأَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً﴾ فقد أرسل السماء عليهم بأمطارها الغزيرة ﴿وجَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ وتحولت الأرض من خلال ذلك إلى أنهار تجري من تحتهم.. ولكنهم لم يشكروا ولم يخضعوا لله، ﴿فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وأَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾ فأهلكهم الله بذنوبهم، وأنشأ من بعدهم قرنا آخرين، فأين ذهب هؤلاء كلهم؟ وماذا حدث للأرض وللسماء من بعدهم؟. لم يحدث شيء.. بل استمرت الحياة كما أرادها الله في قوم آخرين، وهكذا تستمر الحياة مع غيرهم، فلا يتصور أحد أن أيّا من تصرفاته يمكن أن يغيّر من سنّة الله في الحياة، بل عليه أن يعرف بأن الأمر كله لله، وأن الذي أوجد

---

(١) من وحى القرآن: ٩/٢٩.

الكون بإرادته قادر أن يزيله بتلك الإرادة الحكيمة القادرة التي لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء.

٣. سؤال وإشكال: قد يتساءل قارئ القرآن عن السبب الكامن وراء إثارة القرآن لفكرة الموت بشكل دائم.. لماذا يلحّ دائما على أن يجعل الإنسان مهزوما أمام فكرة الموت؟ هل يريد له أن يعيش تحت تأثير هذا الهاجس، كالشبح المرعب، الذي يوحي له بالخوف والهلع المستمر، مما قد يفقده التركيز على مشاريع الحياة التي تحتاج إلى الشعور بالامتداد في خط العمل من أجل التخطيط المستمر لإكمال المسيرة؟ وفي ضوء هذا التساؤل، يحاول البعض من الناس، اتهام الوعظ الديني الذي يعمل على تعميق إحساس الإنسان بالموت في كل لحظة، بأنه يمنع الإنسان من الشعور بالقوة، لأنه يجمّد قوّة الحياة في داخل وعيه وتفكيره من خلال الإيحاء بأن من الممكن أن تنتهي الحياة في أي وقت.. فيتضاءل الإنسان ويضعف ويسترخي في تهاويل الحزن انتظارا للموت.. وبهذا يتحول الناس إلى جماعات متناثرة تنتظر الموت بدلا من أن تنطلق وحدة قويّة في بناء الحياة! والجواب: إن لهذا الأسلوب هدفا تربويا يسعى إليه، وذلك لأن الشعور بالقوّة المطلقة له أثران: إيجابي وسلبي، أما الأثر الإيجابي، فهو حرية الحركة وحيويتها في جميع الأشياء التي يفكر بها، أو يطلبها منه الآخرون؛ وأمّا الأثر السلبي فهو الشعور بالغرور الذي يجعله يتحرك في إحساس بضخامة الشخصية بشكل غير معقول، فيؤدي به ذلك إلى التكبّر والتجبّر والدخول في متاهات من الأعمال التي لا يملك زمام القدرة فيها.. وهذا ما أراد الإسلام أن يخفّف منه، وذلك من ضمن خطة تتحرك في عدّة أساليب، منها: الإيحاء الدائم بمواطن الضعف البشري فيما يصيب الإنسان من أمراض وعوارض وبلايا، دون أن يملك أمر مقاومتها أو دفعها عن نفسه، ومنها: هذا الحديث الدائم عن الموت، بالحديث عمن هلكوا وعمن أهلكهم الله من القرون السالفة التي كانت تملك من القوّة أكثر مما يملكها المخاطبون، للإيحاء للإنسان بأن القدرة التي يملكها هي قدرة محدودة مستمدة من الله وخاضعة في استمرارها لإرادته المطلقة، الأمر الذي يحث الإنسان على التواضع في نظرته إلى نفسه، وفي خضوعه لله من خلال الخضوع للقدرة العظيمة في سلطانه، فليس هدف القرآن الإيحاء بالهزيمة والانسحاق تحت تأثير الشعور بالموت، بل تحقيق التوازن في شعوره بالحياة وارتباطه بحركتها الممتدّة في طاقاته، فلا يفقد الأمل بالامتداد لما أودعه الله فيه من طاقة قابلة للاستمرار، ولما أثاره في نفسه من الثقة به والرجوع إليه، ولا يسترخي أمام قوة الحياة في داخله ليستسلم لها استسلاما مطلقا، بل يشعر بأن الموت يمكن أن يأتي في أية

لحظة، ليظل الإنسان منطلقا في خطّ العبرة الموحية التي تجعله يفكر بالموت حين يستحضر التاريخ، ويعيش الحاضر، ليقوده ذلك إلى التفكير فيما بعد الموت، فيتحول إلى حالة من الانضباط في الحياة العملية تحت تأثير هذه الفكرة.

٤. تشير هذه الآيات الكريمة إلى أن حركة القوة في كيان الإنسان لا تمثل الضمانة له في الحصول على الفرص السعيدة في القضايا التي يخوض تجربته فيها ويحصل على نتائجها، بل إنها قد تدمّره إذا تحوّلت إلى حالة من الفوضى في الطغيان، أو اهتزاز في التوازن، أو امتداد في الغرور الذي يوحي بانتفاخ الشخصية في نظرة الإنسان المرضية لنفسه وتعامله مع غيره؛ فإن مثل هذه الآثار السيئة في صورة الانحراف بما تمثله كلمة الذنوب في الأفكار والأعمال في الواقع الفكري والعملي، لا بد من أن تنتهي إلى نهايات سلبية، لأن القوة سوف ترتد عليه لتقتله عندما تصبح طاقة مجنونة تتحرك بطريقة جنونية لتطبق عليه، تماما كمن يحمل الحجر ليكسر رأسه بدلا من أن يكسر به رأس عدوّه، وهذا هو الذي عبرت عنه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وأَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً وجَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وأَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾ وليس من الضروري أن يكون الإهلاك بالذنوب بمعنى العقاب الإلهي الذي ينزله الله عليهم بسبب ذنوبهم، بل قد يكون بمعنى الآثار السيئة التي هي النتائج المتلازمة مع الأعمال على هدى قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ والْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١] ليذوق الإنسان وبال أمره، وعلى ضوء هذا، لا بد للإنسان ـ فردا أو مجتمعا ـ من أن يدرس ـ بموضوعية ـ اتجاهاته الفكرية والعملية المنحرفة بشكل خاص في خصائصها وفي نتائجها الإيجابية والسلبية، ليعرف كيف يحرك قوته بوعي ويحصل على نتائجها بمسؤولية واتزان، ويدرس التاريخ دراسة الباحث في حركة التجربة ونتائجها.

٥. إن الله أراد للإنسان أن يفكر في كل ما تعرضه عليه الرسالات ويقدمه إليه الرسل من آيات الله ودلائل قدرته ومواقع عظمته ونعمته، مما يمثل الحجة عليه في خط الشريعة لأن الله يتعامل مع الإنسان من خلال عقله الذي أعدّه ليرشده إلى الحق، وليقوده إلى المعرفة الواعية المنفتحة على حقائق الحياة في دلالاتها ونتائجها، وهذا هو المنهج القرآني الذي أراده الله للإنسان عقلا وإرادة وحركة مسئولية في الحاضر

والمستقبل، إن الله يحترم في الإنسان عقله ويريد أن يأخذ بنتائجه القطعية الحاسمة من خلال التأمل والتفكير، فإذا لم يحترم الإنسان هذه الطاقة الإلهية المقدسة في وجوده، فعليه أن يواجه المسؤولية بكل سلبياتها على صعيد الدنيا والآخرة.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ابتداء من هذه الآية وما بعدها يشرع القرآن بعرض خطّة تربوية مرحلية لإيقاظ عبدة الأصنام والمشركين تتناسب مع اختلاف الدوافع عند الفريقين، يبدأ أوّلا بمكافحة عامل (الغرور) وهو من عوامل الطغيان والعصيان والانحراف المهمّة، فيذكرهم بالأمم السالفة ومصائرهم المؤلمة، وبذلك يحذر هؤلاء الذين غطت أبصارهم غشاوة الغرور، ويقول: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾

٢. ولكنّهم لمّا استمروا على طريق الطغيان، لم تستطع هذه الإمكانات إنقاذهم من العقاب الإلهي: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أفلا ينبغي أنّ يكون علمهم بمصائر الماضين عبرة لهم، توقظهم من نوم غفلتهم، ومن سكرتهم؟ أليس الله الذي أهلك السابقين بقادر على أن يهلك هؤلاء أيضا؟

٣. هاهنا بضع نقاط نلفت إليها الانتباه:

أ. على الرّغم من أن (قرن) تعني فترة طويلة من الزمن (مائة، أو سبعين أو ثلاثين سنة)، ولكنّها قد تعني أيضا ـ كما يقول اللغويون ـ القوم والجماعة في زمان معين (القرن من الاقتران بمعنى التقارب، وبالنظر لأن أهل العصر الواحد أو العصور المتقاربة قريبون من بعضهم فقد يطلق عليهم وعلى زمانهم اسم القرن)

ب. يتكرر في القرآن القول بأنّ الإمكانات المادية الكثيرة تبعث على الغرور والغفلة لدى ضعفاء النفس من الناس كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ لأنّهم بتوفر تلك الإمكانات عندهم

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/٢١٣.

يرون أنفسهم في غنى عن الله، غافلين عن العناية الإلهية والإمدادات الربانية المغدقة عليهم في كل لحظة وثانية، ولولاها لما استمروا على قيد الحياة.

ج. ليس هذا التحذير مختصا بعبدة الأصنام، فالقرآن يخاطب ـ أيضا ـ اليوم العالم الصناعي الثري الذي أثملته الإمكانات المادية وملأته بالغرور، ويحذره من نسيان الأقوام السابقة وممّا حاق بهم نتيجة ما ارتكبوه من ذنوب، وكأني بالقرآن يقول للمغرورين في عالمنا اليوم: إنّكم ستفقدون كل شيء بانطلاق شرارة حرب عالمية أخرى، لتعودوا إلى عصر ما قبل التمدن الصناعي اعلموا أنّ سبب تعاسة أولئك لم يكن شيئا سوى إثمهم وظلمهم واضطهادهم الناس وعدم إيمانهم وهذه عوامل ظاهرة في مجتمعكم أيضا.

٤. حقا إنّ دراسة تاريخ فراعنة مصر، وملوك سبأ وسلاطين كلدة وآشور، وقياصرة الرّوم، ومعيشتهم الباذخة الأسطورية وما كانوا يتقلبون فيه من نعم لا تعد ولا تحصى، ثمّ رؤية عواقب أمورهم المؤلمة التي حاقت بهم بسبب ظلمهم الذي قوض أركان حياتهم، فيها أعظم العبر والدروس.

٤ . المعرضون عن آيات الله ولمس الكتاب

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٤] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١ . روي أنّه قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾، يقول: لو أنزلنا من السماء صحفا فيها كتاب، فلمسوه بأيديهم، لزادهم ذلك تكذيبا[١].

٢ . روي أنّه قال: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾: مسّوه، ونظروا إليه؛ لم يؤمنوا به[٢].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) أنّه قال: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾، فمسّوه، ونظروا إليه؛ لم يصدّقوا به[٣].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١ . روي أنّه قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾، يقول: في صحيفة[٤].

٢ . روي أنّه قال: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾، يقول: فعاينوه معاينة، ومسّوه بأيديهم[٥].

---

(١) ابن جرير ٩/١٥٩.

(٢) الحاكم: ٢/٣٤٤.

(٣) تفسير مجاهد ص ٣١٩.

(٤) عبد الرزاق ١/٢٠٣.

(٥) ابن جرير ٩/١٥٩.

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) أنّه قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾: الصحف[١].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) أنّه قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ ما صدّقوا به، و﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ يقول: ما هذا القرآن ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يعني: بيّن[٢].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٣]:

١. ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ يخبر بشدة تعنتهم أنهم وإن أتوا ما سألوا من الآيات لم يؤمنوا به؛ لأنهم كانوا سألوا رسول الله ﷺ أن ينزل كتابًا يعاينونه، ويقرءونه، كقوله: ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ وكقوله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، ونحوه من الآيات.

٢. ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ أي: في صحيفة، مكتوبًا، يعلمون أنه لم يكتب في الأرض، ولمسوه بأيديهم، وعاينوه لم يؤمنوا به، ولا صدقوه، وقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يخبر رسول الله ﷺ أنهم لا يؤمنون، ويخبره بشدة تعنتهم أنهم لا يؤمنون وإن جئت بكل آية؛ إذ قد أتاهم من الآيات ما إن تأملوا ولم يتعنتوا لدلتهم على ذلك، لكنهم أعرضوا عنها، ولم يتأملوا فيها لتعنتهم، وشدة مكابرتهم.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٤]:

---

(١) ابن جرير ٩/١٥٩.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥٥٠.

(٣) تأويلات أهل السنة: ٤/٢٦.

(٤) تفسير الماوردي: ٢/٩٦.

١. ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ لأن مشركي قريش لما أنكروا نزول القرآن أخبر الله أنه لو أنزله عليهم من السماء لأنكروه وكفروا به لغلبة الفساد عليهم، فقال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ واسم القرطاس لا ينطلق إلا على ما فيه كتابة، فإن لم يكن فيه كتابة قيل طرس ولم يقل قرطاس، قال زهير بن أبي سلمى:

بها أخاديد من آثار ساكنها كما تردد في قرطاسه القلم

٢. ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ قال ذلك تحقيقاً لنزوله عليهم، ويحتمل بلمس اليد دون رؤية العين ثلاثة أوجه:

أ. أحدها: أن نزوله مع الملائكة وهم لا يرون بالأبصار، فلذلك عَبَّر عنه باللمس دون الرؤية.

ب. الثاني: لأن الملموس أقرب من المرئي.

ج. الثالث: لأن السحر يتخيل في المرئيات، ولا يتخيل في الملموسات.

٣. ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ تكذيباً لليقين بالعناد، والمبين: ما دل على بيان بنفسه، والبيِّن: ما دل على بيانه، فكان المبين أقوى من البيِّن.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لو نزل على نبيه كتابا يعني صحيفة مكتوبة في قرطاس حتى يلمسوه بأيديهم ويدركوه بحواسهم، لأنهم سألوا النبي ﷺ أن يأتيهم بكتاب يقرءونه من الله إلى فلان بن فلان أن آمن بمحمد، وأنه لو أجابهم إلى ذلك لما آمنوا، ونسبوه إلى السحر لعظم عنادهم وقساوة قلوبهم وعزمهم على أن لا يؤمنون على كل حال، وعرفه أن التماسهم هذه الآيات ضرب من العنت ومتى فعلوا ذلك اصطلمهم واستأصلهم، وليس تقتضي المصلحة ذلك، لما علم في بقائهم من مصلحة للمؤمنين، وعلمه بمن يخرج من أصلابهم من المؤمنين وأن فيهم من يؤمن فيما بعد، فلا يجوز احترام من هذه صفته ـ عند أبي علي والبلخي.

(١) تفسير الطوسي: ٨٣/٤.

٢. ﴿إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ معناه ليس هذا إلا سحر مبين.

٣. واحتج أبو علي بهذه الآية على أنه متى كان في معلوم الله تعالى أنه لو آتاهم الآيات التي طلبوها لآمنوا عندها وجب أن يفعلها بهم، قال: ولولا ذلك كذلك لم يحتج على العباد في منعه إياهم الآيات التي طلبوها أي إنما منعتهم إياها لأنهم كانوا لا يؤمنون، ولو آتاهم إياها لكانوا يقولون إنها سحر مبين، وبهذا تبين بطلان قول من قال اللطف ليس بواجب، وأنه يجوز أن يمنعهم الله ما طلبوا وإن كانوا يؤمنون لو آتاهم ذلك ويكفرون لو منعهم إياه.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. نزلنا وأنزلنا بمعنى، غير أن في ﴿نَزَّلْنَا﴾ مبالغة؛ لأن ﴿فَعَلَ﴾ الأصل فيه أنه للتكثير والمبالغة، نَزَّلَ تنزيلاً، وأنزل إنزالاً، والتنزيل على ضربين:

- أحدهما: بمعنى ينزل به المَلَك.
- والآخر: أن ينزله فيمسكه بين السماء والأرض، والإنزال على القرطاس يصح؛ لأنه جسم، وعلى الكلام لا يصح؛ لأنه عَرَض فينزل به الملك.

ب. القرطاس: الصحيفة، قيل: إن العرب تسمى الصحيفة قرطاسًا من أي شيء كانت.

٢. مما روي في سبب نزول الآية الكريمة: نزلت الآية في النضر بن الحارث وعبد الله بن أمية ونوفل بن خالد قالوا: يا محمد، لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله، ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله، وأنك رسول الله، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

٣. لما تقدم الخبر عن المعرضين عن الحق مع ظهور الآيات بَيَّنَ في هذه الآية ما علم من حالهم، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ والقرطاس: الصحيفة، عن ابن عباس والسدي وقتادة:

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/٤٩١.

أ. قيل: معلقًا من السماء إلى الأرض، عن ابن عباس.

ب. وقيل: كتابة في صحيفة تنزل به الملائكة ونحن نعاينه.

ج. وقيل: لو نزلنا كتابًا فأخذوه، وذلك غاية ما يحتج الله به على عباده لقالوا: سكرت أبصارنا، عن الأصم.

٤. ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ يعني عاينوه معاينة، مسوه بأيديهم ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي واضح بين.

٥. تدل الآية الكريمة على:

أ. قولنا في اللطف؛ لأنه بَيَّنَ أنه إنما لم يفعل ما سألوه حيث علم أنهم لا يؤمنون عنده.

ب. أنهم مع رؤية المعجزات نسبوها إلى السِّحْر، إما لعناد، أو شبهة، أو تقليد.

ج. أن ذلك القول فعلهم، لذلك ذمهم عليه، ولأنه لا يصح أن يخلق معجزة ويخلق القول بأنها سحر، وذلك يبطل قولهم في المخلوق.

٦. ﴿كِتَابًا﴾ نكرة لأنه مصدر بمعنى الكتابة، ونصبه لأنه مفعول، تقديره: نزلنا كتابًا في قرطاس.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. مما روي في سبب نزول الآية الكريمة: نزلت في نضر بن الحرث، وعبد الله بن أبي أمية، ونوفل بن خويلد، قالوا: يا محمد! لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب الله، ومعه أربعة من الملائكة يشهدون عليه، أنه من عند الله، وأنك رسوله، عن الكلبي.

٢. أخبر سبحانه عن عنادهم فقال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾:

أ. أي: كتابة في صحيفة، وأراد بالكتاب المصدر، وبالقرطاس الصحيفة.

ب. وقيل: كتابا معلقا من السماء إلى الأرض، عن ابن عباس.

٣. ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي: فعاينوا ذلك معاينة، ومسوه بأيديهم، عن قتادة، وغيره، قالوا اللمس

---

(١) تفسير الطبرسي: ٤/٩.

باليد أبلغ في الإحساس من المعاينة، ولذلك قال: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ دون أن يقول، فعاينوه.

٤. ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أخبر سبحانه أنهم يدفعون الدليل حتى لو أتاهم الدليل مدركا بالحس، لنسبوا ذلك إلى السحر، لعظم عنادهم، وقساوة قلوبهم.

٥. في هذه الآية دلالة على ما يقوله أهل العدل في اللطف، لأنه تعالى بين أنه إنما لم يفعل ما سألوه، حيث علم أنهم لا يؤمنون عنده.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ أنّ مشركي مكّة قالوا: يا محمّد، والله لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله، ومعه أربعة من الملائكة، يشهدون أنّه من عند الله، وأنّك رسوله، فنزلت هذه الآية، قاله ابن السّائب.

٢. القرطاس: قال ابن قتيبة: والقرطاس: الصّحيفة، يقال للرّامي إذا أصاب الصّحيفة: قرطس، قال شيخنا أبو منصور اللّغويّ: القرطاس قد تكلّموا به قديما، ويقال: إنّ أصله غير عربيّ، والجمهور على كسر قافه، وضمّها أبو رزين، وعكرمة، وطلحة، ويحيى بن يعمر.

٣. ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ فهو توكيد لنزوله، وقيل: إنّما علّقه باللّمس باليد إبعادا له عن السّحر، لأن السّحر يتخيّل في المرئيات دون الملموسات، ومعنى الآية: إنّهم يدفعون الصّحيح.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. الذين يتمردون عن قبول دعوة الأنبياء طوائف كثيرة، منهم:

أ. الأولى: الذين بالغوا في حب الدنيا وطلب لذاتها وشهواتها إلى أن استغرقوا فيها واغتنموا وجدانها، فصار ذلك مانعا لهم عن قبول دعوة الأنبياء، وهم الذين ذكرهم الله تعالى في الآية المتقدمة وبين أن لذات الدنيا ذاهبة وعذاب الكفر باق، وليس من العقل تحمل العقاب الدائم لأجل اللذات المنقرضة

(١) زاد المسير في علم التفسير: ١٢/٢.

(٢) التفسير الكبير: ٤٨٦/١٢.

الخسيسة.

ب. الثانية: الذين يحملون معجزات الأنبياء عليهم السلام، على أنها من باب السحر لا من باب المعجزة، هؤلاء الذين ذكرهم الله تعالى في هذه الآية.

ج. الثانية: الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾

٢. بيّن الله تعالى في هذه الآية أن هؤلاء الكفار لو أنهم شاهدوا نزول كتاب من السماء دفعة واحدة عليك يا محمد لم يؤمنوا به، بل حملوه على أنه سحر ومخرقة، والمراد من قوله: ﴿فِي قِرْطَاسٍ﴾ أنه لو نزل الكتاب جملة واحدة في صحيفة واحدة، فرأوه ولمسوه وشاهدوه عيانا لطعنوا فيه وقالوا إنه سحر.

٣. سؤال وإشكال: ظهور الكتاب ونزوله من السماء هل هو من باب المعجزات أم لا، فإن لم يكن من باب المعجزات لم يكن إنكارهم لدلالته على النبوّة منكرا، ولا يجوز أن يقال: أنه من باب المعجزات لأن الملك يقدر على إنزاله من السماء، وقبل الإيمان بصدق الأنبياء والرسل لم تكن عصمة الملائكة معلومة، وقبل الإيمان بالرسل، لا شك أنا نجوز أن يكون نزول ذلك الكتاب من السماء من قبل بعض الجن والشياطين، أو من قبل بعض الملائكة الذين لم تثبت عصمتهم، وإذا كان هذا التجويز قائما فقد خرج نزول الكتاب من السماء عن كونه دليلا على الصدق، والجواب: ليس المقصود ما ذكرتم، بل المقصود أنهم إذا رأوه بقوا شاكين فيه، وقالوا: إنما سكرت أبصارنا، فإذا لمسوه بأيديهم فقد يقوى الإدراك البصري بالإدراك اللمسي، وبلغ الغاية في الظهور والقوة، ثم هؤلاء يبقون شاكين في أن ذلك الذي رأوه ولمسوه هل هو موجود أم لا، وذلك يدل على أنهم بلغوا في الجهالة إلى حد السفسطة، فهذا هو المقصود من الآية لا ما ذكرتم.

٤. سؤال وإشكال: قال القاضي: دلت هذه الآية على أنه لا يجوز من الله تعالى أن يمنع العبد لطفا، علم أنه لو فعله لآمن عنده لأنه بيّن أنه إنما لا ينزل هذا الكتاب من حيث إنه لو أنزله لقالوا هذا القول، ولا يجوز أن يخبر بذلك إلا والمعلوم أنهم لو قبلوه وآمنوا به لأنزله لا محالة فثبت بهذا وجوب اللطف، والجواب: لقائل أن يقول: أن قوله لو أنزل الله عليهم هذا الكتاب لقالوا هذا القول لا يدل على أنه تعالى ينزله عليهم، لو لم يقولوا هذا القول إلا على سبيل دليل الخطاب، وهو عنده ليس بحجة، وأيضا فليس كل

ما فعله الله وجب عليه ذلك، وهذه الآية إن دلّت فإنما تدل على الوقوع لا على وجوب الوقوع.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ الآية، المعنى: ولو نزلنا يا محمد بمرأى منهم كما زعموا وطلبوا كلاما مكتوبا ﴿فِي قِرْطَاسٍ﴾، وعن ابن عباس: كتابا معلقا بين السماء والأرض وهذا يبين لك أن التنزيل على وجهين، أحدهما: على معنى نزل عليك الكتاب بمعنى نزول الملك به، والآخر: ولو نزلنا كتابا في قرطاس يمسكه الله بين السماء والأرض، وقال: ﴿نَزَّلْنَا﴾ على المبالغة بطول مكث الكتاب بين السماء والأرض.

٢. والكتاب مصدر بمعنى الكتابة فبين أن الكتابة في قرطاس، لأنه غير معقول كتابة إلا في قرطاس أي في صحيفة والقرطاس الصحيفة، ويقال: قرطاس بالضم، وقرطس فلان إذا رمى فأصاب الصحيفة الملزقة بالهدف.

٣. ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي فعاينوا ذلك ومسوه باليد كما اقترحوا وبالغوا في ميزه وتقليبه جسا بأيديهم ليرتفع كل ارتياب ويزول عنهم كله إشكال، لعاندوا فيه وتابعوا كفرهم، وقالوا: سحر مبين إنما سكرت أبصارنا وسحرن، وهذه الآية جواب لقولهم: ﴿حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ [الاسراء] فأعلم الله بما سبق في علمه من أنه لو نزل لكذبوا به، قال الكلبي: نزلت في النضر بن الحرث وعبد الله بن أبي أمية ونوفل بن خويلد قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الاسراء] الآية.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. في هذه الجملة بيان شدة صلابتهم في الكفر، وأنهم لا يؤمنون ولو أنزل الله على رسوله كتابا مكتوبا في قرطاس بمرأى منهم ومشاهدة فلمسوه بأيديهم حتى يجتمع لهم إدراك الحاستين: حاسة البصر، وحاسة اللمس.

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/٣٩٢.

(٢) فتح القدير: ٢/١١٧.

٢. ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ولم يعملوا بما شاهدوا ولمسوا، وإذا كان هذا حالهم في المرئي المحسوس، فكيف فيما هو مجرد وحي إلى رسول الله ﷺ بواسطة ملك لا يرونه ولا يحسونه؟

٣. والكتاب مصدر بمعنى الكتابة، والقرطاس: الصحيفة.

أَطَّفَيِّش:

ذكر محمد أَطَّفَيِّش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَلَوْ نَزَّلنَا﴾ نزَّلنا بمرَّة، وهو المتبادر، لأنَّه أقنع لهم، أو أنزلنا شيئًا فشيئًا لمزيد المشاهدة وتكرُّرها ﴿عَلَيْكَ كِتَابًا﴾ أي: كلامًا مكتوبًا، أو خطًّا مكتوبًا هو القرآن، أو أنَّك رسول، وليس المراد: ما يكتب فيه الكلام، لأنَّه يبقى قوله: ﴿فِي قِرْطَاسٍ﴾ بلا فائدة، فالقرطاس: ما يكتب فيه من جلد وكاغَد (بفتح الغين، وبدال مهملة، وقد يُعجَم)، ومن غير ذلك، وذكر بعض أنَّه لا يقال قرطاس إلا إذا كان مكتوبًا، ولا يصحُّ حمل الآية عليه لأنَّه يبقى قوله: ﴿كِتَابًا﴾ أي: كلامًا مكتوبًا بلا فائدة، عكس ما مَرَّ، فالقرطاس: ما يكتب فيه من جلد وكاغَد (بفتح الغين، وبدال مهملة، وقد يُعجَم)، ومن غير ذلك، وذكر بعض أنَّه لا يقال قرطاس إلا إذا كان مكتوبًا، ولا يصحُّ حمل الآية عليه لأنَّه يبقى قوله: ﴿كِتَابًا﴾ أي: كلامًا مكتوبًا بلا فائدة، عكس ما مَرَّ.

٢. ﴿فَلَمَسُوهُ﴾ أي: القرطاس مع الخطوط فيه، أو لمسوا الكتاب، أي: الخطَّ، وخصَّ اللمس لأنَّه أنفى بعد المعاينة للريبة من النظر والسمع، وأمَّا الإدراك الذَّوْقِيُّ بالفم والشمِّيُّ فلا يليق بالمقام، والسِّحْر يجري على المرئيِّ أكثر مِمَّا يجري على الملموس، ولو اقتصر على النظر ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتَ اَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحِجر: ١٥]

٣. وذكر الأيدي في قوله: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ لأن اللمس بها أقوى من المسِّ بسائر البدن، وأنَّه قد يطلق اللمس على التفحُّص عن شيءٍ، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمَسْنَا السَّمَآءَ﴾ [الجنِّ: ٨]، وقد قيل: اللمس يختصُّ باليد، وقيل: هو أَعَمُّ كالمسِّ، فذِكْرُهُ تحرُّزٌ أو تأكيد.

٤. ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مقتضى الظاهر: (لقالوا)، وَضَعَ الظاهر موضع الضمير ليصرِّح

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/٢٠٠.

بكفرهم، ويشيرَ إلى أنَّ كفرهم لا يؤثِّر معه برهان يحسُّ ولو باليد، وأنَّ شأنهم الإعراض عنادًا وتعنُّتًا.

٥. قال النضر بن الحارث وعبد الله بن أمية ونوفل بن خويلد لِرَسُولِ الله ﷺ : لن نؤمن لك حتَّى تأتينا بكتاب من عند الله تعالى ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنَّه من عند الله، وأنَّك رسول الله، فقال الله سبحانه لو فعلنا ذلك وزدنا مَسَّهم إيَّاه بأيديهم ـ وقيل: طلبوا المسَّ أيضًا ـ لقالوا: ﴿إِنْ هَذَا﴾ ما هذا الكتاب أو القرطاس الشاهد عليه أربعة أملاك، أو المذكور منه ومن الأربعة، ﴿إلا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ صَرَفَ أعيننَا وأسماعَنَا ولُمسَنَا عن حالها المحقَّقة.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. بين تعالى شدة مكابرتهم، إثر إعراضهم، بقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ أي: مكتوبا في ورق ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي: فمسوه، ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا﴾ أي: ليس هذا المعظم بهذه الوجوه الدالة على أنه لا يكون إلا من الله، ﴿إلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ تعنتا وعنادا.

٢. وتخصيص (اللمس) لأن التزوير لا يقع فيه، فلا يمكنهم أن يقولوا إنما سكرت أبصارنا، ولأنه يتقدمه الإبصار، حيث لا مانع، وتقييده بـ (الأيدي) لرفع التجوز، فإنه قد يتجوز به للفحص، كقوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ [الجن: ٨] ـ أفاده البيضاوي.

٣. قال الناصر في (الانتصاف): والظاهر أن فائدة زيادة لمسهم له بأيديهم، تحقيق القراءة على قرب، أي: فقرؤوه وهو في أيديهم، لا بعيد عنهم، لما آمنوا.

٤. وقال ابن كثير: وهذا كما قال تعالى مخبرا عن مكابرتهم للمحسوسات: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤ ـ ١٥]، ولقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤]

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/٣١٨.

(٢) تفسير المنار: ٧/٢٥٨.

١. بينا في تفسير الآيات السابقة أن الثلاث الأولى: منها قد أرشدت إلى ما دعا إليه الرسول ﷺ من التوحيد والبعث والآيات الدالة عليهما، وأن الثلاث التي بعدها أرشدت إلى سبب تكذيب قريش بذلك وهو الحق المبين بالدليل، وأنذرتهم عاقبة هذا التكذيب، وهو ما يحل بهم من عذاب الله في الدنيا والآخرة، وإنه لا يحول دونه ما هم مغرورون به من قوتهم وضعف الرسول ﷺ وتمكنهم في أرض مكة وهي أم القرى وأهلها قدوة العرب، وقد بين تعالى في هذه الآيات الثلاث شبهات أولئك الجاحدين المعاندين على الوحي وبعثة الرسول ﷺ فتم بيان أسباب جحودهم بأركان الإيمان كلها كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

٢. ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ جاء بعد تلك الآيات البينات الواردة بأسلوب الحكاية وضمائر الغيبة مبينا هذا المعنى للرسول بأسلوب الالتفات إلى خطابه ﷺ، كأنه يقول: قد علمت أن علة تكذيبهم بالحق إنما هي إعراضهم عن الآيات، وما أقفلوا على أنفسهم من باب النظر والاستدلال، لإخفاء الآيات في نفسها، ولا قوة الشبهات التي تحول دونها، ألم تر أن آيات التوحيد في الأنفس والآفاق هي أظهر الآيات وأكثرها، ولم يمنعهم من الكفر بها مبالغة الكتاب المعجز في تقريرها، ولو أننا أنزلنا عليك كتابا من السماء في قرطاس كما اقترحوا فرأوه نازلا منها بأعينهم، ولمسوه عند وصوله إلى الأرض بأيديهم، لقال الذين كفروا منهم كفر العناد والاستكبار: ما هذا الذي رأينا ولمسنا إلا سحر بين في نفسه، ثابت في نوعه، وإنما خيل إلينا أننا رأينا كتابا ولمسناه، وما ثم كتاب نزل، ولا قرطاس رؤي ولا لمس، وكذلك قال أمثالهم في آيات الأنبياء من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا.

٣. الكتاب في الأصل مصدر كالكتابة ويستعمل غالبا بمعنى المكتوب فيطلق على الصحيفة المكتوبة وعلى مجموعة الصحف في مقصد واحد، والقرطاس بكسر القاف (وتفتح وتضم لغة) الورق الذي يكتب فيه وقيل هو مخصوص بالمكتوب منه وقوله تعالى: ﴿فِي قِرْطَاسٍ﴾ صفة له أو متعلق به.

٤. واللمس كالمس إدراك بظاهر البشرة كما قال الراغب وقال الجوهري اللمس باليد، والصواب أن الأصل فيه اللمس بظاهر البشرة ولذلك يطلق بمعنى الوقاع كالملامسة، ولكن لما كان أكثر اللمس باليد وقلما يقع بالقدم أو الساعد مثلا توهم أنه خاص بمس اليد، وتقييد اللمس في الآية بالأيدي يعين المراد منه بدفع احتمال التجوز به، إذ اللمس يستعمل مجازا بمعنى طلب الشيء والبحث عنه، يقال لمسه والتمسه

وتلمسه ـ بهذا المعنى، ومنه ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن: ٨] ويستلزم لمسه بالأيدي رؤيته بالأبصار، قال قتادة: فعاينوه ومسوه بأيديهم، وقال مجاهد: فمسوه ونظروا إليه، والرؤية واللمس أقوى اليقينيات الحسية وأبعدها عن الخداع ولا سيما إذا اجتمعا، والثقة باللمس أقوى لأن البصر قد يخدع بالتخيل، وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥] ولكن مكابرة الحس بعد اجتماع أقوى إدراكيه ـ وهما الرؤية واللمس ـ وتقوية أحدهما الآخر قلما يقع إلا من جاحد معاند مستكبر أو من مقلد أعمى لا تتوجه نفسه إلى معرفة شيء يخالف ما تقلده من آبائه وقومه، وقال ابن المنير: (الظاهر أن فائدة زيادة لمسه بأيديهم تحقيق القراءة على قرب أي فقرءوه وهو بأيديهم لا بعيد عنهم لما آمنوا)، والأول هو الظاهر المختار.

٥. والآية تدل على أن السحر خداع باطل، وتخييل يري ما لا حقيقة له في صورة الحقائق، ويقول بعض المتكلمين أن السحر من خوارق العادات، وأن الفرق بينه وبين المعجزات إنما هو في اختلاف حال من تصدر الخوارق على أيديهم لا في كون آيات الأنبياء حقا وكون السحر باطل، والآية تبطل هذا القول ولا تقوم الحجة بها عليه، إذ يكون معنى دفع المشركين حينئذ: ما هذا الكتاب الذي نزل على الوجه الذي اقترحنا إلا خارقة من خوارق العادات لا ريب فيها ولكنها صدرت على يد ساحر فهي إذا من السحر، لا على يد من ادعى النبوة حتى تسمى آية أو معجزة، فيكون حاصله الطعن في شخص النبي ﷺ وإنكار ادعائه النبوة، وهذا المعنى مخالف للواقع على كون عبارة الآية تتبرأ من احتمال دنوه منها أو دخوله عليها من أحد الأبواب الثلاثة (الحقيقة والمجاز والكناية) ولعله لم يخطر على بال أحد يفهم العربية وإن كان من شيعة ذلك المذهب الكلامي الذي فسر السحر بما ذكر خلافا لظواهر الكتاب والسنة، فقد نص القرآن على أن السحر تخييل لما ليس واقعا، وأنه كيد ومكر، وأنه يتعلم تعلما، والخوارق لا تكون بالتعلم، وقال تعالى على لسان كليمه موسى ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ [يونس: ٨١]، وقال في آية أخرى ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ [الأنفال: ٨] فتعين أن يكون السحر باطلا لا حقا.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. بعد أن أرشد سبحانه في الآيات المتقدمة إلى ما دعا إليه الرسول ﷺ من التوحيد والبعث، ثم ذكر بعدها الأسباب التي دعت قريشا إلى التكذيب، وأنذرهم عاقبة هذا التكذيب بما يحلّ بهم من عذاب الله في الدنيا والآخرة، وأنه لا يحول دونه ما هم فيه من قوة وضعف الرسول ﷺ وتمكنهم في مكة وهي أم القرى، وأهلها القدوة والسادة بين العرب، ذكر هنا شبهات أولئك الجاحدين المعاندين على الوحى وبعثة الرسول، وبها تم بيان أسباب جحودهم وإنكارهم لأصول الدين الثلاثة (التوحيد والبعث ونبوة محمد ﷺ)

٢. كان الرسول ﷺ يعجب من كفر قومه به وبما أنزل عليه مع وضوح برهانه وإظهار إعجازه؛ وكان يضيق صدره لذلك ويبلغ منه الحزن والأسف كل مبلغ كما قال في سورة هود ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ كَنْزٌ أو جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾، فبين الله أسباب ذلك ومناشئه من طباع البشر وأخلاقهم، ليعلم أن الحجة مهما تكن ناهضة فإنها لا تجدى إلا عند من كان مستعدا لها وزالت عنه موانع الكبر والعناد، وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة:

٣. ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي إن علة تكذيبهم بالحق هي إعراضهم عن الآيات وإقفال باب النظر والاستدلال لإخفاء الآيات في أنفسها وقوة الشبهات التي تحوم حولها، فلو أننا نزلنا عليك كتابا من السماء في قرطاس فرأوه نازلا فيها بأعينهم ولمسوه عند وصوله إلى الأرض بأيديهم لقال الذين كفروا منهم: ما هذا الذي رأيناه ولمسناه إلا سحر بيّن في نفسه، وإنما خيل إلينا أننا رأينا كتابا ولمسناه، وما ثمّ كتاب نزل ولا قرطاس رئي ولا لمس، وتلك مقالة أمثالهم في آيات الأنبياء من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

وإنما قال لمسوه بأيديهم، ليبين أن المراد باللمس المعنى الأول لا الثاني الذي بيناه فيما سلف، ومن ثمّ قال قتادة: فعاينوه ومسّوه بأيديهم، وقال مجاهد فمسّوه ونظروا إليه؛ واللمس أقوى اليقينيات الحسية وأبعدها عن الخداع، لأن البصر يخدع بالتخيل، وجاء في سورة الحجر: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ

---

(١) تفسير المراغي ٧/٧٨.

﴿فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ﴾ [حبست ومنعت] ﴿أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. يمضي السياق يصور طبيعة العناد، التي ينبعث منها ذلك الإعراض؛ فيرسم نموذجا عجيبا من النفوس البشرية.. ولكنه نموذج مع ذلك مكرور، يجده الإنسان في كل عصر وفي كل جيل.. نموذج النفس المكابرة، التي يخرق الحق عينها ولا تراه! والتي تنكر ما لا ينكر لأنه من الوضوح بحيث يخجل المخالف أن ينكره! على الأقل من باب الحياء!.. والقرآن يرسم هذا النموذج شاخصا في كلمات قلائل، على طريقة التعبير القرآني المبدعة المعجزة في التعبير والتصوير: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾

٢. إنه ليس الذي يجعلهم يعرضون عن آيات الله، أن البرهان على صدقها ضعيف، أو غامض، أو تختلف فيه العقول، إنما الذي يجعلهم يقفون هذا الموقف هو المكابرة الغليظة والعناد الصفيق! وهو الإصرار مبدئيا على الرفض والإنكار وعدم اعتبار البرهان أو النظر إليه أصلا! ولو أن الله سبحانه نزل على رسول الله ﷺ هذا القرآن، لا عن طريق الوحي الذي لا يرونه؛ ولكن في ورقة منظورة ملموسة محسوسة؛ ثم لمسوا هم هذه الورقة بأيديهم ـ لا سماعا عن غيرهم، ولا مجرد رؤية بعيونهم ـ ما سلموا بهذا الذي يرونه ويلمسونه، ولقالوا جازمين مؤكدين: ﴿إِنْ هَذَا إلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾

٣. وهي صورة صفيقة، منكرة، تثير الاشمئزاز، وتستعدي من يراها عليها! صورة تثير النفس لتتقدم فتصفعها! حيث لا مجال مع هذه الجبلات لحجة أو جدل أو دليل! وتصويرها على هذا النحو ـ وهي صورة تمثل حقيقة لنماذج مكرورة ـ يؤدي غرضين أو عدة أغراض:

أ. إنه يجسم للمعارضين أنفسهم حقيقة موقفهم الشائن الكريه البغيض؛ كالذي يرفع المرآة لصاحب الوجه الشائه والسحنة المنكرة، ليرى نفسه في هذه المرآة، ويخجل منها! وهو في الوقت ذاته يستجيش ضمائر المؤمنين تجاه إعراض المشركين وإنكار المنكرين؛ ويثبت قلوبهم على الحق، فلا تتأثر بالجو

(١) في ظلال القرآن: ٢/١٠٤٠.

المحيط من التكذيب والإنكار والفتنة والإيذاء.

ب. كذلك هو يوحي بحلم الله الذي لا يعجل على هؤلاء المعارضين المكذبين، وهم في مثل هذا العناد المنكر الصفيق، وكلها أسلحة وحركة في المعركة التي كانت تخوضها الجماعة المسلمة بهذا القرآن في مواجهة المشركين.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. تعرض هذه الآيات ما كان عليه مشركو مكة من ضلال وعناد، في لقائهم للدعوة الإسلامية، ووقوفهم منها هذا الموقف العناديّ، الممعن في العناد والتحدّى.. فقد ركبوا رؤوسهم، واتبعوا أهواءهم، واعتصموا بما هم فيه من شرك وضلال.. وهكذا كل من يلقى الأمور بظهره، وينظر إلى الأشياء بعين هواه، لا يرى الحقّ أبدا، حيث لا يستمع لكلمة ناصح، أو يستجيب لدعوة داع.. وهؤلاء المشركون.. لن تتغيّر حالهم أبدا، ولن يتحولوا عمّا ركبهم من شرك وضلال، ولو جاءهم النبيّ بكل آية.

٢. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يكشف عن هذا العناد الذي انعقدت عليهم قلوب الكافرين من أهل مكة، وأنهم لن يؤمنوا أبدا، ولو نزّل عليهم كتاب من السماء، مكتوب في قرطاس يرونه، ويلمسونه بأيديهم..

٣. والمراد بالذين كفروا هنا، هم الذين كتب الله عليهم الشرك من مشركي مكة، الذين لم يدخلوا في الإسلام، وماتوا على الكفر.. وهم الذين أشارت إليهم الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] فالخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ لا يراد به جميع المشركين من أهل مكة، الذين ووجهوا بهذا الحكم، وإنما يراد به تلك الجماعة التي ظلت سادرة في غيها وضلالها، إلى أن ماتت على كفرها وشركها.

ابن عاشور:

(١) التفسير القرآني للقرآن: ١٣٣/٤.

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾:

أ. يجوز أن تكون الواو عاطفة والمعطوف عليه جملة ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾، وما بينهما جملا تعلّقت بالجملة الأولى على طريقة الاعتراض، فلمّا ذكر الآيات في الجملة الأولى على وجه العموم ذكر هنا فرض آية تكون أوضح الآيات دلالة على صدق محمد ﷺ، وهي أن ينزّل الله عليه كتابا من السماء على صورة الكتب المتعارفة، فرأوه بأبصارهم ولمسوه بأيديهم لّما آمنوا ولادّعوا أنّ ذلك الكتاب سحر.

ب. ويجوز أن تكون الواو للحال من ضمير ﴿كَذَّبُوا﴾ في قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي أنكروا كون القرآن من عند الله، وكونه آية على صدق الرسول، وزعموا أنّه لو كان من عند الله لنزل في صورة كتاب من السماء، فإنّهم قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ وقالوا: ﴿حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ فكان قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ مشتملا بالإجمال على أقوالهم فصحّ مجيء الحال منه، وما بينهما اعتراض أيضا.

ج. وعلى الوجه الأول فالكتاب الشيء المكتوب سواء كان سفرا أم رسالة، وعلى الثاني فالمراد بكتاب سفر أي مثل التوراة.

٢. والخطاب للنبي ﷺ لا محالة لأن كلّ ينزل من القرآن موجّه إليه لأنّه المبلّغ، فانتقال الخطاب إليه بعد الحديث عن ذوي ضمائر أخرى لا يحتاج إلى مناسبة في الانتقال، وليس يلزم أن يكون المراد كتابا فيه تصديقه بل أعمّ من ذلك.

٣. ﴿فِي قِرْطَاسٍ﴾ صفة لكتاب، والظرفية مجازية من ظرفية اسم الشيء في اسم جزئه، والقرطاس ـ بكسر القاف ـ على الفصيح، ونقل ـ ضمّ القاف ـ وهو ضعيف، وهو اسم للصحيفة التي يكتب فيها ويكون من رقّ ومن بردى ومن كاغد، ولا يختصّ بما كان من كاغذ بل يسمّى قرطاسا ما كان من رقّ، ومن النّاس من زعم أنّه لا يقال قرطاس إلا لما كان مكتوبا وإلا سمّي طرسا، ولم يصحّ، وسمّى العرب الأديم الذي يجعل غرضا لمتعلّم الرمي قرطاسا فقالوا: سدّد القرطاس، أي سدّد رميه، قال الجواليقي:

---

(١) التحرير والتنوير: ٦/٢٣.

القرطاس تكلّموا به قديما ويقال: إنّ أصله غير عربي، ولم يذكر ذلك الراغب ولا لسان العرب ولا القاموس، وأثبته الخفاجي في شفاء الغليل، وقال: كان معرّبا فلعلّه معرّب عن الرومية، ولذلك كان اسم الورقة في لغة بعضهم اليوم (كارتا)

٤. ﴿فَلَمَسُوهُ﴾ عطف على ﴿نَزَّلْنَا﴾، واللمس وضع اليد على الشيء لمعرفة وجوده، أو لمعرفة وصف ظاهره من لين أو خشونة، ومن برودة أو حرارة، أو نحو ذلك، فقوله: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ تأكيد لمعنى اللمس لرفع احتمال أن يكون مجازا في التأمّل، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ وللإفصاح عن منتهى ما اعتيد من مكابرتهم ووقاحتهم في الإنكار والتكذيب، وللتمهيد لقوله: ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ لأن المظاهر السحرية تخيّلات لا تلمس.

٥. جاء قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ دون أن يقول: لقالوا، كما قال: ﴿فَلَمَسُوهُ﴾ إظهارا في مقام الإضمار لقصد تسجيل أنّ دافعهم إلى هذا التعنّت هو الكفر، لأن الموصول يؤذن بالتعليل.

٦. ومعنى: ﴿إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أنّهم يغالطون أنفسهم ويغالطون قومهم لستر مكابرتهم ولدفع ما ظهر من الغلبة عليهم، وهذا شأن المغلوب المحجوج أن يتعلّق بالمعاذير الكاذبة، والمبين: البيّن الواضح، مشتقّ من (أبان) مرادف (بان)، وتقدّم معنى السحر عند قوله تعالى: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ في سورة البقرة.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. كانت الآيات السابقة تبين إعراض الذين كفروا عن آيات الله تعالى، وهي المعجزات التي يأتي بها الأنبياء لإثبات أن رسالاتهم من عند الله سبحانه وتعالى، وأن المشركين يعرضون عن القرآن الكريم، ويطالبون بآيات أخرى ويحسبون أن المسوغ لكفرهم نقص فيها، لا نقص فيهم بعدم الاذعان للحق، وأن الناس قسمان:

أ. قسم يذعن للحق إذا قامت بيناته، وهذا يكفيه ما اختاره الله سبحانه وتعالى دليلا على رسالة

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/٢٤٤١.

من بعثه الله تعالى؛ لأنهم طلاب حق يتعرفون دليله، ويذعنون إليه.

ب. والقسم الثاني: استولت عليهم أهواؤهم وشهواتهم، وسدت مسالك النور في قلوبهم، فهم في لهو وإعراض، وهؤلاء لا تزيدهم قوة الدليل إلا إصرارا، وهؤلاء لا يذعنون للحق مهما تكن قوة الدليل، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، أي إن هؤلاء لا ينقصهم الدليل، ولكن ينقصهم التوجه، وأخذ أمر الدين بعناية وتفكير واتجاه سليم لطلبه، فإن الاتجاه المخلص يجعل النفس تشرق، وتمتلئ بالحكمة، فيقنعها الدليل، وهؤلاء المغرضون ينقصهم ذلك الاتجاه المستقيم، الذى يملؤهم بالنور، ويشرق في قلوبهم طلب الحكمة والنزوع إليها، وعلى ذلك لا تجدى فيهم الآيات مهما تكن قوة الدليل وحسيته.

٢. وفى النص القرآني مقامات بيانية تقرب معناها السامي وإن كان بينا في ذاته:

أ. الأول: {لَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ} (لو) هنا حرف امتناع لامتناع، أي أن الله سبحانه يمتنع عن أن يفعل ذلك؛ لأنه عبث لا يليق أن يصدر عن ذاته العلية؛ إذ لا ثمرة له، فلن يؤمنوا مهما تكن قوة الدليل، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر]، فالكلام القرآني في مضمونه هنا يحكم بأن الهداية السامية لا تفتح لها قلوبهم المعرضة المتحيرة المركسة في الضلالة، وقوى سبحانه وتعالى امتناع هدايتهم، إذا جاءتهم آية بأن لو نزل عليهم مكتوب من السماء محفوظ في قرطاس متضمن معنى رسالة الله تعالى، ولمسوه بأيديهم للدلالة على العلم الحسيالذى لا ريب فيه ولا شك ـ لا يؤمنون، فتأكدت لديهم رسالة الله تعالى بأمور ثلاثة بهذا المكتوب الذى وضع في غلافه، وبلمسه بالحس، وبكون اللمس بكل الأيدي والجوارح.

ب. الثاني: أنهم لا يقابلون ذلك بالتصديق والإقبال والإذعان، بل ينتحلون الأعذار لكفرهم، ولا يجدون مساغا إلا ادعاء السحر يلجئون إليه، مع أن السحر تخييل وتسكير للإبصار، وهذا فيه لمس بالأيدي فلم يقتصروا على الرؤية حتى يقولوا: إنما سكرت أبصارنا، بل نحن قوم مسحورون، ومع ذلك يبهتون الحق، ويجابهون الواقع ويقولون مؤكدين: ﴿إِنْ هَذَا إلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾

ج. الثالث: أن الله تعالى حكم سبحانه بعدله وإنصافه بأن ذلك قول الذين كفروا منهم، ففي ذلك إشارة إلى أمرين:

• الأول: الإشارة إلى أن الذين يقولون هم الذين كفروا، وأن هناك في مقابلهم مؤمنين يذعنون للحق، ويصدقون الآيات.

• الثاني: أن السبب هو الكفر والجحود والإعراض، فلا يؤمنون بآية مهما تكن قوتها في الدلالة، لإعراض القلوب وعدم اتجاهها إلى الحق، بل إنها مظلمة معتمة لا يدخل إليها النور مهما يكن وضاء.

د. الرابع: أنهم لفرط جحودهم وإغلاق قلوبهم يؤكدون أنه سحر مع اللمس بالأيدي وقد أكدوا حكمهم الباطل:

• أولا ـ بالنفي والإثبات، أي أنه مقصور على أنه سحر.

• ثانيا ـ بالإشارة إليه، وذكروا أنه بين واضح.

• ثالثا ـ والمعنى الجملي أنه لا تجدى فيهم معجزة ولا دليل، ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام]

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾، أقام النبي ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة منذ نزول الوحي عليه إلى أن هاجر إلى المدينة، وكان يدعو أهلها طوال هذه المدة إلى التوحيد والعدل، وينهاهم عن الشرك والجور، وكان أسلوبه في الدعوة الحكمة والموعظة الحسنة، فاستجاب له أقلهم، وامتنع أكثرهم، ولم يكتفوا بالامتناع، بل تألبوا عليه، وجعلوا يؤذونه بأيديهم تارة، وبألسنتهم أخرى، وكان يصبر على أذاهم، ويحرص على إيمانهم، ولكن الله سبحانه قال له: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف]، وقال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، أي لو نزلنا عليك يا محمد الكتاب جملة واحدة في صحيفة واحدة، فرأوه ولمسوه وشاهدوه عيانا لطعنوا فيه، وقالوا: أنه سحر.

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/١٦٤.

٢. وهذا النموذج من الناس موجود في كل جيل، بل في عصرنا الذي نعيش فيه فئة كبيرة لا تكتفي بإنكار الملموس المحسوس، حتى تسمي هذه الأشياء بأضدادها فتعبر عن الذئب بالحمل، وعن الأفعى بحمامة السلام، فهذه الولايات المتحدة تقوم بعملية حرب الابادة في فيتنام، وتقول: أنا أبني وأعمل للحياة.. وتلك إسرائيل تعتدي، وتقول: أنا المعتدى عليه.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ إلى آخر الآية، إشارة إلى أن استكبارهم قد بلغ مبلغا لا ينفع معه حتى لو أنزلنا كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم فناله حسهم بالبصر والسمع، وتأيد بعض حسهم ببعض فإنهم قائلون حينئذ لا محالة: هذا سحر مبين، فلا ينبغي أن يعبأ باللغو من قولهم: ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٣]

٢. وقد نكر الكتاب في قوله: ﴿كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ لأن هذا الكتاب نزل نوع تنزيل لا يقبل إلا التنزيل نجوما وتدريجا، وقيده بكونه في قرطاس ليكون أقرب إلى ما اقترحوه، وأبعد مما يختلج في صدورهم أن الآيات النازلة على النبي ﷺ من منشآت نفسه من غير أن ينزل به الروح الأمين على ما يذكره الله سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ ليتيقنوا أنه كتاب ليس خيالاً كما يخيل الساحر للبصر لقالوا بعدما علموا أنه كتاب أنزله الله من السماء على رسوله: ﴿إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي ما هذا الذي رأيناه ولمسناه بأيدينا إلا سحر تخييل من ساحر لا حقيقة له ﴿سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي بيّن أنه سحر مكابرة منهم وعناداً.

فضل الله:

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٨/٧.

(٢) التيسير في التفسير: ٤١٦/٢.

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. يستمر الوحي القرآني في استعراض ملامح الأسلوب السلبي الذي يتبعه الكافرون أمام الرسالات، مهما قدّمت لهم من بينات، ومهما استجابت لهم من مقترحات، فهم ينتقلون من اقتراح إلى اقتراح، فإذا استجيب لهم في بعضها كانت كلمة السحر هي التفسير الذي يواجهون به المعجزة.. وبدأوا يثيرون أمام الرسول اقتراحا جديدا، لأنهم لا يجيدون التفكير بطريقة توصل إلى الإيمان بل كل ما عندهم هو الشغب والشك وإثارة الشبهات ليشغلوا الساحة بذلك كله، فيبتعد المؤمنون عن القضايا الحيّة في الدعوة إلى الله والعمل في سبيله.

٢. وبهذا جاءت هذه الآية، فقد كانوا أثاروا أمام النبي ﷺ أن ينزل عليهم كتابا من السماء، وتنطلق كلمات الآية لتكشف ما في داخلهم من عدم الجدّية في هذا الطلب لأنهم لا يعيشون مشكلة فقدان الحجة، لتكون هذه الآية السماوية حجة عليهم، بل يعيشون حالة انعدام الإرادة في الإيمان.. ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ ولذلك فلو أن الله أنزل إليهم كتابا فلمسوه بأيديهم ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، فإن ردّ فعلهم لن يكون إلا أن يقولوا ﴿إِنْ هَذَا إلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. من عوامل انحرافهم الأخرى التكبر والعناد اللذين تشير إليهما، هذه الآية، أنّ المتكبر المكابر إنسان عنيد في العادة، لأن التكبر لا يسمح لهم بالاستسلام للحق والحقيقة، والأفراد المتصفون بهذه الصفة يكونون عادة معاندين مكابرين، ينكرون حتى الأمور الواضحة القائمة على الدليل والبرهان، بل ينكرون حتى البديهيات، كما نراه بأمّ أعيننا في المتكبرين من أبناء مجتمعاتنا.

٢. يشير القرآن هنا إلى الطلب الذي تقدم به جمع من عبدة الأصنام (يقال أنّ هؤلاء هم نضر بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية، ونوفل بن خويلد الذين قالوا لرسول الله ﷺ: لن نؤمن حتى ينزل الله كتابا مع أربعة من الملائكة!) ويقول: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ

---

(١) من وحي القرآن: ٩/٣٥.

(٢) تفسير الأمثل: ٤/٢١٦.

هَذَا إلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، أي أنّ عنادهم قد وصل حدّا ينكرون فيه حتى ما يشاهدونه بأعينهم ويلمسونه بأيديهم فيعتبرونه سحرا لكيلا يستسلموا للحقيقة، مع أنّهم في حياتهم اليومية يكتفون بعشر هذه الدلائل للإيمان بالحقائق ويقتنعون بها، وما هذا بسبب ما فيهم من أنانية وتكبر وعناد.

٣. وبهذه المناسبة فإن (القرطاس) هو كل ما يكتب عليه، سواء أكان ورقا أو جلدا أو ألواحا، أمّا إطلاقه اليوم على الورق فذلك لانتشار تداول الورق أكثر من غيره للكتابة.

٥. المعرضون عن آيات الله وإنزال الملك

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٥] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٨ ـ ٩]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا﴾ ولو أتاهم ملك في صورته ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ لأهلكناهم، ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ لا يؤخّرون[١].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾، يقول: لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في صورة رجل؛ لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة[٢].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾، يقول: لخلطنا عليهم ما يخلطون[٣].

٤. روي أنّه قال: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ﴾، يقول: شبّهنا عليهم[٤].

٥. روي أنّه قال: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾، فهم أهل الكتاب، فارقوا دينهم، وكذّبوا رسلهم، وهو تحريف الكلام عن مواضعه[٥].

الضحاك:

---

(١) نسبه السيوطي إلى أبي الشيخ، وأخرجه ابن جرير ٩/١٦١.

(٢) ابن جرير ٩/١٦٢.

(٣) ابن جرير ١/٦٠٥.

(٤) ابن جرير ٩/١٦٤.

(٥) ابن جرير ٩/١٦٠.

روي عن الضحاك بن مزاحم (ت ١٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: لو أتاهم ملك في صورته لماتوا[١].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾، يعني: التحريف، هم أهل الكتاب، فرّقوا كتبهم ودينهم، وكذّبوا رسلهم، فلبس الله عليهم ما لبسوا على أنفسهم[٢].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾، قال ملك في صورة رجل[٣].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾، في صورته[٤].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾، لقامت الساعة[٥].

٤. روي أنّه قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾، في صورة رجل؛ في خلق رجل[٦].

٥. روي أنّه قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ فقالوا: كيف يكون ملك رجلا!؟ ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾[٧].

عكرمة:

روي عن عكرمة (ت ١٠٥ هـ) أنّه قال: ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾، قال لقامت الساعة[٨].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

---

(١) تفسير البغوي ٣/١٢٩.

(٢) ابن جرير ٩/١٦٥.

(٣) نسبه السيوطي إلى عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٤) ابن جرير ٩/١٦١.

(٥) نسبه السيوطي إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وأبي الشيخ.

(٦) ابن جرير ٩/١٦٢.

(٧) الثوري ص ١٠٦.

(٨) ابن جرير ٩/١٦١.

١. روي أنّه قال: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾، يقول: لو أنزل الله ملكا ثم لم يؤمنوا لعجّل لهم العذاب[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾، يقول: ثم لم ينظروا[2].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾، يقول: في صورة آدميٍّ[3].

٤. روي أنّه قال: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾، يقول: ما لبس قوم على أنفسهم إلا لبس الله عليهم، واللّبس إنما هو من الناس، قد بيّن الله للعباد، وبعث رسله، واتخذ عليهم الحجّة، وأراهم الآيات، وقدّم إليهم بالوعيد[4].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾، يقول: لجاءهم العذاب[5].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾، يقول: شبّهنا عليهم ما يشبّهون على أنفسهم[6].

الصادق:

روي عن الإمام الصادق (ت ١٤٨ هـ) أنّه قال: لبسوا عليهم، لبس الله عليهم، فإن الله يقول ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾[7].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: نزلت في النضر بن الحارث، وعبد الله بن أمية بن المغيرة، ونوفل بن خويلد،

---

(١) عبد الرزاق ١/٢٠٤.

(٢) ابن أبي حاتم ٤/١٢٦٦.

(٣) عبد الرزاق ١/٢٠٣.

(٤) ابن جرير ٩/١٦٤.

(٥) ابن جرير ٩/١٦٠.

(٦) ابن جرير ٩/١٦٤.

(٧) تفسير العياشي ١/٣٥٥.

كلهم من قريش[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا﴾ يعني: هلّا ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ يعينه ويصدّقه بما أرسل به، نظيرها في الفرقان[2].

٣. روي أنّه قال: ثم قال تعالى حكاية عن قريش: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ يعني على رسول الله ﷺ ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ فأخبر عز وجل أن الآية إذا جاءت والملك إذا نزل ولم يؤمنوا هلكوا، فاستعفى النبي ﷺ من الآيات رأفة منه ورحمة على أمته، وأعطاه الله الشفاعة، ثم قال الله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي نزل بهم العذاب، ثم قال: ﴿قُلْ﴾ لهم، يا محمد ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا﴾ أي انظروا في القرآن، وأخبار الأنبياء ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[3].

٤. روي أنّه قال: يقول الله: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا﴾ فعاينوه ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ يعني: لنزل العذاب بهم، ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ يعني: ثم لا يناظر بهم حتى يعذبوا؛ لأنّ الرسل إذا كذّبت جاءت الملائكة بالعذاب[4].

٥. روي أنّه قال: يقول الله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ﴾ هذا الرسول ﴿مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ يعني: في صورة رجل حتى يطيقوا النظر إليه؛ لأن الناس لا يطيقون النظر إلى صورة الملائكة[5].

٦. روي أنّه قال: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ﴾ يعني: ولشبّهنا عليهم ﴿مَا يَلْبِسُونَ﴾ يعني: ما يشبّهون على أنفسهم؛ بأن يقولوا: ما هذا إلا بشر مثلكم[6].

ابن إسحاق:

روي عن محمد بن إسحاق (ت ١٥١ هـ) أنّه قال: دعا رسول الله ﷺ قومه إلى الإسلام، وكلّمهم فأبلغ إليهم ـ فيما بلغني ـ، فقال له زمعة بن الأسود بن المطلب، والنضر بن الحارث بن كلدة، وعبدة بن

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥٥٠.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥٥٠.

(٣) تفسير القمّي ١/١٩٤.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥٥٠.

(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥٥١.

(٦) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/٥٥١.

عبد يغوث، وأبيّ بن خلف بن وهب، والعاصي بن وائل بن هشام: لو جعل معك ـ يا محمد ـ ملك يحدّث عنك الناس، ويرى معك، فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ الآية[1].

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) أنّه قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾، لجعلنا ذلك الملك في صورة رجل؛ لم نرسله في صورة الملائكة[2].

الرسّي:

ذكر الإمام القاسم الرسي (ت ٢٤٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[3]:

١. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾، وكانوا يقولون لولا أنزل عليه، فيكون معه، فيشهد له من رسالته بما ينكرون، فقال الله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ فيهم بأخذهم، ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾، يقول تبارك وتعالى: ثم لا يتركون ساعة ولا يؤخرون، فما ينفعهم إذا أخذوا إيمانهم، بعد رؤيتهم للعذاب وعيانهم، ثم قال سبحانه: ولو أنزلنا ملكا ما أيقنوه، إلا أن يروه رؤية ويعاينوه، وما كانوا ليروه عيانا، إلا أن يجعله الله مثلهم إنسانا، في الصورة والحلية، وما للرجال من الهيئة، لا في جميع حدود البشرية؛ ولكنه في المنظر والرؤية.

٢. فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾، يقول سبحانه: ولو فعلنا ذلك به، فجعلناه رجلا كما يعرفون، لزادهم ذلك لبسا إلى لبسهم، ولما أيقنوا أنه ملك في أنفسهم، ولو نزلنا عليهم الملك على حاله ملكا، لما كان أحد منهم معاينا له ولا مدركا، إلا أن يأتيهم من الصورة وهيئتها في مثل لباسهم منها، فيرونه ويدركونه بمثل دركهم ورؤيتهم لها، وإلا لم يروه ولم يعاينوه أبدا، وكيف يرون من كان من الملائكة، ولم يروا قط من الجن أحدا، والجن في احتجابها عنهم أقرب إليهم قربا، والملائكة أبعد عنهم مكانا ومحتجبا!!؟ وليس يعاين أبدا من الملائكة الحضرة، إلا عند الموت الذي ليس بعده تأخير ولا نظرة، حين يكشف عن المحظور الغطاء، ويزول عنه الأخذ والإعطاء، فيرى من الحضرة

---

(١) ابن أبي حاتم ٤/١٢٦٥.

(٢) ابن جرير ٩/١٦٣.

(٣) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/٣٧٠.

ما لم ير، ويحدث الله له عند المعاينة لهم بصرا، فيعاينهم عند الموت وفي غمراته، وعندما وقع فيه من غصصه وسكراته، كما قال الله سبحانه: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق:١٩]، وقد قال في الموت وما بعده من البعث: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢]، وكما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، فالملائكة هم الذين يبسطون أيديهم ويقولون: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣]

٣. سؤال وإشكال: وقلت: أرأيت لو جعل الله الملك رجلا، ومن كانت الرسل تراه من الملائكة قبلا، أهم في تلك الحال والهيئة والصورة ملائكة أم رجال؟ والجواب: بل هم في تلك ملائكة، وإن انصرفت بهم الهيئة والأحوال؛ ألا ترى أن الذهب والنحاس، وإن لم يكونا هم الناس، فقد يصنع منهما صور وهيئات، ويحدث فيها تماثيل مختلفات، والذهب وإن اختلفت هيئاته ذهب على حاله، وكذلك النحاس وإن كثرت فيه الصور فهو نحاس على حاله، لم ينقل واحد منهما عن خليقته وذاته، ما نقل عنه من متقدم صورته وهيئاته، وإنما تبدو الملائكة إذا بدت بأمر الله وإرادته إلى البشر، بما جعل الله لها وأحدث فيها من الهيئات والصور، لا البشر بما لا يدركون ولا يرون، من الصور والهيئات إلا ما يبصرون، فجعل الله من الملائكة رسلا، وجعل من شاء منهم كما شاء إن شاء رجلا، وقال في ذلك تبارك وتعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر:١]، فالتبديل للخلق والزيادة ـ ليست إبادة، وكذلك من مسخه الله تبارك وتعالى قردا أو خنزيرا ـ فإنما أحدث له عن هيئته وصورته تبديلا وتغييرا، فبدل هيئته وصورته، وأقر نفسه وذاته، ولو كان المسخ للممسوخ إبادة وافناء ـ لكان ذلك فطرة وإنشاء وابتداء، ولم يقل: تغيير ولا مسخ ولا تبديل، ولم يصح بذلك ـ إذا لم تكن الذات موجودة ـ خبر ولا قيل[1].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

---

(١) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/٣٧٠.

(٢) تأويلات أهل السنة: ٤/٢٦.

١. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾:

أ. أن مشركي العرب كانوا لا يعرفون الرسل، ولا الكتب، ولا كانوا آمنوا برسول ولا كتاب، فقالوا: ﴿لَوْلَا أنزل عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أو نَرَى رَبَّنَا﴾، ونحوه من السؤال، فيسألون إنزال الملك.

ب. ثم يحتمل سؤالهم إنزال الملك لما لم يكونوا رأوا الرسل يكونون من البشر، وإنما رأوا الرسول إن كان يكون ملكًا، فقالوا: ﴿لَوْلَا أنزل عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾

ج. ويحتمل أن يكون سؤالهم إنزال الملك سؤال عناد وتعنت، لا سؤال طلب الرسول من الملائكة.

٢. فقال: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا﴾ على ما سألوا ﴿لَقُضِيَ الأمر﴾ أي أن الملك إذا نزل على إثر سؤال العناد والتعنت ينزل بالعذاب والهلاك، فهذا يبين أن سؤالهم سؤال تعنت وعناد.

٣. ﴿لَقُضِيَ الأمر ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ أي أنهم كانوا يسألون إنزال الملك آية لصدقه عليه السلام فقال: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمر ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ أي: يهلكون؛ لأن الآيات إذا نزلت على إثر سؤال القوم ثم خالفوا تلك الآيات وكذبوها لنزل بهم العذاب والهلاك، وإن جاءت الآيات على غير سؤال، فكذبوها يمهلون، ولا يعذبون عند تكذيبهم إياها.

٤. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ قيل: آدميًّا بشرًا، ويحتمل هذا وجوهًا:

أ. أحدها: أي: لو بعثنا الرسول ملكًا لجعلناه على صورة البشر؛ لأنه لو كان على صورة الملائكة لصعقوا ودهشوا؛ لأنه ليس في وسع البشر رؤية الملك على صورته، ألا ترى أن جبريل عليه السلام إذا نزل على رسول الله ﷺ لم ينزل على صورته، ولكن كان ينزل على صورة البشر، حتى ذكر أنه كان ينزل عليه على صورة دحية الكلبي، وأنه متى رآه على صورته صعق وتغير حاله، فإذا رأوا ذلك في وجهه قالوا: إنه لمجنون، فقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ ويكون فيه ما في رسول الله ﷺ من اللبس به.

ب. الثاني: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾؛ لأنهم لا يعرفون صدقه، فيحتاجون إلى الدلائل، والآيات التي تدلهم على أنه ملك، وعلى صدقه، فذلك لا يعرف إلا بالبشر؛ لأنهم لا يعرفون صدقه.

٥. ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ الآية:

أ. قالوا: لا يجوز إضافة اللبس إلى الله تعالى إلا على المجازاة للبس، كالاستهزاء، والمكر، والخداع.

ب. ويحتمل قوله: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ أي: لو جعلناه ملكًا للبسنا عليهم ما لبس أُولَئِكَ

على صنيعهم؛ حيث قالوا: ﴿مَا هَذَا إلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾، و﴿مَا أَنْتُمْ إلا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾، وغير ذلك من الكلام، لكنا لا نفعل حتى لا يكون ذلك لبسًا؛ إذ ليس في وسعهم النظر إلى الملك، ولو جعلنا ذلك ملكًا لكان ذلك لبسًا.

٦. سؤال وإشكال: فإن قال لنا ملحد في قوله: ﴿لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمر﴾ سألوا أن ينزل على رسول الله ﷺ ملك، وقال: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمر﴾، وأنتم تقولون: إنه قد أنزل عليه الملك، وهو أخبر لو أنزل عليه الملك لقضي الأمر، ولم يقض الأمر، كيف لآيات لكم إنما اختار ذلك من نفسه؛ لأن الله أنزل عليه ذلك؟ والجواب: إنهم إنما سألوا أن ينزل عليهم الملك ـ وإن لم يذكر في الآية السؤال ـ لما ذكر في آية أخرى؛ كقولهم: ﴿لَوْلَا أنزل عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أو نَرَى رَبَّنَا﴾، أو سألوا أن تأتيهم الملائكة وتأتيه، قالوا: كيف يَخَصُّ هو بإتيان الملائكة دوننا وهو كواحد منا؛ كقوله: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، وهذا جائز أن يكون أسئلة لم تذكر، ويكون في الجواب بيان ذلك، على ما ذكرنا من قبل في غير موضع.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي لقضي هلاكهم ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ أي لو نزلنا ملكاً لجعلناه على صور الآدميين حتى تقع المحنة والفتنة والاختبار، عند لبسهم لما يلبسون، وتقع النصفة وتحكم العقول من المؤمنين الذين يعملون بالبينات وترك الظنون.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ يعني ملكاً يشهد بتصديقه ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي لو أنزلنا فلم يؤمنوا لقضي عليهم بعذاب الاستئصال لأن الأمم السالفة كانوا إذا اقترحوا على أنبيائهم

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/١٨٤.

(٢) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/٢٣٦.

الآيات فاجابهم الله إلى ذلك فلم يؤمنوا استأصلهم بالعذاب ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ أي لا يمهلون ولا يؤخرون عن عذاب الاستئصال.

٢. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ أي لجعلناه في صورة رجل لأنهم لا يستطيعون أن يروا الملائكة على صورهم وإذا كان في صورة الرجل لم يعلموا أملك هو أم غير ملك ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ أي ولخلطنا عليهم ما يخلطون ولشبهنا عليهم مثل ما يشبهون على أنفسهم.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أي ملك يشهد بتصديقه ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمر﴾ أي لو أنزلنا ملكاً فلم يؤمنوا لقضي الأمر وفيه تأويلان:

أ. أحدهما: لقضي عليهم بعذاب الاستئصال، قاله الحسن، وقتادة، لأن الأمم السالفة كانوا إذا اقترحوا على أنبيائهم الآيات فأجابهم الله تعالى إلى الإظهار فلم يؤمنوا استأصلهم بالعذاب.

ب. الثاني: أن معنى لقضي الأمر لقامت الساعة، قاله ابن عباس.

٢. ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ أي لا يُمْهَلُون ولا يُؤَخَّرون، يعني:

أ. عن عذاب الاستئصال، على التأويل الأول.

ب. وعن قيام الساعة على التأويل الثاني.

٣. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ يعني ولو جعلنا معه ملكاً يدل على صدقه لجعلناه في صورة رجل، وفي وجوب جعله رجلاً وجهان:

أ. أحدهما: لأن الملائكة أجسامهم رقيقة لا تُرَى، فاقتضى أن يُجْعَل رجلاً لكثافة جسمه حتى يرى.

ب. الثاني: أنهم لا يستطيعون أن يروا الملائكة على صورهم، وإذا كان في صورة الرجل لم يعلموا ملك هو أو غير ملك.

---

(١) تفسير الماوردي: ٢/٩٦.

٤. ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ فيه ثلاثة تأويلات:

أ. أحدها: معناه ولخلطنا عليهم ما يخلطون، قاله الكلبي.

ب. الثاني: لشبهنا عليهم ما يشبهون على أنفسهم، قال الزجاج: كما يشبهون على ضعفائهم واللبس في كلامهم هو الشك ومنه قول الخنساء:

أصدق مقالته واحذر عداوته والبس عليه بشك مثل ما لبسا

ج. الثالث: وللبسنا على الملائكة من الثبات ما يلبسه الناس من ثيابهم، ليكونوا على صورهم وعلى زِيِّهم، قاله جويبر.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. أخبر الله تعالى في هذه الآية عن هؤلاء الكفار أنهم قالوا (لولا) ومعناه: هلا ﴿أنزل عَلَيْهِ﴾ يعنون على محمد (ملك) يشاهدونه فيصدقه، ثم أخبر عن عظم عنادهم أنه لو أنزل عليهم الملك على ما اقترحوه لما آمنوا به، واقتضت الحكمة استئصالهم وإلا ينظرهم ولا يمهلهم، وذلك بخلاف ما علم الله تعالى من المصلحة على ما بيناه.

٢. ومعنى ﴿لَقُضِيَ الأمر﴾ أي أتم إهلاكهم وقضي على ضروب كلها ترجع إلى معنى تمام الشيء وانقطاعه في قول الزجاج، فمنه ﴿قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ معناه ثم ختم بذلك وأتمه، ومنه الأمر كقوله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ إلا تَعْبُدُوا إلا إِيَّاهُ﴾ إلا أنه أمر قاطع ومنه الاعلام نحو قوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي أعلمناهم إعلاماً قاطعا، ومنه الفصل في الحكم نحو قوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي لفصل الحكم بينهم، ومنه قولهم قضى القاضي، ومن ذلك قضى فلان دينه، أي قطع ما لغريمه عليه وأداه إليه وقطع ما بينه وبينه وكلما أحكم فقد قضي، تقول قضيت هذا الثوب وهذه الدار، أي عملتها وأحكمت عملها، قال أبو ذؤيب

وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السوابغ تبع

---

(١) تفسير الطوسي: ٨٤/٤.

٣. وقال مجاهد معنى ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ يريدون في صورته، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا﴾ في صورته ﴿لَقُضِيَ الأمر﴾ أي لقامت الساعة أو وجب استئصالهم.

٤. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ﴾ في صورة رجل، لأن أبصار البشر لا تقدر على النظر إلى صورة ملك على هيئته للطف الملك وقلة شعاع أبصارنا وكذلك كان جبرائيل عليه السلام يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي، وكذلك الملائكة الذين دخلوا على إبراهيم في صورة الأضياف حتى قدم اليهم عجلا جسدا، لأنه لم يعلم أنهم ملائكة، وكذلك لما تسور المحراب على داوود الملكان كانا في صورة رجلين يختصمان إليه، وقال بعضهم: المعنى لو جعلنا مع النبي ملكا يشهد بتصديقه ﴿لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ والأول أصح.

٥. ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ يقال: لبست الأمر على القوم ألبسه إذا شبهته عليه، ولبست الثوب البسه، وكان رؤساء الكفار يلبسون على ضعفائهم أمر النبي عليه السلام، فيقولون: هو بشر مثلكم، فقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا﴾ فرأوا الملك رجلا ولم يعلمهم أنه ملك لكان يلحقهم من اللبس ما يلحق ضعفائهم منهم، واللبوس ما يلبس من الثياب واللباس الذي قد لبس واستعمل.

٦. سؤال وإشكال: قوله: أنه لو جعل الملك رجلا للبس عليهم يدل على أن له أن يلبس بالإضلال والتلبيس؟ والجواب: ليس ذلك في ظاهره، لأنه لم يخبر أنه لبس عليهم، وإنما قال لو جعلته ملكا للبست ولم يجعله ملكا فإذاً ما لبس، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ وليس يجوز عليه اتخاذ الولد ولا الاصطفاء له بحال، فسقط ما قالوه.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. القضاء: فَصْلُ الأمر، ومنه ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي لفصل الأمر بينهم، ومنه قضى القاضي إذا فصل في الحكم، قال أبو مسلم: القضاء للشيء الفراغ منه، وذلك يرجع إلى ما قلنا؛ لأنه يفرغ منه بالفصل..

ب. الإنظار والإمهال نظائر، ومنه ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾

(١) التهذيب في التفسير: ٣/٤٩٢.

ج. اللَّبْس: الستر بالثوب ونحوه، لبِسْتُ الثوب أَلْبَسُهُ لَبْسًا، واللباس الثياب، ولباس التقوى جمال التقوى لأنه كاللباس الذي يتجمل به، واللبوس: الدرع؛ لأنها تستر البدن من السلاح، واللبيس: الذي قد أخلق لكثرة اللبس، ولَبَسْتُ عليه خَلَطْتُه، والتبس التباسًا، وأمر ملتبس، قال أبو مسلم: لبَسْت أَلْبِس - بفتح الباء في الماضي وكسرها في المستقبل - من اللبس الذي هو الشك، وعلى خلاف ذلك من اللباس الذي هو الكسوة، فإنه يكسر في الماضي وتفتح في المستقبل تقول: لِبْست أَلْبَس، قال الشاعر في اللبس الذي هو الشك، أنشده أبو مسلم للخنساء:

صَدِّقْ مَقَالَتَهُ واحْذَرْ عَدَاوَتَهُ   والْبِسْ عَلَيَهِ بِشَكٍّ مِثْلَ مَا لَبِسَا

٢. بَيَّنَ تعالى اقتراحاتهم الفاسدة، والجواب عليها، فقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا﴾ يعني كفار قريش ﴿لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾:

أ. يعني هلا أنزل عليه ملك يشهد له ومعجزة له.

ب. وقيل: هلا أنزل عليه ملك فنراه عيانًا يقول: إنه رسول الله.

٣. ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمر﴾ أي فرغ من أمرهم:

أ. قيل: لأهلكوا بعذاب الاستئصال، عن الحسن وقتادة والسدي.

ب. وقيل: لقامت القيامة، عن مجاهد وعكرمة.

ج. وقيل: لو أتاهم ملك لماتوا، عن الضحاك.

٤. ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ أي لا يُمْهَلون إذا نزل الملك، ولم يؤمنوا، فكان نزوله لا ينفعهم، ويضرهم إهلاكهم، فلم يك لهم فيه مصلحة.

٥. سؤال وإشكال: لِمَ لَمْ ينظروا عند نزول الملك؟ والجواب:

أ. إجراء على سنة من قبلهم ممن طلب الآيات فلم يؤمن، فأهلكوا بعذاب الاستئصال كعاد وثمود زجرًا عن التحكم على الله في الآيات.

ب. وقيل: لأن في إمهالهم تسهيل الكفر؛ لأنه إذا أتاهم بالآيات الباهرة والمطلوبة فلم يؤمنوا ولم يضرهم كانت تسهيلاً للكفر.

ج. وقيل: لأنه يوجب كون المعلوم والإيمان ضرورة، فلا يصح معه التكليف.

د. وقيل: لأنهم لا يخلو إما أن يريدوا نزول الملك على صورته، فيؤدي إلى بطلان التكليف حيث يصير الإيمان ضرورة أو على صورة بشر، فيبقى اللبس، وذلك لا يجوز على الله تعالى.

٦. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ أي لو جعلنا الرسول ملكًا لجعلناه رجلاً في صورة البشر:

أ. قيل: لأن الحكمة تقتضي ذلك؛ حيث إن الإنسان بالإنسان آنس، وإلى إجابته أقرب.

ب. وقيل: لأنه لا يمكنهم أن يروا الملك في صورته، عن ابن عباس.

ج. وقيل: إن الملائكة كالرجال في أنهم ذكران، وسواء مجيء الرجل من الإنس أو من الملائكة، عن أبي مسلم وَلَلَبَسْنَا عَلَيهِمْ مَا يَلْبِسُونَ) يعني لو فعلنا ذلك لكنا قد لبسنا عليهم كما يلبسون على أنفسهم، عن الأصم وأبي علي.

د. وقيل: كما يلبسون على أنفسهم، عن الأصم وأبي علي.

هـ. وقيل: كما يلبسون على ضَعفتهم، عن الزجاج، وتحقيق الكلام: لو فعلنا ذلك لصار فعل الله نظير فعلهم في التلبيس والقبح، تعالى الله عن ذلك.

٧. سؤال وإشكال: أليس أضاف التلبيس إلى نفسه؟ والجواب: بلى، ومعناه أنه قادر على ذلك، ولكن لا يفعل لقبحه، ونظيره: لو قال قائل: لو عاقب غير المستحق كان ظالمًا فعلقه بشرط، لا أنه فعله.

٨. سؤال وإشكال: كيف يكون تلبيسًا لو نزل الملك بصورة الإنس؟ والجواب: كانوا معتقدين أنه من الإنس، وليس كذلك، ولبسهم أنهم يقولون لضعفهم: إنهم بشر مثلكم.

٩. تدل الآية الكريمة على:

أ. على اللطف؛ لأنهم لما اقترحوا الآيات بين أنه لو أنزل ثم كفروا لجاءهم العذاب.

ب. أنه لا يفعل القبيح؛ لأنه لو أنزل ملكًا على صورة بشر لكان تلبيسًا، فإذا نفى عن نفسه التلبيس لا يجوز أن يخلق التلبيس ولا يريده، فيبطل قول الْمُجْبِرَةِ في المخلوق.

ج. أن المصالح لا تقف على اختيار المكلف.

١٠. سؤال وإشكال: كيف خرجت ﴿لَوْلَا﴾ إلى معنى التحضيض؟ والجواب: لأن معنى ﴿لَوْ﴾ إيجاب الثاني عن الأول، فخرجت في ﴿لَوْلَا﴾ إلى إيجاب المعنى لا عن أول.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. ﴿لَقُضِيَ﴾ قال الزجاج: قضي في اللغة على ضروب كلها يرجع إلى معنى انقطاع الشيء وتمامه، وقد ذكرنا معاني القضاء في سورة البقرة عند قوله: ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

ب. ﴿وَلَلَبَسْنَا﴾ يقال: لبست الأمر على القوم ألبسه لبسا: إذا شبهته عليهم، وجعلته مشكلا قال ابن السكيت: يقال لبست عليه الأمر إذا خلطته عليه، حتى لا يعرف جهته، ومعنى اللبس: منع النفس من إدراك الشيء بما هو كالستر له،وأصله من الستر بالثوب: وهو لبس الثوب، لأنه يستر النفس، يقال: لبست الثوب ألبسه لباسا ولبسا.

٢. أخبر سبحانه عن هؤلاء الكفار أنهم ﴿قَالُوا لَوْلَا﴾ أي: هلا ﴿أنزل عَلَيْهِ﴾ أي: على محمد ﴿مَلَكٌ﴾ نشاهده فنصدقه، ثم أخبر تعالى عن عظم عنادهم فقال: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا﴾ على ما اقترحوه، لما آمنوا به، واقتضت الحكمة استئصالهم، وأن لا ينظرهم، ولا يمهلهم، وذلك معنى قوله: ﴿لَقُضِيَ الأمر ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾:

أ. أي: لأهلكوا بعذاب الاستئصال، عن الحسن، وقتادة، والسدي.

ب. وقيل: معناه لو أنزلنا ملكا في صورته، لقامت الساعة، أو وجب استئصالهم، عن مجاهد.

٣. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا﴾ أي: لو جعلنا الرسول ملكا، أو الذي ينزل عليه ليشهد بالرسالة، كما يطلبون ذلك ﴿لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ لأنهم لا يستطيعون أن يروا الملك في صورته، لأن أعين الخلق تحار عن رؤية الملائكة إلا بعد التجسم بالأجسام الكثيفة، ولذلك كانت الملائكة تأتي الأنبياء في صورة الإنس، وكان جبرائيل يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي، وكذلك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب، وإتيانهم إبراهيم ولوطا في صورة الضيفان من الآدميين.

٤. ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾:

أ. قال الزجاج: كانوا هم يلبسون على ضعفتهم في أمر النبي ﷺ، فيقولون: إنما هذا بشر مثلكم

---

(١) تفسير الطبرسي: ٤/٩.

فقال: لو أنزلنا ملكا فرأوا هم الملك رجلا، لكان يلحقهم فيه من اللبس، مثل ما لحق ضعفتهم منهم، أي: فإنما طلبوا حال لبس لا حال بيان، وهذا احتجاج عليهم بأن الذي طلبوه، لا يزيدهم بيانا، بل يكون الأمر في ذلك على ما هم عليه من الحيرة.

ب. وقيل: معناه ولو أنزلنا ملكا، لما عرفوه إلا بالتفكر، وهم لا يتفكرون، فيبقون في اللبس الذي كانوا فيه، فأضاف اللبس إلى نفسه، لأنه يقع عند إنزاله الملائكة.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ قال مقاتل: نزلت في النّضر بن الحارث، وعبد الله بن أبي أميّة، ونوفل بن خويلد.

٢. (لولا) بمعنى (هلّا) ﴿أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ نصدّقه: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا﴾ فعاينوه ولم يؤمنوا، ﴿لَقُضِيَ الأمر﴾؛ وفيه ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أنّ المعنى: لماتوا، ولم يؤخّروا طرفة عين لتوبة، قاله ابن عباس.

ب. الثاني: لقامت السّاعة، قاله عكرمة، ومجاهد.

ج. الثالث: لعجّل لهم العذاب، قاله قتادة.

٣. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: ولو جعلنا الرّسول إليهم ملكا، لجعلناه في صورة رجل، لأنّهم لا يستطيعون رؤية الملك على صورته، ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: لشبّهنا عليهم، يقال: ألبست الأمر على القوم، ألبسه؛ أي: شبّهته عليهم، وأشكلته، والمعنى: لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم حتّى يشكّوا، فلا يدرون أملك هو أم آدمي؟ فأضللناهم بما به ضلّوا قبل أن يبعث الملك، وقال الزّجّاج: كانوا يلبسون على ضعفتهم في أمر النّبي ﷺ، فيقولون: إنّما هذا بشر مثلكم؛ فقال تعالى: لو رأوا الملك رجلا، لكان يلحقهم فيه من اللّبس مثل ما لحق ضعفتهم منه، وقرأ الزّهريّ، ومعاذ القارئ، وأبو رجاء: (وللبّسنا)، بالتّشديد، (عليهم ما يلبّسون)، مشدّدة أيضا.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ١٢/٢.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. هذا النوع الثالث من شبه منكري النبوّات فإنهم يقولون: لو بعث الله إلى الخلق رسولا لوجب أن يكون ذلك الرسول واحدا من الملائكة فإنهم إذا كانوا من زمرة الملائكة كانت علومهم أكثر، وقدرتهم أشد، ومهابتهم أعظم، وامتيازهم عن الخلق أكمل، والشبهات والشكوك في نبوّتهم ورسالتهم أقل، والحكيم إذا أراد تحصيل مهم فكل شيء كان أشد إفضاء إلى تحصيل ذلك المطلوب كان أولى، فلما كان وقوع الشبهات في نبوّة الملائكة أقل، وجب لو بعث الله رسولا إلى الخلق أن يكون ذلك الرسول من الملائكة هذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾

٢. أجاب الله تعالى عن هذه الشبهة من وجهين:

أ. الأول: قوله: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمر﴾ ومعنى القضاء الإتمام والإلزام، وقد ذكرنا معاني القضاء في سورة البقرة، ثم هاهنا وجوه:

• الأول: أن إنزال الملك على البشر آية باهرة، فبتقدير إنزال الملك على هؤلاء الكفار فربما لم يؤمنوا كما قال: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ إلى قوله: ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ [الأنعام: ١١١] وإذا لم يؤمنوا وجب إهلاكهم بعذاب الاستئصال، فإن سنّة الله جارية بأن عند ظهور الآية الباهرة إن لم يؤمنوا جاءهم عذاب الاستئصال، فههنا ما أنزل الله تعالى الملك إليهم لئلا يستحقوا هذا العذاب.

• الثاني: أنهم إذا شاهدوا الملك زهقت أرواحهم من هول ما يشهدون، وتقريره: أن الآدمي إذا رأى الملك فإما أن يراه على صورته الأصلية أو على صورة البشر، فإن كان الأول لم يبق الآدمي حيا، ألا ترى أن رسول الله ﷺ لما رأى جبريل عليه السلام على صورته الأصلية غشي عليه، وإن كان الثاني فحينئذ يكون المرئي شخصا على صورة البشر، وذلك لا يتفاوت الحال فيه سواء كان هو في نفسه ملكا أو بشرا، ألا ترى أن جميع الرسل عاينوا الملائكة في صورة البشر كأضياف إبراهيم، وأضياف لوط، وكالذين تسوروا المحراب، وكجبريل حيث تمثل لمريم بشرا سويا.

---

(١) التفسير الكبير: ٤٨٧/١٢.

• الثالث: أن إنزال الملك آية باهرة جارية مجرى الإلجاء، وإزالة الاختيار، وذلك مخل بصحة التكليف.

• الرابع: أن إنزال الملك وإن كان يدفع الشبهات المذكورة إلا أنه يقوي الشبهات من وجه آخر، وذلك لأن أي معجزة ظهرت عليه قالوا هذا فعلك فعلته باختيارك وقدرتك، ولو حصل لنا مثل ما حصل لك من القدرة والقوة والعلم لفعلنا مثل ما فعلته أنت، فعلمنا أن إنزال الملك وإن كان يدفع الشبهة من الوجوه المذكورة لكنه يقوي الشبهة من هذه الوجوه، وأما قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ فالفائدة في كلمة ﴿ثُمَّ﴾ التنبيه على أن عدم الانظار أشد من قضاء الأمر، لأن مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة، وأما

ب. الثاني: قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ أي لجعلناه في صورة البشر، والحكمة فيه أمور:

• أحدها: أن الجنس إلى الجنس أميل.

• ثانيها: أن البشر لا يطيق رؤية الملك.

• ثالثها: ان طاعات الملائكة قوية فيستحقرون طاعة البشر، وربما لا يعذرونهم في الاقدام على المعاصي.

• رابعها: أن النبوّة فضل من الله فيختص بها من يشاء من عباده، سواء كان ملكا أو بشرا.

٣. ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ قال الواحدي: يقال لبست الأمر على القوم ألبسه لبسا إذا شبهته عليهم وجعلته مشكلا، وأصله من التستر بالثوب، ومنه لبس الثوب لأنه يفيد ستر النفس والمعنى أنا إذا جعلنا الملك في صورة البشر فهم يظنون كون ذلك الملك بشرا فيعود سؤالهم أنا لا نرضى برسالة هذا الشخص، وتحقيق الكلام أن الله لو فعل ذلك لصار فعل الله نظيرا لفعلهم في التلبيس، وإنما كان ذلك تلبيسا لأن الناس يظنون أنه بشر مع أنه ليس كذلك، وإنما كان فعلهم تلبيسا لأنهم يقولون لقومهم إنه بشر مثلكم والبشر لا يكون رسولا من عند الله تعالى.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ اقترحوا هذا أيضا، و﴿لَوْلَا﴾ بمعنى هلا، ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمر﴾ قال ابن عباس: لو رأوا الملك على صورته لماتوا إذ لا يطيقون رؤيته، مجاهد وعكرمة: لقامت الساعة، قال الحسن وقتادة: لأهلكوا بعذاب الاستئصال، لأن الله أجرى سنته بأن من طلب آية فأظهرت له فلم يؤمن أهلكه الله في الحال، أي ﴿لَا يُنْظَرُونَ﴾ أي لا يمهلون ولا يؤخرون.

٢. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ أي لا يستطيعون أن يروا الملك في صورته إلا بعد التجسم بالأجسام الكثيفة، لأن كله جنس يأنس بجنسه وينفر من غير جنسه، فلو جعل الله تعالى الرسول إلى البشر ملكا لنفروا من مقاربته، ولما أنسوا به، ولداخلهم من الرعب من كلامه والاتقاء له ما يكفهم عن كلامه، ويمنعهم عن سؤاله، فلا تعم المصلحة ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم ليأنسوا به وليسكنوا إليه لقالوا: لست ملكا وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك وعادوا إلى مثل حالهم، وكانت الملائكة تأتي الأنبياء في صورة البشر فأتوا إبراهيم ولوطا في صورة الآدميين، وأتى جبريل النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي، أي لو أنزل ملك لرأوه في صورة رجل كما جرت عادة الأنبياء، ولو نزل على عادته لم يروه، فإذا جعلناه رجلا التبس عليهم فكانوا يقولون: هذا ساحر مثلك.

٣. وقال الزجاج: المعنى ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي على رؤسائهم كما يلبسون على ضعفتهم وكانوا يقولون لهم: إنما محمد بشر وليس بينه وبينكم فرق فيلبسون عليهم بهذا ويشككونهم، فأعلمهم الله تعالى أنه لو أنزل ملكا في صورة رجل لوجدوا سبيلا إلى اللبس كما يفعلون، واللبس الخلط، يقال: لبست عليه الأمر ألبسه لبسا أي خلطته، وأصله التستر بالثوب ونحوه وقال: ﴿وَلَلَبَسْنَا﴾ بالإضافة إلى نفسه على جهة الخلق، وقال: ﴿مَا يَلْبِسُونَ﴾ فأضاف إليهم على جهة الاكتساب.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ هذه الجملة مشتملة على نوع آخر من أنواع جحدهم لنبوته ﷺ

---

(١) تفسير القرطبي: ٣٩٣/٦.

(٢) فتح القدير: ١١٧/٢.

وكفرهم بها: أي قالوا: هلا أنزل الله عليك ملكا نراه ويكلمنا أنه نبي حتى نؤمن به ونتبعه؟ كقولهم: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]

١. ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي لو أنزلنا ملكا على الصفة التي اقترحوها بحيث يشاهدونه ويخاطبونه ويخاطبهم لقضي الأمر أي لأهلكناهم إذ لم يؤمنوا عند نزوله ورؤيتهم له، لأن مثل هذه الآية البينة، وهي نزول الملك على تلك الصفة إذا لم يقع الإيمان بعدها فقد استحقوا الإهلاك والمعاجلة بالعقوبة.

٢. ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ أي لا يمهلون بعد نزوله ومشاهدتهم له وقيل إن المعنى: إن الله سبحانه لو أنزل ملكا مشاهدا لم تطق قواهم البشرية أن يبقوا بعد مشاهدته أحياء، بل تزهق أرواحهم عند ذلك فيبطل ما أرسل الله له رسله وأنزل به كتبه من هذا التكليف الذي كلف به عباده لنبلوهم أيهم أحسن عملا.

٣. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ أي لو جعلنا الرسول إلى النبي ملكا يشاهدونه ويخاطبونه لجعلنا ذلك الملك رجلا، لأنهم لا يستطيعون أن يروا الملك على صورته التي خلقه الله عليها إلا بعد أن يتجسم بالأجسام الكثيفة المشابهة لأجسام بني آدم، لأن كل جنس يأنس بجنسه، فلو جعل الله سبحانه الرسول إلى البشر أو الرسول إلى رسوله ملكا مشاهدا مخاطبا لنفروا منه ولم يأنسوا به، ولداخلهم الرعب وحصل معهم من الخوف ما يمنعهم من كلامه ومشاهدته، هذا أقل حال فلا تتم المصلحة من الإرسال، وعند أن يجعله الله رجلا: أي على صورة رجل من بني آدم ليسكنوا إليه ويأنسوا به سيقول الكافرون إنه ليس بملك وإنما هو بشر، ويعودون إلى مثل ما كانوا عليه.

٤. ﴿ولَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ﴾ أي لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم لأنهم إذا رأوه في صورة إنسان قالوا: هذا إنسان وليس بملك، فإن استدلّ لهم بأنه ملك كذبوه، قال الزجاج: المعنى: للبسنا عليهم؛ أي على رؤسائهم كما يلبسون على ضعفتهم؛ وكانوا يقولون لهم: إنما محمد بشر وليس بينه وبينكم فرق، فيلبسون عليهم بهذا ويشكّكونهم، فأعلم الله عزّ وجلّ أنه لو نزل ملكا في صورة رجل لوجدوا سبيلا إلى اللبس كما يفعلون، واللبس: الخلط، يقال: لبست عليه الأمر ألبسه لبسا: أي خلطته، وأصله التستر بالثوب ونحوه.

٥. ثم قال سبحانه مؤنسا لنبيه ﷺ ومسليا له: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يقال: حاق الشيء يحيق حيقا وحيوقا وحيقانا، نزل؛ أي فنزل ما

كانوا به يستهزئون، وأحاط بهم: وهو الحق حيث أهلكوا من أجل الاستهزاء به.

٦. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين سافروا في الأرض وانظروا آثار من كان قبلكم لتعرفوا ما حلّ بهم من العقوبات، وكيف كانت عاقبتهم بعد ما كانوا فيه من النّعيم العظيم الذي يفوق ما أنتم فيه، فهذه ديارهم خاربة وجناتهم مغبرة وأراضيهم مكفهرّة، فإذا كانت عاقبتهم هذه العاقبة فأنتم بهم لاحقون وبعد هلاكهم هالكون.

أَطَّفَيِّش:

ذكر محمد أَطَّفَيِّش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَقَالُواْ﴾ تارةً، أو قال بعضٌ ما مَرَّ، وقال بعض: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلَآئِكَةً﴾ [فصلت: ١٤]، وقال بعض: ﴿لَوْلَا﴾ تحضيض ﴿أنزل عَلَيْهِ﴾ على محمَّد ﷺ ﴿مَلَكٌ﴾ يقول: إنَّ القرآن من الله، وإنَّك رسول الله، ﴿لَوْلَآ أنزل إليه مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]، ﴿وَلَوَ اَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الْمَلَآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قِبَلاً مَّا كَانُوا لِيُومِنُوا إلا أَنْ يَّشَآءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]، وذكر ابن إسحاق أنَّه قال له ﷺ زمعة بن الأسود بن المطَّلب، والنضر بن الحارث بن كلدة، وعبدة بن عبد يغوث، وأبيُّ بن خلف بن وهب، والعاصي بن وائل بن هشام: لو جُعل يا محمَّد ملكٌ يحدث الناس أنَّك رسول الله ﷺ كقوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أنزل إليه مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]

٢. وذكر سوء عاقبتهم لو أجابهم إلى ما طلبوا، وهو أنَّه جرت سنَّة الله تعالى أنَّه من طلب آية حِسِّيَّة باهرة ولم يؤمن أُهلك، كأصحاب المائدة، كما قال: ﴿وَلَوَ اَنزَلْنَا مَلَكًا﴾ شاهدوه كما طلبوا ولم يؤمنوا ﴿لَقُضِيَ الأمر﴾ أي: أُثبِت إهلاكُهم، لكن عاجلاً لا آجلاً، كما قال: ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ ولا يؤخَّرون أقلَّ من لحظة، لتوبةٍ أو معذرة أو رحمة، كأصحاب المائدة؛ لأن الاختيار قاعدة التكليف، ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمُ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾.. [غافر: ٨٥]

٣. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا﴾ أي: ولو جعلنا مطلوبهم ملكًا، وهو أن يكون شاهد نبوءته ملكًا، فهذا

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/٢٠٢.

جواب ثان عن قولهم: ﴿لَوْلَآ أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾، أو ولو جعلنا الرَّسول مَلَكًا كما قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلَآئِكَةً﴾ [فصِّلت: ١٤]، وكما قال: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ص: ٤]، و﴿قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ [الإسراء: ٩٤]؛ فتكون الآية جوابًا لقولهم: إنَّما يكون الرَّسول ملكًا لا بشرًا؛ لأن المَلَك أقوى وأعلم على قهر ما يرسل به، أو ولو جعلنا المُنزَل من ملَكٍ شاهدٍ بالنبوءة، أو ملك مرسل، وهذا يعمُّ ذلك كُلَّه، وقيل: لو جعلنا مكان النبيء ملكًا كما قال الله تعالى : ﴿وَلَوْ شَآءَ اللهُ لأَنزَلَ مَلَآئِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤]

٤. ﴿لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾ بحسب الظاهر، كما يرسل جبريل إلى النبيء ﷺ بصورة دحية الكلبي، وكما جاء الملكان إلى داود بصورة رجلين خصمين، والملائكة بصورة أضياف إلى إبراهيم ولوط عليهم السلام؛ لأن البشر لا يقوى على معاينة صورة الملك، إلا بعض الرُّسل في بعض الأحيان؛ وقد روي أنَّه ﷺ رأى جبريل بصورته فصعق، وعن عائشة أنَّه ﷺ رأى جبريل عَلَى صورته مَرَّتَيْنِ: مرَّة في الأرض في أجياد، وَمَرَّة في السماء، وفي الآية أنَّ المرأة لا تكون رسولاً، وذلك إجماع، وإنما الخلاف في نبوءتها.

٥. ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم﴾ خلطنا عليهم بجعله رجلاً والإتيان بما يشتبه ﴿مَا يَلْبِسُونَ﴾ ما يخلطون على أنفسهم وعلى غيرهم، فَمَا يفيدُهم جَعْلُه رجلاً شيئًا، فلا يزالون يطلبون شاهدًا مَلَكًا أو رسولاً ملكًا، ويقولون للملَك الذي بصورة الرجل: (ما أنت إلا بشر مثلنا)، ويزيدون تحيُّرًا، ويجوز أن يكون المعنى: ولأَعَنَّاهُم بجعله رجلاً على الكفر، وذلك لا يليق بشأننا، أو: لزدناهم ضلالاً على ضلالهم، و(مَا) اسمٌ، أي: لخلطنا شأنهم الذي يخلطونه وقلبناه، أو حرفُ مصدرٍ، أي: لخلطنا عليهم تخليطًا مثل تخليطهم على أنفسهم وعلى غيرهم، وبيان تخليطهم على غيرهم أنَّهم يقولون لضعفائهم: إنَّه لا يكون الرَّسول إلا ملكًا.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أي: ليكون معه فيكلمنا أنه نبيّ، كقوله: ﴿لَوْلَا أنزل إليه مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]، ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمر﴾ جواب لمقترحهم، وبيان لمانعه، وهو البقيا عليهم، كيلا يكونوا كالباحث عن حتفه بظلفه، والمعنى: أن الملك لو أنزل على رسول الله ﷺ في

(١) تفسير القاسمي: ٤/٣١٨.

صورته، وهي آية لا شيء أبين منها وأيقن، ثم لم يؤمنوا، لحاق بهم العذاب، وفرغ الأمر، فإن سنة الله قد جرت في الكفار أنهم متى اقترحوا آية، ثم لم يؤمنوا، استؤصلوا بالعذاب، كما قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إلا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]

٢. ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ أي: لا يمهلون بعد نزوله طرفة عين، فضلا عن أن ينذروا به، ومعنى (ثم) بعد ما بين الأمرين، قضاء الأمر، وعدم الإنظار جعل عدم الإنظار، أشد من قضاء الأمر، لأن مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة.

٣. ذكر الزمخشريّ وجها ثانيا في تعجيل عذابهم، عند نزول الملائكة، وهو أنه يزول الاختيار الذي هو قاعدة التكليف، فيجب إهلاكهم، وفي (الكشف) الاختيار قاعدة التكليف، وهذه آية ملجئة، قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [الفتح: ٨٥]، فوجب إهلاكهم، لئلا يبقى وجودهم عاريا عن الحكمة، إذ ما خلقوا إلا للابتلاء بالتكليف، وهو لا يبقى مع الإلجاء، هذا تقريره على مذهبهم، وهو غير صاف عن الإشكال.

٤. وفيه إشارة إلى أنه ليس على قواعد السنة، وكأنّ وجه إشكاله أنه وقع في القرآن، والواقع ما ينافيه، كما في قوله تعالى: ﴿أو كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩]. ـ كذا في (العناية) ـ وذكر أيضا وجها ثالثا، وهو أنهم إذا شاهدوا ملكا في صورته، زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون، قال في (الانتصاف): (ويقوّي هذا الوجه قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾، قال ابن عباس، ليتمكنوا من رؤيته، ولا يهلكوا من مشاهدة صورته)، وهذا الوجه آثره أبو السعود في التقديم حيث قال: (أي لو أنزلنا ملكا على هيئته حسبما اقترحوه، والحال أنه من هول المنظر، بحيث لا تطيق بمشاهدته قوى الآحاد البشرية، إلا يرى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يشاهدون الملائكة ويفاوضونهم على الصورة البشرية؟ كضيف إبراهيم ولوط، وخصم داوود عليهم السلام، وغير ذلك، وحيث كان شأنهم كذلك، وهم مؤيدون بالقوى القدسية، فما ظنك بمن عداهم من العوام؟ فلو شاهدوه كذلك لقضي أمر هلاكهم بالكلية، واستحال جعله نذيرا، وهو ـ مع كونه خلاف مطلوبهم ـ مستلزم لإخلاء العالم عما عليه يدور نظام الدنيا والآخرة، من إرسال الرسل، وتأسيس الشرائع، وقد قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾

[الإسراء: ١٥])

٥. وفي (العناية) أن الوجه الثالث لا يناسب قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾، لأنه يدل على إهلاكهم، لا على هلاكهم، برؤية الملك، إلا بتكلف، هذا، وقال الناصر في (الانتصاف): على الوجه الأول لا يحسن أن يجعل سبب مناجزتهم بالهلاك وضوح الآية في نزول الملك، فإنه ربما يفهم هذا الكلام أن الآيات التي لزمهم الإيمان بها دون نزول الملك في الوضوح، وليس الأمر كذلك، فالوجه ـ والله أعلم ـ أن يكون سبب تعجيل عقوبتهم بتقدير نزول الملك وعدم إيمانهم، أنهم اقترحوا ما لا يتوقف وجوب الإيمان عليه، إذ الذي يتوقف الوجوب عليه المعجز من حيث كونه معجزا، لا المعجز الخاص، فإذا أجيبوا على وفق مقترحهم، فلم ينجع فيهم، كانوا حينئذ على غاية من الرسوخ في العناد المناسب لعدم النّظرة.

٦. قال المهايميّ: لا دليل على النبوة سوى شهادة الملك، وتنزيل الملك بصورته الملكوتية يقطع أمر التكليف، إذ لا ينفع الإيمان بعد انكشاف عالم الملكوت، فلا يمهلون، لأن الإمهال للنظر، والمعجزة ـ وإن أفادت علما ضروريّا ـ لا تخلو عن خفاء يحتاج إلى أدنى نظر، ولا خفاء مع انكشاف عالم الملكوت، فلا وجه للإمهال للنظر، فلا يقبل الإيمان معه، فلا بد من المؤاخذة عقيبه.

٧. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ جواب ثان، أي: ولو جعلنا النذير الذي اقترحوه ملكا لمثلناه رجلا، لما مرّ من عدم استطاعة الآحاد، لمعاينة الملك على صورته، من النور، وإنما رآه كذلك الأفراد من الأنبياء بقوتهم القدسية، ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ جواب محذوف، أي: ولو جعلناه رجلا لشبهنا عليهم ما يشبهون على أنفسهم حينئذ، بأن يقولوا له: إنما أنت بشر، ولست بملك، ولو استدلّ على ملكيته بالقرآن المعجز، الناطق بها، أو بمعجزات أخر غير ملجئة إلى التصديق ـ لكذبوه، كما كذبوا النبيّ ﷺ، ولو أظهر لهم صورته الأصلية لزم ما تقدم من قضاء الأمر.

٨. في إيثار (رجلا) على (بشرا) إيذان بأن الجعل بطريق التمثيل، لا بطريق قلب الحقيقة، وتعيين لما يقع به التمثيل.

٩. في الآية بيان لرحمته تعالى بخلقه، وهو أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلا منهم، ليدعو بعضهم بعضا، وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، الآية، وقال

تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]

١٠. التعبير عن تمثيله تعالى: (رجلا) باللبس إما لكونه في صورة اللبس، أو لكونه سببا للبسهم، أو لوقوعه في صحبته بطريق المشاكلة، وفيه تأكيد لاستحالة جعل النذير ملكا، كأنه قيل: لو فعلناه لفعلناه ما لا يليق بشأننا من لبس الأمر عليهم ـ أفاده أبو السعود.

١١. جوز بعضهم وجها ثانيا في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا﴾ وهو أن يكون جواب اقتراح ثان، على أن الضمير عائد للرسول، لا لمقترحهم السابق، قال لأنهم تارة يقولون: ﴿لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ وتارة يقول: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ [فصلت: ١٤]، والمعنى: ولو جعلنا الرسول ملكا لمثلناه رجلا، والظاهر هو الوجه الأول.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. روى ابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن إسحاق ما قد يعد سببا لنزول الآية قال: دعا رسول الله ﷺ قومه إلى الإسلام وكلمهم فأبلغ إليهم فقال له زمعة بن الأسود بن المطلب والنضر بن الحارث بن كلدة وعبدة بن عبد يغوث وأبي بن خلف بن وهب والعاصي بن وائل بن هشام: لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ويرى معك ـ فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ ولا تصح هذه الرواية في سبب نزول الآية، وقد ذكرها السيوطي في الدر المنثور ولم يذكرها في (لباب النقول في أسباب النزول) واقتراح معاندي المشركين إنزال الملك مع الرسول ذكر في الفرقان وهود والإسراء؛ وقد روي أن هذه السور الثلاث نزلت قبل الأنعام، والأنعام نزلت جملة واحدة ـ على ما تقدم بيانه في أول تفسيرها ـ فما فيها من الرد عليهم في هذه المسألة إنما هو رد على شبهة سبقت لهم وحكيت عنهم، وكذلك اقتراح إنزال كتاب من السماء وإنزال القرآن جملة واحدة فهو في سورة الفرقان.

٢. كان رسول الله ﷺ يتعجب من كفر قومه وبما أنزل عليه مع وضوح برهانه، وظهور إعجازه،

---

(١) تفسير المنار: ٧/٢٥٩.

وكان يضيق صدره لذلك وينال منه الحزن والأسف كما قال تعالى في سورة هود: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ كَنْزٌ أو جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢] وما في معناه ـ وكان الله عز وجل يبين له أسباب ذلك ومناشئه من طباع البشر وأخلاقهم واختلاف استعدادهم ليعلم أن الحجة مهما تكن ناهضة، والشبهة مهما تكن داحضة، فإن ذلك لا يستلزم الإيمان بها قامت عليه الحجة، وانحسرت عنه غمة الشبهة، إلا في حق من كان مستعدا له، وزالت موانع الكبر والعناد أو التقليد عنه.

٣. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمر ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ اقترح كفار مكة أن ينزل على الرسول ملك من السماء يكون معه نذيرا مؤيدا له أمامهم إذ يرونه ويسمعون كلامه كما في سورة الفرقان وما هنا، وهو حكاية لما هنالك، فلذلك لم يقل (ملك فيكون معه نذيرا) اكتفاء بما سبق، بل اقترحوا أيضا أن ينزل الملك عليهم بالرسالة من ربهم، بل طلبوا أكبر من ذلك: طلبوا أن يروا ربهم ويخاطب كل واحد منهم بما يريد من إرسال الرسول إليهم، كما في سورة الفرقان أيضا وقد قال الله في هؤلاء: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ نعم إن هذا منتهى الكبرياء والعتو لأنه تسام واستشراف من أظل البشر وأسفلهم روحا إلى ما لا يصل إليه أعلاه مقاما في هذه الحياة الدنيا.

٤. وأما اقتراحهم نزول الملك على الرسول فهو مبني على ضد ما بني عليه طلبهم لنزول الملائكة عليهم أو رؤية ربهم ـ هو مبني على اعتقاد أن أرقى البشر عقلا وأخلاقا وآدابا وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام ليسوا أهلا لأن يكونوا رسلا بين الله وبين عباده لأنهم بشر يأكلون ويشربون ويمشون في الأسواق ـ هذه شبهة المتقدمين منهم والمتأخرين، قال تعالى في هود وقومه: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣ ـ ٣٤] وحكى تعالى مثل هذا عن غيرهم في هذه السورة (سورة المؤمنين) وفي غيرها.

٥. ومثل هذا التناقض والتضاد في حكم البشر لأنفسهم وعليها معهود في كل زمان وكل مكان، فهم يرفعون أنفسهم تارة إلى ما هو أعلى من قدرها بما لا يحصى من الدرجات والمسافات البعيدة السحيقة، ويهبطون بها تارة إلى ما هو دون استعدادها بما لا يعد من الدركات العميقة، يتسامون تارة للبحث في عالم الغيب من الأزل الذي لا يعرفون أوله، إلى الأبد الذي لا يدركون نهايته، وللكلام في كنه الخالق، وفي كيفية

صدور الوجود الممكن عن الوجود الواجب، فيعترفون تارة بالعجز عن معرفة كنه أنفسهم والقصور عن الإحاطة بأنواع الجنة التي تعيش في بنيتهم، وتأثر في جميع مواد معيشتهم من أطعمتهم وأشربتهم.

٦. يقولون تارة إن هذا الإنسان سيد الأكوان، ومصداق قول الغزالي: ليس في الإمكان أبدع مما كان، ويقولون تارة إنه مظهر الظلم والخلل والفساد، وإنما يعظم أحدهم نفسه أو جنسه في مرآة نفسه ويحقر غيره أو نفسه متمثلة في مرآة جنسه، ومن هذا الباب إنكار الكفار لبعثة الرسل، وكانوا تارة يكتفون بجعل البشرية علة للإنكار كما ترى في سورة هود وإبراهيم والإسراء والمؤمنين وياسين والقمر والتغابن ـ وتارة يصرحون بما في أنفسهم من الكبر واستثقالهم تفضيل الرسل على أنفسهم بإتباعهم إياهم، وعلى هذا بنوا اقتراح نزول الملائكة عليهم مباشرة أو على الرسل مؤيدة لهم كقول قوم نوح ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤]

٧. جمع مشركو مكة بين الاقتراحين ـ كما تقدم آنفا ـ اقتراح نزول الملائكة عليه، واقتراح نزول ملك على النبي ﷺ يرونه بأعينهم، ولولا قيد الرؤية لم يكن للاقتراح فائدة، لأن النبي ﷺ كان أخبرهم بأنه ينزل عليه الملك، وكأنهم ظنوا أن مساواتهم له ﷺ في البشرية تقتضي مساواته في الاستعداد لرؤية الملائكة وتلقي العلم عنهم، وهذه أقوى شبهة للكفار على الوحي، فإنهم لغرورهم بأنفسهم ينكرون كل ما لا يصلون إليه بأنفسهم، وقد رد الله تعالى عليهم الاقتراحين من وجهين:

أ. أحدهما: أنه لو أنزل ملكا كما اقترحوا لقضي الأمر بإهلاكهم ثم لا ينظرون أي لا يؤخرون ولا يمهلون ليؤمنوا بل يأخذهم العذاب عاجلا كما مضت به سنة الله فيمن قبلهم، قال ابن عباس في تفسير الآية: ولو أتاهم ملك في صورته لأهلكناهم ثم لا يؤخرون، وقال قتادة: يقول: لو أنزل الله ملكا ثم لم يؤمنوا لعجل لهم العذاب، ولكن قال مجاهد في قوله: ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾: أي لقامت الساعة.

ب. الثاني: في الرد عليهم قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ أي لو جعل الرسول ملكا لجعل الملك متمثلا في صورة البشر، ليمكنهم رؤيته وسماع كلامه الذي يبلغه عن الله تعالى، ولو جعله ملكا في صورة البشر لاعتقدوا أنه بشر لأنهم لا يدركون منه إلا صورته وصفاته البشرية التي تمثل بها، وحينئذ يقعون في نفس اللبس والاشتباه الذي يلبسونه على أنفسهم باستنكار جعل الرسول بشرا، ولا ينفكون يقترحون جعله ملكا، وقد كانوا في غنى عن هذا، وإنما شأنهم فيه شأن أكثر

الناس حتى العلماء منهم فيما يوقعون فيه أنفسهم من المشكلات بسوء اختيارهم، وما يخترعونه من الشبهات بسوء فهمهم، ثم يحارون في أمر المخرج منها، مادة (ل ب س) تدل على الستر والغطية، يقال لبس الثوب يلبسه (بكسر الباء في الماضي وفتحها في المضارع) وهو من الستر الحسي، ويقال لبس الحق بالباطل يلبسه (بفتح باء الأول وكسر باء الثاني) بمعنى ستره به أي جعله مكانه ليظن أنه الحق، ولبست عليه أمره أي جعلته بحيث يلتبس عليه فلا يعرفه ـ وهذا كله من الستر المعنوي.

٨. ذكر المفسرون في تفسير قضاء الأمر هنا عدة وجوه:

أ. أن سنة الله في أقوام الرسل الذين قامت عليهم الحجة أنهم كانوا إذا اقترحوا آية وأعطوها ولم يؤمنوا يعذبهم الله بالهلاك والاستئصال الذي تتولى تنفيذه الملائكة، والله تعالى لا يريد أن يستأصل هذه الأمة، التي بعث فيها خاتم رسله نبي الرحمة، فالرحمة العامة تنافي هذا العذاب العام ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]

ب. أن المراد أنهم لو شاهدوا الملك بصورته الأصلية كما يطلبون لزهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون.

ج. أن رؤية الملك بصورته آية ملجئة يزول بها الاختيار الذي هو قاعدة التكليف ـ وهذا على قاعدة المعتزلة، وعبارة الزمخشري في هذه المسألة من تعليلات قضاء الأمر: وإما لأنه يزول الاختيار الذي هو قاعدة التكليف عند نزول الملائكة فيجب إهلاكهم) وهذا التفريع غير مسلم.

د. أنهم لما اقترحوا ما لا يتوقف عليه الإيمان ـ إذ يتوقف على المعجز مطلقا وقد حصل، لا المعجز الخاص الذي طلبوه ـ فإذا أعطوه كانوا على غاية الرسوخ في العناد المناسب للإهلاك وعدم النظرة.

٩. أول هذه الأقوال أقواها وهو المختار، وفي معنى هذه الآية قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إلا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨] أي ما كان شأننا الذي مضت به سنتنا أن ننزل الملائكة إلا بالأمر الحق وهو الرسالة للرسل أو العذاب للأمم الذين يعاندون الرسل فيقترحون عليهم الآيات المخصوصة ويعلقون إيمانهم عليها ثم يصرون على جحودهم وكفرهم بعد أن يعطوها، فلو نزلت الملائكة عليهم ما كانوا إذ تنزل إلا هالكين لا ينظرون أي لا يمهلون لأجل أن يؤمنوا، وما كان الله ليهلك هذه الأمة، ولا من أعدهم لهدايتها من قوم نبي الرحمة، بإجابة اقتراحات أولئك المستكبرين المعاندين

منهم، وهم إنما يقترحون الآيات، لأجل التعجيز دون استبانة الإعجاز، وهو يعلم أنهم إن أعطوها ما كانوا مؤمنين، وبذلك مضت السنة في أمثالهم من الغابرين.

١٠. من نكت البلاغة ما بينه الزمخشري من حكمة العطف بثم وهي إفادة ما بين قضاء الأمر وعدم الإنظار من البعد: جعل عدم الإنظار أشد من قضاء الأمر، لأن مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة.

١١. علل جمهور المفسرين جعل الملك بصورة البشر في هذه الحالة بأن البشر لا يطيقون رؤية الملائكة في صورتهم الأصلية، وتقدم في تفسير الآية السابقة قول من علل بذلك قضاء الأمر بهلاكهم بمجرد نزول الملك، واستدلوا على ذلك بتمثل الملائكة لإبراهيم ولوط بصورة الناس وبتمثل جبريل لمريم بشرا سويا، وظهوره للنبي ﷺ بصورة دحية الكلبي غالبا وبصورة غيره أحيانا كما في حديث الإيمان والإسلام وغيره، وذكر بعضهم من خصائص النبي ﷺ أنه رآه في صورته الأصلية مرتين فقط، وقد نازع آخرون في عد هذا خصوصية له ﷺ إذ لا يثبت ذلك إلا بنص ولا نص في المسألة، وإنما ورد من حديث ابن مسعود عند أحمد وحديث عائشة عند الترمذي أنه لم يره في صورته التي خلقه الله عليها إلا مرتين، وقد ورد أن من الصحابة من رأى الملائكة في غير صورة البشر كرؤية أسيد بن حضير لهم في مثل الظلة فيها أمثال المصابيح كما رواه الشيخان عنه، ولكن هذا تمثيل أيضا.

١٢. والمختار عندنا أن البشر في حالاتهم العادية غير مستعدين لرؤية الملائكة والجن في حالتهم التي خلقوا عليها قال تعالى في الشيطان: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧] لا لأنهم لا يطيقونها لهولها بل لأن أبصار البشر لا تدرك كل الموجودات بل تدرك في عالمها هذا بعض الأجسام كالماء وما هو أكثف منه من الأجرام الملونة دونما هو ألطف منه كالهواء وما هو ألطف منه كالعناصر البسيطة التي يتألف منها الماء والهواء، والملائكة والجن من عالم آخر غيبي ألطف مما ذكر، وهذا العالم مما يعده المتكلمون في الفلسفة وراء عالم المادة، وليس عند المسلمين عالم غير مادي، ولذلك يعدون الملائكة والجن من الأجسام اللطيفة، ويقولون إنهم قادرون على التشكل في صور الأجسام الكثيفة، فمثل تشكلهم كمثل تشكل الماء في صورة البخار اللطيف والبخار الكثيف وصورة المائع السيال وصورة الثلج والجليد، ولكن الماء يتشكل بما يطرأ عليه من حر وبرد بغير اختيار منه، وذانك يتشكلان باختيارهما إذ جعل الله لهما سلطانا على العناصر التي تتركب منها مادة العالم أقوى من سلطان البشر الذين يتصرفون فيها بأيديهم لا بأنفسهم

وماهياتهم، فهم لا يقدرون على تحليل أبدانهم وتركيبها مع غيرها من المواد، فإذا تمثل الملك أو الجان في صورة كثيفة كصورة البشر أو غيرهم أمكن للبشر أن يروه ولكنهم لا يرونه على صورته وخلقته الأصلية بحسب العادة وسنة الله في خلق عالمه وعالمها، فإذا وقع ذلك كرؤية النبي ﷺ لجبريل مرتين كان من خوارق العادات، والخوارق لا تثبت إلا بنص، لأنها خلاف الأصل، على أن رؤيته بصورته لا ينافي التشكل، إذ يجوز أن تكون مادة صورته اللطيفة التي لا ترى قد ظهرت بمادة كثيفة فيكون التشكل في هذه الحالة بمادة جديدة مع حفظ الصورة الأصلية، والتشكل في غيرها بالمادة والصورة معا، على أن لأرواح الأنبياء من التناسب مع أرواح الملائكة ما ليس لغيرها، ففي الحال التي تغلب بها روحانيتهم على جثمانيتهم يكونون كالملائكة فيجوز أن يروهم بأي صورة وشكل تجلوا لهم فيه.

١٣. هذا وإن ما لا يرى قد يدرك بضرب من ضروب الإدراك غير الرؤية فإن كان الملك مخلوقا عاقلا عالما وكان في لطافته من قبيل الأرواح البشرية التي هي محل العلم والإدراك في البشر فلم لا يجوز أن يكون لهذين النوعين من الأرواح الموجودة في هذا الكون نوع من الاتصال يقتبس به أحدهما من الآخر شيئا من العلم، كما يقتبس البشر بعض العلم البشري من الجو إذ يبث الأخبار فيه بعضهم بالآلات الكهربائية (المعروفة بالتلغراف اللاسلكي - أو الأثير والهوائي) يقتبسها الآخرون؟ بل ثبت أن الأنفس البشرية يقتبس بعضها العلم من الموجودات - بشرا كانت أو غير بشر - بغير واسطة الحواس والاستنباط العقلي، كما روى بعض الأطباء الماديين الذين كانوا ينكرون مثل هذا عن مريض كان يعالجه في القاهرة أنه قال إن فلان - وذكر قريبا له في الإسكندرية - يريد أن يسافر الآن إلى مصر لأجل عيادتي، ثم إنه عين القطار الحديدي الذي ركب فيه ثم الوقت الذي وصل فيه إلى محطة مصر، ثم لم تكن إلا مسافة سير المركبة بين المحطة ودار المريض إلا وقد وصل هذا القريب، وكان ينتظره لاستبانة المكاشفة ذلك الطبيب، وروي عنه غير ذلك من المكاشفات، ومثل هذا يقع كثيرا في كل عصر، فلم لا يجوز أن يقتبس البشر العلم بمثل هذه المكاشفة عن الملائكة وأرواح البشر الميتين كما يقتبسونها من أحياء البشر ومن غير البشر من الأشياء؟

١٤. نقول إن هذا جائز عقلا ومروي نقلا، ولكنه كغيره يتوقف على الفاعل والقابل، فإذا تدبرنا ما ورد في الكتاب والسنة من خبر الوحي والإلهام يظهر لنا منه أن الإنسان ليس له سلطان على ملائكة السماء، كسلطانه على ما في الأرض من أبناء جنسه وسائر الأشياء، فلا يستطيع كل فرد من أفراده أن يدرك

هؤلاء الملائكة ويقتبس منهم العلم شاءوا أم أبوا، ولكن بعض الأرواح البشرية قد تصل بطهارتها وعلو مكانتها إلى قابلية التلقي عن الملائكة، لما بينها وبينهم من القرب والمناسبة، وهذه القابلية نوعان:

أ. أحدهما: ما يختص به الله تعالى أنبياءه ورسله بدون سعي منهم ولا كسب، فيؤهلهم لنبوته ورسالته، وينزل عليهم الملائكة بالروح من أمره، فلا القابل الذي يتلقى عن الملك يكون له كسب أو اختيار فيما يوحى إليه، ولا الفاعل وهو الملك الذي ينزل بالوحي يكون له اختيار فيما يوحيه، بل يفعل ما يأمره الله تعالى به ولا يستطيع أن يعصيه، ولكمال استعداد الأنبياء وعلو أرواحهم يرون الملائكة في صورهم الأصلية قليلا، ويتمثل الملك لهم بصورة البشر أو يلابسهم ملابسة روحية فيلقي في أرواحهم ما شاء الله أن يلقيه وهو الأكثر، وهذا النوع قد ختم وتم ببعثة محمد خاتم النبيين، عليه أفضل الصلاة والتسليم، وما هو من شؤون البشر الكسبية، فيبقى ببقائهم.

ب. الثاني: ما يمنحه الله تعالى من التثبيت في الحق والإلهام لمن دون الأنبياء من خيار خلقه الذين سلمت فطرتهم، وصفت سريرتهم، وزكت بالعمل الصالح أنفسهم، حتى غلبت فيها الصفات الملكية، على النزعات الحيوانية والنزغات الشيطانية، فالأرواح البشرية العالية، قد تقوى المناسبة بينها وبين الملائكة فتستفيد من أرواح الملائكة قوة في الخير والحق وثباتا على الصلاح والإصلاح، ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمنوا﴾ [الأنفال: ١٢] وقد تستفيد منها علما بالحق وبشارة بالخير، وهو ما يسمى التحديث والإلهام، ومنه بشارة الملائكة لمريم بعيسى عليه السلام وتمثل جبريل لها عندما أراد الله أن تحمل بنفخه فيها، وقد ثبت في الحديث الصحيح أن عمر بن الخطاب كان من المحدثين، وقد عبر عن ملك الإلهام بأنه (واعظ الله في قلب كل مؤمن) في حديث النواس بن سمعان عند أحمد والترمذي، ويوضحه حديث ابن مسعود (إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله تعالى فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان) رواه الترمذي والنسائي وابن حبان، وعلم عليه في الجامع الصغير بالصحة.

١٥. وقد أطال الغزالي في إيضاح هذا المطلب في كتاب شرح عجائب القلب من الإحياء، وتقدم في تفسير سورة البقرة من الجزء الأول بحث فيه، والماديون المحجوبون ينكرون مثل هذا (ومن جهل شيئا

عاداه) ولو قيل لمن كان على شاكلتهم قبل اكتشاف هذه الجنة (الميكروبات) أن في العالم أنواعا كثيرة من المخلوقات الخفية التي لا يمكن أن يراها أحد بعينيه هي سبب الأدواء والأمراض التي لا تحصى، وهي سبب التغيرات والاختمارات التي نراها في المائعات والفواكه وغيرها ـ لقالوا إنما هذه خرافة من الخرافات، وقد كان غير المسلمين يعدون من هذا القبيل حديث أبي موسى (الطاعون وخز أعدائكم من الجن وهو لكم شهادة) رواه الحاكم وصححه، ثم صاروا بعد اكتشاف باشلس الطاعون يتعجبون منه بصدق كلمة الجن على ميكروب الطاعون كغيره، وقد ورد أن الجن أنواع منها ما هو من الحشرات وخشاش الأرض.

١٦. وقد بين محمد عبده النوع الأول في رسالة التوحيد أكمل بيان، وبأوضح برهان، واختصر في بيان النوع الثاني فقال: (أما أرباب النفوس العالية والعقول السامية من العرفاء، ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء، فكثير منهم نال حظه من الإنس، بما يقارب تلك الحال في النوع أو الجنس، لهم مشارفة في بعض أحوالهم على شيء من عالم الغيب ولهم مشاهد صحيحة في عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقيق حقائقها في الواقع، فهم لذلك لا يستبعدون شيئا مما يحدث به عن الأنبياء صلوات الله عليهم، ومن ذاق عرف، ومن حرم انحرف، ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه ظهور الأثر الصالح منهم وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم، وطهارة فطرهم مما ينكره العقل الصحيح، أو يمحه الذوق السليم، واندفاعهم بباعث من الحق الناطق في سرائرهم، المتلألئ في بصائرهم، إلى دعوة من يحف بهم إلى ما فيه خير العامة، وترويح قلوب الخاصة، ولا يخلو العالم من متشبهين بهم، ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم، ويسوء مآلهم، ومآل من غرروا به، ولا يكون لهم إلا سوء الأثر في تضليل العقول وفساد الأخلاق وانحطاط شأن القوم الذين رزؤا بهم، إلا أن يتداركهم الله بلطفه، فتكون كلمتهم الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فلم يبق بين المنكرين لأحوال الأنبياء ومشاهدهم وبين الإقرار بإمكان ما أنبؤوا به بل وبوقوعه إلا حجاب من العادة، وكثيرا ما حجب العقول حتى عن إدراك أمور معتادة)

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١ . ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ كان لكفار مكة اقتراحان تقدموا بهما إلى النبي ﷺ في مواطن مختلفة: أن ينزل على الرسول ملك من السماء يكون معه نذيرا يرونه ويسمعون كلامه، وإلى هذا تشير الآية، وينزل الملك عليهم بالرسالة من ربهم، والاقتراح الأول مبنى على اعتقاد أن أرقى البشر عقلا وأخلاقا وآدابا وهم الرسل عليهم السلام ليسوا بأهل لأن يكونوا رسلا بين الله وبين عباده، لأنهم بشر يأكلون ويشربون كما جاء في سورة المؤمنون ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾:

٢ . وقد رد الله تعالى الاقتراحين من وجهين:

أ . ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمر ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ أي ولو أنزلنا ملكا كما اقترحوا لقضى الأمر بإهلاكهم ثم لا يؤخرون ولا يمهلون ليؤمنوا، بل يأخذهم العذاب عاجلا كما مضت به سنة الله فيمن قبلهم، قال ابن عباس: ولو أتاهم ملك في صورته لأهلكناهم ثم لا يؤخرون.

ب . ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ أي ولو جعل الرسول ملكا لجعل متمثلا في صورة بشر ليمكنهم رؤيته وسماع كلامه الذي يبلّغه عن ربه، ولو جعله ملكا في صورة بشر لاعتقدوا أنه بشر لأنهم لا يدركون منه إلا صورته وصفاته البشرية التي تمثّل بها، وحينئذ يقعون في نفس اللبس والاشتباه الذي يلبسون على أنفسهم باستنكار جعل الرسول بشرا، ولا ينفكون يقترحون جعله ملكا وهم قد كانوا في غنى عن ذلك، وهذا شأن كثير من الناس يوقعون أنفسهم في المشكلات بسوء صنيعهم ثم يحارون في المخلص منها.

٣ . في تفسير قضاء الأمر عدة وجوه:

أ . أن سنة الله قد جرت بأن أقوام الرسل إذا اقترحوا آية ثم لم يؤمنوا بها يعذبهم الله عذاب الاستئصال، والله لا يريد أن يستأصل هذه الأمة التي بعث فيها خاتم رسله نبي الرحمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا

(١) تفسير المراغي ٧/٨١.

رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾

ب. أنهم لو شاهدوا الملك بصورته الأصلية لزهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون.

ج. أن رؤية الملك بصورته آية ملجئة يزول بها الاختيار الذي هو قاعدة التكليف.

د. أنهم اقترحوا ما لا يتوقف عليه الإيمان فلو أعطوه ولم يجد ذلك معهم نفعا دل ذلك على منتهى العناد الذي يستدعى الإهلاك وعدم النظرة.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. يحكي الله تعالى نموذجا من اقتراحات المشركين، التي يمليها التمحل والعناد، كما يمليها الجهل وسوء التصور.. ذلك إذ يقترحون أن ينزل الله سبحانه على الرسول ﷺ ملكا يصاحبه في تبليغ الدعوة؛ ويصدقه في أنه مرسل من عند الله.. ثم يبين لهم ما في هذا الاقتراح من جهل بطبيعة الملائكة، وبسنة الله في إرسالهم، كما يبين لهم رحمة الله بهم في أن لا يستجيب لهم فيما يقترحون: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمر ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾،

٢. وهذا الاقتراح الذي كان المشركون يقترحونه؛ والذي اقترحه من قبلهم أقوام كثيرون على رسلهم ـ كما يحكي القرآن الكريم في قصصهم ـ والرد القرآني عليه في هذا الموضع.. هذا وذاك يثيران جملة حقائق نلم بها هنا بقدر الإمكان:

أ. الأولى: أن أولئك المشركين من العرب لم يكونوا يجحدون الله؛ ولكنهم كانوا يريدون برهانا على أن الرسول ﷺ مرسل من عنده؛ وأن هذا الكتاب الذي يتلوه عليهم منزل من عند الله حقا، ويقترحون برهانا معينا: هو أن ينزل الله عليه ملكا يصاحبه في الدعوة ويصدق دعواه:

• ولم يكن هذا إلا اقتراحا من اقتراحات كثيرة من مثله ورد ذكرها في القرآن في مواضع منه شتى، وذلك كالذي ورد في سورة الإسراء، وهو يتضمن هذا الاقتراح، واقتراحات من نوعه تدل كلها على التعنت الذي وصفته الآية السابقة، كما تدل على الجهل بكثير من الحقائق الكونية وكثير من القيم الحقيقية:

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/١٠٤٠.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إلا كُفُورًا وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أو تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أو تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أو تَأْتِيَ بِالله وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا أو يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أو تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إلا بَشَرًا رَسُولًا وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إلا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولًا قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٨٩ ـ ٩٥]

• ومن مثل هذه الاقتراحات يتبين التعنت كما تتبين الجهالة.. وإلا فقد كان لهم من خلق رسول الله ﷺ الذي يعرفونه جيدا بالخبرة الطويلة؛ ما يدلهم على صدقه وأمانته وهم كانوا يلقبونه الأمين، ويودعون لديه أماناتهم حتى وهم معه على أشد الخلاف؛ وقد هاجر ﷺ وترك ابن عمه عليا يرد إلى قريش ودائعهم التي كانت ما تزال عنده؛ وهم معه على الخلاف الذي يدبرون معه قتله! وكذلك كان صدقه عندهم مستيقنا كأمانته؛ فإنه لما دعاهم أول مرة دعوة جماعية جهرية على الصفا ـ حين أمره ربه بذلك ـ وسألهم: إن كانوا يصدقونه لو أنبأهم بنبإ، أجابوه كلهم بأنه عندهم مصدق.. فلو كانوا يريدون أن يعلموا صدقه لقد كان لهم في ماضيه برهان، ولقد كانوا يعلمون: إنه لصادق.

• وسيأتي في سياق السورة خبر الله الصادق لنبيه: أنهم لا يكذبونه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ﴾، فهي الرغبة في الإنكار والإعراض؛ وهو العناد والاستكبار عن الحق، وليس أنهم يشكون في صدقه ﷺ! ثم لقد كان لهم في القرآن ذاته برهان أصدق من هذه البراهين المادية التي يطلبون، فإن هذا القرآن شاهد بذاته، بتعبيره ثم بمحتوى هذا التعبير، على أنه من عند الله.. وهم لم يكونوا يجحدون الله.. وهم ـ على وجه التأكيد ـ كانوا يحسون ذلك ويعرفونه.. كانوا يعرفون بحسهم اللغوي الأدبي الفني مدى الطاقة البشرية؛ ويعرفون أن هذا القرآن فوق هذا المدى ـ وهذا الإحساس يعرفه من يمارس فن القول ويتذوقه أكثر مما يعرفه من ليست له هذه الممارسة، وكل من مارس فن القول يدرك إدراكا واضحا أن هذا القرآن فوق ما يملك البشر أن يبلغوا؛ لا ينكر هذا إلا معاند يجد الحق في نفسه ثم يخفيه!

• كما أن المحتوى القرآني من التصور الاعتقادي والمنهج الذي يتخذه لتقرير هذا الاعتقاد في

الإدراك البشري، ونوع المؤثرات واللمسات الموحية.. كلها غير معهود في طبيعة التصورات البشرية والمناهج البشرية، والطرائق البشرية في الأداء النفسي والتعبيري أيضا.. والعرب لم يكن يخفى عليهم الشعور بهذا في قرارة نفوسهم، وأقوالهم ذاتها وأحوالهم تقرر أنهم ما كانوا يشكون في أن هذا القرآن من عند الله.. وهكذا يبدو أن هذه الاقتراحات لم تكن طلبا للبرهان؛ إنما كانت وسيلة من وسائل الإعنات؛ وأسلوبا من أساليب التعنت؛ وخطة للمماحكة والمعاندة؛ وأنهم كانوا كما قال الله سبحانه عنهم في الآية السابقة: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾!

ب. الثانية: أن العرب كانوا يعرفون الملائكة؛ وكانوا يطلبون أن ينزل الله على رسوله ملكا يدعو معه ويصدقه.. ولكنهم لم يكونوا يعرفون طبيعة هذا الخلق التي لا يعلمها إلا الله؛ وكانوا يخبطون في التيه بلا دليل في تصور هذا الخلق؛ وفي نوع علاقته بربه؛ ونوع علاقته بالأرض وأهلها:

• وقد حكى القرآن الكريم كثيرا من ضلالات العرب وأساطير الوثنية حول الملائكة؛ وصححها كلها لهم ليستقيم تصور من يهتدي بهذا الدين منهم؛ وتصح معرفتهم لهذا الكون وما يعمره من خلائق، وكان الإسلام ـ من هذا الجانب ـ منهجا لتقويم العقل والشعور، كما كان منهجا لتقويم القلب والضمير، ومنهجا لتقويم الأوضاع والأحوال سواء.. وحكى القرآن الكريم من أضاليل العرب ومن جهالاتهم في جاهليتهم، أنهم كانوا يظنون أن الملائكة بنات الله! سبحانه وتعالى عما يصفون! وأنهم ـ من ثم ـ لهم شفاعة عند الله لا ترد!

• والراجح أن بعض كبار الأصنام كانت رموزا للملائكة! كما حكى قولهم هذا في طلبهم أن ينزل الله على رسوله ملكا ليصدقه في دعواه.. وقد صحح لهم القرآن ضلالتهم الأولى في مواضع منه شتى، كالذي جاء في سورة النجم: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأخرى أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى إِنْ هِيَ إلا أسماء سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أنزل اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إلا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إلا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾

• كما صحح لهم ضلالتهم الثانية: في تصورهم لطبيعة الملائكة في هاتين الآيتين في هذه السورة وفي

مواضع أخرى كثيرة، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمر ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ وهذا جانب من التعريف بهذا الخلق من عباد الله.. إنهم يقترحون أن ينزل الله ملكا، ولكن سنة الله أن ينزل الملائكة - حين ينزلون إلى الأرض على قوم كذبوا برسولهم - أن ينزلوا للتدمير عليهم، وتحقيق أمر الله فيهم بالهلاك والدمار، ولو أن الله استجاب للمشركين من العرب فأنزل ملكا، لقضي الأمر، وتم التدمير، ولم ينظروا إلى مهلة بعد هذا التنزيل! فهل هذا ما يريدون وما يقترحون؟ وهلا يستشعرون رحمة الله في عدم إجابتهم لما يقترحون لأنفسهم من الهلاك المبين!؟. هكذا يقفهم السياق وجها لوجه أمام رحمة الله بهم وحلمه عليهم؛ وأمام جهلهم بمصلحة أنفسهم، وجهلهم بسنة الله في تنزيل الملائكة.. وهم بهذا الجهل الذي يكاد يدمر عليهم حياتهم، يرفضون الهدى ويرفضون الرحمة ويتعنتون في طلب الدليل!

• والجانب الثاني من التعريف بهذا الخلق من عباد الله تتضمنه الآية الثانية: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾، إنهم يقترحون أن ينزل الله سبحانه ملكا على رسوله ﷺ يصدقه في دعواه.. ولكن الملائكة خلق آخر غير الخلق الإنساني، خلق ذو طبيعة خاصة يعلمها الله، وهم - كما يقول الله عنهم، ونحن لا علم لنا بهم إلا مما يقوله عنهم الذي خلقهم - لا يستطيعون أن يمشوا في الأرض بهيئتهم التي خلقهم الله عليها؛ لأنهم ليسوا من سكان هذا الكوكب؛ ولكن لهم - مع ذلك - من الخصائص ما يجعلهم يتخذون هيئة البشر حين يؤدون وظيفة من وظائفهم في حياة البشر؛ كتبليغ الرسالة؛ أو التدمير على من يريد الله أن يدمر عليهم من المكذبين؛ أو تثبيت المؤمنين، أو قتال أعدائهم وقتلهم.. إلى آخر الوظائف التي يقص القرآن الكريم أنهم يكلفون بها من ربهم، فلا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

• فلو شاء الله أن يرسل ملكا يصدق رسوله، لتبدى للناس في صورة رجل - لا في صورته الملائكية - وعندئذ يلتبس عليهم الأمر مرة أخرى! وإذا كانوا يلبسون على أنفسهم الحقيقة ومحمد ﷺ يقول لهم: أنا محمد الذي تعرفونه أرسلني الله إليكم لأنذركم وأبشركم.. فكيف يكون اللبس إذا جاءهم ملك - في صورة رجل لا يعرفونه - يقول لهم: أنا ملك أرسلني الله لأصدق رسوله.. بينما هم يرونه رجلا كأي منهم!؟ إنهم يلبسون الحقيقة البسيطة، فلو أرسل الله ملكا لجعله رجلا وللبس عليهم الحقيقة التي يلبسونها؛ ولما اهتدوا قط إلى يقين! وهكذا يكشف الله سبحانه جهلهم بطبيعة خلائقه، كما كشف لهم جهلهم في معرفة سنته..

وذلك بالإضافة إلى كشف تعنتهم وعنادهم بلا مبرر، وبلا معرفة، وبلا دليل!

ج. الحقيقة الثالثة التي يثيرها النص القرآني في الفكر: هي طبيعة التصور الإسلامي ومقومات هذا التصور ـ ومن بينها تلك العوالم الظاهرة والمغيبة التي علم الإسلام المسلم أن يدركها أولا، وأن يتعامل معها أخيرا ـ ومن بين تلك العوالم المغيبة عالم الملائكة.. وقد جعل الإسلام الإيمان بها مقوما من مقومات الإيمان لا يتم الإيمان إلا به.. الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.. وقد سبق أن ذكرنا في هذه الظلال ونحن نتحدث عن مطلع سورة البقرة: ما ملخصه أن الإيمان بالغيب نقلة في حياة الإنسان ضخمة؛ لأن خروجه من دائرة المحسوس الضيقة إلى إدراك أن هناك غيبا مجهولا يمكن وجوده ويمكن تصوره، هو ـ بلا شك ـ نقلة من دائرة الحس الحيواني إلى مجال الإدراك الإنساني، وأن إغلاق هذا المجال دون الإدراك الإنساني نكسة به إلى الوراء؛ وهو ما تحاوله المذاهب المادية الحسية؛ وتدعوه (تقدمية)! وسنتحدث ـ إن شاء الله ـ بشيء من التفصيل عن (الغيب) عندما نواجه في هذه السورة قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إلا هُوَ﴾، فنقصر الحديث هنا عن الملائكة، من عالم الغيب.

٣. لقد تضمن التصور الإسلامي عن عالم الغيب، أن هناك خلقا من عباد الله اسمهم الملائكة، وأخبرنا القرآن الكريم عن قدر من صفاتهم، يكفي لهذا التصور، ويكفي للتعامل معهم في حدوده:

أ. فهم خلق من خلق الله، يدين لله بالعبودية، وبالطاعة المطلقة؛ وهم قريبون من الله ـ لا ندري كيف ولا ندري نوع القرب على وجه التحديد ـ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إلا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾، ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾

ب. وهم يحملون عرش الرحمن، ويحفون به يوم القيامة كذلك ـ لا ندري كيف فليس لنا من علم إلا بقدر ما كشف الله لنا من هذا الغيب ـ: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وهم خزنة الجنة وخزنة النار، يستقبلون أهل الجنة بالسلام والدعاء، ويستقبلون أهل النار بالتأنيب والوعيد: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ

خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾، ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إلا مَلَائِكَةً﴾،

ج. وهم يتعاملون مع أهل الأرض في صور شتى:

• فهم يقومون عليهم حفظة بأمر الله؛ يتابعونهم ويسجلون عليهم كل ما يصدر عنهم؛ ويتوفونهم إذا جاء أجلهم: {وَهُوَالْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ ويُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وهُمْ لا يُفَرِّطُونَ}، ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾، ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾،

• وهم يبلغون الوحي إلى الرسل ﷺم.. وقد أعلمنا الله سبحانه أن جبريل عليه السلام هو الذي يقوم منهم بهذه الوظيفة: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إلا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾، ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فإنه نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ﴾، ووصفه سبحانه بأنه ذو مرة (أي قوة) وأن رسول الله ﷺ رآه على هيئته الملائكية مرتين اثنتين، بينما جاءه في صور شتى في مرات الوحي التالية: {وَالنَّجْمِ إِذا هَوى ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وما غَوى وما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى إِنْ هُوَ إلا وَحْيٌ يُوحى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى وهُوَبِالْأُفُقِ الْأَعْلى ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى فكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أو أَدْنى فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى أَفَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى ولَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخرى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهي عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى ما زاغَ الْبَصَرُ وما طَغى لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى}..

• وهم يتنزلون على المؤمنين بالتثبيت والمدد والتأييد في معركتهم الكبرى مع الباطل والطاغوت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ إلا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾، ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إلا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إلا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمنوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ

كُلَّ بَنَانٍ﴾

• وهم مشغولون بأمر المؤمنين، يسبحون ربهم، ويستغفرون للذين آمنوا من ذنوبهم، ويدعون ربهم لهم دعاء المحب المشفق المشغول بشأن من يحب: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

• وهم كذلك يبشرون المؤمنين بالجنة عند قبض أرواحهم، ويستقبلونهم بالبشرى في الآخرة ويسلمون عليهم في الجنة: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾،

• وهم يستقبلون الكافرين في جهنم بالتأنيب والوعيد - كما سبق - ويقاتلونهم في معارك الحق كذلك، وكذلك هم يستلون أرواحهم في تعذيب وتأنيب ومهانة: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾،

• ولقد كان لهم شأن مع البشر منذ نشأة أبيهم آدم، كما أن هذه الصلة امتدت في طول الحياة وعرضها حتى مجال الحياة الباقية على النحو الذي أشرنا إليه في المقتطفات القرآنية السابقة، وشأن الملائكة مع النشأة الإنسانية يرد في مواضع شتى، كالذي جاء في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إلا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾،

٤. فهذا المجال الفسيح الذي تتصل فيه حياة البشر بهذا الملأ الأعلى، هو فسحة في التصور، وفسحة في إدراك حقائق هذا الوجود، وفسحة في الشعور، وفسحة في الحركة النفسية والفكرية، يتيحها التصور الإسلامي للمسلم؛ والقرآن يعرض عليه هذا المجال الفسيح، وعالم الغيب المتصل بما هو فيه من عالم الشهود.

٥. والذين يريدون أن يغلقوا على (الإنسان) هذا المجال.. ومجال عالم الغيب كله.. إنما يريدون به أقبح الشر.. يريدون أن يغلقوا عالمه على مدى الحس القريب المحدود؛ ويريدون بذلك أن يزجوا به في عالم البهائم؛ وقد كرمه الله بقوة التصور؛ التي يملك بها أن يدرك ما لا تدركه البهائم؛ وأن يعيش في بحبوحة من المعرفة، وبحبوحة من الشعور! وأن ينطلق بعقله وقلبه إلى مثل هذا العالم؛ وأن يتطهر وهو يرف بكيانه كله في مثل هذا النور! والعرب في جاهليتهم ـ على كل ما في هذه الجاهلية من خطأ في التصور ـ كانوا (من هذا الجانب) أرقى من أهل الجاهلية (العلمية!) الحديثة؛ الذين يسخرون من الغيب كله! ويعدون الإيمان بمثل هذه العوالم الغيبية سذاجة غير علمية! ويضعون (الغيبية) في كفة، و(العلمية) في الكفة الأخرى! وسنناقش عند مواجهة قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إلا هُوَ﴾ هذه الدعوى التي لا سند لها من العلم، كما أنه لا سند لها من الدين، أما هنا فنكتفي بكلمة مختصرة عن شأن الملائكة.

٦. سؤال وإشكال: ونسأل: ماذا عند أدعياء العقلية (العلمية)، من علمهم ذاته، يحتم عليهم نفي هذا الخلق المسمى بالملائكة، وإبعاده عن دائرة التصور والتصديق؟ ماذا لديهم من علم يوجب عليهم ذلك؟ والجواب: إن علمهم لا يملك أن ينفي وجود حياة من نوع آخر غير الحياة المعروفة في الأرض في أجرام أخرى، يختلف تركيب جوها وتختلف طبيعتها وظروفها عن جو الأرض وظروفها.. فلماذا يجزمون بنفي هذه العوالم، وهم لا يملكون دليلا واحدا على نفي وجودها؟ إننا لا نحاكمهم إلى عقيدتنا، ولا إلى قول الله سبحانه! إنما نحاكمهم إلى (علمهم) الذي يتخذونه إلها.. فلا نجد إلا أن المكابرة وحدها ـ من غير أي دليل من هذا العلم ـ هي التي تقودهم إلى هذا الإنكار (غير العلمي)! ألمجرد أن هذه العوالم غيب؟ لقد نرى حين نناقش هذه القضية أن الغيب الذي ينكرونه هو الحقيقة الوحيدة التي يجزم هذا (العلم) اليوم بوجودها؛ حتى في عالم الشهادة الذي تلمسه الأيدي وتراه العيون.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١ . ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ هو من مقترحات هؤلاء الكافرين الذين ماتوا على كفرهم.. إنهم يأبون أن يقبلوا إنسانا بشرا يحدّثهم عن الله، ويجيء إليهم بكلماته.. وقد قالها من قبل أهل ثمود، قوم صالح عليه السلام، كما أخبر القرآن الكريم عنهم: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٣ ـ ٢٥] وهذا الذي يلقى به المشركون النبيّ من تحدّ وعناد، باقتراحهم أن يجيء معه ملك من السماء، يزكّيه عندهم ـ هو من بعض ما كانوا يقترحون، مما تمليه أهواؤهم، ويدعوهم إليه ضلالهم.. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أو تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أو تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أو تَأْتِيَ بِالله وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا أو يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أو تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إلا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣]

٢ . وقد ردّ الله سبحانه وتعالى على مقترحهم هذا بقوله: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمر ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ فنزول الملك يعنى أنه آية محسوسة، ظاهرة قاهرة، لا مجال للابتلاء والاختيار فيها، فمن أنكرها فهو منكر لوجوده كله، ظاهرا وباطنا، ومن كان هذا شأنه فقد استحق أن يؤخذ بجريرته، دون مهل لابتلاء أو اختبار بعد هذا.. ومن أجل ذلك، كانت المعجزات الحسيّة التي يحملها الأنبياء إلى أقوامهم، تحمل معها نذر الإهلاك لهم، إذا هم كذبوا بها، كما كان ذلك في عصى موسى، التي كان الغرق جزاء كل من كفر بها، وكناقة صالح، التي هلك بها قومه، ثمود.

٣ . وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ إشارة إلى أن العقاب سيقع بالمكذبين من غير مهل، لو نزل الملك من السماء، كما اقترحوا.. ثم كذبوا! ولكن الله سبحانه وتعالى، لم يستجب لمقترحهم هذا، تكريما للنبيّ الكريم، وتحقيقا لوعده الذي وعده في قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]

٤ . وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ أي لو جعلنا

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/١٣٤.

الرسول المرسل إليهم ملكا ـ كما يقترحون ـ لجعلناه في أعينهم رجلا، أي لأنكروا وجود الملك بينهم، وتعذّر عليهم الحياة معه.. إنهم والملك طبيعتان مختلفتان، لا يقع الانسجام والاطمئنان بينهما، وإلى هذا أشار الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]

٥. فقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ يشير إلى اختلاف الطبيعة البشرية والطبيعة الملكية، وأنه سبحانه وتعالى لو أراد أن يبعث إلى البشر ملكا رسولا إليهم لاقتضت حكمته أن يلبس هذا الملك صورة البشر، حتى يسكن إليه الناس، ويكون بينه وبينهم لقاء وإلف.. فالجنس لا يألف غير جنسه، ولا يسكن إلا إليه.

٦. وقوله تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ أي ولو جاءهم الملك في صورة إنسان، لما ارتفع هذا اللّبس، وهذا الشك والوسواس، ولبقى حالهم مع الملك في صورة إنسان، هو حالهم مع الإنسان، يحمل رسالة من الله رب العالمين، فالقضية بالنسبة لهؤلاء المعاندين، هي هكذا.. يطلبون أن يكون رسول الله إليهم ملكا من ملائكة الرحمن، والملك غير ممكن أن يلقوه على صورته.. بل لا بد أن يكون على صورة إنسان.. والإنسان في نظرهم هو الإنسان.. سواء أكان ملكا تحوّل إلى إنسان أم كان إنسانا أصلا.. وإذن فالمشكلة قائمة عندهم، والشك منعقد عليهم.. لا يؤمنون برسول إنسان، ولن يكون الرسول إلا إنسانا منهم.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ عطف على قوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا﴾، لأن هذا خبر عن تورّكهم وعنادهم، وما قبله بيان لعدم جدوى محاولة ما يقلع عنادهم، فذلك فرض بإنزال كتاب عليهم، من السماء فيه تصديق النبي ﷺ، وهذا حكاية لاقتراح منهم آية يصدّقونه بها، وفي سيرة ابن إسحاق أنّ هذا القول واقع.

(١) التحرير والتنوير: ٦/٢٥.

٢. فقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أي لو لا أنزل عليه ملك نشاهده ويخبرنا بصدقه، لأن ذلك هو الذي يتطلّبه المعاند، أمّا نزول الملك الذي لا يرونه فهو أمر واقع، وفسّره قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَوْلَا أنزل إليه مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ في سورة الفرقان، والضمير عائد إلى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وإن كان قاله بعضهم، لأن الجميع قائلون بقوله: وموافقون عليه.

٣. و﴿لَوْلَا﴾ للتحضيض بمعنى (هلا)، والتحضيض مستعمل في التعجيز على حسب اعتقادهم، وضمير ﴿عَلَيْهِ﴾ للنبي ﷺ، ومعاد الضمير معلوم من المقام، لأنّه إذا جاء في الكلام ضمير غائب لم يتقدّم له معاد وكان بين ظهرانيهم من هو صاحب خبر أو قصة يتحدّث الناس بها تعيّن أنّه المراد من الضمير، ومنه قول النبي ﷺ لعمر بن الخطاب حين استأذنه في قتل ابن صيّاد: (إن يكنه فلن تسلّط عليه وإلا يكنه فلا خير لك في قتلة)، يريد من أمائر الغيبة الثلاثة الأولى: الدجّال لأن الناس كانوا يتحدّثون أنّ ابن صيّاد هو الدجّال، ومثل الضمير اسم الإشارة إذا لم يذكر في الكلام اسم يشار إليه، كما ورد في حديث أبي ذرّ أنّه قال لأخيه عند بعثة محمد ﷺ: (اذهب فاستعلم لنا علم هذا الرجل)، وفي حديث سؤال القبر (فيقال له (أي للمقبور): ما علمك بهذا الرجل) يعني أنّ هذا قولهم فيما بينهم، أو قولهم للذي أرسلوه إلى النبي أن يسأل الله أن يبعث معه ملكا، وقد افهوه به مرة أخرى فيما حكاه الله عنهم: ﴿وَقَالُوا يَا أيها الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فإن (لو ما) أخت (لو لا) في إفادة التحضيض.

٤. ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمر ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ معناه: لو أنزلنا ملكا على الصفة التي اقترحوها يكلّمهم لقضي الأمر، أي أمرهم؛ فاللام عوض عن المضاف إليه بقرينة السياق، أي لقضي أمر عذابهم الذي يتهدّدهم به.

٥. ومعنى: ﴿لَقُضِيَ﴾ تمّ، كما دلّ عليه قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾؛ ذلك أنّه لا تنزل ملائكة غير الذين سخّرهم الله للأمور المعتادة مثل الحفظة، وملك الموت، والملك الذي يأتي بالوحي؛ إلا ملائكة تنزل لتأييد الرسل بالنصر على من يكذّبهم، مثل الملائكة التي نزلت لنصر المؤمنين في بدر، ولا تنزل الملائكة بين القوم المغضوب عليهم إلا لإنزال العذاب بهم، كما نزلت الملائكة في قوم لوط، فمشركو مكة لمّا سألوا النبي أن يريهم ملكا معه ظنّوا مقترحهم تعجيزا، فأنبأهم الله تعالى بأنّهم اقترحوا أمرا لو أجيبوا إليه لكان

سببا في مناجزة هلاكهم الذي أمهلهم إليه فيه رحمة منه.

٦. ولعلّ حكمة ذلك أنّ الله فطر الملائكة على الصلابة والغضب للحقّ بدون هوادة، وجعل الفطرة الملكية سريعة لتنفيذ الجزاء على وفق العمل، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إلا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ فلذلك حجزهم الله عن الاتّصال بغير العباد المكرّمين الذين شابهت نفوسهم الإنسانية النفوس الملكية، ولذلك حجبهم الله عن النزول إلى الأرض إلا في أحوال خاصّة، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إلا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ وكما قال: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إلا بِالْحَقِّ﴾ فلو أنّ الله أرسل ملائكة في الوسط البشري لما أمهلوا أهل الضلال والفساد ولما جزوهم جزاء العذاب، ألا ترى أنّ الملائكة الذين أرسلهم الله لقوم لوط لّما لقوا لوطا قالوا: ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ ولّما جادلهم إبراهيم في قوم لوط بعد أن بشّروه واستأنس بهم قالوا ﴿يَا إبراهيم أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وهو نزول الملائكة؛ فليس للملائكة تصرف في غير ما وجّهوا إليه، فمعنى الآية أنّ ما اقترحوه لو وقع لكان سيئ المغبّة عليهم من حيث لا يشعرون.

٧. وليس المراد أنّ سبب عدم إنزال الملك رحمة بهم بل لأن الله ما كان ليظهر آياته عن اقتراح الضالين، إذ ليس الرسول ﷺ بصدد التصدّي لرام كلّ من عرضت عليه الدعوة أن تظهر له آية حسب مقترحه فيصير الرسول ﷺ مضيّعا مدّة الإرشاد وتلتفّ عليه الناس التفافهم على المشعوذين، وذلك ينافي حرمة النبوة، ولكن الآيات تأتي عن محض اختيار من الله تعالى دون مسألة، وإنما أجاب الله اقتراح الحواريّين إنزال المائدة لأنّهم كانوا قوما صالحين، وما أرادوا إلا خيرا، ولكنّ الله أنبأهم أنّ إجابتهم لذلك لحكمة أخرى وهي تستتبع نفعا لهم من حيث لا يشعرون، فكانوا أحرياء بأن يشكروا نعمة الله عليهم فيما فيه استبقاء لهم لو كانوا موفّقين، وسيأتي عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾ زيادة بيان لهذا.

٨. ومن المفسّرين من فسّر ﴿لَقُضِيَ الأمر﴾ بمعنى هلاكهم من هول رؤية الملك في صورته الأصلية، وليس هذا بلازم لأنّهم لم يسألوا ذلك، ولا يتوقّف تحقّق ملكيّته عندهم على رؤية صورة خارقة للعادة، بل يكفي أن يروه نازلا من السماء مثلا حتى يصاحب النبي ﷺ حين يدعوهم إلى الإسلام، كما يدلّ عليه قوله الآتي: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾

٩. وقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ عطف على قوله: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمر﴾ فهو جواب ثان عن مقترحهم، فيه ارتقاء في الجواب، وذلك أنّ مقترحهم يستلزم الاستغناء عن بعثة رسول من البشر لأنّه إذا كانت دعوة الرسول البشري غير مقبولة عندهم إلا إذا قارنه ملك يكون معه نذيرا كما قالوه وحكي عنهم في غير هذه الآية، فقد صار مجيء رسول بشري إليهم غير مجد للاستغناء عنه بالملك الذي يصاحبه، على أنّهم صرّحوا بهذا اللازم فيما حكي عنهم في غير هذه الآية، وهو قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ فجاء هذا الجواب الثاني صالحا لردّ الاقتراحين، ولكنّه روعي في تركيب ألفاظه ما يناسب المعنى الثاني لكلامهم فجيء بفعل جعلنا المقتي تصيير شيء آخر أو تعويضه به، فضمير ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ عائد إلى الرسول الذي عاد إليه ضمير ﴿لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾، أي ولو اكتفينا عن إرسال رسول من نوع البشر وجعلنا الرسول إليهم ملكا لتعيّن أن نصوّر ذلك الملك بصورة رجل، لأنّه لا محيد عن تشكّله بشكل لتمكّن إحاطة أبصارهم به وتحيّزه فإذا تشكّل فإنّما يتشكّل في صورة رجل ليطيقوا رؤيته وخطابه، وحينئذ يلتبس عليهم أمره كما التبس عليهم أمر محمد ﷺ.

١٠. فجملة ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ من تمام الدليل والحجّة عليهم بعدم جدوى إرسال الملك، واللّبس: خلط يعرض في الصفات والمعاني بحيث يعسر تمييز بعضها عن بعض، وقد تقدّم عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ في سورة البقرة، وقد عدّي هنا بحرف (على) لأن المراد لبس فيه غلبة لعقولهم، والمعنى: وللبسنا على عقولهم، فشكّوا في كونه ملكا فكذّبوه، إذ كان دأب عقولهم تطلّب خوارق العادات استدلالا بها على الصدق، وترك إعمال النظر الذي يعرف به صدق الصادق.

١١. ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا يَلْبِسُونَ﴾ مصدرية مجرّدة عن الظرفية، والمعنى على التشبيه، أي وللبسنا عليهم لبسهم الذي وقع لهم حين قالوا: ﴿لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾، أي مثل لبسهم السابق الذي عرض لهم في صدق محمد ﷺ.

١٢. وفي الكلام احتباك لأن كلا اللبسين هو بتقدير الله تعالى، لأنّه حرمهم التوفيق، فالتقدير: وللبسنا عليهم في شأن الملك فيلبسون على أنفسهم في شأنه كما لبسنا عليهم في شأن محمد ﷺ إذ يلبسون على أنفسهم في شأنه، وهذا الكلام كلّه منظور فيه إلى حمل اقتراحهم على ظاهر حاله من إرادتهم الاستدلال، فلذلك أجيبوا عن كلامهم إرخاء للعنان، وإلا فإنّهم ما أرادوا بكلامهم إلا التعجيز

والاستهزاء، ولذلك عقّبه بقوله: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿لَوْلَا﴾ هنا للتخصيص، أي أنها في ظاهرها لحضهم النبي ﷺ على طلب الملك، وجاء بالبناء للمجهول؛ ليكون الطلب لمن أرسل الرسول، وأنهم يعلقون الإجابة على إنزال الملك، والحقيقة أنهم يتعنتون، والنص القرآني يفيد أنه وجد منهم من طلب ذلك فعلا، وأسند القول إلى المشركين؛ لأن التعنت في الصورة الشاملة لهم فما يصدر عن بعضهم تعنتا، إنما يصدر في المعنى عن جمعهم؛ لأن الباعث واحد، فما طلبوا أن ينزل عليه ملك لا يرونه، لأنه كان ينزل عليه جبريل الأمين على قلبه ليكون من المنذرين؛ إنما كان مطلبهم أن يكون مع النبي ﷺ ويخاطبهم بالشهادة له بالتأييد والنصرة فيما يدعو إليه.

٢. وقد رد عليهم خالق الكون بردين يبينان سذاجة تفكيرهم ـ أولا ـ وعنتهم ومعاندتهم للحق ـ ثانيا:

أ. الأول: يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمر ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ والمعنى القريب إلينا، أننا نحن الله العلى القدير القاهر فوق عباده لو أنزلنا ملكا لقضى الأمر أي لانتهى أمر الدعوة، وألزمتهم نتيجتها في الدنيا، ولعوقبوا على تكذيبهم عاجلا، ولا يكون العقاب آجلا في الآخرة، بل يكون في هذه الحياة وترون أثر تكذيبهم، ولا (تنظرون) أي لا تمهلون إلى اليوم الآخر، ولا ينطبق عليكم قول الله تعالى: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف] فقضاء الأمر إنهاء أمر الدعوة بالهلاك، ولكن دعوة محمد جهاد مستمر، لا ينته أمرها بإهلاك المعاندين، كما تحققت دعوة نوح في قومه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح] إنما دعوة محمد ﷺ جهاد بالحق، ومغالبة للباطل، حتى يدفع الباطل بالحق فيدمغه فإذا هو زاهق، وهي صورة باقية واضحة في الجهاد إلى يوم القيامة؛ لأنها شريعة دائمة لدفع الناس بعضهم لبعض، ولولا ذلك لفسدت الأرض، وإذا كانت شريعته هي خاتمة الشرائع تكون للبقاء، فإنها لا تنته بمجرد معاندتها في ابتداء أمرها، وإن الله سبحانه وتعالى قد أهلك ولم ينظر كما فعل مع قوم

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/٢٤٤٣.

عاد وقوم لوط، وقوم شعيب؛ لأن الله تعالى لم يقدر أن يكون منهم مجاهدون مغالبون للباطل إلى يوم القيامة، فجعلهم عبرة المعتبرين.

ب. الثاني: الذى رد به طلبهم المتعنت كان بقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾، إذا كان الرسول يكون معه ملك، فإن المغزى أنهم يريدون أن يكون الرسول ملكا ـ ولو جعل الله بدل الرسول البشري رسولا من الملائكة، لكان الأمر الطبيعي لكى يختلط بهم، ويخاطبهم، ويوجههم أن يجعله سبحانه وتعالى رجلا يكون له مظاهر البشر، ويندمج فيهم ويدعوهم، وحينئذ لا تكون جدوى في اختياره ملكا بدل أن يكون رجلا؛ لأنه سيختلط عليهم، ويقولون كيف يكون رجل هو الذى يدعو، وما يعترضون به على النبي محمد ﷺ هو عين ما يعترضون على ذلك الملك الذى لا يكون في مظهره إلا رجلا كمحمد ﷺ، فمعنى قوله: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم؛ إذ يقولون إذا رأوا الملك في صورة رجل هذا رجل، وليس بملك ونحن نطلب ملكا، وعلى ذلك يكون الدليل على أنه ملك هو القرآن المعجز الذى يتحدى به كما يتحدى به النبي ﷺ فلا جدوى، ولقد قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء]

٣. ونرى أن الرد الأول فيه بيان سنة الله تعالى في هداية خلقه، وأن الشريعة التي يريد الله تعالى لها البقاء لا تنقضي بالإفناء لمن تلقوها وينقضى الأمر، والرد الثاني يثبت أن طلبهم لا نتيجة له، وأنهم ليسوا طلاب حق، بل متعنتون مستهزئون، لا يريدون الحق أو الدليل عليه؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾، لولا بمعنى هلا، والضمير في عليه يعود إلى محمد ﷺ وفي قالوا إلى مشركي قريش، فقد سألوا النبي ﷺ أن يبعث الله معه ملكا يشهد بما يدعيه، ويكون له عونا على تنفيذ رسالته، ونظير هذه الآية ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أنزل إليه

(١) التفسير الكاشف: ١٦٥/٣.

مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾

٢. ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمر ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾، أي لو أن الله أنزل اليهم ملكا لماتوا، ولا يؤخرون طرفة عين.

٣. سؤال وإشكال: أية ملازمة بين إنزال الملك اليهم، وبين هلاكهم عاجلا؟ والجواب:

أ. أجاب بعض المفسرين بأن الناس إذا شاهدوا الملك تزهق أرواحهم من هول ما يشهدون.. ولا يعتمد هذا القول على أساس.

ب. وقال آخرون: لقد سبق في حكمة الله أن يهلك كل من يخالف الملك.. وهذا أسوأ من سابقه، لأن الله سبحانه لم يهلك الذين يخالفونه في هذه الحياة، وليس الملك بأعظم شأنا منه تعالى علوا كبيرا.

ج. والصحيح في الجواب أن وجه الملازمة سر لم يظهره الله لعباده، ولا يدرّك هذا السر بالعقل، فيجب السكوت عما سكت الله عنه.

٤. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾، لو أرسل الله إلى الناس ملكا فلا يخلو: اما أن يبقى على صورته، واما أن يتمثل في صورة البشر.. ومحال أن يبقى على صورته، وفي الوقت نفسه يكون رسولا إلى الناس، لأن طبيعة الملائكة غير طبيعة الإنسان، وتبليغ الرسالة يستدعي المعاشرة والمؤانسة، وهي لا تحصل مع تباين الخلق والطباع.. هذا، إلى أن الملائكة لم يخلقوا للحياة على هذا الكوكب، ولو تمثل الملك على صورة البشر لقالوا له نريد ملكا رسولا، ولا نريده بشرا.. إذن، فالملك بصورته لا يمكن أن يبلغ الرسالة، وبصورة البشر لا يؤمن به مشركو مكة، فتبقى مشكلتهم من غير حل.. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الآية صريحة الدلالة على أن الله سبحانه قد جادل المكذبين بالأسلوب والمنطق الذي يستعمله أهل المعقول لافحام خصومهم.

٥. ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾، أي لو جعل الله الملك في صورة البشر لظن الناس أنه بشر في حقيقته، وعليه يكون الله جل ثناؤه قد موّه في أفعاله، تماما كما يموّه الناس بعضهم على بعض.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. قولهم: ﴿لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ تحضيض للتعجيز، وقد أخبرهم النبي ﷺ بما كان يتلو عليهم من آيات الله النازلة عليه أن الذي جاء به إليه ملك كريم نازل من عند الله كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [كورت: ٢١] إلى غيرها من الآيات.

٢. فسؤالهم إنزال الملك إنما كان لأحد أمرين على ما يحكيه الله عنهم في كلامه:

أ. أحدهما: أن يأتيهم بما يعدهم النبي من العذاب:

• كما قال تعالى: ﴿فإن أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [حم السجدة: ١٣]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إلا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [ص: ٧٠]، ولما كان نزول الملك انقلابا للغيب إلى الشهادة، ولا مرمى بعده استعقب إن لم يؤمنوا ـ ولن يؤمنوا بما استحكم فيهم من قريحة الاستكبار ـ القضاء بينهم بالقسط، ولا محيص حينئذ عن إهلاكهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمر ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾

• على أن نفوس الناس المتوغلين في عالم المادة القاطنين في دار الطبيعة لا تطيق مشاهدة الملائكة لو نزلوا عليهم واختلطوا بهم لكون ظرفهم غير ظرفهم فلو وقع الناس في ظرفهم لم يكن ذلك إلا انتقالا منهم من حضيض المادة إلى ذروة ما وراها وهو الموت كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أنزل عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أو نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢] وهذا هو يوم الموت أو ما هو بعده بدليل قوله بعده: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، وقال تعالى بعده ـ وظاهر السياق أنه يوم آخر ـ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦] ولعلهم إياه كانوا يعنون بقولهم: ﴿أو تَأْتِيَ بِالله وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢]

• وبالجملة فقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمر﴾، جواب عن اقتراحهم نزول الملك

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٨/٧.

ليعذبهم، وعلى هذا ينبغي أن يضم إليه ما وعده الله هذه الأمة أن يؤخر عنهم العذاب كما تشير إليه الآيات من سورة يونس: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إلا مَا شَاءَ اللهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾إلى أن قال: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ أي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣] وفي هذا المعنى آيات أخرى كثيرة سنستوفي البحث عنها في سورة أخرى إن شاء الله.

• فالمتحصل من الآية أنهم يسألون نزول الملك، ولا نجيبهم إلى ما سألوه لأنه لو نزل الملك لقضي بينهم ولم ينظروا وقد شاء الله أن ينظرهم إلى حين فليخوضوا فيما يخوضون حتى يلاقوا يومهم، وسيوافيهم ما سألوه فيقضي الله بينهم.

• ويمكن أن يقرر معنى الآية على نحو آخر وهو أن يكون مرادهم أن ينزل الملك ليكون آية لا ليأتيهم بالعذاب، ويكون المراد من الجواب أنه لو نزل عليهم لم يؤمنوا به لما تمكن فيهم من رذيلة العناد والاستكبار وحينئذ قضي بينهم وهم لا ينظرون، وهم لا يريدون ذلك.

ب. ثانيهما: أن ينزل عليهم الملك ليكون حاملا لأعباء الرسالة داعيا إلى الله مكان النبي ﷺ أو يكون معه رسولا مثله مصدقا لدعوته شاهدا على صدقه كما في قولهم فيما حكى الله: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أنزل إليه مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧] فإنهم يريدون أن الذي هو رسول من جانب الله لا يناسب شأنه أن يشارك الناس في عادياتهم من أكل الطعام واكتساب الرزق بالمشي في الأسواق بل يجب أن يختص بحياة سماوية وعيشة ملكوتية لا يخالطه تعب السعي وشقاء الحياة المادية فيكون على أمر بارز من الدعوة أو ينزل معه ملك سماوي فيكون معه نذيرا فلا يك في حقية دعوته وواقعية رسالته، وهذا هو الذي تجيب عنه الآية التالية: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾

٣. ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ اللبس بالفتح الستر بساتر لما يجب ستره لقبحه أو لحاجته إلى ذلك واللبس بالضم التغطية على الحق، وكأن المعنى استعاري والأصل واحد، قال الراغب في المفردات: (لبس الثوب استتر به وألبسه غيرهاإلى أن قال: وأصل اللبس (بضم اللام) ستر الشيء ويقال ذلك في المعاني يقال: لبست عليه أمره قال: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ وقال: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾، ﴿لِمَ

تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾، ﴿الَّذِينَ آمنوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ و، يقال: في الأمر لبسه أي التباس)

٤. معمول يلبسون محذوف، وربما استفيد من ذلك العموم والتقدير يلبس الكفار على أنفسهم أعم من لبس البعض على نفسه، ولبس البعض على البعض الآخر:

أ. أما لبسهم على غيرهم فكما يلبس علماء السوء الحق بالباطل لجهلة مقلديهم وكما يلبس الطواغيت المتبعون لضعفة أتباعهم الحق بالباطل كقول فرعون فيما حكى الله لقومه: ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أو جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، وقوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إلا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [المؤمن: ٢٩]

ب. وأما لبسهم على أنفسهم فهو بتخييلهم إلى أنفسهم أن الحق باطل وأن الباطل حق ثم تماديهم على الباطل فإن الإنسان وإن كان يميز الحق من الباطل فطرة الله التي فطر الناس عليها، وكان تلهم نفسه فجورها وتقواها غير أن تقويته جانب الهوى وتأييده روح الشهوة والغضب من نفسه تولد في نفسه ملكة الاستكبار عن الحق، والاستعلاء على الحقيقة فتنجذب نفسه إليه، وتغتر بعمله، ولا تدعه يلتفت إلى الحق ويسمع دعوته، وعند ذاك يزين له عمله، ويلبس الحق بالباطل وهو يعلم كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، وهذا هو المصحح لتصوير ضلال الإنسان في أمر مع علمه به فلا يرد عليه أن لبس الإنسان على نفسه الحق بالباطل إقدام منه على الضرر المقطوع وهو غير معقول، على أنا لو تعمقنا في أحوال أنفسنا ثم أخذنا بالنصفة عثرنا على عادات سوء نقضي بمساءتها لكنا لسنا نتركها لرسوخ العادة وليس ذلك إلا من الضلال على علم، ولبس الحق بالباطل على النفس والتلهي باللذة الخيالية والتوله إليها عن التثبت على الحق والعمل به، أعاننا الله تعالى على مرضاته.

٥. وعلى أي حال فقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾، الجواب عن مسألتهم نزول الملك ليكون نذيرا فيؤمنوا به، ومحصله أن الدار دار اختيار لا تتم فيها للإنسان سعادته الحقيقية إلا بسلوكه مسلك الاختيار، واكتسابه لنفسه أو على نفسه ما ينفعه في سعادته أو يضره، وسلوك أي الطريقين رضي

لنفسه أمضى الله سبحانه له ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الدهر: ٣] فإنها هي هداية وإراءة للطريق ليختار ما يختاره لنفسه من التطرق والتمرد من غير أن يضطر إلى شيء من الطريقين ويلجأ إلى سلوكه بل يحرث لنفسه ثم يحصد ما حرث، قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إلا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ [النجم: ٤١] فليس للإنسان إلا مقتضى سعيه فإن كان خيرا أراه الله ذلك وإن كان شرا أمضاه له، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]

٦. وبالجملة هذه الدعوة الإلهية لا يستقيم أمرها إلا أن توضع على الاختيار الإنساني من غير اضطرار وإلجاء، فلا محيص عن أن يكون الرسول الحامل لرسالات الله أحدا من الناس يكلمهم بلسانهم فيختاروا لأنفسهم السعادة بالطاعة أو الشقاء بالمخالفة والمعصية من غير أن يضطرهم الله إلى قبول الدعوة بآية سماوية يلجئهم إليه وإن قدر على ذلك كما قال: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ إلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]

٧. فلو أنزل الله إليهم ملكا رسولا لكان من واجب الحكمة أن يجعله رجلا مثلهم فيربح الرابحون باكتسابهم ويخسر الخاسرون فيلبسوا الحق بالباطل على أنفسهم وعلى أتباعهم كما يلبسون مع الرسول البشري فيمضي الله ذلك ويلبس عليهم كما لبسوا، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، فإنزال الملك رسولا لا يترتب عليه من النفع والأثر أكثر مما يترتب على إرسال الرسول البشري، ويكون حينئذ لغوا فقول الذين كفروا: ﴿لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ ليس إلا سؤالا لأمر لغو لا يترتب عليه بخصوصه أثر خاص جديد كما رجوا، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾

٨. فظهر مما تقدم من التوجيه:

أ. أولا: أن الملازمة بين جعل الرسول ملكا وجعله رجلا إنما هي من جهة إيجاب الحكمة حفظ الاختيار الإنساني في الدعوة الدينية الإلهية إذ لو أنزل الملك على صورته السماوية وبدل الغيب شهادة كان من الإلجاء الذي لا تستقيم معه الدعوة الاختيارية.

ب. وثانيا: أن الذي تدل عليه الآية هو صيرورة الملك رجلا مع السكوت عن كون ذلك هل هو

بقلب ماهية الملكية إلى الماهية الإنسانية ـ الذي ربما يحيله عدة من الباحثين ـ أو بتمثيله مثالا إنسانيا كتمثل الروح لمريم بشرا سويا، وتمثل الملائكة الكرام لإبراهيم ولوط عليه السلام في صورة الضيفين من الآدميين، وجل الآيات الواردة في مورد الملائكة وإن كان يؤيد الثاني من الوجهين لكن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠] لا يخلو عن دلالة ما على الوجه الأول، وللبحث ذيل ينبغي أن يطلب من محل آخر.

ج. وثالثا: أن قوله تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ من قبيل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] فهو إضلال إلهي لهم بعد ما استحبوا الضلال لأنفسهم من غير أن يكون إضلالا ابتدائيا غير لائق بساحة قدسه سبحانه.

د. ورابعا: أن متعلق يلبسون المحذوف أعم يشمل لبسهم على أنفسهم ولبس بعضهم على بعض.

هـ. وخامسا: أن محصل الآية احتجاج عليهم بأنه لو أنزل عليهم ملك بالرسالة لم ينفعهم ذلك في رفع حيرتهم فإن الله جاعل الملك عندئذ رجلا يماثل الرسول البشري وهم لابسون على أنفسهم معه متشككون فإنهم لا يريدون بهذه المسألة إلا أن يتخلصوا من الرسول البشري الذي هو في صورة رجل ليبدلوا بذلك شكهم يقينا وإذا صار الملك على هذا النعت ـ ولا محالة ـ فهم لا ينتفعون بذلك شيئا.

و. وسادسا: أن في التعبير: ﴿لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ ولم يقل: لجعلناه بشرا ليشمل الرجل والمرأة جميعا إشعارا ـ كما قيل ـ بأن الرسول لا يكون إلا رجلا كما أن التعبير لا يخلو من إشعار بأن هذا الجعل إنما هو بتمثل الملك في صورة الإنسان دون انقلاب هويته إلى هوية الإنسان كما قيل.

٩. غالب المفسرين وجهوا الآية بأن المراد: أنهم لما كانوا لا يطيقون رؤية الملك في صورته الأصلية لتوغلهم في عالم المادة فلو أرسل إليهم ملك لم يكن بد من تمثله لهم بشرا سويا، وحينئذ كان يبدو لهم من اللبس والشبهة ما يبدو مع الرسول من البشر ولم ينتفعوا به شيئا، وهذا التوجيه لا يفي باستقامة الجواب، وإن سلمنا أن الإنسان العادي لا تسعه مشاهدة الملائكة في صورهم الأصلية بالاستناد إلى أمثال قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]، وذلك أن شهود الملك في صورته الأصلية لو كان محالا على الإنسان لم يختلف فيه حال الأفراد الإنسانية بالجواز والامتناع، وقد ورد في روايات الفريقين أن النبي ﷺ رأى جبرئيل في صورته الأصلية مرتين، ومن المقدور لله أن يقوي سائر الناس

على ما قوى عليه نبيه فيعاينوهم ويؤمنوا بهم، ولا محذور فيه بحسب الحكمة إلا محذور الإلجاء فهو المحذور الذي يجب أن يدفع بالآية كما تقدم، وكذا مشاهدة الملك في صورة الآدميين لا تلازم جواز الشك واللبس فإن الله سبحانه يخبر عن إبراهيم ولوط عليه السلام أنهما عاينا الملائكة في صورة الآدميين ثم عرفهم ولم يشكا في أمرهم، وكذا أخبر عن مريم أنها شاهدت الروح ثم عرفته ولم تشك فيه ولا التبس عليها أمره فلم لم يكن من الجائز أن يكون حال سائر الناس حالهم عليه السلام في معاينة الملك في صورة الإنسان ثم معرفته واليقين بأمره؟ لولا أن جعل نفوس الناس جميعا كنفس إبراهيم ولوط ومريم يستلزم إمحاء غرائزهم وفطرهم، وتبديلها نفوسا طاهرة قادسة، وفيه محذور الإلجاء، فالإلجاء هو المحذور الذي لا يبقى معه موضوع الامتحان، وهو الذي يجب دفعه بالآية كما تقدم.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمر ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ ﴿لَقُضِيَ الأمر﴾ بينك يا محمد وبين الذين كفروا؛ لأن الرسول أرسل إليهم منذراً لهم ليؤمنوا ويتقوا في حال التكليف وسعة الاختيار غير ملجئين، ولا في حال رؤيتهم للعذاب، وهذا ينتفي بنزول الملك، وتنقلب الحال حال هلاك لا ينفع معها إيمان، ولا بقي معها للإنذار معنى، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأمر بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إلا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ﴾ [الحجر:٨]، فالملك لا ينزل إلا بما تقتضي الحكمة إنزاله به، ولا تقتضي الحكمة إنزاله لأجل اقتراح المتمردين الذين قد جاءتهم الآية البينة وهي القرآن فلم يؤمنوا، ولو نزل الملك ما آمنوا، إنما هم لاعبون متمردون، فلذلك لا تقتضي الحكمة إنزال الملك نذيراً مع محمد ﷺ إنما تقتضي لو أنزله الله أن ينزله بهلاكهم، وبذلك ينقطع وقت الإنذار والدعوة إلى الله، وهذا معنى (قضي الأمر) أي انتهى الإنذار والدعوة إلى الإيمان ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ لأن العذاب يكون قد حضر مع الملك فلا يمهلون.

٢. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): (وما

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/٤١٦.

أحسن جواب الإمام القاسم بن إبراهيم عليهما السلام عن من سأله عن معنى هذه الآية؟ فإنه قال: كانوا يقولون: لولا أنزل عليه ملك فيكون معه شهيداً فيشهد له برسالته بما ينكرون، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمر ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ يقول تبارك وتعالى: ثم لا يتركون ساعة ولا يؤخرون، فما ينفعهم إذا أخذوا إيمانهم بعد رؤيتهم للعذاب وعيانهم، ثم قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا﴾ ما أيقنوه إلا أن يروه رؤية ويعاينوه، وما كانوا ليروه عياناً إلا أن يجعله الله مثلهم إنساناً في الصورة والحلية وما للرجال من الهيئة لا في جميع حدود البشرية ولكنه في الرؤية والمنظر، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ يقول سبحانه ولو فعلنا ذلك به فجعلناه رجلاً كما يعرفون، لزادهم لبساً إلى لبسهم، ولما أيقنوا أنه ملك في أنفسهم ولو نزلنا عليه الملك على حاله لما كان أحد منهم معايناً له ولا مدركاً)

٣. والحاصل: أن الملك إن جاءهم على صفته الأصلية لم يروه، وإن كان رجلاً في صورته لم يؤمنوا أنه ملك، وكان الله تعالى قد لبس عليهم كونه ملكاً بجعله رجلاً، وهم لبسوا على أنفسهم ويلبسون عليها بطلب مَلك مع إنكارهم المعجزات، حتى خذلوا وبعدوا عن الإيمان بسبب تعنتهم وتمردهم، والرين على قلوبهم.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. وأثاروا ـ في هذا الاتجاه ـ أن ينزل الله ملكا لأن البشر لا يصلح للرسالة وللوساطة بين الله وبين خلقه، باعتبار أن الرسالة من الغيب الذي لا ينبغي أن يحمله إلا أهل الغيب، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمر ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾

٢. ولكن الله يقول إن الاستجابة لهذا الاقتراح ينهي المهلة التي يمهل الله بها خلقه، فقد جرت سنة الله في الأمم التي تقدم بعض الاقتراحات للرسل، ويستجيب الله لها ذلك، أنها إذا رفضت الإيمان بالنبي وبالرسالة تواجه العذاب.

٣. ثم يعقب الله على ذلك، أنه إذا أرسل ملكا فلا بد من أن يكون في صورة البشر وفي ثيابهم، لأن

(١) من وحي القرآن: ٩/٣٦.

البشر لا يتحملون صورة الملك الحقيقيّة، أو لأن صفة الملك قد تبعد عن الرسول دور القدوة، باعتبار أن قدرة الملك تفوق قدرة البشر: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَا يَلْبِسُونَ﴾

٤. وإذا حصلت الاستجابة لطلبهم فأرسل الله ملكا في صورة بشر، فسيختلط عليهم الأمر لأنهم سوف يتصورونه إنسانا لا ملكا، وسوف يكذبونه انطلاقا من بشريته التي تتنافي مع رساليّته ـ في زعمهم ـ كما لو كان بشرا حقيقيا، وسوف يكذبون دعواه في ملائكته لأنهم لا يتفاعلون مع فكرة تحوّل الملك إلى بشر ـ في الصورة ـ وبذلك يفقدون الوضوح لدى أنفسهم، كما حاولوا أن يلبسوا على الناس الآخرين سلامة الفكرة في شخصية الرسول فأوقعوهم في الحيرة والتخليط عندما أثاروا أمامهم أن البشرية تنافي الرسولية.

٥. نقل المجمع عن الزجاج قوله: كانوا هم يلبسون على ضعفتهم في أمر النبي ﷺ فيقولون إنما هذا بشر مثلكم فقال: لو أنزلنا ملكا فرأوا هم الملك رجلا لكان يلحقهم من اللبس مثل ما لحق صفتهم منهم، أي: فإنما طلبوا حال لبس لا حال بيان وهذا احتجاج عليهم بأن الذي طلبوه لا يزيدهم بيانا، بل يكون الأمر في ذلك على ما هم عليه من الحيرة.

٦. وذكر في تفسير هذه الفقرة وجه آخر وهو أننا لو أنزلنا ملكا لما عرفوه إلا بالتفكر، ولكنهم لا يفكرون فيبقون في اللبس، وقد نسب الله ذلك إلى نفسه لإنزاله الملائكة الذين هم السبب في إثارة اللبس، والله العالم.

٧. وفي الآية إشارة إلى أن هؤلاء الناس يعيشون تحت تأثير اللبس لا الوضوح في مواجهة القضايا، فقد كانوا يلبسون على الناس البسطاء من حولهم باستغلال ضعفهم الفكريّ لإقناعهم بما يريدون من الباطل، وهذا ما نلاحظه في أسلوب فرعون في حديثه عن نفسه وعن موسى عليه السّلام من قوله: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أو جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٤] وربما لبسوا على أنفسهم فخلطوا الأمر عليها، وذلك لتصورهم الأمور على غير حقيقتها بإبراز الحق في صورة الباطل، أو الباطل في صورة الحق، فيبتعدون بالفطرة عن مسارها الصحيح فيخضعون للأوهام والتخييلات التي تصنع حاجزا بين الفطرة وبين حركة الإنسان في الوصول إلى النتائج الإيجابية الطيبة.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. من عوامل الكفر والإنكار الأخرى، روح التحجج والبحث عن المبررات، وعلى الرغم من أنّ لهذه الروح عوامل أخرى، مثل التكبر والأنانية، ولكنّه ينقلب بالتدريج إلى حالة نفسية سلبية، تصبح بدورها عاملا من عوامل عدم التسليم للحق.

٢. ومن جملة الحجج التي احتج بها المشركون على رسول الله ﷺ وأشار إليها القرآن في كثير من آياته ـ ومنها هذه الآية ـ هي أنهم كانوا يقولون: لماذا يقوم رسول الله ﷺ وحده بهذا الأمر العظيم؟ لماذا لا يقوم معه بهذا الأمر أحد من غير جنس البشر، من جنس الملائكة؟ أيمكن لإنسان من جنسنا أنّ يحمل بمفرده هذه الرسالة على عاتقه؟ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾

٣. ولا مجال لهذا التحجج على نبوة رسول الله ﷺ مع كل هذه الدلائل الواضحة والآيات البيّنات، ثمّ إنّ الملك ليس أقدر من الإنسان ولا يملك قابلية لحمل رسالة أكثر من قابلية الإنسان بل أن قابلية الإنسان أكثر بكثير.

٤. يرد القرآن عليهم بجملتين في كل منهما برهان:

أ. الأولى: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمر ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ أي لو نزل ملك لمعاونة رسول الله ﷺ لهلك الكافرون، وسبب ذلك ما مرّ في آيات سابقة، وهو أنّه إذا اتخذت النبوة جانب الشهود والحس، أي إذا تحول الغيب بنزول الملك إلى شهود، بحيث يرى كل شيء عيانا، غدت المرحلة هي المرحلة النهائية في إتمام الحجة، إذ لا يكون ثمّة دليل أوضح منها، وعلى ذلك فإن العصيان في هذه الحالة يستوجب العقاب القاطع، ولكن الله للطفه ورحمته بعباده، ولكي يمنحهم فرصة التأمل والتفكير، لا يفعل ذلك إلا في حالات خاصّة يكون فيها طالب الدليل على أتمّ استعداد، أو في حالات يستحق فيها طالب الدليل الهلاك، أي أنّه ارتكب ما يستوجب معه العقاب الإلهي، في هذه الحالة يحقق له طلبه، ثمّ إذا لم يستسلم صدر أمر هلاكه.

ب. الثّانية: هي أنّ الرّسول الذي يبعثه الله لقيادة الناس وتربيتهم وليكون أسوة لهم، لا بدّ أن

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/٢١٨.

يكون من جنس الناس أنفسهم وعلى شاكلتهم من حيث الصفات والغرائز البشرية، أمّا الملك فلا يظهر لعيون البشر كما أنّه ليس بإمكانه أنّ يكون قدوة عملية لهم، لأنّه لا يدري شيئا عن حاجاتهم وآلامهم ولا عن غرائزهم ومتطلباتها، لذلك فإن قيادته لجنس يختلف عنه كل الاختلاف لا يحقق الهدف.

٥. لذلك فالقرآن في الجواب الثّاني يقول: لو شئنا أن يكون رسولنا ملكا حسبما يريدون، لوجب أن يتصف هذا الملك بصفات الإنسان وأن يظهر في هيئة إنسان: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ الضمير (جعلناه) يمكن أن يعود على الرّسول، أو على من يرسل معه لإعانته على تثبيت النبوة وعلى الاحتمال الثّاني يكون اقتراحهم قد تحقق، وعلى الأول قد تحقق أكثر ممّا طلبوه.

٦. يتّضح ممّا قلنا أنّ جملة ﴿لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ لا تعني: أنّنا سنجعله على هيئة إنسان، كما تصور بعض المفسّرين، بل تعني: أنّنا نجعله على هيئة البشر في الصفات الظاهرية والباطنية، ثمّ يستنتج من ذلك أنّهم ـ في هذه الحالة أيضا ـ كانوا سيعترضون الاعتراض نفسه، وهو: لماذا أوكل الله مهمّة القيادة إلى بشر وأخفى عنّا وجه الحقيقة: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾

٧. (اللبس) بمعنى خلط الأمر وجعله مشتبها بغيره خافيا، و(اللبس) بمعنى ارتداء اللباس، ومن الواضح أنّ الآية تقصد المعنى الأول، أي أنّنا لو أردنا أن نرسل ملكا لوجب أن يكون في صورة الإنسان وسلوكه، وفي هذه الحالة سيعتقدون أنّنا خلطنا الأمر على الناس وأوقعناهم في الاشتباه، ولكانوا يشكلون علينا الإشكالات السابقة، بمثل ما يوقعون الجهلة من الناس في الخطأ والاشتباه ويلبسون وجه الحقيقة عنهم، وعليه فإن نسبة (اللبس) والإخفاء إلى الله إنّما هي من وجهة نظرهم الخاصة.